مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ السَّادِسَ

سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاء مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2023

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس، سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 6 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 3-58-798-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 6 : سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 3-58-798-9948-978
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2475776 بتاريخ 2023/03/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الرَّابِعُ

سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١﴾ [آل عمران 141]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين مظاهر البلاء الممحّصة للمؤمنين، والماحقة للكافرين

بعد أن سلَّاهم في الآية السَّابقة بما حصل لهم من الهزيمة، ناسَب أن يُبيِّن لهم الحِكمةَ مِن هذه الهزيمة[1]، حيث جعل القرح المؤلم الّذي أصاب المؤمنين ذا فائدتين مباشرتين: إحداهما أنّه تمحيصٌ للمؤمنين من أعراض الدّنيا وأدرانها، ومن أهل القلوب الفارغة من الإيمان، والمليئة بزيغ الشّيطان؛ من النّفاق والافتتان؛ فلا تصغي إليهم الآذان، ولا تركن إليهم العقول والأذهان.

وثانيهما أنّه مَحْقٌ لأهل الجحود والكفران، فينقص أوار الكفر، وتتلاشى قوّته وسطوته، وبذلك يصبح القرحُ سبيلًا إلى النّصر، والامتحانُ وسيلةً لتثبيت الإيقان[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾: أي: ليُطهِّر، ويَختبر، ويُنقِّي؛ والتَّمحيصُ: الابتلاءُ والاختبارُ، وأصلُ المَحْص: تخليصُ الشَّيءِ، وتنقيتُه ممَّا فيه من عَيب[3]، وعلى الوجهين - التّطهير والاختبارُ - يفسّر قول الله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في الآية[4]، والتّمحيص: التّنقيص، يقال: مَحَّصَ اللهُ عنك ذنوبك، أي نَقصَها، فسمّى الله ما أصاب المسلمين من بلاء تمحيصًا، لأنّه يُنقص به ذنوبهم، وهو المأثور عن ابن عرفة[5].

(1) السريح، التناسب بين الآيات، دار الحضارة، ط1، 2022م: 1/505.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/424.
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 112، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (محص).
(4) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (التّمحيص).
(5) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/4986.

2) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: الإيمان: الإقرارُ بالشَّيء عن تصديقٍ به، وضِدُّه: الكُفر، يُقال: آمن به إيمانًا: صدَّقه. وأصله الدُّخول في صِدق الأمانة الَّتي ائتمنه اللّه تعالى عليها[1]، وتمحيص الّذين آمنوا: اختبار مدى صدق إيمانهم، لمعرفة من هو صادق الإيمان ممّن في إيمانه لبس، أو في اعتقاده شُبهة، فلا يعروه بلاء حتّى يضطرب إيمانه، ويذهل عن يقينه بربّه، لكنّ المؤمن على الحقيقة، لا تحرّكه العواصف، ولا تزحزحه القواصف.

3) ﴿وَيَمۡحَقَ﴾: يُهلك ويُنقص، وأصل المَحْق: النُّقصانُ، أو نقصانُ الشّيءِ قليلًا قليلًا[2]، ومَحَقَهُ اللّه فانمحق وامتحق: أي ذهبَ خيرُه وبَركته ونقصَ، قال الشّاعر:

يَزْدَادُ حَتَّى إِذَا مَا تَمَّ أَعْقَبَهُ***كَرُّ الْجَدِيدَيْنِ نَقْصًا ثُمَّ يَنْمَحِقُ[3]

وقد استعمل السّياق هذا اللّفظ، لما فيه من قوّة الدّلالة على الإزالة، وما في المحق من تأثير.

قال الأصمعيّ: يقال جاء فلان في ماحقِ الصّيف، أي: في شدّة حرّ[4]، فكلّ ما اشتدّ حتّى أزال وأثّر، فهو ماحق، وقد كان التّمحيص من اللّه محقًا للكافرين.

4) ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: الكُفْرُ: نَقيضُ الإيمانِ، ويأتي الكُفْرُ بمعنى الإِنْكارِ والجُحودِ، فيُقال: كَفَرَ بِالنِعْمَةِ، أيْ: أَنْكَرَها وجَحَدَها. وأَصْلُ الكُفْرِ: السّتْرُ والتّغْطِيَةُ، ومنه سُمِّيَ غَيْرُ المُؤْمِنِ كافِرًا؛ لأنّهُ غَطّى الحَقّ والإيمانَ[5]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ٤٨﴾ [القصص: 48] أي جاحدون. وقوله تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ٩٩﴾ [الإسراء: 99]، قال الأخفش: هو جمع كُفْرٍ، مثل بُرْدٍ وبُرُودٍ[6]، وقد سلّط اللّه المحق على الكافرين، وأصل التّمحيق محو الآثار، وهو الّذي يحصل للكافرين، باستئصال وجودهم المعنويّ، مقابل التّمحيص للمؤمنين الّذي يُطهَّرون به ويثبتون.

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، وتهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أمن).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (محق).
(3) الخليل، كتاب العين: (محق)، والنويري، نهاية الأرب: 1/8، وعزاه لابن بحر.
(4) السّرقسطيّ، الدلائل في غريب الحديث: 2/764.
(5) الأزهري، وتهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كفر).
(6) الرّازي، مختار الصّحاح: (كفر).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قرح الهزيمة الأليمة، تمحيص للمؤمنين، ومحق للكافرين

عبّر سيّاق الآية عن الهزيمة الّتي وقعت في غزوة أُحُد، وقد كانت بمثابة القرح المُؤلم، الّذي محّص اللّه به المؤمنين فطهّر قلوبهم من الكدر، ومحا ما تركته الهزيمة من ضرر، ونقّى المؤمنين من الذّنوب، وأماط عنهم العيوب، وأظهر أهل النّفاق المندسّين في الصّفوف، وأهلك الكافرين، وأزاح ما يمثّلونه من خطر، وأبطل ما لديهم من تأثيروأثر، والآية تشير إلى مسلك الاستفادة من الهزيمة، باعتبارها تمحيصًا لأهل الإيمان، ومحقًا لأهل الضّلالة والكفران، فتكون الهزيمة سبيلًا للنّصر، ومسلكاً لإعلاء كلمة اللّه جلّ في علاه[1].

الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾:

اللّامُ للتّعليلِ، وتكريرُها للمغايرةِ في العلّةِ، على معنى أنّ كلّ واحدٍ منهما يستحقُّ أنْ يكونَ علّةً قائمةً برأسِه؛ لِأنّه في هذهِ الآيةِ في مقامِ ابتداءِ غرضٍ أصليٍّ يتأسَّسُ عليه غرضٌ فرعيٌّ، كالآيةِ الأُولى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ﴾ [آل عمران: 140][2]، وأفادَ التّكريرُ تأكيدَ التّمحيصِ لأهميّتِه، كما أنَّ وقوعَ الفصلِ بينهما بالاعتراضِ زادَهُ حسنًا، ولمّا لمْ تلحقِ اللّامُ الفعلَ ﴿وَيَمۡحَقَ﴾ أشعرَ بأنَّ التّمحيصَ هو الأهمُّ، ولهذا قُدِّمَ.

بلاغةُ المقابلةِ في قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

تمحيصُ المؤمنِ بمحْقِ الكافرِ

يحتملُ العطفُ بواوِ التّشريكِ في الحكمِ أنْ يكونَ على معنى افتراقِ الفعلين، وعلى معنى اجتماعِهما، فأمّا إذا كانَ على الافتراقِ، فالمقابلةُ على معنى أنَّ المداولةَ بينَ المؤمنينَ والكافرينَ إنْ حصلَ فيها الغَلَبةُ للكافرينَ على المؤمنينَ كانَ المرادُ تمحيصَ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1425.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/91.

ذنوبِ المؤمنينَ، وإنْ كانتِ الغَلَبَةُ للمُؤمنينَ على هؤلاءِ الكافرينَ كانَ المرادُ محقَ آثارِ الكافرينَ ومحوَهُم، فقابلَ تمحيصَ المؤمنينَ بمحقِ الكافرين؛ لأنَّ تمحيصَ هؤلاءِ بتصفيةِ ذنوبِهم نظيرُ مَحقِ أُولئكَ بإهلاكِ أنفسِهم، وأمّا إذا كانَ العطفُ على الاجتماعِ، فالمقابلةُ بمعنى اقترانِ حصولِ تصفيةِ ذنوبِ المؤمنينَ بمحقِ الكافرينَ في وقتِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ ومسِّ القرحِ، فيكونُ فَضِيلَةً في جَانِبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَرَزِيَّةً في جَانِبِ الْكَافِرِينَ في الوقتِ نفسِه[1].

التَّكاملُ الدّلالي بينَ كلمتي: ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ و﴿وَيَمْحَقَ﴾:

التَّمحيص للمؤمنين والمحقُّ للكافرين

جاءَ الفعلانِ بصيغةِ المضارع؛ ليدلَّا على استمرارِ وقوعِ فعلِ التَّمحيصِ للمؤمنينِ والمحقِ للكافرينَ وكفرِهم، وكلا التَّعبيرين (التَّمحيص والمَحق) يتضمَّنانِ معنى الإزالة؛ إلَّا أنَّ في الأوَّلِ إزالةَ الآثارِ وإزاحةَ الأوضارِ بتخليصِ المؤمنينَ منها، وفي الثَّاني إزالةَ العَينِ وإهلاكَ النَّفْسِ بالتَّنقيصِ شيئًا فشيئًا، وقدّم المحصَ على المحقِ لأهميّتِه إذْ كانَ نفعًا أخرويًّا[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ﴾، ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

في استعمالِ الفعلينِ (يُمَحِّصَ، يَمْحَقَ) مجازٌ بالاستعارة[3]، إذْ شبّهَ تنقيةَ المؤمنينِ مِنَ الذُّنوبِ بتمحيصِ الذَّهبِ بالنَّار؛ لِتخليصِه ممّا يشوبُه مِنَ العيوبِ والشَّوائِبِ، على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ؛ لِلإشعارِ بأنَّ الذُّنوبَ بمثابةِ العيوبِ والشَّوائبِ الَّتي ينبغي أنْ يُنَقَّى المؤمنُ منها، كما يُنَقَّى المعدنُ الأصيلُ؛ وكفى صفاءً وتنقيةً للمؤمنينَ إذا كانَ اللهُ هو الذي يمحّصُهم.

ومثلُه في نوعِ الاستعارةِ قولُه تعالى ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إذ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/375، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/40، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/104.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/356، والآلوسّي، روح المعاني: 2/284، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/10.
(3) الزمخشري، أساس البلاغة: 2/195 - 196، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/357.

شبّهَ إزالةَ الكافرين شيئًا فشيئًا بمحقِ الشَّيء الماديِّ، ومنه إمحاقُ الهلالِ إذا امّحقَ ضوءُهُ فلم يُرَ، على معنى تناقِصِهم شيئًا فشيئًا إلى أنْ يَهلكوا.

نكتة التعبير بالاسم الموصول وصلتِه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

أفادَ التّعبيرُ بالاسم الموصولِ وصلتِه أنَّ الذُّنوبَ قد تصيبُ مَنْ يفعلُ أفعالَ الإيمانِ، وأنَّ تمحيصَ الذين آمنوا مِنَ الذُّنوبِ مَدحٌ لهمْ وليسَ ذمًّا.

بلاغةُ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار في قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

تسليةُ المؤمنين بـذكـر الاسـم الجليل (الله)

أظهر الاسم الجليل في موضع الإضمار؛ لمناسبة المقام، أي لإحضارِه في ذهنِ السامعِ ابتداءً؛ بطريق الإظهار ليتميّز الاسم الجليل عمّن عداه، فيتقرَّر المعنى، وفيه تسليَةٌ للمؤمنين، ولإظهار تعظيمِ الاسمِ الجليلِ، ولِمزيد الاعتناء بشأنِ التّمحيص[1].

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

كلمة ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في الآية عامٌّ، أُريد به الخصوصُ؛ فالمرادُ بهم هنا طائفةٌ مخصوصة، وهم الذين حارَبوا رسولَ اللّٰه ﷺ؛ لأنَّه تعالى لم يَمْحَقْ كلَّ كافر، بل كثيرٌ منهم باقٍ على كُفره[2].

مناسبة تكثيرِ العلل وترتيبها في الذِكرِ:

ذكر أربعةَ عللٍ، هي قوله تعالى ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ﴾ وعلّة تمحيص المؤمنين ومحق الكافرين؛ لِلإيذان بعظمِ المداولةِ الذي تنشأ منهُ هذهِ العللُ، ولِلإشعارِ بأنَّ المصلحةَ فيما فعلَ ليست بواحدةٍ؛ لِيسلِّيَهم عمَّا جرى عليهم، وليبصرَهم أنَّ العبدَ يسوءُهُ ما يجري عليه من المصائب، ولا يشعرُ أنّ للّٰهِ في ذلك

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 180، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/91.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/375، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/356.

مِنَ المصالح ما هو غافلٌ عنهُ، وقدّم العلل الثلاث الأولى في الذكر باعتبار كونِها على المؤمنين؛ لأنها المحتاجةُ إلى البيان، ولما فيها من نفعٍ أخروي[1].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّمحيص والابتّلاء:

يختلف التَّمحيص عن الابتلاء، في أنَّ الابتلاء هو: اختبارالعبد لإظهار حقيقة أمره، وإخراج خبيئة داخله، ويتضمَّن أمرين: الأوَّل: تعريف حاله والوقوف على ما يخْفى من أمره، والثَّاني: ظهور جودته ورداءته، وقد يُقصد به أحد الأمرين، أو كلاهما؛ لكن لو نسب الابتلاء إلى اللّه؛ فلا يراد منه إلَّا ظهور جودته ورداءته، فإنَّ اللّه يعلم حقيقة أمره[2]، أمَّا التَّمحيص؛ فهو: التَّنقية والتَّخلُّص من العيوب، يقال: محصت الذّهب بالنّار، إذا نقي من شوائبه، فاستعمال القرآن للفظ التّمحيص، دون لفظ الابتلاء، آثر في المعنى المراد من هذا السّياق، إذ يراد به معنى النّقص من الذّنوب، ويراد به التّطهير من العلائق، وفي كليهما فائدة للمؤمنين المحّصين، تدلّ على مقامهم عند اللّه الّذي آثرهم بالتّمحيص، دون سواهم من الكفرة المحوقين.

المحق والسَّحق:

فالمحق ذهاب الخير من الشّيء أو الشّخص، وذهاب بركته ونقصانه، ومحقه يمحقه محقا، أي أبطله ومحاه. وتمحّق الشّئ وامتحق[3]، وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: الْإِمْحَاقُ أَنْ يَهْلِكَ كَمِحَاقِ الْهِلَالِ، لأنّ الهلال بعد أن يصير بدرًا كاملًا، يتناقص حتّى يصير محاقًا ذاويًا رقيقًا[4]، فالمحق هو: تنقيص الشَّيء قليلًا قليلًا، أو يذهب هو بالكلِّيَّة على نحو ما قدَّمنا، والسَّحق هو: تفتيت الشَّيء حتّى يَبْلى، فيقال: سحقه؛ إذا جعله باليًا[5] إذا سحقت الشّيء أسحقه سحقًا، إذا دققته، وأسحق الرّجل إسحاقًا إذا بعد، وقال قوم: بل هذا فعل يتعدّى: أسحقه اللّه إسحاقًا، مثل قولهم: أبعده اللّه إبعادًا[6]، والسّياق في هذه الآية آثر استعمال

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/420، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/91، والآلوسّي، روح المعاني: 2/284.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/91، والآلوسّي، روح المعاني: 2/284.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (محق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (محق).
(5) السَّمين، عمدة الحفّاظ: (محق).
(6) ابن دريد: جمهرة اللّغة: (سحق).

لفظ (يمحق) لا لفظ (يسحق)، لأنّ المراد تصوير بشاعة مصير الكافرين، وأنّ المراد محقهم، بما يحمله اللّفظ من دلالة.

المحق والمحو:

المَحقُ يكون في الأشياء ولا يكون للشَّيء الواحد[1]، وإذهاب الشَّيء إزالته وجعله ذاهبًا؛ أي لا وجود له[2]. وأمَّا الفرق بين المحق والمحو: فالمحق الإذهاب بالكليّة بقوّة وسطوة[3]. والمحو: إزالة الأثر[4]، والمحو لكلّ شيء يذهب أثره. تقول: أنا أمحوه وأمحاه. وطيء تقول: محيته محيًا ومحوًا، وامَّحى الشّيء يمَّحي امِّحاء[5]، ولم يُستعمل المحو، لأنّ القصد ليس إزالة الأثر فقط، بل محقهم بالكليّة.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 486.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/74.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/134.
(4) الرّاغب، المفردات: (طمس).
(5) الخليل، العين: (محو).

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران: 142]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نيل الدّنيا بالاختبار والتّمحيص، ونيل الآخرة بالجهاد والمصابرة

لَمَّا أرشدَ اللّه تعالى المؤمنين في الآياتِ السَّابقة إلى أنَّه لا يَنبغي لهم أن يَضعُفوا أو يَحزنوا، وبَيَّن لهم حِكمةَ ما أصابهم يومَ أُحد، وأنَّه منطبِقٌ على سُنَّته في مداولة الأيَّام بين النّاس، وأنّ أسبابها الموجبة، منها تمحيص أهل الحقِّ بالشَّدائد، بتربيتهم على الصِّفات الّتي تؤهّلهم للسّعادةِ في الدُّنيا، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ سعادةَ الآخِرة، لا تُنالُ إلَّا بالجهادِ والصَّبر[1]، إذْ إنّ سلعة اللّه غالية، وسلعة اللّه هي الجنّة العاليّة، ومَنْ طَلَبَ الحَسْنَاءَ لَمْ يُغْلِهِ المَهْرُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَسِبۡتُمۡ﴾: من الحُسبان بمعنى: الظَّنِّ. ذَكَرَ السَّمين الحلبيُّ أنَّ المشهور في الحسبان أنَّه يرادف الظَّنَّ في أحد وجهيْه، وهو الغالب[2]، وهو المعنى الذي عليه الآية، وقال الرَّاغب: " والحسبان أن يُحكَم لأحد النَّقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله، فيحسبه، ويقاربه الظنُّ، لكنَّ الظنَّ أن يخطر النَّقيضان، فيغلِّب أحدهما على الآخر"[3]، ويقول السّياق: إنّ اعتقاده دخول الجنّة دون تضحية، ودون مغامرة ولا مصابرة، نوع من الغرور، وإيراده لفظ ﴿حَسِبۡتُمۡ﴾ في معرض الاستفهام عن ظنّ ليس بواقع في ذاته، لأنّه لاينال الجنّة من لم يدفع مهرها؛ من نفسه بالجهاد، ومن عزمه بالصّبر، فهو

(1) رضا، تفسير المنار: 4/127.
(2) السَّمين، عمدة الحفّاظ: (حسب).
(3) الرَّاغب: المفردات، ص: 234.

واهِمٌ في ذلك، والّذي سوف يقع هو العكس، وهو أنّ من يجاهد ويصبر ينالها استحقاقا، ويدخلها جزاءً وفاقًا.

2) ﴿أَن تَدۡخُلُواْ﴾: الدُّخول: النُّفُوذُ في الشَّيْءِ، وأَصْلُهُ: الوُلُوجُ، وضِدُّهُ: الخُرُوجُ، وهو ما عليه معنى الآية الكريمة، وَيَأْتِي الدُّخُولُ بِمَعْنَى الابْتِدَاءِ، تَقولُ: دَخَلَ في الأَمْرِ: إذا بَدَأَ وأَخَذَ فيهِ، وَمِنْ مَعانِي الدُّخُولِ في اللُّغَةِ أَيْضًا: الوُرودُ، والاخْتِلاطُ والاقْتِحامُ[1]، ودخول الجنّة مطمح كلّ مؤمن، طائعًا كان أم عاصيًا، وحيث إنّ لفظ الدّخول هو المقصود من كلّ راغب في الجنّة، فقد استعمله السّياق بصورة مباشرة، وبالتّصريح لا بالتّلميح.

3) ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾: البُسْتَانُ، ويُقالُ: هي النَّخل الطِّوالُ، وكُلُّ شَجَرٍ مُتكاثف يَستر بعضه بعضًا فهو جَنَّة، وقِيل: لا تكونُ في كلام العَرب جنَّة إلَّا وفيها نخلٌ وعِنب، وإلَّا فهي حديقةٌ. والجَمْعُ: جَنَّات وجِنَان[2]، الجنّة أهمّ ما ترنو له الأنفس، وتشتاقه الأعين، لما فيه من فسحة وجمال ومتعة، ومن هنا كان الإغراء بها، باعتبارها أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، واللّفظ يوحي بالتفاف أشجارها، وسترها ما وراءها، لتزيد بها المتعة، ويهنأ بها الدّاخل إليها.

4) ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ﴾: العِلْمُ: المَعْرِفَةُ، يُقال: عَلِمْتُ الشَّيْءَ، أَعْلَمُهُ، عِلْمًا، أيْ: عَرَفْتُهُ، وهو ما عليه معنى الآية الكريمة. وضِدُّه: الجَهْلُ. ويأتي العِلْمُ بمعنى الإِتْقانِ والإِحْكام، يُقال: عَلِمَ الأَمْرَ وتَعَلَّمَه، أيْ: أَتْقَنَهُ. ومِن مَعانِيه: الإِدْراكُ والاِعْتِقادُ والتَّصْدِيقُ والظَّنُّ[3]، ومعنى العبارة في السّياق: " أي ولما يقع ذلك منكم فيعلمه، فإنّه لو وقع لعلمه، فجازاكم عليه بالجنّة، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم، لا على مجرّد العلم، فإنّ اللّه لا يجزي العبد على مجرّد علمه فيه، دون أن يقع معلومه"[4].

5) ﴿ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ﴾: الجِهادُ: المُبالَغة واسْتِفْراغ ما في الوُسْع والطّاقة مِنْ قَوْلٍ أو فِعْلٍ، وهو معنى المقصود بالآية الكريمة، يُقال: جاهَدَ يُجاهِدُ: إذا بَذَلَ طاقَتَهُ في تَحْصِيلِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والجوهريّ، الصحاح: (دخَل).
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (جنن).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (علم)، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 155.
(4) المعنى المذكور أفاده ابن قيّم الجوزيّة، ينظر: جمال الدّين القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/420.

شَيْءٍ ما، ويُقال: جَهَدَ الرَّجُلُ، وجاهَدَ في الشَّيْءِ، أيْ: جَدَّ فِيهِ وبالَغَ. مَأْخُوذٌ مِن الـجَهْدِ، وهو الـمَشَقَّةُ، وقيل: المُبالغةُ والغاية. أو مِن الجُهْدِ وهو: الوُسْعُ والطّاقَةُ[1].

6) ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: الصَّبْرُ: الحَبْسُ والكَفُّ في ضِيق، وَمِنْه قيل: فُلانٌ صُبِر، إذا أُمْسِك وحُبِسَ للقَتْلِ، فالصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفْسِ عَن الجَزَعِ، وحَبْسُ اللّسَانِ عَن الشَّكْوَى، وحبْسُ الجوارِحِ عَن التَّشْوِيش. وقال الحَرِيريّ: الصَّبْرُ: أَن لَا يَفْرِقَ بينَ حَالِ النِّعْمَةِ وحالِ المِحْنَةِ، مَعَ سكونِ الخاطِرِ فيهمَا[2]، ومعنى اللّفظ في الآية، أي ليظهر للنّاس صبركم على المشاقّ في أمر دينكم، كما هو معلوم عند اللّه[3]، وبالصّبر تُنَالُ الجنّة، ويوفّى الصّابرون أجرهم بغير حساب.

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

يؤكّدالسّياق في هذه الآية، أنّ ظنّهم دخول الجنّة، دون أن يتبيّن المجاهد الغيور، من المتقاعس المغرور، ويعلم الصّابرالثّابت، من الجازع المتهافت، هو ظنّ باطل، وزعم كاذب، إذ طريق الجنّة محفوف بالمكاره، ولن ينالها أحدٌ إلّا بالشّدائد والقتال، حينما يظهر اللّه بعلمه الأزليّ، أنَّ منكم مجاهدين في سبيله، أشدَّاء على أعدائكم الألدَّاء[4]، وأنّ هناك صابرين على لأواء الحياة، وطوارئ الأزمات.

إنكار على من ظنّ أنّه يدخل الجنّة، دون مجاهدة ولا مصابرة

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة التَّعبير بـ(أم) في قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾:

الجنَّة لا تُدرك بالتمنِّي

(أم) هنا منقطعة بمعنى (بل) الانتقالية، ولمّا كانت (أم) المنقطعة دالةً على أنَّ ما بعدها في حكم المظنون لا المتيقّن، واقترن

(1) ابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جهد).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (صبر).
(3) العاني، بيان المعاني: 5/411.
(4) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 68.

هذا بمجيء الفعل ﴿حَسِبۡتُمۡ﴾ المقرّر للظَّنِّ وكانت همزة الاستفهام للإنكار، أفاد التّعبيرُ بـ (أم) الانتقال من تسلية المؤمنين إلى معاتبتهم على ما وقع منهم من المخالفة في غزوة أحد على سبيلِ الإنكار المؤكَّد على ظنّهم الذي تقرّر في أنفسهم، من أنّهم يدخلون الجنة من غيرِ جهادٍ في سبيلِ اللّه ومن غيرِ صبرٍ عليه، فالاستفهام الإنكاري على معنى النّهي للتبكيت على انتفاء جهادِهم وصبرِهم في الحربِ، وتقدير الكلام بعد الإضراب الانتقالي: لَا تَحْسَبُوا أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمْ يَقَعْ مِنْكُمُ الْجِهَادُ ولا الصبرُ عليه[1].

وأجاز بعض المفسرين أن تكون (أَمْ) هنا متّصلة للمُعادلة، ويكون المعنى: أعلمتم أنَّ للّه تعالى سننًا في النَّصر والهزيمة، وأنَّ الأيّام دُوَل، وأنَّ الوصول إلى السُّنة يحتاج إلى إيمان وجهاد وصبر، أم حسِبتم وظننتم أنَّكم تدخلون الجنَّة من غير مجاهدة واستشهاد؟[2]!.

نكتةُ التَّعبير بـ (لمَّا):

أفاد التّعبيرُ بـ (لمّا) ثلاثة أمور، هي تأكيدُ النّفي وتقريرُه، ونفيُ الجهادِ فيما مضى وفي الحالِ، والإيذانُ بوقوعِه في المستقبل القريب، وفي هذا إشارة إلى أنَّ المخاطبين سيُسارعون في تلافي ما هم فيه من قُصور، ولمّا كانت الواو في قوله (ويعلم الصابرين) على معنى المعيّة أفادت أن ما ذُكِرَ من معنى (لمّا) يجري في الفعلين على معنى اجتماعِهما.

دلالةُ الكناية في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

نفي العِلم في جانب الحق تعالى هو نفي المعلوم

لّما كان اللّه تعالى لا يعزب عن علمه شيء لعموم تعلُّق علمِه بكلِّ المعلومات، كان نفي علمِه سبحانه وتعالى بشيء لازمًا لنفيِ ذلك الشيءِ وجودًا وحقيقةً، فكان نفي علمِه تعالى بمجاهدتهم وصبرهم نفيًا لوجودِهما، مع الإيذان بقرب حصولِهما في

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/420، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/375، وابن يعيش، شرح المفصل: 8/98.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/420، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/359، وأبو السّعود، وإرشاد العقل السليم: 2/91، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/105، وطنطاويّ، التفسير الوسيط: 2/277.

المستقبل، فهي كناية على طريق البرهانِ العقلي[1]، وهذه الكناية اللَّطيفة تنبيهٌ على فضل الله تعالى العَظيم عليهم في أنْ كتب لهم الجهاد في سابق علمه، وأجراه على أيديهم كسبًا لهم وسعيًا.

دلالةُ تكرير الفِعل ﴿يَعۡلَمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

تَكريرُ الفِعل ﴿يَعۡلَمِ﴾ في الآية الكريمة؛ لاختلافِ متعلَّق الفعل[2]، إذ تعلّق في الأوّل بالذين جاهدوا وفي الثاني بالصابرين، كما أفاد التكريرُ تقريرَ نفي كونهم صابرين في الجهاد، لأهميّته وعِظم شأنه.

مناسبة العطف في قوله ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

لمّا جاء الفعل في قولِه ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، منصوبًا كانت الواو بمعنى معَ، والمرادُ طلبُ حصولِ الفعلين معًا على الاجتماعِ لا على الانفراد، بمعنى اقتران الصبر بالجهاد وعدم انفكاكِه عنه، فلا جهادَ من غيرِ صبرٍ مقترنٍ به، والْمُرَادُ أَنَّ دُخُولَ الْجَنَّةِ وَتَرْكَ الْمُصَابَرَةِ عَلَى الْجِهَادِ مِمَّا لَا يَجْتَمِعَانِ ولهذا قدّم الجهادَ على الصبر، ولو قدّمَ الصبرَ على الجهاد في هذا السياق لكان المعنى لا صبرَ من غيرِ جهادٍ مقترنٍ به، وهو خلاف المراد والواقع، ومعنى الآية: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَالْحَالُ أَنَّهُ لَمْ يَتَحَقَّقْ مِنْكُمُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْجِهَادِ وَالصَّبْرِ[3].

مناسبة المخالفة في التّعبير في قوله ﴿جَٰهَدُواْ﴾، ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

عبَّر بالفعلِ ﴿جَٰهَدُواْ﴾ صلة للموصولِ وسيلةً لمدحِ ذواتِهم بالتَّعريضِ بتعظيم شأنِ فعلِ الجهادِ، ولإفادةِ أنَّه ليس على الدوام والثبوت، وعبَّر باسم الفاعلِ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ في مقام الصَّبر؛ إشعارًا بأنَّ الصَّبرَ ينبغي أن يكون وصفًا ثابتًا للمؤمنِ جاهدَ أم لم يُجاهد، كما أنّ فيها رعايةً للفاصلةِ[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/91، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/337.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/381.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 3/887، ورضا، تفسير المنار: 4/129.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/91، والآلوسي: روح المعاني: 2/285.

المتشابه اللَّفظي:

في القرآن الكريم ثلاث آياتٍ موضُوعها واحد، وهو الحثُّ على الجهاد، والصَّبر عند البلاء، بيد أنَّها اختلفت فيما بينها في بعض الألفاظ، وهي على النَّحو الآتي:

الآية الأُولى: قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ [البقرة: 214].

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران: 142].

الآية الثالثة: قوله ﷻ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [التوبة: 16].

ففي آيتي البقرة وآل عمران قال سبحانه: ﴿أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، وفي سورة براءة قال: ﴿أَن تُتۡرَكُواْ﴾، وفي البقرة قال: ﴿وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ﴾، وفي آل عمران وبراءة قال: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾، وفي آل عمران قال: ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾، وفي براءة قال: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ﴾، فما هو وجه الاختلاف اللَّفظي بين هذه الآيات الثَّلاث؟

والجوابُ الإجمالي أن يُقال: مردّ الاختلاف يعود إلى اختلاف المقامِ الذي سيقت فيه الآيات.

وبيانه: أنَّ آية البقرة واردة على ما تقدّمها من خِطاب المؤمنين على العموم في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: 208]، ثمَّ لمّا بيّن لهم أحوال مَن تقدمهم من الأُمم، عرّفهم أنَّه لا بدَّ من الابتلاء والاختبار، فجاءت الآية تسليةً لهم لِتحمّل المشقّة، فقال: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ﴾ [البقرة: 214]، فآية البقرة لم يقع فيها تخصيص بغير المؤمنين، لا من جهة اللَّفظ، ولا من جهة المعنى، فناسبها الإطناب، وذكر حال من تقدَّم من الأُمم في ابتلائهم.

وأمَّا آية آل عمران فخاطب بها أهل أحد خاصَّة؛ تسلية فيما أصابهم، وخصَّ فيها ذكر الجهاد والصَّبر، وما جرى يوم أحد، فهي تتحدَّث عن واقعة مخصوصة، فهذا وجه ما انفردت به، واختصت به عن آية البقرة، فقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

أمَّا آية براءة فقد جاءت خطابًا للمُؤمنين الَّذين شهدوا فتح مكة، وإعلامًا لهم بأنَّهم لا يكمل إيمانهم إلَّا بمُطابقة ظواهرهم بواطنهم، للتّحذير من الاتّصاف بصفة النفاق فأعلمهم أنَّه لا بدَّ من ابتلائهم واختبارهم؛ لتخلص أحوالهم، وتمتاز من أحوال المنافقين، وأنَّهم لن يتركوا دون ابتلاء واختبار[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحُسبان، والظَّنّ، والزَّعم:

الظَّن ضَربٌ من الاعتقاد، وقد يكون حُسبان ليس باعتقاد، وأَصل الحسبان من الحساب، ثمَّ كثُر حتى سُمِّي الظَّن حُسبانًا على جهة التَّوسع وصار كالحقيقة بعد كَثْرة الاستعمال[2]. وفرَّق أبوهلال العسكريّ بين الحُسبان والزَّعم، بأنَّ الحُسبان لا يكون إلَّا باطلًا، والزَّعم قد يكون حقًّا، وقد يكون باطلًا[3]. وما قاله أبو هلال فيه نظر؛ فالحُسبان قد يكون فيما ليس باطلًا كما في آيتي النَّمل: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ [النمل: 66]، وفي سورة الإنسان: ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا﴾ [الإنسان: 19]؛ فالغالب أن يكون الزَّعم والحُسبان فيما هو باطل، والحُسبان توهّم كون الشَّيء على صفة ليس عليها، والزَّعم "حكاية قول يكون مظنَّة للكذب"[4]. والظَّن ترجيح طرفي الشَّك[5]، ولذلك كان استعمال السّياق للفظ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، دون اللّفظين الآخرين، إيذانًا بأنّ ما حسبوه يخالف الواقع، ويجانف الحقّ، إذ إنّ دخول الجنّة لا يكون بالأماني الكاذبة، دون عمل ولا صبر ولا التزام.

(1) الإسكافي، درّة التّنزيل: 1/335 - 338، والغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/64 - 66.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 343.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 185.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 380.
(5) سعد بن عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنيّة: 2/705.

العِلْم والمعرفَة:

عِرْفان الشّيءِ خِلاَف الجَهْل بِهِ، عَرَفه يَعْرِفه عِرْفاناً ومَعْرِفة، ورجُلٌ عَرُوفٌ وعَرِيفٌ وعارِفٌ، وقد أَنْشد سِيبَوَيْهِ:

أَوَ كُلّما وَرَدتْ عُكاظَ قَبيلَةٌ***بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُم يَتَوَسَّمُ(1)

والمعرفَةُ أخصُّ مِنَ العِلْم؛ لأنَّها عِلْمٌ بَعَينِ الشَّيءِ مُفَصّلًا عمَّا سِواهُ، والعِلْمُ يَكُونُ مُجمَلًا ومُفَصلًا، فكُلُّ مَعرفةٍ عِلْمٌ وليس كُلُّ عِلْم مَعْرِفَةً، وذلك أنَّ لَفْظَ المعرِفَة يُفيدُ تَمييز المَعلُوم مِن غيره، ولَفظُ العِلْم لا يُفيد ذَلكَ إلَّا بِضربٍ آخر مِنَ التَّخصيص في ذِكْرِ المعلوم، والشَّاهد قَول أهل اللُّغة: إنَّ العِلْمَ يتعدَّى إلى مَفعولَين ليس لكَ الاقتصار على أَحدِهما إلَّا أن يكونَ بمعنى المَعرفة، ولا تنافي بَيْنَ تَفسيرِ العِلْم بالمعرفةِ والمعرفة بالعِلْم، وبَيْنَ أن يكُونَ لكُلٍّ مِنهُما مع ذَلكَ معنًى يختَصُّ به، وإنَّما المقصودُ اشتراكهما في المفهوم الإجماليّ المُستَنِد إلى ثُبوتِ معنًى في النَّفس، هو حقيقةُ العِلْم والمعرفة، وكما يقول الإمام ابنُ حَزْم - رحمه الله -: فالعِلْمُ والمعرفةُ اسْمان واقِعَان على معنًى واحد، وهو اعتقادُ الشَّيء على ما هو عليه وتيقُّنه وارتفاع الشُّكوك عنه(2)، وقد استعمل السّياق في هذه الآية عبارة ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ﴾، بلفظ العلم، والله عليم، "يقال: الله تعالى عالم ولا يقال عارف، إذ ليس إدراكه تعالى استدلاليًّا ولا مسبوقًا بالعدم، ولا قابلًا للذّهول، والنّسبة بين المعرفة والعلم بهذين المعنيين، هي العموم مطلقًا، هكذا في حواشي المطوّل في تعريف علم المعاني"(3)، وقد كان استعمال لفظ العلم في مكانه المناسب، فهو متعلّق بعلم الله، والله يوصف بالعلم، فيقول القرآن: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾ [الجنّ: 26]، ولم يقل: عارف الغيب، فكان ذلك دليلًا على انسجام اللّفظ مع الدّلالة والاستعمال.

---

(1) ابن سيده، المخصّص: 1/257، والجوهري، الصحاح: (عرف)، والبيت لطريف العنبري.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 80، وابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنّحل: 5/68.

(3) التّهانويّ، موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 2/1584.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران: 143]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عِظَةٌ من الله وملام، لمن تمنّوا الموت في الحرب، ولم يثبتوا في الصّدام

ربطٌ بين الأماني بدخول الجنّة، والأماني بلقاء العدوّ في القتال قبل معركة أحد، وعتابٌ رقيقٌ للمُؤمنين المتخلّين عن مواقعهم، بعد أن لاحت بوارق النَّصر، ولمن ترك القِتال بعد أن بانت الهزيمة في جانب المسلمين، فلقد كان كثيرٌ من المسلمين الَّذين شهدوا أحدًا، ولم يكونواْ قد شهدوا بدرًا، يأسفون على أن فاتهم حظُّهم من الجهاد في معركة بدر، والشّهادة في سبيل اللّه، فكان هذا العِتاب الرَّقيق من اللّه سبحانه وتعالى لهم[1]، بالإنكار "على من ظنّ أنّه يدخل الجنّة دون أن يُبتلى بشدائد التّكاليف الّتي يحصل بها الفرق بين الصّابر المخلص في دينه، وبين غيره"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَمَنَّوْنَ﴾: التَّمنِّي: الأصل اللُّغوي يدلُّ على معنيين: الأوَّل بمعنى: القطع، والثَّاني يدلُّ على اصطناع الخير[3]، أمَّا في الاصطلاح؛ فقد ذكر الرَّاغب أنَّ التَّمنِّي بمعنى: تقدير شيء في النَّفس وتصويره فيها، وذلك قد يكون عن تخمين وظنٍّ، ويكون عن رَويَّة وبناء على أصل، لكن لمَّا كان أكثره عن تخمين؛ صار الكذب له أملك، فأكثرُ التَّمنِّي: تصوُّر ما لا حقيقة له[4]، قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: 78]. قال مجاهد: معناه إلّا

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 2/604 - 605.
(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/209.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مني).
(4) الرَّاغب، المفردات، ص: 779 - 780.

كذبًا[1]؛ ووردت كلمة (أمنيّة) في المعاجم بتشديد الياء، في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحجّ: 52]، وقد ذكرتها بعض المعاجم الحديثة بالتّخفيف[2]، واللّفظ يؤدّي الدّلالة تماما، فطالما تتمنّون الموت في سبيل اللّه قبل نشوب القتال. وقد تحقّقت أمنيتهم ونشب القتال، ولاقى بعضهم الموت، فليس في هذا أمر مفاجىء لهم"[3].

2) ﴿تَلۡقَوۡهُ﴾: اللِّقاء بمعنى: المقابلة، ذكر ابن فارس أنَّ معنى اللِّقاء، هو: الملاقاة، وتوافي الاثنين متقابلَين[4]، وذكر الرَّاغب أنَّه مقابلة الشَّيء ومصادفته معًا، وقد يعبَّر عن كلٍّ واحد منهما، ويكون اللِّقاء بالحسِّ وبالبصر وبالبصيرة[5]، ومعنى هذا اللّفظ في سياقه: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ﴾ أي من قبل أن تذوقوا شدّته وألمه، فالموت من عظائم المصائب في نفس الإنسان، أو في من يحبّ، وخصوصًا الموت في المعارك، حيث الجراح والدّماء، ومعالجته لا يرغب فيها البشر عادة، ولكنّ المرء يلقاها رغم أنفه، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾ [الجمعة: 8].

3) ﴿رَأَيۡتُمُوهُ﴾: الرُّؤْيَةُ: النَّظَرُ بالعَيْن وبالقَلْب، وعليه معنى الرّؤية في الآية، يُقال: رأيتُه، رُؤْيَةً ورَأْيًا: إذا أبصَرْتَهُ، ويُقال: رأَيْتُه بعَيْنَي رُؤيَةً، ورأَيْتُه رَأْيَ العين، أي: حَيْثُ يَقَعُ البَصَرُ عليه. والرُّؤيَةُ أيضًا: إدْراكُ المَرْئِيِّ[6]، ومعنى اللّفظ في السّياق: ﴿فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ﴾ أي رأيتم أسبابه؛ في الجهاد يوم أُحد[7]، وهو ذاته الموت الّذي كنتم تتشوّقون إليه، ثمّ أنتم هؤلاء تجبنون.

4) ﴿تَنظُرُونَ﴾: النَّظَرُ: الـمُشاهَدَةُ بِالعَيْنِ، والنَّظَرُ: البَصَرُ، ويأْتي بـ معنى الفِكْرِ والتَّأَمُّلِ، يُقال: نَظَرْتُ في كَلامِهِ، أيْ: فَكَّرْتُ وَتَأَمَّلْتُ، هو المعنى في الآية. والنَّظَرُ أيضًا: الاِنْتِظارُ والارْتِقابُ، يُقال: نَظَرْتُهُ، أي: انْتَظَرْتُ حُضُورَهُ. ومِنْ مَعانِيه أيضًا: الاِخْتِيَارُ، والبَحْثُ. وجَمْعُه: أَنْظارٌ ونَظَراتٌ[8]، والمعنى: " فقد رأيتم الموت حين قتل

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (منى).
(2) أحمد مختار عمر، معجم الصّواب اللّغويّ: (مني).
(3) دروزة، التّفسير الحديث: 7/238.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(5) الرَّاغب، المفردات، ص: 745.
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، وتهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (رأى).
(7) محمد عبد اللّطيف بن الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 79.
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (نظر).

إخوانكم بين أيديكم وأنتم تنظرون"[1]، ورؤية من يموتون أمام النّاظر، دليل قاطع، وعبرة لا تنقطع، وقد قالت العرب: (ما راءٍ كمن سمعا).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُذكِّرهم اللّٰه تعالى أنَّهم كانوا يَتمنَّون مواجهةَ أعدائهم، ويَطمعون في بلوغِ مرتبةِ الشَّهادةِ بالموتِ في سبيلِ اللّٰه، وهاهم رأَوا بأعينهم يومَ أُحُد ما كانوا تمنَّوه، فلمَ لمْ يَثبُتواْ ويَصبِرواْ حتَّى ينالواْ ما كانوا يَطمعون إليه؟ والآية تحمل نوعا من العتاب في حقّ من انهزم يوم التقت الصّفوف، وجالت السّيوف، في تلك المعركة الكبرى.

كان ينبغي لمن تمنّى الموت من قبل أن يثبت عند اللّقاء ولا يتزلزل

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تتابع التأكيدات في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ﴾:

تتابعت ثلاثة مُؤكِّدات هي: القسَم المقدَّر، واللَّام الواقعة في جوابه، و(قد).

الحـــذرُ من الغرورِ بحديثِ النَّفس والتَّمنِّي

ومناسبة ورود هذه المؤكّدات مع أنّهم مقرّون بما ذكرَ في الآيةِ هي أنّه لما كانت أفعالُ الذين انهزموا في معركةِ أحدٍ خلافَ ما كانوا يتمنّونَهُ مِنْ لقاءِ العدوِّ في الحربِ نزَّلهم منزلةَ المنكِرِ لِتمنّي لقاءِ العدوِّ، فاقتضى المقامُ مجيءَ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظّاهر[2]، كما أفاد التّاكيد دفع المجاز؛ بمعنى: كنتم تتمنون الموت بلقاء العدوِّ في الحربِ على الحقيقة.

دلالة دخول (كان) على الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ﴾:

في دخول (كان) على الفعل المضارع ﴿تَمَنَّوۡنَ﴾ دلالة على اعتياد الأَمر في الماضي ووقوعه بصورة مُتكرِّرة، أي كانوا مُستمرِّين على

الماضي المستمر يتحقق بدخول كان على الفعل المضارع

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب، ص: 93.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 171.

ذلك التمني؛ ليفيد تقريرهُ، وأفاد حذف تاء المضارعة تخفيفًا صوتيًّا مناسبًا لسياق الألفاظ المتآلفة[1].

دلالة التَّمني في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾:

لا يَنبغي للإنسان أن يتمنَّى المكروه

قد يكون المتمنَّى قريبا، وقد يكون بعيدا ًممكنًا، وقد يكونُ غيرَ ممكنٍ، وهو هنا على سبيل الإمكان لقرينةِ السياقِ، ويحتمل أنَّ الصحابة كانوا يعدّون لقاء العدو قريبًا ويحتمل أنّهم كانوا يعدّونه بعيدًا، وعلى كلا الاحتمالين فإنّهم عبّروا بالتّمني للإشعارِ بأنّ الموتَ بالشهادة في سبيل الله معشوقٌ لنفوسهم لإعلاء كلمة الإسلام، ولم يعبّروا بالتّرجي وإن كان متوقَّع الوقوع؛ لأنَّه قد لا يكون معشوقًا لها، فناسب التّعبير بالتّمنّي وصف حالِهم[2].

دلالة قوله تعالى ﴿تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾:

لمّا دلَّ السياق على أنَّ الكلام في الحرب أفاد أنَّ المرادَ بتمنّي الموت هو تمنّي الموت بالشهادة، إذ تمنّي الموت بدونِ الشّهادة ليس بممدوح، وبهذه القرينة حملَ الكلامُ على المجاز المرسل[3].

بلاغة المجاز المرسل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾:

في الآية الكريمة مجاز مُرسل علاقته السَّببية، فقد ذَكر المسبَّبَ وهو الموت بالشهادةِ الذي لا يُلقى ولا يُرى، وأراد السبب وهو الحربُ أو لقاء العدوِّ وما فيهما من أهوال وشدائد، وهي حال في ضمنها في الأغلب الموت، ولا يتمناها إلا من طابت نفسه بالموت، فصار الموت كأنه المتمنَّى؛ تَنْزِيلًا لِغَايَةِ التَّمَنِّي مَنْزِلَةَ مَبْدَئِه[4].

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/319.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 303، والسبكي، عروس الأفراح: 1/420 - 421.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/340.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/515، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/108.

دلالة التَّعبير في قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ﴾:

جوازُ توبيخ من لم يعرف قدراته وإمكانياته

في هذا التّعبير فوائد لغوية وبلاغيّة هي[1]:

1) لمّا كان تمنّي الموت فيه شدّة وهول عظيمان بيّن أنّ سبب إقدامِهم عليه هو أنّهم لم يشاهدوه ولم يعاينوا مصاعبه وتبعاتِه.

2) أشعر قوله ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ﴾ أنَّ تمنّيَهم الموت ابتدأ من قبل ملاقاتِه واستمرَّ بدلالة (كنتم تمنَّون)، وانتهى بملاقاته.

3) في التعبيرِ تعريضٌ بِأَنَّهُمْ تَمَنَّوْا أَمْرًا مَعَ الْإِغْضَاءِ عَنْ شِدَّتِهِ عَلَيْهِمْ، فَتَمَنِّيهِمْ إِيَّاهُ كَتَمَنِّي شَيْءٍ قَدْ جَهِلُوا مَا فِيهِ مِنَ الْمَصَائِبِ

دلالة الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ﴾:

الفاء هنا هي الفصيحة، فهي تفصح عن شرط مُقدَّر دلَّ عليه صدر الكلام، والتّقدير: إن كنتم صادقين في تمنِّيكم الموت فقد رأيتموه وعاينتموه[2].

علّة إيثار الرُّؤية على الملاقاة في قوله تعالى: ﴿أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ﴾:

لمّا كانت الملاقاةُ قد تكون برؤيةٍ أو من غيرِ رؤيةٍ، أكّدَ لقاءَهم الموتَ وقرَّره؛ لِلمُبالغة في مشاهدتهم له[3].

مناسبةُ تقييد الرُّؤية بالنَّظر في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾:

تقييد الرُّؤية بالنَّظر للمبالغة والتَّوكيد

أفادت الجملة الحالية ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾، اقترانَ رؤيتهم بالنّظر، فالحال على معنى التّأكيد، لدفعِ المجازِ وتقريرِ الحقيقة، والمعنى رأيتموه معاينين له، وهذا على حدِّ قولك: رأيته وليس في عيني عِلَّة، أي رأيته رؤية حقيقية لا خفاء ولا التباس[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/92، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/108.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/92، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/108، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1430.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/92، والآلوسي، روح المعاني: 2/286.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/286، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 2/280، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1430، والسامرائي، معاني النحو: 3/311.

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾:

التَّعبير بالمضارع ﴿تَنظُرُونَ﴾ يفيد تّصوير حالتهم وهم ينظرون إلى الموت، واستحضار تلك الصورة باستمرار[1].

سِرُّ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾:

الجمع بين الرُّؤية البصريَّة والقلبيَّة بفعل الرؤية

لمّا كان النظر متردِّدًا بين المحسوس الذي منه الإبصار، والنظر المعقول الذي منه البصيرة، وكان البصر لا يستعمل إلا في البصر بالعين[2] عبّر بقوله تعالى ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ دون: (وأنتم تُبصرون)، للإشعار بأن المعنى تنظرون بعيونكم، وببصيرتِكم ليكون النّظر على أتمِّ معناه وأكملِه.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّمني والتَّرجّي:

لفظ التَّمني غير لفظ التَّرجي، وقد فرّق النّحاة بين التّمنّي والتّرجّي، فذكروا أنّ التّمنّي يكون في الممكن والممتنع، والتّرجّي يكون في الممكن فقط[3]، ومنه قول الشّاعر:

لَيۡتَ ٱلشَّبَابَ هُوَ الرَّجِيعُ عَلَى ٱلۡفَتَى *** وَٱلشَّيۡبُ كَانَ هُوَ البَدِئُ ٱلۡأَوَّلُ[4]

وعلّة استعمال التَّمني في الممكن والمحال، واختصاص التَّرجي بالممكن؛ لأنَّ ماهية التَّمني محبَّة حصُول الشَّيء، سواء كنت تنتظره وترتقب حصوله أو لا، والتَّرجّي: ارتقاب شيء لا وثوق بحصوله، فيدخل فيه الطّمع والإشفاق[5]، "ويقال: إنّ التّمنّي والتّرجّي والنّداء والقسم، ليس فيه طلب بل هو تنبيه، ولا بدع في تسميته إنشاء[6]، وقد استعمل السّياق في هذه الآية التّمنّي بقوله: ﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ﴾، والموت المُتمنّى بحالة

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/280.

(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/188.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/258.

(4) السّمين، الدّرّ المصون: 9/483.

(5) الكفوي، الكليات، ص: 468، والأحمد نكري، دستور العلماء: 1/196، والآلوسي، روح المعاني: 1/188، وعظيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 2/703.

(6) الكفوي، الكليات، ص: 468، والأحمد نكري، دستور العلماء: 1/196، والآلوسي، روح المعاني: 1/188، وعظيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 2/703.

الشّهادة ممكن الوقوع، وقد حصل على الشّهادة ملايين من البشر، عبر تاريخ الأمّة الإسلاميّة، ولكنّ هؤلاء المذكورين في الآية، رأواْ المُتمنّى في معركة أُحُد ماثلا أمامهم، غير أنّهم لاذواْ بالفرار.

اللِّقاء والاجتماع:

اللِّقاء: هو الاجتماع على وجه المقارنة، والاتّصال، والاجتماع قد يكون على غير المقارنة والاتصال، فلا يكون لقاء، كاجتماع القوم في الدَّار، وإن لم يكن هناك اتِّصال. ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: 14]، فإنَّ المراد حين المواجهة والتَّحدث، وقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: 88]، الآية، فإنَّ المراد اتِّفاقهم وتعاضدهم، سواء كان ذلك مع مشافهة أم لا، كما هو ظاهر[1]، وفي الآية استعمل لفظ ﴿تَلْقَوْهُ﴾، والضميرُ في (تَلْقَوه) فيه وجهان، أظهرُهما: عَوْدُه على الموت، والثّاني: عَوْدُه على العدوِّ، وإنْ لم يَجْرِ له ذِكْرٌ لدلالةِ الحالِ عليه[2]، والأوّل آثر في المعنى لدلالة السّياق السّابق عليه، وهو معبّر عن ذلك ببلاغة ووضوح.

النَّظَر والرُّؤية:

النَّظر المقرون بحرف (إلى) ليس اسمًا للرُّؤية، بل لمقدمة الرُّؤية، وهي تقليب الحدقة نحو المرئي التماسا لرؤيته، ونظر العين بالنِّسبة إلى الرّؤية كنظر القلب بالنّسبة إلى المعرفة، وكالإصغاء بالنّسبة إلى السَّماع، فكما أنَّ نظر القلب مقدّمة للمعرفة، والإصغاء مقدّمة للسَّماع، فكذا نظر العين مقدّمة للرُّؤية، قالوا: والَّذي يدلُّ على أنَّ النَّظر ليس اسما للرُّؤية وجوه منها: الأوَّل: قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف: 198]، أثبت النَّظر حال عدم الرُّؤية، فدلَّ على أنَّ النَّظر غير الرؤية. والثّاني: أنَّ النَّظر يوصف بما لا توصف به الرُّؤية، يُقال: نظر إليه نظرًا شزرًا، ونظر غضبان، ونظر راضٍ، وكلّ ذلك لأجل أن حركة الحدقة تدلُّ على هذه الأحوال، ولا توصف الرُّؤية بشيء من ذلك، فلا يقال: رآه شزرا، ورآه رؤية غضبان، أو رؤية راض. والثَّالث: يُقال: انظر إليه حتّى تراه، ونظرت إليه فرأيته، وهذا يفيد كون الرُّؤية غاية للنَّظر، وذلك يوجب الفرق

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 467.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 3/412.

بين النَّظر والرُّؤية. والرَّابع: يُقال: دُور فلان متناظرة، أي مُتقابلة، فمُسمَّى النَّظر حاصل هاهنا، ومُسمَّى الرُّؤية غير حاصل[1]، وقد استعمل السّياق اللّفظين معا، في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ من هذه الآية قيد التّفسير، قال الحرّاليّ: "وأوّل موقع العين على الصّورة نظر، ومعرفة خبرتها الحسيّة بصر، ونفوذه إلى حقيقتها رؤية، فالبصر متوسّط بين النّظر والرّؤية"[2]، فقد كان منهم نظر لرحى الحرب الدّائرة على سفح جبل أحد، فلمّا خبروا المكان، وعاشوا الأحداث، وشعروا برهبة الموت، وداخَلَهم الخوف، كان تعبير الله بليغًا، حيث قال: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، فكانت منهم الرّؤية آنئذٍ.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/730، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 19/566.

(2) المناويّ، التّوقيف: 1/326.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [آل عمران: 144]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العـلاقـة بين عتاب الفارّين مـن المـوت، وعتاب المفتونين بإشاعة موت النّبيّ ﷺ

بعد الحديث عن فريقٍ من المؤمنين تحمَّسوا للقاء العدوِّ؛ فحصلت لهم هزيمة غير متوقَّعة؛ فعاتبهم اللّه على أنَّهم لم يثبتواْ، ثمّ عاتبهم أيضًا على تزلزلهم جرّاء خبر مقتل النّبيّ ﷺ، مؤكّدا بأنّه لا ينبغي أن يصرفهم ذلك عن دين اللّه تعالى، وأنَّ موت الرُّسل أمرٌ طبيعيٌّ، وسنَّةٌ إلهيَّةٌ، فلا تنتهي شرائعهم بموتهم، إن ماتواْ على فرشهم، أو قتلواْ في معارك طاحنة، فالأمر في الحالين سيّان، ولا يجب من أجل ذلك النّكوص عن الإيمان.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَسُولٌ﴾: الرّسُولُ: المُرْسَلُ، أي: حامِلُ الرِّسالَةِ لِيُبَلِّغَها، يُقال: أَرْسَلْتُ رَسولًا، أيْ: بَعَثْتُهُ بِرِسالَةٍ يُؤَدّيها، وهو ما عليه معنى الآية، ويأْتي بِمعنى المُتابِعِ، يُقال: جاءَت الإِبِلُ رَسَلًا، أيْ: مُتَتابِعَةً. ومِنْ مَعانيهِ: المَبْعوثُ إلى الغَيْرِ. ويُطْلَق أيضًا على الرِّسالَةِ نَفْسِها. والجَمْعُ: أرسُلٌ ورُسُلٌ ورُسَلاءُ[1]، واستعمال لفظ (رسول) في إطار الاستثناء المفرّغ، يؤكّد بشريّة الرّسول الّذي تطرأ عليه العوارض، كما تطرأ على كافّة البشر، ومنها الموت الّذي يغشاه لا محالة، حين يحين أجله، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ [الزّمر: 30]، وقوله أيضا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ٣٤﴾ [الأنبياء: 34].

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رسل).

2) ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾: الخُلُوُّ: المضيّ، وهو ما عليه الآية، وقوله تعالى: (وَإِنۡ مِنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) أي مضى وأرسل في الزّمان الغابر، واستعمل اللّفظ بهذا المعنى للدّلالة على انصرام الأمم، منذ القدم، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ [الأعراف: 38]، وكون الرّسل خلت من قبله، إشارة إلى أنّه الخاتم، وأنّه آخر من أرسل إلى البشر.

3) ﴿مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ﴾: اللّفظان من حقل دلاليّ واحد، ولذلك جمعناهما في الشّرح، فالموت في أصل اللُّغة يدلُّ على ذهاب القوَّة من الشَّيء[1]، وهو أنواع، ومنه الموت خلاف الحياة[2]، ويطلق غالبًا على زوال الرُّوح عن الجسد، وهو قدر اللّه المقدور على كلّ نفس منفوسة، خلقها اللّه من عدم بقدرته، وأوجدها من عُدْم بقيّوميّته، وفرض عليها قانون الموت العامّ، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [الأنبياء: 35]، وقال زهير بن أبي سلمى:

وَمَنۡ هابَ أَسبابَ المَنايا يَنَلۡنَهُ***وَلَو رَامَ أَسۡبَابَ السَّماءِ بِسُلَّم[3]

أمّا لفظ ﴿قُتِلَ﴾، فمن القَتْل: وهو الإماتَةُ، وإِزْهاقُ الرُّوحِ، يُقَالُ: قَتَلَ الحَيَوانَ، يَقْتُلُهُ، قَتْلًا: إِذا أَمَاتَهُ بـ سِلاحٍ ونَحْوِهِ، وَرَجُلٌ قَتِيلٌ، أيْ: فارَقَتْ رُوحُهُ بَدَنَهُ بِفِعْلِ فاعِلٍ، وامْرَأَةٌ قَتِيلٌ. والجَمْعُ: قَتْلَى[4]، واستعمال اللّفظين لحكمة السّياق القرآنيّ وبلاغته، إذ الموت حتف الأنف أو القتل بوسيلة أو شخص، هما السّبيلان لمفارقة الحياة الدّنيا، وذكرهما معًا آكد في الاحتمال باعتبار المخاطبة للبشر، أمّا الأصل فإنّ النّبيّ ﷺ تعرّض لعدّة محاولات قتل، ومكائد اغتيال، ولكنّ اللّه وقاه، لأنّه عصمه من النّاس، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: 67].

4) ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ﴾: الانقلاب: العودة، أو الرُّجوع إلى حالة غير الحالة التي كانوا عليها سابقاً. ولو عادوا إلى ما كانوا عليه من قبل؛ لقال: رجعتم فالانقلاب هو غير الرُّجوع[5]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (موت).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 781.
(3) الزَّوْزَنِّي، شرح المعلّقات السّبع، ص: 150.
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (قتل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ: (قلب).

ولذلك استعمل لفظ ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ﴾، بإيراد احتمال رجوعهم إلى الكفر بعد الإيمان، وهم يعودون إلى الرّدّة، وهي حالة أقبح من الكفر، ولذا كان استعمال الانقلاب هنا أدقّ وأبلغ.

5) ﴿أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾: العَقِبُ - بِفَتْحِ العَيْنِ مَعَ كَسْرِ القَافِ وَسُكُوْنِهَا -: مُؤَخَّرُ القَدَمِ الذي يُمْسِكُ شِرَاكَ النَّعْلِ مِنْ خَلْفٍ، وتُؤَنِّثُهُ العَرَبُ، وَتُجْمَعُ عَلَى أَعْقَابٍ وَأَعْقُبٍ، وعَقِبُ الرَّجُلِ: وَلَدُهُ وَوَلَدُ وَلَدِهِ البَاقُوْنَ مِنْ بَعْدِهِ وقَوْلُهم: لا عَقِبَ لَهُ: أَيْ لَمْ يَبْقَ لَهُ وَلَدٌ ذَكَرٌ[1]، وقوله: ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾، أي: رجعتم كفّارا بعد الرّدّة بمعنى (ارتددتم إلى الكفر).

6) ﴿فَلَن يَضُرَّ﴾: الضّر: المَكْرُوهُ وَالأَذَى، وضَرَّ فُلانًا ضُرًّا وضَرَرًا إِذَا أَلْحَقَ بِهِ مَكْرُوهًا أَوْ أَذًى، وَيُطْلَقُ الضَّرَرُ عَلَى سُوءِ الحَالِ مِنْ مَرَضٍ أَوْ فَقْرٍ وَنَحْوِهِ، وَأَصْلُ الضَّرَرِ: النُّقْصَانُ يَدْخُلُ في الشَّيْءِ، يُقَالُ: دَخَلَ عَلَيْهِ ضَرَرٌ في مَالِهِ، وَضِدُّ الضَّرَرِ: النَّفْعُ وَالسَّعَةُ، وَمِنْ مَعاني الضَّرَرِ أَيْضًا: الضِّيقُ والحَرَجُ والهُزَالُ والنُّقْصَانُ[2].

7) ﴿شَيۡـٔٗاۗ﴾: الشَّيْءُ: كُلُّ مَوْجودٍ إِمّا حِسًّا كالأَجْسامِ، أو مَعْنًى كالأَقْوالِ، وهو يَقَعُ على كُلِّ ما أُخْبِرَ عنه، وقيل: إِنَّهُ مَصْدَرٌ بـ مَعنى اسمِ المَفعولِ أي الأَمْرُ المَشِيءُ الّذي يتَعَلَّقُ بِهِ القَصْدُ، ويُطلَقُ ويُراد به: الجُزْءُ الصَّغيرُ، والجمعُ: أشْياء[3]، وهذا اللّفظ لا يفيد الدّلالة إلّا ضمن السّياق، واستعماله منكّرا يؤكّد أنّ الضّر لا يرقى ليمسّ الذّات الإلهيّة المنزّهة عن كلّ عرض أو نقص،

إنّما يقع الضّرر على من كفر، فالله تعالى غنيّ عن ذلك، وسيقيم ملّته، وينصر دينه، ويعزّ عباده الصّالحين لا محالة.

8) ﴿وَسَيَجۡزِي﴾، ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، المعنى مرتبط في اللّفظين ببعضه، فالجَزاء: العِوَضُ والمُكافَأَةُ، يُقال: جَزَيْتُهُ على عَمَلِه، أَيْ: كافَأْتُهُ. وهوما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ[4]، وأمّا لفظ ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فمن الشُّكر، وهو: تصوُّر النِّعمة وإظهارها، وهو في أصل اللُّغة بمعنى: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان، وهو يعني:

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (عقب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ضرر).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (شيأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (جزا).

الامتلاء، فذكر ابن فارس أنَّ للشُّكر أصولًا أربعة، ذكر منها: الامتلاء، وذكر الرَّاغب أنَّ الشُّكر هو الامتلاء من ذكر المُنعِم عليه[1]، ومعنى هذه العبارة أنّه تعالى سيثيب الثّابتين على الحقّ، والصّابرين على شدائد الدّنيا، والشّاكرين نعماءه في السّرّاء والضّرّاء، بنصره ورضوانه في الدّنيا بالتّمكين، وفي الآخرة بالفوز المبين[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التّأكيد على أنّ موت الرّسول لا يؤثّر على الدّعوة، ولا يزيد المؤمنين إلّا ثباتا

الآية تتضمّن نداء، مفاده أنّ محمّدًا ﷺ، ليس إلّا رسولًا، من جنس الرُّسل السّابقين، وقد ماتوا أو قتلوا، وهو مثلهم يبلِّغ رسالة ربّه، أفإن مات بانقضاء أجله، أو قُتل -كما أشاع الأعداء- رجعتم عن دينكم، وتركتم ما جاء به نبيُّكم؟ ومن يرجع عن دينه؛ فلن يضرَّ اللّه شيئًا، إنَّما يضرُّ نفسه، أمَّا من ثبت على الإيمان، وشكر ربَّه على نعمة الإسلام؛ فإنَّ اللّه يجزيه أحسن الجزاء، في الدّنيا بالتّمكين، وفي الآخرة بأن يجعله من الفائزين[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سر التَّعبير بأسلوب القصر في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾:

في الجملة قصرُ إفراد بمعنى تخصيصِ سيّدنا محمّد ﷺ بوصف الرسالة غيرَ جامعٍ بينَها وبين التبرّؤِ من الموتِ، لكنَّ الصحابة لمّا كانوا يعدّون موتَه أمرًا عظيمًا نزَّلَ استعظامهم موته منزلة إنكارِهم الموتَ له، فاستعمل له طريق النَّفي والاستثناء، والاعتبار المناسب الذي سُلِك بسببه هذا الأسلوب هو الإشعار بعظم هذا الأمر في نفوس الصَّحابة وشدّةِ حرصهم على بقائه ﷺ فيما بينهم حتّى كأنَّه لايخطرُ موته في البال. ويحتمل أن يكون قصرَ قلبٍ، فالصّحابة لم يكونوا يجهلون رسالة النبيِّ إلا أنَّه نُزِّل استعظامُهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغب، المفردات: (شكر).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/284.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/262 - 263، و566، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/110، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 2/284.

له على الموتِ تنزيلَ من يجهل رسالته، فمن استبعد موته فكأنَّه استبعدَ رسالته وكونَه إنسانًا، لأنَّ كلَّ رسول لا بدَّ من موته، والمعنى على قصرِ القلبِ، (وما محمَّد إلا رسول، لا إله)، فنزِّل استعظامُهم هلاكَه منزلةَ دعوى ألوهيَّته؛ لأنَّ البقاءَ يخصُّ الإله[1].

مناسبةُ مجيءِ قولِه تعالى ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾:

هذه الجملة صفة لقولِه (رسول) لبيان خلوِّ الرُّسلِ من قبلِه، ليكون على طريقة الاستدلالِ بذكر النظّائر ليقتنعَ الإنسانُ بما سمع، إِذْ تَدُلُّ عَلَى تَسَاوِي كُلِّ الرُّسُلِ فِي الْخَلْقِ وَالْمَوْتِ، فَهَذَا الرَّسُولُ هُوَ مِثْلُهُمْ فِي ذَلِكَ[2]، وليكونَ الكلامُ تمهيدًا لقولِه ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾، ولهذا جاءت جملةُ الشّرطِ مقترنةً بالفاء الدالَّة على أنَّ ما قبلَها سببٌ لما بعدَها

نكتةُ التَّعريف في كلمة ﴿ٱلرُّسُلُۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾:

إثباتُ ختمِ الرّسالات برسول الله محمدٍ ﷺ

(أل) في قوله ﴿ٱلرُّسُلُۚ﴾ جنسيَّةٌ؛ فتفيد العمومَ وإذا كان الرُّسلُ كلُّهم قد خَلَوْا من قبله، لزِمَ من ذلك أنْ يكونَ هو آخِرَهم وخاتمهم، كما يُؤخذُ منه تَفخيمُ شأنِ الرُّسل، والتَّنويهُ بهم على شأنهم ووصفهم هو تبليغُ رسالة اللهِ تعالى[3].

دلالةُ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾:

همزةُ الاستفهام في ﴿أَفَإِيْن﴾ للإنكار، والفاءُ للسببيَّة، وهذا يؤكِّدُ ما اقتضتْه جملةُ القصر، من التعريضِ بالإنكارِ عليهم في اعتقادِهم خلافَ مضمونِ جُملة القصر؛ فقد حصَل الإنكارُ عليهم مرَّتين: إحداهما بالتَّعريضِ المستفادِ من جُملة القصر، والأُخرى بالتَّصريحِ الواقعِ في هذه الجُملة[4].

---

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 289، والتَّفتازاني، المطول، ص: 397، والإسفراييني، الأطول: 1/559.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/368، وابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين: 2/242.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/363، وابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين: 2/242.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/112.

دلالة التّعبيرِ بـ (إن) الشرطية:

لّما كانت (إن) تستعمل في المشكوكِ في وقوعِه وكان الموت حتمًا مقطوعًا في وقوعِه، دلَّ على أنَّ المرادَ في الشّرطِ تحديدُ الوقتِ بوقوعِ الموتِ؛ لأنَّ غير المجزوم بوقته نظير غير المجزوم بوقوعه من جهة خفاء زمن وقوعه، أي لَمَّا كان مجهول الوقت ساغ دخولُ (إنْ) في الكلام[1]، أو يقال عبّر بأداة الشّرط (إنْ) الَّتي تقتضي الشَّكَّ، مع علمهم به البتَّة؛ لِتنزيلِ المخاطبينَ منزلةَ المتردِّدين فيه، فيكون التّعبير بها على خلافِ مقتضى الظّاهر؛ لمناسبةِ المقام أي باعتبار حال السَّامع[2].

مناسبة الجمعِ بين الموت والقتل في قوله تعالى: ﴿مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾:

لّما فارقَ بين الموت والقتلِ أفادَ التّعبير أنّه كما أنَّ الموتَ لا يوجب الرُّجوعَ عن دينه ﷺ فكذا القتل لايوجب الرُّجوعَ عن دينِه، فعطف القتل على الموت لمناسبة سياقِ الكلام، ولكونه مجوَّزًا عند المخاطبين[3].

سِرُّ تقديم الموت على القتل في قوله تعالى: ﴿مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾:

المشترك بين جميع الرُّسل عليهم السلام هو الخُلُوّ بالموت دون القتل

قدّم الموت على القتلِ مع أنَّ تقدير القَتْل هو الَّذي ثارت منه الفِتنة، وعظم فيه أمر المحنة؛ لأنَّ الوصف الجامع بينَ رسولِ اللّه ﷺ والرُّسل عليهم السلام هو الخُلُوّ بالموت دون القتل[4]، كما أنَّ في التّقديم إشعارًا بأنَّ رسول اللّه يموت ولن يُقتلَ.

دلالة (أو):

تفيد (أو) التخيير بين الأمرين، وهي هنا على معنى التَّسوية بمعونة المقام، والْمُرَادُ أَنَّهُ سَوَاءٌ وَقَعَ هَذَا أَوْ ذَاكَ فَلَا تَأْثِيرَ لَهُ في ضَعْفِ الدِّينِ وَوُجُوبِ الِارْتِدَادِ[5].

(1) الزمخشري، المفصل، ص: 440، والسبكي، عروس الأفراح: 1/323.
(2) القنوجي، فتح البيان: 2/345.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/423، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/377، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/381.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/423، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/93.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/377.

بلاغة التّعبير بين الاستعارة والكناية في قوله تعالى: ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾:

تصوير المعنويّ المعقول في صورة المادّيّ المحسوس

في الآية الكريمة إمَّا استعارة تمثيليَّة، حيث شبَّه من يرجع عن دينه بمن يمشي إلى الخلف القهقرى، ومن يرجع إلى الارتياب بالرَّاجع على الأعقاب، وهذا تصوير فني بديع بطريقة الاستعارة التَّمثيليَّة. وسِرُّها البلاغي تصوير المعنوي المعقول في صورة المادي المحسوس لإظهار كمال بشاعته وقُبحه. أو كناية عن صفة التَّردي المهلك مع قرن الدَّعوى بالدَّليل. وعلى كلٍّ فإنَّ التَّنفير ممَّا حدث لا ينفك عن التَّصوير البلاغي أيًّا كان نوعه[1].

براعة التّمثيل في قوله ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾:

هذا التّعبير من قبيل المثل؛ يُضرب على سبيلِ الذَّمِّ لمن رجع عن الشَّيء بعد الإقبال عليه، فيجعل ذلك مثلًا لكلِّ تاركٍ أمرًا وآخذٍ آخرَ غيره، إذا انصرف عمَّا كان مقبلًا عليهِ، ورجعَ إلى الذي كان له تاركًا فأخذه[2].

دلالة العدول في قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾:

في الآية الكريمة عدول عن المستقبل إلى الماضي؛ لإبراز غير الحاصل في معرض الحاصل.

براعة التّعبير في قوله: ﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾:

في التّعبير بهذه الجملة الشّرطية فوائد لغوية وبلاغية هي[3]:

1) العدول بالخطاب في الآية الكريمة من الحضور إلى الغيبة، وصرفه عن الماضي إلى المستقبل - فيه ما فيه من لُطف الله، ورحمته وإحسانه، بل ورضاه عن المسلمين الَّذين شهدوا أُحدًا، وشمولهم جميعًا بهذا الصَّفح الجميل، والرضوان العظيم.

---

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/185، وجعفر شرف الدين، الموسوعة القرآنية: 2/103.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/163، ورضا، تفسير المنار: 4/133.

(3) الراغب، تفسير الرّاغب: 3/892، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/377، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/364، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/113، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 2/606.

2) أفاد اسم الشّرط (مَن) العمومَ ليشمل كلَّ عاقلٍ.

3) تضمّن الكلام تعريضًا، فإنَّه لمّا كان الانقلاب على العقب ارتدادًا عن الدّين، وهو وصف لفاعلِه، عرَّضَ بنفي الضرِّ عن اللّه تعالى بتأكيدَ الوعيدِ، ففيه تعريضٌ بأَنَّهم لا يضرُّون إلَّا أنفسهم

4) لمّا وقعَ لفظ (شيئًا) في سياق النّفي في قوله تعالى: ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـًٔاۗ﴾، أفاد العمومَ ليشملَ نفيَ كلِّ ما يطلقُ عليه ضررٌ قليلًا أو كثيرًا، وعبَّر بالشيء لإطلاقِه على كلِّ ما له وجودٌ؛ لتقريرِ نفي أيِّ ضرٍّ عن اللّه تعالى.

5) فيها استعارة تمثيليّة، وتقدّم بيانُها

6) لمّا كان اسم الشَّرط على معنى العموم أفادَ أَنَّ كُلَّ مَنِ ينقَلَبَ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَلَا يَلْحَقُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ لِلَّهِ تَعَالَى ولا لدينه، وقرّر هذا المعنى بمجيء (لن) التي تفيد تأكيد نفي المستقبل، لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مَضَارُّ الْعَبْدِ، فهي جملةٌ تذييليّة تقع في موقعِ المثلِ لعمومِها وكلّيَّتِها

7) لمّا تضمَّن قوله تعالى ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـًٔاۗ﴾، معنى فلا يضرّ إلا نفسَه وكان الجزاء على معنى اقترانِ وقوعِه بوقوعِ بالشّرط دلَّ على لحاقِ الضّرر به بمجرّدِ ارتدادِه واستمرارِه معه بما تدلُّ عليه صيغة المضارع ﴿يَضُرَّ﴾.

حسنُ التَّذييل في قولِه تعالى ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

فيه فوائد لغوية وبلاغيّة، هي:

1) براعة الإيجاز بالحذف، فإنَّ تعلُّق هذه الجملة بما قبلَها مبنيٌّ على كلامٍ محذوف دلَّ عليه المذكور، وتقديره ومن لم ينقلب على عقبيه وأحسن يجزِه اللّه، وسيجزي اللّه الشّاكرين.

فضل اللّه على عباده الشاكرين دائم لا ينقطع

2) جاء التَّعبير بالفعل المضارع المقرون بالسِّين ليدل على تأكيد قُربِ الجزاءِ الحسَن واستمراره للمؤمنين الشَّاكرين.

3) في التّعبير مناسبة حسنة بإتّباعِ الوعيدِ بالوَعْدِ[1].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/377.

4) إظهارُ الاسمِ الجليلِ (اللّه) في موقِعِ الإضمار جاء لإبرازِ مزيدِ الاعتناءِ بشأن جزائِهم[1].

الشُّكر في مقام البلاء صبرٌ وزيادةٌ

5) وعبَّر بالشّاكرين دون الصَّابرين؛ لِإنَّ الشُّكر في هذا المقام هو أعلى درجات الصَّبر؛ وذلك لأنَّهم احتملوا البلاء وثبتوا وأحسنوا فكانوا في مقامِ الشَّاكرين على نعمة الإسلام بفعلِهم، ففيه إشعارٌ بأنَّ الإحسانَ في موضعِ الثَّباتِ عندَ الابتلاء هو شكر، ولذا قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13][2].

6) فيه إشارة إلى أنَّ الشُّكرَ مطلوب دائمًا.

7) لمّا أبهم الجزاء ولم يعيّنه دلَّ على فخامتِه وعظمتِه وعمومِه بحيث يقصر عنه البيان.

8) في تصدير الفعل بالسين دلالة على قرب حصولِهم على الجزاء الذي وعدهم اللّه به.

9) أفادت (أل) الاستغراق لكلِّ من يشكر اللّه على نعمِه.

10) لمّا علَّق الجزاء بالمشتقِّ دلَّ على أنَّ سبب الجزاء الذي سيجازي به اللّه تعالى هو شكرُه على نعمه

الجزاءُ على قدْرِ الشُّكر؛ قِلَّةً وكثرةً وحسنًا

11) لم يَذكُر اللّه تعالى نوعَ جزائِهم؛ ليدلَّ على كثرتِه وعَظمتِه، ولاسيَّما مع اقترانِه بالاسم الجليل، وليُعلِمَ أنَّ الجزاءَ على قدْرِ الشُّكر؛ قِلَّةً وكثرةً وحُسنًا[3].

12) هذه الجملة تذييليَّة، فتفيد العمومَ بمعناها، فتكون كالمثلِ الذي يضرب بينَ النّاس لعمومِها وكلّيَّتها.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/94.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/423، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/41.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 151.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(خَلَتْ) و(مَضَتْ):

الخالي يقتضي خُلُوّ المكان منه، وسواء خلا منه بالغَيبة أو بالعدم، وهو يستعمل في الزّمان والمكان، لكن لمّا تصوّر في الزّمان المضيّ، فسّر أهل اللّغة: خلا الزّمان، بقولهم: مضى الزّمان وذهب، "وَخَلَتِ الدَّارُ وَغَيْرُهَا تَخْلُو، وَالْخَلِيُّ: الْخَالِي مِنَ الْغَمِّ، وَامْرَأَةٌ خَلِيَّةٌ: كِنَايَةٌ عَنِ الطَّلَاقِ، لِأَنَّهَا إِذَا طُلِّقَتْ فَقَدْ خَلَتْ عَنْ بَعْلِهَا. وَيُقَالُ خَلَا لِيَ الشَّيْءُ وَأَخْلَى، قَالَ الشّاعر:

أَعَاذِلُ هَلْ يَأْتِي الْقَبَائِلَ حَظُّهَا *** مِنَ الْمَوْتِ أَمْ أَخْلَى لَنَا الْمَوْتُ وَحْدَنَا[1]

وهذا يدلّ على أنّ خلا أخصّ من مضى، والخالي ما بَعُدَ زمنُ مُضيّه، وسبب اختصاص الآية بهذا التَّعبير، أنَّ الرُّسل كانت قبل النَّبي محمَّد ﷺ، قد بعد زمانهم بعدًا شديدًا، وخلا مكانهم منهم[2]، ولهذا فالتّعبير بقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾، آثر من قوله: (قَدْ مَضَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ)، لبعد الزّمان بينهم وبين نبيّ الختام، عليه السلام.

الموت والقَتْل والوفاة:

أَصل القَتْل: إزالة الرُّوح عن الجسَد كالموت، لكن إذا اعتُبر بفعل المتولِّي لذلك، يُقال قتل، وإذا اعتبر بفوت الحياة، قيل: موت (وفوت). والموت ينفي الحياة مع سلامة البنية، ولابدَّ في القَتْل من انتقاص البنية[3]. أمّا الموت فهو: مفارقة الرُّوح للجسد، وهو أنواع: الأوَّل: ما هو بإزاء القوَّة النَّامية الموجودة في الإنسان وغيره. والثَّاني: زوال القوَّة الحاسَّة. والثَّالث: زوال القوَّة العاقلة: وهي الجهالة. والرَّابع: الحزن المكدِّر للحياة. والخامس: المنام[4]. والمراد به هنا: إزالة الرُّوح عن الجسد. وأمَّا الوفاة؛ فيقال استوفيته؛ إذا أخذته وافيًا[5]؛ لذلك فقد تكون الوفاة بمعنى: الموت الَّذي هو إزالة الرُّوح عن الجسد، وقد تعني: استرداد الشَّيء وافيًا، وعند أهل السّنة "المقتول ميّتٌ بأجله، أي

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خَلَوَ)، والبيت لمعن بن أوس المزني.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 210، والرّاغب، المفردات: (خلا)، وسعد بن عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنيّة: 2/782.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 420، والرّاغب، المفردات: (قتل)، والكفويّ، الكليات، ص: 729.
(4) الرّاغب، المفردات: (موت).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفى).

بالوقت المقدّر لموته، ولو لم يُقتل لجاز أن يمُوت في ذلك الوقت، وأن لا يمُوت، لأنّه لا قطع ولا يقين بامتداد العمر، ولا بالموت بدل القتل، فلا قطع بالموت والحياة لو لم يقتل"(1)، واستعمال السّياق القرآنيّ في هذه الآية للفظي ﴿مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾، يحدّد صورتي الاحتمال المفترضتين، في نهاية حياة الرّسول الأكرم، ولم يستعمل الوفاة، رغم أنّه استعملها في مواطن أخر من القرآن، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ⑪﴾ [السّجدة: 11]، وقوله لعيسى عليه السلام: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: 55]، مع مراعاة الخلاف في معنى الوفاة الّتي ذكرها اللّه ﷻ في هذه الآية، وهل هي وفاة نوم أم وفاة موت؟ وأيًّا كان التّأويل، فإنّ كلّ لفظ استعمله القرآن من هذه الألفاظ الثّلاثة، (الموتِ والقَتْلِ والوفاة)، كان بليغا في موضعه، مؤدّيا للمطلوب في سياقه، ولا يغني لفظ عن لفظ منها، في سوق المعنى المراد وتوجيهه، وذلك من بلاغة القرآن الّتي لا تدانيها بلاغة البشر.

الرّسول والنَّبيّ:

الرَّسولُ مَن أُوحي إليه شرعٌ جديد، وأمَّا النَّبيّ فمن بُعث على تقرير شرع من قبله، وقيل: الرَّسول أخصُّ من النَّبيّ؛ لأنَّ كلَّ رسول نبيٌّ، وليس كلُّ نبيّ رسولًا، وقيل: الرَّسول الَّذي معه كتاب الأنبياء، والنَّبي الَّذي ينبئ عن اللّه وإن لم يكن معه كتاب(2)، وخلاصة الفرق بين الرّسول والنّبيّ أمور، أهمّها: أنّ الرّسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنّبيّ غير الرّسول من لم ينزل عليه كتاب، وأنّ من نسخ شرع من قبله، فهو الرّسول، وغيره النّبيّ فقط، وأنّ من جاءه المَلَكُ ظاهرًا، وأمره بدعوة الخلق فهو الرّسول، ومن سواه ممّن لم يعط ذلك فهو النّبي الّذي لايسمّى رسولًا(3)، وبين النّبوّة والرّسالة وشائج صلة، وروابط وصل، فالرّسول هو الّذي يحمل تنزّلات الوحي، ونورانيّة الإشراق، ويكلّف بمهمّة البلاغ عن اللّه، والسّياق هنا يبرز السّؤال الاستنكاريّ عن انقلابهم على الأعقاب، وزهدهم فيما تنزّل من الكتاب، والمنطلق هو تأكيد رساليّة الرّسول في قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾، ولم يذكر أنّه نبيّ، لغلبة المهمّة المنوطة به عليه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفى).

(2) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 351، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 110، والرّاغب، المفردات: (نبى)، والكفويّ، الكليّات، ص: 900.

(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/434.

وكونه عند الهزيمة، وزلزلة العقيدة، متلبّسًا بحرب سببها البلاغ الرّساليّ، وغايتها الرّد على تأبّي الكفّار على قبول البشارة والإنذار،، ولم يكن التّصادم مع شرذمة المشركين الكفرة، ومن لفّ لفّهم من اليهود والمنافقين الفجرة، متعلّقًا بخلاف مع النّبيّ في خصوصيّاته، ممّا يقتضي النّبوّة فقط، ولكنّه متعلّق بالصّراع العقائديّ المحتدم، بين المعسكرين، لأسباب معلنة وخفيّة، شعارها استئصال الإسلام، وتصفيّة الرّسول المبلّغ، حتّى لا يصل صدى الدّين الجديد، إلى مختلف القبائل، وسائر الأمصار والأقطار، وقد أبصروه ينتشر ذلك الانتشار العظيم، كما تنتشر النّار في الهشيم، فكان استعمال اللّفظ موحيا بكلّ ذلك، ومعبّرا عنه ببلاغة وبيان.

الانقلاب، والارتداد، والرُّجوع، والعود:

الانقلاب بمعنى: تغيير الشَّيء من حال إلى حال، والرّدُّ هو: الرُّجوع في الطَّريق الّذي جاء منه، وأمَّا الرُّجوع؛ فهو بمعنى: العود إلى ما كان منه البدء، وأمَّا العَوْد؛ فهو: الرُّجوع إلى الشَّيء بعد الانصراف عنه (مطلقًا): العود إلى ما كان عليه قبل ما دخل فيه، ومنه الآية الكريمة: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: 12]، ومعناه بحسب ما يميّزه من نعت أو حال؛ مدحًا أو ذمًّا: فمن الأوّل: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: 174]، ومنه: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾ [الانشقاق: 9]، والآيتان تنتظمان حالَي الدُّنيا والآخرة، ومن الثَّاني قوله: ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ۝١٢٧﴾ [آل عمران: 127]، وقوله: ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ۝١١٩﴾ [الأعراف: 119]، وقد يكفي الأسلوب من النَّعت والحال، في الدّلالة على المراد منه، ويغني غناءهما في الدّلالة على مآل مرغوب أو مرهوب، كما في قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧﴾ [الشعراء: 227]، فلهجة التّهديد لائحة عليه، بادية منه، ظاهرة فيه، وقد اختير هنا ذكر الانقلاب على العقب دالّا على معنى الإصغاء للفتنة والتلبُّث في الحيرة، فهو أليق بالمقام، وأوفق للمرام، وأسعد بالمعنى المراد في النّظر الخاصّ والعامّ، وما أحسن دلالته على عدم التَّبصُّر، والعجلة عن التّدبُّر في العاقبة، والبدار إلى متابعة الهوى دون رويَّة؛ إذ هو رجوع القهقرى دون تبصُّر بموضوع العَوْد، ولا بمكان الخَطْو، وذلك فيه فعل الخطأ مع تعلُّق النَّظر، وإدامته بمعاينة الصّواب، ومجامعته ومواقعته للَّحظة،

وهذا من فريد أسلوب القرآن يميّزه من (العَوْد)؛ فإنَّه يعني في جملة معناه التَّراجع والصَّيرورة، وليس مقام الخاطرة الطّارئ الّذي نزلت فيه، مُنَجَّمة تحكيه آية آل عمران التّي مَعَنَا هنا، وعن (الرَّدِّ) الَّذي فيه شَوْب الإكراه، وأنّ ذلك بفعل فاعل خارج يلْوي الباحث ويثنيه عن وجهته، فليس ذلك ممّا نحن فيه، وهكذا يمضي البلاغ القرآنيُّ في جميع وجوهه مشبعًا ممتعًا جميع ما تعلّق بالمقام من علوم النِّذارة والبشارة، والتّأريخ للواقع، ونقل الخبر الصّادق بدوافعه وغاياته، وخفقات قلوب أفراده وأحاسيسهم ومشاعرهم، وحقيقة ما جرى دون تزيُّد، فضلًا عن عمله التأّثيريِّ الرّائع، وتوجيهه القويم العليم، في الإصلاح والتَّقويم، والتّهذيب والتّعليم، وهو بعدُ، أسلوبٌ أدبيٌّ راقٍ لا يجرح، ولا يحرج، ولا يصِمُ، ولا يعيب، بل يلمس شغا قلب الخاطئ والمصيب، ويداعب روح كلٍّ، ويرفرف عليها، وينعشها مجدِّدًا فيها حياة الرُّوح على حدٍّ سواء، وسبحان من هذا كلامه. فأمَّا الردُّ فهو: صرف الشَّيء بذاته أو بحالة من أحواله، وهو بمعنى: الرُّجوع في الطَّريق الّذي جاء منه[1]. وأمَّا الرُّجوع؛ فأصله العَوْدُ، وهو بمعنى: العود إلى ما كان منه البدء، مكانًا كان أو فعلًا، وبذاته كان رجوعه أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله. وأمَّا العَوْد؛ فهو: الرُّجوع إلى الشَّيء بعد الانصراف عنه: إمَّا انصرافًا بالذَّات أو بالقول، أو بالقول والعزيمة[2].

الأَجْر، والثَّواب والجَزاء:

الأَجْرُ: الجَزَاء على العَمَل كَالإِجَارَةِ، وَقَالَ بَعضهم: الأجر وَالأُجْرَة يُقَال فِيمَا كَانَ عقدًا وَمَا يجْرِي مجْرى العَقْد، وَلَا يُقَال إِلَّا في النَّفْع، وأمَّا الفرق بين الأجر والثَّواب: فالأجر يكون قبل الفعل المأجور عليه، لأَنَّ الثَّواب لا يكون إلَّا بعد العمل، هذا على أَنَّ الأجر لا يستحقّ له إلَّا بعد العَمل كالثَّواب إلَّا أَنّ الاستعمال يجري بما ذكرناه، وأيضًا فإنَّ الثَّواب قد شُهر في الجزاء على الحسنات، والأجر يُقال في هذا المعنى، ويُقال على معنى الأجرة الَّتي هي من طريق المثامنة بأدنى الأثمان، وفيها معنى المعاوضة بالانتفاع[3]، والجَزَاء: يُقَال فِيمَا كَانَ عَن عقد وَعَن غير عقد، وَيُقَال فِي النَّافع والضَّارّ،

(1) الرّاغب، المفردات: (رجع).

(2) السَّمين، عمدة الحفاَّظ: (عود).

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 17، والكفويّ، الكليات، ص: 48.

" وجزاه اللّه خيرًا أَي أثابه وكافأه، وجزيت فلَانًا وجازيته على فعله مثله، قَالَ الْهَرَوِيّ: فَإِن أردْت معنى الْكِفَايَة، قلت جزا اللّه عنّي وأجزاه، وَإِلَى هَذَا ذهب آخَرُونَ، وَإِنّ جَزَا وأَجْزَا بِمَعْنى مُتَقَارب"[1]، وواضح أنّ سياق الآية ورد فيه لفظ (الجزاء)، في قوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وقد نسب الجزاء على نفسه، ومن أعطاه اللّه، أفاض عليه من عطاه، وعلى قدر علوّ المقام يكون الإغداق بالإكرام، واللّه لا نهاية لنعمائه، كما لا نهاية لكماله.

الحَمْد والشُّكر:

الشُّكر هو الاعتراف بالنِّعمة على جهة التَّعظيم للمُنعِم، والحَمد الذِّكر بالجميل على جهة التَّعظيم المذكور به أيضًا ويصحّ على النِّعمة وغير النِّعمة، والشّكر لا يصحّ إلَّا على النِّعمة، ونقيض الحمد الذَّم إلَّا على إساءة، ويُقال الحمد للّه على الإطلاق، ولا يجوز أن يُطلق إلَّا للّه، لأنَّ كلَّ إحسان فهو منه في الفعل أو التَّسبيب[2]. زِد على ذلك أنَّ الحمد وهو خاصّ باللّه يكون على النِّعم الخاصّة والعامّة، كخلق السَّماوات والأرض، وجعل الظُّلمات والنُّور، وإنزال القرآن، والشُّكر يكون على النِّعم الخاصَّة بالنَّاس وبالأفراد[3]، وقد ذكروا أنّ الحمد للّه قد يُنطق به في موضع الشّكر، وأنّ الشّكر قد يوضع موضعَ الحمد، لأنّ ذلك لو لم يكن كذلك، لما جاز أن يُقال (الحمد للّه شكرًا)، لأنّ الشّكر لو لم يكن بمعنى الحمد، كان خطأ أن يُصَدَّرَ من الحمد غيرُ معناه وغير لفظه[4]، وفي الحديث: "الحمدُ رأسُ الشُّكر، فمنْ لمْ يحمد اللّه لمْ يشكُرْه"[5]، وفرّقوا بينهما من حيث إنّ "الشّكر أعمّ من جهة أنواعه وأسبابه، وأخصّ من جهة متعلّقاته، والحمد أعمّ من جهة المتعلّقات وأخصّ من جهة الأسباب"، والّذي يركن إليه في المعنى الملموح في الشّكر، أنّ فعل الشّكران عادة ما يكون بالقلب، حين يخضع ويستكين، وباللّسان حين يثني ويقرّ، وحين يمتنّ ويعترف، وبالجوارح الأخرى، عندما تطيع عن طواعيّة، وتنقاد عن رضا لا عن إجبار، ومتعلّقه ذات

(1) عيّاض، مشارق الأنوار: 1/147.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 301، و302.
(3) سعد بن عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنيّة: 2/740.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/138.
(5) الحديث رواه الترّمذي في نوادر الأصول، (الأصل 154)، وكذلك البيهقيّ في شعب الإيمان، (الباب: 33).

المنعم المعظّم لذاته وجلاله، دون أوصافه الذّاتيّة، أي أنّه تعالى يحمد على فواضله من الإحسان الغامر، والعطاء الفيّاض، من عوارف الإحسان، وسوانح الإنعام، فلا يشكر اللّٰه على حياته وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وهيمنته، ولكن يحمد بها، وأمّا االشّكر فيكون على الإحسان والإنعام، وعليه فكلّ ما يتعلّق به الشّكر يتعلّق به الحمد، وليس كلّ ما يتعلّق به الحمد يتعلّق به الشّكر، والمعهود أنّ الحمد يقع باللّسان، وأنّ الشّكران يقع بالأركان[1].

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: 12/226.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥﴾ [آل عمران: 145]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإرجاف بموت الرّسول المختار، لا يمنع الدّعوة، ولا تصاريف الأقدار

بعد أن بيَّن في الآية السَّابقة، أنَّ من سنَّة اللّه في الرُّسل أنّهم معرّضون للموت، بمن فيهم رسول اللّه المصطفى، وأنَّ موت أحدهم ليس مسوِّغًا لترك الجهاد، دفاعًا عن هذا الدِّين،، لذلك جاءت هذه الآية تتمَّة لما سبق؛ لتنصح النّاس أنّه ينبغي للمؤمن أنْ لا يتقاعس عن الدِّفاع عن الإسلام، لأنّ الشَّجاعة والبسالة والإقدام، في ميدان الوغى، لا تقرّب الموت؛ ولأنّ النّكوص والتّولّي يوم الزّحف، لايصرفه ولا يؤخّره، إذ الموت أجلٌ مفروضٌ محتوم، وميقاتٌ محدّدٌ معلوم، فكلُّ سلامة قدرٌ، وكلُّ منيّة بقضاء، وليست الأمراض المستعصيّة، ولا الحوادث المتواليّة، إلّا ملابسات تطرأ، وأسبابًا مجازيَّة تحدث؛ لكنّ الأصل الحقيق بالإلتفات، هو حلول الأجل الّذي به تحين الوفاة.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ﴾: النَّفْسُ: الرُّوحُ، يُقال: خَرَجَتْ نَفْسُ فُلانٍ، أيْ: رُوحُهُ. وأَصْلُ الكلمة مِن التَّنْفيسِ، وهو: الخُروجُ مِن الجَوْفِ. وتُطْلَقُ النَّفْسُ على الدّم؛ لأنَّهُ أَساسُ الحَياةِ، أو لأنّ الرُّوحَ تَخْرُجُ بِخُروجِهِ، يُقَال: سالَتْ نَفْسُهُ، أيْ: دَمُهُ. ومِن مَعانِيها أيضًا: الجَسَدُ والحسَدُ والذّاتُ والحَقيقَةُ والعِزّةُ والهِمّةُ[1]، وَالنَّفْسُ قِوَامُهَا بِالنَّفَسِ. قَال الشّاعر:

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نفس).

تَبِيتُ الثَّلَاثُ السُّودُ وَهِيَ مُنَاخَةٌ عَلَى نَفَسٍ مِنْ مَاءِ مَاوِيَّةَ الْعَذْبِ[1].

وقوله تعالى ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي﴾ [المائدة: 116]، أي تَعْلَمُ ما أُضْمِرُ ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ [المائدة: 116]، أي لا أعلمُ ما في حقيقتِك ولا ما عندَك عِلْمُه، فالتَّأويلِ: تعْلَم ما أعْلَمُ ولا أعلمُ ما تعْلَمُ[2]، والنّفس البشريّة المسمّاة روحا، هي سرّ اللّه المودع في الهيكل البشريّ المسوّى من الطّين، وهي جوهر وجود الإنسان، قال الشّاعر أبو الفتح البستيّ:

يا خادِمَ الجِسم كمْ تشقى بخِدْمَتِه *** لِتطلُبَ الرِّبحَ في ما فيه خُسْرانُ

أقبِلْ على النَّفسِ فاستكمِلْ فضائلَها *** فأنتَ بالنَّفسِ لا بالجِسمِ إنسانُ[3]

واللّفظ هاهنا ﴿لِنَفۡسٍ﴾ يعطي دلالة على أنّ موت النّفس أيًّا كانت، لا يتأتّى إلّا بمشيئة اللّه، وهو تعبير عن منهج القرآن في تصويب الملمح العقديّ عند المؤمنين، وخصوصًا عند الأزمات الكبرى، فجاء الاستثناء والنّفي، يبرزان المنحى التّأصيليّ للإيمان، بأنّ اللّه يحرّك الأقدار بحكمة عليا، لا تندُّ عنها نفسٌ مهما دنت أو علت بها الرّتب، ومهما كانت من الدّهماء أو من النّخب، مع وضوح معنى اللّفظ، وفصاحة المبنى، والبلاغ عن مدلوله، المواتي لمضمون الآية.

2) ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾: الإِذْنُ: مَصْدَرُ أَذِنَ، يَأْذَنُ، وأصْلُه: رَفْعُ المَنْعِ، وإطلاقُ الفِعْلِ، والإباحَةُ، يُقالُ: أَذِنْتُ لَهُ في شَيْءٍ، أيْ: أطْلَقْتُ له فِعْلَهُ. ويُطْلَقُ الإِذْنُ على الإعْلامِ، ومِنه الأذان: وهو الإعْلامُ بِدخولِ الوقتِ، وأَذِنْتُ بِالشَّيْءِ: عَلِمْتُ بِهِ. والإِسْتِئْذانُ: طَلَبُ الإِذْنِ[4]، اللّفظ يوحي بهيمنة اللّه وسلطانه على ملكوته، وتدبيره لمقادير الحياة والموت، ممّا يعجز عنه البشر، ولا يطيقون له حملا، فكلّ الأنفس لا يحين أوان موتها إلّا بأمره سبحانه وتعالى، أو أمر من يقبض الرُّوح روحه من الملائكة، وهذه حقيقة علميّة، وعقيدة دينيّة، وظاهرة كونيّة، لا يتأخّر عنها بشر، فهي سنّة اللّه الّتي لا تنقض، وقانونه الّذي لا مفرّ منه ولا مهرب، والّذين يعاجلون الأقدار بالانتحار، إذا التقت إرادة اللّه مع السّبب المتّخذ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).

(2) ابن سيده، المحكم: (نفس).

(3) أبُو الفَتح البُسْتي، قصيدة عنوان الحكم، ص: 36.

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (أذن).

فإنّ المنتحر يموت بما سلّط على نفسه، وإن كان في قدر الله أن يعيش، هبّت ريّاح حظّه، وحملت إليه نسائم الحياة، فأنقذته الأقدار، وفشل ما كان يعزم عليه من انتحار، وماذاك إلّا بإذن اللّه الواحد القهّار[1].

3) ﴿كِتَٰبًا﴾: الكِتابُ: اسمٌ لما كُتِبَ مجموعًا، وكتَبَ الشَّيءَ، أي: خَطَّه. ومِنْ معاني الكتاب: الصَّحِيفة، والدّواة، والقَدَر وهو ما عليه المعنى في الآية، والفَرض، كما يُطلق على المنزل، وعلى ما يكتبه الشَّخص ويرسله[2]، والمعنى أنّ لفظ (كتابًا) في الآية مصدر مؤكّد، وتقديره: (كتب كتابًا)، ومن اعتقد بمقادير اللّه، السّائرة فوق ماتضمّنه الكتاب الّذي يحوي قدر صاحبه، ويتجلّى فيه ما رسمته الأقدار، ليبرز من عالم الغيب، إلى عالم الشّهادة، فيترسّخ اليقين بأنّ الموت بقدر، لا يتقدّم ولا يتأخّر، وقد قيل:

أيَّ يَوْمَيَّ مِنَ المَوْتِ أَفِرّْ *** يَوْمَ لَا قُدِّرَ أَمْ يَوْمَ قُدِرْ

يَوْمَ لَا قُدِّرَ لَا أَرْهَبُهُ *** وَمِنَ المَقْدُورِ لَا يَنْجُو الحَذِرْ[3]

4) ﴿مُّؤَجَّلًاۗ﴾: التَّأْجِيلُ: مَصْدَرٌ مَأْخُوذٌ مِن الفعلِ أَجلَ الشَّيْءُ، يُقال: أَجَّلْتُهُ تَأْجيلًا: جَعَلْتُ له أَجَلًا. وأَجَلُ الشَّيْءِ: مُدَّتُهُ ووَقْتُهُ الذي يَحُلُّ فِيهِ. وخِلافُهُ: العاجِل. والتَّأجِيلُ: تَعْيِينُ وَقْتٍ مُحدَّدٍ في المُسْتَقْبَلِ لِأَداءِ حَقٍّ أو فِعْلِ شَيْءٍ. وجَمْعُهُ: آجالٌ[4]، ومؤجّلًا بمعنى مؤقّتًا، لا يتقدّم ولا يتأخّر عن موعده المدقّق، بأمر اللّه المحقّق، والهزيمة لا تدفع الموت والثّبات لا يقطع الحياة[5].

5) ﴿وَمَن يُرِدْ﴾: الرَّوْدُ: التّردّد في طلبِ الشَّيء برفق، يُقال: رَادَ وارْتَادَ. والْإِرَادَةُ منقولة من رَادَ يَرُودُ: إذا سَعى في طلبِ شيءٍ، والإِرَادَةُ في الأصل: قُوَّةٌ مُركَّبة مِنْ شَهوةٍ وحَاجةٍ وأَملٍ، وجعل اسمًا لنُزوع النَّفس إلى الشَّيءِ مع الحُكم فيه بأنَّه يَنبغي أن يفعل، أَوْ لَا يفعل، ثمَّ يُستعمل مرّة في المَبدأ، وهو: نزوع النَّفس إلى الشَّيء، وتارةً في المُنتهى،

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 3/1801.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، والزَّبيديّ، تاج العروس: (كتب).
(3) ابن عبد ربّه، العقد الفريد: 6/124.
(4) ابن سيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (أجل).
(5) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/253.

وهو الحُكم فيه بأنَّه ينبغي أن يُفعل أو لا يُفعل[1]، ومعنى اللّفظ في السّياق: " من يرد بعمله وطاعته الدّنيا ويعمل لها، نؤته منها ما يكون جزاء لعمله، والمعنى نؤته منها ما نشاء على ما قدّرناه له"[2]، والإرادة نيّة وعزيمة ومبادرة، تتّصل فيها المشاعر المشبوبة بالإيمان، بمتطلّبات الهداية، ومأمورات العناية، والنّاس في توجّههم التعبّدي بين طِلَاب إحدى الدّارين، إمّا الدّنيا وإمّا الآخرة، وعلى قدر النيّة يكون الأجر من المعطي، لأنّه يبلو السّرائر، وبها يؤتي.

6) ﴿نُؤْتِهِۦ﴾: الإيتاءُ بالمدِّ يُسْتَعْمَلُ في الإعْطاءِ، وَفِي الإتْيانِ بالشَّيءِ، تَقُولُ: آتَى يُؤْتِي إِيتَاءً. وَفِي الكشَّافِ: اشْتَهَرَ الإِيتاءُ في مَعْنَى الإعْطاءِ، وأَصْلُه الإحْضارُ. وذَكَرَ الرَّاغبُ أَنَّ الإيتاءَ مَخْصوصٌ بدَفْعِ الصَّدقَةِ؛ وليسَ كَذَلِكَ، فقد وَرَدَ في غيرِه: كقوله تعالى: ﴿يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: 79]، أي: يُعطيَه اللّه كتابَه وحيًا إليه، و﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ١٢﴾ [مريم: 12]، و﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الصّافات: 117]، إلّا أَنْ يكونَ قَصد المَصْدَر فَقَط[3].

7) ﴿ثَوَابَ﴾: مَصْدَرُ: أَثَابَهُ يُثِيبُهُ إِثَابَةً وَثَوَابًا، وَمَعْنَاهُ: الجَزَاءُ عَلَى العَمَلِ، يُقَالُ: أَعْطَيْتُ فلانًا ثَوَابَهُ أَيْ: جَزَاءَ مَا عَمِلَ، وَالثَّوَابُ مِنَ اللهِ ﷻ: الجَزَاءُ عَلى مَا عَمِلْتَهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَهُوَ أَيْضًا: مَا يَرْجِعُ عَلَى المُحْسِنِ مِنْ إِحْسَانِهِ، وَعَلى المُسِيءِ مِنْ إِسَاءَتِهِ[4]، والمراد بثواب الدّنيا في الآية: الغنيمة ونحوها، نزلت في الّذين تركوا مركز المراقبة، وطلبوا الغنيمة، واللّفظ يعمّ كلّ متاع الدّنيا ممّا تطلبه الأنفس وتشتهيه، وإن كان السّبب الّذي نزلت فيه الآية خاصًّا، ويقابله ثواب الآخرة، وهو الجنّة، وذلك أيضا عامّ في كلّ عمل نؤته من ثوابها، ويضاعف أجره أضعافاً كثيرة[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُبيِّن اللّه تعالى أنّه ما كان لنَفْسٍ أن تموتَ إلّا بإذن اللّه، وذلك إذا جاء أجلُها الّذي

(1) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (رود).
(2) الخازن، لباب التّأويل: 1/306.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغب، المفردات: (أتي)، والزَّمخشري، الكشّاف: 4/198، والسَّمين، عُمدة الحفاظ، والزَّبيدي، تاج العروس: (أتي).
(4) ابن دريد، وجمهرة اللغة، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم: (ثوب).
(5) القِنَّوجي، فتحُ البيان: 2/347.

المـــوت قـدر محتوم، وعلى قـدر المقاصد والنّوايا، تكون عند الله العطايا

كتَبه اللّه لها، ثم أَخبر تعالى أنَّه يُؤتي النَّاسَ من ثواب الدُّنيا والآخرة ما عَلَقتْ به إرادتُهم؛ وانعقدت عليه نياتهم، فمَن يُرِدْ ثوابَ الدُّنيا بعملِه، يُؤتِه منها، ومَن يُرِدْ به ثوابَ الآخِرة، يُؤتِه منها، ولكلّ منهما سنن تتّبع، وطرق تسلك، والمؤمن يطلب الحسنيين، واللّه يعطيه كلّ مطلوبه أو بعضه، بحسب سنن اللّه وتدبيره لنظم الحياة، وسيُثيب اللّه تعالى الشّاكرين، فيعطيهم من فضله الواسع، بقدر شكرانهم له، والتزامهم بمراده[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ﴾:

جيء في هذا الحكم بصيغة الجحود؛ للمبالغة في انتفاء أن يكون موت قبل الأجل لتوجّه النّفي إلى الكون عمومًا ثمَّ إلى الموتِ خصوصًا[2].

بلاغة الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾:

الموت والحياة بيد الله وحده

في الجملة الكريمة استثناء مُفرَّغٌ من أعمِّ الأسباب، أي: وما كان الموت حاصلًا لنفس من النُّفوس بسبب من الأسباب إلَّا بمشيئة الحقِّ سبحانه وتعالى، على أن الإذن مجاز فيها؛ لكونها من لوازمه، أو إلا بإذنه سبحانه وتعالى لملك الموت في قبض روحها[3].

بلاغة أسلوب القصر بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾:

لا مــوت لأحد من خلق الله إلا بأجل مكتوب

أفاد القَصْر في الآية الكريمة التَّأكيد بألَّا يموت أحدٌ قبل بلوغ أجله، وخاصَّة في المعارك، وهو قصر حقيقيٌّ، وجاء القصر بطريقِ النَّفي والاستثناء، لتنزيل المنهزمين من المعركة الفارّين من الموتِ منزلة من ينكر أن النّفس لن تموت إلّا بإذن اللّه، كما أفاد

(1) المراغي، تفسير المراغيّ: 4/90.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/114.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/94، والبروسويّ، روح البيان: 2/105، والآلوسّي، روح المعاني: 2/294، والقنّوجي، فتح البيان: 2/346، ورضا، تفسير المنار: 4/137.

القصرُ تأكيد مضمونِ الجملةِ، ولازم ذلك تحريضهم على القتال، وتحميسهم للجهاد في سبيل الله، ودفع شُبَه الوهن والتَّخاذل عنهم، بما يستلزم استدامة الحميّة للحقِّ، والغَيْرة على الدِّين، وتوقُّد جذوة الثَّأر له من خصومه الشانئين والكائدين في قلب المؤمن.

بلاغة المجاز في قوله ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾:

الإذن في الشَّيء لا يقع إلَّا بمشيئة الآذِن

في الجملة مجاز مُرسل وذلك بإطلاق الإِذْن على المشيئة، أي: إلَّا بمشيئة الله؛ لأنَّ الغالب أنَّ الإذن في الشَّيء لا يقع إلَّا بمشيئة الآذِن، والملازمة بين المشيئة والإذن مُصحِّحة للمجاز[1].

بلاغة المجاز بإسناد الموت إلى النَّفس اختيارًا:

وظاهر التَّركيب في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ﴾ يدلُّ على أنَّ الموت من الأفعال التي يُقدم عليها اختيارًا، فقد شاع: ما كان لزيد أن يفعل كذا، فيما إذا كان ذلك الفعل اختياريًّا، لكنَّ الظَّاهر هنا متروك بأن يجعل ذلك من باب التَّمثيل بأنَّ صور الموت بالنِّسبة إلى النُّفوس بصورة الفعل الاختياريِّ الذي لا يقدم عليه إلَّا بإذن[2]، ويمكن أن يراد بالإذن (حقيقته)، والمراد: إذنه لملك الموت بقبض الأرواح، لكنَّ القول بأنَّه تمثيل أو مجاز أولى، وهو أعمُّ، ويندرج فيه القول الثَّاني.

أو هو تعبير بالموت عن طلبه، والإلقاء بالنَّفس في مظانّه، وهي المواقع القتالية من مقدِّمة وساقة ومؤخِّرة واستطلاع وحراسة وغيرها، فيكون مجازًا مرْسلًا، علاقته الملابسة، وثمرته التَّنويه: بأنَّ الموت المقصود هنا: وهو الاستشهاد في سبيل الله، محْض اصطفاء وإنعام، وتوفيق وإكرام، فمهما استبسل المجاهد، وحرص عليها حرص خالد؛ فإنَّ الحرص على الموت موهبة للحياة، كما أُثر عن الحكيم المنطيق أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/289، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1435.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/289.

دلالة التَّعبير في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾:

لكلِّ عُمْرٍ أجَل ولكلِّ أجلٍ قدَر

جاء المصدرُ مؤكِّدًا، أي كتب اللّه الموتَ كتابًا مُؤجَّلًا، أي مُؤقَّتًا بوقت معلوم لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، ويحتمل أن يكون المصدر مع صفتِه مؤكِّدًا لمضمون قولِه تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، أي يُؤكِّد معنى ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ قوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ يُفيد أنَّ له وقتًا قد يكون قريبًا، وقد يكون بعيدًا[1].

مناسبةُ التّعبير في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ﴾:

في الآية فوائد لغوية وبلاغية، هي[2]:

1. أفادت (مَن) الشّرطية في الموضعين العموم، فيكون المعنى عامًّا يشمل جميع من ينطبق عليه الوصف، ويندرج فيه أهل موقعة أُحد اندراجًا أوَّليًّا.

2. التَّعريض بالَّذين تركوا موقعهم في غزوة أُحد؛ طلبًا للغنيمة، ومدحٌ لمن ثبتوا مع النَّبيِّ ﷺ في ميدان المعركة.

3. بديعُ الطِّباق بين ثواب الدُّنيا، وثواب الآخرة، لإفادة المقارنة على سبيل الإيضاح والبيانِ وتركِ الاختيار للمخاطبين.

4. أَنَّثَ (الضَّمير) في ﴿مِنۡهَا﴾، وهو في المعنى راجع إلى الثَّواب؛ للإشعارِ بأنَّ ثوابَ الدُّنيا، هو: الدُّنيا، وثوابَ الآخرة، هو: الآخرة، فرجوع الضّمير إلى المضاف إليه إيذان بأنَّ المضاف ملتبس به غيرُ منفكٍّ عنه، ويقول القائل: (اللَّهم ارزقني الآخرة)؛ وهو يريد: ثوابَها.

5. فيها التفات لطيف لخروجِ الكلامِ من الغيبةِ إلى التكلُّم بنون العَظمةِ، ليكونَ على خلاف ما يترقَّبه السَّامعُ؛ لتنبيه المخاطَب على ما ينبغي تأكيد الإصغاء إليه؛ لأهميّته وللاعتناء بشأنِه، كما أنَّ فيه تطريةً لنشاطِ السَّامعِ لحسنِ الكلامِ.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/424، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/41، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/115.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/424، والواحدي، التفسير الوسيط: 6/45، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/94، والقنُّوجي، فتح البيان: 2/347.

حسن التّذييل في قوله ﴿وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

لمّا خيَّر اللّه عباده في إرادة ثواب الدّنيا وثوابِ الآخرة بيَّن أنّه سبحانه سيجزي الذين يريدون ثواب الآخرة، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى معانٍ هي[1]:

1. لاتكرارَ في جملة التَّذييل مع التي سبقتها في قوله تعالى ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فالجملة الأولى ذكر فيها الشّاكرين على نعمة الثبات في المعركة وعدم الارتداد عن الإسلام والتي في هذه الآية عامَّةٌ لكلِّ النّاس، فذكر الشّاكرين على نعمة إرادتهم ثواب الآخرة.
2. إنَّ اللّه تعالى يُنَعِّمُهُمْ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا، وَلَا يُقْصِرُهُمْ عَلَى نَعِيمِ الْآخِرَةِ
3. لمّا كان الشُّكر على مقابلِ النِّعمة دلَّ على أنّهم يشكرون اللّه على إرادتهم ثواب الآخرة.
4. فيه إشارة إلى أنَّ الشُّكرَ مطلوب على نعمةِ الهداية
5. لمّا أبهم الجزاء ولم يعيّنه دلَّ على فخامتِه وعظمتِه وعمومِه بحيث يقصر عنه البيان.
6. وفي اقتران السين بالفعل دلالة على قرب حصولِ الجزاء، ففيه إشارة إلى تنعّمهم بنعيمِ الدنيا والآخرة لرغبتِهم في ثواب الآخرة وطلبهم لها.

وبعضُ ما تقدّم في فوائد حسنِ التّذييل في الآية السابقة يأتي هنا، وهو واضحٌ.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرُّوح والنَّفس:

الرُّوح جَوهَرٌ لطيفٌ حاملٌ قوَّة الحياة والحسِّ والحرَكةِ الإراديَّة، وهي أَمْرٌ من اللّه تعالى، تَعجز العُقولُ عن إدراك كنهه، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85]. والنَّفس هي ما يجمع بينَ الرَّوح والبَدَن، وتُطلق على القُوَّة الدَّاعية إلى البِرّ والشَّر. والرُّوح: التَّنفُّس، وقد أراح الإنسان إذا تنَفَّس[2]، وقد لاقت هذه المسألة

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/367، والطيبي، فتوح الغيب: 4/291، والآلوسي، روح المعاني: 2/292، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/114.

(2) الراغب، المفردات: (روح)، وسعد بن عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنية: 2/748.

اهتماما كبيرا، وكتبت فيها مصنّفات، وذكرت فيها نقاشات، و"نطقتِ الشّريعةُ بقَبْضِ الرُّوح والنَّفْس، وقد قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85]، والظّاهرُ أنَّ الخَوْضَ في هذا كُلِّهِ عَنَاءٌ، وإنْ كَان قَد تعرَّضَ للقَوْلِ في هذا ونحوه أئمةٌ، ذَكَرَ الثّعلبيُّ عن ابن عبّاس أنّه قال: (في ابن آدم نَفْسٌ ورُوحٌ، بَيْنَهُمَا مِثْلُ شُعَاعِ الشَّمْسِ، فالنَّفْسُ هِيَ الَّتي بها العَقْلُ والتّمييزُ، والرُّوحُ هي الّتي بها النَّفَسُ والتَّحَرُّكُ، فإذا نام العَبْدُ قَبَضَ اللَّه تعالى نَفْسَهُ ولم يَقْبِضْ رُوحَه)[1]، وقد أفاض السّيوطيّ في حاشيّته على البيضاويّ معلّقا وشارحا لما أورده الغزاليّ في كتابه: (الانتصار لما في الإحياء من الأسرار)، في مشابهة أجزاء العالم لأجزاء الإنسان، والّذي قال فيه: "ولا يناقض ما ذكرناه هنا من التّفرقة بين الرّوح والنّفس، قولنا في الإحياء: إنّهما شيء واحد؛ لأنّ لها معنى يسمّى بالرّوح تارة، وبالنّفس أخرى، وبغير ذلك"[2]، وقال الشّهاب الخفاجيّ: "أراد بالنّفس ما به العقل والتّمييز، وبالرّوح ما به النّفس والحركة، فإذا نام العبد قبض اللّه نفسه، ولم يقبض روحه"[3].

الإيتَاء والإعْطَاء:

الإيتاءُ أَقْوَى مِنَ الإعْطاءِ في إثْباتِ مفْعولِه؛ لأنَّ الإعْطاءَ لَهُ مُطاوِعٌ بخِلافِ الإيْتاء، تقولُ: أَعْطاني فعطوت، وَلَا يقالُ: آتَاني فَأتيت، وإنَّما يقالُ آتَاني فأَخَذْتُ. والفِعْلُ الَّذي لَهُ مُطاوِعٌ أَضْعَفُ في إثْباتِ مَفْعولِه ممَّا لَا مُطاوِعَ لَهُ؛ لأنَّك تقولُ: قَطَعْته فانْقَطَعَ، فيدلُّ على أَنَّ فِعْلَ الفاعِلِ كانَ مَوْقوفًا على قبولِ المَحلِّ، لولاه مَا ثَبَتَ المَفْعُولُ، وَلِهَذَا لَا يصحُّ قَطَعْته فَمَا انْقَطَعَ، وَلَا يصحُّ فيمَا لَا مُطاوِعَ لَهُ ذَلِك؛ ودليل ذلك في مَواضِع مِنَ القُرْآنِ، قالَ تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لأنَّ المُلْكَ شيءٌ عَظيمٌ لَا يُعْطاهُ إلَّا مَنْ لَهُ قُوَّةٌ؛ وقالَ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]؛ لأنَّه مورود في المَوْقفِ مُرْتَحل عَنهُ إلَى الجنَّة. وذهب الزَّبيدي إلى أنَّ الإعْطاءَ أَقْوَى مِنَ الإيتاءِ؛ وَلذَا خَصَّ في دفْعِ الصَّدَقاتِ الإيتاءَ ليكونَ ذلِكَ بسُهولَة من غَيْرِ تَطَلُّعٍ إِلَى مَا يَدْفَعه، وتَأَمَّل سائِرَ مَا وَرَدَ في القُرْآنِ تَجِدْ مَعْنَى ذلِكَ فِيهِ، والكَوْثَرُ لَمَّا كانَ عَظِيمًا شَأْنُهُ غَيْر داخِلٍ في حِيطَةِ قُدْرَةٍ بَشَرِيَّةٍ اسْتُعْمِل الإعْطاءُ

---

(1) ذكره ابن عطيّة في تفسيره: 4/534، والسّيوطي في الدُّرّ المنثور: 5/616، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، نقلاً عن الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 5/93.

(2) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 1/184.

(3) الخفاجيّ، عِنَايةُ القَاضِي: 7/340.

فِيهِ. وكَلامُ الأئمَّة وسِياقُهم فِي الإيتاءِ لَا يُخالِفُ مَا ذَكَرْنا[1]، وخلاصة القول فيهما، أنّ الإعطاء دليل التّملك دون الإيتاء، وهو قول النّيسابوريّ، ومن حيث إنّ الإيتاء: أقوى من الإعطاء، لأنّ الإيتاء في مواضع وروده في القرآن الكريم، عادة ما يرد فيما له ثبات وقرار، ويضربُ لذلك مثلٌ، بما ذكر القرآن أنّه يؤتى، كالحكمة في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾ [البقرة: 269]، والسّبع المثاني، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87]، والملك الّذي لا يؤتى إلّا لذي قوّة، في قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [يوسف: 101][2]، والإعطاء: "فيما ينتقل منه بعد قضاء الحاجة منه، كإعطاء كلّ شيء خلقه، لتكرّر حدوث ذلك، باعتبار الموجودات، وإعطاء الكوثر، للانتقال منه إلى ما هو أعظم منه، وكذا ﴿يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ٥﴾ [الضحى: 5] للتّكرّر إلى أن يرضى كلّ الرّضا"[3]، وهو دليل على دقّة إيراد اللّفظ النّفيس، ووضعه في الموضع الملائم لمؤدّاه، والمناسب لصيغته وموسيقاه.

(1) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (أتي).

(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 212.

(3) الكفويّ، الكليات، ص: 212.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ [آل عمران: 146]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين ذكر الموت وثواب الدّارين، وبين تضحيات أنصار الأنبياء السّابقين

ارتبط ما ورد في الآية السّابقة، بالتّأكيد على أنّ الأنفس بيد اللّه، وأنّ الآجال قدره ومراده، وذلك بما تضمّنته هذه الآية الكريمة، من تنويه بأنصار الأنبياء السّابقين وحوارييهم، من الّذين لم يدّخروا وسعا في المبادرة، لشدّ عضد أنبيائهم، ومواجهة أعداء اللّه في زمانهم، بما يملكون من جهد وقوّة، وفي ذلك تسليّة للمسلمين، وتسرية عن القلوب المنكسرة بالهزيمة، في أحداث معركة أحد الأليمة، وهو مثال على الثّبات في المعترك، وتحمّل الأذى والإصابة في سبيل اللّه، من غير وهن مُرْدٍ، ولا ضعف مُخْزٍ، ولا استكانة مُوبِقَة، وفي النّموذج المطروق، عبرة لمن أصابهم القرح، فجبُنَتْ قلوبهم، وانكسرت نفوسهم، وخارت عزائمهم، رجاء أنْ يدركوا أنّ الحرب سِجَالٌ، وأنّ الأيّام دُوَلٌ، وأنّ النّصر مع الصّبر، وأنّ اللّه يحبّ الصّابرين.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكَأَيِّن﴾: أَيْ كثيرٌ من الأنبياء، وكأيّ بِمعنى كم من نبيّ، وكم بمعنى الكثرة، وتعمل عمل رُبَّ في معنى القِلَّة، وفي كأَيٍّ ثلاث لغات: كأَيٍّ بوزن كَعَيِّنْ، والأصل أيٌّ أدخلت عليها كافُ التَّشبيه، وكائِنْ بوزن كاعِنْ، واللُّغةُ الثَّالثةُ كايِنْ بِوزنِ مايِنْ، لا همز فيه[1]، ولفظ (كَأَيِّنْ)

(1) ابن منظور، لسان العرب: (كين)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 113، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/116 - 117.

بمعنى كم في الاستفهام والخبر، وهي مركّبة من الكاف الدّالة على التّشبيه، ومن لفظ (أيّ) الدّالة على الاستفهام، "وقد حدث فيها بعد التّركيب معنى التّكثير المفهوم من (كَمْ) الخبريّة، ولا تتعلّقان بشيء، لأنّهما صارتا بمنزلة كلمة واحدة، وأنَّ آخرَها نون هي من نفس الكلمة لا تنوينٌ[1]، ولذلك رأى أبو حيّان أن تكون (كأيّن) كلمة بسيطة غير مركّبة"، قال درويش: "ولم أجد من يؤيّده وإن كان رأيه جميلًا سهلًا"[2]، ونظرا لوجاهة رأي أبي حيّان، فقد أدرجناها في المفردات الّتي تستحقّ أن تشرح، فقد يشتبه على بعض النّاس معناها، وتلتبس عليهم دلالتها، خصوصا وأنّ بعض اللّغويين يوردها مع الأدوات النّحويّة، باعتبار أجزاء التّركيب، لا باعتبارها كلمة بسيطة..

2) ﴿مِّن نَّبِيّ﴾: النَّبيُّ: المخبر عن اللّه تعالى، فعيل من النَّبأ، وهو: الخَبَر والعِلْم، والإنباء: الإخبار والإعلام عن الشّيء قبل وقت ظهوره، وقيل: أصلُ النَّبيّ مِن النُّبوة والنُّبُوء، وهو: العلوّ والارتفاع، أي: ارتفع. والنَّبيءُ والنَّبيّ: العالي المرتفع، ومنه سُمِّي النَّبيُّ نبيًّا؛ لإخباره عن اللّه، ولرفعة قدره في الدُّنيا والآخرة. وجمعه: أنبياء[3]، وكلُّ نَبيٍّ شاهد على أمّته، والأنبياء المشار إليهم هنا في قوله: ﴿مِّن نَّبِيّ﴾، هم أنبياء بني إسرائيل، ممّن قادواْ الجيوش، وقاتلواْ في سبيل اللّه، ونموذجهم الأكبر، داوود وسليمان وغيرهم، وكان آخر من قاد الجيوش، وأدار المعارك، بتسديد ربّانيّ، وتدعيم بملائكة السّماء، وعبقريّة في القيّادة لا تبارى، هو سيّد الخلق، محمّد الرّسول القائد، وقد كان قائدا للأمّة في الحسّ والمعنى، وقد قاتل معه أصحابه، كما فعل الرّبيون مع أنبيائهم قديما.

3) ﴿رِبِّيُّونَ﴾: الرِّبيّون: جمع رِبِّيٍّ، وهو المتَّبع لشريعة الرَّبِّ، مثل الرَّبَّانيِّ،[4] وهو منسوب إلى لفظ الرَّبِّ بمعنى: التَّربية، وذلك أنَّ العلماء يرُبُّون العلم، أي: يصلحونه، ويتعلَّمونه، ثمّ يرُبُّون به النَّاس، فيعلِّمونه، كما تعلَّموا[5]. وذكر أبو السُّعود أنَّ كلمة (رِبِّيٌّ) نسبة إلى الرَّبِّ كالرَّبَّانيِّ، وقيل: هو منسوب إلى الرِبَّة، وهي الجماعة، أي: كثير من

(1) السّمين، الدّر المصون: 3/426.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/67.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (نبو).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/118.
(5) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (ربب).

الأنبياء قاتل معه لإعلاء كلمة اللّٰه وإعزاز دينه، علماء أتقياء، أو عابدون، أو جماعات كثيرة[1]، والنِّسبة إلى الرَّبِّ هي الأولى، ففيها امتداح لمن ينبغي أن يكون التأسِّي بهم، أو رِبِّيُّونَ: أي: جماعاتٌ كثيرة، مُفْردها رِبِّيٌّ، والرِّبِّيونَ: الأُلوف، وأَصْلُه من الرِّبَّة، وهي: الجماعةُ، كأنَّ الرِّبِّيَّ نُسِب إليها، والرَّاءُ وَالبَاءُ يَدُلُّ عَلَى ضَمّ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، ومنه الرَّبَبُ، وَهُوَ المَاءُ الكَثِيرُ، وقيل الرِّبِّيون مَنْسُوبُونَ إلى الرَّبِّ، وهُم العُلَماءُ الأَتقياءُ الصُّبُر، فالرِّبِّيُّ كالرَّبانيُّ[2]، وخلاصة أوصاف الرّبانيين أنّهم صفوة من الفقهاء، من أولي القوّة والبأس، والفاهمين سبل الحرب، والمقتنعين بدورهم في الذّب عن بيضة الدّين، وعن حمى اللّٰه الّذي ائتمن عليه المؤمنين، وهم بذلك أتباع للنّبيّ الّذي يقودهم، ومعنى آخر أنّه يمكن أن ينصرف معنى اللّفظ إلى أنّ منهجهم ربّانيّ، مربوط بوحي السّماء، وبربوبيّة اللّٰه الّذي أرسل النّبيّ وأنزل الكتاب، فهم ﴿رِبِّيُّونَ﴾ مثل قولنا في زماننا عمّن وصفوا بما سلف من صفات، إنّهم (ربّانيون)[3].

4) ﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾: أي: ما خشعواْ وما ذَلُّواْ، وما خَضعواْ للعدوِّ، ومنه أُخذ المستكين، وأصلُ الاستكانة: إظهارُ الضَّعْف، واسْتَكانَ الرَّجُلُ: خَضَعَ وذَلّ، يُقَالُ أَكانَه اللّٰهُ يُكِينُه إِكَانَةً أَي أَخضعه حَتَّى اسْتَكان وأَدخل عَلَيْهِ مِنَ الذُّلِّ مَا أَكانه[4]. ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾، ﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ ﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾، الوهن: ضعف من حيث الخَلْق أو الخُلُق[5]، وفي عمدة الحفَّاظ: أنَّه ضعف ورقٌّ[6]، أمَّا الضَّعف؛ فهو خلاف القوَّة، وقد يكون في النَّفس أو في البدن أو في الحال[7]، والاستكانة إمّا من السُّكون، وهو ثبوت الشَّيء بعد تحرُّك، وأصله: (استكون) فنقلت الفتحة الى الكاف، ثمّ قلبت الواو ألفا، ووزنه افتعل[8]، وإمّا مِنَ الكَوْنِ فَوَزْنُهُ (استفعل) وألفه منقلبة عن واو، والسِّين مزيدة للتَّأكيد كأنَّه طَلَبَ من نفسه أن يكون

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/95.

(2) الرَّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (ربب)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (رب)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 113.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1806.

(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (كين)، وابن قتيبة الدِّينَوَريُّ، غريب القرآن، ص: 113، 299.

(5) الرَّاغب، المفردات، ص: 887.

(6) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (وهن).

(7) الرَّاغب، المفردات، ص: 506 - 507.

(8) الرَّاغب، المفردات، ص: 506 - 507.

لمن قهره[1]، ومعنى ﴿ٱسۡتَكَانُواْ﴾ في السّياق، ضعفوا وذلوا والاستكانة الانكسار والوهن، وعدم الاستكانة مؤشّر على الشّهامة وعلوّ النّفس، ومتانة الدّين، والغيرة عليه.

5) ﴿أَصَابَهُمۡ﴾: الوُصُولُ وَبُلُوغُ الغَايَةِ، وَالمُصِيبُ: البَالِغُ غَايَتَهُ، وَضِدُّ الإِصَابَةِ: الخَطَأُ، وَتَأْتِي الإِصَابَةُ بِمَعْنَى: أَخْذِ الشَّيْءِ وَالحُصُولِ عَلَيْهِ، وَأَصْلُ الإِصَابَةِ مِنَ الصَّوْبِ وَهُوَ القَصْدُ، وَمِنْ مَعَانِي الإِصَابَةِ أَيْضًا: الإِدْراكُ والإمالةُ والنَّجَاحُ والإِيجَادُ[2].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

توجيه المؤمنين إلى الصَّبر عند القتال، أُسوة بأتباع الرُّسل المخلصين

كم من نبيٍّ من الأنبياء السَّابقين، قاتل معه نخبٌ أثيرة كثيرةٌ، من أتباعه الصّادقين، وحواريّيه المخلصين، فما تقاعسواْ عن الجهاد، ولا تثاقلواْ عن الجلاد، رغم ما أصابهم من جروح وقروح، وما حلّ بهم من قتل وتنكيل، بل احتسبواْ ذلك في سبيل اللّه، وما تأخّرواْ عن قتال العدّو، ولا خضعواْ له، ولا باعوا دنياهم بالدّين، بل صبرواْ وثبتواْ، واللّه يحبّ الصَّابرين، ويجازيهم في الدّنيا والآخرة[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ تقديم ذِكر المحاسن الفعليَّة على القوليَّة:

تقديم ذكر الأفعال على الأقوال للأهمية

قدّمَ ذِكر المحاسن الفِعليَّة في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ﴾ [آل عمران: 146]، على المحاسن القوليَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ [آل عمران: 147]؛ للاهتمام بها وللتنبيه على أنَّ ثباتهم وقوّتهم في الدّين وكونهم ربّانيين منشأ

(1) الخفاجيّ: عناية القاضي: 3/69.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (صوب).

(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 94، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 68، وجماعة من علماء التَّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 68.

المحاسن القوليَّة في طلب المغفرة وتثبيت الأَقدَام والنَّصر[1]. وأيضا جاءت المحاسن الفعلية على طريق نفي لِلإشعار بأنَّ الأصل في قتال الكافرين هو الجدُّ في العزيمة والقوّة في الإقدامِ والعزّة والظُّهور على العدوِّ.

مناسبة الوصل بالواو في الآية:

لمّا ذكر الله تعالى الذين وهنوا وضعفوا من المؤمنين في غزوة أحد ناسب أن يقوّي عزمهم بضربِ المثل للمؤمنين بمن سلف من صالحي الأمم من الذين قاتلوا الكفّار مع أنبيائهم، فإنَّ في ذكر النّظير تقويةً للعزائم ورفعًا للهمم، ولمّا مثّل بذكر وصف النبوّة وذكر أوصاف الربيين الذين معه دلَّ على أنّ الأولى لهم أن يكونوا أثبت من الربيين وأشدَّ عزيمة منهم في قتال العدوِّ؛ لأنَّ صاحبهم متّصف بوصف الرسالة، والرسول أعلى مرتبةً من النبيِّ، فسِيقت الآيةُ لتبكيتِ المنهزمين الَّذين لم يستَنُّوا بسُنن الرَّبانيين المجاهدين مع الرُّسل عليهم السلام مع أنَّهم أَولَى بذلك حيث كانوا خير أمَّة أُخرجت للنَّاس

التـأسّي بمَن مـضَى من صالحِي الأُمم السَّابقة

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿وَكَأَيِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾:

﴿وَكَأَيِّن﴾ في الكلامِ بمنزلة (كم) الخبرية في إفادة تكثير عدد تمييز مجرورِها، غير أنَّ دلالتها على التكثير أوسع من دلالة (كم) وهي تفيد مع التّكثير تأكيده وتعظيم ما سيقت له وتفخيمه[2]، فأفادت ﴿وَكَأَيِّن﴾ تكثير عدد الجماعات من كلِّ نبيٍّ قاتل معه ربّيون كثير، وتصديرها في الكلام يؤذن بعظم أوصافِ الربّيين المذكورة.

التَّكامل الدَّلالي للقراءات في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن﴾:

قراءة: ﴿وَكَأَيِّن﴾ لنافع وأبي عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائيِّ من السَّبع، ويعقوب وخلف من بقيّة العشر، وقرأ ابن كثير وأبو جعفر، والأوَّل من السَّبع والثَّاني من بقيَّة العشر: ﴿وَكَآيِن﴾ بألف بعد الكاف همزة مكسورة بعده، إلَّا أنَّ ابن كثير قرأ بتحقيق الهمزة،

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/351.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 3/182، والسامرائي، معاني النحو: 2/342.

على حين قرأ أبو جعفر بتسهيلها مع المدِّ والقصر[1]، أمّا (كائن)؛ فمعناها المثبت عند النُّحاة وكبار المفسِّرين: هو معنى كم الخبرية المفيدة التكثير مثل (كأيّن) غير أنَّ دلالتها على التكثير أوسع من دلالة (كم)؛ ولذا قالوا في معناها: إنَّه (كم وكم) تكثيرًا؛ مراعاة لأصل معنى: إفادة زيادة المبنى زيادة المعنى، كما هي القاعدة المعروفة، وأمّا التَّسهيل وأثره في المعنى مع المدّ اعتبارًا بالأصل؛ فإنّ المُسَهَّل: أصله محقَّق، فالاعتداد بالأصل يقتضي إجراء الفرع مُجْراه، فكان المدُّ، وأمَّا القصر؛ فاعتدادٌ بالعارض، وهو ذهاب الهمز بالتَّسهيل، فذهب داعي المدِّ من حيث إنَّه روعي فيه عند تحقيق الهمز بعد ما بين المخرجين مخرج الكاف عن مخرج الهمزة، هو ما يستوعب بُعْدَ ما بيْن أقصى اللِّسان وأقصى الحلق، وهذا الّذي يقوله علماء الصّوتيّات لا يصادر على معنى: أنَّ التَّسهيل ضربٌ من الإخفاء، وهو النُّطق بالهمزة بحالة بين الهمز وبين الحرف الذي منه أُشكلت، وإذ هو الكسر هنا، فذلكم النُّطق بالهمزة بحالة بينها وبين الياء، وذلك الخفاء إيحاء تعبيريٌّ تصويريٌّ ينسحب على المعنى يوسِّع دلالته، ويعمِّق مغزاه، وكأنَّه يقول: إنّ كثرة ذلك الّذي تضمَّنته الآية أمثلة ووقائع وأسماء، قد علمه من علمه، وغاب عمّن غاب عنه عن غير تقصير في تحصيل؛ لأنّ خفاءه موغل في الزمن، بعيد في الماضي السحيق بعدًا يُشعِرُ به المدُّ مع التَّسهيل، بيْد أنَّه الخفاء والبُعْد الَّذي لا يمنع أصل العلم به وحصول الخبر الصّادق الثَّابت عنه، وهو فوق ذلك توسُّع في إشاعة التّحدي وإذاعته وإفاضة المعجزة ونشرها بإجرائه على ألسنة العرب كافة، من حيث إنَّ التسهيل إحدى لغات القبائل العربية والأمصار ولهجاتها الفصيحة ذات الدلالات البعيدة المفيدة.

دلالة التَّنكير في لفظ ﴿نَّبِيٍّ﴾:

أفادَ التَّنكير في لفظة ﴿نَّبِيٍّ﴾ التَّعظيم، وهو اللّائق لوصفِ النبوَّةِ[2]، ليكون مناسبًا للسياق الوارد على معنى التكثير والتّفخيم الذي أفادته ﴿وَكَأَيِّن﴾، فذكر لفظَ ﴿نَّبِيٍّ﴾، لتكون التسلية أعظم للنّبي ﷺ وللصّحابةِ بذكر ما هو طبق ما وقع في غزوة أحدٍ[3].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/519، وابن الجزري، النشر: 2/242.

(2) الآلوسيُّ: روح المعاني: 2/296.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/86.

القراءات القرآنية:

تعدّد القراءات وتوسّع المعنى

قرأ نافعٌ وابنُ كثير وأبو عمرٍو ويعقوب بضمِّ القاف وكسر التَّاء من غير ألف ﴿قُتِلَ﴾، وقرأ ابن عامر، وعاصم ابن أبي النُّجود وحمزة والكسائيُّ وأبو جعفر يزيد بن القعقاع وخلف البزّار بفتح القاف والتَّاء وألف بينهما ﴿قَٰتَلَ﴾[1]، ولكلِّ قراءة معنًى[2]:

1) فمن قرأ بالبناء للمفعول: ﴿قُتِلَ﴾؛ فيحتمل المعنى وجهين: الأوَّل: أن يكون المسند إليه هو الضّمير العائد إلى (نبي)، والمعنى أنَّ النبي قُتِلَ، ويكون (معه ربّيون كثير) حالًا على الأرجح، والمعنى أنَّ النبيَّ قُتِل فما وهن الربّيون الكثير لما أصابهم في سبيل اللّه وما ضعفوا وما استكانوا، ووجه حسنِ هذا التّوجيه على هذه القراءة أنّها مناسبةٌ للواقعة، وذلك أن المؤمنين إنما تخاذلوا لما قيل قُتِلَ محمَّدٌ، فضرب المثلَ بنبيٍّ قُتِلَ.

الثاني: أن يكون المسند إليه هو (ربّيون)، والمعنى، كثيرٌ من الأنبياء قُتِل ربّيون كثير كانوا معهم، فما وهنَ الباقون منهم وما ضعفوا وما استكانوا. ووجه حسن هذا التّوجيه على هذهِ القراءة أنَّ السّياقَ واردٌ في معاتبةِ الذين انهزموا يوم أُحُد، وعذلِهم على تركِهم القتال، بعدَ ما سمعوا الصائح يصيح: "إنَّ محمدًا قد قتل" فأخبرهم عما كان من فعل كثير من أتباع الأنبياء قبلهم، وقال لهم: هلا فعلتم كما كان يفعل أتباعُ الأنبياء، وقد ورد عن الحسن وسعيد بن جبير أنّه لَمْ يُقْتَلْ نَبِيٌّ فِي حَرْبٍ قَطُّ.

ووجه حسن هذه القراءة على التّوجيهين معًا، أن (قُتِل) يَظْهَرُ فيها المَدْحُ أكثرَ من (قاتل)، وَهِيَ أَبْلَغُ فِي مَقْصُودِ الْخِطَابِ، لِأَنَّهَا نَصٌّ فِي وُقُوعِ الْقَتْلِ، وَيَسْتَلْزِمُ القتلُ حصولَ الْمُقَاتَلَة، وأمّا (قَاتَلَ) فلَا تَدُلُّ عَلَى الْقَتْلِ، إِذْ لَا يَلْزَمُ مِنَ الْمُقَاتَلَةِ وُجُودُ الْقَتْلِ، فقَدْ تَكُونُ مُقَاتَلَةٌ وَلَا يَقَعُ قَتْلٌ، ويكون المراد على هذه القراءة الحثّ على الثباتِ عند قتالِ العدوّ.

2) أمَّا من قرأ ﴿قَٰتَلَ﴾؛ فالمعنى: له وجهان كذلك: الأول أن يكون الفاعل الضّمير العائد على ﴿نَّبِيّٖ﴾ والمعنى وكم من نبيٍّ قاتل والحال معهم ربّيون كثير، والثاني: أن

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/242.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/264، وابن جنّي، المحتسب: 1/173، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/520، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/380، والنيسابوري: غرائب القرآن: 2/273، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/370.

يكون الفاعل هو ﴿رِبِّيُّونَ﴾ والتّقدير، وكم من نبيٍّ قاتل معه العددُ الكثيرُ من أصحابه، فأصابهم من عدوِّهم قَرْحٌ فما وهنوا؛ لأنَّ الَّذي أصابهم إنَّما هو في سبيل اللّه، فكذلك ينبغي أن تفعلوا يا أمَّة محمَّد.

ووجه حسن هذه القراءة على التّوجيهين معًا أَنها أعم في المدح؛ لأنَّه يدخل فيها من قُتِلَ ومن بَقِي، ويكون الغرضُ على هذه القراءة ترغيب الذين كانوا مع النبي ﷺ في القتال.

ورجّح ابن جنّي إسناد الفعل في القراءتين إلى ﴿رِبِّيُّونَ﴾ وأيّده ابن عطيّة؛ لما دلَّ عليه السياق من معنى التّكثير الدالِّ على كثرةِ الأشخاصِ؛ بدلالة ﴿وَكَأَيِّن﴾ و﴿رِبِّيُّونَ﴾ و﴿كَثِيرٌ﴾، فيكون القتل أو المقاتلة منسوبًا للربّيين، كما أنَّ السياق جارٍ في عتاب المنهزمين ليذكَرهم بحال الثابتين مع الأنبياء من قبل.

نُكتة المجاز المرسل في قوله: ﴿قُتِلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾:

التَّـنـبـيـهُ على الاقـتـداء بِسِـيَرِ الـصَّـابـريـن وأحوالهم

على قراءةِ من قرأ بالفعلِ المبني للمفعول ﴿قُتِلَ﴾ إذا كانَ مُسندًا إلى ﴿رِبِّيُّونَ﴾، فالمعنى وكأين من نبي قُتِلَ ربيون كانوا معه، وبَقِيَ على دينه رِبِّيُّون كثير فما ضعف الباقون ولا استكانوا بقتل من قُتِلَ من إخوانهم بل مضوا على جهاد عدوِّهم فينبغي لكم أن تكونوا كذلك[1]، فالمقتول هو بعض الرّبّيين وليس جميعَهم، فيكون التّعبيرُ بـ ﴿رِبِّيُّونَ﴾ على طريقة المجازِ المُرْسلِ بعلاقةِ العمومِ، من بابِ ذكر العامِّ وإرادة الخاصِّ.

دلالة إيثار الظَّرف (مع) مع تقديمه على ﴿رِبِّيُّونَ﴾:

رفـعـة منـزلـة القتال في سبيل الله وبيان أصالة الأنبياء فيه

قدّم الظّرف ﴿مَعَهُۥ﴾ للاهتمام بالمعيَّة؛ للتنبيه عَلَى أصالة النَّبيّ في القتال، في كونه قائدًا متبوعا، وهو اللّائق بأنبياء اللّه ﵈، وعلى

(1) زاده: حاشية على البيضاويّ: 3/186.

توجيه أن يكون ﴿رِبِّيُّونَ﴾ فاعلًا يفيدُ تقديم الظّرف أيضا العناية بالفاعل لا التّخصيصِ[1].

دلالة النِّسْبَةِ في لفظة ﴿رِبِّيُّونَ﴾:

تأييد الله لأنبيائه ورسله تكون بالصَّالحين المُخْلِصين من النَّاس

فالرِّبِّيُّ يحتمل أنّه منسوبٌ إلى الرَّبِّ كالرَّباني وكسرُ الرَّاءِ من تغييرات النَّسَبِ، فهُم العُلَماءُ الأَتقياءُ العارفون بربّهم والعابدون له، ويكون الرِّبِّيُّ كالرَّبانيّ، وهو الظّاهر، ويدل على هذا المعنى اقترانُهم بذكرِ النَّبيّ، ويحتمل أنّه منسوبٌ إلى الرِّبَّة، وهي الجماعة الكثيرة فتكون النِّسبة للمُبَالَغَة للكثرةِ كأحمري، وماداموا مع الأنبياء فهم أتقياء، فالمعنى على كلا الاحتمالين قريب، فكثيرٌ من الأنبياء قاتلَ معه لإعلاء كلمةِ اللّه وإعزاز دينِه علماءُ عابدون أو جماعاتٌ كثيرة أتقياء فثبتوا على دينهم[2].

نكتةُ وصفِ الجمعِ ﴿رِبِّيُّونَ﴾ بصيغةِ المفرد ﴿كَثِيرٌ﴾:

يأتي لفظ (كثير وقليل) ويعامل موصوفهما معاملة لفظ شيء أو عدد، فيكون المعنى هو الجمع والصّيغة صيغة المفرد، ولم يذكر لفظ الجمع في الصِّفة ﴿كَثِيرٌ﴾ ليناسب جمعَ الموصوف ﴿رِبِّيُّونَ﴾؛ لمناسبةٍ في الدَّلالة على أنَّ الرِّبِّيِّين في ثباتهم كانوا على قلب رجل واحد، فكأنَّ الكلَّ في واحد، فهذا من أثر إفراد الصِّفة في اللَّفظ، وقد يكون مثل ذلك لإفرادها في الرَّسم، والمعنى على الجمع، وذلك إعجاز لا يُعْهد في غير القرآن العظيم وسبحانه من هذا كلامه[3].

بديع مُراعاة النَّظير في وصف ﴿رِبِّيُّونَ﴾ بـ ﴿كَثِيرٌ﴾:

وصْفُ الرِّبِّيين بأنّهم ﴿كَثِيرٌ﴾ من باب مُراعاة النَّظير الذي دل عليه لفظ ﴿وَكَأَيِّن﴾ المفيد للتَّكثير، فإنَّ كثرة الأنبياء وتَتَابُعَهُم يدلَّان على كثرة من يؤمن منهم ويَتَّبِعُهم.

---

(1) القونويُّ: حاشية القونويِّ على البيضاويِّ: 6/347.

(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (ربب)، وأبو السُّعود: إرشاد العقل السليم: 2/95، والقونويُّ: حاشية القونويِّ على البيضاويِّ: 6/348.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/118.

دلالة الفاء في قوله ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾:

أفادت الفاء أمرين أحدهما الإشعارُ بتوقُّعِ الوهن من القتال على العموم، والثاني ترتُّبَ نفي الوهن وما بعده عن الربّيين على قتالِهم مع نبيّهم، وفيه إيذانٌ بأنَّ وجود النبيِّ معهم كان سببًا في نفي الوهنِ عنهم، ففيه تأكيد التّعريض بالصحابة الذين انهزموا يومَ أحدٍ ولم يثبتوا في القتال مع أنَّهم كانوا مع رسولِ اللّهِ ﷺ.

مناسبة تقييد الوهن في قولِه ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

ورد القيدُ ﴿لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في مقام علّة نفي الوهن عنهم، وقوله ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حالٌ في مقامِ التّعليلِ، فإن كونَ ذلك في سبيله ﷻ مما يقوِّي قلوبَهم ويُزيلُ وهنَهم[1]، ولمّا كان المعطوفان ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ مشتركين في الحكم مع المعطوف عليه بقيدِهِ، كان الكلامُ على نيَّةِ تكرارِ القيدِ والتّقديرُ (وما ضعفوا لما أصابهم في سبيل اللّه وما استكانوا لما أصابهم في سبيل اللّه)، أو يقال إنَّه حذف من المعطوف الأول والثاني لدلالة ما ذكر في المعطوف عليه، إيجازًا في الكلام وللاهتمام بشأنِ نفي الوهن الذي ينبى عليه ما بعده[2]، وهذا القيد يجري في الآية التالية كذلك، فكون ما أصابهم في سبيل اللّه هو علّة قولهم المذكور.

نُكتة ترتيب المعطوفات: (الوَهَنُ والضَّعْفُ والاستكانة):

ترتيبُها في الذِّكر على وفقِ ترتيبها في الحصول

لمّا كان العطفُ يقتضي المغايرة بين المعاطيف دلَّ على أن الوهن والضعف والاستكانة متغايرة في المعنى، فالمعاني على التّأسيس لا التّأكيدِ، ومِن اللَّطائف: ترتيبُ هذه الثلاثةِ في الذِّكر على حسَب ترتيبِها في الحُصولِ ترتيبًا تلازميًّا تصاعديًّا؛ فإنَّه إذا فترتِ العزيمةُ والاجتهادُ في الإقدام في الحربِ، ضعفت القوّة وفَشِلت الأعضاءُ، وجاء الاستسلامُ، فتظهر المذلَّةُ والخضوعُ للعدوِّ[3]، فالوهن أشدُّها، ويليه الضَّعف، ويليه الاستكانة فَنَفَى أوَّلًا الأبلغ ثُمَّ ما دونه ثُمَّ ما دونه؛ لأنَّ نفي الأخصّ لا يستلزم نَفْيَ الأَعَمِّ[4].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/95.

(2) ابن عرفة: تفسير ابن عرفة: 1/426، والبِقاعيُّ: نظم الدُّرر: 5/87.

(3) ابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 4/118 - 119.

(4) البسيليّ التَّقييد الكبير ص: 580.

بلاغة التّعريض في هذه الآية:

في الآية تعريض بما أصاب المسلمين يومَ أحدٍ من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول اللّه ﷺ، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم، والغرض من هذا التّعريض تشجيع المؤمنين على القتال وحثّهم على الاجتهاد والثبات عند قتال الكفار، فإنّه إذا كان أصحاب الأنبياء السّالفين قد ثبتوا وصبروا عند حلول المصائب أو موت المتبوع وما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا، فالأولى للمسلمين أن يتّصفوا بصفاتِهم أو يزيدون[1].

في جملة التّذييل فوائد لغويّة وبلاغيّة في قولِه تعالى ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ هي[2]:

حسن التّذييل

تأكّد مضمون الجملة وتقوّى حكمها بمجيئها اسميّةً مخبرًا عنها بقوله ﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، والمعنى تحقيق محبّة اللّه للصَّابرين، لبيان اصطفائهم للإكرام بمحبَّة اللّه تعالى.

وفي الجملةِ إظهارٌ في موضع الإضمار؛ فلم يقل (واللّه يحبّهم) للثناء عليهم بالوصفِ الأحسن الذي هو ملاك الأمر، كما أنَّ التّعبيرَ بالاسم المشتقِّ مشعرٌ بعلَّة الحُكْمِ، والمعنى اللّه يحبّهم لاتّصافهم بالصبر.

ومجيء الفعل ﴿يُحِبُّ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على أنَّ حبَّ اللّه للصّابرين يستمرُّ بتجدّد أثره فيهم حالًا فحالًا

وتحتمل (أل) في الصابرين أن تكون عهديَّةً، فيكون المرادُ المذكورين في سياق الآيات، كما تحتمل أن تكون جنسيَّةً، فتفيد استغراق الصَّابرين على العموم، وقوّى معنى العموم حذف المتعلَّق، والمعنى واللّه يحبُّ كلَّ صابرٍ عَلَى مَا أَصَابَهُ مِنْ قتلٍ في سَبِيلِ اللَّه، أَوْ جُرْحٍ، أَوْ بَلَاءٍ، أَوْ أَذًى يَنَالُهُ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ مُصِيبَةٍ في نَفْسِهِ، أَوْ أَهْلِهِ أَوْ مَالِهِ، أَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَى ذَلِكَ، ويدخل فيهم المتحدَّث عنهم دخولًا أوَّليًّا.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/424، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/350، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/116.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/373، وأبو السُّعود: إرشاد العقل السليم: 2/96، والآلوسيُّ: روح المعاني: 2/297.

ولمّا كانت جملة التّذييل على معنى العموم مع إيجازها آذنت بأنّها تجري مجرى المثلِ في عمومِه وكلّيَّتِه.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الضَّعْف والِاستكانة والوَهَن:

الضَّعْف هو خلاف القوَّة، وقد يكون في النَّفس أو في البدن أو في الحال[1]، وَقد خلق اللّه الإنسان بهذا الوصف، فقال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النِّسَاء: 28]، والوهن هُوَ أَن يفعل الْإِنْسَان فعل الضَّعِيف يقال وَهَن فِي الْأَمر يَهِنُ وهَنًا، إِذا أَخذه بضعف، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ [آل عمران: 139]، أَي لَا تَفعلُوا أَفعَال الضُّعَفَاء، وأنتم أقوياء على مَا تطلبونَهُ فاللّه يذلّل لكم ذلك، ويعينكم عليه، وَأمّا الاستكانة فهِيَ إظْهَار الضّعْف عند النّزال، بتسليم القياد والرّضوخ، كقوله تَعَالَى ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾، أَي لم يضعفوا بنُقْصَان الْقُوَّة وَلَا اسْتَكَانُوا بِإِظْهَار الضَّعْف عِنْد المقاومة[2]، وأمّا الوهن، فهو ضعف من حيث الخَلْق أو الخُلُق[3]، وفي عمدة الحفَّاظ: أنَّه ضعف ورقٌّ[4]، ومن خلال الجمع بين الوهن والضَّعف والاستكانة، يتبيَّن: أنَّ الضَّعف خلاف القوَّة، وأنّ الوهن ضعفٌ شديد يؤدِّي إلى تعطيل حركة الجسم، وأنّ الاستكانة ضعف يؤدّي إلى تسليم الزّمام، عند اليأس من المقاومة، فيكون حال الربّيين، أنّهم لم يصبهم الضَّعف بألوانه ومسمّياته، ولا صدَّهم عن المغالبة والثبات في ميدان النّزال، توخّيًا لطاعة اللّه، واتّباعا لأنبيائه الكرام، ومواصلة للجهاد في سبيل اللّه.

الإصابة والمسّ:

أنَّ المسَّ يُقال في كلِّ ما ينال الإنسان من أذى[5]. والإصابةُ في اللُّغة الأَخذ والنَّيل والوصول والإدراك، والإصابة في الخَير اعتبارًا بالصَّواب، أي: بالمطر، وفي الشَّر اعتبارًا

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 506 - 507.
(2) العسكريُّ: الفروق اللُّغوية، ص: 116، والبسيلّي التقييد الكبير، ص: 580، وابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 4/118.
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 887.
(4) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (وهن).
(5) الراغب، المفردات: (مسس).

بإصابة السَّهم[1]. والإصابةُ أخفُّ من المسِّ، والإصابة أكثر استخدامًا في الخير من المسِّ، والمسُّ أكثر استخدامًا في الضّر والشّر من الإصابة[2].

الاستكانة والفتور:

لمّا كانَ الفتور: سكونًا بعد حدَّة، ولينًا بعد شدَّة، وضعفًا بعد قوة[3]؛ وهو أمرٌ طبعي، ويرجع بتجدّد النَّشاطِ ورفعِ الهمَّة، وكانت الاستكانة بمعنى الخضوع للعدوِّ والذلَّة له بالاستسلام الماديِّ أو المعنويِّ عبّر بقوله ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ لأنَّ الاستكانة لا ينبغي أن تكون لمؤمن بالله ورسوله.

السَّبيل والصِّراط والطَّريق:

فرَّق العسكريّ بين الصِّراط والطَّريق، بأنَّ الصِّراط هو الطَّريق السَّهل، والطَّريق لا يقتضي السُّهولة[4]. وفرَّق الكفويُّ بينها بأنَّ السَّبيل هو أغلب وقوعًا في الخَيْر، وَلَا يكَاد اسْم الطَّرِيق يُرَاد إِلَّا مُقترنًا بِوَصْف أَو إِضَافَة تخلصه لذَلِك، والصِّراط كذلك إِلَّا أَنَّ الطَّرِيق هُوَ كلّ مَا يطرقه طَارق، مُعْتَادًا كَانَ أَو غير مُعْتَادٍ، والسَّبيل من الطُّرق مَا هُوَ مُعْتَاد السُّلوك، والصِّراط من السَّبِيل مَا لَا التواء فِيهِ وَلَا اعوجاج، بل يكون على سَبِيل القَصْد فَهُوَ أخص مِنها[5]. زِد على ذلك أنَّ سبيلًا وصراطًا يختصَّان بالإضافة إلى لفظ الجلالة وإلى سواء دون طريق، وأنَّ السَّبيل تختصُّ بإضافة ابن إليها وبإضافتها كثيرًا إلى الله تعالى دونَ صِراط الَّتي أضيف إليه لفظ الجلالة مرّة وحيدة[6].

(1) الراغب، المفردات: (صوب).
(2) سعد بن عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنية: 2/938.
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 622.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 313.
(5) الكفوي، الكليات، ص: 512، و513.
(6) سعد بن عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنية: 2/868.

﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾ [آل عمران: 147]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانتقال من الثّناء على أفعال أتباع الرُّسُل، إلى الثّناء على قولهم ودعائهم

لَمَّا ذَكَر اللّه تعالى حال الرِّبِّيّينَ وما كانواْ عليه من الجَلَد والصَّبر، وعَدَم الوَهنِ والاستكانةِ للعدوِّ، وذلك كلُّه من الأفعالِ النَّفسانيَّة التّي يَظْهَرَ أثرُها في الجوارح، ذكَر مقالهم وما كانواْ عليه من الإنابةِ والاستغفارِ، والالتجاءِ إلى اللّه تعالى بالدُّعاء[1]، فلمَّا أثنى سُبحانه وتعالى على فِعْلِهمْ أتبعه قَوْلَهُم[2]، بأن يدعو اللّه أن يغفر لهم ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم، ويثبِّت أقدامهم، وينصرهم على عدوِّهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾: الغُفْرانُ: المُسامَحَةُ والعَفو، يُقال: غَفَرَ لَهُ: إذا سامَحَهُ وعَفا عنه. والاستِغفارُ: طَلَبُ المَغْفِرَة. ويأْتي الغُفْرانُ بمعنى التَّجاوُزِ عن الذَّنْبِ وعَدَمِ المُؤاخَذَةِ بِهِ، يُقال: غَفَرَ اللّه ذُنُوبَهُ، أيّ: سَتَرَها وتَجاوَزَ عنْها. وأَصْلُ الغُفْرانِ مِن الغَفْرِ، وهو: التَّغْطِيَّةُ والسَّتْرُ والإِدْخالُ، ومنه سُمِّيَ العَفْوُ غُفْرانًا؛ لأنَّهُ سَتْرٌ لِلذَّنْبِ وإدْخالٌ لِلْعَبْدِ في العَفْوِ[3]، وقوله: ﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: أي: لا تُعاقِبنا مُؤاخذة عليها، يُقال غفر اللّه ذنبه غَفْرًا وغُفْرانًا ومَغْفِرَةً، والمَغفرة: السَّتْرُ لِخَلَّة المُسلم وفاقَتِه، وتَرْكُ أذيَّته[4]، وَالْغُفْرَانُ وَالْغَفْرُ بِمَعْنًى واحد، قَالَ فِي الْغَفْرِ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/373.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/87.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (غفر).
(4) الرَّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ: (غفر)، وابن عزير السِّجستانيُّ، غريب القرآن، ص: 354، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 117.

فِي ظِلِّ مَنْ عَنَتِ الْوُجُوهُ لَهُ *** مَلِكِ الْمُلُوكِ وَمَالِكِ الْغَفَرِ[1]

ولفظ: ﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ دعاء يستجلب به الأمان، من صاحب الغفران، وهو في دلالته على السّتر متناسب مع عفو الله السِّتّير الّذي يتجاوز عن سيّئاته، ويغفر حوباته.

2) ﴿ذُنُوبَنَا﴾: المراد بالذّنب في القرآن الكريم: هو المعصية الشّرعيَّة، وأصله اللُّغويُّ: هو الأخذ بذَنَبِ الشَّيء، أي: مؤخّرته، وصار يستخدم في كلِّ فعل يستوخم عقباه؛ اعتبارًا بذنب الشَّيء، ذكر الفيُّوميُّ أنَّ الذَّنب هو الإثم، وأذنب صار ذا ذنب، بمعنى: تحمَّلَه،[2]، وذكر الرَّاغب الأصفهانيُّ أنَّ الذَّنب يستخدم لما يستوخم عقباه؛ ولهذا يسمَّى الذَّنب: تبعة؛ اعتبارًا بما يحصل من عاقبته[3]، وأنشد سيبويه:

أَسْتَغْفِرُ اللَّه ذَنْبًا لَسْتُ مُحْصِيهِ ***رَبَّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْقَوْلُ وَالْعَمَلُ[4]

وللفظ (الذّنب) علاقة بالغفران، فلا يقع غفران، ما لم يكن عصيان، فإذا وقع الذّنب طلب الغفر، ولذلك كان لفظ (الغفور) من صفات الله تعالى، وهو من أبنية المبالغة، ومعناه السّاتر لذنوب عباده، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم[5].

3) ﴿وَإِسۡرَافَنَا﴾: الإسراف: الإِفْرَاطُ في الشَّيْءِ، وَأَصْلُ الإِسْرَافِ: مُجَاوَزَةُ الحَدِّ في كُلِّ شَيْءٍ، وَضِدُّهُ القَصْدُ وَالاعْتِدَالُ، والإِسْرَافُ أَيْضًا: التَّبْذِيرُ، وَالمُسْرِفُ: المُبَذِّرُ، وَمِنْ مَعَانِي الإِسْرَافِ في اللُّغَةِ أَيْضًا: الإِغْفَالُ والإِهْمَالُ والإِتْلاَفُ والتَّضْيِيعُ والإِهْدَارُ والإِفْسَادُ والغُلُوُّ والقَطْعُ[6]، والإِسْرَاف الغلوّ في الشَّيْءِ وَالْخُرُوج عَن الْقَصْد وَهُوَ من السَّفه[7].

4) ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾: الثَّبَاتُ: السُّكُونُ والاسْتِقْرارُ، ومنه: الثَّباتُ في المَكانِ، أي: السُّكونُ فيه والاسْتِقْرارُ. وأَصْلُه: الدَّوامُ والإِقامَةُ، وضِدُّهُ: الزَّوالُ والانْقِطاعُ[8]، الثّبات والثّبوت: ضد الزَّوال، والتّثبيت تقويّة الشّيء، ورجلٌ ثبتٌ وثبيتٌ أي لا يزول عن النّصر في الحرب،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(2) الفيُّومي، المصباح المنير: (ذنب).
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 331.
(4) ابن سيده، المحكم: (غفر).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (غفر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (سرف).
(7) عياض، مشارق الأنوار: (سرف).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم: (ثبت).

وأصل ثبت يدلّ على دَوَام الشَّيْءِ، ورَجُلٌ ثَبْتُ القَدمِ: مُتَمَاسِكٌ لم يَزِلَّ في قِتال، وثباتُ القدم هُنا عبارةٌ عن كمال القوَّة والرُّسوخِ عند المقارعة وعدمِ التَّزلزل وقت المُقاومة[1]، واللّفظ مناسب لمضمون الدّعاء، ولسبب النّزول.

5) ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: الكُفْرُ: نَقِيضُ الإيمانِ، ويأْتي الكُفْرُ بمعنى الإِنْكارِ والجُحود، فيُقال: كَفَرَ بِالنِعْمَةِ، أيْ: أَنْكَرَها وجَحَدَها. وأَصْلُ الكُفْرِ: السّتْرُ والتّغْطِيَةُ، ومِنْهُ سُمِّيَ الزّارِعُ كافِرًا؛ لأنّهُ يُغَطِّي البَذْرَ بِالتُّراب. ومنه سُمِّيَ غَيْرُ المُؤْمِنِ كافِرًا؛ لأنّهُ غَطّى الحَقّ والإيمانَ. ومِن مَعَاني الكُفْرِ أيضًا: البَراءَةُ، والامْتِناعُ، والكَذِبُ[2]، "والنّعم الّتي سترها الكافر، هي الآيات التي أبانت لذوي التّمييز أنّ خالقها واحد لا شريك له، وكذلك إرساله الرّسل بالآيات المعجزة، والكتب المنزلة، والبراهين الواضحة"[3].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

تجلّي ضراعة المؤمنين الصّابرين، في الاستغفار وطلب النّصر والثّبات

وما كان قَولَ هؤلاء الصّابرين عند شدائد الحرب، ولأواء الصّدام، إلّا أن يدعوا الله أن يغفر لهم ما كانوا ألمّوا به من ذنوب، وما اقترفوه من خطايا، وما تجاوزوا فيه حدود الله، واحكام الشّرع الحنيف، وأن يمنَّ عليهم بتثبيت أقدامهم على الصراط القويم، حتى لاتزلزلهم الفتن عن الدّين، ولا يعتريهم الوهن، أو يداخلهم الفشل، عند لقاء الأعداء في ساحة الوغى[4].

(1) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ، وابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، مقاييس اللغة، ومرتضى الزَّبيدي، تاج العروس: (ثبت)، وأبو السُّعود: إرشاد العقل السليم: 1/244.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (كفر).
(3) الزّبيدي، تاج العروس: (كفر).
(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 440.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ الوصلِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ بما قبله:

وصفهم بما يَدُلُّ على الثَّبات في الأقوال بعد الثَّبات في الأفعال

الآية عَطْفٌ على ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾، ومناسبة الوصل بين الجملتين الخبريّتين لفظًا ومعنًى أنَّه لَمَّا وصفهم برباطة الجأش، وثبات القلب والجدِّ في الحربِ، وصفهم بعد ذلك بما يَدُلُّ على الثَّبات من أقوال اللِّسان التي تجري عليه عند الاضطراب والجزع[1].

بلاغة التَّتميم في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾:

بيان عدم تطرق الوهن إليهم قولًا وعملًا

لمّا ذكر محاسنهم الفعليّة في الآية السّابقة اقتضى المقامُ الإطنابَ ببيان محاسنهم القولية في مواطن الجزع والشدّة، ليُظهر ما ينبغي فعلُه وقولُه في تلكَ المواضعِ، فيكون ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ كالتَّتميم على سبيلِ المبالغة لبيانِ صلابتهم في الدِّين وعدم تطرُّق الوهن والضَّعف إليهم في الأفعالِ وفي الأقوال[2].

مناسبة مجيء الكلامِ على القصر في: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾:

لمّا تقدَّم خبر ﴿كَانَ﴾ على اسمِها في الآية؛ - على قراءة الجمهور - أفاد التّخصيصَ والتّأكيد ثم بالغَ في تأكيدِه بغرض المدحِ بمجيئه على طريقِ قصر الصفة على الموصوف، فصار الموصوف محصورًا؛ إذ المقصودُ حصْرُ أقوالِهم حينئذٍ في مقالة: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، فالقصرُ حقيقيٌّ؛ على سبيلِ المبالغة، كأنَّه لم يصدر منهم أي قولٍ إلَّا هذا القول، ويحتمل أن يكونَ قصرًا إضافيًّا أي باعتبار أنَّ قولَهم كان في حالِ حصولِ ما أصابهم في سبيلِ اللّه، فلم يصدر منهم إلا هذا القول بالإضافة إلى ذلك الحال[3]،

---

(1) ابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 4/119.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/96، والآلوسيُّ، روح المعاني: 2/297.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/120.

مناسبة مجيء القصر بطريق النفي والاستثناء:

لمّا هلعَ من هلعَ من المسلمين يومَ أحد نزّلهم منزلة المخطئين المصرّين على خطئهم في أنَّ من سبقهم مِن أتباعِ الأنبياء كانوا يجزعون عند الحرب مع أنبيائهم، فجاء القصر بطريق النّفي والاستثناء على خلافِ مقتضى الظّاهر لِلردّ على اعتقاد من قد يَتَوَهَّمُ من المسلمين أنَّ أتباعَ الأنبياء من الرّبّيين قالوا أقوالًا تُنْبِىءُ عن الجزع، أو الهلع، أو الشَّك في النَّصر، أو الاستسلام للكُفَّار لشدّة ما أصابهم في الحربِ،[1].

نكتة التَّعريض في القصر السَّابق:

بيانُ حال المنهزمين وما هم فيه من الجزع والخَوَرِ

لمّا أشعرتِ الآية السابقة بالتعريض بذكر ثباتِ الرّبّيين أعقبه هنا بالإخبار عنهم بأنَّه ما كان قولَهم إلَّا هذا دون ما فيه شائبة جزع وخوَر وتزَلْزُلٍ، ليكون تعريضًا في الأقوالِ متمّمًا للتّعريض بالأفعال، فكانوا بأجسادهم وقلوبِهم ثابتين، وبألسنتهم مستغفرين[2].

دلالة الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾:

الاستثناء هنا مفرَّغ من أعمِّ الأشياء، أي: ما كان قولًا لهم عند أيِّ لقاء للعدوِّ، واقتحام مضايق الحرب، وإصابة ما أصابهم من فنون الشَّدائد والأهوال شيء من الأشياء إلَّا قولهم ذلك[3].

دلالة النّفي في قوله ﴿وَمَا كَانَ﴾:

تأكيدُ النّفي لتقريرِ المعنى وتثبيته

فائدة دخول ﴿كَانَ﴾ المبالغةُ في نفي الفعل الدَّاخل عليه بتعديد جهة فِعْلِه، عموما باعتبار الكَوْنِ، وخصوصًا باعتبار خَصوصيَّة المقال، فكأنّه نفى مرَّتين أن يكونَ لهم أيُّ قولٍ تأكيدًا وتقريرًا ثمَّ استثنى قولَهم الدّعاء المذكور[4].

(1) ابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 4/119.
(2) الآلوسيُّ: روح المعاني: 2/298.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/96.
(4) الآلوسيُّ: روح المعاني: 2/298، والخفاجي: حاشية الشِّهاب على البيضاويّ: 3/69.

الاهـــتـــمـــام بِطَلَبِ الغُفران وتحصيله

نكتةُ عطف الخاصِّ على العامِّ:

لمّا كان المرادُ من الذّنوب جميعَها في قوله ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ كان عطف قوله ﴿وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ من عطف الخاصِّ على العام، لأنَّ الإسرافَ هو الإفراط وتجاوزُ الحدِّ، فيكون أوفق بطلب المغفرة من الكبائر، وخصُّوا الذُّنوب العظيمة الكبيرة منها بالذِّكر بعد ذلك لِعِظَمِهَا وعِظَم عقابها، والمعنى اغفر لنا جميعَ ذنوبِنا واغفر لنا تجاوزَنا الحدَّ في ركوب الكبائرِ[1].

اللُّـــجـــوء إلى الـتـوبـةِ والاستغفارِ عند النوائب والِمحَن

مناسبةُ التّرتيب في الدعاء:

جاء الدعاء على ترتيب أنيقٍ لطيفٍ، فبدؤوا بطلب مغفرة الذنوب كلّها ثم خصّوا الكبائر منها لِعظَمِها، إمَّا هَضْمًا لأنفسِهم وإمّا لأنَّه لا يخلو أحدٌ عن تقصير ما، فقدّموا طلبَ الاستغفارِ على طلبِ تثبيتِ الأقدام والنُّصرة؛ لأنّهم لما دعوا بمحو ما أَوْجَبَ الخِذلان دعوا بثمرة المحو فقالوا: ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾، ثُمَّ طلبوا النَّصر عَلَى الأعداء المُرَتَّبِ على التّثبيتِ غالبًا؛ كما أنَّ طلبَهم التثبيتَ إذا كانَ عن زكاةٍ وطهارةٍ،، فالاستجابة تكون أرجى وأحرى بالقبول، كما أنَّ تقديم طلب المغفرة على التَّثبيت والنُّصرةِ من باب تقديم التَّخلية على التَّحلية، وأيضًا فإنَّ اللّه تعالى لَمَّا ضمِن النُّصرةَ للمُؤمنين، فإذا لم تَحصُل النُّصرةُ وظهَرتْ أماراتُ استيلاءِ العَدُوِّ، دلَّ ذلك ظاهرًا على صُدورِ ذَنبٍ وتقصيرٍ من المؤمنين؛ فلهذا المعنى يجبُ عليهم تقديمُ التَّوبةِ والاستغفارِ على طلبِ النُّصرة[2]، وطلب المغفرة أوقعُ من طلبِ إفراغِ الصَّبرِ ولهذا اختار الرّبانيّون ذلك فمناجاتهم أحسن من تضرُّعِ قومِ طالوت[3]، وكذلك فإنَّ هذا الدُّعاء مُناسب

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/381، وأبو السّعود: 2/96، وابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 4/120.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/381، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/374، والبِقاعيُّ: نظم الدرر: 5/88، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/96، والآلوسيُّ: روح المعاني: 2/298.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/351.

للقتال؛ لأنَّ المُقاتل إمَّا أن يَقْصُرَ فيتخاذَل، وإمَّا أن يتجاوز الحدَّ فيُقتل في غير حاجة إلى القتال، فكان هذا الدُّعاء في موضعه[1].

نكتة الإضافة في قوله: ﴿وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾:

الاقتداء بالصَّالحين في هَضْمِ النَّفس وعدم الغرور

وإنما أضافوا الإسراف إلى أنفسهم مع أنّ الظاهر أنهم برآء من التفريط في جنب الله تعالى هضماً لأنفسهم واستقصارًا لهممهم وإسنادًا لما أصابهم إلى أعمالهم، على أنَّه لا يَبْعُدُ أن يُراد بتلك الذُّنوب وذلك الإسراف ما كان ذنبًا وإسرافًا على الحقيقة، على سبيلِ (حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين)[2].

دلالة ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ بين أن يكونَ مجازًا مرسلًا بغرضِ الكناية وأن يكون استعارةً:

الثَّبات عند القتال يكون بعد الثَّبات في الدِّين والاستقامة عليه

وتثبيت القدم قد يكون مجازًا مرسلًا بإطلاق الجزء وإرادة الكلّ، والمعنى: ثبِّتنا. وعبَّر بالأقدام لأنَّ الثَّبات والزِّلزال يظهران فيها، وجاء المجاز المرسلُ الذي هو طلب تثبيت الأبدان والأجسام كناية عن طلب التَّثبُّت في مواطنِ الحربِ والجهادِ، إذ السّياق قرينة على أنّ الكلامَ في بيان الحرب.

وقد يكون استعارة ويحتمل معنيين أحدهما خاصٌّ بالسياق والمعنى شَجِّع قلوبنا على لقاء العدوِّ، والثّاني عامٌّ، والمعنى ثَبِّتْ قلوبنا على دينك، ويدخل فيه التَّثبيت عند لقاء العدوِّ دخولًا أوّليًّا، وثبوت القدم في الحرب لا يكون إلا من ثبوت صاحبها في الدِّين، وكثيرًا ما جاءت هذه اللَّفظة دائرة في الحرب ومع النُّصْرَةِ[3].

دلالة حرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾:

لمّا كانت النصرة بمعنى حسنِ المعونة ومن لوازمها الغلَبة وكان

(1) أبو زهرة: زهرة التفاسير: 3/1441.
(2) الآلوسيُّ: روح المعاني: 2/297، والجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 1/493، والبروسوي: روح البيان: 2/107.
(3) أبو حيَّان: البحر المحيط: 3/374، والقنُّوجي، فتح البيان: 2/350.

طلبها من ربِّ العالمين مقترنًا بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾ دلّ كلُّ ذلك على أنَّ علوَّ الرِّبّيّين وتمكُّنهم من الكافرين إنّما هو بنصرِ اللّه وحده، ويشعرُ الكلامُ بأنَّهم لم يزالوا مواظبين على هذا الدُّعاء من غير أن يصدر عنهم قول يوهم شائبة الجزع والخور والتَّزلزل في مواقف الحرب ومراصد الدِّين[1].

من مناسباتِ ذكر دعاء الربّيّين:

في حِكَايَةِ دُعَاءِ الرِّبِّيِّينَ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ تَعْلِيمٌ لَنَا لِأَنْ نَقُولَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ عِنْدَ حُضُورِ الْقِتَالِ فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَدْعُوا بِمِثْلِهِ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَدُوِّ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَى ذَلِكَ عَنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الْمَدْحِ لَهُمْ وَالرِّضَا بِقَوْلِهِمْ لِنَفْعَلَ مِثْلَ فِعْلِهِمْ وَنَسْتَحِقَّ مِنَ الْمَدْحِ كَاسْتِحْقَاقِهِمْ[2].

القراءات القرآنية وتعدّد المعنى:

قرأ العشرة ﴿قَوْلَهُمْ﴾ بالنصب خبرًا، ويكون اسم كان فيما بعد ﴿إِلَّآ﴾، وقرأ الحسن (قولهم) بالرفع[3]، وجعل الخبر فيما بعد إلّا، فعلى قراءة النّصب يكون الخبرُ مقدَّمًا على اسم كان ويفيد التّأكيد والتّخصيص، وفيه تعظيم المقول، لأنّه جاء في مقام المسندِ إليه، والمعنى دعاؤهم هو قولهم وليس لهم قولٌ غيرُه، ليؤذن بأنّهم كانوا يعرفونَ أنّه يوجد دعاء ولم يعرفوا قول من هو، فأخبر عنه بأنّه قولهم، وعلى قراءة الرَّفع يخبرُ عن قولِهم بأنّه هو الدعاء المذكور، فهم يعرفون أنَّ لهم قولًا ولكن لم يعرفوا ما كان نوعه ولا مفاده، فأخبر عنه بأنّه كان الدعاء المذكور، وعند بعض المفسّرين قراءة الرّفع أقعدُ بحسب المعنى وأوفق بمقتضى المقام لما أنَّ الإخبارَ بكون قولِهم المطلقِ خصوصيةَ قولِهم المحكيِّ عنهم مفصلاً كما تفيده قراءتهما أكثر إفادة للسامع من الإخبار بكون خصوصيةِ قولِهم المذكورِ قولَهم لما أنَّ مصبَّ الفائدةِ وموقِعَ البيانِ في الجُملِ الخبرية هو الخبرُ فالأحقُّ بالخبريَّةِ ما هو أكثرُ إفادةً وأظهرُ دِلالةً على الحدث، ولا يخفى أن ذلك ههنا في ﴿أَن﴾ مع ما في حيّزها أتمّ وأكمل[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/96، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (نصر).

(2) الجصّاص، أحكام القرآن: 2/326.

(3) البنّاء، إتحاف فضلاء البشر: 1/229.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/97، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/522.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(مغفرة الذُّنوب) و(تكفير السَّيئات):

لفظ المغفرة يتضمَّن الوقاية والحفظ، ولفظ التَّكفير يتَضمَّن السَّتْرَ والإزالة، وعند اقتران الذُّنوب والسَّيئات، ينصرف معنى الذُّنوب إلى الكبائر، ومعنى السِّيئات إلى الصَّغائر، وعليه تكون المغفرة للذّنوب والتَّكفير للسَّيئات[1] قال تَعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ١٩٣﴾ [آل عمران: 193]، فالمغفرة أكمل من لفظ التَّكفير، ولهذا كان مع الكبائر، والتَّكفير مع الصَّغائر؛ وعند الانفراد يدخل كلّ منهما في معنى صاحبه قال تَعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ٢﴾ [مُحَمَّد: 2]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزُّمَر: 53].

الذَّنب والإثم:

الذَّنب في أصل اللُّغة الأخذ بذَنبِ الشَّيء، ويُستعمل في كلِّ فِعل يستوخم عقباه اعتبارًا بذنب الشَّيء، ولهذا يُسمَّى الذَّنب تبعة اعتبارًا لما حصل من عاقبته. والإثم هو: اسم للأفعال المبطئة عن الثَّواب، وقوله تعالى: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: 219]، يعني في تناولهما إبطاء عن الخيرات[2]، أمَّا في الشَّرع، فقد يكونان أي الإثم والذَّنب بمعنى واحد، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾ [النساء: 112]، قال ابن عطيّة: قيل هما بمعنى واحد، كرّر لاختلاف اللَّفظ تأكيدًا له، والخطيئة هي هنا الذَّنب، وقيل في تفسير الآية: إنَّ الخطيئة بمعنى الصَّغيرة، والإثم بمعنى الكبيرة. وقد يكونان - أي الإثم والذَّنب - مُتغايرين فيكون معنى الذَّنب المعصية، ومعنى الإثم ما يترتب عليها، فيقال: فلان أَثم بذَنْبِهِ[3]، وفي هذا ملمح بأنّ الذّنوب والآثام لا يطلب غفرانها عند التلبّس بها فحسب، بل وإن صلح العمل، ونأى المرء عن فعل المشين من الأفعال، فإنّ طلب غفران الذّنوب، والتّجاوز عن السّيئات، من أعظم القربات.

---

(1) ابن القيّم، مدارج السَّالكين: 1/317.

(2) الرّاغب، المفردات: (ذنب)، (إثم)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/19، والكفوي، الكليات، ص: 40.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/111، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/380.

الإسراف والتَّبذير:

الإسراف هُوَ صرف الشَّيْء فِيمَا لَا يَنْبَغِي زَائِدًا على مَا يَنْبَغِي، بِخِلَاف التَّبذير، فَإِنَّهُ صرف الشَّيْء فِيمَا لَا يَنْبَغِي، والإسراف: تجَاوز فِي الكميّة، فَهُوَ جهل بمقادير الْحُقُوق، والتّبذير: تجَاوز فِي مَوضِع الْحقّ، فَهُوَ جهل بمواقعها[1]، وليس الإسراف متعلّقا بإنفاق المال في غير وجوهه فقط، بل بكلّ شئ وضع في غير موضعه اللّائق به، من ذلك وصف قوم لوط بالإسراف، لوضعهم البذر في غير المحرث، فقال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١﴾ [الأعراف: 81]، ووصف فرعون بالإسراف بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الدّخان: 31]، لذلك فالإسراف أوسع في الدّلالة والاستعمال من التّبذير، وكلاهما مذموم ومنهيّ عنه، كما هو مدلول الآية.

(1) الكفويّ، الكلّيات، ص: 113.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨﴾ [آل عمران: 148]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين طلب الغفران والتّمكين، وبين تلبيّة المطلوب، وتحقيق المرغوب

لمّا تقدَّم في دعائهم ما يتضمَّن طلب الغفران، وتثبيت الأقدام، والنّصر على الأعداء الباغين، وذلك قوام الدّنيا والآخرة، ناسب ذلك أن يخبرهم الله، بأنّه لبّى طلبهم، واستجاب دعاءهم، فآتاهم ثواب الدّنيا، بالنّصر على أعدائهم، والتّمكين في الأرض، وضمان الكرامة في كلّ الأحوال، مع الذِّكر الحسن بين النّاس؛ وأحبّهم الله لأنّهم محسنون في الأساس، كما آتاهم ثواب الآخرة، بالفوز برضوان الله ورحمته، وذلك في البداية والنّهاية، هو المأمول، وغاية السّول.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾: الثَّواب: الجَزَاءُ على الْعَمَلِ، والثَّوابُ من الله (ﷻ)، هو ما يعطيكه على ما عَمِلْتَهُ مِن خَيْرٍ أَو شَرٍّ، وهو أيضًا: ما يَرجِعُ على الـمُحْسِنِ مِن إِحْسَانِهِ، وعلى الـمُسيءِ مِن إِساءته[1]، وفي هذا المعنى قال حسّان بن ثابت:

وَإِنَّ ثَوَابَ اللهِ كُلَّ مُوَحِّدٍ *** جِنَانٌ مِن الفِردوسِ فِيها يُخَلَّدُ[2]

والثّواب هاهنا أقرب الألفاظ إلى توخّي المرغوب، لأنّه كائن من الله، وهو آنس لمن يحظى به، ويفوز بنعمته، وينال حظّه منه.

2) ﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: الحُسن: الزِّينة والجمال. وأصلُه: نقاء الشَّيء وصفاؤه. ويأتي بمعنى الجودة، يُقال: حسن الشَّيء،

(1) ابن دريد، وجمهرة اللغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم: (ثوب).

(2) البيت من ديوان حسّان بن ثابت، ص: 339، وشرح الأشموني على ألفيّة ابن مالك: 2/207، وأبو بكر الأنباري، الزاهر: 1/503، ولسان العرب: 6/503.

يحسن، حسنًا، أي: صار جيدًا. وضِده: القُبح والسُّوء[1]، ومعنى العبارة أنّ حسن ثواب الآخرة غير حسن ثواب الدّنيا، "وهو الفوز برضا ربّهم، والنّعيم المقيم الّذي قد سلم من جميع المنكرات، وما ذاك إلّا أنّهم أحسنوا له الأعمال، فجزاهم أحسن الجزاء"[2]، وثواب الآخرة منتهى أمل المؤمنين، لأنّه عطاء بلا حساب، ومتعة بلا تنغيص.

3) ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: الإِحْسانُ: الإِتْيانُ بما هو حَسَنٌ، يُقال: أَحْسَنَ فُلانٌ، يُحْسِنُ، إِحْسانًا، أيْ: أَتَى بِشَيْءٍ حَسَنٍ. والحَسَنُ: الجَيِّدُ، وضِدُّهُ: القَبِيحُ والسّيِّئُ. ويأْتي بمعنى الإِتْقانِ والإِجادَةِ، وضِدُّه: الإساءَةُ[3]، والإحسان يقال على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان.

والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علّم علمًا حسنًا، أو عمل عملًا حسنًا، وعلى هذا قول أمير المؤمنين علي ﷺ: (الناس أبناء ما يحسنون) أي: منسوبون إلى ما يعلمون وما يعملونه من الأفعال الحسنة[4].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

ثـــواب الـلـه للمؤمنين إغداقٌ بـالـعـطـاء في الدّنيا، ونعيمٌ لا حدّ له في الآخرة

الآية بيان لثواب الله في الدُّنيا للمؤمنين المتضرّعين، وإكرامهم بالنّصر المبين، وما حازوه من الغنائم النّفيسة، وقد قهر الله أعداءهم، وأكسبهم هيبة وعزوة، بنعيمه الرّاقي الثّمين، في جنّات الخلود والعطاء واليقين، وقد آتاهم نعيمًا خالصًا، غير مشوب بتنغيص ولا قلق ولا مكدّرات، جزاء إحسانهم في الدّنيا، والله يحبُّ المحسِنين من عباده الصّالحين.

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

براعة اللَّفِّ والنَّشر:

لمّا طلبوا في دعائهم طلب ثواب الآخرة في قولهم: ﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حسن).

(2) الكواري، تفسير غريب القرآن، ص: 148.

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حسن).

(4) الراغب، المفردات (حسن).

تعجيل ثواب الدنيا والإشعار بنيل ثواب الآخرة

﴿ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا﴾، ثمَّ طلبوا ما يتضمَّن ثواب الدنيا في قولهم ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا﴾، عدلَ عن التّرتيب المذكور في إجابة دعائهم، فأعطاهم مقدَّمًا ثوابَ الدّنيا لحاجتِهم الآنيَّة إليه، وللتَّعجيل بمسرَّتِهم، وليكون ذلك إشعارا لهم بقبول دعائهم وإجابتهم إلى طلبهم، ثمَّ أحسن لهم ثواب الآخرة، فأعطاهم الثَّوابين[1].

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾:

الإعلام بتعجيل إجابة دعوتهم ونيلهم مُرادهم وبغيتهم

أفادت الفاء السببيّة بمعنى ترتّب إعطائهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة على دعائهم وصبرِهم وإخلاصِهم لربِّهم، وأفادت تعجيل قبول الدعاء والاستجابة لطلبِهم بدلالتها على التّعقيب[2].

مجيء الكلامِ على خلاف مقتضى الظّاهر:

عبّر بصيغة الفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ مع أنَّ حسن ثواب الآخرة يكون في المستقبل؛ لإفادة القطع بحصول الطلب في الدُّنيا والآخرة، وللإيذان بأنَّ اللّه قد حكم بقبول دعائهم، فأقام حكم اللّه بذلك مقام نفس الحصول، ويحتمل أن يكون مجازًا مرسلًا باعتبار ما سيكون عَلَى قِيَاسِ قَوْلِهِ: أَتى أَمْرُ اللَّهِ [النّحل: 1] أَيْ سَيَأْتِي أَمْرُ اللَّهِ[3]، والمعنى في الآية (سيؤتيهم ثوابَ الدنيا وحسن ثواب الآخرة) أو يقال: إنّ التّعبير بصيغة الماضي في إيتائهم ثواب الآخرة بالنّظر إلى تهيئة أسبابِه بتوفيقِهم إليها فيكون التّعبير بطريق المجاز[4]، وجميعُ هذه الاحتمالات هي من قبيل مجيء الكلام على خلافِ مقتضى الظّاهر

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/374.
(2) البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 2/42، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/97.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/382.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 5/88.

دلالة قوله تعالى: ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ﴾:

لمّا كان السياق في الكلام على الثبات في القتال دلَّ على أنَّ المرادَ من ثواب الدنيا هو النَّصر والغنيمة والعزِّ وطِيب الذِّكر، والمراد من قولِه ﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ﴾ الجنَّة والنَّعيم المخلَّد في الآخرة، فتخصيص ثواب الدنيا وحسنَ ثواب الآخرة بما ذُكِرَ جاء بمعونة المقامِ وقرينةِ السّياق[1].

نُكتة وَصْفِ ثواب الآخرة بالحُسْنِ وتَرْكِهِ في وصف الدُّنيا:

الإشعارُ بفضل ثـــواب الآخـــرة وتَقَدُّمِهِ

إذا كان ثواب الآخرة كلُّه حسنًا، فما المناسبة في تخصيصه بالحسن هنا؟، وجوابه أنَّه لمّا جاء ذكر ثواب الآخرة في مقابلة ثواب الدّنيا كانَ تخصيصُ ثوابِ الآخِرة بالحُسن؛ للدَّلالة على فضلِه وأنَّه هو المعتدُّ به؛ ولإفادة أنَّ ثواب الآخرة منازل ومراتب في الحسن، ولمَّا كان ثواب الدنيا كيف ما كان لا بد أن يكون بالكدر مشوباً وبالبلاء مصحوباً، لأنها دار الأكدار؛ أعراه من وصف الحسن، وخص الآخرة به[2].

فائدة الإظهار في قوله تعالى: ﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾:

أظهر الثواب هنا، فوضع الظّاهر موقع المضمر تنبيهًا على المغايرة بين الثَّوابين، وللاعتناء بشأنِ ثواب الآخرة[3].

بديع المقابلة في الآية الكريمة:

في الجمع بين ثواب الدُّنيا وحسنِ ثواب الآخرة مُقابلة بديعة، ففيها إشعار بأنّهم أَرَادُوا بِعَمَلِهِمْ سَعَادَةَ الدُّنْيَا والآخِرَةِ، وَإِنَّمَا الْجَزَاءُ عَلَى حُسْنِ الْإِرَادَةِ، وإيذانٌ بأنَّ شأن المؤمن أنْ يجمع بينَ ثواب الدّنيا والآخرة، وتنبيهٌ على أنَّ توصيف ثواب الآخرة بالحسن مؤذن بأنَّ ثواب الدنيا بالنسبة إليه ليس بحسن لزواله ولأنّه مشوب بالكدر، وإن كان حسنًا بميلِ الطبع له[4].

(1) ا القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/352.
(2) الرَّاغب: تفسير الرَّاغب: 3/902، والرّازي: مفاتيح الغيب: 9/382، والبقاعي، نظم الدرر: 5/88.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/353.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/353، ورضا، تفسير المنار: 4/143.

حسنُ التَّذييل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

في جملة التّذييل فوائد لغوية وبلاغية هي[1]:

1. أفاد التّعبير بالجملة الاسمية تأكيد محبّة اللّه للمحسنين وتقريره كما أنَّ مجيء خبر المبتدأ جملة فعليّة أفاد تقوية الحكم، فهو على معنى تكرّر الاسم الجليل مرّتين، إحداهما بالاسم الظّاهر والأخرى بمجيئه بصيغة الضمير في (يحبُّ)، فيكون الكلام على نيَّة تكرير الجملة مرّتين.

2. دلَّ التّعبير بصيغة المضارع على استمرارِ محبّة اللّه للمحسنين وتجدّد آثارِها عندهم.

3. جاء اللّفظ (المحسنين) على صيغة المشتقّ للإشعار بأنَّ علَّة محبّة اللّه لهم هي إحسانهم المطلق.

4. أشعرَت الجملة أنَّ الرّبّيّين لَمَّا اعْتَرَفُوا بالإساءة سَمَّاهُمُ اللَّهُ مُحْسِنِينَ، كأنَّ اللّه يقول لهم إِذَا اعْتَرَفْتَ بِإِسَاءَتِكَ وَعَجْزِكَ فأنت من المحسنين، حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لِلْعَبْدِ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى حَضْرَةِ اللَّهِ إِلَّا بِإِظْهَارِ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَالْعَجْزِ

5. تضمّن التّذييل ترغيب للمؤمنين في تحصيل ما حكى عن الرّبّيين من المناقب الجليلة

6. وضِع الظَّاهر ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ موضِع ضمير المعهودين؛ وذلك للإشعار بأنَّ ما حُكي عنهم من الأقوال والأفعال من باب الإحسان

7. تحتمل (أل) أن تكون عهدية، فيكون المراد من المحسنين الرّبّيّين المذكورين في الكلام، وَوُضِعَ الظَّاهر مَوْضِعَ المضمر إيذانًا بأنَّ ما حكى عنهم من باب الإحسان، وتحتمل أن تكون للجنسِ فتفيد الاستغراق بمعنى محبّة اللّه لكلِّ محسنٍ، وهم داخلون فيه دخولاً أوليّاً

8. لمَّا كان المعنى على العموم والكلّيّة دلَّ على أنّه يجري مجرى المثل في محبَّة اللّه لكلِّ مُحسن.

9. جرى هذا التّذييل في معرض التَّعليل ناظرًا إلَى معنى قوله: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرَّحمن: 60]

---

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/383، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/97، وابن التَّمجيد: حاشية ابن التَّمجيد على البيضاوي: 6/352، والآلوسي، روح المعاني: 2/299، والقاسمي، محاسن التأويل: 2/413، وابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 4/121.

توجيه المتشابه اللَّفظي هذه الآية وما قبلها من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ﴾ [آل عمران: 145]:

التَّفريق بين طالب الثَّواب المجرَّد وباذل نَفْسِهِ في خدمة مولاه محبَّة وتعظيمًا ورغبة ورهبة

قال فيما تَقَدَّمَ: ﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ﴾ [آل عمران: 145] فذكر لفظة (مِنْ) الدَّالة على التَّبعيض وفي هذه الآية قال ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ ولم يذكر كلمة (مِنْ) والفَرْقُ: أنَّ الذين يُريدون الثَّواب إنَّما اشتغلوا بالعبوديَّة لطلب مُجرَّد الثَّواب، فكانت مرتبتهم في العبودية نازلة، وأمَّا المذكورون في هذه الآية فإنَّهم لم يذكروا في أنفسهم إلا الذَّنب والقصور، وهو المراد من قوله: ﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ [آل عمران: 147] ولم يروا التَّدبير والنُّصرة والإعانة إلا من ربِّهم، وهو المراد بقوله: ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾ [آل عمران: 147]، فكان مقام هؤلاء في العبودية في غاية الكمال، فلا جَرَمَ أولئك فازوا ببعض الثَّواب، وهؤلاء فازوا بالكُلِّ، وأيضًا أُولَئِكَ أَرَادُوا الثَّوَابَ، وَهَؤُلَاءِ مَا أَرَادُوا الثَّوَابَ وإنّما أرادوا خدمة مولاهم فلا جَرَمَ هؤلاء أعطوا خيرا من أولئك، لِيُعْلَمَ أنَّ كُلَّ من أقبل على خدمة الله أقبل على خدمته كل ما سوى الله[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاء والإعطاء:

والإيتاء: أقوى من الإِعْطَاء، إِذْ لا مُطَاوع لَهُ، يُقَال: آتَاني فَأَخَذته، وَفي الإِعْطَاء يُقَال: أَعْطَاني فعطوت؛ وَمَا لَهُ مُطَاوع أَضْعَف في إِثْبَات مَفْعُوله مِمَّا لَا مُطَاوع لَهُ، وَلِأَنَّ الإيتاء في أَكْثر مَوَاضِع الْقُرْآن فِيمَا لَهُ ثباتٌ وقرارٌ، كالحكمة والسَّبع المثاني، وَالْملك الَّذِي لا يُؤْتى إِلَّا لذِي قُوَّة.

(1) الرَّازي: مفاتيح الغيب: 9/382.

والإعطاءُ: فِيمَا ينْتَقل مِنْهُ بعد قَضَاء الْحَاجة مِنْهُ، كإعطاء كلّ شَيْء خلقه لتكرر حُدُوث ذَلِك بِاعْتِبَار الموجودات، وَإِعْطَاء الْكَوْثَر للانتقال مِنْهُ إِلَى مَا هُوَ أعظم مِنْهُ[1].

وذَكر الجزائريُّ أنَّ الفاضل النَّيسابوري ذهب إلى أنَّ الإعطاء أقوى؛ لأنَّ في الإعطاء دليل التَّملك دون الإيتاء. ووافقه على ذلك، وذَكر أنَّ آية الكوثر تُؤيِّده[2].

وذَكر سعد بن عبد العظيم أنَّ الإيتاء أقوى وأفخم من الإعطاء؛ يدلُّ على ذلك كَثْرة إسناد (آتى) إلى الله تعالى، وقِلَّة إسناد (أعطى) إليه، فقد ورد الإيتاء 78 مرة. أمَّا (أعطى) فقد أُسند إلى الله تعالى 3مرات فقط[3].

الأجر والثَّواب:

الأجر ثواب وزيادة عوض. الأجرُ هو جزاء العمل الذي يكون فيه عَقْدٌ أو ما يجري مجراه، والشَّاهد أنَّك تقول ما أعمل حتى آخذ أجري ولا تقول ثوابي، أمَّا الثَّواب فقد اشتهر في الجزاء على الحسنات[4]، والأجر يُقال في هذا المعنى ويُقال في ما معناه المعاوضة بالانتفاع[5].

(1) الكفوي، الكليات، ص: 212.

(2) العسكري، الفروق اللغوية: 86، و87.

(3) سعد بن عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنية: 1/175.

(4) العسكريُّ، الفروق اللُّغوية، ص: 17.

(5) الزَّبيديُّ، تاج العروس، 10/25.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [آل عمران: 149]

المناسبة بين الترغيب في اتّباع المهتدين، والتّحذير من طاعة الكافرين المضلّين

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا رغَّب اللّه تعالى المؤمنين - في الآيات السّابقة - في الاقتداء بأنصار الأنبياء، وبيَّن ما لهم منَ الفضل وحُسن العاقبة حذَّرهم في هذه الآية من متابعة الكُفَّار وموالاتهم، ببيان أنَّ مآل ذلك هو الخسرانُ الدُّنيويّ بالانقياد إلى العدوّ المضلّ، وإظهار الحاجة إليه، والخسران الأخرويّ، بالحرمان من الثّواب المؤبّد، والوقوع في العقاب المخلّد(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾: الأعقاب: جمع عَقِب أو عَقْبٍ، وأصله يدلُّ على تأخير الشّيء، وإتيانِه بعد غيره. ومنه عقبُ الرَّجُل: أولاده، وعقبُ الشّهر: آخرُه، والمراد بالعَقب هنا: مؤخَّرُ الرِّجل، ومنه حديث: "ويلٌ للأعقاب منَ النّار"(2)، وقولُهم: رجع على عقبِه، يعني: انثنى راجعًا(3)، "والتّعقيب: انصرافك راجعا من أمر أردته أو وجه، والمعقّب: الّذي يتتبّع عقب إنسان في طلب حقّ أو نحوه، قال لبيد:

حَتَّى تَهَجَّرَ فِي الرَّوَاحِ وَهَاجَهُ *** طَلَب المُعَقِّبِ حَقَّهُ المَظْلُومُ

وقوله ﷻ: ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ [النمل: 10]، أي لم ينتظر، والتّعقيب: غزوة بعد غزوة، وسير بعد سير، وقوله ﷻ: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ [الرعد: 41]، أي لا راد لقضائه(4).

(1) القِنَّوجيّ: فتحُ البيان: 2/351.
(2) البخاري: 1/22، ومسلم: 1/213.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب)، والرّاغب، المفردات: (عقب).
(4) الخليل، العين: (عقب).

2) ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾: مضارع انقلب بمعنى: رجع، وهو من قلَبتُ الشّيءَ، أي: حوَّلتُه وصرفتُه عن وجهٍ إلى وجهٍ، وسُمِّي القلب قلبًا؛ لكثرة تقلُّبه[1]، "وَقَوله تَعَالَى: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ٣٧﴾ [النّور: 37]، قَالَ الزّجاج: ترجف وتخفّ من الْجزع وَالْخَوْف، قَالَ: وَمَعْنَاهُ: أَنّ من كَانَ قلبه مُؤمنا بِالْبَعْثِ والقيامة، ازْدَادَ بَصِيرَة، وَرَأى مَا وعد بِهِ، وَمن كَانَ قلبه على غير ذَلِك، رأى مَا يُوقن مَعَه أَمر الْقِيَامَة والبعث، فَعلم ذَلِك بِقَلْبِه، وَشَاهده ببصره، فَذَلِك تقلُّبُ الْقُلُوب والأبصار"[2]، ومعنى قوله ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾: أي "فتعودوا بالخسران المبين، والهلاك المُحقّق"[3].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تحذيرٌ من الارتداد على الأعقاب، كي لا ينقلب إلى الخسران

يخاطب اللّه تعالى أصحاب النّبيّ ﷺ وسائرَ المؤمنين تبعًا لهم - مُصدِّرًا ذلك بالنّداء، بقوله: يا أيّها الّذين آمنوا باللّه ورسوله، إن تتَّبعوا أهل الكفر منَ المنافقين والمشركين " الّذين حاولوا إلقاء الشّبهات في قلوب ضعاف المؤمنين، بقولهم: لو كان محمّد نبيّا حقّا، لانتصر، ولم يكن له يوم وعليه يوم، (وهؤلاء هم أبو سفيان وعبد اللّه بن أبيّ بن سلول)، لأنّ إطاعتهم تورث البوار في الدّنيا، بخضوعهم لسلطانهم، وذلّتهم بينهم، وفي الآخرة فيما يصيبهم من العذاب الأبديّ في نار جهنّم"[4]، وذلك آيلٌ بكم إلى الرُّجوع إلى حالكم الأوَّل، منَ الكفر المقتضي خُسرانَ خيرِ الدُّنيا وسعادة الآخرة.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (ياء النداء):

استدعاء إقبال المخاطَب لخير يُؤمَر به، أو شرّ يُنهى عنه

لّما كانَ الحرفُ (يا) مفيدًا النِّداءَ دلَّ على طلبِ إقبالِ المؤمنينَ إلى المنادي، وهو اللّه تعالى؛ لِيدلَّ على معنى التَّودُّدِ والتَّحبُّبِ، ويؤيّدهُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قلب)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/17.
(2) ابن سيده، المحكم: (قلب).
(3) ابن سيده، المحكم: (قلب).
(4) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 442.

أنّهُ خاطبَهم بوصفِ الإيمانِ، ولمّا كان (يا) لِنداءِ البعيدِ واقترنَ به (ها) التَّنبيهِ دلَّ على تنبيهِ المؤمنينَ على عِظَم الأمرِ والاهتمام بشأنِه[1]، وخاطبَهمُ اللّه تعالى بنفسِه بعدَ ما أَمرَ الرَّسولَ ﷺ بأنْ يُخاطبَ أَهلَ الكتابِ؛ إظهاراً لجلالةِ قدرِهم، وإشعاراً بأنَّهم هُمُ الأحقَّاءُ بأنْ يخاطبَهمُ اللّهُ ويُكلّمَهمْ[2].

دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

يدلُّ الاسمُ الموصولُ على العمومِ، فيشملُ كلَّ المؤمنينَ، ولمّا كانَ المخاطبونَ وقتَ التَّنزيلِ همُ الصَّحابةَ ﵃ كانَ دخولُهمْ في الخطابِ دخولًا أوّليًّا[3]، والكلامُ مثلُهُ يجري في قولِهِ تعالى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فيشملُ كلَّ الكافرينَ، ويدخلُ فيهِ الكافرونَ وقتَ التَّنزيلِ دخولًا أوّليًّا كذلكَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ الاسمِ الموصولِ وصلتِهِ في قولِهِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

شأنُ المؤمنِ هو عدمُ ارتكابِ ما يناقضُ إيمانَه

عبَّر بالاسمِ الموصولِ وصلتِه؛ لإحضارِ وصفِ الإيمانِ عند المخاطبينَ؛ للإيماءِ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ على صلةِ الموصولِ، أَي: إنَّ اتِّصافَهم بالإيمانِ يقتضي الامتثالَ، وهو التّحذيرُ مِنْ طاعةِ الكافرينَ والانقيادِ لهمْ، كما أفادَ التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ توجيهَ المخاطبينَ إلى ما سُيخبرُ بهِ عنهُ؛ لِينتظروا ورودَ الخطابِ حتَّى يأخذَ منهُ مكانَهُ إذا وردَ؛ لِيبادروا إلى الامتثالِ، وفيهِ تعريضٌ باستحقاقِ المؤمنِ الإجلالَ والتَّعظيمَ بسببِ وصفِ الإيمانِ[4].

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿إِن﴾:

لمّا كانتْ ﴿إِن﴾ تُستعمَلُ عندَ عدمِ الجزمِ في وقوعِ الشَّرطِ، وكانتْ

---

(1) التّفتازانّي، المطوّل، ص:430.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/31.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/353.
(4) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 182.

طاعة الكافرين مـمّا يُستبعَد وقوعه من أهل الإيمان

تدلُّ على نُدرةِ وقوعِ الشّرطِ المقترنِ بها[1] أفادتْ عدمَ القطعِ بإطاعةِ المؤمنينَ للكافرينَ وندرةَ وقوعِه، وأيّدهُ اقترانُ الأداةِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تُطِيعُواْ﴾ دونَ الماضي، إشعارًا بأنَّ مَنْ لهمْ وصفُ الإيمانِ باللّهِ لا يطيعُونَ مَنْ لهمْ وصفُ الكُفرِ به سبحانَه وتعالى، ففي التّعبيرِ بـ ﴿إن﴾ إشارةٌ إلى استبعادِ وقوعِ هذهِ الطَّاعةِ منَ المُخاطَبينَ المؤمنينَ.

بديع الطباق:

حسنُ الإيمانِ وقبحُ الكفر

وردت جملة الصّلة ﴿كَفَرُواْ﴾ في مقابلة ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ على سبيلِ الطّباق، لَمَا فيهِ مِنْ بيانِ القبحِ بضدّهِ منَ الحُسنِ؛ تحريضًا على استمساكِهم بالحسنِ، وتحاميهم الوصفَ القبيحَ، بكلِّ سبيلٍ، وفي الطّباقِ إشارةٌ إلى أنَّ المؤمنَ لا ينبغي أنْ يُطيعَ الكافرَ؛ لَمَا يؤولُ بهِ إلى أنْ يُسلَبَ منه وصفُ الإيمانِ، ويتلبَّسَ بضدِّهِ منَ الكفرِ[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿تُطِيعُواْ﴾:

عبّر بـ ﴿تُطِيعُواْ﴾ لِما في الكلمةِ من معنى الانقيادِ والمضيِّ في أمرِ المُطاعِ، والمعنى إنْ يُطِعِ الَّذينَ آمنوا الَّذينَ كفروا يكونوا مُنقادينَ لَهم في القولِ والفعلِ والقلبِ، معَ لِينِهمْ وتيسُّرِهم لِلكافرينَ، فيتمكَّنوا مِنْ توجيههمْ وتشغيلِهم، فيرتدُّوا على أعقابِهم وينقلبوا خاسرينَ[3].

بلاغةُ حذفِ المتعَلَّق:

حذفَ متعلّقَ الفعلِ في قوله ﴿تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فلمْ يُقلْ: إنْ تطيعوا الّذينَ كفروا في إغرائِكم بالعودةِ إلى الكفرِ أو ماهو مثلُه في المعنى، فأطلقَ لإفادةِ عمومِ التَّحذيرِ مِنْ أيِّ طاعةٍ مِنَ المؤمنينَ للكافرينَ.

(1) التفتازاني، المطول، ص: 318.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/381.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طوع)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/122.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول في قولِهِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

لِلإشعارِ بعلّةِ الحكم؛ لِيؤذِنَ بأنَّ النّهيَ عن طاعتِهم المضمَّنَ في معنى الشَّرطِ هو بسببِ ما اتّصفوا بهِ مِنَ الكفرِ، وفي التّعبيرِ بوصفِ الكفرِ إهانةٌ واستهجانٌ لهمْ، وزيادةٌ في التّنفيرِ عنهمْ، والتّحذيرِ مِنْ طاعتِهم، ولفظُ الكفرِ صالحٌ بِالوضعِ اللُّغويِّ لِكلِّ كافرٍ مِنْ مُشركٍ وكتابيٍّ، مُظهرٍ أو منافقٍ[1].

بلاغةُ المجازِ العقليِّ في قوله ﴿يَرُدُّوكُمۡ﴾:

في نسبةِ الرَّدِّ إلى الكافرينَ في قولِه تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمۡ﴾ مجازٌ عقليّ؛ إذْ أُسندَ فِعلُ الرّدِّ إلى الكافرين، مع أنّ الرّادَّ في الحقيقةِ هو اللّه تعالى، وهذا كقولِه تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ [البقرة: 36]، وفي هذا المجازِ إشارةٌ لطيفةٌ إلى التّخليةِ بينَ الكافرينَ ومُطيعيهم، وخُسرانِهم لتوفيقِ اللّه تعالى وتأييده[2].

العــودةُ إلى الكفرِ انتكاسٌ، وتَقَهقُرٌ عنِ الطّريقِ القويمِ، وهو أقبحُ القبائح

بلاغةُ قولِه تعالى ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ بينَ الاستعارةِ والكنايةِ:

يحتملُ أنْ يكونَ قولُه تعالى ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً حيثُ شَبَّهَ الرَّاجعَ عَنِ الدِّينِ بِالرَّاجِعِ الْقَهْقَرَى على الأعقابِ[3]، فحذفَ المشبّهَ وأقامَ المشبَّهَ بهِ مقامَه؛ ليكونَ على معنى إثباتِ الانتكاسِ والخسرانِ بالدَّليلِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ الكلامُ كنايةً بليغةً، حيثُ كُنِّيَ عن رجوعِ المرءِ إلى الكفرِ - بعدَ أنْ نجّاهُ اللّه منهُ - بالرَّدِّ إلى جهةِ الخلفِ منْ غيرِ أنْ يعيدَ وجهَه إلى جهةِ مشيِه، لِيدلّ على أنّهُ غيرُ مهتدٍ في طريقِه، ولا مُحترزٍ ممّا قدْ يُهلكُهُ في أثناءِ سيرِه، وقد صارتْ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/278، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/97، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/353، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/121.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/262، والبروسوي، روح البيان: 2/108.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/381.

هذهِ الكنايةُ علَمًا في انتكاسِ الأمرِ، ومثَلًا في الحَورِ بعدَ الكَورِ، والنّقصانِ بعد الزّيادةِ[1].

مناسبةُ التَّعبيرِ بالأعقابِ:

في التّعبير بالأعقاب - وهي مؤخَّرُ الأرجُلِ - عنْ جهةِ الوراءِ إشعارٌ بالانخفاضِ والانحطاطِ في مسيرِ العائدِ منَ الإيمانِ إلى الكفرِ؛ إذ عُبِّر عنْ جهةِ سيرِهِ بجزءٍ من أخفضِ أعضائِهِ وأحطِّها[2]، فالارتدادُ على العقِبِ علمٌ في انتكاسِ الأمرِ كما تقدَّم.

بلاغة الاستعارة في قوله ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾:

الارتـــداد عـن الإيـمـان صفقةٌ خاسرةٌ

وردتِ الاستعارةُ على تمثيلِ مَنْ حبطَ عملُهُ - لارتدادِه عن الإسلام - بالتّاجرِ الّذي خسرَ ربحَه ورأسَ مالِه جميعًا؛ فالإسلامُ صفقةٌ رابحةٌ، فحذفَ المشبَّهَ وأقامَ المشبَّهَ به مقامَهُ، فإنّ حبوطَ العملِ يحصلُ به ضياعُ سعيِ المرءِ، ويكونُ يومَ القيامةِ هباءً منثورًا، وهذا أعظمُ ما يكونُ منَ الخُسرانِ، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾ [الزمر: 65][3]، ويُقوّيه مجيءُ الفعلِ ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾ لِمَا فيه منَ المناسبَةِ معَ الاستعارةِ السّابقةِ ﴿عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾، وفي اقترانِ الفعلِ بالفاءِ دلالةٌ على سرعةِ الانتكاسِ المُخزي.

بلاغةُ أسلوبِ الشّرطِ:

لمّا كانَ الشَّرطُ دالًّا على وقوعِ الجزاءِ بوقوعِ الشَّرطِ واقترانهِ بهِ مِنْ غيرِ مُهلةٍ أفادَ أنَّ ارتدادَ المؤمنينَ وانقلابَهم خاسرينَ يقعُ بوقوعِ طاعتِهم لِلَّذينَ كفروا، وفي أسلوبِ الشَّرطِ إمعانٌ في البيانِ وفي التَّحذيرِ؛ ففيهِ نهيٌ عن طاعةِ الكافرينَ معَ التَّعريفِ بقبحِ إطاعتِهم ومآلِها، وما يعرِضُ فيها مِنَ الفسادِ[4].

---

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 2/504، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/381، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/97.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/113.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/381.
(4) الراغب، تفسير الراغب: 3/960.

نُكتةُ العطفِ في جزاءِ الشَّرطِ:

لمّا جاءَ الجزاءُ في جملتينِ معطوفتينِ ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ دلَّ على أنَّ الجزاءَ بمجموعِ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ مرتَّبٌ، أي لا يقعُ المعطوفُ حتَّى يقعَ المعطوفُ عليهِ، والكلامُ على تقديرِ شرطينِ متضامَّينِ، والمعنى إنْ تطيعوا الَّذين كفروا يردُّوكمْ على أعقابِكم، وإنْ ترتدّوا على أعقابِكمْ تنقلبوا خاسرينَ، ولِهذا أتى بالفاءِ الدالَّةِ على التَّعقيبِ وأَنَّ ما قبلَها سببٌ لِما بعدَها، فصارتْ طاعةُ الكافرين سببًا لـ ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾، منْ أجلِ كونِهِ سببًا في الارتدادِ على الأعقابِ[1].

دلالة قوله ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾:

لمّا كانتِ الفاءُ لإفادةِ التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، وكانَ ما قبلَها سببًا لِما بعدَها كانَ التَّعبيرُ بمثابةِ التَّصريحِ بما عُلِمَ التزامًا مِنْ قوله ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾؛ لِمزيدِ التَّنفيرِ عنْ مطاوعتِهم، فذكرَ الخسرانَ؛ لِما فيهِ مِنْ معنى الضّياعِ والتَّوحُّشِ الَّذي ينفرُ منه العقلاءُ[2].

---

(1) الجرجانّي، دلائل الإعجاز: 1/234.

(2) القونويّ، حاشيّة على تفسير البيضاويّ: 6/353.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾ [آل عمران: 150]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين التّحذير من أهل الكفر، والدّعوة إلى موالاة الله خير النّاصرين

لمّا حذَّر اللّه تعالى المؤمنين من طاعة أهل الكفر وموالاتهم، بيَّن أنّ هؤلاء ليسوا أهلًا لولاية المؤمنين، وأنّه تعالى هو مولى المؤمنين وناصرهم الّذي لا ينصرُ أحدٌ أولياءَه كنصره، كائنًا من كان، "فاطمئنّ على أنّك خالص ومخلص للّه، وإلّا ما جاءك نصره، فساعة يأتيك نصر اللّه، فاطمئن على نفسك الإيمانيّة وأنّك مع اللّه"[1]، لأنّه خير النّاصرين.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾: أي: ناصركم، وأصل وَلِيَ يدلّ على القُرب، ومنه قولهم: تباعدَ بعدَ وَلْيٍ، أي: بعد قُرب، وقد يكون القربُ في المكان، أو في النِّسبة أو في الدِّين، أو في الصّداقة والنُّصرة، ولذا يُقال للمُعتِق، والمُعتَق، والصّاحب، والحليف، والنّاصر، وابنِ العمِّ والجارِ: المَوْلى. والتّوالي: " أن يَحْصُلَ شيئان فصاعدا حصولا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب"[2].

2) ﴿خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾: أي أقواهم بالنّصرة. فلا ينبغي أن تطيعوا الكفّار لينصروكم لأنّهم عاجزون[3]، والمعنى: فاعتصموا به ولا تستنصروا بغيره، ولا ترجعوا على أعقابكم مرتدّين عن دينكم"[4]، أو أنّه تعالى" خير من ينصر من نصره؛ فلا يغلب، كقوله: ﴿إِن

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1813.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي)، والرّاغب، المفردات: (ولى).
(3) الجاويّ، مراح لبيد: 1/159.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 6/126.

﴿يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾ [آل عمران: 160][1]، "لأنّه خبير بمواقع الحاجات، قدير على إنجاز الطّلبات، ينصر في الدّنيا والآخرة، بلا شائبة علّة من العلّات، ونصرة غيره لو فرض، فإنّه مخصوصٌ بالدّنيا وببعض الأمور، وفي بعض الأوقات، ولغرض من الأغراض الفاسدات، كيف ولا ناصر بالحقيقة سواه"[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا مـــولى للمؤمنين غير الله، ولا ناصر لهم سواه

ليسَ الكفّار أولياءَ لكم - أيّها المؤمنون - فينصرونكم إذا أطعتموهم، إنّما وليُّكم، وناصركم هو الله الّذي لا تحتاجون إلى أحد بعده، فيقول لهم: " أطيعوا الله ربّكم ووليّكم ومولاكم، فإنّه خير من يطاع، وأحقّ من يطاع، واطلبوا النّصر بطاعته، فهو خير النّاصرين"[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ ﴿بَلِ﴾ بينَ الإضرابِ الانتقاليِّ والإبطاليِّ:

الـــلـــهُ مـــولى المؤمنينَ لا غيرُهُ

تحتملُ ﴿بَلِ﴾ أنْ تكونَ للإضرابِ الانتقاليِّ[4]، على معنى الانتقالِ مِنَ المهمِّ إلى الدُّخولِ إلى الأهمِّ بطريقِ الاستدلالِ، بدلالةِ قرينةِ الحالِ؛ لأنَّهُ - سبحانَه - بعدَ أنْ حذَّرَ المؤمنينَ مِنْ إطاعةِ الكافرينَ وما يترتَّبُ عليها مِنَ الانقلابِ إلى الكفرِ والذِّلَّة، انتقلَ إلى توجيهِهمْ إلى ما فيه عزَّتُهم ونصرُهم، والمعنى: إنّي أنهاكم - أيُّها المؤمنونَ - عن إطاعةِ الكافرينَ؛ لأنَّهم ليسوا أولياءَ لكم فتطيعوهم، بلِ اللّه - تعالى - هو وليُّكم ومعينُكم وهو خيرُ النَّاصرينَ، فجاءَ الإضرابُ الانتقاليُّ لِتثبيتِ المؤمنينَ ولِبيانِ أنَّه إذا كانَ اللّه مولاهم وناصِرَهم ومعينهم فلنْ يُطيعوا الَّذينَ كفروا.

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 2/505.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/275.
(3) الكواريّ: تفسير غريب القرآن: 3/150.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/522، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/14-46، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/292.

كما تحتملُ ﴿بَلِ﴾ أنْ تكونَ للإضرابِ الإبطاليِّ، وهو ظاهرُ كلامِ البيضاويِّ وغيرِه، والمعنى إبطالُ مضمونِ المعنى الذي قبلَها وإثباتُ ما بعدَها، كأنَّه قيل فلا تطيعوهم، إنّهم ليسوا أهلًا لوَلايتكم، بل اللّه مولاكم، فأطيعوه واستغنوا بهِ عنْ موالاتِهم؛ لِيفيدَ الإضرابُ الإبطاليُّ التَّحذيرَ مِنْ فعلِ ما قبلَ ﴿بَلِ﴾، والمبادرةَ إلى فعلِ ما بعدَها[1].

مناسبةُ القصرِ في قوله ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾:

جاءَ القصرُ في الآيةِ بأسلوبين، أحدِهما في مجيءِ المسندِ والمسندِ إليه معرفتينِ؛ لِبلوغِ المسندِ إليه في استحقاقِ ما أُسنِدَ إليه حدًّا يقتضي حصرَ المسنَدِ فيه[2]، والقصدُ هنا هو إثباتُ الولايةِ للّهِ تعالى أوَّلًا وبالذّاتِ ثمّ نفيُ الولايةِ عنْ غيرِهِ ثانيًا وبالتَّبعِ، كما أنَّ الإضرابَ بـ ﴿بَلِ﴾ يُشعِرُ بمعنى قَصرِ الولايةِ على اللّهِ تعالى، والمعنى: اللّهُ مولاكم لا غيرُه؛ لِيفيدَ ولايتَهُ سبحانَه وتعالى نصًّا، ونفيَ ولايةِ غيرِه ضمنًا، فدلَّ القَصْرُ على تأكيدِ مضمونِ الجملةِ وتقريرِهِ على سبيلِ انحصارِ الصِّفةِ ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ في الموصوفِ ﴿ٱللَّهُ﴾، وثباتِ ولايةِ اللّهِ للمؤمنينَ ودوامِها، وليدفعَ ما قدْ يُتَوهَّم منْ أنَّ غيرَ اللّه قدْ يكونُ مولى المؤمنينَ.

نكتة التعبير بقوله ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾:

عبَّر بقوله ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ لِما تفيدُه الكلمةُ من معنى التَّقرُّبِ والتَّودُّدِ والنُّصرةِ والإعانةِ، وفيه تذكيرٌ للمُخاطَبينَ أصالةً - وهمْ أصحابُ النّبيّ ﷺ - بعِظَمِ شأنِ الولاءِ عندَهم، فإنَّ له عند العرب شأنًا عظيمًا كشأنِ النَّسَبِ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

عَبَّرَ بالاسمِ الجليلِ المقتضي لصفاتِ العِزِّ والمَنَعةِ تعظيمًا لأمرِ ولايةِ اللّهِ تعالى لِلمؤمنينَ في أنفسِهم[4].

---

(1) البيضاوي، تفسير البيضاوي: 2/42، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/275، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/91، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/122.

(2) السبكي، عروس الأفراح: 1/406.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/122.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/91، والسّيوطيّ، شرح عقود الجُمان، ص: 28.

دلالةُ العطفِ في قوله ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾:

لمّا كانتِ الواوُ عاطفةً أفادتْ وقوعَ الجملتينِ المعطوفتين في حكم الإضراب على الاحتمالينِ المذكورين، فيكونُ الإضرابُ متعلِّقًا بقوله ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ كذلكَ؛ لإفادةِ تأكيدِ النَّهي عنْ طاعةِ الكافرينَ والامتثالِ لِكفرِهم، وحسَّنَ الوصلَ بينَ الجملتينِ هنا لِما بينهما منْ مناسبةِ الاتصالِ، فكلاهما جملةٌ اسميَّةٌ وعلى معنى النُّصرةِ والإعانةِ[1].

دلالةُ اسمِ التّفضيلِ بينَ الحقيقةِ والمجازِ في قوله ﴿خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾:

لا نصرَ كنصرِ اللهِ مقصدًا، وموقعًا، وفائِدةً

يحتملُ اسمُ التَّفضيلِ ﴿خَيۡرُ﴾ أنْ يكونَ على حقيقةِ المفاضلةِ، أي إنَّ اللّه تعالى هو خيرُ الموصوفِين بهذا الوصفِ؛ ذلكَ أنّ نصرَ اللّهِ تعالى يتجاوزُ دفعَ الغلَبِ عنِ المغلوبِ إلى قطعِ الغالبِ، كما أنَّ نصرَهُ تعالى يتعدَّى دفعَ الظّلمِ عنِ المظلومِ إلى قطعِ ظُلمِ الظّالمِ، فاللّه خيرُ النّاصرين قصدًا، وموقعًا، وفائدةً[2]، كما يحتملُ أنْ يكونَ اسمُ التّفضيل ﴿خَيۡرُ﴾ على المجازِ، لِأنّه سبحانَهُ ليس معدودًا في جنسِ النّاصِرين، فلا تقعُ المفاضلةُ بينه وبينَ المخلوقينَ أصلًا، لكنّه خاطبهم بحسبِ عرفِهم، كقوله: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الرّوم: 27].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/376، والآلوسّي، روح المعاني: 2/300.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/122.

﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾ [آل عمران: 151]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين نصر المؤمنين، وما نال الكافرين من الرّعب وسوء المصير

بعد أن بيَّن اللّه تعالى أنّه ناصرُ المؤمنين، وأنّه لا ينصر أحدٌ كنصره جلّ وعلا، قرَّر ذلك المعنى بأنَّه حال بينهم، وبين استئصال المسلمين، وأنّه في الآخرة يجازي هؤلاء المشركين بالخلود في النّار، فقد وقعتِ الآية ممّا قبلها تقريرًا لتحقيق الوعد، "وسيلقي اللّه في قلوب الّذين كفروا الرّعب الشّديد، بسبب شركهم باللّه أصناما وحجارة، لا حجّة ولا برهان على صواب عبادتها وتعظيمها"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرُّعۡبَ﴾: هوَ الخوف الّذي يملأ القلب، وأصل الرُّعب هوَ الامتلاء، ومنه قولهم للسَّيل الّذي يملأ الأودية والأنهار: سَيل راعب، وسَنام رَعيب، أي: ممتلئٌ سمينٌ، وقِيل: هوَ الفزَع، وسُمِّي الرّعبُ بذلك؛ لأنّه تزعزُعٌ واضطرابٌ يملأ باطن الإنسان، وقيل: هوَ الانقطاع من امتلاء الخوف، من قولهم: رَعَبتُ السَّنام، أي: قطَعتُه[2]، وقُرِئ ﴿ٱلرُّعۡبَ﴾ حيث أتى في القرآن بإسكان العين وضمّها، فقِيل: هما لغتان، وقِيل: الأصل هوَ السّكون، والضّمُّ على الإتْباع، كالصُّبْح والصُّبُح، وقِيل: الأصل هوَ الضّمّ، والإسكان للتّخفيف، كالرُّسُل والرُّسْل[3].

(1) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/248.

(2) الرّاغب، المفردات: (رعب)، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/279، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رعب).

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/377، والخفاجي، عناية القاضّي: 3/70.

2) ﴿سُلۡطَٰنٗاۖ﴾، أي: حُجّةً وبرهانًا[1]، وأصل الكلمة اللّغويّ يدلّ على القوّة والقهر، ومنها قِيل للوالي: سلطان، وسُمِّيت الحُجّة سلطانًا؛ لأنّها تهجُم على القلوب، أو لأنّها تقهَر المُنكِرَ، أو المُعارِض على التّسليم، ولا يُقال للحُجَج: سلاطين؛ لجريان السّلطان بمعنى الحجّة مَجرَى المصادر، وسَلَاطة اللّسان هي: القوّة على القول، وأكثر ما تُستعمَل في الذّمِّ[2]، و"جميع ما في القرآن من ذكر السّلطان مذكّر، ولو كان التّأنيث أكثر لكان في كتاب الله جلَّ وعزَّ.. والسّلطان الحجّة، والاحتجاج والحجّة معناهما واحد. فأمّا التّأنيث فصحيح، إلّا أنّه أقلّ من التّذكير، فمن قال: قضت به عليك السّلطان، أراد قضت عليكَ به الحجّة، وقضت عليك حجّة الوالي، ومن قال قضى به عليك السّلطانُ ذهب إلى معنى صاحب السّلطانِ. وجائز أن يكون ذهب به إلى البرهَانِ والاحتجاجِ، أي قضى به عليك البرهان"[3].

3) ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ﴾: أي مسكنُهم ومقرُّهم الّذي لا بَراحَ لهم منه[4]، وهو اسم مكان من أَوَيتُ إلى المكانِ، وأويتُه إذا دخلتُه، وسكنت فيه، وأصله اللّغويّ يدلُّ على الضّمِّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣﴾ [المعارج: 13]، أي: تضمُّه، والتّأوِّي: التّجمُّع، يُقال: تأوَّتِ الطّير إذا انضمَّ بعضُها إلى بعض[5]، "وبالجملة ليس مَأْواهُم في النّشأة الأخرى إلّا النَّارُ الموعودة المعدّة لمن ظلم وافترى على الله، واتّبع هواه، وَبِئْسَ المثوى والمأوى مَثْوَى الظَّالِمِينَ الكافرين، الخارجين عن مقتضيات حدود الله وشعائر توحيده"[6].

4) ﴿مَثۡوَى﴾: اسم مكان من ثوى، والثَّواء هو طول المُقام؛ ولذا يُقال: ثُوِيَ الرّجُل إذا قُبِر، والثّوِيُّ: البيت المهيَّأُ للضّيف، ويُقال للغريب إذا أقام ببلدة: ثاوٍ، ومنه قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 45][7]، والمثوى: المكان الّذي يقام فيه، يقال: ثوى يثوي ثواء، والمأوى: كلّ مكان يرجع إليه شيء ليلا أو نهارا[8].

---

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/503، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/385.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلط)، والجوهريّ، الصّحاح: (سلط)، والرّاغب، المفردات: (سلط)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سلط).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلط)، والجوهريّ، الصّحاح: (سلط)، والرّاغب، المفردات: (سلط)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سلط).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/123.
(5) ابن سيده، المحكم: (أوى)، وابن منظور، لسان العرب: (أوا)، والزّبيديّ، تاج العروس: (أوى).
(6) علوان، الفواتح الإلهيّة: 1/129.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ثوى)، وابن سيده، المحكم: (ثوي).
(8) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/233.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تـوعّـد الـلـه المشركين بالرّعب في الـدّنـيـا، وعـذاب النّار في الآخرة

سنملأُ قلوب المشركين خوفًا بسبب إشراكهم باللّه آلهةً ليس لهم عليها حُجّة أو برهان، هذا في الدّنيا، أمّا في الآخرة فجزاؤهم أنَّ مستقرَّهم هو النّار، وبئس مستقَرُّ الظّالمين هي، "وهذا التّرهيب يستدعي زيادة شجاعة المؤمن الموعود بالنّصر، وضعف المشرك وخَوَرِ عزيمته، لأنّه مبشّر بالعذاب والعقاب"(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾:

وردَ الكلامُ على طريقةِ الاستعارةِ المكنيَّةِ التَّبعيَّة؛ إذِ استعارَ كلمةَ ﴿سَنُلۡقِي﴾؛ لِلتّعبيرِ عن جعلَ الرُّعبِ في القلوبِ، ولمّا كانَ الإلقاءُ يستعملُ لِلأجسامِ في الحقيقةِ، وحذفَ المشبّه بِهِ وهو إلقاءُ الأجسام وذكرَ المشبَّه (جعل الرُّعبِ في القلوبِ) معَ ذكرِ شيءٍ من لوازمِ المشبَّه به وهو الإلقاءُ، كانتِ الاستعارةُ مكنيّةً، وكانت تبعيّةً لِلتّعبيرِ بالفعل ﴿سَنُلۡقِي﴾، فأفادتِ الاستعارةُ المكنيّةُ إثباتَ المدّعى (إلقاءَ الرُّعبِ بالدَّليلِ؛ لِتجسيدِ الصورةِ وتشخيصِها بتنزيلِ المعنويِّ (جعلِ الرُّعبِ في القلوبِ) منزلةَ الماديِّ (إلقاءِ الأجسامِ)؛ ولِلإشعارِ بسهولةِ الجعلِ المذكورِ على اللّهِ تعالى، كما أفادتِ الاستعارةُ أنَّ إلقاءَ الرُّعبِ يكونُ من علُوٍّ؛ لمناسبتِه لمقامِ الملقي، ولِتكونَ قلوبُ الَّذينَ كفروا ظَرفًا للرُّعبِ، فيستقرَّ الرُّعبُ كاستقرارِ المظروفِ في الظَّرفِ(2).

دلالةُ السِّينِ في قولِه ﴿سَنُلۡقِي﴾:

قــربُ إرعـــابِ الـكـــافـريــن تعجيلٌ بالنّصر وتحقيقٌ للولايةِ

السِّينُ للاستقبالِ القريبِ بالنَّظرِ إلى زمانِ نزولِ الآية؛ لِلإيذانِ بقُربِ وعدِ اللّهِ تعالى بإلقاءِ الرُّعبِ في قلوبِ الَّذينَ كفروا، وأفادتِ السِّينُ توكيدَ المعنى وتثبيتَه؛ لِأنّها إخبارٌ على إخبارٍ، والمُخبَرَ عنهُ

(1) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/248.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/522، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/384.

واحدٌ، فَفي التّعبيرِ بِها توكيدٌ فوقَ التّوكيدِ المستفادِ أصلًا من إخبارِ اللّهِ تعالى عمّا سيصيبُ بِهِ الكافرينَ.

نكتة التّعبير بالفعل المسند إلى نون العظمة:

عظمُ الرّعبِ المُلقى لِعظمِ الملقي

لمّا أسندَ الفعلَ إلى نونِ العظمةِ أشعرَ بعظمِ ما يُلقى، وَهُوَ مُشْعِرٌ بِعِظَمِ الرُّعبِ الحاصلِ في قلوبِ الكافرينَ المكتسَبِ من عظمةِ المُلقي(1).

بلاغةُ الالتفاتِ في ﴿سَنُلۡقِي﴾:

في الالتفاتِ من خطابِ الغَيبةِ إلى التّكلّمِ تربيةٌ لِلمَهابةِ، واستدرارٌ للأسماعِ

في الانتقالِ من أسلوبِ الغَيبةِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ إلى أسلوبِ التّكلُّمِ والتّعظيم في: ﴿سَنُلۡقِي﴾ التفاتٌ بليغٌ يفيدُ استدرارَ أسماعِ المُخاطَبين؛ لِلتَّنبيهِ على هولِ ما سيلقيهِ تعالى في قلوبِ الكافرينَ؛ جريًا على سَنَنِ الكبرياءِ؛ لِتربيةِ المهابةِ، لِما يتضمّنُهُ الإسنادُ إلى الذّاتِ العليَّةِ بضميرِ التَّعظيمِ من معاني الكبرياءِ والتَّمجيدِ(2).

العودُ إلى الالتفاتِ بوضعِ الظّاهرِ موضِعَ المضمَرِ:

تعظيمُ اللهِ ينافي الإشراكَ به

ومن لطائفِ هذهِ الآيةِ أنَّهُ التفتَ مرَّةً أخرى، فرجعَ إلى أسلوبِ الغَيبةِ، ووضعَ الظّاهرَ موضِعَ المضمَرِ في قوله ﴿بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾، ولو ساقَهُ على الالتفاتِ بأسلوبِ التكلُّم، لَقالَ (بما أشركوا بِنَا)، فعدلَ إلى الالتفاتِ مرةً أخرى؛ لإيرادِ الاسم الجليلِ (اللّه)؛ لإثباتِ المدّعَى بالإشعارِ بما يتضمّنه اسمُ (اللّه) منَ العظَمةِ المنافيةِ للإشراكِ؛ لِيكونَ الكلامُ على المبالَغةِ في ذمِّ المشركينَ وتوبيخِهم(3).

ففي الآيةِ التفاتان.

بلاغة التقديم والتَّأخير:

قَدَّمَ الجار والمجرور ﴿فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على المفعول به

---

(1) الدّمامينيّ، شرح مغني اللّبيب: 2/8، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/376، والآلوسيّ، روح المعاني: 2/300.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/98، والآلوسيّ، روح المعاني: 2/300.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/301.

﴿ٱلرُّعۡبَ﴾، وتقديرُ الكلامِ على الأصلِ، سنلقي الرُّعبَ في قلوبِ الّذين كفروا، فقدَّمَ ماحقُّهُ التَّأخيرُ؛ لِلاهتمامِ بالمحلِّ المُلْقَى فيهِ قَبْلَ ذِكْرِ المُلْقى[1]، ولِلإشعارِ بتخصيصِ محلِّ الرُّعبِ، وهو القلبُ.

القلبُ سيّدُ الأعضاءِ، وفي رُعبِهِ حَيرةُ النَّفسِ وشقاؤُها

مناسبةُ التّعبيرِ بالرُّعبِ دونَ الخوفِ:

لمّا كانَ الرُّعبُ بمعنى الامتلاءِ، وفيهِ معنى الفزعِ والاضطرابِ وكانَ الخوفُ بمعنى فراغِ جوفِ الشَّيءِ كفراغِ القلبِ؛ لِتوقُّعِ ضررٍ مشكوكٍ في أمرِه عبَّر بالرُّعبِ دونَ الخوفِ؛ لِمقامِ الكلامِ؛ ليدلَّ على امتلاءِ قلوبِ الكافرينَ خوفًا وفزعًا منَ المؤمنين يومَ أُحُدٍ، فكأنَّ قلوبَ الكافرين يومَ أُحُدٍ قدْ أُفرِغَت تمامًا، ثمَّ ملأهَا الرّعبُ، فلا مجالَ للطُّمأنينةِ والسُّكونِ فيها[2]، ولهذا عندَ وصفِ المؤمنين لايُقالُ: يُرعَبونَ من اللّهِ بلْ يقالُ: يخافونَ اللّهَ.

الرُّعبُ أبلغُ منَ الخوفِ للكافرينَ لِدلالتِهِ على امتلاءِ القلبِ بالفزعِ والاضطرابِ

دلالة الباء بين السببية والمقابلة:

تحتملُ الباءُ أنْ تكونَ سببيَّةً وهو قولُ جمهورِ المفسِّرينَ[3]، والمعنى سُنلقي في قلوبِ الذين كفروا الرُّعبَ بسببِ إشراكِهم باللّهِ، كما تحتملُ أنْ تكونَ لِلعوضِ، وتسمَّى باءَ المقابلةِ[4] على معنى أنَّ إلقاءَ الرُّعبِ كانَ في مقابلةِ إشراكِهم باللّهِ، فكأنّهم اشترَوا الرُّعبَ في مقابلِ الإشراكِ باللّهِ تعالى، فيكونُ الكلامُ على معنى التَّهكُّمِ.

لا أمنَ إلا للموحِّدِ الحقِّ، ورعبُ القلوبِ منْ أشدِّ العقوباتِ

مناسبةُ التَّعبيرِ بقولِهِ ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ﴾:

قدْ يقالُ: هل هناكَ حجَّةٌ على الشِّركِ حتّى ينزِّلَها اللّهُ، فإنَّ تسليطَ النَّفي على الإنزالِ يقتضي ذلكَ؟ والجوابُ إنَّه لَمَّا أَرادَ نفيَ الحجّةِ وتنزيلِها معًا أتى بهذا التَّعبيرِ؛ إذ نفى المقيَّدَ وهو التَّنزيلُ

الاستدلالُ على بطلانِ الشِّركِ باللهِ تعالى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/376.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/279، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/576، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خوف - خيف).
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/425، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/523، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/385.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/123.

والقيدَ وهو الحجَّةُ، فإنَّ الآلهةَ لا حجَّة لها، والمعنى بما أشركوا باللّهِ آلهةً لاسلطانَ لها في إشراكِها، فيكونُ نفيُ التّنزيلِ بمثابةِ الوصفِ لِلآلهةِ، أَو يقالُ: إنَّ التَّنْزِيلَ إِمَّا بِمَعْنَى الْوَحْيِ، وَإِمَّا بِمَعْنَى نصبِ الأدلّة عَلَيْهِم، وَلَمَّا كَانَ الْحَقُّ لَا يعدو هذينِ الحالَين: لِأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُعلَمَ بالوحيِ، أَوْ بِالأَمارات، كَانَ نَفيُ تَنزيلِ السُّلطانِ على الْإِشراكِ كنايَةً عنْ نفيِ السُّلطانِ نفسِه، وعبَّرَ بهذا الأسلوبِ لإقامةِ الحجَّةِ عقلًا على بطلانِ الشِّركِ، ولِلإيذانِ بوجوبِ الامتثالِ لِكُلِّ ما ينزِّلُهُ اللّه تعالى دونَ الآراءِ والأهواءِ الباطلةِ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾:

إيـواءُ المشركينَ إلى النّـار دائـمٌ ثابتٌ

هذهِ استعارةٌ تهكميّةٌ عناديّةٌ، وبيانُها أنَّه لمّا كانَ المأوى هو المكانَ الذي يأوي إليهِ الإنسانُ حينَ يرجعُ إلى سكناهُ، ويقتضي الرّاحةَ والاستقرارَ كانَ إيرادُ قولِه تعالى ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ على معنى الاستعارةِ التّهكميَّةِ العناديَّةِ، لاستعمالِ المأوى في ضدّه، وهو الإقامةُ في النّارِ، ولمّا امتنعَ اجتماعُ الرَّاحةِ معَ النّارِ كانتِ الاستعارةُ عناديَّةً؛ لإفادةِ السُّخريَّةِ من المشركينَ؛ ليزيدَ منْ قُبحِ مآلِهم ويخيبَ ظنُّهم، فأخبرَ اللّه تَعَالَى بِأَنَّ مَصيرَ المشركينَ وَمَرجعَهُمْ إِلَى النَّارِ؛ لتكونَ محلَّ إقامتِهم، فَهُمْ في الدُّنْيَا مرعُوبُونَ وفي الآخرةِ مُعذَّبونَ، بِسببِ إشراكِهِمْ، فهو جالِبٌ لهُمُ الشَّرَّ في الدُّنيَا وَالآخرةِ[2].

مناسبةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾:

أَفادتِ الجملةُ الاسميَّةُ هنا بمعونةِ المقامِ قصرَ الموصوفِ على الصِّفَةِ بمعنى قصرِ مأواهم وإقامتِهم يومَ القيامةِ على النَّارِ، وأفادَ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ دوامَ إقامتِهم في النّارِ وثباتَها.

دلالةُ الجمعِ بينَ المأوى والمثوى:

النّارُ مكانُ إقامةِ الكافرِ الّـذي لا يخرجُ منه أبدًا

بَدَأَ بِالْمَأْوَى وَهو الْمَكانُ الَّذِي يَأْوِي إِلَيهِ الْإِنسانُ؛ لبيانِ موضعِ إقامتِهم على سبيلِ الإخبارِ عنه، ولمّا كانَ لايلزمُ من الإيواءِ الثَّواءُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/425، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/377، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/98، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/126.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/378، والسبكي، عروس الأفراح: 2/155.

بخلافِ العكْسِ، ذكرَ المثوى بعدَهُ على سبيلِ ذمٍّ موضعِ دوامِ إقامتِهم؛ لِيكونَ على جهةِ ذكرِ الشَّديدِ ثمَّ الأشَدِّ، فإنَّ التَّرتيبَ الوجوديَّ في وقوعِهما هو أنْ يَأوي ثمَّ يَثوي، فأفادَ قولُه ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ إقامتَهم فيها، ولمّا كانتِ الجملةُ الاسميَّةُ دالَّةً على ثبوتِ إقامتِهم ودوامِها كما تقدَّمَ أفادَ قولُه: ﴿وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تأكيدَ دوامِ إقامتِهم في النّارِ وذمِّ سوءِ منقلبِهم فيها، فدلَّ الجمعُ بينهما على سبيلِ العطفِ على المغايرةِ بينَ المعنيين، وعلى تأكيدِ بقائِهم في النَّارِ، وعدمِ خروجِهم منها أبدًا[1].

حُسنُ التَّذييلِ في قوله ﴿وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

في التّعبيرِ بِهذهِ الجملةِ فوائدُ هي:

تأكيدُ قبحِ المُقام وشرِّ المَنزل

1) لمّا كانتْ (بِئسَ) للذمِّ العامِّ الشَّائعِ في كلِّ خَصلةٍ مذمومةٍ اقتضى مجيءُ (بِئسَ) مزيدَ تقريرٍ في ذمِّ مثوى الظّالمين، والمبالغةِ فيه.

ذمَّ المحلَّ وأرادَ ذمَّ المحلِّ والحالِّ فيه

2) ذمَّ مثوى الظّالمينَ؛ لِيستلزمَ ذمَّ الظّالمين، إذ ذمَّ المحلَّ وأرادَ ذمَّ المحلِّ والحالِّ فيه، الذي أشار إليه بذكرِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لِيكونَ الذَّمُّ أشدَّ وأقبحَ، فإذا ذمَّ المحلَّ فكلُّ حالٍّ فيه مذمومٌ.

الجمعُ بينَ الإطنابِ والإيجازِ في جملةٍ واحدةٍ

3) في هذا التّعبيرِ من البلاغةِ ما فيه، إذ توجَّه الذَّمُّ إلى النّارِ إجمالًا؛ لِكونِها من أفرادِ مثوى الظَّالمين ثمَّ لَمَّا جاءَ التَّفصيلُ بالمخصوصِ بالذّمِّ الذي حُذفَ لِلإيجازِ لِقرينةِ السِّياقِ، والتّقدير: بئس مثوى الظَّالمين النَّارُ، توجَّه الذمُّ إلى النّار على سبيلِ التَّفصيلِ، فكأنَّه ذمَّ النّار مرّتين، ففيه من عجيب البلاغة أنَّه يبرزُ الكلامَ في معرضِ الاعتدال نظرًا إلى إطنابِه من وجهٍ وإلى اختصارِه وإيجازِه من آخرَ[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/378، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 5/596، والآلوسّي، روح المعاني: 2/301.
(2) السَّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 284.

التـغـلـيـظ علـى الظَّالمين والتـشـديـد في وعيدهم

4) وضعَ الظَّاهرَ موضعَ المضمَر فلم يقل (بئس مثواهم)، لِلتَّغليظِ عليهم بذكر (الظّالمين) بالتَّسجيل على ظلمِهم والتَّشديد في وعيدِهم، فهم في إشراكهم ظالمون واضعون للشيء في غير موضعه، ولبيانِ علَّة الحكم عليهم بعمومِ ذمِّ مثواهم من التّعبيرِ بالمشتقِّ، أي بسببِ ظلمِهم[1].

الظُّـلـم ظـلـمُ الكفرِ والجحودِ وظـلـمُ النَّـاسِ بسوء المعاملةِ

5) لمّا كانتْ (أل) في قوله ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جنسيَّةً أفادتِ العمومَ، ويدخل في معنى اللّفظِ المشركونَ دخولًا أوَّليًّا لِظُلمِهمْ أنفسَهُمْ بالكُفرِ وَالجحودِ، وَظُلم النَّاسِ بِسوءِ المعاملةِ، وتحتمل (أل) أنْ تكونَ عهديَّةً، فيكونَ المقصودُ هم المشركينَ المذكورينَ في الكلام، كما في قولِه تعالى ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، وأنْ تكونَ (أل) هنا على العموم أولى لمناسبتها لجملة التَّذييل[2].

6) لمّا جاءتِ الجملةُ تذييليَّةً دلَّتْ على عموم المعنى وكلّيَّته، ولاسيّما معَ حذفِ المخصوصِ بالذّمّ؛ لِيفيدَ الحذفُ عمومَ ذمِّ كلِّ أفرادِ مثوى الظّالمين، ولِيتناولَ مثواهم في الدّنيا والآخرةِ؛ لِتكونَ الجملةُ كالمَثَلِ الجاري بينَ النَّاس.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/42، والخفاجي، عناية القاضي: 3/140.
(2) الأشموني، شرح الأشموني على الألفية: 2/280، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/355.

﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾ [آل عمران: 152]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط وعد الله بإلقاء الرّعب في قلوب الكافرين، بصدق وعده في تثبيت المؤمنين

لـمَّا تضمّنَتِ الآيةُ السّابقة وعدَ اللّه تعالى، بإلقاء الرّعب في قلوب الكافرين يوم أُحد، ذكَّرَ اللّه تعالى أصحاب النّبيّ ﷺ، بأنّه قد صدَقَهم وعده بالنّصر على العدوِّ، بشرط التّقوى والصّبر؛ إذ كانَت لهم الغلَبَة على الكافرين يوم أُحد، في أوّل الأمر، قبل أن يحصل منهم التّنازع وعصيان الأمر النّبويّ، بترك الرُّماة لأماكنهم بعد رؤيتهم الغنائم، وهو ما أدّى إلى تحوّل الحرب لصالح الكفّار، ورجحان كِفَّتهم، وفي ذلك ابتلاءٌ للمؤمنين، واختبارٌ لثباتهم على الإيمان، ثمّ ذكر تعالى أنّه تفضَّل بالعفو عمَّا وقع منهم يومها، لِـمَا عَلِم من ندمِهم على المخالَفة[1]، فعفا عنكم، واللّه ذو فضل على المؤمنين[2]، يؤيّدهم بنصره، ويشملهم بعفوه، وذلك منتهى رحمته وفضله.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَحُسُّونَهُم﴾: من حسّ، ولهما أَصْلَانِ: فَالْأَوَّلُ غَلَبَةُ الشَّيْءِ بِقَتْلٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَالثَّانِي حِكَايَةُ صَوْتٍ عِنْدَ تَوَجُّعٍ وَشَبَهِهِ[3]، أو هو من

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/42، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/92.

(2) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 69.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسّ).

الحاسَّة، أي: القوَّة الّتي تُدرك بها الأشياء الحسّيّة[1]، فمعنى ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ في الآية: تقتلونهم قتلًا ذريعًا، أو تستأصلونهم قتلًا[2]، ومنه قِيل للقتيل: الحسيس، وقولهم: جراد محسوس إذا قتله البرد، وسنة حَسُوس إذا أتت على كلّ شيءٍ، ويؤخذ معنى القتل على القول، بأنّه منَ الحاسَّة من قولهم: حسَستُه، مثل: كَبَدْتُهُ وفَأَدْتُهُ إذا أصبتُ كبدَه وفؤادَه، فيكون معناه: قتلتُه بإبطال حاسَّته[3]، "والحسيس القتيل، ومنه جراد محسوس، إذا طبخ، وقولهم البرد للنّبت وانحسّت أسنانه انفعال منه، فأمّا حسست فنحو علمت وفهمت، لكن لا يقال ذلك إلّا فيما كان من جهة الحاسّة[4].

2) ﴿بِإِذْنِهِۦٓ﴾: الإذن: التّمكين مع العلم بالممكَّن منه[5]، ومعناه هنا: بتقدير اللّه وتيسيره للأسباب، وقِيل: بعلمه[6]، والمراد بإذنه: أمره ومشيئته، وقوله ﴿بِإِذْنِهِۦٓ﴾ متعلّق بمحذوف، لأنّه حال من فاعل ﴿تَحُسُّونَهُم﴾، أي تقتلونهم مأذونا لكم في ذلك[7]، وقيل: "بإذنه لكم في قتالهم وبإعانته لكم على ذلك"[8].

3) ﴿فَشِلْتُمْ﴾: فعل ماضٍ منَ الفشَل، وهو: الضّعف مع الجُبن، وقِيل: الفزع والجُبن والضّعف[9]، فمعنى ﴿فَشِلْتُمْ﴾: جبُنتم وتخاذلتُم، وقِيل: المُراد بالفشل هوَ الوهَن والإعياء، وقِيل: استشعار العجز، وترك الجِدّ[10]، يقال: رَجُلٌ فَشْلٌ وفَشَلٌ، وقد فَشِلَ يَفْشَلَ عند الحرب والشّدّة ويضعف، وإنّه لَخَشِلٌ فَشِلٌ، والفَشِلُ: الجبان المرعوب، يبهت عند الرّوع، لا يحسن قتالًا ولا شرادًا، أي: هربًا[11].

4) ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾: فعل ماضٍ منَ التّنازُع، وهو: تجاذُب الحُجَج فيما يختلف فيه

(1) الرّاغب، المفردات: (حسّ).
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/478.
(3) مكّيّ، الهداية: 2/1152، والمهدويّ، التّحصيل: 2/136، وأبو حيّان: البحر المحيط: 3/359.
(4) الأبياري، الموسوعة القرآنيّة: 8/130.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/524.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/386، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/127.
(7) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/297.
(8) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 1/392.
(9) ابن منظور، لسان العرب: (فشل).
(10) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/427، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/524، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/128.
(11) الخليل، العين: (فشل).

الخصمان، والمُراد به: اختلاف الصّحابة يوم أُحد، وقول بعضهم: نأخذ الغنائم، وقول الآخرين: بل نثبُت كما أمرنا النّبيّ ﷺ، وأصل النّزع هو قلعُ الشّيءِ، ونزعتُ الشّيءَ، أي: جذبتُه من مقرِّه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ [الأعراف: 43][1].

5) ﴿صَرَفَكُمۡ﴾: فعل ماضٍ منَ الصَّرف، وهو رد الشّيء عن وجهه، ومعنى ﴿صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾: كفَّكم عنهم، فغلبوكم بعد أن كنتمُ الغالبين[2]، فقال لهم: " اذكروا وقت أن صرفكم عنهم، حين أصعدتم في الجبل، أي ذهبتم منهزمين، وأنتم لا تلتفتون لأحد من الدّهش والخوف والرّعب، والحال أنّ الرّسول قد خلفتموه وراء ظهوركم، يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء"[3].

6) ﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡۗ﴾: فعل مضارع منَ الابتلاء، وهو الاختبار والامتحان، ومعناه: ليمتحن صبركم على المصائب، وقِيل: ليفعل في ذلك فعلَ من يريد الاختبار في الثّبات على الدّين في السّرَّاء والضّرَّاء[4].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا نصر إلّا بطاعة الله ورسوله، ولا هزيمة إلّا بالاختلاف والتّنازع والعصيان

يخاطب الله تعالى أصحاب النّبيّ ﷺ أنّه قد أنجزَ لهم ما وعدهم منَ النّصر على أعدائهم يوم أُحد، حين كانوا يقتلونهم قتلًا شديدًا في أوّل الأمر، فلمّا جبُنوا، وضعُفَت نفوسُهم، واختلفوا في البقاء في أماكنهم الّتي أمرهم بها النّبيّ ﷺ بعد أن لاح لهم النّصرُ، وشاهدوا الغنائم، انقسموا فريقين: فريقًا طلب الغنائم، وفريقًا ثبَت على أمر النّبيّ ﷺ، بعدم مغادرة مكانه، فلمّا كان ذلك تحوّل نصرهم إلى هزيمة؛ اختبارًا لهم، وتمييزًا للمؤمن الصّابر على البلاء من غيره، وأنّه تعالى قد عفا عمَّا وقع منهم منَ المخالفة؛ لأنّه ذو فضل عظيم على المؤمنين، بهدايتهم للإيمان، وعفوه عن سيئاتهم، وإثابتهم على مصائبهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزع)، والرّاغب، المفردات: (نزع)، والمهدويّ، التّحصيل: 2/137.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/43، وابن منظور، لسان العرب: (صرف).
(3) الزّحيلّي، التفسير المنير: 4/127.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/427، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/94.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفعل ﴿صَدَقَكُمُ﴾ بين التعدي بنفسه والتضمين:

تعدّى الفعلُ ﴿صَدَقَكُمُ﴾ هنا إلى مفعولين، فإمّا أنْ يكونَ على جوازِ تعديتِه إلى مفعولٍ واحدٍ، ونصبَ الثَّاني بحذف حرفِ الجرِّ، وأصله (صَدَقَكُم اللّهُ في وعدِهِ)، فحذفَ حرفَ الجرِّ لإيصالِ الفعلِ إلى ﴿وَعۡدَهُۥٓ﴾ بنفسِه، فيكون أثرُ الفعلِ أوثقَ وأكثرَ تأثيرًا ممّا لو أوصلَه بحرفِ الجرِّ، وإمّا أنَّه تعدّى إلى مفعولَين على تضمينِ الفعلِ ﴿صَدَقَكُمُ﴾ معنى أَعطى، لِيدلَّ الفعلُ على معنى تحقيقِ الوعدِ والإشعار بمنَّة إعطاءِ الوعدِ وتحقيقِه[1].

قوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾ بينَ الإطلاقِ والتَّقييدِ:

وعد الله تعالى نافذٌ لا محالةَ

أفاد الإطلاقُ عمومَ صدقِ وعدِ اللّهِ، فلمّا جاءت ﴿إِذۡ﴾ لِتكونَ قيدًا لِما قبلَها أفادَ المعنى تحقيقَ وعدِ اللّه في هذه الصورة المذكورة، والمعنى "وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعۡدَهُ إِيَّاكُمۡ بِالنَّصۡرِ حَتَّى فِي هَذِهِ الۡوَقۡعَةِ إِذۡ تَحُسُّونَهُمۡ"[2].

مناسبةُ مجيءِ ﴿إِذۡ﴾ في الكلام:

لَمّا كانتۡ ﴿إِذۡ﴾ ظرفًا لِما مضى منَ الزَّمنِ وكانتۡ مشعرةً بالتّعليل[3] كما في هذهِ الآيةِ دلّتۡ على أنَّ قولَه ﴿تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ﴾ دليلٌ وحجَّة؛ لِتحقيقِ صدقِ وعدِ اللّه للمؤمنينَ.

مناسبةُ العطفِ في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾:

تأكيد وعد المستقبل بتحقّق وعد وقع

لَمّا تقدّمَ إخبارُ اللّهِ تعالى بالوعيدِ بتحقيقِ الرُّعبِ في قولِه تعالى ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ [آل عمران: 151] ناسبَهُ الوصلُ بالإخبارِ عن صدقِ وعدِ اللّهِ للمؤمنينَ، والمقصودُ بالوعدِ ما تقدّمَ في

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/378، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/98، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/127.
(2) رضا، المنار: 4/150.
(3) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/113.

قولِه تعالى: ﴿إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ﴾ الآية [آل عمران: 125]، ويحتملُ أنْ يكونَ وعدُه هو تحقيقَ إلقاءِ الرُّعبِ في قلوبِ الذين كفروا؛ لِتأكيدِ الأمرِ وتقريرِه[1].

تتابعُ التَّأكيدِ في قولِه ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾:

تقريرُ صدقِ وعدِ اللهِ للمؤمنينَ وتأكيدُه لِأهمِّيَّتِه وللاعتناءِ به

تتابعَ على تقريرِ صدقِ وعدِ اللّهِ تعالى تأكيداتٌ عدَّةٌ لأهميَّتِه وللاعتناءِ بِهِ ولتقريرِه في قلوب المؤمنين:

فقدْ أكّدَهُ بالقسمِ المحذوفِ المدلولِ عليهِ باللّامِ الموطّئةِ للقسمِ، وأفادتْ ﴿وَلَقَدۡ﴾ باقترانِها بالفعلِ الماضي تحقّقَ الوقوعِ، كما أنَّ عودَ الضَّميرِ في ﴿وَعۡدَهُۥٓ﴾ على الاسم الجليل (اللّه) بمثابةِ تكرارِه؛ لِيقوّيَ التَّأكيدَ ويقرِّرَهُ، وفي إسنادِ الفعلِ إلى الذّاتِ العليّة؛ تعظيمٌ لِوعدِ اللّهِ، وهذا فيه زيادةُ تطمينٍ للمؤمنينَ بتحقّقِ وعدِ اللّهِ إيَّاهم.

نكتة التعبير بالفعل المضارع ﴿تَحُسُّونَهُم﴾:

لـولا مخـالـفـةُ أمـرِ رسـولِ اللهِ لَتَحقَّقَ الوعدُ

لإفادةِ استمرارِ القتلِ والاستئصالِ وتجدُّدِه حالًا فحالًا، ولِتصويرِ حالِ المؤمنينَ، وهمْ يُكثرونَ القتلَ في المشركينَ؛ لِلإشعارِ بأنَّ انتصارَهم كانَ مُحقَّقًا لولا ما وقعَ من مخالفةِ بعضِهم للأمرِ النّبويّ[2].

مناسبةُ التّعبيرِ بقولِه ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ دون (تقتلونهم):

الحَسُّ أبلغُ مِنَ القتلِ

لَمّا كانَ الحسُّ يدلُّ على معنى القتلِ الذَّريعِ الشَّائعِ والاستئصالِ عبّرَ به دونَ أنْ يقولَ (تقتلونهم)؛ لِما في التّعبيرِ بـ ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ منَ الإشعارِ بقربِ تحقُّقِ وعدِ اللّهِ وترقّبِه، ولهذا أعقبَهُ بقولِه تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾، أي كانَ الوعدُ محقّقًا لولا ضعفُكُم وتنازعُكم ومعصيتُكم،

---

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/279، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/299.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/127.

ويؤيّدُه أنّ قولَه ﴿تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦٓۖ﴾ مشعرٌ بأنَّه في مقامِ الحجَّةِ والتّعليلِ لقولِه ﴿صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾ كما تقدّمَ[1].

دلالةُ الباءِ في قوله ﴿بِإِذۡنِهِۦٓۖ﴾:

النّصرُ من عندِ اللهِ، وطاعةُ اللهِ ورسولِهِ من أهمِّ أسبابِهِ

أفادت الباءُ معنى ملابسةِ حسِّ المشركينَ إذنَ اللهِ تعالى، فإنَّه لَمَّا أسندَ الفعل إلى المؤمنين في قوله ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ بيّن لهمْ أنَّ اللهَ هو الذي مكَّنَهم من المشركينَ، وأنَّه كانَ بعلمِه وأمرِه.

مناسبةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ:

الوعظُ لجميعِ المؤمنينَ، لِمَن خالفَ منهم، ومَنْ لم يخالفْ

جاءَتِ المخاطبةُ بجمعِ ضميرِ المُؤمِنينَ في هذهِ الآياتِ، وَإِنْ كَانَ لمْ يَصدرْ ما يعاتَبُ عليهِ مِنْ جميعِهمْ، وفيها فوائدُ، هي[2]:

1) لِتكونَ على سبيلِ التجوّزِ في نسبةِ ما يقعُ من بعضِهم لِلجميعِ، فَيكونَ منَ العامِّ المخصوصِ؛ اعتمادًا على المخصِّصِ بعدَهُ، وهو قولُه ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾، ولِقرينةِ الحالِ، لِيَخرجَ غيرُ المخالِفين منَ الخطابِ.

2) لتشمَلَ الوعظَ لِجميعِ المؤمنينَ، والزَّجرَ عن الفعلِ لِمَنْ لم يفعلْ.

3) لِتُفيدَ السَّترَ والإبقاءَ لمن خالفَ أمرَ رسولِ اللهِ ﷺ ولاسيَّما أنَّ الخطابَ قد صُدِّرَ بالامتنانِ.

مناسبةُ التعبيرِ بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

لَمّا كانتْ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ تدلُّ على انتهاءِ الغايةِ على سبيلِ التَّدريجِ والتّقضّي؛ لأنَّ الفعلَ المتعدّي بها الغرضُ فيه أنْ ينقضيَ شيئًا فشيئًا إلى أنْ يبلغَ منتهاه، أفادت تحسّي المشركينَ شيئًا فشيئًا على سبيلِ التدرُّجِ واستمرارِه إلى وقتِ فشلِكم، كما يحتملُ أنْ يكونَ التدرُّجُ في صدقِ وعدِ اللهِ، والمعنى صدقَكم اللهُ وعدَهُ في أمورِكم، ومنه

(1) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/478.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/524، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/280، والثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/123.

نصرُكم على المشركينَ وكنتم ترونَ وعدَه شيئًا فشيئًا على وفقِ الحوادثِ واستمرَّ إلى وقتِ فشلِكم[1].

مناسبةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

الفشلُ والتَّنازعُ سببٌ في الانهزامِ وامتناعِ النّصرِ

﴿إِذَا﴾ شرطيّة، و﴿فَشِلۡتُمۡ﴾ فعلُ الشّرطِ، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، وتقديرُه انهزمتم، أو امتُحنتم، أو منعكم نصره، أو انقسمتم إلى قسمين، والتَّقاديرُ متقاربةٌ، وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ حَذْفَ الْجَوَابِ فِي مِثْلِ هَذه الْمَوَاضِعِ أَبْلَغُ وَأَدَلُّ عَلَى الْمُرَادِ، إذ تتزاحمُ على المخاطَبِ الظُّنونُ المعترضةُ للوعيدِ ما لا يتزاحمُ لو نَصَّ على الجوابِ؛ لِتذهبَ نفسُ السَّامعِ فيه كلَّ مَذهَب، حتّى كأنّه لا يُتصوّرُ شيءٌ في جزاء الشّرط إلَّا ويجوزُ أنْ يكونَ التّقديرُ فوقَه[2]؛ لِتفخيم الجزاءِ وتهويلِ الأمرِ على المخاطبينَ، ولِلإيجازِ في الكلامِ، فحذفَ لِطولِ الشَّرطِ أيضًا، وذهبَ بعضُ المفسّرينَ إلى أنَّ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هنا مجرّدةٌ من الشّرطِ، فهي ظرفُ زمانٍ، لِيكونَ المعنى (إذْ تحسّونَهم بإذنِهِ إلى حينِ فشلِتُمْ)[3].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾:

حَــذْفُ المضافِ إليـه؛ لِـدلالـةِ السّياقِ عليه

إنْ كانَ الأمرُ في الآيةِ بمعنى (الشَّأنِ والقصَّة) فـ(أل) عهديَّةٌ، والمعنى تَنَازَعْتُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الشَّأْنِ، وإنْ كانَ بمعنى الأمرِ ضدِّ النَّهي، فتكونُ (أل) عِوضًا عنِ الضَّميرِ المضافِ إليه، بتقديرِ (تنازعتم في أمرِ اللّهِ أو في أمرِ نبيّكم ﷺ)؛ لِلإيذانِ بأنَّ أمرَ اللّهِ أو أمرَ رسولِ اللّه هو الأمرُ؛ لأهميّتِهِ ولِتعظيمِ شأنِه، لِما تدلُّ عليه (أل) حينئذٍ من معنى الاستغراقِ في صفاتِ الكمالِ، وذهبَ بعضُ المفسّرينَ إلى أنَّ التّقديرَ (أمرِكم) أي تنازعتم في أمرِكم، فتكونُ

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 544، والطيبي، فتوح الغيب: 4/301، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/99.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/387، والمرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ص: 118، والإسفراييني، الأطول: 2/75.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 4/301، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/128.

(أل) عوضًا عن المضافِ إليه، وتكونُ (أل) عهديةً كذلكَ؛ لِلتّذكيرِ بما تنازعوا فيه[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بقوله ﴿وَعَصَيۡتُم﴾:

من شأنِ الحربِ الطَّاعةُ للقائِدِ

إنَّمَا سُمِّيَتْ مخالفَةُ مَنْ خالفَ أَمرَ الرَّسولِ عصيانًا، معَ أَنَّ تلكَ المُخالفةَ كانتْ عنِ اجتهادٍ لَا عنِ استخفافٍ؛ لأَنَّ المقَامَ ليسَ مقامَ اجْتهادٍ، فإِنَّ شأْنَ الحربِ الطَّاعةُ للقائِدِ مِنْ دونِ تأويلٍ، أَوْ لأَنَّ التَّأويلَ كانَ بعيدًا فلم يُعذروا فيه، أَوْ لأَنَّهُ كانَ تأويلًا لإِرْضاءِ حُبِّ المالِ، فلَمْ يكنْ مكافئًا لدليلِ وجوبِ طاعةِ الرَّسولِ[2].

دلالة التّرتيب بين الأفعال في ﴿فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم﴾:

الفشلُ والتَّنازع مذمومانِ وهما سببٌ لِلمعصية

قدّمَ في الآيةِ ذكرَ الفشلِ فالتَّنازعِ فالمعصيةِ، فجاءَ ترتيبُها في الإخبارِ على وفقِ ترتيبِها في الحدوثِ، ولِلإشعارِ بعلَّةِ ما سبقَ لِما بعدَه، فإِنَّ القومَ لَمَّا رأَوا هزيمةَ الكفَّارِ، وطمعوا في الغنيمةِ فشِلوا في أنفسِهم عن الثَّباتِ وضعفوا، فتنازعوا بالقولِ هل نذهبُ لِطلبِ الغنيمةِ أم لا؟، ولمّا كانَ العصيانُ هنا بمعنى مخالفتِهم الأمرَ وخروجِهم من المكانِ الذي أُمروا أنْ يثبتوا فيه صار مرتَّبًا على الفشلِ والتَّنازعِ مسبَّبًا عنهما، وهذا هو الأصلُ في ترتيبِ الأخبارِ في صناعةِ الإنشاءِ، وذهبَ بعضُ المفسّرينَ إلى أنّه عطفَ السَّببَ على المسبَّبِ في قوله ﴿فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ﴾، كما في قوله تعالى ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾ [الأنفال: 46]، ولايُعدَمُ التلازمُ بينهما إذا اقتضت الحالُ العدولَ عن أحدهما إلى الآخر[3].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/289، والواحدي، الوسيط: 1/504، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/388، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/128.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/130.

(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/387 - 388، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/280، والبقاعي، نظم الدرر: 5/93، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/128.

دلالة ﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾:

بشارةٌ لِلصَّحابةِ المخالفين بزوالِ المخالفةِ

في دخولِ ﴿مِّنۢ﴾ التي لابتداءِ الغايةِ على ظرفِ الزّمانِ ﴿بَعۡدِ﴾ إشارتانِ لطيفتانِ[1]:

الأولى: لِتصويرِ المخالفةِ بأنَّها ابتدأَتْ عقبَ رؤيةِ الظَّفرِ بالمشركينَ مباشرةً من غيرِ مهلةٍ، تأكيدًا للومِهم وتنديمِهم.

الثّانية: بشارةٌ لِلصَّحابةِ المؤمنينَ المخالفينَ بزوالِ المخالفةِ؛ إذ إنَّ ابتداءَ الغايةِ الّتي تدلُّ عليه ﴿مِّنۢ﴾ يستلزم انتهاءَها[2].

دلالةُ تعلُّقِ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ بـ ﴿فَشِلۡتُمۡ﴾، وما نُسِقَ عليه:

الطّاعة سببٌ للنّصر، والمعصية سببٌ للهزيمة

يُشعرُ مجيءُ قولِه تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ بلَومِ المخالفينَ وتنديمِهمْ على فعلِهم؛ إذ كانتْ رؤيةُ ما يحبُّونَ تستحقُّ منهمُ الطَّاعةَ لا المخالفةَ، كما يُشعرُ في الوقتِ نفسِه بأنَّهم كرهوا ما فعلوه لمقابلةِ الفشلِ والتَّنازعِ والعصيانِ بمحبَّتِهم لِما رأوه منَ النَّصرِ، فإذا كانوا يحبّونَ النَّصرَ فهم يكرهونَ الهزيمةَ ومسبِّباتِها، ففيه بشارةٌ بالعفوِ قبلَ ذكرِه في الآيةِ، وتمهيدٌ له[3].

مناسبةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ (ما) في قوله ﴿مَّا تُحِبُّونَۚ﴾:

مخالفةُ الرُّماة ليست لقصدِ مخالفة أمر الرّسول ﷺ

عبَّر بالاسمِ الموصولِ في قولِه ﴿مَّا تُحِبُّونَۚ﴾؛ لِلإشعارِ بالعمومِ، فيشملَ كلَّ ما رأوه منَ الأعيانِ والأحوالِ ممّا يحبّون، ولِيتوسَّلَ بالصِّلةِ إلى بيانِ سببِ المخالفةِ، أي ممّا يحبُّونه من الظَّفَرِ والغنيمةِ وانهزامِ العدوِّ وغيرِها، وفيه إيماءٌ إلى أنّ مَنْ خالفَ مِنَ الرّماة قد عجِل في طلبِ شيءٍ محبوبٍ، وليستْ لِقصدِ مخالفةِ أمرِ رسولِ اللّه ﷺ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/94، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/128.

(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/459.

(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/388، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/128.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/379، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/43، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/129.

نُكتةُ التَّعبيرِ بقوله ﴿أَرَىٰكُم﴾:

عبّرَ بالفعلِ ﴿أَرَىٰكُم﴾، فجاءَ بالرؤيةِ القلبيَّةِ، وأسندَ الفعلَ إلى نفسِه سبحانَه وتعالى، ولم يقلْ (مِنْ بعدِ ما رأيتُم ماتحبّونَ)، فتكونَ الرؤيةُ بصريَّةً؛ لِلإشعارِ بأنَّ ما حصلَ أوّلًا منْ ظهورِ المؤمنينَ على الكافرينَ والظَّفرِ بهم إنَّما كانَ بفعلِ اللّهِ وحُكمِه وأمرِه، وهو أمرٌ يعلمُه النَّظرُ قبلَ البصَرِ.

مناسبةُ الاعتراضِ في قولِه ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾:

جاءتِ الجملتانِ الاعتراضيّتانِ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه[1] لِمعانٍ هي[2]:

تـأكـيـدُ إرادة الـخـصـوص من العمومِ

1. لمّا وردَ قولُه ﴿فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾ على صيغةِ الجمعِ، وقد يُتَوهَّمُ أنَّ الخطابَ يشملُ جميعَ المؤمنينَ جاءتِ الجملتانِ الاعتراضيَّتانِ؛ لِدفعِ توهُّمِ ما يخالفُ المقصودَ؛ لِيكونَ تأكيدًا لإرادةِ الخصوصِ من ذلكَ العمومِ.
2. أفادتِ الجملتانِ الاعتراضيَّتانِ توضيحَ ما أجملَ في قولِهِ ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾، فإنّ لإيضاحِ الشَّيءِ بعدَ الإجمالِ تأثيرًا في نفسِ المخاطَبِ لتوجُّهِ ذهنِه إلى طلبِه أكثرَ ممّا لو أتاهُ منْ غيرِ طلبٍ.

حـبُّ الـدنـيـا لاينافي الإيـمـانَ ولكنَّهُ يُضعفُه

3. في الاعتراضِ تنبيهٌ للمخاطبينَ على أنَّ بعضَ المؤمنينَ يريدُ الدُّنيا بحبِّه للغنيمةِ وعجلتِه لاستحصالِها.
4. بدأَ بذكرِ مَنْ يريدُ الدُّنيا لِمجيئِه على خلافِ المتوقّعِ من المؤمنين، ولِيكونَ مناسبًا في الاقترانِ لِما ذُكِرَ قبلَه مِنَ اللَّومِ على المخالفةِ.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/380، والسمين، الدر المصون: 3/437

(2) السبكي، عروس الأفراح: 1/618، والدسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 2/730، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/359، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/129.

إيـــرادُ مـا هو من أبـدعِ بلاغة الإيـجـاز الـدالِّ على الإعجاز

5. أغنتِ الجملةُ الاعتراضيَّةُ الأولى عن أنْ يقولَ: منكمْ مَنْ فشِلَ وتنازعَ في الأمرِ وعصى، فأغنى قولُه ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ عنْ ذكرِ ثلاثِ جُملٍ، ففيها مِنْ بلاغةِ الإيجاز ما يدلُّ على أبدعِ وجوهِ الإعجاز، والسِّياقُ قرينةٌ على المرادِ.

نكتةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ في قولِه ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾:

قدَّم المسنَدَ ﴿مِنكُم﴾ على المسنَدِ إليه ﴿مَّن﴾ في الموضعين؛ ليفيدَ الاهتمامَ فحسب؛ ليُشعرَ بأنَّ مخالفتَهم أمرَ رسولِ اللّه ﷺ على خلافِ ما يتوقَّعُهُ المؤمنون منهم، ولمّا ذكرَ القَسيمَ الأوَّلَ اقتضى أنْ يكونَ القَسيمُ الثَّاني على وفقِهِ ونسَقِهِ في التَّقديم والتّأخير لِبلاغةِ النَّظم، فلا تخصيصَ في التَّقديمِ هنا.

بديعُ التَّفريقِ في قولِه ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾:

التّفريقُ لبيانِ الـفـرقِ بين المـخـالـفـينَ والطّائعينَ

تضمَّنَتِ الآيةُ فنًّا بديعيًّا هو التّفريق[1]، إذ فرّقَ في الوصفِ بين المخالفينَ لِأمرِ رسولِ اللّهِ والثَّابتين المحافظينَ على أمرِهِ ﷺ، مَعَ اجتماعِهما في وصفٍ أعمَّ هو الإيمانُ، لِلإشعارِ بتباينِهِما، ولِيُفيدَ لومَ مَنْ يريدُ الدُّنيا ومدحَ مَنْ يريدُ الآخرة، كما دلَّ هذا التّفريقُ على أنَّ مَنْ يخالفُ أمرَ رسولِ اللّهِ ﷺ فلحبِّه للدُّنيا، ومَنْ يطيعُهُ فلحبِّه لِلآخرة.

دلالة ثمَّ في ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾:

التّراخـي يـدلّ عـلى استبعاد الـهـزيـمـة، والـوثـوق مـنَ النّصر

تفيدُ ثمَّ معنى التَّراخي، ولمّا كان النّصرُ قابَ قوسين من المؤمنين دلَّت ﴿ثُمَّ﴾ على أنَّ المؤمنين كانوا يستبعدون الهزيمةَ بعدَ ما رأوا من النَّصرِ والوثوقِ بهِ[2].

(1) السّيوطيّ، شرح عقود الجمان، ص: 119.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/43، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/94.

بلاغة الاستعارة التَّمثيلية في قوله ﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾:

يعامِلُ الله تعالى عباده معاملةَ مَن يُمتَحَنُ ليُظهرَ لهم صبرَهم على البلاء من عدمِه

لمّا كان الابتلاءُ بمعنى الاختبارِ محالًا على اللّهِ تعالى؛ لأنَّ اللّهَ عليمٌ بما في السَّماواتِ وما في الأرضِ أفادَ الكلامُ المجازَ؛ لِيكونَ استعارةً تمثيليَّةً، إذْ شبَّهَ صورةَ الهيئةِ الحاصلةَ مِنْ إصابةِ اللّهِ عبادَه وإيصالِه إليهم الذي يظهرُ به صبرُهم أو عدمُ صبرِهم بصورةِ الهيئةِ المنتزَعةِ ممّن يختبر إنسانًا في الأمورِ الشَّاقَّة ليعلمَ امتثالَه وطاعتَه له، فاستعمل قوله ﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾ في هذا المعنى، والمرادُ ليعاملَكم معاملةَ مَنْ يُمتَحَنُ لِيُبيِّنَ أمرَكم، هل تصبرونَ على البلاءِ أمْ لا[(1)]؟

مناسبةُ التَّأكيدِ في قوله ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾:

جاء الكلامُ على خلافِ مقتضى الظّاهرِ؛ لاقترانِ الجملة بتأكيدينِ هما: اللّامُ الموطِّئةُ للقسم و(قد) المفيدةُ للتَّحقيقِ، مع أنَّ المخاطبينَ كانوا من المؤمنينَ، فلم يكونوا منكرينَ لعفوِ اللّهِ ليستلزمَ تأكيدَ الكلام بتأكيدينِ، ومناسبتُه أنَّه لمّا كانَ فعلُ المخالفين لأمرِ رسولِ اللّهِ أمرًا عظيمًا، ودلَّ عليه إثباتُ معصيتِهم، كانتْ نفوسُهم بمثابةِ المستشرفِ استشرافَ المتحيِّرِ في عفوِ اللّهِ عليهم، فساقَ الكلامَ هذا المساقَ؛ لِبيانِ حالةِ المخاطبين، وأيضًا لِلإشعارِ بأنَّ حالَ المخالفينَ بعدَ ندمِهم على فعلِهم وتركِهم المركزَ الذي أمرَ به رسولُ اللّهِ ﷺ للرُّماةِ بمثابةِ الذي يئِسَ مِنْ عفوِ اللّهِ عنه، فسلكَ هذا الأسلوبَ؛ لِمناسبةِ المقامِ[(2)].

مناسبةُ مجيءِ العفوِ بعدَ الابتلاءِ:

تسكينُ خواطرِ المؤمنين بعدَ تقريعِهم

وفي ذكرِ العفوِ عقِبَ الإخبارِ عنِ الابتلاءِ تسكينٌ لخواطرِ المؤمنينَ المخالفينَ، وفيه تلطُّفٌ معهمْ على عادةِ القرآنِ في تقريعِ المؤمنينَ،

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 3/141، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/373.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 172.

كما يُشعرُ بالتَّحذيرِ منَ العودةِ إلى مثلِ هذهِ المعصيةِ، للإيذانِ بأنَّ القتلَ الّذي وقعَ في صفوفِ المسلمين لمْ يكنْ كافيًا في العقابِ المترتِّب عليها، حتّى احتاجَ ذلك إلى عفوِ اللّهِ تعالى عنْ مرتكبيها[1].

حُسنُ التَّذييلِ في قولِهِ ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

في مجيء جملةِ التّذييلِ فوائدُ هي[2]:

الابتلاءُ والعفوُ من فضلِ اللهِ

1. جاءتِ الجملةُ لِتقريرِ مضمونِ ما قبلَها؛ لِيكونَ على سبيلِ تقريرِ المعنى وتأكيدِه، فوعدُ اللّه بالنَّصر بشرطِه والابتلاءُ والعفْوُ كلُّه منْ فضلِ اللّهِ، ففي الابتلاءِ منَ اللُّطفِ بالمؤمنين ما لا يخفى بالنَّظرِ إلى مآلِه.

شأنُ الله تعالى ووصفُه هو التَّفضُّلُ

2. لمّا أخبرَ اللّهُ تعالى عن نفسِه أنَّه ذو فضلٍ أفادَ أنّه تعالى متفضِّلٌ على المؤمنينَ في جميعِ الأحوالِ، فشأنُه ووصفُه هو التّفضّل.

3. أفادَ مجيءُ الوصفِ على أسلوبِ الجملةِ الاسميَّةِ دوامَ تفضُّلِ اللّهِ على المؤمنينَ واستمرارِه.

4. دلَّ مجيءُ الوصفِ مشتقًّا في قولِهِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على علَّةِ التفضُّل، فهو تعالى متفضِّلٌ عليهم ماداموا على وصفِ الإيمانِ.

العفوُ فضلٌ منَ اللهِ وليسَ واجبًا عليهِ

5. إنَّ ذلكَ العفوَ الذي أخبرَ عنه في قولِه ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ بطريقِ التَّفضُّلِ والإحسانِ لا بطريقِ الوجوبِ عليه سبحانَه وتعالى.

فضلُ الله عظيمٌ

6. دلَّ تنكيرُ ﴿فَضۡلٍ﴾ على تفخيمِه وتعظيمِه، إذ وصفُ العظيمِ عظيمٌ.

7. لمّا كانتِ الجملةُ تذييليَّةً، وكانتْ تفيدُ العمومَ والكليَّة؛ لِتكونَ كالمثلِ في مجاري الكلامِ كانَ المرادُ بالمؤمنينَ العمومَ؛ لِتكونَ (أل) جنسيَّةً، ويدخلَ فيه المخاطبونَ بالعفوِ دخولًا أوَّليًّا، ويُحتملُ أنْ

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/381، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/130.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/389، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/99، والآلوسّي، روح المعاني: 2/303.

يكونَ المرادُ هُمُ الصحابةَ المخالفينَ، وتكونَ (أل) عهديَّةً، ويندرجُ فيهم المؤمنونَ جميعًا، بقرينةِ المقامِ.

8. إنْ كانَ المرادُ من قوله ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ المخاطبينَ وقتَ نزولِ القرآنِ كانَ إظهارُ الاسم في موضعِ الإضمارِ؛ لِتشريفِهم ولِبيانِ أنَّ علَّةَ الحكمِ بالعفوِ عنهم هي فضلُ اللّهِ عليهم.

9. أفادَ مجيءُ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ الاستعلاءَ المعنويَّ؛ لِيُفيدَ استيعابَ فضلِ اللّهِ على جميعِ المؤمنينَ.

10. أفادَ وصفُ المخاطبينَ بالإيمانِ أنَّ مخالفةَ أمرِ رسولِ اللّهِ وإنْ كانَ من الكبائرِ لكنَّه لا يُخرجُ المؤمنَ من الإيمانِ.

﴿۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾ [آل عمران: 153]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تعلّق هذه الآية بما قبلها نحويّا ودلاليّا، لبيان الاختبار في الإقدام والفرار

لَمَّا ذكر اللّه تعالى في الآية السّابقة أنّه هو الّذي دفع عن المؤمنين هزيمة المشركين يوم أُحُد، لمّا خالف بعضهم أمر النّبيّ ﷺ، وفرَّ بعضهم منَ الزَّحف - وذكَر عفوه تعالى عنِ الجميع بيَّن سبحانه وتعالى في هذه الآية الصّورةَ الّتي كان عليها المؤمنون في هذه الحالة، وهي فرارُهم ذاهبين في الأرض غير ملتفتين إلى أحد، مع أنّ النّبيّ ﷺ كان في أرض المعركة، يدعوهم إلى الثّبات، وهم مولُّون عنِ القتال، وأشار السّياق إلى أنّ ما فعل بهم ذلك، إلّا ليمرّنهم ويدرّبهم على الشّدائد، ولئلا يحزنوا على ما فات، ولا ما أصابهم من عدوّهم، فاللّه خبير بأعمالهم ومجازيهم عليها، بإنصاف وعدل[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تُصۡعِدُونَ﴾: مضارع أَصْعَدَ، أي: تفرُّون ذاهبين في الأرض، والإصعاد: هو ابتداء السَّفر، ومنه قول العرب إذا استقبلوا سفرًا بعيدًا: أصعدنا من بلد كذا[2]، وقِيل: وقال الأخفش: أصعد في البلاد: سار ومضى، وأصعد في الوادي: انحدر فيه، وأما صعد فهو ارتقاء[3]، وقِيل: كلّ شيء له أسفل وأعلى كالوادي والنّهر وغيرهما، فيُقال فيه: أصعد، إذا ذهب الذّاهب من أسفله إلى أعلاه[4]. وقِيل:

(1) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/250.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/525.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صعد).
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/282.

أصل الإصعاد هو الإبعاد في الأرض مُطلَقًا، سواءٌ أكان ذلك في صعود أو انحدار، ثمّ استُعمل في الإبعاد مُطلقًا سواء أكان حسِّيًّا أم معنويًّا، كقولهم: أَبْعَدْتَ في قولك كذا[1]، وقرئت بقراءتين، الأولى بضمّ أوّله: ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾، ومعناه أي: تلوون منهزمين في الوادي، والثّانية بفتح أوّله: ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾، ومعناه أي: تصعدُوا الجبل منهزمين، وقال القتبي: ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾ تبعدون في الهزيمة يقال: اصّتَعَدَ في الأرض إذا أمعن[2].

2) ﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ﴾: أي: لا تَعطِفون، وأصل اللَّيِّ هو إمالة الشّيء، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾ [المنافقون: 5]، أي: أمالوها، ومنه قيل للرّاية: اللِّواء؛ لأنّ الرّياح تلويها[3]، "ويقال: فلان لا يَلْوِي على أحد إذا أمعن فى الهزيمة، قال تعالى: ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾، وذلك كما قال حسّان بن ثابت رضي الله عنه يوم بدر:

تَرَكَ الأَحِبَّةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُم *** وَنَجَا بِرَأْسِ طِمِرَّةٍ وَلِجَام[4].

ومعنى ﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ﴾ في السّياق: " عفا اللّه عنكم في الوقت الّذي وقعتم فيه في الفوضى والاضطراب، وأصبحتم تسيرون في بطن الوادي لَا تقصدون، ولا تبتغون أمرا، ولا تتّبعون غاية، أيًّا كانت، بل تضربون في الأرض وتخبطون خبط عشواء"[5].

3) ﴿أُخۡرَىٰكُمۡ﴾: أي: آخرِكم، فالأُخرى هنا بمعنى المتأخِّرة، تقول العرب: جاء فلان في أخريات النّاس. وأُخرى القوم: أي: في أواخرهم، والتّقدير: في جماعتهم الأخرى، أي: المُتأخِّرة[6]، والمعنى في الآية: يعني أنّه يناديكم من خلفكم: (إليَّ عبادَ اللّه، إليَّ عبادَ اللّه)[7].

4) ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾: أي: جازاكم على صنيعكم، وأصله اللّغويّ يدلُّ على العَود والرّجوع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: 125]، أي: مكانًا يرجعون إليه مرّة بعد أخرى. والثّواب والمَثُوبة: ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله، وقيل: هو خاصّ

(1) الرّاغب، المفردات: (صعد).
(2) مكي بن أبي طالب، الهداية: 2/1154.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لوي)، والرّاغب، المفردات: (لوى).
(4) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: (لوى).
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1458.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/386، وابن منظور، لسان العرب: (أخر).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 6/148.

بجزاء الطّاعة[1]، (أثابكم) " أي ألهاكم بذلك الغمّ لئلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة، وما أصابكم من القتل والجراح، فهو أنساهم بمصيبة صغيرة مصيبة كبيرة"[2].

5) ﴿غَمَّا﴾: أصل الغمّ لغةً يدلّ على التّغطية والإطباق، ومنه سُمِّي الغمام؛ لأنّه يغطي ضوء الشّمس، وغَمَّه الأمر، أي: اشتمَل الغمُّ قلبَه وغطَّاه، وقيل: سُمّي الغمّ بذلك؛ لأنّه يستر وجه اللّذّة والسّرور[3]، قوله: " ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾، في الغمّ الأوّل والثّاني تأويلان: أحدهما: أنّ الغمّ الأوّل القتل والجراح، والغمّ الثّاني الإرجاف بقتل النّبيّ ﷺ"[4].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

مشهد الهزيمة وتبعاتها النّفسيّة، وأثر نجاة النّبيّ المعصوم في علاج الكُلُوم

قد صرفكم اللّه - معشر المؤمنين - عنِ المشركين يوم أحد، وعفا عنكم حين انطلقتم في الأرض هاربين يوم الهزيمة، لَمَّا خالف بعضكم أمر النّبيّ ﷺ، فأظهر اللّه المشركين عليكم، والرّسول يدعوكم من خلفكم لعدم الفرار، فجازاكم اللّه على هذا غمومًا متوالية، كان أشدّها عليكم ما أُشيع من موت النّبيّ ﷺ، وقد أنزل اللّه بكم هذا، حتّى لا تحزنوا على ما فات منَ النّصر والغنيمة، ولا ما أصابكم منَ القتل والتّنكيل، وذلك بعد علمكم أنّ نبيّكم المعصوم لم يُقتل، فهوَّن هذا عليكم ما أصابكم، واللّه سبحانه وتعالى خبير بأعمالكم، وأحوال قلوبكم.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة ﴿إِذۡ﴾:

تعظيمُ شأن مخالفةِ أمرِ رسولِ الله ﷺ وتركه في أخراهم

تردُ ﴿إِذۡ﴾ في بدايةِ الكلام في أمرٍ ذي شأنٍ بأنْ يكونَ ميثاقًا مؤكَّدًا أو بيانَ نعمةٍ عظيمةٍ أو ارتكابِ ذنبٍ عظيم، ففي مجيئِها إيذانٌ بالتّنبيهِ على أمرٍ عظيمٍ قد وقعَ في زمنٍ ما، بحيثُ يستحقّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثوب)، والرّاغب، المفردات: (ثوب)، وابن منظور، لسان العرب: (ثوب).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/132.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غمم)، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/282.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/430.

أنْ يكونَ ما بعدَ (إذْ) مثلًا للذِّكرى والتّدبّرِ والعِظَةِ، فجاءتْ ﴿إِذۡ﴾ هنا للتّذكيرِ بحالِهم المزريةِ لِعِظَمِ فعلِهم بانهزامِهم، في حالِ عدمِ التفاتِهم إلى أحدٍ، وتركِهم رسولَ اللّهِ ﷺ، وهو يدعوهم في أُخراهم.

نكتةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ﴾:

عبّر بالفعلِ المضارعِ في قوله ﴿تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ﴾، لِاستحضارِ صورتِهم المزريةِ وفزعِهم وهمّ في حالةِ الإصعادِ والإبعادِ مستشعرينَ الخوفَ، وفي حالةِ عدمِ الالتفاتِ إلى أحدٍ، كما تشعرُ الصيغةُ بأنّ إصعادَهم لم يكنْ دفعةً واحدةً، فكانوا مستمرّين في الهزيمةِ حالًا فحالًا من غيرِ توقُّفٍ لشدّةِ الفزعِ[1].

قولُه تعالى ﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾ بين الكناية والمجاز:

في التّعبيرِ كنايةٌ عن الإمعانِ في الفرارِ والهزيمة

يدلُّ معنى لَوِي الشيءِ على عطفِه وثنيه، ثمَّ صارَ كنايةً عن التَّوقُّفِ والانتظار، لأنَّ من شأنِ المنتظِرِ أن يلويَ عنقَه، و﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾ بمعنى لا تثنونَ أعناقكم على أحدٍ ولا تلتفتون، ويلزمه الفرار، ولهذا صارَ كنايةً عن الإمعانِ في الفرارِ والهزيمة، ويحتمل أن يكون الكلامُ على أصلِ المعنى اللغوي، أي لا تُعَرِّجُونَ ولا تنتظرون ولا تَلْتَفِتون هَرَبًا[2].

التّمثيل لانتزاعِ الرَّحمةِ من قلوب الهاربين بالجدِّ في الهروب

كما يحتمل أن يكون اللَّيُّ هنا مجازًا عن الرّحمة والرِّفق، والمعنى فَرَرْتُمْ لَا يَرْحَمُ أَحَدٌ أَحَدًا وَلَا يَرْفُقُ بِهِ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ لِلْجِدِّ في الْهُرُوبِ حَتَّى إِنَّ الْوَاحِدَ لَيَدُوسُ الْآخَرَ لَوْ تَعَرَّضَ في طَرِيقِهِ[3]، وتنوُّعُ التَّوجيه البلاغيِّ السّليم مِنْ سماتِ إعجازِ القرآنِ.

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/921.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 6/79، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لوى).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/131.

دلالةُ العمومِ في قولِه ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾:

المبالَغةُ في نفيِ وقوعِ العطفِ مِنْ أحدٍ على أحدٍ

لمّا كانتْ كلمةُ ﴿أَحَدٖ﴾ نكرةً واقعةً في سياقِ النَّفي أفادتِ العمومَ، بمعنى، لا تلتفتونَ على أيِّ أحدٍ، فلم يكنْ همُّكم إلا أنفسَكم.

ويحتمل أنْ يكونَ ﴿أَحَدٖ﴾، كنايةً عن النّبيّ ﷺ وإنَّما كُنِّي عن اسمِهِ إجلالًا لهُ وتَعْظِيمًا وَصَوْنًا لِاسْمِهِ أَنْ يُذْكَرَ عِنْدَ ذَهَابِهِمْ وإعراضِهم عَنْهُ[1].

إجلالُ رسولِ اللهِ بصونِ اسمِهِ أنْ يُذكرَ عندَ الإعراضِ عنه

مناسبةُ الإيجازِ في قولِه ﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾:

في الكلامِ إيجازٌ بالحَذْفِ؛ إذ المعنى: ولا يَلوي أحدٌ على أحدٍ منكم، فأوجزَ بالحذفِ[2]، وعبَّرَ بضميرِ الجمعِ إشارةً إلى الفَزَعِ الذي أصابَ المهزومينَ.

مناسبةُ التّعبيرِ بـ ﴿وَٱلرَّسُولُ﴾:

توبيخُ المنهزمينَ المُعرضِينَ عن دعوةِ الرّسولِ ﷺ لهم بالثّباتِ في القتالِ

عبَّر بوصفِ الرِّسالةِ؛ لِلإشعارِ بأنَّ دعاءَهُ للفارِّينَ يومَ أُحُد بالثّباتِ كان بوصفِه رسولًا، فكانَ الامتثالُ واجبًا والانهزامُ معصيةً، ففيهِ توبيخٌ للمنهزمينَ الفارِّينَ عنه ﷺ[3]. وَذِكْرُ الرَّسُولِ إِنَّمَا جَاءَ فِي جُمْلَةٍ حَالِيَّةٍ، لِينْعَى عَلَيْهِمْ فِرَارَهُمْ مَعَ كَوْنِ المهتدينَ عَلَى يَدِهِ هم المدعُوِّين، فَلَمْ يجيءْ مَقْصُودًا لِأَنْ يُحَدَّثَ عَنْهُ.

نكتةُ التّعبيرِ بقولِه: ﴿فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾[4]:

كان رسولُ اللهِ ﷺ أشجعَ النّاسِ، وأثبتَهم في ميدانِ المعركةِ

لم يكتفِ بقولِه ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ﴾، فذكرَ الظَّرفيَّةَ المكانيَّةَ؛ لِفوائدَ هيَ[5]:

1. لِلإيذانِ بالموضعِ الذي كانَ فيه رسولُ اللهِ ﷺ، وهو يدعوهم

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/386.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/131.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/388، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/95، والآلوسّي، روح المعاني: 2/304.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/526.

(5) الراغب، تفسير الراغب: 3/922، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/526، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/390، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/386.

إليه، بما يدلُّ عليهِ حرفُ الجرِّ (في)، ففيهِ مدحٌ للنَّبيِّ ﷺ ومدحُ شجاعتِه؛ فإنَّ الوقوفَ على أعقابِ الشُّجعانِ إنّما هو للأبطالِ الأنجادِ، وكانَ ﷺ أشجعَ النَّاسِ.

2. في التَّعبيرِ بـ ﴿أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ دلالةٌ على أنَّ مِنَ الصَّحابةِ مَن ثبتَ معَ رسولِ اللّهِ، والمعنى، والرَّسولُ يدعوكم بينَ جماعةِ المتأخّرينَ منكم أو بينَ الجماعةِ الأخرى الثَّابتةِ معهُ؛ لِيكونَ زيادةً في الغمِّ عليهم.

3. أفادَ التَّعبيرُ دعوةَ الرَّسولِ المنهزمينَ إلى الاجتماعِ معهُ في جماعةِ المتأخّرين الأخرى لِمحاربةِ العدوِّ.

قوله ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ بينَ الاستعارةِ التّهكُّميّةِ والمشاكَلَةِ:

الـثَّـواب في طـاعـةِ رسـول اللـهِ والـغـمُّ في مخالفته

لمّا كان الثوابُ مختصًّا بالخيرِ عرفًا؛ لِغلبتِه فيه كانَ استعمالُه في الغمِّ على سبيلِ الاستعارةِ التَّهكُّميةِ[1]؛ لِيكونَ على طريقةِ قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21]، إذ جعلَ الغمَّ مكانَ ما خرجوا لأجله، وهو طلبُ الثّواب؛ لِيُفيدَ التَّهكّمُ تذكيرَهم بما خرجوا لَه وتنديمَهم على فعلِهم ومخالفتِهم أمرَ رسولِ اللّه ﷺ.

التّذكيرُ بما نشأ مـن الـغـمِّ من عبرةٍ للمؤمنين

ويحتملُ الكلامُ أنْ يكونَ على طريقةِ المُشَاكَلَةِ التَّقديريَّة؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا خَرَجُوا لِلْحَرْبِ خَرَجُوا طَالِبِينَ الثَّوَابَ، فَسَلَكُوا مَسَالِكَ بَاءُوا مَعَهَا بِعِقَابٍ فَيَكُونُ كَقَوْلِ الْفَرَزْدَقِ[2]:

أَخَافُ زِيَادًا أَنْ يَكُونَ عَطَاؤُهُ *** أَدَاهِمَ سُودًا أَوْ مُحَدْرَجَةً سُمْرَا

وَنُكْتَةُ مجيءِ هذهِ الْمُشَاكَلَةِ أَنْ يُتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى الْكَلَامِ عَلَى مَا نَشَأَ عَنْ هَذَا الْغَمِّ مِنْ عِبْرَة وعظةٍ، كما تشعرُ المشاكلةُ بتوجُّهِ عِنَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْهِمْ بَعْدَ الغمِّ.

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/923، والبغوي، معالم التّنزيل: 1/523، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/390.

(2) البيت منَ الطّويل، وهو في ديوان الفرزدق، ص: 169، والأداهم جمع الأدهم، وهو القيد، والمحدرجة هي السّياط المحكَمة الفَتل.

نكتةُ التَّعبيرِ بالغَمِّ:

خرجَ الصّحابةُ طالبينَ للثّوابِ فلمّا خالفوا أثابهم الغمَّ

لمّا كان الغمُّ في الأصلِ بمعنى التَّغطيةِ ومنه الغَمامُ؛ لِأنّهُ يُغَطِّي ضوءَ الشّمسِ كما تقدَّمَ في شرحِ المفرداتِ ناسبَ ذكرُه هنا، فكأنَّ الغمَّ يسترُ وجهَ اللَّذّةِ والسُّرورِ الذي كانَ يحصلُ بالثّوابِ والغنيمةِ لو لم ينهزموا[1].

دلالةُ الباءِ في قولِه ﴿بِغَمِّ﴾ بينَ السَّببيَّةِ والمعاوضةِ والمصاحبةِ:

تحتملُ الباءُ في قوله تعالى ﴿بِغَمِّ﴾ ما يأتي[2]:

1. أنْ تكونَ سببيَّة، والمعنى فأثابكم غمًّا بسببِ غمٍّ أذقتموه رسولَ اللَّهِ ﷺ بعصيانِكم له؛ لِيكونَ الملامُ عليهم أشقَّ للتَّذكيرِ بما أصابَ رسولَ اللّهِ ﷺ في ذلكَ الوقتِ.

2. أنْ تكونَ للمعاوضةِ، والمعنى إِنَّكُمْ لَمَّا أَذَقْتُمُ الرَّسُولَ غَمًّا بِسَبَبِ أَنْ عصيتُمْ أَمرَهُ، فَاللَّهُ تعالَى أَذاقكُمْ هذا الغَمَّ، وهوَ الغَمُّ الَّذي حَصلَ لَهُمْ بسببِ الِانهزَامِ وَقَتلِ الْأَحبَابِ، وَالْمَعنَى جَازَاكُمْ مِنْ ذَلِكَ الْغَمِّ بِهَذَا الْغَمِّ.

3. أنْ تكونَ للمصاحبةِ، وهو الظّاهرُ، ويُلمحُ فيها معنى الملاصقةِ الذي هو أصلُ معنى الباءِ[3]، والمعنى غمًّا متّصلًا بغمٍّ مُلتصقًا به؛ لِلإشارةِ إلى جُمْلَةِ الْغُمُومِ الَّتِي دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ من الاغتمامِ بما أُرجِفَ به منْ قتلِ رسولِ اللّهِ ﷺ، والجرحِ والقتلِ وظفرِ المشركينَ وفوتِ الغنيمةِ والنَّصرِ وغيرِها، وهذا الوجهُ هو الأولى؛ لِأنَّهُ ليسَ يعني بذلك غمّينِ، بل غموماً كثيرةً متتابعةً متواليةً طويلةً، فيكونُ التّكريرُ على معنى استيعابِ الغمومِ[4].

دلالةُ تنكيرِ قولِه تعالى ﴿غَمَّا بِغَمِّ﴾:

لَمَّا كانَ الظّاهرُ أنْ تكونَ الباءُ على معنى المصاحبةِ، وكانَ المعنى غمومًا كثيرةً متواصلةً ملصقًا أحدُها بالذي بعدَه دلّ التنكيرُ في الغمَّينِ على معنى التَّكثيرِ والتَّفخيم، بمعنى تكثيرِ الغمومِ وتفخيمِها[5].

---

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/283.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/427، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/526، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/391، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/387.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/361.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 4/303.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/100.

دلالةُ التّعبيرِ بقولِه ﴿لِّكَيۡلَا﴾:

لمّا كانتِ اللّامُ بمعنى التّعليلِ، وكانت (كي) حرفًا مصدريًّا مفيدًا معنى الاستقبالِ مشرَّبًا معنى التَّعليلِ دلَّ اقترانُ لامِ التَّعليلِ بـ (كي) على تأكيدِ تعليلِ توالي الغمِّ وتتابعِه؛ لِلعنايةِ بالمعلِّلِ في قوله ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾، وتقريرِه في نفوسِ المخاطبينَ[1].

قوله ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ بين الكنايةِ والمجيءِ على الأصلِ:

التـمـرُّن على احتمالِ الشّدائدِ يمنعُ من الحزنِ على فوتِ المنافعِ ومصابِ المضارِّ

يُحتملُ أنْ يكونَ الكلامُ على طريقِ الكنايةِ، فإنّه لمَّا كانتِ المجازاةُ بالغمِّ بعدَ الغمِّ سببًا للحزنِ لا لعدمِه كانَ التّعبيرُ بنفي الحزنِ بذكرِ اللّازمِ، والمرادُ هو الملزومُ معَ لازمِه، والمعنى أثابكم غمًّا بغمٍّ؛ لِتتمرَّنوا على تجرُّعِ الغمومِ، وتَضْرَوْا باحتمالِ الشَّدائدِ، ولازمُه هو، فلا تحزنوا فيما بعدُ على فائتٍ من المنافعِ ولا على مصيبٍ مِنَ المضارِّ[2].

ويُحتملُ أنْ يكونَ الكلامُ على الأصلِ مِنْ غيرِ ملازمةٍ فيه، ويكونَ اللُّزومُ في دلالةِ ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾، والمعنى فأَلْهَاكُمْ بِذَلِكَ الْغَمِّ لِئَلَّا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ، وَمَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ، فَهُوَ أَنْسَاهُمْ بِمُصِيبَةٍ صَغِيرَةٍ مُصِيبَةً كَبِيرَةً[3].

دلالةُ تكريرِ ﴿وَلَا﴾ النّافية:

أفادَ تكريرُ (لا) تأكيدَ نفي الحزنِ وتقريرَه، كما دلَّ على أنَّ الحزنَ على ما فاتَكم من المنافعِ غيرُ الحزنِ على ما أصابكم من المضارِّ، فلكلِّ نوعٍ أثرُه وتأثيرُه، كما أنَّ تكريرَها يُبعدُ القولَ بزيادتها[4] وما يترتَّبُ عليه من المعاني غيرِ المناسبةِ، فيكون طلبُ نفي الحزن ثابتًا ومقرَّرًا.

(1) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/242، والسامرائي، معاني النّحو: 3/352.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/388، والطيبي، فتوح الغيب: 4/303، والخفاجي، عناية القاضي: 3/142، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/362.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/133.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 3/142.

بديعُ الطِّباقِ في قولِه ﴿مَا فَاتَكُمۡ﴾ و﴿مَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾:

لَمَّا كانَ الفوتُ يدلُّ على بُعْدِ شيءٍ مرغوبٍ فيهِ عن الإنسان بحيث يتعذّر إدراكه، وكانَت الإصابة تدلُّ على ضررٍ يلحقُ بالشّيء وينزلُ به أفادَ الجمعُ بينَ ﴿مَا فَاتَكُمۡ﴾ و﴿مَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ طباقًا لطيفًا، ثمَّ إنَّهُ يُؤْذِنُ بِطِبَاقٍ آخَرَ مُقَدَّرٍ بينَ النّافعِ والضَّارِّ؛ لِأَنَّ مَا فَاتَ هُوَ النَّافِع وَمَا أَصَابَ هُوَ مِنَ الضَّارِّ[1].

كلّ شيءٍ بتقدير الله، ما فات المؤمنَ وما أصابه

حسنُ التّذييلِ بقولِه ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

أفادتْ هذهِ الجملةُ فوائدَ، هي[2]:

1. التَّهْدِيدُ لِمَنْ يعملُ عملًا مخالفًا لأَمرِ اللّهِ أو لِأَمرِ رسولِ اللّهِ ﷺ، وتقتضي وجوبَ الحذرِ من المخالفةِ، فإنَّ اللّه تعالى إذا كانَ خبيرًا بعمَلِنا فسوف يُحاسبنا.

كونُ الله خبيرًا بأعمال العبادِ يقتضي إحسانَها وتجنُّبَ إساءتِها

2. وَخَصَّ الْعَمَلَ هُنَا وَإِنْ كَانَ تَعَالَى خَبِيرًا بِجَمِيعِ الْأَحْوَالِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالنِّيَّات، تَنْبِيهًا عَلَى أَعْمَالِهِمْ مِنْ تَوْلِيَةِ الْأَدْبَارِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي الْفِرَارِ، للإشعارِ بأنّها أَعْمَالٌ تُخْشَى عَاقِبَتُهَا وَعِقَابُهَا

3. أفادت الجملةُ عمومَ المعنى، فالخطابُ وإنْ كانَ لِلحاضرينَ وقتَ نزولِ القرآنِ، لكنَّهُ قُصِدَ بِهِ العمومُ لِكلِّ مخاطَبٍ؛ لِيكونَ الخطابُ لكلِّ تالٍ لِلقرآنِ مخاطَبٍ به.

4. لَمَّا كانتْ هذهِ الجملةُ على معنى العمومِ أفادتْ أنّها تجري مَجرى المَثَلِ.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصّعود والإصعاد:

قوله تعالى: ﴿تُصۡعِدُونَ﴾ هو بضمّ التّاء وكسر العين، مضارع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/133.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/389.

أَصْعَد، والأكثرون على أنّ الإصعاد هو الذّهاب في مستوي الأرض وبطون الأودية؛ وهو ما حدث يوم أحدٍ؛ إذ كان انحياز من فرَّ منَ المسلمين بعد انكشاف ظهورهم إلى بطن الوادي، وعليه تدلّ القراءة الشّاذة المرويّة عن أُبَيٍّ ﵁: (إِذ تُصعِدُونَ في الوادي)[1]. أمّا الصّعود فهو ما يكون على الجبل والسُّلَّم، ونحوهما ممّا ارتفع منَ الأرض؛ ولذا لم يُعبَّر به في الآية[2]. والفرقُ بين الإصعاد والصّعود، أنّ الإصعاد في مستوى الأرض المنبسط، والصّعود يكون في ارتفاع، وهذا قول الفرّاء، وأبي العبّاس، والزّجّاج، وروي عن ابن عبّاس أنّهم صعدوا في جبل أحد فرارا[3]، قالوا: " الهرب في مستوى الأرض، وبطون الأودية والشّعاب إصعاد لا صعود، قالواْ: وإنّما يكون الصّعود على الجبال والسّلاليم والدّرج؛ لأنّ معنى الصّعود الارتقاء والارتفاع على الشّيء علوًّا، قالوا: فأمّا الأخذ في مستوى الأرض الهبوط، فإنّما هو إصعاد، كما يقال: أصعدنا من مكَّة، إذا ابتدأت في السّفر منها والخروج، وأصعدنا من الكوفة إلى خراسان، بمعنى خرجنا منها سفرًا إليها، وابتدأنا منها الخروج إليها "[4].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/525.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/145، والآلوسّي، روح المعاني: 2/303.

(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/429.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 6/146.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ [آل عمران: 154]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا وعدَ اللّهُ تعالى المؤمنين بالنَّصر على الكافرين، وهذا النَّصرُ لا بدَّ وأن يكونَ مسبوقًا بإزالةِ الخوفِ عنِ المؤمنين، بيَّنَ في هذه الآيةِ إزالتَه عنهم ليصيرَ ذلك كالدَّلالةِ على أنه تعالى يُنجزُ وعدَه في نصر المؤمنين. وبيَّن أنّه نصرَ المؤمنين أوّلًا، فلمّا عصى بعضُهم سلَّط الخوفَ عليهم، ثم ذكرَ أنّه أزال ذلك الخوفَ عن قلبِ مَن كان صادقًا في إيمانِه مستقرًّا على دينه بحيث غلبَ النُّعاسُ عليه[1]. وفي ذلك تأديبٌ لما وقَعَ مِن بَعْضِهِمْ مِنَ الخَلَلِ الظّاهِرِ؛ ثم عَفا عَنْهم بعد التأْديب، ورَحِمَهُمْ؛ وطَيَّبَ قُلُوبَهم بِهَذِهِ الآيَةِ[2]، باثًّا الاطمئنانَ إلى قُدرِه المقدورِ، والثّقةِ في المستقبل تحقيقًا لوعدِه بنصر عبدِه ونبيّه محمدٍ ﷺ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنزَلَ﴾: النُّونُ وَالزَّاي وَاللَّامُ كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى هُبُوطِ شَيْءٍ وَوُقُوعِه، وَنَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ نُزُولًا، وَنَزَلَ المَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ نُزُولًا، فأصلُ النُّزول انحطاطٌ من عُلوٍّ إلى سُفْلٍ[4]،

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/393.

(2) نظم الدرر، البقاعي: 2/272.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1459.

(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نَزَلَ).

وأفعالُ النُّزول، والتنزيل، والإنزال، وما اشتقَّ منها واضحةٌ يتحقَّق فيها معنى الهبوطِ إلى مقرٍّ، ومنَ الخُلوص إلى الاستقرار بين البشر(1)، وهو معنى اللّفظةِ في الآية الكريمة.

2) ﴿ٱلْغَمِّ﴾: الغَيْنُ وَالمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَغْطِيَةٍ وَإِطْبَاقٍ،(2)، والغمُّ: سَترُ الشَّيء، ومنه: الغَمَامُ لكونِه ساترًا لضُوء الشَّمس، والغُمّةُ: الكُربةُ(3)، و"الغَمَاءُ: الشّديدةُ من شدائدِ الدَّهرِ، وإنهم لفي غَمّاءٍ من أمرهم إذا كانوا في أمرٍ مُلتبسٍ شديدٍ"(4)، فغَمَّه الأمر: فاغتمَّ وانْغَمَّ كأنه يُطْبقُ عليه، ويكبسُ على نَفسه، والغُمَّة: الكربُ، والضِّيقُ، والظُلمةُ، والحزنُ. والذي في القرآن منَ هذا التَّركيب فهو بمعنى: الكرْب، نعوذ باللّٰه منه(5).

3) ﴿أَمَنَةً﴾: الهمزةُ والميمُ والنُّونُ أصلانِ مُتَقَارِبَانِ، مُتَدَانِيَانِ: أَحَدُهُمَا الأَمَانَةُ الَّتِي هي ضِدُّ الخِيَانَةِ، وَمَعْنَاهَا سُكُونُ القَلبِ، والآخَرُ: التَّصديقُ(6)، ومعنى الأمن وفاقَ هذين الأصلين: طمأْنينةُ النَّفس وزوالُ الخوفِ(7)، فالأَمْنُ: ضدُّ الخوف(8)، "كأنَّ الآمنَ تمكَّن في حِصْن، أو امتلأ قلبُه امتلاءً شديدًا بما يُطَمْئِنُه"(9)، وهو الأمان، على أهل الإخلاص منكم واليقين(10)، وهو معنى اللّفظةِ في الآية المباركة، واللّٰه أعلم.

4) ﴿نُّعَاسًا﴾: النُّونُ وَالعَيْنُ وَالسِّينُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى وَسَنٍ(11)، وحَقِيقَةُ النُّعاس: السِّنَةُ من غير نوم(12)، أو: أوَّلُ النَّوم(13)، أو النّومُ القليلُ(14)، وقد ألمحَ الجوهريُّ إلى أنّه قد يكونُ متّصلًا دائمًا، قال: " النُّعاس: الوسَنُ، وفي المثل: " مَطَلٌ كنُعاسِ الكلبِ "، أي متَّصلٌ دائمٌ"(15).

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نَزَلَ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غَمَّ).
(3) الجوهري، الصحاح: (غمم)، والراغب، المفردات: (غمَّ).
(4) الخليل، العين: (غمَمَ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (غمم - غمغم).
(6) ابن فارس، المقاييس: (أَمَنَ).
(7) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أَمِنَ).
(8) الجوهري، الصحاح: (أمن).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أمن).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 6/159.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نَعَسَ).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة: (نَعَسَ).
(13) ابن الأثير، النهاية: (نَعَسَ).
(14) الراغب، المفردات: (نَعَسَ).
(15) الجوهري، الصحاح: (نَعَسَ).

والنُّعاسُ هنا: يحتمَلُ أنْ يكون نومًا، أو مقاربةَ النَّوم، أو ثِقْلته[1]، كما ورد عن أَبي طَلْحَة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "كُنْتُ فِيمَنْ تَغَشَّاه النُّعَاسُ يَوْمَ أحُد، حَتَّى سَقطَ سَيْفِي مِنْ يَدِي مِرَارًا، يَسْقُطُ وَآخُذُهُ، وَيَسْقُطُ وَآخُذُهُ"[2].

5) ﴿يَغۡشَىٰ﴾: الغَيْنُ وَالشِّينُ وَالحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَغْطِيَةِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، يُقَالُ غَشَّيْتُ الشَّيْءَ أُغَشِّيهِ، وَالغِشَاءُ: الغِطَاءُ، وَالغَاشِيَةُ: القِيَامَةُ؛ لِأَنَّهَا تَغْشَى الخلقَ بِإِفْزَاعِهَا[3]، فغشيَه: سترَه، والغشاوةُ: ما يُغطّى به الشّيءُ[4]، بكثيف يعمُّه، وكلُّ الفعل (غَشِيَ) و(غَشَّى)، و(أَغْشَى)، و(استَغْشَى)، والمضارعُ منهنَّ فهي بمعنى التّغطية: إما بمادّة حقيقيةٍ كالموجِ، والنّارِ، والدّخانِ، والظلام، والعذاب، وإمّا بما يُتَصور كذلك كالنُّعاسِ وإفقادِ الرّؤيةِ والشّعورِ، أو بأمرٍ غيبيٍّ[5].

6) ﴿طَآئِفَةٗ﴾: الطَّاءُ والوَاوُ والفَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى دَوَرَانِ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ، وَأَنْ يُحَفَّ بِهِ. ثُمَّ يُحْمَلَ عَلَيْهِ، وكُلُّ جَمَاعَةٍ يُمْكِنُ أَنْ تَحُفَّ بِشَيْءٍ فهي عندهم طَائِفَةٌ، فالطَّائِفَةُ مِنَ النَّاسِ كَأَنَّهَا جَمَاعَةٌ تُطِيفُ بِالوَاحِدِ أَوْ بِالشَّيْءِ، وَلَا تَكَادُ العَرَبُ تَحُدُّهَا بِعَدَدٍ مَعْلُومٍ[6]، فالطائفة منَ النّاس: جماعةٌ منهم، ومنهم من حدَّها بالرَّجل فما فوقه، والواحدِ إلى الألف[7]، وقد يَتَوَسَّعُونَ في لفظها مِنْ طَرِيقِ المجَازِ فَيَقُولُونَ: أَخَذْتُ طَائِفَةً مِنَ الثَّوْبِ، أَيْ قِطْعَةً مِنْهُ، وهذا على معنى المَجَاز؛ لِأَنَّ الطَّائِفَةَ مِنَ النَّاسِ كَالفِرْقَةِ والقِطْعَةِ مِنْهُمْ[8].

7) ﴿أَهَمَّتۡهُمۡ﴾: "الهَاءُ وَالمِيمُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى ذَوْبٍ وَجَرَيَانٍ وَدَبِيبٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُقَاسُ عَلَيْهِ. مِنْهُ قَوْلُ العَرَبِ: هَمَّنِي الشَّيْءُ: أَذَابَنِي"[9]، وهمَّهُ الحزنُ والمَرَض

(1) ابن سيده، المحكم: (نَعَسَ).

(2) رواه البخاري في صحيحه الحديث رقم: (4562، 4068)، والترمذي في سننه، الحديث رقم: (3007، 3008)، والنسائي في السنن الكبرى، الحديث رقم: (11080).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غَشَيَ).

(4) الراغب، المفردات: (غشي).

(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (غشي).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طَوَفَ).

(7) الراغب، المفردات: (طوف).

(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طَوَفَ).

(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هَمَّ).

إذا أذابَه[1]، فالهَمُّ: الحُزنُ الذي يُذيبُ الإنسانَ، وأهَمَّني الأمرُ، إذا أقلقَني وأحزَنَني. والاهتمامُ: الاغتمامُ[2]، وأصلُه: ما همَمْتَ أو حدَّثت بِهِ نفسَك، وأهمَّني كذا، أي: حملَني على أن أهُمَّ به[3]. وهذه الطائفة: هم ٱلْمُنَافِقُونَ لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إلَّا أنفسهُم.

8) ﴿يَظُنُّونَ﴾: الظَّاءُ وَالنُّونُ أُصَيْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ: يَقِينٍ وَشَكٍّ. فأمّا الشَّكُّ، فيُقَالُ: ظَنَنْتُ الشَّيْءَ، إِذَا لَمْ تَتَيَقَّنْهُ، وَمِنْ ذَلِكَ الظِّنَّةُ: التُّهْمَةُ. وَالظَّنِينُ: المُتَّهَمُ، الظَّنينُ: المُعادي، وهو موضعُ ظنّتي أي تُهْمَتي، والظَّنُونُ: الرجلُ السَّيِّئُ الظَّنِّ بكلِّ أحَدٍ[4].

والظنُّ: "اسمٌ لما يحصلُ عن أمارةٍ، ومتى قويتْ أدّت إلى العلمِ، ومتى ضعُفت جدًّا لم يتجاوزْ حدَّ التّوهُّم"[5]، و"هو الاعتقادُ الرّاجحُ مع احتمال النّقيضِ"[6]، وليس الاعتقادَ الجازمَ، فهو الوهمُ الملازمُ للضّعفِ، المُسيطرُ على النَّفس[7]، وهو معنى الظنّ في الآية فضلًا عنِ احتماله معنى: التُّهمةِ، واللّه أعلم.

9) ﴿ٱلْحَقِّ﴾: الحاء والقاف أصْلٌ واحدٌ يدلُّ على إحْكَام الشَّيء وصحّتِه[8]، وأصلُه: المطابقةُ، والموافقةُ[9]، والحقُّ نقيضُ الباطل، وهو: إيجابُ الحُكم[10]، وصدقُ الحديثِ، واليقينُ بعد الشكِّ، والإحكامُ، والتّصحيحُ[11]، والإثباتُ[12]، ومن جميل مظاهرِ قَصديةِ الانتقاء القرآنيِّ للألفاظ أن تكونَ لفظةُ (الحقِّ) مُتضمّنةً للمعاني المُعجميةِ التي وردتْ تفسيراتٍ لها.

10) ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾: الجهلُ على ثلاثة أضْرُبٍ: خلوُّ النّفس منَ العلم، وهو الأصلُ،

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (همم).
(2) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (همم).
(3) الراغب، المفردات: (همم).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ظَنَّ).
(5) الراغب، المفردات: (ظنَّ).
(6) المناوي، التوقيف، ص: 493.
(7) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1462.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(9) الراغب، المفردات: (حق).
(10) الخليل، العين: (حق).
(11) الأزهري، التهذيب: (حق).
(12) ابن سيده، المحكم: (حق).

واعتقادُ الشيء بخلاف ما هو عليه، وفعلُ الشّيء بخلافِ ما حقُّه أنْ يُفعلَ[1]، فالجيمُ وَالهَاءُ وَاللَّامُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا: "نقيضُ العِلم. تقول: جَهِلَ فلانٌ حقَّه، وجَهِلَ عليّ، وجهلَ بهذا الأمر، والجَهالةُ: أن تفعلَ فِعلاً بغير عِلم، والجاهليّةُ الجَهْلاء: زمانُ الفترةِ قبلَ الإسلام"[2]، وهو: اسْمٌ وَقع فِي الإِسْلَام على أهل الشّرك بيانًا للحالِ التي كان عليها العربُ قبل الإسلام من الجَهلِ باللّه ورسولِه وشرائعِ الدِّين، والمفاخرةِ بالأنساب والكِبْر والتّجبُّر وغيرِ ذلك، ولعلَّ منه قيل: إنّ الجهل: ضدُّ الحِلْم، وقيل: ضدُّ العلم؛ لأنّ الجاهلَ خالي الذِّهنِ منَ المعلومات[3]، والظاهرُ أنّ النّسبة فيه هي إلى الجاهل، أي: الذي لا يعلمُ الدِّينَ والتّوحيدَ، فإنّ العربَ أطلقتِ الجهلَ على ما قابلَ الحِلمَ، وأطلقتِ الجهلَ على عدمِ العلم[4].

11) ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾: الهَمْزَةُ وَالمِيمُ وَالرَّاءُ أُصُولٌ خَمْسَةٌ: أحدُها: الأَمْرُ مِنَ الأُمُورِ، ومنه قَوْلُهُمْ: هَذَا أَمْرٌ رَضِيتُهُ، وَأَمْرٌ لَا أَرْضَاهُ. وفي المَثَلِ: (أَمْرٌ مَا أَتَى بِكَ). وَمِنْ ذَلِكَ فِي المَثَلِ: (لِأَمْرٍ مَا يُسَوَّدُ مَنْ يَسُودُ)[5]. فالأمر: الشّأنُ، وجمعُه أمورٌ، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها[6]. والمعنى في الآية المباركة: ليس لنا رأي، ولا يسمع قولنا، أو ليس لنا من أمرٍ يُطاعُ[7]؟ فالأمرُ بمعنى السِّيادة الذي منه الإمارةُ، ومنه أولُو الأمرِ[8]. أو: لسنا على شيء من الأمر الحق

12) ﴿يُخۡفُونَ﴾: الخَاءُ وَالفَاءُ وَاليَاءُ أَصْلَانِ مُتَبَايِنَانِ مُتَضَادَّانِ، فَالأَوَّلُ السَّتْرُ، وَالثَّاني الإِظْهَارُ[9]، والخافِيةُ ضدُّ العلانية، ولقيته خفياً أي: سِرًّا[10]، وخفيتُ الشّيَء أُخفيه: سترتُه وكتمتُه[11]، وخَفيَ الشّيءُ: لم يظْهرْ. وفي التَّنْزِيل: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ [طه:

(1) الراغب، المفردات: (جهل).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (جَهِلَ).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جهل).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/136.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أَمَرَ).
(6) الراغب، المفردات: (أَمَرَ).
(7) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/395، وابن جزي، التسهيل: 1/168.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/135.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خَفِيَ).
(10) الخليل، العين: (خفي).
(11) الجوهري، الصحاح: (خفى).

15]، أَي: أسترُها وأواريها[1]، فالمعنى المحوريُّ استتارُ الشّيء استتارًا ضعيفًا بحيث يظهرُ من وراء السّاترِ ظُهورًا ضعيفًا[2].

13) ﴿يُبۡدُونَ﴾: البَاءُ وَالدَّالُ وَالوَاوُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وهو ظُهُورُ الشَّيْءِ، يُقَالُ: بَدَا الشَّيْءُ يَبْدُو: إِذَا ظَهَرَ، فَهُوَ بَادٍ[3]، وَسُمِّيَ خِلَافُ الحَضَرِ بَدْوًا مِنْ هَذَا؛ لِأَنَّهُمْ فِي بَرَازٍ مِنَ الأَرْضِ، وَلَيْسُوا فِي قُرًى تَسْتُرُهُمْ أَبْنِيَتُهَا[4]، فالمعنى المحوريُّ هو بروزٌ بقوّةٍ أو تجسّمٍ مع امتدادٍ وجَوْزٍ، وسائرُ ما في القرآن منَ هذا التَّركيب هو منَ البُروز والظُّهور[5].

14) ﴿لَبَرَزَ﴾: البَاءُ وَالرَّاءُ وَالزَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وهو ظُهُورُ الشَّيْءِ وَبُدُوُّهُ، قِيَاسٌ لَا يُخْلِفُ. وهو: انْفِرَادُ الشَّيْءِ مِنْ أَمْثَالِهِ[6]، نَحْوَ: تَبَارُزِ الفَارِسَيْنِ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَنْفَرِدُ عَنْ جَمَاعَتِهِ إِلَى صَاحِبِهِ، والبَرازُ: المكانُ الفضاءُ منَ الأرض، البعيدُ الواسعُ[7]. وبَرَزَ الرجل: ظهر بعد الخفاء، وخَرَجَ، والشّيءَ: أظهرتُهُ وبيَّنْتُه، وذلك إمّا أن يظهر بذاته، كالمبارزة للقتال، وإما أن يظهرَ بفضله، وهو أن يَسبقَ في فعلٍ محمودٍ؛ وإمّا أن ينكشفَ عنه ما كان مستورًا منه[8]، وهو خُلوصُ الشّيء أو ظهورُه ظهورًا قويًّا، أي: نفاذُه من بين ما يكتنفُه بجَهد وقوةٍ، ومنه معنى ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ﴾ في الآية الكريمة، أي: لدُفعوا إلى الخروج إليها[9].

15) ﴿كُتِبَ﴾: الكَافُ وَالتَّاءُ وَالبَاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ[10]. وَقد كَتَب الكتابَ يَكْتُبُهُ كَتْبًا إِذا جمع حُرُوفَه[11]، والكتابُ: الفَرْضُ والحُكْمُ والقَدَر[12]؛ إذ به يُعبَّرُ عنِ الإثباتِ والتّقديرِ والإيجابِ والفرضِ والعزمِ والإلزامِ، ووجهُ ذلك أنَّ الشّيء

(1) ابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات: (خفى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خفو - خفي).
(3) الخليل، العين: (بدو، بدأ)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بَدَوَ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بَدَوَ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بدو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بَرَزَ).
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بَرَزَ).
(8) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (برز).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بَرَزَ).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كَتَبَ).
(11) ابن دريد، جمهرة اللغة: (كتب).
(12) الجوهري، الصحاح: (كتب).

يُرادُ، ثم يُقال، ثم يُكتبُ، فالإرادةُ مبدأٌ، والكتابةُ مُنتهى، ثم يعبَّرُ عنِ المراد الذي هو المبدأُ إذا أريدَ توكيدُه بالكتابة التي هي المُنتهى، ومنه ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ﴾ [آل عمران: 154][1]، وسائرُ ما في القرآن منَ هذا التَّركيب فهو عدا كُتُبِ اللّٰه المنزّلةِ بمعنى الفرضِ أو القضاءِ بأمر، والتَّسجيلِ كتابةً أو في كتاب[2].

16) ﴿مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾: الضَّادُ وَالجِيمُ وَالعَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى لُصُوقٍ بِالأَرْضِ عَلَى جَنْبٍ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَى ذَلِكَ ما التحق به من معانٍ[3]، وضَجَعَ فلانٌ ضُجوعاً، أي نَامَ، وقيل: اسْتلقى. واضتجعَ: وضع جنبَه بالأرض[4]. وأصلُ بِنَاء الفِعْل منَ الاِضْطِجَاع[5]، واسمُ الموضع: المضجعُ والمضطجَعُ[6]، وهو استلقاءٌ أو انطراحٌ بثقلٍ يُريحُ، كالاضطجاع لثقلِ البدن أو استرخائِه، والذي جاء في القرآن الكريم من هذا التَّركيب هو (المضاجعُ) جمع المَضْجَع: موضعُ الاضطجاع ومكانُه. أما في الآية الكريمة هنا ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ فالمضاجعُ فيها: المصارِعُ، وهي الأماكنُ التي قُتِلوا فيها سُمّيتْ بذلك لضجعةِ المقتول فيها[7].

17) ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ﴾: البَاءُ واللَّامُ والوَاوُ واليَاءُ، أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا إِخْلَاقُ الشَّيْءِ، وَالثَّاني نَوْعٌ مِنَ الاِخْتِبَارِ[8]، والبَلوَى: التَّجْرِبة[9]، وبلوتُه بلوًا: جربتُه واختبرتُه[10]، ويقال: بَلِيَ الثّوبُ بِلًى وبَلاءً، أي: خَلِق، ومنه سُمّي البلاءُ اختبارًا كأنَّ المُبتلى أُخْلِق من كثرة الاختبار، وسُمّي التّكليفُ بلاءً من أوجُه: أحدُها: أنَّ التّكاليفَ كلَّها مشاقٌّ على الأبدان، فصارت من هذا الوجه بلاءً. والثاني: أنها اختباراتٌ، والثالث: أنَّ اختبارَ اللّٰه تعالى للعباد تارةً بالمسارِّ ليشكُروا، وتارة بالمضارِّ ليصبِرُوا، فصارتِ المحنةُ والمنحةُ جميعا بلاءً، فالمحنةُ

(1) الراغب، المفردات: (كتب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (كتب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضَجَعَ).
(4) الخليل، العين: (ضَجَعَ)، وابن سيده، المحكم: (ضَجَعَ).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضَجَعَ).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (ضَجَعَ).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ضَجَعَ).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بَلَوِيٌّ).
(9) الخليل، العين: (بلو - بلي).
(10) الجوهري، الصحاح: (بلا).

مقتضيةٌ للصبرِ، والمنحةُ مقتضيةٌ للشُّكرِ[1]. وجلُّ ما ورد من هذا التَّركيب – في كتاب اللّٰه – منَ الفعل فهو بمعنى الشّدّة مع الاختبار (تبيُّنُ الحال)[2].

18) ﴿صُدُورِكُمْ﴾: الصَّادُ وَالدَّالُ وَالرَّاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا: صَدْرُ الإِنْسَانِ وَغَيْرُهُ. والجَمْعُ: صُدُورٌ[3]. فالصَّدْرُ: أعلى مُقَدَّمِ كُلِّ شيءٍ، وصُدْرَةُ الانسانِ: ما أَشْرَفَ من أعلى صدره[4]، وهو: الجارحةُ، وليس في القرآن منَ هذا التَّركيب إلا (يَصْدرُ) و(يُصْدِر) ثم (صَدْر) الإنسان وجمعُه (صُدُور)[5]، ومعنى اللّفظ في الآية الكريمةِ: ما في صدوركم من الشك، أو ما في صُدُورِكم بِأعْمالِكم[6].

19) ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾: المِيمُ وَالحَاءُ وَالصَّادُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَخْلِيصِ شَيْءٍ وَتَنْقِيَتِهِ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ، والمَحْصُ: خُلُوصُ الشيء، ومَحَصَ اللّٰه العَبْدَ مِنَ الذَّنْبِ: طَهَّرَهُ مِنْهُ وَنَقَّاهُ[7]، والتَّمحيص: الابْتِلاءُ والاختِبارُ[8]. ويأتي التَّمحيصُ بمعنى التّزكيةِ والتّطهيرِ كما في لفظ الآيةِ المباركةِ[9].

20) ﴿قُلُوبِكُمْ﴾: القَافُ واللَّامُ والبَاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ: أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى خَالِصِ شَيْءٍ وَشَرِيفِهِ، وَالآخَرُ عَلَى رَدِّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ، فَالأَوَّلُ القَلْبُ: قَلْبُ الإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ[10]، وهي "مضغةٌ منَ الفؤاد معلّقةٌ بالنّياط"[11].

وسُمِّيَ بذلك؛ لأنه أخلصُ شيءٍ فيه وأرفعُه؛ فخالصُ كلِّ شيءٍ وأشرفُهُ قلبُهُ. ومنه قولُهم: عربيٌّ قلبٍ[12]، أو لأنها أهمُّ ما في الباطن، وأقواه[13]. وقد يؤولُ معنى القلبِ

(1) الراغب، المفردات: (بلى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بلو - بلى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صَدَرَ).
(4) الخليل، العين: (صَدَرَ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صَدَرَ).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 7/527، والآلوسي، روح المعاني: 2/310.
(7) الخليل، العين: (محص)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (مَحَصَ).
(8) الجوهري، الصحاح: (محص).
(9) الراغب، المفردات: (محص).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قَلَبَ).
(11) الخليل، العين: (قَلَبَ).
(12) ابن فارس المقاييس: (قَلَبَ).
(13) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قَلَبَ).

الى الأصلِ الثاني أيضًا؛ إذ إنَّ القَلبَ: تحويلُك الشّيءَ عن وجهه، أي: تصريُفه، قال الأحوصُ الأنصاريُّ:

ما سُمّيَ القَلبُ إلّا من تقلُّبِه والرأيُ يُصّرفُ والإنسانُ أطوارُ

والقلبُ: المحضُ الذي لا يشوبُه شيءٌ[1]، وتقليبُ الأمور: تدبيرُها والنَّظرُ فيها، وتقليبُ اللهِ القُلُوبَ والبصائرَ: صرفُها من رأيٍ إلى رأي، ويُعبَّر بالقلب عنِ المعاني التي تختصُّ به منَ الرُّوح والعلمِ والشّجاعةِ وغيرِ ذلك[2]. وجُلُّ ما في القرآن الكريم من كلمة (قلب) وجمعِها هو ما أسندَه القرآنُ إلى القلب من وظائفَ: الفقهِ، والتدبّرِ، والإيمانِ، وضدِّه، وما إلى ذلك[3]، وهو معنى اللّفظةِ في الآية الكريمة، واللّه أعلم.

21) ﴿عَلِيمٌ﴾: العَيْن واللَّام والميْم أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدلّ على أثرٍ بالشَّيء يتميَّزُ به من غيره[4]، وعَلِمَ به: شَعَرَ، والعلمُ نقيضُ الجهل[5]، وعَلِمَهُ: عَرَفَهُ، وخَبَرَهُ[6]، وهو إدراكُ الشَّيء بحقيقتِه[7].

ومن أسمائه جلَّ في صفاته (العليم) وهو: المحيطُ علمُه بجميع الأشياءِ ظاهِرها وباطِنها، دقيقِها وجليلِها، على أتمِّ الإمكان، وهو: فعيلٌ من أبنيةِ المبالغةِ[8]، وكلُّ ما ذُكِرَ مرادٌ في معنى اللّفظة الواردةِ في الآية الكريمةِ، فاللّهُ تعالى أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا ومعرفةً وخبرًا وإدراكًا، وبهذا وبغيره ممّا لا نُدرك تميَّزَ وانفردَ عمَّن خلقَ، فتعالى، وتباركَ، وعزَّ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

ثم كان من رحمةِ اللّه بالمؤمنين المُخلَصين أن ألقَى في قلوبهم اطمئنانًا وأمانًا وثقة في وعد اللّه، وكان من أثره نعاس غَشِيَ طائفة منهم، وهم أهل الإخلاص واليقين، بعد أن أصابتْهم الغُمومُ، وهناك طائفةٌ أخرى منَ الذين اشتركوا في غزوة أُحُدٍ لم تكن صادقةً في

(1) الخليل، العين: (قَلَبَ).
(2) الراغب، المفردات: (قَلَبَ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قَلَبَ).
(4) ابن فارس، المقاييس: (عَلِمَ).
(5) الخليل، العين: (عَلِمَ).
(6) الأزهري، التهذيب: (عَلِمَ).
(7) الراغب، المفردات: (عَلِمَ).
(8) ابن الأثير، النهاية: (عَلِمَ).

تطْييبُ قلوبِ المؤمنين وإظهارُ حالِ المنافقين

إيمانها؛ لأنها لا تهتمُّ لشأن الإسلام انتصر أم انهزم، ولا شأنِ النّبيّ ﷺ وأصحابِه، وإنما همُّها أمرُ نفسِها وما يتعلّقُ بذلك منَ الحصول على التسيّدِ، والغنائمِ، ومُتَعِ الدُّنيا، متطبّعةٌ بقيَمِ الجاهليّةِ، وباثّةٌ عباراتِ الإرجاف بأنهم ليس لهم اختيارٌ في الخروج للقتالِ - تمكّنًا لصفة النِّفاق في نفوسهم - مظهرةٌ غيرَ ما تُبطنُ[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى الإيمان بالقَدَر؛ إذ إنَّ اللّه هو الذي قدَّر خروجكم إلى المعركة وما حدث لكم، وأنَّ الآجال بيد اللّه، ولو كنتم في بيوتكم، وقدَّر اللّه أنكم تموتون، لخرج الذين كتب اللّه عليهم الموت إلى حيث يُقْتَلون، فالأسبابُ - وإن عظمت - إنَّما تنفعُ إذا لم يعارضها قضاءُ اللّهِ، فإذا عارضها القَدَرُ لم تنفع شيئًا[2].

وأنَّ الاطمئنانَ هو سبيلُ التَّدبيرِ المُحكَم، والقلقُ لما كان في الماضي يجعلُ العقلَ مأخوذًا بحوادثِه فلا يفكِّرُ ولا يدبِّر، ولا يتحفَّزُ ويتوثَّبُ للمقاتلة مرَّةً أخرى[3].

وفي الآية وعدٌ ووعيدٌ وتنبيهٌ على أنّ اللّه تعالى غنيٌّ عنِ الابتلاء، وإنما يُبرزُ صورةَ الابتلاء لحِكَم يعلمُها كتمرينِ المؤمنين، أو إظهارِ حالِ المنافقين؛ لكونه تعالى عليمٌ بما في القُلُوبِ الَّتِي في الصُّدُورِ مِنَ الضَّمائِرِ الخَفِيَّةِ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ استعمالِ حرفِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾:

تـأخّـرُ إنـــزالِ النُّعاسِ تنبيهٌ على أنَّه تراخٍ مقصودٌ

الاستهلالُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ تصريحٌ بتأخُّر الإنزالِ وترتّبِه على ما قبْلَه، فالعطفُ بها أمارةُ التّمهّلِ والتّراخي في الزَّمن قدِ امتدَّ بعد أنْ حلَّ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/303 - 304.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 70، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 70.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1459.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 4/98.

بهم ما حلَّ في وقعة أُحُد[1]؛ وذلك لزيادة البيان والتّذكير بعِظَم المِنّة[2]، فـ "لـمّا كانَ أمانُهم بَعْدَ انْخِلاعِ قُلُوبِهِمْ بَعِيدًا؛ ولا سِيَّما بكونهِ بِالنُّعاس؛ الذِي هو أبْعَدُ شيءٍ عن ذلك المقامِ الوَعِرِ؛ والمحَلِّ الضَّنْكِ؛ عَطَفَ بِأداةِ البُعْدِ"[3].

علّةُ التَّعبيرِ عنِ الإغشاء بالإنزال:

الإغشاءُ نُعاسٌ مُـقَـدَّرٌ مـنَ الله لحكمةٍ خاصَّةٍ

سُمِّي الإغشاءُ إنزالًا؛ لأنه لمّا كان نُعاسًا مُقَدَّرًا منَ اللّه لحكمةٍ خاصَّة، كان كالنّازل منَ العوالمِ المُشرفةِ كما يقال: نزلتِ السَّكينةُ[4]، وكلمةُ ﴿أَنزَلَ﴾ تدلُّ على أنّ هذا عطاءٌ عُلويٌّ ليس له شأنٌ بالأسباب الماديةِ ولا بالقوانينِ البشرية[5].

وجوهُ الاستعاراتِ في لفظِ الإنزال:

وجهُ التَّصريحيةِ التَّبَعيةِ تفخيمُ شأنِ النُّعاس

ونسبةُ الإنْزالِ مَجازٌ؛ لأنَّ حقيقتَهُ في الأجْرام[6]، فهو استعارةٌ تصريحيةٌ تبعيةٌ، شبَّه فيها مِنَّته عليهم نعاسًا بالإنزال من عند اللّه، والجامعُ بين طَرفَي الاستعارة كمالُ الرّعاية، وحسنُ التّدبير، وسرُّها البلاغيُّ تفخيمُ شأن النُّعاس بجعلِه منزَّلًا من عند اللّه.

وجـهُ المكـنـيَّـةِ التّثبيتُ والهدايةُ

وهو استعارةٌ بالكناية، شبَّه فيها النُّعاسَ المفعمَ بالرّاحة وتثبيتِ القُلُوب بالوحيِ النّازلِ منَ السَّماء لهداية العباد، ثم حذفَ المشبَّهَ به، ورمز له بما يدلُّ عليه، وهو الإنزالُ. وكأنَّ هذا النُّعاس قد شفى نفوسَهم من حسْرةِ النَّكْسَة فأشبه التّنزيلَ الشّافيَ منَ الجهل والكُفر والعصيان، وإثباتُ الإنزال عاملًا في النُّعاس استعارةٌ تخييليةٌ هي قرينةُ المَكنيةِ[7].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/100.
(2) الصافي، الجدول: 4/345.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 2/269.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/133.
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 3/1822.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 3/92.
(7) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/191.

علّةُ التَّعبير بالإنزال دونَ غيرِه:

التَّعبيرُ بالإنزال يـوحـي بـأنَّ النُّعاسَ نزل مرَّةً واحدةً

يذهبُ الرّاغبُ الى التَّفريق بين الإنزال والتّنزيلِ في وصفِ القرآنِ والملائكةِ؛ فيرى أنَّ التّنزيلَ يختصُّ بالموضع الذي يُشير إليه إنزالُه مفرّقًا، ومرةً بعد أخرى، والإنزالُ عامٌّ يُطلقُ على ما أُنزلَ دفعةً واحدةً[1]، وعليه فيصحُّ القولُ: إنّ إطلاقَ الإنزالِ على الأَمنةِ نُعاسًا كان مرّةً واحدةً غيرَ متقطّعٍ، وقراءةَ (أَمْنَةً) بمعنى مرّة واحدة تعزّزُ هذا التّوجيهَ، وعليه فيُفهم أنَّ إنزالَ النُّعاسِ مرَّةً واحدةً كان كافيًا في أداءِ المقصودِ، وهو ما يُصوِّر عظيمَ الأمر وسرعتَه، وهو ما يتناسب مع المقام.

التَّعبيرُ بحرفِ الاستعلاءِ يدلّ على تَجلُّلِ النُّعاسِ وغَلَبَتِهِ:

واستعمال ﴿عَلَيۡكُم﴾ "يَدُلُّ على تَجلُّلِ النُّعاس واسْتِعْلائِه وغَلَبَتِهِ"[2]، وأفادَ به عَظَمَةَ الأَمْنِ[3]. وفيه مزيدُ إظْهارٍ لأثَرِ سُلطانِ النُّعاس المُنَزَّل عليهِم أَمَنَةً تُذْهِبُ الخَوْفِ، والحَزَن، واللّه أعلم.

سرُّ الاعتراضِ بجملةِ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ﴾:

رحمةُ الله تُدركُ العبادَ من بعد الغمِّ

الاعتراضُ في قولِه تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ﴾ أفادَ زيادةَ البيانِ، والتّذكيرَ بعِظَم النِّعمةِ، أي: الغمُّ المذْكورُ، وفي ذلك تعزيزٌ لِمُعطى التَّمُّهلِ الذي أفادَتْه ﴿ثُمَّ﴾، زيادةً في البيانِ وتذكيرًا بعِظَم النِّعمةِ كما في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾ [النحل: 119][4]، وفي ذلك بيانٌ لرحمة اللّه تعالى بعبادِه، فقد أدركهم برحمته من بعد ما أصابهم الغمُّ، والنُّعاسُ علاجٌ طبيعيٌّ يُزيل أعتى الهمومِ، ويدفع أشدَّ الغموم.

(1) الراغب، المفردات: (نزل).
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/92.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 2/269.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/100.

معنى تعريفِ الغَمّ:

أل في ﴿ٱلۡغَمِّ﴾ نائبةٌ عن ضمير المخاطَبين، وهم المؤمنون حقًّا[1]، أي: (غمّكم).

توجيه المخصوصِ بالذِّكرِ:

زوالُ الخوفِ بالنُّعاسِ من أعظمِ مِنَ العلاجِ النَّفسيّ

خصَّصتِ الآيةُ ذكرَ الخوفِ المفهوم من مقابلِه وهو الأمنة، بالإزالة من بين فنونِ الغمِّ؛ لأنَّ الخوفَ أحدُ جناحي البلاءِ في هذه الحياةِ، وهو ترقُّبُ وقوعِ الأذى في المستقبلِ، وهو ما يمنع الإنسانَ من النَّومِ، فكان إنزالُ النُّعاسِ دافعًا للبلاءِ، والمشركون لمّا انصرفوا كانوا يتوّعدون المسلمين بالرجوع، فلم يأمنوهم، وكانوا متأهِّبين للقتال، فأنزل الله تعالى عليهم الأمنةَ فأخَذَهُم النُّعاسُ[2].

سرُّ الجمعِ بين لَفظَي الأمَنَةِ والنُّعاسِ:

الأمنةُ قيّدتِ النُّعاسَ بالنَّومِ الخفيفِ الذي يُحقِّقُ المقاصدَ

جمعتِ الآيةُ بين الأمنة والنُّعاس، إذِ الأمَنَةُ هي: الأمنُ، والنُّعاسُ هو: النَّوْمُ الخفيف أو أوّلُ النَّوم، وهو يُزيلُ التَّعبَ ولا يغيِّبُ صاحبَهُ، فلذلك كان أَمَنَةً؛ إذ لو ناموا نومًا ثقيلًا لأُخِذُوا، وقد استجدُّوا بذلك نشاطَهم، ونَسُوا حُزْنَهُمْ؛ لأنَّ الحُزن تبتدئُ خفَّتُهُ بعد أوّل نوْمَةٍ تُعَفيه، كما هو مُشاهَدٌ في أحزان الموت وغيرها[3]، وهذا سرُّ الجمعِ بين هذين اللّفظين، فلو قال: أمنةً لكان الكلام مبهمًا غير معروفِ السَّببِ، ولو قال: نعاسًا لفُهم أنّه نومٌ عميق، وهو غير مراد، فباجتماعِ هذين اللَّفظين فهمنا أنَّ المراد هو النُّعاسُ الخفيف الذي يُزيلُ الخوفَ ولا يأتي بالبلاءِ الأشدِّ.

علّةُ تقديمِ الظّرفَين على المفعولِ الصّريحِ:

وقدَّمَ الظّرفَيْن ﴿عَلَيۡكُم﴾، و﴿بَعۡدِ﴾ على المفعول ﴿أَمَنَةً﴾

---

(1) الجلالان، المفصّل، (هامش المحقق)، ص: 234.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/100 - 101.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/133.

للاعتناء بشأن المُقدَّمِ المُخصَّص بالغمِّ، والتَّشويقِ إلى المفعول المؤخَّر[1].

بَلاغةُ تقديمِ ما هو بمنزلةِ الصّفةِ على الموصوفِ:

تقديمُ الأمنةِ؛ لأنّها عِلّةُ الإنزالِ، وغايةُ النُّعاسِ

الأصلُ أن يُقدّمَ بدلُ الاشتمال ﴿نُّعَاسًا﴾ ويؤخَّرَ ﴿أَمَنَةً﴾: لأنَّ ﴿أَمَنَةً﴾ بمنزلة الصّفةِ أو المفعول لأجله فحقُّه التّقديمُ على المفعول كما جاء في قوله: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾ [الأنفال: 11] ولكنّه قدّمَ الأمنةَ هنا وجعله المفعولَ؛ تشريفًا لشأنها؛ لأنَّها جُعِلَت كالمُنْزَلِ منَ اللّه لنصرهِم، فهو كالسَّكِينةِ[2]، فهي عِلّةُ الإنزالِ، وغايةُ النُّعاسِ، وفيه إسراعٌ بالمسرَّةِ للمُخاطَبين، والبشارةِ لهم حتى مع قُصورِهم[3].

توجيهُ المُتشابهِ اللّفظيِّ:

تقديمُ الأمنةِ وتأخيرُ ذكرِها بحسبِ المقامِ

أنزلَ سبحانه وتعالى الأَمَنَةَ في غزوة أُحُدٍ بعد الغمِّ الذي غمرَ النُّفوسَ بالألم، وكان مظهرُها نعاسًا اطمأنّتْ فيه النّفوسُ، واسترختِ الأعضاءُ واستسلمتْ لمقاديرِ اللّه تعالى وإرادتِه في خلْقِه ونصرِه دينَه، مُطّرحين الماضي مُكتفِين منه بالعِبرة، ومُتّخذين منه نورًا يُضيءُ المستقبل بعد ما أصابَهم من فزعٍ وهلعٍ واضطرابٍ، فتقديمُ الأمنِ أنسبُ لحالِ الخوفِ، والاضطرابِ، في حين قدَّم النُّعاسَ على الأمنِ في سياقِ غزوة بدْرٍ، فقال تعالى: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ١١﴾ [الأنفال: 11][4]، وهي موقعةُ نَصْرٍ وتمكينٍ وقرعٍ على رؤوس الكافرين، وهذا التَّمكينُ منافٍ للخوف فأخَّرَ الأمنةَ لذلك، واللّه أعلم.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/100 - 101.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/133.

(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/191.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1460.

نُكتةُ الاستعارةِ في الفعل ﴿يَغۡشَىٰ﴾:

تشبيهُ النُّعاسِ في حمايتِهم بالثّوبِ السّاتِرِ

وفي ﴿يَغۡشَىٰ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ شبَّه فيها النُّعاسَ في حمايتهم من القلق والتحسُّر، وتجميلِهم بالثَّبات والطُّمأنينة بالثُّوب الذي يسترُ لابسَه ويُجمِّلُه في أعينِ الآخرين[1].

توجيه القراءات القرآنيَّة للفعلِ ﴿يَغۡشَىٰ﴾:

التَّذكيرُ عائدٌ على النُّعاسِ، والتأنيثُ عائدٌ على الأَمَنةِ

قرأ حمزة والكسائي وخلف (تغشى) بالتَّاءِ، ووجهُها أنّ الأمنةَ هي المقصودةُ، وحصولُ النُّعاس كان بسببِها، فالفعل عاد عليها، وقرأ الجمهورُ: ﴿يَغۡشَىٰ﴾ بالياء[2] على أنّ الضميرَ عائدٌ إلى النعاس[3]، أي: أنّ الأمنةَ هي المقصودةُ، وحصولُ النُّعاس بسببها؛ لأنَّ الخائفَ لا يكاد ينعسُ[4].

بيانُ الفرقِ بين الطّائفتَين بالواو، وباختلافِ الوصْفَين، وحُكمَيْهما الإعرابيِّ:

اتّحادُ التَّسميةِ بالطَّائفةِ لا يعني الاتِّحادَ بالصِّفاتِ

قوله: ﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ بعد قوله: ﴿يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ انتقالٌ من وصْفِ حال طائفةِ المؤمنين، الى ذكْرِ حالِ طائفةِ المنافقين، وقطعَ حكمَ الطَّائفةِ الثانيةِ عن حُكمِ الطَّائفةِ الأولى في اللّفظ والمعنى إشارةً إلى تفاوُتِ الطائفتين في المنزلةِ عند اللّه بالواو التي تقتضي المغايرةَ، وبوصفِ الطائفةِ المؤمنةِ بالجارِّ والمجرور ﴿مِّنكُمۡۖ﴾، أي: منَ المؤمنين، و(من) بيانيَّة لا تبعيضيَّةٌ، وعدَلَ عن وصف الطائفةِ الثانيةِ بهما الى بيان حالهم بقوله: ﴿قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾[5]، وباختلافِ اللّفظين في حُكمِ الإعراب، فالأُولى منصوبةٌ؛ لأنها مفعولٌ به لـ ﴿يَغۡشَىٰ﴾ والثانيةُ مرفوعةٌ على الاستئناف، وتبع هذا الحكمَ اللّفظيَّ

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/191.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/242.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 7/315 - 316.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/394.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/134.

حكمٌ معنويٌّ: هو أنَّ الطَّائفةَ الأولى هي التي أنزل الله النُّعاس الآمِنَ من أجلِها فنَعِمتْ به، أما الثانيةُ فقد حُرِمت منه[1].

توجيهُ عطفِ الطَّائفةِ على الطَّائفة:

الأمـــنُ حليفُ المـــؤمـــنـــين، والخوفُ لصيقُ المنافقين

الواو في ﴿وَطَآيِفَةٌ﴾ للعطف، أي: طائفةٌ قد أهمَّتهُم أنفسُهم يظنّون بالله غيرَ الحقِّ، لم يغْشَهم النُّعاسُ، وهو من عطف الجُمل بعضِها على بعض، وفائدةُ عطفِ الجُملة الاسميةِ على الفعليةِ: الإيذانُ بحدوثِ الأمنِ للطائفةِ الأولى، واستمرارِ الخوفِ على الطائفةِ الثانية[2]، ففي إلقاءِ النُّعاسِ على المؤمنين دون المنافقين آيةٌ عظيمةٌ ومعجزةٌ باهرةٌ؛ لأنّ النُّعاسَ كان سببَ أمنِ المؤمنين، وعدمَ النُّعاسِ كان سببَ خوفِهم المنافقين[3].

نكتةُ تصديرِ الفعلِ بالهمزة:

المبالغةُ في إظهارِ مرضِ النّفوسِ، وشدّةِ نفاقِها

الهمزة في ﴿أَهَمَّتْهُمْ﴾ مزيدةٌ للمبالغة، أي: حملتْهم أنفُسُهم على دواعِي الهمِّ وصيَّرتْ أنفسَهم مبلَغَ همِّهم، وهو أدْعى لإظهار مرضِ هذه النّفوسِ، وشدّةِ نفاقهم، والله أعلم؛ إذْ لا يهُمّهم شأنُ الإسلام، أنتصر أم انهزم، ولا شأنُ النّبيّ ﷺ وصحابتِه.

أو أنَّهم أوقعُوا أنفسَهم في الهمّ والحُزن بعدم اطمئنانِهم وعدمِ صبرِهم وعدمِ رضاهم بقدَرِ الله وجزَعِهم المُستمرِّ[4]، وإذ كانوا كذلك كانت نفوسُهم في اضطرابٍ وتحرّقٍ يمنعُهم منَ الاطمئنانِ ومنَ المنام.

أو أدخلتْ عليهم الهمَّ بالكُفر والارتدادِ[5].

بَلاغةُ التّشبيهِ في التَّعبيرِ عنِ الظَّنِّ:

شبَّه ظنَّهم بالله غيرَ الحقِّ بظنِّ الجاهليةِ، وبحذْفِ أداةِ التَّشبيهِ

---

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/191.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 4/309.
(3) الخازن، لباب التأويل: 1/309.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1461.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/134.

تكونُ الجملةُ أقوى من جهةِ أنَّ المشبَّه أصبح هو المشبَّهُ به في كلِّ الصفاتِ فلا تفاضلَ بينهم، وعليه يكونُ المعنى: يظنّون أنَّ النّبيّ ﷺ لم يصدُقْهم فيما أخبرهم به كما ظنّ الجاهلية، تنبيهًا أنَّ هؤلاء المنافقين هم في حيِّزِ الكفّار[1].

التَّشبيهُ للتَّنبيهِ على أنَّ المنافقين في حَيِّزِ الكفّار

جمالُ الجناسِ الاشتقاقيِّ:

في قولِه ﴿يَظُنُّونَ﴾، و﴿ظَنَّ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ[2]، أكسب التَّعبيرَ جمالًا وحُسنًا، بحُلوِ النّغمة، واتّحادِ الجرسِ، وتناسقِ الإيقاع، وأحدثَ ميلًا للّنفس نحو التّشوُّقِ والإصغاءِ لطبيعة الظنّ، وكيفيتِه، والله أعلم.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿يُخۡفُونَ﴾:

مناسبةُ لفظِ الفعلِ لمعناه، وكشفٌ عن استمرارِهم بمُزاولتِه

لفظ ﴿يُخۡفُونَ﴾ فيه إعلالٌ بالحذف، أصلُه (يُخْفِيوْنَ) حذفتِ الياءُ بعد تسكينِها لالتقائها مع الواو الساكنةِ، وهو يوحي بلطيفة وهي: مناسبةُ معنى الإخفاء في اللّغة من سترٍ، ومواراةٍ، وفيه وجهُ تعريضٍ بهم في كونِهم لم يُخلصوا في عقائدِهم، وأضمروا خلافَ ما أظهروا، وأعلنُوا غيرَ ما ستَرُوا[3]، نفاقًا وبغضًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ: ﴿يُخۡفُونَ﴾:

والتَّعبير بالمضارع دلالةٌ على تجدُّدِ ما يُخفون في نفوسهم، وهو أدلُّ على شنيع فعلِتهم وقصْديتِهم فيه، والله أعلم.

سرَّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ بعد ﴿يُخۡفُونَ﴾:

دفعُ توهُّمِ أنّ الإسرارَ في غير النَّفسِ

من المعلوم أنَّ الخفاءَ يكونُ في النَّفسِ؛ فإنَّ التَّصريحَ به بلفظ: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ جاء لدَفْعِ اعتبارِ أنَّ الإخفاءَ قد حصل بين رجلَيْن منهم يُسِرُّ أحدُهما إلى الآخر حديثًا، فهو تأكيدٌ بأنّه حديثُ النفس[4]، وهو

(1) الراغب، المفردات: 2/54.

(2) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/202.

(3) القشيري، لطائف الإشارات: 1/288.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/431.

أدْعى للنّفاق هنا؛ إذ يُخفون ما لا يُبدون ممّا تُحيكه الصُّدور؛ لكونِ أنفسِهم بكُلّيتها مُستودعًا لها مع أنَّ محلَّ إخفاء النوايا الصُّدورُ، والقُلُوبُ؛ فبدأ بالأعمّ وخصَّص من ثَمَّ، والله أعلم.

دلالةُ التَّعريضِ في ظنِّ الكافرين:

إشـارةٌ إلـى أنّ المـنـافـقـين لم يُخْلِصوا الدِّينَ لله

ومعنى ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: ظنُّوا بالله ظنونًا باطلةً من أوهام الجاهليةِ، وفي هذا تعريضٌ بأنّهم لم يزالُوا على جاهليتِهم لم يُخلصوا الدِّينَ لله، وقد بيَّن بعضَ ما لهم منَ الظنّ بقوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٍۗ﴾[1].

دَلالةُ إضافةِ ﴿غَيۡرَ﴾ إلى ﴿ٱلۡحَقِّ﴾:

ظـنُّ المنافقين نابعٌ من الباطلِ ودائرٌ حولَه

و﴿غَيۡرَ﴾ لفظٌ مُوغلٌ في التَّنكيرِ، لبيانِ النّوعِ، والتّوكيدِ، وإضافتُه توكيدٌ للفعل يظنّ أيضًا[2]، و﴿ٱلۡحَقِّ﴾ مفعولٌ مطلق وصف لمصدر محذوف، والمعنى: يظنُّون ويتوهّمون بالله ظنًّا باطلًا، وقد بّين سبحانه وتعالى ذلك الظنَّ غيرَ الحقِّ والذي لَا ينبغي أن يُظنَّ بالله تعالى، بطريق عطفِ البيان، أو البدلِ المُبين فقال: ﴿ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾، وشأنُ أهلِ الجاهلية أن يَطرحوا عن أنفسِهم التَّبعاتِ، ويدَّعوا ألّا مسؤوليةَ عليهم، وأنَّ الأمرَ للمقادير وحدها إذ كانتِ النتيجةُ على غير ما يَبغون[3]، وانتصب قولُه: ظنّ الجاهليةِ على المصدر المُبيِّن للنّوع إذ كلُّ أحدٍ يعرفُ عقائدَ الجاهليةِ إن كان مُتلبِّسًا بها أو تاركًا لها[4].

التـخـلـيـطُ في معرفةِ صفاتِ الـلـه هـو ظـنٌّ باطلٌ

وإنّما كان هذا الظنُّ غيرَ الحق؛ لأنه تخليطٌ في معرفةِ صفاتِ الله وصفاتِ رسولِه وما يجوزُ وما يستحيلُ، فإنّ لله أمرًا وهديًا وله قدَرٌ وتيسيرٌ، وكذلك لرسوله الدَّعوةُ والتَّشريعُ وبذلُ الجُهد في تأييد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/135.
(2) الجلالان، المفصل (هامش المحقق: 3)، ص: 234.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1462.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/136.

الدِّين وهو في ذلك معصومٌ، وليس معصومًا من جَرَيان الأسباب الدُّنيويةِ عليه، ومن أنْ يكونَ الحربُ بينه وبين عدوِّه سِجالًا[1].

لفظُ الجاهليّةِ من مُبتكَرات القرآنِ المستعملة في سياقِ الذّمِّ

غرضُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾:

معنى ظنِّ الجاهلية، أي: الظنُّ المختصُّ بالمِلّةِ الجاهليةِ، ويجوزُ أن يرادَ ظنُّ أهلِ الجاهلية، أي: لا يظنُّ مثلَ ذلك الظنِّ إلا أهلُ الشِّركِ الجاهلون باللّٰه[2]، الذين يتظاهرون بالإيمان ولم يدخلْ قلوبَهم فبقيت معارفُهم كما هي من عهدِ الجاهليةِ، فلفظُ الجاهليةِ من مُبتكَرات القرآنِ، وصف به أهلَ الشِّرك تنفيرًا منَ الجَهل، وترغيبًا في العلم، ولذلك يذكرُه القرآنُ في مقامات الذّمِّ في نحو قولِه: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ﴾ [المائدة: 50] وقولِه: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ [الأحزاب: 33][3].

الاستفهامُ الإنكاريُّ كاشفٌ عن مضامين النُّفوسِ وخفيَّاتِها

بَلاغةُ الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾، إمَّا أن يُحملَ على معنى المجازِ أو الحقيقةِ، فمعناه على المجاز: أن تكون ﴿هَل﴾ للاستفهام الإنكاريِّ، وهو بمعنى النَّفيِ المطلقِ الشاملِ، بقرينةِ زيادةِ ﴿مِنَ﴾ قبْلَ النَّكرة، وهي من خصائص النَّفيِ، وهو تبرئةٌ لأنفسِهم من أنْ يكونوا سببًا في مقابلة العدوّ، حتى نشأ عنه ما نشأ، وتعريضٌ بأنَّ الخروجَ للقتال يومَ أُحُد خطأ وغرورٌ، ويظنّون أنَّ محمدًا ﷺ ليس برسول إذ لو كان رسولًا لكان مؤيَّدًا بالنّصر[4]، أي: ليس لنا منَ النَّصر والظّفَرِ شيءٌ كما وُعِدْنَا، بل هو للمشركين يقولون ذلك على جهةِ تكذيبِ النّبيّ ﷺ في ادِّعاء النُّصرةِ والعِصْمةِ منَ اللّه تعالى لأمَّته[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/135.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/428.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/136.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/135.
(5) الواحدي، التفسير الوسيط: 1/507، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/395.

المنافقُ دائمُ التَّخلُّصِ من التُّهمِ خوفًا ناشئًا عن ذُعرٍ

وفيه تنصّلٌ من كونِهم سببًا في الهزيمةِ؛ فهم يُلقون عن أنفسِهم كلَّ تَبعةٍ وكلَّ مسؤولية فالأمرُ كلُّه للّه تعالى، فأمرُ النّصر والهزيمةِ بيده، وقد وعدَنا بالنّصر ولم ننتصرْ، وهو ظنٌّ جاهليٌّ؛ لأنَّ الجاهليَّ إذا انتصر فرح وأشرَ وبَطِرَ، وأصابتْه عزّةُ النصر، وإن أصابتْهُ كارثةٌ حسبَها منَ المقادير مُلقيًا عن نفسه كلَّ تبعةٍ[1].

دَلالةُ الاستفهام الحقيقيِّ:

طلبُ الإمارة أَمارةٌ على سوءِ الطَّلب

وقد يكون الاستفهامُ على حقيقتِه ومعناه: طلبُ الإمارة، وتوطئةٌ للحصول على نصيبٍ منَ السُّلطة واتّخاذِ القرار، والمعنى: هل لنا من أمرٍ يُطاعُ؟[2]، فالأمر بمعنى السِّيادةِ الذي منه الإمارةُ، ومنه أولُو الأمر[3]، وعليه يكونُ الاستفهامُ حقيقيًّا، قائلُه: المنافقون، والمرادُ به التّوطئةُ للحصول على نصيبٍ منَ السلطة واتّخاذِ القرارِ[4].

وجهُ التَّعريضِ في جملةِ الاستفهام:

المنافقون متحيِّرون لا يجزمون بشيءٍ خوفًا من التُّهمة

وفي الإشارةِ إلى المنافقين في قولِه تعالى: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖ﴾ تعريضٌ بأنّهم "يَتحيّرون في أمرهم فلا إقبالَ لهم على الصّواب بالحقيقةِ، ولا إعراضَ بالكُلّيةِ، يُحيلون فَترتَهم على سُوء اختيارِهم، ويُضيفون صفوةً لو كانت لقلوبِهم إلى اجتهادِهم، ويَنسَون ربَّهم في الحالَيْن، فلا يُبصرون تقديرَ الحقّ سبحانه"[5].

بَلاغةُ حشدِ المؤكِّدات:

في جماع المؤكِّدات تقويةٌ لبلاغةِ الجوابِ

ولمّا أكَّد في كلامهم بزيادةِ ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن شَيۡءٖ﴾، جاء الكلامُ في قولِه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ مؤكِّدًا الخبرَ بـ (إنَّ)، ثم اسميّةِ الجملةِ، ثم بُولغ في توكيد العُموم بلفظ (كلّ)؛ لأنّ التأكيدَ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1462.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/395.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/135.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للقرآن: 1/190.
(5) القشيري، لطائف الإشارات: 1/288.

أملكُ بلفظها، فكان الجوابُ أبلغَ[1]؛ لأنه ردٌّ على المنافقين في توهّمِهم أنَّ لهم من أمر الدّولةِ والدّعوةِ شيئًا[2].

سرُّ عدمِ تكرارِ حرفِ الجرِّ (من):

ذكرُ الجارِّ إشارةٌ إلى نفاقِهم، وحذفُه إشارةٌ إلى حقيقتِهم

ذكرُ ﴿مِن﴾ في قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٍۗ﴾ وعدمُ ذكرِها في قولهم: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾؛ لأن الأول خطابٌ منهم لصاحب الرّسالة أن يجعل لهم منَ السّلطة نصيبًا ولو كان تافهًا فدلُّوا على هذا بالحرف ﴿مِن﴾؛ توددًا واحتيالًا ليستميلُوا مشاعرَ صاحبِ الدَّعوةِ إلى استجابةِ مطالبِهم، ولم يذكرُوها في الثاني؛ لأنه حديثٌ جرى بينهم ولم يُطلعوا عليه أحدًا غيرَهم، فظهرُوا على حقيقتِهم، وذلك دأبُهم وعادتُهم: مكرٌ، ودهاءٌ أمام المؤمنين، واستعلاءٌ، وإظهارٌ إذا خلَوْا إلى بعضهم[3]، فعند ذكر حرف الجرِّ كانوا متظاهرين بالتَّواضعِ، وعند حذفِه كانوا كاشفين عن حقيقتهم.

بلاغةُ الكنايةِ والتَّعريضِ:

لمزُ القائلين بالخروجِ إلى أُحدٍ الذي كان سببًا في قَتْلِ من قُتِل

ومعنى ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا﴾، أي: من شأن الخُروجِ إلى القتال، أو من أمرِ تدبيرِ النّاس شيءٌ، أي: رأيٌ ما قُتلنا هاهنا، أي: ما قُتل قومُنا، وليس المرادُ انتفاءَ القَتْل مع الخروج إلى القتال في أُحُد، بل المرادُ انتفاءُ الخروج إلى أُحُد الذي كان سببًا في قتْل من قُتل، كما تدلُّ عليه قرينةُ الإشارةِ بقوله: ﴿هَٰهُنَاۗ﴾، فالكلامُ كنايةٌ[4].

الوجهُ التَّعريضُ بالنّبيِّ ومن أشارَ بالخروج منَ المؤمنين، وهذا

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/94 - 96.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/191.

(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/192.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/135.

القول قاله عبد اللّه بن أُبي ابن سلول لما أخبروه بمن استُشهد منَ الخزرج يومئذٍ، وهذا تتصّلٌ من أسباب الحربِ وتعريضٌ بالنّبيِّ ومن أشار بالخروج منَ المؤمنين الذين رغبُوا في إحدى الحُسنيَيْن(1).

حجةُ المنافقين دليلٌ على عدمِ إيمانِهم

توجيهُ القراءاتِ في جملةِ الاعتراضِ:

وجملةُ ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ ردُّ هذا العُذرِ الباطلِ عليهم، أي: أنَّ اللّه ورسولَه غيرُ محتاجَيْن إلى أمركم، والجملةُ معترضةٌ، وقرأ الجمهور: كلَّه - بالنصب - تأكيدًا لاسم إنّ، وقرأه أبو عمرو، ويعقوب - بالرفع - على نية الابتداء، والجملةُ خبرُ إنّ(2).

إبطالُ قولِ المنافقين، وتعليمُ المؤمنين

فائدةُ تعليمِ الجوابِ:

لَقَّنَ اللّهُ رسولَه ﷺ قولَه: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ جوابًا عن قولِهم: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾. والجوابُ إبطالٌ لقولهم، وتعليمٌ للمؤمنين لدفع ما عسى أن يقعَ في نفوسهم من الرَّيْب، إذا سمعوا كلامَ المنافقين، أو هو جوابٌ للمنافقين ويحصلُ به علمٌ للمؤمنين(3).

بيانُ الفصلِ لوقوعِه في سياقِ القول

سرُّ الفصلِ في جوابِ المنافقين:

فُصلتِ الجملةُ جريًا على حكاية المقاولةِ، وهذا الجوابُ جارٍ على الحقيقةِ وهي جريانُ الأشياءِ على قدَرٍ منَ اللّه والتَّسليمِ لذلك بعد استفراغِ الجُهدِ في مصادفةِ المأمول(4).

الالتفاتُ تنبيهٌ على عِظَمِ حدَثِ الابتلاءِ، اختبارًا وتمحيصًا

براعةُ الالتفاتِ في مختتَمِ الآيةِ:

وفي قوله تعالى: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾ التفاتٌ منَ الحديث عنِ المنافقين إلى مخاطبةِ المؤمنين(5)، تنبيهًا على عِظَمِ الحدثِ، بوصفه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/135.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/137.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/138.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/138.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/192.

اختبارًا وتمحيصًا يستدعِي حسنَ الظّنِّ، وعدمَ التأثّر بحديث المنافقين.

نكتةُ الاستعارةِ في لفظِ المَضاجِع:

مشابهةُ الموتِ للنَّومِ من حيثُ عدمُ الإحساسِ

حقيقةُ الضُّجوع هو وضعُ الجنْبِ للنّوم والرّاحةِ، وأُطلقَ هنا على مصارع القَتْلى على سبيل الاستعارةِ التّصريحيةِ التّبعيةِ، شبَّه فيها مكانَ الموت والقَتْل بمكان النّوم، والجامعُ بين طرفَي الاستعارة عدمُ الإحساسِ والحركةِ في كلٍّ منهما[1].

في الاستعارة مشاكلةٌ تقديريةٌ

وحسَّنَ الاستعارةَ أنَّ الشّهداء أحياءٌ، فهو استعارةٌ أو مشاكلةٌ تقديريةٌ؛ لأنّ قولّهم: ﴿مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾ يتضمن معنى أنَّ الشُّهداء كانوا يَبقُون في بيوتهم مُتمتِّعين بفُرُشِهم.

توجيهُ الكنايةِ في ابتلاءِ الصُّدورِ:

الكنايةُ لبيانِ الأثرِ المترتِّبِ عليه، وإظهارِه

والصُّدورُ هنا بمعنى الضّمائرِ، والابتلاءُ: الاختبارُ، وهو هنا كنايةٌ عن أثرِه، وهو إظهارُه للناس ليتميّزَ قويُّ الإيمان من ضعيفِه، والحُجّةُ على أصحاب تلك الضَّمائرِ بقرينةِ قولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كما تقدَّم في قولِه تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران: 140][2].

وجهُ الاستعارةِ في لفظِ التَّمحيصِ:

التَّمحيصُ تطهيرٌ تجدُّديٌّ لقلوبِ المؤمنين

التَّمحيصُ تخليصُ الشَّيءِ مما يخالطُه ممّا فيه عيبٌ له فهو كالتّزكية، والقُلُوبُ هنا بمعنى العقائد، ومعنى تمحيصِ ما في قلوبهم تطهيرُها مما يخامرُها منَ الرَّيبِ حين سماعِ شُبَهِ المنافقين التي يبثُّونَها بينهم[3]، ووجهُ الاستعارة فيه أنّ التَّمحيصَ: تنقيةُ الذّهبِ منَ الشّوائب؛ لتطهير القُلُوبِ منَ الرَّيب والزَّيْغِ، والجامعُ هو الصّفاءُ من كلّ شيءٍ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/138، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/192.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/139، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 2/307.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/139.

(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/192.

علّةُ إطلاقِ الصُّدور على الضّمائرِ، والقُلُوبِ على الاعتقادِ:

الـصّـدرُ موضعُ الإحـــســـاسِ، والقلبُ موضعُ الاعتقادِ

أُطلِقَت الصُّدورُ على الضّمائر؛ لأنّ الصّدرَ في كلام العرب يُطلقُ على الإحساس الباطنيِّ، وأطلقَ القلبُ على الاعتقاد؛ لأنّ القلبَ في لسان العرب هو ما به يحصلُ التَّفكرُ والاعتقاد، فيقال: اعتقد بقلبه، ولا تكادُ تسمعُهم يقولون: اعتقد بصدره أو آمن بصدره[1].

حسنُ ائتلافِ فعْلِ الابتلاءِ للصّدور، وفعْلِ التَّمحيصِ للقلوبِ:

وجْـــهُ حُـسْـنِ الائتلاف مناسبةُ الـعـامِّ لـلأعـمِّ، والـــخـــاصّ للأخصِّ

الابتلاءُ هو الاختيارُ، فهو إشارةٌ إلى كمال تعلُّقِ علمِ اللّه تعالى، فإذا كان علمُه عامَّ التّعلُّقِ ناسبَ أن يُسند لك الأعَّم، وهو الصدرُ، وأمّا التَّمحيصُ فهو تخليصُ شيءٍ بشيءٍ وتصفيتُه، فالمناسبُ تعلّقُه بالمعنى المقصودِ منَ الإنسان، وهو القلبُ كما في حديث "ألا وإنّ في الجسد مضغةً إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ"[2].

الأوّل: اختبارُ الأخلاق والضّمائرِ، والثاني: تمحيصُ الظُّنون والعقائدِ، وعُدِّيَ إلى الصُّدورِ فعلُ الابتلاء؛ لأنه اختبارُ الأخلاق والضّمائر: ما فيها من خيرٍ وشرٍّ، وليتميّز ما في النّفس، وعُدّيَ إلى القُلُوب فعلُ التَّمحيصِ؛ لأنّ الظنونَ والعقائدَ محتاجةٌ إلى التَّمحيص لتكون مصدرَ كلِّ خيرٍ[3].

غرضُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ الإشعارُ بعلّيّة الحُكم، وتأكيدٌ للاستقلال:

إظهار اسم اللّه الأعظم الَّذي لَهُ الإحاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ للإشعارِ بعلِّيَّة الحُكم وتأكيدِ استقلالِ الجُملة[4].

جماعُ المؤكّداتِ في فاصلةِ الآيةِ:

أكّد سبحانه وتعالى علمَه بخفايا النُّفوس في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/97، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/139.
(2) صحيح البخاري، الحديث رقم: (52).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/139.
(4) الخلوتي، روح البيان: 10/7.

حشدُ المؤكِّدات لترسيخ علمِه بمكنوناتِ النّفوسِ

﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، بثلاثةِ تأكيداتٍ: التَّعبيرُ بالجُملة الاسميةِ، والتَّعبيرُ بوصفِ ﴿عَلِيمٌۢ﴾، فهو يعلمُ صغائرَ الأمور وجليلَها، ولا يعزبُ عن علمه مثقالُ ذرّةٍ في السّماوات ولا في الأرض، والتَّعبيرُ بـ ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، فهذا من قَبيل ما يُشبه التّأكيدَ المعنويَّ، فمعناه يعلمُ الصُّدورَ ذاتَها، فلا يقتصر علمُه على ما في الوعاء، بل يعلمُ الوعاءَ ذاتَه[1].

التَّعبيرُ بلفظ (ذات)؛ لتحقيقِ التَّرقّي مِنَ الأظهر إلى الأخفى

وإنّما قيل لها: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وصاحبتِها - فضلًا عما ذُكِرَ من دَلالة التّوكيد - لملابستِها لها وكونِها مخزونةً فيها، ففي الآية ترقٍّ منَ الأظهر إلى الأخفى؛ لأنّه عالمٌ بما في السّموات وما في الأرض وبما يصدرُ من بنى آدم سرًّا وعلنًا وبما لم يصدرْ بعدُ، بل هو مكنونٌ في الصُّدور[2]، فلشدّةِ تمكُّنِها منَ الصُّدور جُعلتْ كأنها مالكةٌ لها[3].

جملةُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بين الاعتراضِ، والحاليةِ:

الاعتراضُ للتّنبيهِ، والحاليةُ وعدٌ ووعيدٌ

الجُملة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إمّا اعتراضٌ للتّنبيه على أنَّ اللّه تعالى غنيٌّ عنِ الابتلاء، وإنما يُبرِز صورةَ الابتلاءِ لتمرين المؤمنين وإظهارِ حالِ المنافقين، أو حالٌ من متعلَّق الفعلين أي فَعل ما فَعل للابتلاء والتَّمحيص، والحالُ أنه تعالى غنيٌّ عنهما مُحيطٌ بخفيّات الأمورِ، وفيه وعدٌ ووعيدٌ[4]، فـ ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: ترغيبٌ، وترهيبٌ، ودفعٌ لِما قَدْ يُتَوَهَّمُ مِن ذِكْرِ الابْتِلاءِ مِن عَدَمِ العِلمِ بِالخَفايا[5].

علّةُ تخصيصِ المختتَمِ بالصُّدورِ:

الصّدورُ أعمُّ بوصفِها أوعيةً للقلوب

خصَّ سبحانه وتعالى علمَه بالصُّدور دون القُلُوب في مختتَم الآية؛ إذ هي أعمُّ[6]، لكونِها شاملةً للقُلُوب فهي وعاؤُها، ودخولُها

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1465.
(2) الخلوتي، روح البيان: 10/7.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/98.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/102.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 2/271.
(6) الراغب، تفسير الراغب: 3/939.

فيه دخولُ الجُزء منَ الكُلّ، ولذلك سبقها لفظةُ ﴿بِذَاتِ﴾ ليدلّ على العلم به وبما يحتوِيه.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغمّ، والهمّ:

الغمُّ مَظِنَّةُ قِصَرِ وقت الحزنِ، والكَرْبِ، والضِّيقِ، وسرعةِ زوالِه، والهمُّ وصفٌ لشدَّة الحزن وطولِ مدّته، قال العسكريُّ مفرّقًا بين الغمّ والهمّ: "الغَمُّ معنى ينقبض القلبُ مَعَه وَيكونُ لوُقُوع ضَرَر قد كَانَ، أَو توقّعِ ضَرَر يكون، أَو يتوهّمُه، وَقد سُمّي الحزنُ الَّذِي تطول مدَّته حَتَّى يذيبَ البدنَ همًّا، واشتقاقُه من قَوْلك: انهم الشَّحْمُ إِذا ذاب، وهمَّه أذابه"[1].

فلفظ الغمِّ مشعرٌ بأَنَّ الكرب الحاصل أقلُّ حزنًا من استعمالِ لفظ الهمِّ، وأهونُ لتخصيصِه بانقباض القلبِ، لوقوع ضررٍ كان، أو متوقَّعٍ، أو متوهَّم، وكلُّ ذلك مظنَّةُ قِصَرِ الوقت، وسرعةِ الزَّوال، على خلاف الهمِّ الذي يُوصف بشدّةِ الحزن حدَّ إذابةِ البدَنِ؛ لطول مدّته، ولذلك ناسبَ لفظُ الغمّ سياقَ الآية بوصفِها حديثًا عن حزنٍ عارضٍ انقضى بسببِ موقعةِ أُحُدٍ لم يلبثْ أنْ أزاله اللّه تعالى، وصيّره أَمَنَةً، واللّه أعلم.

النُّعاس، والنّوم، والسِّنَة:

النُّـعـاس أوّلُ النّوم وأخفُّه

ذُكرَ أنَّ النُّعاس: السِّنَةُ من غير نوم[2]، أو: أَوَّلُ النَّوم[3]، أو: النّومُ القليلُ[4]، وهو أخفُّ منَ النّوم[5]، فهو ثِقَلٌ أو فتورٌ في الجسم للِينِه وامتلائِه بالرخاوة[6]، أما النّومُ: فهو الغشيةُ الثقيلةُ التي تهجمُ على القلب فتقطعُه عن معرفة الأمور، وأما السِّنَة: فهي ثقلُ النُّعاس[7]، أو النُّعاس نفسُه، أو ابْتِدَاءُ النُّعاس في الرَّأْس، فاذا خالط القلبَ صَار

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 267.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (نَعَسَ).
(3) ابن الأثير، النهاية: (نَعَسَ).
(4) الراغب، المفردات: (نَعَسَ).
(5) القِنَّوجي، فتح البيان: 2/357.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نَعَسَ).
(7) الواحدي، التفسير الوسيط: 1/367.

نومًا[1]، ويُذكرُ أنَّ: السِّنة في الرأس، والنُّعاسَ في العين، والنّومَ في القلب[2]، وبهذا يتبيّنُ حِكمة اختيارِ لفظِ (النُّعاس) في الآية الكريمةِ دونَهما؛ لكونه نومًا خفيفًا محدَّدًا بالعين، وهو يزيلُ التَّعبَ ولا يغيِّبُ صاحبَهُ، فلذلك كان أَمَنَةً على الصحابة ﷺ؛ إذ لو ناموا نومًا ثقيلًا في بداية معركة أُحدٍ لأُخِذُوا[3].

ومصداقُه ما رُوي عن أبي طلحة - رضي الله عنه - أنَّ النُّعاسَ غشيَه فكان السَّيفُ يسقطُ من يده فيأخذُه، ثم يسقطُ فيأخذُه، وما رُوي عنِ الزبير أنه كان يسمع قولَ مُعتِّبِ بنِ قُشَير والنُّعاس يغشاه[4]، فالعقلُ والقلبُ حاضران، وإنّما هي غفوةُ عينٍ، والله أعلم.

الغِشاء والغِطاء:

الغشيانُ أرقُّ منَ الغِطاء وهو يناسبُ حالَ النُّعاس

بيَّنَ العسكريُّ أنّ الغطاء يَقْتَضِي سترَ مَا تَحْتَهُ، أما الغِشاء فلا يَقْتَضِي ذَلِك؛ إذ إنّ الغشاءَ قد يكون رَقِيقًا يبيِّن مَا تَحْتَهُ ويتوهّم الرائي أَنه لَا شَيْء عَلَيْهِ لرقّته، وَمِنه قيل غُشي على الإِنْسَان، والغطاء لَا يكون إِلَّا كثيفًا ملاصقًا، والغشاء أيضًا يكونُ من جنس الشَّيْءِ، والغطاءُ يكون من جنسه ومن غيرِ جنسِه، ولذلك تَقول: تغطّيتُ بالثياب ولا تَقول: تغشّيتُ بهَا[5]؛ لأَنّ التّغشّي "يشبه التّغطّي واللُّبس"[6] وليس تغطية ولُبسًا، وعبَّر به اللّه في مقام دخول الليل، فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ [الليل: 1]؛ لكون ظلمة الليل منسوجةً منه، ويكنى بالتغشيةِ عن الجماع؛ لخفّة وقوعه، فيقال: غشَّاها وتغشَّاها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ﴾ [الأعراف: 189]. ومن هنا فرقّةُ الغشيان هي علةُ اختياره لفظه في الآية الكريمةِ؛ وذلك ليناسبَ صفةَ النُّعاس في المعركة؛ إذ إنَّ التعبيرَ بالتّغطيةِ تعميةٌ لا تناسبُ حالَ مقارعةِ العدوِّ في المعارك، والله أعلم.

(1) الماوردي، النكت والعيون: 1/324، والكفوي، الكليات، ص: 499.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 1/367، والماوردي، النكت والعيون: 1/324، والزركشي، البرهان: 3/404.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/133.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/393، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/53.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 288.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/429.

النّفس، والرُّوح:

النّفسُ موضعُ الكسب خيرًا وشرًّا

الكسبِ خيرًا وشرًّا، والروحُ موضعُ تشريفٍ

النّفسُ موضعُ الكسب خيرًا وشرًّا، وهي ألصقُ بابن آدم بوصفِها موضعَ الهُدى، والضلالةِ، أو موضعَ التقلُّبِ والتّدبير في الحياة الدُّنيا، وعليها تقعُ الصّفاتُ الحميدةُ، والذميمةُ. أما الرّوحُ فهي أشرفُ من النّفس لإنّها من عالَم أمرِ اللّه، ولذلك نسبَها اليه تعالى تشريفًا، وتعظيما، وهي أعمُّ منَ النّفس لشمولها بعضَ الأنبياء، والملائكةَ، والقرآنَ، والنّاسَ، واستدعاءُ لفظِ النّفس مع صفاتِ المنافقين المذمومةِ بإخفاء ما في أنفسِهم ما لا يُبدون أنسبُ للسّياق، واللّه أعلم.

المحص، والفحص:

التَّمحيصُ تخليصُ القُلُوب من خُبثِ عوالقِها

قال الرّاغبُ: " أصلُ المَحصِ: تخليصُ الشيءِ ممَّا فيه من عيبٍ كالفحصِ، لكنَّ الفحصَ يقالُ في إبراز شيءٍ من أثناءِ ما يَختلطُ به، وهو منفصلٌ عنه، والمحصُ يقالُ في إبرازه عمّا هو متّصلٌ به، يقال: محَصتُ الذهبَ ومحّصتُه: إذا أَزَلْتَ عنه ما يشوبُه من خُبث"[1]، ولفظُ التَّمحيص في سياق الآية أنسبُ؛ لكونه حديثًا عن إزالةِ عوالقَ تعترِي القُلُوبَ من سُوءِ ظنٍّ، ووساوسَ يُلقيها الشّيطانُ فيها؛ فهو تنقيةٌ، وتطهيرٌ، وتصفيةٌ لها، واللّه أعلم.

القلب والفؤاد:

القلبُ محلُّ الفهمِ والعقلِ فناسبَ مقامَ سُوءِ الظّنِّ

إنّ القلبَ أخصُّ منَ الفؤاد في الاستعمال؛ لأنه معنى منَ المعاني يتعلّقُ به، ولذلك قَالُوا: أصبتُ حَبَّةَ قلبِه وسُويداءَ قلبِه[2]، ومع خصوصِ لفظِ القلبِ فإنَّ معانيَه كثيرةٌ في القرآن، فقد ورد محلًّا للفهمِ والعقلِ، وموضعًا للتّكليفِ، وتقويةِ العزائم، واختصَّ بالحديث عنِ الرُّوح، والعلمِ، والعقلِ وذلك لكثرة تقلُّبه بالخواطر والعُزوم[3]،

(1) الراغب، المفردات: (محص).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، التاج: (قَلَبَ).
(3) الراغب، المفردات: (قلب)، والدوري، دقائق البيان القرآني، ص: 101- 105.

ولذلك اختيرَ لفظُ القلب هنا لكونِه حديثًا عن ظنٍّ سيّئٍ لم يجْرِ على فهم وعلمٍ فهو أدعَى إلى أنْ يُمحَّصَ، ويُنقّى، والله أعلم. ولم يعدِلْ إلى الفؤاد لكونِه موطنَ لُطفٍ وشرفٍ في البدَنِ متعلّقٍ بشدّةِ التأثُّر بما يُفزعُ الإنسانَ من خوفٍ وفزعٍ، ولذلك خاطب الله به نبيَّه ﷺ في مواطنِ التّثبيتِ[1].

(1) دقائق البيان القرآني، ص: 101-103.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ١٥٥﴾ [آل عمران: 155]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيّنَ تعالى مُعلِّلًا ومُنبِّهًا غناه عنِ الاختبار، وخبرتَه بدقائقِ الأسرارِ؛ أتبعَه مُستأنِفاً ببيانِ ما هو من ثمراتِ العلمِ والدّراية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ﴾ أي عنِ القتال ومقارعةِ الأبطالِ ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾، أي: منَ المؤمنين والكفّار[1].

وبعد أن بيَّن لهم تعالى أيضًا مرتبةَ حقِّ اليقين بقوله: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ انتقل بهم إلى مرتبة الأسباب الظاهرة، فوضَّح لهم أنّه إن كان للأسباب تأثيرٌ فسببُ مصيبتِهم هي أفعالُهم التي أملاها الشّيطانُ عليهم وأضلَّهم بها، فلم يتفطّنُوا إلى السّبب، والتبسَ عليهم بالمُقارَن، ومن شأن هذا الضّلالِ أن يحول بين المُخطئ وبين تدارُكِ خطئه، ولا يخفى ما في الجمع بين هذه الأغراض منَ العلمِ الصحيحِ، وتزكيةِ النُّفوسِ، وتحبيبِ اللّه ورسولِه للمؤمنين، وتعظيمِه عندهم، وتنفيرِهم منَ الشّيطانِ، والأفعالِ الذّميمةِ، ومن معصيةِ الرّسولِ، وفيه تسفيهُ أحلامِ المشركين والمنافقين[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾: الوَاوُ واللَّامُ والياءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، مِنْ ذَلِكَ الوَلْيُ: القُرْبُ[3]. وقولُهم تولَّى إذا عُدّي بنفسه اقتضى معنى الولاية، والإقبالِ على الشيء، وإذا عُدّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا اقتضى معنى الإعراضِ وترك القُربِ. والتّولّي قد يكونُ بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاءِ والائتمار، ويقال: ولّاه دُبُرَه: إذا انهزمَ[4]، وهو المعنى هنا.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 2/272.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/140.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وَلَيَ).
(4) الراغب، المفردات: (ولي).

فكلٌّ (تولَّى عن، وتولَّ عن) فهي بمعنى الانصراف، وقد يأتي الفعل(تولّى) بمعنى الانصراف إعراضًا وإدبارًا متعدّيًا بنفسه[1]. كما في لفظ الآية الكريمة، والله أعلم.

2) ﴿ٱلْتَقَى﴾: اللَّامُ، وَالقَافُ، واليَاءُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: أَحَدُهَا تَوَافِي شَيْئَيْنِ، وهو: اللِّقَاءُ: المُلَاقَاةُ وَتَوَافِي الِاثْنَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ[2]، وكلُّ شيءٍ استقبلَ شَيْئًا أَو صادفَه فقد لقِيَه[3]. واللّقاءُ: مُقابلَةُ الشَّيء ومُصادَفَتُه مَعًا، ويُعبَّر بِهِ عَن كل مِنْهُمَا، ويقالُ ذلكَ في الإِدْراكِ بالحسِّ، والبَصَرِ، وبالبصيرة. وملاقاةُ الله ﷻ عبارةٌ عنِ المصير إليه. وسُمِّيَ يوم القيامة بـ ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ [غافر: 15]، وتخصيصُه بذلك لالتقاء من تقدَّم ومن تأخَّر، والتِقَاءِ أهل السَّماء والأرض، وملاقاةِ كلِّ أحدٍ بعملِهِ الذي قدَّمَهُ[4]. وكلّ (لَقِي) و(التقى) ومضارعُهما فهي بمعنى المقابلة[5].

3) ﴿ٱلْجَمْعَانِ﴾: الجيمُ وَالميمُ وَالعَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى تَضَامِّ الشَّيْءِ، يُقَالُ جَمَعْتُ الشَّيْءَ جَمْعًا[6]، والجمعُ: ضمُّ الشّيء بتقريب بعضِه من بعضٍ[7]، وتضامُّ أشياءَ متجانسةٍ كثيرةٍ تلاقيًا أو تلاحمًا أو تراكمًا، وعُمِّم في كلِّ جَمْع لمالٍ أو ناسٍ[8]. ومعنى اللَّفظ في الآية الكريمة: جَمْعَا المؤمنين والكافرين في معركة أُحد، والله أعلم.

4) ﴿ٱسْتَزَلَّهُمُ﴾: الزَّايُ وَاللَّامُ أَصْلٌ مُطَّرِدٌ مُنْقَاسٌ في المُضَاعَف، وَكَذَلِكَ في كُلِّ زَايٍ بَعْدَهَا لَامٌ في الثُّلَاثِيِّ، وهذا مِنْ عجِيبِ هذا الأَصْلِ، وَالزَّلَّةُ: الخَطَأُ؛ لِأَنَّ المُخْطِئَ زَلَّ عَنْ نَهْجِ الصَّوَابِ[9]، وأزلّه الشَّيْطانُ عنِ الحقّ: أضلَّه[10]، واسْتَزَلّهُ غَيَّرَهُ[11]، وأزلَّهُ: اسْتَفَزَّه، وقيل: أزالَهُ[12]، وزلَّ يزلُّ إذا زلقَ، بفتح اللامِ وكسرها، أراد أنه تزلُق - بضم اللام في

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ولي).
(2) ابن فارس، المقاييس: (لقي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (لقا).
(4) الراغب، المفردات: (لقى).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لقى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جَمَعَ).
(7) الراغب، المفردات: (جمع).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جمع).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زَلَّ).
(10) الخليل، العين: (زلّ).
(11) الجوهري، الصحاح: (زلل).
(12) ابن سيده، المحكم: (زلل).

المضارع وفتحِها - عليه الأقدامُ ولا تثبت، وأزلَّهُ الشيطان، أي: حمله على الزّللِ وهو الخطأُ والذّنبُ[1]، والزلّةُ في الأصل: استرسالُ الرِّجْل من غير قصدٍ، وقيل للذنب من غير قصد: زلّةٌ، تشبيهًا بزلّة الرِّجْل، واستزلّه: إذا تحرّى زلّتَه، وقولُه: ﴿ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: استجرَّهم الشّيطانُ حتى زلُّوا؛ فإنَّ الخطيئةَ الصغيرةَ إذا ترخَّص الإنسانُ فيها تصيرُ مُسهِّلةً لسبيل الشّيطان على نفسِه[2]، ورُجّح في اللّفظةِ معنى: أنّ الشّيطانَ حملَهم على الزّلل بمَكرٍ منه، فاستفعل هنا بمعنى أفعَلَ[3]، باستبعاد معنى الطّلب.

5) ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: اختُلف في أصلِه: أهو من (فَيْعال) من (شَطَنَ)، أي: بَعُدَ[4]، والنّونُ فيه أصليةٌ، ودَلالةُ البُعد أصلٌ فيه[5]، وفي تسميتِه بذلك قولان: إمّا لبُعده عنِ الخير، أو الحقِّ أو عن رحمة اللّه، وتمرّدِه[6]؛ إذْ "خالفَه عن نيّته ووجْهِه"[7]، وإمّا "لبُعدِ غورِه في الشّرّ"[8]. أو هو (فَعْلان) من (شاطَ يَشِيطُ) ونونُه زائدةٌ، ويدلُّ على ذهاب الشّيء إمّا احتراقًا وإمّا غيرَ ذلك كالهلاك والبُطلان[9]، والطّردِ طردًا دائمًا حتى يعيًا[10]، فعلى هذا سُمّي بذلك؛ لأنه غارقٌ بالمعصية التي تؤولُ به إلى الهلاك[11]. ومنَ الدَّلالاتِ الأخرى المستنبطةِ من أصْلَيْهِ المُتقدّمَيْن: الكِبْرُ، والالتواءُ، والاعوجاجُ. يقال: بئرٌ شطون: ملتويةٌ معْوجّةٌ، ورمحٌ شطون: طويلٌ أعوجُ[12]. وخلاصةُ وصْفِه، ومِلاكُ تصوّرِه: أنّه كلُّ عاتٍ متمرّدٍ منَ الجن، والإنس، والدّوابِّ[13].

6) ﴿كَسَبُواْ﴾: الكَافُ والسِّينُ والبَاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ، وهو يَدُلُّ عَلَى ابْتِغَاءٍ، وَطَلَبٍ،

(1) ابن الأثير، النهاية: (زلل).
(2) الراغب، المفردات: (زلّ).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/98.
(4) الخليل، العين: (شَطَنَ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (شَطَنَ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شَطَنَ)، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 375، والزبيدي، تاج العروس: (شَطَنَ).
(7) الأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح: (شَطَنَ).
(8) نزهة الاعين النواظر، ص: 375.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (شَيَطَ).
(10) ابن عباد، المحيط: (شوط).
(11) وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 375.
(12) الزمخشري، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (شَطَنَ).
(13) مقاييس اللغة: (شَطَنَ)، ونزهة الأعين النواظر، ص: 374.

وَإِصَابَةٍ[1]، وهو في الأصلِ: الطلبُ والسّعيُ في طلب الرزق والمعيشة[2]، فالكسبُ: ما يتحرّاه الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نفع، وتحصيلُ حظٍّ، ككسب المالِ، وقد يُستعمل فيما يَظنُّ الإنسانُ أنه يجلبُ منفعةً، ثم استُجْلِبَ به مضرّةٌ، ويُقالُ فيما أخذه لنفسه، ولغيره، ولهذا قد يتعدّى إلى مفعولين، فيقال: كسبتُ فلانًا كذا[3]، وهو أيضًا: جَمْعُ الشّيء وتحصيلُه شيئًا بعد شيءٍ بجُهْدٍ ما، أخذًا من حيث كان: كما تأخذ الجوارحُ فرائسَها مرةً بعد أخرى، وكما يُجمع المالُ من مظانّه شيئًا بعد شيءٍ، ومنه: الكَسْبُ: طَلَبُ الرّزق، وتحصيلُه[4]، أو العملُ على الحصول على مرغوبٍ فيه، ومنه الاستمتاعُ بشيءٍ محبوبٍ للنّفس تلذُّذًا، ومتعةً، ومعنى اللّفظة في الآية الكريمة: مفارقةُ موقفِهم على الجبل، وعصيانُ أمرِ الرّسول في المعركة، والتّنازعُ، والتّعجيلُ إلى الغنيمة[5] وغيرُه منَ المعاني بحسبِ ما سيأتي بيانُه في الشّرح البلاغيّ.

7) ﴿عَفَا﴾: العَيْنُ والفَاءُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلَانِ يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى تَرْكِ الشَّيْءِ، العَفْوُ: عَفْوُ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ خلقِهِ، وَذَلِكَ تَرْكُ مؤاخذته إِيَّاهُمْ فَلَا يُعَاقِبُهُمْ، فَضْلًا مِنْهُ[6]، و"العفوُ: تركُكَ إنساناً استوجَبَ عُقوبةً فعفوتَ عنه تعفُو، والله العَفُوُّ الغفور"[7]، والأَصْلُ في (عَفَا اللّه): محا ذنُوبَ عبدِه عَنهُ، وهو مَأْخُوذ من قَوْلهم: عفتِ الرِّيَاحُ الآثَارَ إِذا درسَتْها ومحَتْها، وهو التّجاوُزُ عنِ الذنْبِ وتركُ العقاب عليه، وأصلُه المحوُ والطّمسُ[8]، وغالب ما في القرآن من هذا التَّركيب هو بمعنى الصَّفح[9].

8) ﴿غَفُورٌ﴾: أصلُ الغَفْر: السَّتْرُ والتَّغطيةُ، وَغفر اللّه ذنوبَه: أَي سَترها وَلم يَفْضَحْهُ بهَا على رُؤُوس المَلأ، وكلُّ شَيْء سترتَه بقصد الحمايةِ وما إليها فقد غفرتَه[10]، والغفرُ:

---

(1) ابن فارس، المقاييس: (كَسَبَ).

(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (كَسَبَ).

(3) الراغب، المفردات: (كَسَبَ)، والجرجاني، التعريفات، ص: 236.

(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (كَسَبَ).

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/140.

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عَفَو).

(7) الخليل، العين: (عفو).

(8) ابن الأثير، النهاية: (عفا).

(9) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عفو).

(10) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المقاييس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غَفَرَ).

إلباسُ ما يصونُه عنِ الدنس، والغفرانُ والمغفرةُ منَ اللّه هو أنْ يصونَ العبدَ من أن يمسَّهُ العذابُ[1]، والغفور، والغفّار من صِفَاته جلّ ثَنَاؤُهٌ وتقدّست أسماؤُه[2]، وكلُّ ما جاء في القرآن منَ التَّركيب هو من مغفرة الذّنوبِ[3].

9) ﴿حَلِيمٌ﴾: الحَاءُ وَاللَّامُ وَالمِيمُ، أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: أحدُها: تَرْكُ العَجَلَةِ، والحِلمُ خِلَافُ الطَّيْشِ. يُقَالُ حَلُمْتُ عَنْهُ أَحْلُمُ، فَأَنَا حَلِيمٌ[4]، أي: ضبطتُ النّفسَ والطبعَ عن هيجان الغضب، وجمعُه أحلام، وفُسِّرَ الحلمُ بالعقل؛ لكونِه من مسبّباته[5]. فالحِلمُ: الأناةُ. والحليمُ في صفة اللّه تعالى، معناه: الصَّبورُ[6]، الذي لا يستخفُّه شيءٌ من عصيان العبادِ ولا يستفزُّه الغضبُ عليهم، ولا يعجلُ بالعقوبةِ[7]، فهو ذو أناةٍ لا يعجلُ على عباده بعقوبتِهم على ذنوبِهم[8]، وكذا كلُّ صفةِ (حليم) في القرآن للّه ﷻ، أو للبشر، وللّه المثلُ الأعلى[9].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيانُ علّةِ الهزيمةِ والتعطّفِ بإعلان العفوِ

يخبرُ تعالى عن حالِ الذين انهزموا يوم "أُحدٍ"، وعن الباعثِ الذي أوجبَ لهم الفرارَ، بأنَّ تلك المجموعةَ من الرُّماةِ كانوا سببَ تلك الجِراح بفرارِهم من موقعة أُحدٍ؛ طلبًا للغنيمة، وقد وقعُوا فيما وقعُوا فيه بسببِ أنَّ نفوسَهم لم تتَّجهْ إلى اللّه بكلّيتها، ولهذا أوقعهم الشّيطانُ ببعض ما عملوا منَ الذّنوبِ، وزيَّن لهم الزّللَ والمعصيةَ، فترتَّبَ على ذلك أن مُنِعُوا النَّصرَ والتأييدَ وقوةَ القلب والثّبات، ولقد تجاوزَ اللّهُ عنهم فلم يعاقِبْهم؛ فضلًا منه ورحمة، فمن صفات اللّه أنه غفور للمذنبين التائبين، حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة[10].

---

(1) الراغب، المفردات: (غَفَرَ).
(2) ابن سيده، المحكم: (غَفَرَ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (غَفَرَ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَلُمَ).
(5) الراغب، المفردات: (حَلُمَ).
(6) الخليل، العين: (حَلُمَ).
(7) ابن الأثير، النهاية، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حَلُمَ).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 5/117.
(9) وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حَلُمَ).
(10) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1466، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 2/308، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 70.

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنّ أعمالَ العبْدِ تسوقُه قسرًا إلى مقتضاها منَ الخيرِ والشّرِّ، والعبدُ لا يشعرُ أو يشعرُ ويتعامَى[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علّةُ الاستئنافِ البيانيّ:

سببُ الهزيمةِ الخفيُّ طمعُ الشّيطان بأفعالهم

لما نبَّه سبحانه على أنه غنيٌّ عنِ الاختبار، خبيرٌ بدقائق الأسرار، أتبعَه قولَه مُستأنِفاً لبيانِ ما هو من ثمراتِ العلم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ﴾[2]، وهو استئنافٌ لبيانِ سببِ الهزيمةِ الخفيّ، وهي استزلالُ الشّيطانِ إياهم[3].

غرضُ التّعبيرِ بلفظِ التّولّي:

تولّي المُستَزَلّين كان عن تكلُّفٍ شديد

يُستعمل التَّولِّي بمعنى الإقبالِ وبمعنى الإدبارِ، فإن كان متعدِّيًا بنفسِه كان بمعنى الإقبالِ، وإن كان متعدّيًا بـ (عن) أو غيرَ متعدٍّ أصلًا كان بمعنى الإعراضِ، ومنه الإدبارُ عنِ الزَّحف والأمرِ في وقته، وهي هنا لذلك[4]، وعبّرَ عنه بصيغة التّفعّل للمبالغةِ في تولِّيهم لما تتضمّنُه الصّيغةُ من معنى التّكلُّفِ والتّعمّلِ، واللّه أعلم.

سرُّ عدمِ تعيين فاعلِ التَّولّي:

الاكتفاءُ بالمذكور للدّلالةِ على مُطلق التَّولّي

"وظاهرُ ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ يدلُّ على مُطلقِ التَّولِّي يومَ اللّقاء"[5]، ويشملُ فريقَيْن: أحدُهما الذين أقبلُوا على الغنيمة وتركوا مواقعَهم منَ الرِّماية؛ فأُولئك بتركِهم مواقعَهم وإقبالَهم على الغنيمة كانوا مُدبرين يُشبهون الفارِّين، والآخرُ: الذين فرُّوا منَ القتال يومَ أنِ اضطربتِ الموقعةُ وأصيب المؤمنون بجراحٍ، وكانت فيهم مقتلتُهم

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 2/441.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 2/272.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/139.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1465.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 3/97.

سواءً فرَّ إلى المدينة، أم صعدَ الجبلَ[1]، وفي عدم تعيين المتولِّين إطلاقٌ لاشتمالِ الفعلِ لكلِّ من يصح أن يتَّصفَ به.

والمرادُ منَ الذين تولَّوا نفسُ المخاطَبين بقولِه: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ [آل عمران: 152]، وضميرُ ﴿مِنكُمۡ﴾ راجعٌ إلى عامّةِ جيشِ أحُدٍ، فشملَ الذين ثبتُوا ولم يفرُّوا، وعن السُّدّي أنّ الذين تولَّوا جماعةٌ هربوا إلى المدينة[2].

تعريفُ اليومِ بالإضافةِ:

وأرادَ بـ ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ يومَ أحُدٍ[3]، والتّعريفُ بالإضافة أدلُّ هنا من غيره وأخصُّ في تحديد الواقعة، وجملةُ ﴿ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ حصرٌ للتّولّي في أثناء المعركة.

وجهُ التَّعبيرِ بلفظِ الجمعِ:

فـريـق المؤمـنين يـــوازي فـريـق المشركين وإن قلَّ عددًا

الجمعُ: المجموعُ منَ النّاس وهو على وزن فَعْل، مصدرٌ بمعنى اسمِ المفعولِ للمبالغةِ، عُبِّرَ به عن اسمِ الذَّاتِ لتوكيدِ المبالغةِ. والمعنى: جمعُ المؤمنين، وجمعُ المشركين، فلذلك صحّتْ تثنيتُه[4]، ويُعزِّزُ هذا المعنى: التَّعبيرُ عن فعل التّلاقي بصيغةِ التفعّل ﴿ٱلۡتَقَى﴾؛ للدّلالةِ على مشاركةِ طرفَي القتال من مؤمنين وكافرين، وإطلاقُ الجمعِ على الفريقين مع التَّفاوت في العددِ، إمَّا للتَّغليب، وإمَّا لبيان تساوي الفريقين، فاختلاف العدد لا يعني اختلاف الموازنة بينهما، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة.

الاستعارةُ في لفظِ الزّللِ للتَّعبيرِ عن معنى الانْهزامِ:

والزّللُ مستعارٌ لفعلِ الخطيئةِ، والمرادُ به الانهزامُ، وإطلاقُ الزَّللِ عليه معلومٌ مشهورٌ كإطلاقِ ثباتِ القدمِ على ضدِّه وهو النَّصرُ، قال تعالى: ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ [آل عمران: 147][5].

---

(1) رضا، تفسير المنار: 4/157، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1466.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/141.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/139.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 3/97.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/140.

بَلاغةُ التَّعبير بصيغةِ الاستفعال:

الاســـتـــزلالُ استدراجٌ للوقوعِ في حالٍ أدنى من السَّابقةِ

استزلَّ للمبالغةِ في أزلّ، واستزلّهم الشّيطانُ أي: حملَهم على الزّلِل بمكرٍ منه، فاستفعلَ هنا بمعنى أفعل[1]، وذهب كثيرٌ منَ المفسِّرين إلى أنَّ معنى السين والتَّاء هو الطَّلب، أي: طلبَ منهم الزّللَ ودعاهم إليه؛ لأنّ ذلك هو مقتضى وسوستِه وتخويفه[2].

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ معنى السِّين والتَّاءِ هو التَّأكيدُ، حيث قال: "أي: جعلهم زالّين، والسِّين والتَّاء فيه للتأكيدِ، مثل استفادَ واستبشرَ واستنشق، ولا يحسنُ حملُ السِّين والتَّاء على معنى الطلبِ؛ لأنّ المقصودَ لومُهم على وقوعِهم في معصيةِ الرّسولِ، فهو زللٌ واقعٌ"[3]، فالمعنى هنا: التّحوّلُ من حالٍ إلى حالٍ بجعْلِهم زالّين وهو منَ المعاني المحتملةِ لصيغة الاستفعال.

سرُّ إظهارِ الفاعلِ:

مواضعُ المهانةِ والمعصيةِ مقترنةٌ بالشَّيطانِ

وعدلَ النَّظمُ عن إضمارِ الفاعلِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إلى إظهاره جريًا على الأصل، فنسبَ مُنْكَرَ الفِعَالِ إلى الشَّيْطَانِ للدَّلالةِ على أنَّ المعاصيَ لا تُنْسَبُ إلى اللّه[4]، وهي موضعُ إهانةٍ وتحقيرٍ، والإظهارُ أنسبُ؛ لأنّ موردَ الذِّكر في مواطن الخيبةِ والشَّرِّ، يناسبُه التَّصريحُ ترسيخًا للمهانةِ والنَّبذِ، كما يُناسبُ مواطنَ التَّشريف إظهارُ الأسماءِ الشَّريفةِ.

عِلّةُ حذفِ متعلَّقِ الزَّلل:

فـــي مـــواطـــنِ الإحـــســـانِ قد يُـنـأى عـن ذكـرِ وجوهِ العِصيانِ

لم يُبيِّنْ تعالى في أيِّ شيءٍ استزلَّ الشّيطانُ المتولّين؛ إذ لا حاجةَ إلى تعيين المعصيةِ مع العَفوِ، لكنَّ العلماءَ جوَّزُوا أن يكونَ المرادُ بذلك تحوّلَهم عن ذلك الموضعِ، بأنْ يكون رغبتَهم في الغنيمة، وأن يكونَ فشلَهم في الجهاد وعدولَهم عنِ الإخلاص[5].

---

(1) أبو حيان، التحرير والتنوير: 3/98، والقاسمي، محاسن التأويل: 2/441.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/530، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/98.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/139 - 140.
(4) ابن عادل، اللباب: 6/4.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/398.

معاني حرفِ الباءِ في قولِه: ﴿بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾:

معنى السّببيةِ إثباتُ أنَّ ما أصابَهم هو بسببِ الشّيطان

اختلف المفسِّرون في معنى الباءِ في قولِه تعالى: ﴿بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾ على أقوالٍ:

القولُ الأوّل: للسّببيةِ، وله وجهان:

الوجه الأوّل: أي: إنَّ بعضَ ما كسبوا قد كان سببًا لزلّتِهم، وأريدَ ببعض ما كسبوا مفارقةُ موقفِهم، وعصيانُ أمر الرّسولِ، والتّنازعُ، والتَّعجيلُ إلى الغنيمة، والمعنى: أنّ ما أصابَهم كان من آثارِ الشّيطانِ، رماهم فيه ببعضِ ما كسبُوا من صنيعِهم، والمقصدُ من هذا إلقاءُ تبعةِ ذلك الانهزام على عواتقِهم، وإبطالُ ما عرّضَ به المنافقون من رمْيِ تبعتِهِ على أمرِ الرّسول ﷺ بالخروجِ، وتحريضِ اللّه المؤمنين على الجهاد، وذلك شأنُ ضعاف العُقول أن يَشتبه عليهم مقارنُ الفعل بسببِه[1].

الوجه الآخر: للسّببية وجهٌ آخر ينطبقُ على كلٍّ منَ القولين في الذين تولَّوا، وهو أنَّ تولِّيَهم عنِ القتال لم يكن إلا ناشئًا عن بعض ما كسبُوا منَ السّيئات من قبلُ، فإنّها هي التي أحدثتِ الضّعفَ في نفوسِهم حتى أعدَّتْها إلى ما وقع منها، ويؤيدُ هذا الوجهَ قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: 30] فهو بمعنى ما هنا إلا أنه هنالك عامٌّ، وهنا خاصٌّ بالذين تولَّوا يومَ أُحُدٍ[2].

معنى الإلصاقِ استزلالُ الشّيطانِ بوساطةِ جناياتِهم

القولُ الثَّاني: للإلصاقِ، كقولِك: كتبتُ بالقَلَم، والمعنى: أنه قد صدرتْ عنهم جناياتٌ، فبِواسطتِها قدرَ الشَّيطانُ على أن يستزلَّهم لكن لا تولِّي عِنادٍ، ولا فرارٍ منَ الزَّحْف، رغبةً منهم في الدُّنيا، وإنّما ذكَّرهم الشّيطانُ ذُنوباً كانت لهم فكرهُوا البقاءَ إلا على حالٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/140.

(2) رضا، تفسير المنار: 4/157.

يَرۡضَوۡنَهَا، أو أنّهم لمّا أذنبُوا بمفارقةِ المركزِ، أو برغبتِهم في الغنيمةِ، أو بفشلِهم عنِ الجهاد أزلَّهمُ الشّيطانُ بشُؤمِ هذه المعصيةِ، وأوقعَهم في الهزيمة؛ لأنَّ الذنْبَ يجرُّ إلى الذّنْبِ، كما أنَّ الطاعةَ تجرُّ إلى الطاعة، ويكونُ لطفًا فيها، أو: لمّا أذنبُوا بسببِ الفشلِ ومنازعةِ بعضِهم مع بعضٍ وقعُوا في ذلك الذّنْبِ[1].

معنى التّبعيضِ وقوعُ الزلّةِ في بعضِ أعمالِهم

القول الثَّالث: للتّبعيض، والمعنى: أنَّ هذه الزَّلَّةَ وقعتْ لهم في بعضِ ما كسبُوا لا في كلِّ ما كسبُوا، والمرادُ منه بيانُ أنّهم ما كفرُوا وما تركُوا دينَهم، بل هذه زلّةٌ وقعتْ لهم في بعضِ أعمالِهم[2]، فالباءُ على أصلِها وأنَّ الزّللَ الذي وقع هو عينُ ما كسبُوا منَ التولّي عنِ القتال[3].

عِلّةُ تَكرارِ الإخبارِ بالعَفوِ:

تأنيسُ المؤمنين بالعفوِ بعد ما أصابَهم منَ الغمِّ

صرّح السِّياقُ بالعَفوِ عنهم في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾ [آل عمران: 152] وأعادَه هنا في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ﴾ مكرِّرًا الإخبارَ بالعَفو تأنيسًا لهم[4]، فهو عفوٌ خاصٌّ بالمؤمنين يُراد به أنّ ذنبَهم يومَ أُحُدٍ الذي كان من شأنِه أن يُعاقَبَ عليه في الدُّنيا والآخرةِ قد كانت عقوبتُه الدّنيويةُ تربيةً وتمحيصًا، وعفا اللّه عنِ العقوبة عليه في الآخرة[5].

براعةُ التّوكيدِ في جُملة العَفو:

وجهُ التّوكيدِ لتبديدِ حيرةِ النّفوس، والشّعورِ بقُربِ الله منهم تأييدًا وتسديدًا

أكّد سبحانه عفوَه بأربعةِ تأكيداتٍ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥﴾:

أوّلها: باللّام في (لقد) فهي تُنبئ عنِ القسَم.

الثّاني: بـ (قد)؛ فإنها تفيدُ تأكيدَ تحقّقِ القولِ.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/398.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/399، وابن عادل، اللباب: 6/4.
(3) رضا، تفسير المنار: 4/157.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/141.
(5) رضا، تفسير المنار: 4/158.

الثّالث: وصفُ اللّه تعالى بالمغفرةِ؛ فإنّه يؤكّدُ أنَّ العفوَ شأنٌ في شؤونه سبحانه.

الرابع: الوصفُ بالحِلْم فإنه يفيدُ: أنَّه سبحانه لَا يسارعُ عبادَه بالعقاب، ولا يعاجلُهم به: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر: 45].

وفائدةُ هذه التّوكيدات؛ لتذهب عن نفوسِهم حيْرتُها، ولتنخلعَ منَ الماضي ولتستقبلَ الحاضرَ والمستقبلَ بقلبٍ جريءٍ ثابتٍ، ولتشعرَ بعونِ اللّه وتوفيقِه وتأييدِه وتسديدِه[1]، بقلوبٍ عامرةٍ بالإيمان، وبنفوسٍ متغلّبةٍ على أهوائها مطيعةٍ لتعاليم دينِها[2].

إظهارُ اسمِ الله تعالى في موطنِ العَفو لتربيةِ المهابةِ وتأكيدِ التَّعليل:

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥﴾ تعليلٌ لما قبْلَه على سبيل التَّحقيق، وفي إظهارِ اسم الجلالةِ تربيةٌ للمهابةِ وتأكيدٌ للتّعليل[3].

تكرارُ الاسمِ الأعظمِ تنبيهٌ على عِظَمِ الذَّنْبِ

وأُعيدَ الاسمُ الأعظمُ مُظهرًا مع أنَّ مقتضى الظَّاهرِ الإضمارُ، تنبيهاً على أنَّ الذّنبَ عظيمٌ والخطرَ بسببه جسيمٌ، فلولا الاشتمالُ على جميع صفاتِ الكمالِ لعُوجِلوا بأعظمِ النَّكالِ[4].

سرُّ إردافِ المغفرةِ بالحِلْم:

مغفرتُه سبحانه مُحاطَةٌ بالحِلْمِ المورِّثِ للطّمأنينة

لمّا كان غُفرُ الذُّنوبِ قد يكون مع تحمّلٍ لها، واستبقاءٍ لآثارِها نفاه سبحانه بقوله: ﴿حَلِيمٞ﴾ أي: حيث لم يُعاملِ المتولِّين حذرَ القَتْل معاملةَ الذين خرجُوا من ديارهم حذرَ الموت، فقال لهم اللّه: موتوا[5]، فالحليمُ هو الذي لَا يعاجلُ بالعقوبة فيؤخّرُ العاصيَ ليستدركَ فيتّقي لما يُغفرُ له[6]، وفي ذلك توريثٌ للطّمأنينةِ لدى العبادِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1466 - 1467.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/308.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/103.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 2/273.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 2/273.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/433.

دَلالةُ جملةِ التَّذييلِ:

معنى قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ "أي: محَّاءٌ للذّنوب عيناً وأثراً"[1]، فالمرادُ به المعنى الأعمُّ الشاملُ لمغفرة الذنْبِ والتّجاوُزِ عنه، وشأنُ التّذييلِ التّعميمُ[2]، فلأنَّه غفورٌ حليمٌ لا يعجلُ بتحتيم العقابِ، ومن آيات مغفرتِه لهم وحِلْمِه بهم توفيقُهم للاستفادة ممّا وقعَ منهم وإثابتُهم الغَمَّ الذي دفعهم إلى التّوبة حتى تمحّصَ ما في قلوبهم واستحقُّوا العفوَ عن ذنوبهم[3]، فالجملةُ الكريمةُ تحذيرٌ وتبشيرٌ، وترغيبٌ وترهيبٌ، لكي لا يتجاسر النّاسُ على ارتكابِ ما نهى اللّه عنه، ولا ييأسُوا من رحمته متى تابُوا وأنابُوا[4].

غفر الذُّنوبِ والحلمُ بالعباد سببٌ في عدم تعجيلِ العقوبةِ

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الشيطان، وإبليس:

ورد لفظُ إبليس في القرآن الكريم اسمًا علَمًا للذي عصى اللّه تعالى، في أحد عشر موضعًا، وغالبها في امتناعِه منَ الامتثال لأمرِ اللّه بالسُّجود لآدم ﷺ؛ تكبُّرًا واستعلاءً. أمَّا لفظُ الشّيطانِ فيقعُ على كلِّ عاتٍ متمرّدٍ منَ الجنِّ، والإنسِ، والدّوابِّ، وورد في القرآن في مواضعِ الأفعال الشّريرةِ، والوسوسةِ، والإزلالِ، والإبعادِ عنِ الخير[5]، ومناطُ الكلام في الآية الكريمة على الوسوسةِ، واستزلالِ المؤمنين في المعركة، فناسبَه لفظُ الشيطان، واللّه أعلم.

موردُ ذكرِ إبليس العَلَميَّةُ على العصيان، وموردُ ذكرِ الشّيطان مواضعُ الأفعالِ الشّريرة، والوسوسةِ، والإزلالِ، والإبعادِ عنِ الخير

الاكتساب، والاجتراح:

إنَّ الكسْبَ والجرحَ يُراد بهما اكتسابُ المعاصي والآثام، ولكنَّ الجرحَ وردَ في اكتساب الكُفر، أمّا الكسبُ فهو عامٌّ يقع في اكتسابِ المؤمنِ

الاكتسابُ عامٌّ في الخيرِ والشّرِّ، والاجتراحُ خاصٌّ بمعاصِي الكفّارِ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 2/273.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/456.
(3) رضا، تفسير المنار: 4/158.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 1/540.
(5) الدوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 141.

والكافرِ، ويدلُّ ذلك على عمومِ الكسب في الخير والشّرِّ، وخصوصِ الجرحِ في المعاصي والآثام، ولذلك جاءت قرينةُ السيئات عمومًا في قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الجاثية: 21][1].

العفو، والمغفرة، والرَّحْمة:

العفوُ إسقاطٌ للعقوبة، والمغفرةُ سترٌ للجُرم، والرَّحْمةُ طلبٌ للثّواب

العفوُ إسقاطٌ للعقاب، والمغفرةُ سترٌ للجُرم صونًا له من عذابِ التَّخجيل والفضيحةِ، كأنَّ العبدَ يقول: أطلُبُ منك العفوَ، وإذا عفوتَ عنِّي فاسترهُ عليَّ؛ فإنَّ الخلاصَ من عذاب النَّارِ إنَّما يطيبُ، إذا حصل عَقِيبَه الخلاصُ من عذاب الفضيحةِ، فهما تخلّصٌ من عقابٍ[2]، أمَّا رحمةُ اللّهِ التي وصلت لخلقه فقسمان[3]:

أ- رحمة عامة: وسعت كل شيء من العالم العلوي والسُّفلي، ووصلت لكل حي مكلف وغير مكلف، برٍّ وفاجر، مؤمنٍ وكافر، وهي رحمة جسدية، دنيوية، دينية، ومن آثارها: خلق المخلوقات وإيجادها من العدم على صورة محكمة.

ب- الرحمة الخاصة: التي خص اللّه بها عباده الصالحين وأولياءه المتقين، وهي رحمة إيمانية، دينية، دنيوية، أخروية، ومن آثارها: امتنانه على أوليائه باستغفار ودعاء أفضل ملائكته - حملة العرش - لهم، وإدخال أوليائه الجنة التي هي أثر من آثار رحمة الرحمن الرحيم، ورحمته - جل جلاله - في غاية الكمال والجلال، فلا ضعف معها ولا رقَّة ولا عجز، بل رحمةٌ مع عزة وقوة وقدرة تامة، قال تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦﴾ [السجدة: 6].

ولا قُدرةَ لأحدٍ على فعلِ الطَّاعة وتركِ المعصيةِ إلاَّ برحمته.

المغفرةُ فيها لطفٌ وتكريمٌ؛ لأنّ استعمالَها في العطيّةِ الحِسّيةِ

(1) الدوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 170 - 171.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 7/124، وابن عادل، اللباب: 4/542.

(3) ابن القيم، مختصر الصواعق المرسلة، ص: 368، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/436، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 828.

المغفرةُ مَظنّةُ اللُّطفِ والتّكريمِ؛ لأنها من بابِ دفْعِ المُؤلمِ، والرَّحْمةُ من بابِ جلْبِ الملائمِ.

يُقصدُ بها الحفظُ كما في المِغْفَر، وقولُهم: اصْبُغ ثوبَك بالسّواد فإنه أغفرُ لوسخِه، والعفوُ التركُ، كأنه تَرْكُ الشّيءِ مغطًّى بغطائه لمّا لم يُؤْخَذْ منه[1]، فالعفوُ، والمغفرةُ من باب دفْعِ المُؤلمِ، والرَّحْمةُ من باب جلْبِ الملائمِ، ودفعُ المؤلمِ آكدُ[2].

والجمعُ بين العفوِ والمغفرةِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ من جزيلِ عطايَاهُ، ومديدِ هدايَاهُ، وواسعِ حِلْمِه بأن يرفعَ العقابَ، ويسترَ مُواقِعَهُ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عفو).

(2) البسيلي، التقييد الكبير، ص: 434 - 435، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/343.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦﴾ [آل عمران: 156]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ظهرَ من بعضِ المؤمنين فُتورٌ وفشلٌ في الجهاد بسببِ وساوسِ الشَّيطان التي استزلَّهم بها في وقعةِ أُحُدٍ، ذكرَ اللّه تعالى في هذه الآيةِ ما يدلُّ على النّهي عن أن يقولَ أحدٌ منَ المؤمنين مثلَ مقالتِهم؛ محذِّرًا إيّاهم من تلك الوسوسةِ[1]، ثمّ إنَّ قولَهم لمّا كان مُوجبًا لغيظِ رسولِ اللّه ﷺ؛ لما فيه منَ الاتّهامِ لقَدَرِ اللّه؛ ولما فيه من سُوءِ الاعتقاد؛ وكان ذلك مَظنّةَ لأنْ يخدعَ كثيرًا من أهل الطاعةِ؛ لشدّةِ حبِّهم لمن قُتل منهم؛ وتعاظُمِ أسفِهم عليهم؛ كان أنسبَ الأشياءِ المبادرةُ إلى الوعظِ بما يُزيلُ هذا الأثرَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَامَنُواْ﴾: الهمزةُ والميمُ والنُّونُ أصلانِ، أحدُهما: التَّصديقُ[3]، فالإيمانُ: التَّصديقُ، والطَّمأْنينةُ، وزوالُ الخوفِ[4]، ويرادُ به إذعانُ النَّفس، والانقيادُ للحقِّ على سبيلِ التَّصديقُ[5]، والإقرار والتصديق الجازم بكل ما أخبر اللّه به ورسوله ﷺ، المتضمِّنُ القولَ باللسان والاعتقادَ بالقلب والعملَ بالجوارح[6]، وعلى هذا فمعنى اللّفظةِ في الآيةِ المبارَكةِ يتضمّنُ هذه الدَّلالاتِ.

2) ﴿كَفَرُواْ﴾: الكافُ والفاءُ والراءُ أصلٌ يدلُّ على معنى السّترِ، والتّغطيةِ[7]، ومنه

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/399، ورضا، تفسير المنار: 4/159.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/273.
(3) ابن فارس، المقاييس: (أَمَنَ).
(4) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، والسمين، عمدة الحفاظ: (أَمَنَ).
(5) الراغب، المفردات: (أَمَنَ).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (أَمَنَ)، وابن تيمية، الإيمان، ص: 64.
(7) ابن فارس، المقاييس: (كفر).

سُمِّيَ الكافرُ كافرًا؛ لأنه ستَر نِعَمَ اللّه عليه، وغطّى الكفرُ قلبَه كلَّه[1]، والكفرُ نقيضُ الإيمان؛ لأنّه تغطيةُ الحقِّ، وهو نقيضُ الشّكرِ؛ لأنّه كفرُ النّعمةِ، أي: جحودُها وسترُها[2]. فالكافرُ جاحدٌ لأَنْعُمِ اللّه التي لا تُحصى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم: 34]. ومنها آياتُه الدّالّةُ على توحيدِه، التي أبانتْ لذوي البصائرِ، والتّمييزِ أنّ خالقَها واحدٌ لا شريكَ له، وهو المرسِلُ الرسلَ بالآياتِ المُعجزةِ، والكُتبِ المنزّلةِ، والبراهينِ الواضحةِ[3]، وأعظمُ الكفرِ: جحودُ الوحدانيةِ أو الشّريعةِ أو النّبوةِ[4].

3) ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾: الأصل فيه: أَخَوَ، وهو: المشارِكُ آخرَ في الولادةِ منَ الطَّرفين، أو من أحدِهما أو منَ الرَّضاعِ، ويُستَعارُ في كلّ مشاركٍ لغيره في القبيلةِ، أو في الدِّينِ، أو في صنْعةٍ، أو في معاملةٍ أو في مودَّةٍ، وفي غيرِ ذلك منَ المناسباتِ[5]، وأصلُ معناه عُرْوَةٌ أو نحوُها يُشَدُّ فيها الشَّيءُ، أي: يُرْبَط كما تُربط الدابَّةُ في عُرْوة الآخية، والأَخَوان مرتبطان بخروج كلٍّ منهما من نفس الصُّلبِ، ولِملحظِ الارتباطِ عُبّر بها عنِ الصَّداقة والصُّحبةِ، وفي المُقترنَيْنِ المتلازمَيْنِ في عقيدةٍ أو حالٍ[6]، ومعناه في الآية الكريمةِ هو اتّفاقُهم نسبًا أو مذهبًا وعقيدةً[7]، واللّه أعلم. وقيل في النّسبِ فقط أو المشاكلةِ في الدِّين وسيأتي بيانُه.

4) ﴿ضَرَبُواْ﴾: الضَّادُ وَالرَّاءُ وَالبَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، مِنْ ذَلِكَ: ضَرَبْتُ ضَرْبًا، إِذَا أَوْقَعْتَ بِغَيْرِكَ ضَرْبًا، ثُمَّ يُسْتَعَارُ وَيُحْمَلُ عَلَيْهِ وَيُشَبَّهُ بِهِ، ومِنْهُ الضَّرْبُ في الأَرْضِ تِجَارَةً وَغَيْرَهَا مِنَ السَّفَرِ، وهو أيضًا: الإِسْرَاعُ إِلى السَّيْرِ[8]، فالضَّرْبُ يقعُ على جميع الأعمالِ، ضَرْبٌ في التّجارةِ، وفي الأرض، وفي سبيل اللّهِ، يصِفُ ذَهابَهم وأَخْذَهم فيه[9].

5) ﴿غُزَّى﴾: الغَيْنُ وَالزَّاي وَالحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا طَلَبُ شَيْءٍ،

(1) الأزهري، التهذيب: (كفر).
(2) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، وابن فارس، المقاييس: (كفر).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (كفر).
(4) الراغب، المفردات: (كفر).
(5) الراغب، المفردات: (أخ).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أخو: أخي).
(7) البروسوي، روح البيان: 2/114.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضَرَبَ).
(9) الخليل، العين: (ضَرَبَ).

وهو: الغَزْوُ، فالغَازِي: الطَّالِبُ لِذَلِكَ[1]، والغَزْوُ: القصدُ[2]، وغزا الشَّيْءَ غزوًا: أرادَه وَطَلَبه، والغزوُ: السّيرُ إلَى قتال العَدوّ وانتهابه[3]، والخروجُ إلى محاربته، وجمعُه غُزاةٌ، وغُزًّى[4].

6) ﴿لِيَجْعَلَ﴾: معنى جَعَلَ في مُعجماتِ اللّغة: صَنَعَ، وصَيَّر، وخَلَقَ، وَوَضَعَ[5]، وذكرَ الرّاغبُ تَصرُّفَ الفِعْلِ على خمْسَة أوْجُهٍ: منها: ما يَجري مجرَى صارَ وطفِقَ[6]، وقال الزمخشريُّ: "جعل يتعدّى إلى مفعول واحدٍ إذا كان بمعنى أحدثَ وأنشأ، كقَوْله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1] وإلى مفعولَيْن إذا كان بمعنى صيّر، كقَوْله: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزخرف: 19]"[7]، وهو هنا متعدٍّ إلى مفعولَيْن. ومعنى (جَعَلَ) وما تَصرَّف منها في القرآنِ التَّحويلُ والتَّهْيئةُ على وَضْعٍ، والتحويلُ للهيئةِ بإنشاء هَيْئَةٍ جَديدةٍ[8]، وهو معنى اللّفظةِ في الآيةِ الكريمةِ، أي: تَصْيِيرُ قولِهم أو فعلِهم حسرةً في قلوبهم، واللّه أعلم.

7) ﴿حَسْرَةً﴾: الحَاءُ وَالسِّينُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ مِنْ كَشْفِ الشَّيْءِ، ومِنَه الحَسْرَةُ: وهي التَّلَهُّفُ عَلَى الشَّيْءِ الفَائِتِ، وَذَلِكَ لانْكِشَافِ أَمْرِهِ في جَزَعِه وَقِلَّةِ صَبْرِه[9]، والحَسْرُ والحُسُور: الإعياءُ، وحَسِرَ حَسْرةً وحسْرًا، أي: نَدِمَ على أمْرٍ فاتَه[10]، وكمَدَ على ما فاته وتلهَّف عَلَيْه[11]. والحاسِرُ: المُعيًا لانكشاف قُواه، والحسرةُ: الغمُّ على ما فاته والنَّدمُ عليه، كأنه انحسرَ عنه الجهلُ الذي حملَهُ على ما ارتكبَه، أو انحسر قواه من فرطِ غَمٍّ، أو أدركه إعياءٌ من تدارُك ما فرطَ منه[12]، والحسرةُ النّدامةُ والاهتمامُ على فائتٍ لم يقدرْ بلوغَه[13]. وهي: شدّةُ الأسف، أي: الحُزن[14].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غَزَوَ).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (غزا).
(3) ابن سيده، المحكم: (غزو).
(4) الراغب، المفردات: (غزا).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم: (جعل).
(6) الراغب، المفردات: (جعل).
(7) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/3.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جعل).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَسَرَ).
(10) الفراهيدي، العين: (حسر).
(11) ابن دريد، جمهرة اللغة: (حسر).
(12) الراغب، المفردات: (حسر).
(13) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/247.
(14) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/142.

8) ﴿يُحۡيِۦ﴾: الحَاءُ وَالياءُ وَالحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلَانِ، أَحَدُهُمَا خِلَافُ المَوْتِ، وهو الحَيَاةُ والحَيَوَانُ[1]، والحَيُّ من كلِّ شَيْءٍ: نقيضُ المَيِّت[2]، والحياةُ باعتبار الدُّنيا والآخرة ضربان: الحياةُ الدُّنيا، والحياةُ الآخرة[3]، وكلُّ ما في القرآن منَ التَّركيب هو منَ الحياة ضدُّ الموت عدا التّحيةِ والحياءِ[4].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تنبيهُ المؤمنين مــن عــقــائــدِ المنافقين

يَنْهَى تعالى عبادَه المؤمنين عن مشابهةِ الكفّارِ في اعتقادِهم الفاسدِ، الدالِّ عليه قولُهم عن إخوانِهم من أهلِ الكفرِ - في الدِّين أو في النَّسب - الذين ماتُوا في الأسفارِ والتّجارةِ، أو قُتِلوا في الحروبِ: لو كانوا تركُوا ذلك لما أصابَهم ما أصابَهم، يعارضون القدر[5]، وأنّه سيجعلُ هذا القولَ النّاشئَ عنِ الاعتقادِ الفاسدِ حَسْرَةً في قلوبِهم بالاغتمامِ على ما فات، والتّحسّرِ على ما لم يأتِ، واللّه يحيي مَن قدَّر له الحياة - وإن كان مسافرًا أو غازيًا - ويميت مَن انتهى أجلُه وإن كان مقيمًا، لا يمنع قَدَرَه قعودٌ ولا يُعَجلُه خروجٌ، واللّه لا تخفى عليه أعمالكم، وسيجازيكم عليها[6].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى عدمِ جوازِ التّشبّهِ بالكفّار، ووجوبِ حفظِ المنطقِ ممّا يشاكلُ ألفاظَ المشركين منَ الكلماتِ المُنافيةِ للعقيدةِ الإسلاميةِ[7]، وإلى التّحذيرِ منَ العَوْدِ إلى مخالجةِ عقائدِ المشركين، وبيانِ سُوءِ عاقبةِ تلك العقائدِ في الدُّنيا أيضًا[8].

(1) ابن فارس، المقاييس: (حَيَّ).
(2) ابن سيده، المحكم: (حيي).
(3) الراغب، المفردات: (حيي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حيي).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/147، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 70.
(6) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 70.
(7) القاسمي، محاسن التأويل: 2/442.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/141.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الاستئنافُ في المَطْلَعِ تلطّفٌ بالمؤمنين بعدَ التَّقريعِ:

قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ استئنافٌ، وإقبالٌ على المؤمنين بالخطاب تلطّفًا بهم جميعًا بعد تقريعِ فريقٍ منهم وهم الذين تولَّوا يومَ التقى الجمعان[1]، ولمّا كان الرّسولُ ﷺ مؤيَّدا بأعظمِ الثّباتِ؛ لِمَا طُبِعَ عليه منَ الشِّيمِ الطاهرةِ؛ والمحاسنِ الظاهرةِ؛ كان الأنسبُ البداءةَ بغيره؛ فنَهى الذين آمنوا عنِ الانخداعِ بأقوالِهم[2].

سببُ فصلِ جملةِ النِّداءِ عمَّا قبلَها:

المطلعُ لا يناسبُ عطفَه على ما قبلَه

الكلامُ المفتتحُ بالنّداءِ والتّنبيهِ ونحوِه مثل: يا أيها الناس، ويا زيد، وألا، ونحوِها لا يناسبُ عطفُه على ما قبْله، وينبغي أن يُعتبرَ افتتاحَ كلامٍ بحيث لا يُعطفُ إلا بالفاء إذا كان مترتِّبًا عمّا قبْلَه؛ لأنّ العطفَ بالفاء بعيدٌ عنِ العطف بالواو وأوسعُ من جهة التّناسُبِ[3].

وجهُ النِّداءِ في المطلعِ:

النِّداءُ يُشعِرُ بخبرٍ مهمٍّ عظيمٍ

لفظ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صار كاللّقب لمن اتّبع الدِّينَ اتّباعًا حقًّا[4]، وافتُتِحَ الكلامُ بالنّداء؛ لأنّ فيه إشعارًا بخبرٍ مهمٍّ عظيم، فإنّ شأنَ الأخبارِ العظيمةِ التي تهولُ المخاطَبَ أن يقدّمَ قبْلَها ما يُهيِّئُ النَّفسَ لقَبولها؛ لتستأنِسَ بها قبلَ أن تُفجئَها[5].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

عرّفَ النَّظمُ المؤمنين والكافرين في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالاسم الموصول، وهو إمّا أن

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/141.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 2/274.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/651.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/277.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/52.

يكونَ لتعريف العهدِ مرادًا منه القومُ المعهودون منَ المؤمنين ومنَ المنافقين، وإمّا أن يكونَ الموصولُ لتعريف الجنسِ المفيدِ للاستغراقِ فيكونَ اللّفظُ على إطلاقه فيَدْخُلُ فيه كلُّ مؤمنٍ وكلُّ كافرٍ يقول مثلَ هذا القولِ سواء أكان منافقا أم لم يكن[1]، على أنَّ المرادَ منَ الكُفر أبلغُ أنواعِه بقرينةِ مقابلتِه بالذين آمنوا وهم الذين اتَّبعُوا الدِّينَ اتّباعًا حقًّا.

احتمالُ الاسمِ الموصولِ للعهدِ أو للجنسِ

فائدةُ صيغةِ النّهيِ:

صيغةُ النَّهي التي عبَّر بها سبحانه: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تفيدُ تباعدَ ما بين المقامَيْن: مقامِ الإيمان، ومنزلِ الكفران، وأنه لا يصحُّ بالمؤمن أنْ ينزلَ إلى المرتبة الدُّون، بعد أن علا بالإيمان إلى مقام الأَعلِين الأبرارِ، وفي هذا تقبيحُ المَنهيّ عنه بأبلغِ تعبيرٍ، وأرقِّ تصويرٍ[2].

النّهيِ يُوحي بتباعدِ ما بين مقامَيِ الإيمان والكُفر

فائدةُ التَّعبيرِ بلفظِ الأُخوّةِ:

معنى الأَخوَّةِ في قوله تعالى: ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أخوَّةُ نَسَبٍ؛ لأنّ قتلى أُحدٍ كانوا منَ الأنصار، وأكثرُهم منَ الخزرج، ولم يكن فيهم منَ المهاجرين إلا أربعةٌ[3]، فالمرادُ: منَ الخزرج المؤمنين؛ لأنّ الشهداءَ منَ المؤمنين[4]، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ من هذه الأخوّة المشاكلةَ في الدِّين، واتّفق إلى أن صار بعضُ المنافقين مقتولًا في بعض الغزوات فالذين بقَوا منَ المنافقين قالوا ذلك[5]، أو هو اتفاقُهم نسبًا أو مذهبًا وعقيدةً[6].

اشتمالُ لفظِ الأخوَّة النَّسبِ، أو الدِّينِ، أو الاثنين معًا

(1) هذا التوجيه مستنبطٌ من قول للفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/400.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1468.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/530.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/141.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/400.
(6) الخلوتي، روح البيان: 2/114.

معنى اللّامِ في قولِه تعالى: ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾:

اللّـَدّمُ للسّببِ؛ لأنّ قولَ المنافقين بسببِ إخوانِهم لا معهم

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ هي لامُ السببِ (العلّة)، والمعنى: قالوا ما قالوا لأجل إخوانهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١﴾ [النساء: 51]، وليست لامَ التّبليغ (تعدية فعل القول) الجارّةَ لاسم السَّامع لقولٍ أو ما في معناه: نحو: قلتُ له، وأذنتُ له؛ وذلك لأنّ إخوانَهم ليسوا متكلَّمًا معهم بل هم الذين ماتُوا وقُتلوا[1].

علّةُ ذكرِ الغزوِ بعد الضَّربِ، وإفرادِه منه:

بين الضَّرب والغزوِ عمومٌ وخصوصٌ فتغايرا

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ ذكرِ الغزوِ بعد الضّرب في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى﴾؟ والجواب: أنَّ منَ الغزو ما لا يكونُ ضربًا؛ لأنّ الضّربَ هو الإبعادُ في السّفر، والجهادُ قد يكون قريبَ المسافة؛ إذ لا فرقَ بين بعيدِه وقريبِه، فالخارجُ منَ المدينة إلى جبل أحُدٍ لا يُوصَفُ بأنّه ضاربٌ في الأرض مع قُربِ المسافةِ وإن كان غازيًا؛ فلذلك أُفرِدَ الغزوُ عنِ الضرب؛ فإنَّ بينهما عمومًا وخصوصًا فتغايرًا، فصحّ إفرادُه، إذ لم يندرج من جهةٍ تحتَه[2].

فائدةُ عطفِ الخاصِّ على العامِّ:

الغزوُ هو المقصودُ بيانُه، والضَّربُ توطئةٌ له

إفرادُ كونِ الضَّاربين في الأرضِ غُزاةً بالذِّكرِ مع اندراجِهم تحتَ الضَّربِ في الأرض؛ لأنَّه المقصودُ بيانُه في المقام، وذكرُ الضّربِ في الأرض توطئةٌ له وتقديمُه لكثرةِ وقوعِه، على أنه قد يوجدُ بدون الضّربِ في الأرض إذِ المرادُ به السفرُ البعيدُ، وإنما لم يقل: أو غَزَوۡا للإيذانِ باستمرار اتّصافِهم بعنوان كونِهم غزاةً، أو بانقضاء ذلك، أي: كانوا غزاةً فيما مضى[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/99، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/141.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/400، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/100.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/103.

فائدةُ التَّعبيرِ بالظرف ﴿إِذَا﴾ دون (إِذ):

استحضارُ الصورةِ وكأنّها مشاهَدةٌ في الحال، وتجسيدٌ للمعنى المرادِ

﴿إِذَا﴾ ظرفٌ يفيدُ معنى الاستقبال، واستُعمِلَ في قولِه: ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للماضي بدليل فعلَيّ ﴿وَقَالُواْ﴾، و﴿ضَرَبُواْ﴾(1)، وهذا من روائع فنونِ البلاغة، فـ ﴿إِذَا﴾ ظرفٌ للمستقبل وقد جاء متعلِّقًا بـ﴿وَقَالُواْ﴾، وهو فعلٌ ماضٍ، وكان ظاهرُ الكلام يقضي باستعمال (إذ) المفيدةِ للمُضيّ، ولكنّه عدَلَ عنها إلى ﴿إِذَا﴾ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ استحضارًا للصّورة في الذّهنِ، وتجسيدًا للمعنى المرادِ وتشخيصًا لما يريد المتكلِّمُ عرضَه، وفائدتُها استمرارُ الزمان المنتظِم للحال الذي يدور عليه الحديثُ إلى وقتِ التّكلُّم(2).

دلَّت (إذا) على اطِّرادِ الأمرِ في الزَّمنِ المستقبلِ

دخلَتْ ﴿إِذَا﴾ في صلةِ الموصولِ لأنَّ الماضيَ إذا وقَع صلةً لموصولٍ صَلَح للاستقبال نحوَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [المائدة: 34] قال ابنُ عَطيةَ: "ودخلت إذا وهي حرفُ استقبالٍ من حيث ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمٌ مُبْهَمٌ يَعُمُّ مَنْ قَال في الماضي ومَنْ يقول في الاستقبال، ومِنْ حيث هذه النازلةُ تُتَصَوَّرُ في مستقبلِ الزّمان، ويطَّردُ النَّهيُ للمؤمنين فيها، فوضعت ﴿إِذَا﴾ لتدلَّ على اطّراد الأمر في مستقبل الزمان"(3).

فائدةُ التَّعبيرِ عنِ المستقبل بلفظِ الماضي:

التَّعبيرُ بالماضي عنِ المستقبلِ مبالغةٌ في كونِه لازمَ الحُصولِ

آثر النَّظمُ التَّعبيرَ بصيغة الماضي للدّلالةِ على المستقبلِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ لفائدتين؛ إحداهما: أنَّ الشّيءَ الذي يكون لازمَ الحصولِ في المستقبل قد يعبَّرُ عنه بأنّه حدثَ أو هو حادثٌ، كقولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1] فهنا لو وقعَ التَّعبيرُ عنه بلفظ المستقبل لم يكن فيه مبالغةٌ، أما لمّا وقع التَّعبيرُ عنه بلفظ الماضي،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/141.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/944 - 945، والزمخشري، الكشاف: 1/430، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/103، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/81.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/531، والسمين، الدُّرّ المصون: 3/452.

دلَّ ذلك على أنّ جدَّهم واجتهادَهم في تقرير الشُّبهة قد بلغ الغايةَ، وصار هذا المستقبلُ بسبب ذلك الجِدِّ كالكائنِ الواقعِ الثّابتِ؛ لأنّ صيغةَ الماضي مُتحقّقةُ الوقوعِ.

قصدُ المنافقين الإخبارُ عن جِدّهم في تقرير الشُّبهات

والثّانيةُ: أنّه تعالى لما عبّر عنِ المستقبل بلفظ الماضي دلَّ ذلك على أنّه ليس المقصودُ الإخبارَ عن صدورِ هذا الكلام، بل المقصودُ الإخبارُ عن جِدِّهم واجتهادِهم في تقرير هذه الشُّبهةِ[1].

وجهُ الاستعارةِ في لفظةِ الضَّرب:

إظهارُ وجهِ المَشقّة في السَّفر في الأرضِ

الضَّربُ في الأرض: الإبعادُ في السّفر[2]، وشبَّه المسافرَ في البرّ بالسَّابحِ الضّاربِ في البحر؛ لأنّه يضربُ بأطرافه في غَمرةِ الماءِ شقًّا لها، واستعانةً على قطعِها[3]، أو هو من أصل الضّرب، وهو إيقاعُ جسمٍ على جسمٍ وقرْعُه به، فالسّيرُ ضربٌ في الأرض بالأرجُلِ، فأُطلق على السّفر للتجارة في قولِه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: 20]، وعلى مُطلقِ السّفر كما هو هنا في أحدِ تفسيراتِه، وعلى السّفرِ للغزو كما في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء: 94]، والظّاهرُ أنّ المرادَ هنا السّفرُ في مصالحِ المسلمين؛ لأن ذلك هو الذي يلومُهم عليه الكفّارُ، وقيل: أريدَ بالضّرب في الأرض التّجارةُ، وعليه يكون قرنُه مع القَتْل في الغزو لكونِهما كذلك في عقيدةِ الكفار[4]، وأيًّا كان ففيه إظهارٌ لوجه المَشقّة في هذا الضّربِ إذ لا يخفى عُسرُ ركوبِ البحر أو مصاعبُ التّجارة، والله أعلم.

بلاغةُ التَّعبير بالجمع ﴿غُزَّى﴾ دون غيره:

﴿غُزَّى﴾ جمع غازٍ، وهو على وزن (فُعَّل)، ويدلُّ هذا الجمعُ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/401.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/942.
(3) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/201 - 202.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/142.

على الحركةِ الظّاهرةِ، وتكثيرِ القيام بالفعل[1]، وهو يناسبُ صفةَ ملامتِهم، وكأنَّ مؤاخذتَهم هي على كثرةِ الغزواتِ التي يقومون بها، فضلًا عمّا تتضمّنه هذه الغزواتُ من فرطِ حركةٍ بسبب شدّةِ القتال، ويرى العمادي أنّه "لم يقل: (أو غَزَوْا)؛ للإيذان باستمرار اتّصافِهم بعنوان كونِهم غزاةً أو بانقضاء ذلك أي كانوا غزاةً فيما مضى"[2].

الـدّلالـةُ على الـحـركـةِ الظّاهرةِ، وتكثيرِ القيامِ بالفعل

بلاغةُ المقابلةِ في التَّقديم والتَّأخير:

يُناسبُ الضَّربَ الموتُ، والغزوَ القتلُ

تقدَّم ذكرُ الموتِ على القَتْل في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾؛ لمناسبة التَّرتيب وحسنِ مقابلةِ ما قبْلَه في الآية الكريمة؛ لأنّ قولَه: ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يقابلُه: ﴿مَا مَاتُواْ﴾، وقولُه: ﴿أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى﴾ يقابله: ﴿وَمَا قُتِلُواْ﴾ فرجعَ الموتُ لِمَنْ ضَرَب في الأرض، والقَتْلُ لِمَنْ غزا[3].

معنى ﴿لَّوۡ﴾ تلميحٌ بتمكُّنِ الشَّيطان منهم بتكرار عباراتِ استحضارِه:

تعبيرُهم بـ﴿لَّوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ التي هي سبيلُ الشّيطانِ دائما إظهارٌ لوساوسِ نفوسِهم مكرّرين ما كان يجبُ في ظنِّهم[4].

بلاغةُ التَّهكُّمِ في دقَّةِ النَّظم:

التَّعبيرُ بقولِه تعالى: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ على هذا الصَّوغِ بإطلاقِ نفي الموتِ عنهم أو القتل عندما يكونون عندهم، غايةُ التّهكُّم بهم؛ لأنَّ إطلاقَ هذا القولِ منهم - لا سيما على هذا التأكيدِ - يلزمُ منه ادّعاءُ أنه لا يموت أحدٌ في المدينة، وهو ما لا يقولُه عاقل[5].

(1) السامرائي، معاني الأبنية في العربية، ص: 152.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/103.
(3) السمين، الدُّرّ المصون: 3/459، والإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/201.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1468.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 2/274.

فائدةُ تكرارِ حرفِ النّفي (ما):

دفعُ توهُّمِ عدمِ إرادةِ العطفِ

في تكرار ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ دفعُ احتمالِ معنى: (أنّهم ما ماتوا، لكنّهم قُتلوا) وهو معنًى مُنْتَفٍ أصلًا، وعدمُ تكرار (ما) يحقّق تقديرَه.

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لِيَجۡعَلَ﴾:

تردُّدُ معنى اللّامِ بـيـنَ الـعـاقـبـةِ والتَّعليل

اللّام في قولِه تعالى: ﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ﴾ إمَّا أن تكون لامَ العاقبة[1] والصَّيرورة، وهي تدلُّ على المآل، ولا تدلُّ على التَّعليل الباعث على العملِ، ومعناها في الآيةِ: لا تكونوا كالذين قالوا فترتَّبَ على قولهم أن كان ذلك حسرةً في قلوبهم، وذلك مثلُ قولِه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: 8]، فإنّه ما كان الباعثُ على الالتقاط هو أن يكون لهم عدوًّا وحزنًا، بل كانت النتيجةُ هي العداوةُ[2].

ويصحُّ أن تكونَ لامَ للتّعليل (لام كي)، ويكونَ المعنى: أنّ اللّه سبحانه وتعالى خلقَ الكفّارَ على هذه الأخلاقِ اليائسةِ، أو قدّرَ لهم هذه الأحوالَ المُوئسةِ ليُلقيَ الحسرةَ في قلوبهم، والغمَّ في نفوسهم، والضّلالَ بهذه الأقوال في عقولِهم[3].

عِلّةُ ذكرِ اسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الإشـــــــارةُ إلى الـقــولِ والاعــتـقـادِ، أو الإشـــــارةُ إلى الـنَّـهــي عـن مشابهتِهم

التَّعبيرُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قولِه: ﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ﴾ إما إشارةً إلى القولِ والاعتقادِ، أي: لا تكونُوا مثلَهم في النُّطق بذلك القولِ واعتقادِه ليجعله اللّه حسرةً في قلوبِهم خاصّةً، ويصونَ منها قلوبَكم، وإمَّا إشارةً إلى ما دَلَّ عليه النهيُ، أي: لا تكونوا مثلَهم ليجعلَ اللّه انتفاءَ كونِكم مثلَهم حسرةً في قلوبِهم؛ لأنَّ مخالَفتهم فيما يقولون ويعتقدون، مِمَّا يَغُمُّهُمۡ ويَغيظُهم[4].

---

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/945.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/142، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1469 - 1470.

(3) السمين، الدُّرّ المصون: 3/454، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1469 - 1470.

(4) الزمخشري، الكشاف: 1/431.

معنى جعل الحسرةِ من فعل اللّه تعالى:

إيجادُ الحسرة في القلوب عقوبةٌ على المعتقدِ الفاسدِ

آثر النَّظمُ الكريمُ جَعْلَ الحسرة مفعولةً للّه تعالى في قولِه: ﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ﴾ فإنّ اللّهَ ﷻ عند اعتقادِ المنافقين - أنَّ من مات لو بقيَ عندهم ما مات - يضعُ الغمَّ والحسرةَ في قلوبهم، ويُضيّقُ صدورَهم عقوبةً، فاعتقادُه فعلَهم وما يكون عنده منَ الغمّ والحسرةِ وضيقِ الصُّدور هو في الحقيقةِ فعلُ اللّه ﷻ؛ كقوله: ﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام: 125][1].

وجهُ تنكيرِ الحَسرةِ:

حَسْرةُ المنافقين متمكِّنةٌ منهم وشديدةٌ عليهم

الحسرةُ: شدّةُ الأسف، أي: الحزن[2]، وعبّر عنها بالمصدر ﴿حَسۡرَةٗ﴾؛ للدّلالةِ على شدّتِها وتمكّنِها فيهم، وفي تنكيرِها تعدّدُ وجوهِ حصولِ الحسرةِ في قلوبهم[3].

قوّةُ قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾ بعد النَّهي السَّابقِ:

تقرير المعتقدات بعد النّواهي الشّرعيَّة أثبتُ في الأفهام

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾ ترشيحٌ لمعنى النّهي السّابق ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ وتقويةٌ له، وتأكيدٌ لضلالِ الكفّارِ ومن يُحاكونَهم في انشغالِ أنفسِهم بمن ماتوا، وظنّهم أنّ الخروجَ هو سببُ قتلِ من قُتلوا[4].

بَلاغةُ الطّباقِ بين لفظِ الحياةِ والموتِ:

الطّباقُ بين ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾ هو من أوجزِ الحديثِ وأصدقِه وأعمقِه في الدَّلالةِ على المعنى المرادِ، فإنّه سبحانه قد يُحيي المسافرَ والغازيَ مع اقتحامِهما مواردَ الهَلَكةِ، ثم يُميتُ المقيمَ والقاعدَ مع أخذِهما بأسباب الحيطةِ والحذرِ[5].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/431.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/142.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/402.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1471.
(5) الصافي، الجدول: 4/351، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/84.

فائدةُ ذكرِ الإحياءِ مع أنّ الكلامَ في موتِ من ماتَ التّسويةُ بين أسبابِ الإحياءِ والإماتةِ، فكما شاهدتم الأحياءَ، وعلمتُمْ أنّ اللّه تعالى هو الذي أحياهم من غير سببٍ، كذلك فاعلمُوا أنّ اللّه تعالى قادرٌ على إماتتِهم من غير سببٍ، فقد يموتون وهم في بيوتهم، وقد يحضرون القتالَ ويشعرون بالجراحِ ويعيشُون[1].

في الطِّباقِ تسويةٌ بين أسبابِ الإحياءِ والإماتةِ

بلاغةُ إظهارِ اسمِه تعالى:

إظهارُ الاسمِ الجليلِ في موقعِ الإضمارِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ لتربيةِ المهابةِ وإلقاءِ الرَّوْعةِ والمبالغةِ في التّهديدِ والتّشديدِ في الوعيدِ[2]، فضلًا عن توكيد قُدرتِه، وألوهيتِه في مواطن العلم، والاستطاعةِ، والتَّمكينِ.

التَّلميحُ بالتّهديدِ والتّشديدِ في الوعيدِ بما يُشبه التَّصريح

توجيهُ القراءاتِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

اختلف القرَّاء في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فقرَأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ بالياء، على أنّه وعيدٌ للمنافقين، وقرأ الباقون ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ بالتاء على مخاطبة المؤمنين، فهذا توكيدٌ للنَّهيِ في قوله: ﴿لَا تَكُونُواْ﴾، ووعيدٌ لمن خالفَه ووعْدٌ لمن امتثلَه[3]، فهو ترغيبٌ وترهيبٌ، وتحذيرٌ لهم من أن يُضمروا العَوْدَ إلى ما نُهُوا عنه[4].

قراءةُ الياءِ باعتبارِه وعيدًا للمنافقين، وبالتاء باعتبارِه مخاطبةً للمؤمنين

بيانُ المناسبةِ بين العملِ، والبصرِ، والعلمِ:

علّقَ العملَ بالبصر مع أنّ تعليقَه بالسَّماع أليقُ؛ لكون قولِهم مسموعًا لا فعلًا مرئيًّا؛ لأنَّ قولَ الكافرين هو عن قصدٍ منهم إلى عملٍ يجادلونَهم، ولذلك خصَّ البَّصر، كقولك لمن يقول شيئًا - وهو يقصدُ به فعلًا يحاولُه -: أنا أرى ما يفعلُه[5].

تعليقُ العمل بالبصر لقصْدِ الكافرين بأقوالِهم عملًا يُجادلون به

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/434.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/104.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/532، وابن الجزري، النشر: 2/276.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/143.
(5) الراغب، تفسير الراغب: 3/944.

في هذا التَّذييلِ المعلّق فيه العملُ بالبصرِ إلماحٌ إلى أنّهم قد بلغُوا منَ الغباء أنهم لم يستتروا حتى في المعصية، ولكنّهم جعلوها حركةً واضحةً تُرى، وتُبصرُ، وهذا القولُ أقوى من (عليم)؛ لأنّ (عليم) تؤدّي إلى أن نفهمَ أنهم يَملكون بعضًا من حياءٍ ويسترون الأشياءَ، ولكنَّ عِلمَ اللّه هو الذي يفضحُهم[1].

في التَّعليقِ إلماحٌ إلى غبائِهم إذ لم يستتِرُوا في المعصية

ما يَعْمَلُه المنافقون عامٌّ متناولٌ لقولهم المذكورِ، ولِمُنشئِه الذي هو اعتقادُهم، ولما ترتَّبَ على ذلك منَ الأعمال، ولذلك تعرَّض لعُنوان البَصَر لا لعُنوان السّمعِ[2].

لفظُ العملِ عمومٌ يناسبُه لفظُ السَّمعِ

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكافر والمشرك:

الكفر: اسم جامع لعديد الذُّنوب، وهو يقعُ على ضروبٍ منه، والكافرُ بحسبِ ما تقدَّم من تأصيلٍ لُغويٍّ هو: (الجَاحد لأَنْعُمِ اللّه التي لا تُحصى)، وهو على الإطلاق متعارفٌ فيمن يجْحَدُ الوحدانيةَ، أو النّبوةَ، أو الشّريعَة، أو ثلاثتَها،[3]، ويطلق وصفًا لمن لا إيمانَ له، فإن أظهر الإيمانَ وأبطن الكفر، فهو المنافق، وإن طرأ كفره بعد الإيمانِ، فهو المرتدُّ[4]، في حين أنّ الشّرك: إثباتُ شَريكٍ للّه، وذلك أعظمُ كفْرٍ، أو مراعاةُ غيرِ اللّه في بعض الأمور[5]، فيما يُتَعبَّد به، أو التّسويةُ بين اللّه الخالق وبين أيٍّ غيره مخلوقٍ، وخلاصة معناه: تَسْوِيَةُ المَخْلوقِ باللّهِ فيما هو من خَصائِصِ اللّهِ تعالى، فهو ضربٌ واحدٌ منَ الذُّنوب على عِظَم شأنِه، وفداحةِ وصْفِه؛ لذا فهو أخصُّ، ومن هنا فاختيارُ لفظِ الكافرين الدالِّ على العُموم يناسبُ سياقَ

الكفرُ عامٌّ لتعدّدِ صُورِ الجُحود، والشِّركُ خاصٌّ بإثباتِ شَريكٍ لله

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 3/1833 - 1834.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/104.
(3) الراغب، المفردات: (كفر).
(4) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 3/282، والموصلي، مختصر الصواعق، ص: 620.
(5) الراغب، المفردات: (شرك).

الآية المباركةِ من حيث إنّ الكافرين المنافقين جاحدون لنبوّةِ الرّسول، ورسالتِه وهما طريقُ وحدانيتِه؛ فناسبَهمُ اللّفظُ الأعمُّ؛ إذ يصْدُقُ الكُفرُ عليهم بجحودِ واحدٍ من أمور الإيمان كلِّها، واللّٰه أعلم.

الحسرة، والنّدم:

الحسرة حزنٌ شديد حدَّ الجزع مصحوبٌ بلهفةٍ، وليس ذلك في النّدم شرطًا

الحَسْرَةُ بحسبِ ما أُسِّس من معنى لُغويٍّ: التَّلَهُّفُ على الشَّيْءِ الفَائِتِ، مصحوبٌ بجَزَعٍ، وَقِلَّةِ صَبْرٍ، والنَدِمُ على أمْرٍ فائتٍ[1] حدَّ الإعياء، والحسرةُ الندامةُ والاهتمامُ على فائت مُتَعلَّق فيه لم يقدرْ بلوغَه[2]، وهي: شدَّة الأسف، أي: الحزن[3]، وحقيقةُ الحسرةِ أن يلحقَ المرءَ من النَّدم ما يصير به حسيرًا؛ وذلك من تبيُّن انقطاع القوةِ والحَولِ بعد فَوت الفرصةِ، أي هو: شعور باطنيٌّ بالغُ الحِدَّةِ بالندم؛ لإضاعته سببَ السعادةِ الأبديةِ الذي كان متاحًا، مع عدم فرصة استدراك الأمر، وهذا معنى كلِّ كلمة ﴿حَسْرَةً﴾[4].

أمّا الندمُ والندامة: فتحسّرٌ من تغيُّرِ رأيٍ في أمرٍ فائتٍ[5]، من غير أنْ يقيّدَ بلهفة، وشدّةِ حزنٍ، وجزعٍ وإعياءٍ، بل يلمحُ فيه: أَنَّك قد تندمُ على الشَّيْءِ وَلَا تعتقدُ قبحَه[6]، ولذلك كان العُدولُ عن هذا اللّفظِ هنا إلى لفظِ الحسرةِ أنسبَ لسياقِ الآيةِ الكريمةِ بجعْلِ قولِهم بإرجاف المؤمنين، وزعزعةِ عقائدِهم حزنًا شديدًا في قلوبهم يزيدُهم ألمًا مستقِرًّا بها، مصحوبًا بجزعٍ ولهفةٍ، وهو مشهدٌ لا مجال فيه للنّدم مع عدم اعتقادِ القُبح، واللّٰه أعلم.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حَسَرَ).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/247.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/142.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حسر).
(5) الراغب، المفردات: (ندم).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 235.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ١٥٧﴾ [آل عمران: 157]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ما يُحذَر ترتُّبه على الغزو في سبيل الله ينبغي التنافسُ فيه

الآيةُ وجهٌ ثانٍ للجواب عن شُبهةِ المنافقين، وتقريرُه أنَّ الموتَ لا بُدَّ واقعٌ ولا محيصَ للإنسانِ من أنْ يُقتل أو يموتَ، فإذا وقعَ أحدهما في سبيل اللّه وفي طلبِ رضوانِه، فهو خيرٌ من أنْ يُجعلَ ذلك في طلب الدُّنيا ولذّاتها التي لا ينتفعُ الإنسان بها بعد الموت البتّةَ[1]. فالسِّياقُ شروعٌ في تحقيقِ أنّ ما يحذرونَ ترتُّبَه على الغزوِ منَ القَتْل أو الموتِ في سبيلِ اللّه تعالى ليسَ ممَّا ينبغِي أنْ يُحذرَ، بل ممّا يجبُ أنْ يتنافسَ المتنافسون إثرَ إبطالِ ترتُّبه عليهما[2]؛ لأنَّ ما يحصلُ لهم من مغفرةِ اللّه ورحمته بسبب ذلك خيرٌ ممّا يجمعُون من حُطام الدُّنيا ومنافعِها، لو لم يُهلَكُوا بالقَتْل أو الموت[3].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبِيلِ﴾: السِّينُ وَالبَاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى امْتِدَادِ شَيْءٍ، ومن الامتداد، السَّبيلُ: وهو الطَّريقُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِامْتِدَادِه[4]، والسَّبيلُ: الطريق الذي فيه سهولةٌ، وجمعُه سُبُلٌ، ويُستعمل لكلِّ ما يُتوصّلُ به إلى شيء خيرًا كان أو شرًّا[5]، فسَبِيلُ اللّهِ طريقُ الهدى الذي دعَا إليه، وكلُّ ما أمَرَ به منَ الخَيْر[6]. والمراد به في الآية: الجهادُ في سبيل اللّه.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/403.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/104.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/102.
(4) ابن فارس، المقاييس: (سبل).
(5) الراغب، المفردات: (سبل).
(6) ابن سيده، المحكم: (سبل).

2) ﴿وَرَحۡمَةٌ﴾: الرَّاءُ وَالحَاءُ وَالمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الرِّقَّةِ وَالعَطْفِ وَالرَّأْفَةِ، يُقَالُ مِنْ ذَلِكَ: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إِذَا رَقَّ لَهُ وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِ[1]، والرَّحْمة: رِقَّة تَقْتَضِي الإِحْسَانَ إِلَى المَرْحُوم، وقد تُسْتَعْمَل تارَةً في الرِّقَّة المُجرَّدة وتارةً في الإِحْسَان المُجَرَّد عَنِ الرِّقَّة، نَحْو: رَحِم اللّه فُلانًا، وَإِذا وُصِف بها البَاري فَلَيْسَ يُرَاد بها إِلَّا الإِحْسَانَ المُجَرَّدَ[2]، من قول، أو فعل يقتضي الإحسانَ إلى المرحوم، وإيصالَ المنافع، والمصالحِ له. وصفةُ الرحمةِ من الصفات الفعلية والذاتية للّه سُبۡحَانَهُ وتعالى؛ فهو سُبۡحَانَهُ يرحم من يشاء، فلم يزل متَّصفاً بالرحمة، فالرحمةُ العامةُ ملازمةٌ لذاته - تعالى - وإن كان أفرادُها تتجدَّدُ[3]. ومعنى اللَّفظِ في الآيَة الكريمةِ ظاهرٌ في دَلالتِه على الإنعامِ والتّفضّلِ والإحسانِ والرأفة، واللّه أعلم.

3) ﴿خَيۡرٌ﴾: الخاءُ واليَاء والرَّاءُ: جذرٌ، أصلُهُ العَطْف والمَيْلُ، ونقيضُهُ الشَّر؛ لأَنَّ كلَّ واحدٍ يميلُ إليه، ويعطِفُ على صاحبِه، والخيرُ: الكَرمُ[4]، وهو: ما يَرغبُ فيه الكلُّ: كالعَقْلِ، والعَدْلِ، والفَضْلِ، والشَّيءِ النّافع، وهو منَ الخيرِ المُطلق؛ لكونه مرغوبًا فيه بكلِّ حالٍ[5]، وخيريةُ اللّه تعالى في الآية: (مغفرةً، ورحمةً) مطلقةٌ لا تحدّها حدودٌ، ولذلك فاللّفظةُ محتملةٌ هذه المعانيَ وغيرَها ممَّا لا يخطرُ في ذهنٍ، واللّه أعلم.

4) ﴿يَجۡمَعُونَ﴾: الجِيمُ وَالمِيمُ وَالعَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى تَضَامِّ الشَّيْءِ، يُقَالُ: جَمَعْتُ الشَّيْءَ جَمْعًا[6]، والجمع: تضامُّ أشياءَ متجانسةٍ كثيرةٍ، وعُمِّم في كلِّ جمعٍ لمال، أو ناسٍ، أو غيرِهما[7]، ومعنى اللّفظِ في الآية الكريمةِ محتملٌ لمطلَقِ الجمعِ من مادّياتِ الدُّنيا مالًا كان، أو غيرَه، واللّه أعلم.

❁ المَعۡنَى الإِجۡمَاليُّ:

دعا جلَّ ثناؤه عبادَه المؤمنين إلى عدمِ الشّكِّ في أنَّ مقاليدَ الأمورِ كلَّها بيدِه، ومنها

---

(1) ابن فارس، المقاييس: (رَحِمَ).
(2) الراغب، المفردات: (رَحِمَ).
(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 11/357، وابن القيم، بدائع الفوائد: 1/168.
(4) ابن فارس، المقاييس: (خير).
(5) الراغب، المفردات: (خير).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جَمَعَ).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جمع).

الإحياءُ والإماتةُ، كما شكّ المنافقون في ذلك، والواجبُ الجهادُ في سبيل اللّه وقتالُ أعدائه، متيقّنين بأنه لا يُقتلُ في حربٍ ولا يموتُ في سفرٍ إلا من بلغَ أجلَه وحانت وفاتُه. وإنما جزاءُ ذلك مغفرةٌ منه ورحمةٌ خيرٌ لهم مما يجمعون في الدُّنيا من حُطامِها ورغيدِ عيشها الذي من أجلِه يتثاقلون عنِ الجهاد، ويتأخرون عن لقاءِ العدوّ[1].

أعظمُ المنازلِ وأكرمُها عند اللّه منزلةُ من يموت في سبيله

وتُرشدُ الآية الكريمةُ إلى ترغيب المؤمنين في الجهادِ، وأنّه مما يجبُ أن يتنافَسَ فيه المتنافسون إعلاءً لكلمةِ اللّه تعالى[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ التَّعبيرِ عنِ المستقبل بالماضي:

جاء التَّعبيرُ بالفعلين ﴿قُتِلۡتُمۡ﴾، و﴿مُتُّمۡ﴾ بصيغةِ الماضي؛ لاستحضارِ مشهدِ الموت والقَتْل، فكأنَّه كائنٌ حاصلٌ تأكيدًا لتحقُّق وقوعِه؛ فلا يشكَّنَّ به إلا جاحدٌ، ولا يغفلنَّ عنه إلا لاهٍ.

إيثارُ الماضي لاستحضارِ المشهد، وتأكيدِ الحصولِ

تقديمُ لفظِ القَتْل باعتبارِه الأهمَّ في سياقِ التَّحريضِ على الجهادِ:

تقدّمَ ذكرُ القَتْلِ على الموت في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ﴾؛ لأنَّ السِّياقَ محلُّ تحريضٍ على الجِّهاد، فقُدِّم الأهمُّ والأشْرَفُ[3]، ولأنَّ الغالبَ في نوعِ ميتةِ المقاتلين القَتْلُ، لذلك قدَّمَ القَتْلَ على الموت[4].

وجهُ احتمالِ جعْلِ الموتِ في سبيلِه:

تحتملُ الآيةُ أن يكون قولُه: ﴿لَمَغۡفِرَةٞ﴾ إشارةً إلى القَتْل أو الموتِ في سبيل اللّه[5]، فالموتُ قد يكونُ في سبيله وإن لم يكن في غزوةٍ أو ساحة جهادٍ، ومصداقُه قولُه ﷺ: "مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ

المؤمنُ الذي يعيشُ لله يموتُ في سبيلِ الله

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/337.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/104.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/532، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/103، والبقاعي، نظم الدُّرر: 5/105.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 3/1835.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/533.

مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ"[1]، ويمكن ذلك أيضًا إذا كان المؤمنُ يعيشُ طولَ حياتِه مُخلصًا للّه وللحقِّ وللمعرفةِ والهدايةِ، يحبُّ الشَّيءَ لَا يحبُّه إلا للّه تعالى، وكان اللّه ورسولُه أحبَّ إليه من نفسِه، فإنَّ من يكونُ كذلك يعيشُ للّه وفي سبيل اللّه ويموتُ في سبيل اللّه[2].

تناسبُ المَطلع والمُختتَمِ في مقام الجزاء والمثوبة

ابتدأ بالقَتْل؛ لكونِه خطابًا للمؤمنينِ الذين جاهدوا في أعقابِ مقتلةٍ أصابتِ المسلمين وأصابهم هَمٌّ بسببِها فناسبَهُ حُسْنُ المُختتَم تبشيرًا ﴿لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾، فالأمرُ مقطوعٌ في كونِهم أكثرَ ثوابًا وأعظمَ عند اللّه؛ لكونِه قتلًا في سبيله؛ فتَرتُّبُ المغفرةِ والرَّحمةِ عليه أقوى[3].

تقديمُ ذكرِ الموتِ ترغيبٌ في الجهادِ

يقول العمادي: "وتغييرُ الترتيب الواقعِ في قولِهم: ﴿مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ المَبنيِّ على كثرةِ الوقوعِ وقِلّته؛ للمبالغةِ في التّرغيب في الجهاد ببيانِ زيادةِ مزيّةِ القَتْل في سبيل اللّه وإنافته في استجلاب المغفرةِ والرَّحمةِ"[4].

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ السَّبيلِ:

سبيلُ الله يَسيرٌ سهلٌ، متَّصفٌ بالخيريّةِ

في قولِه: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ؛ حيث استعارَ السَّبيلَ لدِينِ اللّه[5]؛ للدّلالةِ على طريق هُدَى اللّه وما دعا اليه طريقٌ محمودٌ سهلُ المَسلكِ بحمولِ دَلالة لفظِ السَّبيل على اليُسْر، والطَّريقِ المحمودِ الحسنِ.

توجيهُ معنى اللّامَيْنِ في الآيةِ:

لامُ القَسَم لتأكيدِ الحصْرِ والاختصاص

اللّامُ في قولِه: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ﴾ موطِّئةٌ للقسم، أي: مؤذنةٌ بأنَّ قبْلَها قسَمًا مقدَّرًا.

---

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1909).

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1472.

(3) الخفاجي، عناية القاضي: 3/74، والآلوسي، روح المعاني: 4/105، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1472 - 1473.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/104.

(5) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/202.

وفي قولِه تعالى: ﴿لَمَغۡفِرَةٌ﴾ قيل: هي المتلقيَّةُ القسمَ، والتّقديرُ: واللّه لمغفرةٌ[1]، وإدخالُ لامِ القسَم على المعمولِ المُقدَّم مُشْعِرٌ بتأكيد الحصْرِ والاختصاص، وبأنَّ ألوهيَّتَه تعالى هي التي تقتضي ذلك[2]، وكذلك: "لَمّا كانَ لِلنُّفُوسِ غايَةُ الجُمُوحِ عَنِ المَوْتِ؛ زادَ في التَّأْكِيدِ؛ فَقالَ: ﴿لَمَغۡفِرَةٌ﴾ فَهَذا تَعَبُّدٌ بِالخَوْفِ مِنَ العِقابِ"[3].

لامُ التأكيدِ لتأكيدِ الفوزِ بالمغفرةِ بعد القتلِ في سبيل الله

وقيل: هي لامُ التَّأكيدِ، فيكونُ المعنى: إنْ وجب أن تموتوا وتُقتَلوا في سفرِكم وغزوِكم، فكذلك يجبُ أن تفوزوا بالمغفرةِ أيضًا، فلماذا تحترزُون عنه، كأنَّه قيل: إنّ الموتَ والقَتْلَ غيرُ لازمِ الحُصولِ، ثمّ بتقديرِ أن يكون لازمًا؛ فإنّه يستعقبُ لزومَ المغفرة، فكيف يليق بالعاقل أن يحترزَ عنه[4]؟.

غرضُ تنكيرِ مغفرةٍ ورحمةٍ:

وقولُه تعالى: ﴿لَمَغۡفِرَةٌ﴾ رفعٌ بالابتداء، ﴿وَرَحۡمَةٌ﴾ عطفُ على المغفرة، وخَيْرٌ خبرُ الابتداء، والمعنى: المغفرةُ والرَّحْمةُ اللاحقةُ عنِ القَتْل أو الموتِ في سبيل اللّه خيرٌ، وتتعدَّدُ أغراضُ التَّنكيرِ في هذا السِّياقِ.

أقلُّ جُزءٍ من المغفرةِ خيرٌ منَ الدُّنيا وما فيها

فإمَّا أن يُحملَ على التَّقليلِ، إذ مجيءُ لفظَي المغفرةِ والرَّحْمةِ غيرَ مُعرَّفَيْن إشارةٌ بليغةٌ إلى أنّ أدنى خيرٍ منهما وأيسرَ جُزءٍ وأقلَّ شيءٍ خيرٌ منَ الدُّنيا، وأنّه كافٍ في فوز العبدِ المؤمن؛ فالتّنكيرُ قد يُشْعِرُ بالتّقليل[5].

تنكيرُ اللّفظَين للإطلاقِ

ويحتملُ التّنكير في لفظي (مغفرة) و(رحمة) إطلاقَهما سَعةً، ووصفًا، وحدودًا، ولذلك نكَّرهما وحذف متعلَّقَهما، ومصداقُه البِشارةُ بالنّعيم الذي وعدَ به الشّهداء، وهو قولُه ﷺ: "يُؤْتَى

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/532، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/143.

(2) الخفاجي، عناية القاضي: 3/74 - 75، والآلوسي، روح المعاني: 4/105.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/105.

(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/403.

(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/532، والسمين، الدُّرّ المصون: 3/457، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/104.

بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ خَيْرَ مَنْزِلٍ، فَيَقُولُ: سَلْ وَتَمَنَّ، فَيَقُولُ: مَا أَسْأَلُ وَأَتَمَنَّى إِلَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنيا فَأُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مَرَّاتٍ؛ لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ"[1].

المغفرةُ عظيمةٌ في محوِها الذُّنوب

ويصحُّ أن يكون التَّنكيرُ في ﴿لَمَغۡفِرَةٞ﴾ للتّعظيم، بدليلِ: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ فالمغفرةُ التي تمحو الذُّنوبَ هي عظيمةٌ، ويلتقي معنى التَّقليلِ والتَّعظيم، إذ معنى التَّقليل أنّه مهما قلَّ فهو أعظمُ من الدُّنيا وما فيها، فيؤول هذا القليلُ إلى أن يكون عظيمًا في ذاته.

نُكتةُ إظهارِ الاسمِ الأعظمِ:

إظهارُ اسم الله تعالى في سياقِ الوعْدِ مُنبئٌ عن تمامِ الرِّضا والكرمِ والرَّحْمةِ

اسمُ الله لمّا كان اسمًا للذّات الجامعِ لصفاتِ الكمالِ على وجه الكمال كان ذكرُه في معرض الوعْدِ مُنبئًا عن تمامِ الرِّضا والكرم والرَّحْمة، وفي معرضِ الوعِيد عن غايةِ السّخطِ والانتقام[2]، ودليلُ تمامِ الرضا هنا نسبةُ المغفرة إلى الله مباشرة: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دون ذكرِ الظّرفِ (من عند)، وفي هذا إظهارٌ للاعتناءِ بها ورمزٌ إلى تحقُّقِ وقوعِها[3].

توجيهُ عطفِ: ﴿وَرَحۡمَةٌ﴾ على المغفرة:

الرَّحْمةُ أعمُّ من المغفرةِ وسببُها

إمَّا أن يكونَ من بابِ عطفِ ما يعمُّ على ما يخصُّ، وذلك أنَّ المغفرةَ نعمةٌ، إذ بها تُدفعُ السِّيئات، والرَّحْمةُ تعمُّ جلْبَ الحسنات، ودفعَ السِّيات، والمغفرةُ تخصُّ محْوَ السيئات، فكان العطفُ تأسيسًا[4]، وتوجيهٌ آخر وهو أنَّ عطفَ الرَّحمةِ على المغفرةِ من قبيلِ عطفِ السَّببِ على المُسبَّبِ، فالله يغفرُ الذُّنوبَ؛ لأنَّه رحيمٌ بعبادِه.

(1) أحمد، المسند، الحديث رقم: (13162).
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 3/74 - 75.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/104.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/435.

توجيه القراءاتِ في قولِه: ﴿يَجْمَعُونَ﴾ وبيانُ الالتفاتِ فيها:

قراءةُ الغَيبةِ محمولةٌ على المنافقين، والخطاب على المؤمنين

قرأ حفصٌ عن عاصم: ﴿يَجْمَعُونَ﴾ بالياء على سبيل الغَيبةِ، وقرأ الباقون بالتاء على وجه الخطاب[1]، أما وجهُ الغَيبةِ فالمعنى أنَّ مغفرةَ اللّه خيرٌ مما يجمعُه هؤلاء المنافقون ممّا تركوا القتالَ لجمعِه منَ الحُطام الفاني، وأما وجهُ الخطاب فالمعنى أنّه تعالى كأنه يخاطبُ المؤمنين فيقول لهم: مغفرةُ اللّه خيرٌ لكم منَ الأموال التي تجمعونَها في الدُّنيا[2].

توجيهُ لفظِ ﴿خَيْرٌ﴾ على القراءتين:

وجهُ لفظِ الخيرِ في القراءتين الجمعُ بين عدمِ المشاركةِ، والتّفضيلِ

على قراءة الغَيبةِ يكون ﴿خَيْرٌ﴾ فعلًا، ولا مشاركَة فيها، أي: الخير خالصٌ للمؤمنين ولا يُشارك المنافقون في تلك الخيريَّةِ، وعلى قراءة الخطابِ يكون للمؤمنين فهي للتّفضيل، أي: تفضيل المغفرة والرحمة على الجمع؛ لأنّ موتَهم في القتال خيرٌ وأحسنُ من جميع المال الذي يُنفقُ في شهوات الدُّنيا ولذّاتِها[3].

وجهُ احتمالِ خيريّةِ ما يجمعون:

المغفرة خيرٌ من الأموالِ المباركاتِ فكيف بما دونها؟

منَ الواردِ أنَّ ما يجمعُونَه في الدُّنيا قد يكونُ من بابِ الحلالِ الذي يُعدُّ خيرًا، وهو واردٌ أيضًا على حسبِ قولِهم ومعتقَدِهم أنَّ تلك الأموالَ خيراتٌ، فقيل: المغفرةُ خيرٌ من هذه الأشياء التي تَظنّونها خيراتٍ[4]، فما بالكم بما تعدُّونه من السِّيئات؟!

فائدةُ التَّعبيرِ بـ (ما) والفعلِ المضارعِ:

المغفرة خيرٌ من جميعِ ما يُجمع على الدَّوامِ

(ما) في قولِه: ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ موصولةٌ اسميةٌ، والعائدُ محذوفٌ، ويجوزُ أن تكونَ مصدريةً[5]، وعمَّتْ هنا لكونِ استعمالِها لغيرِ العاقلِ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/276.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/403.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/435.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/404.
(5) ابن عادل، اللباب: 6/13.

لتشملَ عُمومَ ما يجمعُون على تنوُّعِه، وتعدُّدِه، ورسّخَ هذا العُمومَ حذفُ مفعولِ ﴿يَجۡمَعُونَ﴾ ليُطلقَ المرادُ منَ الجمعِ، والتَّعبيرُ به على صيغة المضارعِ دَلالةٌ على استمرارِه وتجدُّدِه بوصفِه منَ المكاسبِ الدّنيويةِ الزائلةِ.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السَّبيل، والطريق:

السَّبيل مخصَّصةٌ بسهولةِ الطريق، وكونِه محمودًا

في لفظ (السَّبيل) خصوصٌ بكونه يتميّزُ بالوضوحِ والسُّهولةِ، ولذلك ترى أكثَرَ إضافتِه في القرآن الكريم إلى لفظِ (اللّه) ظاهرًا أو مضمرًا، في مجالِ القتال، والإنفاق، والهجرة، ونحوها. أمَّا الطريقُ فهو أعمُّ؛ لأنّه يشملُ كلَّ مَسلكٍ يسلكُه الإنسانُ سواءً أكان محمودًا أم مذمومًا، سهلا أم صعبًا[1]، ولذلك اختيرَ السَّبيلُ هنا للدّلالةِ على طريقِ هُدى اللّه وما دعا إليه، وما رَتَّب سبحانه على سلوكه من نتائجَ؛ فهو طريقٌ محمودٌ سهلُ المسلكِ، ويناسبُه خصوصُ معنى اللّفظةِ، واللّه أعلم.

(1) داوود، معجم الفروق الدلالية، ص: 281- 284.

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ١٥٨﴾ [آل عمران: 158]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رغَّب سبحانه وتعالى المجاهدين في الآية قبلها بالحشر إلى مغفرة اللّه، وفي هذه الآية زاد في إعلاء الدَّرجات، فرغَّبهم هاهنا بالحشر إلى اللّه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُحْشَرُونَ﴾: الحاء والشّين والرَّاء أصلٌ، هو السّوق، والبعثُ، والانبعاث. والحشرُ الجمعُ مع سَوْقٍ، وكلُّ جمعٍ حَشْرٌ[2]. وهو إخراج الجماعة عن مقرِّهم، وإزعاجهم عنه إلى الحرب، ونحوها، ولا يُقال الحشر إلّا في الجماعة، وهو الخُروجُ في النَّفير إذا عَمَّ[3]. فالحشر سَوقٌ من المقارّ، ويزيد عليه الجمع، أي: التّضامُّ في المكان المحشور إليه. والمقصود بـ الحشرِ في الآية الكريمة يوم القيامة.

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

توكيدُ أنَّ المآل كلّه إليه سبحانه تصحيحٌ للقيم والتَّصورات

تبيِّنُ الآيةُ بأنَّ مصير العباد جميعًا إليه وحده على أيِّ حال كان انقضاء حياتهم، موتًا، أو قتلًا في سبيله، فإلى اللّه المرجعُ، والمعادُ، فيجازيكم بأعمالكم، فآثروا ما يقرِّبكم من اللّه ومن الجنّة، ويُوجب لكم رضاه، من الجهاد في سبيل اللّه والعمل بطاعته، على الرّكون إلى الدّنيا، وما تجمعون من حُطامها الّذي هو غير باقٍ لكم، بل هو زائلٌ عنكم[4].

وترشدُ الآية الكريمة إلى تحقير أمر الدُّنيا والحضِّ على طلب الشَّهادة، أي: إذا كان الحشر حتميًّا في كلا الأمرين فالمضي إليه في

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/404.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (حشر).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النّهاية: (حشر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 7/339.

حال الشّهادة أولى[1]. وذلك أنَّ مصير كل من يموت أو يقتل صائرٌ إلى اللّه تعالى مهما كان سبب موته أو قتله، ومهما طالت حياته، ومن هنا فالاشتغال بذكر سبب هذا المصير ومبدئه لا يفيد، وإنّما الّذي يفيد هو الاهتمام بذلك المستقبل والاشتغال بالاستعداد له، وذلك دأب العقلاء من المؤمنين[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التّعبير عن المستقبل بالماضي:

مبالغة في تحقّق وقـوع الفعـل، وتأكيد حصوله

من عادات القرآن التَّعبير عن الشَّيء اللّازم الحصول في المستقبل بأنّه حَدَثَ أو هو حادث قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]؛ إذ لو وقع التّعبير عنه بلفظ المستقبل لم يكن فيه مبالغة كوقوع التَّعبير عنه بلفظ الماضي[3].

ومن هنا جاء التَّعبير بالفعلين ﴿مُتُّمۡ﴾ و﴿قُتِلۡتُمۡ﴾ بصيغة الماضي؛ لاستحضارِ مشهد الموت، والقتل، وكأنَّه حاصلٌ تأكيدًا لتحقُّق وقوعه؛ فلا يشكَّنَّ به إلّا جاحدٌ، ولا يغفلنَّ عنه إلّا لاهٍ.

علّة الشّرط بـ (إِنْ):

المـوتُ محتمِلُ الـــوقـــوعِ في القتالِ، وليس لازمًا له

آثر النَّظم استعمالَ (إنْ) وهي تُستعملُ فيما هو مظنَّةُ الوقوع، والموت المذكورُ في الآية مقطوعٌ بوقوعه، والسِّياقُ هو في الحديث عن الجهاد والقتال في سبيل اللّه، ومعلومٌ أنَّ القتالَ في المعارك مظنّةُ الموتِ، فهو ليس من لوازم الحرب والقتال، فناسب أن يكون الشّرط بـ(إن) لكون الموت مُحتملَ الوقوعِ في القتال، وليس لازمًا له[4].

دلالة حذف مُتعلّق الموت والقتل:

قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾ خطابٌ عامٌّ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/533.
(2) رضا، تفسير المنار: 4/162.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/401.
(4) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/202.

للمؤمن والكافر للإخبار بأنَّ مصير الجميع إليه، فيُجازي كلًّا بعمله، وتوجيهُ ذلك أنَّ الموت والقتل لمّا أُطلقا، ولم يُقيَّدا بذكرٍ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كما قُيِّدا في الآية السَّابقة، فُهم أنّ ذلك عامّ[1].

تنوُّعُ احتمالِ أن يكونَ الخطابُ عامًّا وخاصًّا

وذهب الواحديُّ إلى أنّه خطابٌ للمؤمنين كالخطاب السَّابق، وتقديره عنده: ولئن مُتّم مقيمين عن الجهاد، أو قُتلتم مجاهدين؛ لإلى اللّه تحشرون، يعني: في الحالتين، وهذا تهديد بالحشر، وتحذير من القيامة[2]، ووافقه أبو حيّان بدليل تقدير الزّمخشريّ: لإلى الرّحيم الواسع الرّحمة المميت العظيم الثّواب تحشرون[3].

توجيه المتشابِه اللَّفظي تقديمًا وتأخيرًا في لفظتي الموت والقتل:

تـقـديمُ القـتـلِ للتَّحـريض على الجهاد، والموتِ لأنَّه الأغلبُ

تقدّم ذكرُ القتل على الموت أوّلًا؛ لأنّه محلُّ تحريضٍ على الجهاد، فقدَّم الأهمَّ والأشرفَ. وقدَّمَ الموت هنا على القتل؛ لأنّها آية وعظ بالآخرة والحشر، وتزهيد في الدُّنيا والحياة، والموت فيها مُطلَق لم يقيّد بشيء، فإمّا أن يكون الخطاب مُختصًّا بمن خُوطب قبل، وإمّا أن يكونَ عامًّا واندرج أولئك فيه، فقُدِّم لعمومه؛ ولأنّه أغلب في النّاس من القتل[4]، أي: لمّا ذكرَ أشرفَ الموت بدأ بأشرفِه، ولمّا ذكَرَ ما دونه بدأ بأدناه[5].

وتوجيهٌ ثانٍ وهو:

مناسبةُ التَّقديمِ باعتبارِ الجزاءِ والمثوبة

أنّه ابتدأ بالقتل أوّلاً؛ لكونه خطابًا للمؤمنين الّذين جاهدوا في أعقاب مقتلةٍ أصابتِ المسلمين، وأصابهم هَمٌّ بسببها، وابتدأَ بالموت ثانيًا لأنَّ الخطاب لعموم المسلمين فناسبَهُ الجزاء العامّ غير المميَّز بفضلٍ ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾ فأكثرهما مستويان في الحشر[6].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/103.
(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/512.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/103.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/532، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/103.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/105.
(6) الخفاجي، عناية القاضي: 3/74، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1472 - 1473.

الاعتبار بمظنّة البُعد أو القُرب عن المُتعلَّق

وتوجيهٌ ثالثٌ وهو:

أنَّه قدّم القتل في الآية السَّابقة ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ والموت في هذه الآية اعتبارًا بعطف ما يُظنُّ أنَّه أبعد عن الحكم، فإنَّ كون القتل في سبيل اللّه سببًا للمغفرة أمرٌ قريبٌ، ولكن كون الموت في غير سبيله أمرٌ خفيٌّ مُستبَعد، وكذلك تقديمُ الموت في الثَّانية؛ لأنَّ القتل في سبيل اللّه قد يُظنُّ أنَّه بعيدٌ عن أن يعقُبَه الحشرُ[1].

مناسبة طبيعة الميتة لنوع الفعل

وتوجيهٌ رابعٌ وهو:

الغالب في نوع ميتة المقاتلين القتل؛ لذلك قدَّم القتل على الموت في الآية الأولى؛ فالآية جاءت كما أسلفنا في القتال، أمّا هذه الآية فالحديث فيها عن مصير جميع العباد وأكثرهم يتوَّفاه اللّه بسبب الموت؛ لذا قدَّم الموت على القتل[2]؛ لأنّه أعمُّ من القتل وأكثر[3].

توجيه معنى اللّامينِ في الآية:

لامُ القَسَم لتأكيدِ الحصر والاختصاص

اللّام في قوله ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ﴾ كاللّام في الآية قبلها موطِّئةٌ للقسم، أي: مُؤذنةٌ بأنَّ قبلها قسمًا مُقدَّرًا، وفي ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ هي المُتلقِّية للقسم[4]، وإدخال لام القسم على المعمول المُقدَّم مُشعِرٌ بتأكيد الحصر والاختصاص، وبأنّ ألوهيّته تعالى هي الّتي تقتضي ذلك[5].

لام التّأكيد للتّنبيه على أنّ الألوهيّة تقتضي الحشر

إدخالُ لام التّأكيد في حرفِ الجرِّ الدَّاخلِ على اسم اللّه حيث قال: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ تنبيهٌ على أنّ الألوهيّة تقتضي هذا الحشر والنّشر، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ١٥﴾ [طه: 15][6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/143 - 144.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1835.
(3) رضا، تفسير القرآن الحكيم: 4/162.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/532، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/143.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 3/74 - 75، والآلوسي، روح المعاني: 4/105.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/404 - 405.

بلاغةُ تقديم مُتعلَّق الفعل عليه في قولِه: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾:

تنبيهُ العبادِ إلى أنَّ منتهى الأمرِ الحشرُ

قولُه تعالى: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿تُحۡشَرُونَ﴾، وفي وجهِ تقديمه ما يأتي:

أوَّلًا: للاختصاصِ والحَصْرِ، أي: إلى اللّه لا إلى غيره يكونُ حَشْرُكُم، فلا رجاءَ، ولا ثوابَ إلّا منه، ولا حاكم في ذلك اليوم، ولا ضارّ، ولا نافع إلّا هو سبحانه، قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار: 19][(1)].

ثانيًا: قُدِّم للاعتناءِ به والاهتمامِ بذكرِه، وزاده حسنًا هنا أن تأخّر الفعل هنا بوصفه فاصلة، فلو تأخّر المجرور لفات هذا الغرض؛ إذ في التّقديم تضمّنتِ الآية تحقيرَ أمر الدّنيا والحرص على الشّهادة، وأنّ مصير النَّاس جميعًا إلى اللّه، فالموافاة على الشّهادة أمثلُ بالمرءِ ليُحرزَ ثوابَها، ويجده وقت الحشر[(2)].

نكتةُ إظهارِ الاسمِ الأعظمِ:

مَواضِعُ الإعجازِ والاستحالةِ دلائلُ العظمةِ

دلّ إظهارُ اسمِ اللّه الأحسنِ على عظمته[(3)]؛ إذِ الموتُ، والبعث، والحشر من محالات الأمور الّتي لا يقدر عليها غيره سبحانه، كما أنَّ كمالَ الصّفاتِ هي كمالٌ للرّحمةِ، وكمالٌ للقهرِ، فمصداقُ كمالِ الرّحمةِ أعظمُ أنواع الوعد، ومصداقُ كمال القهر أشدُّ أنواعِ الوعيد[(4)]، ولكون اسمه الأعظم اسمًا للذّات، الجامع لصفات الكمال على وجه الكمال، كان ذكره في مَعرِض الوعد مُنبئًا عن تمام الرّضا والكرم والرّحمة، وفي مَعرِض الوعيد عن غاية السّخط والانتقام[(5)].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/404.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/103.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/105.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/404.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 3/74 - 75.

سرّ التّعبير بالفعل المبنيّ للمفعولِ:

تـركُ التّصريح بالفاعل في مثل هذا المَوضِع أدلّ على العظمة

قوله: ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ فعلٌ لم يُسمَّ فاعلُه، مع أنّ فاعل ذلك الحشر هو اللّه، وإنّما لم يقع التّصريح به؛ لأنَّ قولَه: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ دالٌّ على الفاعلِ، ولأنّه تعالى هو العظيم الكبير الّذي شهدتِ العقولُ بأنّه هو اللّه الّذي يُبدئ ويعيد، ومنه الإنشاء والإعادة، فترك التّصريح في مثل هذا المَوضِع أدلّ على العظمة، وأدعى لانشغالهم بالفعل عن الفاعل المعروف، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ [هود: 44][1].

ولبيان أنّه لا حيلة في دفع الموت على أيِّ حالة من الحالات، قتل أو غيره، ولا في الحشر إليه سبحانه وتعالى، وأمّا الخلاص من هول ذلك اليوم ففيه حيلة بالطّاعة[2].

عمومُ الخطابِ في قولِه تعالى: ﴿تُحۡشَرُونَ﴾:

التّـعـبـير بالجمع للإنذار والتّـبـشـير، والتّذكر باللّقاء، ولتحقيق كليّة الجمع

قوله: ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ خطابٌ مع الكلّ، فهو يدلّ على أنّ جميع العالَمين يجتمعون، ويحشرون، ويوقفون في عرصة القيامة وبساط العدل، لا يفلت منهم أحد، فيجتمع المظلوم مع الظّالم، والمقتول مع القاتل، والحقّ سبحانه وتعالى يحكم بين عبيده بالعدل المبرأ عن الجور[3]. وفي هذا إنذارٌ، وتبشيرٌ، وتذكيرٌ بلقاء اللّه العليّ الكبير[4].

براعة ترتيب الجزاء:

الـترقّـي في مـقـامـات العبوديّة

في هذه الآية والّتي قبلها ترتيبٌ للجزاء في غاية الحُسن؛ فإنّه قال في الآية الأولى: ﴿لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وهي التّجاوز عنِ السّيئات، وذلك إشارة إلى مَن عَبَدَه خوفاً من عقابه، ثمّ قال: ﴿وَرَحۡمَةٌ﴾، وهي التّفضُّل بالمثوبات، وهو إشارةٌ إلى مَن عَبَدَه لطلب ثوابه، ثمّ ختمها

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/405.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/105.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/405.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1473.

بقوله: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾، وهو إشارةٌ إلى مَن عَبَدَه لمجرَّدِ العبوديّةِ والرّبوبيّةِ، وهذا أعلى المقاماتِ وأبعد النّهايات في العبوديّة في علوّ الدّرجة، فبين الحشر إلى مغفرة اللّه، والحشر إلى اللّه فرق كبير، فالّذين بذلوا أنفسهم وأبدانهم في طاعته ومجاهدة عدوّه يكون حشرهم إليه هو، واستئناسهم بكرمه، وتمتّعهم بشروق نور ربوبيّته[1].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/404، والخلوتي، روح البيان: 2/115.

﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾

[آل عمران: 159]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا انهزمَ القومُ عنِ النَّبيّ ﷺ يومَ أُحدٍ، ثمّ عادوا، لم يخاطبهم الرّسول ﷺ بالتّغليظ والتّشديد، وإنّما خاطبهم بالكلام اللّين، ثمّ لَمَّا أرشدهم سبحانه في الآيات المُتقدِّمة إلى ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم - وكان من جملة ذلك أن عفا عنهم - زاد في الفضل والإحسان بأن مَدَحَ الرّسولَ ﷺ على عفوه عنهم، وتركِه التّغليظ عليهم(1).

وبَعْدَ الفراغِ من وعظ الصّحابة - رضي الله تعالى عنهم - أتبعه تحبيبَ النّبيِّ ﷺ فيما فعل بهم من الرّفق واللّين، مع ما سبَّبَ الغضب المُوجِب للعنف والسّطوة من اعتراض من اعترض على ما أشار به، ثمّ مخالفتهم لأمره في حفظ المركز، والصّبر، والتّقوى، وغير ذلك من الأمور الّتي تُوجِب الغضبَ وإيقاع بعضهم ببعضٍ؛ ليكون ذلك زاجرًا لهم عن العود إلى مثله(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِنتَ﴾: اللَّام والياء والنُّون كلمةٌ واحدةٌ، وهي اللِّينُ: ضدُّ الخشونة. ويُقالُ: هو في لَيَانٍ مِن عَيشٍ، أَي: نَعمَةٍ، وفلانٌ مَلْيَنَةٌ، أَي: لَيِّنُ الجانبِ(3). واللِّيان بالكسر: المُلايَنَة والملاطَفة(4). ويُستعمل اللّين في الأجسام، ثم يُستعار للخُلُق وغيره من المعاني، فيُقال: فلانٌ ليّن، وفلانٌ خَشِنٌ، وكلّ واحدٍ منهما يُمدَح به طَورًا، ويُذمّ به طَورًا بحسب اختلاف

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/405.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/106.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لين).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (لين).

المَواقِع[1]. واللّين حسن الخُلق، وحسن الكلام بالصَّفو والزّلال[2]. والسّهولة والسّكون والوقار والخشوع[3]. وكلُّ ما في القرآن من اللّين فهو من المرونة ضدّ القساوة والصّلابة[4].

2) ﴿فَظًّا﴾: الفاءُ والظّاءُ كلمةٌ تدُلُّ على كراهةٍ وتكرُّهٍ. والرّجل الفظُّ: الكريه الخُلُق[5] الّذي فيه غِلَظٌ في مَنطقه وتَجَهُّمٌ، والفَظَظُ خُشونةٌ في الكلام. والفَظُّ: ماءُ الكَرِش، ومن عادة العرب إذا اضطَرّت شَقُّوا الكَرِش وشَرِبوا منها الماءَ[6]. وذلك مكروه شربُه لا يُتناول إلّا في أشدّ ضرورة[7]. والفظُّ: الرّجلُ الغليظُ[8]. والفَظُّ: السَّيِّئُ الخُلق، الجافي الطَّبع[9]. وفلان أفظّ من فلان: أي: أصعب خلقًا وأشرس. وكان النّبيّ ﷺ رؤوفًا رحيمًا، كما وصفه اللّه تعالى، رفيقًا بأمّته في التّبليغ، وصفتُه في التوراة: "لستَ بِفَظٍّ ولا غليظٍ، ولا سَخّابٍ بالأسواقِ"[10].

3) ﴿غَلِيظَ﴾: الغِلظَة ضدُّ الرّقة، ويُقال: غِلظة وغُلظةٌ، وأصله أن يُستعملَ في الأجسام لكن قد يُستعارُ للمعاني، والغِلظة: الخشونة[11]. وغِلَظُ القلب: عبارة عن قلّة الرَّحمة، وبإزائه رقّة القلب[12]. والغِلظَة: الشّدّة البالغة مع الحدّة[13]. والغليظ: القاسي القلب[14].

4) ﴿لَٱنفَضُّواْ﴾: "الفاء والضّاد أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على تفريقٍ وتَجزئةٍ. مِن ذلك: فَضَضتُ الشَّيءَ، إذا فَرَّقتَهُ"[15]. فالفضُّ: تفريقُك حَلقَةً من الناس بعدَ اجتِماع[16]. وهو:

(1) الرّاغب، المفردات: (لين).
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/948.
(3) ابن الأثير، النّهاية: (لين).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لون - لين).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فظ).
(6) الخليل، العين: (فظ).
(7) الرّاغب، المفردات: (فظ).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (فظظ).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(10) رواه البخاري في صحيح، الحديث رقم: (2125)، وأحمد في المسند، الحديث رقم: (6622)، ومعنى: (ولا سَخّابٍ في الأسواقِ)، أي: لا يَرفَعُ صَوتَه على النَّاسِ في الأسواق لسُوءِ خُلُقِه، ولا يُكثِرُ الصِّياحَ عليهم، بل يُلينُ جانِبَه لهم ويَرفُقُ بهم.
(11) الرّاغب، المفردات: (غلظ).
(12) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/949.
(13) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلظ).
(14) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(15) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فض).
(16) الخليل، العين: (فض).

الكَسرُ بالتّفرقة[1]. فالانفضاض: التَّفرق، ويُقال: انفضَّ اعتبارًا بانكسار بعضهم عن بعض[2]. ومعنى الانفضاض في الآية الكريمة: التَّفرق[3].

5) ﴿حَوْلِكَۖ﴾: "الحاء والواو واللّام أَصلٌ واحدٌ، وهو تَحَرُّكٌ في دَورٍ"[4]. وحوالَي الدّار: جانِبَيه[5]. وجانبه الّذي يمكنه أن يُحوَّل إليه[6]، فهو الظّرف الّذي يعبر عن المنطقة المحيطة بجوانب الشّيء واتّجاهاته، أي: مجال تحوّله[7]. ويجوز أن يكون معنى ﴿مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾، أي: من جهتك وإزائك[8].

6) ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ﴾: الشّين والواو والرَّاء أَصلان مُطّرِدان، أحدهما أَخذُ شَيءٍ. مِن هذا الباب شاوَرتُ فُلانًا في أَمري. قال: وهو مُشتقٌّ مِن شَورِ العسلِ، فكأَنَّ المُستَشيرَ يَأخُذُ الرَّأيَ مِن غيرِهِ[9]. فالتّشاور والمُشاورة والمَشورة: استخراج الرّأي بمراجعة بعض إلى بعض، والشُّورى: الأمر الّذي يُتشاور فيه[10]. والمُشاورة: استخراج صائب الرّأي من الغير[11]. وإنّما تكون في الأمر المهمّ المُشكِل من شؤون المرء في نفسه أو شؤون القبيلة أو شؤون الأمّة[12].

7) ﴿عَزَمۡتَ﴾: العينُ والزَّاءُ والميمُ أَصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدُلُّ على الصَّريمة والقَطع. يُقالُ: عَزَمتُ عليك إلَّا فعلتَ كذا، أي: جَعَلتُه أمرًا عَزمًا، أَي: لا مَثنَوِيَّةَ فيه. العَزمُ: ما عَقدَ عليه القلبُ أنَّكَ فاعلهُ، أو من أمرٍ تيقّنتَهُ. والعزيمة الثّبات على أمر يَعزِم عليه، ويُقالُ: ما لِفلانٍ عَزيمةٌ، أَي: ما يَعزِمُ عليه، كأنَّه لا يُمكِنُهُ أَن يَصرِمَ الأَمرَ، بل يَختَلِطُ فيه ويَتَرَدَّدُ[13].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (فضض)
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/949.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَوَلَ).
(5) الخليل، العين: (حول).
(6) الرّاغب، المفردات: (حول).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حول).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شَوَرَ).
(10) الرّاغب، المفردات: (شور).
(11) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/949.
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/147.
(13) الخليل، العين (عزم)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عَزَمَ).

وهو عقد القلب على إمضاء الأمر[1]. وثباتُ الرّأي عليه، نحو إجماع الرّأي[2]. وهو: الجدُّ، والقوّة، والصَّبر[3]. واستمرار الشّدّة والجِدّ فيما عُقِد عليه قلبك من أمر، فعَزَم على الأمر وعَزَمه: أراد فعله إرادةً جادَّةً دائمةً[4].

8) ﴿فَتَوَكَّلۡ﴾ ﴿ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾: الواو والكاف واللّام أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على اعتِماد غيرِك في أمرِك. والتّوكّلُ منه، وهو: إظهار العجز في الأمر، والاعتماد على غيرك، وتجعله نائبًا عنك، وتصرِّفُ الأمر إليه، وتسلِّمهُ وتتركه[5]، ومنه: الوكيلُ: الحافظُ، والكفيل، والمتوكّلُ على اللّه يعلم أنّه كافلُ رزقه، وأمره؛ فاطمأنَّ قلبه على ذلك، ولم يوكِل أمرَهُ إلى غيره[6]. فالتّوكّل على اللّه: اعتمادُ القلب على اللّه في حصول ما ينفع العبد في دينه، ودنياه، ودفعِ ما يضرُّه في دينه، ودنياه، مع الأخذ بالأسباب المشروعة[7]، وهي معنى اللّفظة في الآية الكريمة.

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

صفات القيادة الدينية ومقتضياتها

فبرحمة من اللّه لك ولأصحابك - أيها النبيُّ - منَّ اللّه عليك فكنت رفيقًا بهم، ولِنْتَ لهم؛ فسَهُلت لهم وحَسُنت لهم أخلاقك، حتّى احتملتَ أذى من نالك منهم أذاه، وعفوتَ عن ذي الجُرم منهم جُرمَه، وأغضيتَ عن كثير ممَّن لو جفوت به وأغلظت عليه لتركَكَ، ففارقكَ ولم يتَّبعْكَ، ولا ما بُعثتَ به من الرّحمة، ولكنّ اللّه رحمهم ورحمك معهم[8].

ففي الآية تقريعٌ لجميع من أخلَّ بمركزه يوم أُحُد، فاستحقّوا الملام منك، والأصل أن لا تلين لهم، ولكن رحم اللّه جميعكم، أنت

(1) الرّاغب، المفردات: (عزم).
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/950.
(3) ابن الأثير، النّهاية: (عزم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عزم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (وَكَلَ).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وَكَلَ).
(7) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 8/177، وابن القيم، مدارج السالكين: 3/523.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 7/341، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 71.

- أيها النبيُّ - بأن جعلك الله على خُلقٍ عظيم، وبعثك لتُتَمِّمَ محاسنَ الأخلاق، وهم بأنْ ليّنك لهم، وجُعِلت بهذه الصّفات لما علم تعالى في ذلك من صلاحهم، وأنّك لو كُنتَ فَظًّا غَليظَ القلب لانفضُّوا مِن حولك، وتفرّقوا عنك، فلا تؤاخذهم بما كان منهم في غزوة (أُحد)، واسأل الله - أيها النبي ﷺ - أن يغفر لهم[1].

فإذا عزمْتَ - بعد المشاورة - على أمرٍ، واطمأنَّت به نفسك فتوكّل على الله في الإعانة على إمضاء ما عزمت، لا على المشورة وأصحابها؛ إنَّ الله يحب المتوكِّلين عليه.

وترشدُ الآية الكريمة إلى وجوب التَّمسك بمكارم الأخلاق، وخصوصًا لمن يدعو إلى الله تعالى، ويأمرُ بالمعروف، فالأخلاقُ الحسنةُ من الرئيس في الدِّين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغِّبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثَّواب الخاص، والأخلاقُ السيئةُ من الرئيس في الدِّين تنفِّر الناس عن الدِّين، وتبغِّضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذَّم والعقابِ الخاصِّ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الانتقالِ من خطابِ المؤمنين إلى خطابِ الرَّسولِ:

الأخـــلاقُ هي أصـــلُ بـنـاءِ المجتمعِ، وقد تعدلُ الجهادَ في سبيلِ الله

قولُه تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ التفاتٌ عن خطاب المؤمنين إلى خطاب النّبيّ ﷺ فيما يتعلّق بمعاملته إياهم[3]، وفي هذا الانتقال في الخطاب تنبيهٌ لمكانة الرّسول ﷺ، وتشريفٌ له، وتنزيهه عن سوءِ الخصالِ، وجفوةِ الطِّباع، فضلًا عن تقرير مبدأ المشاورة، وتحقيق فعل التّوكّل، وهما من الأسس المهمّة في بناء الدّولة النّاشئة، وتسيير أمورها؛ وبيانُ ذلك موجبُ الالتفاتَ في الخطابِ لمبلغ أهمّيّته، ولولا الأخلاقُ النَّبويَّة لما كانت هناك دولةٌ إسلاميَّة، ولا رايةٌ دعويَّة، ولا حملةٌ جهاديَّة.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/533.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/448، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 71.
(3) رضا، تفسير القرآن الحكيم: 4/163.

دلالة حرف الفاء:

خصّص ابنُ عاشور معناها بالتَّفريع على ما اشتمل عليه الكلام السّابق من عفو اللّه تعالى، ولمّا كان عفو اللّه عنهم يُعرف في معاملة الرّسول إيّاهم ألَانَ اللّه لهم الرَّسول تحقيقًا لرحمته وعفوه، فكان المعنى: ولقد عفا اللّه عنهم برحمته فلانَ لهم الرّسول بإذن اللّه، وتكوينه إيّاه راحمًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107][1].

التّفريع على الكلام السّابق تحقيقٌ لأسباب العفو

دلالة حرف الباء:

الباء في قولِه: ﴿فَبِمَا﴾ للمصاحبة، أي: لنتَ مع رحمة اللّه؛ إذ كان لينُه في ذلك كلِّه لينًا لا تفريط معه لشيء من مصالحهم، ولا مجاراة لهم في التَّساهل في أمر الدِّين، فلذلك كان حقيقًا باسم الرّحمة[2].

مصاحبةُ اللِّين لرحمةِ الله تعالى

بلاغة تقديم متعلِّقاتِ الفعل:

تقديم ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ﴾ و﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مفيدٌ للقصر، والحصر الإضافيّ، أي: برحمةٍ من اللّه لا بغير ذلك من أحوالهم[3].

قصر الرّحمة عليه تعالى

وذلك أنَّ أحوالهم كانت مستوجبةً الغلظ عليهم، ولكنَّ اللّه ألَانَ خُلُقَ رسولِه رحمةً بهم، لحكمة علمها اللّه في سياسة هذه الأمّة[4].

التّعريض فائدة من فوائد القصر

بلاغةُ ذكرِ (ما) في قولِه تعالى: ﴿فَبِمَا﴾:

لذكرِ (ما) بعد باء الجرّ فوائدُ عدَّة منها:

أوَّلًا: تأكيدُ الجملةِ بما فيه من القصر، فتعيّن بذكرِها كون التّقديم للحصر، لا لمجرّد الاهتمام[5].

أفادت (ما) التّوكيدَ، والحصرَ، وحسنَ النَّظم، والإبهامَ، واحتمال الاستفهام

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/144.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/144.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/105، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/144.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/144.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/144.

ثانيًا: حسنُ النَّظم، وتمكينٌ للكلام في النّفس، وبُعدٌ به عن الألفاظ المبتذَلَة[1]، فدخولُها لتزيين اللّفظ وزيادة فصاحته[2].

ثالثًا: إبهاميّة تُعطي معنى التّنكير في (مثل)، وتزيد في شيوعه، وتؤكّد مضمون الجملة[3]، فوجه تأكيده أنّه نكرة تدلُّ على إبهام ما عُلِّق به، وإبهامه يقتضي التَّعجّب، فكأنّه بعظيم من رحمته ﴿لِنتَ لَهُمۡۖ﴾[4].

رابعًا: جواز أن تكون (ما) استفهامًا للتّعجّب تقديره: فبأيّ رحمة من اللّه لِنْتَ لهم؟ وذلك أنّه لمّا لم يُظهر ﷺ تغليظًا في القول، ولا خشونة في الكلام مع عِظَم جنايتهم؛ علموا أنّ هذا لا يتأتّى إلّا بتأييد ربّانيّ وتسديد إلهيّ، فكان ذلك مَوضِع التّعجّب من كمال ذلك التّأييد والتّسديد، فقيل: فبأيّ رحمة من اللّه لنت لهم[5].

تعظيم خصلة الــرّحــمــة، والمبـالـغـة في تحقّقها

غرضُ التّنوينِ في لفظ ﴿رَحۡمَةٖ﴾:

كلمةُ ﴿رَحۡمَةٖ﴾ بدلٌ من (ما) مُبيّنٌ لإبهامِها، وتنوينُها للتّعظيم والتّفخيم، والمعنى: أنّ لِينَه هذا لهم الخارق للعادة ما كان إلّا بسبب الرّحمة العظيمة منه[6].

الرَّحمةُ عظيمةٌ في بيئتِها وآثارِها

تقديرُ صفةِ الرّحمةِ المحذوفةِ:

حرفُ ﴿مِّنَ﴾ في قولِه: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ لابتداء الغاية مُتعلّقةٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لرحمةٍ، أي: فبرحمةٍ عظيمةٍ لهم كائنةٍ من اللّه تعالى، وهي ربطُه على جأشه، وتخصيصُه بمكارم الأخلاق، ولين الجانبِ لهم، ومعاملَتهم بالرّفق، والتّلطّف بهم[7].

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/432، وابن سنان الخفاجي، سرُّ الفصاحة: 1/156.
(2) السُّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/152.
(3) الطيبيّ، فتوح الغيب: 4/321، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/151.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/948.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/406 - 407، واعترض بعض المفسّرين على توجيه الرّازي، يُنظر: أبو حيّان، البحر المحيط.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/105، والشّوكانّي، فتح القدير: 1/451، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 2/446.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/105.

واكتفى بالمذكور حاذفًا الصّفة للدّلالة على قربه منه ﷺ، ودنوّ رحمته، فلا واسطة بينها وبينه تبارك وتعالى.

دلالة التّعبير عن اللّين مجازًا:

سعة الخلق، والصّفح، وإقالة العثرات

صفةُ اللّين في قولِه تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ مجازٌ في سَعَةِ الخُلُقِ مع أمّة الدّعوة والمسلمين، وفي الصّفح عن جفاء المشركين، وإقالة العثرات[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالماضي لإثبات تقرّر وصفِ اللّين في خُلُقه:

دلَّت صيغةُ الماضي في قوله: ﴿لِنتَ﴾ على أنّ ذلك وصفٌ تقرّر وعُرِفَ من خلقه، وأنّ فطرته على ذلك برحمة من اللّه إذ خلقه كذلك ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: 124][2].

موقعُ ذكرِ الرَّحمةِ من خُلُقِ اللّين:

الرَّحمةُ سببُ اللِّين في معاملةِ مَن أُنزلت عليهم الرّسالة

أرسل اللّه نبيّنا محمدًا ﷺ مفطورًا على الرّحمة، وجعل لينَه مصاحبًا لرحمة من اللّه أودعها اللّه فيه، لكونه بُعث للنّاس كافّة، مع أنَّ دعوته اختُصّت بالعرب باديَ الأمرِ، والعربُ أمّة عُرِفَت بالأنفة، وإباء الضّيم، وسلامة الفطرة، وسرعة الفهم، وهم المُتَلَقّون الأوّلون للدّين فلم تكن تليق بهم الشّدّة والغلظة[3]؛ فقُدّمت الرّحمة؛ لكونها سببًا في اللّين.

عَوْدُ الضّمير في (لهم) على جميع الأمّة:

ضمير (لهم) في قولِه تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ عائدٌ على جميع الأمّة، كما هو مُقتضى مقام التّشريع وسياسة الأمّة، وليس عائدًا على المسلمين الذين عصَوا أمر الرّسول يوم أُحد؛ لأنّه لا يُناسب قوله بعده: ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾، إذ لا يُظنّ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/145.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/145.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/145.

ذلك بالمسلمين، ولأنّه لا يُناسب قوله بعده: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾، إذا كان المُراد المشاورة[1]؛ للاستعانة بآرائهم، بل المعنى: لو كنت فظًّا لَنَفَرَ منك كثير ممّن استجاب لك فهلكوا.

العَوْد على المنافقين

أو يكون الضّمير عائدًا على المنافقين المُعبَّر عنهم بقوله: ﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ [آل عمران: 154]، فالمعنى: ولو كنت فظًّا لأعلنوا الكفر وتفرّقوا عنك، وليس المُراد أنّك لنت لهم في وقعة أُحُد خاصّة؛ لأنّ قوله بعده: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ ينافي ذلك المَحمَل[2].

دلالة ﴿وَلَوۡ﴾ في قوله: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾:

انتفاء الفضاضة، والغلظة عن النّبيّ ﷺ

يُثبتُ هذا النّصّ الكريم أنّ النّبيّ ﷺ ليس فظًّا ولا غليظًا ولا قاسيًا؛ لأنّ (لو) تدلُّ على نفي الجواب لنفي الشّرط، والمعنى أنّك لست فظًّا ولا غليظَ القلب، وهذا هو الّذي يتّفق مع صفات النّبوّة والقيادة الحكيمة الرّشيدة الهادية المُوجّهة إلى أمثل الطّرق الجامعة للقلوب[3].

المجازُ في لفظِ الغلظة:

الغليظ القلب: القَاسِي القلب؛ إذِ الغلظة مجاز عنِ القسوة وقلّة التّسامح، كما كان اللّين مجازًا في عكس ذلك[4].

فنُّ التّكميلِ في قوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾:

اجتماعُ الشّجاعة والرّفق من أندرِ الأخلاقِ العالية

أفاد قوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في هذا المقام فائدتين كما يذكر الطّيبيّ: "إحداهما: ما يدلُّ على شجاعته ﷺ، والثّانية: ما يدلُّ على رفقه، فهو من باب التّكميل"[5]، وقال التّفتازانيّ: " إنّما جُعِل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/145.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1474.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(5) السُّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/82.

الرّفق ولين الجانب مُسبّبًا عن ربط الجأش؛ لأنَّ من ملك نفسه عند الغضب كان كامل الشّجاعة"[1].

ومقامه ﷺ هو التّوسط بين الشّدّة واللّين؛ لقوله تعالى: ﴿لِنتَ لَهُمۡۖ﴾، ولم يقُل: فبما رحمة من الله كنت لينًا، أو كنت تلين، فليس هو في ذاته ليِّنًا، لكنّه يستعمل اللّين[2].

بلاغة التّشبيه في قولِه تعالى: ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾:

فائدة التّشبيه الإيذان بأنَّ من حول النّبيّ ﷺ متّبعون له

الضّميرُ في قولِه: ﴿لَٱنفَضُّواْ﴾ راجعٌ إلى عمومِ الصَّحابةِ رضوان الله عليهم، أي: الذين دخلوا في الدّين لأنّهم لا يطيقون الشّدَّة، والكلام من التّشبيه التّمثيليّ: شُبِّهَت هيئة النّفور منه وكراهية الدّخول في دينه بالانفضاض من حوله، أي: الفرار عنه مُتفرّقين، وهو يؤذن بأنّهم حوله مُتَّبعون له[3].

علّة تقديم وصف الفظاظة على وصف الغلظة:

فظاظة الأبدانِ أوّل ما يقعُ في العين، وغلظةُ القلبِ خافية

نفتِ الآيةُ صفةَ الفظاظةِ أوّلًا، ثم أتبعتها بغِلَظِ القلب، إذِ الفظاظةُ تنشأُ عن القلب الغليظ؛ لتقديم ما هو ظاهرٌ للحسِّ على ما هو خافٍ يُعلَمُ بظهور أثره، فالفظاظة: الجفوة قولًا وفعلًا، وهو أثر بيّن، وغِلَظ القلب: خلقٌ صلبٌ لا يلين ولا يتأثّر، وهو وصفٌ خافٍ. فالوصفان متقاربان، ولشدّة ذلك قِيل: إنّهما بمعنى واحد، وجُمِعَا للتّأكيد[4].

وتوجيهٌ آخرُ: أن يكون من باب تقديمِ النتيجةِ على السَّببِ، ونكتةُ ذلك أنَّه إذا كانت النّتائجُ منفيَّةً، فكذلك أسبابُها، فنُفيت الفظاظةُ أوّلًا، ثمَّ نُفيَ سببُها، ليُعلَمَ أنَّه ليس فظًّا، ولا توجد عنده أسبابُ الفظاظة، وهذا غاية الكمالِ والجمال والجلالِ الأخلاقيّ.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/321، والسُّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/82.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/436.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/104.

بلاغة الجملة القرآنيّة في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾:

الجملةُ القرآنيَّةُ تسري مثلًا أخلاقيًّا عاليًا

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ فنُّ التَّمثيل؛ لأنّ هذا القول خرج مَخرج المثل السّائر الّذي يتمثّل به النّاس للدّعوة إلى لين الجانب وحسن الكلام مع النّاس[1]، وفي ذلك ترسيخٌ للرّحمة واللّين منهجًا يُقتفى، وأسلوب حياة به يُحتفى في الرّياسة، والقيادة، والتّعامل مع النّاس.

دلالة الفاء في ﴿فَٱعۡفُ﴾:

أجملُ العفوِ ما كان سريعًا بدون مُهلةٍ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ تدلّ على التّعقيب، فهذا يدلّ على أنّه تعالى أوجب عليه أن يعفو عنهم في الحال، وهذا يدلّ على كمال الرّحمة الإلهيّة حيث عفا هو عنهم، ثمّ أوجب على رسوله أن يعفو في الحال عنهم[2].

علّة التّفريع في قوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾:

العفوُ تاجُ اللِّينِ وثمرتُه الرَّاسخة

التّفريع في قوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ على قوله: ﴿لِنتَ لَهُمۡۖ﴾؛ لأنّ جميع الأفعال المأمور بها مُناسبة للّين، فأمّا العفو والاستغفار فأمرهما ظاهر، وأمّا عطف ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ﴾ فلأنّ الخروج إلى أُحد كان عن تشاور معهم وإشارتِهم، ويشمل هذا الضّمير جميع الّذين لَانَ لهم ﷺ، وهم أصحابه الّذين حوله سواء من صدر منهم أمر يوم أُحد أم غيرهم[3].

الأمـرُ بالعفو مُـترتِّـب على مضمون ما قبله

تقدير أن تكونَ الفاءُ للسّببيّة بتمهيد أنّه ليّن الجانب، وعلى الاتّصاف بأنّه على خلق عظيم[4]؛ فرتَّبت الفاء ما بعدها على ما قبلها، أي: أنّه يترتّب على اتّصافك بالعفو والرّحمة والبشاشة،

(1) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/202.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/408.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/436.

والبعد عن الفظاظة وغلظ القلب أن تكون عفوًّا[1]، العفو في هذه الحال ليس للرّحمة فقط، بل هو للمصلحة أيضًا؛ لأنّه يشحذ العزائم، إذ هو يقيل من العثرة، ويرفع من الكبوة، وعندئذٍ تستقيم القلوب نحو الحقّ، كما قامتِ الأجسام بعد الوقوع[2].

فائدةُ التّعبير بصيغة ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ﴾:

المشاورة مصدر شاور، وجاءت على صيغة المفاعلة الدّالّة على المشاركة، والمطاوعة بالاستجابة للأمر بذلك، فناسبت سياق ورودها، وعبّر عنها بصيغة الأمر؛ "للتّنبيه على أنّ ما سبيله الاجتهاد فحقُّه الاستعانة فيه بالآراء الكثيرة الصّحيحة، لينقدح منها الصّواب"[3]؛ ولذلك وجب اللّجوء إليها، والاستعانة بها؛ لكونها تُطلبُ في الأمر المهمّ المشكل من شؤون المرء في نفسه أو شؤون القبيلة أو شؤون الأمّة[4].

الأمـــــــورُ الاجتـهـاديَّـةُ تـحـسُـنُ فيها مشاركةُ الرَّأيِ؛ لاستـنـبـاطِ الأصوبِ

وفي أمرِه ﷺ بمشاورةِ أصحابِه تشريفٌ للصّحابة رضي الله عنهم[5]، فقوله: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾، يعني: في أمر الحرب ونحوه ممّا لم ينزل عليك فيه وحي؛ لتستظهر برأيهم، ولمَا فيه من تطييب نفوسهم، والرّفع من أقدارهم[6].

مشاورةُ الصَّحبِ تشريفٌ وتطييبٌ للنُّفوس

تعيينُ مَرجعِ الضّميرِ في لفظ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ﴾:

ضمير الجمع في قوله: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ﴾ عائد على المسلمين خاصة: أي: شاور الذين أسلموا من بين من لنت لهم، أي: لا يصدّك خطل رأيهم فيما بدا منهم يوم أُحد عن أن تستعين برأيهم في مَواقع أخرى، فإنّما كان ما حصل فلتة منهم، وعثرة قد أَقَلتَهُم منها[7].

مشاورةُ المؤمنين تـعـزيـزُ خاطر وتسديدُ رأي

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1476.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1476.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/953.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146 - 147.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/953.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/432.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/147.

دلالة الألف واللّام في لفظ ﴿ٱلۡأَمۡرِۖ﴾:

دوران المعنى بين معنى الجنس، والعهد

الألف واللّام في لفظِ: ﴿ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ يدلُّ على الجنسِ على إرادة الأمر المهمّ الّذي يُؤتمر له، والعهد على إرادة أمر الحرب[1]؛ لكون الذي نزل فيه الوحي لا تجوز المشاورة فيه، فوجب حمل الألف واللّام هاهنا على المعهود السّابق في هذه الآية وهو ما يخصّ الحرب ولقاء العدوّ[2].

وأيًّا ما كان فظاهر لفظِ ﴿ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ أنّ المراد المشاورة الحقيقيّة الّتي يقصد منها الاستعانة برأي المستشارين بدليل قوله عقبه: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[3].

مراعاة حسن التّرتيب في الأوامر:

العفو النّبويُّ، وطلبُ المغفرة، هما أصل الصّلاح المُهيِّئ للمشاورة

بدأتِ الآيةُ ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ بالأمر بالعفو عنهم فيما يخصّه ﷺ مُسقِطًا لحقّه، ودالًّا على رضاه عليهم، وعدم مؤاخذته لهم، فإذا تحلّوا بالعفوِ النّبويِّ، جاء الأمر بالاستغفار لهم فيما كان للّه؛ ليكمل لهم صفحه، وصفح اللّه عنهم، فإذا صاروا في هذه الدّرجة، وزالت عنهم التّبعات من الجانبين صاروا أهلًا للاستشارة في الأمور إيذانًا بأنّهم أهل للمحبّة الصّادقة والخلّة النّاصحة، إذ لا يستشير الإنسان إلّا من كان معتقدًا فيه المودّة والعقل والتّجرِبة[4].

تقديرُ حذف مُتعلّق العزم:

في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ العزم: هو تصميم الرّأي على الفعل، وحَذَفَ مُتعلَّق ﴿عَزَمۡتَ﴾؛ لأنّه دلّ عليه التّفريع عن قوله: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾، فالتّقدير: فإذا عزمت على الأمر[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/147.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/410.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/147.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/534، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/104، والآلوسّي، روح المعاني: 4/108.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/151.

بلاغة المجاز في لفظ التّوكّل:

مقتضى التَّوكُّلِ الشّروع في الفعل مع السَّداد فيه

حقيقةُ التّوكّل الاعتماد، وفي قوله: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ مجازٌ في الشّروع في الفعل مع رجاء السّداد فيه من الله، وهو شأن أهل الإيمان، فالتّوكّل انفعال قلبيّ عقليّ يتوجّه به الفاعل إلى الله راجيًا الإعانة، ومستعيذًا من الخيبة والعوائق، وربّما رافقه قول لسانيّ؛ وهو الدّعاء بذلك[1].

بيان التّعبير عن فعلَي العزم، والتّوكّل:

الدّلالة على تأكيد حصولهما، وإنفاذ المشورة دون تأخّر

عبّر عن العزيمة بصيغة الماضي ﴿عَزَمۡتَ﴾، ولم يقل: (فإن تعزم) مع كونه أنسبَ؛ للدّلالة على تأكيد حصولها في نفسه، وتحقّق حدوثها، وكأنّها واقعة مشاهدة، ويرسّخ ذلك التّعبير بـ (إذا) الشّرطيّة الدّالّة على المستقبل، والأمر ينطبق على فعل التّوكّل المُصاغ بفعل الأمر جوابًا لـ(إذا) تجسيدًا لسرعة تمثّل الفعل، والتّقدير عند ابن عاشور: فإذا عزمت فبادر، ولا تتأخّر، وتوكّل على الله؛ لأنّ للتّأخّر آفات، والتّردّد يضيّع الأوقات[2].

دلالة نسبة التّوكّل على الله تعالى:

التّوكُّلِ على الله، احتراسٌ من مَظِنَّةِ الاعتمادِ على رأي المجموعِ

لمّا أمر بالمشاورة الّتي هي النّظر في الأسباب أمر بالاعتصام بمسببها من غير التفات إليها ليكمل جهاد الإنسان بالملابسة ثمّ التّجرّد[3]؛ إذ لا يجب بعد حصول الرّأي المتأكّد بالمشورة أن يقع الاعتماد عليه، بل يجب أن يكون الاعتماد على إعانة الله، وتسديده، وعصمته، فليس للعبد اعتمادٌ على غير الله في جميع الأمور[4].

تقديرُ الإيجاز بالحذف:

في قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ إيجازٌ بالحذف، والتّقدير:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/151.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/151.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/108.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/410.

التّوكّلُ حاضرٌ في كلِّ أحوالِ العبدِ

فتوكّل على نصر اللّه ومعونته، قاله العزّ بن عبد السّلام في الإشارات[1]. وفي الاستغناء بالمذكور إطلاقٌ للتّوكّل، وتعميم له، وعدم تحديده بشأن المعركة؛ ليناسب مُختتم الآية الكريمة المُتضمّنة محبّته تعالى للمتوكّلين.

بلاغةُ الجملةِ القرآنيّة وقوّةُ دلالتِها:

اكتنازُ الجملةِ القرآنيّة جعلَها مثلًا سائرًا

خَرَجَ قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ مخرج المثل السّائر الّذي يتمثّل به النّاس للدّعوة إلى الاعتماد على اللّه، والتّوكّل عليه في الأعمال[2]. وفي ذلك ترسيخٌ للتّوكّل منهجًا مستقيمًا وثابتًا في كلِّ ما يعرِضُ من عمل، أو يسعى إليه.

جمال فنِّ التَّصدير:

في قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ ردّ كلمة ﴿ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ على كلمة ﴿فَتَوَكَّلۡ﴾، حيث وافقت كلمةُ ﴿ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾، وهي آخر كلمة في الكلام، أوّلَ كلمة في صدره، وفيه وجه توكيد يناسب فعل التّوكّل.

براعة الإظهار في مقام الإضمار:

إدخال الرّوعة والمهابة في نفس المُخاطَب

مُقتَضَى الظّاهر يستدعي التّعبير بالمُضمَر بأن يُقال: (فتوكَّل عليه إنَّه يحبُّ المتوكّلين)، لكن وُضع الاسم الظّاهر، وهو لفظ الجلالة (اللّه) مَوضِع الضّمير؛ لإدخال المهابة في نفس المُخاطَب، نظرًا إلى أنّ لفظ الجلالة يجمع كُلَّ صفات كمال اللّه ﷻ، باعتباره اسماً علمًا للذّات العليّة، وما هو اسم علم للذّات يكون جامعاً لكلّ صفات الكمال.

بلاغة التّذييل بجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾:

لَمَّا كان التّوكّلُ علامةَ صدقِ الإيمان، وفيه ملاحظةُ عظمة

(1) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/202.
(2) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/202.

توكيد الحبّ، وتشريفُ المحبوبين عنايةً بالصّفة والمتّصفين

اللّه وقدرته، واعتقاد الحاجة إليه، وعدم الاستغناء عنه، والأدب العظيم معه الدّالّ على محبّة العبد ربّه فلذلك أحبّه اللّه[1]. مؤكّدًا حبّه تعالى للمتوكّلين بـ﴿إِنَّ﴾ المُؤكّدة، والجملة الاسميّة، وذكر الفاعل مرّتين، مرّة على أنّه مبتدأ، ومرّة على أنّه فاعل ﴿يُحِبُّ﴾، وإظهار اسمه الأعظم الجامع لكمال الصّفات في مَوطِن التّشريف والتّكريم، عناية بهذه الصّفة الحميدة وبالمتّصفين بها على الدّوام بقرينة التّعبير عنه بصيغة اسم الفاعل، المسبوق بالمضارع الدّالّ على الحال والاستقبال، والمبالغين في توكّلهم بأمارة صيغة التَّفعّل الّتي عبّر بها عن فعل التّوكّل، فهو حبّ دائم بدوام التّوكّل عليه، والمبالغة في ذلك.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/152.

﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾ [آل عمران: 160]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَّما بيَّن تعالى بقوله: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [آل عمران: 125] أنَّ من اتّقى المعاصيَ ينصرُهُ اللّه، بيّن في هذه الآية أنّ من نصره اللّه فلا غالب له، ليحصل من مجموع هاتين المُقدّمتين؛ أنّ من اتّقى اللّه فقد فاز بسعادة الدّنيا والآخرة؛ لأنّه يفوز بسعادة لا شقاوة معها، وبعزٍّ لا ذلَّ معه، ويصير غالبًا لا يغلبه أحد، وأمَّا من أتى بالمعصية فإنَّ اللّه يخذله، ومن خَذَله اللّه فقد وقع في شقاوة لا سعادةَ معها، وذلٍّ لا عزَّ معه[(1)].

وفيها تسليةٌ للصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - عمَّا وقع لهم من الفرار يوم أُحدٍ؛ إذ لمَّا أمره بمشاورتهم وبالتّوكّل عليه، أوضح أنَّ ما صدر من النّصر، أو الخِذْلان إنّما هو راجع لمشيئته. وأنّه متى نَصَرَكم فلا يمكن أن يغلبكم أحد، ومتى خَذَلَكم فلا ناصر لكم فيما وقع لكم من النَّصر[(2)].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنصُرۡكُمُ﴾: النُّون والصَّاد والرَّاء أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على إِتيانِ خَيرٍ وإِيتائِهِ. ونَصَرَ اللَّهُ المُسلِمينَ: آتَاهُمُ الظَّفَرَ على عَدُوِّهم، يَنصُرُهم نَصرًا. وانتَصَرَ: انتَقَمَ[(3)]. فالنَّصرُ: عَونُ المظلوم[(4)]؛ ليمتنع مِن ظالمه، وينتصفَ وينتقمَ منه[(5)]. والنَّصر والنُّصرة: العون. ونُصرَة اللّه للعبد ظاهرة، وهي الظّفر على العدوّ، ونُصرة العبد للّه هو نُصرته لعباده، والقيامُ بحفظ حدوده، ورعاية عهوده، واعتناق أحكامه، واجتناب نهيه[(6)]. والنّصرُ:

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/411.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/105.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).

(4) الخليل، العين: (نصر).

(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نصر).

(6) الرّاغب، المفردات: (نصر).

العطاءُ[1]، والإعانةُ على الخلاص من غلب العدوّ ومريد الإضرار[2]. وسائرُ ما في القرآن من هذا التّركيب، ومنه (نصر)، (ناصر)، (نصير) فهو بمعنى المعونة الّتي يترتّب عليها الغلب حالًا أو مآلًا[3].

2) ﴿غَالِبَ﴾: "الغينُ واللَّامُ والباءُ أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قُوَّةٍ وقَهرٍ وشدَّةٍ"[4]. والـمُغَلَّبُ: الّذي يَغلِبُه أقرانه فيما يمارس[5]، والَّذي غَلَبَ خصمَه أَو قِرنَه، كأَنَّه غَلَبَ على خَصمِهِ، أَي: جُعِلَت له الغَلَبَة[6]، فهو من الأضداد. وسائر ما في القرآن من هذا التّركيب هو من الغَلَب، أي: القهر[7].

3) ﴿يَخۡذُلۡكُمۡ﴾: الخاء والذَّال واللَّام أَصلٌ واحدٌ يدُلُّ على تَرك الشَّيء والقُعُود عنه. فالخِذلانُ: تَركُ المَعونَة[8]، وتركُ نصرة الأخ. وأصله من الظّباء والبقر الوحشيّة الّتي تخذُلُ صواحبَها في المرعى، وتنفرد مع ولدها، وتتخلّف عن القطيع بسبب خذلان ولدها لعجزه عن المشي[9].

وخِذلانُ اللّه للعبد: ألّا يعصمه من السّوء[10]، أو من السَّيِّئة فيقعُ فِيهَا. والخذل: تركُ العون، والنّصرة، والإغاثة[11]، وتركُ من يُظنُّ به أن ينصرَ نُصرتَه[12]؛ بإمساك الإعانة مع القدرة[13].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إن ينصركم اللّه، أيّها المؤمنون باللّه ورسوله، على من ناوأكم وعاداكم من أعدائه،

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (نصر).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/153.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نصر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلب).
(5) الخليل، العين: (غلب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غَلَبَ).
(7) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خَذَلَ).
(9) الخليل، العين: (خذل)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/153.
(10) الخليل، العين: (خذل).
(11) الجوهريّ، الصّحاح، وابن الأثير، النّهاية: (خذل).
(12) الرّاغب، المفردات: (خذل).
(13) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/153.

قــوامُ الـتّـوكّـل التَّسـلـيـمُ بـأنَّ النّاصر والخاذل الله

والكافرين به فلا غالب لكم من النّاس، ولو اجتمع عليكم مَن بين أقطارها من خلقه وما عندهم من العَددِ والعُدَدِ، فلا تهابوا أعداء الله لقلّة عددكم، وكثرة عددهم، ما كنتم على أمره، واستقمتم على طاعته وطاعة رسوله؛ فإنَّ الغلبة لكم والظّفر دونهم. وإن يتركْ ربّكم عونَكم بخلافكم أمره، وترككم طاعته وطاعة رسوله، فيكلكم إلى أنفسكم فلن تجدوا ناصرًا من بعد خِذلان الله إيّاكم، فلا تتركوا أمري وطاعتي وطاعة رسولي فتهلكوا بخِذلاني إيّاكم، وعلى ربّكم توكّلوا دون سائر خلقه، وبه فارضَوْا من جميع من دونه، ولقضائه فاستسلموا، وجاهدوا فيه أعداءه، يكفكم بعونه، ويمدِدْكم بنصره.[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى التّرغيب في الطّاعة، والتّحذير منَ المعصية، وأنَّ الإيمانَ لا يحصل إلّا بإعانة الله، والكفرَ لا يحصل إلّا بخِذلانه؛ فالأمر كلُّه للّهِ، وفي الآيةِ الأمرُ بالتوكُّل على الله وحدَه، وأنه بحسَب إيمانِ العبدِ يكونُ توكُّله على الله[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العدول إلى الفصل استئنافًا:

النَّصرُ من الله وحدَه، أصلٌ في اعتقادِ المتوكِّلين

قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ سيقت بطريق تلوين الخطاب؛ تشريفاً للمؤمنين؛ لإيجاب توكّلِهم عليه تعالى، وحثِّهم على اللّجوء إليه، وتحذيرِهم ممّا يُفضي إلى خِذلانه[3]، بعد المشاورة والعزيمة المبنيّة على أخذ الأهبة والاستعداد بما يستطاع من حول وقوّة[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/347.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/411، وابن عادل، اللُّباب: 6/22، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 71.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/105.
(4) رضا، تفسير القرآن الحكيم: 4/169.

وقد يكون الاستئنافُ ناشئًا عن قوله: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ [آل عمران: 157]، أو قوله: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران: 156]، فتكون مناسبة موقع هذا الاستئناف عقب ما تقدّمه؛ بأنّه بعد أن خاطبهم بفنون الملام والمعذرة والتّسلية من قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: 137] إلى هذه الآية، قد جمع لهم تلك الوصايا والأوامر والإرشادات، في كلامٍ جامعٍ نافعٍ لتلقّي الماضي، وصالحٍ للعمل به في المستقبل[1].

السننُ الإلهيَّةُ في القوانين الاجتماعيَّة لا تتخلفُ

دلالة الجملة الخبريّة:

لَوْ حُمِلَ قولُه تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ﴾ عَلَى ظَاهِرِه لَكَانَ إِخْبَارًا بِأَمْرٍ مَعْلُوم، فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا الْمَعْنَى مُحَقَّقٌ في جَانِبِ اللَّهِ لَا يَجْهَلُهُ مُعْتَرِفٌ بِإِلَٰهِيَّتِه، مُؤْمِنٌ بِوَحْدَانِيَّتِه، فَيَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْخَبَرِ مرَادًا بِه غَيْرَ ظَاهِرِ الْإِخْبَار، وَأَحْسَنُ مَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ تَقْرِيرًا لِتَسْلِيَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْهَزِيمَةِ، حَتَّى لَا يَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَ؛ لِأَنَّ رَدَّ الْأُمُورِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ الْعَجْزِ عَنْ تَدَارُكِهَا مَسْلَاةٌ لِلنَّفْسِ، وَعَزَاءٌ عَلَى الْمُصِيبَةِ[2].

تقريرُ تسلية المؤمنين على ما أصابهم من الهزيمة

وَفي ضِمْنِ ذَلِكَ تَنْبِيهٌ إِلَى أَنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَوْمًا في بَعْضِ الْأَيَّام، وَخَذْلَهُ إِيَّاهُمْ في بَعْضِهَا، لَا يَكُونُ إِلَّا لِحِكَم وَأَسْبَابٍ، فَعَلَيْهِمُ السَّعْيُ في أَسْبَابِ الرِّضَا الْمُوجِبِ لِلنَّصْرِ، وَتَجَنُّبُ أَسْبَابِ السُّخْطِ الْمُوجِبِ لِلْخَذْلِ[3].

النّصر والخذلان لا يكون إلّا لحكمة

يجوز أن يكون الإخبار مبنيًّا على تنزيل العالم مَنزِلة الجاهل، حيث أظهروا من الحرص على الغنيمة، ومن التّأول في أمر الرّسول

استعمال الخبر في لازمِ معناه بتنزيل العالم مَنزِلة الجاهل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/152 - 153.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/152.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/152.

لهم في الثّبات، ومن التّلهف على ما أصابهم من الهزيمة والقتل والجرح، ما جعل حالهم كحال من يجهل أنّ النّصر والخذل بيد اللّه تعالى، فالخبر مُستعمل في معناه على خلاف مُقتضَى الظّاهر[1].

بلاغة الالتفات في الآية الكريمة:

الانتقال إلى مفاهيم واجبة التّسليم لها

ذكر أبو حيّان أنّ الآية التفات؛ إذ هو خروج من غيبة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ إلى خطاب[2]، ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾ ونكتةُ الالتفاتِ: التّنبيه على أنّ الأمر كلّه للّه، وعلى وجوب التّوكّل عليه، وفيه ترغيب في الطّاعة، وفيما يستحقّون به النّصر من اللّه تعالى والتّأييد، وتحذير من المعصية، وممّا يستوجبون به العقوبة بالخذلان[3].

سرُّ إيثار أداة الشّرط ﴿إِن﴾ دون (إذا):

الإشارة إلى تساوي نصر المؤمنين وخذلانهم

عبّر النَّظمُ بأداة الشّرط ﴿إِن﴾ دون (إذا) في قولِه: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾ إشارة إلى تساوي الأمر، وأنّ نُصرَتَهم، وخُذلانهم بالنّسبة إلى قدرة اللّه تعالى متساويان[4]، وليس أحدُهما أرجحَ منَ الآخر[5].

المطلوبُ من المؤمنين الأخذُ بأسباب النَّصرِ اعتقادًا وعملًا

ولتنزيل الواقع المُتحقّق مَنزلة غير المُتحقّق؛ فنصرُ اللّه للمؤمنين أمرٌ مقطوعٌ بوقوعه، وإنّما جيءَ بالشّرط على هذه الصّورة تنزيلًا للمقطوع بوقوعه مَنزِلة غير المقطوع بوقوعه لحثّ المؤمنين على الأخذ بأسباب النَّصر من الاعتقاد والعمل[6]، وليكونوا بين الخوف والرّجاء؛ لأنّهم لو وثقوا من النَّصر كلّ الثّقة لناموا، ولو وثقوا من الهزيمة كلّ الثّقة لضاعوا، فكان من الحكمة أن يترقّبوا النّصرَ مع الأخذ بأسبابه، ويخافوا الهزيمة بتجنّب أسبابها[7].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/153.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/105.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/432 - 433.
(4) البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 591.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/437.
(6) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/204.
(7) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/193 - 194.

دلالة الفاء في قولِه: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾:

لا غالبَ للمؤمنين إن نزلَ بهم نصرٌ من الله تعالى

الفاء: داخلةٌ في جوابِ الشَّرطِ؛ لتوكيد التّرتيب والتّعقيب والسّببيّة، رابطة لجواب الشّرط؛ وهي لترتيب ما بعدها أوِ الأمر به على ما مرَّ من غلبة المؤمنين ومغلوبيتهم على تقدير نصر اللّه تعالى لهم، وخذلانه إيّاهم، فإنّ العلم بذلك ممّا يستدعي قصر التّوكّل عليه سبحانه لا محالة[1].

نكتةُ التّعبير باسم الفاعل:

نفي الصّفة الثّابتة الرّاسخة أبلغ من نفي ما دونها

التّعبير باسم الفاعل الدّالّ على ثبوت الصّفة، ورسوخها في صاحبها في قوله تعالى: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾، يفيد أنّه لا يوجد مَن عنده القوّة، ومَن شأنه أن يغلبكم؛ لأنّه إن كان قويًّا في نفسه فاللّه معكم وهو القاهر فوق عباده، وهو الحفيظ عليهم[2]. فنفي الصّفة الثّابتة الرّاسخة أبلغ، وأقوى من نفي ما دونها.

بيان دلالة النّفي في قولِه: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾:

نفيُ الغلبةِ عن المؤمنين شاملٌ لجميع الغالبين

(لا) للتّنصيص على عموم نفي وجود الجنس. والمعنى: إن ينصُركم اللّه كما نصركم يومَ بدرٍ، فلا أحدَ يغلِبُكم، وهذا على طريق نفي الجنسِ المنتظِم لنفي جميعِ أفرادِ الغالبِ ذاتاً وصفةً، ولو قيل: فلا يغلِبُكم أحدٌ لدلّ على نفي الصّفة فقط[3]. فهو نفي للهزيمة في حالة نصر اللّه لهم بنفي جنس المنتصر عليهم الغالب لهم، ونفي جنس الغالب يستلزم نفي الغلَب في أيّة صورة كانت[4].

علّة العدول عنِ التّصريح بالغلبة إلى النّفي:

تنبيه على ظفرهم بعدوّهم في الحال والاستقبال

نظمُ الآية ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾ ليس صريحًا في غلبة المؤمنين لعدوّهم، وهو ليس كأن يُقال: (إن ينصركم اللّه

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/108.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1480.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/105.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/193.

تُنصَروا أو تَظفُرُوا)، وإنّما عبّر عن ذلك بالنّفي بحذف جواب الشّرط، وذكر ما يستلزمه، والتّقدير: إن ينصركم اللّه ظفرتم ولا غالب لكم، ولو قيل: ظفرتم فقط لما أفاد انتصارهم في المستقبل، فهو تنبيهٌ على ظفرهم بعدوّهم في الحال والاستقبال، أي: إن ينصركم اللّه على عدوّكم انتصرتم عليه في الحال، ولا يغلبكم بعد ذلك أحد[1].

براعة التَّعبير عنِ المقابلة:

تلطُّفُ القرآنِ في خطابِ المؤمنين من دواعي السَّعادةِ السَّرمديَّة

لمّا كان حديث النُّصرة جاء جوابه بصريح النّفي العامّ: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾، ولمّا كان حديث الخذلان جاء بالجواب مُتضمّنًا النّفي؛ وهو الاستفهام فلم يقُل (فلا ناصر لكم)، بل قال: ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾، وهو من تنويع الكلام في الفصاحة والتّلطّف بالمؤمنين حتّى لا يصرّح لهم بأنّه لا ناصر لهم، بل أبرزَ ذلك في صورة الاستفهام الّذي يقتضي السّؤال عنِ النّاصر، وإن كان المعنى على نفي النّاصر. لكن فرقٌ بين الصّريح والمتضمَّن، فلم يُجرِ المؤمنين في ذلك مُجرَى الكفّار الّذي نصَّ عليه بالصّريح أنّه لا ناصر لهم كقوله: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣﴾ [محمد: 13][2]. وفي هذا لطيفة في مراعاة دقائق أحكام الخطاب[3].

غرضُ الاستفهام البلاغيِّ:

خذلانُ الله ليس من بعدِه ناصر

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ "بمعنى النّفي، أي: لا ينصركم أحدٌ من بعده"[4]، فهو استفهامٌ إنكاريٌّ مفيدٌ لانتفاء النّاصرِ ذاتًا وصفةً بطريق المبالغة[5]، وفي هذا

(1) البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 591، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/437 - 438.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/106.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/292.
(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/513.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/106، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/108.

الاستفهامِ تنبيه على أنّ الأمر كلَّه للّه، وترغيبٌ في الطّاعة، وفيما يستحقّون به النَّصر من اللّه تعالى والتّأييد، وتحذير من المعصية، وممّا يستوجبون به العقوبة بالخذلان[1].

الأنظارُ عاجزةٌ عن العثورِ على ناصرٍ من دون الله

جاء النّفي على صيغة الاستفهام ليوجّه أنظار المُخاطَبين إلى البحث عن قويٍّ تكون قدرته كافية للوقوف أمام إرادة اللّه تعالى، فإنّهم سيبحثون عن قويٍّ لا تكون قوّته إلى بقاء، ولا شكّ أنّهم لن يجدوه، فعندئذٍ يحكمون - مُعتقدين عن يقين - بأنّ اللّه وحده الكبير المُتعال، ولا ناصر لهم سواه[2]، ولا شكّ في أنّ صورة الاستفهام هذه أبلغ في الدّلالة، وإن كان معناها النّفي[3].

توجيه شبيه الاستعارة التّمثيليّة المكنيّة:

تمثيل الحالة الحاصلة من تقدير الانكسار بحالة خذلان المُستنصِر بغير الله

قيدُ ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ مستعملٌ في لازم معناه، وهو المغايرة والمجاوزة، أي: فمن الّذي ينصركم دونه أو غيره، أي: دون اللّه، فالضّمير عائدٌ على اسم الجلالة، واستعمال (بعد) في مثل هذا شائع في القرآن قال تعالى: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ [الجاثية: 23]، وأصل هذا الاستعمال أنّه كالاستعارةِ التّمثيليّة المكنيّة: بِأَنْ مُثِّلَت الْحَالَةُ الْحَاصِلَةُ مِنْ تَقْدِيرِ الِانْكِسَارِ بِحَالَةِ مَنْ أَسْلَمَ الَّذِي اسْتَنْصَرَ بِهِ وَخَذَلَهُ فَتَرَكَهُ وَانْصَرَفَ عَنْهُ لِأَنَّ الْمُقَاتِلَ مَعَكَ إِذَا وَلَّى عَنْك فقد خذلك فَحَذَفَ مَا يَدُلُّ على الْحَالة الْمُشبه بِهَا وَرَمَزَ إِلَيْهِ بِلَازِمِهِ وَهُوَ لَفْظُ مِنْ بَعْدِهِ[4].

علّة تقديم شبه الجملة:

الإيـــــذان بالاختصاص إفـادةً لحصرِ التّوكّل عليه تعالى

قدّم شبه الجملة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ إيذاناً بالاختصاص، وإفادة لحصر فعل التّوكّل وقصره عليه سبحانه، أي: "ليخصّ المؤمنون

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/449.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1481.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/320.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/154.

ربّهم بالتّوكّل والتّفويض إليه؛ لعلمهم أنّه لا ناصر سواه، ولأنّ إيمانهم يوجب ذلك، ويقتضيه"[1]، وليتوكّلوا عليه لا على غيره. لمّا ثبت أنّ الأمر كلّه بيد اللّه، وأنّه لا ناصرَ لهم سواهُ، ولا رادَّ لقضائه، ولا دافع لحكمه، وجب أن لا يتوكّل المؤمن إلّا عليه[2].

فائدة التّذييل في الآية:

المــؤمــنــون مــأمــورون بالتّوكّل المستند إلى أسـبـاب النَّصرِ

جملة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ تذييل قُصد به الأمر بالتّوكّل المستند إلى ارتكاب أسباب نصر اللّه تعالى: من أسباب عاديّة، وهي الاستعداد، وأسباب نفسانيّة، وهي تزكية النّفس واتّباع رضى اللّه تعالى[3].

براعة توكيد جملة التّذييل:

الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ لتأكيد الاستئناف، واللّام لام الأمر، ويتوكّل مضارع مجزوم باللّام، وفي تأكيد الاستئناف بعد الإنكار والنّفي حثٌّ مبالغٌ فيه على الاتّكال بعد الأخذ بأسباب الحيطة والحذر[4].

مناسبة تعلّق لفظِ التّوكّل بالمؤمنين:

التّنبيه على الوصف الذي يُناسب معه التّوكّل، وهو الإيمان

أمرهم تعالى بالتّوكّل، وناط الأمر بالمؤمنين، فنبّه على الوصف الّذي يناسب معه التّوكّل، وهو الإيمان؛ لأنّ المؤمن مصدّقٌ بأنّ اللّه هو الفاعل المختار بيده النّصر والخذلان. وأشركهم مع نبيّهم في مطلوبيّة التّوكّل، وهو إضافة الأمور إلى اللّه تعالى وتفويضها إليه[5]. ليخصّ المؤمنون ربّهم بالتّوكّل والتّفويض إليه.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/433.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/411، وابن عادل، اللّباب: 6/22.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/154.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/91.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/105.

فائدةُ التّعبير بلفظ المؤمنين:

تشريفُ المؤمنين بعذقهم بأصولِ التَّوكُّلِ على الله

المُراد بالمؤمنين في قولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إمّا الجنسُ، والمخاطبون داخلون فيه دخولًا أوّليًا، وإمّا هم خاصّة بطريق الالتفات، وأيًّا ما كان ففيه تشريفٌ لهم بعنوان الإيمان اشتراكًا أو استقلالًا، وتعليلٌ لحتميّة التّوكّل عليه تعالى، فإنّ وصفَ الإيمانِ ممّا يوجبه قطعًا[1].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/106، والآلوسّي، روح المعاني: 4/108.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦١﴾ [آل عمران: 161]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بالغ تعالى في الحثِّ على الجهاد أتبعه بذكر أحكامه، ومن جملتها المنع من الغلول، فذكر هذه الآية في هذا المعنى[1]؛ لكون الغلول من أعظم موجبات الخِذلان، والنّزاهة عنه من أعظم موجبات النّصر، ولذلك كان أنسب الأشياء تعقيب هذه الآية بآية الغلول بيانًا؛ لأنّه كان سبب هزيمتهم في غزوة أُحدٍ، فإنّه لا يُخْذَلُ إلّا بالذّنوب، ومن أعظم الذّنوب الموجبة للخذلان الغلول[2]. فالغلول: تعجُّلٌ بأخذ شيء من غال الغنيمة، ولا تجد غير هذا يصلح لأن يكون مناسبًا لتعقيب آية النّصر بآية الغلول[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِنَبِيٍّ﴾: النُّون والباء والحرف المعتلّ أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على ارتفاعٍ في الشَّيءِ عن غيره، ومنه قيل: إِنَّ النَّبيّ ﷺ اسمُهُ مِنَ النَّبوّة، وهو الارتفاعُ، كأَنَّه مُفضَّلٌ على سائر النَّاس برَفعِ مَنزِلَتِه. والنَّبيُّ: الطَّريقُ، والأَنبياء: طُرق الهُدى[4]. ومَن هَمَزَ النَّبيَّ فلأنّه أَنبأَ عنِ اللّهِ تعالى، فالنُّون والباءُ والهمزَةُ قِياسُهُ الإِتيانُ مِن مكانٍ إِلى مكانٍ، ومنه النَّبأُ: الخبرُ؛ لأنّه يأْتي مِن مكانٍ إِلى مكانٍ[5]. فلفظة النّبيّ أُخِذَت من العُلُوّ؛ لشَرَفه، فالنّبيُّ أرفعُ خلقِ اللّه. وقد جاءَ من استعمالات العرب للفظ النّبيّ: العَلَمُ من أعلام الأرض المرتفعة الّتي يُهتَدَى بها. ومراعاة هذا القيد تجمع إلى النّبيّ الشَّرف مع الهداية. ويجوز أن يكون بمعنى مُنبِئَ من اللّه أو مُنبِئَ عنِ اللّه، أي: مُخبِر عنه[6].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/411.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/109 - 110.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/154.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نبا)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نبو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبأ).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبو).

2) ﴿يَغُلَّ﴾: غَلَّ يَغُلُّ: إذا خان. وأَصْلُه مِن الغَلِّ: وهو التّخَلُّلُ بين الشّيْءِ، يُقال: تَغَلْغَلَ الماءُ في الشّجَرِ: إذا تَخَلَّلَها، ومنه سُمِّيَ المَسْروقُ من الغَنِيمَةِ غُلولاً؛ كأَنّ صاحِبَهُ قد غَلَّهُ بين ثِيابِهِ، وقِيلَ: سُمِّيَ غُلُولاً؛ لأنّ الأَيْدي فِيهِ مَغْلُولَةٌ، أيْ: مُقَيّدَةٌ بالأَغْلالِ(1). والغُلول: تناول مال الغير بضرب من المكيدة، وكثر استعماله في الغنيمة(2). فهو أخذ شيء من الغنيمة بدون إذن أمير الجيش، والتّعجل بأخذ شيء من مال الغنيمة. قال أبو عبيد: "الغُلولُ في المغنم خاصَّةً، ولا نراه من الخيانة ولا من الحقد. وممَّا يبيِّن ذلك أنَّه يقال من الخيانة أغَلَّ يُغِلُّ، ومن الحقد غَلَّ يَغِلُّ بالكسر، ومن الغُلولِ غَلَّ يَغُلُّ بالضم"(3). ويُطلق الغلول على الخيانة في المال مطلقًا(4). ومعنى ﴿أَن يَغُلَّ﴾ ما كان بِنَبِيّ أن يَخُونَ أمَّتَه. والإغلالُ: الخيانَة في المغانِم، وغيرِها(5).

3) ﴿يَأْتِ﴾: من (أتي - أتو - أتى) الهمزة والتّاء والحرف المعتلّ ياءً، أو واوًا، أو ألفًا، يدلُّ على مجيء الشّيء وإصحابهُ وطاعته(6). فالإتيان: المجيءُ(7)، وهو الدّنوُّ والقُربُ، يُقَال للرّجل إذا دنا من عدوّه: أُتيتَ أيّها الرّجُل. و﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النَّحل: 1]، أَي: قَرُبَ ودنا(8)، وكُلُّ مَسِيلٍ سَهَّلتَه لماءٍ: أَتِيٌّ، وطَريق مِيتاء، أَي: مسلوكٌ واضح(9). ومنه قيل: للإتيان: مجيء بسهولة، فالإتيان: يُقال للمجيء بالذّات وبالأمر وبالتّدبير، ويُقالُ في الخير وفي الشّرّ وفي الأعيان والأعراض(10).

4) ﴿تُوَفَّىٰ﴾: الواو والفاء والحرف المعتلُّ كلمةٌ تدلُّ على إكمالٍ وإتمام. ومنه توفَّيتُ الشّيءَ واستَوفَيته؛ إذا أخذتَه كُلّه حتّى لم تترك منه شيئاً. ومنه يُقال للميِّت: تَوفَّاه اللّه(11).

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّازي، مختار الصحاح، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (غل - غلل).
(2) الرّاغب، المفردات: (غل)، وتفسير الرّاغب: 3/957.
(3) الجوهري، الصحاح: (غلل).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/154 - 155.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أتو).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (أتا).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أتى).
(9) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (باب: فعليل)، وابن سيده، المحكم: (أتى).
(10) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفي).

وتوفية الشّيء: بذله وافيًا، والوافي: الّذي بلغ التّمام. وأوفى: إذا تمّم العهد، ولم ينقض حفظه[1]، ومعنى اللّفظة في الآية الكريمة: تُعطى غير منقوصٍ.

5) ﴿نَفْسٍ﴾: النَّفس: الرّوحُ، ونفس الشَّيء: عينه يؤكّد به[2]. فمعنى النَّفس: جُملَة الشَّيء وحقيقَته. تقول: قَتَلَ فلانٌ نفسَه وأهلَكَ نفسَه، أي: أَوقعَ الإهلاكَ بذاتِه كلّها وحَقِيقَته؛ فنَفسُ الشَّيء ذاتُه، والجمعُ من كلّ ذلك أنفُسٌ ونُفوسٌ[3]. وخلاصة استعمال القرآن الكريم لكلمة نفس أنّها تُستعمل: بمعنى الذّات، أي: الفرد من النَّاس، وذلك في الجمهور الأعظم من المَواضِع[4]، ومنه اللّفظ الوارد في الآية الكريمة.

6) ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾: الظّاء واللّام والميم أصلان صحيحان، أحدهما خلاف الضّياء والنّور، والآخر وَضعُ الشَّيء في غير مَوضِعه تعدِّيًا[5]. وهو الإنقاص، ويُقال: ظَلَمَ القومَ؛ إذا سَقَاهم اللَّبن قبل إدراكه، وإخرَاج زُبدته[6]، والظُّلم: الجَورُ ومُجاوزَةُ الحدِّ[7]، والظّلم: الميل عن القصد، والظَلَمَةُ: المانعون أهل الحقوق حقوقهم[8]، والظّلم: وضع الشّيء في غير مَوضِعه المختصّ به؛ إمّا بنقصان أو بزيادة؛ وإمّا بعدول عن وقته أو مكانه، والظّلم: يُقال في مجاوزة الحقّ، ويُقال فيما يكثُر وفيما يقلُّ منَ التّجاوز، ولهذا يُستعمل في الذّنب الكبير، والذّنب الصّغير. وقيل: الظّلم ثلاثة: ظلمٌ بين الإنسان وبين اللّه تعالى، وأعظمه: الكفر والشّرك والنّفاق، وظلمٌ بينه وبين النّاس، وظلمٌ بينه وبين نفسه، وكلُّ هذه الثّلاثة في الحقيقة ظلم للنّفس؛ لأنَّ الإنسان في أوّل ما يهمّ بالظّلم فقد ظلمَ نفسه[9].

والظّلم: ضدّ العدل، وهو حجب ما ينبغي أو ما يُستَحق، أي: منعه أو انتقاصه[10]. ومعنى لا يظلمون في الآية: نفي كلِّ معاني الظّلم المذكورة.

(1) الرّاغب، المفردات: (وفي).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (نفس).
(3) ابن سيده، المحكم: (نفس).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفس).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظلم).
(7) ابن الأثير، النّهاية: (ظلم).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(9) الرّاغب، المفردات: (ظلم).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظلم).

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مقام النّبوّة ينافي رذائل الصّفات

ما صحَّ ولا استقام على من اختارهم اللّه لنبوَّته أن يخون في المغنم، بأن يأخذ شيئًا من الغنيمة غيرَ ما اختصَّه اللّه به؛ لأنّ الخيانة تتنافى مع مقام النّبوّة الّذي هو أشرف المقامات، ومن يرتكب شيئًا من ذلك يأت بما غَلَّه يوم القيامة حاملًا إيّاه؛ ليكون فضيحة له يوم الحشر؛ ليُؤخذ بإثم غُلوله وخيانته، ثم تُعطى كلُّ نفس جزاء ما اكتسبته تامًّا غير منقوص، وهم لا يُظلمون بزيادة سيئاتهم، ولا بنقص حسناتهم[1].

وترشدُ الآية الكريمة إلى صيانةِ اللّه تعالى أنبياءَه عن كلِّ ما يدنِّسهم ويقدحُ فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقًا، وأطهرهم نفوسًا، وأزكاهم وأطيبهم، ونزَّههم عن كل عيب، وجعلهم محلَّ رسالته، ومعدِنَ حكمته، ونهيِ المؤمنين عن الاستباق إلى المغنم[2]، وتجنُّبِ دنيِّ الفعال، بلهَ اتِّهام الآخرين بها.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطف المقصد على المقصد:

النّظرُ إلى الغنائم وعدمُ الالتفات إلى مرضاةِ الله يوقع في الغلول

عُطِف قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ﴾ على مجموع الكلام السَّابقِ من بابِ عطفِ المقصد على المقصد، وموقعه عقب جملة: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ﴾؛ لأنّها أفادت أنّ النّصر بيد اللّه والخذل بيده، وذلك يَستلزم التّحريض على طلب مرضاته ليكون لطيفًا بمن يرضونه. وإذ كانت هذه النّصائح والمواعظ موجَّهة إليهم ليعملوا بها فيما يستقبل من غزواتهم، نبّهوا إلى شيء يستخفّ به الجيش في الغزوات، وهو الغلول ليعلموا أنّ ذلك لا يرضي اللّه تعالى فيحذروه، ويكونوا ممّا هو أدعى لغضب اللّه أشدّ حذرًا، فهذه مناسبة التّحذير

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 2/321، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 71.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/113، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 71.

من الغلول، ويعضد ذلك أنّ سبب هزيمتهم يوم أُحد هو تعجّلهم إلى أخذ الغنائم[1].

لُطفُ التّعريض في الآية:

نفيُ الغلولِ عنه ﷺ إثباتٌ لغيره

نُقل عن ابن الجوزيّ أنّه أشار إلى أنّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ﴾ من ألطف التّعريض، إذ قد ثبتَت براءة ساحة النّبيّ ﷺ من الغُلول، فدلّ على أنّ الغلول في غيره[2]، فإنَّ النَّفي المطلق عن النَّبيِّ ﷺ يدلُّ على وجودِ المنفيِّ في غيره.

بلاغةُ النّفي بالتَّعبير ﴿وَمَا كَانَ﴾:

المبالغةُ في نفي أن يـقـعَ منه غلولٌ في أيِّ حالٍ من الأحوال

أفادت صيغة النَّفي في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ﴾ المبالغة، وأصل هذا التَّركيب في الكلام أنَّه في نفي الأفعال، فلمّا أُريدت المبالغة في النّفي عدل عن نفي الفعل إلى نفي المصدر الدّالّ على الجنس، وجعل نفي الجنس عنِ الشّخص بوساطة نفي الاستحقاق، فصار التّركيب: ما كان له أن يفعل، ويُقال أيضًا: ليس له أن يفعل[3].

وهذا التّعبير أبلغ من قولهم: ما صحّ ولا استقام لنبيّ أن يغلّ، أي: يخون في المغنم؛ لكونه نفيًا للشّأن الّذي هو أبلغ من نفي الفعل؛ لأنّه عبارة عن دعوى بدليل، كأنّه يقول هنا: إنّ النّبيّ لا يمكن أن يقع منه ذلك؛ لأنّ الله قد عصم أنبياءه من الغلّ والغلول فهو لا يقع منهم[4]. فذلك ليس من شأنه أصلًا، ولا من طبعه، ولا من خلقه، فالنّفي هنا نفي لإمكان وقوع الفعل، وليس نفيًا لحلِّه أو جوازه، فطبيعة النّبيّ الأمينة العادلة العفيفة لا يتأتّى أن يقع منها الغلول مُطلقًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/154.
(2) القمّاش، جامع لطائف التّفسير: 18/20.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/293 - 294.
(4) رضا، تفسير القرآن الحكيم: 4/177.

سرُّ اختيار لفظ النّبيّ دون الرّسول:

نفيُ الغلولِ عن الأنبياء شاملٌ للرُّسل بخلافِ العكسِ

آثر النَّظم الكريمُ استعمال كلمة النّبيِّ دون الرّسولِ، وذلك لتشملَ كلَّ نبيٍّ ورسول؛ فإنَّ كلّ رسول نبيٌّ وليس العكس كذلك، فلمَّا نفى الغلول عمَّن اتَّصف بالنُّبوة شملَ ذلك الجميع، ولو أتى بلفظ الرسول لاقتصر على الرُّسلِ دون الأنبياءِ، فهو نفيٌ للغلول عن عموم الأنبياء السّابقين له بما رسّخته صيغة تنكير لفظ النّبيّ من عموم، وبما تضمّنه اللّفظ من معنى السَّير على منهج سابقيه من الأنبياء سلوكًا، وعِظَمَ خُلقٍ.

سرّ تنكير لفظ النّبيّ:

عـمـومُ النـفـيِّ لجميعِ الأنبياء عليهم السلام

أفاد التّنكير في لفظِ (نبيّ) التّعميم، فلا يُتصوَّرُ الغلول من أيّ نبيٍّ، وإذا كان التَّنكيرُ للتّعميم؛ لأنّه تنكيرٌ في مقام النّفي، فمُؤدّى الكلام أنّ النّبوّة والغلول نقيضان لا يجتمعان، فما كان لأحد أن يظنَّ أنَّ النّبيّ سوف يظلم فَيَقْسِم بخلافِ السّويّة، وإذا وقع ذلك الظّنّ فهو منَ الظّنّ الإثم[1].

فائدة اللّام في لفظ ﴿لِنَبِيٍّ﴾:

المبالغة في نفي الغلول عنه في أصلِ الأمرِ

اللّام الدَّاخلةُ على لفظِ ﴿لِنَبِيٍّ﴾ هي أصل لام الجحود الّتي في نحو ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾ [الأنفال: 33]، فتراكيب لام الجحود كلّها من قبيل قَلْبِ مثل هذا التّركيب لقصد المبالغة في النّفي، بحيث ينفي أن يكون وجود المسند إليه مجعولًا لأجل فعل كذا، أي: فهو بريء منه بأصل الخلقة، ولذلك سُمّيت جحودًا[2]، ومعنى اللّام هنا الاستحقاقُ، وبوساطة نفي الاستحقاق نفي شأنِ الغلولِ عن النّبيّ ﷺ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1483.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/294.

نكتةُ استعمالِ لفظ الغلول:

الغلولُ يورِّثُ الأحقاد والضَّغائنَ بين النَّاسِ

أصلُ لفظِ الغلول الغلُّ، وهو دخول الماء في خلال الشّجر، فسمّيت الخيانة غلولاً؛ لأنّها تجري في المال على خفاء كجري الماء، ومنه الغلّ الحقد؛ لأنّ العداوة تجري في النّفس مَجرَى الغلل[1]، ولمَّا كان أخذُ المال من الغنائم يورِّث الأحقادَ بين النَّاس لأنَّه ظلمٌ وخيانةٌ سُمِّي غلولًا.

قال المبرّد: "ويُستعمل مستعارًا في غير المال، يُقال: غلّ يغلّ كقول اللّه ﷻ: ﴿وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾، ويُقال: أغلّ فهو مغلٌّ، إذا صُودف يغلّ، أو نُسب إليه"[2].

احتمالُ الإسنادِ المجازيِّ في إسناد الغلول إلى النّبيّ:

نفيُ الغلولِ عن الجيشِ أبلغُ في مدحِ النَّبيِّ وتنزيهه

ويحتملُ حملُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ﴾ على معنى النَّهي والتَّحذير أن يغلَّ أحدٌ من جيش رسول اللّه ﷺ، فيكون معنى أنَّ النّبيّ لا يغلّ: أنّه لا يقع الغلول في جيشه؛ فإسنادُ الغلول إلى النّبيّ مجاز عقليّ لملابسة جيش النّبيّ نبيّهم، ويجوز أن يُجعل على تقدير مُضاف، والتّقدير: ما كان لجيشِ النبيِّ أن يغلّ[3]، وعلى هذا الاحتمالِ فإنَّ نفيَ الغلولِ عن رسولِ اللّه أبعدُ شَوْطًا، وأرسخُ مدحًا.

علّة حذف المفعول:

نفي صفة الغلول إطلاقًا

حُذِف مفعول الفعل المضارع ﴿يَغُلَّۚ﴾، ولم يُقدّر له مفعول؛ لأنّ الغرض نفي هذه الصّفة إطلاقًا دون تعلّق بمفعول معيّن؛ ويُبنى على نفي إمكان الغلول إثبات الأمانة مؤكّدًا[4].

توجيه القراءات القرآنيّة في لفظِ ﴿يَغُلَّۚ﴾:

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: (يَغُلَّ) بفتح الياء وضمّ الغين،

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/434.
(2) المبّرد، الكامل في اللّغة والأدب: 1/283.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/155.
(4) الجلالان، المفصّل: (هامش المحقّق: 1)، ص: 239.

وقرأ الباقون بضمّ الياء وفتح الغين[1]، ومعنى قراءة الجمهور: نهيُ جيش النّبيّ عن أن يغلّوا؛ لأنّ الغلول في غنائم النّبيّ ﷺ غلولٌ للنّبيّ؛ إذ قسمة الغنائم إليه، وعلى قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم فالمعنى: أنّ النّبيَّ لا يغلّ؛ أي: أنّه لا يقع الغلول في جيشه بحسب ما سبق ذكره[2].

نهي الجيشِ عن الغلولِ بنفيه عن النّبيّ

وهناك توجيهٌ آخر للقراءتين وهو أن يُقال: القراءتان قد جمعتا بين معنيين تربويين متدرجين، أما المعنى الأول فهو نهي الأمة عن الظن الباطل بنبيها؛ لأن ذلك يؤدي إلى الإخفاق والهزيمة؛ أي: لا تظنُّوا أنَّه يغلَّ، وأما المعنى الثاني فهو تهديد لمن أتبع الظن الباطل قولاً باطلاً وتهمة باطلة وسلوكاً باطلاً، أي: اتَّهم النَّبيَّ في الغلولِ، على أن يكون: ﴿يَغُلَّ﴾ بمعنى يُتَّهم بالخيانةِ، وعليه تكون القراءة الأولى المبنية للفاعل ممهدةً للقراءة الثانية، وكأن الخطاب: لا تظنوا ظنَّ السوء لكي لا تقعوا في قول السوء، وعمل السوء فتهلكوا، وهذا من بديع القرآن في تربية الأمة على المسلك الحسن في اعتقادها وقولها وعملها، من خلال تعدد القراءات القرآنية للكلمة الواحدة.

القـراءات القـرآنـيَّـة تتعاضدُ في تربية الأمَّةِ

بلاغةُ الجملة الشّرطيّة في الرَّدعِ عن الإغلال:

قوله: ﴿وَمَن يَغۡلُلۡ﴾ جملةٌ شرطيّةٌ مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، وإنّما جِيء بها للرَّدع عنِ الإغلال[3].

سرّ تغاير صيغةِ فعل الغلول:

استعملتِ الآيةُ صيغتي ﴿يَغُلَّ﴾ و﴿يَغۡلُلۡ﴾، ولذلك لا ترادفَ بين هاتين الصّيغتين في الآيةِ والعرب استعملت الصّيغتين على تباينٍ بين معنيي: (فَعَّلتُ وأفعَلتُ)؛ فأفعَلتُهُ: أدخلتُ ذاك فيه، وفَعَّلتُ:

نـفـي المعنيين أدفع للاحتمال، وإمكان المقال

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/276.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/155.

(3) السّمين، الدّرّ المصون: 3/468.

كَثَّرتُ ذاك فيه[1]؛ فجاء النَّظمُ بالصّيغتين إرادةً لنفي المعنيين، وهو أدفع للاحتمال، وإمكان المقال.

جمالُ الجناس الاشتقاقيّ:

في قوله: ﴿يَغُلَّ﴾، و﴿يَغۡلُلۡ﴾، و﴿بِمَا غَلَّ﴾ تجنيسٌ مماثِلٌ[2] أكسب التَّعبير جمالًا وحسنًا، باتّحاد الجرس، وتناسق الإيقاع، وأحدث ميلًا للنّفس نحو التّشوق والإصغاء لطبيعة الغلول، وكيفيّته، وبلاغة تنزيه الأنبياء عنه.

التّعبيرُ بالفعل (يأت) دون غيره:

الأنبياءُ منزَّهونَ عن الغلول

عبَّرتِ الآيةُ بالفعل: ﴿يَأۡتِ﴾ لدلالته على قصد المجيء لا تحقّقه، وهو أنسبُ في تنزيه الأنبياء عن شنيع هذا الفعل الذي لا يليقُ بمقامِهم، وعصمتهم صلوات ربّي عليهم جميعًا، من التّعبير بفعل المجيء الدّالّ على تحقّق الحصول.

التّعبير بإتيان الغلول بين الحقيقة والمجاز:

يُحاسبُ الغالُّ على إثم الغلول يومَ القيامةِ

جُعِلَ الإتيان بالغلول يوم القيامة مجازًا عن الإتيان بإثمِهِ تعبيرًا بما غلّ عمّا لزمه من الإثم مجازًا، فالمُراد أنّ اللّه تعالى يحفظ عليه هذا الغلول، ويعزِّرُه عليه يوم القيامة ويجازيه؛ لأنّه لا تخفى عليه خافية، أو المُراد أنّه يشتهر بذلك مثل اشتهار من يحمل ذلك الشّيء، وذهب الرّازيّ إلى أنّه مع احتمال هذا التّأويل إلّا أنّ الأصل المُعتَبر في علم القرآن أنّه يجب إجراءُ اللّفظِ على الحقيقة، إلّا إذا قام دليلٌ يمنعُه منه، وهاهنا لا مانعَ من الظّاهر، فوجب إثباته[3].

تردُّدُ معنى ﴿بِمَا﴾ بين الموصوليّةِ والمصدريّةِ في قولِه: ﴿يَأۡتِ بِمَا غَلَّ﴾:

(ما) في قولِه: ﴿يَأۡتِ بِمَا غَلَّ﴾ إمَّا أن تكون موصولةً بمعنى الذي،

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غلّ).

(2) السّمين، الدّرّ المصون: 3/469.

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/451.

فالعائدُ محذوفٌ، أي: يأتِ بالذي غلَّه، ويجوزُ أَن تكون مصدريّةً، وتكونُ على حَذفِ مضاف، أي: يأتِ بإثم غلولِه(1)، والتّعبيرُ عنه بصيغةِ الإبهامِ الدّالِّ على العمومِ إطلاقٌ لجنسِه ونوعِه.

وجه الوصل في جملة ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾:

بيان أنّ ذلك الجزاء ليس مختصًّا بمَن غلَّ، بل كلّ نفس توفّى جزاء ما كسبت

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ جملة معطوفة على الجملة الشّرطية السّابقة ﴿وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ فلمّا ذكر الغلول، وما يجري لصاحبها يوم القيامة، انتقل لبيانِ الجزاءِ العامِّ، فكلُّ نفسٍ تُوفَّى جزاء ما كسبت من غيرِ ظُلم، فصار الغالُّ مذكورًا مرّتين: مرّة بخصوصه، ومرّة باندراجه في هذا العامّ ليعلم أنّه غير مُتخلّص من تبعة ما غلّ، ومن تبعة ما كسبت من غير الغلول(2).

التّنبيه على العقوبة بعد التّفضيح

وفي قوله: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ تنبيهٌ على العقوبة بعد التّفضيح، إذ قد علم أنّ الكلام السّابق مسوق مساق النّهي، ومن جملة النّفوس الّتي توفّى ما كسبت نفس من يغلل، فقد دخل في العموم(3).

دلالة العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

الدّلالة على طول مهلة التّفضيح

جيء بـ (ثمّ) للدّلالة على التّراخي بين إحضار الأعمال بأوزارِها ثمّ بعد تولّي جزائها، فإنّ هذا التّراخي يفيد طول الحساب، وطول الحساب عذاب في ذات نفسه، وهو في الوقت ذاته يدلّ على دقّته؛ إذ تُقام الموازين بالقسط(4)، وللإشعار بالتّفاوت الشّديد بين حمله ما غلّ وجزائه وسوء عاقبته يوم القيامة(5).

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 3/468.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/107.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/156.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1485.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/322.

فائدة العدول عنِ التّعبير بالفعل (يوفّى) إلى (توفّى):

تعميمُ جزاءِ كلِّ نفسٍ ليكون برهانًا على خصوصِ جزاءِ الغالِّ

ما يقتضيه الظَّاهر أن يكون النَّظم: (ثمّ يوفّى ما كسبت) أي: الغالّ؛ ليتّصل بما قبله، لكنّه عمّم الحكمَ معبّرًا بالفعل ﴿تُوَفَّىٰ﴾؛ لأنّ صاحبَ الغلولِ إذا علم أنّ هاهنا مُجازِيًا يُجازي كلّ أحد على عمله سواء كان خيرًا أم شرًا، علم أنّه غير متخلّص من بينهم مع عظم ما اكتسب[1]. فيكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه، فإنّه إذا كان كلّ كاسب مجزيًا بعمله فالغالُّ مع عظم جُرمه بذلك أولى[2]. فمن فوائد ذكر هذا الجزاء بصيغة العموم؛ الإعلام والإخبار للغالّ وغيره من جميع الكاسبين[3].

سبب وضع المكسوبِ مَوضِعَ جزائِه:

تحقيقُ العدل ببيان ما بين المكسوبِ والجزاءِ من التّناسبِ

ذهب العماديّ إلى أنّ وضعَ المكسوبِ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَسَبَتۡ﴾ مَوضِعَ جزائِه فلم يقل: (ثم توفّى كلُّ نفسٍ جزاءها)، تحقيقٌ للعدل التّامِّ، ببيان ما بين المكسوبِ والجزاءِ من تمام التّناسُب كمّاً وكيفاً، كأنّهما شيءٌ واحد[4].

إسناد التّوفيةِ إلى كلّ كاسبٍ وتعليقها بكلّ مكسوبٍ:

توفيةُ كلِّ كاسبٍ على أقلِّ الأعمالِ دالٌّ على فظاعة توفيةِ الغالِّ

إسنادُ التّوفية إلى كلِّ كاسبٍ مع أنَّ السِّياقَ في بيانِ حالِ الغالِّ عند إتيانه بما غلّه يوم القيامة، من الدّلالة على فخامة شأن اليوم وهول مطلَعه والمبالغة في بيان فظاعة حال الغالّ مالا يخفى، فإنّه حيث وُفيّ كلُّ كاسبٍ جزاءَ ما كسبه، ولم يُنقَص منه شيءٌ، وإن كان جُرمُه في غاية القِلّة والحقارة فلأَنْ لا يُنقَص من جزاء الغالِّ شيءٌ - وجُرمُه من أعظم الجرائم - أظهر وأجلى[5].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/435، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/414.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/46.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/322.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/107.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/107.

نكتة التّعبير بضمير الفصل، والجملة الاسميّة:

تأكيد المساواة بين الجزاء والعمل، ونفي الظّلم نفيًا مُؤكّدًا

في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ تأكيد للمساواة، وفيه أيضًا نفيٌ للظّلم نفيًا مُؤكّدًا بالتّعبير بالجملة الاسميّة، إذِ المعنى أنّهم ليس من شأنهم أن يظلموا؛ لأنّ اللّه تعالى خالقهم، واللّه تعالى لا يظلم مُطلَقًا؛ لأنّه لا يليق بكماله تعالى، ولأنّه كتب العدل على نفسه، وإنّ التّسوية بين الجزاء والعمل هي القانون العادل الذي سنّه ربُّ العالمين، فلا تستوي الحسنة ولا السّيئة، ولا يستوي الخير والشّرّ[1]، وتقديم المسند إليه (هم) على المسند الفعليّ (يظلمون) يفيد تقوية الحكم وتوكيده.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإتيان والمجيء:

مبنى الإتيان باعتبار القصد

المجيء أعمُّ من الإتيان، ويُقال اعتبارًا بالحصول، أمَّا الإتيان فيُقال باعتبار القصد[2]. ويُلاحظ في المجيء نقل الشّيء من جانب البدء، والإتيان يلاحظ فيه إيصاله إلى المنتهى فإنّ ابتداء المجيء هو جناب المُرسَل، ومُنتهى الإتيان هو المُرسَل إليه[3]؛ ولذلك ورد التعبير في الآية الكريمة بالإتيان؛ باعتبار القصد فهو إتيانٌ للمغلول - وكلُّ من خان في شَيۡءٍ خُفْيَةً فقدْ غَلَّ - حاصلٌ يوم القيامة؛ إذ كلُّ من أخذ مِنَ الْغَنِيمَةِ خفيةً قبل قِسْمتها، يأتِ بما أخذه حاملًا له يوم القيامة؛ ليُفضَح به في ذلك الموقفِ المشهود على رؤوس الخلائق.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1486.

(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).

(3) البروسوي، روح البيان: 3/211.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢﴾ [آل عمران: 162]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أورد عَقيب وعيده على الغُلول، ونهيه عباده عنه، بالقول: إنَّ المطيع للّه فيما أمره ونهاه، والعاصي له في ذلك لا يستويان، ولا تستوي حالتاهما عنده؛ لأنّ لمن أطاع اللّه فيما أمره ونهاه الجنّةُ، ولمن عصاه فيما أمره ونهاه النّار[1]، فرتّب على ذكر الجزاء العامّ في آخر الآية قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّبَعَ﴾: "التَّاء والباء والعين أَصلٌ واحدٌ لا يَشذُّ عنه مِنَ الباب شَيءٌ، وهو التُّلُوُّ والقَفوُ، يُقالُ: تَبِعتُ فُلانًا إذا تَلَوتَهُ واتَّبَعتَهُ. وأَتبَعتُهُ إذا لَحِقتَهُ. والأَصلُ واحدٌ"[3]. فالتّابع: التّالي، وتتبّعتُ علمه، أي: اتّبعت آثاره[4]. وقفيت أثره، وذلك تارة بالجسم، وتارة بالارتسام والائتمار[5]. واتَّبَعَ القُرآن: ائتمّ به وعمل بما فيه[6]. والتِّباعُ: الولاءُ. وتابعَ الرّجلُ عمَله، أي: أَتقَنَه وأحكمه. وتَتَبَّعتُ الشّيء تتبّعًا، أي: تطلبّته متتبّعًا له[7]. وهو لحُوق الشّيء بمتقدّم أو سابق والسّير في أَثَره بلا فصل مع رقّة ولين، واتّبعه وأَتْبعه وتتبعه: قَفَاه كأنّما لَحِق أوِ التصق به، وتَطَلَّبه مُتّبعًا له. ومنه قَفو الائتمار والامتثال[8]. وهو معنى اللّفظ في الآية.

2) ﴿رِضۡوَٰنَ﴾: "الرَّاء والضَّاد والحرفُ المُعتلُّ أَصلٌ واحدٌ يدُلُّ على خلاف السُّخط"[9].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/366.
(2) رضا، تفسير المنار: 4/179.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(4) الخليل، العين: (تبع).
(5) الرّاغب، المفردات: (تبع).
(6) ابن سيده، المحكم: (تبع).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (تبع).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تبع).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي).

ورضا العبد عن الله أن لا يكره ما يجري به قضاؤُه، ورضا الله عن العبد هو أن يراه مُؤتمِرًا لأمره، ومُنتهيًا عن نهيه، والرّضوان: الرّضا الكثير، ولمّا كان أعظم الرّضا رضا الله تعالى خصّ لفظ الرّضوان في القرآن بما كان من الله تعالى[1].

3) ﴿بَآءَ﴾: الباء والواو والهمزة أَصلان: أَحَدُهما الرُّجوعُ إِلى الشَّيءِ. ومنه قَولُهم: بَاءَ فُلانٌ بذَنبه، كأَنَّه عاد إِلى مَباءَته مُحتملًا لِذَنبه[2]، كرهاً لا يَستطيعُ دَفعَه عن نفسِهِ فقد باء به كما باءتِ اليهودُ بالغضب من اللّه[3].

وباؤوا بغضب من الله: رجعوا به، أي: صار عليهم. وباء بإثمه يبوء بَوءاً. وباء بحقه، أي: أقرَّ بما عليه، والتزم، ورجع به[4]. وحلَّ مبوأً ومعه غضب اللّه، أي: عقوبته، واستعمال (باء) تنبيهًا على أنَّ مكانه الموافق يلزمه فيه غضب الله، فكيف غيره من الأمكنة[5]؟ وقد جاء في القرآن الكريم من استعمالات هذا الجذر صيغتان، منهما: (باءَ بـ)، نحو: ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، يريد بكفر أو غُلول أو تولٍّ عنِ النّبيّ ﷺ في الحرب، أي: رجعوا بالسّخط بسبب كفر[6].

4) ﴿بِسَخَطٖ﴾: السُّخْط والسَّخَطُ: نقيض الرّضا[7]. وتسخّط الرّجل تسخّطًا إِذا تغضّب وَتكرّه الشَّيء[8]. وهو الغضب الشّديد المقتضي للعقوبة، وهو من الله تعالى: إنزال العقوبة[9].

5) ﴿وَمَأۡوَىٰهُ﴾: الهمزة والواو والياء أَصلان: أَحدُهما التَّجمُّعُ، والمأْوى: مكانُ كُلِّ شَيءٍ يُأْوَى إِليه ليلًا أَو نهارًا[10]. والتّأوّي: التّجمّع، وتأوّتِ الطّير، إذا انضمَّ بعضُها إلى بعض[11].

(1) الرّاغب، المفردات: (رضي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بوأ).
(3) الخليل، العين: (بوأ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (بوأ)، وابن الأثير، النّهاية: (بوأ).
(5) الرّاغب، المفردات: (باء).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بوأ).
(7) الخليل، العين: (سخط).
(8) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (سخط).
(9) الرّاغب، المفردات: (سخط).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوي)، والجوهريّ، الصّحاح: (أوى).
(11) الخليل، العين: (أوى).

وتقول: أوى إلى كذا: انضمَّ إليه، و﴿وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ﴾ اسم للمكان الّذي يأوي إليه[1]. والمأوى: المَنزِل[2]. ومعنى المأوى في الآية الكريمة أنّ جهنّم منزلهم الّذي يأوون إليه مُتجمعين.

6) ﴿جَهَنَّمُۖ﴾: جَهَنَّمُ: من أسماء النّار الموقدة الّتي يُعذّب بها اللّه ﷻ عباده. وهو ملحق بالخماسي بتشديد الحرف الثّالث منه، ويُمنع من الصّرف للعلميّة والتّأنيث. ويُقال: هو فارسيّ مُعرَب[3]. وهو: بُعدُ قَعر الشَّيء، وعُمق تجوّفه مع اضطمامه على هذا التّجوّف، ومن هذا جَهَنَّم الّتي يُعذَّب فيها الكافرون، نعوذ باللّه منها وممّا يؤدّي إليها. وقد تكرَّر في الأحاديث وصفُها بالعمق السَّحيق[4].

7) ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾: الصَّاد والياء والرَّاء أَصلٌ صحيحٌ، وهو المآلُ والمَرجِعُ. وصِيرُ الأَمرِ مَصيرُهُ وعاقِبَتُه[5]. وصَيُّورُ الأمر آخِرُهُ، ومُنتَهاه، وما يؤول إليه[6]. وصار إلى كذا: انتهى إليه[7]. والمصير، أي: المَرجِع[8]. وهو الالتواء أوِ التّحول إلى غاية أو مجمع، ومن معنى التّحول: صار الشّيءُ كذا، أي: انتقل من حال إلى أخرى، وصار إليه: رجع، وكلّ ما في القرآن من هذا التّركيب بمعنى مآل ومنتهى[9].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

جـزاءُ اتّبـاع رضـوان اللـه، وجـزاءُ الإعراض عنه

تبيِّنُ الآية أنَّ من يتّبع ما يرضي اللّه تعالى من أوامر، ويتجنَّب ما ينهى عنه، فيجدُّ ويجتهد في الخيرات والأعمال الصّالحات، ويتّقي الغُلول وغيره من الفواحش والمنكرات، حتّى تزكو نفسه وترتقي روحه، فهو في الجزاء الحسن، وسيكون عند ربّه في جنّات عدن، ليس كمن انتهى إلى مباءته في الآخرة مصاحبًا ومقترنًا بغضب

(1) الرّاغب، المفردات: (أوى).
(2) ابن الأثير، النّهاية: (أوى).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (جَهَنَّم)، وقد ردّ السّمين الحلبيّ، ومحمد حسن جبل كونها غير عربية، وأثبتا أنّها عربية، وأنّ منعها للعلميّة والتّأنيث، يُنظر: السّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جَهَنَّم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهنَّم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صير).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (صير).
(7) الرّاغب، المفردات: (صير).
(8) ابن الأثير، النّهاية: (صير).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صير).

عظيم من اللّه ﷻ؛ لتدنيس نفسه بما خفي من الخطايا كالسّرقة والغُلول، وما ظهر منها كالسَّلب والنَّهب، وإهمال تطهيرها بالعبادات، وعمل الخيرات، فمأواه ومنتهاه جهنّم، وبئس المصير، فهذان لا يستويان في حُكْم اللّه[1].

وترشدُ الآية الكريمة إلى قانون سامٍ وضعه سبحانه وتعالى هو التّساوي بين العمل وجزائه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل بالاستفهام الإنكاريّ:

الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ للإنكار، أي: إنكار التَّسويةِ بَيْنَ من يتَّبع رضوانَ اللّه، ومن باء بسخطِ اللّه تعالى، والمُرادُ بهذه الآيةِ تأكيدُ نفي الغلولِ عنِ النّبيّ ﷺ وتقريرُه بتحقيق المباينةِ الكليّةِ بينه وبين الغالِّ، حيث وصف كلّ منهما ما وُصف به الآخَرُ، فقوبل رضوانُه تعالى بسَخَطه، والاتِّباعُ بالبَوء[3].

معنى الفاءِ بين العطفِ على مقدَّرٍ والتَّفريعِ على مذكورٍ:

إمَّا أن تُحمل الفاءُ على العطف على محذوفٍ تقديرُه: أمن اتّقى فاتّبع رضوان اللّه[4]، أو نجعلها تفريعيَّة على قوله: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾؛ فهي كالبيان لتوفية كلّ نفس بما كسبت[5]، وتأكيد لبيان أنّه لا يستوي المحسن والمسيء والأمين والخائن[6].

والجمع بين الهمزة والكاف لتوجيه الإنكار إلى ترتّب توهُّم المماثلة بينهما والحُكمِ بها على ما ذُكر من حال الغالِّ، كأنّه قيل:

اجتماعُ الهمزة والكافِ أنتجَ معنى إنكارِ المساواة بين الأبرار والفجّارِ

(1) رضا، تفسير المنار: 4/179.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1486.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/107.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/415.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/157.
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/323.

أبعدَ ظهورِ حالِهِ يكونُ مَنْ ترقّى إلى أعلى عِلّيين كمَن تردَّى إلى أسفل سافلين[1]؟!، فالاستفهام إنكار للمماثلة المستفادة من كاف التّشبيه، فهو بمعنى: لا يستوون[2]، أي: ليس من اتّبع رضا اللّه فامتثل أوامره، واجتنب مناهيه، كمن عصاه فباء بسخطه[3].

وجه الاستعارة في الاستفهام:

شـرعـة الـلـه للمهتدي دليلٌ واجـب الاتِّـبـاع، ولـلـعـاصي خـسـران بمخالفته

الاتِّباعُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ استعارة بديعة، فجعل ما شرعه اللّه كالدّليل الّذي يتّبعه من يهتدي به، وجعل في المقابلِ الفاسق ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فهو كالشّخص الّذي أُمر بأن يتّبع الطَّريقَ الموصل، فتركها ورجع مصحوبًا بما يخالف الاتّباع[4] فهو في خذلان، وخسران، وسخط، وفي الآيةِ تمثيل حال صاحب المعاصي بالسّاعي إلى طلب النّفع الرّاجع بالمضرّة، بوساطةِ الفعل ﴿بَآءَ﴾، أو رجع بالخيبة، كما تقدّم في معنى قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ [البقرة: 16].

مقصدُ التّشبيه معذوقٌ بالسِّياق:

من طلبَ رضوانَ الـلـه بـالـغَ في اهتمامِه

الاتِّباعُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بمعنى التّطلب: شبَّه حالَ المُتوخِّي بأفعالِه رضا اللّه بحال المُتطلّب لطلبه، فهو يتبعها حيث حلّ؛ ليقتنصها، وفي هذا التّشبيه حسن التّنبيه على أنّ التّحصيل على رضوان اللّه تعالى مُحتاج إلى فرط اهتمام[5].

التّعبيرُ بالرُّضوان دون الرِّضا:

كـلّ رضـا في القرآن مُخصَّصٌ بما كان من الله تعالى

التّعبير بـ(الرُّضوان) دون الرّضا هو غاية الرّضا[6]، ولمّا كان أعظم الرّضا رضا اللّه تعالى خُصَّ لفظ الرّضوان في القرآن بما كان من اللّه تعالى[7].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/107.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/157.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/107.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/107.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/157.
(6) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/962.
(7) الرّاغب، المفردات: (رضي).

نكتةُ إضافة الرّضوان إلى الله، وجعل السّخط منه:

التّأدّب والتّعظيم لله تعالى في إضافته إليه، وإبعاد الشّرّ عنه

قيل لابن عرفة: أضيف الرّضوان إلى اللّه تشريفًا، وفعل السّخط منه تأدّبًا وتعظيمًا للّه تعالى في إضافته إليه، وإبعاد الشّرّ عنه، كما قال اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨﴾ [الشّعراء: 78]، ثمّ قال: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾ [الشّعراء: 80]، ولم يقُل: وإذا أمرضني مع أنّ الكلّ من فِعله وخِلقه[1].

غرضُ تنكيرِ السّخطِ:

التّعظيم لخروج الآية مَخرَج التّنفير والوعظ

غرضُ تنكيرِ السّخط للتّعظيم، أي: ليس من اتّبع أدنى شيء من رضا اللّه تعالى، ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ﴾ عظيم من اللّه، فأحرى من اتّبع أعلى الرّضا، فالآية إنّما خرجت مَخرَج التّنفير والوعظ، فالمناسب التّقليل في جانب الرّضا، بمعنى أنّ قليله لا يُقارب عظيم السّخط ولا يُدانيه، فهو نفي تشبيه، أو أنّ أدنى السّخط، وإن قلّ فهو من العظيم عظيمٌ، فيستوي في حقّه أقلّ السَّخط، وأعلاه بخلاف الرّضا[2].

نكتة العدول من الإضمار إلى الإظهار:

وإظهار الاسم الجليل في مَوضِع الإضمار؛ لإدخال الرَّوع في القلوب، وتربية المهابة في النّفوس[3].

تعقيب ذكر السّخط بذكر العقاب:

من كانت نهايتُه في الدُّنيا خاوية، فبدايتُه في الآخرةِ هاوية

وعقّبَ سبحانه ذكرَ سخطِه بذكرِ عقابِه؛ لأنّ السّخطَ والعقابَ مُتلازِمَان، ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، أي: أنّ عودتهم بغضب اللّه الشّديد يتبعه حتمًا ذلك المصير يوم القيامة، وهو أن يكون المستقرّ الذي يستقرُّون فيه وينتهون إليه، هو جهنّم، وهي الهاوية الّتي يهوون إليها في النّار، جزاء هاوية الخيانة

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/439.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/439 - 440.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/107.

الّتي أصابتهم في الدّنيا، وبئس ذلك المصير الذي صاروا إليه، وكان لهم نهاية، وإن لم يريدوه لهم غاية[1].

بلاغةُ إتباعِ التَّرهيبِ بالتَّرهيبِ:

(السّخط) هو إظهارُ التّقبيح، لكنّ إظهار التّقبيح قد لا يؤثّر في أناس غليظي الإحساس لا تنفع فيهم اللّعنة أوِ الشّتائم؛ لذلك جاء سبحانه بالحكم: ﴿وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[2]؛ ليردعَ من لا يردعُه معرفةُ سخطِ اللّه تعالى.

نكتةُ حذفِ مصير أهل الطّاعة الأخرويِّ وذكره في حقِّ أهل المعصيَّةِ:

رضوان الله تعالى أكبر، وهو مستلزم لكلّ نعيم سبقًا للجمالِ الجلالَ

عُلِم من هذه المقابلةِ حالُ أهلِ الطّاعةِ وأهلِ المَعْصِيةِ، أو أهل الإيمان وأهل الكفر[3]، ولم تذكر الآيةُ حالَ من اتّبع رضوانَ اللّه في الآخرةِ، كما ذكر أنَّ نهايةَ أهل المعصية النَّار، فصرّح بجهنّم مصيرًا لمن باء بالسّخط؛ وذلك لأنَّ المقامَ مقامُ رَدعٍ وزجرٍ[4].

بالإضافةِ إلى أنَّ رضوانَ اللّه تعالى أكبرُ، وهو مُستلزِمٌ لكلِّ نعيمٍ، وكون السّخط مُستلزمًا لكلِّ عقابٍ، فيقتضي أن تُذكرَ معه جهنّمُ في حيِّز المنعِ لسبق الجمالِ الجلالَ[5].

بلاغة الطِّباق بين الرِّضوان والسَّخط:

زيادة إيضاح المعنى بأوجزِ عبارة

الطّباق في قوله: ﴿رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾، و﴿بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[6]، هو من أوجز الحديث، وأصدقه، وأبعده في الدّلالة على المعنى المُراد، فإنّه سبحانه يجازي المُطيع المُتّبع بالرّضوان، ويُعاقب العاصي بالسّخط، وفيه إفصاحٌ عن دلالة الرَّبط في الجملة المُؤدّي إلى مزيدِ إيضاحٍ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1487.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1848.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/157.
(4) السّمين، الدّرّ المصون: 3/469.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 4/111.
(6) السَّمين، الدّرّ المصون: 3/469.

للمعنى، وبيانه؛ بما يسبّبه من شدٍّ، وجذب على النَّفس المتلقّية له قراءةً، وتدبّرًا.

نكتة حذف المخصوص بالذّمِّ:

الاكتفاءُ بالمذكور استغراقٌ للمحتملاتِ وهو أشدُّ في التَّهويلِ

قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ[1]، أو هو تذييلٌ، أو اعتراضٌ، أو معطوفٌ على الصِّلة بتقدير: ويُقالُ في حقِّهم ذلك، وأيًّا ما كان فالمخصوص بالذّمِّ محذوفٌ، أي: وبئس المصيرُ جهنّمُ[2]، ومع وضوحِ هذا التَّقديرِ إلّا أنّ الاكتفاءَ بالمذكور استغراقٌ لعموم مُحتملات سوء المصير، فهو أبلغُ في التَّعبير عن شدّة العقاب، وسوء المنقلب، وذلّة المآل أجارنا اللّه تعالى.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّة:

السّخط والغيظ والغضب:

السّخط غضب من الله يقتضي إيجاب العقوبة

السّخط: حصول غضب يقتضي عقوبة، وإذا استُعمل في اللّه فبمعنى إيجابه العقوبة[3]؛ لأنَّ السَّخط إذا عدّيته بنفسه فهو خلاف الرِّضا، يُقال: رضيه، وسخطه، وإذا عدَّيته بعلى فهو بمعنى الغَضَب، تقول: سخط اللّه عليه إذا أراد عقابه. ولا يكون السّخط إلَّا منَ الكبير على الصَّغير، والغضب يكون من الصّغير على الكبير، ومن الكبير على الصَّغير[4]، والغيظ يقاربُه، إلّا أنّه يُقال إذا كان معه تغيّر مُنكر، ولا يُوصف به اللّه[5]، لذلك قصد إلى التَّعبير باستحقاق السّخط من اللّه في هذه الآية - وهي صفةٌ من صفات اللّه الفعليَّة الخبريَّة الثابتة للّه ﷻ - دون الغضب والغيظ؛ لأنّها من الكبير المتعالي الَّذي أوجب على المَخلوقين له العقوبة في هذا المقام، وهي جهنَّم.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/107، والآلوسّي، روح المعاني: 4/112.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/962.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/962 - 963.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 130.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/963.

المصير والمَرجِع:

المصير أعمُّ من الرّجوع

الرّجوع هو انقلاب الشّيء إلى حال كان عليها، أو ما هو مُقدّر تقديرها، والمصير: التّنقُّل من حال إلى حال أخرى، فهو أعمُّ من الرّجوع، واستخدمه القرآن في ذمِّ حال أهل النار، والقصد في الآية الكريمة بيانُ سوء المنقلب والمعاد والمستقرِّ الملازم لمن مأواه جهنم، وتبعيدُ ما بين الفريقين المذكورين في الآية في الحُكم والصِّفة، كقوله: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ﴾ [الحشر: 20][1].

المصير يقتضي مخالفة ما صار إليه من جهنّم لما كان عليه في الدّنيا

ولأنَّ الصيرورة تقتضي الانتقال من حال إلى حال أخرى، كصار الطّين خزفًا، والمَرجِع انقلاب الشّيء إلى حال قد كان عليها كقولك: مَرجِع ابن آدم إلى التّراب، وأمّا قولهم مَرجِع العباد إلى الله تعالى فباعتبار أنّهم ينقلبون إلى حال لا يملكون فيها لأنفسهم شيئًا، كما كان قبل ما ملكوا[2]، ولأنّ مآلهم الّذي صاروا إليه مأوىً وجزاءً، وهو (نار جهنّم) هو انتقالٌ إلى حالٍ أخرى خالفوا فيه حالهم في الدَّنيا، ناسب الآية لفظ المصير دون المرجع.

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/963.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/112.

﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٦٣﴾ [آل عمران: 163]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا أُفهِم الإنكار على من سوّى بين النّاس أنّهم متمايزون صرّح بذلك في قوله:

﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾، أي: متباينون تباين الدَّرجات[1]؛ لأنّ نتيجة عدم التّساوي بين من يتّبع رضوان اللّه تعالى، ويطلبه بإقامة الطّاعات على وجهها الأكمل، ومن يختارون الشّرّ سبيلًا هي أن يكون النّاس درجات بحسب مقدار طلب الرّضوان، ومقدار اتّباع السّخط[2].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿دَرَجَٰتٌ﴾: استعمال الدَّرَجَة في الرِّفعة والمنزلة، ودَرَجاتُ الجنان: منازلُ أرفع من منازل[3]؛ إذ يُقال للمنزلة درجة إذا اعتُبرت بالصّعود دون الامتداد على البسيطة، كدرجة السّطح والسّلم، ويُعبَّر بها عن المنزلة الرّفيعة: قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ﴾ [البقرة: 228] تنبيهًا لرفعة منزلة الرّجال عليهنّ في العقل والسّياسة[4]. فالدَّرَجةُ واحدةُ الدَّرجات، وهي الطّبقات منَ المراتب[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

منازل الآخرة تتفاوت وفق أعمال أصحابها

النّاس يتفاوتون في الجزاء عند اللّه كما يتفاوتون في الدنيا في المعرفة والفضائل، وفي الجهل والرّذائل؛ وفاقَ أعمالهم الحسنة أو القبيحة. وهذا التّفاوت يكون على مراتبَ ودرجاتٍ، يعلو بعضها

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/114.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1487.
(3) الخليل، العين: (درج).
(4) الرّاغب، المفردات: (درج)
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (درج).

بعضًا، منَ الرّفيق الأعلى في الدَّرجات العلى، الّتي كان يطلبها النّبيّ ﷺ من ربّه في مرض موته، إلى الدّرك الأسفل من النّار، واللّه تعالى بصير بأعمالهم، لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمها، وأثبتها في اللوح المحفوظ[1].

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنّ منازل الثّواب تتفاوت وفاق فضائل الأعمال، فمن رغب بأعلى الدَّرجات شمّر عن ساعد القُربات، فالمتبعون لرضوان اللّه يسعون في نيل الدرجات العاليات، والمنازل والغرفات، فيعطيهم اللّه من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتبعون لمساخط اللّه يسعَوْن في النزول في الدركات إلى أسفل سافلين، كلٌّ على حَسَب عمله.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ التّشبيه البليغ:

المـؤمـنـون متـفـاوتـون في منـازِلـهـم كالدَّرجاتِ

جُعل المؤمنون في قوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ الدَّرجات نفسها مبالغةً، والمعنى: أنّهم متفاوتون في الجزاء على كَسبهم، كما أنَّ الدَّرجات متفاوتة، والأصل على التّشبيه، أي: هم مثل الدَّرجات في التّفاوت[2]، فالتّشبيه بليغٌ، ووجه ما بينهم من تباين الأحوال في الثّواب والعقاب، كالدَّرجات في تفاوتها علوًّا وسفلًا[3].

المقصودُ بالضميرِ المُنفصل في قولِه: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾:

أهـلُ الـرّضـوان هـم أهـلُ الدَّرجات

اختُلف في عودِ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ على ثلاثةِ أقوالٍ، وهي:

الأوَّل: عاد الضَّميرُ إلى قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّهم المقصودون من الكلام، ولقرينة قوله: ﴿دَرَجَٰتٌ﴾؛ لأنّ الدَّرجات

---

(1) رضا، تفسير المنار: 4/180، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 71.

(2) ابن عادل، اللُّباب: 6/30.

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/452.

منازل رفعة، والغالبُ في العُرفِ استعمالُها في أهل الثّواب، والدّركات في أهل العقاب، ثمّ إنّ الكافرين ذُكرت عاقبتهم، فقيل: مأواهم جهنّم، ولم يُذكر للمؤمنين شيء؛ فوجب أن يكون قوله: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾ وصفًا لمنِ اتّبع رضوان الله، يزاد عليه أنّ عادة القرآن في الأكثر جارية بأنّ ما كان منَ الثّواب والرّحمة فإنّ الله يضيفه إلى نفسه، وما كان من العقاب لا يضيفه إلى نفسه(1).

جـــوازُ عـــودِ الـضَّـمـيرِ على الـفــريــقــين لتغليبِ الأبرار

الثّاني: ويجوز أن يكون قوله: ﴿هُمۡ﴾ عائدًا على الكلّ؛ وذلك لأنّ درجات أهل الثّواب متفاوتة، ودرجات أهل العقاب أيضًا متفاوتة على حسب تفاوت أعمال الخلق، لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزّلزلة: 7 - 8](2)، ويكون إطلاق لفظ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ على الفريقين، وفيهم الأشرار من قبيل التّغليب، فتشمل الدّركات، فالدّرجات(3)، والمغزى من التَّعبير بالدَّرجاتِ تغليبُ الخيرِ على الشَّرِّ، وتغليبُ رِضا الله على سَخَطِه، وتغليبُ الأبرارِ على الفُجَّار(4).

ضـعـفُ الـقـولِ بـعـودِ الـضَّـمـيرِ إلى أهلِ السّخط

الثَّالثُ: الضّمير عائدٌ إلى الأقرب، أي: أهل النَّار، باعتبارِهم متفاوتين في مراتب العذاب(5)، وهو وجه تردّه الحُجَجُ المتقدِّمُ ذكرُها، وهو أضعفُ الأقوالِ وأوهاها، وسببُه تمسُّكُ أصحابه بقاعدةٍ غير مطَّردة، وهي عودةُ الضَّميرِ إلى أقرب مذكورٍ، وفاتَهم أنَّ العودَ إلى أقرب مذكورٍ منضبطٍ بموافقةِ السِّياقِ، وصحَّة المعنى.

بلاغةُ المجازِ بحذفِ المضافِ في قولِه: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾:

يجوز أن يكون قولُه تعالى: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾ على حَذف مضاف،

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/416، والبسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 593، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/440، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/157.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/416.

(3) رضا، تفسير المنار: 4/179.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1488.

(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/416.

اختلافُ الأعمالِ صيّرت المؤمنين بمنزلة الأشياء المختلفة في ذواتها

أي: هم أهل درجات، أو ذوو درجات، ولهم درجات عند الله، والمعنى: أنّ المؤمنين ذوو درجة رفيعة، والكافرين ذوو دركة خسيسة[1]، وحُسن هذا الحذف، والاكتفاءُ بالمذكور؛ لأنّ اختلاف أعمالِهم قد صيّرتهم بمنزلة الأشياء المختلفة في ذواتها؛ فكان هذا المجازُ أبلغَ من الحقيقة[2]؛ ولذلك قصد إلى التّعبير في المَطلَع بالضّمير ﴿هُمۡ﴾ المُعبّر عن ذواتهم دون غيرها من المبهمات.

نكتةُ التّعبيرِ عنِ الدَّرجات بجمع القلّة:

لا يُشمَلُ بمنازلِ الجنّةِ ودرجات النّعيم إلّا المؤمنون

الجموع يقع بعضها مَوقِع بعض لاشتراكها في مُطلَق الجمعيّة، ووضع جمع القلّة مَوضِع الكثرة في قوله تعالى ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾، مع أنّ رتب النّاس في علم الله لا محالة أكثر من العشرة، إشارة إلى قلّة من يُشمَل بهذه الدَّرجات فلا يكون فيها إلّا المؤمنون، وقد نصّ سبحانه على قلّتهم بالإضافة إلى غيرهم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: 3][3].

فائدةُ التّعبيرِ بالظّرف (عند):

ما عند الله أعظمُ وأفخمُ ممّا يُظنُّ أو يُحسب

لمّا كان اعتبار التّفاوت بما عند الله قال: ﴿عِندَ ٱللَّهِۗ﴾، أي: الملك الأعلى في حكمه وعلمه، وإن خفي ذلك عليكم؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى خلقهم فهو عالم بهم حين خلقهم[4]، فالمشهور أنَّ العنديَّة هنا عنديّةُ علمٍ وحكم، أي: هم أصحاب درجات في حكم الله، وبحسب علمه بشؤونهم، وما يستحقّون، وكلا المعنيين صحيح ولا تنافي بينهما[5].

سرُّ إظهارِ لفظ الجلالة وتكراره:

آثرَ النَّظم إظهار لفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/516.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/416.

(3) الزّركشّي، البرهان: 3/355.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/114.

(5) رضا، تفسير المنار: 4/179.

تشريفُ منازلِ المؤمنين وإبرازُ مكانتِها

﴿ٱللَّهِۗ﴾، فلم يقُل: (عنده) لأنَّه يحمل جميع صفات الكمال جريًا على عادة القرآن في الأكثر؛ بأنّ ما كان منَ الثّواب والرّحمة فإنّ اللّه يضيفه إلى نفسه[1]، والغاية تشريف منازلِ المؤمنين، وإبراز مكانتها بوصفها عنده جلّ في علاه[2].

المبالغة في التّهديد والتّشديد في الوعيد

ويُلمَح في إظهار اسمه الشّريف وتَكراره في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ قاعدة ذكرها في القرآن؛ بأنَّ إظهار الاسم الجليل في مَوقِع الإضمارِ في مثل هذا المَوضِع لتربية المهابةِ، وإلقاءِ الرَّوعةِ، والمبالغة في التّهديد والتّشديد في الوعيد[3]، فضلًا عن توكيد قدرته، وألوهيّته في مَواطِن العلم، والاستطاعة، والتَّمكين.

التّعبير بصيغة فعيل:

الدّلالة على رسوخ الصّفة والمبالغة فيها

عبَّرتِ الآيةُ بصفة اللّه البصيرِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ للدّلالة على ثبوت الصّفة فيه جلَّ في علاه، ورسوخها على الدّوام، والمبالغة في الفعل وتَكراره، وهي تُناسِبُ إبهامَ أعمالِهم، وعمومَها، وتجدّدَها، واستمرارَها بمؤدّى صيغة المضارع.

نكتة التّعبير بـ (ما):

شمول مُطلَق الأعمال

يُستعملُ الاسمُ الموصولُ (ما) لغيرِ العاقلِ، وقد يُستعمل للعاقل، والتّعبير به في قوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ للدّلالة على الإبهام والعموم، ويعني: مُطلَقَ علمِه، وشمولَ كلِّ أعمالهم فلا يخفى عليه معلومها ومخفيّها.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدَّرجات والدّركات:

الدّرك كالدّرج، لكنّ الدّرج يُقال اعتبارًا بالصّعود، والدّرك

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/416.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/108، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/157.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/104.

الــدَّرجـــات صعود يناسب منـازل الجنّـة، والــدّركـــات انـحدار يناسب النّار

اعتبارًا بالحدور، ولهذا قيل درجات الجنّة ودَرَكات النّار، والدَّرْك أقصى قعر البحر[1].

فالحقُّ سبحانه يستعمل كلمة ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ بالنِّسبة إلى تفاضل الأشخاص، والأعمال، والرفعة، والمنزلة في الدنيا والآخرة؛ لأنَّ فيها منازل ورتبًا، أمّا فيما يتعلّق بالنّار فيأتي لفظ (الدَّرْك)، فالدّركة تنزل، والدّرجة ترفع[2] وأكثر ما تكون كلمة الدّرجة في القرآن بمعنى المنزلة الرّفيعة، وأمّا المنزلة غير الرّفيعة فيعبّر عنها سبحانه بالدّركة[3]. ولذلك كانت لفظة الدَّرجات في محلِّها المناسب لبيان علوِّ منازل المؤمنين عند اللّه تعالى، وتسفُّلِ درجات المعرضين.

العمل، والقول، والفعل:

العمـل عـامّ يندرج تحته كلّ قول وفعل

العمل أهمّ الأحداث؛ لأنّه تعلّق الجارحة بما نيطت به، فالقلب جارحة عملها النّيّة، واللّسان جارحة عملها القول، والأذن جارحة وعملها الاستماع، والعين جارحة وعملها أن تنظر. فكلُّ جارحة من الجوارح لها حَدَثٌ تنشئه لتؤدّي مهمتها في الكائن الإنسانيّ، وكلُّ أداءِ مُهمّة من جارحة يُقال له: عمل. أمَّا الفعل فهو تعلّق كلّ جارحة غير اللّسان بالحدث، أمّا تعلّق اللّسان فيكون قولًا، ومقابله فعل، إذن ففيه قول، وفيه فعل، وكلاهما عمل، فالعمل يشمل، ويضمّ القول والفعل معًا؛ لأنّ العمل هو شغل الجارحة بالحدث المطلوب منها، لكنّ الفعل هو شغل جارحة غير اللّسان بالعمل المطلوب منها، وشغل اللّسان بمهمته يسمّى قولًا ولا يسمّى فعلاً؛ لأنّ الإنسان يتكلّم كثيرًا، لكن أن يحمل نفسه على أن يعمل ما يتكلَّمه فهذه عملية أخرى، فالقول مقابله الفعل، والكلّ عمل ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ قولًا أو فعلًا[4].

(1) رضا، تفسير المنار: 4/180.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1848.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1487 - 1488.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1849.

العـمـل جـلُّ ما يترتّب عليه الجزاء

خُصَّ العملُ دون القول؛ لأنَّ العملَ جلُّ ما يترتّب عليه الجزاء[1]، ولكون العمل شاملًا للفعل، والقول؛ ولأنّه ممّا يترتّب عليه الجزاءُ قُصِدَ إلى اختياره في الآية الكريمة؛ ليناسب جِماع ما تنشِئُهُ جوارحُهم، فضلًا عن كونه في مَوضِع ذكر الجزاء درجاتٍ ومنازلَ رفعةٍ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/108.

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن تعالى خطأ من نسب الرسول ﷺ إلى الغُلول والخيانة أكّد ذلك بهذه الآية؛ لبيان نعمة وجود هذا الرّسول بين ظهرانَيْهم؛ فقد وُلِد في بلدهم، ونشأ بينهم، ولم يظهر منه طولَ عمره إلّا الصّدق، والأمانة، والدّعوة إلى اللّه، والإعراض عنِ الدُّنيا، فكيف يليق بمن هذه حاله الخيانة؟! فوجوده فيهم من أعظم نعمه عليهم، وتشريفُه تعالى له وتخصيصه بمزايا الفضل والإحسان شرفٌ عظيمٌ بسبب كونه فيهم، فطعنُهم فيه، واجتهادُهم في نسبة القبائح إليه على خلاف العقل. وهو ما يستوجب على كلّ عاقل أن يعينه بأقصى ما يقدر عليه بمحاربة أعدائه، فيكون معه باليد واللّسان والسّيف والسِّنان[1]. فـ "لمّا أرشدهم إلى هذه المَراشِد، وبيّن لهم بعض ما اشتملت عليه من الفوائد، وبان بهذه القصّة قَدْرُ من أسدى إليهم ذلك على لسانه ﷺ بما له من الفضائل الّتي من أعظمها كونه من جنسهم، يميل إليهم ويرحمهم، ويعطف عليهم، فيألفونه، فيعلّمهم؛ نبّه على ذلك سبحانه وتعالى؛ ليستمسكوا بِغَرْزِهِ، ولا يلتفتوا لحظة عن لزوم هديه"[2].

و"أنّه تعالى لمّا ذكر الفريقين: فريق الرّضوان، وفريق السّخط، وأنّهم درجات عند اللّه مُجملًا من غير تفصيل، فصّل أحوالهم، وبدأ بالمؤمنين، وذكر ما امتنّ عليهم به من بعث الرّسول إليهم تاليًا لآيات اللّه، ومبيّنًا لهم طريق الهدى، ومطهرًا لهم من أرجاس الشّرك، ومنقذًا لهم من غمرة الضّلالة بعد أن كانوا فيها، وسلّاهم عمّا أصابهم يوم أُحد من الخِذْلان والقتل والجَرْح، لما أنالهم يوم بدر من الظّفر والغنيمة. ثمّ فصّل حال المنافقين الّذين هم أهل السّخط بما نصّ عليه تعالى"[3].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/417.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/115.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/108.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَنَّ﴾: الميم والنُّون أَصلان أَحدُهما يدُلُّ على اصطناعِ خَيرٍ وجميل[1]. والمِنَّة: النِّعمة الثّقيلة، ويُقال ذلك على وجهين: أحدهما: أن يكون ذلك بالفعل، فيُقال: مَنَّ فلان على فلان إذا أثقله بالنّعمة. والثّاني: أن يكون ذلك بالقول، وذلك مُستقبحٌ فيما بين النّاس إلّا عند كفران النّعمة[2]. ومنَّ عليه منًّا: أنعم. والمَنَّانُ من أسماء اللّه تعالى[3]. فهو منّانٌ على عباده بإحسانه، وإنعامه، ورزقه إياهم، وهو عظيم المواهب: أعطى الحياةَ، والعقلَ، والمنطقَ، وصوَّر فأحسن الصور، وأنعم فأجزل، وأسنى النعم، وأكثر العطايا والمِنَح، وهو سُبْحَانَهُ يعطى ابتداءً، وانتهاءً، ويعطي فوق الآمال، وما لايخطر على بال، وله المنة على عباده، ولايطلب جزاءً على إحسانه[4]. والمَنّ: العطاء. ومَنَّ عليه: أنعَمَ وأحسَنَ؛ إذِ الإنعام والإحسان رقّة ورحمة تمتدّ من المحسن، وترقيق حالٍ لمن وَقَعَ الإحسان إليه[5].

2) ﴿بَعَثَ﴾: الباء والعين والثّاء أصلٌ واحدٌ، وهو الإثارة[6]، والإرسالُ، والهَيَجان، والتّنبيه. ويومُ البَعثِ: يومُ القيامة[7]. وبَعَث عليهم البلاء: أحلَّه بهم. وهو الحمل على الشّيء، والاندفاع، والإيقاظ[8]. وخلاصة البعث في كلام العرب على وجهَين أَحدهما الإرسال، والإثارة، والآخر: الإحياء من اللّه للموتى[9]. والإيجاد للأعيان، والأجناس، والأنواع[10].

وتحرير معاني وروده في القرآن: بَعثُ المَوتى من القبور، وتوجيه رسول أو نبيّ، أو ملك، أو حَكَم، أو نقيبٍ، والإثارة، والدّفع، وإنهاضٌ بعد موت مؤقّت أو نوم أو نحوه[11]. ومعناه في الآية الكريمة توجيه رسول اللّه ﷺ إلى المسلمين بالرّسالة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (من).
(2) الرّاغب، المفردات: (منن).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (منن).
(4) القرطبي، شرح أسماء الله الحسنى: 1/260، والبيهقي، الأسماء والصفات: 1/170.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (منن).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(7) الخليل، العين: (بعث).
(8) ابن سيده، المحكم: (بعث).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بعث).
(10) الرّاغب، المفردات: (بعث).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بعث).

3) ﴿رَسُولًا﴾: الإرسالُ في اللّغة: التّتابع[1] فـ "الرَّاء والسِّين واللَّام أَصلٌ واحدٌ مُطَّرِدٌ مُنقاسٌ يدُلُّ على الانبعاث والامتداد"[2]. والرَّسْلُ: الّذي فيه استرسال، ولين، وأصلُه الانبعاث على تُؤَدَةٍ، ومنهُ الرّسولُ المنبَعِثُ، وجمعه رُسُلٌ، ورسل اللّه تارة يُراد بها الملائكة، وتارة يُراد بها الأنبياء[3]. والإرسالُ: التّسخير، والتّوجيه[4]. ورسالةُ الرّسولِ ما أُمر بتبليغه عنِ اللّه[5]. والرّسول ينطلق من طرف من أرسله برسالة متميّزة عنه، أي: ليس هو منشئها[6]. وهذا معنى اللّفظ الوارد في الآية الكريمة.

4) ﴿يَتۡلُواْ﴾: "التَّاء واللَّام والواو أَصلٌ واحدٌ، وهو الاتِّباعُ. يُقالُ: تَلَوْتُهُ إِذا تَبِعتَهُ. ومنه تلاوةُ القرآن، لأَنَّه يُتبِعُ آيةً بعد آيةٍ"[7]. وتلاه: تبعه متابعةً ليس بينهم ما ليس منها، ويكون بالقراءة وتدبّر المعنى، ومصدره: تلاوة، والتّلاوة تختصُّ باتّباع كتب اللّه المُنزّلة تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي، وترغيب وترهيب[8].

فالتّلاوة بمعنى القراءة، كما في تلاوة القرآن والنّشرات، أصله من تتبع الكلام المكتوب عند القراءة، أي: اتّباعه كلمة كلمة[9].

5) ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: الآية: العلامةُ، ومنه آية القرآن؛ لأنّها جماعة حروف، والجمع آي[10]، وقيل: سُمّيتِ الآيةُ من القرآن آية؛ لأنّها علامةٌ لانقطاع كلام من كلام. وآياتُ اللّه: عجائبُه. والآيةُ من القرآن العلامةُ الّتي يُفضَى منها إلى غيرها كأعلام الطّريقِ المنصوبةِ للهدايةِ، كما قيل: إذا مضى علمٌ منها بدا علمُ[11]. فلفظ الآية في القرآن الكريم بمعناه المتعارف عليه؛ هو: جماعة حروف القرآن، وكلماته، واستُعمل بمعانٍ أُخر كالعلامة

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رسل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسل).
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (رسل).
(4) ابن سيده، المحكم: (رسل).
(5) مجموعة مؤلفين، المعجم الوسيط، دار الدّعوة: 1/344.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رسل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تلو)، وينظر: الجوهريّ، الصّحاح: (تلا).
(8) الرّاغب، المفردات: (تلى).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو - تلى).
(10) الخليل، العين: (أيا)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أَيَّ).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (أيا).

الإعجازيّة، وغيرها، والسِّياق يميّز[1]. ومعنى اللّفظة في الآية الكريمة آيات القرآن، أي: جماعة حروف القرآن، وكلماته.

6) ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾: الزّكاة: الصّلاح. تقول: رجلٌ زكيٌّ، أي: تقيٌّ[2]. والزَّكاةُ: صِفوة الشَّيء[3]. وكلُّ كلمة (الزّكاة) في القرآن هي بمعنى زكاة المال، وأمَّا سائر ما في القرآن من مفردات التّركيب فهو بمعنى طهارة النّفس، وزكاتها بالطّاعة، وصالح الأعمال، والصّلاح، وزيادة الإيمان تمدُّحًا، والتّطهير، والبركة، والتّنمية في وجوه الخير والبرّ[4]. فالتّزكية تطهير النّفس مُشتقّة منَ الزّكاة؛ وهي النّماء؛ لأنَّ في أصل خلقة النّفوس كمالات وطهارات تعترضها أرجاس ناشئة عن ضلال أو تضليل، فتهذيب النّفوس وتقويمها يزيدها من ذلك الخير المودع فيها[5].

7) ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: الحاء والكاف والميم أَصلٌ واحدٌ، وهو المَنعُ. وحَكَمَ أصلُهُ: منع منعًا لإصلاح. والحكمة هذا قياسُها؛ لأَنَّها تَمنَعُ مِنَ الجَهل، فهي إصابةُ الحقِّ بالعِلم والعقل، وهي من اللّه تعالى: معرفةُ الأشياء وإيجادُها على غاية الإحكام، ومن الإنسان: معرفةُ الموجوداتِ وفعلُ الخيراتِ[6]. ومَرجِعُها إلى العَدل والعِلم والحِلم. ويُقال: أَحكَمَته التّجارِبُ إذا كان حَكيمًا[7]. فالحَكيمُ: العالِمُ، وصاحبُ الحكمة المُتقِنُ للأمور[8].

8) ﴿ضَلَٰلٍ﴾: الضَّاد واللَّام أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على معنًى واحدٍ، وهو ضياعُ الشَّيء وذَهابُهُ في غَيرِ حَقِّهِ[9]. وضَلَّ إذا جارَ عن القَصد، وهلَك[10]. والضّلال ضدّ الهدى. وضلَّ في الأَرض ضلالًا إِذا لم يهتدِ للسّبيل[11]. وضللت: إِذا أخطأتَ مَوضِع الشَّيء الثَّابت[12].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أيي، إي).
(2) الخليل، العين: (زكو).
(3) ابن سيده، المحكم: (زكو).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زكو).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/49.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (حكم).
(7) الخليل، العين: (حكم).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (حكم).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضل).
(10) الخليل، العين: (ضل)، والجوهريّ، الصّحاح: (ضلل).
(11) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ضلل).
(12) الأزهريّ: تهذيب اللّغة: (ضل).

والضّلال: هو العُدولُ عَنِ الطّريق المستقيم، ويُضادُّه الهداية، وهو: كُلُّ عُدولٍ عَنِ المنهج، والحَقِّ، عَمداً كان أم سَهواً، يَسيراً كان أم كثيرًا. وهو ضَربان: ضلالٌ في العلوم النَّظريَّةِ، كالضَّلال في معرفة وَحدانيَّتِهِ تعالى، ومعرفة النُّبُوَّة، ونحوهما، وضلالٌ في العلوم العمليّة، كمعرفة الأَحكام الشَّرعيَّة الَّتي هي العباداتُ[1]. والضّلال في الآية الكريمة من الضّرب الأوّل.

9) ﴿مُّبِينٍ﴾: الباء والياء والنّون أصلٌ واحد يدلُّ إمَّا على بُعد الشّيء، وإمَّا على انكشافه؛ فبان الشّيءُ، وأبان إذا اتّضح وانكشف[2]. وسُمّي ما يُشرَح به المُجمَل والمُبهَم من الكلام بيانًا، ويقال: بيّنتُه وأَبَنْتُه: إذا جعلتَ له بيانًا تكشِفُه[3]. ومن المعنى الأوّل استنبطت دلالة الفصل والتّمييز، ويؤول معناه إلى الوضوح والظّهور؛ لأنّ المفصول المتميّز من غيره يلفت النّظر. والانكشافُ، والوضوحُ، والظّهورُ هو المعنى الّذي جاءت به كلُّ مفردات التّراكيب القرآنيّة عدا الظّرف (بين)[4]. وبه تُفسّر اللّفظة في الآية المباركة، فضلالُهم واضحٌ بيّنٌ.

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

بعثة رسول الله من روائع المنح، وعظائم المنن

يبيِّنُ اللّه المِنَّةَ التي أنعم اللّه بها على المؤمنين من العرب وعلى عباده؛ وهي أكبر النِّعم، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم اللّه به من الضلالة، وعَصمهم به من الهَلاك، إذ بعث فيهم رسولًا من جنسهم عربيّاً من ولد إسماعيل وبلسانهم؛ ليسهُلَ أخذُ ما يجب عليهم أخذُه عنه ممَّن عرفوا فيه الصِّدق والأمانة، يتلو عليهم آيَ القرآن بعدما كانوا أهلَ جاهليةٍ لم يَطرق أسماعَهم شيءٌ من الوحي، ويُطهِّرُهم بالإيمان من الشرك والأخلاق الفاسدة، ويعلِّمُهم القرآنَ والسُّنَّة، وقد كانوا مِن قبل بعثته ﷺ لفي عمًى ظاهر وجهالة واضحة[5].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (ضل)، والزّبيديّ، تاج العروس: (ضلل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(3) الرّاغب، المفردات: (بين).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بون - بين).
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/308، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 71، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 71.

وترشدُ الآية الكريمة إلى عظيم مِنَحِ الله لعباده، وتفضّله عليهم بتهيئة أسباب هدايتهم، وسبل نجاتهم من ضلالهم، فهل لذلك من كفاءٍ إلّا الطّاعة والانقياد؟

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وَجهُ الفَصْلِ في الآية:

الاستئناف للتّذكير بنعم الله

قولُه تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ استئنافٌ لتذكيرِ رجالِ يوم أُحد وغيرهم من المؤمنين بنعمة الله عليهم، ومناسبة ذكره هنا أنّ فيه من التّسلية على مصيبة الهزيمة حظًّا عظيمًا؛ إذ قد شاع تصبير المحزون، وتعزيته بتذكيره ما هو فيه من النّعم، وله مزيد ارتباط بقوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عمران: 159]، وكذلك جاءت آيُ هذا الغرض في قصّة أُحد ناشئةً بعضها عن بعض، مُتفنّنة في مَواقِعها بحسب ما سمحت به فرص الفراغ من غرض، والشّروع في غيره، فما تجد اطِّرادَ الكلامِ يغدو طَلْقًا في حلبة الاستطراد إلّا وتجد له رواحًا إلى منبعثه[1].

بلاغةُ توكيدِ المَطلَعِ للمبالغةِ في تحقُّقِ المَنِّ ووقوعِه:

أكّد عظيم المنّة والعطاء باللّام، وبالقسم المُتحقّق بلفظ (قد) الدّالّ على التّحقيق لدخوله على الفعل الماضي؛ ليدلّ على المبالغة في وقوعه وتحقّقه.

علّة إظهار اسمه الأعظم:

التّشريف لرسوله والمؤمنين، والمبالغة في منحها

أظهر تعالى اسمه الشّريف في قوله: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الدّالّ على كمال الصّفات فاعلًا للمنِّ تشريفًا لرسوله والمؤمنين، ومبالغةً في هيئتها، فمنّةُ الله على رسوله ﷺ تُعطي عطاء على قدر الدّنيا، وعلى امتداد الآخرة، فتكون هذه منّة كبيرة[2]. ويُلمح ههنا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/157 - 158.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1851.

أنّ ذات رسالته نعمة[1]، وأنّ إيكال تعليم المؤمنين القرآن وتلاوته، والحكمة، وتزكية أنفسهم من أعظم نعم التّشريف، ورفعة المكانة.

تعيينُ المقصودِ بالمؤمنين في الآيةِ:

هم المخاطَبون وقتَ نزولِ الآيةِ بالاعتبارِ الأولويِّ

المُراد بـ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المؤمنون يومئذ، وهم الّذين كانوا مع النّبيّ ﷺ بقرينة السّياق وهو قوله: ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: من أمّتهم العربيّة، و(إذ) ظرف لـ (من)؛ لأنّ الإنعامَ بهذه النّعمة حصل أوقات البعث[2]، فهم المقصودون بالدَّرجةِ الأولى، ويدخلُ بقيَّةُ المؤمنين في كلّ العصور[3]، باعتبارِه منَّةً في أعناقِهم.

تخصيصُ المؤمنين بالامتنان؛ لأنّهم المجتبون

وتخصيصُهم بالامتنان مع عموم نعمةِ البعثةِ للأسود والأحمرِ؛ لأنّهم المجتبون لهذه النّعمة[4]، ولمزيد انتفاعِهم بها[5]، أمّا الباقون فقد أهدروا حقّهم في الأسوة، ولذلك تكون المنّة على من آمن[6].

فائدة التّعبير بلفظ ﴿إِذْ﴾:

(إذ) ظرفٌ للفعل (مَنَّ)؛ للدّلالة على أنّ الإنعام بهذه النّعمة حصل أوقات البعث[7].

نكتةُ التّعبيرِ بالبعثِ دُونَ الإرْسَالِ:

البعث في اللّغة: الإثارة، والتّوجيه، والتّنبيه[8]، وهو يناسب مهمّاته ﷺ المُكلّفَ بها من لدن الباري ﷻ من تعليم وتزكية.

فائدةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿أَنفُسِهِمْ﴾:

معنى من ﴿أَنفُسِهِمْ﴾ المماثلة لهم في الأشياء الّتي تكون المماثلة

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1489.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/158.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/160.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/115.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/108.
(6) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1850.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/158.
(8) الخليل، العين: (بعث)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).

الإنسانُ يأنسُ بالأقربِ منه نسبًا ولغةً ومسكنًا

فيها سببًا لقوّة التّواصل، وهي هنا النّسب، واللّغة، والعرب تقول: فلان من بني فلان من أنفسهم، أي: من صميمهم ليس انتسابه إليهم بولاء أو لصق، وكأنّ هذا وجه إطلاق النّفس عليه التي هي في معنى المماثلة، فكونه من أهل نسبهم، أي: كونه عربيًّا يوجب أُنْسَهم به، والرّكون إليه، وعدم الاستيحاش منه، وكونه يتكلّم بلسانهم يجعلهم سريعين إلى فهم ما يجيء به، وكونه جارًا لهم، ورَبيًّا فيهم يعجّل لهم التّصديق برسالته، إذ يكونون قد خبروا أمره، وعلموا فضله، وشاهدوا استقامته ومعجزاته[1].

أثرُ التَّعبيرِ القرآنيّ في الأثرِ النَّفسيّ:

الإيحاءُ بأنَّه من أنفسِهم ونفسِهم نفاسةٌ في التَّأثيرِ

زاد القرآنُ ترغيبَ النَّاسِ فيه بقوله: ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾، أي: نوعاً وصنفاً، يعلمون أمانته وصيانته وشرفه ومعاليه[2]، فضاعف المنّة بكونه من أنفسهم، ولم يقُل: (منهم)؛ فإنّ للتّعبير القرآنيّ ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ ظلالًا عميقة الإيحاء والدّلالة؛ بأنّ الصّلة بين المؤمنين والرّسول هي صلة النّفس بالنّفس، لا صلة الفرد بالجنس.

تشريف العربِ شرفًا زائدًا على شرف الأممِ جميعها

من وجوه المنّة فيه أنّه صار شرفًا للعرب، وفخرًا لهم، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾ [الزّخرف: 44]؛ لأنّ الافتخار بإبراهيم عليه السلام كان مُشتركًا فيه بين اليهود والنّصارى والعرب، ثمّ إنّ الأوّلين كانوا يفتخرون بموسى، وعيسى، والتّوراة، والإنجيل، فما كان للعرب ما يقابل ذلك، فلمّا بعث اللّه محمّدًا ﷺ، وأنزل عليه القرآن، صار شرف العرب ذلك زائدًا على شرف الأمم جميعهم[3].

علّةُ تنكيرِ لفظ ﴿رَسُولٗا﴾:

غرضُ تنكيرِ ﴿رَسُولٗا﴾ التّعظيمُ، ولتجريَ عليه الصّفاتُ التي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/158.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/115.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/453.

التّـعـظـيـم، وجريان الصّفات التي كلّ واحدة منـهـا نـعـمـة خاصّة

كلُّ واحدةٍ منها نعمةٌ خاصّةٌ، فالخطابُ في قولِه: ﴿فِيهِمۡ﴾ وما بعده للمؤمنين من المهاجرين والأنصار تذكيرًا لهم بنعمة اللّه عليهم بأن بعث إليهم رسولًا بين ظهرانيهم ومن قومهم؛ لأنّ ذلك أقوى تيسيرًا لهدايتهم، وهذا على نحو دعوة إبراهيم: (ربّنا وابعث فيهم رسولًا منهم)[1].

سرُّ التّعبير بالرّسول دون النّبيّ ﷺ:

لـفـظ الـرّسـول أبلغ في الإنعام عليهم

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ﴾ عبّر بلفظ النّبيّ دون لفظ الرّسول، وعبّر هنا بلفظ الرّسول، والسّر في ذلك: أنَّ تلك في مقام الصّبر والتّخويف، ونفي نسبة الغلول للنّبيّ ﷺ، وهذه في مقام التّذكير بالنّعمة والإبلاغ، فناسب فيها لفظ (الرّسول)؛ لأنّه أبلغ في الإنعام عليهم[2]، ووجهُ المنَّةِ والنِّعمة التَّصريحُ بأنَّه سيكونُ رسولًا لجميعِ الأمم، والعربُ يميلون إلى حبِّ المجدِ، فكان هذا نعمةً عظيمةً إن هم أخلصوا العملَ والنيَّة للّه تعالى.

قصديّة التّعبير بالفعل ﴿يَتۡلُواْ﴾:

استمرار القراءة باستمرار النّزول

عبّر بالفعل المضارع ﴿يَتۡلُواْ﴾؛ لأنّ نزول القرآن مستمر، وقراءة النّبيّ له متوالية، وفي كلّ قراءة يحصل علم بالمعجزة للسّامعين[3]، والتِّلاوةُ مستمرَّةٌ في أمَّته إلى يومِ الدِّينِ، وفيه إشارةٌ إلى إعجازٍ غيبيٍّ بحفظِ القرآنِ، لأنَّ التِّلاوةَ لا تكون إلّا لكتابٍ محفوظٍ.

بلاغة انتقاء لفظ الآيات:

الآيات تُستعمل لـلأمـور الـعـجـيـبـة، اللّافتة للنّظر

كلمة (آية) معناها: الأمر العجيب، وهو الّذي يقف الإنسان عنده وقفة طويلة ليتأمّل في عجائبه[4]، تقول مثلًا: فلان آية في الحسن،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/48.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/440 - 441.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/49.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 3/1854.

أي: حسنُه لافت للنّظر، وتقول: فلان آية في الذّكاء، صحيح أنّ هناك أذكياء كثيرين، لكنّه آية متميِّزةٌ في الذّكاء عن غيرِه.

كـلّ آيـة دليـلٌ عــلى صــدق الرّسول

سمّيت جمل القرآن آيات؛ لأنّ كلّ واحدة منها دليل على صدق الرّسول، من حيث بلاغةُ اللّفظ، وكمالُ المعنى[1].

علّة تقديم جملة ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾:

اقـتـضاءُ المقامِ المعـاتـبةُ على الإقـبـالِ على الغنيمةِ

قدّم التّزكية لاقتضاء مقام المعاتبة على الإقبال على الغنيمة[2]، فناسبت التّزكية مقام نفي الغلول عنه بوصفه مزكِّيًا أنيطت به هذه المهمّة من جهة، وحاشاه أن يفعل خلاف ما يُعلِّمُ، وللتّذكير بما جرى في المعركة ممّا يستدعي التّزكية.

يـقـتـضي مقام الامتنان تقديم المنفعة من تلاوة الآيات

قُدّمت جملة: ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ على جملة: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾؛ لأنّ المقام هنا للامتنان على المسلمين، فقدّم فيها ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم، وهي منفعة تزكية نفوسهم اهتمامًا بها، وبعثًا لها بالحرص على تحصيل وسائلها، وتعجيلًا للبشارة بها[3].

الـتّـقـديـمُ والتّأخيرُ بحسب المُخاطَبِ

نقل ابن عرفة أنّ أمر التّقديم والتّأخير بحسب المجالس، فحيث تقدّم التّعليم تكون تلك الآية نزلت عليه بمحضر الخواصّ ومن هو أهل للتّعليم، فيكون التّعليم أَهَمّ، وحيث تقدّم التّزكية تكون الآية نزلت عليه في مَوضِع أكثره عوام، فتكون التّزكية في حقّهم أهمّ[4].

نكتة توسيط التّزكية بين تلاوة الآيات، وتعليمها:

ذكر العماديّ أنّه وَسَّطَ التّزكيةَ بين ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾، و﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾؛ لكونها "تكميلًا للنّفس وتهذيبِها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/159.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/116.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/49 - 50.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/170.

كـلُّ واحـدٍ من المذكوراتِ نعمةٌ عـلى حيـالِـهَـا مـسـتـوجـبـةٌ للشّكر

بحسب القوّةِ العمليّةِ المُتفرِّعِ على تكميلِها بحسب القوّةِ النّظريّةِ الحاصلِ بالتّعليم المُترتّب على التّلاوة؛ للإيذان بأنَّ كلَّ واحدٍ من الأمورِ المترتّبةِ نعمةٌ جليلةٌ على حيالِهَا مستوجبةٌ للشّكرِ فلو رُوعِي ترتيب الوجود كما في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾ [البقرة: 129]؛ لتبادر إلى الفهم عدُّ الجميعِ نعمةً واحدةً، وهو السّرُّ في التّعبير عن القرآن بالآياتِ تارة، وبالكتاب والحكمة أخرى رمزًا إلى أنَّه باعتبار كلِّ عنوانٍ نعمةٌ"[1].

وجه الافتراق بين التّلاوة والتّعليم:

تـلاوتـه قـراءتـه مرتّلًا مفهومًا، وتـعـلـيـمـه بيان أحكامه

تعليمُ الكتابِ هو تعليمُهم ما اشْتَمَلَ عليه من أحكامه ببيان ما عساه يكون فيه من نصوص تعلو على مداركهم، وتفصيل المُجمَل فيه، وتطبيقه عليهم، فتعليمُ علم الكتاب غير تلاوته؛ إذ تلاوته قراءته مرتّلًا مفهومًا، وتعليمه بيان أحكامه، فقد أمر بالصّلاة، والنّبيّ ﷺ علّمها، وأمر بالحجّ، والنّبيّ ﷺ علّمه، وهكذا[2].

نكتة عطف الحكمة على الكتاب:

مـــن عـطـف الأخـــصّ على الأعمّ

عَطفُ الحكمة على الكتاب من قبيل عطفِ الأخصّ من وجه على الأعمّ من وجه، فمنَ الحكمة ما هو في الكتاب نحو: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر: 9]، ومنها ما ليس في الكتاب، وفي الكتاب ما هو علمٌ وليس حكمة مثل فرض الصّلاة والحجّ[3].

علّة وصف الضّلال بالمبين:

شدّة الضّلال لا يلتبس على أحد بشائبة هدى

وصف الضّلال بالمبين؛ لأنّه لشدّته لا يلتبس على أحد بشائبة هدى، أو شبهة، فكان حاله مبيّنًا كونه ضلالًا كقوله: ﴿قَالُواْ هَٰذَا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/108.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1490.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/159.

﴿سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣﴾ [النمل: 13]، والمُراد به ضلال الشّرك والجهالة والتّقاتل وأحكام الجاهليّة(1).

نكتة التّعبير بجملة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ﴾:

التّنبيه على بعد مـدّة ضلالهم قبل إسماعيل عليه السلام

﴿وَإِن﴾ مخفّفة مهملة، أي: والحال أنّهم ﴿كَانُواْ﴾، ولمّا كانوا قد مرّت لهم أزمان، وهم على دين أبيهم إسماعيل عليه السلام نبّه على ذلك بإدخال الجارّ فقال: ﴿مِن قَبۡلُ﴾، أي: من قبل ذلك(2)، ولذلك عبّر عن طول هذه المدّة بالفترة فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: 19].

دلالة إعراب جملة التّذييل:

بيـان كـمال النّعمةِ وتمامِها

جملة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ في مَوضِع الحال من الأميّين، أي: ليست نعمة إرسال هذا الرّسول إليهم قاصرة على رفع النّقائص عنهم، وتحليتهم بكمال علم آيات اللّه، وزكاة أنفسهم، وتعليمهم الكتاب والحكمة بل هي أجلّ من ذلك؛ إذ كانت منقذة لهم من ضلال مبين كانوا فيه، وهو ضلال الإشراك باللّه. وإنّما كان ضلالًا مبينًا؛ لأنّه أفحش ضلال، وقد قامت على شناعته الدّلائل القاطعة، أي: فأخرجهم منَ الضّلال المُبين إلى أفضل الهدى، فهؤلاء هم المسلمون الّذين نفروا إسلامهم في وقت نزول هذه السّورة(3). ويجوز أن تكون الجملة استئنافًا، وعلى التّقديرين؛ فهي مُبيِّنة لكمال النّعمةِ وتمامِها(4).

معنى (إن) المخفّفة، واللّام الفارقة:

وأداةُ (إن) مخفّفةٌ منَ الثّقيلة، وهي مهملة عن العمل في اسمها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/160.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/116.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/210.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/108.

بيان أنْ شأنهم كونهم في ضلال

وخبرها، وقد سدّ مسدّها فعل (كان)، كما هو غالب استعمال (إن) المخفّفة، واللّام في قوله: لفي ضلال مُبين تسمّى اللّام الفارقة، أي: الّتي تفيد الفرق بين (إن) النّافية و(إن) المخفّفة من الثّقيلة، وما هي إلّا اللّام الّتي أصلها أن تقترن بخبر (إن)، إذِ الأصل: وإنّهم لفي ضلال مبين، لكن ذكر اللّام مع المخفّفة واجب غالبًا لئلا تلتبس بالنّافية، إلّا إذا أمن اللّبس[1]. المعنى: وإنّ الحال والشّأن والقصّة والواقع أنّهم كانوا من قبل بعثة الرّسول ﷺ في ضلال ظاهر يعرفه صاحبه[2].

في ذكر حالتهم الأولى بيان للفرق بين حالتيهم

ثمّ ذكر حالتهم الأولى منَ الضّلال في هذا التّذييل؛ ليُظهر الفرقَ بين حالَتَيْهم قبل البعثة وبعدها بتجاور الضّدّين[3].

صلة الآية الكريمة بما بعدها:

تمهيدٌ يهيّئ نفوسَ المؤمنين لتقبّل تلويمهم

من عناصر الجمال الأدبيّ تزيّين الكلامِ المقصود بكلامٍ تتميميٍّ له عن طريق التّمهيد أوِ المقارنة أوِ التّذييل، فالتّمهيد يكون بعرض كلامٍ يُمهّد للمقصودِ بالذّات، وتزيِّنُها وتجعلها مقبولة؛ إشعارًا بتكريم المُخاطَب والتّلطّف معه، بحسب مكانته الاجتماعية بين قومه، فهذه الآية ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ بمضامينها قد كانت تمهيدًا يُهيِّئ نفوسَ المؤمنين لتقبّل تلويمهم على ما بَدر منهم من تذمُّر واستنكار لبعض المصائب الّتي أصابتهم في أعمالهم الجهاديّة، بأسباب من عند أنفسهم، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/210.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/46، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/110، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1859.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/537.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القراءة والتّلاوة:

الـتّـلاوة قـراءة مشفوعة باتّباع

تختصّ (التّلاوة) باتّباع كتب اللّه المُنزّلة تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي، وترغيب، وترهيب، أو ما يتوهّم فيه ذلك، وهي أخصُّ من القراءة، فكلُّ تلاوة قراءة، وليس كلُّ قراءة تلاوة، لا يُقال: تلوتُ رقعتَك، وإنّما يُقال في القرآن في شيء إذا قرأتَه وجب عليك اتّباعُه[1].

التّلاوة قراءة من مكتوب بصوت

وتُستعمل التّلاوة للقراءة من مكتوب بصوت، ويتسامح فيها، فتكون من غير مكتوب لكن بصوت، وأمّا القراءة فتُستعمل للقراءة من مكتوب ومن غير مكتوب، بصوت وبغير صوت، فإذا عُدّيا بـ (على) فهما بصوت[2].

الـتّـلاوة ملازمة للقرآن من حيث تتابع القراءة

والتِّلاوةُ تكونُ فيما يطول، أي: يكثر من الكلام، ووجود عنصر التّلاحق أخذًا من الاتّباع واللّحوق في استعمالات التّركيب الذي يتيح ذلك؛ لأَنّ أصل التِّلَاوَة من قَولك: تَلا الشَّيء يتلوه إِذا تبعه، فإِذا لم تكن الكلمة تتبع أُختها لم تُستَعمل فيها التِّلاوة، وتُستعمل فيها القراءة[3]. ومن هنا قيل في التِّلَاوة: هي قراءة القرآن متتابعة[4].

ولِمَا تقدَّم من فرق دقيق بين اللّفظين تبيّن قصديّة اختيار لفظ التّلاوة بوصفه مخصوصًا بالقرآن، من حيث تتابع قراءته، فضلًا عن كونها قراءة من مكتوب بصوت، شريطة الاتّباع.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (تلى).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو - تلى).

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 27 - 63.

(4) الكفويّ، الكليّات، ص: 308.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران: 165]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبر تعالى عنِ المنافقين أنّهم طعنوا في الرّسول ﷺ؛ بأن نسبوه إلى الغُلول والخِيانة، حكى عنهم شبهةً أخرى في هذه الآية، وهي قولهم: لو كان رسولًا من عند الله لما انهزم عسكره من الكفّار في يوم أُحد، وهو المُراد من قولهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾، وأجاب الله عنه بقوله: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾، أي: هذا الانهزام إنّما حصل بشؤم عصيانكم[1].

فوقف تعالى المؤمنين على الخطأ في قلقهم للمصيبة الّتي نزلت بهم، وإعراضهم عمّا نزل بالكفّار، وعرّفهم أنّ ذلك بسبب أنفسهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَصَٰبَتۡكُم﴾ ﴿مُّصِيبَةٞ﴾ ﴿أَصَبۡتُم﴾: الصّاد والواو والباء أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على نُزولِ شَيءٍ واستِقرَارِهِ قَرَارَه، ومنه الصَّوبُ، وهو نُزولُ المطرِ. والنَّازِلُ صَوبٌ[3]. وفي دائرة هذا الأصل تدور معاني الألفاظ الثّلاثة، فأصابته مصيبة، أي: أخذته، فهو مُصاب[4]. وأصاب السّهم: إذا وصل إلى المرمى بالصَّواب، ولم يُخطئ، والإصابة في الخير اعتبارًا بالصَّوب؛ أي: بالمطر، وفي الشّرّ اعتبارًا بإصابة السّهم، وكلاهما يرجعان إلى أصل النّزول والاستقرار[5].

ويُقال: أصاب الإنسان من المال وغيره، أي: أخذ وتناول[6]. والإصابة: النّزول بالشّيء واللّحاق به خيرًا كان النّازل أم شرًّا، ثمّ كثر في الشّرّ[7]. والمصيبة أصلها في الرّمية،

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/420.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/538.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صوب).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (صوب).
(5) الرّاغب، المفردات: (صوب).
(6) ابن الأثير، النّهاية: (صوب).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صوب).

ثمّ اختصّت بالنّائبة، نحو: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾[1]. يُقال مصيبة، ومصوبة، ومصابة، والجمع مصايب، ومصاوب. وهو الأمر المكروه ينزل بالإنسان[2]، وهي النّازلة، والّذي جاء في القرآن منَ التّركيب: (الصّواب) ضدّ الباطل والخطأ، و(الصّيّب) المطر، و(أصاب) أراد، ثمّ الحَدَث الّذي يَنزل بالإنسان خيرًا أم شرًّا. وكلمة (مصيبة) لم تُستعمل في القرآن إلّا في التّعبير عمّا يعدّه الإنسان شرًّا[3]. ومعنى (أصبتم) غلبتم العدو، ونلتم منه مثلَيّ ما أصابكم به، يُقال: أصاب إذا غَلَب، وأصيب إذا غُلِب[4].

2) ﴿مِّثۡلَيۡهَا﴾: الميم والثّاء واللّام أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على مُناظرة الشَّيءِ للشَّيءِ. وهذا مِثلُ هذا، أَي: نَظيرُهُ، والمِثل والمِثالُ في مَعنًى واحدٍ[5]. والمَثَلُ عبارة عن قولٍ في شيء يشبه قولًا في شيء آخر بينهما مشابهة؛ ليبيِّن أحدُهما الآخر ويصوِّرُه. وهو عبارة عن المشابهة للغير في معنى من المعاني أيّ معنى كان، وهو أعمُّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة[6]. ومعنى (مثليها) في الآية الكريمة: يوم بدر؛ وذلك أنّ المشركين قتلوا من المسلمين يوم أُحد سبعين، وقَتَل المسلمون منهم يوم بدر سبعين، وأسروا سبعين[7]. أي: غلبتم العدو، ونلتم منه مثلَيّ ما أصابكم به في معركة أُحد[8].

3) ﴿قَدِيرٞ﴾: القاف والدّال والرّاء أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على مَبلَغ الشَّيءِ وكُنهِهِ ونهايته[9]. ووصفُ اللّه تعالى بالقدرة نفي للعجز عنه، ومحالٌ أن يُوصفَ غير اللّه بالقدرة المُطلَقة معنى، وإن أطلق عليه لفظًا، ومتى قيل: هو قادر، فعلى سبيل معنى التّقييد، ولهذا لا أحدٌ غير اللّه يُوصَف بالقدرة من وجه إلّا ويصحُّ أن يُوصف بالعجز من وجه، فهو سبحانه المُنتفي عنه العجز من كلّ وجه. والقدير: من أسماء اللّه تعالى، وهو: كامل القدرة، الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة، لا زائدًا عليه ولا ناقصًا عنه؛ فبقدرته

(1) الرّاغب، المفردات: (صوب).
(2) ابن الأثير، النّهاية: (صوب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صوب).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/161.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(6) الرّاغب، المفردات: (مثل).
(7) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/517.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/161.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).

أوجد الموجودات، وبقدرته سوَّاها، وأحكمها، وبقدرته يحيي، ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قال له: "كن" فيكون؛ ولذلك لا يصحُّ أن يُوصَف به إلّا اللّه تعالى(1). ومعنى اللّفظ في الآية من القدرة بمعنى الطّاقة(2).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أصلُ حصول الخذلان هو شؤم العصيان

تسوقُ الآيةُ تسليةَ اللّه تعالى لعباده المؤمنين حين أصابهم يوم أُحدٍ ما أصاب المشركين يومَ بدر؛ فقد أصبتم مثليها من المشركين في يوم (بدر): بأن قَتلتم من كبارهم سبعين، وأسرتم منهم كذلك، فقلتم متعجبين: من أين أصابَنا هذا القتلُ والهزيمةُ، وقد تقدَّم الوعدُ بالنَّصر، ونحن مسلمون، وفينا رسولُ اللّه ﷺ؟ قل لهم أيُّها النبيُّ ﷺ: هو من عند أنفسكم؛ لأنّكم تركتم مركزَ المعركةِ، وأقبلتم على جمع الغنائم، وعصيتم الرَّسول ﷺ، فمِن قِبلِكم جاء الشّرُّ، فعودوا على أنفسكم باللَّوم، واحذروا من الأسباب المُرْدية؛ إنَّ اللّه يفعل ما يشاء ويَحْكم ما يريد، فإياكم وسوءَ الظنِّ باللّه، فإنه قادرٌ على نصركم، ولكن له أتمُّ الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم(3).

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنَّ أحوال الدُّنيا لا تدوم على حالةٍ واحدة(4)، وأنَّ اللّه وعد المؤمنين بالنَّصر شريطةَ أن يصبروا ويتّقوا(5)، وعلى المسلم الانقيادُ والتّسليم والطّاعة، فبها يتحقَّقُ الفلاح، ويُتحصَّل النَّصر والرَّباح.

(1) الرّاغب، المفردات: (قدر)، والبيهقي، الأسماء والصفات: 1/113، وابن تيمية، الجواب الصحيح: 3/224، والسعدي، تفسير أسماء الله الحسنى ص: 223.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قدر).

(3) الواحديُّ، التّفسير الوسيط: 1/517، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 71، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 71.

(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/116.

(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/969.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ إيلاءِ الاستفهامِ حرفَ العطفِ:

حقُّ المُتعجِّبِ المتغافلِ عن تقصيرِه الإنكارُ الشَّديدُ

غرضُ الاستفهامِ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ﴾ الإنكارُ التّعجيبيّ على ما تقدّم؛ فإن قولهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ ممّا يُنكره السّامع، ويُتعجَّب من صدوره منهم بعد ما علموا ما أتوا من أسباب المصيبة، إذ لا ينبغي أن يخفى على ذي فِطنة! وقد جاء مَوقِع هذا الاستفهام بعد ما تكرّر من تسجيل تبعة الهزيمة عليهم بما ارتكبوا من عصيان أمر الرّسول ﷺ، ومن العجلة إلى الغنيمة، وبعد أن أمرهم بالرّضا بما وقع، وذكّرهم النّصر الواقع يوم بدر، عطف على ذلك هنا إنكار تعجّبهم من إصابة الهزيمة إيّاهم[1].

الواو إمَّا أنَّها عاطفةٌ على محذوفٍ أو مذكورٍ

يصحُّ في الواو في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أن تكون عاطفةً على ما مضى من قصّة أحد من قوله: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾ [آل عمران: 152]، ويجوز أن تكون عاطفةً على محذوف، تقديرُه: أفعلتُم ما فعلتم، ولَمَّا أصابتكم مصيبةٌ.. قلتم[2]؟

نكتةُ توسيطِ الظَّرفِ ﴿أَوَلَمَّآ﴾ بينَ الهمزةِ ومتعلّقِ الظَّرفِ ﴿قُلۡتُمۡ﴾:

يزدادُ قبحُ الأقوالِ إذا قيلت في غيرِ وقتها

جاءَ الظَّرفُ (لمّا) الذي هو بمعنى حين، متوسِّطًا بين همزةِ الاستفهام في ﴿أَوَلَمَّآ﴾ وبين متعلِّقِ الظَّرفِ الذي هو ﴿قُلۡتُمۡ﴾، ففي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، وأصلُه: (أوَ قلتم لَمَّا أصابتكم مصيبة..)؟ ونكتةُ ذلك تأكيدُ النّكير وتشديدُ التّقريع؛ فإنَّ فعلَ القبيح في غيرِ وقتِه أقبحُ، والإنكار على فاعله أدخلُ، والمعنى: أحين أصابكم من المشركين نصفُ ما قد أصابهم منكم قبل ذلك؛ جزِعتم، وقلتم: من أين أصابنا هذا[3]؟ ففيه تنبيهٌ على تحرِّي الأقوالِ، ومن ورائه

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/160.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/436، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/111.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/108، والآلوسّي، روح المعاني: 4/115.

تحذيرٌ في اختيارِ الأوقات؛ لأنَّ قُبحَ القولِ قد يكون ذاتيًّا، لكنَّه يزدادُ شدَّةً إذا كان في غيرِ زمنِه.

بلاغة المجاز في لفظ المصيبة:

سعة معنى المصيبة أوقع في الدّلالة على عظم الشّأن

إسناد الإصابة إلى المصيبة في قوله تعالى: ﴿أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ﴾ مجاز، وإلى المُخاطَبين حقيقة[1]، فالمصيب هو الله[2]، ولفظ المصيبة أوقع في الدّلالة على عظم الشّأن، فقد عبّر تعالى بها عن الموت، وهي من أعظم الأحداث.

دلالة لفظ ﴿مِّثۡلَيۡهَا﴾ وما يُستفادُ منها:

عند وقوعِ الشّدائدِ تُستحضرُ الكرائم وتُستبعدُ المصائب

لبيان معنى مثليها في قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ علينا أن نعلم أنَّ المشركين لمَّا قتلوا من المسلمين يومَ أُحد سبعين، ذكَّرهم القرآنُ بما وقع يوم بدر إذ قتل المسلمون من المشركين سبعين، وأسروا سبعين[3]، فالمُراد بمثليها: المساويان في الجنس أو القيمة باعتبار جهة المماثلة، أي: إنّكم قد نلتم مثلي ما أصابكم، فإنّ رزايا الحرب أجناس: قتل، وأسر، وغنيمة، وأسلاب، فالمسلمون أصابهم يوم أُحد القتل: إذ قُتل منهم سبعون، وكانوا قد قَتلوا من المشركين يوم بدر سبعين، فهذا أحد المثلين، ثمّ إنّهم أصابوا من المشركين أسرى يوم بدر، فذلك مِثل آخر في المقدار إذِ الأسير كالقتيل. أو أُريد أنّهم يوم أُحد أصابوا قتلى إلّا أنّ عددهم أقلّ، فهو مثل في الجنس لا في المقدار والقيمة[4].

تذكيرُ النّاسي بالنِّعمِ عند المصائبِ حكمةٌ مرضيَّةٌ

وفائدة قوله: ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾، أمران:

الأوّل: التّنبيه على أنّ أمور الدّنيا لا تبقى على نهج واحد، فلمّا هزمتموهم مرّتين؛ فأيّ استبعاد في أن يهزموكم مرّة واحدة[5]؟!

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/116.
(2) المطعنيّ، التفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/197.
(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/517.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/161.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/420.

الآخر: التّفضل منه تعالى على المؤمنين، بتسليتهم على ما أصابهم، وتذكيرهم بأنّهم قتلوا منهم سبعين، وأسروا سبعين، وهذا أبلغُ في المنّة والتّسلية، وهو أدعى إلى أن يذكروا نعم الله عليهم السّابقة، ويتناسوا ما جرى لهم يوم أُحد[1].

بلاغة الاستفهام بـ ﴿أَنَّىٰ﴾:

تعجب المنافقين وإنكارهم

و﴿أَنَّىٰ﴾ استفهام بمعنى: من أين؟ قصدوا به التّعجب والإنكار، وجملة: ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ جواب (لمّا)، والاستفهام بـ ﴿أَنَّىٰ﴾ هنا مُستعملٌ في التّعجب[2]، و﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ نصبٌ لأنّه مقول، والهمزة للتّقرير والتّقريع[3].

نكتة التّعبير باسم الإشارة المذكّر ﴿هَٰذَا﴾:

التّعبيرُ ترجمةٌ عن عِظَمِ الأمرِ في نفسِ المتكلِّم

تذكيرُ اسمِ الإشارةِ في حكايةِ قولِهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ مع كونه إشارةً إلى المصيبة ليس لكونها عبارةً عن القتل ونحوِه، بل لأنّ إشارتَهم ليست إلّا إلى ما شاهدوه في المعركة من حيث هو هو من غير أن يخطُر ببالهم تسميتُه باسمٍ ما فضلاً عن تسميته باسم المصيبةِ، وإنّما هي عند الحكاية[4]، ويجوز أن يكون التّذكير مراعاة لمعنى المصيبة المشار إليها[5]، وهذا يُترجمُ لنا أنَّ القرآنَ يُصوِّر لنا شخصيَّة المتكلِّم وما يدورُ في خلده.

وجه التّوكيد في جملة القول:

مـدارُ المصائبِ عـلى أعـمالِ العبادِ

أكّد سبحانه جواب الاستفهام بأنّ سبب المصيبة من أنفسهم بإبراز الضّمير (هم) في الإجابة، والإتيان بالظّرف ﴿عِندِ﴾، وبالتّعبير بـ ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ التي تدلّ على التّوكيد[6]، فالمعنى: أنتم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/111.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/161.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/436.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/109.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 4/116.

(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1493.

السّبب فيما أصابكم؛ لاختياركم الخروجَ من المدينة، أو لتخليتكم المركز، وعن علي رضي الله عنه: (لأخذكم الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤذن لكم)[1].

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّةِ:

تقريرُ مضمونِ ما قبلَها داخلٌ تحت الأمر

جُملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَها داخلٌ تحت الأمرِ[2]، أي: أنّ اللّه قديرٌ على نصركم وخذلانكم، فلمّا عصيتم وجرَرتم لأنفسكم الغضب قدّر اللّه لكم الخذلان[3].

وقد نبّه بجملة التّذييل على أنّه لم يُصبكم ما أصابكم لوهنٍ في دينِكم، أو ضعف في قدرة اللّه، وإنّما هو من عند أنفسكم، لا من خلل دخل في أمره، فإنّ اللّه على كلّ شيء قدير، ومن كان هذه حاله فهو قادر على دفاعهم[4].

وجه توكيد جملة التّذييل:

استجلاء واسع قدرته

أكّد سبحانه قدرته بلفظ ﴿إِنَّ﴾، وبإظهار لفظ الجلالة الّذي يُربي المهابة من الخلّاق العليم في قلب المؤمن، وبعموم قدرته سبحانه على ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير[5]، والتّعبير بصيغة (فعيل) الدّالّة على ثبوت صفة القدرة فيه، وتمكّنها، ورسوخها على وجه المبالغة.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المِثْل، والنّدّ، والشّبه، والشّكل:

المثل أعمّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة

فرّق الرّاغب بين لفظ المثل وما يقاربه من لفظ في المعنى بالقول: " المِثْل عبارة عن المشابهة لغيره في معنًى من المعاني أيَّ معنى كان،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/437.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/109.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/161.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/971.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1494.

وهو أعمُّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة، وذلك أنَّ النّدَّ يُقال فيما يشارِك في الجوهر فقط، والشِّبْه يُقال فيما يشارِك في الكيفيّة فقط، والمساوي يُقال فيما يشارِك في الكميّة فقط، والشّكل يُقال فيما يشارِكه في القَدْر والمساحة فقط، والمِثْلُ عامٌّ في جميع ذلك، ولهذا لمّا أراد اللّه تعالى نَفْيَ التّشبيه من كلّ وجه خصّه بالذّكر فقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: 11]"[1]. ولعمومه الدلالة اختير في الآية ليعبّر عن عموم الشّبه فيما وقع بين الفريقين من الإصابة في المعركتين.

(1) الرّاغب، المفردات: (مثل).

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾ [آل عمران: 166 - 167]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَها:

عواقب المخالفة للرّسول، والتّأكيد أنّ الأقدار والمصير بيد القدير

لَمّـــا بَيَّنَ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالَى لجَماعةِ المؤمِنينَ في الآيةِ السّابقَةِ، أنّ الّذي أَصَابهُمْ يومَ أُحُدٍ مِنَ القَتْلِ والجِراحِ، كانَ بسببِ مُخالفةِ الرُّماةِ لِمَا أَمَرهُم بِهِ النّبيُّ ﷺ مِنْ لُزُومِ المكانِ الّذي عيَّنَهُ لَهمْ، وعَدَمِ مُفَارَقَتِهم لَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ؛ أَرادَ أَنْ يُبيِّنَ لَهمْ في هَذهِ الآيةِ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أنّ ما وقعَ لهم هو بقَضاءِ اللّهِ وقَدَرِه، لا مَرَدّ لهُ، ولا بُدَّ من وقوعه، وهذه حِكمَةٌ عَقَديةٌ جَليلَةٌ، يَعضُدُها حِكْمةٌ أُخْرَى؛ وهي أنَّ ما حدثَ إنْ هو إلّا فَرْزٌ، وتمَييزٌ لِلمُؤمنينَ من المُنافِقينَ، الَّذين لَمّا أُمِروا بالقتالِ، تَعلَّلُوا بِحُجَجٍ واهِيةٍ، وأَسبابٍ كاذِبةٍ تَزيدُهُمْ بُعداً عَنِ اللّهِ، وتَنَكُّبًا عن صِراطِهِ المُستَقيم. قيل في معنى كلامهم: لو نعلم أنكم ذاهبون لقتال لذهبنا معكم ولكنكم ذاهبون لهلاك محقَّق فنحن لا نذهب معكم هؤلاء الناس يوم أن قالوا هذه المقالة وتخلّفوا عن جيش المسلمين هم يومئذ للكفر أقرب منهم للإيمان[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَصَٰبَكُمۡ﴾: (صابَ) السَّهمُ، مِنْ بابِ بَاعَ، لغةٌ في

(1) الحجازيّ، التّفسير الواضح، ص: 306.

(أَصابَ)، والمرادُ هنا: فرارُكُم بينَ يَديْ عدوِّكُم، وقَتلِهم لجماعةٍ مِنكُم، وجِراحتِهمْ يومَ (أُحُدٍ)، والصّواب: نقيض الخطأ. والتّصوّب: حدب في حدور، تقول: صوّبتُ الإناء ورأس الخشبة، ونحوه تصويبا.. والعرب تقول للسّائر في فلاة تقطع بالحدس، إذا زاغ عن القصد: أقم صوبك أي قصدك، وفلان مستقيم الصّوب إذا لم يزغ عن قصده يمينًا وشمالًا في مسيره[1].

2) ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾: أَذِنَ بمعْنَى عَلمَ، وبابُهُ طَرِبَ[2]؛ أيْ: فبعلمِ اللهِ وقَضائِهِ وقَدَرِه، "أي ما أصابكم حين التقيتم أنتم وعدوّكم فبإذني"[3]، أو" يا معشر المؤمنين يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ بأُحد من القتل والجرح والهزيمة والمصيبة فَبِإِذْنِ اللّٰهِ بقضائه وقدره وعلمه"[4].

3) ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾: عَلِمَ يَعلَمُ عِلْمًا: عَرَفَه[5]، والمرادُ بالعلم هنا: التّمييزُ والإظهارُ؛ لأنَّ عِلمَ اللّٰهِ ثابِتٌ قَبلَ ذلك، "ولما كان علم اللّٰه تعالى محيطًا وشاملًا لكل ما كان ويكون، ولكلّ ماض وحاضر ومستقبل، ولكلّ سرٍّ وعلن، ولكلّ ما في صدور النّاس، وليس من شيء من كونه وخلقه غير معلوم عنده.. فمن واجب المؤمن أن يؤمن بذلك، وأن يعتبر مثل هذا التّعبير أسلوبيًّا بمعنى (ليظهر) و(ليتبيّن) و(لينكشف) ما هو خاف على النّاس من أحداث وأفعال وصور، وهذا هو ما عليه جمهور المؤوّلين، وهو من المألوفات الخطابيّة"[6].

4) ﴿نَافَقُواْۚ﴾: النِّفاقُ: فِعلُ المُنافِق، يُقَالُ: نَافَقَ الرَّجُلُ إِذَا أَظْهَرَ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ وَأَضْمَرَ خِلَافَهَا في قلبه، وَالنِّفَاقُ اسْمٌ إِسْلَامِيٌّ اخْتُلِفَ في اشْتِقَاقِهِ، فقيل هُوَ مِنْ نَافِقَاءِ الْيَرْبُوعِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ جُحْرَ الْيَرْبُوعِ لَهُ بَابَانِ: الْقَاصِعَاءُ وَالنَّافِقَاءُ، يهرب من أحدهما إذا هوجم من الآخر، فَقِيلَ لِلْمُنَافِقِ إِنَّهُ مُنَافِقٌ، لِأَنَّهُ وَضَعَ لِنَفْسِهِ طَرِيقَيْنِ، إِظْهَارَ الْإِسْلَامِ وَإِضْمَارَ الْكُفْرِ، وقيل في رأي آخر: الْمُنَافِقُ مِنَ النَّفَقِ، وَهُوَ السِّرْبُ، وبه يتستّر كما يتستّر المنافق بالإسلام، وباطنه الكفران، وقيل إنّ اليربوع يحفر النّافقاء، ويرقّق القشرة من التّراب الّذي فوق الجحر، حتّى إذا التمس خطرًا، دفع التّراب وخرج هاربًا، فَقِيلَ لِلْمُنَافِقِ: إنّه

(1) الخليل، العين: (صوب).
(2) الفيرزآبادي، القاموس المحيط: (أذن).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/221.
(4) الثعلبي، الكشف والبيان: 3/200.
(5) الفيرزآبادي، القاموس المحيط: (علم).
(6) دروزة، التّفسير الحديث: 3/19.

مُنَافِقٌ، لِأَنَّهُ يُضمِرُ الْكُفْرَ في بَاطِنِه، فَإِذَا فَتَّشْتَ قلبه رَمَى عَنْهُ ذَلِكَ الْكُفْرَ، وادّعى أنّه متمسّكٌ بِالْإِسْلَام، وهو أيضًا في بعض المصادر مأخوذ مِنْ نَفَقَ الرَّجُلُ والدَّابّةُ نُفوقًا بمعنى: مَاتَا، وكأنَّ المرادَ هنا: أنَّ المنافقَ قد ماتَ الإيمانُ في قلبه. والمرادُ بالمنافقينَ هنا: عبدُ اللهِ بنُ أُبَيّ وأَصحابُه، وهُمُ الّذينَ نافَقُوا؛ أيْ: أَظهَرُوا الإيمانَ، وأَبطَنُوا الكُفرَ(1).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ما يستفاد من أحداث أُحُد الأليمة، ينفع من قبل ومن بعد الهزيمة

أَخبرَ البيانُ الإلهيُّ صحابةَ رسولِ اللّه ﷺ، أنَّ ما أصابَهُم يومَ التقَى جَمعُهمْ مع جَمعِ المشركِينَ في غَزوةِ أُحُدٍ، مِنَ القَتلِ والهزيمةِ؛ أنَّه بإذنِه وقَضائِه وقَدَرِه، لا مَرَدَّ لهُ، ولا بُدّ مِن وُقوعِه؛ وليسَ لهم إلّا التَّسليمُ لهُ، يُغَلِّفُ ذلكَ ويُبطِّنُهُ حِكَمٌ جَليلةٌ وفوائدُ جَسيمةٌ؛ ومِن أَعظَمِها تمييزُ المؤمنينَ مِنَ المنافِقينَ، أولئكَ المنافِقونَ الَّذين قالَ لهمُ المؤمنونَ: تعالَوْا قاتِلوا ذَبّاً عَن دينِ اللّهِ، وحمايةً له، وطلباً لِمَرضاةِ اللّهِ، أوِ ادْفَعوا عَن مَحارِمِكمْ وبَلدِكمْ، إنْ لم تَكُنْ لكُمْ نيَّةٌ صَالحةٌ؛ فَأَبَوْا ذلكَ واعتَذَروا أَعذارًا واهيةً كاذِبةً؛ حيثُ قالُوا: لو نَعلمُ أنّكمْ يَصيرُ بينَكُم وبَينَهم قتالٌ؛ لاتَّبعناكُمْ، وقَد عَلِمُوا يَقينًا أنّ المشركِينَ قدْ بَذَلواْ أموالَهمْ وجَنَّدُوا أعدادَهُم وعُدَدَهم قاصدينَ قِتالَ المؤمنينَ في بَلدِهم، يَسبِقُهم حِقدُهم وغَيظُهم على المؤمنينَ، بما أَصابُوا مِنهُم يَومَ (بَدْرٍ). في تلكَ الحالِ الّتي تَركَ فيها المنافِقونَ الخُروجَ مع المؤمنينَ للقتالِ، مُظهرينَ بكلامِهمْ وأَفعالِهم خِلافَ ما يُبطِنونَ في قُلوبِهمْ وسَرائِرِهم؛ كانُوا أَقربَ لِلكُفرِ؛ الَّذي انْطوَتْ صُدُورُهم عليهِ مِنَ الإيمانِ الَّذي يَتجَمَّلونَ به كَذِبًا وزورًا، والّذي يَعلَمُه اللّه، وَلا يَعلمُه غيرُه سُبحانَهُ وتَعالَى. ووَهِمَ أُولئكَ المنَافِقونَ أنَّ التَّخلُّفَ عنِ الجِهادِ يَقِي الإنسانَ مِنَ القَتلِ والموتِ؛ فوَقَعُوا في شَرّ التَّكذيبِ بقَضاءِ اللّهِ وقَدَرِه، فجاءَ الرَّدُّ الإلهيُّ حَاسِمًا، قلْ يا مُحَمّدُ ﷺ لهم:

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/422.

ادْفَعُوا عنْ أَنفُسِكُمُ المَوْتَ الّذي فَرَرْتُم مِنهُ، إنْ كُنتُم صَادقِينَ في ادِّعائِكُم، ولَن تَستَطيعُوا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾:

وُجُوبُ التَّسْلِيمِ لِـقَـضَـاءِ الـلـهِ تَعَالَى الْكَوْنِيِّ

الواوُ في قوله: ﴿وَمَآ﴾ عاطفةٌ، فقد عَطفتْ قولَه سبحانَهُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ على قولِه في الآية السَّابقة: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ﴾، وهو كلامٌ وارِدٌ على معنى التَّسليم؛ أيْ: هَبُوا أنَّ هذه مصيبةٌ، ولم يكنْ عنها عِوَضٌ، فهي بقَدَرِ اللّهِ تعالَى، فالواجبُ التّسليمُ[2].

ويحتَمِلُ أن تكونَ الواوُ استئنافيَّةً، ويكون قولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ كلامًا مستأنفًا؛ سيقَ تتمَّةً لقصَّةِ غزوةِ أُحُدٍ[3].

والأوَّلُ أظهَرُ، ولا يُشكِلُ عليه أنَّ فيه عطفَ الخبَرِ على الإنشاءِ؛ لأنَّ المنعَ من ذلك - على ما هو مشهورٌ - لا يصحُّ، فإنَّ القرآنَ طافحٌ بعطفِ الخبر على الإنشاءِ وعكسِه[4]، والذي حسَّنَ العطفَ اشتراكُ الجُمْلَتَيْن في المُسْنَدِ - وهُوَ الإصابَةُ - والمُسْنَدِ إلَيْه - وهو الضَّمير الرَّاجع إلى المُخَاطَبِين -.

دِلَالَةُ ﴿وَمَآ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾:

التَّذْكِيرُ بِالْمَصَائِبِ مُجَدِّدٌ لِلْأَحْزَانِ

(ما) في قولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ اسم موصولٌ مُضَمَّنٌ معنَى الشَّرطِ، والمعنَى: وأمّا الذي أصابكُم فمتوقِّفٌ على إذنِ اللّهِ تعالى؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ معناهُ: بيانُ سَبَبِه وحِكْمته؛ ولذلك قُرِنَ الخَبرُ بالفاءِ في قوله: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ الّتي دَخَلتْ في جَوابِ المَوصولِ؛ لِكونِهِ أُشرِبَ معنى الشَّرطِ.

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/374، والسَّعدي: تيسير الكريم الرحمن، ص: 117.

(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 4/162.

(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانُه: 2/102 - 103.

(4) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 29/210.

والاسمُ الموصولُ دالٌّ على العمومِ، ولذا أُوثِرَ التَّعبيرُ بهِ في قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾؛ لدلالَتِه على جميعِ أفرَادِ ما أصابَهم من غيرِ تصريحٍ بهذه الأفرادِ؛ لئلَّا يُجدِّدَ أَحْزَانَهمْ، فيكُون جامعًا بين إظهارِ الحقِّ في إثباتِ القدَرِ وإخفاءِ تفاصيلِ مُصابِهِمْ.

نُكْتَةُ وَضعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾:

إرْشَادُ أَهْلِ الإِيمَانِ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ

قال اللهُ سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾، ولم يقلْ: وهي - أي: المصيبةُ - بإذنِ اللهِ، فهو إظهارٌ في موضِعِ الإضْمَارِ، والنُّكْتَةُ في ذلك: التَّهويلُ، وزيادةُ التَّقريرِ ببيانِ زمانِ المصيبةِ بقولِه: ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أيْ: جمعُكم وجمع المشرِكين، وفي الإظهارِ أيضًا: إعلانٌ بذِكْرِ المُصيبةِ، وأنَّها بإذْنِ اللهِ تعالَى، والمقامُ مَقامُ إظهارِ الحقيقة[1]، والاسم الظَّاهِرُ أدلُّ على ذلكَ مِنَ الضَّميرِ الرَّاجِعِ إليه.

وفي توجيهِ الخِطابِ لجماعةِ المُؤمنين بقوله: ﴿أَصَٰبَكُمۡ﴾ إرشادٌ لهم إلى طريقِ الحقِّ، فيما سَألُوا عنْه، وبيانٌ لبعضِ ما فيه مِنَ الحِكَمِ والمصالِحِ.

بَلَاغَةُ الِاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾:

كُلُّ مَا يَقَعُ فِي الْعَالَمِ حَاصِلٌ بِإِرَادَةِ اللهِ تَعَالَى الْكَوْنِيَّةِ

قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ احتراسٌ؛ وذلك أنَّ قولَهُ سُبحانه قبلُ: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ قد يُوهِمُ استقلالَهُم في وقوعِ الحادثةِ، أو أنَّ بعضَ من ترسَّخَ قدمُهُ في الإيمانيَّاتِ يتوهَّمُ أن من الأفعال ما هو خارجٌ عن الإرادةِ الكونيَّةِ الإلهيَّةِ، فدُفِعَ هذا التَّوهُّمُ بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[2].

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 4/162.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 1/594.

نُكْتَةُ حَذْفِ حَرْفِ الْجَرِّ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾:

شِدَّةُ بَلَاءِ أَهْلِ الْإِيمَانِ يَوْمَ أُحُدٍ

عُدِلَ عنِ التَّعبير بـ: (ومَا أصَابكُم في يوم الْتَقَى الجَمْعَان) إلى ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾، بإسقاط حرف الجرِّ؛ للإشعارِ بأنَّ الحرفَ استغرقَتْ ذلك اليومَ كُلَّه[1]، فاجتمعت عليهم شدَّةُ المصائبِ، وطولُ الابتلاء بالحربِ باستيعَابِ وقوعِهَا اليومَ كُلَّهُ.

واللَّامُ في ﴿ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ للعهد العلميِّ الخارجيِّ، والمرادُ بِهِمَا: جمعُ الْمُسْلِمِينَ وجَمْعُ الْمُشْرِكِينَ الذين اجْتَمَعُوا في أُحُدٍ لِلْقِتَال.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بـ ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ دُونَ (يَوْمَ أُحُدٍ):

الْإِيمَانُ بَاعِثٌ عَلَى قُوَّةِ الرَّجَاءِ فِيمَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى

جاءَ التَّعبير عن غزوةِ أحدٍ بقوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾، ولم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (يوم أُحُدٍ)، وفي التَّعبير بالْتِقَاء الجَمْعَين: إشعارٌ بقوَّة التَّجمُّع في الفريقَيْن؛ وذلك دالٌّ على أنَّ كلًّا منهما عازِمٌ على القتالِ، راغبٌ في النَّصرِ رغبةً شديدةً، فهزيمةُ المشركِين في بَدْرٍ جمعَتْهُم في أُحُدٍ وجعلَتْ لهم عزيمةً قويَّةً على الانتقام، وإيمانُ المؤمنينَ قوَّى أملَهُم في اللهِ تعالى بنَصْرِهم على أعدائِهم أو استشْهَادِهم في سبيلِه.

دِلَالَةُ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

عِلْمُ اللهِ تَعَالَى قِسْمَانِ عِلْمُ رُؤْيَةٍ وَظُهُورٍ وَمُشَاهَدَةٍ، وَعِلْمٌ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ

الواوُ في قَولِه تَعالَى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عاطفةٌ، فقد عطفَت ما دخلَتْ عليهِ عَلَى قولِه تعالَى قبلُ: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، وهو من بابِ عَطْفِ المسَّببِ على السَّببِ.

والمُرادُ بالعلمِ هُنا التَّمييزُ والإظهارُ بَيْنَ النَّاسِ[2]، أو أنَّ المرادَ علمُهُ سُبحانَهُ ذلكَ علمًا يترتَّبُ عليه الثَّوابُ والعقابُ، وإلَّا فإنَّ أصلَ علمِهِ تعالى بِهِمْ أَزَلِيٌّ[3].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 5/118.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 4/167.

(3) ابن عثيمين، تفسير سورة الكهف، ص: 24.

نُكْتَةُ تَكْرَارِ فِعْلِ الْعِلْمِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾:

اخْتِلَافُ دِلَالَةِ الْفِعْلِ بِاخْتِلَافِ مُتَعَلَّقِهِ

كُرِّر الفعل (يَعْلَم) مِن قولِه تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ لِنُكْتَتَيْن[1]:

إحداهُمَا: تَمييزُ المُؤمنينَ، وإظهارُ شَرفِهم ومَكانتِهِم، وتَنْزيهُهم عنِ الانْتظامِ في سِلْكِ المنافِقينَ.

والأُخْرَى: الإيذانُ باخْتلافِ حالِ العلم بحَسَبِ التَّعلُّقِ بالفَريقَيْن؛ فإنّه مُتعلِّقٌ بالمؤمنينَ على جهةِ وعدِهم وَإثابَتِهم وجزائِهِمُ الجزاءَ الحسنَ، وتعلُّقُهُ بالمنافقينَ على جِهَةِ وعيدِهم وتهديدِهم وعقابِهم العقابَ الأليمَ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ عَنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِالِاسْمِ وَعَنْ أَهْلِ النِّفَاقِ بِالْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾:

التَّحْذِيرُ مِنَ الِاتِّصَافِ بِأَدْنَى شَيْءٍ مِنَ النِّفَاقِ

استُعملَت صيغةُ اسم الفاعل في لفظ المؤمنين، وصيغة الفعل الماضي في صلةِ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾؛ وذلك لأنَّ صيغةَ اسم الفاعلِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٢٣﴾ مُنبئةٌ عنِ الثُّبوتِ وَاسْتمرارِ الوصفِ ودَيمُومَتِهِ، مع تمكُّنِ اسم الفاعل مِن الدّلالةِ على تمكُّنِ الصِّفةِ من صاحبها حتّى باتَتْ اسْمًا له، بخِلافِ صيغةِ الفِعلِ ﴿نَافَقُواْۚ﴾؛ فدالَّةٌ على الحُدوثِ؛ فناتجُ المعنَى: وما أَصابَكمْ يَومَئِذٍ؛ فهو كائنٌ لِتَمييزِ الثَّابتينَ على الإيمانِ، والّذينَ أَظْهَروا النّفاقَ[2].

وفي التَّعبير عَنِ المؤمِنين باسْم الفاعل وعَنِ الكَافِرين بالفِعْلِ إيماءٌ إلى أنَّ وعدَ اللّهِ تعالى بالجزاءِ الحسن إنَّما هو لِمَنْ ثبَتَ لَهُ

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 1/594 - 595.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 1/595.

وصفُ الإيمانِ ظاهرًا وباطنًا، وأنَّ الوَعِيدَ بالعقابِ لمن اتَّصفَ بأدنَى شيءٍ مِن النِّفاقِ[1].

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّــةُ الْـقُــرْآنِ الْكَرِيمِ فِي اخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ الْمُنَاسِبَةِ لِسِيَاقَاتِهَا

قال اللّه تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾، وقال في سورة: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾ [العنكبوت: 11]، وسرُّ المغايرةِ بينهما: أنَّ آية آل عمران سُبقت بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فكان مقتضى الظَّاهِرِ التَّعبير بـ (المنافقين) هنا؛ ليُشَاكِل قوله قبل: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، إلَّا أنَّ السِّياقَ لمَّا تعلَّق بما منَّ اللّه تعالى به على المؤمنين بكشفِ جميع مَن تلبَّسَ بنفاقٍ؛ ناسبَهُ التَّعبير بالموصولِ وصِلَتِهِ، فقال: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾.

وأمَّا آية العنكبوت؛ فصُدِّرت بقوله تعالى: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فكان مقتضى الظَّاهر التَّعبير بـ (الذين نافقوا) ليُشاكِلَ قولَهُ قبلُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، إلَّا أنَّه لمَّا سُبِقَ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ [العنكبوت: 10]، وأفادَ ذلك الرُّسوخَ في النِّفاقَ؛ كان المناسب التَّعبير بالوصف فقال سبحانه: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾ [العنكبوت: 11][2].

دِلَالَةُ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أَثَــرُ دِلَالَاتِ الْـحُـــرُوفِ فِي تَوْجِيهِ الْمَعَانِي

الواوُ في قَوله تَعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجوزُ أَن تَكُونَ عاطفةً، فقد عطفَتْ مدخولَهَا على جملة الصِّلَةِ ﴿نَافَقُواْۚ﴾، أي: (الذين قيل لهم..).

ويجُوزُ أنْ تكونَ الواوُ استئنافيَّةً، ويكون قولُه سُبحانه: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/442.
(2) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 342.

﴿تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كَلامًا مُبتَدَأً[1]، ويكونُ في هذا اسْتِطْرَادٌ؛ إذْ أوردَ قِصَّةً من قِصَصِهم تناسبُ هذا المَقَامَ[2].

إلَّا السِّباقَ واللِّحاقَ فيما قَبْلَ قولِه: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ﴾ وما بعدَه؛ يُرجّحُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ﴾ معطوفًا على ﴿نَافَقُواْۚ﴾ داخلًا مَعَهُ في حَيّزِ الصِّلةِ، مُبيِّنًا لِلْمُرادِ من النِّفاقِ، وأنَّهُ نِفَاقٌ خَاصٌّ أظْهَرُوهُ في ذلكَ الموقفِ.

نُكْتَةُ بِنَاءِ الْفِعْلِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ فِي قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

امْتِلَاءُ الْقُلُوبِ نِفَاقًا مَانِعٌ مِنَ الانْقِيَادِ لِلْخَيْرِ وَلَوْ كَثُرَ دُعَاتُهُ

بُنِيَ الفعل (قِيلَ) من قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾ لما لَمْ يُسَمَّ فاعلُهُ؛ للإيماءِ إلى كثرةِ مَن قالَ لهم ذلكَ؛ فقالَ لهم النَّبِيُّ ﷺ وأصحابُهُ، وأهلُهم وعشيرتُهم المؤمنُونَ، إلَّا أنَّهم امتَنَعُوا - مَعَ كَثْرَةِ القائلِين -؛ لامتلاءِ قُلوبِهم نفاقًا[3].

بَلَاغَةُ تَرْكِ الْعَطْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ﴾:

مِنْ مَقَاصِدِ الْجِهَادِ إِقَامَةُ شَرْعِ اللهِ تَعَالَى قَوْلًا وَعَمَلًا وَاعْتِقَادًا

الأَصلُ في قِتالِ المؤمنينَ لِعدُوِّهم: أنَّهُ جِهادٌ في سَبيلِ اللّهِ، والقيام بِشرعِ اللّهِ قَولًا وسُلوكًا في البلادِ وبَينَ العِبادِ، وهذا هو الأَساسُ في دَعوةِ المؤمنينَ لِغيرِهم في القتالِ مَعَهم حتّى لَوْ كانُوا مُنافقينَ؛ ولهذا قالَ اللّه عنهُم: ﴿تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وهو الخيارُ الأوّلُ الّذي نَطقَ بهِ أَهلُ الحقِّ وهُمُ المؤمنونَ، وإنْ لم يَرضَ بهِ أَهلُ النّفاقِ؛ فَليكُن قِتالُهمْ لِدفعِ القَتلِ والجِراحِ عَنْ أهلِهم وحَريمِهم وبَلَدِهم، أو تكثيرِ سَوادِ المسلمين؛ فَيرَى العدوُّ كَثْرتَهم؛ فَيَتَسلَّلُ الوَهْنُ والخَوْفُ إلى قلبِهِ فيتراجَعُ، أو تَنكسِرُ شَوكَتُه فَينهزِمُ[4].

---

(1) الزّمخشري، الكشاف: 1/477.

(2) الطِّيبيّ، فتوح الغَيب: 4/335.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1496.

(4) قال ابنُ عطيَّة في المحرّر الوجيز: 3/413: "ولا مَحالةَ أنّ المرابِطَ مُدافِعٌ، والْمُكَثِّر للسَّوادِ مُدافِعٌ".

وتُركَ العطفُ بيْنَ فعلِ ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ وفعل ﴿قَٰتِلُواْ﴾؛ لأنَّه أرادَ أنْ يَجعلَ كلَّ واحدةٍ منَ الجُملتَيْن مَقصودةً بنَفسِها، أو أنَّه أرادَ أن يكونَ قولُه: ﴿قَٰتِلُواْ﴾ بدلًا من ﴿تَعَالَوۡاْ﴾، فالمقصودُ بهما واحدٌ وهو القِتَالُ، وذُكِرَ الفعلُ ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ توطئةً وتمهيدًا للقِتَالِ، وترغيبًا فيه[1]، وفي اقترانِ الفعلينِ على هذَا النّسَقِ إيماءٌ إلى أنَّ العلوّ مقدِّمةُ القتالِ، والقتالَ غايةُ العلوِّ.

دِلَالَةُ ﴿أَوِ﴾ وَبَلَاغَةُ التَّعْرِيضِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾:

شَـــأْنُ أَهْــلِ الْإِيمَانِ التَّجَرُّدُ لِمَطْلُوبَاتِ الْآخِرَةِ

جاءتْ (أَوْ) في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾ لِتُفيدَ التَّخييرَ، حيثُ قَسَمَ الأمرَ عليهِمْ بَيْنَ أنْ يُقاتِلوا للآخرةِ، كَما يُقاتِلُ المؤمنونَ، أو أنْ يُقاتِلوا دَفْعًا عن أنفُسِهِمْ وأهليهِم وأموالِهِم[2].

وفي تقديم القِتَالِ في سَبِيلِ اللّهِ تعالى على الْقِتَالِ دَفْعًا: تَرَقٍّ مِنَ الأعلَى إِلَى الأدْنَى؛ إِذْ مَطْلُوباتُ الآخرةِ لا تُدَانيها مطلُوبَات الدُّنيا.

وفي قَوْلِه: ﴿قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾ تَعْرِيضٌ بالمنافقينَ؛ إِذْ مِن شأنِ المؤمنينَ الصَّادِقينَ أن يتجرَّدوا للآخرةِ، فلمَّا ذُكِرَ الدَّفعُ أبانَ عَن تحريضٍ خاصٍّ بِمَنْ لا ينظرُ للآخرةِ نَظَرَ المُترقِّب.

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

أَثَرُ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ فِي إِبْرَازِ مُتَابَعَةِ الْمُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

فُصل قولُ اللّهِ تعَالَى: ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ عمَّا قبلُ؛ لِمَا بينَهُما من شِبْهِ كمال الاتِّصالِ، وهو المسمَّى: الاستئنافَ البيانيَّ؛ وذلك أنَّ قوله سُبحانه: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾، أورثَ سؤالًا في أذهانِ المتلقِّين للخطابِ، كأنَّه قيل: فَماذا صَنَعوا حينَ خُيِّروا بَينَ الخَصْلَتَينِ المذكورَتَين؟ فجَاء الجوابُ: ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾[3].

(1) العكبري، التبيان: 1/156 - 157، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/595.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/477 - 478.
(3) الزّمخشري، الكشاف: 1/477.

دِلَالَةُ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بـ (لَوْ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾:

عادةُ أَهلِ النِّفاقِ تَثبيطُ المُؤمِنينَ عَـنْ مَـعَـالِي الأُمُورِ

عُلِّقَ الشَّرطُ بـ (لَوْ) في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾؛ لإفادةِ امْتناعِ قتالِ المنافقينَ مَعَ المسلمينَ؛ لامْتناعِ ما توقَّعُوه زَعْمًا من عدمِ حصولِ القتالِ، وجاءتِ (اللّامُ) في جوابِ الشَّرطِ في قولِهم: ﴿لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾؛ لإيهامِ استعدادِهم لِلقِتَالِ مع المؤمنِينَ في حالِ تيقُّنِهم وقوعَهُ، إلَّا أنَّ تعبيرَهُمْ بالاتِّباعِ دون القتالِ - فلم يقولوا: (لو نعلم قتالًا لَقَاتَلْنَا معكُم) - دليلٌ على كمالِ تَثْبِيطِهِم عَنِ القِتَالِ، وهُو من جُمْلَةِ لَحْنِ القَوْلِ الذي تُعْرَفُ بِهِ حَقِيقَتُهم.

وقدْ عَبَّرَ النَّظمُ عن نَفيِ القُدْرةِ على القِتالِ بنَفيِ العِلمِ به؛ لِمَا أنَّ القُدرةَ على الأَفعالِ الاختياريَّةِ مُسْتلزِمةٌ للعِلمِ بها.

نُكْتَةُ إِيرَادِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ ﴿هُمۡ﴾ ضَمِيرَ غَيْبَةٍ لَا ضَمِيرَ خِطَابٍ:

انْحِطَاطُ رُتْبَةِ أَهْلِ النِّفَاقِ

وردَ المسندُ إليه ﴿هُمۡ﴾ من قوله تعالى: ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾ ضميرَ غَيْبَةٍ دُونَ ضميرِ الْخِطَابِ؛ لنكتَتَينِ:

إحداهُمَا: مراعاةُ السِّياقِ؛ فإنَّ اللّٰه تعالَى قالَ قَبلُ: ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾؛ و﴿قَالُواْ﴾ جارٍ عَلَى أسلوبِ الْغَيْبَةِ.

الأُخْرَى: الاسْتِهَانَةُ بِهِم وبِنفاقِهم وكَذِبِهم، فَهُم أقلُّ شَأْنًا مِنْ أنْ يَتوجَّهَ إليهمُ الخطابُ.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿قِتَالٗا﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالٗا﴾:

تَظاهُرُ المُنافِقِينَ بِاعْتِمَادِهِمْ عَلَى الأَعْذَارِ

نُكِّر ﴿قِتَالٗا﴾ من قَولِ اللّٰه تعالَى: ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ لإفادَةِ التَّعميمِ؛ لكونِ النَّكرةِ واقعةً في سياقِ الشَّرطِ، والمعنى: لَوْ نعلمُ ما يَصِحُّ أنْ يُسمَّى قِتالًا - أيَّ: قِتالٍ كانَ - لاتَّبعناكُمْ، ولكنَّ الذي أنتُمْ بِصدَدِهِ ليسَ بقتالٍ أَصْلًا، وإنّما هو إلقاءُ النَّفسِ في التَّهلُكة[1].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/595.

تَعْيِينُ مُتَعَلَّقِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ فِي ﴿لِلۡكُفۡرِ﴾ وَ﴿لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾:

فَضْحُ الْمُنَافِقِينَ بِحَقِيقَةِ كُفْرِهِمْ وَكَذِبِهِمْ فِي أَعْذَارِهِمْ وَاعْتِذَارِهِمْ

في قولِه تعالى: ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾ نظمٌ جَزْلٌ، فالضَّميرُ ﴿هُمۡ﴾ مبتَدأٌ، و﴿أَقۡرَبُ﴾ خبرُهُ، واللّامُ في ﴿لِلۡكُفۡرِ﴾ و﴿لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾ مُتعلِّقةٌ به، وكذلكَ القَولُ في ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ و﴿مِنۡهُمۡ﴾، والأصلُ عدَمُ جَوازِ تَعلّقِ حَرْفَين مُتَّحِدَين لَفظاً ومعنًى بعاملٍ واحدٍ، بِلا عَطْفٍ أو بَدَليَّةٍ؛ وذلكَ إنّما هو فيما عَدا أَفعلِ التّفضيلِ؛ لاتِّحادِ حَيْثيّةِ عَمَلِها، وأمّا أَفعَلُ التّفضيلِ، فحيثُ دَلّ على أصْلِ الفعلِ وزِيادتِه، جَرَى مَجْرى عَامِلَين؛ كأنَّه قيلَ: قربُهم لِلكُفرِ زائدٌ على قُربِهم للإيمان.

ويجوزُ أنْ يكونَ تَعلُّقُ الجارَّيْنِ بـ﴿أَقۡرَبُ﴾ لِشَبَهِهِمَا بالظّرْفَين؛ أيْ: هُمْ للكُفرِ يومَ إذْ قَالُوا ما قَالُوا، أقْربُ منهُم للإيمانِ، فإنّهم كانوا قَبْلَ ذلكَ يتَظاهرونَ بالإيمانِ، ومَا ظَهَرَتْ منهُم أمَارةٌ مؤذِنةٌ بكُفْرِهم، فلَمَّا انْخَذَلُوا عن عَسكَرِ المسلمينَ، وقالُوا ما قَالُوا؛ تَبَاعدُوا بذلكَ عنِ الإيمانِ المظنُونِ بهم، واقْتَربُوا منَ الكُفْرِ.

ويجوزُ أن يكونَ المعنى: هُمْ لِأهلِ الكُفرِ أقربُ نُصرَةً مِنهم لِأَهلِ الإيمانِ؛ لأنّ تَقليلَ سَوادِ المسلمِينَ بالانخِذالِ الّذي وقَعَ مِنهم يُعَدُّ تَقويةً لِلكافرين[1].

دِلَالَةُ تَقْدِيمِ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾:

بُعْدُ الْمُنَافِقِينَ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ وَقُرْبُهُمْ مِنْ كُلِّ شَرٍّ

جَاءَ تقديمُ الجارِّ والمَجْرُورِ ﴿لِلۡكُفۡرِ﴾ على الْخَبَرِ ﴿أَقۡرَبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾؛ لإفادةِ الحَصْرِ والقَصْرِ؛ أي: أنَّهُم أقربُ لِلْكُفرِ دُونَ غَيرِه من صفاتِ الخَيْرِ التي

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 595/1 - 596.

أعلاهَا الْإيمانُ، وفي هذَا التَّقديمِ أيضًا: تعجيلُ ما يَسُوؤهُم بذِكْرِ الكُفْرِ أوَّلًا.

وجاءَ قولُه: ﴿مِنْهُمْ﴾ مُتقدِّمًا على ﴿لِلْإِيمَٰنِۚ﴾ لتعلّقه بـ ﴿أَقْرَبُ﴾، ولإفادَتِه البُعدَ عنِ الإيمانِ، والقُربَ مِنَ الكُفرِ؛ حيثُ إنّ قولَه: ﴿أَقْرَبُ﴾ يقتضي فَاضلًا ومَفضُولًا، فلا يقعُ لَبْسٌ في تعلُّقِ مَجرورَين بِه؛ لأنَّ السّامعَ يَرُدُّ كُلَّ مجرورٍ إلى بعضِ معنَى التَّفضيل.

وما يُشاهَدُ مِنْ حالِ المنافقِينَ أقربُ دِلالَة على أنَّهم يُبطِنونَ الكُفرَ من دِلالةِ أقوالِهم: إنّا مُسلِمُون، واعتذارِهم بقولِهم: لو نَعلمُ قتالًا لاتّبعناكُمْ؛ أيْ: إنَّ عُذرَهُم ظاهرُ الكَذِب، وبيِّنٌ في كون المرادِ مِنْهُ تَفْشيلَ المُسْلِمين وتثبيطَهُمْ، والقُربُ: مجازٌ في ظُهورِ الكُفْرِ عليهم[1].

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

الْكَشْفُ عَمَّا فِي ضَمَائِرِ الْمُنَافِقِينَ

فُصِلَ قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لأنَّ بينَهُما شِبْهَ كمالِ الاتِّصالِ، المعروفَ بالِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانيِّ، وذلك لقَصْدِ بيانِ مَغْزَى الاقترابِ المذكورِ في قولِه قبلُ: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ﴾؛ فهُمْ يُبْدُونَ مِنْ حالِهم أنّهم مُؤمِنون، ولذَا يَرِدُ السّؤالُ: كيفَ جُعِلوا إلى الكُفرِ أَقْربَ معَ أنَّ ظاهِرَ حالِهم الإسلامُ؟ فجاءَ الجوابُ في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ﴾، أَيْ: إنّ الّذي يُبْدونَه ليس مُوافقاً لِمَا في قُلوبِهم.

وفي هذه الجملةِ المستأنَفَة: تقريرٌ لِمضمونِ ما قَبلَهَا.

ويجوزُ أنْ يكون قولُه: ﴿يَقُولُونَ﴾ جملةً حاليَّةً مِنَ الضَّميرِ في ﴿أَقْرَبُ﴾؛ أيْ: قَرُبُوا إلى الكُفْرِ قائلينَ[2] بأفواهِهم ما لَيْسَ في قُلوبِهم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/163.
(2) العكبري، التبيان: 1/157.

بَرَاعَةُ المَجَازِ المُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ﴾:

شِدَّةُ كَذِبِ أَهْلِ النِّفَاقِ

يُسنِدُ القرآنُ الكريمُ القولَ تارةً للألسنِ، كما في قوله تَعالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ﴾ [الفتح: 11]، وتارةً أُخرَى يُسندُه للأفْواه؛ كَما في هذه الآية ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ﴾، واللِّسان جُزءٌ مِن الفَم، فإطلاقُ الأفْواهِ وإرادةُ الألْسُنِ؛ هو مجازٌ مُرسلٌ، علاقَتُهُ الكُلّيَّةُ؛ إذْ أُطْلِقَ الكُلُّ وأُريدَ الجُزءُ، ونُكْتَتُه: تصويرُ قولِ المنافقينَ لشِدّةِ كَذِبِهم فيهِ وأنَّهم لا يقولُونَه بألسنتهمْ فَقَط، وإنّما يَسْتجمِعونَه في جميعِ أفواهِهم، بيانًا مِنَ اللّهِ تَعالى لحقيقةِ نفاقِهم القائمِ على الكَذبِ والبُهْتان، وكأنَّ كُلَّ جُزءٍ مِنْ أفواهِهم يتكلَّمُ بذاكَ الكَذِبِ ولَيس اللِّسانُ وحدَهُ.

ويجوزُ أن يُجْعَلَ هذا المجازُ مرسلًا بعلاقةِ المحلّيَّةِ[1]؛ فمعنى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ يقولونَ بألسنَتِهم، والأفواهُ مكانٌ لِلألسِنَةِ.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ الإيمانَ لم ينعقِدْ في قُلُوبهم مُطْلَقًا؛ بلْ رَانَ على قلوبِهم ما كانوا يَكْذِبونَ، فخَلَتْ من حقيقةِ الإيمَانِ.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ المَوْصُولِ ﴿مَّا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ﴾:

الْقَوْلُ الصَّادِرُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ مُنَافٍ لِلْمُسْتَقِرِّ فِي قُلُوبِهِمْ

جاءَ الاسمُ الموصولُ (ما) في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ﴾ تعبيرًا عن قولِهم الكاذِب، وهو مفعولُ ﴿يَقُولُونَ﴾، واسمُ ﴿لَيْسَ﴾ المحذوفُ (هو) راجعٌ إلى (مَا) بمعنَى القولِ، وتقديرُ الكلامِ: يقولونَ بألسنتِهمُ الّذي ليس هو القولَ الكائنَ أو الموجُودَ في قلوبِهم، وكأنَّ في القلبِ قَولًا، وفي اللّسانِ قَولًا آخَرَ، وكلُّ

(1) الأصل في تعريف المجاز: ما أُريد به غير المعنى الموضوع له في أصل اللّغة، وهو مأخوذ من: جاز من هذا الموضع إلى هذا الموضع، إذا تخطّاه، ينظر: ابن الأثير، المثل السّائر: 1/84.
وإطلاق مصطلح المجاز المرسل، يعني: ما كانت العلاقةُ بين ما استُعمل فيه، وما وُضع له مُلابسةً غير التّشبيه، وذلك مثل لفظة (اليد) إذا استعملت في معنى (النِّعمة) لأنّ من شأنها أن تَصدُر عن الجارحة، ومنها تصل إلى المقصود بها، وقد سمّاه البلاغيون (مجازًا مُرسلًا) لإرساله عن التّقييد بعلاقة المشابهة، ينظر: عبد المتعال الصّعيدي، بغية الإيضاح: 3/462.

منهما يُخالفُ الآخَرَ، وهذا هُوَ حقيقةُ النِّفاق؛ "فقدْ أظهرُوا في تلكَ الواقعةِ أمرينِ اثنَيْنِ، ليسَ في قلوبِهم شيءٌ منهُما؛ أحدُهما: عدمُ العِلم بالقتالِ، والآخرُ: الاتِّباعُ على تقديرِ العِلم به، وقدْ كَذَبوا فيهِمَا كَذِبًا بيّنًا، حيثُ كانُوا عالمينَ به، غيرَ ناوِينَ للاتِّباع؛ بَلْ كانُوا مُصرِّينَ على الانخِذال، عازمينَ على الارْتِدادِ"[1].

مُنَاسَبَةُ خَتْمِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾:

إحَاطَةُ عِلْمِ اللهِ تعَالَى بِظَوَاهِرِ الْعِبَادِ وَبَوَاطِنِهِمْ

الواوُ في قولِه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ اسْتِئْنَافيةٌ، ويجوزُ أَنْ تَكُونَ حاليَّةً، و﴿مَا﴾ اسمٌ مَوصولٌ، بمعنى: الّذي، أو حرفٌ مَصْدريٌّ، والمصدرُ المؤوَّلُ في محلّ جرٍّ بحرفِ الجرِّ، والتّقديرُ: والحالُ أنَّ اللّه أعلمُ بكِتْمانِهم، أو بكِتمانِ قلُوبِهم.

وفي قوله: ﴿أَعۡلَمُ﴾ وجهانِ:

أحدُهُمَا: أنّه أفْعَلُ تفضيلٍ، وليستِ المفاضلةُ بينَ أصلِ عِلم اللّهِ تعالَى وعلم البَشرِ، وإنّما هي مِنْ بابِ عِلمهِ تعالَى بدَقائقَ وتفصيلاتٍ حاضرةٍ وغيْبيَّة، لا يَعلمُها إلّا اللّه تعالَى.

أو أنّه أفْعَلُ تفضيلٍ لَم يجرِ على بابِهِ؛ إذْ لا مقارنَةَ بين علم اللّه تعالى وعلْم غيرِه، فهو كقوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: 8]، فليس معناه: أنَّ الظُّلْمَ قريبٌ من التَّقوى، والعدلَ أقربُ مِنْهُ.

الآخَرُ: أنّه ليسَ للتَّفضيلِ، وإنَّما هو وصفٌ جاءَ على وزنِ أفعل، وهو بمعنًى عَليمٍ أو عالمٍ[2].

وقَدْ أظهرَتْ فاصلةُ الآيةِ الكَريمةِ زيادَةَ تحقيقٍ لِكفرِ المنافقين؛ ببيانِ اشْتغالِ قلوبهم بما يُخالِفُ أقوالَهم، مِنْ فُنونِ الشَّرِّ والفَساد، إثْرَ بَيانِ خُلوِّها عمَّا يُوافقُها، واستعمالُ صِيغَةِ التَّفضِيلِ ﴿أَعۡلَمُ﴾؛ لِمَا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 1/596.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 1/478، وصافي، الجدول: 4/367 - 368.

أنَّ بعضَ ما يَكتُمونَهُ مِنْ أَحكامِ النِّفاقِ وذَمِّ المؤمنينَ وتخْطِئةِ آرائِهم والشَّماتَةِ بهِم، وغيرِ ذلك؛ يَعلمُه المؤمنونَ على وَجهِ الإجْمالِ، وأنّ تَفاصيلَ ذلكَ وكيفيَّاتِه مُختَصّةٌ بالعِلمِ الإلهَيِّ(1).

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

المُبَالَغَةُ فِي تَهْدِيدِ الكَفَرَةِ وَالمُنَافِقِينَ تَابِعَةٌ لِشِدَّةِ كُفْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ

خُتمت هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾، وجاء في سورة المائدة قولُ اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ [المائدة: 61]، وسرُّ التَّغايُرِ بينهما: أنَّ المتحدَّث عنهم في آية آل عمران كانوا أقلَّ نفاقًا وكفرًا، كما دلَّ عليه قولُه سبحانه قبل: ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾، بخلاف المتحدَّث عنهم في آية المائدة؛ فقد كانوا غارقين في الكفر والنِّفاق، كما أرشد إلى ذلك قولُه ﷻ قبلُ: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾؛ فناسبَ أن تختصَّ آيةُ المائدة بزيادة ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ دون آية آل عمران(2).

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أصابَكُمْ) و(مسَّكُمْ):

(المَسُّ) أَقلُّ تمكُّنًا مِنَ الإصَابةِ، وكأنّهُ أقَلُّ درجاتِها(3)، والّذي وقَعَ في غَزْوةِ أُحُدٍ كان ثقيلًا على المسلمِينَ؛ قَتْلٌ وجراحٌ، ثمّ هَزيمةٌ بعدَ نَصْرٍ، وهو أشدُّ وَطْأً على النُّفوسِ، وأَوْقَعُ إيذاءً بها.

فلا يُناسِبُ والحالُ هذه إلّا اسْتخدامُ الإصابَةِ، وليسَ مُجرَّدَ المَسِّ، وخاصّةً أنَّ البيانَ الإلهَيَّ قد أعلَمَهُم أنَّ هذا الأمرَ الشَّديدَ الّذي أصابَهمْ يَنطوي على حِكمتَيْنِ؛ الأُولَى: أنّه قَدَرُ اللّهِ الّذي لا مَفَرَّ منهُ، والثَّانيةُ: أنَّه تَمييزٌ وتَمحيص، قال الغطمَّش الضّبّي، وهو من بني شقرةَ بنِ كعبِ بنِ ثعلبةَ بنِ ضبّة:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/478، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/596.
(2) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 342.
(3) ابن المنيّر، الكشاف بحاشية الإنصاف: 1/459، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (مَسَسَ).

أَقُولُ، وَقَدْ فَاضَتْ بِعَيْنِيَ عَبْرَةٌ *** أَرَى الدَّهْرَ يَبْقَى، وَالْأَخِلَّاءَ تَذْهَبُ
أَخِلَّايَ لَوْ غَيْرُ الْحِمَامِ أَصَابَكُمْ *** عَتَبْتُ، وَلَكِنْ لَيْسَ لِلدَّهْرِ مَعْتَبُ(1)

الإِذْن والقَضاء:

أَذِن بالشّيء، يأذَن إذْنًا، عَلِمَ به؛ كما قالَ تَعالى: ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٍ﴾؛ أيْ: كونُواْ على عِلم. وقَضَى يَقضِي قَضاءً؛ أيْ: صَنَعه صُنعاً، وقدّرهُ تقديراً؛ ومنه: القضاءُ والقَدَرُ(2). والقَضاءُ: عِلمُ اللّهِ الأزَليُّ بما هو كائنٌ وواقعٌ، فالقضاءُ؛ وهو العِلمُ سابِقٌ للقدَر، الّذي هو التَّقديرُ المطابِقُ لِلعِلم.

وما وَرَدَ في قولِه: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فهو كائنٌ بقَضائِه وعلمِه، وتَخليته الكفّارَ؛ سُمِّيَ ذلكَ إذْنًا لِكونِه مِنْ لَوازمِه، فاستعارَ الإذْنَ لتخليتِه الكفَّارَ، وأنَّه لم يمنعهُمْ ليبتليَهم(3).

(يَعلَمُ) و(يَتَبيَّنُ):

عَلِمَ الشَّيءَ بالكَسْر، يَعْلَمُهُ عِلْماً: عَرَفَهُ، بَانَ يَبِينُ بَيانًا وبَيْنُونَةً: اتّضَحَ، وتَبيَّنَ الشَّيْءُ: ظَهَرَ، والتَّبْيِينُ: الإيْضاحُ والوُضوحُ(4). والعِلمُ: اعْتقادُ الشَّيءِ على ما هو بِه على سَبيلِ الثِّقةِ، كان ذلكَ بَعْدَ لَبسٍ أوْ لا، والتّبيينُ: علمٌ يَقعُ بالشَّيءِ بَعْدَ لَبْسٍ فقطْ؛ ولهذا لا يُقالُ: تبيَّنْتُ أنَّ السَّماءَ فَوقي، كما تقولُ: علمتُها فَوقي؛ لِذَا وردَ قولُه تعالَى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾، فعِلمُ اللّهِ لايَسبِقُهُ لَبسٌ، فَلا يُقالُ للّهِ: مُتَبيِّنٌ لذلك(5).

الدَّفْع والرَّدّ والدَّرْء:

دَفَعَهُ، وإليه، وعنه الأَذَى، كمَنَعَ، دَفْعاً ومَدْفَعاً، و(دافَعَ) عنه و(دَفَعَ) بِمعْنَى: ردَّهُ عن وَجْهِهِ يَرُدُّه (ردًّا) و(رِدّةً) بالكسر، و(مَردُودًا) و(مَردًّا) و(رِدِّيدَى): صَرفَهُ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ [الرّعد: 11]. والدّرءُ: الدّفْعُ، وبابُهُ: قَطَعَ، و(دَرَأ) طَلَعَ مُفاجَأةً، وبابُهُ: خَضَعَ(6). والدَّفعُ قدْ يكونُ إلى جهةِ القُدّامِ والخَلْف، والرّدُّ لا يَكونُ إلّا إلى جهةِ الخَلْفِ،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عتب).
(2) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (أَذِنَ) و: (قَضَى).
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 1/477، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/594.
(4) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (عَلِمَ) و: (بَيَنَ).
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 317.
(6) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (دَفَعَ) و: (رَدَدَ) و: (دَرَأَ).

ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: 76][1]، وهذا المَعنَى للدَّفعِ هوَ الَّذي يُناسِبُ دَفعَ الأعداءِ مِنْ جِهَةِ القُدَّامِ والخَلفِ؛ بَلْ وفي كُلِّ الجِهاتِ.

الكِتْمان والإخْفاء والسِّرّ:

قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾: كَتَمَهُ، كَتْمًا، وكِتْمانًا، مِنْ بابِ نَصَرَ، و(اكْتَتَمَهُ)، وسِرٌّ (كاتمٌ)؛ أيْ: (مَكتومٌ)، و(اسْتَكْتَمه) بِسِرِّه: سأَلَهُ أنْ يكتُمَهُ. خَفَاهُ: مِنْ بابِ رَمَى، كَتَمهُ وأَظهرَهُ، وهو مِنَ الأضْدادِ، و(أخفاهُ) سَترهُ، وكَتمَهُ. والسِّرُّ: ما يُكْتَمُ. و(الكِتْمانُ): هو السُّكوتُ عنِ المعنَى؛ وقولُهُ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: 159]؛ أي: يَسْكُتونَ عن ذِكرِه، والإِخْفاءُ يكونُ في ذلكَ وفي غَيرِه، والشّاهدُ أنَّكَ تقولُ: أَخْفيتُ الدِّرهمَ في الثَّوْبِ، ولا تقولُ كَتَمتُ ذلكَ، وتقولُ: كتَمتُ المعنَى وأَخفَيتُهُ، فالإخفاءُ أعمُّ مِنَ الكِتمانِ. والمكْتومُ يَختصُّ بالمعَاني كالأَسرارِ والأَخبارِ؛ لأنّ الكِتمانَ لا يُستعمَلُ إلّا فيهِمَا، والمسْتورُ يَختصُّ بالجُثَثِ والأَعْيانِ؛ لأنّ الأصلَ في السِّرّ تَغطيةُ الشَّيءِ بِغِطاء، ومِنْ خِلالِ ما تَقدَّمَ مِنْ بَيانِ مَعَاني تلكَ المُفرَداتِ؛ نجدُ اشْتراكاً واضِحًا بينَها، و(الكَتْمُ) يَدخُلُ صُلبَها جميعَهَا دُخولًا أَوّليًّا.

وما ذَكرَهُ أهلُ الفُروقِ مِنْ أنَّ (الكَتْمَ) يَختصُّ بالمعَاني، يُناسِبُ ما يَكتُمُهُ المنافِقونَ في نُفوسِهِمْ مِنْ حَقيقةِ كُفرِهم، والَّذي لا يَعلمُهُ إلّا اللّه؛ ولذلكَ جاءَ بيانُ اللّهِ جَليًّا بقَولِ الحقِّ تَباركَ وتَعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 53، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 11.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ [آل عمران: 168]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـــرّبـــطُ بين حـالِ المنافقين، وبين تثبيطِهمُ المَـــمْـــقـــوتِ للمؤمنين

بعدَ أن بيّن اللّٰه سبحانُه وتعالى حَالَ المنافقين في الآيةِ السَّابقةِ، تابَعُ حديثَهُ عن قُعودِهمْ عنِ القتالِ مع المسلمين، وتَثْبيطِهم للمقاتلين، وإبرازِ عقيدتِهمُ الفاسِدةِ في عَدَمِ إيمانِهم بالقَضاءِ والقَدَر، وبذلك كان الرّدّ قاسيًا، دحض حجّتهم، وأبان زيف دعاواهم الباطلة، وكان السّياق توبيخا لهم وتقريعًا، وعليه فقد أمر نبيَّه أن يتحدّاهم، بأن يدفعواْ عن أنفسهم الموت، إن كان الحذَر يمنع من القدَر، كما يظنّون، ولكن هيهات لما يزعمون[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَعَدُواْ﴾: من قَعَدَ يَقعُدُ قُعودا، وهي خلافُ قام، والقَعْدَةُ: المرّةُ الواحدة، والقَعدُ: القومُ الّذين لا ديوانَ لهم، والمُقعَدُ والمُقعَدةُ اللّذان لا يُطيقانِ المَشْي، والمُقعدات: فراخُ القَطا والنّسر قبلَ أن تَنهضَ للطّيران، قال ذو الرّمّة:

إِلَى مُقْعَدَاتٍ تَطْرَحُ الرِّيحَ بِالْضُّحَى *** عَلَيْهِنَّ رَفْضًا مِنْ حَصَادِ الْقَلَاقِلِ[2]

(قَعَدَ) منْ بابِ دَخَلَ (مَقعدًا) بالفتح؛ أي: جَلَسَ[3]، وهو هنا حالٌ من ضميرِ ﴿قَالُواْ﴾ بتَقديرِ (قَدْ)؛ أيْ: قالُوا، وقدْ قَعَدُوا عنِ القِتالِ بالانْخِذال.

2) ﴿فَٱدۡرَءُواْ﴾: الدَّرْءُ: الدّفْعُ، والمرادُ هنا: اقْمَعُوا وصُدُّوا العدُوّ عن أنفُسِكم، أو كثّروا سَوادَ المسلمينَ ورابِطُوا، وإنْ لم تُقاتِلوا[4]، وقد ورد قوله: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 461.
(2) الخليل، العين: (قَعَدَ).
(3) الرّازي، مختار الصّحاح: (قَعَدَ).
(4) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (دَرَأَ)، والشّوكاني، فتح القدير: 1/644 - 645.

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، ومعناه: "قل إن كنتُم صادقين، في أنّكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلًا، وهو القُعود عن القتال، فَجِدوا إلى دفع الموتِ سبيلًا، يعني أنّ ذلك الدّفع غير مُغنٍ عنكم، لأنّكم إن دفعتُم القتلَ الّذي هو أحدُ أسبابِ الموت، لم تقدروا على دفعِ سائرِ أسبابِه المبثوثة، ولا بدّ لكم من أن يتعلّق بكم بعضها"[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تحذير المنافقين من الموت الّذي لافرار منه، ولا فكاك عنه

إنّ أولئكَ المنافقينَ قدْ جَمَعواْ بيْنَ التّخلُّفِ عنِ الجِهادِ، وبينَ الإعراضِ والتّكذيبِ بقَضاءِ اللّهِ وقَدَرِه، فَردَّ اللّه عليهِم: أنِ ادْفعُواْ عنْ أنْفُسِكمُ الموتَ، ولنْ تَقدِرُواْ على ذلكَ، ولنْ تستَطيعوه[2]، إذْ "لو كان القعود يسلم به الشّخص من الرّدى، ويهرب به من الموت المحتوم، فقد كان ينبغي عليكم ألّا تموتواْ، وهو أمر مستحيل، لأنّ الموت آتٍ لا بدّ منه، ولا مَنأى عنه، فادفعواْ عن أنفسكمُ الموتَ إن كنتُم صادقين في قولكم، وأخّرواْ الأمر، إن كان الحذَرُ يمنعُ من القدَر، كما هو زعمُكم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تَعْيِينُ المُرَادِ بِالِاسْمِ المَوْصُولِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾:

اشْـتِـهَـارُ أَمْـرِ المُـنَـافِـقِـينَ بِـمَـقَـالَاتِـهِـمُ الرَّدِيئَةِ

الاسْم الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾ يُرادُ به: المنافقونَ، وهو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ تقديرُهُ (همْ)؛ أيْ: هُمُ الّذين قالُوا لإخوانِهم، وحِكايةُ مَقُولتِهم: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾، فيها إيذانٌ بأنَّهم أَمَرُوا مَن كانَ مِنْ جنسِهِمْ في النِّفاقِ بالانخِذالِ حِينَ انخَذَلوا، وأَغْوَوهُمْ كما غَوَوْا، على أنّ تَخصيصَ عَدمِ الطّاعةِ بإخوانِهِمْ، يُنادي باخْتصاصِ الأمرِ أيضًا بهِمْ[4].

(1) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/275.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 117.
(3) القطان، تيسير التّفسير، ص: 243.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/478، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/597.

ويجوزُ في إعرابِ (الّذِينَ) أوجهٌ أخرَى، كالنَّصْبِ على الذَّمِّ[1]؛ لمناسبة ما حُكِيَ عنهم مِنَ القولِ البَاطِلِ؛ في اعْتِرَاضِهِم عَلَى القَدَرِ.

دِلَالَةُ اللَّامِ (ٱلَّذِينَ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾:

بَيَانُ أَوْصَافِ الْمُنَافِقِينَ لِيَظْهَرَ نِفَاقُهُمْ وَيَتَمَيَّزُوا بِهِ أَكْمَلَ تَمْيِيزٍ

في التَّعبيرِ بالموصولِ وصِلَتِهِ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ دِلالَةٌ على أنَّ مضمونَ الصِّلَةِ أشهرُ عِنْدَ السَّامعينَ، ولذا كان الأظْهَرُ أن يُرادَ بهم مَن تقدَّمتْ حكايةُ مقالتهم في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: 156]، فذُكِرَ وصفٌ لهم هُنَا؛ ليتمَيَّزُوا أكملَ تمييزٍ[2]، فاللَّامُ في (ٱلَّذِينَ) لِلْعَهْدِ الذِّكْرِيِّ الصَّريحيِّ.

مَعْنَى اللَّامِ فِي ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾:

تَمَسُّكُ الْمُنَافِقِينَ بِبَعْضِ الْأَحْدَاثِ الْعَارِضَةِ لِنُصْرَةِ آرَائِهِمُ الْبَاطِلَةِ

اللَّامُ في ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ مِن قَوْلِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾ لِلتَّعليلِ، والمعنى: الذين قالوا لأجلِ إخوانِهم، لا أنَّهم وجَّهوا إليهم القولَ؛ إذ إخوانُهم قد ماتُوا وقتَ صدورِ القولِ، كما دلَّ عليه قولُه تعالى بعدُ: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾[3].

ودِلَالَةُ اللَّامِ علَى التَّعْلِيلِ تدلُّ علَى أنَّ المذكورَ هو الباعِثُ علَى مَقَالَتِهِم؛ فَهُم لَا يتألَّمون لأجْلِ إخْوانِهِم وذَوِي رَحِمِهِم، ولكنَّهم يُلْقُونَ باللَّائمة عَلَيْهِمْ[4].

دِلَالَةُ الْأُخُوَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾:

الأُخُوَّةُ الواردةُ في قَوْلِ اللهِ تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/426.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/164.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/438.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1499.

الْأُخُـوَّةُ صِنْفَانِ أُخُـوَّةٌ بِنَسَبٍ، وَأُخُوَّةٌ بِسَبَبٍ

﴿أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ يجوزُ أن تكون أُخُوَّةَ النَّسَبِ، ويكون المقتولُونَ من المسلمينَ كانوا أقاربَ للمنافقينَ، فقال المنافقونَ هذه المقالَةَ بعد أن قُتِلَ بعضُ أقاربهم المسلمينَ في أُحُدٍ(1).

ويجوزُ أن تكونَ الأُخُوَّةُ أُخوَّةً بِسَبَبِ المشارَكةِ؛ إمَّا في سُكْنَى دارٍ، أو في عداوةِ النَّبِيِّ ﷺ، أو في عبادَةِ الأوثانِ، أو أنَّ المرادَ نُظَراؤُهم في النِّفاقِ، وهذه الإطلاقاتُ هي أقربُ إلى المجازِ مِنْهَا إلى الحقيقَة، والأظهَرُ أنَّها مجاز مرسَلٌ، بعلاقة التَّقييد والإطلاق؛ إذِ الأُخُوَّةُ: اشْتِرَاكٌ في أبٍ أو أُمٍّ، ثُمَّ تُستعمَلُ في مطلقِ الاشتِرَاكِ ويُلْغَى قيدُ الأبوَّةِ والأمومةِ.

ومال ابنُ عاشورٍ إلى الأوَّلِ، وأنَّ المرادَ أقاربهم في النَّسَبِ؛ إذْ كانُوا مِنَ الْخَزْرَجِ المؤمنينَ(2).

دِلَالَةُ الْحَالِ ﴿وَقَعَدُواْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾:

لَـيْـسَ الـنِّـفَـاقُ مُـخَـالَـفَـةً فِي الِاعْـتِـقَـادِ فَحَسْبُ، بَلْ لَهُ أَثَرٌ سَيِّءٌ فِي وَاقِعِ النَّاسِ

يجوزُ أن يكون قولُه تعالى: ﴿وَقَعَدُواْ﴾ جملةً معترضةً، والأوفق بالسِّياق أن تكون حاليَّةً، أفادَتْ حالَ المنافقينَ مِنَ القُعودِ عنِ الجِهادِ معَ المسلمِين، وجاءتِ الجُملةُ حاليَّةً لِتَعيينِ ما فيهِ العِصْيانُ والمخَالفَةُ، وهو تركُ الجهادِ، أي: أنَّهم أَتْبَعُوا قولَهم التَّحريضيَّ المَشِين، فعلًا أقبحَ، وهذا دالٌّ على أنَّ لِلنِّفاقِ أثرًا سيِّئًا في واقعِ النَّاسِ، وليس مقتصرًا على المخالفةِ في الاعتقادِ الباطنِ، ولذا وجبَ الحذرُ منهم أشدَّ الحذرِ.

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا قُتِلُواْ﴾:

اتِّخَاذُ الْمُنَافِقِينَ قَتْلَ إِخْوَانِهِمْ سَبِيلًا لِلطَّعْنِ فِي امْتِثَالِ الشَّرِيعَةِ

قرأ جمهورُ القرَّاءِ قولَ اللهِ تعالى: ﴿مَا قُتِلُواْ﴾ بتَخفيفِ التَّاءِ

---

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 6/6.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/164.

مِنَ القَتلِ، وقرأ هشامٌ عن ابن عامر بتَشديدِ التّاءِ مِنَ التَّقتيلِ[1]، لِلمُبالغةِ في القتلِ، وهو يُفيدُ معنَى تَفظيعِهم ما أصابَ إخوانَهُم مِنَ القَتلِ، طَعْنًا في طاعتِهِمُ النّبيَّ ﷺ.

بَرَاعَةُ أُسلُوبِ الْبَحْثِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾:

النَّقْضُ الْعَقْلِيُّ لِشُبُهَاتِ الْمُنَافِقِينَ

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾، فادَّعوا أنَّهم لو أطاعَهم إخوانُهم في ترك الخروجِ للجهادِ ما قُتلوا، فكذَّبهم اللّه سُبحانه في دعواهم بقوله: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، ووجهُ تكذيبِهم مع أنَّهم لم يدَّعوا نفيَ الموت، وإنَّما نفَوُا القتل؛ لأنَّ المعنى: أنَّ القتلَ ضربٌ من الموتِ، فإنْ أمكنَكم دفعهُ عن أنفسكم بفعلِ اختياريٍّ، فادفعوهُ عنها، وإن لم يُمكنهم ذلك؛ دلَّ على أنَّهم مبطلُونَ[2].

ففي هذه الآيةِ أسلوبُ البَحْثِ وهو الذي يُسمِّيه جماعةٌ: المذهبَ الكلاميَّ، ووجهُهُ: أنَّ قولهم: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾ قضيَّةٌ موجبَةٌ جزئيَّةٌ، تُنقضُ بالسَّالبةِ الكُلّيَّةِ، وذلك هو قول اللّه تعالى: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ فإنَّ الأمر للتَّعجيزِ المتضمِّنِ معْنَى النَّفْي[3].

دِلَالَةُ الْأَمْرِ ﴿قُلۡ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾:

تَبْكِيتُ الْمُنَافِقِينَ وَتَقْرِيعُهُمْ

فِعلُ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾ من قوله سُبحانَهُ: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ الموجَّهُ لِرسولِ اللّهِ ﷺ، يُرادُ به التَّبكيتُ الشَّديدُ والتَّقريعُ لجَماعةِ المنافقين، وفيه إظهارٌ بيِّنٌ يفضَحُ كَذِبَهُم[4].

(1) قراءة التّشديد لهشام، وقراءة التخفيف للباقين من العشرة، ينظر: محمد كريّم راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 72.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/427.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/442.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/111.

دِلالَـةُ الْفَاءِ فِي ﴿فَـادۡرَءُواْ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾:

الْـقُـعُـودُ عَـنِ الْجِهَادِ لَا يَمْنَعُ مِنَ الْمَوْتِ

الفاء في ﴿فَٱدۡرَءُواْ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ فصيحةٌ، وهي التي تُفصحُ عن شرطٍ مقدَّرٍ، والمعنى: إن كنتم تظنُّونَ أنَّكم بتَرْكِكُم الجهادَ قد دفعتُم الموتَ عن أنفسِكم؛ فادفعوا عن أنفسِكُم المَوْتَ الذي لا يُمكِنُكُم الفِرَارُ مِنْهُ مطلقًا، "والمَرْمَى في هذا النَّصِّ أنَّهم يَعْتَقِدُون أنَّهم نَجَوْا مِنَ المَوْتِ بقُعُودِهِم، فهَل يَعْتَقِدُون أنَّهُم نَجَوْا مِنْهُ نِهَائِيًّا! إنَّه مُلَاحِقهُم، ومَا دامَ مُلَاحِقُهُم وهُوَ حَقِيقَةٌ مقرَّرة يُثْبِتُهَا الحِسُّ الْمُسْتَمِرُّ، فَلِمَاذَا تَفِرُّون مِنَ القِتَالِ؟!"(1).

نُكْتَةُ حَذْفِ جَوَابِ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾:

خُلُوُّ الْمُنَافِقِينَ مِـنَ الْـحَـقَـائِـقِ الْإِيمَانِيَّةِ

(إِنْ) في قولِ اللّٰه تَعَالَى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ شرطيَّةٌ، وجوابُ الشّرطِ محذوفٌ، لِدِلالَةِ ما قبلَهُ عليه؛ ومتعلَّق الصِّدْقِ محذوفٌ، والتَّقدير: إِنْ كُنْتُم صَادِقِين في أنَّ الموتَ يُغْنِي مِنْهُ الحَذَرُ(2).

وفي هذِ الجملة إشعارٌ بِقَضيَّةٍ عَقَديّةٍ مُهِمّةٍ جدًّا؛ وهي أنَّ الإنسانَ أيًّا كانتْ مِلَّته، أو نِحْلَتُهُ، أو قُدْرتُه، مَحكومٌ عليهِ بالموتِ بقدَرِ اللّٰهِ وَحدَهُ، لا يَدفعُه عنهُ الانخذالُ عَنِ القتالِ، أو القُعودُ عَنِ الأسبابِ الَّتي تُوهِمُ ارتدادَ الموتِ عنهُ؛ فإنَّ أسبابَ الموتِ في إمكانِ المُدافَعَةِ بالحَالِ وامْتناعِها سَواءٌ. وكَيْفَ يُمكنُ للمُنافِقِ أنْ يُدرِكَ هذه الحقيقةَ الإيمانيَّةَ الجَليلة، وقلبُهُ خَالي الوِفاضِ منْها؟!

ثمّ إنّ قولَه تَعالَى: ﴿فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ في سِياقِ الحَدَثِ الجَلَلِ، فيهِ ما فيهِ مِنَ الاسْتهزاءِ والتَّهكُّمِ بالمنافقين، فإنْ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1499.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/120.

كانَ ذلكَ كذلكَ، فَهَلُمُّوا إنْ كنتُم رِجالًا دَفّاعينَ لأسْبابِ الموتِ، فادْفعُوا جميعَ أسبابِهِ، حتّى لا تَموتُوا، كما دَفعْتُم في زَعمِكمْ هذا السَّببَ الخاصَّ[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(قعَدَ) و(جلَسَ):

إنَّ في الفعلِ (قعَدَ) معنًى لَيْسَ في (جلَسَ)، أَلَا ترى أنَّنا نقولُ: قامَ ثمّ قَعَدَ، وقَعَدَتِ المرأةُ عَنِ الحَيضِ، ثمّ تقولُ: كانَ مُضْطَجِعاً فَجَلَسَ، فيكونُ (الفَرْقُ الأوّلُ بينَهما) أنّ: القُعودَ عَنْ قِيامٍ، والجُلوسَ عَنْ حالةٍ هيَ دُونَ الجُلوسِ[2]، فأصْلُ الجلسِ: الارْتفاعُ في الشَّيْءِ[3]، فالجلوسُ غيرُ القُعُودِ؛ فإنَّ الجُلوسَ: هو الانْتقالُ مِنْ سُفْلٍ إلى عُلوٍّ، والقُعُودُ: هو الانْتقالُ مِنْ عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، يُقالُ لِمَن هو نائمٌ أوْ ساجِدٌ: اجْلِس، وعلى الثّاني، يُقالُ لِمَنْ هو قائمٌ: اقْعُدْ[4]، يؤيّدُ معنَى (الجُلوسِ) ما ورد في حديثِ رسولِ اللّهِ ﷺ: "أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بأكبَرِ الكَبَائرِ (ثلاثاً)؟ قالوا: بلَى يا رسولَ اللّهِ. قالَ: الإشراكُ باللّهِ، وعُقُوقُ الوَالِدَينِ، وجَلَسَ وكانَ متّكئاً، فقالَ: أَلَا وقولُ الزُّورِ. فما زالَ يُكرِّرُها حتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ"[5]؛ ففي قولِه: وجَلسَ وكان متّكئاً، تأييدٌ للفَرْقِ بَينَ اللّفظتَينِ، وفي الحديثِ الصَّحيحِ: "كانَ النّبيُّ ﷺ يخْطُبُ خُطْبتَيْنِ يَقعُدُ بينَهُما"[6]، والفَرْقُ الثّاني بَينَ الكلمتَيْنِ: أنّ القُعودَ فيه لُبْثٌ وطُولُ مُكْثٍ، بخلافِ الجُلوسِ، ولهذا يُقالُ: قَواعِدُ البَيْتِ، ولا يُقالُ: جَوالسُهُ[7]، قالَ تعالَى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: 127]، وقالَ سبحانَه: ﴿وَٱلۡقَوَاعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ [النور: 60]، فيُقالُ للمرأةِ الكبيرةِ في السِّنِّ الّتي قَعدتْ عَنِ الحَيضِ والتَّزوُّجِ: قاعِدٌ، وجمعُها قواعدُ؛ لأنّها غالبًا تكون قَعيدَةَ البَيتِ لا تبرَحُهُ، ولا تَتحوَّلُ عنهُ، بينَما الجُلوسُ يدُلُّ على سُرعةِ التّحوُّلِ والتّغيُّرِ؛ قالَ تعالَى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ [المجادلة: 11].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/478 - 479، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/597 - 598.

(2) ابن فارس، الصّاحبيّ، ص: 96، والسّيوطيّ، المزهر: 1/404.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جلس).

(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: 1/128، وينظر: الكفويّ، الكلّيات، ص: 526.

(5) البخاري، الحديث رقم: (2654) و(5976)، ومسلم، الحديث رقم: (87).

(6) البخاري، الحديث رقم: (886).

(7) الكفويّ، الكلِّيّات، ص: 526، وهنريكوس لامنس، الفرائد: 1/57.

وبهذا الإدراك للفَرقينِ الجَليَّينِ بَينَ (القعودِ) و(الجُلوسِ) تتضّحُ لنا بَلاغَةُ القرآنِ الكريمِ السّامقة، في اسْتخدام البيانِ الإلهيِّ لكلمةِ (قَعَدُواْ) بَدلَ (جَلسُواْ)؛ فحال المنافقينَ أوّلاً: هو القُعودُ الحِسِّيُّ عن الانْدفاعِ لطاعةِ اللّهِ ورسولِهِ، فلا تُعلَمُ لهمْ هِمَّةٌ في الدِّينِ، الّتي هي أَقربُ للقائمِينَ مِنَ القاعدِينَ. وثانياً: قدْ طالَ لُبْثُهمْ ومُكْثُهمْ في انخِذَالهم عن الجِهادِ في سبيلِ اللّه، هذا الانخذالُ القائمُ في قُلوبهِمْ بالكُفر، الَّذي صَدَأتْ به قلوبُهمْ، فأقْعَدهُمْ عَن كُلِّ خَيْر، حَتّى أنّهم لامُوا ضُرباءَهمْ مِنَ المنافقينَ، أنْ لَوْ قَعَدواْ مِثلَهمْ عَنِ الجِهادِ ما قُتِلواْ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾.

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١﴾ [آل عمران: 169 - 171]

مُناسَبَةُ الآيَاتِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين أهوال يوم أحد، وما أعدّ الله للشّهداء عنده من نعيم وكرامة

لَمّا بَيّنَ اللّه سبحانَهُ وتَعالَى أنَّ ما جَرَى على المؤمنِيَن يومَ أُحدٍ، كانَ امْتحانًا، ليتَميّزَ المؤمنُ مِنَ المنافِقِ، والكاذِبُ مِنَ الصّادقِ؛ بيّنَ هَهُنا أنَّ مَن لم يَنهزِمْ وقُتِلَ؛ فلَهُ هذه الكَرامةُ والنِّعمةُ، وأنّ مِثْلَ هذا ممّا يَتنافَسُ فيهِ المتنافِسونَ، لا ممّا يُخافُ ويُحذَرُ، كما قالَ مَنْ حَكَى اللّه عنهُم: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ وقالُوا: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾؛ فجاءَ قولُه تَعالَى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ اسْتِئنافاً لِبيانِ هذا المعْنَى الجَليل، وإظهاراً لِتلكُمُ القِيَمِ الرَّبانيّة، الّتي نَطَقتْ بها تِلْكُمُ الآياتُ القُرآنيّة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾: حَسِبَه كذا، كَنَعِمَ في لُغَتَيه؛ أيْ: (بفتْحِ العَيْنِ وكَسرِها)، والكَسرُ أَجْوَدُ اللُّغتَيْنِ، مَحْسَبَةً، ومَحْسِبةً، وحِسْبانًا؛ بالكَسرِ: ظنَّهُ، وما كانَ في حِسْباني (كذا)، ولا تقُلْ: في حِسابي[2]، وقال الفرّاء: حسِبت الشّيء: ظننته أحسَبه وأحسِبه، والكسر أجود اللّغتين، وقرئ قول اللّه تعالى: (وَلَا تَحْسِبَنَّ)، وليس في باب السّالم حرف على فعل يفعِل بكسر العين في الماضي والغابر، غير حسِب يحْسِبُ، ونعِم ينعِمُ[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/598، والشّوكاني، فتح القدير: 1/647.
(2) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (حسب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسب).

2) ﴿أَحۡيَآءٌ﴾: أيْ: أَحياءٌ حَياةً مُحقّقةً، يتَنعَّمونَ[1]؛ وقدْ ورَدَت السُّنّةُ المطهَّرةُ بأنَّ أرواحَهُمْ في أجْوافِ طُيورٍ خُضْر، وأنّهمْ في الجنَّة يُرزَقونَ ويَأكُلونَ ويَتمتَّعون[2]، وقيلَ: "لأنَّ الشّهيدَ لا يَبْلَى في القَبْرِ، ولا تأكُلُهُ الأرْضُ"[3].

3) ﴿فَرِحِينَ﴾: الفَرحُ: السُّرورُ؛ وهو ضدّ الحزن، "ويقال: فرح يفرح فرحا، فهو فرح وفرحان وفارح من قوم فراحى وفرحين، والفرحة: المسرّة، ومن أمثالهم: التّرحة تعقب الفرحة، والرّجل المفرح: المثقل بالدّين، أفرح الرّجل يفرح إفراحا فهو مفرح... وأفرحني الشّيء مثل فدحني، فإن كانت هذه مستعملة فهي من الأضداد"[4]، والمعنى في الآية، أيْ: مسرُورينَ بما ساقَهُ اللّه إليهِم مِنَ الكَرامةِ بالشَّهادةِ، وما صارُواْ إليهِ مِنْ رزقِ اللّه سُبحانَهُ وتَعالَى[5].

4) ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾: أصلُهُ مِنَ البَشَرة؛ لأنَّ الإنسانَ إذا فَرحَ ظَهرَ أثَرُ السُّرورِ في بَشَرةِ وجهِه[6]، ويقال: اسۡتَبۡشَرَ" فلان بالخير: إذا أيقن به، قال اللّه تعالى: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾، وتَبَاشَرَ القوم: بشَّر بعضهم بعضًا"[7].

5) ﴿يَلۡحَقُواْ﴾: لحِق به: أدركه في زمان أو مكان.. قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، ويقال: (عاد يَلْحق باللّطيف الخبير): كناية عن الشّيخوخة، كما يقال: (لا يُلْحق غُبارُه): فهو سابق، متقدِّم على غيره[8]، والمعنى في الآية، أيْ: مِنْ إخوانِهِمُ المجاهِدِين، الَّذينَ لم يُقْتَلُوا إذْ ذاكَ، ولم يَنالُوا الشَّهادةَ بَعْدُ.

6) ﴿وَفَضۡلٖ﴾: أيْ: بُكُلِّ ما يُنعِمُ اللّه بِهِ على عبادِهِ؛ ومِنْها: الثَّوابُ، والجَنَّةُ. والفَضْلُ: الزِّيادةُ في كُلِّ خَيرٍ ونِعْمةٍ[9]، ويُمكِنُ أنْ يُضَمَّ إليهِ الاسْتبشارُ بسلامَةِ الَّذينَ لم يَلْحَقُوا

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/34، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/172.

(2) قال ﷺ: "إنّ أرواح الشُّهداء في أجوافَ طَيْرٍ خُضْر تَسرح في الجَنّة، تأكلُ من ثمار الجَنّة، وتشربُ من ألبانِها، وتأْوي باللّيل إلى قناديلَ من نورٍ مُعلّقةٍ بالعَرْش"، أخرجه مسلمُ عن عبد الله بن مسعود ﷺ، حديث رقم: (1887).

(3) ابن حجر، فتح الباري: 3/279، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/134.

(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (فرح).

(5) الرّازي، مختار الصّحاح: (فَرِحَ)، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/176.

(6) الواحديّ، الوسيط: 1/521، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (بَشَرَ).

(7) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (اسْتَبْشَرَ).

(8) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (فَرِحَ).

(9) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/648.

بهم[1]، وفي الحديث عن النّبيّ ﷺ: "لا تبيعوا الذّهب بالذّهب إلّا مثلًا بمثل، ولا الفضّة بالفضّة إلا مثلًا بمثل؛ والفضل ربا"[2]، وفي حديث آخر: "نهى عن بيع فضل الماء"[3].

7) ﴿لَا يُضِيعُ﴾: يُفسِّرُه قَوْلُ اللّهِ تَعالَى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ۝١٠٩﴾ [هود: 109]، وقولُهُ سُبحانَه: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطُّور: 21]، والمعنى في الآية: "كما أنّه تعالى لا يضيع أجر المجاهدين والشّهداء، كذلك لا يضيع أجر المؤمنين"[4].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخاطِبُ اللّه ﷻ رسولَه ﷺ وكُلَّ النّاس، أن لا يَظُنَّنَّ ظانٌّ منهُم، أو يَخطُرَنَّ ببالِهِ مجرَّدُ خاطِر، أنّ الّذين قُتِلوا في جهادِ أعداءِ الدِّين، قاصدِينَ بذلكَ إعلاءَ كَلمةِ اللّه، فَقدُوا حيَاتَهم الدُّنْيا، ولَذَّتَها، والتَّمتُّعَ بزهْرَتِها، بَلْ قدْ حَصَلَ لهم أعظمُ ممّا يَتنافسُ فيه المتَنافسون، فَهم أحياءٌ في دارِ كرامةِ اللّه، يُغْدَقُ عليهم مِنْ أنواعِ النَّعيم ولَذائِذِه، مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلبِ بَشَر. ويُبشِّرُ بعضُهُمْ بَعضًا، بوُصولِ إخوانِهمُ الَّذينَ لم يلحَقُوا بهِم، وأنّهم سَينالُونَ ما نَالُوا، ويُهنِّئون بعضَهم بأعْظَمَ مُهَنًّا به؛ وهو نعمَةُ ربِّهم وفضْلِهِ وإحْسانِه، واللّه سُبحانَهُ وتعالَى يُنمِّي أَجرَهم، ويَزيدُهم مِنْ فَضله، ممَّا لا يَصلُ إليه سَعيُهم، وفي ذلك كُلِّه: إِثْباتُ نَعيمِ البَرْزَخ، وأنّ الشُّهداءَ في أَعْلى مكانٍ عندَ ربّهم، وفيه تَلاقِي أَرْواحِ أهلِ الخَيْر، وزِيارةِ بعضِهم بَعضًا[5].

الـشّــهــادة في سـبـيـل الـلـه، ليست موتًا ولا فـوتًـا، ولكنّها حــيــاةٌ أبــقــى، ونعيمٌ أرقى

(1) العكبريّ، التبيان. 1/157:
(2) البخاري، الحديث رقم: (2175)، ومسلم، الحديث رقم: (1584).
(3) مسلم، الحديث رقم: (1565).
(4) الخازن، لباب التّأويل: 1/320.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/176 - 177، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 117 - 118.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَاۢ﴾:

هَـوَانُ الْمُنَافِقِينَ عَلَى اللهِ تَعَالَى

أَعْرَضَ بيانُ اللّهِ تعالى عن خِطابِ أولئكَ المنافقين لِقلّةِ أهليَّتِهم، وعَدَمِ أهميَّتِهم، وأَقبلَ على خطابِ مَنْ يَستأهِلُ المعرفةَ؛ فقالَ: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَاۢ﴾، وفي هذا إبطالٌ لِمَا تلهَّفَ منْهُ المنافقُونَ على إضاعةِ قَتْلاهُم.

وقولُه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ معطوفٌ علَى ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾، والحِسْبانُ: الظّنُّ، فهو نَهيٌ عنْ أنْ يُظنَّ أنّهم أمواتٌ، وبالأَحْرَى يكونُ نهيًا عنِ الجزْمِ بأنّهم أمواتٌ[1].

والنّونُ في ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ نُونُ التَّوكيدِ الثَّقيلةُ، وهي دالَّةٌ علَى تأكيدِ النَّهْيِ.

والخطابُ في ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ يجوزُ أن يكون للنّبيِّ ﷺ تعليمًا له، وليُعَلِّمَ المسلمينَ تبعًا، ويجوزُ أنْ يكونَ خارجًا عن أصلِهِ في إرادةِ المعيَّنِ؛ قصدًا لإرادةِ العمُومِ[2].

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُتِلُواْ﴾ و(قُتِّلُوا):

كَـثْرَةُ الـشُّهَدَاءِ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ

الفعل ﴿قُتِلُواْ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَاۢ﴾؛ قُرِئَ بتَخْفيفِ التّاءِ، وقُرِئَ بتشديدِهَا (قُتِّلُوا)؛ أيْ: قُتِّلُوا قتلًا كثيرًا، وهو لبيانِ كَثرةِ المَقْتُولِينَ[3].

دِلَالَةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَاۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾:

عَـظَـمَـةُ حَـيَـاةِ الـشُّـهَـدَاءِ وَكَمَالُهَا

بينَ: ﴿أَمۡوَٰتَاۢ﴾ و﴿أَحۡيَآءٌ﴾ من قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَاۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ طِباقُ إيجابٍ، وفيه إيماءٌ إلى

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/165.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/165.

(3) قراءة التّشديد لابن عامر، وقراءة التّخفيف للجمهور، ينظر: محمد كريّم راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 72.

كمالِ حياتِهم؛ إذْ إنَّ قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢا﴾ يُنبئُ عن حياتِهم، فلمَّا لم يُكْتَفَ بالمفهومِ حتَّى صُرِّحَ به في قوله: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾؛ عُلِمَ بذلكَ كمالُ حياتِهم وعِظَمُهَا.

وَرُفِعَ ﴿أَحۡيَآءٌ﴾ على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، يقْتَضِي اسميَّةَ هذه الجملةِ، وفي التَّعبير بِهَا دِلالةٌ على ديمومةِ هذه الحياةِ الكاملَة[1].

وَ ﴿بَلۡ﴾ للإضرابِ عن قولِه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾؛ فلذلكَ وقعَ ما بعدَها جُملة غَير مُفرَدٍ؛ لأنّها أَضْربتْ عن حُكمِ الجُملة، ولم تُضربْ عن مُفردٍ مِنْهَا؛ فالوَجهُ في الجملةِ الّتي بعدَها أنْ تكونَ اسْميَّةً مِنَ المبتدأِ المحذُوفِ والخبرِ الظّاهِر.

وقد أثبتَ القرآنُ للمُجاهدينَ مَوْتًا ظاهِرًا بقولِه: ﴿قُتِلُواْ﴾، ونَفَى عنهمُ الموتَ الحقيقيَّ، بقولِه: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾، فعلمنا أنّهم وإنْ كانوا أمواتَ الأجسامِ، فَهُم أحياءُ الأرواحِ، حياةً زائدةً على حقيقة بقاءِ الأَرْواح.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْأَحْسَنِ (الرَّبّ) وَإِضَافَتِهِ إِلَى الضَّمِيرِ الْعَائِدِ عَلَى الشُّهَدَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾:

إِكْرَامُ اللهِ تَعَالَى لِلشُّهَدَاءِ وَتَمَامُ جُودِهِ وَإِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ

الظَّرفُ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ من قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ متعلّقٌ بقولِه: ﴿أَحۡيَآءٌ﴾.

ويجوزُ أنْ يَكُونَ متعلِّقًا بقولِه: ﴿يُرۡزَقُونَ﴾؛ ويكون قولُه: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ ظرفًا مقدَّمًا، وإنَّما قُدِّمَ للاهتمامِ بِهَذا الرِّزقِ، وما بَلَغوهُ مِنَ التَّقرُّبِ والزُّلْفَى إلى اللهِ تعالَى.

وَذِكرُ الاسم الأحسن (الرَّبّ) في قولِه: ﴿رَبِّهِمۡ﴾، تَعرُّضٌ لعنوانِ الرُّبوبيّةِ المُنْبِئَةِ عنِ التّربية، والتّبليغِ إلى الكمال[2].

وفي إضافة اسم الرَّبِّ إلى الضَّميرِ الرَّاجعِ على الشُّهداءِ تعظيمٌ لهم وتفخيمٌ لشأنِهم وزيادةُ كَرَامَةٍ.

---

(1) صافي، الجدول: 4/371.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 5/121.

وقولُهُ ﴿أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾: يَقتَضِي التَّنعُّمَ بالأكلِ والشُّرب، والتَّمتُّعَ باللَّذائذ، الّتي تَدُلُّ على أنَّهمْ أحياءٌ حياةً حقيقيَّةً، وزِيدَ في بيانِ هذا المعْنَى بقولِه: ﴿يُرۡزَقُونَ﴾[1].

وقولُهُ ﴿فَرِحِينَ﴾: حالٌ مِنْ ضميرِ ﴿يُرۡزَقُونَ﴾، وفيه تأكيدُ إكرامِهم بهذا الرِّزقِ العظيم مِنَ اللهِ سُبحانَهُ وتَعالَى[2]، و﴿فَرِحِينَ﴾: جمعُ فَرِحٍ، وهو صفةٌ مُشبّهةٌ، مُشتقّةٌ مِنْ فَرِحَ يَفرَحُ[3]، وهو دالٌّ على ثُبُوتِ الفرَحِ لهم ولُزُومِه واستمرارِهم عليهِ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ (مَا) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾:

مَا يُؤْتِيهِ الْعَظِيمُ عَظِيمٌ

(مَا) في قَوْلِه تَعَالَى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ اسمٌ موصولٌ، وفي التَّعبير بِهِ إيماءٌ إلى تفخيمِ الذي أُوتُوه من النَّعيم؛ إذْ إنَّ في الاسْمِ المَوْصُولِ إبهامًا يُرشِّحُهُ لهذه الدِّلالَةِ.

وقوَّى دِلالةَ التَّعظيمِ إسنادُ الإتيانِ إلى الاسْمِ الأحسَنِ (اللّه) الجامعِ لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، وما يُؤتِيهِ العظيمُ عظيمٌ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ (يَسۡتَبۡشِرُونَ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾:

تَجَدُّدُ الخَيْرَاتِ وَالبِشَارَاتِ لِلشُّهَدَاءِ

﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ﴾: يُسَرُّونَ بالبِشارةِ، والواوُ حاليَّةٌ، أي: وهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، والاسْتبشارُ: حصولُ البِشارةِ، فالسِّينُ والتّاءُ فيه، كَما هما في قولِه تعالَى: ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ﴾ [التّغابن: 6].

ويجوزُ أن تكون الواوُ عاطفةً؛ عَطفَتْ جُملةَ ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ على

(1) وهو قولُ الجمهور، وذهبَ جَمْعٌ إلى أنَّها حياةٌ مجازيّةٌ، ولا مُوجِبَ للمصير إلى المجاز، خاصّةً أنّ في الصّحيح من السّنة المطهّرة ما يقوّي الحقيقة، ينظر: السَّمين، الدّر المصون: 3/484، وابن عادل، اللُّباب: 6/50.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/166.

(3) صافي، الجدول: 4/374.

كلمةِ ﴿فَرِحِينَ﴾[1]، وإنَّما جاز العطفُ؛ لأنّ الصّفة المشتّقة تشبهُ المضارِعَ، إذْ قوله: ﴿فَرِحِينَ﴾ بمنزلةِ (يَفْرَحُونَ).

وفي التَّعبير عن الِاسْتِبْشَارِ بالفعل المضارِعِ إيماءٌ إلى تجدُّدِ النِّعَمِ والملذَّاتِ التي تُدْخِلُ عليهم السُّرورَ.

وقدْ جمعَ اللهُ لهم بيْنَ المَسرَّةِ بأنفُسِهم، والمَسَرَّةِ بمَنْ بقيَ مِنْ إخوانِهم؛ لأنّ في بقائِهم نِكايةً لِأعدائِهم، وهم معَ حُصولِ فَضلِ الشَّهادةِ لهم على أيْدِي الأعداء، يَتمنَّوْنَ هلاكَ أعدائِهم؛ لأنَّ في هلاكِهم تحقيقَ أُمنيةٍ أُخْرى لهم، هي أمنيةُ نَصرِ الدِّين.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ وَصِلَتِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾:

مَـنْ صَـدَقَ فِي طَلَبِ الشَّهَادَةِ بَلَّغَهُ اللهُ تَعَالَى مَنْزِلَتَهَا

جاء التَّعبير في قوله تعالى: (بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ) دون (يستبشرون بإخوانهم)؛ لِمَا فيه من المبالغَةِ في مدحِ الذين من خلفِهِمْ، وأنَّ لهم رغبة في الاستشهاد في سبيل الله تعالى وأنَّهم سالكونَ طريقَ ذلك، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ مآلَهُمْ كمآلِ الشُّهداءِ وإن لم يكن قتلهم في ساحة الجهادِ، ويقوِّيه قول النبي ﷺ: "مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ"[2]، ولا أدلَّ على صِدْقِ طلَبِهم من مباشَرَتِهم الجهادَ في سبيل الله تعالى ونصرةً لدينِه وشرعِه.

وقولُهُ: ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾: تمثيلٌ يُرادُ به: مِنْ بَعدِهم، والتَّقديرُ: ويَسْتَبْشِرونَ بالّذينَ لم يَصيرُوا إلى الدّارِ الآخرةِ مِنْ رفاقِهِم، بِأَمْنِهم وانْتفاءِ ما يُحزِنُهم.

(1) العكبري، التبيان: 1/157.
(2) مسلم، الحديث رقم: (1909).

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

الْأَعْـــمَـــالُ الصَّالِحَةُ بَاعِثَةٌ عَلَى الِاسْتِبْشَارِ

فُصِلَ قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لما بينَهُما من كمالِ الاتِّصالِ؛ إذْ قولُهُ: ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ بدلُ اشْتمالٍ مُبيِّنٌ لِكَونِ اسْتبشارِهم بحالِ إخوانِهم لا بِذواتِهم[1].

ويَجُوزُ أَن يَكُونَ الفصلُ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ؛ وذلك أنَّ قولَ اللّهِ تعَالَى: ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ يبعث في نفس المتلقِّي سؤالًا، وهو: ما وجهُ اسْتِبْشَارِهم بِهِمْ؟ فجاء الجواب: ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠﴾.

والمعنَى المُرادُ مِنْ عدمِ الخَوْفِ والحُزْنِ بيانُ دوامِ انْتفائِهما، لا بيانُ انْتفاءِ دَوامِهما، كمَا يُمكِنُ أنْ يُوهِمَهُ كونُ الخَبَرِ في الجُملةِ الثّانيةِ مُضارِعًا؛ وهو ﴿يَحۡزَنُونَ﴾؛ فإنّ النّفيَ وإنْ دَخَلَ على نَفْسِ المضارِعِ يُفيدُ الدّوامَ والاسْتمرارَ بحسبِ المقَامِ[2].

و(أنْ) في ﴿أَلَّا﴾ هي المُخَفّفةُ من (أنَّ)، واسْمُها ضميرُ الشَّأنِ محذوفًا، وخبرُها الجُملةُ المَنفيّةُ؛ أيْ: يسْتَبشِرون بما تبيّنَ لهم مِنْ حُسنِ حالِ إخوانِهُمُ الّذينَ ترَكوهُم، وهو أنّهم عندَ قتْلِهم يَفوزونَ بحياةٍ أبَديَّة، لا يُكدِّرُها خَوْفٌ مِنْ وُقوعِ مَحذور، ولا حُزنٌ على فَواتِ مَطلوب، ولذلكَ قدّم بيانُ اللّهِ الخَوْفَ على الحُزنِ[3].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ نَفْيِ الْخَوْفِ عَلَى نَفْيِ الْحُزْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾:

الْـخَــوْفُ أَكْــثَـرُ وُجُودًا فِي الْوَاقِعِ مِنَ الْحُزْنِ

قُدِّمَ نفيُ الخوفِ على نَفْيِ الحُزْنِ في قوله سُبْحَانه: ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ مع أنَّ سببَ الخَوْفِ مُستقبلٌ، وسببَ الحُزْنِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/166.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/600.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/599.

ماضٍ، فكان مُقْتَضَى التَّرْتِيبِ الزَّمَنِيِّ تقديمَ نفيِ الحُزْنِ على نَفْيِ الخوفِ، والنُّكتةُ في ذلك: مراعاةُ الأكثرِ وُجُودًا؛ فإنَّ الخوفَ مِمَّا هو آتٍ أكثرُ مِنَ الحُزْنِ على ما هو فائتٌ.

دِلَالَةُ تَقَدُّمِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْمُسْنَدِ الْفِعْلِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾:

مِـنْ كَـمَـالِ النَّعِيمِ دَفْعُ الْمُنَغِّصَاتِ

في تقديم الضَّميرِ ﴿هُمۡ﴾ إشارةٌ إلى القَصْرِ والاختصاصِ، فَفِيهِ: قَصْرُ انتفاءِ الحُزْنِ عَنْهُم، أمَّا غيرُهم فيحزنُونَ، فَإِنْ أُريدَ به عمومُ المسلمِينَ فالقصرُ حقيقيٌّ؛ وَإِن أُريدَ بمَنْ خَلْفَهُم المُجَاهِدُون في سبيلِ اللّهِ تعالى؛ كان القصرُ إِضَافيًّا.

ومجيءُ خبرِ المبتدأ ﴿هُمۡ﴾ جملةً فعليَّةً يقتضي تَكرارَ الإسنادِ؛ تأكيدًا لِدَوامِ نفيِ الحُزْنِ عن إخوانِهم الذين مِن خَلْفِهِم؛ فَقَدْ أُسْنِدَ الحُزْنُ إلى ضَميرِ الذين مِن بعدِهِم (هُمْ) - وهو مِن إسنادِ الخَبَرِ إلى المبتدأ -، وأُسْنِدَ الحُزْنُ إلى وَاوِ الْجَمَاعَةِ الرَّاجعةِ إِلَيْهِمْ، وهو مِن إسنادِ الفعلِ إلى فاعِلِه، فَلَمَّا تكرَّر الإسنادُ تأكَّدَ المَعْنَى وقَوِيَ.

فَائِدَةُ تَكْرَارِ الْفِعْلِ ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾:

لَـيْـسَ لِلْعِبَادِ مَعْرِفَةٌ بِالْغَيْبِ إِلَّا مَا عَلَّمَهُمُ اللهُ تَعَالَى إِيَّاهُ

في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾: الضَّميرُ في ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ يجوزُ أن يعودَ إلى الّذينَ لم يَلحقُوا بهم؛ فتكونُ الجملةُ حالًا مِنَ الّذين لم يَلحقُوا بهم؛ أيْ: لا خَوْفٌ عليهم ولا حُزنٌ حالَ كونِهم مُستبشِرِينَ بنعمةِ اللّه تعالى.

ويجُوزُ أَنْ تكونَ تَكْرِيرًا لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم﴾ والضَّميرُ في ﴿بِهِم﴾ للّذينَ قُتِلُوا في سَبيلِ اللّه تعالَى.

وفائدةُ التَّكريرُ تحقيقُ معنى البِشارةِ؛ كقولِه تعالَى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ [القصص: 83]، فكرَّرَ فعل (أَغْوَيْنَا)

تحقيقًا لمعنى الغوَايَة اللَّاحقَة بِهِمْ، فقدْ زَادَ الفعلُ ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ المَعْنَى جَلاءً، وأكَّدَهُ في نُفوسِ المتلقِّين للخطاب القرآنيِّ، ولا سيَّمَا أنَّ الكلامَ عن قَضيّةٍ غَيبيَّةٍ ليس لِلنَّاسِ مَعْرِفَةٌ بِهَا إلَّا ما أَعْلَمَهُم اللّه تعالى بِهِ.

فالاسْتبشارُ الأوّلُ يُنْبِىءُ عن عَدمِ الخَوْفِ والحُزْن، والاسْتبشارُ الثّاني يَعضُدُ الأوّلَ، ويَزيدُهُ قوّةً بما يُقارِنُهُ مِنْ نِعمةٍ عِظيمةٍ لا يُقَادَرُ قدْرُها، وهي مَزيدُ النِّعمةِ والفَضلِ منَ اللّه تعالَى[1].

ويجُوزُ أن يكونَ الاستبْشَارُ الأوّلُ مُتعلّقًا بحالِ إخوانِهم، وهذا بحالِ أنْفُسِهم بيانًا لبعضِ ما أُجْمِلَ في قولِه تعالَى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾[2]، ولذَا جَاءَتِ الْجُمْلَةُ مفصولةً عمَّا قبلَهَا؛ لِمَا بَيْنَهُما من كَمَالِ الاتِّصَال.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ (نِعْمَةٍ) وَ(فَضْلٍ) وَسِرُّ ذِكْرِ الْخَاصِّ بَعْدَ الْعَامِّ:

في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾: ﴿بِنِعۡمَةٖ﴾: جارٌّ ومجرورٌ متعلّقٌ بـ ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، ولَم يَردْ (وفضلٍ من اللّهِ) اكتفاءً بورودِهِ من قبلُ.

النَّكِرَةُ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ لَا تَعُمُّ إِلَّا فِي مَقَامِ الِامْتِنَانِ

وأُضيفَتِ النِّعْمَةُ والفضلُ إلى اللّهِ تعالى؛ إذْ هُوَ سبحانَهُ وتعالَى خالقُ كلِّ نعمة، ومِنْهُ كلُّ فَضْل، وورَدَ كلاهُما نكرةً، ليعُمَّ كلَّ نعمةٍ وكلَّ فضلٍ دونَ حَصْرٍ أو قَصْر، ووَجْهُ العمُومِ مع أنَّهما في سياقِ الإثباتِ: أنَّهما واردَانِ في سِيَاقِ الامتِنَانِ، والنَّكرةُ مَعَهَا تَعُمُّ[3].

والبِشارةُ في ذاتِها نعمةٌ من اللّهِ وفَضْل، ولذا جاءتِ الباءُ في ﴿بِنِعۡمَةٖ﴾ لِتُعْطِيَ هذا المعنَى، معَ التَّوسعةِ في كونِ النِّعمةِ سببًا لحصولِ تلكَ البِشَارة.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/600.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/600.
(3) أحمد العراقي، الغيث الهامع، ص: 292.

وذِكْرُ أحدِ أفرادِ العامِّ بعدَهُ؛ يُميِّزُهُ أكملَ تمييزٍ، ويُلْبِسُهُ حُلَّةً أَجْملَ وأَكْمل، ومِنْهُ ذِكْرُ الفَضْلِ بعدَ النِّعمَةِ في قولِه تَعالَى: ﴿بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾؛ لِتأكيدِ حُصولِها، إذِ النِّعمةُ مِنَ اللّهِ تعالَى عامّةٌ، والفَضلُ مِنْهُ سُبحانَهُ أَحدُ أفرادِها، وقَدْ خُصَّ بالذِّكرِ لمزيدِ العنايَةِ بهِ وإبرازًا لأَهَميَّتِه.

والفَضلُ: الزِّيادةُ، فهؤلاءِ الشُّهداءُ مَعَ ما قدّموهُ مِنْ بَذْلِ أرواحِهِمْ رَخيصةً في سبيلِ اللّه تعالَى، معَ كَونِها أَغْلَى ما يَمْلِكون؛ يُناسِبُه ويُقابلُه الفَضلُ العظيمُ مِنَ اللّه سُبحانَهُ.

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الإِيمَانُ هُوَ مَنَاطُ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

(إنَّ) من قولِه تعالَى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قرأهَا العشَرَةُ إلَّا الْكِسَائِيَّ بفَتْحِ (أَنَّ)[1] عَلَى أنَّهَا عَطْفٌ علَى ﴿وَفَضۡلٖ﴾، فَهُوَ مُنتظِمٌ مَعَهُ في سِلكِ الْمُسْتَبْشَرِ به.

وَانْفَرَدَ الكسائيُّ بِكَسْرِ الهَمْزَةِ (وَإِنَّ اللّه) عَلَى أنّهُ كلامٌ مستأنَفٌ، وهوَ تَذْيِيلٌ جَارٍ مَجْرَى المَثَلِ، لاستقلالِهِ بالإِفَادةِ وعدَمِ افْتِقَارِهِ إلَى مَا قَبْلَهُ في فَهْمِ أصلِ المُرَادِ مِنْهُ، وقد سِيقَتْ تأكيدًا لِمَضْمُونِ الجملةِ قبلَهَا وتحقيقًا لإنعامِ اللّه تعالى وإفضالِهِ على أهلِ الإيمَانِ.

وذُكِرَ المؤمنونَ في قولِه: ﴿أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وَأُرِيدَ بِهِم: مَنْ جاءَ السِّياقُ بشَأنِهِم؛ وهُمُ الشُّهداءُ، ففيه مجازٌ مرسَلٌ، علاقتُه العموميَّةُ.

والتَّعبيرُ عَنْهُم بوصْفِ الإيمَانِ؛ إيذانٌ بسُمُوِّ رُتبَةِ الإِيمَانِ، وكونِه مَناطًا لِمَا نَالوهُ مِنَ السّعادة؛ وأمّا كافَّةُ أهلِ الإيمانِ مِنَ الشُّهداءِ وغَيرِهِمْ، فقَدْ ذُكرتْ تَوْفيةُ أجورِهم على إيمانِهِمْ، وعُدَّتْ مِنْ جُملةِ ما يَسْتَبشِرُ بِهِ الشُّهداءُ بحُكمِ الأُخُوّةِ في الدِّين.

---

(1) ابن خالويه، الحُجّة، ص: 116، والبنَّاء، إتحاف فضلاء البشر، ص: 232.

دِلَالَةُ الْعَطْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

الْمَقْصُودُ مِنَ العَطفِ - عَلَى وجهِ فَتْحِ الْهَمْزَةِ مِنْ (أَنَّ) - على قولِهِ: ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ يُرادُ به تفخيمُ مَا حصَلَ لهم مِنَ الاسْتبشَارِ، وانْشِرَاحُ الأَنْفُسِ؛ حيثُ جمعَ اللّهُ تعالَى لَهُمُ المَسرّةَ الجُثمانيَّة الجُزئيَّة، والمَسرَّةَ العقليَّة الكُلِّيَّة.

مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ الْجَمْعُ لَهُمْ بَيْنَ اللَّذَّاتِ الْجُثْمَانِيَّةِ الْجُزْئِيَّةِ وَالْمَسَرَّاتِ الْعَقْلِيَّةِ الْكُلِّيَّةِ

ذَلِكَ إنَّ إِدْرَاكَ الحقائقِ الكُليّةِ لَذّةٌ رُوحَانيَّةٌ عَظِيمَةٌ؛ لِشرفِها وشَرفِ العلمِ بها، وحصولِ المَسرّةِ للنّفسِ مِنَ انكشافِها وإدْراكِها، والمعنَى: اسْتَبْشَروا بأنْ عَلِموا حقيقةً كُليّةً وسِرًّا جليلًا من أَسْرارِ العلمِ بصفاتِ اللّهِ تعالَى وكمالاتِه، الَّتي تَعُمُّ آثارُها أهلَ الكمالِ كُلَّهُم، فتَشمَلُ الّذينَ أَدْرَكُوها وغيرَهُم.

ولَوْلا هذا المعنَى الجليل، لم يكنْ داعٍ إلى زيادةِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ إذْ لم يَحصُلْ بزيادتِه زيادةُ نعمةٍ وفَضلٍ للمسْتَبشِرين مِنْ جنسِ النّعمةِ والفضلِ الأوّلَيْن، بَلْ حصَلَتْ نعمةٌ وفضلٌ آخَران[1].

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

لَا يَضِيعُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى عَمَلٌ صَالِحٌ

في قَوْلِ اللّه تعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إظهارٌ في مَوْضِعِ الْإِضْمَار؛ إذْ مقتضَى الظَّاهر أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وأنّه لا يُضيع أجرَ المحسنِين)؛ لسَبْقِ التَّصريحِ بالاسم الأحسن (اللّه) في قوله سُبحانَهُ: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾، ونُكْتَةُ الإظهار: بيانُ عظيمِ مِنَّةِ اللّه تعالى على أهل الإيمانِ بإسنَادِ جزائِهِم إلى صريحِ اسمِه تعالى دونَ الضَّميرِ الرَّاجِعِ إليه؛ فإنَّ المَقامَ هنا مقامُ إظهارِ عظمتِه ومِنَّتِه ونعمتِه وفضلِه على عبادِه المؤمنين، ومِنْ فضلِه أنّه لا يُضيعُ أجرَ المؤمنِين.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/167.

والتَّعبيرُ بالفعل المضارعِ ﴿يُضِيعُ﴾ مسبوقًا بحرفِ النَّفْيِ (لَا) دالٌّ على أنَّ عَدَمَ إضاعتِه سُبحانَهُ لِأجرِهم مُستمرٌّ دائمٌ، والمضارعُ وإن سُبِقَ بنفيٍ يدلُّ على الاستمرَارِ والدَّوامِ بحسبِ المقامِ.

والجملةُ دَالَّةٌ على أنَّ ذلكَ أجرٌ لَهُم على إيمانِهِمْ، مُشْعِرٌ بأنَّ مَنْ لا إيمانَ لهُ أَعْمَالُه مُحْبَطَةٌ، لا أَجْرَ لهُ علَيْها[1].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(حَسِبَ) و(ظَنَّ):

(حَسِبَ): يُقالُ: حَسِبتُهُ صالحًا بالكسرِ، أَحْسَبُهُ بالفتحِ والكَسرِ، (مَحْسَبَةً) بكسرِ السِّينِ وفَتحِها، وحِسْباناً بالكسرِ: ظَنَنْتُه، والظَّنُّ: التَّردُّدُ الرَّاجحُ بينَ طَرَفَيِّ الاعْتقادِ غيرِ الجازمِ، ومَظِنّةُ الشَّيْءِ، مَوضِعُ يُظَنُّ فيهِ وُجودُه[2]، وأَصلُ الحِسْبانِ مِنَ الحِسابِ، تَقولُ: أَحْسَبُهُ بالظَّنِّ قدْ ماتَ بفتحِ السِّينِ وكسرِها، كما تقولُ: أَعُدُّه قدْ ماتَ، ثمّ كَثُرَ حتَّى سُمِّيَ الظَّنُّ حِسْباناً على جهةِ التَّوسُّعِ، وصارَ كالحقيقةِ بَعدَ كَثْرةِ الاستعمالِ، وفُرِّقَ بينَ الفعلِ مِنْهما؛ فيُقالُ في الظَّنِّ حَسِبَ، وفي الحِسابِ حَسَبَ، ولذلكَ فُرِّقَ بين المصدَرَيْنِ، فقيل: حِسْبٌ وحُسْبانٌ. ويَجوزُ أنْ يُقَالَ في الظَّنِّ: قُوَّةُ المعْنَى في النَّفْسِ مِنْ غَيْرِ بُلوغِ حالِ الثِّقةِ الثَّابتة[3].

والَّذي يَظهَرُ، أنَّ بيانَ اللهِ في إيرادِهِ للفعلِ ﴿تَحْسَبَنَّ﴾، على جهةِ النَّهيِ؛ إنّما هو مِنْ بابِ التَّوسُّعِ في معنَى الظَّنِّ، الَّذي صارَ كالحقيقةِ بعدَ كَثْرةِ اسْتعمالِه، فَلا يَتسلّلُ حِينَئِذٍ أيُّ احْتمالٍ يُنافي هذا الظَّنَّ أَوْ يُضادُّهُ، في أيِّ جُزئيّةٍ مِنْه، ويمكنُ اسْتعمالُ كلمةِ (حُسْبان) فيما يُدُلُّ على حساباتِ الإنسانِ الضَّيِّقةِ في الحياةِ الدُّنيا المبنيَّةِ على اللَّذاتِ العاجلةِ دونَ الآجلة، والَّتي تُورِدُه المهالِك، كما قالَ سُبحانَه وتعالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ٧﴾ [الرُّوم: 07].

(1) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/505، ومحمد كريّم راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 72.
(2) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (حسِبَ) و: (ظَنَّ).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 43، 303، والكفويّ، الكليّات: 3/62.

(قُتِلوُا) و(ماتُوا):

قَتلَ، يَقْتُلُ، وبابَه نَصرَ، (قَتْلاً) و(تَقْتَالًا): أماتَهُ، و(قاتَلَهُ) (قِتالًا) و(قِيتَالًا). و(مَقاتِلُ) الإنسانِ: المواضِعُ الّتي إذا أُصِيبتْ (قَتَلَتْهُ)[1] و(ماتَ)[2]، وقدْ وَردَ أنّ القَتلَ هو نَقضُ البنيةِ الحيَوانيَّةِ، ولا يُقالُ لهُ قَتْلٌ في أكثرِ الحالِ إلّا إذا كانَ مِنْ فعْلِ آدميّ، وقال بعضُهم: القَتلُ إماتةُ الحَركة، والمَوْتُ: عَرَضٌ أيضًا، يُضَادُّ الحياةَ، ولا يَكونُ إلّا مِنْ فِعْلِ اللّه، والمِيتةُ: الموتُ بعيْنِه إلّا أنّه يَدُلُّ على الحَال، والموتُ يَنفِي الحياةَ مَعَ سَلامةِ البنْية، ولا بُدّ في القَتْلِ مِنَ انْتقَاصِ البنْيَة[3]، والشُّهداءُ الّذينَ حدَّثَنا عنهُم بيانُ اللّهِ تعالَى؛ قد أصابَهمْ ما أصابَهُمْ مِنَ الجِراحِ في بنْيَتِهم (رضيَ اللّه عنهم وأرضاهُم)؛ ولذلكَ ناسبَ هذا المعنَى ماوَردَ في قولِه تعالَى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢا﴾.

الأَمْوات والمؤْتَى[4]:

(ماتَ) يَمُوتُ، ويَماتُ، ويَميتُ، ضِدُّ حَيٍّ، والجَمعُ: أمواتٌ، ومَوْتى، ومَيّتونَ، ومَيْتونَ، ويَستوِي فيه الذَّكَرُ والأُنثَى. فلفظ (مَوْتَى): جمعُ تَكسيرٍ، مفردُهُ: مَيِّتٌ، بتشديدِ الياءِ مَعَ كَسرِها، وهي تُستعمَلُ في الدِّلالةِ على مَنْ فارقَتْهُ الرُّوحُ، وأيضاً لِمَنْ ستُفارِقُهُ الرُّوحُ؛ فهي كلمةٌ عامَّةٌ، قال تعالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ [الزُّمر: 30]؛ يَعنِي: ستموتُ، نَزلَتْ على رسولِ اللّهِ ﷺ، وهو حَيٌّ. و(مَيْتٌ) بتخفيفِ الياءِ، لايُطلَقُ إلّا على مَنْ ماتَ، أمّا (أَمواتٌ): فقد جاءتْ في مُقابَلةِ دِلالةِ أَحْياء؛ فهي مُناسِبةٌ أَكثر مِنْ مَوتَى، في مقابلة الأحياء، قال تعالى: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ [النّحل: 21]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾ [فاطر: 22]، ولفظ (مَوتَى) لم يردْ في مُقابَلةِ الأَحْياء، والسِّياقاتُ القُرآنيَّةُ حَدّدتْ معناهُ في الموتِ الحَقيقيّ، ومُفارقةِ الرُّوحِ البَدَنَ، ولعلَّ فيه مبالغةً أكثرَ ممَّا في الجَمعِ (أَمْواتٍ)، فقدْ جاءتْ (أمواتٌ) في مقابَلَةِ دِلالةٍ واتّساقٍ صَوْتيٍّ وحَرْفيٍّ مَعَ كلمةِ (أَحياءِ) ولم تردْ كلمةُ (مَوتَى) كذلكَ، وإنّما اقْترنَتْ كلمةُ (مَوتَى) مَعَ الفعلِ المضارِعِ (نُحْيِي) أو (يُحْيِي)؛ كَما قالَ ﷻ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [يس: 12]. وقالَ سُبحانهُ: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ

(1) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (قَتَلَ) و: (مَوَتَ).

(2) سيأتي تفصيلها في الفقرة التّالية.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 420.

(4) الرّاغب، المفردات، ص: 781، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 525.

﴿يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [الشّورى: 9]. ولعلَّ في إيرادِ البيانِ الإلهيِّ لكلمةِ ﴿أَمۡوَٰتَۢا﴾ بدلَ (مَوتَى)، في هذا السِّياقِ القرآنيِّ بالذّاتِ، تأكيداً للأحياءِ الَّذينَ لم تُفارِقْ أرواحُهمْ أجسادَهم، وما زالُوا على قَيْدِ الحَياةِ، أنَّ هؤلاءِ الشُّهداءَ، وإنْ كنتُم تَرَوْنهمْ أمْواتاً؛ أيْ: أجْسادًا بلا أرواحٍ؛ فإنَّهم عندَ اللّهِ هُمُ الأحْياءُ الحقِيقيُّون، بسببِ سَخائِهمْ في إزْهاقِ أرواحِهمْ في سبيلِ اللّه، دِفاعًا عن دِينِ اللّه، وإعلاءِ كَلمته، ورَفْعِ رايتِه، ولذلكَ اسْتحقُّواْ أنْ يَكونُواْ أحياءً عندَ ربِّهم، يتنعّمونَ ويَتَمتَّعونَ ويُرزَقون، وبهذا جاءَ بيانُ اللّهِ بقولِه تعالَى: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾، وفي هذا العَرْضِ القُرآنيِّ تَحفيزٌ شَديدٌ، ودَفْعٌ رَشِيدٌ، لِلجهادِ في سَبيلِ اللّه، والفَوْزِ بالشَّهادةِ في سبيلِه (ﷻ).

الرِّزق والنِّعمة واللَّذَة:

(الرّزقُ): ما يُنْتَفَعُ به، وأيضاً العَطاءُ، رَزَقه اللّه يَرْزُقُه بالضّم رزقًا، يُقالُ: رَزَقَ اللّهُ الخلْقَ رِزْقًا بَكسرِ الرَّاء، والمصدرُ الحَقيقيُّ رَزْقًا، والاسمُ يُوضَعُ مَوْضِعَ المَصْدر. و(النِّعمةُ): مِنْ نَعِمَ كسَمِعَ، ونَصَرَ، وضَرَبَ؛ أيْ: يَنْعَمُ، ويَنْعُمُ، ويَنْعِمُ. والتّنعُّمُ: التَّرفُّهُ، والاسْمُ: النَّعمَةُ، بالفتحِ، والنَّعيمُ والنُّعْمَى بالضّمّ: الخَفْضُ، والدَّعَةُ، والمالُ كالنِّعمة بالكسرِ، وجَمعُها: نِعَمٌ وأنْعُمُ، و(اللّذَّةُ): نقيضُ الألَم، الجَمعُ: لَذّاتٌ، يَتعدَّى، وهوَ مِنْ باب فَرِحَ، لَذَّ، يَلَذُّ[1]، والرِّزقُ: هو العَطاءُ الجَارِي في الحُكم على الإدرَارِ؛ ولهذا يُقالُ: أرزاقُ الجُندِ؛ لأنّها تَجرِي على إدْرارٍ، وهو اسْمٌ لما يَملِكُ صاحبُهُ الانْتفاعَ به، فلا يَجوزُ مُنازَعتُه فيه لِكونِه حَلالًا له، واللَّذَّةُ لا تكونُ إلّا مُشْتَهاةً، ويَجوزُ أنْ تكونَ نِعمةً لا تُشْتهَى؛ كالتَّكليفِ، وإنّما صارَ التّكليفُ نِعمةً، لأنَّهُ تَعوَّدَ عليها بمَنافعَ ومَلاذَ، وإنَّما سُمِّيَ ذلكَ نعمةً؛ لأنّه سببٌ للنِّعمة، والنِّعمةُ لا تكونُ إلَّا حَسَنةً[2]، ومِنْ خلالِ ما تقدّمَ مِنْ تَفصيلٍ لتلكَ المُفرَدات؛ نجدُ أنَّ بَيانَ اللّهِ تعالَى، ذَكرَ الفعلَ (يُرزَقونَ)، وهو يُفيدُ الدّيمومَةَ والاسْتمرار، وهذا هو المناسِبُ لِمَقامِ الشُّهداءِ الَّذينَ اصْطَفاهُمُ اللّهُ للشّهادةِ في سبيلِه، فَرِزْقُ اللّهِ لهمْ نَبْعٌ لا يَنضُبُ مَعينُه، بِهِ يَتنعَّمونَ ويَتلذّذون، لا يُنازِعُهمْ فيهِ أَحدٌ؛ لأنّهُ حُظْوَةٌ خاصّةٌ بهمْ مِنَ اللّه.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 765، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (رَزَقَ) و: (نَعِمَ) و: (لَذَذَ).
(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 54، 63، والكفويّ، الكُلّيّات: 4/184.

(فَرِحَ) و(سُرَّ):

(الفَرَحُ): انْشِراحُ الصَّدرِ بلَذّةٍ عاجِلة، وأكثرُ ما يَكونُ في اللّذاتِ البَدنيّةِ الدُّنيويَّة، كما قال تعالَى: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الحديد: 23]، ولم يُرخَّص في الفرحِ إلّا في قولِه تعالَى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: 58]، وقولِه سُبحانَه: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: 4 - 5]، وأمّا (السُّرورُ): فهو ما ينْكَتِمُ مِنَ الفَرحِ، قالَ ﷻ: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝١١﴾ [الإنسان: 11]، وقالَ سُبحانَه وتعالَى: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۝٦٩﴾ [البقرة: 69][1].

والفَرَحُ الّذي هو حالُ الشُّهداءِ عندَ مُلاقاةِ ربِّهم، وحِيازتِهمْ لفَضلِه بانْشِراحِ صُدورِهم، وتَنعُّمِهم بما أفاضَهُ اللّهُ عليهِم مِنْ رزقِ الجَنَّةِ ولَذائذِها، لم يكنْ أمرًا مَكتومًا؛ بلْ كانَ تَمكينًا، نَقلَهُ لنا بَيانُ اللّهِ بقولِه تعالَى: ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم﴾، وقولِه سُبحانَه: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾.

خَلْف ووَراء:

لفظُ (خَلْف): ضِدُّ القُدَّام، قالَ تعالَى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ [البقرة: 255]، وقالَ تعالَى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [الرعد: 11][2]، (وراءَ): إذا قيلَ: وراءَ زَيْدٍ كذا، فإنَّه يُقالُ لِمَنْ خَلْفَه، نحوُ قولِه تعالَى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ۝٧١﴾ [هود: 71]، وقولِه سُبحانَه: ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ [الحديد: 13]، ويُقالُ لِمَا كانَ قُدّامُه، نحوُ قولِه ﷻ: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ﴾ [الكهف: 79]، وقولِه تعالَى: ﴿أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ﴾ [الحشر: 14]؛ فإنّ ذلك يُقالُ في أيِّ جانبٍ مِنَ الجِدارِ، فهو وراءَهُ باعتبارِ الّذي في الجانبِ الآخَر، وقولُه تعالَى: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ﴾ [الأنعام: 94]؛ أيْ: خَلَّفتُموهُ بعدَ مَوتِكم[3]، وهذه المعاني لكلمةِ (وراءَ) وكثيرٌ غيرُها، لا نجدُها تَفِي بالغَرَضِ المُرادِ في سِياقِ حديثِ القُرآنِ عنِ الشُّهداءِ، الَّذينَ يَسْتبشِرونَ بالّذينَ لم يَلحقُواْ بهِمْ بَعْدَ انْتقالِهِمْ مِنْ دارِ الفَناءِ إلى دارِ البَقاءِ، مُعزَّزينَ مُكرَّمينَ مُنَعَّمينَ مِنْ ربِّهِمْ سُبحانَهُ وتعالَى؛ بَلْ لا يُعطِي هذا المَعْنَى المُرادَ إلّا قولُهُ تعالَى: ﴿مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، وهذا من بلاغة القرآن الأثيرة، وانفساح ألفاظه على المعاني الغزيرة.

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 128، وص: 404 - 405، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 77.

(2) المفردات، ص: 93، والرّازي، مختار الصّحاح: (خَلَفَ).

(3) الراغب، المفردات، ص: 66، والرّازي، مختار الصّحاح: (وَرَى).

الخَوْف والخَشْيَة:

(الخَشْيَةُ): أعلَى مَرتبةً مِنَ الخَوْفِ، وهي أَشَدُّ الخَوْف، فإنّها مَأخوذَةٌ مِنْ قَولِ العَرَبِ: (شَجَرةٌ خَاشيةٌ) إذا كانتْ يابِسةً، وذلكَ فَواتٌ بالكلّيّة، فهي ميّتةٌ، والخَوْفُ مِنْ قولِهِمْ: (ناقةٌ خَوْفاءُ)، إذا كانتْ مَريضةً بها داءٌ، وهذا نَقْصٌ وضَعْفٌ، وليس بفَوات، والخَشيةُ: خَوْفٌ مَشُوبٌ بتَعظيمِ المَخْشِيِّ، صادرٌ عن علمٍ ويَقينٍ صادِق، ومَعرفَةٍ بعَظَمته، حتّى وإنْ كانَ الخَاشِي قَويًّا[1]؛ ولذلكَ خُصَّ العلماءُ بالخَشيَةِ في قولهِ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، أمّا الخَوْفُ: فإنّهُ تَوقُّعُ مَكروهٍ عَن أَمَارةٍ مَظنونَة، أَوْ مَعلومَة، فإذا تُيُقّنَ الضَّرَرُ، لم يكنْ خائفًا مِنْ وُقوعِه[2]، والخَوْفُ يكونُ غالبًا مِنْ ضَعْفِ الخَائف، وإنْ كانَ المُخَوَّفُ أمرًا يَسيرًا، كما قدْ يكونُ عَنْ تَسلُّطٍ بالقَهرِ والإرْهاب؛ كما قالَ تعالَى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠﴾ [النَّمل: 10][3]، وممّا سَبق نَجدُ أنَّ الّذينَ نَالُوا الشَّهادَة في سَبيلِ اللّهِ، نَالُوا معَها بِشاراتٍ عظيمَةً عَديدةً مِنَ اللّهِ، سَطَّرَها بيانُ اللّه، واللّه أصدَقُ القائلِينَ، ومِنْ هذهِ البِشاراتِ أنَّهُ لا يَمَسُّهمْ أيُّ مَكروه، أَوْ تَوقُّعُ مَكروه، سَواءٌ أكانَ مَظْنونًا أمْ مَعلومًا؛ فَهُمْ في أَمْنٍ وأَمانٍ مِنَ اللّهِ، فكَيفَ يَتسلّلُ الخَوْفُ إلى قُلوبِهِمْ، والمَقامُ مَقامُ يَقينٍ باللّه، واطْمِئنانٍ برحمَةِ اللّه، فَلا يُمكنُ أنْ يَكونَ معهُ أيُّ خَوْفٍ أَوْ حُزْن.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 283، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 217 - 218، والزَّملكانّي، البرهان الكاشف، ص: 91.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 303، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 235.

(3) الزّركشيُّ، البرهان: 4/78 - 79.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: 172 - 173]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

استـــدراكُ الـهـزيـمـةِ بـالاسـتـجـابـةِ لـلـهِ ورسـولـه، والاعتمادِ عليه في تتبُّعِ فُلولِ الشّرك

لَمَّا ذَكرَ بَيانُ اللهِ في الآياتِ السَّابقةِ، ما حَلَّ بالمسلِمينَ في غَزوةِ أُحُد، مِنَ الهَزيمةِ بَعْدَ النَّصر؛ بِسببِ عِصيانِ الرُّماةِ لِأمْرِ رَسولِ اللهِ ﷺ، لهم بالثَّباتِ في أماكنِهم، وعَدمِ المُضيِّ عنها مَهْما كانتْ نَتيجةُ المَعركَةِ وأَحوالِها، وما أدّاهُ ذلكَ مِنَ اسْتشهادِ عَديدٍ مِنْ صَحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ، الَّذينَ عَرَضتْ لنا الآياتُ ما حَباهُمُ اللهُ بهِ مِنَ الكَرامةِ الفائِقة، والنَّعيمِ المُقيم، جاءَنَا بِخَبَرِ صَحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ، الّذينَ خَرجُوا - على ما بِهِمْ مِنْ جِراحٍ - اسْتجابةً لِمَا نَدبَهمْ رسولُ اللهِ ﷺ، إليهِ مِنَ الخُروجِ، لِيُعاوِدُوا الكَرَّةَ في طَلبِ المشْركِينَ وقَتْلِهمْ، لا يَخافُونَ في اللهِ أَحداً مِنْ خَلْقه، ولِسانُ مَقالِهمْ وحالِهمْ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، فألْقَى اللهُ الرُّعْبَ في قُلوبِ المشركِينَ؛ فَرَجَعُوا إلى مَكَّةَ مُنْخَذِلينَ هائمِين[1]، وعادَ المؤمِنُونَ إلى المدينةِ المُنوَّرَةِ سَالِمينَ غانمِينَ، بأجرِ غَزوةٍ تامّة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسْتَجَابُوا۟﴾: خَفضٌ على صفةِ المؤمنِين، تَقديرُهُ: وإنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المؤمنِينَ، المُسْتجِيبينَ للهِ وللرّسولِ، ومَعنَى (الاسْتجابة):

(1) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (4077)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2418)، وابن إسحاق، السِّيرة النبوية: 3/44 - 45.

الإجَابةُ، والطّاعةُ[1]؛ ونظيرُهُ قولُهُ تعالَى: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي﴾ [البقرة: 186]؛ أيْ: فَلْيُطِيعوني، "وقيل: والإجابة والاستجابة بمعنى واحد، يقال استجاب اللّه دعاءه. قال الشّاعر كعب بن سعد الغنويّ:

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَى *** فَلَم يسْتجِبْه عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ[2]

2) ﴿ٱلۡقَرۡحُۚ﴾: بالفَتحِ، الجِراحُ، وفيه لُغَةٌ ثانيةٌ (القُرْحُ) بالضَّمِّ: أَلَمُ الجِراحِ. وهو عضُّ السَّلاحِ، ونَحوُه ممَّا يَخرُجُ بالبَدَنِ[3]، ويقال القرح وهو الجراح، رجل قريح ومقروح، من قوم قراحى وقرحى، قال الشّاعر:

لَا يُسْلِمُونَ قَرِيحًا كَانَ وَسْطَهُمُ *** تَحْتَ العُجَاجِ وَلَا يَشْوُونَ مَنْ قُرِحُوا[4]

3) ﴿ٱلنَّاسُ﴾: أرادَ بـ (النَّاس): نُعَيْم بن مَسعود، وهُوَ على هذا التَّأويلِ مِنَ العامّ الَّذي أُرِيدَ بِهِ الخَاصُّ، نَظيرُه قولُ اللّهِ تعالَى: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النِّساء: 54] يَعنِي مُحمَّداً وحدَه[5]، و"النّاس: قد يكون من الإنس ومن الجنّ، وأصله أناسٌ فخفّف، ولم يجعلوا الألف واللّام فيه عوضًا من الهمزة المحذوفة، لأنّه لو كان كذلك لما اجتمع مع المعوّض منه، في قول الشّاعر:

إِنَّ المَنَايَا يَطَّلِعْـ***ـنَ عَلَى الْأُنَاسِ الآمِنِينَا[6]

وحكى سيبويه: (النّاسُ النَّاسُ)، أي النّاس بكلّ مكان، وعلى كلّ حال؛ "وقوله:

بِلَادٌ بِهَا كُنَّا، وَكُنَّا نُحِبُّهَا *** إِذِ النَّاسُ نَاسٌ، وَالْبِلَادُ بِلَادُ[7]

فهذا على المعنى دون اللّفظ، أي(إذ النّاس أحرارٌ، والبلاد مخصبة)، ولولا هذا الغرض، وأنّه مراد معتزم، لم يجز شيء من ذلك، لتعرّي الجزء الأخير من زيادة

(1) ابن عادل، اللُّباب: 6/55، والعُكبَري، التبيان: 1/158.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (جَوَبَ).
(3) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (قرَحَ).
(4) ابن دريد، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (قرَحَ)، والبيت للمتنخل الهذلي، القالي، الأمالي: 1/14.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 6/138، والواقديّ، المغازي: 1/384 - 391.
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (نوس).
(7) ابن عبد البَرّ، بهجة المجالس وأنس المجالس: 1/168، وابن سيده، المحكم: 8/552.

الفائدة عن الجزء الأوّل"[1] والمرادُ بـ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾: أبو سُفيانَ وأصحابُه، فقدْ حَشَدواْ حُشودَهمْ لِلمَعرَكة، فقيل للمؤمنين: خافوهُمْ واحْذَرُوهم، فلم يزدهم ذلكَ إلّا تَصدِيقًا، ويَقينًا، وجَراءةً، وقُوَّة؛ وفيه دَليلٌ على أنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنقُصُ[2].

4) ﴿حَسۡبُنَا﴾: و(حَسْبُ)؛ أيْ: كافٍ، وهو اسمٌ جامدٌ، بمعنَى الوَصْفِ، ليس له فِعلٌ؛ ومنه اسْمُه تعالَى: الحَسِيبُ، فهو فَعيلٌ بمعنَى مُفْعِلٌ، وقيل: الإِحْسابُ: هو الإِكْفاءُ، وقيل: هو اسْمُ فِعْلٍ بمعنَى كَفَى، وقولُهم: بَحَسْبِكَ دِرْهَمٌ، يُنافي دَعْوى كَوْنِه اسْمَ فعلٍ؛ لأنّ أسماءَ الأفعالِ لا تدخُلُ عليها العواملُ. وقيل: هو مصدرٌ، وهو مِنَ الأسماءِ اللّازمةِ للإضافةِ دُونَ مَعْنى، فَيُبْنَى على الضَّمِّ، مِثْلُ: قَبْلُ وبَعْدُ[3]. و﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾؛ أيْ: كافِينا اللّهُ، وثِقَتُنا باللّه، والنُّونُ والألِفُ مَخفوضَتانِ بالإضافَة، كقولِكَ: حَسْبُ زيدٍ دِرْهَمٌ؛ لأنَّ حَسْبَه اسْمٌ، وإنْ كانَ في مذهبِ الفعلِ لا تَرَى ضَمّةَ الباءِ منهُ[4]، قال الشَّاعِرُ[5]:

فَتَملأُ بَيْتَنا أَقْطَاً وسَمْنَاً *** وحَسْبُكَ مِنْ غِنًى شِبَعٌ ورِيُّ[6]

5) ﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ أيْ: المَوكولُ إليهِ الأُمورُ، فَعِيلٌ بمعْنَى مَفْعولٌ، فَنِعْمَ الموكولُ إليهِ أمرُنا[7]؛ أيْ: نِعْمَ الوكيلُ اللّهُ سُبحانَهُ وتَعالَى؛ وتأتي بمَعنَى: المانِع[8]؛ نَظيرُهُ قولُهُ تَعالَى: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ٨٦﴾ [الإسراء: 86]، أيْ: مانعاً، وهو كما في قولِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ٦٥﴾ [الإسراء: 65].

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

لَمَّا رَجَعَ النَّبيُّ ﷺ مِنْ غَزوَةِ أُحُدٍ إلى المدِينةِ، نَدَبَ أصحابَهُ إلى الخُروجِ؛ فَخَرَجُواْ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أنس).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/601، والشَّوكاني، فتح القدير: 1/649.
(3) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (حَسَب)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/170.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/481، والسَّمين، الدُّر المصون: 1/355، 3/490.
(5) هو امرؤ القيسِ بنُ حُجرِ بنِ الحارثِ الشّاعرُ الجاهليُّ.
(6) ديوان امرئ القيس، ص: 49.
(7) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/481، والشّوكانّي، فتح القدير: 1/469.
(8) البيهقيّ، الأسماء والصفات: 1/211 - 213.

صمودُ المسلمين ضدّ كلّ تهديدٍ وتخويف، ثقةٌ بالله الحفيظ اللّطيف

-على ما بهمْ مِنْ جِراحٍ- اسْتجابةً للّهِ ولرسولِه ﷺ فوَصَلُوا إلى (حَمْراءِ الأَسَدِ)، فجاءَهم نُعَيْمُ بْنُ مَسْعودٍ الأَشْجَعِيُّ الغَطَفَانيُّ، ولم يكنْ قَدْ أسلمَ، وقالَ لهمْ: "إنَّ أبا سُفيانَ وأصحابَهُ، قَدْ حَشَدُوا جَمعَهُمْ، وهَمُّوا باسْتِئصالِكُم". تَخويفًا لهم وترهيبًا، فَلَمْ يَزِدْهمْ ذلكَ إلّا إيمَانًا باللّهِ، واتّكالًا عليه، وقالُوا: حَسْبُنا اللّه؛ فَهوَ كافِينَا كُلَّ ما أَهمَّنا، المفوَّضُ إليه تَدبيرُ عبادِه[1]، القَائمُ بمَصالحِهم.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ الْوَصْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾:

اسْتِجَابَةُ أَهْلِ الإِيـمَـانِ للهِ تَعَالَى وَالرَّسُولِ ﷺ وَصْـفٌ كَاشِفٌ لَهُمْ

الاسمُ الموصولُ (الذينَ) مِنْ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ في محلِّ جرٍّ صفةٌ لـ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من قولِه تعالَى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ونُكْتَةُ الوصفِ: مدْحُهم وتفخيمُ شأنِهم، وهو وَصْفٌ كَاشِفٌ لا مُخَصِّصٌ؛ إذْ إنَّ واقعَ المؤمنينَ أنَّهم الذينَ اسْتَجَابُوا للّهِ تعالَى والرَّسُولِ.

ويجوزُ أن يكون (الذينَ) مبتدأً خبرُهُ ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾، أو خبرًا لمبتدأٍ محذوف، تَقديرُه: هُم[2].

و(مِنْ) في قوله تعالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ﴾ بيانيَّةٌ[3]؛ جيءَ بها لبيانِ أنَّ وَصْفَي الإحسَانِ والتَّقْوَى وَصْفَانِ لَازِمَانِ لكلِّ مَنِ اسْتَجَابَ للّهِ تعَالَى والرَّسُولِ ﷺ.

دِلَالَةُ الاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾:

﴿ٱلۡقَرۡحُۚ﴾ بِفَتحِ القافِ في لُغةِ قُرَيشٍ: الجُرْحُ، وبضمِّها في لُغةِ

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 1/648 - 649، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 118.
(2) العكبري، التبيان: 1/158، والسّمين، الدُّر المصون: 3/487.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/480، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/600.

غيرهم[1]، وقُرِئَ: بفتحِ القافِ، وقُرِئَ بضمِّها[2]، و﴿ٱلْقَرْحُ﴾ هُنَا مُستعمَلٌ في غيرِ حَقيقتِه، وهو مجازٌ بالاسْتِعَارةِ للهزيمةِ الَّتي أصابتْهُم، ولذلكَ لم يُجمَعْ، فيُقال: القُرُوح، ووجهُ الاستعارَةِ أنَّ الهزيمةَ تُشبَّهُ بالثُّلْمَةِ والانْكسارِ، فَشُبِّهتْ هنا بالقَرْحِ حينَ يُصيبُ الجَسدَ، وهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ، ولا يَصِحُّ أنْ يُرادَ به الحقيقةُ؛ لأنَّ الجِراحَ التي تُصيبُ الجيشَ، لا يُعبأُ بها إذا كانَ مَعَهَا النَّصرُ[3].

الـجِـرَاحُ الـتِـي تُصِيبُ الْجَيْشَ، لَا يُعْبَأُ بِهَا إِذَا كَانَ مَعَهَا النَّصْرُ

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّــةُ اخْـتِـيَـارِ الْأَلْفَاظِ المُنَاسِبَةِ لِسِيَاقَاتِهَا

قال اللّه سُبۡحَانَه: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ [آل عمران: 140]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾؛ فقد ورد في كِلْتا الآيتينِ كلمةُ (القَرْح)، ولم ترد كلمة القَرْحِ في غيرهما، والفرقُ بين الآيتينِ: أنَّهُ قد أُسنِدَ المسُّ إلى القَرْحِ مرَّةً في قولِه سُبحانَهُ: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾، وأُسنِدَتِ الإصابةُ إلى القَرْحِ مرَّةً أخرَى في قوله تعالَى: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾.

وكِلْتَا الآيتينِ في الحديثِ عن يومِ أُحُدٍ، لكنَّ الآيةَ الأُوْلى فيها بيانُ النَّظيرِ بِنَظيرِه، والمقابَل بمقابِله، وَفيها تسليةٌ ومواساةٌ حكيمةٌ جليلةٌ لجماعةِ المؤمنينَ بقيادةِ رسولِ اللّه ﷺ؛ فإنْ كان قد مَسّكمْ جِراحٌ، ثمَّ هزيمةٌ في أُحُدٍ؛ فقد مسّ عَدُوَّكم كذلكَ جِراحٌ وهَزيمةٌ في بَدْرٍ.

واستُعْمِلَ الفعلُ (مَسَّ) في كِلْتَا المُقابَلَتَيْن؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ تسليةٍ ومواساةٍ وتَثْبيت، والمسُّ أقلُّ تمكُّنًا مِنَ الإصابةِ، وأقلُّ درجاتِها، فكان لفظُ المسِّ أنسَبَ.

---

(1) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (قَرَحَ).

(2) بفتح القاف قراءة الجمهور، وبضمِّها: قراءة: حمزة، والكسائي، وأبي بكر عن عاصم، وخَلف، ينظر: محمد كريِّم راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 72.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/99.

وأمَّا في الآيةِ الثَّانيةِ؛ فالمَقامُ مَقامُ مَدْحٍ ورَفْعِ شَأنٍ وثَناءٍ لجماعةِ المؤمنِين، الَّذين بالرَّغمِ مِنْ إصاباتِهِمُ البالِغَة - مِنْ جِرَاحٍ ثمَّ هزيمةٍ مِنْ بَعدِ النَّصر - اسْتجابُوا للّهِ ولرسولِه ﷺ؛ فلبُّوا نداءَ الإيمانِ باللّهِ ورسولِه ﷺ، لِلعَوْدِ والكرِّ مرَّةً ثانيةً على أعداءِ اللّهِ وأعداءِ رسولِه ﷺ، فكانَ حقًّا أنْ تظهرَ اسْتجابتُهم تلكَ في عَلْيائِها، مُقابِلَ ما أصابَهم حَقًّا مِنْ إثْخانِ الجِراحِ وآلامِ الهزيمةِ، ولذلك كانَ اسْتخدامُ فعلِ (أصابَهم) أجدرَ بالسِّياقِ مِنْ فعلِ (مسَّهُم).

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

تَشَوُّفُ النُّفُوسِ الْمُؤْمِنَةِ إِلَى الْجَزَاءِ الْأُخْرَوِيِّ

إذا جُعِلَ قولُ اللّه تعالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ جملةً مستقلَّةً، فيكون فصْلُهَا عمَّا قبلَهَا لوقوعِهَا اسْتئنافًا بيانيًّا، و﴿مِنۡهُمۡ﴾ حالٌ مِنَ الضَّميرِ في ﴿أَحۡسَنُواْ﴾[1]، ووجهُ الاستئنافِ البيانيِّ: أنَّ اللّه تعالى قال قبلُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾، فأورثَ ذلك في نَفْسِ المتلَقِّي سؤالًا، وهو: ما جزاءُ هؤلاءِ الذينَ استجابُوا للّه والرَّسولِ مع شدَّة حالِهم؟ فجاء الجواب: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ مُتَعَلِّقِ الْخَبَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾:

الْإِحْسَانُ أَعْلَى مَرَاتِبِ الدِّين

تقديمُ مُتعلَّقِ الخبرِ ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ على المبتدأ ﴿أَجۡرٌ﴾ يُرادُ بِه: بيانُ أهمِّـيّةِ المُخْبَرِ بِه، وعَظيم مكانتِه، وهو وصفُ الإحسانِ والتَّقوَى؛ تحريضًا للعبادِ علَى الانْدِراجِ في سِلْكِ المُحْسِنِين المتَّقين.

وفي تَقديمِ الإحسانِ على التَّقْوَى في قوله سُبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ﴾ بيانُ سُمُوِّ درجتِه، وعُلُوِّ كعبِه؛ إذْ لِلْمُقدَّمِ مزيَّةٌ

(1) العكبري، التبيان: 1/158، وصافي، الجدول: 4/375 - 376.

على غيرِه، وَالتَّقوَى وإن كانت أسمَى مَراتبِ عبادةِ اللّهِ تعالَى؛ فإنَّ الإحسانَ ذُرْوةُ الأمر كُلِّه، إذْ إنّ مراتِبَ الدِّينِ ثلاثة: الإسلامُ، ثُمَّ الإيمانُ، ثُمّ الإحسانُ، وحقيقةُ الإحسانِ كما قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: "أنْ تَعبُدَ اللّه كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ"[1].

سِرُّ تَنْكِيرِ ﴿أَجْرٌ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾:

عِظَمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْعَمَلِ

أُوردَ لفظُ الأجرِ نكرةً في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾؛ ليَعُمَّ كُلَّ أجرٍ يخطُرُ في بالِ المُسلم، ووَجْهُ العموم فيها - وإن كانَت في سِيَاق الإثْبَات - أَنَّ النَّكِرَة في سِيَاق الامْتِنَان تَعُمُّ.

وفي هذا التَّنكيرِ إشعارٌ بتعظيمِه مع عموم أفرادِه، وهو عظمةٌ ذاتيَّةٌ، ثُمَّ أُكِّدت عظمَتُهُ بالوصفِ في قوله سُبحانَهُ: ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أَثَرُ إِعْرَابِ الِاسْمِ الْمَوْصُولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾:

الْمُسَارَعَةُ إِلَى الطَّاعَةِ مَعَ وُجُودِ الْمُثَبِّطِ أَعْظَمُ أَجرًا

﴿ٱلَّذِينَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ اسْمُ موصولٌ مبنيٌّ في محلِّ نَصْبِ مفعولٌ بِهِ لِفعلٍ مَحذوف، تَقديرُه: أَمدَحُ، فقدْ جاءَ الموصولُ في مَعرِضِ المَدحِ ومَقامِهِ الرَّفيع. وحُقَّ أنْ يُمدَحَ مَنْ سَمِعَ مِنَ النّاسِ مَقالةَ التَّخويفِ والتَّثبيطِ عنِ الجهادِ في سبيلِ اللّه؛ فزادتْه إيمانًا.

ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ بدَلًا مِنَ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، أو صفةً له، وإنّما جِيءَ بإعادةِ الموصولِ، دونَ أنْ تُعطَفَ الصِّلةُ على الصِّلةِ، اهتمامًا بشأنِ هذه الصِّلةِ الثّانية، حتّى لا تكونَ جُزءَ صِلَةٍ.

ويجوزُ أنْ يكونَ ابتداءَ كلامٍ مُستَأنَف، فيكونَ مبتدأً وخبرُهُ قولُه:

(1) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (50)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (9).

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾؛ أيِّ: ذلكَ القولُ، وهذا تَخلُّصٌ بذِكْرِ شأنٍ مِنْ شؤونِ المسلمينَ كفاهُمُ اللّٰه به بأسَ عَدوِّهم بعدَ يوم أُحُد[1].

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾:

مِــنْ طُــرُقِ أَعْـدَاءِ الْإِسْـلَامِ فِي حَـرْبِـهِـمْ عَـلَى الْمُسْلِمِينَ الْإِرْجَافُ بِالْأَخْبَارِ الزَّائِفَةِ

وردَتْ كلمةُ (الناس) في هذه الآيةِ مرّتيْن:

إحْدَاهُمَا: في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾، والمرادُ بها: رَكْبُ عبدِ القَيْسِ، وكان معهم نُعَيْمُ بنُ مَسعودٍ الأَشْجَعِيُّ، ولم يكنْ قدْ أسلمَ قبلُ.

والأُخْرَى: في قولِه سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾، والمرادُ بها: قُرَيْشٌ، وما جَمعُوهُ لِلمسلمين.

واستعمالُ لفظِ (النَّاس) في الموضِعَيْن مجازٌ مرسَلٌ، علاقَتُه العمُوميَّةُ؛ إذْ أُطْلِقَ العامُّ وأُريدَ به بعضُ أفرادِه.

ويجُوزُ أنْ يُرادَ بلفظِ النّاسِ في الموضعِ الأوَّلِ: نُعَيْمُ بنُ مَسعودٍ، وفي الموضع الآخَر: أبو سُفيانَ، فيكونَ شاهدًا على اسْتعمالِ النّاسِ بمعْنَى الواحِدِ، والآيةُ تَحتمِلُه، وإطلاقُ النَّاسِ عليه؛ لِمَا أنَّه مِنْ جِنْسِهم، وكلامُهُ كَلامُهُم[2]، ونُكْتَةُ هذا الإطلاقِ قصدُ الإبهام، ومِنْهُ قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾ [النِّساء: 54]، والمُرَادُ بالنّاسِ هُنَا: مُحَمّدٌ ﷺ[3].

ويجُوزُ أن تَكونَ نكتةُ المجازِ: الإشعارُ بكثرةِ الجمْعِ وظهورِه حتَّى كأنَّ النَّاسَ كُلَّهم يُخبرونَ عَنْهُ؛ رغبةً منهم في إدخالِ الرُّعْبِ والفزَعِ على أهلِ الإيمانِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/168 - 169.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/601، والشّوكاني، فتح القدير: 1/648 - 649.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/168 - 169.

وحُذِفَ مفعولُ ﴿جَمَعُواْ﴾ لإرادةِ العموم؛ إذْ إنَّ حَذْفَ المعمولِ مؤْذِنٌ بذلكَ، والعمومُ هنَا يُراد به عمومُ ما يُجْمَعُ عادةً في الحَرْبِ والقِتَال، والمعنَى: جَمعوا أنفُسَهم وعَدَدَهم وأحلافَهم، كما فَعلُوا يومَ بدرٍ الأوّل، ويجوزُ أن يكون حذف المفعولِ لأجل أن يذهبَ الذِّهْنُ كلَّ مذهبٍ في مقدار ما جمعوهُ من أسلحة ومالٍ ورِجَالٍ، فيكون ذلك أشدَّ في تخويفِهمْ(1).

دِلَالَةُ التَّأْكِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾:

قُــوَّةُ إِيـمَـانِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَثَبَاتُهُمْ أَمَامَ شِدَّةِ التَّخْوِيفِ

وفي تأكيدِ قولِهمْ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ بـ: (إنَّ)، و(قَدْ) زيادةٌ في التَّخويفِ والإرْجافِ، ولكنَّه في مقابَلِ مَقامِ الثَّباتِ على الحقّ، والزِّيادةِ في الإيمَان، فأيُّ الفريقيْنِ أحقُّ بالمَدْحِ، والكِفايةِ باللّه، والعَوْنِ مِنَ اللهِ ؟!

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْخَشْيَةِ دُونَ الْخَوْفِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾:

ضَعْفُ الْعَزَائِمِ سَبَبٌ فِي تَـرْكِ الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ

(الفاءُ) في قوله: ﴿فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ عاطفةٌ لِربْطِ السَّبَبِ بالمُسَبَّبِ(2)، واختِيرَ التَّعبيرُ بلفظِ (الخَشْيَةَ) دُونَ (الخَوْفِ)؛ لكونِ الخَشْيةِ أليَقَ بالمقامِ، فهيَ أشدُّ وَقعًا وأثَرًا مِنَ الخَوْفِ، فالمقامُ هنا مَقامُ زَرْعِ الرُّعبِ في قُلوبِ المسلمِين؛ لِتَنْهَارَ عزائمُهم وتَخُورَ قُواهُم، فَيقعُدوا عن قتالِ المُشركِين.

وفي اختيارِ لفظ الخشيةِ إيهامٌ مِنْهُمْ بأنَّ خوفَهم مِنْهُم أمرٌ لازمٌ لانْبِنَائِهِ على موجبِ الخوفِ وهو قوَّةُ المَخُوفِ، فكأنَّهم ذكرُوا الحُكْمَ مقرونًا بحُجَّتِه.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1510.
(2) صافي، الجدول: 4/377.

دِلَالَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾:

الْإِيمَانُ شَرْعًا يَزِيدُ وَيَنْقُصُ

الفاءُ في ﴿فَزَادَهُمۡ﴾ عاطفةٌ[1]، والمرادُ أنَّهم لم يَلْتفِتُوا إلى مَقُولةِ ﴿قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾؛ بل ثبتَ يقينُهم باللّهِ تعالَى، وازدادَ اطمئنانُهم، وأَظهرُوا حَمِيَّةَ الإسلام، وأَخْلصُوا النِّيَّةَ للّهِ[2].

وفي قوله سُبحانه: ﴿فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ ما يقرُبُ من قلب النُّكْتَةِ؛ وهو الاحتجاجُ بدليل الخصم على نقيضِ دعواهُ، وذلك أنَّهم أردُوا بقولهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ تثبيطَهُمْ عن الخروجِ للجهاد، فكان ذلك سببًا في تحريضِهم عليَهِ[3].

وقولُهُ: ﴿فَزَادَهُمۡ﴾ فعلٌ ماضٍ، وفاعلُهُ مستترٌ، والتَّقديرُ: فزادَهُمُ القولُ[4]، وفي هذا: بيانُ حقيقةٍ مُهمّةٍ جدًّا؛ وهي أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقُصُ، يزيدُ بالطَّاعةِ، ويَنقُصُ بالمَعصيةِ[5]، وازدِيادُ اليَقينِ بالإِلفِ، وكَثرةِ التَّأَمُّلِ، وتَناصُرِ الحُجج ممّا لا رَيْبَ فيه، وبهذا التَّقريرِ العَقَديّ، رَسمتْ لنا الآيةُ الكَريمةُ صُورةَ ثَباتِ الصَّحابةِ ﵃ وكَمالِ يَقينِهمْ باللّه تعالَى، وحَمِيّتهمُ الإيمانيَّةِ القَويّة؛ حَيثُ لم يَرْكنُوا لِتثبيطِ المُثبِّطين، وفُتورِ هِمَمِ المنافقين.

دِلَالَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾:

الْحَسْبَلَةُ دُعَاءٌ يُدْفَعُ بِهِ الْبَلَاءُ وَتُجْلَبُ بِهِ النَّعْمَاءُ

﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾: كلمةٌ أُلْهِمُوهَا، أَوْ تلقَّوْها عن النّبيِّ ﷺ، والمعْنَى: مُحْسِبُنا اللّهُ وكافِينا؛ مِن: أحسَبَهُ إذا كَفَاهُ، والدّليلُ على أنّه بمعنَى المُحسِب: أنّه لا يَستفيد بالإضافة تعريفًا في قولِكَ:

(1) صافي، الجدول: 4/377.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/601.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/444.

(4) العُكبَرِي، التبيان: 1/158.

(5) الإيمانُ: قولٌ، وعملٌ، ونيّة (اعتقادٌ)، يَزيدُ بالطّاعة، ويَنقُصُ بالمعصية، ولا يَصِحُّ القولُ إلاّ بالعمل، ولا يَصِحُّ القولُ والعملُ إلاّ بالنِّيّة، ولا يَصِحُّ القولُ والعملُ والنِّيَّةُ إلّا بموافقة القرآن والسُّنة النَّبويّة، وهذه الحقيقة محلُّ إجماعِ علماءِ الأمّة. ينظر: ابن تيمية، الإيمان، ص: 313، والآجرّي، الشّريعة: 2/580.

هذا رَجلٌ حَسبُكَ، فَتصِفُ به النَّكِرةَ؛ لأنَّ إضافتَه - لِكونِه في معنى اسْمِ الفاعلِ - غيرُ حقيقيَّة[1].

وجُملةُ: ﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾، معطوفةٌ على حسبُنا اللهُ في كلام القائِلين، فالواوُ في المَحْكيِّ لا مِنَ الحِكايَة، وهو مِنْ عَطْفِ الإنْشاءِ على الخَبَرِ، الّذي لا تُطلبُ فيه إلّا المُناسَبَةُ، والأصحُّ أنَّه من عطفِ الإنشاءِ على مثلِه؛ إذْ إنَّ (حسبُنَا اللّه) جملةٌ خبريَّةٌ في اللَّفْظِ إنشائيَّةٌ في المَعْنَى؛ لكون المرادِ مِنْهَا الدُّعاءَ[2]، والمعتبَرُ في باب الوصل والفصلِ هو معاني الجُمَلِ لا مجرَّدُ ألفاظِهَا.

و﴿وَنِعۡمَ﴾ فعلٌ ماضٍ جامدٌ لإنشاءِ المدحِ، والمَخصوصُ بالمدحِ مَحذوفٌ؛ أيْ: نِعمَ الوَكيلُ اللهُ سُبحانَه وتعالَى.

و﴿ٱلۡوَكِيلُ﴾: صِفةٌ مُشبَّهةٌ، مِنْ وَكَلَ يكِلُ، وزنُه فَعِيلٌ[3]، وهو فَعيلٌ بمعنَى: مفعولٌ؛ أيْ: موكولٌ إليه، يُقالُ: وَكَلَ حاجتَهُ إلى فُلانٍ، إذا اعْتمدَ عليه في قَضائِها وفَوَّضَ إليه تَحْصيلَها، ولذلكَ كانَ مِنْ أسمائِه تعالَى: (الوَكيلُ)؛ وَأُطلِقَ على هذا المعنَى أيضًا اسْمُ (الكَفيلُ)، في قولِه تعالَى: ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ﴾ [النَّحل: 91][4].

وقدْ حَمَلَ الزّمخشريُّ (الوكيل) على ما يَشمَلُ هذا عندَ قولِه تعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾ [الأنعام: 102]، فقالَ: "وهو مالكٌ لكلِّ شيءٍ مِنَ الأرزاقِ والآجالِ، رقيبٌ على الأعمالِ؛ وذلكَ يدُلُّ على أنَّ الوكيلَ: اسْمٌ جامعٌ للرَّقيبِ والحافظِ في الأمورِ التي يُعنَى النَّاسُ بِحفظِها ورَقابَتِها وادِّخارِها، ولذلكَ يتقيَّدُ، ويَتعمَّمُ بحَسَبِ المَقامات"[5].

وفي تقديمِ ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ على ﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ حِكمةٌ جليلةٌ، وهي أنّ الّذي يَكْفي الإنسانَ كلَّ شيءٍ، هو الَّذي يُتوكَّلُ عليه ويُعتمَدُ عليه في كلِّ شَيْء، وهو اللّه تعالَى لا أحَدَ غيرُه، والإنسانُ العاقلُ لا يَكِلُ أمورَه لأَحدٍ، ولا يُوكِّلُه في القيام بها إلّا بعدَ أن يَعلمَ يقينًا أو يَغلِبَ على ظنِّه أنّه قادرٌ على أدائها خيرَ أدَاء، فما الظنُّ باللّه تعالى؛ وهو علَّامُ الغُيوبِ، ليسَ لقُدرتِه وكِفايتِه لعبادِه مُنْتَهَى.

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 1/481.

(2) ابن تيمية، الرد على الشاذلي في حزبيه، ص: 99، وابن عثيمين، مجموع الفتاوى والرسائل: 9/173.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/170، وصافي، الجدول: 4/377.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/171.

(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/41.

وفي جعلِ الفِعْلِ (نِعْمَ) صدرَ جملةِ ﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ وهو فعلٌ لإنشاءِ المَدحِ؛ تَحفيزٌ وترغيبٌ للتّوكُّلِ عليه ﷻ.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الاسْتجابة والإجابَة والطَّاعة[1]:

الاستِجابَةُ: قَبولٌ لِمَا دَعاكَ إليه، ولِذا وَعَدَ اللّه سُبحانَهُ وتَعالَى الدَّاعِينَ بالاسْتجابةِ في قولِهِ سُبحانَه: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: 60]، والمُستجيبِينَ بالحُسْنَى في قولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الرّعد: 18]. أمّا (الإجابَةُ) وهي: مُوافَقةُ الدّاعي إلى الفِعلِ، مِن أجلِ أنّهُ دَعَا به، فيَجوزُ أنْ يُجيبَ بالمُخالَفة؛ كما يقولُ السّائلُ: أتُوافِقُ في هذا المَذهَبِ، أمْ تُخالِفُ؟ فيَقولُ المُجيبُ: أُخالِفُ. ولا تكونُ إجابةٌ إلَّا بأنْ تُفعلَ لِمُوافقةِ الدُّعاءِ بالأَمرِ ومِنْ أَجْلِه، وأمّا (الطّاعةُ) فهي: مُوافقةُ الإرادةِ الحادِثةِ للفِعلِ برَغبتِه، أوْ رَهْبتِه، وهي تكونُ مِنَ الأدْنَى للأَعْلَى؛ لأنَّهَا في مُوافقةِ الإرادةِ الواقِعةِ مَوقِعَ المَسألَة، ومِنْ بيانِ الفُروقِ بينَ تلْكُمُ المُفرَدات، نَجِدُ أنَّ أَلْيَقَها بالمَقامِ اسْتخدامُ الفعلِ ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾؛ فإنّ اللّه ناداهُمْ ودَعاهُمْ لِلجهادِ في سبيلِه؛ فَلَبّوا النّداءَ، وقَبِلُوا الدَّعوةَ، ولم يُخَالِفُوا، ووافقُوا إرادةَ اللّه؛ فَقاموا بالفِعلِ رغبةً بِرضَى اللّه، وبِما أعَدَّهُ لهُم مِنْ جَزيلِ الأَجْر، ووُفُورِ الرّزق، وعَظيمِ الفَضلِ.

القَرْح والجُرْح:

(القَرْحُ): الأَثـرُ مِنَ الجِراحةِ، مِنْ شيءٍ يُصيبُه السِّلاحُ ونَحوُه مِنْ خارِجٍ، يُقالُ: قَرَحْتُهُ، نَحْوُ: جَرَحْتُهُ، وقَرِحَ: خرجَ به قَرْحٌ؛ ويُقالُ: القَرْحُ لِلجِراحة، والقُرْحُ لِلألَم، كما قالَ تعالَى: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ [آل عمران: 140][2]، وقُرِىءَ بالضَّمِّ[3]، و(الجُرْحُ): أثَرٌ دام في الجلدِ، يُقالُ: جَرَحَهُ جُرْحاً؛ فهوَ جَريحٌ، قال تعالَى: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾ [المائدة: 45]، والجَمعُ (جُروحٌ)، ولم يَقولُوا: جِراحٌ إلَّا في الشِّعْر، وسُمِّي

---

(1) أبو هلال، الفروق اللغوية، ص: 34 - 35، ص: 44 - 45، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 145.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 165، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (قَرَحَ).

(3) قرأ بالضّم أبو بكر شعبة عن عاصم، وحمزة، والكسائي، وخَلَف، وقرأ الباقون من السَّبعة والعشرة بالفتح، وهما لغتان، وينظر: محمّد كُرَيِّم راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 72، والرّاغب، المفردات، ص: 165.

القَدحُ في الشَّاهدِ جَرحًا تَشبيهًا به، وسُمِّيت الأعضاءُ الكَاسيةُ جَوارحَ؛ إمّا لأنَّها تَجرَحُ، وإمّا لأنَّها تَكسِبُ تَشبيهًا لها بالسِّباعِ والطُّيورِ الجارحةِ، والاجْتراحُ: اكْتِسابُ الإثمِ، وأَصلُهُ مِنَ الجراحة، قالَ تعالَى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الجاثية: 21][1]، ومِنْ خلالِ اسْتِعراضِ الفَرْقِ بَيْنَ الكَلِمتَيْنِ (القَرْحِ) و(الجُرْحِ)؛ نَجدُ أنَّ إيرادَ البَيانِ الإلَهيِّ لِكلمةِ (القَرْحِ) في سِياقِ الآيةِ القُرآنيَّةِ أَوْلَى بالمَقام؛ فإنَّ القَرحَ خاصٌّ بِمَفهوم الجِراحة، الَّتي تُصيبُ البَدَنَ مِنْ خَارجِه، وأَثَرِها عليه، وأمّا (الجُرْحُ) وإنْ كانَ يَدخُلُ في مَعنَى (القَرْحِ)، إلَّا أنَّ مَفهومَه ودِلالاتِه أَوسعُ وأَشْمل، ولا حاجةَ لنا بِها في مَقامِ السِّياقِ القُرآنيّ.

الخَشية والخَوف:

سَبقَ بيانُ الفَرْقِ بين هاتَيْنِ الكَلِمتَيْنِ، والمَقامُ السّابقُ في قولِه تعالَى: ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾، ناسَبهُ ذِكرُ (الخَوْفِ)، وأمّا ذِكرُ (الخَشْيَةِ) فهوفي هذه الآيةِ أَلْيَقُ بالمَقامِ؛ الَّذي هو زرعُ الرُّعبِ في قُلوبِ المسلمينَ مِنْ قِبَلِ الكافرين؛ كي تَنْهارَ عزيمتُهمْ، ويتقاعسواْ عَنِ الذّهابِ لِمُلاقاةِ المشركِينَ وقِتَالِهم، فلا تَزهَقُ نُفوسُهم، وتَهلِكُ أبدانُهم، كَما هو مُقْتَضَى مَعنَى (الخَشيةِ).

الجَمْع والحَشْر:

(الجَمعُ): ضَمُّ الشَّيءِ، بِتقريبِ بَعضهِ مِنْ بَعْضٍ بَعْدَ التَّفرُّق؛ يُقالُ: جَمعْتُهُ فاجْتَمعَ، قالَ تعالَى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩﴾ [القيامة: 9]؛ وقال سُبحانَه: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ [هود: 103]؛ أيْ: جُمِعُواْ فيه، و(الجُمَّاعُ): يُقالُ في أَقْوامٍ مُتفاوِتَةٍ اجْتَمعُواْ، ويُقالُ: أَجْمَعَ المُسلِمونَ على كَذا؛ اجْتَمعتْ آراؤهُمْ عليهِ[2]، وأمّا (الحَشرُ): فهو الجَمعُ مَعَ السَّوْق؛ كَما في قولِه تَعالَى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦﴾ [الشّعراء: 36]؛ أيْ: ابْعَثْ مَنْ يَجمَعُ السَّحَرَةَ، ويَسوقُهمْ إليكَ، ومِنهُ يَوْمُ الحَشرِ؛ لأنّ الخَلقَ يَجتمِعونَ فيه، ويُساقُونَ إلى المَوقِف[3].

(1) الراغب، المفردات، ص: 190 - 191، والفيروزآبادي، القاموس: (جَرَحَ).

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 201، وأبو هلال، الفروق اللغوية، ص: 188.

(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 188، والفيروزآباديّ، القاموس: (حَشَرَ).

وضمُّ المقاتلِينَ واجْتماعُ آرائهم يُـوافـقُـهُ ذِكْـرُ الفِعلِ (جمعوا)

وممّا تَقدَّمَ يَتّضِحُ لنا أنّ إيرادَ الفعلِ ﴿جَمَعُواْ﴾ أنسبُ مِنَ الفِعلِ (حَشروا) مِنْ حَيْثُ سِياقُ النّصِّ القُرآنيّ؛ فإنَّ المشركينَ بقيادةِ أبي سُفيانَ، قدْ ضَمُّوا مُقاتِليهِم بَعضِهِم مِنْ بَعْضٍ، بَعْدَ تَفرُّقِهِمْ فاجْتَمَعُواْ لِلْعَوْدِ، وقِتالِ المسلمينَ؛ واجْتمعَتْ آراؤُهُمْ على العَوْدِ، والانتقامِ مِنَ المسلمينَ؛ لأنَّهم أيقنُواْ أنّهُمْ لم يُحقِّقُواْ أهدافَهُمْ مِنَ الثَّأْرِ لِقتْلاهُمْ في بَدْرٍ، كَما كانُواْ يُخطِّطونَ ويَتآمَرون، فَنَصْرُهُمْ كانَ نَاقِصًا غيرَ مُكتَمِلٍ.

الحَسيب والكَافِي والكَفِيل:

يُقالُ: حَسْبُهُ اللّه؛ أي: كَافيهِ، وكَفيلٌ بهِ، وحَسْبُهُ فُلانٌ، أوِ الشّيْءُ؛ أي: كَافيه، وكَفيلٌ به، كَما قالَ تَعالَى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأنفال: 62]، والحَسيبُ: المُحاسِبُ، أو الحَسيبُ: الكَافي، مَأخوذٌ مِنْ قَولِكَ: أَحْسَبَنِي الشَّيءُ؛ أيْ: كَفَانِي، ومِنهُ قولُهُ تعالَى: ﴿عَطَآءً حِسَابًا ٣٦﴾ [النبأ: 36]؛ أيْ: كَافِيًا[1]، وأمّا (الكافي): فمن الكفاية، وهي ما فيه سَدُّ الخَلَّةِ، وبُلوغُ المرادِ في الأَمْرِ، قالَ تَعالَى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب: 25]، وقالَ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾ [الحِجر: 95]، وقال ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾ [النِّساء: 79]، ومَعناهُ: كَفَى اللّهُ شَهيدًا، أوْ مَعناهُ: اكْتَفِ باللّهِ شَهيدًا، ويُقالُ: كَافيكَ فُلانٌ مِنْ رَجُلٍ، كَقولِكَ: حَسْبُكَ مِنْ رَجُلٍ[2].

واللّفظ الآخر هو (الكفيل)، وهو من الكفالة، وتعني الضَّمان، تَقولُ: تكَفَّلْتُ بكذا، وكَفَّلْتُهُ فُلانًا، والكَفيلُ: الحَظُّ الّذي فيه الكِفايةُ، كأنَّ اللّه تَكفّلَ بأمره، نَحْوُ قوله تَعالَى: ﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ [ص: 23]؛ أيْ: اجْعَلني كِفْلًا لَها، والكِفْلُ: الكَفيلُ، قالَ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الحديد: 28]؛ أيْ: كَفِلَيْنِ من نِعمته في الدُّنيا والآخِرة، أو أنَّ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 34، والجمل، معجم وتفسير لغويّ لكلمات القرآن: 1/393 - 394.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 719.

المرادَ: النِّعمةُ المُتواليةُ المتكفّلةُ بكفايتِه، والكَفَالةُ تكونُ للنّفس؛ كما قالَ تَعالَى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ [آل عمران: 37][1].

وممَّا سَبقَ بيانُهُ يَظهرُ لنا جَليّاً أنَّ (الحَسِيبَ) يَجمَعُ مَعانيَ الكَلمتَيْنِ (الكَافي) و(الكَفِيلِ) جَمْعًا تامًّا، حَصرًا وقَصرًا، فَلا يَفِي بالغَرَضِ المُرادِ مِنَ السِّياقِ القُرآنيِّ إلَّا استِعمالُ كَلمَةِ ﴿حَسْبُنَا﴾ وكَفَى[2].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 717، والعسكريّ، الفُروق اللغوية، ص: 453 - 454.

(2) ونشير هنا إلى إيرادِ كَلمةِ (الوَكيلِ)، وخاصَّةً بَعْدَ الفِعلِ (نِعْمَ)، فيقال (نعم الوكيل)، وهو لفظٌ يُفيدُ المدْحَ والثَّناء، ولا تَنزِلُ مَنزِلَتَهُ كلمةُ (الحَسِيب) أو: (الكَافِي)، أو (الكفيل)،، فلا يُمكنُ أنْ يَتدبَّرَ أمرَ الخَلقِ إلَّا مَنْ خَلَقَهُم، وهو المالِكُ لهُم، الرَّحيمُ بهِم، ولا يُعتمَدُ اعْتمادًا كُلِّيًّا إلَّا على مَنْ بيدِهِ مَقاليدُ كُلِّ شَيْء، العليمِ الحكيمِ بكلِّ شَيْء، والوَكيلُ: اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ الحُسْنَى، والوَكالةُ صِفةٌ مِنْ صفاتِ اللهِ بمَعْنَى: المُتَوَلِّي، القَائمُ بِتَدبيرِ خَلْقه، ولأنَّهُ مَالِكٌ لهُم، رَحيمٌ بهِم، والتَّوكيلُ: أنْ تَعتمِدَ علَى غَيرِكَ، وتَجعلَهُ نائبًا عنك، فتكْتَفِي بهِ أنْ يَتولَّى أمرَكَ ويَتوَكّلَ لك، والتّوكُّلُ يُقالُ على وَجهَينِ، الأَوَّلُ: يُقالُ: توكّلْتُ لِفُلان، وبمعنَى: تولَّيْتُ له، ويُقالُ: وكَّلْتُهُ فتَوكَّلَ لِي، والثَّاني: وتوكَّلْتُ عليه، وبمعنَى: اعْتَمدْتُه، وقال ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٢٢﴾ [التّوبة: 51]، وقالَ تعالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطّلاق: 3]. ينظر: الرّاغب، المفردات، ص: 182، والعسكريّ، الفُروق اللغوية، ص: 577.

﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران: 174]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مواجهة الأخطار بالتّوكّل على الله، وقطف الثّمرة وقايةً ورضوانًا وفضلًا

سبقَ بيانُها مع الآيةِ الَّتي قَبلَها، وخلاصة ذلك أنّ السّياق إيضاح بليغ للمؤمنين الّذين توكّلوا على اللّه، حين جمع لهم النّاس صنوف الكيد، وألوان الأذى، فانقلبوا بنعمة اللّه وعنايته، آمنين من الضّرر، سالمين من الخطر، وذلك فضلٌ من اللّه عظيم، على عباده الصّالحين، المتّبعين رضوانه العميم.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾: مِنْ (قَلَبَهُ يَقْلِبُهُ): حوَّلَهُ عن وجهِه، كأقْلَبَهُ وقَلَّبهُ[1]، "وقلبت للقوم قليباً: حفرته، لأنّه بالحفر يقلب ترابه قلباً، والقليب في الأصل: التراب المقلوب، وقلبته: أصبت قلبه، وقلبه الدّاء: أخذ قلبه، وقلب فلان فهو مقلوب، وقلبت ناقته، قال ابن مولى المدنيّ:

يَا لَيْتَ نَاقَتِيَ الَّتِي أَكْرَيْتُهَا *** قُلِبَتْ وَأَوْرَثَهَا النَّجَازُ سُعَالًا"[2]

والمرادُ هنا: رجعوا مُتَلَبِّسينَ، وهو معطوفٌ على مَحذوف، أيْ: فَخَرجوا إليهمْ، فانْقَلَبوا بِنعمةٍ، وهو متعلّقٌ بمحذوفٍ وقعَ حالًا، هوَ: رَجَعوا مُتَلبِّسينَ[3].

2) ﴿بِنِعۡمَةٖ﴾: نَعِمَ ينعَمُ، ويَنْعُمُ، ويَنعِمُ، ثلاثُ لغات، والنَّعيمُ والنُّعمَى: الخَفْضُ والدَّعةُ والمالُ، والتَّنَعُّمُ: التَّرفُّهُ[4]، والمرادُ هنا:

(1) الفيروزآبادي، القاموس: (قَلَبَ).
(2) الزّمَخْشري، أساس البلاغة: (قلب).
(3) الشوكاني، فتح القدير: 1/649، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 118.
(4) الفيروزآبادي، القاموس: (نَعِمَ).

السَّلامةُ مِنْ عدوِّهم، "ونِعْمَةُ اللّه: مَا أعطَاهُ العَبْد مِمَّا لَا يُمكن غيره أَن يُعْطِيَهُ إِيَّاه كالسمع وَالْبَصَر، وَالْجمع مِنْهُمَا نِعَمٌ وأَنْعُمٌ، قَالَ ابْن جني: جَاءَ ذَلِك على حذف التَّاء، فَصَارَ كَقَوْلِهِم ذِئْب وأذؤب، وَقطع وأقطع، وَمثله كثير.. والنِّعْمَةُ: المسرة، ونَعِمَ اللّه بك عينًا، ونَعِمَكَ عينًا، وأنعم بك عينًا: أقَرَّ بك عين من تحبّه، أَنْشد ثَعْلَب:

أَنْعَمَ اللّه بالرَّسُولِ وبالمُرْ***سِلِ والحامِلِ الرِّسالَةَ عَيْنَا[1]

3) ﴿وَفَضْلٍ﴾: فَضَلَ، كنَصَر، وعَلِمَ، والفَضْلُ: ضدُّ النَّقص، وأَفْضَل عليه في الحَسَب: زاد[2]، وفي يده فضل الزّمام وهو طرفه، قال ذو الرّمّة:

طَرَحْتُ لَهَا بِالْأَرْضِ فَضْلَ زِمَامِهَا***وَأَعْلَاهُ في مَثْنَى الْخَشَاشَةِ مُعْلَقُ

وللرّئيس فضول الغنائم، وهي ما يفضل عن القسمة، وله في قومه فضول وفواضل، الواحدة: فاضلة، وهو مفضال[3]، أي: أَجْرٌ تَفَضّلَ اللّه بِه عليهِمْ، قد يصدُق على رِبْحٍ في التِّجارةِ، أَوْ أيِّ منافعَ من منافعِ الدُّنيا والآخِرة، والأَوْلى أَنْ يتوافقَ معَ منافعِ الدُّنيا؛ لأَنَّ الحديثَ هُنا معَ الأَحْياء، ويُؤَيِّدُهُ قولُهُ تعالى من بَعْدُ: ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾.

4) ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ﴾، يُقالُ: (مَسَّ) الشَّيْءَ يَمَسُّهُ بالفتح (مَسًّا)، وبابُه: فَهِمَ، وهي اللُّغةُ الفَصيحةُ، وفيه لُغةٌ أُخرى من بابِ رَدَّ[4]، و"مَسِسْتُ الشّيء بالكسر أمسّه مسًّا، فهذه اللّغة الفصيحة، وحكى أبو عبيدة: مَسَسْتُ الشّيء بالفتح أمسُّه بالضّمّ، وربّما قالوا مسّت الشّيء يحذفون منه السّين الاولى، ويحولون كسرتها إلى الميم، ومنهم من لا يحوّل ويترك الميم على حالها مفتوحة، وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝﴾ [الواقعة: 65] يكسر ويفتح، وأصله ظلَلْتم، وهو من شواذّ التّخفيف، وأنشد الأخفش:

مَسْنَا السَّمَاءَ فَنِلْنَاهَا وَطَالَهُمُ***حَتَّى رَأَوْا أُحُدًا يَهْوِي وَثَهْلَانَا[5]

والمرادُ بقولِه: ﴿سُوٓءٌ﴾، أي: سالمينَ من أيِّ سُوء، من إصابةٍ بقَتْلٍ، أو جِراحٍ، أو أيِّ خَوْفٍ يَحْذَرونَ منهُ ومنْ عَواقبِه[6].

(1) ابن سيده، المحكم: (نَعِمَ).
(2) الرَّازي، مختار الصّحاح: (فَضَلَ).
(3) الزّمَخْشري، أساس البلاغة: (فَضَلَ).
(4) الرّازي، مختار الصّحاح: (مَسَسَ).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (مَسَسَ).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 4/183.

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

عاقبة المؤمنين حفظ من السّوء، وتفضّل من صاحب الفضل العظيم

بعد أن قالَ المسلمون: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: 173]، في وجهِ أولئكَ المُثَبِّطين الَّذينَ حاوَلوا إثارةَ الرُّعبِ في قلوبهم، بما أعدَّه أبو سفيانَ وأصحابُه منْ حَشْدٍ، يُريدُ به العَوْدَةَ والانْتقامَ من جماعةِ المؤمنين، كانَ لهذه الكِفايةِ باللّهِ، وصِدْقِ التّوكُّلِ عليه، أثَرٌ بيّنٌ: في انْصرافِ المشركينَ وعَوْدتهم إلى مكَّة، وفي نُزولِ السَّكينةِ في قلوبِ المؤمنين، ورُجوعهِم بتمامِ العافيةِ والسَّلامةِ من عَدوِّهم، مع رِبْحهِم في التِّجارة، وإعطاءِ اللّهِ لهم ثوابَ الغَزْوة، وفَوْزهم باتِّباعِ رضوانِ اللّه، وتثبيتِه لهم[1]، فأعطاهم اللّه ثواب ذلك ورضي عنهم، واللّه ذو فضل عظيم على عباده الصّالحين[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾:

الانقلابُ إلى النعمةِ يأتي إثرَ الاستجابةِ لأمرِ الله بالجهادِ

ابتدأتِ الآيةُ بالفاءِ في قوله: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للتَّعقيبِ في الإِخْبارِ عن ثَباتِ إيمانِهم، وقولِهم: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: 173]، والفاءُ عطفٌ على مقدَّرٍ؛ لأنَّ الانْقلابَ يقتضي أنَّهم خرجوا لِلقاءِ العَدوِّ الّذي بلغَ عنهم أنّهم جَمَعوا له، ولم يَعْبَؤوا بتخويفِ الشّيطان، والتَّقديرُ: فَخَرجوا مجاهدين إليهم ووافَوا الموعِدَ[3]، فانْقلَبوا بنعمةٍ من اللّهِ تعالى.

معنى الباءِ وغرضُ التَّنكير في قوله تعالى: ﴿بِنِعۡمَةٖ﴾:

إسباغُ النعمِ العظيمةِ على العبادِ نتيجةُ الأعمالِ العظيمةِ

الباءُ في قولِه: ﴿بِنِعۡمَةٖ﴾ مُتَعلِّقةٌ بمَحذوفٍ، وقعَ حالًا من الضَّميرِ في ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾[4]، وجاءَ التّنوين في ﴿بِنِعۡمَةٖ﴾ للتّفخيمِ[5]، أي: تَفْخيمُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 4/183، والسَّمعاني، تفسير القرآن: 1/381.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/542.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/602.
(4) العكبري، التبيان: 1/158.
(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/602، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/171.

(نِعْمَةٍ) وإسباغُ العَظَمةِ عليها، فيكونُ المعنَى: فَرَجعوا مِنْ مَقْصَدِهِمْ مُلْتبِسينَ بنعْمةٍ عَظيمةٍ لا يُقادَرُ قَدْرُها، وما قيل في النِّعمةِ يُقال في قولِه: ﴿وَفَضۡلٖ﴾؛ فله حكمُ المعطوفِ عليه.

معنى تعلُّقِ قولِه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بمحذوفٍ:

ما كانَ من اللهِ تعالى فهو النِّعمةُ العظيمةُ والخيرُ العميم

جاءَ قولُه تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلِّقًا بمحذوفٍ صِفَةٍ لِنعْمةٍ مُؤَكِّدةٍ لِفخامَتِها الذَّاتيَّةِ الَّتي يُفيدُها التَّنكيرُ بالفَخامةِ الإضافيَّة، أي: نِعمةٌ كائِنَةٌ من اللّه تعالى، وهي العافيةُ، والثّباتُ على الإيمانِ، والزِّيادةُ فيه، وحَذَرُ العَدوِّ منهم[1]، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يُبيِّنُ النِّعمةَ ويُجلِّي حالَها، فهي من اللّه تعالى وكفى بها ذلك.

بلاغةُ التَّنكيرِ وفنِّ الاحتراسِ في قولِه تعالَى: ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾:

توريثُ الطَّمأنينةِ التَّامةِ من وقوعِ أيِّ سوءٍ

جاء قولُه تعالى: ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ احتراسًا لدفعِ توهمِ أن يمسَّ المؤمنين سوءٌ؛ فإنَّ الانقلابَ بالنِّعمةِ والفضلِ من اللّه تعالى، لا ينفي وقوعَ شيءٍ من السُّوءِ ولو كان يسيرًا، فجاءَ قولُه تعالى: ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ لدفعِ هذا الوَهمِ، وبيانِ أنَّ النِّعمةَ والفضلَ خاليان من أيِّ سوءٍ، وهذا سرُّ تنكيرِ كلمةِ ﴿سُوٓءٞ﴾؛ لِتَدُلَّ على العُموم، والتَّقديرُ: مُنعَّمينَ حالَ كونِهم سالمينَ مِنْ أيِّ سوءٍ، يمكنُ أنْ يتطرَّقَ إليهم[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(انْقلَبوا)، و(رَجَعوا):

قَلْبُ الشَّيءِ: تصريفُه، وصَرفُه عن وَجْهٍ إلى وَجْه، كقلبِ الثَّوب، وقلبُ الإنسان، أي: صرفُه عن طريقته، قالَ تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾ [العنكبوت: 21]، وقلبُ الإنسان، قيل: سُمِّيَ به لِكَثرةِ تَقلُّبه، والانْقلابُ: الانْصرافُ، قالَ تعالى: ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ [آل عمران: 144]، وكذلكَ هو المصيرُ إلى نقيضِ ما

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/602.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/602.

كانَ فيه قبلُ، ويوضِّح ذلك قولُكَ: انقلبَ الطِّينُ خَزَفًا، فأمَّا رُجوعُه خزفًا؛ فلا يصِحُّ؛ لأنَّه لمْ يكن قبْلُ خزفًا(1). والَّذي نخلُصُ إليه من خلالِ هَذا البَيان: أنَّ الفعلَ (انْقَلبواْ) أجْوَدُ بالمَقامِ القرآنيِّ مِنَ الفعلِ (رَجعوا)، فقدِ انقلبَ الصَّحابةُ - رضي الله عنهم - بقيادةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، بمعنَى: صاروا إلى نقيضِ ما كانوا عليهِ مِنْ قبلُ، هؤلاءِ هم خرَجوا؛ ليُلحِقوا الهزيمةَ بالمشركين، بعد أنْ أصابَهم مِنَ القتلِ والجِراحِ ما أصابَهم، ولكنَّهم عادوا إلى مدينتِهم سالمينَ غانمينَ، لم يمسَسْهم سوء، بعد أنْ أنزلَ اللّه الرُّعبَ على قلوبِ المشركينَ، فرَجَعوا إلى مكَّةَ مِنْ حيثُ خرجوا؛ مُنهزمينَ، لم يحقِّقوا أيَّ هدَفٍ مِنْ أهدافِهم.

(يمسسْ)، و(يُصيبُ):

تقدَّم الفرقُ بين هذيْن الفعليْن في قولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ [آل عمران: 166]، وذَكرْنا حينَها أنَّ قولَه: ﴿أَصَٰبَكُمۡ﴾ أَلْيَق بالسِّياق، في المَشْهدِ المُعْلَنِ عنه في غَزوةِ (أُحُدٍ)، أمّا هنا في هذه الآيةِ الكريمة؛ فالَّذي يناسبُ السِّياقَ استخدامُ الفعلِ ﴿يَمۡسَسۡهُمۡ﴾ حيثُ رجعَ المسلمونَ بقيادةِ رسولِ اللّهِ ﷺ إلى ديارِهم في المدينة، بعد أنْ صرَفَ اللّه عنهم عدوَّهم، لم يَمْسَسْهم أيُّ سوء، والمَسُّ: هو أقلُّ درجاتِ الإصابة(2).

الإرادة والرِّضْوان:

الرِّضا: يُقالُ: رَضيَ يَرْضَى رِضًا، فهو مَرْضيٌّ ومَرْضوٌّ، ورضا العبدِ عَنِ اللّه: ألَّا يَكرَه ما يَجري به قَضاؤُه، ورضا اللّهِ عَنِ العبد: هو أنْ يَراهُ مُؤتمِرًا لأمرِه، ومُنتهيًا عن نَهيِه، قالَ اللّه تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: 119]. والرِّضوانُ: الرِّضا الكثيرُ، ولَمّا كانَ أعظمُ الرِّضا رضا اللّهِ تعالى؛ خُصَّ لفظُ الرِّضوانِ في القرآنِ بما كانَ مِنَ اللّهِ تعالى، قالَ اللّه ﷻ: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ [الفتح: 29](3)، وأمّا الإرادةُ؛ فهي منقولةٌ مِنْ (رادَ) (يَرودُ): إذا سعَى في طلبِ الشَّيء، وجُعلَ اسْمًا لِنزوعِ النَّفْسِ إلى الشَّيْءِ مع الحُكم فيه، بأنَّه يَنبغي أن يُفعَلَ، أوْ لا يُفعَل، ثم يُستعمَلُ مرّةً في المبدأ، وهو نُزوعُ النّفسِ إلى الشَّيء، وتارةً في المُنتهَى، وهو الحكمُ فيه بأنَّه ينبغي أنْ يُفعلَ أوْ لا يُفعَل، فإذا استُعمِلَ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 681، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 249.
(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/459، والفيروزابادي، القاموس المحيط، ص: 741.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 371.

في اللّه؛ فإنَّه يُرادُ به المُنتهَى دونَ المبدأ، فإنَّه يتعالَى عن معنَى النُّزوع، فمتَى قيلَ: أرادَ اللّه كذا؛ فمعناهُ: حَكمَ فيه أنَّه كذا، وليس بكذا، نحوُ قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةًۚ﴾ [الأحزاب: 17](1)، وإرادةُ الطّاعةِ تكونُ قبلَها، والرِّضا بها يكونُ بعدَها، أوْ معَها، فليس الرِّضا مِنَ الإرادةِ في شيْء، والرِّضا أيضًا نَقيضُ السُّخْط، والسُّخْطُ مِنَ اللّهِ تعالى إرادةُ العِقاب، فينبغي أنْ يكونَ الرِّضا منه إرادةَ الثَّواب، أوِ الحكم به(2)، وممّا تقدَّم بيانُهُ؛ يتَّضحُ أنَّ إيرادَ البيانِ الإلهيِّ لكلمةِ (رِضْوان)، أنسَبُ بالسِّياقِ القرآنيِّ، فهؤلاءِ الصَّحابةُ - ﭫ - قدْ رَضواْ عنِ اللّه، فلم يكرَهواْ ما جرَى به قضاؤه، ممّا حلَّ بهم مِنَ الهزيمةِ والجِراح في (أُحُدٍ)، وأيقنواْ الدَّرسَ الكبيرَ الَّذي تَعلَّموه، جَرّاءَ مخالفةِ الرُّماةِ لأمرِ رسولِ اللّهِ ﷺ، ورَضواْ كذلكَ عنِ اللّهِ تمامَ الرِّضا، بعد أنْ صرَفَ عنهُم أعداءَهمُ الَّذينَ أرادواْ العَوْدَ لِقتالِهم كرَّةً ثانية، وأعادَهُم سالمينَ غانمينَ بخيْرَيِ الدُّنيا والآخِرة، وهذا كلُّه لا تَفي به كلمةُ (الإرادة)، كما سَلَف.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 56.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 34.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران: 175]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرّبـط بين عـودة المؤمنين من غير سوء، ونبذ الخوف من الشّيطان وأوليائه

لمَّا انقلبَ الصَّحابةُ ﵃ بقيادةِ رسولِ اللّهِ ﷺ إلى مدينتِهم بفضلٍ من اللّهِ ونعمة، لم يَمْسَسْهم سوءٌ، بعد أن رَكَلوا مقالةَ المثبِّطين: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ [آل عمران: 173]؛ ساقَ بيانُ اللّهِ الآيةَ الكريمةَ؛ ليؤكِّدَ أنَّ الَّذي نَفَثَ في رَوْعِ أصحابِ تلك المقالةِ المثبِّطة؛ لترهيبِ المسلمين، إنَّما هو الشَّيطانُ، الَّذي ليس له سلطانٌ بالتَّخويفِ والتَّرويع إلّا على مَنْ تولّاه، وألقَى له حَبْلَ قيادته، ومن واجبِ المسلمينَ ألَّا يَخافواْ أنصارَ الشَّيطان، بلْ يخافواْ اللّهَ ﷻ دونَ سِواه، "فإنَّ الإيمانَ يقتضي إيثارَ خوفِ اللّه تعالى، على خوف غيرِه، ويستدعي الأمنَ من شرّ الشّيطانِ وأوليائِه"[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: مِنْ (شَطَطَ)، أي: بَعُدَ، والشَّيطانُ بَعُدَ عنِ الحقِّ، بتكبُّرِه على أمرِ اللّهِ تعالى، وتأتي من (شَطَنَ)، والشّيطانُ: نونُه أصليّةٌ، وقيل: إنّها زائدةٌ، فإنْ جَعَلْتَه فَيْعالًا مِنْ قولِهم: (تَشَيْطَنَ) الرَّجُلُ؛ صَرَفْتَه، وإنْ جعلتَه مِنْ تَشيَّطَ؛ لم تَصرِفْه؛ لأنَّه فَعْلانُ، والشَّيطانُ: كلُّ عاتٍ متمَرِّدٍ من الإنس والجنِّ والدّوابِّ، والمرادُ هنا الشَّيطانُ المعروف[2]، "والشّيطان: فيعال من شطن، أي: بعد، ويقال: شيطن الرّجل، وتشيطن، إذا صار كالشّيطان، وفعل فعله"[3].

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/115.
(2) الرّازي، مختار الصّحاح، ص: 297، والقاموس المحيط: (شَطَطَ) و(شَطَنَ).
(3) الخليل، العين: (شَطَنَ).

2) ﴿أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾: (الوَلْيُ) بسكونِ اللّام: القُرْبُ والدُّنوُّ، يُقال: تباعَدَ بَعدَ وَلْيٍ، والموالاةُ ضِدُّ المعاداة، و(الوَلاية) بالفتحِ والكَسْرِ: النُّصْرةُ[1]، والمرادُ هنا: الَّذينَ يَتَوَلَّوْنَهُ، ويَسْتنصِرونَ به، والمرادُ بهمُ المنافقون، أو أبو سفيانَ وأصحابُه، أو عُمومُ الكافرينَ[2]، والوليُّ: ضدّ العدوّ، يقال منه: تولّاه، والمولى: المعتِق، والمعتَق، وابن العمّ، والنّاصر، والجار، والوليّ: الصّهر، وكل من ولي أمر واحد، فهو وليّه، وقول الشّاعر:

هُمُ المَوْلَى وَإِنْ جَنَفُواْ عَلَيْنَا *** وَإِنَّا مِنْ لِقَائِهِمُ لَزُورُ

قال أبو عبيدة: يعنى الموالي، أي بني العمّ[3].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

الشّيطان يخوّفكم من أوليائه الكفرة، بأوليائه المرجفين

إنّ ترهيبَ مَنْ رهَّبَ مِنَ المشركين، وقال: إنّ أبا سفيان وأصحابَه قد جَمعوا مقاتليهم لكم، إنَّما هو شيطانٌ أو داعيةٌ من دُعاته، يخوِّف أنصارَه الَّذينَ عُدِمَ إيمانُهم، أو ضَعُفَ، فحذارِ حذارِ - أيُّها المؤمنون - أنْ تخافوا المشركين، أولياءَ الشَّيطان، فإنّ نواصيهم بيدِ اللّهِ تعالى، لا يَتصرَّفونَ إلَّا بقدَرِه، بل خافواْ اللّه الَّذي ينصُرُ أولياءَه الخائفينَ إيَّاه المستجيبينَ لدعوته[4]، "فأولياء الشّيطان إذا كانوا قد خوَّفواْ المؤمنين بالكثرة والعدد، والهزيمة القريبة، فذلك هو منطقهم ومنطق الشّيطان، أمّا المؤمنون فهم أولياء اللّه، ولا يعتمدون إلّا عليه"[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الاستئنافُ البيانيُّ يُعيِّن قائلَ قولة التَّثبيطِ

توجيهُ سببِ الفصلِ في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾:

قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ إمّا أن يُحملَ على أنّه استئنافٌ بيانيٌّ؛ وذلك في حال أن يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ

(1) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس: (وَلَي).
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/603.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: 1/603.
(4) الشَّوكاني، فتح القدير: 1/649 - 650، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 118.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1513.

﴿لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: 173] بدَلًا أوْ صفةً من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [آل عمران: 172]، ومعنى الاستئنافِ البيانيِّ: تقدير سؤالٍ سائلٍ عمَّن قال للمؤمنين تلك المقولةُ؟ فكان الجوابُ إنَّما ذلكم الشَّيطان، وهذا الوجهُ هو الأوجه في هذه الجملةِ.

وإمّا أن يكون قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ خبرًا عن ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: 173]؛ في حال إعرابِ قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ مبتدأً، والتَّقديرُ: قال لهمُ النَّاسُ إنّما مقالُهم يُخوِّفُ الشَّيطانُ به.

ورابطُ هذهِ الجملةِ بالمبتدأ على هذا التَّقديرِ: هو اسْمُ الإشارةِ، واسْمُ الإشارةِ مُبتدأٌ، وهو إمّا عائدٌ إلى المقالِ، فلفظُ الشَّيطانِ على هذا مُبتدأٌ ثانٍ، ولفظُه مُستعمَلٌ في معناهُ الحقيقيِّ، والمعنَى: أنَّ ذلكَ المقالَ ناشِىءٌ عن وَسْوسَةِ الشَّيطانِ في نفوسِ الَّذين دَبَّروا مكيدةَ الإرْجافِ بتلكَ المقالةِ؛ لتخويفِ المسلمينَ بواسطة رَكْب عبدِ القَيْس.

وإمّا أن تعودَ الإشارةُ إلى ﴿ٱلنَّاسُ﴾ مِنْ قولِه: ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: 173]؛ لأنَّ النّاسَ مُؤَوَّلٌ بشَخْص، وهو نُعَيمُ بنُ مَسْعود، فالشَّيطانُ بدَلٌ، أوْ بيانٌ منِ اسْمِ الإشارةِ، وأُطلقَ عليه لفْظُ (شيطان) على طريقةِ التّشبيه البليغ(1).

سرُّ استعمالِ أداة ﴿إِنَّمَا﴾:

الحذرُ من الشَّيطانِ مسلكُ المؤمنين وحكمةُ العقلاءِ

آثرَ النَّظم استعمالَ أداة ﴿إِنَّمَا﴾ التي أفادَتِ الحَصْرَ في أنَّ الّذي ثبّطَ، وخوّفَ ويسعى إلى ذلك على الدَّوامِ هو الشَّيطانُ وأولياؤه، وبتعيينِ السَّببِ يذهب العجب، ويدلُّ المؤمنين على معرفةِ من يُحرِّكهم الشَّيطانُ بوساوسِه، والشَّيطان معلومٌ لدى المؤمنين، وحصرُ التَّخويفِ به لبيانِ خطرِه، والحذر من كلِّ ما يبعثُ في النَّفسِ تخويفًا وترهيبًا.

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ في قولِه: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾:

امتلاءُ القلبِ من الخشيةِ طاردٌ للوَساوِسِ والأراجيفِ

في قولِه تعالى: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ مجازٌ بالحذفِ، تقديرُه: يُخوِّفُكُمْ أولياءَه، فحُذِفَ المفعولُ به الأوَّلُ لفعلِ ﴿يُخَوِّفُ﴾، والدَّليل

(1) العكبري، التبيان: 1/158، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/171 - 172.

على ذلك قولُه بعدَه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾، فإنَّ خوَّفَ يتعدّى إلى مفعولَيْنِ[1]، ويجوزُ حملُه على حذفِ آخر؛ فيكون المعنى: الشَّيطانُ يخوِّف أولياءه منكم، فلا تخافوهم، وهذا أقوى وأرسخ، إذ تخويف الشَّيطان لأوليائه لا لأولياء الرَّحمن، ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ۝١٠٠﴾ [النَّحل: 99 - 100]، وفيه حذفٌ بديعٌ وتقديره: الشَّيطانُ يُخوِّفُ أولياءَه ليجمعوا لكم ويُحاربوكم، فلا تخافوهم، وهذا أبلغ من تقدير: يخوِّفكم أولياءَه.

نكتةُ استعمالِ اسم الإشارةِ للبعيدِ:

التَّهوينُ من شأنِ الشَّيطانِ وأثرِه

هوَّنتِ الآيةُ من الشَّيطانِ وما ينتجُ عنه مِنْ سوءٍ بأشكالِه المختلفةِ، عندما استعملتِ الآيةُ اسْمَ الإشارةِ الَّذي يُفيدُ البُعدَ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾؛ لتُؤكِّد بُعْدَ الشَّيطانِ وجماعتِهِ مِنْ أنْ يكونَ لهم أيُّ تأثيرٍ وسُلطانٍ على المؤمنينَ الَّذين هم على ربِّهم يتوكَّلون،

قولُه سُبحانه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ﴾.

معنى الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾:

تعليلُ النَّهي عن الخَوْفِ قبل الشُّروعِ بالنَّهي

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ﴾ لترتيبِ النَّهي، أوِ الانتهاءِ على ما قبلَها، أي: فَلا تَخافوني، فتقعُدوا عنِ القتالِ، وتجبُنوا، وخافوني، فجاهِدوا مع رَسولي، وسارِعوا إلى ما يأمرُكُم به، والخطابُ بذلكَ للفريقينِ الخارجينَ للقتالِ والقاعِدين، ونبَّهتِ الفاءِ على ما وردَ قبلَها من كونِ المُخَوِّف: هو الشَّيطانُ، وإذا كانَ ذلك كذلك؛ فقد وجبَ عدمُ الخَوْفِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ ضعيفٌ، كما قالَ تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦﴾ [النساء: 76][2].

(1) العكبري، التبيان: 1/158، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/172.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/603.

فائدةُ جمعِ الضَّميرِ في قولِه: ﴿تَخَافُوهُمْ﴾:

أساليبُ الشَّياطين متجدِّدةٌ في أثرِها وتأثيرِها

جمعُ الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾، دون إفرادِه فلم يقل: (فلا تخافوه)؛ لتنبيهِ المؤمنين إلى أنَّ أولياءَ الشَّيطانِ كثيرون في طرائِقِهم، وأساليبِهم، وأنَّ على المسلم الانتباه منهم، فالمحرِّضُ واحدٌ، وأتباعُه كثرةٌ، وهو ما يُرشِّحُ حملَ النَّظمِ في قولِه: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ على ظاهرِه لا تقدير يخوِّفكم كما سبق بيانُ ذلك.

نكتةُ تأخيرِ ماحقُّه التَّقديم:

إلهابُ المؤمنين الشَّعورَ بالإيمان لتقويتِهم في مجابهةِ أولياءِ الشَّيطانِ

جاءت أداةُ الشَّرط وفعلها ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ متأخِّرَيْن عن الجوابِ الَّذي تقدَّم مُصَدَّرًا بالفاءِ الرَّابطةِ للجواب في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾، والأصلُ: إن كنتم مؤمنين فلا تخافوهم وخافونِ، لكنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخيرُ، وتأخيرَ ما حقُّه التَّقديمُ، من وجوه البلاغةِ القرآنيَّة الفريدة، ونكتتُه في هذه الآية الإلهابُ والتَّهييجُ، "تذكيرًا وإحماءً لإيمانِهم، وإلّا فقدْ عُلِمَ أنّهم مؤمنونَ حقًّا"[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوِلايَة والنُّصرَة:

الوَلاية والوِلاية: النُّصرةُ، قالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٦٨﴾ [آل عمران: 68]. وقالَ سُبحانَه: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحجّ: 78]. ونفَى اللّه تعالى الوِلايةَ بين المؤمنينَ والكافرينَ في غيرِ آية، منها قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف: 3]. وقولُه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: 1]. وجعلَ بين الكافرينَ والشَّياطين موالاةً في الدُّنيا، ونفَى بينَهمُ الموالاةَ في الآخرة، فمِنَ الأوْلَى قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 30]، ومِنَ الثّانيّة

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/172.

قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا﴾ [الدّخان: 41]، والمَوْلَى تأتي بمعنَى: المُعتِق، والمُعْتَق، وابنِ العمِّ، والنَّاصر، والجار، والحَليف[1].

النَّصرُ والنُّصرة: العَوْنُ، قالَ تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ [الصّف: 13].

ونُصرةُ اللّهِ للعبدِ ظاهرةٌ، ونُصرةُ العبدِ للّهِ: هو نُصرتُه لعبادِه، والقيامُ بحفظِ حدودِه، ورعايةِ حقوقِه، واعْتناقِ أحكامِه، واجتنابِ نهيِه، قالَ ﷻ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمّد: 7][2]. ويتَّضحُ ممَّا تقدَّم أنَّ اسْتخدامَ البيانِ الإلَهيِّ لكلمة ﴿أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ أوْلى بالسِّياق القرآنيِّ من كلمةِ (أنصارَه)؛ لأنَّ الوِلايةَ لها مفهومٌ أوْسعُ من النُّصرة، ومعانٍ عديدةٌ، واسْتخدامُها في الموالاةِ بين الكافرينَ والشَّياطينِ كثيرٌ في آياتِ القرآنِ الكريم، كما ذكرنا. وموالاةُ الكافرينَ للشَّياطينِ والعكسُ: هي موالاةٌ في الدُّنيا فقط؛ لأنَّها قائمةٌ على تحقيقِ مصالحَ شرّيرةٍ محْضَة، أمّا في الآخرةِ؛ فهي مُنْتَفيةٌ، بلْ تنقلبُ إلى عداوةٍ شَرسةٍ بين الشَّريكَيْن، ويتملَّصُ كل فريق وطَرَفٍ ممَّن كانَ يصاحبُه، ويناصرُه في الدُّنيا، كما جلَّى لنا البيانُ الإلهيُّ هذه الحقيقةَ أجْلَى بيان، بقولِ الحقِّ تباركَ وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾ [إبراهيم: 22]، وقولُه ﷻ حكايةً لقولِ إبراهيمَ عليه السلام لقومِه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥﴾ [العنكبوت: 25].

الخَوْف والخَشْية:

سَبقَ بيانُ الفرقِ بين هذين المصْطَلَحَيْن عندَ تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [آل عمران: 170]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ [آل عمران: 173]، ولكلِّ مقامٍ مِنَ السِّياقيْنِ السَّابقَيْنِ مَقالٌ يُناسبُه. وهنا في هذا المقامِ نجدُ نهيًا إلهيًّا لجماعةِ المؤمنينَ ألَّا يَخافواْ مِنَ الشَّيطان وأوليائِه،

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/418، والرّاغب، المفردات، ص: 185 - 186، والرّازي، مختار الصّحاح، ص: 650.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 808 - 809، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 577.

أَعْقبَه مباشرةً أمرٌ إلهيٌّ لجماعةِ المؤمنينَ أنْ يَخافوا اللّٰه وحدَهُ؛ إنْ كانوا مؤمنين، فما العلّة هنا في ذِكْرِ الخوفِ دونَ الخَشْية ؟ذَكرْنا سابقًا أنَّ الخشيةَ هي أشدُّ الخَوْف، فهل كان صحابةُ رسولِ اللّٰهِ ﷺ قد بَلغوا أشدَّ الخوفِ من المشركينَ حتَّى يقولَ اللّٰه تعالى لهم: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ [البقرة: 150]؟ الجوابُ واضحٌ أنَّه بالنَّفْي، ولكنَّ الصَّحابةَ ﷺ بَشَرٌ، فلا غَرْوَ مِنْ أنْ يَتسلَّلَ الخوفُ إلى قلوبِهم، حتَّى وإنْ كانَ المُخَوَّفُ أمرًا يسيرًا، وشيئًا هيِّنًا، ثمَّ إنَّ الخشيةَ هي خوفٌ مَشوبٌ بتعظيمِ المَخْشيِّ، صادرٌ عن علمٍ ويقينٍ صادقٍ، ومعرفةٍ بعظَمتِه، وليس لذلكَ أيُّ حسابٍ أوْ مِصداقيَّةٍ في نفوسِ الصَّحابة ﷺ، فلم يكونوا يُعظِّمون إلّا مَنْ يَستحِقُّ التَّعظيمَ، بلا حُدودٍ ولا قُيود، وهو اللّٰه وحدَه دونَ سِواه، واللّٰه يعلمُ ذلكَ أكثرَ مِنْ علمِهمْ بأنفُسِهم، ولذلكَ حُقَّ أنْ يقولَ اللّٰه عزّ شأنُه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾، وقولُه تعالى بعدَ ذلكَ: ﴿وَخَافُونِ﴾، هو مِنْ بابِ المُشاكلةِ اللُّغويّةِ الَّتي تقتضي مُسايَرةَ الكلمةِ وموافقَتَها بكلمةٍ مِنْ جِنْسِها ورَسمِها؛ وإنِ اخْتلفَ المعنَى بينَهما، كما قالَ تعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشّورى: 40]، وليس جزاءُ السَّيِّئةِ في واقعِ الأمرِ والحالِ سيِّئة، وإنَّما هو خيرٌ وحُسْن، وإلّا فإنَّ الصَّحابةَ ﷺ أشدُّ النّاسِ خشيةً للّٰه، وأَعْلَمُهم باللّٰهِ بعدَ رسولِ اللّٰه ﷺ.

الإيمان والإسلام:

(الإيمانُ): هو الإقرارُ باللِّسان، والتَّصديقُ بالجَنان، وهو عملُ القلبِ الَّذي هو المحبَّةُ على سبيلِ الخُضوع، وجميعُ ما صحَّ عن رسولِ اللّٰهِ ﷺ مِنَ الشَّرعِ والبيانِ، كُلُّه حقٌّ، والإيمانُ واحد، وأهلُه في أصلِه سَواء، والتَّفاضلُ بينَهم بالخَشيةِ والتُّقى، ومخالفةِ الهوَى، وملازمةِ الأَوْلى[1]. و(الإسلامُ): شهادةُ أنْ لا إلهَ إلّا اللّٰه، والتّصديقُ برسولِ اللّٰه ﷺ، وإقامُ الصَّلاة، وصومُ رمَضان، وأداءُ الزَّكاة، وحجُّ البيتِ مَنِ اسْتطاعَ إليه سبيلًا. والإيمانُ أرفعُ من الإسلامِ بدرجةِ أنَّ الإيمانَ يُشارِكُ الإسلامَ في الظّاهر، والإسلامُ لا يُشارِكُ الإيمانَ في الباطِن، وإنِ اجْتمَعا في القولِ والصِّفة. فالإسلامُ أعمُّ مِنَ الإيمان، معَ اعْتَضادِهما بما نَطقَ به القرآنُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجُرات: 14] فإنَّه سُبحانه أثبت

(1) ابن تيمية، الفتاوى: 2/40 - 41، وابن أبي العزّ، شرح العقيدة الطَّحاوية: 2/459.

لهمُ الإسلامَ، ونفَى عنهمُ الإيمان[1]. وما تَقدَّمَ يُظهرُ أنَّ إيرادَ كلمةِ ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ أنْسَبُ بالمقام من كلمةِ (مُسلمينَ)؛ لأنَّ الإيمانَ عملُ القلب، وبه المحبَّةُ على سبيلِ الخُضوعِ التَّامِّ لِلّهِ ولشريعتِه، وهو أرفعُ من الإسلام، ثمَّ إنَّ سياقَ النَّصِّ القرآنيِّ ذكرَ الخَوْفَ بقول اللّه تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ والخَوْفُ عملُ القلبِ، فهو والإيمانُ سواءٌ في أنَّهما عبادة قلبيَّة، فمَنْ آمنَ باللّهِ حقَّ الإيمانِ في قلبِه؛ خافَ مِنَ اللّهِ حَقَّ الخَوْفِ في قلبِه، وقد قال النّبيّ ﷺ: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي، إِنَّمَا الْإِيمَانُ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ»[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 318 - 319، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 23.

(2) ابن أبي شيبة، المصنّف، ص: 23.

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦﴾ [آل عمران: 176]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط نبذ الخوف من أولياء الشّيطان، بترك الحزن على أهل الكفر والهوان

لَمَّا بيّن اللّه ﷻ في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ أنَّ للشّيطانِ أولياءَ يُخوّفُهم فَيخافونَه، وأنَّ الإيمانَ صِمامُ أمانٍ يقي صاحبَه الخَوْفَ إلَّا من اللّه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، جاءتْ هذه الآيةُ المباركَةُ تسليةً لرسولِ اللّه ﷺ في حُزنِه الشَّديدِ على أولئك الَّذين يُسارعونَ في الكُفْر أنِ اتَّبعوا الشَّيطانَ الَّذي يَخافونَه، أنّهم لن يَضرُّوا إلّا أنفُسَهم، وليس لهم، ولا لشيطانِهمُ الّذي خافوهُ، فاتّبعوهُ، إلّا البُعْدُ من رحمةِ اللّه، والعذابُ العظيمُ الَّذي ينتظرهم، "فالمعركة ليست مع المؤمنين، ولكنّها معركة الكافرين مع اللّه، وما دامت المعركة مع اللّه، فالمؤمنون جند اللّه؛ وهم الصّورة الّتي أرادها اللّه لهزيمة الكافرين"[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ﴾: (الحُزْنُ) و(الحَزَنُ): الهَمُّ ضِدُّ السُّرور، حَزِن، يَحْزَنُ، حُزْنًا، فهو حَزِنٌ، وحَزينٌ[2]، وفيها لُغتان: بفتح الياء وضمّ الزَّاي، وبضمِّ الياء وكَسْرِ الزَّاي - يُقال: حَزَنَني الأمْرُ، وأَحْزَنَني، إلّا أنّ الأوْلى هي اللُّغةُ العاليةُ الفَصيحةُ[3]، "وقال أبو

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1883.

(2) الرازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس: (حَزِنَ).

(3) الأولى قراءة الجمهور، والثّانية قراءة نافع، وكذلك جميع ما في هذا القرآن من هذا الفعل إلاّ التي في [الأنبياء: 103]، في قوله تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ فإنّه بفتح الياء، وضمّ الزّاي، ينظر: ابن مجاهد، السّبعة، ص: 219، ومكّي ابن أبي طالب، الكشف: 1/365، وابن زنجلة، الحُجّة، ص: 181.

عمرو: إذا جاء الحزن منصوبًا فتحوه، وإذا جاء مرفوعًا أو مكسورًا ضمّوا الحاء، كقول اللّه ﷻ: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ [يوسف: 84]، أي أنه في موضع خفض، وقال: ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا﴾ [التّوبة: 92]؛ أي أنّه في موضع النّصب، وقال: ﴿أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86] ضمّوا الحاء ههنا: (الهمّ)، وفي الصّحاح: خلاف السّرور"[1].

2) ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾: السُّرعةُ: ضدُّ البُطءِ، و(أَسْرعَ) في السَّيْر، وهو في الأصل مُتعدٍّ، والمسارعةُ إلى الشَّيء: المبادرةُ إليه[2]، "وهم يسارعون إلى الخير ويتسارعون إليه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [المؤمنون: 61]، وفلان يتسرّع إلى الشّرّ، ولَسُرْعَانَ ما جئت، ولَوُشْكَانَ، ولَعَجْلَانَ، وروى الكسّائي فيه الحركات الثّلاث، وفي مثل (سرعان ذا إهالة) وقال:

أَتَخْطُبُ فِيهِمْ بَعْدَ قَتْلِ رِجَالِهِمْ *** لَسُرْعَانَ هَذَا وَالدِّمَاءُ تَصَبَّبُ[3]

والمرادُ بهم في الآية كفّارُ قُريْش، وقيل: هم قومٌ ارتدُّوا، فاغتمَّ النَّبيُّ ﷺ لذلك، وقيل: هم المنافقون، وقيل: هو عامٌّ في جميع الكفّار[4].

3) ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ﴾: الضُّرُّ: ضدُّ النَّفع، وبابُه: رَدَّ، و(ضارَّهُ) بمعنى: ضَرَّه، والاسْمُ: الضَّرَرُ[5]، "والعرب تقول: لا يضرّك هذا الأمر ضرًّا، ولا يضيرك ضيرًا، والضّرورة والضّارورة واحد، وهو الاضطرار إلى الشّيء، وفي الحديث: "يكفي من الضّرورة أو الضّارورة صبوح أو غبوق"[6]، أي الميتة إذا أصابها وهو مضطر إليها، والمضطرّ: مفتعل من الضّرّ"[7]، والمعنى هنا في الآية: أنَّ كُفرَهم لا يُنقِصُ من مِلك اللّهِ ﷻ شيئًا، ويُحتملُ أَنْ يُرادَ: لن يَضرُّوا دينَه الَّذي شَرَعهُ لعبادِه، ولنْ يُضِرُّوا أولياءَه[8].

4) ﴿أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا﴾: الحظْوةُ: بضمِّ الحاء وكسرها، والحِظَةُ: المكانةُ، والحَظُّ من

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: 34/411.
(2) الفيروزآباديّ، القاموس: (سَرَعَ).
(3) الزّمَخْشري، أساس البلاغة: (سَرَعَ).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 4/185، وابن هشام، السّيرة النّبويّة: 3/128.
(5) الرّازي، مختار الصّحاح: (ضَرَرَ).
(6) الحاكم، المستدرك، الحديث رقم: (7258).
(7) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ضَرَرَ).
(8) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/604.

الرِّزق، والحَظُّ: النَّصيبُ[1]، "وقال أبو زيد: جمع (الحظ) حظ، (وحظوظ)،، وزاد ابن عباد: حظوظة، بضمّهن وهي جموع الكثرة، ومنه قول الشّهاب المقّري في أوّل قصيدته المشهورة:

سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الْحُظُو *** ظَ فَلا عِتَابَ وَلَا مَلَامَهْ"[2]

والمعنى هنا: أنَّ اللّه يُريدُ ألّا يجعلَ لهمْ نَصيبًا في الجنَّة أوْ نصيبًا منَ الثَّواب[3].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

نهي النّبي عن الحـزن عمّن كفر وغدر، فإنّه عليه لا على الله الضّرر

ارتدَّ قومٌ عن الإسلام، فاغتمَّ النبيُّ ﷺ، وحزِنَ حزنًا شديدًا لذلكَ، ولمِن يُسارعُ في الكُفر عِنادًا وجُحودًا من قريشٍ وغيرها، فَسَلَّاه اللّهُ ﷻ، ونَهاهُ عن الحُزْن، وعلّل ذلكَ بأنّهم لن يَضُرُّوا اللّه شيئًا، وإنّما ضَرُّوا أنْفُسَهم بألَّا حظَّ لهم في الآخرة، لأنهم انصرفوا عن دعوة الحقّ، وسارعوا في الكفر، وبذلك كان لهم عذابٌ عظيمٌ[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ الانتقال من النَّهي عن الخوفِ إلى النَّهي عن الحزنِ:

مقامُ النَّبيِّ في منزلةٍ سامقةٍ لا يبلغُها آحادُ النَّاسِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ نهيٌ للرسول ﷺ عن أنْ يَحزَنَ من فعلِ قومٍ يَحرِصونَ على الكفر، وهو معطوفٌ على قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾، فهو انتقالٌ من خطابِ المؤمنين إلى خطابِ رسولِهم ﷺ، ونكتتُه الانتقالُ من نهي المؤمنين عن الخوفِ إلى نهي الرَّسولِ عن الحزنِ، فحزنُ النَّبيِّ هو على الكافرين، بخلافِ خوفِ المؤمنين فهو من الكافرين، وفي هذا الانتقالِ بيانُ منزلةِ رسولِ اللّه ﷺ، في حرصِه على إيمان الجميع المؤمنِ والكافرِ، فهو في منزلةٍ لا يبلغُها آحادُ النَّاسِ.

(1) الفيروزآباديّ، القاموس: (حَظا).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حَظظ).
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/184.
(4) الشَّوكاني، فتح القدير: 1/653، والسَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 118.

استعمالُ النَّهيِ عن اللّازمِ بإرادةِ الملزوم

المقصودُ بالنَّهي في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ نهي المؤمنين عن الحزنِ على المسارعين في الكفرِ، وذلك أنَّ النَّهيَ عن التَّأثير نهيٌ عن التَّأثُّر بأصلِه، ونفيٌ له بالمرَّة، أي: نهي النَّبيِّ عن التَّأثيرِ في المؤمنين هو في الحقيقةِ نهيٌ عن أن يتأثَّرَ هو بذلك، فهذا أبلغُ في النَّهي، فهو نهيٌ عن اللازمِ، والمرادُ نهيٌ عن الملزومِ[1].

توجيه القراءات القرآنيَّة:

قُرِئَ: ﴿يَحْزُنكَ﴾ بفتح الياءِ وضَمِّ الزَّاي مِنْ (حَزَنَهُ)؛ إذا أَدْخَلَ عليه الحُزْن، وقُرِئَ: ﴿يُحْزِنكَ﴾ بضمِّ الياءِ وكَسْرِ الزَّاي مِنْ (أَحْزَنَهُ)[2]، والفرقُ بينهما أنَّ معنى حزَنه: جعل فيه حُزْناً، كما في دهَنه، أي: جعل فيه دُهْناً، ومعنى أحزنه: جعله حزيناً، وقيل: معنى حزَنه: أحدث له الحزَن، ومعنى أحزنه: عرَّضه للحُزْن[3].

إيجازُ التَّضمينِ في قولِه سبحانَه: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾:

مسارعةُ الكافرين جاءَتْ عن رغبةٍ ومحبَّة

ضُمِّنَ قولُهُ: ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ معنى: (يَقَعون)، فَعُدِّيَ بـ ﴿فِي﴾، أي: يَقَعونَ فيه سريعًا، ويَرْغبونَ فيه أشدَّ رغبة[4]، ففيه تعليلُ النَّهي، أي: أنَّ هؤلاءِ الذين يكفرون إنَّما يكفرون مسارعين دون تمهُّلٍ أو تريُّثٍ، فلا يحزُنك كفرُهم الآتي عن رغبةٍ لا رهبة، وعن محبَّةٍ لا إكراه.

المسارعةُ في الكفرِ تمثيلٌ للحرصِ وطلبِ التَّمكين

ويصحُّ حملُه على الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ، إذ شَبَّهَ حالَ حِرْصِهم، وجِدِّهم في تكفيرِ النَّاس، وإدخالِ الشَّكِّ على المؤمنين، وتَرَبُّصِهمُ الدَّوائر، وانْتهازِهمُ الفُرَصَ؛ بحالِ الطَّالبِ المسارِعِ إلى تحصيلِ شيءٍ يخشَى أنْ يَفوتَه، وهو مُتَوَغِّلٌ فيه، مُتلَبِّسٌ به؛ فلذلك عُدِّيَ بــ ﴿فِي﴾ الدَّالةِ على سُرعتِهم، سُرعةَ طالبِ التّمكين، لا طالبِ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/604.
(2) ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 219، ومكيّ، الكشف: 1/365، وابن زنجلة، الحُجَّة، ص: 181، وابن الجزري، النشر: 2/244.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/604.
(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/481.

الحُصول؛ إذْ هو حاصلٌ عندَهم، ولو عُدِّيَ بـ (إلى)؛ لَفُهِمَ منه أنَّهم لم يكفُروا عند المسارَعة[1].

استعمالُ حرفِ الظَّرفيَّةِ لبيانِ شـدَّةِ التَّلبُّسِ بالكُفرِ

إيثارُ ذِكْرِ حرفِ ﴿فِي﴾ دون حرفِ (إلى) للإشعار باستقرارِهم في الكفر ودوام ملابستِهم له في مبدأِ المُسارعةِ ومُنتهاها، كما في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [المؤمنون: 61]، فإنَّ ذلكَ مُؤْذِنٌ بِمُلابَستِهم للخَيْرات، وتقلُّبهم في فُنونِها في طَرَفَي المسارعةِ وتضاعيفِها، ولزيادةِ البيانِ؛ فإنَّ إيثارَ ذكرِ حرفِ (إلى) في قوله تعالى: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾؛ فلأنَّ المغفرةَ والجنةَ منتهى المسارعةِ وغايتُها[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في قولِهِ سبحانَه: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾:

تعليلُ النَّهي بما في حيِّزِ الصِّلةِ

المرادُ بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾: المنافقونَ من المتَخلِّفينَ وطائفةٌ منَ اليهودِ، حَسْبَما عُيِّن في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ﴾ [المائدة: 41] أولئكَ جميعُهم مُلابِسونَ للكُفرِ، مُتقلِّبونَ في فُنونِه معَ المسارعَةِ فيه، وقيل: قومٌ ارتدوا عن الإسلام، والتعبيرُ عنهم بذلك للإشارة بما في حيِّزِ الصلة إلى مَظِنة وجودِ المنهيِّ عنه واعترائِه لرسول الله ﷺ، أي: لا يَحْزُنوك بمسارعتِهم في الكفر ومبادرتِهم إلى تمشية أحكامِه ومُظاهرتِهم لأهله[3].

غرضُ التَّعليلِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ تعليلٌ للنَّهي في قولِه: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾، تكميلًا لِتَسليتِه[4] ﷺ، ودَعْمِه

---

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/172 - 173.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/603، والشَّوكاني، فتح القدير: 1/653.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/603، والشَّوكاني، فتح القدير: 1/653.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/604، والشَّوكاني، فتح القدير: 1/653.

إعانةُ النَّبيِّ على طمأنةِ المؤمنين بـمـا يُـصـيـبُ الكافرين

الدَّعْمَ النَّفسيَّ، فرسولُ اللّهِ ﷺ بَشرٌ لا يَخْرجُ عن الصِّبغة البَشَريَّة إلّا أنّه يوحَى إليه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: 110]، فينتابُه ما ينتابُ البشرُ منَ الهمِّ والضِّيقِ والألَم، لكنَّ همَّه وضيقَه وأَلَمَه للّه، ومن أجلِ الدَّعوة إلى اللّهِ، فيحتاجُ تَسليةً ودَعْمًا منَ اللّهِ في طريقِ دَعْوتِه وتعليمِه وتَربيتِه لعبادِ اللّه، وإنَّ مَنْ سارَ مَسيرتَه من العلماءِ والدُّعاةِ والمربّين، لهو أشدُّ حاجةً لهذا الرِّفدِ الإلهيِّ والمعونَةِ الرَّبَّانيَّة؛ فساقَ بيانُ اللّهِ تعليلَه للنَّهي السَّابق.

فائدةُ استعمالِ ﴿لَن﴾ في قولِه: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾:

ضررُ المسارعين في الـكُـفـر يلحقُهم دون غيرِهم

أفادتْ أداةُ ﴿لَن﴾ الدّلالة على دوامِ الإرادةِ واستمرارِها، خدمةً لذاكَ الغَرَض، والمقْصدِ الأَسْنَى، بِتحقيقِ نَفْيِ ضَرَرِ الَّذينَ يُسارِعونَ في الكُفر أَبَدًا، فهم لَن يَضُرُّوا بذلك رسولَ اللّهِ، وأولياءَ اللّهِ، وكُلَّ مَنْ علَّم، وربَّى، ودَعا إلى اللّهِ، وجاء تعليقُ نَفْيِ الضَّرَرِ به جَلَّ جَلَالُهُ لتشريفِهم جَميعِهم، وعلى رأسِهم رسولُ اللّه ﷺ، والإيذانِ بأنَّ مُضارَّتَهُم بمنزلةِ مضارَّته سُبْحَانَهُ، وفيه مَزيدُ مبالغةٍ في التَّسلية، وبيانُ أن العِبْرَةَ بعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّبب، فكلُّ مَنْ نَهَجَ مَنْهجَ رسولِ اللّهِ ﷺ وسارَ على دَرْبه ﷺ يَشمَلُه هذا التَّأييدُ وتلكَ التَّسليةُ.

غرضُ التَّنكيرِ ومعناه في قولِه سُبحانه: ﴿شَيۡـًٔاۗ﴾:

مَهْما كان الشَّيءُ قليلًا ومن أيِّ وادٍ كان فهو مسلوبُ الإضرارِ

يُحتملُ أن تكون كلمةُ ﴿شَيۡـًٔاۗ﴾ في حيِّز النّصب على المصدريَّة، أي: شيئًا مِنَ الضَّرَر، وغرضُ التّنكيرِ فيها لتأكيدِ ما فيه مِنَ القِلَّة والحَقارةِ، ويُمكنُ أن تكونَ على نَزْعِ الخافِضِ، أي: بشيءٍ ما أَصْلًا[1]، وغرضُها العموم، فالغرضان متَّفقان في العموم والقلَّة، فأيُّ شيءٍ مهما قلَّ ومن أيِّ وادٍ جاء، فلن يكونَ لأولئك منه نصيبٌ في إيقاعِ الضَّررِ على المؤمنين.

(1) العكبري، التبيان: 1/158، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/604.

بيانُ استدراجِ المسارعين في الكفرِ

بلاغةُ فَصْلِ جملةِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾:

جاءتْ جُملةُ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ اسْتئنافيّةً لبيانِ سِرِّ ابْتلاءِ أولئكَ الَّذينَ يُسارعونَ في الكُفر، بما هم فيه مِن انْهماكٍ في الكُفر[1]، فالجملةُ بيانٌ لاستدراجِ أولئك المسارِعين في الكفرِ، بحيث لا يبقى لهم أدنى حظٍّ في الآخرةِ.

دلالةُ تعلُّقِ الإرادةِ بتعذيبِ الكافرين:

في ذكرِ الإرادةِ في صَدرِ الجُملةِ القرآنيَّة إيذانٌ بكمالِ خُلوصِ الدَّاعي إلى حِرْمانهم وتَعْذيبِهم، حيثُ تَعلَّقتْ بهما إرادةُ أرحمِ الرَّاحمينَ[2]، وهذا دليلٌ على كمالِ تجاسرِهم في الكفرِ، وأنَّهم أتوا عملًا استحقُّوا به تلك العقوبةُ، ودلَّتْ صيغةُ الاسْتقبالِ دِلالةً واضِحةً على دَوامِ الإرادةِ واسْتمرارِها؛ أيْ: يُريدُ اللّه بِذلكَ ألَّا يَجْعلَ لهم في الآخرةِ حَظًّا ما مِنَ الثَّوابِ، ولذلك تركهم في طغيانهم يعمهون إلى أن يهلِكوا على الكفر[3].

غرضُ تنكيرِ ﴿حَظّٗا﴾ ونكتةُ تأخيرِه عن ﴿لَهُمۡ﴾:

وجاءتْ ﴿حَظّٗا﴾ نكرةً ومَنفيَّةً بـ ﴿أَلَّا يَجۡعَلَ﴾؛ لِتُفيدَ نَفْيَ أيِّ حَظٍّ، يُمكِنُ أن يَنالوهُ مِنْ رحمةِ اللّهِ ورِزقِه، وجاءَت شِبهُ الجُملةِ ﴿لَهُمۡ﴾ مُتقدِّمةً على ﴿حَظّٗا﴾؛ تأكيدًا لهذا المعنَى وحَصْرِه وقَصْرِه.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحُزْن والكَرْب والكآبة:

(الحُزْنُ) و(الحَزَنُ) تكاثُفُ الغَمِّ، وغِلَظُهُ، مأخوذٌ من الأرضِ الحَزْنِ، وهو الغليظُ الصُّلبُ، وهو خُشونةٌ في الأرض، وخُشونةٌ في النَّفْس؛ لِما يحصُلُ فيه من الغمِّ، ويُضادُّه الفَرَحُ، يُقال: حَزِنَ يَحزَنُ،

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/604.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/604.

(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/604.

وحَزَنْتُه وأَحْزَنتُه؛ قال ﷻ: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [آل عمران: 153] وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَۖ﴾ [فاطر: 34]، والحُزْنُ: ما أَخْفاه الإنسانُ؛ لأنَّ الحُزْنَ مُسْتكِنٌّ في القلب، والنّهيُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ ليس بنهيٍ عن تحصيل الحُزْن، فالحُزْنُ ليس يحصُلُ بالاخْتيار، ولكنَّ النَّهيَ في الحقيقةِ إنّما هو عن تَعاطي ما يورِثُ الحُزْنَ واكتسابه[1]. وأمّا (الكَرْبُ): فهوالغَمُّ الشَّديدُ، قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ٧٦﴾ [الأنبياء: 76]، والكُرْبة كالغُمَّة، وأصْلُ ذلك من: كَرْبِ الأرضِ، وهو قَلْبُها بالحَفْرِ، فالغَمُّ يثيرُ النّفْسَ إثارةَ ذلك، فهو تكاثُفُ الغَمّ مع ضيّقِ الصَّدْر[2]، و(الكآبَةُ): أثَرُ الحُزْنِ البادي على الوَجْهِ، ومَنْ ثَمَّ يُقالُ: عليه كآبَةٌ، ولا يُقالُ: عَلاهُ حُزْنٌ أوْ كَرْبٌ؛ لأنَّ الحُزْنَ لا يُرى، ولكنَّ دِلالتَه على الوَجْهِ، وتلك الدِّلالاتُ تُسمَّى: كآبةً[3]، ومِنْ خلالِ تلك المعاني، يظهر لنا أنَّ البيانَ الإلهيَّ نَهى النَّبيَّ ﷺ عن الحُزْن، ولم يذكرْ كلمةَ الكَرْبِ أو الكآبة؛ لأنّه ﷺ كان يغتمُّ اغتمامًا شَديدًا، يتكاثفُ مُسْتكِنًّا في قلبِه، يُخفيه، ولا يُبديه، وهذا تَمامُ معنى الحُزن، ولكنَّ الّذي يعلمُ حالَه هذا، هو اللّه ﷻ؛ ولذلكَ نهاه ﷻ في مواطنَ كثيرةٍ في القرآن عن هذا الحُزْن الَّذي ربَّما يُهلِكُ نفسَه بسببِه؛ منها قولُه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف: 6]، وقولُه سُبحانه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: 8].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 184 - 185، والرَّاغب، المفردات، ص: 231.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 185، والرَّاغب، المفردات، ص: 706.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 443.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٧﴾ [آل عمران: 177]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

من اشتروا الكفر بالإيمان، عاد الضّرر عليهم لا على الله ﷻ

لَمَّا نهَى اللهُ سبحانه وتعالى نبيَّه محمّدًا ﷺ عن الحُزْنِ على الَّذين يُسارِعون في الكُفرِ، وبيَّن أنَّ ضررَ كُفرِهم عائدٌ عليهم؛ أكَّدَ هنا في هذه الآيةِ أنَّ ضرر كُفرهم لن يعودَ إلّا عليهم، "لأنّ إمهالهم وتركهم مدّة أخرى من الزّمان ليزدادوا إثما على إثم، ويمعنواْ في الضّلال والباطل، ولهم عذاب بالغ الإهانة والذّلّ"(1)، بسبب إيثارهم الغيّ على الرّشد، والكفر على الإيمان، والشّرَّ على الخير(2).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾: "شَرَيْتُ الشَّيْءَ وَاشْتَرَيْتُهُ، إِذَا أَخَذْتَهُ مِنْ صَاحِبِهِ بِثَمَنِهِ، وَرُبَّمَا قَالُوا: شَرَيْتُ: إِذَا بِعْتَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: 20]، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْمُمَاثَلَةِ قَوْلُهُمْ: هَذَا شَرْوَى هَذَا، أَيْ مِثْلُهُ، وَفُلَانٌ شَرْوَى فُلَانٍ، وَمِنْهُ حَدِيثُ شُرَيْحٍ فِي قَوْسٍ كَسَرَهَا رَجُلٌ لِرَجُلٍ فَقَالَ شُرَيْحٌ: " شَرْوَاهَا " أَيْ مِثْلُهَا(3)، والشِّراءُ: يُمَدُّ، ويُقصَرُ، وقد شَرَى الشَّيءَ، يَشْرِي به، شِرًى وشِراءً؛ إذا باعَهُ، وإذا اشْتراهُ أيضًا، وهو من الأضداد، قالَ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 207] أي: يَبِيعُها(4).

2) ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾: من الألم، وهو الوجع، وقد ألم من باب طرب، والتّألّم التّوجّع، والإيلام الإيجاع، والأليم المؤلم، كالسّميع

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 443.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/348.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرى).
(4) الرّازي، مختار الصّحاح: (شرى).

بمعنى المُسمع[1]، وقالوا: " ألم الرّجل ألما، من باب تعب، ويعدى بالهمزة فيقال آلمته إيلاما فتألم وعذاب أليم مؤلم وقولهم ألمت رأسك مثل وجعت رأسك"[2]، والأليم من العذاب: الّذي يبلغ إيجاعه غاية البلوغ[3].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أخبرَنا بيانُ اللّهِ تعالى أنَّ الَّذينَ اخْتاروا الكُفرَ على الإيمانِ، ورَغِبوا فيه رغبة مَنْ بَذَل ما يُحبُّ منَ المالِ في شراءِ ما يُحبِّذ مِنَ السِّلَع؛ لن يَضُرُّوا اللّه شيئًا، بَلْ ضَرَرُ فِعْلِهِم يَعودُ على أنفُسِهِم، ولهم يومَ القيامةِ عذابٌ أليم[4]، وهو تقرير تطمينيّ بأنّ هؤلاء الكفرة لن يعطّلوا مسار الدّعوة، وإنّما يعود كيدهم عليهم، وستكون عاقبة أمرهم خسرًا، و(على نفسها جنت براقش).

من استبدل الكفر بالإيمان، طاله الضّرر في الدّنيا، والعذاب في الآخرة

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاسْتئنافِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾:

صُدِّرتِ الايةُ بالاسْتئنافِ الابْتدائيِّ؛ للتّنويهِ بأولئكَ الَّذينَ رَضوُا الكُفرَ عقيدةً لهم بدلَ الإيمانِ باللّه، وما هُمْ عليه منْ خَطَرٍ عظيم في هذا الَّذي انْتَهجوه مَسْلَكًا لهم في الحياةِ الدُّنيا، وافْتُتِحتِ الجُملةُ بَحرْفِ التّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾؛ للاهْتمامِ بالخَبرِ وبيانِ مَدَى خُطورتِه.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾:

الاشْتراءُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ استعارةٌ للاسْتبدال[5]، وإجراءُ ذلك؛ أنَّه استعار الاشتراءَ للاستبدالِ، واشتقّ منه الفعل ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾ على سبيل الاستعارة

نظرةُ المنافقين للدّينِ على أنّه سلعةٌ تُباعُ وتُشترى

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (ألم).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: (ألم).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (ألم).
(4) الشَّوكاني، فتح القدير: 1/654، والسِّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 118.
(5) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/297 - 298.

التَّبعيَّةِ، وصرَّح بالمشبَّه به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة، ونكتةُ الاستعارةِ بيانُ أنَّ هؤلاء القومَ ينظرون للدِّين والقيم على أنَّها سِلَعٌ تُباعُ وتُشترى، والاستعارة هنا أبلغُ من الحقيقةِ.

المبالغةُ في تعليلِ النَّهي في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾:

من آثـر الكفرَ عـلى الإيـمـانِ ألـحـقَ الـضَّـررَ بنفسِه

جاءتْ هذه الجملةُ مُصَدَّرَةً بالتَّأكيدِ في ﴿إِنَّهُمۡ﴾ والتَّأبيدِ في ﴿لَن﴾، وفي كِلَيهما مبالغةٌ في تعليلِ النَّهي، وتكميلِ التَّسليةِ، بتحقيق نفي الضَّررِ، أي: لن يضُرُّوا بذلكَ أولياءَ اللّهِ البتَّةَ، وتعليقُ نَفْيِ الضَّرَرِ به تعالى؛ لِتشريفِهم والإيذانِ بأنَّ مُضارَّتهمْ بمنزلةِ مُضارَّته ﷻ، وجيءَ بالمسْنَدِ جُملةً فِعليَّةً؛ لإفادَتِه التَّعريض الظَّاهر باقتصارِ الضررِ عليهم؛ كأنَّه قيل: وإنَّما يضُرّون أنفسَهم[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(بَدَّلَ) و(اشْتَرى):

الإبْدالُ والتَّبديلُ والتَّبدُّلُ والاسْتِبدالُ: جَعْلُ شيءٍ مكانَ آخرَ، وهو أعمُّ مِنَ العِوَض، فإنَّ العِوَض هو أنْ يصيرَ لكَ الثَّاني، بإعطاءِ الأوَّل، والتّبديلُ قدْ يُقالُ للتَّغييرِ مُطْلَقًا؛ وإنْ لم يأتِ ببدلِه، كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ﴾ [النّحل: 101]، ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ﴾ [سبأ: 16][2]. والشِّراءُ والبيعُ يتلازمان: فالمشْتري دافِعُ الثَّمَن، وآخِذُ المثْمَن، والبائعُ دافعُ المثْمَن، وآخِذُ الثَّمن، هذا إذا كانتِ المبايعةُ والمشاراة بنَقْدٍ وسِلْعة، فأمَّا إذا كانت بيعَ سِلْعةٍ بسِلْعة؛ فصَحَّ أنْ يُتصوَّرَ كلُّ واحدٍ منهما في مَوْضعِ الآخَر، وشَرَيْتُ بمعنَى: بِعْتُ، وابْتَعتُ، بمعنى: اشْتريتُ، قال اللّه تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: 20]، أي: باعوهُ، وتُجوِّزَ بالشِّراءِ والاشْتراءِ في كلِّ ما يحصُلُ به شيءٌ من هذا القبيل، نحو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 77][3]. ولو دقَّقْنا الفَرْقَ بَيْن الشِّراءِ والاسْتبدالِ؛ لَوجَدْنا أنّ كُلَّ شِراءٍ اسْتبدالٌ، وليسَ كُلُّ اسْتبدالٍ شِراءً؛ لأنَّه قدْ يَستبدِلُ الإنسانُ غُلامًا بغُلام، وأجيرًا بأجير، ولم يَشْتره[4].

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 2/607.

(2) الرَّاغب، المفردات، ص: 111، والفيروزآباديّ، القاموس: (بَدَلَ).

(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 53، والفيروزآباديّ، القاموس: (شَرَى).

(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 287.

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨﴾ [آل عمران: 178]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين شراء الكفر بالإيمان، وإمهال الكفرة لأخذهم بالعذاب والهوان

لَمَّا بيَّن اللّهُ ﷻ في الآيةِ السَّابقة، أنَّ الَّذين باعواْ الإيمانَ، واشْتروْاْ الكُفْرَ بَدلَه، لن يَضُرُّواْ إلّا أنفُسَهم، ولهم عذابٌ أليمٌ؛ جاءتْ هذه الآيةُ؛ لِتؤكِّدَ أنَّ العذابَ المهينَ يَنتظِرُ أولئكَ الكافرين، وليس ما يَرَوْنَه مِنْ إمْهالِ اللّهِ لهمْ إلّا اسْتدراجًا لهم؛ ليزدادواْ إثمًا وبُعدًا عنِ اللّه، وعبّر بلفظ العذاب المهين، ليناسب الإملاء لهم؛ لأنّه باعتبار ظاهر الأمر إكرام لهم؛ ولكنّه في الأصل، إملاء لهم ليزدادواْ إثما، فناسب استعمال لفظ المهين، لما يؤول إليه حالهم من ذلّة وهوان، وهذا من بلاغة توظيف اللّفظ في القرآن.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُمۡلِي﴾: (أَمْلَى) له في غَيِّه: أطالَ له، وأَمْلَى اللّهُ له: أَمْهَلَهُ، وطَوَّل له[1]، والإملاءُ للكافرين: إمهالُهم وتأخيرُهم، والإطالةُ في عُمُرِهم[2]، واسْتدراجُهم؛ لأَخْذِهم أخْذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ، وهمْ على كُفْرِهم.

2) ﴿إِثۡمٗاۖ﴾: الإثْمُ: الذَّنْبُ، وقدْ أَثِمَ إثْمًا ومأْثَمًا ومأْثَمًا؛ إذا وقَعَ في الإثْم، فهو آثِمٌ، وأثيمٌ، وأَثومٌ، وأَثَمه اللّهُ يأْثُمُه ويأْثِمُه يأْثِمُه: بضمِّ الثَّاء وكَسرِها، إثْمًا وأَثامًا: عدَّه عليه إثْمًا، وجازاهُ جزاءَ الإثْم: فهو مأثومٌ مأْثومٌ، أي: مَجْزيٌّ بإثْمه، وآثَمَه في المدِّ: أوقعَه في الإثم، والأثامُ الآثامُ: جزاءُ الإثْم، قالَ تعالى: ﴿يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨﴾ [الفرقان: 68][3].

(1) ابن منظور، اللّسان: (مَلَیَ).
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/108، وابن عباد، المحيط: (مَلَیَ).
(3) ابن منظور، اللِّسان: (أَثِمَ).

3) ﴿مُّهِينٌ﴾: هان هونًا، بالضَّمِّ، وهَوانًا ومَهانةً: ذَلَّ، والهَوْنُ: الخِزْيُ، و﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: عذابٌ مُذِلٌّ مُخزٍ[1].

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

إملاء الله للكفرة استدراج، ليزدادوا إثمًا، ويضاعف لهم العذاب

لا يَظُنَّنَّ الَّذين كَفَروا بربِّهم، ونابَذوا دينَه، وحاربوا رسولَه: أنَّ تَرْكَنا إيَّاهُم في هذه الدُّنيا، وعدمَ اسْتِئصالِنا لهم، وإملاءَنا لهم خيرٌ لِأَنْفُسِهم، ومَحبَّةٌ منّا، كلّا؛ ليسَ الأمرُ كما وَهِموا، وإنَّما ذلكَ لِشَرٍّ يُريدُه اللّه بهم، وزيادةٍ في عذابٍ وعقوبةٍ إلى عذابهم المُذِلِّ المُخزيِّ لهم[2]، زيادة في استدراجهم، ليكثر ظلمهم، فيزداد عقابهم، وتتراكم آثامهم، فكان إمهالُهُمْ عيْنَ عقابِهِمْ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

توجيهُ عطفِ قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

حقائقُ الأمور خيرها وشرِّها لله تعالى، وليس للعبدِ الَّا التَّسليم

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ معطوفًا على قولِه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢا﴾ [آل عمران: 168]، والمقصودُ مُقابَلَةُ الإعلامِ بخلافِ الحُسبانِ في حالتَيْن: إحداهُما تَلوحُ للنّاظرِ حالةَ ضُرٍّ، والأُخْرى تلوحُ حالةَ خَيْرٍ، فأعْلَمَ اللّه ﷻ أنَّ كِلْتا الحالَتَيْنِ على خِلافِ ما يَتراءَى للنّاظرين[4].

ويجوزُ أن يكون قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ معطوفًا على قولِه: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾[5]؛ إذْ نَهاهُ أنْ يكونَ ذلكَ موجبًا لحُزنه؛ لأنّهم لا يَضُرُّون اللّهَ شيئًا، ثمَّ ألْقى إليه خبرًا لقصدِ إبلاغِه إلى المشركينَ وإخوانِهمُ المنافقين: ألَّا يَحسَبوا

(1) الفيروزآبادي، القاموس: (هَوَنَ).
(2) الواحدي، الوسيط: 1/524، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 118.
(3) المناويّ، فيض القدير: 2/264.
(4) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/174.
(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/605.

أنَّ بقاءهم نفعٌ لهم، بلْ هو إمْلاءٌ لهم، يزدادونَ به آثامًا؛ ليكونَ أخذُهم بعدَ ذلك أشدَّ[1].

توجيهُ القراءاتِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

في قولِه: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ﴾ قراءتان[2]: الأوْلى: بالتَّاء، والثَّانية: بالياء.

نـهـيُ الـنَّـبـيِّ والـكـافـرين عن الحسبانِ دليلٌ عــلى عـظـيـمِ العذابِ

فمنْ قَرأ بالتَّاء؛ فهو على التَّكريرِ[3]، والمعنى: ولا تَحسَبَنَّ - يا محمَّدُ ﷺ - الَّذين كفروا، ولا تَحسَبَنَّ أنَّما نُملي لهم[4]، وعندئذٍ يكونُ المفعولُ الأوَّلُ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وأمّا المفعولُ الثَّاني؛ ففيه وجهان: الأوَّل: الجملةُ من (أنّ) وما عملت فيه، والثَّاني: أنَّ المفعولَ محذوفٌ، أُقيمَ المضافُ إليه مَقامَه، والتَّقديرُ: ولا تَحسَبَنَّ إملاءَ الَّذينَ كفروا[5]، ويجوز أن يكونَ موضعُ ﴿أَنَّمَا﴾ نصبًا على البَدَل من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾[6]، بَدَل الاشْتمال، أي: ولا تَحسَبَنَّ أنَّما نُملي للكافرين خيرٌ لهم، و(أنَّ) مع ما في حَيِّزه ينوبُ عن المفعولَيْن، كقولِه: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ﴾ [الفرقان: 44]، ويمكنُ أن يكونَ قولُه: ﴿أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ﴾ بدَلًا من المضافِ المحذوف، والجملةُ سَدَّتْ مَسَدَّ المفعولَيْن، والتَّقديرُ: ولا تَحسَبَنَّ أنَّ إملاءَ الَّذين كفروا خيرٌ لأنفُسِهم[7].

ومَنْ قرأ بالياء؛ فـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محلِّ الرَّفعِ على الفاعِل، تقديرُه: ولا يَحسبَنَّ الكفَّارُ أنَّ إملاءَنا إيَّاهم خيرٌ لهم[8]؛ لأنَّنا إذا أَعْمَلْنا الحُسبانَ في الَّذين كفروا؛ لم يَجُزْ أن يقع على (أنَّما)، وهذا كقولِه

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/174 - 175.
(2) القراءة الأولى لحمزة، والثَّانية للباقين من العَشَرة، ينظر: ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 220، وابن زنجلة، الحُجَّة، ص: 183، وابن الجزري، النَّشر: 2/244.
(3) وهو قول الفرَّاء في كتابه، معاني القرآن: 1/248.
(4) الزَّجاج، معاني القرآن: 1/491، والزَّمَخْشري، الكشاف: 1/482.
(5) العكبري، التبيان: 1/159.
(6) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 3/499، وابن عادل، اللُّباب: 6/96.
(7) العكبري، التبيان: 1/159.
(8) الزَّجاج، معاني القرآن: 1/507 - 508، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 3/496.

ﷻ: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ﴾ [الزّخرف: 66]، يعني: فهل ينظرونَ إلّا السَّاعةَ، هل ينظرونَ إلّا أنْ تأتيَهم بغتةً؟[1].

معنى (مَا) في قولِه: ﴿أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ﴾:

في (ما) وجْهان: أحدُهما: بمعنَى: الذي، والثّاني: مصدريَّة[2]، ولا يجوزُ أنْ تكون (ما) كافَّةً ولا زائدة، كما قد يُتَوهَّم؛ إذْ لو كان كذلكَ؛ لانْتصبَ ﴿خَيۡرٞ﴾ بـ ﴿نُمۡلِي﴾، واحتاجتْ (أنَّ) إلى خبر؛ إذا كانت (ما) زائدة، أو قُدِّر الفعلُ الَّذي يليها، وكلاهُما مُمْتنِعٌ[3].

براعةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ﴾:

تشبيهُ الإمهالِ بالإملاءِ والتَّركِ على السَّجيَّةِ لبيانِ مآلِ الحريَّةِ في مخالفةِ الشَّرعِ

في قولِه تعالى: ﴿أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ﴾ استعارةٌ بديعةٌ، إذِ استعار الإملاءَ لمعنى الإمهال، واشتقَّ منه الفعلَ أملى على سبيل الاستعارة التَّبعيَّة، وصرَّح به على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، وهو مأخوذٌ مِنْ أَمْلَى لِفرسِه؛ إذا أَرْخَى له الطِّوَلَ؛ ليَرْعَى كيف يشاءُ، فقد شبَّهَ إمهالَهم، وتَرْكَ الحبلِ لهم على غَوارِبِه: بالفَرسِ الَّذي يُملَى له الحَبْلُ؛ ليجريَ على سَجيَّته، فحذَفَ المشَبَّهَ: وهو الإمهالُ والتَّركُ، وأَبْقى المشَبَّهَ به: وهو الإملاءُ[4].

بلاغةُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ﴾:

استئنافُ الجملةِ لبيانِ التَّعليلِ

قولُه: ﴿أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ﴾: جملةٌ مُستأنَفةٌ، تعليلٌ للجُملةِ الَّتي قبلَها؛ كأنَّه قيلَ: ما بالُهُم لا يَحسَبونَ الإملاءَ خيرًا لهم؟ فقيلَ: إنَّما نُملي لهم؛ ليزدادوا إثمًا[5]، و(ما) في هذه الجملةِ حقُّها أن تُكتب متَّصلة؛ لأنَّها كافَّةٌ دون الأولى.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا﴾ كلمةٌ مُركَّبةٌ: من (إنَّ) حرفِ التَّوكيد،

(1) مكيّ، مشكل إعراب القرآن: 1/179، وابن هشام، أوضح المسالك: 2/42.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/605.
(3) العكبري، التبيان: 1/159.
(4) صافي، الجدول: 2/384.
(5) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/482.

قصرُ الإملاءِ على خلافِ المتوقَّعِ أبلغُ في التَّهديدِ

و(ما) الكافَّة، وهي أداةُ حَصْر، أي: ما نُملي لهم إلّا ليزدادوا إثْمًا، أي: فيكونُ أخذُهم به أَشدَّ، فهو قصرُ قَلْبٍ، ومعناه: أنَّه يُملي لهم، ويُؤَخِّرُهم، وهم على كُفرهم، فيزدادون إثْمًا في تلكَ المدَّة، فَيشتدُّ عقابُهم على ذلك، وبذلك لا يكونُ الإملاءُ لهم خيرًا لهم، بلْ على عكسِ ذلك فهو شَرٌّ لهم.

الاستمرارُ في ازديادِ الإثمِ إيماءٌ بحُمقِ الكافرين

وجاءَ الفعلُ ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ﴾ بصيغةِ المضارع؛ ليدُلَّ على الاسْتمرارِ والدَّيْمومة في ازْديادهم في الإثْم، والمصدرُ المؤوَّلُ لـ (أنْ يَزدادوا) في محلِّ جرٍّ باللَّام متعلِّقٍ بـ ﴿نُمۡلِي﴾ الثَّانية.

نكتةُ تقديمِ شِبهِ الجُملة، في إفادةِ الحَصْرِ:

قد أفادَ تقديمُ شِبه الجملة ﴿لَهُمۡ﴾ حَصْرَ العذابِ المُهين وقَصْرَه بأولئكَ الكافرينَ المُستكْبرين، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ، إذ العذابُ المهين سيُصيبُ طوائف أخرى من الكفرةِ والمنافقين.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإمْلاء والإنْظار:

الإملاءُ: الإمدادُ، ومنه قيلَ للمدَّة الطَّويلة: مَلاوَةٌ من الدَّهر، ومَليٌّ من الدَّهر، قال تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦﴾ [مريم: 46]، وتَمليَّتُ دَهْرًا: أبقيتُ، وتملَّيتُ الثَّوبَ: تمتَّعتُ به طويلًا، وتملَّى بكذا: تمتَّعَ به بمَلاوةٍ به، بملاوةٍ من الدَّهْر، ومَلَّاكَ اللهُ - غيرُ مَهموز - عَمَّرَكَ، ويُقالُ: عشتُ مَليًّا، أيْ: طويلًا، و(المَلا) مَقصورٌ: المَفازةُ المُمتدَّةُ، والمَلَوانُ: قيل: اللَّيلُ والنَّهارُ، وحقيقةُ ذلك تكرُّرُهما وامتدادُهما[1]، والإمْلاءُ كذلكَ: هو الإمهالُ والتَّأخيرُ[2] والإنْظارُ، والنَّظَرُ: الانْتظارُ، يُقالُ: نَظَرْتُه، وانْتظَرْتُه، وأَنْظَرْتُه، أيْ: أخَّرتُه؛ ومنه قولُه تعالى:

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 776 - 777، والفيروزآباديّ، القاموس: (مَلا).

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 72.

﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٢٢﴾ [هود: 122][1]، والإنْظارُ: إمهالٌ؛ لينظُرَ صاحبُه في أمره، خلافُ التَّقديم، ويُرشِدُ إليه قولُهُ سُبحانَه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥﴾ [هود: 55][2]، ومِن خلالِ ما تقدَّمَ بيانُه، مِنَ الفَرقِ بينَ (الإمْلاءِ)، و(الإنْظارِ)، نجدُ أنَّ معنى الإمْلاءِ، ألْيَقُ وأوْلَى بسياقِ النَّصِّ القُرآنيِّ، فاللّه ﷻ يُملي للكافرينَ، بإمدادِه لهم المدّةَ الطَّويلةَ من الدَّهْر، ويُؤَخِّرُهم لا لِخَيْرٍ لهم، وإنَّما ليزدادواْ إثْمًا، وهذا هو عَيْنُ الاسْتدراجِ الَّذي وردَ في قولِه تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٢﴾ [الأعراف: 182]، حتَّى يأتيَهم العذابُ المُهين، وهذا الإمهالُ والإمدادُ لهم تلكَ المدّةَ الطَّويلة، لا يَسَعُها معنى الإنْظار الَّذي هو إمهالٌ مَقرونٌ بُمدَّةٍ قليلةٍ، بِقَدْرِ ما يقعُ فيه النَّظرُ.

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 813، والفيروزآباديّ، القاموس: (نَظَرَ).

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 81.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٩﴾ [آل عمران: 179]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإمــــلاء والاســتــدراج، وعـلاقـتـهـمـا بـالـتّـمـيـيـز بين الخبيث والطّيّب

لَمَّا بيّنَ اللّهُ ﷻ لعبادِهِ في الآيةِ السَّابقةِ، أنَّ اللّهَ يُملي للكافرين، ويؤجِّلُ عقوبتَهم، فليس ذلك لخيرٍ، يُريده لأنفُسِهم، وإنَّما هو اسْتدراجٌ لهم؛ ليزدادوا ضَلالًا وغَيًّا، حتَّى إذا أخذَهم؛ لم يُفْلِتهم جاءَ بيانُ اللّهِ هنا في هذه الآيةِ الكريمة؛ ليُظهِرَ حكمتَه الجليلةَ في تَمييزِ الخَبيثِ من الطَّيِّبِ، والمؤمنِ من المنافقِ والكافر، وهذا الأمرُ في غَيْبٍ لا يعلمُه إلّا اللّه، وبهذا الفرزِ والتَّمحيص، ينقسمُ النَّاسُ قسمَيْن: مُطيعين وعاصين، ومُسلمينَ وكافرين، ولكلٍّ منهُما وعدٌ بالخير، أوْ وَعيدٌ بالشَّرِّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَذَرَ﴾: يُقالُ: فلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يقذِفُه لِقلَّة اعتدادِه به، ولم يُستعمَلْ ماضيه، قالَ تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الأعراف: 127]، والوَذَرَةُ: قِطعةُ اللَّحم، وتَسْميتُها بذلك لِقلَّةِ الاعْتدادِ بها[1]، ويُقالُ: ذَرْهُ، أي: دَعْهُ، وهو يذَرُهُ؛ أي: يَدَعُهُ، ولا يُقالُ منه: وَذَرَهُ ولا واذِرٌ، ولكن تَرَكَهُ، وهو تاركٌ[2]، "قال الخليل: أماتت العربُ فِعلَ (يَذَرُ) في الماضي ومصدره، فلا يكادون يقولون: وَذَرْتُه، هذا قول الخليل، وقد استعمل بعض أهل اليمن (وَذَرَ)، والصّحيح ما قاله الخليل،

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 162 - 163.

(2) الرَّازي، المختار: (وَذَرَ).

لأنّهم قد استغنواْ عن (وَذَرَ) بترك، وقد استعملواْ المستقبل، قال الله تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٨٦﴾ [الأعراف: 186]"[1].

2) ﴿يَمِيزَ﴾: المَيْزُ والتَّمْييزُ: الفَصْلُ بينَ المُتَشابهات، يُقالُ: مازَهُ يَميزُهُ مَيْزًا، ومَيَّزَهُ تمييزًا، قالَ تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: 37]، والتَّمييزُ يُقالُ تارةً للفَصْل، وتارَةً للقوَّة الَّتي في الدِّفاع، وبها تُستنبطُ المعاني، ومنه يُقالُ: فلانٌ لا تمييزَ له، ويُقالُ: انْمازَ، وامْتازَ، قال تعالى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [يس: 59]، وتَميَّزَ مُطاوِعُ مازَ، أيْ: انْفصلَ، وانْقطعَ، قالَ تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ [الملك: 8][2]، وَانْمَازَ الشَّيْءُ: انْفَصَلَ عَنِ الشَّيْءِ، قَالَ يَصِفُ حَيَّةً:

قَرَى السُّمَّ حَتَّى انْمَازَ فَرْوَةُ رَأْسِهِ *** عَنِ الْعَظْمِ صِلٌّ فَاتِكُ اللَّسْعِ مَارِدُ[3].

3) ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾: الخُبثُ والخَبيثُ: ما يُكرَهُ رَداءةً وخَساسةً، مَحسوسًا كانَ أوْ مَعقولًا، وأصلُه: الرَّديءُ الدَّخْلةِ، الجاري مَجْرى خَبَثِ الحَديد، وذلكَ يتناولُ الباطلَ في الاعْتقاد، والكذِبَ في المَقال، والقَبيحَ في الأفْعال، قال ﷻ: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: 157][4]، وهذا هو المرادُ في الآية الكريمة.

4) ﴿ٱلطَّيِّبِۗ﴾: يُقالُ: طابَ الشَّيءُ، يَطيبُ طَيبًا، فهو طَيِّبٌ، وأصلُ الطَّـيِّبِ: ما تَستلذُّه الحَواسُّ، وما تَستلِذُّه النَّفْسُ، والطَّـيِّبُ مِنَ الإنسان: مَنْ تعرَّى من نجاسةِ الجَهْلِ والفِسْقِ وقبائحِ الأعمال، وتحلَّى بالعلمِ والإيمانِ ومَحاسنِ الأعمال، وإيَّاهُم قَصَدَ بقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النّحل: 32][5]، والمعنى الأخيرُ هو الَّذي تهدف إليه الآية الكريمة.

5) ﴿لِيُطۡلِعَكُمۡ﴾: يُقال: أطلَعَهُ على سِرِّه، واسْتطْلَعَ رأيَه: اطَّلَعَ على باطِنِ أَمرِه، وطالَعَهُ بِكُتُبه، وطالعَ الشَّيءَ، أي: اطَّلَعَ عليه، والطُّلْعَةُ: الرُّؤْيَة[6]، "قال ابن السّكّيت: طلعت على القوم، إذا أتيتهم، وقد طلعت عنهم، إذا غبت عنهم، وطلِعت الجبل بالكسر، أي علوته،

(1) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (وَذَرَ).
(2) الرَّاغب، المفردات، ص: 781.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مَيَزَ).
(4) الرَّاغب، المفردات، ص: 272.
(5) الرَّاغب، المفردات، ص: 527.
(6) الفيروزآبادي، القاموس: (طَلَعَ).

وفي الحديث: «ولا يَهيدَنكُمُ السَّاطِعُ المُصْعِدُ»[1]، - يعني الفجر الكاذب - ، واطّلعت على باطن أمره، وهو افتعلت، وطالعه بكتبه، وطالعت الشّيء، أي اطّلعت عليه"[2].

6) ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾: مَصْدرُ غابتِ الشَّمسُ وغيرُها؛ إذا اسْتترتْ عَنِ العَيْن، يُقالُ: غابَ عنّي كذا، قالَ تعالى: ﴿أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ۝٢٠﴾ [النَّمل: 20] واسْتُعمِل في كُلِّ غائبٍ عنِ الحاسَّة، وعمّا يَغيبُ عن علم الإنسان، بمعنى: الغائِب، ويُقالُ للشَّيءِ: غَيْبٌ وغائِبٌ باعتبارِه بالنَّاسِ، فإنَّه تعالى لا يَغيبُ عنه شيءٌ، وقولُه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ [الأنعام: 73]، أيْ: ما يغيبُ عنكم، وما تَشْهدونَه[3].

7) ﴿يَجۡتَبِي﴾: يقالُ: جَبَيْتُ الماءَ في الحَوْض: جَمَعْتُه، والحَوْضُ الجامع له: جابيَة، وجَمعُها: جَوابٍ. والاجْتباءُ: الجمعُ على طريقِ الاصْطِفاء، قالَ تعالى: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [القلم: 50]. واجْتباءُ اللّهِ العَبْدَ: تَخْصيصُه إيّاه بِفَيْضٍ إلَهيٍّ، يتحصَّلُ له منه أنواعٌ مِنَ النِّعَم بلا سَعْيٍ مِنَ العَبْد، وذلكَ للأنبياءِ، وبعضِ مَنْ يُقارِبُهم مِنَ الصِّدِّيقينَ والشُّهداء، قالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: 6]، وقالَ سُبحانه: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ [القلم: 50][4].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

بيان الامتحان بتمييز معادن النّاس، والالتزام بالإيمان لنيل الأجر العظيم

يؤكّد سياق الآية، أنّ اللّه تعالى ما كان له أن يترك المؤمنين، من غير امتحان وتمحيص، وذلك من أجل أن يظهر الطّيّب من الخبيث، والمؤمن من المنافق، فكان امتحان المؤمنين يوم أحد، فرصة ليتجلّى المؤمنون على حقيقتهم، ويستبين حال المنافقين ظاهرًا جليًّا، فيما أبدوه من مخالفة للرّسول الأكرم، ونكال عن الجهاد في سبيل اللّه، وخيانة للمؤمنين في أصعب الظّروف، واللّه لا يُطْلِعُ عباده على الغيب المخبوء، ولا يكلّم جميع العباد كفاحًا، ولكنّه يجتبي من عباده رسلًا،

(1) أبو داود، الحديث رقم: (2348).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (طَلَعَ).
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 616.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 187.

يكلّفهم بالبلاغ عنه، فيبشّرون من آمن، وينذرون من كفر، ويكون الامتحان بالجهاد بالنّفس والمال، لإحقاق الحقّ وإبطال الباطل، من أهمّ وسائل التّمحيص، وفي ذلك تجسيد لأمر الله، في التّمييز بين الخبيث والطّيّب، ومن أجل ذلك دعا النّاس إلى الإيمان بالله ورسله، وعلى رأسهم محمّد الخاتم ﷺ، مؤكّدا أنّ من آمن به واتّقى، فقد حاز الأجر العظيم، وهو بإيمانه به، كأنّه آمن بجميع الأنبياء والمرسلين.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاسْتئنافِ في حقِّ الفريقين:

التَّلويحُ بالوعدِ والوعيدِ سنَّةُ القرآنِ في التَّمييز:

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مَسوقٌ لوعدِ المؤمنين، ووعيد المنافقين بالعقوبةِ الَّتي هي الفَضيحةُ والخِزْيُ إثْرَ بيانِ عقوبتِهم الأُخرويَّة[1]، وهذه سنَّةٌ قرآنيَّةٌ في بيان أهلِ الحقِّ وأهل الباطلِ، ليتميَّزَ كلُّ فريقٍ بما هو عليه من الصِّفات.

معنى اللَّامِ في قولِه: ﴿لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

اللّامُ في قولِه: ﴿لِيَذَرَ﴾؛ لتأكيدِ النَّفي في قولِه: ﴿مَا كَانَ﴾[2]، ناصبةٌ للفعلِ بنفسِها، ويُمكنُ أن تكونَ (اللّامُ) مُتعلِّقةً بالخبرِ المقَدَّرِ لـــ ﴿كَانَ﴾، وانْتصابُ الفعلِ بعدَها بأنْ المقَدَّرة، أيْ: ما كانَ الله مُريدًا أو مُتصدِّيًا؛ لأن يَذَرَ المؤمنين[3].

سرُّ العدولِ عن الضَّميرِ إلى الاسمِ الظَّاهرِ:

المؤمنونَ كلمةٌ تُطلَقُ فيُرادُ منها عمومُ المجتمعِ

وَالْمُرَادُ بِالْمُؤْمِنِينَ في قولِه تعالى: ﴿لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الْمُؤْمِنُونَ الْخُلَّصُ مِنَ النِّفَاقِ، وَلِذَلِك عَبَّرَ عَنْهُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَغَيَّرَ الْأُسْلُوبَ لِأَجْلِ ذَلِك، فَلَمْ يَقُلْ: لِيَذَرَكُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/607.
(2) الزّمَخْشري، الكشَّاف: 1/483.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل: 1/608.

بِضَمِيرِ الْخِطَابِ أَكْثَرُ مِنَ الْمُرَادِ بِلَفْظِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ: عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، فيكون المرادُ بالضَّميرِ في قولِه: ﴿أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ مُخاطَبٌ به المسلمونَ كُلُّهم، باعْتبارِ مَنْ فيهم مِنَ المنافقين[1].

معنى الاستعلاءِ في قولِه: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾:

حَرْفا الاستعلاءِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ للاسْتعلاءِ المجازيِّ، وهو التَّمكُّنُ مِنْ معنَى مَجرورِها، ويَتبيَّنُ الوصفُ المُبْهَمُ في الصِّلَةِ بما وردَ بعدَ ﴿حَتَّىٰ﴾ من قولِه: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، فَيُعْلَمُ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ هُوَ عَدَمُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ.

براعةُ الالتفاتِ في إفادةِ الإيجاز:

الاخـتـلاطُ بـينَ المؤمنين والمنافقين مؤقَّتٌ إلى حينٍ

الخطابُ في قولِه: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من اخْتلاطِ المؤمنينَ الخُلَّصِ والمنافقين[2]، كأنّه قيل: ما كانَ اللّه ليذرَ المخلصينَ منكم على الحال الَّتي أنتُم عليها من اخْتلاطِ بعضِكم ببعض، وأنَّه لا يعرِفُ مُخلِصَكم مِنْ منافِقكم، لاتّفاقكم على التَّصديقِ جميعًا، حتّى يميّزَهُم منكم بالوَحْيِ إلى نبيِّه ﷺ وإخبارِه بأحوالِكم، وهذا هو المُعَوَّلُ عليه عندَ المُحقِّقينَ من أهلِ التَّفسير، وهو الَّذي يُشيرُ إليه الالتفاتُ ضِمنَ تَلْوين الخطابِ، ما بَيْن صَدْرِ الآية الكريمةِ، وقولِه: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ لكونِ الخطابِ صريحًا في كَوْنِ المرادِ بما هم عليه، ما ذُكِر مِنَ القَدْرِ المشْتَرك بينَ الفريقَيْن، من حيثُ هو مُشترَكٌ بينَهما، وعليه يدورُ أمرُ الاخْتلاطِ المُحوجِ إلى الإفراز[3].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

المـنـافـقـون في حيِّزٍ مختلفٍ عـن المؤمنين، مـتـفـرِّقـون مُشتَّتون

في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾ قراءتان، الأولى: بفَتح ياءِ المضارَعة، وكسرِ الميم، وياءٍ تَحْتيَّةٍ بعدها ساكنةٍ، من: مازَ يَميزُ، وهي قراءة الجمهور، والثَّانية: بضمِّ ياء المضارَعة، وفَتْحِ الميم،

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/178.

(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/483.

(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/608.

وياءٍ مُشَدَّدَةٍ مَكْسورةٍ، ﴿يُمَيِّزَ﴾ مِنْ: مَيَّزَ، مُضاعَفُ مازَ، وهي قراءة حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف[1]، يُقالُ: مازَ الشَّيْءَ، يَميزُ مَيْزًا، ومَيَّزَه يُمَيِّزه تمييزًا؛ إذا فرَّقه، فانْمازَ، وانْمازَ هو بنفسِه[2].

والفرق بين القراءتين؛ أنَّ قراءة الجمهورِ تدلُّ على تفريقِ الخبيثِ وهم المنافقون عن الطَّيِّب وهم المؤمنون، أي: جعل المنافقين في حيِّزٍ غير حيِّز المؤمنين، بَيْنَما تدلُّ قراءةُ البقيَّة على تفريقِ المنافقين في أنفسِهم، أي: جعل المنافقين متفرِّقين مُشتَّتين، والقراءتان بليغتان في بيانِ المعنى، والمعنى فيهما مرادٌ.

فائدةُ تسميةِ المنافقين بالخبيثِ والمؤمنين بالطَّيِّبِ:

الـخُـبـثُ عـلَّـةُ النِّفاقِ والطِّيبُ أصلُ الإيمانِ

جاء قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ غايةً لما أفادَه النَّفيُ في صدرِ الآيةِ الكريمة، كأنَّه قيلَ: ما يتركُهمُ اللهُ تعالَى على ذلكَ الاخْتلاط، بلْ يُقدِّرُ الأمورَ ويُرتِّب الأسبابَ حتَّى يَعزِل المنافِقَ منَ المؤمن، والتَّعبيرُ عن المؤمنين بالطَّيِّبِ والمنافقين بالخبيثِ تسجيلٌ على كلٍّ منهما بما يَليقُ به، وإشْعارٌ بعِلَّةِ الحُكْم[3].

نكتةُ إفرادِ الخبيثِ والطَّيِّبِ:

وصـف الـخبـثِ والـطِّـيـب هما مدارُ التَّمييزِ بين الفريقين

جاء إفرادُ الخبيثِ والطَّـيِّبِ مع تعدُّدِها - لأنَّه أُريدَ بكلٍّ واحدٍ منهما وتَكَثُّره، لا سيَّما بعدَ ذكرِ ما أُريدَ بأحدِهما، وهمُ المؤمنون، الَّذي ورَدَ بصيغةِ الجمع - ؛ للإيذانِ بأنَّ مدارَ إفرازِ أحدِ الفريقَيْن من الآخَرِ هو اتِّصافُهما بوصفِهما، لا خصوصيَّةَ ذاتِهما، وتعدُّد آحادهما[4].

(1) ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 220، وابن الجزري، النشر: 2/244.
(2) ابن خالويه، الحُجَّة، ص: 118، ومكيٍّ، الكشف: 1/369.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/609.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/609.

سرُّ تعليق المَيزِ بالخبيث لا الطَّيِّب:

الخبيثُ تعلُّقٌ مؤقَّتٌ لا بدَّ من زوالِه، والطَّيِّب ثابتٌ راسخٌ

لسائلٍ أن يسألَ عنِ العلَّةِ في تعليقِ الميزِ بالخبيثِ في قولِه: ﴿يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ﴾؟ والجوابُ: أنَّ العلَّةَ تَنتظِمُ في أمرَيْن:

الأوَّلُ: هو أنَّ الميزَ الواقعَ بين الفريقيْن إنَّما هو بالتَّصرُّفِ في المنافقين، وتغييرِهم من حالٍ إلى حالٍ أُخرَى؛ مغايرةً للأُولى مع بقاءِ المؤمنينَ على ما كانوا عليه من أصلِ الإيمان، وإنْ ظهرَ مزيدُ إخلاصِهم لا بالتَّصرُّفِ فيهم، وتغييرِهم من حالٍ إلى حالٍ أُخرَى مع بقاءِ المنافقينَ على ما هم عليه من الاسْتِتار.

الثّاني: لأنَّ فيه مزيدَ تأكيدٍ للوعيد، كما أُشيرَ إليه بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ [البقرة: 220][1].

براعةُ التَّجريد في خطابِ المؤمنين:

تشريفُ المؤمنين في معرفةِ حدودِهم في معرفةِ الغيبِ

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾ تمهيدٌ لبيانِ الميزِ الموعودِ على طريقِ تجريدِ الخطابِ للمُخلِصين تشريفًا لهم[2]، يعني: أرادَ أن يُميِّزَ لكمُ الخبيثَ، فتعرِفوا أعداءَكم، ولم يكنْ من شأنِ اللّهِ إطلاعُكم على الغيب؛ فلذلكَ جعلَ أسبابًا مِنْ شأنِها أنْ تَستفزَّ أعداءَكم، فيُظهِروا لكمُ العداوةَ، فَتطَّلعوا عليهم، وإنَّما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾؛ لأنّه تعالى جعلَ نظامَ هذا العالم مُؤسَّسًا على اسْتفادَةِ المُسَبَّباتِ من أسبابِها، والنتائجِ من مُقدِّماتِها[3].

فائدةُ إظهارِ الاسمِ الجليلِ على التَّوالي:

تربيةُ المهابةِ في قلوبِ المؤمنين والطَّمأنينة في نفوسِهم

إظهارُ الاسْمِ الجليلِ في الموضِعَيْن ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾؛ لتربيةِ المَهابَة، فالمعنَى: ما كان اللّهُ ليترُكَ المخلِصينَ على الاخْتلاطِ بالمنافقين،

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/609.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/609.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/179.

بلْ يُرتِّبُ المبادئ حتَّى يُخرجَ المنافقين مِنْ بينِهم، وما يَفعلُ ذلك بإطلاعِكم على ما في قلوبِهم مِنَ الكُفرِ والنِّفاق، ولكنَّه تعالَى يوحي إلى رسولِه ﷺ، فيُخبِرُه بذلكَ، وبما ظَهَرَ منهم مِنَ الأقوالِ والأفعال، فَيفضَحُهم على رؤوسِ الأَشْهاد، ويُخلِّصَنَّكَ مِنْ خِسَّةِ الشُّركاء، وسوءِ جِوارِهم[1].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الاجتباءِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ﴾:

اجتباءُ الرُّسُلِ دليلُ بُطلانِ ما يزعمُه المبطلون أدْعياءُ معرفةِ الغيبِ

التَّعرُّضُ للاجْتباءِ في قولِه: ﴿يَجۡتَبِي﴾ لِلإيذانِ بأنَّ الوقوفَ على أمثالِ تلكَ الأسرارِ الغَيبيَّة لا يَتأتَّى إلّا ممَّن رشَّحَهُ اللهُ تعالَى لِمَنْصِبٍ جليلٍ، تَقاصرَتْ عنه هِمَمُ الأُمَم، واصْطفاه على الجماهيرِ لإرشادِهم، وهمُ الرُّسُل عليهم السلام، وفيه كذلكَ بيانٌ عَنْ مزيدِ مِزْيتِهم وفَضْلِ معرفتِهم على الخَلْق، إثْرَ بيانِ قُصورِ رُتبتِهم عَنِ الوقوفِ على خَفايا السَّرائر، وفيه كذلكَ تصْريحٌ في أنَّ المرادَ إظهارُ تلكَ السَّرائرِ بطريقِ الوَحْي لا بطريقِ التَّكليف، بما يؤدِّي إلى خروجِ أَسْرارِهم عن رُتبةِ الخَفاء، وتعميمُ الاجْتباءِ لسائرِ الرُّسل عليهم السلام في قولِه: ﴿مِن رُّسُلِهِۦ﴾ لِلدَّلالة على أنَّ شأنَه ﷺ في هذا البابِ أمرٌ مَتين، له أَصْلٌ أصيل جارٍ على سُنَّةِ اللهِ تعالى المَسْلوكةِ فيما بَيْنَ الرُّسُلِ الخاليةِ عليهم السلام[2].

تعدُّدُ احتمالِ المقصودِ بالخطابِ في قولِه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾:

أمـرُ المؤمنين بـالإيمـانِ علـى سبيـلِ الاستـزادة، والمنـافـقين للإيمانِ

قولُه تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ إمّا أنْ يكونَ خطابًا للمؤمنين، أوْ خِطابًا للمنافقين، فإنْ كانَ الأوَّلَ؛ فالمقصودُ منه الإيمانُ الخاصُّ، وهو التَّصديقُ بأنَّهم لا يَنطِقون عَنِ الهوَى، وبأنَّ وعدَ اللهِ لا يُخلَفُ، فعليهِمُ الطَّاعةُ في الحربِ وغيرِها، ويُمكنُ أنْ يُرادَ بالأمرِ الدَّوامُ على الإيمان؛ لأنَّ الحالةَ المتحدَّث عنها، قدْ يُتوقَّعُ منها تَزلزُلُ إيمانِ الضُّعفاء، ورَواجُ شُبَهِ المنافقين.

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/611.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/610.

وإنْ كانَ الثَّاني؛ فيكون هذا الخطاب مَبْنيًّا على أنَّ المرادَ بالخِطابَيْن السَّابقيْن في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾، وقولِه: ﴿لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾، هُمُ المنافقون، فيكونُ الأمرُ بالإيمانِ هنا ظاهرًا[1]، والأوفق بالسِّياقِ سباقًا ولحاقًا الاحتمالُ الأوَّل.

قوَّةُ تفريعِ شرطِ الإيمانِ على الأمرِ بالإيمانِ:

حـضُّ المؤمنين وترغيبُهم بعد أمرِهم بالإيمان أوثقُ استجابةً

جاء قولُه: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ تفريعًا مُصَدَّرًا بالشَّرْط؛ لإحقاقِ الحقِّ وإبْطالِ الباطِل، فإنَّ مَنْ آمن، وصَدَّق حقَّ التَّصْديق، وداومَ على إيمانه، واتَّقى مراعاةَ حُقوقِ اللّهِ، وإنزالَ رُسُلِ اللّهِ منازِلَهم، وأنَّهمُ المتَّبعون وَحْيَ اللّه؛ فله أجرٌ عظيمٌ مِنَ اللّه، ومَنْ خلَع عباءَةَ الكفر، ورِبْقتَه من قلبه، وآمنَ، وصدَّق، وداومَ على الإيمان؛ فإنَّ جزاءَه كذلكَ الأجرُ العظيمُ مِنَ اللّه، فهذا الشَّرطُ بتمامِه يُعدُّ دعوةً لِكلا الفريقَيْن: للأوَّلِ بضرورةِ الثَّبات، وللثَّاني بوجوبِ العَوْدِ للإيمان، ثمَّ الثَّبات.

فائدةُ تقديمِ شِبه الجملةِ القصرُ:

وتَقدُّمُ شِبْهِ الجُملة في ﴿فَلَكُمۡ﴾ يُعدُّ حَصْرًا وقَصْرًا وتأكيدًا لاسْتحقاقِ الجزاءِ الحَسَنِ بعدَ تَحقُّقِ سَبَبِه.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَذَرُ) و(يَدَعُ) و(يَترُكُ):

سَبَقَ بيانُ معنَى (يَذَر) في فِقرة: شرح المفردات، من تفسير هذه الآية، ونضيف إلى ما ورد هناك، ما يلي: "قال ابن كيسان: وإنّما جُعل من باب فَعَلَ يَفْعَل، بالفتح فيهما، وليس فيه حلقيّ لمضارعته (ودع يدع) من وجهين: أحدهما: تَنَكُّبُ استعمال ماضيهما، استغناء عنه بترك، الثّاني: أن لفظهما يؤدّي معنى التّرك، وكلّ شيءٍ أشبه

---

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/180.

شيئاً من وجه أو وجهين، دخل معه في بعض أحكامه، فلذلك حُمل عليه بالحذف، وحذف واو مستقبله، وأصله يَوْذَرُ"[1]. وأمّا (يَدَعُ)؛ فماضيه: وَدَعَ، يُقالُ: ودَعْتُ كذا أَدَعُهُ وَدْعًا، نحوُ: تركتُه وادِعًا، ولا يُستعمَلُ ماضيه، فهو كالفعل (يَذَرُ) كما سبَق، ولا يُستعمَلُ اسْمُ فاعلِه كذلك، وإنَّما يُقالُ: يَدَعُ، وَدَعْ[2] والتَّوَدُّعُ: تَرْكُ النَّفْسِ عنِ المجاهَدة، وفلانٌ مُتَّدِعٌ ومُتَوَدِّعٌ، وفي دَعَةٍ: إذا كانَ في خَفْضِ عَيْش، وأَصْلُه مِنَ التَّرْك، وعُبِّرَ عَنِ التَّرْكِ به في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ [الضُّحى: 3]، كقولِكَ: ودَّعْتُ فلانًا، نحوُ: خَلَّيتُه، ومنه قيل: اسْتودَعْتُكَ غيرَ مودَّع[3]. وتَرْكُ الشَّيْءِ: رَفْضُه قَصْدًا واخْتيارًا، أَوْ قَهْرًا واضْطرارًا، فمِنَ الأوَّلِ قولُه تعالى: ﴿۞وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ [الكهف: 99]، ومنه تَرِكَةُ فُلانٍ لما يَخْلُفُهُ بعدَ موتِه، وقد يُقالُ في كلِّ فعلٍ ينتهي به إلى حالةٍ ما: تركتُه كذا، أو يجري مَجْرَى جعلتُه كذا، نحوُ: تركْنا فلانًا وحيدًا[4]، والتَّـرْكُ عندَ العَرَب: تَخليفُ الشَّيْءِ في المكانِ الَّذي هو فيه، والانْصرافُ عنه[5]. ومِنْ خلالِ بيانِ المفرداتِ الثَّلاث: (يَذَرُ) و(يَدَعُ) و(يَترك)، نجدُ أنَّ كلَّ واحدةٍ منها تُستعمَلُ في نَظيرتِها، ولكنَّ الفِعْلَ (يَذَرُ) حازَ معنًى لم يَحُــزْهُ نَظيراه، وهو قِلَّةُ الاعْتدادِ بالشَّيء، فإذا قلْنا: فلانٌ يَذَرُ الشَّيْءَ؛ فإنَّنا نَعْني: يقذِفُه لِقلّةِ الاعْتدادِ به، لكنْ ما علاقةُ هذا المعنَى بسياق النَّصِّ القُرآنيِّ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؟الجوابُ: هو أنَّ بيانَ اللهِ تعالَى اسْتَخدمَ هذا الفعلَ (يَذَرَ) هنا؛ ليُظْهِرَ لعبادِه أنَّه ﷻ لا يَذَرُ اخْتلاطَ المنافقينَ بالمؤمنينَ، يَمُــرُّ كأنْ لم يكنْ، وكأنَّ المنافقينَ هُم مع اختلاطِهم بالمؤمنين، في أعمالِ الإسلامِ الظَّاهرةِ، مِنْ صَلاةٍ وصيامٍ وحَجٍّ وجِهاد، هم كذلكَ معهم، فيما وقَرَ في قلوبِهم مِنَ الإيمانِ الصَّادقِ المخلِصِ لله، كلَّا؛ لا يمكنُ أنْ يكونَ ذلكَ كذلك، فلا بُدَّ مِنْ فَرْزِهم وتَخْليتِهم عن صفِّ المؤمنينَ الصَّادقينَ المخلِصين، وهم في واقعِ حالِهم من حقيقةِ الكُفْرِ - الَّذي وَقَرَ في قُلوبهم، والَّذي لا يعلمُه إلّا اللّه - هم أهونُ عندَ اللّهِ وأصْغَرُ مِنْ أن يوصَفوا بالإيمان، فَلا اعْتدادَ بهم، ولا بِظاهرِ ما هُم عليه مِنْ مَظاهرِ الإسْلام، وقُلوبُهم خاويةٌ على عُروشها، ومُعطَّلةٌ عن حقيقةِ الإيمانِ باللّهِ، كما

(1) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (وَذَرَ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ودَعَ).
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 861.
(4) الرَّاغب، المفردات، ص: 166.
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 124.

قالَ ﷻ: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحُجُرات: 14].

(يَميز) و(يَفْصِل):

سَبَقَ بيانُ الفعلِ ﴿يَمِيزَ﴾ في فِقرةِ: شرح المفردات، وأمّا الفَصْلُ: فهو إبانةُ أحدِ الشَّيئَيْن مِنَ الآخَر، حتَّى يكونَ بينَهما فُرْجةٌ؛ ومنه قيلَ: المَفاصِلُ، والواحدُ مَفصِلٌ، وفَصَلْتُ الشَّاةَ: قَطَعتُ مفاصِلَها، وفَصَلَ القومُ عن مكاني كذا، وانْفَصَلوا: فارقوه، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ [يوسف: 94]، ويُستعمَلُ كذلكَ في الأفعالِ والأقوالِ، نحوُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٠﴾ [الدُّخان: 40]، وقولِه تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ [الصّافّات: 21]، أي: اليومَ يُبيِّنُ الحقُّ مِنَ الباطلِ، ويُفْصَلُ بين النَّاسِ بالحُكم. والفِصالُ: التَّفريقُ بين الصَّبيِّ والرَّضاعِ، كما قالَ تعالى: ﴿فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا﴾ [البقرة: 233]. والمُفَصَّلُ مِنَ القُرآن: السَّبعُ الأخيرُ، وذلكَ للفَصْلِ بين القَصَص بالسُّوَرِ القِصار[1].

وممَّا تقدَّمَ تفصيلُه بَيْنَ الفِعلَيْن (يَميزَ) و(يَفصِلَ) يَظهرُ لنا جَليًّا: أنَّ الفعلَ (يَميزَ) أوسعُ في إطلاقاته، وأشملُ في مَدْلولاته، مع فَرْقٍ واضحٍ كذلكَ: وهو أنَّه أَدَقُّ في معناهُ مِنَ الفعلِ (يفصلَ)، فهو فَصْلٌ بين المُتشابِهات. وسياقُ النَّصِّ القُرآنيِّ لَزِمَه الفعلُ (يَميزَ) لِشُمولِه ودقَّتِه، ممَّا لم يتوفَّرْ أوْ يَتَوافَرْ في الفعلِ (يَفْصل) بما يتعلَّقُ بفائدتِه المُتوخَّاةِ في سياقِ الجُملةِ القرآنيَّة، فأولئكَ المنافقونَ قَدِ اشْتبَه حالُهم ومَقالُهم عندَ كثيرٍ مِنَ المؤمنين، ولكنَّ الأزماتِ تُظهِرُ أهلَ النِّفاق مِنْ أهلِ الصِّدقِ والإخلاصِ في الإيمان، فقد انْقَشَعَتِ الحُجُبُ، وانكشفَ الغِطاءُ، وزالتِ المُتشابهاتُ في حقيقةِ نفاقِ أولئكَ الَّذينَ أظْهروا الإيمانَ تَجمُّلًا، وأَبْطنوا الكُفرَ خِداعًا وزورًا، وخاصَّةً في مِحْنةِ القِتالِ في عديدٍ مِنَ الغزوات، فلا بُدَّ مِنْ وضْعِ النِّقاطِ على الحُروف، وتمييزِ المؤمنينَ المُخلِصين، وإعلاءِ مَنْزلتِهم، وبيانِ المنافقين وفَضْحِهم، وإهدارِ كرامتِهم.

(يُطْلِعُ) و(يُعرِّفُ):

سبق بيانُ الفعل (يُطلِعُ) في فِقرة: شرح المفردات، والمَعْرِفَةُ والعِرْفانُ: إدراكُ الشَّيءِ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 138.

بتفكُّرٍ وتَدَبُّرٍ لأَثَرِه، وهو أخصُّ مِنَ العلم، ويُضادُّه الإنْكار، ويُقالُ: فلانٌ يعرِفُ اللّه، ولا يُقالُ: يَعلمُ اللّه، مُتعدِّيًا إلى مفعولٍ واحد، لَمَّا كانت معرفةُ البَشَرِ للّه، هي بتدبُّرِ آثارِه، دونَ إدراكِ ذاتِه، ويُقالُ: اللّه يعلمُ كذا، ولا يُقالُ: اللّه يعرِفُ كذا؛ لَمَّا كانتِ المعرِفةُ تُستَعملُ في العلمِ القاصِرِ، المُتوَصَّلِ به بتفكُّرٍ[1]، وممّا سبقَ معرفتُه يتبيَّنُ لنا أنَّ إيرادَ البيانِ الإلهيِّ للفعلِ ﴿لِيُطۡلِعَكُمۡ﴾، أوقعُ في السِّياقِ من الفعلِ (ليُعرِّفكم)، فإنَّ اللّه تعالى يعلمُ بواطنَ الأمورِ وظاهرَها، والغُيوبُ بواطنُ بالنِّسبَةِ للعباد، لا يعلمُها إلّا هو ﷻ، ثمَّ إنَّ المعرفةَ ـــ كما سلفَ ـــ تُستعمَلُ في العلمِ القاصرِ، المُتوصَّلِ إليه بتفكُّر، واللّه منزَّهٌ عن ذلكَ، سواءٌ أكانَ ذلكَ بإسنادِ المعرفةِ إليه سُبحانه، كصفةٍ، أَمْ بإسنادِها إليه في تعريفِه عبادَه الغيبَ بها.

(يَجْتبي) و(يَصْطفي) و(يَخْتارُ):

سبقَ بيانُ معنى ﴿يَجۡتَبِي﴾ في فِقرةِ: شرح المفردات، وأمّا (يخْتارُ) و(يَصْطفي)؛ فإنَّه قدْ كَثُرَ اسْتعمالُ أحدِهما مكانَ الآخر، فاخْتيارُك الشَّيءَ: أَخْذُكَ خيرَ ما فيه في الحقيقة، أَوْ خيرَهُ عندَك، والاصْطفاءُ أخذُ ما يَصْفو منه، واسْتُعمِلَ الاصْطفاءُ كذلكَ فيما لا صَفْوَ له على الحقيقةِ[2]، وبالنَّظرِ إلى معنَى الاجْتباءِ نجدُ أنَّه يقومُ على الجَمْعِ والتَّخصيص، فيَجمَعُ اللّه للعبدِ صفاتٍ يتحقَّق بها، تُؤهِّلُه للاجْتباء، وكذلكَ يُخصِّصُه بفُيوضاتٍ إلهيَّةٍ يمنحُها له، يتحصَّلُ له منها أنواعٌ مِنَ النِّعم بلا سَعْيٍ منه، وهذا عَيْنُ الاجْتباءِ الرَّبَّانـيِّ، وهذه المعاني ليستْ بعَيْنِها متحقِّقةً في كُلٍّ مِنَ الاصْطفاءِ والاخْتيار، كما تبيّنَ لنا، وإنْ كانَ في الظَّاهر ما يوهِمُ بأنَّها جميعَها بنَفْسِ القَدْرِ مِنَ الاشْتراكِ في المعنَى.

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 560 - 561.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 29.

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠﴾ [آل عمران: 180]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين حكمة الله في التّمحيص، والتّنديد بالباخلين بما أفاء الله عليهم

لَمَّا بيَّنَ اللّهُ ﷻ في الآيةِ السَّابقة: أنَّه ما كانَ مِنْ حكمةِ اللّهِ تعالَى أنْ يترُكَ المؤمنينَ على اختلاطٍ مع المنافقينَ دونَ تمييزٍ بينَهم، وأنْ يُطلعَ عبادَه على الغيب، وأنَّ اللّهَ يَجْتبي مِن رُسُلِه مَنْ يشاءُ؛ كانَ مِنَ المناسبِ في هذه الآيةِ أنْ يُندِّدَ بأولئكَ الَّذين يَبخلونَ بِبَذلِ ما أَنْعمَ اللّهُ به عليهم مِنَ المالِ والجاهِ والعلمِ لِعبادِ اللّه، أليسَ هذا مخالفًا لما أمرهُمُ اللّهُ به في الآيةِ السّابقةِ مِنَ الإيمانِ والتَّقوى، وأنَّهم سَيرحلون عَنِ الدُّنيا، ولن يأخذواْ منها شيئًا لِلآخرة؟

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبۡخَلُونَ﴾: البُخلُ والبُخولُ، بضمّيهما: ضِدُّ الكَرَم، وبَخِلَ، كفرِحَ وكَرُمَ، بُخْلًا، بالضَّمِّ والتَّحريك، ورَجلٌ بَخَلٌ، مُحرَّكةٌ: وصفٌ بالمصْدَر[1]، والبخل من أبشع الأخلاق عند العرب، يقال: " (فلان أصيل في اللّؤم بخّال، ماله عمّ كريم ولا خال)، ويقال: (لا يكاد يفلح النّخيل، إذا أبرّها البخيل)، وقيل لرجل: (بفلان خبل، وبأخيه بخل، فقال: الخبل أهون من البخل)"[2].

2) ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ الفَضْلُ، والفَضيلةُ: ضِدُّ النَّقْص والنَّقِيصَة، والجَمْعُ: فُضولٌ، وقد فَضَلَ، كنَصَر وعَلِمَ، وأمّا فَضِلَ، كَعَلِمَ، يَفْضُلُ،

(1) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (بَخِلَ)

(2) الزّمَخْشري، أساس البلاغة: (بَخِلَ).

كينصُرُ؛ فَمُرَكَّبةٌ منهما، والإِفْضالُ: الإحْسانُ، ورجُلٌ مِفْضالٌ، وامْرأةٌ مِفْضالةٌ على قومِها؛ إذا كانت ذاتَ فَضْلٍ، سَمْحة[1].

3) ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ الطَّوْقُ: حَلْيٌ للعُنُق، وكُلُّ ما اسْتدارَ بشَيءٍ، والجَمْعُ: أَطْواقٌ، وتَطَوَّقَ: لَبِسَهُ، ويَطَّوَّقونَهُ: أَصْلُهُ: يَتَطَوَّقونَه، قُلِبَتِ التَّاءُ طاءً، وأُدْغِمتْ[2]، وفي لفظ طوق «من ظلم شبرًا من أرض طوّقه اللّه من سبع أرضين»[3]، أي يخسف اللّه به الأرض، فتصير البقعة المغصوبة منها في عنقه كالطّوق، وقيل: هو أن يطوّق حملها يوم القيامة أي يكلّف، فيكون من طوق التّكليف لا من طوق التّقليد[4]، ومعنى اللّفظ في السّياق وهو الأرجح: "أنّه سيكون ما بخلوا به، طوقًا في أعناقهم، وغِلًّا فيها، يشعرهم بما كان منهم في الدّنيا، وهو طوق مؤلم، مَثّلهُ النّبيُّ ﷺ بثعبان، فقد روى البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من آتاه اللّه مالا فلم يؤد زكاته مُثِّلَ له شجاعًا أقرع له زبيبتان يطوَّقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمتيه، يقول: أنا مالك أنا كنزك، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾»[5].

4) ﴿مِيرَاثُ﴾: وَرِثَ أَباهُ، يَرِثُهُ، كَيَعِدُه، وِرْثًا، وَوِراثَةً، وإِرْثًا، وَرِثَةً، بِكَسْرِ الكُلِّ، وأَوْرَثَهُ أَبوهُ، وَوَرَّثَهُ: جَعَلَهُ مِنْ وَرَثَتِه، والوارِثُ: مِنْ أسماءِ اللّهِ الحُسْنَى، وهو الباقي بعدَ فناءِ الخَلْقِ[6].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

البـــخـــلاء عاقبتهم عند اللـه وخيمة، وسمعتهم بين الخلائق ذميمة

لا يَظُنَّنَّ الَّذين يَمْنعون ما عندَهم - ممّا آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِه مِنَ المالِ والجاهِ والعلم، وغيرِ ذلكَ، ممَّا مَنَحهُمُ اللّه، وأَحْسنَ إليهمْ به، وأَمرَهُم ببذْلِ ما لا يَضُرُّهم منه لعبادِه، فأمْسَكوه، وضَنُّوا به على عبادِ اللّه - أنَّه خيرٌ لهم، بلْ هو محضُ شرٍّ لهم، في دينهِمْ ودُنْياهُم وعاجِلهِمْ وآجلهِم، وأولئكَ ستكونُ عاقبةُ بُخْلهم وَخيمةً يومَ

(1) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس: (فَضَلَ).
(2) الفيروزآبادي، القاموس: (طَوَقَ).
(3) البخاري، الحديث رقم: (2453)، ومسلم، الحديث رقم: (1610).
(4) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (طَوَقَ).
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1525.
(6) الفيروزآبادي، القاموس: (وَرِثَ).

القيامة، فسيُجعَلُ ما بَخِلوا به طَوْقًا يُلَفُّ على أعناقِهم، يُعذَّبونَ به، وقدْ تَغافلَ أولئكَ عَنْ حقيقةٍ عظيمة، وهي أنَّ اللّه تعالى مالكُ المُلْك، سينقلِبُ العبادُ إليه، ما معَهم دِرْهمٌ ولا دينارٌ، ولا شيءٌ مِنْ مَتاعِ الدُّنيا الفانية، كما قالَ ﷻ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥﴾ [مريم: 93 - 95](1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ عطفِ قولِه: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾:

البـخـلُ أبـرزُ سـلوكٍ مـارَسَـه المنافقون

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ على ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ لأنَّ الظَّاهرَ أنَّ هذا أُنزِلَ في شأنِ أحوالِ المنافقين، فإنَّهم كانوا يَبْخَلونَ ويأمُرونَ النَّاسَ بالبُخل، كما حَكَى اللّهُ عنهم بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ [النّساء: 37]، وكانوا يقولون فيما حكاهُ القرآنُ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧﴾ [المنافقون: 7]، وغيرَ ذلك، ولا يَجوزُ بحالٍ أنْ يكونَ نازلًا في شأنِ بعضِ المسلمين؛ لأنَّ المسلمينَ يَومئذٍ مُبَرَّؤون مِنْ هذا الفعلِ، ومِنْ هذا الحُسْبانِ(2)، وهذا من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامّ، فهو عطفُ صفةِ البخلِ على صفةِ الكفرِ؛ فإنَّ المنافقين كانوا يحرصون على المالِ حرصَهم على الحياةِ، كيف لا وهم الذين اشتروا الكفرَ بالإيمان؟!

نكتةُ اختيارِ لفظِ الإيتاءِ في قولِه: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾:

بخلُ المنافقين عنوانُ الكفران ودليلُ الحرمان

وإيرادُ البيانِ الإلهيِّ لما بَخلَ به المنافقونَ بعنوانِ إيتاءِ اللّهِ تعالَى بقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾؛ للمبالغةِ في بيانِ سوءِ صَنيعِهم،

(1) ابن سعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 119.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/180 - 181.

فإنَّ ذلكَ مِنْ موجِباتِ بَذلِه في سبيلِه تعالَى، كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: 7].

توجيه القراءات القرآنيَّة:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ قراءتان: الأوْلى: بالياء وهي قراءةُ الجمهورِ، والثَّانيةُ: بالتَّاء وهي قراءة حمزة[1].

فمَنْ قرأَ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء، يكونُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محلِّ رفعٍ على أنَّه فاعلُ الفعل، والمفعولُ الأوَّلُ محذوفٌ، أيْ: لا يَحسبَنَّ الباخلونَ البُخلَ خيرًا لهم، وإنَّما حُذِفَ المفعولُ الأوَّلُ لِدلالةِ يبخلونَ عليه.

ومَنْ قرأَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتَّاء؛ فالفعلُ مُسنَدٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، والمفعولُ الأوَّلُ محذوفٌ، أيْ: لا تحسَبَنَّ - يا محمَّدُ - بُخْلَ الَّذينَ يَبخَلونَ خيرًا لهم، على حذفِ المضافِ، وهو مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82]، والضَّميرُ المذكورُ هو ضميرُ الفَصْل[2].

فائدةُ الإضرابِ والتَّنوين في قوله: ﴿بَلۡ هُوَ شَرٌّ لَّهُمۡۖ﴾:

البُخلُ محضُ شرٍّ لصاحبِه؛ وإنْ ظنَّ خِلافَه

سبقَ بيانُ أنَّ البُخلَ ليس فيه خيرٌ على صاحبِه، والآيةُ زادتِ البيانَ بنفْيِ الخَيْريَّة، والإضراب بـ ﴿بَلۡ﴾؛ ليأتيَ التَّنصيصُ على شَرِّيَّـته لهم؛ للمبالغَةِ في ذلك، وجاءَ التَّنوينُ في ﴿شَرٌّ﴾ للتَّفخيم[3]، وهذا يَقتَضي التَّنفيرَ منه.

براعةُ المباغتةِ في الوَعيدِ، وحسنُ التَّفسيرِ بالتَّمثيلِ البليغ:

الـشَّرُّ المحضُ أن يـكونَ مـالُ المنافقين طَوْقًا لهم يومَ القيامةِ

السِّينُ في قولِه: ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ سينُ الوَعيد، وتأويلُها: سوفَ يُطَوَّقون[4]، وجملةُ ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ واقعةٌ موقعَ العِلَّةِ لقولِه: ﴿بَلۡ هُوَ شَرٌّ لَّهُمۡۖ﴾، وهي تفسيرٌ لها، أيْ: سَيُلْزَمونَ وَبالَ ما بَخِلوا به إلزامَ الطَّوْق،

(1) ابن الجزري، النشر: 2/244.
(2) النَّحَّاس، إعراب القرآن: 1/420، والعكبري، التبيان: 1/160.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/611.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/134.

فهم يُلزَمونَ أعمالَهم، كما يَلزَمُ الطَّوْقُ العُنُقَ، يُقالُ: طوّقَ فلانٌ عملَه طَوْقَ الحَمامةِ؛ أُلزِمَ جزاءَ عملِه، ويُمكِنُ أنْ يكونَ ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ مُشتقًّا مِنَ الطَّاقة، وهو تحمُّلُ ما فوقَ القُدرة، أيْ: سَيحملونَ ما بَخِلوا به، أيْ: يكونُ عليهم وِزْرًا يومَ القيامة، والمعنَى الأوّلُ أظهر(1).

فائدةُ تقديمِ لفظ الجلالةِ في قولِه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾:

مَهْما بَخِلَ المنافقونَ فإنَّ ميراثَ ذلك كلِّه لله تعالى

تقديمُ لفظِ الجَلالةِ في قولِه سُبحانَه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ يُفيدُ حَصْرَ ميراثِ السَّماواتِ والأرضِ لله وحدَه سُبحانَه دونَ سِواه، أيْ: ما يتوارثُه أهلُهما مِنْ مالٍ وغيرِه مِنْ أهلِ السَّماواتِ والأرض، فَمالَهمْ يَبْخَلونَ عليه بمِلْكِه، ولا يُنفِقونَه في سَبيلِه، أوْ أنَّه تعالى يَرِثُ منهم ما يُمسِكونَه، ولا يُنفِقونَه في سبيلِه تعالى عندَ هلاكِهم، وتدومُ عليهم الحَسْرةُ والنَّدامَة(2).

بلاغةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ لتربيةِ المهابةِ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾:

إظهارُ الاسْمِ الجليلِ (اللهُ) في مَوْضعِ الإضْمار؛ لتربيةِ المَهابةِ، والالتفاتُ للمبالَغةِ في الوَعيد، والإشعارِ باشْتدادِ غَضبِ الرَّحمنِ النَّاشئَ مِنْ ذِكْرِ قبائحِهم(3)، فالآيةُ موعظةٌ ووعيدٌ وَوَعْدٌ.

فائدةُ المجازِ المرسل في قولِه: ﴿خَبِيرٌ﴾:

تضمينُ صفةِ (خبير) وعيد المنافقين

المقصودُ لازمُ قولِه: ﴿خَبِيرٌ﴾(4)، فأطلقَ ﴿خَبِيرٌ﴾ وأرادَ الوعيدَ لأهلِ المعصيةِ، من باب المجاز المرسل والعلاقةُ اللزوميَّة، ففيه تضمين الوعيدِ من خلالِ صفةِ الله تعالى ﴿خَبِيرٌ﴾.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة الخبر:

وتقديمُ شِبْهِ الجُملةِ معَ صِلَتِها ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على ﴿خَبِيرٌ﴾ للإشعارِ

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/182.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/611 - 612.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/612.
(4) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/183.

والإعلامِ بأنّ أعمالَهمُ الدَّائمةَ - ما خَفيَ منها وما ظهرَ - هي في علمِ اللّه، لا يَنِدُّ عنه شيءٌ منها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البُخل والشُّحّ والضَّن:

البُخْلُ: مَنعُ الحقِّ، فلا يقالُ لمن يؤدِّي حقوقَ اللّهِ تعالى: بخيلٌ، والبَخيلُ يَبخَلُ بما في يدِه، والبَخيلُ: يكون بالمالِ خاصَّة[1]. والشُّحُّ: البُخْلُ مع حِرْصٍ[2]، وقدْ أُضيفَ إلى النَّفسِ في قولِه تعالى: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النّساء: 128]؛ لأنَّه غريزةٌ فيها، والشَّحيحُ يَشُحُّ - بضمِّ الشِّين وفتحِها - بما في أَيْدي النّاس، وعلى ما في يدِه، حتّى لا يَرى في أيدي النَّاس شيئًا إلَّا تمنَّى أنْ يكون له بالحِلِّ والحَرام، ولا يَقنَعُ بما رزقَه اللّه، والشُّحُّ غريزةٌ جُبِلَ عليها الإنسانُ، فهو كالوصفِ اللَّازمِ له، ومركزُها النَّفْسُ، ولذلكَ فهو ليس بمَذموم، وإنَّما المذمومُ أنْ يستوليَ سُلطانُه على القلبِ، فَيُطاعَ، وهو يكونُ بالمالِ وبغيرِه مِنَ الأغْراض[3]، وأمّا الضَّنُّ: فأصلُه أنْ يكونَ بالعَواري، ولهذا يُقالُ: هو ضَنينٌ بعلمِه، ولا يُقالُ: بخيلٌ بعلمِه؛ لأنَّ العلمَ أشبَهُ بالعاريَّةِ منه بالهِبَة، وذلكَ أنَّ الواهبَ، إذا وَهبَ شيئًا؛ خَرجَ مِنْ مِلكِه، فإذا أعارَ شيئًا؛ لم يخرج؛ ولهذا قالَ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ۝٢٤﴾ [التّكوير: 34] ولم يقلْ: بَخيل[4]. ممَّا سبقَ تفصيلُه نجدُ: أنَّ كلتا الكلمتَيْن (الشُّحُّ) و(الضَّنُّ) لا تَفيان بالغَرضِ المرادِ من سياقِ نصِّ الآيةِ الكريمة، بلِ الَّذي يُؤدِّي المرادَ مِنَ السِّياقِ: هو كلمةُ (البُخلُ)، فإنَّ بيانَ اللّهِ تعالى، يَنْعَى على أولئكَ الَّذين يمسِكونَ أيديَهم عنِ الإنفاقِ من مالِهم في سبيلِ اللّه، والمالُ الَّذي في أيديهم فَضلٌ ومِنَّةٌ من اللّهِ عليهم، وهذا هو المعنَى الَّذي تقدَّمَ ذِكْرُهُ تمامًا في كلمة (البُخل).

(يُطوَّقُ) و(يُقلَّدُ):

أصلُ الطَّوْقِ: ما يُجعلُ في العنُقِ خِلقةً، كَطَوْقِ الحَمام، أوْ صنعةً كطَوْقِ الذَّهبِ والفِضَّة، ويُتوَسَّعُ فيه، فيُقالُ: طَوَّقْتُه كذا، كقولِكَ: قلَّدتُه، وقدْ يُعبَّر بنفي الطَّاقة عَنْ نفيِ القُدْرة،

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 295 - 296.
(2) الفيروزآبادي، القاموس: (بَخَل).
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 295 - 296.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 332.

كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: 286]، أي: ما يصعُبُ علينا مزاولتُه[1]، والقَلْدُ: الفَتْل، يقالُ: قَلَدْتُ الحبلَ، فهو قَليدٌ ومَقلودٌ، والقِلادَةُ: المفتولةُ الَّتي تُجعَلُ في العُنُقِ من خَيْطٍ وفِضَّةٍ وغيرِهما، وبها شُبِّهَ كلُّ ما يُتطوَّقُ، وكلُّ ما يُحيطُ بشيءٍ، يُقالُ: تقلَّدَ سيفَه تشبيهًا بالقِلادة، وقَلَّدْتُه عملًا: أَلْزمتُه[2]، وعليه نجدُ أنَّ الفعلَ (يُطوَّقُ) أكثرُ استيعابًا للمعنى المرادِ من سياقِ الجُملةِ القُرآنيَّة، فهو يحملُ معنَى الإحاطةِ الحِسِّيّة بالعُنُق، ومعنَى عَدَمِ الطَّاقةِ والقُدرةِ على تحمُّلِ ما يصيبُهم من شدَّةٍ وعَذاب، وهذا حالُ المنافقينَ وشأنُهم يومَ القيامة.

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 532 - 533.

(2) الراغب، المفردات، ص: 682.

﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾ [آل عمران: 181 - 182]

مُناسَبَةُ الآيَتيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

علاقة التّشنيع بالبخل، بوصف الله بالفقر، وتوعّدهم بعذاب الحريق

لَمَّا سطَّرَ بيانُ اللّهِ في الآيةِ السّابقةِ، عاقبةَ الَّذين يبخلونَ بإنفاقِ المالِ في سبيلِ اللّه، وأنّ اللّه مالكُ السَّماواتِ والأرض، شَنَّع اللّه على اليهودِ مقالَتَهم الفاجرةَ الكافرة، وكذلكَ قَتْلَهمْ لأنبيائهم ظُلمًا وعُدوانًا، وتوعَّدَهُمْ على ذلكَ بعذابِ الجَحيم، وهذا كلُّه بسببِ ما قدَّمَتْه أنفُسُهمُ الظَّالمةُ، وأنَّ اللّه لا يَظلمُ أحدًا من عبيدِه.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿سَنَكۡتُبُ﴾: الكَتْبُ: في التَّعارفِ: ضَمُّ الحروفِ بعضِها إلى بعضٍ بالخَطِّ، وقد يُقالُ ذلكَ للمَضموم بعضِها إلى بعضٍ باللَّفظ، فالأصلُ في الكتابةِ: النَّظْمُ بالخطِّ، لكنْ يُستعارُ كلُّ واحدٍ للآخَرِ؛ والكتابُ في الأصلِ مصدرٌ، ثمَّ سُمِّيَ المكتوبُ فيه كتابًا، ويُعبَّرُ عنِ الإثْباتِ، والتَّقدير، والإيجابِ، والفَرْضِ، والعَزْمِ بالكتابة، كما يُعبَّرُ بالكتابةِ عن القضاءِ الْمُمضى، وما يصيرُ في حُكمِ الْمُمضى، وعلى هذا حُمِلَ قولُه تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ٨٠﴾ [الزُّخرف: 80]، ويُعبَّرُ بالكتابِ عنِ الحُجّةِ الثَّابتةِ من جهةِ اللّه؛ نحوُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨﴾ [الحجّ: 8][1]، وهذا المعنَى هو المناسبُ لمقامِ الفعلِ ﴿سَنَكۡتُبُ﴾ في الآيةِ الكريمة، ممّا يؤكّد سُمُوَّ البيانِ في سياقاتِ القرآن.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 699 - 700.

2) ﴿ذُوقُواْ﴾: ذاق الطَّعامَ: اختبر طعمَه، بوضعه على طرف لسانه، ليختبر مذاقه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: 22]، والذَّوْقُ: وجودُ الطَّعْمِ بالفَم، وأَصْلُه فيما يَقِلُّ تناولُه دون ما يكثُر، فإنَّ ما يَكْثُرُ منه يُقالُ له: الأكلُ، واخْتِيرَ في القرآن لفظُ الذَّوْقِ في العذاب؛ لأنَّ ذلك ــــ وإنْ كانَ في التَّعارُفِ للقليل ــــ فهو مرتضًى للكثير، فخصَّه بالذِّكرِ لِيَعُمَّ الأمريْن، وكَثُرَ استعمالُه في العذاب، كقولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾ [الأنفال: 35]. وقد جاءَ ذكرُ الذَّوقِ في الرَّحمة، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً﴾ [هود: 9]، ويُستعملُ الذَّوْقُ مع اللِّباس، كما في قولِه تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ [النّحل: 112] من أجلِ أنَّه أُريدَ به التَّجربةُ والاخْتبار؛ أي: فجعلَها بحيثُ تُمارِسُ الجُوعَ والخَوْفَ[1].

3) ﴿ٱلۡحَرِيقِ﴾: النَّارُ، وحَرْقُ الشَّيءِ: إيْقاعُ حرارةٍ في الشَّيْءِ من غير لهيبٍ، كحرقِ الثَّوْبِ بالدَّقِّ، وحرَقَ الشَّيْءَ: إذا بَرَدَه بالمِبْرَد، وعنه اسْتُعير: حَرْقُ النَّاب، وماءٌ حُرَاقٌ: يَحرقُ بملُوحَتِه، والإحْراقُ: إيقاعُ نارٍ ذاتِ لهيبٍ في الشَّيء، ومنه اسْتُعيرَ: أَحْرَقَني بلَوْمِه: إذا بالغَ في أذيَّتِه بلَوْمٍ[2]، وللفظ (حرق) أَصْلَانِ: " أَحَدُهُمَا حَكُّ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ، مَعَ حَرَارَةٍ وَالْتِهَابٍ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ فُرُوعٌ كَثِيرَةٌ، وَالْآخَرُ شَيْءٌ مِنَ الْبَدَنِ، هو الْحَارِقَةُ، وَهِيَ الْعَصَبُ الَّذِي يَكُونُ فِي الْوَرِكِ، والأَوَّلُ هو الّذي يهمّنا هنا، وذلك في قَوْلِهِم حَرَقْتُ الشَّيْءَ، إِذَا حَكَكْتَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: (هُوَ يَحْرُقُ عَلَيْكَ الْأَرَّمَ غَيْظًا)، وَذَلِكَ إِذَا حَكَّ أَسْنَانَهُ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، وَالْأُرَّمُ هِيَ الْأَسْنَانُ، قَالَ:

نُبِّئْتُ أَحْمَاءَ سُلَيْمَى إِنَّمَا *** بَاتُوا غِضَابًا يَحْرُقُونَ الْأُرَّمَا"[3].

4) ﴿بِظَلَّٰمٖ﴾: من الظُّلم، وهو عندَ أهلِ اللُّغة: وَضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعِه المختصِّ به[4]، إمَّا بنقصانٍ أو بزيادَة، وإمَّا بعُدُولٍ عن وقتِه أو مكانِه، والظُّلمُ ثلاثةُ أنواعٍ: الأوّلُ: ظُلمٌ بينَ الإنسانِ وبينَ اللهِ تعالى، والثّاني: ظلْمٌ بينَه وبينَ النَّاس، والثّالثُ: ظُلْمٌ بينَه وبينَ

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 332 - 333.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 229، والفيروزآبادي، القاموس: (حَرَق).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَرَق).

(4) الرّاغب، المفردات، ص: 537، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 144.

نَفْسِه، وكُلّها ظُلمٌ للنَّفس، ولهذا قالَ تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ [النَّحل: 33][1].

5) ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾: العُبوديّةُ: إظهارُ التَّذلُّل، والعبد: الإنسان حرًّا أو رقيقًا، ويقال: هو عبد اللّه، ويجمع على عباد وعبدين، والعبد: المملوك، وجمعه: عبيد[2]، ولهذا اللّفظ صلة بلفظ العبادة، وهي فعلُ المكلَّف على خلافِ هوَى نَفْسِه، تَعظيمًا لربِّه[3]، وجَمْعُ العَبْدِ الَّذي هو مُسْتَرَقٌّ: عَبيدٌ، وجمعُ العَبْدِ الَّذي هو العابِدُ: عِبَادٌ، فالعبيدُ إذا أُضيفَ إلى اللّه أعمُّ مِنَ العباد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾، فَنَبَّه بيانُ اللّهِ تعالى، أنَّه لا يَظلِمُ مَنْ يختصُّ بعبادتِه، والوعيد في الآية، لِمَنِ انْتسبَ إلى غيرِه، مِنَ الَّذين تَسَمُّوا بِعَبْدِ الشَّمس، وعَبْد اللَّات[4]، وعبدوها من دون اللّه.

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

التّشنيع على أباطيل الأقاويل، وتوعّد المبطلين بعذاب الحريق

يُخبر بيانُ اللّهِ تعالى عن أقبح مقالةٍ وأشْنعها على اللّه تعالى، وأنَّه ﷻ قدْ سمعَ ما قالوه، وسيكتبُه ويحفظُه مع أفعالهم الظَّالمة، ومنها قتلُ الأنبياءِ النَّاصحينَ لهم، وأنَّه سَيُعاقبهُم على ذلك أشدَّ العُقُوبة، ويُقابلُ قولهَم الفاجِرَ ذاكَ بقولِه لهم: ذُوقُوا العذابَ الْمُحرِقَ لِأجسادِكم؛ وسببُ عاقبتِهمُ الْمُخزيةِ تلكَ ما قدَّمتْه أنفُسُهمُ الفاجِرة، وأنَّ اللّه لا يظلمُ أحدًا مِنْ عبيدِه؛ بلْ همُ الظَّالمون[5]، وفي الآية ردٌّ صريح عليهم، ومجابهة قويّة تكشف عن كذبهم الصّراح، وتظهر ما أبدوه من التوائهم وإصرارهم على الكفر، ووصف اللّه بما لا يليق بجلاله وكماله.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 537 - 538.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 537 - 538.
(3) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 146.
(4) الراغب، المفردات، ص: 542 - 543.
(5) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 119.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

أفادَ الاسْتئنافِ، مناسبة ذكر البُخل؛ لأنَّهم قالُوه في مَعْرِضِ دَفْعِ التَّرغيب في الصَّدقات

قولُه تعالى: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾.

قولُه: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ جملةٌ اسْتئنافيّةٌ لمناسبةِ ذكرِ البُخْل؛ لأنَّهم قالُوه في مَعْرِضِ دَفْعِ التَّرغيب في الصَّدقات، والَّذين قالوا ذلكَ هُمُ اليهودُ، كما هو صريحُ آخرِ الآيةِ في قوله: ﴿وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾، وجاءتْ صيغةُ الجمعِ ﴿قَالُوٓاْ﴾ مع أنَّ القائلَ واحدٌ لِرضا الباقينَ بذلك[1].

بلاغة الإيجاز في الآية:

علّة الاستغناء بالمذكور؛ لدلالة الكلام عليه

في الآية الكريمة إيجازٌ بالحذف؛ "إذ إنَّ السّياق تضمّن حذف كلمات دلّ فيها ما ظهر على ما طوي، إذ المعنى: سنكتب ما قالوا وما فعلوا ونُلْقيهم في جهنم وبئس المصير، ونخاطبهم وهم يَصْلون نارها بقولنا: ذوقوا عذاب تلك النار الملتهبة وآلامها، وذلك مثواهم"[2].

فائدة الافتتاح بالقسم:

علّة القَسَم؛ المبالغةُ في التَّهديد والوَعيد لليهود

وقولُه: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ، وهو يُؤذِنُ بأنَّ هذا القولَ جراءةٌ عظيمةٌ، وإنْ كانَ القصدُ منها التَّعريضُ ببُطلانِ كلامِ القرآن؛ لأنَّهم أتَوْا بهاتِه العبارةِ بدونِ محاشاةٍ، ولأنَّ الاسْتخفافَ بالرَّسولِ ﷺ وقرآنِه إثمٌ عظيمٌ وكُفْرٌ على كُفر، ولذلكَ قالَ تعالى: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ﴾ المستعمَلَ في لازمِ معناه، وهو التَّهديدُ على كلامٍ فاحش، إذْ قد علمَ أهلُ الشَّرائعِ أنَّ اللّٰه يعلمُ خائنةَ الأَعْيُن، وما تُخفي الصُّدور، فليس المقصودُ إعلامَهم بأنَّ اللّٰه علمَ ذلك؛ بلْ لازِمُه، وهو مقتضَى قولِه: سنكتُبُ ما قالُوا[3].

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/183.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1530.

(3) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/183 - 184.

علّة التعبير بلفظ السّمع:

إيـثـارُ لفظ السّمع إيذانٌ بشناعة القول غير المرضي أنْ يُسمع

وجاءَ التّعبيرُ بالسَّماعِ في قولِه: ﴿سَمِعَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّه مِنَ الشّناعةِ والسَّماجةِ، بحيثُ لا يرضَى قائلُه بأنْ يسمعَه سامعٌ.

دلالة التوكيد بـ ﴿لَقَدۡ﴾:

جاء التَّوكيدُ القَسَميُّ في قولِه: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ﴾؛ للتَّشديدِ في التَّهديدِ والمبالغةِ في الوعيد[1].

سرّ التّعبير عن القائلين بالاسم الموصول:

التعبير بالموصول؛ لبيان أنّهم لا يُعرفون إلا بهذه المقولات والافتراءات

عبَّر عن القائلين في قوله: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ بالاسم الموصول وجملة صلة الموصول التّي ذكرت مقولتهم دون أن يبيّن من هم على وجه التّحديد، مع أنّ السّياق يبيّنهم على وجه الخصوص، وذلك لبيان أنّه ليس لهم ما يُعرفون به سوى هذه المقولات والافتراءات التي يفترونها على اللّه.

بلاغة توكيد المقولة:

وجه توكيد المقولة؛ الإيهامُ بتحقّق مضمونها

وأكّدوا مقولتهم بـ ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميّة تضليلًا للمُخاطبين وإيهامًا لهم بأنّ الأمر مُحقّق لا مرية فيه.

فائدة واو الحال:

أظهرت واو الحال وقاحتهم في الخطاب مع الله تعالى

وجاؤوا بواو الحال على معنى: هو فقير وحالنا أنّنا أغنياء، فلا حاجة لنا إذن به، وهذا يدلّ على شناعة وقاحتهم مع اللّه.

دلالة السّين في فعل الكتابة:

السِّينُ في ﴿سَنَكۡتُبُ﴾؛ لتأكيدِ التَّشنيع على اليهودِ بمقالتِهمُ الفَاجِرة؛ أيْ: سنكتُبُ ما قالوه مِن العظيمةِ الشَّنعاء في صحائفِ الحَفَظة، أو سنحفظُه ونُثبتُه في عِلْمنا لا نَنْساهُ ولا نُهمِلُه، أي: لن يفوتنا أبداً تدوينُه وإثباتُه؛ لكونه في غاية العِظم والهول؛ كيف لا وهو

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/612.

كفرٌ باللّه تعالى واستهزاءٌ بالقرآن العظيم والرسولِ الكريم؟!(1)، فالمرادُ بالكتابةِ في قولِه تعالى: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾؛ إمّا كتابته في صحائفِ آثامِهم، إذْ لا يَخطُرُ ببالِ أحدٍ أن يُكتَبَ في صحائفِ الحَسَنات، وهذا بعيد؛ لأنَّ وجودَ علامةِ الاسْتقبالِ يُؤذِنُ بأنَّ الكتابةَ أمرٌ يحصُلُ فيما بعدُ(2).

دلّت السّين على تأخر أمر الكتابة؛ وأكّدت التّشنيعِ على اليهودِ

توجيه القراءات القرآنيّة في كلٍّ من ﴿سَنَكۡتُبُ﴾ و﴿وَقَتۡلَهُمُ﴾ و﴿وَنَقُولُ﴾:

هناك قراءتان في كلٍّ من ﴿سَنَكۡتُبُ﴾ و﴿وَقَتۡلَهُمُ﴾ و﴿وَنَقُولُ﴾(3): قُرِىءَ: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ﴾ بنون العَظَمة منْ ﴿سَنَكۡتُبُ﴾ وبنصبِ اللّامِ منْ ﴿وَقَتۡلَهُمُ﴾ على أنَّه مفعولُ (نكتُبُ) و﴿وَنَقُولُ﴾ بنونٍ، وقُرِيءَ: (سَيُكتَبُ) - بياءِ الغائبِ مَضْمومة، وفَتْحِ المثنَّاةِ الفوقيَّة - مَبنيًّا للمفعول؛ لأنَّ فاعلَ الكتابةِ معلوم، وهو اللّه تعالَى، وبرفعِ اللّامِ مِنْ (قَتْلُهُمُ) على أنَّه نائبُ الفاعل، و(يقولُ) بياءِ الغائب، والضَّميرُ عائدٌ إلى اسْمِ الجَلالةِ في قولِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾.

وجه قراءة البناء للمفعول أنَّ فاعلَ الكتابةِ معلوم، وهو اللهُ تعالَى

بلاغة العطف في جملة قتل الأنبياء:

وجاءَ عطفُ قولِه: ﴿وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ زيادةً في مَذَمَّتِهم بذكرِ مساوئِ أسلافِهم؛ لأنَّ الَّذينَ قَتلُوا الأنبياءَ هم غيرُ الَّذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾؛ بلْ هم من أسلافِهم، فَذُكِرَ هنا ليدُلَّ على أنَّ هذا خُلُقٌ شَنيعٌ قديمٌ فيهم، وهو الاجْتراءُ على اللّهِ ورسولِه(4)، فنبّه على أنه ليس أوّل جريمة ارتكبوها وأنّ من اجترأ على قتل الأنبياء لم يُستبعد منه أمثال هذا القول(5).

استُحضِرَ العطفُ زيادةً في مَذَمَّتِهم بذكرِ مساوىءِ أسلافِهم، وأنّ القتل خُلُقٌ شَنيعٌ قديمٌ فيهم

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/612، وبعضه قول أبي عبيدة في كتابه مجاز القرآن: 1/110.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/184.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/245، وسبط الخيّاط، الاختيار في القراءات العشر: 1/340، وابن خالويه، الحُجّة، ص: 117، وابن خالويه، إعراب القراءات السّبع: 1/124.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/184.
(5) الشربيني، السراج المنير: 1/270.

نكتة وصف القتل ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾:

وصف القتل بأنه غير حقٍّ للإشارة إلى شناعة أفعالهم، وعظم شرهم

وقد وصف تعالى قتلَهم للنبيِّين في قوله: ﴿وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ بأنه (غير حقٍّ) مع أنّ هذا النوع من الإجرام لا يمكن أن يكون بحقٍّ مطلقًا؛ وذلك للإشارة إلى شناعة أفعالهم، وعِظَم شرِّهم، ومبلغ سوئهم، وأنهم لا يبالون أكان فعلهم في موضعه أم في غير موضعه[1].

بلاغة الحذف والمجاز في جملة قتل الأنبياء:

الحذف على تقدير: آبائهم، والمجاز: لرضاهم بفعل آبائهم

نسبة القول إليهم في قولِه: ﴿وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾؛ إما أنه على حذف مضاف أي وقتلهم آباءَهم الأنبياء، وإما أنه نسب إليهم فعل القتل مجازًا لرضاهم بفعل آبائهم[2].

وجوه المبالغة في مقولة إذاقة عذاب الحريق:

وجه المبالغة التعبيرُ بنون العظمة، وصيغة الأمر، وإضافة العذاب إلى الحريق

وقولُه سُبحانه: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ عَطْفُ أَثَرِ الكُتُبِ على الكُتُبِ؛ أيْ: سَيُجازَوْنَ عن ذلكَ بدونِ صَفْحٍ[3]، ونقولُ لهم: ذُوقُوا العذابَ المُحرِقَ كما أَذَقْتُمُ المسلمينَ الغُصَص[4]، وفي نونِ العَظَمةِ مِنْ ﴿وَنَقُولُ﴾، والأمرِ الإلهيِّ ﴿ذُوقُواْ﴾، وإسنادِه إلى عذابِ الحريقِ الَّذي لا يُجازي به إلّا اللّه ﷻ مبالغاتٌ تعبّر عن قدرته سبحانه، وعظمته، وعدالته في الجزاء، فضلا عن هول العذاب المُعدِّ.

علّة إيثار لفظ الحريق:

للحريق هولٌ، ورهبةُ مَشْهدٍ يجعلُ مِن وصفِ العذاب به مزيدَ ترهيبٍ

والمرادُ بـ ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ النَّارُ، والنَّارُ: اسْمٌ جامِعٌ للمُلتهبَةِ منها وغيرِ المُلتهبَة، والحريقُ: اسْمٌ للمُلتهبَةِ منها، وهي بمعنى المُحْرِق، كما يُقالُ: عذابٌ أليمٌ، وضَرْبٌ وَجيعٌ[5]، ومع توجيه دلالة الحريق بمعنى الفاعل (مُحرق) إلا أنّ في مجيئه على هيئته دلالة

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1529.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/450.
(3) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/184.
(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/484.
(5) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 1/110، والزّجّاج، معاني القرآن: 1/494.

تهويل لا تؤدّيها لفظ (مُحرق)؛ فللحريق هولٌ، ورهبةُ مَشْهدٍ لا يخفى شدّتهما، وفي وصف العذاب به مزيد ترهيب.

بلاغة المجاز، والاستعارة في التعبير بالذوق:

والذَّوْقُ حقيقتُه إدراكُ الطُّعُوم، واسْتُعمِلَ هنا مَجازًا مُرسَلًا[1] في الإحساسِ بالعذاب؛ فعلاقتُه الإطلاقُ، ونُكْتَتُه أنَّ الذَّوقَ في العُرْفِ يَسْتَتبِعُ تَكرُّرَ ذلكَ الإحساس؛ لأنَّ الذَّوقَ يَتبعُه الأكلُ، وبهذا الاعْتبارِ يَصِحُّ أنْ يكونَ ﴿ذُوقُواْ﴾ استعارةً، وقدْ شاعَ في كلامِ العربِ إطلاقُ الذَّوقِ على الإحساسِ بالخيرِ أو بالشَّرِّ[2].

الذوق هنا الإحساس بالألم، والأصل في الذّوق أن يكون في أمرٍ مرغوبٍ في ذوقه وطلبه، وهو هنا للألم، فالتّعبير فيه تهكُّمٌ عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21][3].

دلالة الإشارة للبعيدِ:

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى العذابِ المذكُور وما فيه مِنْ معنَى البُعْد؛ للدَّلالة على عِظَمِ شأنِه، وبُعْدِ مَنْزِلته في الهَوْلِ والفَظاعة[4].

دلالة باءِ السّببيّة في الجملة:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ خبرًا لقولِه السَّابق: ﴿ذَٰلِكَ﴾، والباءُ في ﴿بِمَا﴾ للسَّببيَّة؛ أيْ: بسببِ ما اقْترفْتُموه من قتلِ الأنبياءِ والتَّفوُّهِ بمثْلِ تلكَ العظيمةِ، وغيرِها مِنَ المعاصي[5].

بديع المجاز في لفظ الأيدي:

وجاءَ التَّعبيرُ عَنِ الأنْفُسِ بالأيْدي في قولِه تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ

إنَّ الذَّوقَ في العُرْفِ يَسْتَتبِعُ تَكرُّرَ الإحساس بالعذاب؛ لأنَّ الذَّوقَ يَتْبعُه الأكلُ

التعبير بالذوق على طريق المجاز تهكّم عليهم

بيّنتِ الإشارةُ للبعيد هَوْلَ ما سيُعانيه اليهودُ من عذابٍ يومَ القيامةِ

فائدة ذِكر باءِ السَّببيّة: تسبيب مجازاتهم بما اقترفوه من معاصٍ

(1) تقدّمَ بيانُ المجاز، والمجاز المُرْسَل، والفرقُ بينه وبين الاشتعارة في فِقرة الإيضاح اللُّغوي والبلاغي في [آل عمران: 177].

(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/184 - 185.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1530.

(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/613.

(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/613.

﴿أَيۡدِيكُمۡ﴾ مجازًا؛ لِمَا أنَّ عامّةَ أَفَاعيلِها تُزاوَلُ بهنَّ، فَجُعِلَ كُلُّ عملٍ كالواقعِ بالأَيْدي على سبيلِ التَّغليب[1]، قال الراغب: " لمّا كانت اليدُ هي الآلة الصانعة المختصّة بالإنسان، فإنه لما كفى كل واحد من الحيوانات بما احتاج إليه من الأسلحة والملابس، وسخّره لاستعمالها في الدفع عن نفسه، وخلق الإنسان عارياً من كل ذلك، جعل له الرؤية واليد الصانعة، ليعلم برؤيته، وليعمل بيده فوق ما أعطى الحيوانات، فلما كان لليد هذه الخصوصية صارت تُخصُّ بإضافة عمل الجملة إليها "[2].

وجه المجاز أنّ عامة الأفعال إنّما تُزاوَلُ بالأيدي؛ فهو من باب التغليب

ذهب أبو زهرة إلى أنّ " تخصيص الأيدي بالذكر؛ للدلالة على التمكّن من الفعل وإرادته؛ ولأن أكثر الشرّ يكون ببطش اليد؛ ولأن نسبة الفعل إلى اليد تفيد الالتصاق به، والاتصال بذاته "[3].

تخصيص الأيدي دلالة التمكّن، والبطش، والالتصاق

نكتة الوصل في جملة الفاصلة:

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ عُطِفَ قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ على مجرورِ الباءِ في قولِه: ﴿بِمَا﴾، ووصلها؛ ليكونَ لهذا العذابِ سَبَبان؛ الأَوَّلُ: ما قدَّمتْه أيدِيهم، والثَّاني: عدلُ اللّهِ ﷻ، فالأَوَّلُ أَوْجَبَ حصولَ العذاب، والثَّاني أَوْجَبَ كونَ هذا العذابِ في مقدارِه المشاهَدِ مِنَ الشِّدَّة، حتَّى لا يَظُنُّوا أنَّ في شِدَّتِه إفراطًا عليهم في التَّعذيب[4].

في العطف تسبيب العذاب بعلّتين: ما قدَّمتْه أيدِيهم، وعدلُ الله تعالى

بلاغة الاعتراض في جملة نفي الظلم:

يمكنُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ خبرًا لمبتدَأٍ محذوف، والجملةُ اعتراضٌ تذْييليٌّ مُقرِّرٌ لمضْمونِ ما قبلَها؛ أيّ: والأمرُ أنَّه تعالى ليسَ بمُعذِّبٍ لعبيدِهِ بغيرِ ذنْبٍ من قِبَلِهِم، والتَّعبيرُ

الجملة اعتراضٌ تذْييليٌّ مُقرِّرٌ لمضْمونِ ما قبلَها، وبيانٌ لكمال نزاهته تعالى عن الظلم

(1) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/484.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/1019.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1530.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/185.

عن ذلك يَنْفي الظُّلم، وفي هذا بيانُ كمالِ نَزاهتِه ﷻ عن ذلك، بتصويرِه بصورةِ ما يَستحيلُ صُدُورُه عنه سُبحانَه مِنَ الظُّلم[1].

بلاغة التوكيد في جملة الفاصلة:

حشد التوكيدات للمبالغة بنفي الظلم عنه تعالى، وثبوت صفة نفيه فيه

تضمّنت جملة الفاصلة حشدًا من التوكيدات بدءًا من المطلع بافتتاحه بـ ﴿وَأَنَّ﴾ المؤكدة، والتعبير بالجملة الاسمية، ثم النفي بليس المقترن خبرها بالباء، والتعبير عن نفي عظيم الظلم بصيغة المبالغة ﴿بِظَلَّامٍ﴾.

براعة الجمع بين الجملتين الاسميّة والفعليّة:

ثبوت نفي صفة الظلم فيه سبحانه، مؤدّى فعليّة ليس الدّالة على الاستمرار

التّعبير في عموم جملة الفاصلة بالاسمية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ الدّالة على تأكُّد نفي صفة الظلم فيه سبحانه، والتّعبير عن نفي الظلم بالفعليّة الدّال عليها ﴿لَيۡسَ﴾ ﴿لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ المؤدّية معنى الاستمرار والتّجدد ههنا هو من بديع نظم القرآن، وروائع صوغه.

فائدة التعبير بصيغة المبالغة ﴿بِظَلَّامٍ﴾:

دلّت الصيغةُ على المبالغة في تنزيهه عن أدنى ملابسة ظلم

وجاءتْ صيغةُ المبالغةِ في ﴿بِظَلَّامٍ﴾ لتأكيدِ معنَى إبرازِ ما ذُكِرَ مِنَ التَّعذيب بغير ذنبٍ في صورة المبالَغة في الظُّلم[2]، فصيغة المبالغة ليست على بابها بأنّه تعالى منزّه عن كثير الظّلم دون قليله والعياذ باللّه، بل دلّت على المبالغة في تنزيهه عن أدنى ملابسة ظلم؛ بأن يكون (ظلّام) للنسب، كما في بزاز وعطار أي: لا ينسب إليه ظلم البتة[3]؛ لأنّه" إذا نفى الظلم الكثير اتبع القليل ضرورة، لأن الذي يظلم إنما يظلم لانتفاعه بالظّلم، فإذا ترك الكثير مع زيادة نفعه في حق من يجوز عليه النفع والضرر كان للظلم القليل المنفعة أترك"[4].

---

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 2/471.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/613.

(3) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/270.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/456، والشّربينيّ، السّراج المنير: 1/270.

في التعبير بصيغة المبالغة دفعٌ لتوهّم تشبيه إطلاق لفظ الظّلّام على المُبالِغ في التّعذيب في الدّنيا دون تثبّت

وخُصَّ لفظ ظلّام الذي هو للتكثير في نفي الظلم في هذا المكان، ولم يقُلْ على ما قال في قوله: ﴿لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ [النساء: 40]، المقتضي نفي الظلم قليله وكثيره؛ لأنه لمّا كان في الدّنيا قد يُظن بمن يعذب غيره عذابا شديداً أنه ظلّام قبل أن يُفحص عن حال جُرمه، بيّن تعالى ذنبهم، وأنه إذا عاقبهم عقوبة شديدة فليس بظلّام لهم، وإن كان قد يظن في الدنيا بمن يفعل ذلك أنه ظلّام، تعالى اللّه عن الظلم[1].

التعبير بصيغة المبالغة ليقابل لفظ العبيد الدّال على الكثرة

وجاء لفظ ظلام الموضوع للتكثير، بسبب المتعلق: ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾؛ فلكثرة العبيد ناسب أن يقابل الكثير بالكثير[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(نكتُبُ) و(نُثبِتُ):

لفظ (نكتُبُ) يُعبِّرُ السّياق به عنِ الحُجّةِ الثّابتةِ من جهةِ اللّه على عبده، بتقديم الدّليل بها، على قوله أو فعله، وأمَّا (نُثبِتُ) فهو مِنَ الفعل: ثَبَتَ، والثَّباتُ ضدُّ الزَّوال، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ﴾ [الأنفال: 45]، والإثْباتُ والتَّثبيتُ تارةً يُقالُ بالفِعْل، فيُقالُ لما يَخرجُ مِنَ العَدَمِ إلى الوُجود، نحو: أثبتَ اللّهُ كذا، وتارةً لما يَثبُتُ بالحُكْم، فيُقالُ: أثبتَ الحاكمُ على فُلانٍ كذا، وتارةً لما يكونُ بالقَوْل، سواءٌ أكانَ ذلكَ صِدقًا منه أمْ كَذِبًا، فيُقالُ: أثبتَ التَّوحيدَ. وقولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦﴾ [النّساء: 66]، أي: أشدَّ لتحصيلِ عِلْمِهم، أو أثْبتَ لأعمالهم، واجْتناءِ ثمرةِ أفعالِهم[3]، وبالنَّظرِ إلى ما سَبَقَ، يَتبيَّنُ أنَّ اسْتخدامَ البيانِ الإلهيِّ للفعلِ ﴿سَنَكۡتُبُ﴾ أَوْفى مِنَ اسْتعمالِ الفعلِ (سَنُثبتُ)، من

---

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1019 - 1020.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/456، والشّربينّي، السّراج المنير: 1/270.

(3) الرّاغب، المفردات، ص: 171.

حيثُ المرادُ مِنَ السِّياقِ القرآنيّ، فإنَّ القضيَّة ليستْ مجرَّدَ إثباتٍ وكَفى، لكنَّها حفظٌ لأعمالِ اليهودِ وأقوالِهم في صحائفِ آثامِهم؛ معَ التَّهديدِ والوَعيدِ بذلك، وهو ما يستوعبه قوله تعالى: ﴿سَنَكۡتُبُ﴾، دون سواه.

الذَّوْق والإحْساس:

(الذَّوْق) اختبار طعم الطّعام بطرف اللّسان، ويستعمل مجازًا في غير ذلك، وأمَّا الإحساسُ: فهو الشُّعورُ بالشَّيءِ، وكُلُّ ما شَعَرتَ به فقدْ أَحْسَسْتَه، ومعناه: أَدْرَكتَه بِحسِّك؛ كما في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ﴾ [الأنبياء: 12]؛ وقولِه سُبحانه: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: 87] أي: تعرَّفُوا بإحساسِكُم[1]، والذَّوقُ كما - تقدَّم بيانُه - إدراكُ الطُّعوم، حتَّى أنَّه اسْتُعمِلَ - كما هو هنا - مجازًا مُرسلًا في الإحساسِ بالعذاب، مع الإطلاق الَّذي يُفيد فيما يقِلُّ تناوُلُه، وفيما يَكْثُر، فَخُصَّ بالذِّكرِ هنا لِيُعمَّ الأمرَيْن، ثمَّ إنَّ الإحساسَ أَثَرٌ للذَّوق، وليس هو الذَّوق، واستعمالُ الأَصْلِ أصلٌ دونَ استعمالِ فَرْعِه أو أَثَرِه، والقضيَّةُ قضيّةُ تَهكُّم وازْدراءٍ وتبكيتٍ، لأولئكَ اليهودِ الذَّين فَظَّعواْ في الفُجورِ والإجرام قولًا وعملًا، وكأنَّه يقول: فَلْيَذُوقُوا العذابَ، كما كانواْ يذوقونَ الطَّعامَ، وشَتَّانَ بينَ هذا وذاك.

الحَريق والسَّعير والجَحيم والنَّار وجهنَّم:

السَّعيرُ: هو النَّارُ المُلتهبَةُ الحَرَّاقةُ، أيْ: تُسمَّى حَريقًا في حالِ إحراقِها؛ ولذلكَ يُقالُ: في العُودِ نارٌ، وفي الحَجَرِ نارٌ، ولا يُقالُ: فيه سَعير، والحَريقُ: النَّارُ المُلتهبَةُ الّتي تلتهم الشّيءِ وتتلفه، ولهذا يُقالُ: وقَعَ الحريقُ في مَوْضعِ كذا، ولا يُقالُ: وقَعَ السَّعير، وقد قال الشّاعر:

اصْبِرْ عَلَى حَسَدِ الْحَسُو *** دِ، فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
فَالْنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا *** إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ[2]

فلا يقتضي قولُكَ: السَّعير، ما يَقْتضيهِ الحَريق، ولهذا يُقال: فلانٌ مُسْعِرُ حَرْبٍ، كأنَّه يُشعِلُها ويُلهِبُها، ولا يُقالُ: مُحرِقُ حَرْب. وأمّا الجَحيمُ: فهي نَارٌ على نَار، وجَمْرٌ على

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 23.
(2) البيتان للشّاعر العبّاسيّ عبد الله بن المعتزّ، ينظر: ابن عبد ربّه، العقد الفريد: 2/174.

جَمْر لِشدَّة تَوقُّدِها، وجهنَّمُ: تفيدُ بُعْدَ القَعْر[1]. والنَّارُ: اسْمٌ جامِعٌ للمُلْتهِبة منها، وهي بمعنى المُحرِقة، وغيرِ الملْتهبة[2]. وممَّا سبَق من بيانِ الفُروقِ بين تِلكُمُ الكلمات؛ نجدُ أنَّ استخدامَ سياقِ النَّصّ القُرآنيّ لكلمةِ (الحَريق) في هذه الآية، أَوْلى مِنْ غيرِها، فإنَّ كُلَّ واحدةٍ مِنَ المفرداتِ المتَقدِّمةِ تُطلَقُ باعتبارٍ يُغايِرُ أُختَها مِنْ وَجْه، ويتَّفِقُ معها من وجهٍ آخَر، حيثُ وردَ سابقًا في التَّعاريف عبارةُ: يُقالُ كذا، ولا يُقالُ كذا، أمَّا كلمةُ (الحريق) فهي مشتركةٌ في الوَصْف معَ جميعِ المفردات، وداخلةٌ في تعريفها.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 278.

(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/110.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ١٨٤﴾ [آل عمران: 183 - 184]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين افتراء اليهود من قبل ومن بعد، وخزي الله لهم بما جنت أيديهم

لَمَّا أخبرَنا بيانُ اللهِ عَنْ فِرْيَة اليهود - أخزاهمُ الله - في حقِّ اللهِ تعالى، وتوعُّدِ اللهِ لهم بكتابةِ وحفظِ قبائحِ أقوالِهم وأعمالِهم، وبما قدَّمتهُ أنفُسُهم بمُقْتَضَى العَدالةِ الإلهيَّة، جاءَنا بيانُ اللهِ هنا ليُخبِرَنا عَنْ فِريةٍ أُخْرى لليهود، وهي أنَّ اللهَ أَوْصاهم أن لا يُؤمنوا لرسول، حتَّى يأتيَهم بقُربانٍ تأكُلُه النَّارُ، وإلَّا فلَن يُؤمِنواْ به، طاعةً لربِّهم، وقد أتتهُمُ الرُّسلُ بالبيِّنات، وبمَا قالواْ، ومع ذلك قتلوهم ظُلمًا وعُدوانًا، وشأنُ تكذيبِهم لرسولِ اللهِ ﷺ، هو شأنُهم مع الرُّسلِ جميعِهم قبلَه، "فإنّ زكريّا ويحيى وغيرهم من الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، قد جاؤُوكم بما قلتم مع معجزات أُخَرَ، فما لكم لم تؤمنواْ لهم حتّى اجترأتم على قتلهم"؟!(1).

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿عَهِدَ﴾: العَهْدُ: حفظُ الشَّيءِ ومراعاتُه، حالًا بعدَ حال، وسُمِّيَ المَوثِقُ الَّذي يَلزَمُ مراعاتُه عَهْدًا(2)، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء: 34]، أي: أَوْفُوا بحفظِ الأيمان.

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 2/122.
(2) المَناويّ، التّوقيف، ص: 248.

وعَهْدُ اللّهِ تارَةً يكونُ بما ركزَه في عقولِنا، وتارةً يكونُ بما أمرَنا به بالكتابِ والسُّنَّة، وتارةً بما نَلتزمُه، وليس بلازم في الشَّرع، كالنُّذُورِ وما يجري مَجْراها، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿۞وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ [التَّوبة: 75]، وقولُه سُبحانه: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [البقرة: 100]. والمُعاهَدُ في عُرفِ الشَّرعِ يختصُّ بمن يَدخلُ من الكُفَّار في عهدِ المسلمين، وكذلكَ ذو العَهْد، وباعتبار الحفظِ؛ قيل للوثيقة بين المتعاقِدَيْن: عُهْدَةٌ، وقولُهم: في هذا الأمر عُهْدَةٌ، لما أُمِرَ به أن يُستوثَق منه، ويُقالُ: تعهَّد الشَّيءَ: تفقَّدَه[1].

2) ﴿بِقُرْبَانٍ﴾: القُرْبانُ: ما يُتقرَّبُ به إلى اللّه، وأصلُه مِنَ القُرْب؛ يقال: قَرُبْتُ مِنْه أَقْرُبُ، وقرَّبتُه أُقَرِّبُه قُرْبًا وقُرْبانًا، وصارَ القُربانُ في التَّعارُفِ اسْمًا للنَّسيكة، الَّتي هي الذَّبيحة، وجمعُه قَرابينُ، قالَ تعالى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ [المائدة: 27]. ومِنْ قولهم: قُرْبانُ المَلِكِ: لِمَن يَتقرَّبُ بخدمتِه إلى الملِك، ويُستعمَلُ ذلكَ للواحدِ والجمع[2]، وقرابين الملك: خاصّته الواحد قربان، قال الشّاعر:

وَمَا لِي لَا أُحِبُّهُمُ وَمِنْهُمْ *** قَرَابِينُ الْإِلَهِ بَنُو قُصَيٍّ[3]

3) ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: بالآيات الواضحات والمعجزات الظّاهرات[4]، والمعنى" أنّ أنبياءهم جاؤوهم بالبيّنات الكثيرة الّتي أوجبت عليهم التّصديق[5]، و(البيّنات) المراد منها الحجّة المبيّنة المثبتة لرسالة الرّسل[6]، والبيّنات: الدّلائل على الصّدق[7]، وقوله: ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: الحجج العقليّة، والبراهين النّقليّة[8]، والمعنى في الآية: "وقد سبق أن أرسلت لكم الأنبياء الكثر ومعهم المعجزات، وأتوكم بالأدلّة الواضحة الدّالة على صدقهم، فلم كذّبتموهم؟"[9]، وفي القرآن قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 591 - 592، وابن منظور، لسان العرب: (عَهِدَ).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 663 - 664، وابن منظور، لسان العرب: (قَرُبَ).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (قَرُبَ).
(4) محمّد بن الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 86.
(5) الأبياري، الموسوعة القرآنيّة: 9/281.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/281.
(7) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/186.
(8) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 159.
(9) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/267.

﴿لِلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ﴾ [البقرة: 185]. ويُقالُ: آيةٌ مُبيِّنَةٌ؛ اعتبارًا بِمَن بيَّنها، وآيةٌ مُبَيَّنَةٌ؛ اعْتبارًا بِنَفْسِها، وآياتٌ مُبيِّناتٌ ومُبَيَّنات[1].

4) ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾: زبرت الكتاب زبرًا كتبته، فهو زبورٌ، فعولٌ بمعنى مفعولٌ، مثل: رسولٌ، وجمعه زُبُرٌ بضمّتين[2]، يُقالُ له: زَبُورٌ، وخصَّ الزَّبورُ بالكتابِ المُنَزَّلِ على داوُدَ عليه السلام، قالَ تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النّساء: 163][3]. وزِبْرٌ: مَصْدرٌ سُمِّيَ به كالكِتاب، ثمَّ جُمِعَ على زُبُر، كما جُمِعَ كتابٌ على كُتُب، وقيل: بلِ الزَّبور كُلُّ كتابٍ يَصعُبُ الوقوفُ عليه من الكُتُبِ الإلهيَّة، قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦﴾ [الشّعراء: 196]. وقيل: الزَّبورُ: اسمٌ للكتابِ المقصورِ على الحِكَم العقليَّةِ، دونَ الأحكام الشَّرعيّة، والكتابُ: لما يتضمَّنُ الأحكامَ والحِكَمَ، ويَدُلُّ على ذلكَ أنَّ زَبورَ داوودَ عليه السلام لا يتضمَّنُ شيئًا من الأحكام[4].

5) ﴿ٱلۡمُنِيرِ﴾: أي: ذا نور، وأصلُ كلمة (مُنيرًا) مِنْ قولِنا: (أنارَ) الشَّيْءَ و(اسْتَنارَ) بمعنًى؛ أي: أضاءَ، و(التَّنْوِيرُ) الإنارةُ، وهو أيضًا الإسفارُ، [5]. و(النُّورُ): الضَّوْءُ المنتَشِرُ الَّذي يُعينُ على الإبْصار، وذلكَ ضَرْبان: دُنيَويٌّ، وأُخْرَويٌّ، فالدُّنيويُّ: ضَرْبان: ضربٌ معقولٌ بِعَيْنِ البَصيرة، وهو ما انْتشرَ مِنَ الأمورِ الإلهيَّة، كنورِ العَقْل، ونورِ القرآن، وضربٌ محسوسٌ بعَيْنِ البَصَر، وهو ما انْتشرَ مِنَ الأجسام النَّيِّرة كالقمَرَيْن، والنُّجوم النَّيِّرات. فمِن النُّور الإلهيِّ؛ قولُه تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: 15]، ومِنَ المحسُوسِ الَّذي بعَيْنِ البصيرة نحو قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: 5]. وتخصيصُ الشَّمسِ بالضَّوْء، والقمرِ بالنُّور، من حيثُ إنَّ الضَّوْءَ أخصُّ من النُّور[6].. ومن النُّورِ الأُخْرويِّ قولُه تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الحديد: 12]. ويُقال: أنارَ اللّه كذا، ونوَّرَه، وسَمَّى اللّه تعالى نفسَه نورًا، من حيثُ إنَّه هو المُنوِّر، قالَ سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النُّور: 35]، وتسميتُه تعالى بذلك لمبالغةِ فعلِه[7].

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 156 - 158، وابن منظور، اللّسان: (بَيَنَ).

(2) الرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (زَبَرَ).

(3) نظر: الرّاغب، المفردات، ص: 377، وابن منظور، اللّسان: (زَبَرَ).

(4) الرّاغب، المفردات، ص: 377.

(5) الفيروزآبادي، القاموس: (نَوَرَ).

(6) الزّبيدي، تاج العروس: (نور)

(7) الرّاغب، المفردات، ص: 827 - 828.

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

إخبار النّبيّ أنّ الكفر متأصّل في اليهود بمن جاؤوهم بالمعجزات فقتلوهم

يُخبرُ تعالى عن كُفرِهم برسالة محمّدٍ ﷺ، بدعوى أنَّه لم يأتِهمْ بقُربانٍ تأكلُه النَّار،، وقد عُلِمَ أنّ كلَّ رسولٍ كان يُؤيِّدُه اللّٰه بمُعجزات تدُلُّ على صدقِه، ولم يقصُرْها على ما زَعَموه، ومع هذا، فقد قَتلوا أنبياءَ جاؤوهم بما قالوا، ولذلك ثبّت اللّٰه تعالى قلب رسوله ﷺ وسَلَّاه، فأعلمه بأنَّ رُسُلًا قبلَه قد كذَّبَهُمْ كفرة أقوامهم، مع أنَّهم أتَوْهم بالحُجُجِ العقليَّةِ، والأدلَّة النَّقليَّة، وبالكتُبِ المُنَزَّلةِ بوحي اللّٰهِ تعالى، المتضمِّنةِ للأحكام الشَّرعيّة، والمحاسِنِ الخُلُقيَّة، الَّتي هي نورٌ لهم في الدُّنيا والآخرةِ إنِ اهتدَوْا بها، وسَلَكوا طريقَها[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

أثرُ البَدَل في تَجْليةِ المعنَى، وتأكيدِه:

أفادَ بدلُ جملةٍ لاحقةٍ مِنْ جُملةٍ سابقةٍ، تأكيدَ إفْكِ اليهودِ وعَداوتِهم للهِ ولرُسُلِه ولعبادِه

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ هو في موضعِ جرٍّ بدلًا من قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ﴾ ويجوزُ أنْ يكونَ نَصْبًا بإضمارِ: (أَعْني)، ورَفْعًا على إضمارِ (هم)[2]، فهيَ شنيعةٌ لحقَتْها شنيعةٌ أُخرى، لِتُدَلِّلَ أنَّ اليهودَ قدْ مَرَدُوا على الإفْكِ وتَزويرِ الحقائق، يَكذبونَ على اللّٰهِ ﷻ، ويتَّهمونَ اللّٰه ﷻ، ويَقتُلونَ أنبياءَ اللّٰهِ، وفي هذا مافيه من الدَّعوة المؤكّدة لعدم تصديقِهم في أيِّ قولٍ أوْ فعل، أو تبريرٍ أوْ إجراءٍ، أوْ غيرِ ذلك، فإنَّ مَنْ يتَّهمُ اللّٰه ﷻ لا يُبرِّىءُ النَّاس، ومَنْ يكذِبُ على الخالقِ لا يَصدُقُ مع المخلُوقين، ومَنْ يقتُلِ الأنبياءَ لا يَكُفُّ يدَه عن قتلِ البريئين.

بلاغة التضمين في جملة العهد:

وقُدِّر تركيب: ﴿أَلَّا نُؤۡمِنَ﴾ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ﴾ على "أن يكون مفعولا به على تضمين عهد

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/382 - 383، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 120.

(2) العكبري، التبيان: 1/161.

معنى ألزم، فكأنه ألزمنا أن لا نؤمن"[1]، على إرادة جِماع المعنيين، أي: عَهِدَ إلينا مُلزمين، وهو أقوى من إعطاء معنى واحد؛ إذ فيه ضربٌ من التوسع في المعنى مع غاية الإيجاز، ومؤدّاهُ أنّ للفعل دلالةُ أصلِ معناه، وتطلّبه فعلاً آخر يجعل للمعادلة وجهان متكاملان؛ إذ يؤدي الفعلُ أصلَ معناه بالتصريح به، وفعلا آخر يطلبه بالتضمين.

في التضمين وجه توسّع في المعنى مع غاية الإيجاز

دلالة التّعبير بالمصدر (قربان)، ووصفه:

وصيغة (قُربان)؛ اسمُ جنس، ومصدرٌ كالعدوان والكفران والمصدر أقوى في الدلالة[2]، أي: قربانًا عظيمًا نقربه للّه تعالى، متّصفاً بأن ﴿تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ عند تقريبه له وفي ذلك أعظم بيان؛ لأنهم ما أرادوا - بقولهم: (إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ) حيث طلب الصدقة - إلا التشكيك حيث كان التقرّب إلى اللّه بالمال من دينهم الذي يتقربون إلى اللّه به، بل وادّعوا أنه لا يصحّ دين بغيره، فما كان إلا أنْ يأمرَ سبحانه بنقض هذا التشكيك بقوله: ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ﴾ فضلاً عن رسول[3].

غاية اليهود في كلّ زمان التشكيك، والمماطلة، والتكذيب

بلاغة المجاز والاستعارة في أكل النّار:

وإسناد الأكل إلى النّار في قوله: ﴿بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ "مجازٌ واستعارةٌ عن إذهاب الشيء وإفنائه؛ إذ حقيقة الأكل إنما توجد في الحيوان المتغذي، والقربان وأكل النار معجز للنبي يوجب الإيمان به، فهو وسائر المعجزات سواء، وللّه أن يعين من الآيات ما شاء لأنبيائه، وهذا نظير ما يقترحون من الآيات على سبيل التبكيت والتعجيز، وقد أخبر تعالى أنه لو نزل ما اقترحوه لما آمنوا"[4].

وجه المجاز والاستعارة في إسناد الأكل إلى النار إذهابُ الشيء وإفناؤه، والغرض التبكيتُ والتعجيزُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/458.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/338.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/142.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/458.

مـعـنـى الأمـر التّبكيتُ لليهودِ، والإظـهـارُ لِكَذِبهم

فائدة جملة الأمر:

قولُه: ﴿قُلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ خطابٌ لرسولِ اللّهِ ﷺ، ومعناه التّبكيتُ لليهودِ، والإظهارُ لِكَذِبهم.

التعبير بشبه الجملة لاستغراق ما أغفلوا من ذكر الزمن الماضي

نكتة إثبات شبه الجملة ﴿مِّن قَبۡلِي﴾:

ولما كانت مدتهم لم تستغرق الزمان الماضي أثبت الجارَّ فقال ﴿مِّن قَبۡلِي﴾ كزكريا وابنه يحيى وعيسى عليهم السلام[1].

أفادَ أسلوبُ التَّأكيدِ إظهار منح الله تعالى بتكرار وجوه هداياته بتعاقب الرّسل

براعةُ التّأكيدِ في جلاءِ المعنَى:

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ﴾ أكّد تعالى تكرار هداياته بـ ﴿قَدۡ﴾: الدّال على التحقيق، وبتنكير ﴿رُسُلٞ﴾ المُفيد للكَثْرة في العَدَدِ مع عُلُوِّ القَدْرِ، وعظيم المقدارِ؛ ليكون قولُه: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ﴾ تأكيدًا لمجيءِ الرُّسُلِ بـ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: بالمعجزاتِ الواضحاتِ، وبما قالوه بِعَينِه مِنَ القُربانِ الَّذي تأكلُه النَّار[2].

عُـدِلَ إلى المـوصـولِ؛ لـلاخْـتِـصـار، وتَسجيلًا عليهم في نِسْبةِ القول لهم

سرُّ التّعبير بالموصول:

وإنّما قالَ: ﴿وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ﴾ حيثُ عُدِلَ إلى الموصولِ؛ للاخْتِصار، وتَسجيلًا عليهم في نِسْبةِ ذلكَ لهم، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ٧٧﴾ إلى قولِه: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: 77 - 80] أيْ نَرِثُ مالَه وولَدَه[3].

بلاغة أسلوبُ التّسليم:

هذا الضَّرْبُ من الجَدَلِ في الآية الكريمة مَبنيٌّ على التَّسليم؛ أيْ: إذا سَلَّمنا ذلك فليس امْتناعُكُم مِنِ اتِّباع الإسلامِ لأَجْلِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/142.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/614.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/185.

انْتظارِ هذه المُعجِزة، فإنَّكم قد كذَّبتُمُ الرُّسُلَ الَّذين جاؤوكُم بها وقَتلتُموهم، ولا يَخفَى أنَّ التَّسليمَ يأتي على مَذْهبِ الخَصْم، إذْ لا شكَّ أنَّ بني إسرائيلَ قَتلُوا أنبياءَ منهم بعدَ أنْ آمنوا بهم، مِثْلَ: زَكريَّا، ويَحْيى، وأَشْعِياءَ، وأَرْمِياءَ عليهم السلام، فالإيمانُ بهم أَوَّلَ الأمرِ، يَستلزِمُ أنَّهم جاؤوا بالقُربانِ تأكلُه النَّارُ على قولِهم، وقَتْلُهُم آخِرًا يَسْتلزِمُ أنَّ عدمَ الثَّباتِ على الإيمانِ بالأنبياءِ عادةٌ قديمةٌ خَبيثةٌ في اليهود، وأنَّهم إنَّما يَتَّبِعون أهواءَهم، فلا عَجَبَ أنْ يأتيَ خَلَفُهُم بِمِثْلِ ما أَتى به سَلَفُهُم.

أفـادَ أسلوبُ التَّسليمِ، بيانَ كَذِبِ اليَهودِ في ادِّعاءاتِهم، وشَناعةِ أعمالِهم

بلاغة الاستفهام في الآية:

غرض الاستفهام التوبيخ

والاستفهام في قوله: ﴿فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ استفهام توبيخي يتعدى حدود الإنكار إلى معاني التكذيب، والتوبيخ، والتغليظ، والتّعجيب من شأنهم؛ فقد أنكر عليهم دعواهم، وأظهر كذبهم، ووبّخهم على هذا الافتراء، وعجّبَ الناسَ من حالهم[1].

إيجاز الحذف في الفاصلة:

حذف جواب الشرط لدلالة ما قبله عليه

وقولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ظاهرٌ في أنَّ ما زَعَموه مِنَ العَهْدِ لهم بذلكَ؛ كَذِبٌ، ومَعاذِيرُ باطِلة[2]، وجواب الشرط هنا محذوف لدلالة ما قبله عليه، والتقدير: إن كنتم صادقين فأخبروني لم قتلتموهم؟.

الشَّرطُ، وأثرُه في تجليةِ المعنَى:

أَفادَ الشَّرطُ تسليةَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فيما يُحزِنُه من شناعةِ اليهودِ وإجرامِهم

قولُه تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾: شُروعٌ في تَسْليةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إثْرَ ما أوحَى إليه ممَّا يُحزِنُه صلى الله عليه وسلم من مَقالاتِ الكَفَرةِ مِنَ المشركينَ واليهود[3]، والتسلية ههنا تعليلٌ لجواب الشرطِ، أي: فتَسَلَّ فقد كُذب[4].

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/199.
(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/186.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/614.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/614.

دلالة الفاء في جملة الشرط:

الفاء في جملة جـواب الـشرط عـلّـة الـجـواب ودليله

الفاءُ في قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ﴾ دليلُ الجواب؛ لأنَّه عِلَّته، والتَّقديرُ: فإنْ كذَّبوكَ فلا عَجَبَ أوْ فلا تحزَنْ؛ لأنَّ هذه سُنَّةٌ قديمةٌ في الأُمَمِ مع الرُّسُلِ مِثْلِك، وليس ذلكَ لِنَقْصٍ فيما جِئْتَ به[1].

نكتة بناء فعل الكذب للمفعول:

في بناء الفعل (كُذّب) للمفعول شمولٌ لليهود وغيرهم بالتكذيب

وبني الفعل للمفعول ﴿كُذِّبَ﴾؛ لأنه لم يقتصر في تكذيب الرسل على تكذيب اليهود وحدهم لأنبيائهم، بل نبه على أن من عادة اليهود وغيرهم من الأمم تكذيب الأنبياء، فكان المعنى: فقد كَذَّبَتْ أمم من اليهود وغيرهم الرسل[2].

براعة إسقاط التاء من لفظ الكذب:

تذكير فعل الكذب لدفع توهم الضعف، وإثبات مبالغتهم في الغلظة، والجفاء، والكفر، وعدم الوفاء

ولما كان السياق لإثبات مبالغتهم في الغلظة، والجفاء، والكفر، وعدم الوفاء وكانت السورة سورة التوحيد، والرسل متفقون عليه، وقد أتى كل منهم فيه بأنهى البيان وأزال كل لَبْس أسقط تاء التأنيث، فقال: ﴿كُذِّبَ رُسُلٌ﴾؛ لأنها ربما دلت على نوع ضعف[3].

سرّ تنكير لفظ ﴿رُسُلٌ﴾:

تنكير لفظ الرسل دليلُ كثرتهم، وشياعهم

ونكّر رسل لكثرتهم وشياعهم[4]، وفي ذلك إشارةٌ إلى تماديهم في الإنكار، والتشكيك، والمعارضة.

نكتة إثبات الجارّ: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ متعلقةٌ بـ ﴿كُذِّبَ﴾ أو بمحذوفٍ صفةٍ لـ ﴿رُسُلٌ﴾ أي كائنةٌ من قبلك[5]، وأثبتَ الجارّ

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/186.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/459.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/143 - 144.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/459.
(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/614.

فقال: ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾؛ لكون تسلية الإنسان بمن قاربه في الزمان أشد، أي: فلك فيهم مسلاة وبهم أسوة[1].

إثبـات الجـارّ للتسلية بالمقارب في الزمان

فائدة العطف في الآية:

فائـدة العطف حسن التّوزيع، وبراعة التقسيم

والعطفُ في قوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ منظورٌ فيه إلى التَّوزيع، فبعضُ الرُّسُلِ جاء بالزُّبُر، وبعضُهم بالكتابِ المنير، وكُلُّهم جاءَ بالبيِّنات[2].

دلالة الباء في ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

تحتمل الباء الحاليّة، والتعدية

والباء في ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ تحتمل الحال والتعدية، أي: جاؤوا أممهم مصحوبين بالبينات، أو جاؤوا البينات[3].

توجيه قراءة إعادة الباء في ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾:

وجه إعادة الجارّ التوكيدُ، والدِلالة على أنَّ الزُّبر مغايرةٌ بالذاتِ للبيِّنات

وقولُه: ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ فيه قراءتان: الأُولى: ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ بغير باء، اكتفاءً بواوِ العَطْف، والثَّانيةُ: (وبالزُّبُر) بالباء[4]، وفي إعادة الجارّ وجه توكيدٍ، ودِلالةٌ على أنَّها مغايرةٌ بالذاتِ للبيِّنات[5].

وجه التفريق بين (الزُّبُر) و(الْكِتَابِ):

الزبور هو الكتاب المقصور على الحكمة العقلية دون الأحكام الشرعيّة

وفُرِّقَ بين ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ و﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ في قوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾، فـ"الزبور هو الكتاب؛ لأنّ الزبور هو الكتاب المقصور على الحكمة العقلية دون الأحكام الشرعيّة، والكتاب في تعارف القرآن ما يتضمن الأحكام، ولهذا جاء في عامة القرآن كتابًا وحكمة، ففصل بينهما لهذا، واستعمل الكتابة في معنى الإيجاب، فعلى هذا اشتقاقه من زبرت الشيء، أي: حكمتُه، وقيل: الزبور اسم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/144.
(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/186.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/459.
(4) الأولى: قراءة الجمهور، والثّانية قراءة ابن عامر، ينظر: ابن الجزري، النشر: 2/245.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/459، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/615.

لما أجمل ولم يفصَّل، والكتاب يُقال لما قد فُصِّل"[1]، فسمي بالزبور؛ لأنه مكتوب، إذ يقال: زبره كتبه[2].

سُـمّـي زبـورًا لكثرة ما فيه من الزواجر والمواعظ

سُمّي زبورًا؛ لكونه زاجرًا من زَبَرَهُ زجَرَهُ، وبه سُمّي كتاب داود زبورا لكثرة ما فيه من الزواجر والمواعظ، أو لأحكامه، فالزبر: الأحكام، وقال الزجاج: الزبور كل كتاب فيه حكمة، ويحتمل أن يراد بقوله: والزبر الزواجر من غير أن يراد به الكتب، أي: جاؤوا بالمعجزات الواضحة والتخويفات والكتب النيرة[3].

علّة الجمع بين الزبور والكتب:

وجـه الجمـع بـين اللـفظين الـتـأكـيـد، أو اخـتـلاف معنييهما

وجمع بين اللفظين على سبيل التأكيد، أو لاختلاف معنييهما، مع أن المراد واحد، ولكن اختلف معنياهما من حيث الصفة، وقيل: الكتاب هنا جنس للتوراة والإنجيل وغيرهما، ويحتمل أن يراد بقوله: والزبر الزواجر من غير أن يراد به الكتب، أي: جاؤوا بالمعجزات الواضحة والتخويفات والكتب النيرة[4].

دلالة التِّعريف في الكتاب:

أفـادَ التَّـعريفُ بـيـانَ كُـتُـبِ الـشَّـرائـعِ بـعـمـومِـهـا وخصوصِها

إنْ كانَ التَّعريفُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ للجِنْس؛ فهو كُتُبُ الشَّرائع، مِثْلُ التَّوراةِ والإنجيلِ والزَّبور، وإنْ كانَ التَّعريفُ للعَهْدِ؛ فهو التَّوراة.

بيانُ المجاز في وصف المنير:

المراد بالمنير مجازٌ بـيـانُـه: وصـفُ الكتاب بالإبانة

ووصفُ الكتاب بالمُنير في قوله: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ مجازٌ بمعنَى المبَيِّن؛ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾ [المائدة: 44][5].

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1022 - 1023.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/459.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/459.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/459.
(5) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/186.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَهْد والمِيثاق والعَقْد:

تقدَّم أنَّ من معاني العَهْد: حفظُ الشَّيء، ومراعاتُه حالًا بعدَ حال، ويُنظَرُ في العهدِ وجودُ طرَفَيْنِ متعاقِدَيْن، وبهذا تُسمَّى الوثيقةُ عُهْدَة، أمّا الميثاقُ فهو توكيدُ العَهْد، مِنْ قولِكَ: أَوْثقتُ الشَّيءَ، إذا أَحْكمتَ شَدَّه، والميثاقُ يكونُ من أحدِ الطَّرَفينِ المتعاهِدَيْن[1]، والعَقْدُ أبلغُ مِنَ العهدِ، تقولُ: عَهِدْتُ إلى فلانٍ بكذا؛ أي: أَلْزمتُه إيَّاه، وعَقَدتُ عليه، وعاقدتُه: أَلزمتُه باسْتيثاق، وتقولُ: عاهدَ العبدُ ربَّه، ولا تقولُ: عاقدَ العبدُ ربَّه؛ إذْ لا يجوزُ أنْ يُقالَ: اسْتوثقَ من ربِّه، قالَ تعالى: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1]، وهي ما يتعاقدُ عليه اثْنان، وما يُعاهِدُ العبدُ ربَّه عليه، أو يُعاهِدُه ربُّه على لسانِ نبيِّه ﷺ[2]، وبِتَمحيصِ ما تقدَّم من معاني الكلماتِ: (العهدُ) و(الميثاقُ) و(العَقْدُ) نجدُ أنَّ استخدامَ البيانِ الإلهيِّ للفعل (عَهِدَ) أَوْفى بالمرادِ؛ فاليهودُ أَلْزَموا أنفُسَهم ما لم يُلزِمْهُمُ اللّٰه به، في عدم إيمانِهم برسولٍ حتَّى يأتيَهم بقُربانٍ تأكلُه النَّار، وإنَّما كان ذلك ادِّعاءً كاذبًا منهم، فلا اعْتبارَ لعهدٍ همْ أَنْشؤوه من ذاتِ أنفُسِهم، وليس فيه طَرَفٌ آخرُ، كما يقتضيهِ معنَى العَهْد، بل هو عهد مزيّف، وواقع من طرَفٍ واحدٍ، وعليه فلا يَصِحُّ أنْ يُقال: عاقَدوا ربَّهم، أوْ أخذوا الميثاقَ من ربِّهم، أوْ أخذَ اللّٰه عليهمُ الميثاق، إذْ إنَّ الميثاقَ يكونُ من أحدِ طرفي التَّعاقُد، وفيه توكيدٌ للعَهْد، وليس الأمرُ هنا كذلك، ولذلك كانَ استعمال لفظ (العقد) أبلغَ مِنَ لفظ (العَهْد)، واللّٰه يتنزّه أن يُعاقِدَ أحدًا من خَلْقِه، وليس ثَمَّةَ عقدٌ أصلًا، بذلك كلّه، ظهرَ لنا جليًّا أنَّ اخْتيارَ البيانِ الإلهيِّ للفعلِ (عَهِدَ)، أَلْيَقُ بالسِّياق مع اعْتبارِ المُلابساتِ الَّتي شابتْ ذاكَ العَهْد.

قُربَان ونَسِيكة وذِبْح:

تبيَّنَ لنا ما تَعنيه كلمةُ (قُربان)، وهو ما يُتقرَّبُ به إلى اللّٰه، وأصلُه مِنَ القُرْب؛ وقد استعملها القرآن في قصّة ابني آدم فقال: ﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ﴾ [المائدة: 27]، أمَّا كلمةُ (نَسِيكة) فهي مُختصَّةٌ

---

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 525.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 365، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 158، و165.

بالذَّبيحة، كما في قولِه تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: 196][1]، والذِّبحُ: المَذبوحُ، قالَ تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧﴾ [الصَّافَّات: 107][2]، وقولُه: ﴿بِقُرْبَانٍ﴾ وإنْ كان معناه النَّسيكة أوِ الذَّبيحة، لكنَّه ليس على عمومِهما في أيِّ نيَّةٍ يُؤدَّيان، وفي أيِّ أمرٍ يكونان؛ بل بنيَّة التَّقرُّبِ إلى اللهِ، الَّذي يُومِىء إليها سياقُ الآية الكريمة، بغضِّ النَّظرِ عن مصداقيَّةِ اليهود في هذه القُربى، والَّتي هي غيرُ متحقِّقةٍ من طَرَفِهم، ولذلك كانَ اسْتخدامُ السِّياقِ القرآنيِّ لكلمةِ (قُربان) أوْفى بالمُراد.

البيِّنات والبَراهين والدّلالات والمُعجِزات:

سَبقَ تفصيل معنَى البيِّنات، وهي الآيات الواضحات، والمعجزات الظّاهرات، الّتي جاء بها الأنبياء لأقوامهم، بطلب أو بغير طلب، واللّه يؤيّد أنبياءه بالمعجزات الخوارق، حتّى يثبت للجاحدين صدق قيّوميّته في كونه، أمَّا البراهينُ، فهي جمعُ بُرْهان، وهو لا يكونُ إلَّا قولًا يَشهدُ بصحَّة الشَّيء ووجوده، والبرهانُ: هو الحُجَّةُ القاطعةُ المفيدةُ للعلم[3]، والدَّلالاتُ: جمعُ دَلالة: بفتح الدَّال وكسرِها وضمِّها، دَلَّه عليه، فانْدلَّ: سَدَّدهُ إليه[4]، والدَّلالةُ تكونُ قولًا؛ تقولُ: دَلالَتي على صحَّة مذهبي كذا، فتأتي بقولٍ تحتجُّ به على صحَّةِ مذهبِك[5]، والمُعجِزاتُ: جمعُ مُعجِزَة، والمُعجزةُ في الاصْطلاح: هي أمر خارق للعادة، يجريه اللّه على يد من يختاره لنبوته، ليدل على صدقه وصحة رسالته، وممَّا تقدَّم تفصيلُه، يظهرُ أنَّ اسْتخدامَ بيانِ اللّهِ لكلمة (البيِّنات) أوْفَى بالغرضِ المرادِ من سياقِ النَّصِّ القرآنيِّ، في حديثه عن شناعة اليهود في أعمالهم وكذبهم في أقوالِهم، فيريدُ اللّه ﷻ أن يُقيمَ الحُجَّة عليهم تِلْوَ الحُجَّة، فقد كشفَ بيانُ اللّهِ عُوارَهم، وتَبَلُّدَ عقولِهم، وخَواءَ قلوبِهم من الإيمان، وهذا الكشفُ هو مرتكز دَلالاتِ كلمةِ (البيِّنات)، فقد جمعتْ هذه الكلمةُ اعْتبارَيْن، الأوّلُ: بمَن بيَّنَها بعدَ أنْ أَوْجدَها وهو اللّه ﷻ، والثَّاني: بنفسِها وبما تُوحي إليه من مقاصدَ وغايات؛ لِتَحْمل النَّاسَ على

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 802.
(2) الراغب، المفردات، ص: 326.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 97.
(4) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (دَلَلَ).
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 97.

الإيمانِ بمن أوجدَها، ودَعا إليها وبها، وهو اللهُ ﷻ، فهي تُفيدُ عمومَ الاعْتبارات، وعمومَ الأقوالِ والأفعالِ، الَّتي تُوجِّهُ العبادَ للإيمانِ بخالقِهم، عن بَصِيرةٍ وبيِّنة؛ كما يفيده قولِه تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف: 108].

﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: 185]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط شناعة فعل اليهود، بحقيقة الموت الّذي يتجرّعه الأقّاكون لا محالة

لَمَّا بيَّنَ سياق النَّصِّ القرآنيِّ في الآيتَيْن السَّابقتَيْن، شناعة فعل اليهودِ وكَذِبَهم على اللّه، وكُفرَهم بالبيِّنات، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ لتُسطِّر حقيقةً لا يمكنُ أن يُنكِرَها أحدٌ، وهي حقيقةُ الموت، ذلك الكأسُ الّذي تتجرَّعُه كلُّ الخلائق، ولو أنَّ الجميعَ وَعَوْها حقَّ الوَعْي، وآمنوا بما يأتي خَلْفَها من مصير محتوم، يُفضي إمَّا إلى الجنَّة أوْ إلى النّارِ، لَمَا كفروا باللّه، ولاسْتقامتْ حياتُهم في الدُّنيا على ما يُرضي اللّه، بإيمانهم حقَّ الإيمان بالمصير الَّذي ينتظرهم، لقولهم الكَذِب في حقِّ اللّهِ وحقِّ أنبيائِه، وحينها لن يتجرَّؤوا على قَتْلِ أنبياءِ اللّهِ، وهم خيرُ خَلْقِ اللّهِ.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تُوَفَّوۡنَ﴾: من (وَفَى بِعَهدِه) يَفي وَفَاءً، وأَوْفَى: إذا تمَّمَ العَهدَ، ولم ينقُضْ حفظَه، قالَ تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: 40]، وتَوْفِيةُ الشَّيء: بَذْلُه وافيًا، واسْتيفاؤه: تناوُلُه وافيًا، قالَ تعالى: ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ [آل عمران: 25]، وقولُه تعالى: ﴿تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ﴾ يعني: تَسْتَوفُونها كاملةً، وتتناولونَها وافيةً؛ وهذا مصداقُ قولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزّلزلة: 7 - 8].

2) ﴿زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾: زَحَّهُ: نَحّاهُ عن مَوْضِعِه، ودفَعَه، وجَذَبَه في عَجَلةٍ، وزَحْزحَه عنه: باعَدَه فتَزَحْزَحَ، وهو بِزَحْزَحٍ منه؛ أي:

ببُعْدٍ، والزَّحْزاحُ: البعيدُ[1]، وزُحْزِحَ: أي: أُزيلَ عن مَقرِّه فيها[2]، " والزَحْزحة التّنحيّة عن الشّيء، وفي التّنزيل ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾، و(تَزحزَح) الشّيءُ و(تَحزحَز) سواء"[3]، وفي حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما: (كان إذا فرغ من الفجر، لم يتكلّم حتّى تطلع الشّمس وإن زحزح)، أي وإن أريد تنحيته عن ذلك، وأزعج وحمل على الكلام[4].

3) ﴿مَتَٰعُ﴾: المَتاعُ: انتفاعٌ مُمتدُّ الوَقْت، يُقالُ: مَتَّعهُ اللّه بكذا، وأَمْتعَه، وتمتَّعَ به، قالَ تعالى: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس: 98]. وكلُّ مَوضِعٍ ذُكِرَ فيه (تَمتَّعوا) في الدُّنيا، فَعلى طريقِ التَّهديد، وذلكَ لما فيه من معنَى التَّوسُّع، واسْتمتعَ: طلبَ التَّمتُّع، قالَ تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ﴾ [الأنعام: 128]. وقولُه تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾ [البقرة: 36]، تنبيهًا أنَّ لكلِّ إنسانٍ في الدُّنيا تمتُّعًا مدَّةً معلومة، ويُقالُ لما يُنتفعُ به في البيت: مَتاعٌ، وكلُّ ما يُنتفَعُ به على وجْهٍ ما فهو متاعٌ ومُتعةٌ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ﴾ [يوسف: 65]، أي: طعامَهم أوْ وِعاءَهم؛ وكلاهما مَتاع، وشرابٌ ماتعٌ، أي: الّذي يُمتِعُ بجَودَتِه[5].

4) ﴿ٱلۡغُرُورِ﴾: يُقالُ: غَرَرْتُ فلانًا: أصبتُ غِرَّتَه، ونِلتُ منه ما أُريدُه، والغِرَّةُ: غَفْلَةٌ في اليَقْظة، والغِرارُ: غفلةٌ مع غفْوة، وأصلُ ذلكَ من الْغُرِّ، وهو الأثَرُ الظَّاهرُ في الشَّيء، وغَرَّهُ كذا غُرورًا؛ كأنَّما طواه على غَرِّه، قالَ تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾ [الانفطار: 6]. وقالَ تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾ [النِّساء: 120]، فالغُرور: بالضَّمِّ ما اغْتُرَّ به من متاعِ الدُّنيا، والغَرُورُ، بفتح الغَيْن: كلُّ ما يَغُرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ، وشهوةٍ وشَيْطان، والغَرَرُ: ما انطوى عنه أمره، وخفي عليه عاقبته أو عيوبه، ويكون في البيع والشّراء وغير ذلك، ومنه في الحديث: «أنَّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم نَهى عن بَيْع الغَرَر»[6]، والغَريرُ: الخُلُقُ الحَسَنُ، اعْتبارًا بأنَّه يَغُرُّ، ويُقالُ: غَرَّتِ النَّاقةُ: قلَّ لبنُها بعدَ أنْ ظَنَّ أنْ لا يَقِلَّ، فكأنَّها غرَّتْ صاحبَها[7].

(1) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (زَحَحَ).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 378.
(3) ابن القَطَّاع، كتاب الأفعال: 2/110.
(4) ابن الأثير: النّهاية: 2/297.
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 757 - 758.
(6) مسلم، الحديث رقم: 1513.
(7) الرّاغب، المفردات، ص: 603 - 604، وابن منظور، اللّسان: (غَرَرَ).

❁ المَعنَى الإِجْمَاليُّ:

المـوتُ نـزوحٌ عن الدّنيا الغرور، والـفـوزُ حيـازةُ الجنّة، ووقاية من نار السّعير

نطقتْ هذه الآيةُ الكريمةُ بحقيقةٍ يخشى مواجهتَها النَّاسُ جميعُهم، ألَا وهي حقيقةُ الموتِ، الَّذي يتجرَّعُه الخلقُ كُلُّهم، ولكنَّ ذكْرَ الآية الكريمةِ للموتِ جاء في مَعرضِ التَّزهيدِ في الدُّنيا بفنائِها، وأنَّها مَتاعٌ، تَفْتِنُ بِزُخْرُفِها، وتخدَعُ بِغُرورِها، وتَغُرُّ بمحاسِنها، والبقاءُ فيها مُؤَقَّتٌ، ثمّ يكون الرَّحيلُ عنها إلى دارِ القَرار، الَّتي تُوفَّى فيها النُّفوسُ ما عملتْه في الدُّنيا من خيرٍ وشرٍّ، والفائزُ فيها مَنْ نجَّاه اللّٰه مِنَ النَّار، وأَدْخَلهُ الجنَّة(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة ﴿كُلُّ﴾، و﴿نَفْسٍ﴾ في مطلع الآية:

أفـادَت (كـلّ)، وتنكير (نفس) العموم، وفيه تسليةٌ للمؤمنين

حَوَتْ مقدِّمةُ هذه الآية ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ الوعدَ والوعيدَ للمصدِّقِ والمكذِّب(2)، وهي مع إفادتها العموم فقد حَملَتْ في مَنْطِقِها غَرَضًا نبيلًا جليلًا، وهو تسليةُ المؤمنين على ما أصابَهم يومَ أُحُد، وتَفنيدُ المنافقين في مزاعِمهم أنَّ النَّاسَ لو اسْتَشاروهم في القتالِ لَأشارُوا عليهم بما فيه سلامتُهم فلا يَهلِكوا، فختَمَ بيانُ اللّٰهِ تعالى ما سبقَ بما هو جامعٌ لِلْغَرَضَيْن في قولِه ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾؛ لأنَّ المصيبةَ والحُزْنَ إنَّما نَشَآ على موتِ مَن اسْتُشهِدَ من خِيرَةِ المؤمنين، يعني أنَّ الموتَ لَمَّا كانَ غايةَ كلِّ حَيٍّ، فلوْ لم يموتُوا اليومَ لَمَاتوا بعدَ ذلكَ فلا تَأْسَفُوا على موتِ قَتْلاكم في سبيلِ اللّٰه، ولا يَفتِنَكُمُ المنافقونَ بذلك(3)، وزاد تنكير ﴿نَفْسٍ﴾ عموميّة ﴿كُلُّ﴾، وشمولها.

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/383، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 120.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/615.

(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/187 - 188.

بلاغة المجاز في لفظ التذوق:

والذَّوقُ هنا في قولِه: ﴿ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ أُطلِقَ على وِجْدان الموت، على أنّه مجاز لغويّ، وقد تقدَّمَ نظيرُه عندَ قولِه: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، وشاعَ إطلاقُه على حُصولِ الموت، قالَ تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ [الدُّخان: 56]، ويُقالُ: ذاقَ طعمَ الموت[1].

وجه المجاز إطلاق الذوق على حصول الموت ووجدانه

"عبر عن إقبال الموت بذوقه، للإشارة إلى أنه عند ذوق الموت سيكون المذاق إما مرًّا حنظلًا يومئ إلى ما يتبعه من عقاب، وإما أن يكون المذاق حلوا هنيئًا، فيكون إيماءً إلى ما يكون يوم القيامة من نعيم مقيم، والتّعبير عن حلول الأجل في الدنيا بذوق الموت فيه استعارة بتشبيه الموت عند إقباله الرّهيب أو الرغيب بالأمر الذي يُذاق فيؤلم، أو يذاق فيسعد[2].

وفي إطلاق لفظ الذوق وجه استعارة شبّه فيه الموت عند إقباله بالأمر الذي يذاق فيُؤلم، أو يذاق فيُسعد

"وهنا إشارة بيانية أخرى رائعة هي أنه أسند ذوق الموت إلى النفس، ولم يسنده إلى الشخص؛ لأن النفس روح، والشخص جزءان جسم ونفس، وإن النفس تبقى بعد مفارقة الجسم، فهي التي تذوق الموت، كما ذاقت الحياة الدنيا، فإسناد الذوق إليها لأنها باقية، وقد تغيرت حياتها من حال إلى حال، فبعد أن كانت في غلاف من جسم من الطين، قد تجردت أبدا منه حتى تلتقي به يوم البعث والنشور"[3].

وأسند الذّوق إلى النّفس؛ لأنها الباقية مع تغيّر حياتها من حال إلى حال

نكتة تأنيث لفظة (الذوق):

و﴿ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ الخبر، وأُنِّثَ ﴿ذَآئِقَةُ﴾ مراعاةً لمعنَى ﴿كُلُّ﴾؛ لأنَّ كُلَّ نَفْسٍ نُفوس، ولو ذُكِّرَ مراعاةً لِلَفظِ ﴿كُلُّ﴾ جاز، وإضافةُ ﴿ذَآئِقَةُ﴾ غيرُ مَحْضَة؛ لأنَّها نَكِرةٌ يُحكَى بها الحال[4]، ويبدو أنّ في تأنيثها تلميحٌ بضعف النفس، ووهنها.

أُنِّثَ (ذائقة) مراعاةً لمعنَى (كُلّ)، وفي تأنيثها تلميحٌ بضعف النفس، ووهنها

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/188.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1535.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1535.

(4) العكبري، التبيان: 1/161.

براعة أسلوب القصر:

أفادَ أسلوبُ القصر، حَصْرَ تَوْفيةِ الأجور يومَ القيامة، وعرَّضَ بإثباتِ حياةِ البَرْزخِ ونعيمِ القبرِ وعذابِه

في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ قصرُ قَلْب بـ ﴿وَإِنَّمَا﴾[1]؛ لتنزيلِ المؤمنين فيما أصابَهم مِنَ الحُزن على قَتْلاهم وعلى هزيمتِهم، مَنزلةَ مَنْ لا يترقَّبُ من عملِه إلَّا منافعَ الدُّنيا، وهو النَّصرُ والغَنيمة، مع أنَّ نهايةَ الأجرِ في نعيم الآخرة، ولذلكَ قالَ: ﴿تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾، أي: تُكمَلُ لكم يومَ القيامة[2]. وفيه تعريضٌ بإثباتِ حياة البَرْزخ ونعيم القبرِ وعذابِه.

قصديّة التعبير بلفظ (التوفية):

في لفظِ (التَّوفيةِ) إشارةٌ إلى أنَّ بعضَ أجورِهم يصلُ إليهم قبلَ يومِ القيامة

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: التَّوْفيةُ: إعطاءُ الشَّيءِ وافيًا، ويُطلِقُها الفقهاءُ على مُطلَقِ الإعطاءِ والتَّسليم[3]، وفي لفظِ (التَّوفيةِ) إشارةٌ إلى أنَّ بعضَ أجورِهم يصلُ إليهم قبلَ يومِ القيامة، الَّذي يقومُ فيه النَّاسُ مِنْ قُبورهم[4]، وذلكَ يُثبِتُ وجودَ حياةَ البَرزخِ ونعيمَ القبر، وعذابه، وما يكونُ فيها من توفية لبعض الأُجور[5].

بلاغة الالتفات في الآية:

الْتَفَتَ من خطاب الاسمية إلى الفعليّة؛ لتغيّر الخطاب إلى الأشخاص:

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ للأشخاص لا للنفوس وحدها، فالمعروف أنّ ذوق الموت للنفوس ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، أمّا الجزاء فيكون للأشخاص؛ إذ تلتقي الجسوم بالنفوس، ولذلك عدلَ إلى الفعليّة مخاطبًا الأشخاص[6].

(1) القصرُ من أساليب البلاغة، وهو: تخصيصُ أمرٍ بأمر، بطريق مخصوص، وقَصْرُ القَلب هو أحدُ أقسام القَصْر من حيث المخاطبون، وهو يكون إذا كان المخاطَبُ يعتقدُ عكس ما نقول، لأنَّنا أردنا أن نقلبَ له مُعتقدَه رأسًا على عَقِب، ينظر: فضل عباس، أساليب البيان، ص: 168، و173 - 174.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/188.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/188.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/615.
(5) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/485.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1536.

علّة جمع الأجور:

الأجورُ: جمعُ الأَجْرِ بمعنَى الثّواب، وَوَجْهُ جمعِه مراعاةُ أنواعِ الأعمال(1)، وتعدد صنوفه، ورحابة ميادينه.

وجـــه جـمـع الأجـور مراعـاةُ أنواعِ الأعمال

فائدة التّعبير عن فعلي الزَّحزحة والإدخال بصيغة المفعول:

وأُسند الفعل للمجهول لأنّ الفاعل معروفٌ من ناحية، وللانشغال بالفعل نفسه عن الفاعل من ناحية أخرى.

أُسند الفعلان للمجهول؛ لأنّ الفاعل معروفٌ

سرّ إيثار فعل الزحزحة:

الفاءُ في قولِه: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ﴾ للتَّفريعِ على ﴿تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ﴾، وحقيقةُ فعلِ زُحزحَ أنَّها جَذبٌ بسُرعة، وهو مضاعَفُ زَحَّه عن المكانِ: إذا جَذَبه بِعَجَلة، وأبعدَه بتكرير الزَّحِّ، ونحّاه(2)، فـ" أبان عظيم هول النّار، وشدّتها بالتّعبير عن النّجاة عنها بالزّحزحة كأن كلّ شخص كان مشرفًا على السّقوط فيها، وأنّ مجرّد الزّحزحة عنها فوز كبير، وفيه إيماء إلى أن أعمال الناس سائقة لهم إلى النار؛ لأنّها حيوانية في الغالب حتى لا يكاد يدخل أحد الجنّة إلا بعد أن يكون زحزح عما كان صائرا إليه من السّقوط في النار"(3).

في إيـثـار لـفظ الـزحزحة إبانةٌ لـعـظـيـم هـول النّار، وشدّتها

وتشير جملة الزحزحة إلى " أنّ أعمال الإنسان ترديه ولا تنجيه، وأنه لكي يبعد عن النار ويتجنبها يكون كالمحتاج لمجهود، وتكرر الزح والتنحية كشيء ثابت ملازم لها، لا يبعد عنها إلا بمجهود، وذلك تصوير دقيق لعفو اللّه ورحمته وغفرانه، وأن المرء لا يبعد عن النار إلا بعد تكرار الرحمة والمغفرة"(4).

في إيـثـار لفظ الزحزحة تصوير دقيق لعفو الله بأن المرء لا يبعد عن النار إلا بعد تـكـرار الـرحـمـة والمغفرة

براعة المقابلة بين النعمتين:

وإنّما جُمعَ بين قوله: ﴿زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ و﴿وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ مع أنَّ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/188.

(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/485، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/188.

(3) رضا، تفسير المنار: 4/223.

(4) رضا، تفسير المنار: 4/223.

وجه المقابلة الجمع بين نعمتي: النّجاة من النار، وإدخال الجنّة

في الثّاني غُنيةً عن الأوّل؛ للدّلالة على أنَّ دخولَ الجنَّة يشتملُ على نعمتَيْن عظيمتيْن: النَّجاةُ من النَّار، ونعيمُ الجنَّةِ.

وجه التحقيق في جملة المجازاة:

في التحقيق بـ (قد)، والفعل الماضي ثباتُ وقوع الجزاء، بنيلِ المُبتغى مِنَ الخَيْر

وقولُه: ﴿فَقَدۡ فَازَۗ﴾ تحقيقٌ للفوزِ بما أفادَه حرفُ التحقيق ﴿فَقَدۡ﴾، والفعل الماضي ﴿فَازَۗ﴾ الدّال على التحقّق، والوقوع، أي: ثباتُ نيلِ المُبتغَى مِنَ الخَيْرَ؛ لأنَّ تَرتُّبَ الفَوزِ على دخولِ الجنَّة، والزَّحزَحَةِ عَنِ النَّارِ معلومٌ، فلا فائدةَ في ذكر الشَّرطِ إلَّا لهذا، والعَرَبُ تعتمدُ في هذا على القَرائِن، فقد يكونُ الجوابُ عَيْنَ الشَّرطِ لبيانِ التَّحقُّق، نحوُ قولِ القائل: مَنْ عَرَفَني فقدْ عَرَفَني، وقدْ يكونُ عينَه بزيادةِ قَيْدٍ، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾ [الفُرقان: 72]، وقد يكونُ على معنَى بلوغِ أقْصَى غاياتِ نوعِ الجوابِ والشَّرط، كما في هذه الآية الكريمة[1].

بلاغة الإيجاز في جملة المجازاة:

في الإيجاز بالاكتفاء بالمذكور تشويقٌ للمعدّ لهم من جزاء

أوجز في صوغ جملة الإثابة، والمجازاة بحذف متعلّق الفوز بقوله: ﴿فَقَدۡ فَازَۗ﴾ من غير أنْ يذكر بأيِّ شيءٍ؛ وفي ذلك تشويق للمعدّ لهم من جزاء، وتطلّعٌ إلى تحصّله، ونيله؛ فـ " ذكر الفوز مطلقا غير متعلق به شيء يفيد أنه الفوز العظيم الذي يشمل كل ما يطلبه المرء من سلامة من مكروه، وفوز بمحبوب، وناهيك بالسلامة من النار، والفوز بالنعيم الدائم في دار القرار"[2].

بديع الحَصْر في جملة الفاصلة:

معنى الحصر التوكيد، والمبالغة وكأنّه ليس للحياة الدنيا إلاّ هذا الوصف الذي تُعرف فيه

وفي قولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ تأكيدٌ بمنطوقِ الحَصْر - بأداتِه ﴿إِلَّا﴾ بعد النَّفي - لِمَا أفادَه الشَّرطُ السَّابقُ في قولِه: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ﴾ بأنَّ الحياةَ الدُّنيا سَرابٌ، ليس لها قائمةٌ في

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/189.
(2) رضا، تفسير المنار: 4/223.

جَنْبِ الفَوزِ بالجنَّة؛ فالأُوْلى متاعٌ فان، والآخِرةُ خُلودٌ وبقاء، فهو من قصر موصوف على صفة، وهو قصر إضافي للمبالغة وكأنّه ليس للحياة الدنيا إلا هذا الوصف الذي تُعرف فيه[1].

براعة الاستعارة، أو التشبيه البليغ في الفاصلة:

شبّه اللهُ الدُّنيا بالمتاع الذي يُدلّس به على المُستام ويُغرُّ عليه حتى يشتريه

الغرور مصدر من قولك: غررتُ فلانًا غرورًا، وفي قولِه تعالى: ﴿مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ استعارةٌ، أو تشبيه بليغٌ؛ إذ " شبّه الله الدُّنيا بالمتاع الذي يُدلّس به على المُستام (المشاري) ويُغرُّ عليه حتى يشتريه ثم يُظهر له فساده ورداءته والشّيطان هو المدلّس الغَرور"[2].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(تُوَفَّوْن) و(تُعطَوْن) و(تَنالون):

معنَى ﴿تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾: أيْ تَسْتَوفُونها كاملةً، وتتناولونَها وافيةً؛ والإعطاءُ: الإنالةُ، قالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾ [التّوبة: 29]، واختصَّ العَطيَّةَ والعطاءَ بالصِّلة، قالَ سُبحانه: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩﴾ [ص: 39][3]، والنَّيْلُ: ما ينالُه الإنسانُ بيدِه، قالَ تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: 92]، والنَّوْلُ: التَّناولُ، يُقالُ: نِلْتُ كذا أنُولُه نَوْلًا، وأَنَلْتُهُ: أَوْليتُه، وذلكَ مثلُ: عَطَوْتُ كذا: تَناولتُ، وأعطيتُه: أَنَلْتُه، وحقيقةُ النَّوال: ما ينالُه الإنسانُ مِنَ الصِّلة، وتحقيقُه ليس ذلكَ، ممّا تنالُ منه مُرادًا، قالَ تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾ [الحجّ: 37][4]. وبالنَّظر فيما تقدَّمَ، يظهرُ أنَّ بيانَ اللهِ تعالى اسْتخدمَ الفعلَ الأَمْثَلَ والأَلْيَق بالسِّياقِ؛ وهو ﴿تُوَفَّوْنَ﴾ ذلكَ أنَّ الحديثَ فيه عن يوم القيامة، وهو يوم الحساب؛ فالمحاسبةُ والتَّوْفيةُ والاسْتيفاءُ؛ كلُّ ذلكَ

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/189.

(2) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/449، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/453.

(3) الرّاغب، المفردات، ص: 573.

(4) الرّاغب، المفردات، ص: 829 - 830.

يكون دونَ زيادةٍ أوْ نُقصان، كما قالَ تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [آل عمران: 25] وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]، وهذا يَقْتضي الاسْتيفاءَ الكاملَ للأُجور، والتَّناوُلَ الوَافيَ لها، الَّذي سوف يبلغ التَّمام، دونَ نظَرٍ ولامحاباةٍ، ولا التفاتٍ لِمَدْحِ مادحٍ، أو ثناءِ مُثْنٍ، أو عطيةِ إكرامٍ أو صِلَةٍ، أو نَيْلِ نَوالٍ، ممَّا يقتضيه الفعلان: (تُعطَوْنَ) و(تَنالونَ).

(زُحزِحَ) و(أُبْعِدَ) و(دُفِعَ):

معنى زُحزِحَ من الزَّحْزحة، وهي التّنحيّة عن الشّيء، وفي التّنزيل من الآية قيد التّفسير: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، وأمّا البُعْدُ فهو: ضدُّ القُرْب، وليس لهما حَدٌّ محدود، وإنَّما ذلكَ بحسبِ اعْتبارِ المكانِ بغيره، يُقالُ ذلكَ في المحسوسِ، وهو الأكثرُ، وفي المعقولِ، كما في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فُصِّلت: 44]، ويُقالُ: بَعُدَ: إذا تباعَد، وهو بَعيد، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: 83][1]، وأمّا الدَّفعُ: فإنّه إذا عُدِّيَ بـ (إلى) اقْتضَى معنَى الإنَالة، كما في قولِه تعالى: ﴿فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النّساء 6]، وإذا عُدِّيَ بـ (عن) اقْتضَى معنَى الحِماية، كما في قولِه سُبحانه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحجّ: 38][2]، وهذا الَّذي تقدَّم في معاني الكلماتِ السَّابقة، يَقودُنا إلى أنَّ السّياقَ القرآنيَّ أثبتَ الفعلَ المناسب له وهو ﴿زُحْزِحَ﴾ ـــ دون الفعلين (أُبعِدَ) و(دُفع) ـــ الَّذي يجمعُ في معناه كلًّا منهما مع الجَذْبِ في عَجَلةٍ، والإزالةِ عن المقرِّ، وهذا يقتضي عدمَ العَوْدِ إلى النَّار، ممَّا لم يتحقَّقْ في معنَى الإبعادِ والدَّفع، فربَّما يعود المُبْعَدُ والمدْفُوع إلى مقرِّه السَّابق. إضافةً إلى أنَّ زيادةَ المَبْنى تدُلُّ على زيادةِ المعنَى، وخاصّةً مع تكريرِ الحُروفِ في نَفْسِ الكلمة، وهما الزَّايُ والحاءُ في الفعل ﴿زُحْزِحَ﴾، وليس ذلكَ متوفِّرٌ أو مُتوافِرٌ في فِعْلي الإبعادِ والدَّفْع.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 133.
(2) الراغب، المفردات، ص: 316.

﴿۞لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران: 186]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين غرور الدّنيا وفوز الآخرة، وبين وجوب التّقوى والمصابرة

لَمَّا زهَّدَ بيانُ اللّه في الآيةِ السَّابقة في الدُّنيا بفنائِها، وأنَّها متاعُ الغُرور، وذكرَ أنَّ الفائزَ الحقيقيَّ مَنْ يُنَجِّيه اللّهُ منَ النَّار، ويُدْخلُه الجنَّة، أوردَ في هذه الآية، أنَّ دُنيا المؤمنين مُثْقَلةٌ بالابْتلاءات، من تَعَبٍ ونَصَبٍ، وأَسْرٍ وجِراحٍ وأمراض، ونقصٍ في الأموال والأَنْفُس، ولكنَّ المسلمَ الحقَّ، يُجابِهُ ذلكَ كُلَّه بالصَّبرِ واحْتسابِ الأجرِ عندَ اللّه، والتزام تقوى اللّهِ، بامتثالِ أوامرِه، واجْتنابِ نواهيه، فإنْ فَعلَ ذلكَ فقدْ وُفِّقَ ليكونَ من أهلِ العزائمِ العالية، والهِممَ السّامية، والدَّرجاتِ الرَّفيعة عند اللّه.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿۞لَتُبۡلَوُنَّ﴾: يُقالُ: بَلِيَ الثَّوْبُ بِلًى وبَلاءً، أي: خَلُقَ، وبَلَوْتُه: اخْتبرتُه كأنِّي أَخْلَقْتُه من كثرةِ اختباري له، وقولُه تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ﴾ [يونس: 30]، أي: تعرفُ حقيقةَ ما عَمِلَتْ، وسُمِّيَ الغَمُّ بلاءً من حيثُ إنَّه يُبْلي الجِسم، قالَ تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾ [البقرة: 49]. واخْتبارُ اللّهِ تعالى للعبادِ، يكونُ تارةً بالمَسَرّات ليشكُروه، وتارةً بالأزمات ليصبروا عليها فيعطيهم أجرهم بغير حساب، فصارتِ المِحْنَةُ والمِنْحةُ جميعًا بلاء، فالمِحنةُ مُقتضيةٌ للصَّبر، والمِنحةُ مقتضيةٌ للشُّكر، والقيامُ بحقوق الصَّبر أَيْسرُ من القيام بحقوقِ الشُّكر، فصارتِ المِنحةُ أعظمَ البلاءَيْن، وجاءَ وصفُ كتابهِ الكريم بكلا الأمرَيْن

في قولِه ﷻ: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ [فُصِّلت: 44][1].

2) ﴿عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾: العَزْمُ والعَزيمةُ: عَقْدُ القلب على إمضاءِ الأمر، يُقالُ: عَزَمْتُ الأمرَ، وعَزَمْتُ عليه، واعْتزمْتُ، قالَ تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: 159]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾ [طه: 115]، أي: محافظةً على ما أُمِرَ به، وعزيمةً على القيامِ[2]. وعليه تعزَّم: أرادَ فِعْلَه، وقَطعَ عليه، أوْ جَدَّ في الأمرِ. وقولُه تعالى: ﴿أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35] الَّذين عَزَموا على أَمْرِ اللّهِ فيما عُهِدَ إليهم، وهم أولو الجِدِّ والثَّباتِ والصَّبرِ[3]، وأشارَ الشّنقيطيّ إلى أنّ الْعُلَمَاءُ اختلفوا في الْمُرَادِ بِأُولِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، في هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وهي قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35]، وَأَشْهَرُ الْأَقْوَالِ في ذَلِكَ أَنَّهُمْ خَمْسَةٌ، وَهُمْ: نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ (عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ)[4].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

قـدر الله باختبار المؤمنين في أموالهم وأنفسهم، وأمرهم بالصّبر على الأذى

يخاطبُ اللّه ﷻ المؤمنينَ أنَّهم سيُختبرَون: في أموالِهم؛ مِنَ النَّفقاتِ الواجبةِ والْمُستَحبَّة، في إنفاقِها في سَبيلِ اللّه[5]، وبما يصيبُها مِنَ الجوائحِ والعَاهاتِ والخُسرانِ والنُّقصان[6]، وفي أنْفُسهم؛ من التّكاليفِ الثّقيلةِ على كثيرٍ من النَّاس، كالجهادِ في سبيلِ اللّه، وبما يَعتَورِ أبدانَهم من الأمراضِ والآلامِ والأَسْرِ والجِراح،

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 145 - 146.
(2) الراغب، المفردات، ص: 565.
(3) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (عَزَمَ).
(4) الشّنقيطي: (أضواء البيان): 7/241.
(5) البغوي، معالم التّنزيل: 2/148.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 4/200.

وكذلك ما يُصيبُهم مِنَ الطَّعنِ في دينِهم، وكتابِهم، ورسولِهم مِنْ قِبَلِ المشركينَ واليهودِ والنَّصارى[1]، ويُوجِّهُ بيانُ اللّهِ عبادَه المؤمنينَ للتَّسلُّحِ بالصَّبرِ والتَّقوى؛ فهما الدِّرْعانِ الحَصينانِ لمُواجَهةِ الأعباءِ الثِّقال، وهما عُدَّةُ أهلِ الإيمان، وسلاح أرباب الإيقان، وعلى رأسِهم رُسُلُ اللّهِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

وجه الاستئناف إيقاظ المؤمنينَ وتنبيههم

في قوله تعالى: ﴿۞لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ اسْتِئْنافٌ لإيقاظِ المؤمنينَ إلى ما يعترِضُ أهلَ الحقِّ وأنصارَ الرُّسُل مِنَ البَلْوى، وتَنبيهٌ لهم على أنَّهم إنْ كانوا ممَّن تُوهِنُهمُ الهزيمة، فليسوا أَحرياءَ بِنَصرِ الحقِّ[2].

بلاغة تأكيد المطلع:

أفاد التوكيد تحقيقَ معنَى الابْتلاءِ تهوينًا للخطب، أو تحقيق وقوعِ المُبتَلَى به، مبالغةً في الحثِّ

وجاءَ الفعلُ ﴿۞لَتُبۡلَوُنَّ﴾ مُؤكّدًا بلامِ القَسَم، والتقدير: واللّه لتبلوُنَّ، وبنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلة؛ لإفادةِ تحقيقِ الابْتلاء، إذْ نونُ التَّوكيدِ الثَّقيلةُ أَقْوى في الدَّلالةِ على التَّوكيدِ من الخَفيفَة، والجُملةُ جوابُ قَسَمٍ محذوف؛ أي: واللّهِ لَتُبلَوُنَّ؛ أي: لَتُعامَلُنَّ معاملةَ المُخْتبَر، ليظهرَ ما عندَكم من الثَّباتِ على الحقِّ والأعمالِ الحَسَنة، وفائدةُ التَّوكيد؛ إمَّا: تحقيقُ معنَى الابْتلاءِ تهوينًا للخَطْب، وإمَّا: تحقيقُ وقوعِ المُبتَلَى به، مبالغةً في الحثِّ على ما أُريدَ منهم مِنَ التَّهيُّؤِ والاسْتعداد[3]، فـ"أكّد بهذه التأكيدات ليكون الوقوع مستيقنا، وليستعدوا بالصبر والمجاهدة، والاعتماد على اللّه تعالى"[4].

---

(1) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/486.
(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/189.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 1/453، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/615.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1538.

أُريدَ بالمجاز في الآية لازمُه، وهو المُصيبة

وجه المجاز في لفظ الابتلاء:

والابْتلاءُ: الاخْتبارُ، ويُرادُ به هنا لازمُه، وهو المُصيبة؛ لأنَّ في المصائبِ اخْتبارًا لمقدارِ الثَّبات(1).

علّة تقديم الأموال على الأنفس ترقّيًا إلى الأشرف، أو للكثرة

نكتة تقديم الأموال على الأنفس:

قدم الأموال على الأنفس في قوله: ﴿۞لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ على سبيل الترقّي إلى الأشرف، فالترتيب في الابتلاء متدرج يبتدئ من الأدنى، وهو المال، والاختبار فيه شديد قاس، والاحتمال يحتاج إلى صبر وعزم، وإنه ليسمى نفيسا؛ لأنه قرين النفس، وإن كان دونها، وهي أغلى منه، أو أنّ الترتيب على سبيل الكثرة؛ لأنّ الرّزايا في الأموال أكثر من الرزايا في الأنفس(2).

وجه التوكيد تخصيصه بأذى الدّين، وبيانًا لشناعة المسموع

فائدة التوكيد في جملة السّماع:

والدرجة العليا من الابتلاء هي ما يخصّ الدِّين، وعبّر عنها ﷻ بالذّكر المؤكّد، وخصّها بالأذى الكثير؛ فقال: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾(3)، بيانًا لشناعة المسموع، وفداحة المقول في شأن دين الاسلام.

المراد ببناء فعل الإيتاء للمفعول تسوية العالم بالجاهل في الذمّ

نكتة بناء فعل إيتاء الكتاب للمفعول:

قال البقاعي: " ولما كان المراد تسوية العالم بالجاهل في الذمّ؛ نزه المعلِّم عن الذكر؛ فبنى للمفعول بقولِه: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ "(4).

التعبير بإيتاء الكتاب؛ للإشعارِ بمدارِ شقاقهم، وباطل زعمهم

وجه التّفريق بين من أوتوا الكتاب، ومن أشركوا:

المعنيُّ بقولِه: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، اليهودُ والنَّصارى، وعبَّر عنهم بـ ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ للإشْعارِ بمدارِ الشِّقاق، والإيذانِ بأنّ ما يَسْمعونَه منهم مُستَنِدٌ على زعمِهم إلى الكتاب، كما في قولِهم من قَبْلُ: ﴿إِنَّ

---

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/190.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/464، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1538.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1539.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 5/149.

﴿ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾[1]، أما المشركون فهم مَن لم يؤمن بالله من كفّار قريش وغيرهم.

نكتة توسيط الجّار والمجرور:

جـاءَ التَّصريحُ بالقَبْليَّة لتأكيدِ الإشْعار

وقوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، أي: من قبلِ إيتائكُمُ القرآن، وجاءَ التَّصريحُ بالقَبْليَّة لتأكيدِ الإشْعار بمَدار الشّقاق، وتقويته؛ فإنَّ قِدَمَ كتابِهم ممَّا يُؤيِّد تَمسُّكَهم به[2]، وقال البقاعي: " ولما كان إيتاؤهم له لم يستغرق الزمن الماضي أدخل الجار فقال: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، أي: من اليهود والنصارى"[3].

علّة التعبير عن نزول الأذى بسماعه:

التّعبير عن نزول الأذى بسماعه؛ لأنّـه في ذاتـه، ومـوضـوعـه، ومؤدّاه إلى أذى

الذي يُسمع في قوله تعالى: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾ هو كلامٌ، وعبَّر عنه بالأذى؛ لأنه يؤدي إلى أذى، وموضوعه أذى، وهو في ذاته أذى، فكأن الأذى في ذات القول، ولذلك كان مفعولا للسّماع[4].

نكتة وصف الأذى بالكثير:

الأذى الكثير، أي: الخارج عن الحَدِّ الَّذي تَحتملُه النُّفوس بمَّا يُفْضِي إلى الفَشَل

الأَذَى: هو الضُّرُّ بالقوْل، كقولِه تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ﴾ [آل عمران: 111]، ولذلكَ وصفَه هنا بالكثير، فقالَ: ﴿أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾، أي: الخارجِ عن الحَدِّ الَّذي تَحتملُه النُّفوس غالبًا، وكلُّ ذلكَ ممَّا يُفْضِي إلى الفَشَل، وهذا الأذَى كما هو من أهلِ الكتابِ، هو كذلكَ من المشركين[5].

وصف الأذى بالكثير؛ يشمل المقدار والنوع، والطريقة والموضوع

ووصفه ﷻ بأنه أذى كثير، وذلك ليبين لهم ما يوجب استعدادهم لسماعه، من أذى ليس بقليل في مقداره، ولا في نوعه، ولا في

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/616.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/616.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/149.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1540.

(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/616.

موضوعه، فالكثرة ليس المراد منها المقدار فقط، بل الكثرة تشمل المقدار والنوع، والطريقة والموضوع[1].

بلاغة التعبير بأسلوب الشّرط:

أفـــادَ نـظـمُ الشَّرط أنَّ أهلَ الصَّبرِ والتَّقوى همْ أهلُ مُهمَّاتِ الأمورِ وعزائمِها

وظاهرُ قولِه: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ شرطٌ، إنْ تحقّق فعلُه فسَيتحقَّقُ جوابُه، لكنَّ معناه الأمر، أي: اصْبِروا واتّقُوا؛ تَفُوزوا بالنَّصْر، وتَنالُوا مراتبَ أهلِ العَزْم. "وفي إبرازِ الأمرِ بالصَّبرِ والتَّقوى في صورةِ الشَّرطيَّة من إظهارِ كمالِ اللُّطفِ بالعبادِ ما لا يَخْفَى"[2].

بيان إيثار الشّرط بـ ﴿وَإِن﴾ دون (إذا):

إنّ تحقق المتعسّر من الأمر حريٌّ بتحقّق المتيسّر منه

عبر بـ ﴿وَإِن﴾ دون (إذا) في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ مع أن الصبر مطلوبٌ مرادٌ وقوعه؛ إشارة لإِمكان المراد المتعسّر منه، المشكوك في وقوعه، فإذا أمر بالمعتبر منه؛ فيدلّ على طلب المتيسّر منه من باب أحرى[3].

نكتة التعبير بفعل التقوى:

إنّ الصّبر الذي يُبْتغى به وجه الله هو الذي يصحبه التّقوى فقط

وأوثرَ قولُه: ﴿وَتَتَّقُواْ﴾؛ لأن الصبر على نوعين: تارة: يكون للتجلد، والحمية في الباطل، وإظهار القوة والرياء والسمعة، وتارة: يكون للتقوى ونصرة دين الله ﷻ؛ فأُمروا بأن يصبروا صبرا يبتغون به وجه الله وهو الذي يصحبه التقوى فقط[4].

علّة تقديم الصبر على التقوى:

إقدامُ الإنسان على الصبر؛ لأنّه يريد اتقاء ما لا ينبغي

الصبر عبارة عن احتمال المكروه، والتقوى عبارة عن الاحتراز عما لا ينبغي؛ فقُدِّم ذِكر الصبر ثم ذكر عقبه التقوى؛ لأن الإنسان إنما يُقْدِمُ على الصبر؛ لأجل أنه يريد اتقاء ما لا ينبغي.

وفيه وجه آخر: وهو أن المراد من الصبر هو أن مقابلة الإساءة

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1540.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/616 - 617.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/452.

(4) البسيلي، التقييد الكبير، ص: 605، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/452.

بالإساءة تفضي إلى ازدياد الإساءة، فأمر بالصبر؛ تقليلا لمضارِّ الدُّنيا، وأمر بالتقوى تقليلا لمضارِّ الآخرة، فكانت الآية على هذا التأويل جامعة لآداب الدنيا والآخرة[1].

أبان التقديم أنّ الآية جامعة لآداب الدنيا والآخرة

علّة التعبير باسم الإشارة:

في قوله: ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى الصَّبرِ والتَّقوى، وما فيه من معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ بِعُلُوِّ دَرَجتِهما، وبُعدِ مَنْزلتِهما[2].

ما في اسم الاشارة من معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ بِعُلُوِّ دَرَجتِهما، وبُعدِ مَنْزلتِهما

سرّ توحيد حرف الخطاب:

وتوحيدُ حرفِ الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾؛ إمَّا باعْتبارِ كلِّ واحدٍ مِنَ المخاطَبين، وإمَّا لأنَّ المرادَ بالخطابِ لمجرَّدِ التَّنبيهِ من غيرِ ملاحظةِ خُصوصيَّةِ أحوالِ المخاطَبين[3].

توحيدُ حرفِ الخطاب باعْتبارِ كلِّ واحدٍ مِنَ المخاطَبين، أو لمجرَّدِ التَّنبيه

سرّ وصف الجمع بالمفرد:

وقولُه: ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾، أي: الأمورِ العَزْم، ووصَفَ الأمورَ، وهو جمعٌ بعَزْم، وهو مُفرَد؛ لأنَّ أصلَ عَزْمٍ أنَّه مَصْدرٌ، فيلزَمُ لفظُه حالةً واحدةً، وهو هنا مصدرٌ بمعنَى المفعول؛ أي: مِنَ الأمورِ المَعزوم عليها، وفي قوّة المصدريّة ما يدلّ على الثبات وعدم التردد؛ فالعَزْمُ: إمْضاءُ الرَّأي، وعَدَمُ التَّردُّدِ بعدَ تَبيُّنِ السَّداد، قالَ تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: 159][4].

أصلُ (عَزْم) أنَّه مَصْدرٌ، فيلزَمُ لفظُه حالةً واحدةً، تدلّ بقوتها على الثبات وعدم التردّد

وجه إضافة العزم إلى الأمور:

وقولُه: ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ من إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوف، أي: مِنْ مَعْزُوماتِها الَّتي يَتنافسُ فيها المُتنافسون؛ أي: ممَّا تجبُ أنْ يعزم عليه كلُّ أحدٍ لِمَا فيه من كمالِ المَزِيَّةِ والشَّرف، أَوْ ممَّا عزمَ اللّٰه

في الاضافة بيانٌ بأنَّ ذلك عَزْمة من عَزَماتِ اللهِ تعالى، لا بدَّ أنْ تَصبِروا وتتَّقوا

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 9/454 - 455.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/616.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/616.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/190.

عليه، وأمرَ به؛ يعني أنَّ ذلكَ عَزْمةٌ من عَزَماتِ اللّهِ تعالى، لا بدَّ أنْ تَصبِروا وتَتَّقوا[1].

توجيه دلالة جملة الفاصلة:

جملة الفاصلة جـوابٌ للشّرط، أو تعليلٌ لجوابه

والجُملةُ تعليلٌ لجوابِ الشَّرط، واقعٌ مَوقعَه، كأنَّه قيل: وإنْ تَصبِروا وتتَّقوا فهو خيرٌ لكم، أو فافْعلُوا، أو فقدْ أحسنتُم، أو فقدْ أصبتُم، فإنَّ ذلكَ من عزمِ الأمُور، ويجوزُ أن يكونَ ذلكَ إشارةً إلى صبرِ المخاطَبين وتقواهُم، فالجملةُ حينئذٍ جوابُ الشَّرط[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الابْتلاء والاخْتبار:

الابْتلاءُ لايكونُ إلَّا بتَحْميلِ المكارِه والمَشاقِّ، وهو يعني كذلكَ كثرةَ الاخْتبارِ للشَّيءِ حتَّى يَبْلَى، وأمَّا الاخْتبارُ فيكونُ بتحميلِ المكارِه والمَشاقِّ، وبفعلِ المحبُوب، يُقالُ: اخْتبرَه بالإنعام عليه، ولا يُقالُ: ابتلاه بذلك، ولا هو مُبتلًى بالنِّعمة، كما قدْ يُقالُ: إنَّه مُخْتبَرٌ بها، ويجوزُ أنْ يُقالَ: إنَّ الابْتَلاءَ يَقْتضي اسْتخراجَ ما عندَ المبتلَى مِنَ الطَّاعة والمعصية، والاخْتبارَ يَقْتضي وقوعَ الخبرِ بحالِه في ذلك[3]، ومن بيانِ الفرقِ بينَ هاتَيْن الكلمَتيْن؛ يتَّضحُ أنَّ الابْتلاءَ أصدقُ مفهومًا وأوقعُ أثَرًا في سِياقِ النَّصِّ القُرآنيّ؛ فابتلاءُ اللّهِ لعبادِه المؤمنينَ في الأموالِ والأنفُس، وسماعِ الأذَى من أهلِ الكتابِ والمشركينَ في دينهم وكتابهم ورسولهم، لَهُوَ من الأمور الشّاقّة على المبتلين بذلك، وهو بغيض للأنْفُس مهما كان نوعه أو وسمه أو صفته، ولذلكَ اقتضت بلاغة القرآن الكريم، أن يستخدم البيانُ الإلهيُّ كلمةَ (الابْتلاء)، بَدَلَ (الاخْتبار)، وهو من معجز الاختيار.

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/616.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/616 - 617.

(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 10.

العَزْم والحَزْم:

العزمُ: هو تصميمُ القلبِ على الشَّيءِ، والنَّفاذُ فيه بقَصْدٍ ثابِت[1]، والعزم: الجِدُّ والثَّباتُ والصَّبر، وقدِ اجتمعتْ هذه الصِّفاتُ على وجهِ الخُصوصِ، في أُوْلي العَزْمِ مِنَ الرُّسُل[2]، وأمَّا الحَزْمُ فهو: ضَبْطُ الأمر، والأخذُ فيه بالثِّقة؛ وحَزُمَ، كَكَرُمَ، فهو حازِمٌ وحَزيمٌ، وحَزَمَهُ يَحْزِمُهُ: شَدَّهُ[3]، وفي العَزْم إذًا مَزيدُ قُوّةٍ وثباتٍ ونفاذٍ وجِدٍّ وصَبْر، عمَّا هو في معنَى الحَزْم، ولذلكَ استعملَ البيانُ الإلهيُّ كلمةَ (العزْم) في سياقِ ما يُمكِنُ أنْ يُواجِهَ المؤمنينَ مِنِ ابْتلاءاتٍ في الأموالِ والأَنْفُسِ، وإيذاءٍ من أهلِ الكتابِ والمشركين، فهذه كلُّها تحتاجُ مواجهةً صابرةً، وثَباتًا وقُوّةً من أهلِ الإيمانِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 356.

(2) الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 91، وابن منظور، لسان العرب: (حَزَمَ).

(3) الرّاغب، الفروق اللغوية، ص: 565، وابن منظور، لسان العرب: (عَزَمَ).

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧﴾ [آل عمران: 187]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين ذكر البلاءِ والصّراع، وبين كِتمانِ أهل الكتابِ ما أُمِرُوا بِبَيانِه

لَمَّا ذُكِرَ بيانُ اللّهِ - ﷻ - أنَّ المؤمنينَ سَيُبْتَلَوْن بابْتلاءاتٍ، ومنها سماعُ الأذَى من أهلِ الكتاب، جاءَ بيانُ اللّهِ هنا لِيُخبرَنا أنَّ أهلَ الكتاب خانُواْ العهدَ والميثاقَ الَّذي أخذَه اللّه عليهم، ببيانِ ما في كتابِهم من أحكامٍ وحِكَمٍ للنَّاس، وطَرحُوا كلَّ ذلكَ، ولم يَعبَؤُواْ به، واستبدلوه بِعَرَضٍ من الدُّنيا قليل، فَخابُواْ وخَسِرواْ، ووجهُ الرّبطِ أنّ مطلع هذه الآية "معطوفٌ على قوله: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾[1]؛ فإنّ تكذيبَ الرّسولِ من أكبرِ الأذى للمسلمين، وإنّ الطّعن في كلامِه وأحكامِ شريعته من ذلك، كقولهم: (إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ)"[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مِيثَٰقَ﴾: الميثاقُ: العَهدُ، وَوَثِقَ به يَثِقُ، كَوَرِثَ، ثقةً ومَوْثِقًا: ائْتمنَهُ، والوَثيقُ: المُحكَمُ، ووَثُقَ، كَكَرُمَ: صارَ وثيقًا، أو أخذَ الوَثيقة، والميثاقُ يكونُ من أحَدِ الطَّرفينِ المتعاهدَين[3]، أخذَ عليهم الميثاقَ حين أخذ ذريّة آدم من ظهورهم، ويقال: أخذَ عليهم الميثاقَ بالوحي في كتبِ الأنبياءِ، لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ يعني: نعتُ محّمدٍ ﷺ وصفته وَلا

(1) الآية كاملة، هي قوله تعالى: ﴿۞لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران: 186].

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/191.

(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 525، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (وَثِقَ).

تَكْتُمُونَهُ عنهم[1]، "والميثاقُ إمّا مصدر بمعنى التّوثقةِ، كالميعادِ والميلاد، بمعنى الوعدِ والولادة، أو اسمٌ لما وثّقواْ به عهدَ اللّه من قبوله وإلزامِه أنفسَهم، ويجوزُ أن يرجعَ الضّميرُ إلى اللّه؛ أي من بعد توثِقَتِه عليهم، أو من بعد ما وثّق اللّه تعالى به عهده من آياته وكُتُبه ورُسُله"[2].

2) ﴿فَنَبَذُوهُ﴾: النَّبْذُ: إلقاءُ الشَّيءِ وطرحُه لقلَّةِ الاعتدادِ به؛ ولذلكَ يُقالُ: نَبَذْتُه نَبْذَ النَّعلِ الخَلِقِ، قالَ تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤﴾ [الهمزة: 4]، وقالَ سُبحانه: ﴿۞فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ﴾ [الصافات: 145]، وانْتبذَ فلانٌ: اعْتَزلَ اعْتزالَ مَنْ لا يُقِلُّ مبالاتِه بِنَفسِه فيما بينَ النَّاس، وأهلُ الكتاب أخذَ اللّه عليهم العهدَ، على أن يبلّغواْ، دون كتمان، "فنبذواْ الميثاقَ وتأكيده عليهم؛ أي: لم يراعوه، ولم يلتفِتُواْ إليه، والنّبذُ وراء الظّهر، مثل في الطّرح وترك الاعتداد، وهو دليلٌ على أنّه يجبُ على العلماء، أن يبيّنواْ الحقَّ للنّاس وما عَلِمُوه، وأن لا يكتمواْ منه شيئًا، لغرضٍ فاسدٍ، من تسهيلٍ على الظّلمة، وتطييبٍ لنُفوسهم، أو لجرّ منفعةٍ، أو دفع أذيّةٍ، أو لبخلٍ بالعلم، وفي الحديث: "من كتمَ علماً عن أهلِه ألجَمَه اللّه بلجامٍ من نار"[3].

3) ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾: يُقال: وَرِيَ يَرِي، مثلُ: وليَ يَلي، قالَ تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ۝٧١﴾ [الواقعة: 71]، ووراءُ: إذا قيلَ: وراءُ زيدٍ كذا، فإنَّه يُقالُ لمن خَلْفَه، كما قالَ تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ۝٧١﴾ [هود: 71]، ويُقالُ لما كانَ قُدّامُه، كما في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ﴾ [الكهف: 79]، وقولِه: ﴿أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭ﴾ [الحشر: 14]، فإنَّ ذلكَ يُقالُ في أيِّ جانبٍ من الجِدار، فهو وراءَهُ باعْتبارِ الَّذي في الجانبِ الآخرَ، وقولُه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ [المؤمنون: 7]؛ أي: مَنِ ابْتغَى أكثر ممَّا بيَّنَّاه، وشَرَعناه، من تَعرُّضٍ لما يَحرُمُ التَّعرُّضُ له، فقد تعدَّى طَورَه، وخَرَق سِترَه، وقولُه كما في الآية الَّتي معنا: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ [آل عمران: 187]، تبكيتٌ لأهلِ الكتابِ، في أنَّهم لم يعملُواْ بكتابهم، ولم يتدبَّرواْ ما فيه؛ بلِ اشْتَرَوۡاْ به ثمنًا قليلًا، فاسْتبدَلواْ الَّذي هو أدْنَى بالَّذي هو خَيرٌ، فَبِئسَ ما فَعلُواْ.

---

(1) السّمرقنديّ: بحر العلوم: 1/272.

(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/207.

(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/319، والحديث أخرجه أبو داود في سننه: (3658).

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

لم يـرعَ أهـلُ الكتابِ الميثاقَ في البلاغ، بل نبذُوه واشتروا به ثمنًا قليلًا

أخذَ اللّه العهدَ المؤكَّدَ على كُلِّ مَنْ أعطاهُ الكتابَ، وعلَّمَه العلمَ، أن يبيِّنَ للنَّاس الصَّوابَ من الخطأ، والحقَّ من الباطل، فكان من هؤلاء من قامَ بأداءِ ما وجَبَ عليه، ومنهم مَن خانَ العهدَ، وألقاهُ وراءَ ظهرِه، وباعَ دينَه، بِعَرَضٍ من الدُّنيا قليل، والمقصود بهم مَنْ أَنكَروا نُبوَّةَ رسولِ اللّهِ محمَّدٍ ﷺ، وأمَروا أتباعَهم بذلك، وفي هذا تحذيرٌ للعلماءِ أنْ يَسلُكوا مسالكَهم، فيصيبهم ما أصابَهم[1]، واللّه تعالى أمر نبيّه ﷺ، أن يعلمهم بأنّه أخذ الميثاقَ على علمائهم، بأن يُبيّنوا للنّاس نعوتَ النّبيِّ ﷺ في كتابهم، وأن يؤمِنُوا به ويتابعوه، على ما جاء به من الهدى ودين الحقّ، ولكنّهم كتَمُوه، ونبذُوه وراءَ ظُهورهم، واستبدلُوا بذلك الجاهَ الزّائل، والمال الزّائف، ممّا عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ "[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

وجـهُ الـفَـصْـل بـالاسـتـئـنـاف بـيـانُ بـعـضِ أذِيَّـةِ الـيـهـود بكِتمانِهم نبوَّتَه ﷺ

أفادَ نظمُ الاسْتئنافِ، المبالغةَ في تَقبيحِ أعمالِ اليهود؛ فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، كلامٌ مُستَأنَفٌ، سيقَ لبيانِ بعضِ أذِيَّتِهم، وهو كِتمانُهم ما في كتابِهم من شواهدِ نبوَّتِه ﷺ وغيرِها[3].

سرُّ الإضمار على طريق تجريد الخطاب:

و﴿إِذْ﴾ منصوبٌ على المفعوليَّة بمُضمَرٍ أي: (واذْكُرْ وقتَ أخَذَ اللّه)[4]، أُمِرَ به النَّبيُّ ﷺ خاصَّةً بطريقِ تجريدِ الخطابِ، إثْرَ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/384.

(2) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 1/423.

(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/124.

(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1486.

الخطابِ الشَّاملِ له ﷺ وللمؤمنين، لكونِ مَضمونِه من الوظائفِ الخاصَّةِ به ﷺ، وتوجيهُ الأمرِ بالذِّكرِ إلى الوقتِ، دونَ ما وقعَ فيه من الحوادثِ، مع أنَّها المقصودةُ بالذَّات؛ للمبالَغةِ في إيجابِ ذِكْرِها، أي: واذكرْ وقتَ أَخْذِه تعالى ﴿مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وهم علماءُ اليهودِ والنَّصارى.

توجيهُ الأمرِ بالذِّكرِ إلى الوقتِ، دونَ ما وقعَ فيه من الحوادثِ؛ للمبالَغةِ في إيجابِ ذِكْرِها

دلالة الميثاق على العموم:

وهذا الميثاقُ أُخِذَ على سَلَفِهم من عهدِ رسولِهم وأنبيائِهم، وكانَ فيه ما يدُلُّ على عمومِه لعلماءِ أُمَّتِهم في سائرِ أجيالِهم إلى أنْ يجيءَ رسولٌ من اللّه[1]، وقيل: عهودُ اللّهِ تعالى ثلاثةٌ: عهدٌ أخذه على جميع ذريّةِ آدمَ، بأن يقرّوا بربوبيّته، وعهدٌ أخذه على النّبيين، بأن يُقيموا الدّين ولا يتفرّقوا فيه، وعهدٌ أخذه على العلماء، بأن يبيّنُوا الحقّ ولا يكتُمُوه"[2].

في العموم شمولٌ لعلماءِ أُمَّتِهم في سائرِ أجيالِهم إلى أنْ يجيءَ رسولٌ من الله

علّة ذكر اليهود بعنوانِ إيتاءِ الكتابِ:

ذُكر علماءُ اليهودِ والنصارى في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ "بعنوانِ إيتاءِ الكتابِ، مُبالَغةً في تَقْبيحِ حالِهم"[3].

ذُكرُ اليهودُ بعنوانِ إيتاءِ الكتابِ، للمبالغة في تَقْبيحِ تصرّفاتهم المنافية لوصفهم

بلاغة القَسَم في طلب البيان:

قولُه تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾: هذه الجملةُ بيانٌ للميثاق، وهي حكايةٌ لِمَا خُوطِبُوا به، والضَّميرُ (الهاء) للكتاب، وهو جوابٌ لقسَم، يُنبئُ عنه أَخْذُ الميثاق؛ كأنَّه قيلَ لهم: باللّهِ لَتُبيِّنُنَّه للنَّاس، وتُظهرُنَّ جميعَ ما فيه من الأحكامِ والأخبارِ الَّتي من جُملتِها أمرُ نُبوَّتِه ﷺ، وهو المقصودُ بالحكاية[4].

أسلوب القسم سبيل إلى جلاء المعنى ووضوحه

ونُقل عن ابن القيّم أنّ القسمَ قد يرادُ به تحقيق المُقسمِ عليه

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/63، وكذلك: 2/124.

(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 1/64.

(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/124.

(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/124، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/191.

وفي القسم وجهُ تحقيق للمُقسمِ عليه وتوكيده

وتوكيده، فيكونُ من بابِ الخبر، ومن ذلك الأمور الغائبة والخفيّة، إذا أقسم على ثبوتها[1].

توجيه القراءات القرآنية في قوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾:

فـــي قـــراءة الجمهور التفات من من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التنبيه وبيانًا لأهمية المُبيَّن:

وقولُه: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ فيه قراءتان[2]: الأُوْلى: بالتَّاء، هي صيغةُ خطابِهم بالمَحلوفِ عليه عَلى إضمارِ القول، وفيه التفاتٌ من الغيبة إلى الخطاب في ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾؛ زيادةَ بيانٍ لأهمية المُبيَّنِ، والثَّانية: بالياء، وهي على طريقةِ الحكايةِ بالمعنَى؛ حيث كانَ المأخوذُ عليهم هذا العهدَ، غائبينَ في وقتِ الإخبارِ عنهم[3].

بديع تعاضد العطف والإضمارِ والنَّهي في تجلية المعنى:

في التعاضد مبالغةٌ في إيجاب البيان على اليهودِ فكتمانُ العلم هلكةٌ وجفاءٌ، وبذلُهُ صلةٌ ورفعة وسناء

أفادَ العطفُ، والإضمارُ، والنَّهيُ المبالغةَ في إيجاب البيان على اليهودِ، في ذكرِ دلائلِ نبوّتهِ ﷺ وعدم كتمانها، وذلك واضحٌ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾، وهو عطفٌ على جوابِ القَسَم ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾، لكنَّه لم يؤكّد قبلَه لسببَيْن: الأوَّل: كونُه منفيًّا، كما لو قيل: واللهِ لا يقومُ زيدٌ[4]، والثَّاني: اكتفاءً بالتَّأكيدِ في الأوَّل؛ لأنَّه تأكيدٌ له[5]، ويُمكنُ أن يكون: ﴿وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ حالًا من ضمير المُخاطَبين؛ إمَّا على إضمارِ مبتدأٍ بعدَ الواو، أي: وأنتُم لا تَكْتمونَه، وإمَّا على رأيِ مَنْ جَوَّزَ دخولَ الواوِ على المضارعِ المَنفيّ عندَ وقوعِه حالًا، أي: لَتبيِّنُنَّه غيرَ كاتمين، وجاءَ النَّهيُ عنِ الكتمانِ بعدَ الأمرِ بالبيان؛ إمَّا للمبالغةِ في إيجابِ المأمورِ به، وإمَّا لأنَّ المرادَ بالبيانِ المأمورِ به ذكرُ الآياتِ النَّاطقة بنبوَّته ﷺ، وبالكتمانِ المنهيِّ عنه إلقاءُ التَّأويلاتِ الزَّائغةِ والشُّبهاتِ الباطلة[6].

---

(1) التّهانويّ، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 2/1317.

(2) الأُولى قراءةُ الجمهور، والثّانيةُ قراءة ابن كثير وأبي عمرو وأبي بكر شعبة عن عاصم، ينظر: مكيّ، الكشف: 1/371، وابن زنجلة، الحُجَّة، ص: 185 - 186.

(3) النّحاس، إعراب القرآن: 1/425.

(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/124.

(5) العكبري، التبيان: 1/161.

(6) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/125.

سرُّ تقديم التّبيان على عدم الكتمان:

رُوعي في الترتيب أنّ نفيَ الأعمّ، يستلزمُ نفيَ الأخصّ، وثبوتَ الأخصّ يستلزمُ الأعمّ؛ دفعًا للتوهّم

ترتيب الآية الكريمة مقصودٌ ولا يؤدّيه عكس المعنى بأن يُستبدلَ اللّفظُ الثّاني باللّفظ الأوّل، فيكون كالآتي: (وَلَا تَكۡتُمُونَهُ وعليكم أن تبيّنوه لِلنَّاسِ)، قال البسيليّ موضّحًا نكتة الترتيب بأنّه: "رُوعي فيه ما تقرّر، من أنّ نفيَ الأعمّ يستلزمُ نفيَ الأخصّ، وثبوتَ الأخصّ يستلزمُ الأعمّ؛ لأنّ البيانَ، وعدم البيان، إمّا بكتم الكتاب عنهم من أصل، وإمّا بإلقائه لهم مبهمًا غير مُبيَّن. فلمّا أمر بالبيان، تُوُهِّم أنّهم ما بيّنوا للأمّة إلّا ما سمعوه منهم، وأمّا ما لم يبلغ النّاس، فلا يلزمُهم تبيانه لهم، فقيل: ولا تكتموا عنهم ما بلغكم منهم، ولم يشعروا هم به؛ لئلّا يقال: أنّهم ما يجبُ عليهم أن يُبلّغواْ للنّاس إلّا آيات التّكليف، وما يتعلّقُ به حكم من وعدٍ ووعيدٍ ونحوه، فيبلّغون لهم ذلك، ويبيّنونه، ليعلمُوه، ويعمَلُوا بمقتضاه، وما سوى ذلك من القِصص الخارجة عن أمور التّكليف العلميّة والعمليّة، فليس بواجبٍ عليهم تبليغه، فاحترز من ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾، وأجيب أيضًا: بأنّ المرادَ: ليبيّنُنَّه لعوامّ النّاس، ولا يكتمونه عن خواصّهم؛ أي: ألقوه مبيَّنًا، وغير مبيّن بحسب الحاضرين، أو أمروا ببيان ما نُزِّل منه، أو ألقوه؛ لأنّهم كانوا يلقونه لهم غير مُبيَّن، وأن لا يكتموا عنهم ما يُنزَل منه في المستقبل"(1).

بيان معنى العطف بالفاء:

دلالة العطف المسارعة إلى النبذ، وبيان سوء اليهود بإضاعة كتابهم باستدبارهم إيّاه إهمالًا وتحريفًا

أفادَ العطفُ في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ بيانَ سوء اليهودِ في اسْتِدْبارِهم لكتابِهم، إضاعةً وإهمالًا وتحريفًا، والَّذينَ نَبَذوه هم علماءُ اليهودِ في عصورِهمُ الأخيرةِ القريبةِ من عهدِ الرِّسالةِ المحمَّديَّة، فالتَّعقيبُ الَّذي بينَ أخذِ الميثاقِ عليهم، وبينَ نَبْذِهم إيَّاه، مَنظورٌ فيه إلى مُبادَرتِهم بالنَّبذِ، عَقِبَ الوقتِ الَّذي

(1) البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 607.

تحقَّقَ فيهِ أثَرُ أخذِ الميثاقِ، وهو وقتُ تأهُّلِ كلِّ واحدٍ من علمائِهم، لتَبيينِ الكتابِ وإعلانِه، فهو إذا أنِسَ من نفسِه المَقدرةَ على فهمِ الكتابِ والتَّصرُّفِ في معانيه، بادَرَ باتِّخاذِ تلكَ المقدرةِ وسيلةً لِسُوءِ التَّأويلِ والتَّحريفِ والكتمانِ، ويجوزُ أن تكونَ الفاءُ مُستعملَةً في لازمِ التَّعقيب، وهو شدَّةُ المسارعةِ لذلكَ عندَ اقتضاءِ الحالِ إيَّاه، والاهتمامُ به، وصَرْفُ الفكرةِ فيه، ويجوزُ أن يكونَ التَّعقيبُ بحسبِ الحوادثِ، أساؤُوا فيها التَّأويل، واشْتَرَوا بها الثَّمنَ القليلَ؛ لأنَّ الميثاقَ لَمَّا كانَ عامًّا كانتْ كُلُّ جُزئيَّةٍ مأخوذًا عليها الميثاق، فالجُزئيَّةُ الَّتي لم يَعمَلُوا فيها بالميثاقِ يكونُ فيها تعقيبُ ميثاقِها بالنَّبذِ والاشْتراء[1].

بلاغة الاستعارة التّرشيحيّة في لفظ (النبذ):

وجه الاستعارة التّرشيحيّة استعمالُ لفظ (فنبذوه) لإخلافِ العَهدِ

النَّبذُ وراءَ الظَّهرِ مَثَلٌ في الطَّرْحِ وتركِ الاعْتدادِ، ونَقيضُه: جعله نُصْبَ عَيْنَيه، وألقاهُ بين عَينيه، وهو هنا مُستعارٌ لعدَمِ العملِ بالعهدِ، تَشْبيهًا للعهدِ بالشَّيءِ المَنبوذِ في إضاعتِه وعدمِ الانتفاعِ به[2]، وشأنُ الشَّيءِ المرغوبِ عنه أن يُستَدبَرَ ولا يُلتفتَ إليه، وفي هذا التَّمثيلِ ترشيحٌ لاسْتعارةِ النَّبذِ لإخلافِ العَهْد[3].

خصائصُ الفعلِ (نَبَذَ)، وأثرُه في بيان هذه الآية:

نبذُ الكتابِ وراءَ الظّهورِ، تَخَلٍّ عن أمانةِ التّكليفِ المقدّسةِ

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ من الفعل (نَبَذَ)، ولهذا الفعل خصائصُ عجيبةٌ، فهو في الأصل بمعنى الطّرحِ، يقال: نَبَذَ الشّيءَ من يده، أي طرحَهُ ورَمَى به، ومن مجازِ هذا الفعل، قولهم: (نَبَذَ أمري وراءَ ظَهرِه)، إذا لم يعمل به، ومنه قوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾، قالوا: ويتعيّن أن يكونَ نَبَذَ من

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/191 - 192.

(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/486.

(3) وهو ما يُسمَّى بالاستعارة التَّرشيحيَّة، وهي كذلك هنا من قَبيل الاستعارة المكنيَّة، حيث حذف المشبَّه به وهو الإنسان، ورمز إليه بشيءٍ من لوازمه وهو الظَّهر، وذكر معها ما يلائم المشبَّه به وهو الميثاقُ، الَّذي يعود إليه الضمير: (الهاء) في قوله: ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ ومن ذلك يتَّضح أنّ الاستعارة سواءً أكانت مكنيَّة أم تصريحيَّة، إذا استوفتْ قرينتها، وذُكر معها ما يلائم المشبَّه به، فإنّها تُسمَّى استعارةً مرشَّحة، ينظر: عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص: 186 - 187.

أفعال التّحويل، أو التّصيير، لدلالتها على الانتقالِ من حالةٍ إلى حالةٍ أخرى، وعلى هذا، فـ ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ مفعولٌ به أوّل، و﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ مفعولٌ به ثانٍ، ويبعدُ بل يتعذّرُ جعله ظرفًا لـ(نَبَذَ)؛ لأنّ الظّرف لا بدّ أن يكون حاويًا لفاعل العامل فيه، والنّابذون غير كائنين وراءَ ظُهورهم، على أنّ بعضَ النّحاة لا يشترِطُون وجودَ الفاعل والمفعول في الظّرف، وقال ابنُ حجر في شرح المنهاج: "ولك أن تقولَ: إنّ للقاعدة وجهًا وجيهًا، لأنّ ظرفَ المكان من الحسّيّات، فإذا جُعل ظرفًا لفعل حسّيٍّ متعدّ، لزم كونُ الفاعل والمفعول فيه، لأنّ الفعلَ المذكورَ لا يتحقّقُ إلّا بوجودهما، بخلافِ الفعل المعنويّ؛ فإنّه أجنبيّ من الظّرفِ الحسّي، فاكتفى بما هو لازمٌ له، لكلّ تقدير، وهو الفاعل فقط"[1].

بلاغة المجاز المرسل في لفظ الاشتراء:

وجه المجاز بيان حرص اليهود على الثَّمنِ القليل، والزهد في بيانِ ما أمرَهُمُ اللهُ ببيانِه في التَّوراة

الاشْتراءُ في قوله: ﴿وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧﴾ مجازٌ مُرْسَلٌ[2]، بعلامةِ اللُّزوم، أُطلِقَ الاشْتراءُ على لازِمِه الثَّاني، وهو الحِرصُ على شيءٍ، والزُّهدُ في ضِدِّه، أي: حَرَصوا (اليهودُ خاصّةً) على الثَّمنِ القليل، وزهِدُوا في بيانِ ما أمرَهُمُ اللّه ببيانِه في التَّوراة - بعدَ أنْ أخذَ اللّه عليهمُ الميثاقَ بذلك - مقابلَ الرُّشَى والجوائزِ من أهلِ الأهواءِ والظُّلم، من الرُّؤساءِ والعامَّة من أجل تأييدِ المظالِم والمفاسدِ بالتَّأويلاتِ الباطلة، وتأويلِ كُلِّ حكم فيه ضَرْبٌ على أيدي الجبابرَةِ والظَّلَمةِ، بما يُطلقُ أيديهم في ظلمِ الرَّعيَّةِ، من ضُروب التَّأويلاتِ الباطلة، وتحذيرات الَّذين يَصْدَعون بتغييرِ المنكرِ.

دلالة الجار والمجرور ﴿بِهِۦ﴾:

المعنى: بيانُ كمالِ فظاعةِ حالِ أهلِ الكتاب، وغايةِ قُبحِهم

وفي دخولِ الباءِ على الكتابِ الَّذي دلَّت عليه الهاء، في ﴿بِهِۦ﴾ والَّذي من حقِّه أنْ يتنافسَ فيه المتنافِسونَ، جَزَالةٌ وأيُّ جَزَالة، ودَلالةٌ أيُّ دَلالةٍ، على كمالِ فظاعةِ حالِ أهلِ الكتاب، وغايةِ قُبحِهم،

(1) درويش: إعراب القرآن وبيانه: 1/155.

(2) تقدَّم بيانُ المجازِ المرسَل، بعلاقة اللُّزوميّة في فقرة الإيضاح اللُّغويّ والبلاغيّ في [آل عمران: 177].

بإيثارهمُ الدَّنيءَ الحقيرَ على الشَّريفِ الخطير، وتعكيسِهم بجعلِهم المقصَدَ الأَصْليَّ وسيلةً، والوسيلةَ مَقصَدًا، ما لا يَخفى جلالةُ شأنِه، ورِفعةُ مكانِه، وجاءتْ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ صفتَه، والمخصوصُ بالذَّمِّ محذوف، تقديرُه: (بِئْسَ شيئًا يشترونَه ذلكَ الثَّمن)[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّبيين والإظْهار

سبقَ بيانُ الفعلِ ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ في فِقرة: شرح المفردات، وأمَّا (الإظهارُ) فهو من قولِنا: ظهرَ الشَّيءُ؛ أي: بَرَزَ، وأصلُه: أنْ يحصُلَ شيءٌ على ظهرِ الأرضِ فلا يَخفى، ومقابلُه أنْ يُقالَ: بَطَنَ؛ إذا حصَلَ في بُطْنانِ الأرضِ فيَخفَى، ثمّ صارَ مُستعمَلًا في كلِّ بارزٍ مُبصَرٍ بالبَصَرِ والبَصيرة، قالَ تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾ [الأنعام: 151]، وقالَ سُبحانه: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: 7]؛ أي: يعلمونَ الأمورَ الدُّنيويّة دونَ الأُخرَويَّة، وقولُه تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجن: 26]؛ أي: لا يُطلِعُ عليه[2]، وممَّا تقدَّم يتبيَّنُ لنا أنَّ (التَّبيينَ)، أَوْقعُ أثَرًا في سياقِ النَّصِّ القرآنيِّ من (الإظهار)؛ لأنَّ التَّبيينَ معناه الكشفُ عن المعنَى المَقصود، وقد يكونُ شَرحًا لما أُبهِمَ أو أُجمِلَ، أو تخصيصًا لعامّ، أو تقييدًا لِمُطلَق، فهو إظهارٌ وزيادةٌ، وليس مجرَّدَ إظهارٍ فَحَسْب.

الكِتمان والإخفاء والإسرار[3]:

تحدّث القرآن فيما سبق عن المنافقين في كتمانِهم للكفر، وإظهارِهم للإيمانِ خداعًا وزورًا، باستعمال لفظ الكتمان، لكنّه هنا يتحدّث عن أهل الكتاب، وخاصَّةً اليهودَ في كتمانِهمُ العلمَ الحقَّ الَّذي أنزلَه اللّه عليهم في كتابِهم، وتحريفِهم للحقائق، وكَذِبِهم في إظهارِ الأحكام على غيرِ وجهِها الصَّحيح، مع أنَّ اللّهَ أخذَ عليهمُ الميثاقَ، أن يُبيِّنوا

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/125.

(2) الرَّاغب، المفردات، ص: 541.

(3) تبيَّنَ لنا فيما سبقَ في فِقرة: الفروق المعجميَّة في [آل عمران: 167]، الفرق بين: (الكِتمان) و(الإخفاء) و(الإسرار)، وكلا السِّياقين هناك وهنا، يتكلّم عن كتمان الحقِّ، إلَّا أنَّه في السِّياق السَّابق، جاء في معرض الكلام عن المنافقين، وفي هذا السّياق جاء كلامًا عن اليهود المشاكسين، فلا يعتبر إدراجه هنا تكرارًا.

ولا يَكتُمواْ، والكِتمانُ يختصّ بالمعاني والأخبارِ، ولا يُستعمَلُ إلّا فيهما، خلافَ الإخفاءِ والإسرارِ، ومن ذلك خبرُ البِشارةِ برسولِ اللّهِ ﷺ في كتابِهم، ولكنّهم طَرَحُواْ ذلكَ كلَّه وراءَ ظهورِهم إهمالًا وتَضْييعًا، واسْتبدَلوه بما دونه اسْتخفافًا وجَوْرًا، قال ابن عادل الدّمشقيّ: "قال القاضي: الكتمانُ ترك إظهار الشَّيء مع الحاجةِ إليه، وحصول الدّاعي إلى إظهاره؛ لأنَّه مَتَى لم يكن كذلك، لا يُعَدُّ من الكتمان، فدلَّت الآية على أنَّ ما يتَّصلُ بالدِّين، ويحتاجُ المكلَّف إليه، لا يجوزُ كتمانه"[1].

النَّبذ والطَّرْح

النَّبذُ: اسْمٌ لإلقاءِ الشَّيءِ استهانةً به، وإظهارًا للاستغناءِ عنه[2]، وهذا هو واقعُ الحالِ الَّذي كان عليه أهلُ الكتاب، وخاصَّةً اليهود، وكما صوَّرتْه لنا الآيةُ الكريمة وسياقُها في خيانتِهم لميثاقِ ربِّهم، وكِتمانِهم لما أمرَهمُ اللّهُ به من البَيان، ولكنَّهم أَلْقَوْه استهانةً به واستغناء عنه،، وهذا المعنى بحذافيرِه لا تُحقِّقُه كلمةُ (الطَّرح) ولا الفعلُ (طَرَحوه)؛ لأنَّ الطَّرحَ اسْمٌ لجنسِ الفعل، وهو يكونُ بالاسْتهانةِ وغيرِها، وليس خاصًّا بمعنَى إظهارِ الاسْتغناء عن الشَّيء[3]، والنّبذُ عبّر عنه السّياق بقوله ﴿فَنَبَذُوهُ﴾، بعد ما لزمهم تلقّيه بالقبول، كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ أنّه كتابُ اللّه لا يدخلهم فيه شكّ، يعنى أنّ علمهم بذلك رصينٌ، ولكنّهم كابرواْ وعاندواْ، ونبذُوه وراء ظُهورهم، فمثّل لتركِهم وإعراضِهم عنه، بما يُرمى به وراءَ الظّهر، استغناءً عنه، وقلّةَ التفاتٍ إليه، وعن الشّعبي: هو بين أيديهم يقرؤُونه، ولكنّهم نبذواْ العمل به، وعن سفيان: أدرجُوه في الدّيباج والحَرير، وحلّوه بالذّهب، ولم يحلُّواْ حلالَه، ولم يحرّمواْ حرامَه"[4].

اشْترى وبدَّلَ

هنا حديثُ القرآن عن اشْتراءِ أهلِ الكتابِ الثَّمنَ البخْسَ بالكتاب، بما فيه من علم الشَّريعةِ الَّذي أخذَ اللّهُ عليهمُ الميثاقَ أن يُبيِّنواْ ما فيه ولا يَكتُموه، فالعلَّةُ واحدةٌ؛ وهي

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 3/104.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 530، والرَّاغب، المفردات، ص: 788.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 530.
(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/171.

استبدالُ الَّذي هو أدْنى بالَّذي هو خير، وهذا ما يُحقِّقه من حيث المعنَى الدَّقيقُ الفعلُ (اشْترى) دونَ (استبدل)؛ لأنَّ الشِّراء أعمُّ من الاستبدال؛ وفيه دفعٌ للثَّمن، وأيُّ ثمن!! إنَّه دَفْعُ أهلِ الكتابِ كتابَ ربِّهم بما فيه من علم الشَّريعة وأحكامها، من أجل ثمنٍ قليلٍ من الرُّشى والوَجاهات، وتحريفِ الأحكامِ وتعطيلِها، مقابلَ إرضاءِ الطُّغاة والظَّالمين؛ لتحقيقِ أطماعِهم، وتسويغِ تسلّطهم، وتبرير قمعهم لأقوامهم.

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨﴾

[آل عمران: 188]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين نبذِ اليهود ما كُلّفوا ببيانه، وفرحهم بما خادعُوا به المسلمين

بعد أن بيَّن اللّه ﷻ في الآية السَّابقة، اختلالَ أمانةِ أهل الكتاب في تبليغ الدِّين، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ تكملةً لأحوالهم؛ حيث يفعلون الشَّرَ، ويُوغلون في الظُّلم، والصَّدِّ عن سبيل اللّه، ثمَّ يترقَّبونَ ثناءَ النَّاسِ على سوء صنيعهم، ويتطلبَّونَ المَحمدَة على ما لم يفعلوه من الخَير، و"إيذاء أهل الكتاب للنّبيّ كثيرٌ، والعجيبُ أن يطعنواْ في الدّين، وهم قد أمرُوا بأن يشرحُواْ للنّاس، ويُبّينوا حقيقةَ النّبيّ ﷺ وصفتَه الّتي في كتبهم، ولكنّهم فرحُواْ بما أوتواْ وكتمُواْ ما أُنزل عليهم"[1]، ومن تطلّب المدحَ بما لم يفعل، فهو مغرورٌ مخدوعٌ، ولا يمكنُه النّجاةُ من العذابِ المحتوم، جزاءَ ما قدّمت يداه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِمَآ أَتَواْ﴾: معناها بما فعلوا في إضلال النّاس، "وتلك طبيعة الضّال دائما، فالضّال يفرح بكلّ ما يعمله، ويزيَّنُ له سوءُ عملهِ فيراهُ حسنًا، ويحبّ أن يُحمد بما لم يفعل"[2]، و﴿بِمَآ أَتَواْ﴾ هي قراءة أبيّ بن كعب، وقرأ النّخعيّ ﴿بِمَآ أَتَواْ﴾ أي أَعطوا[3]، وقراءة سعيد بن جبير: (أُوتُواْ) بمعنى: (أُعطوا) بضمِّ الهمزة والتّاء، وعلى قراءته يستقيم المعنى الّذي قال، وهو أنّ" الآية في اليهود، فرحوا

(1) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 1/319.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1543.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/319.

بما أعطى اللّه آل إبراهيم من النّبوءة والكتاب، فهم يقولون: نحن على طريقهم، ويحبّون أن يحمدوا بذلك، وهم ليسوا على طريقتهم"[1]، ومعنى اللّفظ في الآية متّصل بمعناها العامّ، "فهم أهلُ الكتاب أُنزل عليهم الكتاب، فحكَمُوا بغير الحقّ، وحرّفوا الكلمَ عن مواضعه، وفرِحُوا بذلك، فرحوا بأنّهم كفرُوا بمحمّد، وما أنزل إليه، وهم يزعُمُون أنّهم يعبدون اللّه، ويصومون ويصلّون ويطيعون اللّه، فقال تعالى لمحمّد: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ كفروا باللّه، وكفروا بمحمّدٍ"[2]، فذلك ما فعلوه على الحقيقة.

2) ﴿بِمَفَازَةٖ﴾: المَفَازةُ من الفوز: الظَّفَرُ بالخيرِ، مع حصولِ السَّلامة، وقولُه تعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾، فهي مصدرُ فازَ، والاسمُ: الفَوْزُ؛ أي: لا تحسبَنَّهم يَفوزونَ ويتخلَّصونَ من العذاب، يعني: ليسواْ بمنجاةٍ من العذاب، وفي قولِه تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١﴾ [النبأ: 31]؛ أي: فوزًا، أو مكانَ فوزٍ، ثم فُسِّرَ فقال: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢﴾ [النبأ: 32][3]، وقوله: ﴿بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾؛ أي بمنجاة منه؛ لأنّ النّجاةَ من أعظم الفلاح، وسببُ منجاتهم العملُ الصّالحُ، ولهذا فسّر ابن عبّاس رضي اللّه عنهما المفازةَ بالأعمالِ الحسنةِ، "ويجوزُ بسبب فلاحهم؛ لأنّ العملَ الصّالحَ سببُ الفلاح، وهو دخولُ الجنّة، ويجوزُ أن يسمّى العمل الصّالح في نفسه مفازة، لأنّه سببُها"[4].

المَعۡنَى الإِجۡمَالِيُّ:

بيان المصير المخزي لأهل الكتاب، الطّامعين في الحمد بما لم يفعلوا

هذا فريقٌ آخرُ من أهلِ الكتاب عبَّرَ عنهم بيانُ اللّهِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، للتّوصُّلِ إلى أنّهم جَمعُوا بين فعلِ الشَّرِّ وقولِه، والفَرَحِ بذلك، ومحبَّةِ الثَّناءِ على فعلِ الخيرِ الّذي ما فعلوه[5]، وخلاصة المعنى: أنّه يقول: لا تظننّ فرحَهم بما كان منهم من الأعمال، سيؤول بهم إلى النّجاة في العقبى، وهم مخطئون في اعتبار أنفسهم من الصّلحاءِ المرضيين، فهم يحبّون أن يحمدُواْ بما لم يفعلُوا، ويتكلّفون

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/552.
(2) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 3/838.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 647 - 648، وابن منظور، اللّسان: (فَوَزَ).
(4) الزّمَخشري، الكشّاف: 4/140.
(5) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن: 2/126.

التّقوى والصّلاح، وما هم بالأتقياء ولا بالصّلحاءِ، بل تراهم يسلكون مسلكًا من التّظاهر الزّائف، والرّياء البرّاق، فلا تحسبنّهم بمنأى عن العذاب، في يوم الحساب؛ لأنّ أعمالهم ستردّ عليهم، وتكون هباءً منثورًا، وسيؤولون إلى العذابِ الشّديدِ، والهوان الأكيد، لمزاولتهم الرّياء وقيامهم بتزييف الحقائق[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أثرُ القراءة القرآنيّة في إثراءِ المعنَى:

المعنيُّ بقراءة الياء الفرحون، والمعنيُّ بقراءة التاء النبيّ محمَّدٌ ﷺ

وفي قولِه: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾ قراءتان[2]: الأُولى: (لا يَحسَبَنّ) بالياء، والثّانية: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾ بالتَّاء، فمن قرأ بالياء؛ فمعناه: لا يَحسَبَنَّ الفارِحونَ فَرحَهم مُنجيًا لهم من العذاب، ومن قرأ بالتَّاء؛ فمعناه: لا تَحسَبَنّ يا محمَّدُ ﷺ الفَارحين فرَحَهم، بمفازةٍ من العذاب، وخبرُه في الباء[3].

تحتمل قراءة التاء العموم؛ لِيَعُمَّ كلَّ مُخاطَب، وفيه تشويقُ السَّامع إلى سماعِ المَنهيِّ عن حُسبانه

ويجوز على قراءةِ الجُمهور: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾ - بتاء الخطاب - أن يكون خطابًا لغيرِ مُعيَّن، لِيَعُمَّ كلَّ مُخاطَب، ويكونَ تكرارُ فعلِ الحُسبان في قولِه: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم﴾ اعتراضًا بالفاءِ أيضًا، والخطابُ للنبيِّ ﷺ مع ما في حَذفِ المفعولِ الثَّاني، لفعلِ الحُسبانِ الأوَّل، وهو محلُّ الفائدة، والبلاغة الرَّاقية من تشويقِ السَّامعِ إلى سماعِ المَنهيِّ عن حُسبانه[4].

توجيه قراءة ضمّ الباء في قولِه: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم﴾:

في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم﴾ قراءتان[5]: الأُولى: بالتَّاءِ

(1) ابن الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 87 (بتصرّف).
(2) الأولى قراءة ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبي عمرو، وأبي جعفر، والثّانية قراءة الباقين من العشرة، ينظر: الفارسيّ، الحجّة: 3/101، وابن الجزري، النّشر: 2/244.
(3) ابن زنجلة، الحُجَّة، ص: 186 - 187، وابن الباذش، الإقناع: 2/625، ومكيّ، الكشف: 1/369.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/194 - 195.
(5) الأولى: قراءة الجمهور، والثّانية: قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، ابن مهران، المبسوط، ص: 149، وابن فارس، الحُجة: 3/100 - 101.

وفتحِ الباء، إعادةُ توكيد، والثَّانيةُ: بالياءِ وضمِّ الباء، خبرًا عن الفارحين؛ أي: فلا يَحسَبُنَّ أنفُسَهم[1]، وأفادتْ قراءةُ الجمهور بفتح الباء المُوَحَّدة، في قولِه: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم﴾، أنَّ الفعلَ لخطابِ الواحد، وهو إعادةُ تَوكيد، وأفادتْ قراءةُ غيرِهم، بضمِّ الباءِ المَوَحَّدَة في قوله: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم﴾ أنَّ الخطابَ للجَمعِ، وحيثُ إنَّ الفريقين قَرَأا أوَّلَه - بياءِ الغَيْبَة - فَضَمُّ الباء عندئذٍ يجعلُ فاعلَ (يَحسَبنَّ) ومفعولَه مُتَّحدَيْن، أي: لا يَحسَبونَ أنفُسَهم، واتِّحادُ الفاعلِ والمفعولِ به للفعلِ الواحدِ من خصائصِ أفعال الظَّنِّ، كما هو معلومٌ، وكما هو هنا[2].

سرّ التعبير بالاسم الموصول:

عمومُ هذه الآيةِ يتناولُ خيبة فَرَحِ كُلِّ مؤمّل، أن يَحمدَه النَّاسُ بما لم يفعل

جاء البيانُ الإلهيُّ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾؛ ليُعبِّرَ عنِ المذكورينَ، أَوْ عن مشاهيرِهم، من أهلِ الكتاب - واليهود خاصَّةً - بما هو حالُهم العجيبةُ مِن حالِ مَن يَفعل الشَّرَّ والخِسَّةَ، ثمّ لا يقفُ عند حدِّ الانْكسار لما فعلَ، أو طلبِ السِّترِ على شَنعتِه؛ بل يرتَقي فيَترقَّبُ ثناءَ النَّاسِ على سوءِ صُنعِه، ويتطلَّبُ المحمدَةَ عليه، فالموصول هنا بمعنى المعرف بلام العهد؛ لأنه أريد به قوم معينون من اليهود أو المنافقين[3].

فقد وردَ عنِ ابن عباس - رضي الله عنهما - أنَّه قال: «إنَّما دعا رسولُ اللهِ ﷺ يهودَ، فسألَهم عن شيءٍ، فَكتموه إيَّاه، فأخبرُوه بغيرِه، وأرَوْه أنَّهم أخبروه بما سألَهم عنه، ليستَحمِدوا بذلكَ إليه، وفَرِحوا بكتمانِهم إيَّاه ذلك، فنزلتْ فيهم هذه الآية»[4]، ووردَ أنَّ المرادَ بهم المنافقونَ، كما روى أبو سعيدٍ الخُدْرِيُّ - رضي الله عنه - : "أنَّ رجالًا من المنافقينَ كانوا إذا خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى الغزوِ، تخلَّفوا عنه، وفرِحُوا بِمَقعدِهم

(1) النّيسابوريّ، باهر البرهان: 1/340، وابن الأنباري، البيان في غريب إعراب القرآن: 1/233.

(2) ابن خالويه، إعراب القراءات السَّبع: 1/125، وابن الأنباري، البيان في غريب إعراب القرآن: 1/233، وابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/195.

(3) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/193.

(4) البخاريُّ، الحديث رقم: 4568، ومسلم، الحديث رقم: 2778.

خلافَ رسول اللّه ﷺ، فإذا قدمَ رسولُ اللّه ﷺ من الغَزْوِ اعتَذروا إليه، وحَلَفُوا وأَحَبُّواْ أن يُحمَدُوا بما لم يَفعَلوا؛ فنزلتِ الآية"[1]، ويمكنُ الجمعُ بين هذين القولَيْن بأن تكونَ الآيةُ نزلتْ في الفريقَيْن معًا، وعمومُ هذه الآيةِ أَوْلى بأن يَتناولَ كلَّ مَنْ أتَى بحسنَةٍ، ففرحَ بها فَرَحَ إعْجاب، وأحبَّ أن يَحمدَه النَّاسُ، ويُثْنُواْ عليه بما ليس فيه.

سرّ إعادة فعل الحسبان:

إعــادة الفعل (تَـحـسَـبَنَّ)؛ لتوكيدِ الحكم الــواقــع على اليهود وتقريرِه، وإلصاقِه بهم

وقوله تعالى ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾، هو بدل من قوله سبحانه: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾، وإعادة الفعل ﴿تَحۡسَبَنَّ﴾، هنا لتوكيدِ الحكم الواقع عليهم وتقريره، وإلصاقِه بهم، بعد أن طال الفصل بالمفعول الأوّل ومتعلّقاته، بين الفعل (حسب) ومفعوله الثّاني[2]، وعلّة ذلك أنّه إذا طال الفصلُ من الكلام، وكان أوّله يفتقرُ إلى تمام، لا يفهم إلّا به؛ فالأولى في باب الفصاحة، أن يعادَ لفظ الأوّل مرّة ثانيّة؛ ليكون مقارنا لتمام الفصل؛ كي لا يجيء الكلام منثورًا؛ فالإعادة أحسنُ في حكم البلاغة والفصاحة؛ فإن لم يُعد اللفظُ مرّة ثانيّة، لم يأتِ على الكلام بهجةٌ ولا رونقٌ، وهذا لا يتنبّه لاستعماله إلّا الفصحاء، إمّا طبعًا وإمّا علمًا[3].

بلاغة الإيجاز في حذف المفعول:

وجه الاستغناء بالمذكور دلالة ما بعده عليه، وليذهب العقلُ كلّ مذهبٍ فيما يتناسب مع وصفه تعالى لهم

جاءَ تركيب الآية: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾ على نَظم بديع، إذْ حُذِفَ المفعولُ الثَّاني، لفعلِ الحُسبانِ الأوَّل، لدَلالة ما يدُلُّ عليه وهو مفعولُ ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم﴾، والتَّقديرُ: لا يحسبَنَّ الَّذين يفرحون أنفُسَهم بمفازةٍ[4]، و"المفعول الثّاني محذوفٌ دلّ عليه

---

(1) البخاريُّ، الحديث رقم: 4567، ومسلم، الحديث رقم: 2777.

(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 2/669.

(3) ابن الأثير، المثل السائر: 2/155.

(4) العكبري، التبيان: 1/162، وابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/194.

ما بعده، وتقديرُ الكلام هكذا: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾، موفّقين أو مهتدين، أو صالحين، وحذف لدلالة ما بعده عليه، وليذهب العقلُ كلّ مذهبٍ فيما يتناسب مع الوصف الّذي وصفهم سبحانه به، وهو أنّهم يزيّنون أعمالهم، ويرغبُون في المدح الكاذب، فإنّ ذلك هو الضّلالُ البعيدُ، وليُرتّب السّامعُ عليه ما شاء من عدم الهداية، وعدم التّوفيق، والبعد عن الخير والنّفع، فكلّ ذلك وغيره، يتضمّنه الكلامُ المحذوفُ"[1].

نكتة تصدير الوعيد بالنّهي عن الحُسبان:

وجه التصدير بالنهي؛ للتَّنبيه على بُطلان آرائِهم، وقطعِ أطماعِهمُ

جاء الوعيدُ في قولِه تعالى: ﴿بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾، بعد تصديرِهِ بالنَّهي عن الحُسبان في قولِه: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم﴾، للتَّنبيه على بُطلان آرائِهمُ الرَّكيكَة، وقطعِ أطماعِهمُ الفارِغة؛ حيث كانوا يَزعُمونَ أنَّهم يَنجُون بما صَنعُوا من عذابِ الآخرة، كما نَجَوْا به من المؤاخذةِ الدُّنيويَّة، وعليه كان مَبْنَى فَرَحِهم.

وجه النّهي التَّعريض بحُسبانِهمُ المذْكور، لا لاحتمالِ وُقوعِ الحُسبانِ من جهتِه ﷺ

وأمَّا نَهيُه ﷺ فهو للتَّعريضِ بحُسبانِهمُ المذْكور، لا لاحتمالِ وُقوعِ الحُسبانِ من جهتِه ﷺ.

دلالة حرف الجرّ ﴿مِّنَ﴾:

معنى (من) البدلية، أو تضمين معنى (عن)

قال ابن عاشور: "ولما كانت المفازة مجملة بالنسبة للفوز الحاصل فيها بَيَّن ذلك بقوله: ﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾، وحرف ﴿مِّنَ﴾ معناه البدلية، مثل قوله تعالى: ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ٧﴾ [الغاشية: 7]، أو بمعنى (عن) بتضمين (مفازة) معنى منجاة"[2].

سرّ تقديم الجار والمجرور:

وتقديم الجار والمجرور ﴿وَلَهُمۡ﴾ في قوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾: "

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1543.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/194.

للتنبيه على أنه خبر لانعت حتى يستقر بمجرد سماع المبتدأ العلم بأن ذلك من صفاتهم فلا تلهو النفس عن تلقيه"[1].

بلاغة إيثار صيغة الصفة المشبّهة على صيغة المفعول:

وجـه التقديم التـنـبـيـه على خبريّة الجملة؛ لإثـبـات صفة العذاب فيهم

والأليم فعيل بمعنى مفعول؛ لأن الأكثر في هذه الصيغة أن الرباعي بمعنى مفعل وأصله عذاب مؤلم بصيغة اسم المفعول، أو هو فعيل بمعنى فاعل من ألم بمعنى صار ذا ألم[2]، وصيغة فعيل في الصفة المشبهة تدلّ على أنّ الوصف قد وقع على صاحبه على وجه الثبوت أو قريب من الثبوت فأصبح فيه كالسجيّة والخلقة والطبيعة؛ وعلى هذا تكون أبلغ في الوصف وأشدّ من صيغة مفعول، وهي صفة لا تُطلق إلا إذا اتّصف صاحبها بها، على خلاف صيغة مفعول فإنه قد يطلق على ما اتّصف به صاحبه أو لم يتّصف، بمعنى: أنه سيتّصف[3].

إيـثـار صيغة فـعـيـل لـبـيـان ثـبـوت صـفـة العذاب فيهم، وتحقّق وقوعها لهم

بلاغة المجاز العقلي في الفاصلة:

والتعبير عن الإيلام بصيغة اسم المفعول، أي: مؤلمٌ من يُعذَّبُ به جاء على طريقة المجاز العقلي؛ لأن المؤلم هو المعذَّب دون العذاب كما قالوا جَدَّ جِدُّه[4].

طـريـقـة المجاز الـعـقـلي؛ لأن المؤلم هو المعذِّب دون العذاب

بلاغة التوكيد في الفاصلة:

وقولُه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، بعدَما أُشيرَ إلى عَدَمِ نجاتِهم من مُطلَقِ العذاب، حُقِّقَ أنَّ لهم فَردًا منه لا غايةً له في المُدَّةِ والشِّدَّة، كما تلوّحُ به الجملةُ الاسميَّةُ، وتقديمُ شِبهِ الجملةِ عليها، والتَّنكيرُ التَّفْخيميُّ والوَصْف[5]."وفي قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، توكيدٌ للحكم الّذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ

وجـه التوكيد؛ دفعُ توهّم ظنيّة فعل الحسبان بتحقّق العذاب

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 1/282.
(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 1/282.
(3) د. فاضل السامرائي، معاني البنية: 60 - 63.
(4) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 1/282.
(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/126 - 127.

﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾؛ إذ إنّ الفعل (حسب) فيه معنى الظنّ، الّذي يقع من جهة من ينظر إلى اليهود، فيرى أنّهم أصحابُ دين وأهلُ كتاب، وأنّهم في الوقت نفسه، مُنحرفُون في دينهم وكتابهم، وهم من أجل هذا أقربُ إلى العَطَبِ منهم إلى السّلامة، وأدنى إلى النّار منهم إلى الجنّة، هذا هو الحُكم الّذي يقع في ظنّ من يراهم، ويطّلع على أحوالهم، وهو ظنٌّ أقربُ إلى اليقين، ولكنّه مع هذا حكم غير قاطع؛ إذ لا يملكُ هذا الحكمَ القاطعَ في مصائر النّاس إلّا مالكُ الملك، وصاحبُ الأمر، اللّه ربّ العالمين، وقد جاء حكمُ اللّه فيهم، لتصدقَ ظنونُ النّاس بهم.. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، وليس العذاب وحده، هو المصير الّذي يصيرون إليه، ولكنّه العذابُ الأليمُ"[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفَرَح والسُّرور

الفرقُ بين (الفَرَح) و(السُّرور)، تقدَّم بيانُ هذا الفرق في [آل عمران آية 170]، والبيانُ الإلهيُّ هنا في هذه الآيةِ استخدمَ الفعلَ ﴿يَفۡرَحُونَ﴾، بدلَ (يُسَرُّون)؛ لأنَّ الفرحَ أكثرُ ما يكونُ في اللّذاتِ البدَنيَّة الدُّنيويَّة، وقوله: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾، "يعني: فنحاصًا وأشيع، وأشباههما من الأحبار، الّذين يفرحون بما يصيبون من الدّنيا على ما زيّنوا للنّاس من الضّلالة"[2]، أمّا السُّرورُ: فهو ما ينكتِمُ من الفَرَح[3]، وأهلُ الكتاب والمنافقون لا يَكترِثونَ، ولا يَحتَفُونَ إلَّا باللَّذات الدُّنيويَّة، وهم في حالةٍ لا يكتُمون معها فَرَحهم؛ بل يُظهرونَه، تلبيسًا منهم على أهل الإيمان، وظَنًّا منهم كذلك، أنَّ حِيَلَهم وتَزْويرَهم للحقائق الَّتي أَخْفَوْها، قد انْطلتْ على رسولِ اللّهِ ﷺ المؤيَّدِ بوحي اللّهِ تعالى وصحابتِهِ رضي الله عنهم، وهذا ما دعا بيانَ اللّهِ ليستخدمَ الفعلَ ﴿يَفۡرَحُونَ﴾، في سياقه المناسب له.

(أَتَوْا) و(أَعْطَوْا)

معنى ﴿بِمَآ أَتَواْ﴾ في هذه الآية الكريمة: أيْ بما فعلواْ في إضلال النّاس، وتحتمل معنى فرحواْ بما أعطى اللّه آل إبراهيم من النّبوّةِ والكتاب، وتحتمل معنى (أُوتُوا)،

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 2/669.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/459.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 128، و404 - 405.

بمعنى أُعطُواْ، وقال ابن عبّاس أيضا: إنّ الآية نزلت في قوم سألهم النّبي ﷺ عن شيء، فكتمواْ الحقّ، وقالواْ له غير ذلك، ففرحواْ بما فعلواْ وأحبّواْ أن يحمدواْ بما أجابواْ، وظنّواْ أنّ ذلك قد قنعَ به، واعتقدت صحّته"[1]، واللّفظ يحتمل كلّ ذلك، وينسجم به المعنى عبر السّياق، أمَّا الإعطاءُ: ففيه دليلُ التَّملُّك دونَ الإيتاء[2]، وهو بمعنَى الإنالة، كما قالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾، واخْتُصَّت العَطيَّةُ، كما اختصّ العطاءُ بالصِّلة، على نحو قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ [ص: 39][3]، وأهلُ الكتابِ والمنافقونَ الَّذي نزلتْ هذه الآيةُ في شأنِهم، فلا هؤلاءِ ولا أولئك، كانواْ يملكون شيئًا؛ فَمُنزِّلُ التَّوراة هو اللّه تعالى، وهم مُؤتمنونَ على القيامِ بما فيها من شريعةٍ في أنفسِهم، وفي غيرِهم بالبَلاغِ والبيَان، والجهادُ الَّذي أُمِرَ به المسلمون، وإنْ كان المنافقون منهم ظاهرًا لا باطنًا، هو فرضُ اللّهِ، فلا يناسبُ مع هذا كلِّه أن يُستخدَمَ الفعلُ (أعۡطَوۡاْ) بدل الفعل ﴿أَتَواْ﴾ الَّذي يستوعبُ دَلالاتٍ عديدةً، تتعلَّق بالذَّاتِ والأمرِ والتَّدبيرِ، والأَعۡيانِ والأَعۡراضِ، والخيرِ والشَّرِّ.

مَفازة ومَنْجاة

وقد سبقَ بيانُ معنى المفازة، وهي من الفوز، وهو الظَّفَرُ بالخيرِ، مع حصولِ السَّلامة، وأمَّا المَنۡجاةُ، فهي من الفعلِ نَجَا، يُقالُ: نَجَا فلانٌ من فلان، وأَنۡجيتُه ونجيتُه، قالَ تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النمل: 53]، ونَاجَيۡتُه: أصلُه من النَّجاة، وهو أنۡ تعاونَه على ما فيه خَلاصُه[4]، وممَّا تقدَّمَ يتبيَّن أنَّ اسۡتعمالَ البيانِ الإلهيِّ لكلمةِ ﴿بِمَفَازَةٖ﴾ أَوۡلى بالسِّياقِ من كلمةِ (مَنۡجاة)، فالمفازة ظَفَرٌ مع سلامة[5]، ومعناها في سياقِ النَّصِّ القرآنيّ: لا تحسبَنَّهم يَظفَرونَ، ويتخلَّصونَ من العذاب، وهذا قطعٌ بأنَّ أهلَ الكتابِ والمنافقين، لن يَظفَرواْ بخيرٍ أبدًا، ما دامُواْ على ما هم عليه من التَّحريفِ لِلكَلِم، وتزويرِ الحقائقِ، كما هو شأنُ اليهود، أو إبطانِ الكفرِ، وإظهارِ الإيمان تجمُّلًا وخِداعًا وزُورًا، كما هو حالُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/552.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 86.

(3) الرّاغب، المفردات، ص: 572.

(4) الراغب، المفردات، ص: 792 - 793.

(5) ابن منظور، لسان العرب: (فَوَزَ).

المنافقين، وفي هذا السّياق ذكر المقريزيّ في رسائله، صنفًا من النّاس وصفهم بأنّهم شرارُ الخلق، وهم المتزيّنون بأعمال الخير يراؤون بها النّاس، وهذا الضّرب يكثر فيمن انحرف عن الصراط المستقيم من المنتسبين إلى الفقه والعلم، والفقر والعبادة، فإنّهم يرتكبُون البدع والضّلال، والرّياء والسّمعة، ويحبّون أن يُحمدواْ بما لم يفعلوا، وفي أضراب هؤلاء نزلت هذه الآية[1]، وكلمةُ (مَنجاة) لا تُحقِّقُ هذا المعنَى؛ بل كما ظهرَ من قبلُ أن النَّجاةَ قد تكونُ بمعنى التَّعاون على ما فيه الخَلاص، وقد يكونُ خيرًا أو شرًّا، وليس هذا داخلًا في مفهومِ سياقِ الآيةِ الكريمة.

(1) الآية المقصودة، هي قوله تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨﴾، ينظر: المقريزيّ، رسائل المقريزيّ، ص: 108.

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٨٩﴾

[آل عمران: 189]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرّبـط بين شناعةِ أفعال أهـل الـكـتـاب، وبـيـان قـدرتـه الّتي لا يعجزُها شيء

لَمَّا بيَّن اللّهُ ﷻ في الآيةِ السَّابقةِ، شَناعةَ أفعال أهلِ الكتابِ والمنافقينَ، في تحريفِهم للحقائقِ، وحُبِّهم لأَنْ يُحمَدُواْ على ذلكَ، كان تَوَعُّد اللّهِ لهم بالعذابِ الأليم، فجاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ، لتُقرِّر مالكيّةَ اللّهِ لكلِّ شيء، وقدرتَه على كلِّ شيء، فلا يمتنع عليه أحدٌ من خلقِه، ولا يُعجِزُه أن يُعذِّبَ المنافقينَ وأهلَ الكتاب، وعليه فقد عطف هذه الآية على ما سبقها، "لاتّصالها بالآيات الّتي قبلها، فالواوُ فيها عاطفةٌ للجملة المستقلّة على مثلها، كأنّه يقول: لا تحزنواْ أيّها المؤمنون، ولا تضعفواْ، واصبرواْ واتّقواْ، ولا تخوّرون عزائمكم، بيّنواْ الحقّ، ولا تكتمواْ منه شيئًا، ولا تشترواْ بآيات اللّه ثمنًا قليلًا، ولا تفرحواْ بما عملتم، ولا تحبّوا أن تحمدُواْ بما لم تفعلُوا، فإنّ اللّه تعالى يكفيكم ما أهمّكم، ويغنيكم عن هذه المنكرات الّتي نُهيتم عنها، فإنّ ملكَ السّماوات والأرض كلّه له، يعطي منه ما يشاء، وهو على كلّ شيءٍ قديرٍ"[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، اللّفظُ المناطُ هنا بالشّرح هو لفظ ﴿مُلۡكُ﴾، وهو ما يُمَلكُ، ويُتصرَّفُ فيه، يُذكر ويُؤنّث، والجمع أملاكٌ، وفي القرآن الكريم: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ١٢٠﴾ [المائدة: 120]، بمعنى التّمليك، وعند الشّافعية: الملك

(1) رضا، تفسير المنار: 4/242.

هُو التّصرّفُ بالأمر والنّهي، وفي اصطلاح الفقهاء: اتّصالٌ شرعيٌّ بين الإنسان، وبين شيء يكون مطلقا لتصرّفه فيه، وحاجزا عن تصرّف غيره فيه[1]، قال الطّبريّ: "وهذا تكذيبٌ من اللّه - جلّ ثناؤه - الّذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ [آل عمران: 181]، يقول - تعالى ذكره - مكذّبًا لهم: للّه ملكُ جميع ما حوته السّماواتُ والأرض، فكيف يكونُ أيّها المفترون على اللّه، من كان ملك ذلك له فقيرًا؟"[2]، قال أبو حيّان: "ذكر تعالى أنّهم من جملةِ ما ملك، وأنّه قادر عليهم، فهم مملوكُون مقهورُون، مقدورٌ عليهم، فليسوا بناجين من العذاب"[3].

2) ﴿قَدِيرٌ﴾: اسم من أسماء اللّه الحسنى، وهو مذكور كثيرًا في القرآن الكريم، ويقال: هو قادر مقتدر، وهو ذو قدرة ومقدرة، وأقدره اللّه عليه، والأمور تجري بقدر اللّه ومقداره وتقديره[4]، وكونُ اللّه له ملكُ السّماواتِ والأرض، وأنّه على كلّ شيءٍ قدير، كما ورد في آخر هذه الآية، هو "تذييلٌ بوعيدٍ يدلُّ على أنّ اللّه لا يخفى عليه ما يكتمُون من خلائقِهم"[5]، قال السّعديّ في تفسير أسماء اللّه الحسنى: "القديرُ: كاملُ القدرة، بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبّرها، وبقدرته سوّاها وأحكمها، وبقدرته يُحيي ويميتُ، ويبعثُ العبادَ للجزاء، ويجازي المُحسنَ بإحسانه، والمُسيءَ بإساءتِه، الّذي إذا أراد شيئًا، قال له: كُن فيكون، وبقدرته يُقلّب القلوبَ، ويُصرّفها على ما يشاء ويريد"[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التّنويهُ بسلطان الله على الكون، وقُدرته المُهيْمنة على كلّ الكائنات

يُقرِّر بيانُ اللّهِ ﷻ مالكيةَ اللّهِ للسَّماواتِ والأرض، ومَنْ فيهما، وما فيهما، من سائر أصنافِ الخلقِ، وأنّه المتصرِّفُ فيهم بكمالِ قُدرته، وبديعِ صُنعِه، لا يَعزُبُ عنه من أحوالِهم شيء، ولا يَنِدُّ عن خلقِه وأمرِه منهم أحدٌ، والسّياق يُطمئنُ المؤمنين ضمنيًّا، بأنّ اللّه

(1) أبو حبيب، القاموس الفقهيّ، ص: 339.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/473.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/468.
(4) الزّمَخْشري، أساس البلاغة: (قَدَرَ).
(5) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/195.
(6) السّعدي، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 223.

"له وحده سبحانه ملكُ السّماواتِ والأرض بما فيهما، فهو وحده صاحب السّلطان القاهر، في هذا العالم، يتصرّف فيه كيفما يشاء ويختار: إيجادًا وإعدامًا، وإحياءً وإماتةً، وتعذيبًا وإثابةً، وهو سبحانه على كلّ شيءٍ قدير، لا يعجزه أمرٌ، ولا يدفع عقابَه دافعٌ، ولا يمنع عقابَه مانعٌ، فعليكم أيّها النّاس أن تطيعوه، وأن تحذروا غضبه ونقمته"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل في الآية:

وجـه الـوصـل أنّ الآيـة تذييل بِوَعيدٍ يدلّ على سعة علم الله

قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾، هذه الآيةُ الكريمةُ تذييلٌ بِوَعيدٍ، يدُلُّ على أنَّ اللّه تعالى، لا يَخْفى عليه ما يَكتُمه من يحادُّ اللّه ورسولَه، من أهل التَّحريفِ والتَّشويه، والضَّلالاتِ القوليَّة والفعليَّة، من أهل الكتابِ والمنافقين.

سرُّ تقديم ما حقّه التَّأخير:

أسـلـوب القصر تأكيدٌ لاختصاصِ مـلـكـيّة الـلـهِ لـلـسَّـمـاوات والأرض دون سواه

في تقديم شِبهِ الجُملةِ على المبتدأ، في قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾، قصرٌ وحصرٌ، وتأكيدًا لاختصاصِ مُلكية اللّهِ للسَّماواتِ والأرضِ دون سواه، يتصرَّفُ - ﷻ - في سُلطانه القاهرِ فيهما، وبما فيهما كيفما يشاء، من غيرِ أن يكونَ لغيرِه شائبةُ تصرُّفٍ في شيءٍ من ذلك بوجهٍ من الوجوه، فالجملةُ مقرِّرة لما قبلَها، "وتقديم لفظ الجلالة، لإفادة الاختصاص والانفراد، وفي ذلك إشارةٌ، إلى أنّه وحده المتصرّفُ، وهو الّذي يعطي ويمنعُ، ويحاسبُ ويعاقبُ، وقد أعطى من أعطى في الدّنيا ليتمتّعواْ حتّى حين، وأبقى ما أبقى في الآخرة، ليجزيَ الصّابرين، وينالَ عهدَه المتّقُون، وإنّ عطاءَهُ لحكمةٍ، ومنعهُ لحكمةٍ، وفيه إشارة إلى كمال

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/370.

قدرته، وأنّه إن أوعد بالعقاب، ووعد بالثّواب، فهو القديرُ على تنفيذِ ما وعد وأوعد"[1].

بلاغة التخصيص في جملة الفاصلة:

قدرتُه الواسعةُ تؤكّد ثبوتَ عذابه في العاجلِ والآجلِ لمن حاربَه وكفرَ به

قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾: تقريرٌ لاختصاصِ مُلكِ العالَمِ الجسمانيِّ، المعبَّرِ عنه بقُطْرَيْه ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو ﷻ القادرُ على الكلِّ؛ بحيث لا يشُذُّ عن مَلَكوته شيءٌ من الأشياء، وهذا كلُّه يَستدَعِي أنَّ ما سواه - كائنًا من كانَ - مقدورٌ له، ومن ضرورتِه اختصاصُ القدرةِ به تعالى، واستحالةُ أن يشاركَه شيءٌ من الأشياء، في القدرةِ على شيءٍ من الأشياء، فضلًا عنِ المشاركةِ في ملكِ السَّماواتِ والأرض، وفي ذلكَ كلِّه تقريرٌ لِمَا مرَّ من ثبوتِ العذابِ الأليمِ لهم، وعدمِ نجاتِهم منه[2].

إظهارُ اسم الجلالةِ في موضع الإضمار:

في الإظهـارِ ترسيةٌ لمهابةِ اللهِ وشمولُ قدرتِه جميعَ الأشياءِ من أحكامِ الألوهيَّة المُهيمنةِ على الأرض والسّماء

وقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾: إظهارٌ لهذا الاسْمِ الجليلِ في موضعِ الإضمار، عوضًا عن قوله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ١٢٠﴾ [المائدة: 120]، وفيه ما فيه من تربيةِ المهابةِ في القلوب، والإشعارِ بمناطِ الحكم، فإنّ شُمولَ القدرةِ لجميعِ الأشياءِ من أحكامِ الأُلوهيَّة، مع ما فيه من الإشعارِ باسْتقلالِ كلٍّ من الجملتَيْن بالتَّقرير[3].

دلالة التّذييل في هذه الآية الكريمة:

آية التّذييل تبرز قدرة اللهِ التي لا يُعجزُها، حمايةُ عبادِهِ المؤمنين

هذه الآية تتضمّن تذييلًا بلاغيًّا، مستوعبًا بالإشارة ما تضيقُ عنه العبارةُ، قال صاحب التّحرير والتّنوير في شرحه لهذه الآية: "تذييل بوعيد يدلّ على أنّ اللّه لا يخفى عليه ما يكتمون من خلائقهم"[4]، فيؤكّد ببليغ العبارة، أنّه تعالى: "يُعطي ويمنعُ، وهو

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1546.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/127.

(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/127.

(4) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/195.

على كلّ شيءٍ قديرٌ، لا يعزّ عليه نصركُم، وهلاكُ من يؤذيكم، من أهل الكتاب والمشركين، وإلى اللّه تُرجعُ الأمورُ"[1].

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿شَيۡءٍ﴾:

أفادت (كل) استغراق موجودات السّماوات والأرض، وما هو خارجٌ عنهما:

قال ابن عرفة: "لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ يطلق على المعدوم والموجود، فأفاد أنّه - على كلّ شيء ممّا في السّموات والأرض وممّا هو خارج عنهما - قديرٌ"[2].

(1) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 1/321.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/338.

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران: 190]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لفتُ الأنظارِ إلى تدبّر ملكوت القهّار، ببديع الخلقِ، وتعاقبِ اللّيلِ والنّهارِ

لَمَّا ذكرَ بيانُ اللّهِ في الآيةِ السَّابقةِ، ملكيّةَ اللّهِ للسَّماواتِ والأرض، وقدرتَه المطلَقةَ على كلِّ شيءٍ، جاءَتْ هذه الآيةُ الكريمةُ؛ لتبيِّنَ أنَّ اللّهَ الَّذي مَلَك هذينِ الجرمَين العظيمَين؛ هو مَنْ خلَقهما وما فيهما من آياتٍ كآيَتي اللَّيلِ والنَّهارِ، وما يتبعهُما، لَهيَ آياتٌ بيِّناتٌ ودلائلُ واضحات، للعقولِ المُتبصِّرات، ولمّا كان المقصودُ من هذا الكتاب العظيم جذبَ القلوبِ والأرواح، إلى معرفةِ الحقّ، وصرفها عن الاشتغال بالخلق، جاءت الآياتُ الكريمةُ تنيرُ القلوبَ بأدلّة التّوحيد والإلهيّة، والكبرياء والجلال، فلفتَتِ الأنظارَ إلى التّفكير والتّدبّر في ملكوتِ السّماوات والأرض، ليخلصَ الإنسانُ إلى الاعترافِ بوحدانيّة اللّه، وباهر قدرته، وهو يتأمّلُ في كتابِ اللّهِ المنظور، بعد أن تأمّلَ في كتاب اللّه المسطورِ.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلۡقِ﴾: الخَلْقُ لفظٌ يُستعمَلُ في إيجادِ الشَّيءِ من الشَّيءِ، كما في قولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النساء: 1]، وليسَ الخلقُ الَّذي هو الإبداعُ إلّا للّهِ تعالى؛ ولهذا قالَ في الفَصلِ بينَه تعالى وبينَ غيرِه: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النحل: 17]، فإن قيل: إنَّ قولَه تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14] يدُلُّ على أنَّه يصحُّ أن يُوصفَ غيرُه بالخَلْق؟ قيل: إنَّ ذلكَ معناه: أحسنُ المُقدِّرين، أو يكونُ على تقديرِ ما كانوا يَعتقِدون ويَزعُمونَ أنَّ غيرَ اللّهِ يُبدِع؛ فكأنَّه قيل: فاحسبْ أنَّ ههنا مُبدِعينَ ومُوجِدين، فاللّه

أحسنُهم إيجادًا على ما يَعتقِدون، كما قالَ تعالى: ﴿خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ﴾ [الرعد: 16]، وفي قولِه تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: 30] إشارةٌ إلى ما قدَّرَه وقضاه، وقيل: معناه نهيٌّ؛ أي: لا تُغيِّروا خلقَ اللّه(1).

2) ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾: الآيةُ: هي العلامةُ الظَّاهرةُ، وحقيقتُه لكلِّ شيءٍ ظاهرٍ، وهو ملازمٌ لشيءٍ لا يَظهرُ ظُهورَه، فَمتى أَدْرك مُدرِكُ الظَّاهرَ منهما، علمَ أنَّه أدركَ الآخرَ الَّذي لم يُدرِكْه بذاتِه، إذْ كان حكمُهما سواء، وذلكَ ظاهرٌ في المحسوساتِ والمعقولاتِ، فمَن علمَ ملازمةَ العلمِ للطَّريقِ في المَنهج، ثمَّ وجدَ العلمَ، علمَ أنَّه وجدَ الطَّريق، وكذا إذا علمَ شيئًا مَصنوعًا، علمَ أنَّه لا بُدَّ له من صانعٍ، والصَّحيحُ أنَّ الآيةَ مشتقَّةٌ من التَّأيّي الَّذي هو التَّثبُّتُ والإقامةُ على الشَّيء، وقيلَ للبناءِ العالي: آية، كما قالَ تعالَى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ١٢٨﴾ [الشعراء: 128]، ولكلِّ جُملةٍ من القرآن دالَّةٌ على حُكمٍ: آية، وقولُه تعالى في آيتِنا الكريمة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ﴾؛ أي: هي من الآياتِ المعقولةِ الَّتي تتفاوتُ بها المعرفةُ، بِحسَبِ تفاوتِ منازلِ النَّاسِ في العلم؛ كما في قولِه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩﴾ [العنكبوت: 49]، وقيل: الآياتُ إشارةٌ إلى الأدلَّة(2).

3) ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: اللُّبُّ: العقلُ الخالصُ من الشَّوائب، وسُمِّيَ بذلكَ لكونِه خالصَ ما في الإنسانِ من معانيه، كاللُّبابِ واللُّبِّ من الشَّيء، وكلُّ لُبٍّ عَقْلٌ، وليس كلُّ عقلٍ لُبًّا، لهذا علَّق اللّه تعالى الأحكامَ الَّتي لا يُدركُها إلَّا العقولُ الزَّكيَّةُ، بأولي الألباب في بعض الآيات القرآنيّة، كما في الآية الَّتي معنا: ﴿لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، و"من المجاز: هو ذو لبّ، وهو من أولي الألباب، وهو لبيب من الألبّاء، وقد لبّ يلبّ لبابةً، وأخذ لبابه: خالصه، وهو من لباب الإبل، ورجل لبابٌ من قوم لبابٍ، وحسبٌ لبابٌ، قال:

أَلَيْسَ بِذِي المَكَارِمِ فِي قُرَيْشٍ *** إِذَا عُدَّتْ وَذِي الحَسَبِ اللُّبَابِ"(3).

---

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 296 - 297، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (خَلَقَ).

(2) الرَّاغب، المفردات، ص: 101 - 102، وابن منظور، اللِّسان: (أَيَا).

(3) الزَّمَخْشري، أساس البلاغة: 2/154 - 155.

ومن الاقتباسِ الجميلِ من القرآن الكريم، ما رواه صاحبُ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، حيث قال:

خُلَّةُ الغَانِيَاتِ خُلَّةُ سُوءٍ *** فَاتَّقُوا اللَّه يَا أُولِي الْأَلْبَابِ
وَإِذَا مَا سَأَلْتُمُوهُنَّ شَيْئًا *** فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابِ[1]

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ كونيّة، تدلُّ على أنّه المتفرّد بالوحدانيّة

جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ لِتَحُثَّ العبادَ على التَفكُّرِ في آياتٍ عجيبةٍ، يَرَونَها بأمِّ أَعْيُنِهم في هذا الكونِ المَنظور، تدُلُّ دَلالةً جَليَّةً على عَظمةِ خالِقها، وعَظمةِ سُلطانه، وشُمولِ قُدرته، مع بديعِ الصُنعِ والإحكام، وجليلِ الحكمةِ والإنْعام، ومفاد ذلك: "أنّ في إيجادِ السّماوات والأرض، على هذا النّحو البديع، وما فيهما من الآياتِ المشاهدةِ العظيمةِ، من كواكب وبحار، وزروع وأشجار.. وفي إيجاد اللّيل والنّهار على تلك الحالة المتعاقبة، وفي اختلافهما طولًا وقصرًا، وفي كلّ ذلك، لأماراتٌ واضحةٌ، وأدلّةٌ ساطعةٌ، لأصحاب العقول السّليمة على وحدانية اللّه - تعالى - وعظيم قدرته، وباهر حكمته"[2].

الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلَاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

وجه الاستئناف تقرير ما سَبَقَ مِن اختصاصه تعالى بالسُّلطانِ والقدرة

قولُه تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: هذه جملةٌ مُستأنفةٌ سيقتْ لِتقرير ما سَبَقَ مِن اختصاصه تعالى بالسُّلطانِ القاهرِ، والقُدرةِ التَّامَّة، فهي" تنبيهٌ تمهيديٌّ على ما في خلق السّماواتِ والأرضِ، وتعاقب اللّيل والنّهار، من الآياتِ الدّالةِ على عظيم قدرة اللّه، وبديع صنعه، تدعُو ذوي العقولِ الرّاجحةِ إلى التّفكير والتدبّر"[3]

(1) الصّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/690.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/370.
(3) دروزة، التّفسير الحديث: 7/291.

بديع التّوكيد في مطلع الآية:

تصدير الآيـة بـ (إنّ) المؤكِّـدة: اعتناءٌ بتحقيقِ مَضْمونِها

وقد صُدِّرتِ الآية الكريمة بـ ﴿إِنَّ﴾ الَّتي تُفيدُ التَّأكيد، اعتناءً بتحقيقِ مَضمونِها، النَّاطقِ بعجيبِ إنشائها، على ما هي عليه في ذواتِها وصفاتِها الَّتي تَحارُ في فَهْمِ أسرارها العقولُ، فهي "نداءٌ رفيقٌ ينبعثُ من الأفق الأعلى، ليقودَ المؤمنين الّذين شَخَصَت قلوبُهم وعقولُهم، إلى ما للّه في السّموات والأرض، لترتادَ مواقعَ الحقّ والخير، فتجدَ في هذا النّداء الرّفيق هاديًا يهديها، ورفيقًا يُؤنسها، ويكشف لها معالمَ الطّريقِ، ففي خلق السّماواتِ والأرض، واختلاف اللّيل والنّهار، آياتٌ مبصرةٌ، لمن كان له قلب، أو ألقى السّمعَ وهو شهيدٌ"[1]، قال النّويريّ: "فلمّا تمَّ لي الرّأيُ، نظرتُ في عظمةِ هذا الرّبّ، الّذي ابتدعَ هذا الخلق وضبطَه، ودبّرَه وأحكمَ أمرَه، فإذا قدرتُه تأتي من وراءِ ذلك كلّه، ليس من هذا الخلق شيءٌ يفوتُها، ولا يخرجُ منها، وإذا هي محيطةٌ بكلّ شيءٍ، ومن وراءِ كلّ شيءٍ"[2].

علّة تقديم السّماوات على الأرض:

سياق الثناء يناسبه تقديم الأعظم لسعتِه، ومُعْجِزِ تكوّنه

قدّم السّماء في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنها في سياق ثنائه تعالى على نفسه، ووصفه بإحاطة علمه فناسب تقديم السماء؛ لأنها أعظم، فإنّ فيها من الشّموس وعوالمها ما يبعد بعضه عن بعض مسافة ألوف الألوف من السنين التي تقدر أبعادها بسرعة النور، كما ثبت في علم هذا العصر[3].

سرُّ تقديم اللّيل على النّهار:

تقديمُ اللّيل على النَّهار إمَّا لأنَّه الأَصلُ، وإمَّا لِتقدُّمه في الخَلفيَّةِ

وفي قولِه تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: تَعاقُبِهما في وجهِ الأرض، وكونِ كلٍّ منهما خِلفةً للآخرِ، بِحسَبِ طلوع الشّمس وغروبها التابعَين لحركاتِ السَّماواتِ والأرض، أو في تفاوتِهما بازديادِ كلٍّ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 2/672.

(2) النّويريّ، نهاية الأرب: 15/267.

(3) رضا، تفسير المنار: 11/339.

بانتقاصِ الآخر، وانتقاصِه بازديادِه باختلافِ حالِ الشَّمسِ بالنِّسبة إلينا قُربًا وبُعدًا بحسبِ الأزمنةِ، أو في اختلافِهما وتَفاوُتِهما بحسبِ الأمكنةِ إمَّا في الطُّول أوِ القِصَر ما بين الصَّيفِ والشِّتاء، ففي بعضِ الأماكنِ يكونُ صباحًا وفي الآخرِ ظُهرًا أو عَصْرًا أو غيرَ ذلك، وتقديمُ اللَّيل على النَّهار إمَّا لأنَّه الأَصلُ، فإنَّ غُرَرَ الشُّهورِ تَظهَرُ في اللَّيالي، وإمّا لِتقدُّمِه في الخَلفيَّةِ حَسْبما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾ [يس: 37]؛ أي: نُزيلُه منه فَيَخلُفُه، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾ [يس: 37][1].

بلاغة توكيد الآيات باللام:

تأكيد الآيات باللام دليل كونها أدلّةً قاطعةً لا مجال للريب فيها

والآيات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ اسمُ إنَّ، ودخلتها اللَّام لتأخُّرِها عن خبرِها، فأكّدت الآيات باللام دلالةً على كونها أدلّةً قاطعةً لَا مجال للريب فيها.

فائدة تنكير الآيات:

وجه تنكير الآيات التعظيم، والتَّفخيم كمًّا وكَيفًا

والتَّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ للتَّفخيم كمًّا وكَيْفًا؛ أي: لَآياتٍ كثيرةٍ عظيمةٍ لا يُقادَرُ قدرُها، دَالَّة على تعاجيبِ شُؤونِه، وهنا في هذه الآيةِ الكريمةِ، لم يتعرَّضْ بيانُ اللهِ لذكرِ ما ورد في [سورة البقرة: 164]، من مفرداتِ عديدٍ من آيات بديعِ خلقِه من الفُلكِ والمَطَرِ، وإحياءِ الأرضِ المَيتَة، وتصريفِ الرِّياحِ والسَّحابِ؛ وذلك لأنَّ المقامَ هَهُنا بيانُ اخْتصاصِه سُبحانه بما ذُكِرَ من المُلك والقُدرةِ، فاكتَفَى بمعظمِ الشَّواهدِ الدَّالةِ على ذلك، وأمَّا هناكَ فقد قُصِدَ في ضمنِ اختصاصِه تعالى بالألوهيَّةِ بيانُ اتِّصافِه تعالى بالرَّحمةِ الواسعة، فَنُظِمتْ دلائلُ الفضلِ والرَّحمةِ في سِلكِ دلائلِ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/127.

التَّوحيد؛ فإنَّ ما فُصِّل هناك هو من آياتِ رحمتِه تعالى، كما أنَّه من آياتِ ألوهيَّتِه ووحدانيَّته(1).

علّة إيثار لفظِ الجمع ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ دون المفرد:

الفصل المتحقّق في لفظ الألبابِ جمعًا وجهٌ لحسن تناسب الحروف

أشار الرّافعيُّ إلى أهميّة استعمال القرآن للفظ ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ بالجمع، دون لفظ المفرد (اللّبّ)، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، وما يترتّب عليه من روعة في الدّلالةِ، وجمال في الإيقاع، قال: "وممّا لا يسعُه طوقُ إنسانٍ في نظم الكلام البليغ، ثمّ ممّا يدلّ على أنّ نظمَ القرآن مادّةٌ فوقَ الصّنعةِ، ومن وراءِ الفكر، وكأنّها صبّت على الجملة صبًّا، أنّك ترى بعضَ الألفاظِ لم يأتِ فيه إلّا مجموعًا، ولم يستعمل منه صيغةَ المفرد، فإذا احتاجَ إلى هذه الصّيغة استعملَ مرادفَها: كلفظة (اللُّبّ)، فإنّها لم ترد إلّا مجموعة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢١﴾ [الزّمر: 21]، وقوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾ [ص: 52] ونحوهما، ولم تجئ فيه مفردةً، بل جاء في مكانها (القلب)؛ وذلك لأنّ لفظَ الباءِ شديدٌ مجتمعٌ، ولا يفضي إلى هذه الشّدّة إلّا من اللّام الشّديدة المسترخية، فلمّا لم يكن ثَمّ فصلٌ بين الحرفين، يتهيأ معه هذا الانتقال، على نسبة بين الرّخاوة والشّدّة؛ تحسن اللّفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها؛ نصبًا أو رفعًا، أو جرّا؛ فأسقطها من نظمه بتّة، على سَعَةِ ما بين أوّله وآخره، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه، لجاء بها حسنة رائعة، وهذا على أنّ فيه لفظة (الجُبّ)، وهي في وزنها ونطقِها، لولا حسنُ الائتلافِ بين الجيم والباء، من هذه الشّدّة في الجيم المضمومة، وكذلك لفظة (الكُوب)، استعملت فيه مجموعة، ولم يأت بها مفردة؛ لأنّه لا يتهيّأ فيها ما يجعلها

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/128.

في النّطق من الظّهور والرّقّة والانكشاف، وحسن التّناسب كلفظِ (أكواب) الّذي هو الجمع"[1].

بلاغةُ التّعريضِ في الفاصلة:

وجه التعريض نفي العقل عمّن لا يصل به التّأمّل في هذه الأدلّة الكونيّة إلى وحدانيّة الله تعالى

في قوله: ﴿لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ " تعريضٌ لافتٌ، بنفي العقل عمّن لا يصل به التّأمّل في هذه الأدلّة الكونيّة إلى وحدانيّة اللّه تعالى، وتفرّده بالألوهيّة، والأسلوبُ كما لا يخفى، جارٍ على منهج الحقيقةِ، وليس من قبيلِ الكنايةِ أو المجاز بصفة عامّة، فالمعنى الصّريحُ لهذا القول الكريم، أنّ أصحابَ العقول، يجدُون في خلق السّماوات والأرض، واختلاف اللّيل والنّهار، أدلّةً واضحةً على وجودِ اللّه ووحدانيّته، وفيه إلى جانب ذلك إيماءٌ إلى نفي العقول، عمّن لا تدلّه عليه"[2].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الآيات والبيّنات والدَّلالات

رغم أنّه سبقَ بيانُ معنَى (الآيات) و(البيِّنات) و(الدَّلالات) في آل عمران: 183، وقد جاءت هناك معبّرة عن سياقها، فإنّنا هنا ننظر إلى وِجهة السِّياقِ القرآنيِّ، في اسْتخدام كلمةِ (الآيات)، بمعزل عمّا مضى، فكلمةُ (البيِّنات) تعني الكشفَ عن الشَّيء، وبيان ما هو مُجمَلٌ أو مُبْهَمٌ من الكلام[3]، وكلمةُ (الدَّلالات): تعني التَّدليلَ على الشَّيءِ، والتَّسديدَ إليه ليُعلَم، وهي متعلِّقةٌ بالأقوال، وتفيدُ الظَّنَّ[4]، أمَّا كلمةُ (الآيات) فهي العلاقةُ الظَّاهرةُ، وتكونُ سببًا لإدراكِ أمرٍ آخَرَ، لا يَتِمُّ إدراكه إلَّا بِوجودِها[5]، ولو أردنا أن نضعَ

(1) الرّافعيّ، تاريخ آداب العرب: 2/153.
(2) البلاغة: (البيان والبديع)، مناهج جامعة المدينة العالميّة: (موسوعة الشّاملة)، ص: 279، وكذلك العلويّ، الطّراز: 1/194.
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 156.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 97.
(5) الرَّاغب، المفردات، ص: 101.

أيَّ كلمةٍ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ، الَّتي تَنطِقُ بوجودِ مخلوقاتٍ كبيرةِ الجِرْم، عَظيمةِ الشَّأنِ كالسَّماوات والأرض، لا تحتاجُ إلى كشفٍ بالبيِّنات، ولا تسديدٍ ليُعلَمَ ممَّا يفيدُ الظَّنَّ كالدَّلالات، ولكنَّها تحتاجُ إلى نَظَرٍ بالبَصَرِ والبَصيرةِ، ليُدرَكَ من وُجودِها، وجودَ من أَوْجدَها، وهو اللهُ الخالقُ، لا أحدَ غيرُه، لَعلِمنا يقينًا أنَّه لا يُحقِّقُ هذا المعنَى السَّديدَ الرَّشيدَ، إلَّا قوله تعالى: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾، بمفهومِها الدَّقيق الَّذي أوضَحْناه.

الألباب والعُقول

قولُه تعالى: ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، عند تأمّله يتبيَّن لنا من معنى (اللُّبّ)، أنَّه يُفيدُ ما كانَ من خالصِ صفاتِ المُوصوف، وهو العقلُ الخالصُ من الشَّوائب، وسُمِّيَ بذلكَ لكونِهِ خالصَ ما في الإنسانِ من معانيه، أمَّا العقلُ فيفيدُ أنَّه يحصُرُ معلوماتِ الموصوفِ به، فهو مُفارِقٌ للُّبِّ من هذا الوَجهِ؛ ولذلكَ لا يجوزُ أنْ يُوصفَ اللهُ تعالى بمعانٍ بعضِها أَخْلصَ من بعض، فلا يُوصفُ ﷻ باللُّبّ مثلًا[1]، والعقلُ: هو القُوَّةُ المُتهيِّئةُ لقَبولِ العلم، ويُقالُ للعلم الَّذي يَستفيدُه الإنسانُ بتلكَ القُوَّةِ عَقْلٌ، وهذا العقلُ هو المعنيُّ بقولِه تعالى: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت: 43][2]، وبذلك يتَّضحُ أنَّ البيانَ الإلهيَّ اسْتَخدم كلمةَ ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ في تذييل الآيةِ الكريمة، بدلَ (العُقُول)، لأنَّها أَوفى بخاتمةِ الآية، الَّتي بدأتْ بذكر جِرمَين عظيمَين، هما من خَلْقِ اللهِ ﷻ، فليس كلُّ عقلٍ يُدرِكَ آياتِ اللهِ في خَلْقِه البديع، إلَّا إذا كان صاحبه ذا لُبٍّ صافٍ، خالٍ من شوائبِ الكِبْرِ والعِنادِ.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 733، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 461.

(2) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 8/385، والسّيوطيّ، معجم مقاليد العلوم، ص: 198.

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران: 191]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين آياتِ اللهِ الكونيّةِ، والدّعوةِ للذّكر والتّفكّر في الصّنعة الإلهيّة

لَمَّا بيَّن اللّه تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّ الَّذي يستفيدُ من آياتِ اللّهِ المبثُوثةِ في كونِه سُبحانه، هم أهلُ العقولِ المسْتَنيرة، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ بعرضِ بعضٍ من صفاتهم اللَّصيقةِ بتفكُّرِهم بتلكَ الآيات، فبعد أن ذكر السّياق أنّ في بديع نظام السّماوات والأرض، وعجيبِ صُنعِهما، وفي اختلافِ اللّيل والنّهار وتعاقبهما، آياتٍ ودلائلَ على وحدانيّةِ اللّه المطلقة، وكمالِ علمه في كونه، وبديعِ قُدرته في ملكوته، ممّا يدركُه أولوا الألباب، ممّن يستحضِرُون عظمةَ الخالق، ويتذاكرُون دلائلَ ألوهيّته، وفواضلَ ربوبيّته، على جميع أحوالهم، وفي كلّ أوضاعهم، قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، فيستغرقُون في ذكره، وينغمسُون في شكره، علّهم يؤدّون بعضًا من الشّكران، وقليلًا من العرفان، مقابلَ ما أفاء سبحانه به عليهم، وذلك فضلُ اللّه يُؤتيه من يشاء، واللّه ذو الفضلِ العظيمِ.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾: يقال: "تفكَّر الشَّخصُ: تدبَّر واعتبر واتَّعظ، قال تعالى: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: 176]، وتفكَّر في الطَّبيعة: تأمّل، أعمل العقلَ فيها، ليصل إلى نتيجة أو حلّ، ويقال: (لا تُفَكِّر فلها مُدَبِّر)، والمطلوب التّفكُّر في آلاء اللّه تعالى ومخلوقاته المبثوثة في كونه، لقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ويقال: فكّر في الأمر: أي تفكَّر فيه، وتأمّله، وأعمل العقل

فيه ليصل إلى نتيجة، أو حلّ أو قرار، وقولهم: (يفكّر في المستقبل)، أي: يفكِّر في حلّ مشاكله بهدوء، قال تعالى في وصف حال الوليد بن المغيرة: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨﴾ [المدثر: 18][1]، والفِكرةُ: قُوَّةٌ، والتَّفكُّرُ: جَوَلانُ تلكَ القُوَّةِ، بِحسَبِ نظرِ العقل؛ وذلكَ للإنسانِ دونَ الحيوان، ولا يقالُ إلَّا فيما يمكنُ أن يَحصُلَ له صورةٌ في القلب، ولهذا يكونُ التَّفكُّر في آلاءِ اللّه، ولا يكونُ في ذاتِ اللّه، إذْ كانَ اللّه ﷻ مُنزَّهًا أن يُوصَفَ بصورة، على غرار الآيةِ قيد التّفسير، ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فهي تفكُّرٌ في آيات اللّه وخَلْقِه، ناهيك عن كون لفظ الفكر، يُستعمَلُ في المعاني، وهو فَرْكُ الأمورِ وبَحْثُها، طلبًا للوصولِ إلى حقيقتِها[2].

2) ﴿بَٰطِلًا﴾: الباطلُ: نقيضُ الحقِّ، وهو ما لا ثباتَ له عند الفَحْصِ عنه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: 62]، وقد يُقالُ ذلك في الاعتبارِ إلى المقالِ والفِعالِ، يُقالُ: بَطَلَ بُطُولًا وبُطلًا وبُطلانًا، وأَبطَلَه غيرُه، قال ﷻ: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١١٨﴾ [الأعراف: 118]، وقال سُبحانه: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: 71][3]، و"ويُقَال: رجل بَطل، وَلا يُقَال امْرَأَة بطلة، عَن أبي زيد، وَبَطل الرّجلُ بطالةً، إِذا هزل وكَانَ بطّالًا، والبطلانُ: مصدر بَطل الشَّيءُ بطلانًا، والبطلُ والبَاطِل وَاحِد، والأباطيل: جمع إبطالة وأبطولة، ويُقَال: جَاءَ فلَان بالأباطيل"[4].

3) ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: التَّسبيحُ: تَنزيهُ اللّهِ تعالى، وأصلُه: المَرُّ السَّريعُ في عبادةِ اللّهِ تعالى، وجُعِلَ ذلكَ في فعلِ الخير، وسُبحانَ: أصلُه مصدرٌ، نحو: غُفران، كما قالَ تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ١٧﴾ [الروم: 17]، وجُعِلَ التَّسبيحُ عامًّا في العباداتِ قولًا كان، أو فعلًا، أو نيَّةً[5]، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ١٤٣﴾ [الصافات: 143]؛ أي: من المُصلِّين[6]، والأَوْلَى أن يُحمَلَ على الثَّلاثةِ السَّابقة، ولفظ "سُبْحَانَ اللّه عَلَمٌ لِلتَّسبيحِ،

---

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 3/1733.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 643.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 129، وابن منظور، اللّسان: (بَطَلَ).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بطل).
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 129.
(6) ابن قُتيبة، غريبُ القرآن، ص: 374.

لَا يُصرَفُ وَلَا يَتَصَرَّفُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ مَنصُوبًا عَلَى المَصدرِيَّةِ، وَقَولُهُمْ: (سُبحَانَكَ اللهمَّ وَبِحَمْدِك)، مَعْنَاهُ سَبَّحْتُكَ بِجَمِيعِ آلائِكَ، وَبِحَمدِكَ سَبَّحتُك، وَسَبَّحَ، قَالَ: سُبْحَانَ اللّه، وَسَبَّحَ اللّه نَزَّهَهُ، والسُّبُّوحُ: المُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ سُوءٍ[1]، قال أبو بكر: معنى سُبحانك: تنزيهًا لك يا ربّنا من الأولادِ والصّاحبةِ والشّركاء؛ أي: نزّهناك.

4) ﴿فَقِنَا﴾: الوقايةُ: حفظُ الشَّيءِ ممَّا يُؤذِيهِ ويَضُرُّه، يُقالُ: وَقَيتُ الشَّيءَ أَقيه وِقايةً ووِقاءً، قالَ تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ [الإنسان: 11]، وقولُه تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: 6]، ومن هنا جاءتِ التَّقوى الَّتي هي جعلُ النَّفسِ في وقايةٍ ممَّا يُخافُ، وهذا تحقيقُه، وصارتِ التَّقوى في تَعارُفِ الشَّرعِ: حفظ النَّفْس ووقايتها عمّا يُؤثِم، وذلكَ بتركِ المحظُور، ويتمُّ ذلك أيضًا، بتركِ بعض المُباحات، قالَ اللّه ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٥﴾ [الأعراف: 35][2].

5) ﴿رَبَّنَا﴾: قال الزّجّاج فيما نقله صاحب زاد المسير: "معناه: يقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾، أي: خلقتَه دليلًا عليك، وعلى صدق ما أتتْ به أنبياؤُك، ومعنى سبحانك: براءة لك من السّوء، وتنزيهًا لك أن تكون خلقتهما باطلًا، فقنا عذاب النّار، فقد صدّقنا أنّ لك جنّةً ونارًا"[3].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

الـوصـلُ بذكر اللـه، والإقـرارُ بـعـظـمـتِـهِ وجلالِـه، سبيلُ النّجاةِ من النّار

يخبرُ بيانُ اللّهِ تعالى أنَّ من صفاتِ أهلِ العقولِ التَّامَّة الذَّكيَّة الَّتي تُدركُ الأشياءَ بحقائِقها على تجَلِيَّاتها، أنَّهم لا يَقطعَون ذِكرَه سبحانه في جميعِ أحوالِهم بسرائرِهم وضمائرِهم وألسِنَتِهم، ويَفهمونَ ما في خلقِ السَّماواتِ والأرضِ من الحِكَم الدَّالةِ على عظمةِ الخالقِ وقدرتِه، وعلمِه وحكمتِه، واخْتيارِه ورحمتِه، قائلين: ربَّنا ما خَلقتَ هذا الخَلقَ عَبَثًا؛ بل بالحقِّ، نُنزِّهكُ عن أن تخلُق

(1) المُطَرِّزِيّ، المغرب، ص: 215.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 881، وابن منظور، اللّسان: (وَقَيَ).
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/361.

شيئًا باطلًا، فاحفَظْنا بحَوْلك ورحمتِكَ من عذابِ النَّار[1]، وهؤلاء هم "الّذين لا يغفلُون عنه تعالى في عامّة أوقاتِهم، باطمئنانِ قلوبهم بذكره، واستغراق سرائرهم بمراقبتِه، مع التّفكر فى بديع صنعِه وأسرار خليقتِه، ويتفكّرون فى خلق السَّماواتِ والأرض، وما فيهما من الأسرارِ والمنافع الدّالةِ على العلم الكامل، والحكمةِ البالغةِ، والقدرةِ التّامّة، الّتي تُفضي إلى تمامِ النّعمة، وكمالِ الدّين[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

وجه الاستئناف بيانُ نتيجة التفكرِ والترقّب لآثاره وأحكامِه سبحانه

في قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾: أنّ لفظ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمٌ موصول، وفيه وجهان: الأوَّلُ: موصولٌ بأولي الألبابِ مجرورٌ على أنّه نعتٌ كاشفٌ له بما في حَيِّزِ الصِّلَة، وفي " تقدير كونِ الموصول نعتًا لأولي الألباب استئنافٌ مبينٌ لنتيجة التفكرِ ومدلول الايات ناشئ ممّا سبق فإن النفسَ عند سماعِ تخصيصِ الآياتِ المنصوبةِ في خلق العالمِ بأولي الألباب ثم وصفهم بذكر اللّه تعالَى والتفكرِ في محال الآياتِ تبقى مترقبةً لما يظهر منهم من آثارها وأحكامِها كأنَّه قيلَ: فماذا يكونُ عند تفكرِهم في ذلك وماذا يترتب عليه من النتيجة؟ فقيل: يقولون: كيت وكيت مما ينبئ عن وقوفهم على سرِّ الخلقِ المؤدّي إلى معرفة صدقِ الرسلِ وحقيَّة الكُتب الناطقةِ بتفاصيل الأحكام الشرعيةِ"[3].

أفادتِ الصِّلةُ ربطَ اللَّاحقِ بالسَّابقِ، في بيانِ صفاتِ أولي الألبابِ وأحوالِهم

ويحتمل لفظ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الفصل عمّا قبله، بأنّه: منصوبٌ على المَدح، أو مرفوعٌ على أنَّه خبرٌ لمبتَدأٍ محذوف، تقديرُه (هم)[4]، وأيًّا ما كان فإنَّ الّذي يَسُدُّ بُلْغَتَنا، أنَّه جاءَ في حيِّزِ صِلَته، مُبيِّنًا للقارئ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/386 - 387.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 4/162 (بتصرّف).
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/623 - 624.
(4) وقيل غير ذلك، ينظر: العكبري، التبيان: 1/162، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/623 - 624.

وللسَّامعِ، أنَّ المرادَ بمن سَبقُواْ أنَّهمُ الَّذين لا يَغفُلونَ عنِ اللّهِ تعالى في عامَّةِ أوقاتهم؛ لاطْمئنانِ قلوبِهم بذكرِه ﷻ، واسْتِغراقِ سَرائرِهم في مراقبتِه؛ حيثُ أيقَنُواْ بأنَّ كلَّ ما سِواهُ تعالى فائضٌ منه، وعائدٌ إليه، فلا يُشاهِدونَ حالًا من الأحوال في أنفُسِهم[1].

فائدة الموصول ذكرُ الله مُطلقًا، ذاتًا، وصفاتٍ وأفعالًا؛ مقرونًا بالذِّكرِ اللّسانيّ وغير مقرون

المرادُ به ذكرُه تعالى مُطلقًا، سواءٌ أكانَ ذلكَ من حيثُ الذَّات، أمْ من حيثُ الصِّفاتِ والأفعالِ، وسواءٌ أقارَنَه الذِّكرُ اللِّسانيُّ أمْ لم يُقارِنْه؛ وذلكَ كما وردَ في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ﴾ [النساء: 103][2]، فهذا الوصفُ ظاهرُه استعمالُ التّحميد والتّهليل والتّكبير ونحوه من ذكر اللّه، وأن يحصرَ القلبُ اللّسانَ، وذلك من أعظم وجوه العبادات، والأحاديث في ذلك كثيرة، وابن آدم منتقلٌ في هذه الثّلاثِ الهيئاتِ، لا يخلو في غالبِ أمره منها، فكأنّها تحصرُ زمنَه، وكذلك جرت عائشة - رضي الله عنها - إلى حصر الزّمن في قولها: «كان رسولُ اللّه ﷺ يذكرُ اللّهَ على كلّ أحيانِه»[3].

بلاغة العطف في الآية:

أفادَ العطفُ ووجوهُ الإعراب في بيانِ أهميّةِ عبادةِ التَّفكُّر، وأحوالِ أهلها وجزائهم المُنْتَظَر

قولُه تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، نجد قولَه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ معطوفًا على ﴿يَذْكُرُونَ﴾، ويجوزُ أن يكونَ حالًا أيضًا، أي: يَذكرون اللّه مُتفكِّرين[4]، وجاءَ هنا بيانُ تَفكُّرِهم في أفعالِه ﷻ، إثْرَ بيانِ تفكُّرِهم في ذاتِه على الإطلاق، وأشارَ إلى نَتيجتِه الَّتي يُؤدِّي إليها، مِنْ معرفةِ أحوالِ المَعادِ، حَسْبَما نَطقتْ به أَلْسِنَةُ الرُّسُل وآياتُ الكُتُب، فكما أنَّها آياتٌ تشريعيَّةٌ هاديةٌ للخَلْقِ إلى معرفتِه تعالى ووجوبِ طاعتِه، كذلكَ المخلوقاتُ آياتٌ تكوينيَّةٌ، مُرشِدةٌ لهم إلى

(1) الجاويّ، مراح لبيد: 1/174.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/129.
(3) مسلم، الحديث رقم: (373).
(4) العكبريّ، التبيان: 1/122.

ذلكَ، فالأُولى مُنَبِّهاتٌ لهم على الثَّانية، ودَواعٍ إلى الاسْتشهادِ بها، كهذه الآية الكريمة ونحوها، والثَّانيةُ مُؤيِّداتٌ للأُولى وشواهدُ دالَّةٌ على صِحَّةِ مَضمونِها وحَقِّيَّةِ مَكنونِها، ومَنْ تأمَّل في الأُولى والثَّانية أدركَ يقينًا قُدرةَ اللّهِ التَّامَّةَ، ومُلكَه القاهِر، وعلمَه الشَّامِل، وحكمتَه البالِغة، وغيرَ ذلكَ من صفاتِ الجَلالِ والجَمالِ والكَمالِ للّهِ الأَحَدِ[1].

سرُّ الحذف والنفي في الدّعاء:

في الدّعاء تنبيهٌ بقصديّة الخلق، وتنزيهٌ للهِ أن يخلقَ مخلوقًا بدون حكمةٍ أو غايةٍ

قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ على إرادةِ القول؛ أي: يقولونَ ذلك، وهو في محلِّ الحال، بمعنًى: يتفكَّرونَ قائلين، وفيه حذف لحرف النداء دلالة على القرب، ونَفَى بـ (ما) النافية الداخلة على الماضي، ليدلّ على انقضاء أمر انتفاء الخلق باطلًا، فهي آكدُ من (لم) في النّفي، والمعنَى: ما خلقْتَه خَلْقًا باطلًا بغيرِ حكمة؛ بل خلقتَه لِداعي حكمةٍ عظيمة، وهو أن تجعلَها مساكنَ للمكلَّفينَ وأدلَّةً على معرفتِكَ، ووجوبِ طاعتكَ، واجْتناب معصيتِك، ولذلكَ وصلَ به قولَه: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّه جزاءُ من عَصى ولم يُطِع[2]، وفيه "تنبيه أنه قصد تعالى بخلق هذه الأشياء قصداً صحيحاً"[3]، أي: "ما خلقتَ هذا مخالفًا لِمَا أَنْبأَتنا به الرُّسُل عنك من الحشر، والنشر، والإعادة، والثواب، والعقاب، بل هو موافق لذلك ودليل عليه لا أنه لأجله وعلة فيه"[4].

علّة إيثار لفظ الربوبيّة مطلعًا:

خشوع القلب مدعاةٌ لنداء الباري بلفظه المُشعر بالحنان، والشفقة

التفكر يجعل القلب يخضع واللسان يخشع فينطق مستشعرًا عظمة اللّه مبتهلًا بلفظ: ﴿رَبَّنَا﴾، وهذه الضراعة التي بدتْ على الألسنة هي أولى ثمرات التفكّر، لقد وصلوا بفكرهم إلى إدراك

(1) الخازن، لباب التّأويل: 1/332.
(2) الزّمَخشري، الكشّاف: 1/488.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 3/1046.
(4) البسيلي، التّقييد الكبير، ص: 612.

ربِّهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا﴾، ونادوه سبحانه باللفظ المشعر بالحنان، والشفقة، والنداء الخاضع الضارع الشّاكر لنعمائه، وقد وصلوا بتفكيرهم وتدبّرهم إلى أنّ هذا الكون لا يمكن أن يُخلق باطلا[1].

نكتة ترتيب الخوف على التّفكّر:

الخوفُ منتهى التّفكر، والشعور بالمهابة

ترتيبُ الخوف على التّفكر له موضعه؛ لأن نهاية التّفكر هو الخوف؛ إذ ينتهي إلى أعلى درجات الشّعور بالمهابة للّه تعالى، وهو يجعل المؤمن يستصغر حسناته، ويستكثر سيئاته[2]، فنتيجةُ هذا الترتيب: الذكرُ، والفكر، والإقرار، والتنزيه[3].

سرّ التعبير باسم الاشارة:

في الإشارة بهذا ضربٌ من التّعظيم:

كلمةُ ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى السَّماواتِ والأرضِ، مُتضمِّنةٌ لِضَربٍ من التَّعظيم، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9][4]، أو الاشارة فيه إلى (الخلق) في قوله: ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، قال أبو حيّان: "هذه الجملةُ محكيّةٌ بقولٍ محذوفٍ، تقديره: (يقولون)، وهذا الفعلُ في موضع نصبٍ على الحال، والإشارةُ بهذا إلى الخلق، إن كان المرادُ المخلوقَ، أو إلى السَّماواتِ والأرض؛ لأنّها في معنى المخلوق؛ أي: ما خلقتُ هذا المخلوقَ العجيبَ باطلًا، قيل: المعنى خلقًا باطلًا، أي: لغير غايةٍ، بل خلقتُه وخلقتُ البشرَ لينظر فيه، فيوحِّد ويَعْبُد، فمن فعل ذلك نعّمتُه، ومن ضلّ عن ذلك عذّبتُه"[5].

نكتة التعبير بالمصدر: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾:

وقولُه: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ اعتراضٌ للتّنزيهِ من العَبَث، وأن يَخلُقَ شيئًا

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1548.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1549.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/147.
(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/488.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/470.

بلا حِكْمَة[1]، وهو اعتراضٌ مؤكِّدٌ لمضمونِ ما قبلَه، وَمُمَهِّدٌ لِمَا بعدَه، من قولِه: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2]، فمعنى ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾، أي تنزيهاً لك من أن تكون خلقتهما باطلاً، ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: صدَّقْنا رسلَك، وسلَّمنا أنّ لك جنّةً وناراً، فَقِنا عَذابَ النَّارِ[3].

التسبيح اعتراضٌ للتَّنزيهِ عن العَبَث، وأن يَخلُقَ شيئًا بلا حِكْمَة

سرّ استعمال الفاء:

وقولُه: ﴿فَقِنَا﴾ دخلَتِ الفاءُ هنا لمعنَى الجَزاء، فالتَّقديرُ: إذا نزَّهْناكَ أو وحَّدْناكَ فَقِنا عذابَ النَّار[4]، أو هي للعطف، وفي دخولها وجهان: أحدُهما: الوقوفُ على تحقق العذابِ فالفاءُ لترتيبِ الدّعاءِ عَلَى الإقرار المذكور، والثاني: الاستعدادُ لقبول الدعاءِ فالفاءُ لترتيب المدعوِّ، أي: الوقاية على ذلك، كأنه قيل: وإذ قد عرَفنا سرَّك وأطعنا أمرَك ونزّهناك عما لا ينبغي فقِنا عذابَ النّارِ الّذي هو جزاءُ الّذين لا يعرِفون ذلك[5].

أفادتِ الفاءُ ترتيبَ الدعاء، أو الاستعدادَ لقبوله

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّفكُّر والتَّدَبُّر

قولُه تعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾: سبقَ بيانُ (التَّفكُّر)، وهو التَّدبُّر والاعتبار والاتِّعاظ، وهو أيضًا التّأمّل وإعمال العقلِ للوصول إلى نتيجة أو حلّ، لما يفكّر فيه، وأمّا (التَّدبُّر) فهو: النَّظرُ في عواقب الأُمور[6]، وهو من الفعلِ (دَبَرَ)، يُقالُ: دَبَرَ فلانٌ القومَ: صارَ خَلْفَهم، ودَبَرَ السَّهمُ الهَدَفَ: سقطَ خلفَه، ولذلكَ يُقالُ: التَّدبيرُ: التَّفكُّرُ في دُبُرِ الأُمور[7]، وقولُه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون:

(1) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/488 - 489.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/627.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/274.
(4) العكبريّ، التبيان: 1/163.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/147، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/131.
(6) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (دَبَرَ).
(7) الرّاغب، المفردات، ص: 307.

68]؛ أي: أَلَم يَتفهَّمُواْ ما خُوطِبواْ به في القُرآن[1]، وإذا كان التَّدَبُّر: تصرُّف القلبِ بالنَّظرِ في عواقبِ الأمور، والتَّفكُّرُ: تصرُّف القلبِ بالنَّظرِ في الدَّلائل[2]، عَلِمْنا يقينًا ما في إيرادِ كلمةِ (التَّفكُّر)، دونَ غيرِها، من حكمةٍ بالغةٍ وأثرٍ عظيم، في تَحفيزِ العقلِ والقلبِ، لِينالا حظَّهُما الأَوْفَرَ في جَوَلانِ تلك القُوَّةِ المودَعَةِ فيهما بِخَلْقِ اللّهِ وأمرِه، بالنَّظَرِ الأَمْثَلِ في دلائلِ عظمةِ اللّهِ وقدرتِه ووحدانيَّتِه، قال ابن رشد: "والتّفكّرُ من الأعمال، كما قال مالكٌ رحمهُ اللّه، وهو من أشرفِ الأعمال؛ لأنّه من أعمالِ القلوبِ الّتي هي أشرفُ الجوارح، ألا ترى أنّه لا يُثابُ أحدٌ على عملٍ من أعمالِ الجوارح، من الوضوءِ، والصّلاةِ، والصّيام، والحجّ، وسائرِ الطّاعات إلّا مع مشاركةِ القلوب لها، بإخلاصِ النّيّة للّه (ﷻ) في فعلِها؟"[3].

الباطل، والعبث

سبقَ بيانُ قولِه: ﴿بَٰطِلٗا﴾، والباطل هو نقيضُ الحقِّ، وهو ما لا ثباتَ له عند تمحيصه، ولا مصداقيّة له، عند التّدليل عليه، وأمَّا العَبَثُ: فهو أن يَخْلُطَ بعمله لَعِبًا، والعَبَثُ: طعامٌ مَخْلوطٌ بشَيء، ومنه قيلَ: العَوْبَثانيُّ؛ لتمرٍ وسَمْنٍ وسَويقٍ مُختَلِط، قالَ تعالى: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨﴾ [الشعراء: 128]، ويُقال لمن ليس له غَرَضٌ صحيحٌ: عَبَثٌ، قال ﷻ: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥﴾، وبالنَّظَرِ في الفرقِ بين الكلمتَيْن، يظهرُ أنَّ سياقَ النَّصِّ القرآنيِّ، لا يَقبَلُ وجودَ كلمةِ (عَبَثًا)، فهؤلاء المتفكِّرون المتدبِّرون في آياتِ اللّهِ وعظيمِ خَلْقه ﷻ، يُنزِّهونَ خالقَهم عن أيِّ فعلٍ أو أمرٍ أو حُكمٍ يُناقِضُ الحقَّ، ومفهومُ مناقضةِ الحقِّ أوسعُ دَلالةً وشُموليَّةً من مجرَّدِ مجانبةِ اللهو واللَّعب، كما تَعنيهِ كلمةُ (عَبثًا)، وخاصَّةً أنَّها سُبقتْ بقولِه: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ الَّتي تعني تنزيه اللّهِ ﷻ، عن كلِّ ما لا يليقُ به ﷻ، في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه، وأحكامِه وحِكَمِه، وكمالِه وجلالِه وجمالِه؛ ولذلكَ كانتْ كلمةُ ﴿بَٰطِلٗا﴾ أوفَرَ حظًّا في تحقيقِ الغرضِ المرادِ من سِياقِ النَّصِّ القرآنيِّ من كلمةِ (عَبَثًا).

---

(1) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (دَبَرَ).

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 121.

(3) ابن رشد، البيان والتّحصيل: 17/581.

الوقاية والحفظ

قولُه تعالى: ﴿فَقِنَا﴾: سبقَ بيانُ معنَى الوِقايةِ، وهي حفظُ الشَّيءِ ممَّا يُؤذِيهِ ويَضُرُّه، وأمَّا الحِفظُ فهو يُستعمَلُ في كلِّ تفقُّدٍ وتَعهُّدٍ ورعايَة، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ [يوسف: 12]: ، وقال سُبحانه: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ [يوسف: 64]؛ أي: حفظُه ﷻ خَيْرٌ من حفظِ غيرِه، والحِفَاظُ: المُحافَظةُ، وهي أنْ يحفَظَ كُلُّ واحدٍ الآخَر[1]، وبالعَودِ لمعنَى (الوِقاية) نجدُها أَوْفَرَ قُوَّةً في المعنَى، وأَصْوبَ قِيلًا، من حيثُ ما يريدُه سِياقُ النَّصِّ القرآنيِّ، من شدَّة الحفظِ، من كلِّ ما يُؤذِي ويَضُرُّ، وهي مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا، بالإبعادِ عن كلِّ شرٍّ، ولا أشدُّ شرًّا من أهوالِ يومِ القيامة، والَّذي يُعاني فيه الكفَّارُ والمنافقونَ ما يعانون؛ ولذلكَ جاءَ فعلُ الوِقايةِ دونَ الحفظِ، في أخطرِ المواقف، وأَحْلَكِ الظُّروفِ، وأشقّ الأَحْوال، وقد جاء لفظ الوقاية خصوصا من موقف الآخرة المخزي، بما فيه من هول وهلاك، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ [الإنسان: 11]؛ وفي التّحذير من فعل ما يغمس في النّار، وذلك في قولِه تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: 6]، والنّذارة من شرّ المصير الأكيد، وذوق العذاب الشّديد، وذلك ما يعبّر عنه قولِه تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦﴾ [اللّيل: 14 - 16].

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 244 - 245.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾ [آل عمران: 192]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ما للظّالمين من نجاةٍ ولا فرارٍ، إلّا إلى النّار وبئسَ القرارُ

لَمَّا وصفَ بيانُ اللّهِ في الآيةِ السَّابقة، أهلَ العقولِ الذّكيَّة، في ذكرِهم للّهِ في جميعِ أحوالِهم، وتَفكُّرِهم في خلقِ السَّماواتِ والأرضِ، واسْتغاثَتِهم باللّهِ، أن يَقيَهم عذابَ النَّار، جاءَ بيانُ اللّهِ في هذه الآية الكريمة، ليُتمِّمَ اسْتجارتَهم باللّهِ، بأنْ لا يجعلَهم ممَّن يُخزيهم، أو يجعلَهم من الظَّالمين؛ لأنَّ مصيرَ أولئكَ هو النَّار، "إنّهم يضرعون إلى ربّهم قائلين: يا ربّنا وخالقنا، إنّ من يستحقّ النّار بأعمالِه السّيئةِ سيلقاها لا محالة، وبذلك تكون قد أخزيته، وأظهرتَ فضيحتَه، وليس للظّالمين الّذين استحقّوا النّارَ أنصارٌ يحمونَهُم يومَ القيّامة من دخولِ النّار"[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخۡزَيۡتَهُۥۖ﴾: خَزيَ الرَّجُلُ: لَحِقَهُ انْكسارٌ، إمَّا من نَفْسِه، وإمَّا من غيرِه، فالَّذي يلحقُه من نَفْسِه، هو الحياءُ المُفرِطُ، ومصدرُه الخَزَايَةُ، ورَجُلٌ خَزْيانٌ، وامرأةٌ خَزْيَى، وجمعُه خَزايا، والَّذي يَلحقُه من غيرِه، يُقالُ: هو ضَرْبٌ من الاستِخْفاف، ومصدرُه الخِزْيُ، قالَ تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الزّمر: 26]، وقولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾ [التّحريم: 8]، فهو من الخَزَاية والخِزي جميعًا، وإنْ كانَ مِنَ الخِزْيِ أَقرَب[2]، قال الواحديّ: " للإخزاء معانٍ متقاربةٌ، يقال أخزاه اللّه أي أبعده، وقيل

(1) القطّان، تيسير التّفسير: 1/259.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 281.

أهانه، وقيل أهلكه، وقيل فضحه، قال ابن الأنباريّ: الخزيُ لغةً الهلاكُ بتلف، أو بانقطاع حجّةٍ، أو بوقوع في بلاء، والمعنى فقد أخزيته خِزياً لا غايةَ وراءَه"[1].

2) ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾: تقدَّمَ تفصيلُ الكلام في معنى (الظُّلم)، يقال: ظلمه يظلمه ظلما ومظلمة، وأصله وضع الشّيء في غير موضعه، ويقال: (مَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ)[2]، وقوله تعالى ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، "يحتملُ أن يكونَ من قول عيسى - عليه السلام - لبني إسرائيل، ويحتملُ أن يكون إخبارًا مستأنفًا لمحمّد ﷺ "[3].

3) ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾: النَّصرُ والنُّصرَةُ: العَوْنُ، قالَ تعالى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: 13]، ونُصرةُ اللّهِ للعبدِ ظَاهِرةٌ، ونُصرَةُ العَبْدِ للّه: هي نُصرتُه لعبادِه، والقيامُ بحفظِ حُدودِه، ورِعايةِ عُهُودِه، واعْتناقِ أحكامِه، واجْتنابِ نَهيِه، قالَ تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: 7]، والانْتصارُ والاسْتِنْصارُ: طلبُ النُّصْرَة، كما قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩﴾ [الشورى: 39]، ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ [الأنفال: 72]، وإنَّما قالَ نوحٌ عليه السلام: ﴿فَٱنتَصِرۡ ١٠﴾ [القمر: 10]، في قولِه تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠﴾ [القمر: 10]، ولم يقلْ: انْصُرْ؛ تنبيهًا أنَّ ما يَلحقُني يَلحقُكَ، من حيثُ إنِّي جِئتُهمْ بأمرِك، فإذا نَصَرتني فقدِ انْتصرتَ لنفسِك، والتّناصرُ: التَّعاون، قالَ تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥﴾ [الصافات: 25][4]، ونُصِرَ أرضُ بني فُلان؛ أي: مُطِرَ، وذلك أنَّ المَطَرَ هو نُصرةُ الأرض[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يتوجّهُ المؤمنونَ المتفكِّرونَ في آياتِ اللّهِ في كونِه بالدُّعاءِ إلى موْلاهُمْ وخالقِهم أنْ يَقيَهم عذابَ النَّار؛ لأنَّ الإهانةَ كُلَّ الإهانةِ هي في دخولِ النَّار، ويُقرِّرُ بيانُ اللّهِ حقيقةَ مَنْ ظَلمُواْ وتجبَّرواْ في الدُّنيا، أنَّه لا مُجيرَ لهم، ولا مُدافعَ عنهم يومَ القيامة، وخلاصة

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/131.

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (ظَلَمَ)، والشّطر صدر بيت لزهير بن أبي سلمى، ومعناه: فما وضع الشّبه في غير موضعه، وهو بتمامه:

أَقُولُ كَمَا قد قَالَ قَبْلِي عالِمٌ *** بِهِنَّ وَمَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمْ

ينظر: كعب بن زهير، ديوانه، ص: 65، وكذلك: شرح المفضّليات، ص: 701.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/221، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/468.

(4) الرّاغب، المفردات، ص: 809.

(5) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/46.

ذلك: "أي إنّهم بعد أن يدعُواْ ربّهم أن يقيهم دخولَ النّار، يتوجّهُون إليه قائلين هذا القول، دلالةً على عظم هذا العقابِ وشدّته، وهو الخزيُ والفضيحةُ، ليكون موقعُ السّؤال أعظمَ، لأنّ من طلبَ من ربّه شيئًا، وشرح عظمَ المطلوب وقوّته، كانت الدّاعيةُ إلى الدّعاءِ أكملَ، والإخلاصُ في الطّلب أشدَّ"(1).

من وقاه اللهُ نارَ القيامة، فقد فازَ في مآله، وحاز في الجنّة مقامه

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة تصدير الآية بالنِّداءِ:

لقد نادَوا ربَّهم بأرقِّ لفظٍ وأجملِ بيانٍ مُشْعِرٍ بالحنان، والشفقة؛ فقالوا: "﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ﴾؛ أي أهنتَه وفضحتَه، و﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ يعني: ما للمشركين من مانعٍ من العذاب، إذ نزلَ بهم"(2)، وفي تصدير الجملة بالنّداء مبالغةٌ في التّضرعِ والجُؤار(3).

التصدير بالدّعاءُ للمُبالغةِ في التَّضرُّعِ، والجؤار إليه

فائدة التوكيد في الآية:

وسِيقَ التّأكيدُ بـ ﴿إِنَّكَ﴾ لإظهارِ كمالِ اليقينِ بمضمونِها، والإيذانِ بِشدَّةِ الخَوْف، وتوثيق الطّلبِ بالدّعاء الرّاسخ المخلص، بأن يقيهم اللّه مغبّةَ الهوانِ، وحرجَ العذابِ الهُونِ، وهناك لا نصرةَ للظّالمين، ولا عونَ لهم ولا سندَ، بل سيواجهون الحقيقةَ وجهًا لوجه؛ حيث يتجلّى بيقين قولُ اللّه: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾(4).

في التوكيد بـ (إنَّك) إظهارٌ لكمالِ اليقين بالمضمون، والإيذانِ بشدَّةِ الخَوْف

قولُه تعالى ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ﴾: جاءَ قولُه: ﴿إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ﴾ بعدَ الدُّعاءِ بالوِقايةِ من النَّارِ في قولِه: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، مبالغةً في اسْتدعاءِ الوِقاية، وبيانًا لِسَببِه.

أفادَ التوكيدُ المبالغةَ في تضرُّعِ أصحابِ العقولِ الرَّشيدةِ، أنْ يَقيَهم اللهُ من دخولِ النَّار

(1) المراغيّ: تفسير المراغيّ: 4/164.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/274.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/628.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/628.

إظهارُ ﴿ٱلنَّارَ﴾ في مَوْضعِ الإضمار:

إيثارُ الإظهار على الإضمار بيانٌ لهول أمر النار

وإظهارُ ﴿ٱلنَّارَ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ﴾ في مَوْضعِ الإضمار؛ لتهويلِ أمرها[1].

نكتة اصطفاء لفظي (الإدخال، والخزي) في مورد العذاب:

في إيثار لفظي: (الإدخال، والخزي) تعيين للكيفيّة، وتبيين لفظاعة العذاب

ذُكِرَ الإدْخالُ في ﴿تُدۡخِلِ﴾ في موردِ العذاب؛ لتعيينِ كيفيَّتِه وتَبيينِ غايةِ فَظاعتِه، والخِزيُ لغةً: الهلاكُ بِتَلَف، أو بانْقطاعِ حُجّة، أو بوقوعِ في بلاء؛ والمعنَى: فقدْ أَخْزيتَه خِزْيًا لا غايةَ وراءَه، ولا منتهى له، وفيه كذلكَ مِنَ الإشْعارِ بفظاعةِ العذابِ الرُّوحانيِّ ما لا يَخفَى[2]، جاء في لطائف الإشاراتِ "من ابتليتَه في الآجلِ بالحرقةِ فقد أخزيتَه، ومن ابتليتَه بالفرقةِ في العاجلِ فقد أشقيتَه، ومن أوليتَه بيُمن الوصلة، فقد آويتَه وأدنيتَه"[3]، وذلك مُبتغى المؤمن في رجائه الفلاحَ في الدّنيا، والفوزَ في الآخرة، وقد قال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: 185].

دلالةُ التّذييل في الفاصلة:

فائدة التذييل بيان شنيع حالهم بفقدان الناصر والمخلّص

وفي قولِه: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ تَذييلٌ لإظهارِ نهايةِ فَظاعةِ حالِهم، ببيانِ خُلودِ عذابِهم بفُقدانِ مَنْ يَنصُرُهم، ويقومُ بتَخليصِهم، وغَرَضُهم تأكيدُ الاسْتدعاء.

بلاغة التّعبير بلفظ ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾:

في إظهار لفظ الظالمين مزيدُ ذمٍّ لهم، وفي جمعه وصوغه دليل كثرتهم، ورسوخ صفة الظلم فيهم

ووضَعَ ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ موضعَ ضميرِ المُدْخَلينَ لِذَمِّهم، والإشْعارِ بتعليلِ دُخولِهمُ النَّارَ بظُلمِهم، ووضعِهمُ الأشياءَ في غيرِ مواضعِها، وصوغه على هيئة الفاعل مجموعًا دليل كثرتهم، ورسوخ صفة الظلم فيهم؛ ممّا يجعلهم مستحقين للعذاب، وجَمعَ الأنصارَ بالنَّظرِ إلى

---

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/628.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/628.

(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/306.

جميعِ الظَّالمين؛ أي: ما لِظالمٍ من الظَّالمينَ نصيرٌ من الأَنصار؛ والمرادُ به: مَنْ ينصُرُ بالمُدافَعةِ والقَهْر[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخِزْي والذِّلّ

سبقَ بيانُ (الخِزْي)، وهو أن يلحق الرَّجُلَ انْكسارٌ، إمَّا من نَفْسِه، وإمَّا من غيره، وأمَّا (الذُّلُّ): فهو ما كانَ عن قَهْر، يُقالُ: ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا، والذِّلُّ بالكسر، ما كان بعد تصعّب، وشماس من غير قهر[2]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: 24]؛ أي: كن كالمقهورِ لهما، قالَ اللّه تعالى عنِ اليهود: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ [البقرة: 61]، والذُّلُّ متى كانَ من جهةِ الإنسانِ نفسِه لِنَفْسِه فمحمودٌ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: 54][3]، والخِزْي كما سبقَ يَلحَقُ صاحبَه انكسارٌ واسْتِخفافٌ وهَوانٌ، مع زيادة معنًى آخر، وهو أنَّ الخِزْيَ ذُلٌّ مع افْتِضاح[4]، ولذلكَ اسْتخدمَ البيانُ الإلهيُّ كلمةَ (الخِزْي)، بدَلَ (الذُّلِّ)، فهي أوقعُ أَثَـرًا في مفهومِ سِياقِ النَّصِّ القُرآنيِّ الَّذي وَرَدتْ فيه.

النُّصْرة والوَلاية

سبقَ بيانُ (النُّصْرة) في فِقرة: شرح المفردات، وهي العَوْنُ بكلّ أشكاله وألوانه، بغرض المؤازرة والتّأييد والدّعم، وأمَّا (الوَلاية) - بفتحِ الواو - : فهي النُّصْرَةُ لمحبَّةِ المَنصور والسُّمعَة؛ لأنَّها تُضادُّ العَداوة، والنُّصرةُ تكونُ على الوَجْهين[5]، وأولئكَ الظَّالمون ليس لهم في واقعِ الحالِ الَّذي كانواْ عليه في حياتهمُ الدُّنيا، من أولياءَ يَنصرونَهم ويُؤازرونَهم، بدافعِ المحبَّة والخوفِ عليهم؛ بل بدافعِ المصالحِ الشَّخصيَّة، والمكاسبِ الماديَّةِ الدُّنيويَّة، والخوفِ على أنفُسِهم هُمْ، لا على أولئك؛ ولذلكَ لم يَستخدم البيانُ الإلهيُّ كلمةَ (الوَلاية)؛ لأنَّها لا تُحقِّقُ المرادَ من سِياقِ النَّصِّ القُرآنيّ، الَّذي يَفضَحُ أولئك

---

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/628.

(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (ذلل).

(3) الرّاغب، المفردات، ص: 330.

(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 215.

(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 577.

الظَّالمينَ، بأنَّ مَنْ كان يَشُدُّ أَزْرَهم، ويُدافعُ عنهم على الوَجهِ الَّذي ذكرناه، هو الآن بِمنأَى عنهم؛ بل هو يَحتاجُ لمن يُواليه ويُناصرُه، لكن لا سَبيل، وهذا على مبدأ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: 94].

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾ [آل عمران: 193]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لا نجاةَ من الخِزي وسوءِ العاقبةِ إلّا بالاستجابةِ للحقِّ، ونيلِ غُفرانِ اللهِ

يسوقُ لنا بيانُ اللهِ تعالى هنا تتمَّةَ أدعيّةِ أولي الألباب، إذْ لَمَّا أعلَنُوا في الآيةِ السَّابقةِ، أنَّ الظَّالمَ الَّذي يَدْخلُ النَّارَ، يَحِلُّ به الخِزيُ، ولن يجدَ مَنْ يُواليه ويُنقذُه منها، يُقدِّمون لأنفسِهم عندَ خالقهم في هذه الآية، تقريرًا عنِ استجابتِهم لنداءِ مَنْ نَاداهم للإيمانِ، قبلَ دعائِهم أن يغفرَ اللّه لهم ذنوبَهم، ويَتوفَّاهم مع عبادِه الأبرار، لعلَّ اللّه أن يستجيبَ دُعاءَهم، وقولهم: " ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا﴾: حكايةٌ لدعاءٍ آخرَ لهم، وتصديرُ مقدّمةِ الدّعاءِ بالنّداءِ، لإظهارِ كمالِ الضّراعةِ والابتهالِ، والتأكيدُ للإيذانِ بصدورِ المقالِ عنهم، بوفورِ الرّغبةِ، وكمالِ النّشاطِ، والمرادُ بالمُنادي الرّسول ﷺ، والتّنوينُ للتّفخيم"[1].

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مُنَادِيٗا يُنَادِي﴾: النِّداءُ: - بضمِّ النُّون وكَسْرِها - : الصَّوتُ، ونَاديتُه، ونَاديتُ به، وهو نَدِيُّ الصَّوْتِ: بَعيدُه، ونَخْلٌ نَادِيةٌ: بعيدةٌ عن الماء، وتَنادَوا: نادى بعضُهم بعضًا، وتَجَالَسُوا في النَّادي، وأنْدَى: كَثُرَ عَطَاياهُ، أو حَسُنَ صوتُه، ونَدَا القومُ نَدْوًا: اجْتَمَعُوا، كانْتَدَوا وتنَادَوا[2]، "في المنادي قولان: أحدُهما: أنّه النّبيُّ ﷺ، قاله ابن عبّاس، وابن جريج، وابن زيد، ومقاتل، والثّاني: أنّه القرآنُ، قاله محمّد بن كعب القرظيّ، واختاره ابنُ جرير الطّبريّ"[3].

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/131، ومحاسن التّأويل: 2/483.

(2) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (نَدَا).

(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/361، والماورديّ، النّكت والعيون: 1/442.

2) ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: اللّفظان يؤدّيان المعنى المطلوب مع بعضهما، فاللّفظُ الأوّلُ ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾، من الغَفْر: وهو إلباسُ المرء ما يَصونُه عن الدَّنَس، ومنه قيلَ: اغْفِرْ ثوبَكَ في الوِعاء، واصْبِغْ ثوبَكَ، فإنَّه أَغْفَرُ للوَسَخ، والغُفْرانُ والمَغفرةُ من اللّه: هو أنْ يصونَ العبدَ من أنْ يَمَسَّه العذابُ، قالَ تعالى: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾، وقد يُقالُ: غَفرَ له إذا تجافَى عنه في الظَّاهر، وإنْ لم يَتجافَ عنه في الباطِن، كما في قولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: 14]، والاسْتغفارُ: طلبُ ذلكَ بالمقالِ والفِعال[1]، واللّفظُ الثّاني قوله ﴿ذُنُوبَنَا﴾، جمعٌ مفرده ذنْبٌ، في الأصلِ: الأَخْذُ بِذَنَبِ الشَّيء، يُقالُ: ذَنَبْتُه: أصبْتُ ذَنَبَهُ، ويُستعمَلُ في كلِّ فعلٍ يُستَوخَمُ عُقْباه، اعْتبارًا بِذَنَبِ الشَّيء، ولهذا يُسمَّى الذَّنْبُ تَبِعةً، اعْتبارًا لما يحصُلُ من عاقبتِه، وجَمعُ الذَّنْبُ ذُنُوبٌ، قالَ اللّه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾ [آل عمران: 11][2].

3) ﴿وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾: اللّفظان يتعاضدان لأداء المعنى المراد، في سياق هذه الآية، فاللّفظ الأوّل ﴿وَكَفِّرۡ﴾، من لفظ الكُفْر، وهو في اللُّغة: سَتْرُ الشَّيء، وَوُصِفَ اللّيلُ بالكافرِ، لسَترِه الأَشْخاص، والزُّرَّاعُ لسَترِهمُ البِذْرَ في الأرض، كما في قولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: 20]، وكُفْرُ النِّعمةِ وكُفرانُها: سَترُها بتركِ أداءِ شُكرِها، قالَ تعالى: ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ [الأنبياء: 94]، وأعظمُ الكُفْر: جُحودُ الوحدانيَّةِ أوِ الشَّريعةِ أوِ النُّبُوَّة، واللّفظ الثّانيّ، قولُه: ﴿سَيِّـَٔاتِنَا﴾، من السُّوءُ: وهو كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ منَ الأمورِ الدُّنيويّةِ والأُخْرَويَّة، ومِنَ الأحوالِ النَّفسيّة، والبَدَنيّة، والخارجَة من فواتِ مالٍ، وجاهٍ، وفَقْدِ حَميم، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾ [النحل: 27]، وعبَّر عن كلِّ ما يَقبُحَ بالسُّوأَى؛ ولذلكَ قُوبِلَ بالحُسنَى، قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10]، وقال: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: 26]، والسَّيِّئَةُ: الفِعْلةُ القَبيحةُ، وهي ضِدُّ الحَسَنَة، قالَ تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ﴾ [البقرة: 81]، والحَسَنةُ والسَّيِّئةُ ضَرْبان، أحدُهما: بِحَسَبِ اعْتبارِ العقلِ والشَّرْع، كما في قولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ [الأنعام: 160]، وثانيهما: بِحَسَبِ اعْتبارِ الطَّبْع،

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 331.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 609.

وذلك ما يَستخفُّه الطَّبعُ ويَستثقِلُه، كما في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف: 131][1].

4) ﴿وَتَوَفَّنَا﴾: أَوْفَى فلانًا حقَّه: أَعْطاه وافِيًا، كوفَّاه ووَافاه، فاسْتوفاه وتَوفّاه، والوَفَاةُ: الموتُ، وتوفّاه اللّه: قَبَضَ رُوحَه[2]، ودُعاءُ المؤمنينَ ربَّهم أنْ يتوفَّاهم مع الأبْرار، يعني: يَسْتَوفي أجلَهم ويَقبِضُ أرواحَهم مع زُمرة الأبْرار، فيحشُرُهم ويُدخِلُهُمُ الجنَّة معهم، قوله ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾: "أي: في عددِهم، وفي زمرتِهم، وقيل: المعنى وتوفّنا أبراراً مع الأبرارِ"[3].

5) ﴿ٱلۡأَبۡرَارِ﴾: البَرُّ: خلافُ البَحر، وتُصوِّرَ منه التَّوسُّعُ فاشْتُقَّ منه البِرُّ، أي: التَّوسُّعُ في الخَيْر، ويُنسَبُ ذلكَ إلى اللّهِ تارةً نحو: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطور: 28][4]، وإلى العبدِ تارةً، فيُقالُ: بَرَّ العبدُ ربَّه؛ أي: تَوسَّعَ في طاعتِه، فمنَ اللّهِ الثَّوابُ، ومن العبدِ الطَّاعة، وذلك ضربان: الأوَّل: في الاعْتقاد، والثَّاني: في الأعمال، وقد اشْتملَ عليهما قولُه - ﷻ - : ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: 177]، وتَضمَّنتِ الآيةُ الكريمة بتمامِها جميعَ أنواع البرِّ، بدءًا بالاعتقاد ثمّ الأقوال والأعمال، ويُقالُ: بَرَّ أبَاه، فهو بارٌّ وبَرٌّ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ [مريم: 32]، وجمعُ البارّ: أَبْرارٌ وبَرَرَةٌ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣﴾ [الإنفطار: 13]، وقالَ في صفةِ الملائكة: ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾ [عبس: 16][5]، فبَرَرَةٌ خُصَّ بها الملائكةُ في القرآنِ، من حيث إنَّه أبلغُ من أَبْرار، فإنَّه جمعُ بَرٍّ، وأَبْرارٌ جمعُ بارٍّ، وبَرٌّ أبلغُ من بارٍّ، كما أنَّ عَدْلًا أبلغُ من عَادِل[6].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

ينقُلُ لنا سياق هذه الآية الكريمة، أدعيةَ المؤمنينَ أُولي الأَلْباب، والَّتي منها في هذه

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 441 - 442.

(2) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (وَفَى).

(3) مكيّ بن أبي طالب، الهداية: 2/1204.

(4) "البَرُّ: اسم من أسماء الله الحُسنى، ومعناه: فاعل البرّ والإحسان، الّذي يُصلح أحوال عباده، ويُحسن إليهم في دينهم ودُنياهم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطّور: 28]"، ينظر: أحمد مختار عمر: معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 1/187.

(5) الرّاغب، المفردات، ص: 114 - 115.

(6) الزّركشي، البرهان: 4/18، والسُّيوطي، الإتقان: 1/253.

الآية، والّتي مفادها قولهم: ربَّنا إنَّنا سَمِعْنا داعيًا يَدْعو إلى الإيمان، وهو رسولُكَ محمَّدٌ ﷺ، يقولُ: ﴿ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾، فاسْتجبْنا له واتَّبعْناه، فامْحُ يا ربَّنا ذنوبَنا بينَنا وبينَ عبادِك، واسْتُرها فيما بينَنا وبينَك، واقبِضْ أرواحَنا وألْحِقْنا مع الصَّالحين من عبادِك[1]، "وفي تقدمةِ الدّعاء بالنّداء، إشارةٌ إلى كمال توجّههم إلى مولاهم، وعدم غفلتهم عنه، مع إظهار كمال الضّراعةِ والابتهالِ، إلى من عوّدهم الإحسان والإفضال"[2].

إظهارُ كمالِ الضّراعةِ والابتهالِ، باعتبار الله مصدرَ الإحسانِ والإفضالِ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ افتتاح الدّعاء بالنِّداء:

اتّساعُ الأساليبِ للمعاني الجليلةِ، الَّتي تمخّضت عن ابتهالاتِ المؤمنين ودعواتهم الخالصة

قولُه تعالى ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾: نجد تصديرَ مُقدِّمةِ الدُّعاءِ بالنِّداءِ؛ لإظهار كمالِ الضَّراعةِ، والابْتهالِ، والقرب المتحقّق بحذف حرف النداء.

سرُّ تعقيب النداء بالتّوكيد:

في التوكيد إظهارٌ لكمال الرَّغبةِ، والنَّشاط، واليقين

جاءَ التَّأكيدُ في ﴿إِنَّنَا﴾؛ للإيذانِ بِصدُور المقالِ عنهم بِمَوْفُورِ الرَّغبةِ، وكمالِ النَّشاط، وبتمام اليقينِ بمضمونِها[3].

براعة التعبير بلفظ النداء:

عُدِّيَ النداء باللام للتخصيص

المرادُ بالنِّداء في قولِه تعالى: ﴿سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾: الدُّعاءُ، وتَعْدِيتُها باللَّام لاشْتمالِها على معنَى التَّخصيص[4]، ويمكنُ أن تكونَ (اللَّام) بمعنَى: أجل[5].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/387.
(2) المراغيّ: تفسير المراغيّ: 4/164.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.
(5) الهرويّ، الأُزهيّة في علم الحروف، ص: 287، وأبو حيَّان، ارتشاف الضّرب: 4/1707.

في التنوين تعظيمٌ لشأن المنادي، والنداء، وتفخيمٌ لهما

نكتة تنوين لفظ المنادي:

والمرادُ بالمُنادِي الرَّسولُ ﷺ [1]، وتَنْوينُ لفظ ﴿مُنَادِيًا﴾ تعظيمًا لشأنه ﷺ وتَّفخيمًا لشأن النداء.

إيثار لفظ النداء بيانٌ لكمال اعْتنائه بِشَأْنِ الدَّعوة، وصورة تبليغها

سرُّ إيثار لفظ النداء على الدعوة:

إيثارُ لفظ (المنادي) على (الدَّاعي) في قوله: ﴿مُنَادِيًا يُنَادِى﴾؛ للدَّلالةِ على كمالِ اعْتنائه بِشَأْنِ الدَّعوة، وتَبليغِها إلى الدَّاني والقَاصِي، لما فيه منَ الإيذانِ برفعِ الصَّوْت[2].

في النداء وجهُ إبهامٍ، فيكون البيانُ فيه أكثرُ ثباتًا

دلالةُ النداء للإيمان:

يلاحظُ في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ "أنّه أطلقَ المُنادي، ثمّ ذكرَ بعد ذلك، أنّه ينادِي بالإيمان، وذلك لما فيه من إبهامٍ بعده بيان، فيكون البيانُ أكثرَ ثباتًا، ولأنّ الإطلاقَ أعطى المنادي تفخيمًا وتكبيرًا؛ ولأنّ النّداءَ إلى الحقّ، اعتبرَ كالعنوان له، وثالثها: أنّ الإيمانَ ذكر مطلقًا، على أنّه إيمان بالرّبِّ، وذلك للدّلالة على الإذعان المطلق للّهِ وللحقّ والهدى، اللهم هبنا إيمانًا بالحقِّ وإذعانًا له، وقد أجابوا نداءَ الإيمان، فقالوا ﴿فَـَٔامَنَّا﴾، وسماع النّداء لا يلزم أن يكونَ من شخصِ المُنادي، بل يعمّ السّماعَ من شخصه، وتتّبعَ رسالتِه من بعده"[3].

ذكـرَ الـنّـداءَ مطلقًا ثمّ مقيّداً بالإيمان، تفخيمٌ لشأن المنادي

وقال الزّمخشريّ: "فإن قلت: فأيّ فائدة في الجمع بين المُنادي، وينادي؟ قلت: ذكرَ النّداءَ مطلقًا ثمّ مقيّداً بالإيمان، تفخيمًا لشأن المنادى؛ لأنّه لا منادَى أعظمَ من منادٍ يُنادي للإيمان، ونحوه قولك: مررتُ بهادٍ يهدي للإسلام؛ وذلك أنّ المنادى إذا أطلق، ذهب الوهمُ إلى منادٍ للحرب، أو لإطفاءِ النّائرة، أو لإغاثةِ المكروبِ، أو لكفايةِ بعض النّوازل، أو

(1) وقال القُرطي: "يعني: القرآن، فليس كلُّ أحدٍ يلقَى النَّبيَّ ﷺ"، ينظر: ابن جرير، جامع البيان: 4/212، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 3/842، ولا تعارضَ بينهما فإنّ ما يدعو إليه رسولُ الله ﷺ هو عينُ ما يدعو إليه القرآن.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.

(3) أبو زهرة: زهرة التّفاسير: 3/1550.

لبعضِ المنافع، وكذلك الهادي، قد يطلقُ على من يهدي للطّريق، ويهدي لسدادِ الرّأي، وغير ذلك، فإذا قلت: يُنادي للإيمان، ويهدي للإسلام، فقد رفعتَ من شأن المنادي والهادي وفخّمته، ويقال: دعاه لكذا وإلى كذا، وندبَه له وإليه، وناداه له وإليه، ونحوه: هداه للطّريق وإليه؛ وذلك أنّ معنَى انتهاءِ الغاية، ومعنى الاختصاصِ واقعان جميعًا"[1].

فائدة الجمع بين ﴿مُنَادِيًا﴾ و﴿يُنَادِى﴾:

في الجمع توكيدٌ، وحسنُ تكرير، وإثباتٌ لسماع النداء

وفي ذكرِ الفعلِ ﴿يُنَادِى﴾ مع دَلالةِ الاسم ﴿مُنَادِيًا﴾ عليه ثلاثةُ أَوَجُهٍ بلاغيَّة[2]: الأوّل: هو التَّوكيد، كما يقولُ أحدُهم: قُمْ قائمًا، الثّاني: أنَّه وصلَ به ما حَسُنَ التَّكرير، وهو قولُه: ﴿لِلۡإِيمَٰنِ﴾، الثَّالث: أنَّه لو اقْتصَرَ على الاسْمِ لجازَ أن يكونَ سمعَ مَعروفًا بالنِّداءِ يذكرُ ما ليسَ بنداء، فلمَّا قالَ: ﴿يُنَادِى﴾ ثبتَ أنَّهم سَمِعوا نداءَه في تلكَ الحال، ولذا كان مفعولُ ﴿يُنَادِى﴾ محذوفًا، تقديرُه: يُنادي النَّاسَ.

في تكرار لفظ النداء وجهُ إطنابٍ زيادة في التوكيد والتعظيم

وفي الآية إطنابٌ بالتّكرار، وهو الجمعُ بين لفظ ﴿مُنَادِيًا﴾ ولفظ ﴿يُنَادِى﴾، وذلك أنّه ذكر النّداء في الأوّل مطلقًا، ثمّ ذكره في الثّاني مقيّدًا بالإيمان، توكيدًا وتعظيمًا؛ إذ لا مناديَ أعظمُ من مُنادٍ يدعو إلى الإيمانِ، وهو محمّدٌ ﷺ، أو القرآنُ الّذي أنزل عليه بحسب ما رجَّحَ ابن جرير الطّبري محتجًّا بأنّ كثيرين ممّن وصفهم اللّه بهذه الصّفة، في هذه الآياتِ ليسوا ممّن رأى النّبيّ ﷺ، فسمعواْ دعاءَه إلى اللّهِ - تبارك وتعالى - ونداءه، ولكنّه القرآنُ[3].

وجه التعبير بـ ﴿أَنۡ﴾:

معنى (أن) التفسيريّة، أو المصدريّة

﴿أَنۡ﴾: فيها وجهان[4]: الأوّل: أنّها تفسيريّة؛ وذلكَ لما في فعل ﴿يُنَادِى﴾، من معنَى القولِ دونَ حروفه، فيكون النِّداءُ قولَه: آمنوا،

(1) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/455.

(2) العكبريّ، التبيان: 1/163.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/138.

(4) العكبريّ، التبيان: 1/163، وهذا ما ذكره الزّمَخْشري في الكشّاف: 1/489، ومختَصرًا بقولِه: "أي: آمنوا أو بأن آمنوا".

والثَّاني: أنَّها مصدريّة، وُصلتْ بالأمر؛ فيكونُ التَّقديرُ: على هذا يُنادي للإيمان بأنْ آمنوا.

فائدة الفاء في فعل الاستجابة ﴿فَـَٔامَنَّاۚ﴾:

سيقتِ الفاءُ للدَّلالةِ على المبادَرةِ إلى الإيمان؛ وهو دليلُ سلامةِ الفِطْرة

الفاءُ في ﴿فَـَٔامَنَّاۚ﴾ للتَّعقيب، سيقتْ للدَّلالةِ على المبادَرة والسَّبْقِ إلى الإيمان؛ وذلكَ دليلُ سلامةِ فِطْرتِهم من الخطأ والمُكابَرَة، وقدْ تَوسَّمُوا أن تكونَ مُبادَرتُهم لإجابةِ دعوةِ الإسلام، مشكورةً عندَ اللّهِ تعالى؛ ولذلكَ فرَّعوا عليه قولَهم: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾؛ لأنَّهم لما بَذَلوا ما في وُسْعِهم من اتِّباع الدِّين كانوا حَقيقينَ بترجِّي المَغفرة[1].

بلاغة تقييد الإيمان بلفظ ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾:

في إطلاقِ الإيمانِ ثمَّ تقييدِه (بربّكم) تَفخيمٌ لشَأنه وإعظامٌ لقَدْرِه

وقولُه ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾: أي: بمالِكِكُم ومُرَبِّيكم ورازقِكم ومُتولِّي أموركم ومُبلِّغِكُم إلى الكمال، وكلِّ ما تفيدُه كلمةُ (الرَّبِّ) من المعاني الفائقةِ الجليلة، وفي إطلاقِ الإيمانِ ثمَّ تقييدِه ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾ تَفخيمٌ لشَأنه وإعظامٌ لقَدْرِه، وهو كذلك[2].

براعة تكرار لفظ الربوبيّة:

تكرير لفظ الرُّبوبيَّة للتَّضرُّع، وإظهارِ كمالِ الخُضوع

ولفظُ ﴿رَّبَّنَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ تكريرٌ للتَّضرُّع، وإظهارٌ لكمالِ الخُضوع، وعَرضٌ للاعْتراف بربوبيَّتِه سبحانه مع الإيمانِ به.

فائدة الفاء في فعل الغفران:

التعبير بالفاء؛ لِتَرتيبِ المغفرة، أوِ الدُّعاءِ بها، على الإيمانِ بالله تعالى

والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ لِتَرتيبِ المغفرةِ، أوِ الدُّعاءِ بها، على الإيمانِ به تعالى، والإقرارِ بربوبيَّته، فإنَّ ذلكَ من دَوَاعي المغفرةِ والدُّعاءِ بها[3].

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/199.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.

وجه الجمع بين لفظي: (الغفران، والتكفير):

شاعَ الغُفرانُ في العَفوِ عنِ الذّنبِ، والتَّكفيرُ في تعويضِ الذّنبِ بِعِوَضٍ

والغَفْرُ والتَّكفيرُ متقاربانِ في المادَّةِ المُشْتقَّيْن منها، إلَّا أنَّه شاعَ الغَفْرُ والغُفرانُ في العَفوِ عنِ الذَّنب، والتَّكفيرُ في تعويضِ الذّنب بِعِوَضٍ، فكأنَّما العِوَضُ كفَّرَ الذَّنبَ، أي: سَتَرَه، ومنه سُمِّيتَ كفَّارةُ الإفطارِ في رمضان، وكفَّارةُ الحِنْثِ في اليمين، إلَّا أنَّهم أرادُوا بالذُّنوبِ ما كان قاصرًا على ذَواتِهم؛ ولذلكَ طَلبُوا مَغفرتَه، وأرادوا منَ السَّيِّئَات ما كانَ فيه حقُّ النَّاس، ولذلكَ سألُوا تكفيرَها عنهم[1]، وثمّة وجهٌ يرى عَدَمَ اخْتصاصِ أحدِ اللَّفظيْنِ بأحدِ الأمرين، والآخَرُ بالآخَر؛ بل يكونُ المعنَى في الذُّنوب والسَّيِّئات واحدًا، والتَّكريرُ للمُبالغةِ والتَّأكيد[2].

وجه الجمع أنَّ غفرانَ الذّنوبِ بفضلِه ورحمتِه، وتكفير السّيئات بالطّاعات

"وجَمَعَ بين غفران الذّنوبِ، وتكفير السّيئات؛ لأنّ غفرانَ الذّنوبِ بفضلِه ورحمتِه، وتكفير السّيئات بالطّاعات، كتكفير الحنثِ بالصّوم، والظّهار بالإعتاق، فالمغفرةُ بفضله من غير سببٍ، والتّكفيرُ بسبب طاعةٍ"[3].

وجه التفريق بين لفظي: (الذنب، والسيئة):

السَّيئة عصيانٌ فيه إساءة، والذَّنب فيه تقصير وتباطؤ عن الخير

والفرق بين لفظي: الذنب، والسيئة في قوله تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾: " أنَّ السَّيئة عصيانٌ فيه إساءة، والذّنب فيه تقصير وتباطؤ عن الخير"[4]، ولذلك ناسب الذنوبَ الغفرانُ بوصفه عفوًا، وناسب السيئةَ التّكفيرُ بوصفه تعويضًا لها بعِوَضٍ.

وجه المعيّةِ الاعتباريّة مع الأبرار في الفاصلة:

المَعِيَّةُ مع الأبرارِ أبْلَغُ في الاتِّصاف بالدَّلالة؛ لأنَّه برٌّ يُرجَى دوامُه

وقولُه ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾: المَعِّــيَّةُ هنا مَعِـيَّةٌ اعْتباريَّةٌ، وهي المُشارَكةُ في الحالةِ الكاملةِ، والمَعِيَّةُ مع الأبرارِ أبْلَغُ في الاتِّصاف

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/200.
(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 1/665.
(3) الواحديّ، الوسيط: 1/534.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1551.

بالدَّلالة؛ لأنَّه برٌّ يُرجَى دوامُه وتزايُدُه، لكونِ صاحبِه ضِمنَ جَمعٍ يَزيدونَه إقْبالًا على البِرِّ، بلسانِ المقالِ ولسانِ الحال[1].

في المعيّة إشعارٌ بـأنَّ مـن أحـبَّ لقاءَ الله أحبَّ اللهُ لقاءَه

والدُّعاءُ بالتَّوفِّي مع الأبرارِ فيه إشعارٌ بأنَّهم كانوا يُحبُّونَ لقاءَ اللّهِ، ومَنْ أَحَبَّ لقاءَ اللّهِ أَحَبَّ اللّهُ لقاءَه[2]، وحَظِيَ بالقربِ منه في جنّاتِ النّعيم.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النِّداء والدُّعاء:

النِّداءُ: هو رفعُ الصَّوتِ بما لَه معنَى، وأصْلُ الدُّعاءِ: طلبُ الفعلِ، دَعَا، يَدْعُو، وادَّعَى ادِّعاءً؛ لأنَّه يَدْعو إلى مَذْهبٍ من غيرِ دَليل[3]، والَّذي يتَّضِحُ من بيانِ الفَرقِ بين الكلمتَين: أنَّ استخدامَ البيانِ الإلهيِّ لكلمةِ (النِّداء) أغزر معنى، وأَصْوَبُ قيلًا، فإنَّ أصحابَ العقولِ الرَّشيدةِ، قدْ سَمِعُواْ مُنادِيًا يُنادي عبادَ اللّهِ للإيمانِ باللّه، وهذا السَّماعُ يقتضي صوتَ مُنادٍ به، وهو الرَّسولُ ﷺ، وهناكَ مَنْ سمعَ منه مباشرةً، وهم صحابتُه (رضوانُ اللّهِ عليهم)، وهناكَ من سَمِعَ من الصَّحابةِ رضي الله عنهم، ما نادهم به رسولُ اللّه ﷺ، وأمرَهم به من الإيمانِ، وما أَوْجبَه من شريعةِ الإسلام، إلى أن وصلَ إلى مَسامعِ كلِّ مَنْ تبِعَهم بإحسان، وبأدلَّةٍ من كتابِ اللّهِ المحكم، وسُنَّةِ خيرِ البشريّة رسولِ اللّهِ ﷺ.

الوفاة والإماتة

مرَّ سابقًا في فِقرة: شرح المفردات، أنَّ توفيةَ الحقِّ إعْطاؤه وافيًا، واستيفاؤهُ يعني: تناوله وافيًا، كما في قولِه تعالى: ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ [آل عمران: 25]، وقد عُبِّر عنِ الموتِ والنَّوْمِ بالتَّوفِّي،

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/200.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.

(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 534، والكفوي، الكليّات: 2/333.

قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ [الزّمر: 42]، وإذا تبيَّنتْ لنا هذه المعاني للتَّوفِّي والتَّوفيةِ والاسْتيفاءِ، فإنَّ أصحابَ العقولِ المؤمنةِ، يُعلنونَ بدُعائِهم، أنَّ الَّذي يَسْتوفي الأجل كاملًا تامًّا، هو اللّه ﷻ، لا أحدَ غيرُه، ولم يَستخدِمواْ الفعل (أَمِتْنا) الَّذي يعني مُجرَّدَ قبضِ الرُّوح، ومُفارقتَها للجسد[1]، وإنَّما يَسْتحضِرون مع دعائهم، أنَّ هذه الرُّوحَ، هي حقٌّ للّه، وعندما يُريدُ اللّه أنْ يَستوفيَ حقَّه وخَلْقَه، ويسترجع أمانته، فسيكونُ ما يُريد ﷻ، وهذا الاسْتحضارُ لهذه الحقيقةِ الَّتي اصطبغتْ بها مشاعرُهم وقلوبُهم وعقولُهم، هي تعبيرٌ تامٌّ عن كمالِ الإيمانِ، في جَنَانهم وأركانِهم.

الأبرار والصَّالحين

لم يرد في سياق الآية قولهم: (وتوفَّنا مع الصَّالحين)، بلِ اسْتخدمُواْ كلمةَ (الأبرار)؛ لأنَّ البِرَّ كما مرَّ في شرحِ المفردات، هو التَّوسُّعُ في الخير، والتَّوسُّعُ في الطَّاعة، مع ما تضمَّنتْه من جميعِ أنواعِ البِرِّ، اعتقادًا وقولًا وعملًا، وهذا لا تُحقِّقُه في سِياق النَّصِّ القرآنيِّ، كلمةُ الصَّالحين الَّتي هي من الصَّلاح: وهي ما كانَ ضدَّ الفساد، وهو مختصٌّ في أكثرِ الاسْتعمالِ بالأفعَال، وقُوبِلَ في القرآنِ تارةً بالفَساد، وتارةً بالسَّيِّئة، كما قالَ تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التّوبة: 102]، ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56][2]، قال الماتريديّ: "يحتملُ قوله: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾؛ أي: توفّنا واجعَلنا مع الأبرار، ويحتملُ: وتوفّنا من الأبرار وفي الأبرار"[3].

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 525.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 489.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السنة: 2/563.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾ [آل عمران: 194]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا عَرَض لنا بيانُ اللّه في الآيةِ السَّابقةِ، تتمَّةَ أدعيةِ أُولي الألبابِ، ختمَها بدعائهم الّذي يرجون فيه من ربِّهم، أن يُنجزَ لهم ما وعدَهُم به على أَلْسنةِ رُسُلِه من النَّصرِ في الدُّنيا، ومن الفوزِ بجنَّتِه في الآخرة، فإنَّه تعالى لا يُخلِفُ وعدَه، "لقد ترقّوا في الطّلبِ، فانتقلُوا من طلبِ الغفران، إلى طلبِ الثّواب، فمعنى النّصِ الكريم: أعطِنا يومَ القيامةِ، ما وعدتَنا به على ألسنةِ رسلِك الأكرمين، وقد أخّروا ذلك، لشعُورهم بهفواتِهم، أكثرَ من شعورِهم بحسناتِهم الّتي يستحِقُّون عليها الثّوابَ"(1).

وعدُ اللهِ صدقٌ لا يُغيَّرُ، وميثاقٌ لا يُحوَّرُ؛ لأنّه لا يخلفُ الميعادَ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَا وَعَدتَّنَا﴾: الوَعْدُ: يكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، يقالُ: وَعَدْتُه بنفعٍ وضُرٍّ، والوَعيدُ لا يكون إلّا في الشَّرِّ خاصَّةً، يُقالُ منه: أَوْعَدْتُه، ويُقال: واعَدْتُه وتَوَاعَدْنا، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 22]، وقالَ تعالى في الوَعيدِ بالشَّرِّ: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾ [الحجّ: 47]، وكانوا إنَّما يَستعجلونَه بالعذابِ، وذلكَ وَعيد، وكما في قولِه: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾ [ق: 45]، وممَّا يتضمَّنُ الأمرَين قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس: 55]، فهذا وَعْدٌ بالقيامةِ، وجزاءِ العبادِ، إنْ خيرًا فَخَير، وإنْ شَرًّ فَشَرّ، والمَوْعِدُ، والمِيعادُ يكونانِ مَصدرًا واسْمًا،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1551.

قالَ تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا﴾ [طه: 58]، وقالَ سُبحانَه: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٠﴾ [سبأ: 34]، وقالَ تعالى في الآيةِ قيد التّفسير: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾[1].

2) ﴿لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾: الخُلْفُ: المُخالَفَةُ في الوَعدِ، يُقالُ: وَعَدَني فَأَخْلَفَني؛ أي: خالفَ في الميعاد؛ كما قالَ تعالى: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ [التوبة: 77]، وكما في الآية الَّتي معنا: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾، ومعناها: " أنّك قد وعدتَ من آمنَ بك ووحّدَك: الجنّةَ في الآخرة، والنّصرَ في الدّنيا على أعدائك"[2]، قال أبو السّعود في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾: "تعليلٌ لتحقيقِ ما نَظَموا في سلك الدّعاءِ، وهذه الدّعواتُ وما في تضاعيفها من كمالِ الضّراعةِ والابتهالِ ليست لخوفهم من إخلافِ الميعادِ، بل لخوفهم من أن لا يكونُوا من جملةِ الموعودين بتغيّرِ الحالِ، وسوءِ الخاتمةِ والمآلِ، فمرجعُها إلى الدّعاءِ بالتّثبيت، أو للمبالغةِ في التعبُّد والخشوعِ، والميعادُ الوعدُ، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنّه البعثُ بعد الموت"[3]، وقولُه تعالى: ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾، تقدَّم بيانُه آنفًا في شرحِ قولِه: ﴿مَا وَعَدتَّنَا﴾، وتبيَّن لنا أنَّه مصدرٌ واسْمٌ للفعلِ (وَعَدَ)، وقوله في الآية: " ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾، بإثابةِ المؤمن وإجابةِ الدّاعي، أو ميعاد البعثِ والحسابِ"[4].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

الـــدّعـــاءُ بتحقيقِ الوعدِ بـالـرّضـوان، والـتّـنـعّـم بـالـخـلـودِ في الجنانِ

لَمّا ذَكَرَ أصحابُ العقولِ الذَّكيَّة، توفيقَ اللّهِ إيَّاهم للإيمانِ، وتَوَسُّلَهم به إلى تَمام النِّعمة، سَأَلوه تعالى الثَّوابَ على ذلك، وأنْ يُنجِزَ لهم ما وعدَهُمْ به على أَلْسنةِ رُسُلِه من النَّصرِ، والتَّمكين والظُّهورِ في الدُّنيا، ومن الفَوْزِ برضوانِه وجنَّته في الآخرة، فإنَّه (جل جلاله) لا يُخلِفُ الميعادَ، فضلًا منه وإحسانًا ورحمةً[5]، ومعنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾: أي نسألُك يا ربّنا، أن

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 875 - 876.
(2) مكيّ بن أبي طالب، الهداية: 2/1205.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/451.
(5) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 122.

تعطينَا وتمنحنَا بعد وفاتنَا، وحين قيامنَا من قبورنَا يوم القيامة، ما وعدتنَا به من ثوابٍ، في مقابل تصديقنَا لرسلك، وطاعتنَا لهم، واستجابتنَا لأوامرهم ونواهيهم، ولا تذلّنَا ولا تفضحنَا يوم المحشرِ على رؤوسِ الأشهاد، إنَّكَ - سبحانك - لا تخلفُ وعدَك الّذي وعدتَه لعبادِك الصّالحين"[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ تكرير النّداءِ:

تكرير النّداءِ للتّضرّع، ولإظهار كمالِ الخضوع

في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾: تكرير النّداءِ للتّضرّع، ولإظهار كمالِ الخضوع؛ أي: أعطنَا ما وعدتنَا على ألسنةِ رسلك، وهي الجنّةُ لمن أطاع، ففي إظهارِ ضراعتِهم وابتهالِهم لربِّهم بتكرير النِّداءِ؛ طلبُ اسْتجابةِ دعوتِهم وتحقيقِ رَغْبتِهم[2].

توجيه إيراد القول حكايةً لدعاءٍ متقدّمٍ:

إيرادُ القول حكايةٌ لدعاءٍ متقدّمٍ معطوفٍ عليه هذا الدّعاء، من باب تأخُّرِ التَّحْليَةِ عن التَّخليَةِ

وفي قوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ حكايةٌ لدعاءٍ آخرَ لهم مَسبوقٌ بما قبلَه معطوفٌ عليه، لتأخُّرِ التَّحْليَةِ عن التَّخليَةِ[3]، والمرادُ بالموعودِ أمران: الأوَّلُ: الثَّوابُ، والثَّاني: النُّصرةُ على الأعداء[4]، وكلاهما مجتَمِعٌ لهما بفضلِ اللّه، وفي معنى هذه الآية يقول ابن عطيّة: "هذه الآياتُ حكايةٌ عن أولي الألباب، أنّهم يقولون: ﴿رَبَّنَا﴾، قال أبو الدّرداء: يرحمُ اللّه المؤمنين ما زالوا يقولون: ﴿رَبَّنَا﴾ ﴿رَبَّنَا﴾، حتّى استجيب لهم"[5].

قال ابن عاشور: "وقد ابتدؤوا دعاءَهم وخلّلوه بندائه تعالى

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/375، (بتصرّف).
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.
(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/489.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/556.

خمسَ مرّاتٍ، إظهارًا للحاجةِ إلى إقبالِ اللّهِ عليهم، وعن جعفر بن محمد ﵁: "مَنْ حزَبَهُ أمرٌ فقال: يا ربِّ خمسَ مرّاتٍ، أنجاه اللّه ممّا يخافُ وأعطاه ما أرادَ"(1).

في الحكاية لدعاءٍ آخرَ بتكرار النداء خمسَ مرّاتٍ، إظهارٌ للحاجةِ إلى إقبالِ اللهِ عليهم

دلالةُ حرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾:

و﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ صلةٌ للوعدِ؛ كما يُقالُ: وَعَدَ اللّه الجنَّةَ على الطَّاعة، والمعنَى: ما وعدتَّنا على تصديقِ رُسُلِكَ، أَلَا نَراهُ كيفَ أَتْبعَ ذكرَ المنادِي للإيمانِ، وهو الرَّسولُ ﷺ بقولِه: ﴿ءَامَنَّا﴾ وهو التَّصديق؟!! ويمكنُ أن تكونَ ﴿عَلَىٰ﴾ متعلِّقةً بمحذوفٍ وقعَ صفةً لمصدرٍ مُؤكَّدٍ محذوف؛ أي: وَعدتَّنا وعدًا كائنًا على أَلْسِنةِ رُسُلِكَ، ويُمكنُ أن يكونَ التَّقديرُ: مُنَزَّلًا على رُسُلِك، أو محمولًا على رُسُلِك؛ لأنَّ الرُّسُلَ مُحمَّلُونَ ذلك، كما في قولِه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ [النور: 54].

دعاءُ المؤمنين بأنْ يُؤتيَهم اللهُ ما وعدَهم من الكرامةِ على ألسنِ رسلِه

إيثارُ الجمعِ على الإفرادِ في قوله: ﴿رُسُلِكَ﴾:

في قولِه تعالى ﴿رُسُلِكَ﴾: إيثارُ الجمع على الإفرادِ، لإظْهارِ كمالِ الثِّقةِ، بإنجازِ الموعودِ بناءً على كَثْرَةِ الشُّهُودِ(2).

أُوْثِرَ جمعُ الرسلِ على إفرادِه إظْهارًا لكمالِ الثِّقةِ بإنجازِ الموعودِ

بلاغة التَّأكيد والتَّعليل في الفاصلة:

وقولُه: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ تأكيدٌ وتعليلٌ، لتحقيقِ ما نَظَموا في سِلكِ الدُّعاء، وهذه الدَّعوات وما في تضاعيفِها من كمالِ الضَّراعةِ والابْتهال، ليستْ لخوفِهم من إخلافِ الميعاد؛ بل لخوفِهم من ألَّا يكونُواْ من جُملةِ الموجودينَ بتغيُّرِ الحالِ وسُوءِ الخاتمةِ والمآلِ، فَمرجِعُها إلى الدُّعاءِ بالتَّثبيت، أو للمبالَغةِ في التَّعبُّدِ والخُشوع(3).

علّةُ التَّأكيدِ والتَّعليلِ الدُّعاءُ بالتَّثبيت، والمبالَغةُ في التَّعبُّدِ والخُشوع

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/202.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/133.

بيان المتشابه اللفظي في جملة الفاصلة:

اتّـصـالُ الآيـةِ الأولى بما قبلَها معنويٌّ، واتّصالُ الثّانيةِ بما بعدها لفظيٌّ ومعنويٌّ

أثارَ المفسّرون سؤالًا وجيهًا في إطار الموازنة بين قوله تعالى - في أول السورة - : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران: 9]، وقوله تعالى - في آخر السّورة - : ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾، وكلاهما خطابٌ؟ قال الكرمانيّ: "والجوابُ عنه من ثلاثةِ أوجهٍ: أحدها: أنّ أوّل السّورةِ، قد تقدّم فيه ذكرُ اللّه سبحانه وأوصافه مرّةً بعد أخرى صريحًا، ولم يتقدّم ذكرُ الكنايةِ إلّا مرّةً، فعدلَ من الخطابِ إلى الغيبةِ لأنّها الأغلبُ، وأمّا آخر السّورة، فالغلبةُ للكنايةِ، فثبت عليها، والثّاني: أنّ اتّصالَ ما في أوّلِ السّورة، بما قبلَها معنويٌّ، وتقديره: (فَقِنا شرَّه)، وهو المطلوب، بقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾، وقيل: المطلوبُ التّثبيتُ على الهداية، وإنّ اتّصال ما في آخر السّورة لفظيٌّ ومعنويٌّ، وهو قوله: ﴿مَا وَعَدتَّنَا﴾، والثّالث: أنّ ما في أوّل السّورة استئنافٌ من اللّه، يجري مجرى الاستجابةِ، وأنّ ما في آخر السّورة حكايةٌ عنهم، ثمّ ذكر عقيبها: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ [آل عمران: 195]"[1].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاء والإعطاء

سبقَ بيانُ الفرقِ بين هذيْن الفعليْن في فِقرة: الفروق المعجميَّة، وتبيَّن لنا أنَّ الإيتاءَ أوسعُ دَلالاتٍ من الإعطاء، فهو يتعلَّقُ بالذَّاتِ والأمرِ والتَّدبير، والأعيانِ والأَعراض، وغيرِها، ممَّن لا يَملِكُها على وجهِ الحقيقةِ إلَّا الرَّبُّ الخالقُ - ﷻ - ؛ ولذلكَ كانَ من الأَنْسبِ والأَوْلى، أن يتوجَّه هؤلاء الدّاعون إلى اللّه بقولِهم: ﴿وَءَاتِنَا﴾، وقوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾: قيل معناه: " وتؤتِينَا ما وعدتنَا على

(1) الكرمانّي، غرائب التّفسير: 1/243 - 244.

ألسنِ رسلِك، من الفضلِ والرّحمةِ، والثّوابِ والنّعمةِ، وقيل معناه: واجعلنَا ممّن تُؤتيهم ما وعدتَ على ألسنةِ رسلك، ويستحقّون ثوابَك، لأنّهم ما تيقّنُواْ استحقاقَهم لهذه الكرامةِ، فسألوه أن يجعلَهم مستحقّين لها، ولو كان القومُ قد شهدواْ بذلك لأنفسِهم، لكانواْ قد زكّوها، وليس ذلك من صفةِ الأبرارِ"[1].

الوَعْد والعَهد

سبقَ البيانُ في فِقرة: شرح المفردات أنَّ الوعدَ يكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، وإنْ كانَ يُطلقُ أكثرَ على الوعدِ بالخير، وأمَّا العَهْدُ، فهو حفظُ الشَّيءِ، ومراعاتُه حالًا بعدَ حال[2]، ويُنظَرُ في العهدِ وجودُ طرفَين مُتعاقِدَين، والعهدُ فيه معنَى الإلزام، يُقال: عَهِدتُ إلى فُلانٍ بكذا، أي: ألزمتُه إيَّاه، ويُقالُ: عاهدَ العبدُ ربَّه[3]، وبناءً على ما تقدَّم؛ كان من الأَلْيَقِ في سياقِ النَّصِّ القرآنيِّ، وهو مقامُ دعاءِ أولي الألبابِ لربِّهم وخالقِهم، مُتضرِّعينَ مُبتهلينَ إليه، خاضعينَ خاشعينَ بين يديه، أن يتوجَّهوا له ﷻ، أن يؤتيَهُم ما وعدَهُم من الخيرِ في الدُّنيا والآخرة، في كتابِه الكريم، وعلى لسانِ رسولِه الأمين ﷺ، وليسَ في دعائهم تصوُّرُ وجودِ طرفين متعاقدين، أو إلزامٌ لربِّهم كما هو معنَى العهد، وإلَّا لا يكون هذا دعاءً فيه تذلُّلٌ وخضوعٌ، وأمَلٌ بالإجابة، ولكنَّه سوءُ أدبٍ مع اللّه، وكِبْرٌ والعياذُ باللّه.

الخِزْي والذُّلّ

سبقَ بيانُ الفرقِ بين الكلمتَيْن في فِقرة: الفروق المعجميَّة، والَّذي يسُدُّ بُلغَتَنا هنا في هذا المقامِ، أنَّ المؤمنينَ دَعَوا ربَّهم بِتضرُّعٍ وخُضوعٍ أنْ لا يُخزيَهم؛ لأنَّ الخِزيَ ذلٌّ مع افتضاحٍ، ويَلحقُ صاحبَه به انكسارٌ واسْتخفافٌ وهَوان[4]، وهذه المعاني لا تستوعبُها كلمة (الذُّلُّ) الَّتي تعني ما كان عن قَهرٍ وتصعُّب[5]؛ فلذلكَ كانُواْ حريصينَ في دعائِهم، أن لا يُصيبَهم أيُّ خزيٍ بأيِّ معنًى من معانيه.

---

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 3/234.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 591.

(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 365.

(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 215.

(5) الرّاغب، المفردات، ص: 330.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ [آل عمران: 195]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين دعاء الصّالحين، واستجابة الله لهم بالثّواب والجنّات يوم الدّين

لمَّا ذكر اللّه ﷻ دعاءَ عبادِه المؤمنينَ، وتضرُّعَهم إليه، وإلحاحَهم في هذا الدُّعاء، وكانوا في ذلك مستحضرين عظمةَ اللّه (ﷻ)، مُستَفتِحين دعاءهم بالثَّناء عليه، وتنزيهه سبحانه، ذكَرَ ما ترتَّب على هذا الدُّعاء مِن استجابة اللّه تعالى لهم[1]، بستر ما ارتكبوه من المعاصي في الآخرة، كما سترها عليهم في الحياة الدّنيا، فلا يحاسبهم عليها، بل سوف يكفّر عنهم سيّئاتهم، ويدخلهم جنّات تجري من تحتِ قصورِها الشّامخة، وأشجارِها السّامقة، الأنهارُ الجاريةُ، جزاء وفاقًا من عند اللّه، واللّه عنده حسن الثّواب[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾: الجواب هُوَ "مُرَاجَعَةُ الْكَلَامِ، يُقَالُ: كَلَّمَهُ فَأَجَابَهُ جَوَابًا، وَقَدْ تَجَاوَبَا مُجَاوَبَةً، وَالْمُجَابَةُ: الْجَوَابُ، وَيَقُولُونَ فِي مَثَلٍ: (أَسَاءَ سَمْعًا فَأَسَاءَ جَابَةً)[3]، والجيم والواو والباءُ، تدلُّ تصاريفُهُ على مراجعة الكلام[4]، ومنه الجوابُ؛ إذ هو خاصٌّ بما يرجع مِنَ الكلام دون المُبتَدأِ مِنَ الخطاب، وهو مقولٌ في مقابلة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/160.
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 76.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جوب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جوب).

السُّؤال، ثُمَّ إنَّ السُّؤالَ ضربان: أحدهما: طلبُ مقالٍ، ويكونُ جوابهُ بمقالٍ مثلِهِ، والآخر: طلب نَوالٍ، ويكونُ جوابُهُ النَّوالَ(1)، الاستجابةُ بمعنى: الإجابَة؛ يُقالُ: استجابَ اللّه دعاءَهُ؛ أي: أجابَهُ(2)، ومعناه: قَبِلَهُ(3)، وقبولُهُ في دعاء المسألة: يكونُ بإعطاء العبد سُؤلَهُ، وقَبُولَهُ في دُعاء العبادَةِ: بالإثابة عليه(4)، قال الشّاعر كعب بن سعد الغنويّ:

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَى *** فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ
فَقُلْتُ ادْعُ أُخْرَى وَارْفَعِ الصَّوْتَ رِفْعَةً *** لَعَلَّ أَبَا الْمِغْوَارِ مِنْكَ قَرِيبُ(5)

2) ﴿أُضِيعُ﴾: "الضَّاد والياء والعين، تدُور اشتقاقاتُها على فوت شيءٍ وذهابهِ وهلاكهِ"(6)، ومنه قولُهم: ضاع الشَّيءُ إذا هلكَ(7)، والضَّيعَةُ والضَّياعُ: الإهمال(8)، يُقال: عيالٌ ضُيَّعٌ؛ أي: مُهمَلون من الرِّعاية والتَّفقُّد(9)، وضاع الشّيء، أي هلك، ومنه قولهم: فلان بدارٍ مَضِيعَةٍ، قال يعقوب: قولهم في المثل: (الصّيفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَن)، خوطبت به امرأة، كانت تحت رجل موسر فكرهته لكبره، وفارق السّنّ بينهما، فطلّقها فتزوّجها رجلٌ فقيرٌ، فبعثت إلى زوجها الأوّل، تستميحه، لعلّه يراجعها، فقال لها هذه العبارة الّتي صارت مثلًا(10)، وإضاعةُ المال: إنفاقهُ فيما حرَّم اللّه تعالى؛ لأنَّ في ذلك إتلافًا للمال من غير عِوَضٍ عاجلٍ أو آجلٍ(11). ومنه قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة: 143]، قال ابنُ جريرٍ: "وإضاعتُه إيَّاه جلَّ ثناؤُه - لو أضاعَها - تَركُ إثابة أصحابه وعامليه عليه، فيذهَب ضياعًا، ويصير باطِلا كهيئة إضاعة الرَّجُل مالَه، وذلك إهلاكُهُ إيَّاه فيما لا يَعتاضُ منه عِوَضًا في عاجل ولا آجل"(12)، ومعنى الإضاعة في قول اللّه تعالى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾، كمَعْنَاها في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾.

(1) الرّاغب، المفردات: (جوب).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (جوب).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (جوب).
(4) صالح آل الشَّيخ، التَّمهيد لشرح كتاب التَّوحيد، ص: 180.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (جَوَبَ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضيع).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (ضيع).
(8) ابن سيده، المحكم: (ضيع).
(9) الزَّبيديّ، تاج العروس: (ضيع).
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (ضيع).
(11) القاضي عيّاض، مشارق الأنوار: (ضيع).
(12) ابن جرير، جامع البيان: 3/169.

3) ﴿هَاجَرُواْ﴾: من هجر، وتدلُّ تصاريفُها على معنَيَينِ كُلّيَّينِ؛ أحدهما: قطعٌ وقطيعةٌ، والآخَرُ: شدُّ شيءٍ ورَبطُه[1]. ومنه الهَجرُ والهِجران؛ وهو مفارقةُ الإنسان غيرَه، إمَّا بالبدن، وإمّا باللِّسان وإمّا بالقَلب[2]، و"الهجر: ضدّ الوصل، وقد هجره هجرًا وهجرانًا، والاسم الهجرة... والمهاجرة من أرض إلى أرض: ترك الأولى للثّانية، والتّهاجر: التّقاطع"[3]، والهُجر: الإفحاش في المَنطِق والخَنا[4]، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه ممَّا ينبَغي تَركُهُ وقطِيعَتُه. و(هاجَرَ) مِن المُهاجَرة؛ وهي: تركُ أرضٍ إلى أرضٍ أخرى[5]، ثُمَّ خُصَّت في الشَّرع بالانتقال من بلد الشِّرك إلى بلد الإسلام[6].

4) ﴿وَأُوذُواْ﴾: من (أَذَيَ) تدُور تصريفَاتُها على شيءٍ يُتَكَرَّهُ ولا تقِرُّ عليه[7]، والاسْمُ الأَذِيَّةُ والأَذاةُ، وقد أَنْشَدَ سِيبَوَيْه:

وَلَا تَشْتُمِ المَوْلَى وتَبْلُغْ أَذاتَهُ *** فَإِنَّكَ إِنْ تَفْعَلْ تُسَفَّهْ وتَجْهَلِ[8]

والأَذَى والأذيَّةُ: المكرُوه اليَسِير[9]، ومنه قول اللّه تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ﴾ [آل عمران: 111]، والمعنى: أنَّه أذًى يُعتزَلُ منه، ولا يتعدَّى موضعَهُ إلى غيره[10]، وكلُّ ما في القرآن مِنَ الأذى والإيذاء؛ فمعناهُ الإيلامُ النَّفسيّ أو البدنيّ غير الشَّديد[11]، والأذى في قول اللّه تعالى: ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ شامِلٌ لكلِّ أذًى؛ وهو المَكروه اليَسيرُ، وإذا كان اللّه تعالى يُثِيبُهم على ما أصابهم مِنَ المكروه اليسير، فإثابَتُهم على ما حلَّ بِهم مِنَ الضَّرر أولَى وأوفَى[12].

5) ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾: من لفظ (كَفَرَ) تدلّ تصريفَاتُهُ على السَّترِ والتَّغطيةِ، ومنه سُمِّي

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هجر).
(2) الرّاغب، المفردات: (هجر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (هجر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (هجر).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (هجر).
(6) قد تكون الهجرةُ مِن بلدِ كُفرٍ إلى بلد كفرٍ آخرَ يكون آمنًا، إذا عُدِمَت بلادُ الإسلام، كما في هجرة المسلمين إلى الحبشة. يُنظر: السَّفّارينيّ، لوائح الأنوار السَّنِيَّة: 2/86.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذي).
(8) ابن سيده، المحكم: (أذي).
(9) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أذي).
(10) بطَّال الرَّكبيّ، النَّظم المستعذَب: 1/45.
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أذى).
(12) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/205.

الكافرُ كافرًا؛ لأَنَّهُ يسترُ نعمةَ اللّه عليه، وهو جاحدٌ لها بكُفره، ويُقال: كفَرَ البذرَ إذا زرَعَهُ؛ لأنَّه بزراعتِه يُغطِّيه[1]، وكلُّ الألفاظ المشتقَّة مِنَ الكُفرِ راجعةٌ إلى معنى السَّترِ، ومنهُ: اللَّيل، والبَحرُ، والسَّحاب المُظلِم، والزَّارِعُ، والزَّرعُ؛ فإنَّ الجميعَ يُسمَّى: كافرًا[2]، وذكر أبو موسَى المدينيُّ قَيدًا في السَّترِ والتَّغطية اللَّذَين هما أصلُ معنى الكُفرِ، فذكر أنَّ الكُفرَ التَّغطيةُ تَغطيَةً تَستَهلِكُهُ، كتغطيةِ الزَّارعِ الحَبَّ الّذي يَزرَعُه[3]، فالكفرُ: تغطيةٌ تامَّة كَثيفة لا يظهر معها شيءٌ مِنَ المُغَطّى[4]، والفعل (أُكفِّر) مصدرُهُ: التَّكفير - على القياس-، وهو راجعٌ إلى المعنى المُتقدِّم، وتكفيرُ الذُّنوب: سترُ اللّهِ تعالى لها وتغطيته إيَّاها بحِلمِه حتَّى لا يظهرَ لها أثرٌ[5].

6) ﴿سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾: مفردها (السَّيِّئَة): نقيض الحسنة، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ [فصّلت: 34]، أي الحسنة والسّيّئة[6]، والسِّين والواو والهمزة تدور اشتقاقاتُها على القُبح، ومنه سمِّيت النَّارُ سُوأَى؛ لقُبح منظَرِها[7]، وقيل لفَرْج الرَّجُلِ أوِ المرأةِ: سَوأَةٌ؛ لأنَّ الفطرَةَ السَّويَّة تَستَقبِحُ إظهارَها[8]. وسُمِّيت السَّيِّئةُ سَيِّئَةً؛ لأنَّها عملٌ قبيحٌ[9]؛ وهي الخصلة الّتي تَسوءُ صاحبَها إذا رآها في صَحيفَتِه يوم القيامة[10]، وحقيقةُ السَّيِّئة عند الإطلاق: أنَّها ما يُذمُّ فاعلُها شرعًا صغيرةً كانَت أم كبيرة[11].

7) ﴿جَنَّـٰتٖ﴾: الجيمُ والنُّون أصلٌ يدُلُّ على السَّتر، ومنه: الجنَّةُ في الدُّنيا، وهي البُستان؛ لأنَّ الشَّجرَ بورَقِه يستُرُ، والجَنَّةُ في الآخرة: ثَوابٌ مَستورٌ عنَّا اليَومَ[12]. والجَنَّة: الحديقَةُ ذات الشَّجَر والنَّخل، وذكر أَبو عَليٍّ بين الحديقَة والجنَّة؛ بأنَّ الجنَّةَ في كلام

---

(1) عِيَاض، مشارق الأنوار: 1/345، وابن مالك، إكمال الإعلام: 2/546.
(2) الكفوِيّ، الكلِّيَّات، ص: 763.
(3) المدِينيّ، المجموع المغيث: (كفر).
(4) المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (كفر).
(5) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 5/573.
(6) نشوان الحِميري، شمس العلوم: 5/3299.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوء).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سوأ).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوأ).
(10) الشِّنقيطي، العذب النَّمير: 2/612.
(11) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 10/158.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جن).

العرب لا تُسمَّى كذلك إلَّا إذا كان فيها نَخيلٌ وعِنَبٌ، فإن لم يَكن فيها ذلك وكانَت ذات شَجَرٍ؛ فهي حديقةٌ ولَيسَت بجَنَّةٍ[1]. والجنَّة في الآخرة: «فيها ما لا عَينٌ رَأَت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قَلبِ بَشَرٍ»[2].

8) ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: جمع نهر، ويعبّر بنَهَرٍ عن الجمع، وقوله تعالى: (فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ)، أي أنهار، وقد يعبّر بالواحد عن الجمع، كما قال تعالى: (وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ) [القمر: 45][3]، والنُّون والهاء والرَّاء، تدُلُّ تصاريفها على تَفَتُّح شيءٍ أو فَتحِه، ومنه سُمِّيَ النَّهرُ، وجَمعُهُ: الأَنهارُ، وهو مِن مجاري المياه، وأيضًا؛ لأَنَّه يَنهَر الأَرضَ، أي: يشقُّها[4]، وهذا أَصلُ التَّسمية، وإلَّا فإِنَّ المرويَّ في الآثار أَنَّ أنهارَ الجنَّة تَجري مِن غير أُخدُودٍ[5].

9) ﴿ثَوَابًا﴾: (الثّواب) و(المثوبة) جزاء الطّاعة، قلت: هما مطلق الجزاء، كذا نقله الأزهريّ وغيره، ويعضده قوله تعالى: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٣٦﴾ [المطفّفين: 36]، أي جُوزُوا؛ لأنّ ثَوَّبَهُ بمعنى أثابه، وقوله تعالى: ﴿بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [المائدة: 60][6]، والثَّاء والواو والباء تدور اشتِقاقاتُها على معنى العَودِ والرُّجوع[7]، ومنه: المثابةُ وهي المَنزِلُ؛ لأنَّ أهلَهُ يَثوبون - أي: يَرجِعون - إليه، ومنه قولُ الله تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: 125]؛ أي: مَرجِعًا ومجتمَعًا. والثَّوابُ: ما يعود على الإنسان من جَزاء عملِه[8]، والغالبُ استِعمالُهُ في جزاء العمَل الصَّالح[9]، ويُطلَق الثَّواب، ويُرادُ به: الإثابةُ[10].

❁ المَعنَى الإجْمَاليُّ:

أجاب اللّه تعالى دُعَاءَهم: دعاءَ العبادةِ ودعاءَ المسألة، وقال: إنِّي لا أُضيعُ جهدَ مَن عَمِل عمَلًا صالحًا، ذكرًا كان العاملُ أم أُنثَى، فالجميع على حدٍّ سواءٍ في الأجور والخيرات،

(1) ابن سيده، المحكم: 7/218.
(2) مسلم، الحديث رقم: (2825).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وكذلك: الرّازيّ، مختار الصّحاح: (نهر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهر)، وابن سيده، المحكم: (نهر).
(5) ابن القيّم، حادي الأرواح، ص: 178 - 179، وابن القيّم، الكافية الشّافية، ص: 326، والألبانّي، سلسلة الأحاديث الصَّحيحة: 6/47 - 48.
(6) مختار الصّحاح: (ثوب).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثوب).
(8) القاضي عيّاض، مشارق الأنوار: (ثوب).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثوب).
(10) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/92.

فالّذين فارَقوا أوطَانَهم رغبةً فيما عندَ اللّهِ تعالى والتِماسًا لرضاهُ، وأخرَجهم أقوامُهم إمَّا بصريح القَول وإمَّا بالإلجاء، وأُوذُواْ في طاعتهم ربَّهم وعبادتهم إيَّاه مُخلصِين له الدِّينَ، وقاتَلُواْ لتكون كلمةُ اللّه هي العُليا، وقُتلواْ في سبيل ذلك؛ ليَستُرَنَّ اللّه تعالى ما فَعَلوه مِنَ المعاصي فيمحُوها عنهم ولا يُحاسبهم عليها، ولَيُدخلنَّهم جنّاتٍ تجري مِن تحت قصورِها وأشجَارِها الأنهارُ، جزاءً منه لهم على ما عَمِلوا وأَبلَوا في اللّه تعالى وفي سبيله، واللّه ﷻ عندَه مِن جزاء أعمالهم جميعُ صُنوفِه[1].

لا يضيع اللّه صالح الأعمال في المـآب، بل يجازي العاملين بالجنّة وحسن الثّواب

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلالة الفعل الماضي ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾:

في التـعـبـير بالماضي تَحَقُّقُ إجابَة الله تعالى لأَهل الإيمان

التَّعبير بالفعل الماضي ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾، يُرادُ به الإيذانُ بتحقُّقِ إجابةِ اللّه تعالى لهم وإيجادُها حَتمًا[2].

سِرُّ التَّعبير بـ (استجَابَ) دون (أَجَابَ):

في إيـثـار لفظ الاستجابة دفعٌ لاحتمال القبول والردّ

جاء التَّعبير ههنا بالاستِجابة دون الإجابة، فقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾؛ وذلك لوجهين:

أحدهما: أنَّ فيه الإيماءَ إلى أنَّ اللّه تعالى أعطاهُم مَطلوباتِهم الّتي سألُوها اللّه سبحانه؛ لأنَّ الاستجابةَ دالَّةٌ على القبولِ، بخلاف ما لو وقع التَّعبير بـ (أَجَابَ)؛ فإنّها لا تدلُّ على قبولِ ما دَعَوا به؛ لأنَّ الإجابةَ تدلُّ على مُطلَق الجواب قبولًا كان ذلك أم ردًّا[3].

والآخر: لِمَا في الاستجابةِ مِنَ الدّلالة على حصول جميع

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/490، وابن جُزيّ، التَّسهيل: 1/174، والسّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 162، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/204، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 76.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/160، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/133.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/202.

في إيثار لفظ الاستجابة دلالةٌ على حصول جميع مطلوباتهم

مطلوباتِهم؛ وذلك لكثرة مبانِيه، وزيادةُ المبنى تدلُّ على زيادة المعنى[1]، فلو جاء النَّظمُ القرآنيُّ (فأجابَهم)؛ لاحتمَلَ أنَّ الإجابَةَ - إن وقعَت بإعطائهم مطلوباتِهم - هي في مقابلة مجموع مطلوباتِهم لا جميعِها، بخلاف قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾؛ فإنَّه دالٌّ على إجابة اللّه سبحانه لمطلوباتِهم كلِّهَا.

نُكتة اختيار اسم الله (الرّبّ):

من آثار ربوبيَّة الله تعالى إحسانُهُ إلى عبادِه وتَفَضُّلُه عليهم

اختيارُ اسم اللّه (الرَّبّ) في قول اللّه سبحانَهُ ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾؛ للإشعار بأنَّ استجابةَ اللّه ﷻ لهم هي من باب الإحسان إليهم والتَّفَضُّل عليهم؛ وهو ما تَقتضيه ربوبيَّتُهُ سبحانه على خلقه[2].

أختيار لفظ الربوبيّة ردٌّ لحسن دعائهم بمثله

تكرّر في دعائهم في الآيات السَّابقة وصف ﴿رَبَّنَا﴾ دون اسم الجلالة لما في وصف الربوبية من الدلالة على الشفقة بالمربوب، ومحبة الخير له، ومن الاعتراف بأنهم عبيده؛ فكان من جميل الرعاية الإضافةُ المفيدة التّشريف والقرب: ﴿رَبُّهُمۡ﴾، وردُّ حسن دعائهم بمثله[3].

بلاغةُ الالتفات مِنَ الغَيبة إلى التَّكلُّم وإلى الخطاب:

في الالتفاتِ تَشريفُ الله تعالى لعباده، وكمال العناية بهم بتَوجيهِ الخطابِ لهم

في قول اللّه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ التفاتٌ في مَوضِعين:

أحدهما: الالتفاتُ مِن الغَيبَةِ إلى التَّكلُّم؛ وذلك في قوله ﷻ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي﴾، فالغَيبَةُ في ﴿رَبُّهُمۡ﴾؛ لأنَّ الاسمَ الظَّاهرَ بمنزلة الغائب، والتَّكلُّم في قوله: ﴿أَنِّي﴾.

والآخر: الالتفاتُ مِنَ الغَيبَة إلى الخطاب؛ وذلك في قوله

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/276.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/161.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/202.

سبحانه: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾، فالغَيبَةُ في ﴿لَهُمۡ﴾ و﴿رَبُّهُمۡ﴾، والخطابُ في قوله: ﴿مِّنكُم﴾.

ونُكتَةُ الالتفاتِ: إظهارُ كمالِ العِناية بأَمر الاستجابة في الأوَّل، وتشريفُ الدَّاعين بشرف الخطاب مِنَ اللّه الكريم في الثَّاني(1).

نُكتة التَّعبير عن ترك الإثابة بالإضاعَة:

في التَّعبيرِ بنفي الإضاعة إشارةٌ إلى كمال تنزيهه تعالى عن إضاعة ثواب العاملِينَ

المُراد بإضاعة العمل المنفيَّة في قول اللّه تعالى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ تركُ الإثابة عليه(2)، وفي هذا التَّعبيرِ إشارةٌ إلى كمال تنزيهه سبحانه عَنِ الإضاعة، بإبرازِها في صورة ما يستحيلُ صدُوره عنه مِنَ النَّقائص والقبائح، وإبراز الإثابَة في صُورة ما يَجِبُ عليه سبحانه(3).

بلاغةُ الإطناب بالاعتراض:

فائدةُ الإطناب بالاعتراض بيانُ سببِ انتظام النِّساء في الوَعدِ معَ الرِّجال

قولُ اللّه تعالى: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ اعتراضٌ بينَ الإجمال في قوله: ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ والتَّفصيل في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾، وفائدتُهُ: بيان سببِ انتظام النِّساء في الوَعدِ معَ الرِّجال؛ فإنَّ كونَ كلِّ واحدٍ منهما مِنَ الآخر؛ لأنَّ أصلهما واحدٌ أو لفرط الاتِّصال بينهما أو لاتِّفاقهما دينًا وعملًا، ممَّا يقتضي التّشريك والاتِّحاد(4).

تفصيل الإجمال في قوله ﷻ: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾:

عِظَمُ المشقَّة في الأعمال مِن مُقتضيات تَعظيم العاملين

في قول اللّه تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ تفصيلٌ لما في العَمَلِ ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ مِنَ الإجمال، وتَعدادٌ لِشَيءٍ مِن أحاسِنِ أفرادِهِ، وهو أدخَلُ في المدح والتَّعظيم؛ لِما في هذه الأفراد من عظيم المشقَّة على النُّفوس(5).

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/378.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/169.

(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/133/134.

(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/134، والزّمَخْشري، الكشَّاف: 1/456.

(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/378.

سرُّ التَّعريف بالمَوصوليَّة في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾:

احتِمالُ المَشَاقِّ في دينِ اللهِ تعالى مِن أَسبابِ تحصيلِ الثَّوابِ الحَسَنِ

التَّعريفُ بالموصول (الذين) من قول الله سبحانه: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ﴾ يُرادُ به الإيماءُ إلى وجه بناء الخَبَر وتعليل الجزاء، فحُسنُ الثَّواب مُعَلَّلٌ باحتمال المشاقِّ في دين الله تعالى، والصَّبر على الأوامر والنَّواهي؛ وذلك أنَّ حكمةَ الله سبحانه اقتَضَت تعليقَ الثَّواب بالأعمال؛ لئلَّا يتَّكِلَ العبادُ على فضلِه سبحانه ويُهملوا العمل رأسًا[1].

توجيهُ عَطفِ الإخراج على الهجرة:

وجهُ العطفِ التَّفسيرُ للهجرة، والإشارةُ إلى أنّ الانتقال كان قسرًا

عَطفُ قول الله سبحانه: ﴿وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ على قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ يَحتَمِلُ أوجهًا ثلاثة[2]:

أحدها: أن يكونَ مِن عَطف التَّفسير مع بيان العِلَّة؛ وذلك لأنَّ الهجرة تركُ أرضٍ لأرضٍ أخرى، ويُقيَّدُ ذلك بالتَّرك لأجل الدِّين على ما شاع في الاستعمال الشَّرعيِّ، فيكون قولهُ بعدُ: ﴿وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾؛ تفسيرًا للهجرة، وإشارةً إلى أنّ الانتقال كان قسرًا واضطرارًا؛ لِمَا لحِقَهم من الأذيَّة والظُّلم ما أَلجَأَهُم معه إلى تَرك أرضهم.

ثانيها: أن يكون العطفُ تأسيسًا، إذا حُمِلَتِ الهجرةُ على ترك الشِّرك.

ثالِثُها: أن يكونَ مِن عَطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ لأنَّ الهجرةَ بعدَ استقرار النَّبيِّ ﷺ بالمدينة يُراد بها: الهجرةُ إلى المدينة النَّبويَّة خاصَّةً، والإخراجُ مِنَ الدِّيار أَعمُّ منه؛ لِصدقِهِ على الهجرة إلى المدينة والهجرة إلى غيرها، فيكون في هذا بيانٌ لفضيلة الهجرة إلى المدينة مِن وجهَين:

---

(1) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/334.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/479، والخفاجيّ، عناية القاضي: 3/91، والآلوسّي، روح المعاني: 2/378.

الأوَّلُ: ذِكرُها مرَّتين؛ إحدَاهما على جهة الانفراد، والأخرى على وجه الاندراج في عموم تَركِ البلد والانتقال إلى غَيرِه، والآخرُ: تقديمُهُ الأخصَّ؛ فإنَّ لِلمُقدَّم مزيَّةً على غيره. ولا منافاةَ بين هذه الأوجه.

نُكتةُ بناء الفعل ﴿وَأُوذُواْ﴾ للمفعول:

في البناء للمفعول إلماحٌ بتَحمُّل أهل الإيمان لِصنوفٍ مِنَ الأذى

بُنِيَ الفعلُ ﴿وَأُوذُواْ﴾ للمفعول من قول الله سبحانه: ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾؛ لأنَّ الأذى مكروهٌ لنفسه لا بالنِّسبة إلى معيَّنٍ، وبناءُ الفعل للمفعول أدلُّ على هذا المعنى، وللإيماء إلى لُحوق أنواعٍ مِنَ الأذيَّة لهم، والتَّقديرُ: وأُوذوا بأنواعٍ من الأذى[1].

سرُّ بناء الفعل للمفعول في قوله ﴿وَقُتِلُواْ﴾:

التَّعبيرُ بالبناء للمفعول أدخَل في المدح؛ لدلالته على شجاعة أهل الإيمان باقتحامِهم مُوجباتِ القتل

بُنِيَ الفعلُ ﴿وَقُتِلُواْ﴾ للمفعول مِن قول الله تعالى: ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾؛ لأنَّ القتلَ مكروهٌ في ذاته، فوَقع التَّعبيرُ بالبناء للمفعول أدخَل في المدح؛ لأنّه دالٌّ على اقتحامِهم موجبات القتل.

وفي ذِكرِ ﴿وَقُتِلُواْ﴾ بعد ﴿وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ مراعاةُ نظيرٍ؛ لأنَّهم لمَّا ذُكِرَ نزوحُهُم عن منازل أبدانهم، ذُكِرَ خروجُهم بالقتل عن مساكِن أرواحِهم[2].

براعةُ حُسنِ ترتيب المعطوفات:

بلاغةُ النَّظم القرآنيّ في سَوقِ المعطوفات ترتيبٌ بديعٌ؛ حيثُ بدأ بالأخصِّ، ثُمَّ ثنَّى بما هو أعمُّ منه

في قول الله ﷻ: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ ترتيبٌ بديعٌ؛ حيثُ بدأَ بالأخَصِّ وهي الهجرةُ؛ إذِ الهجرةُ - بعد استقرار النَّبيِّ ﷺ بالمدينة - تنصَرِفُ إلى الهجرة إلى المدينة النَّبويّة، ثُمَّ ثنَّى بما هو أعمُّ منه؛ وهو الإخراجُ مِنَ الدِّيار؛ إذ هو أعمُّ من جهة أنَّه يَصدُقُ على الهجرة إلى المدينة وإلى غيرها، ثُمَّ ثَلَّثَ بذكر الأذيَّة، وهي أعمُّ مِن أن تكونَ بالإخراج مِنَ الدِّيار؛ إذِ الأذى أنواعٌ شتَّى.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/162.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/162.

ثمَّ ذكر الجهادَ والاستشهادَ في سبيل اللّه تعالى، "فجمعَ بين رُتَبِ هذه الأعمال مِن تَنقيص أحواله في الحياة لأجل دين اللّه بالمُهاجَرَة، وإخراجه مِن داره وإذايته في اللّهِ، ومآله أخيرًا إلى إفنائه بالقتل في سبيل اللّه"[1].

توجيه القراءات بين ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ و(قُتِلُوا وَقَاتَلُوا):

في الجمع بين القراءتين سعةٌ في المعنى، وتكاملٌ في الدّلالة

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ البَزَّار بتقديم الفعل المبنِيِّ للمفعول ﴿وَقُتِلُواْ﴾ على ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾؛ والجمهورُ بتقديم ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾، إلَّا أنَّ ابنَ كثير وابنَ عامرٍ[2] شدَّدوا التَّاء في ﴿وَقُتِلُواْ﴾؛ فقرآهَا: (وَقُتِّلُوا) على معنى التَّكثير والمبالغة[3]، وأمَّا تقديم الفعل المبنيِّ للمفعول ففي توجيههِ خمسةُ مسالكَ[4]:

أحدها: أنَّه على معنى التَّقديم والتَّأخير، كما في قول اللّه سبحانه: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ [آل عمران: 55]؛ فإنَّ الواو لا تُفيد ترتيبًا.

ثانيها: أنَّ في تقديمه إشعارًا بشدَّة رغبتهم في الإقدام على الخصوم، ودلالةً على شدَّة بأسِهم وعدم وَهَنِهم؛ فهم يُقاتلون بعد أن يُقتلَ منهم، فلم يهِنُوا بعد قتل أصحابهم.

ثالثُها: أنَّ ذلك حديثٌ عن مجموعهم لا لجميعهم، فيكون المعنى: وقاتَلوا بعد أن رَأَوا كثيرًا مِن أصحابهم قد قُتِلَ.

رابعُها: أنَّه على إضمار (قد)، والمعنى: وقُتلوا، وقد قاتلوا.

خامسُها: بيان أنَّ المرادَ كونُ الكفّارِ هُم البادئين للقتال، فلمَّا قُتِلَ مِن المؤمنين أُناسٌ؛ قاتَلوا الكفَّار.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/479.
(2) البنَّاء، إتحاف فضلاء البشر، ص: 234.
(3) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/275.
(4) النَّحّاس، إعراب القرآن: 1/195، والسَّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/275، والفارسّي، الحجّة: 3/117، والثَّعلبيّ، الكشف والبيان: 3/235، وابن زَنجلة، حجّة القراءات، ص: 187، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/557، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/319، والنَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 1/323، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/162، ورضا، تفسير المنار: 4/252.

في التأكيد فخامةُ وَعد الله تعالى، وتشريفُه، وتحقُّقُه

سرُّ تأكيد الخبر ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾، و﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾:

أُكِّدَ الخبرانِ ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ و﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾ باللَّام الواقعة في جواب القسم المحذوف، ونُون التَّوكيد الثَّقيلة؛ تحقيقًا لِوَعد اللّه تعالى لهم، وتفخيمًا لهذا الجزاء، وتشريفًا له.

وجه الوصل اتِّحاد الجملتين في الخبريَّة، فكلِّ واحدٍ منهما ثوابٌ مَرجُوٌّ في الآخرة

بلاغة الوَصل في جملة: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾:

وُصِلَ قولُه: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ﴾ على قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ لِمَا بَينَ الجملتين مِنَ التَّوسّط بين الكمالين؛ لاتِّحاد الجملتين في الخبريَّة، ويجمعُهُما كونُ كلِّ واحدٍ منهما ثوابًا مَرجُوًّا في الآخرة، وحَسَّنَ الوصلَ تناسُبُ الجملتين في الفعليَّة.

التقديم من باب التَّخلية قبل التَّحلية

علّةُ تقديم تكفير الذُّنوب على إدخال الجنَّة:

قُدِّمَ تكفيرُ الذُّنوب على إدخال الجَنَّة في قول اللّه سبحانه: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ﴾؛ لما في الأوَّل من إزالة المفاسد، وفي الثَّانية من تحصيل المصالح؛ فهو مِن باب التَّخلية قبل التَّحلية، وفيه تقديمٌ للسَّبب على النتيجة، والمآلِ؛ فلا دخول للجنّة دون كفران للسيئات.

جمع الجنّات، وتنكيرها أمارةُ عَظَمةِ ثوابِ الآخرة وتنوُّعِهِ

نُكتة جمع الجنَّات وتنكيرها:

جُمِعَتِ الجَنَّات في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾؛ للإيماء إلى تعدُّدِها وكثرتِها؛ وذلك أنَّ الجنَّةَ في الآخرة تشتمِلُ على جنانٍ كثيرةٍ، ونُكِّرت؛ للإشعار بتنوُّعِها واختلافِها، وهذا أقوى في التَّرغيب، وأنشَطُ لقلوب المُتلقِّينَ على فعل أسباب تحصيلها.

جريان أنهار الجنّة من كمال نعيمها

سرُّ وصف الجنَّات بجري الأنهار من تحتها:

وَصفُ الجنَّات بأنَّها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾؛ يُراد به المدحُ؛ لأنَّ أَحسنَ المياه ما كان جاريًا؛ إذ إنَّ ذلك يقتضي كونَه جديدًا كلَّما

اغترُف أوِ اغتسِلَ منه، وفيه إشارةٌ إلى دوام الحياة فيها بدلالة الفعل المضارع ﴿تَجۡرِى﴾.

دلالةُ التّعريف في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وعدم الإضافة:

كُلُّ نعيمٍ في الجنَّة يُتَنَعَّمُ به استقلالًا

اللَّام في الأنهار يُراد بها تعريفُ الجنس[1]، فيكون في قوَّة النَّكرة، والمعنى: تجري من تحتها أنهارٌ، ويحتملُ أن تكون اللَّام للعهد التَّقديريِّ؛ وذلك أنَّه لمَّا ذُكرتِ الجنَّاتُ؛ استحضرَ السَّامعُ لوازمَها ومقارناتِها، ويَحتمِل أن تكون للعهد الخارجيِّ، ويكون المعهودُ هو المذكور في قول اللّه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ [محمّد: 15].

ولَم تُضَفِ الأنهارُ إلى ضمير الجنَّاتِ بأن يقال: (تَجري مِن تحتها أنهارُها)؛ للإيماء إلى أنَّ التَّنعُّمَ بالأنهار تنعُّمٌ مستقلٌّ، وليس ذلك تنعُّمًا تابعًا للجنَّات.

دلالة التَّنكير في ﴿ثَوَابٗا﴾:

وجهُ تنكير ثواب اللّه تعالى تعظيمُهُ، وتفخيمُهُ

تنكير ﴿ثَوَابٗا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ، ويُؤيِّدُ دلالَتَه على التَّعظيم خمسةُ أوجهٍ[2]:

أحدُها: وقوع ﴿ثَوَابٗا﴾ مصدرًا مُؤكِّدًا لفعلٍ محذوفٍ؛ لأنَّ ﴿ثَوَابٗا﴾ واقعٌ مَوقِعَ (إثابةً)، والتَّقدير: أُثيبُهُم إثابةً.

ثانيها: قولُه: ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: أنَّ الثَّوابَ حاصلٌ من اللّهِ المتَّصِف بصفات الجلال والجمال، ومنها: الكرمُ والرَّحمةُ، والثَّوابُ ممَّن هذا وصفُهُ لا يكون إلَّا عظيمًا؛ فقوله: ﴿مِّنۡ عِندِ﴾؛ فيه إيماءً إلى عظمة الثَّواب؛ لأنَّ الّذي عندَ اللّه تعالى العظيم، هو في غاية العظمة.

(1) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/107.

(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/55، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/481، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/191، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/163، والخفاجي، عناية القاضي: 3/92، والآلوسيّ، روح المعاني: 2/380.

ثالثها: وصفُ الثَّواب بأنَّه ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ للتَّأكيد؛ لأنَّ الثَّواب لا يكُونُ إلَّا مِن عند الله تعالى، إلَّا أنَّه صُرِّحَ به تعظيمًا وتفخيمًا لشأنه.

رابعُها: الاختصاصُ المستفادُ من قوله: ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: هو المُختصُّ به، كما تقولُ: عندي ما تُريدُ، تقصِدُ: اختصاصَكَ به وتَمَلُّكه.

خامسُها: الالتفاتُ في قوله: ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾؛ فإنَّه التفاتٌ من التَّكلُّم في ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ و﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ﴾ إلى الغيبة ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾، وكان مُقتضى الظَّاهر: ثوابًا من عِندِي، إلَّا أنَّه عُدِلَ إلى أسلوب الغَيبة؛ لما ترتَّبَ عليه من إظهار الاسم الأحسن (الله)، وهو أدلُّ على جلالة الثَّواب من الضَّمير.

دلالةُ تقديم ﴿عِندَهُۥ﴾ على ﴿حُسۡنُ﴾:

حسنُ الثَّواب مُختصٌّ بالله تعالى ولا يقدِرُ عليه غيرُهُ

تقديم الظَّرف ﴿عِندَهُۥ﴾ على ﴿حُسۡنُ﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾: يُرادُ به الاختصاصُ والقَصْرُ؛ إذ إنَّ ذلك من إفاداتِ تقديم ما حقّهُ التّأخير، فحسنُ الثَّواب مُختصٌّ بالله تعالى ولا يقدِرُ عليه غيرُهُ[1].

جزاءُ الأعمال في الدُّنيا - وإنْ عَظُمَ - لا يُقارِبُ ثواب الله تعالى لعباده المُحسنينَ

ثُمَّ إنْ أُريد بـ ﴿حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾: الجنَّةُ[2]؛ كان القصرُ قصرًا حقيقيًّا، وإن كان المُرادُ مُطلقَ الثَّواب؛ فالقصرُ مجازِيٌّ؛ لبيانِ عِظَم ثوابِه سبحانه، حتَّى كأنَّ كلَّ جزاءٍ للأعمال في الدُّنيا لا يُعدُّ حسنًا أمام ثواب الله سبحانه لعباده المُحسنين[3].

نُكتةُ التَّذييل في الفاصلة:

ثوابُ الله تعالى لا مُنتهى لشرفه

قولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ تذييلٌ جارٍ مَجرَى المثَلِ، سيقَ مساقَ التَّوكيد والتَّقرير لمضمون ما قبلَه؛ ليكونَ ذلك

(1) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 1/323.
(2) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/275.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1557.

الثَّوابُ لا مُنتهَى لشرفه؛ لأنّ اللّه سبحانه لَمَّا كان قديرًا عليمًا؛ كان لا مُنتهَى لكرمه وجوده وإحسانه، فكان عنده حسنُ الثَّواب[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاستجابة والإجابة:

الفرق بينهما من وجهين[2]: أوَّلُها: أنّ الاستجابة أكثرُ حروفًا مِنَ الإجابة، وزيادةُ المبنى يقتضي الزِّيادة في المعنى غالبًا، وزيادةُ المعنى ههنا مِن جهة أنَّ الاستجابَةَ دالَّةٌ على إعطاء جميع المطلوبات. وثانيها: أنَّ الاستجابةَ أخصُّ مِنَ الإجابة؛ لكون الاستجابةِ الجوابَ بما يُوافقُ الدَّاعي، بخلاف الإجابة فقد تكون بموافقتِهِ كما تكونُ بمخالفته.

الأذى والضَّرر:

يَجمَعُهما أنَّ كليهما شرٌّ ومكروهٌ يَحُلّ بالعبد، والفرقُ بينهما: أنَّ الأذى هو المكروهُ اليسير والشَّرُّ الخفيفُ، فإذا زادَ ذلك سُمِّيَ: ضَرَرًا[3].

الأَجر والثَّواب والجزاء:

تدلُّ مادَّةُ الأجر - الهمزةُ والجيم والرَّاء - على معنيين: الكِراء على العمل، وجَبرُ العَظمِ الكسير، ويُجمَعُ بينهما بأنَّ أجرة العامل بمنزلة الشَّيءِ الّذي تُجبَرُ بها حالُهُ فيما أصابَه من كَدٍّ في عمله[4]، وأمَّا الثَّواب فدالٌّ على العَود والرُّجوع، والمُرادُ به: ما يعود على الإنسان من جزاء عمله[5]، وأمَّا الجزاءُ فأصله الغَناءُ والكفايةُ، ويُرادُ به: الكفاية مِنَ المُقابلة إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ[6]. والفرقُ بينها[7]: أنَّ الثَّوابَ يُستعمل في الجزاء بالخير غالبًا، واستعمالُهُ في الشّرِّ أقلُّ، وأمَّا الجزاءُ فهو المقابلة على الخيرِ بالثَّواب، وعلى الشَّرِّ بالعقاب، وأمَّا الأجرُ فلا يُستعمل إلَّا في النَّفع دُون الضّرِّ، ويتضمَّن معنى المعاوضة، فالأجرُ أخصُّ مِنَ الثَّواب والجزاءِ، من جهة اختصاصه بالخير، بخلاف الثَّواب والجزاء

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/471، والآلوسّي، روح المعاني: 2/380.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 8/109، و13/362، والشّربينيّ، السّراج المنير: 1/276، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/202.
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أذى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).
(5) القاضي عيّاض، مشارق الأنوار: (ثوب).
(6) الرّاغب، المفردات: (جزا).
(7) داود، معجم الفروق الدّلالية، ص: 46 - 48، الدُّوريّ، دقائق الفروق اللغوية، ص: 164 - 166.

فهما أعمُّ؛ لجريانِهما في الخير والشَّرِّ، والثَّواب أخصُّ مِنَ الأجر والجزاء مِن جهة أنَّهُ لا يُستعمل في المنافع المادِّيَّة أو الدُّنيوِيَّة، بخلاف الأَجر والجزاء؛ فإنَّهما يقعان على المنافع الدُّنيَويَّة والمنافع الأُخرَويَّة.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: 196 - 197]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

المناسبة بين آجل الجزاء الأخرويّ الدّائم، وبين عاجل متاع الكفّار الزّائل

لَمَّا وعد اللّه تعالى المؤمنين بالثَّواب الجزيل، وكان هذا الوعدُ آجلًا، وكان نظرُهم إلى ما عليه الكفَّار من سعةٍ وتنعُّم، مؤثِّرًا في بعض النُّفوس، أثرًا يقدحُ في الإيمان بالغيب؛ لِمَا هم فيه مِنَ الفقر والشّدَّة، ذَكَرَ سُبحانه في هذه الآية ما يُسلِّيهم ويُصبِّرهم على ذلك، مُبيِّنًا أنَّ أموال الكُفَّار وما هم فيه مِنَ التَّنعُّم؛ إنَّما هي صورٌ لا حقائقَ لها، ولا ينبغي لأهل الإيمان أن يَعبَؤوا بذلك؛ لأنَّ عاقبتَه في غاية السُّوء[1]، فيجب أن لا تغترّ - أيّها الرّسول - بمتع أهل الكفر باللّه، وماهم عليه من بسطة في العيش، وتقلّب في ألوان الرّزق، وأصناف النّعم، ورواج تجاراتهم، وتراكم الأرباح والأموال لديهم، فسوف يزول هذا كلُّه عنهم، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السّيئة، وكفرهم الموبق[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَغُرَّنَّكَ﴾: من الغرور، وهو بالضّمّ ما (اغترّ) به من متاع الدّنيا[3]، والغين والرَّاء تدلُّ على أَثَرٍ ظاهرٍ في الشَّيء[4]، وأرجعها ابنُ فارسٍ إلى معانٍ، منها: النُّقصانُ، ومنه قِيلَ للنَّوم القليلِ: غِرارٌ، ومنه: بيع الغرَرِ؛ وهو الخطَرُ الّذي لا يُدرَى أيكونُ أم لا، كبيع الطَّيرِ في الهواءِ؛ وذلك لِنُقصان البيع وعدم تمامِهِ[5]، والأوَّلُ أعمُّ،

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/471، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/163 - 164.
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 76.
(3) الرّازيّ: مختار الصّحاح: (غرر).
(4) الرّاغب، المفردات: (غرر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غر).

والنُّقصانُ مندرِجٌ فيه؛ لأنَّه أثرٌ ظاهر في الشَّيءِ. وتقول العربُ: غَرَرتُ فلانًا؛ أَصَبتُ غِرَّتَهُ، ونِلتُ منه ما أُريدُه، والغِرَّةُ: غَفلة في اليقظةِ[1]، والغَرُّ: الإطماعُ في أمر محبوبٍ على نيَّةِ عدم وقوعِه، أو هو إظهارُ أمرٍ مضرٍّ في صورة النَّافع[2]، والشَّيطانُ: غَرورٌ؛ لأنَّه يَحمِل على محابِّ النَّفسِ، ووراءَ ذلك ما يَسوءُ[3].

2) ﴿تَقَلُّبُ﴾: من (قلب)، قلبت الشّيء فانقلب، أي انكبّ، والمنقلَب يكون مكانًا ويكون مصدرًا، مثل المنصرَف[4]، والقاف واللَّام والباء تدلُّ على معنيين كُلِّيَّين: خالصُ شيءٍ وشريفُهُ، وردُّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهةٍ[5]، يُقال: قَلَبَ الشّيءَ وقَلَّبه؛ إذا حَوَّله ظَهراً لبَطنٍ[6]، وقلَّب الأُمُورَ: بحثَها ونظر في عواقبها، وتَقَلَّبَ في الأُمور وفي البلاد: تصرَّف فيها كيف شاءَ[7]، والتقلُّبُ في قول اللّه تعالى: ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هو التَّصرُّف على حسب المَشيئَة في الحُروب والتِّجارات والغَرسِ، ونحو ذلك[8].

3) ﴿مَتَٰعٌ﴾: الميم والتَّاء والعَين تدُورُ تصريفاتُهَا على منفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ وقوَّةٍ وكمالِ حالٍ[9]، ومنه قوله تعالى: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود: 3] أي: يَبسُط عليكم مِنَ الدُّنيا، ويرزقكم مِن زينتِها، ويَنسَأُ لكم في آجالكم إلى وقت وفاتِكم ولا يَستَأصِلكم بعذابٍ[10]. ومنه: المَتاع؛ وهو في الأَصل: كلّ شَيء يُنتفَع به، ويُتبلَّغ به، ويُتزوَّدُ[11]، والمتاع: ما يستمتع به الإنسان في حوائجه من أمتعة البيت ونحوه من كلّ شيء، والدّنيا متاع الغرور، وكلّ شيء تمتّعت به فهو متاع[12]، ويُقال: إنّما العيشُ متاعُ

(1) الرّاغب، المفردات: (غرر).
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/205.
(3) الهرويّ، الغريبين: (غرر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (قلب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(6) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (قلب).
(7) ابن سيده، المحكم: (قلب).
(8) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 104، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/206.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متع)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (متع).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 15/229، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (متع).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة: (متع).
(12) الخليل، العين: (متع).

أيَّامِ ثُمَّ يَزُول، أي: بقاءُ أيَّام[1]، وقولُهُ سبحانه: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أي: شيءٌ ينتَفِعون به سنينَ قليلةً وينقضي[2].

4) ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾: أوى إلى منزله يأوي، - من باب ضرب - أويًا: أقام، والمأوى بفتح الواو لكلّ حيوان: سَكَنُهُ[3]، والهمزة والواو والياء تدور تصريفاتُها على معنيين: التَّجمُّع، والإشفاقُ[4]، ومِنَ الأوَّل: التَّأوِّي؛ وهو التَّجمُّع، وقولُ العربِ: تأوَّتِ الطَّيرُ؛ إذا انضمَّ بعضُها إلى بعضٍ[5]. المأْوى: المكانُ الذي يُنصرَفُ إليه ويُقامُ فيه[6]، والمأْوى في قول اللّه تعالى: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ المصير الّذي يَأْوُون إليه يومَ القيامة[7].

5) ﴿ٱلْمِهَادُ﴾: من (مهد)، ومهّدت الأمر تمهيدا، وطّأته وسهّلته[8]، والميم والهاء والدَّال تدلّ اشتقاقاتها على توطئةٍ وتسهيلٍ للشَّيءِ، ومنه: المَهدُ[9]؛ وهو ما يُهيَّأُ للصَّبيِّ مِنَ الفراش[10]، ويُقال: مَهَّدتُ لنَفسي، أَي: جَعَلتُ مَكانًا وطيئًا سهلًا[11]، والمِهَادُ: الفراش[12]. والمِهَادُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الفراشُ، والمعنى: بِئسَ الفراشُ والمَضجعُ جَهَنَّمُ[13].

ما عند الله في جنّاته للأبرار، خيرٌ من متاع الكفرة في دنيا البوار

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

لا يَخدعنَّكَ يا أيُّها الرَّسول الكريمُ، تصرُّفُ الكفَّار في التِّجارة وإصابتُهم الأَموالَ وما هم فيه من سعة العيش؛ فيؤدِّي ذلك بك

(1) الخليل، العين: (متع).
(2) الجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 1/429.
(3) الفيّومي، المصباح المنير: (عوي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوي).
(5) الخليل، العين: (أوى).
(6) الحُميديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 7/494.
(8) الفيّومي، المصباح المنير: (مهد).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مهد).
(10) الرّاغب، المفردات: (مهد).
(11) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 80، والأزهري، تهذيب اللغة: (مهد).
(12) ابن سيده، المحكم: (مهد).
(13) ابن جرير، جامع البيان: 7/494.

إلى الشُّعور بالهمِّ والغمِّ من حالِهم؛ فإنَّ ذلك متاعٌ حقيرٌ، يَزولُ عنهم قريبًا، ويكون مآلهم إلى نار جهنَّم[1]، "ولا شكّ أنّ ما عند اللّه من الكرامة، أفضل على التّحقيق، ممّا يتقلّب فيه الّذين كفروا من المتاع القليل"[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الخطاب في ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾:

عصمةُ النَّبيِّ ﷺ مِنَ الاغترار بتَقلُّب الكفَّار في المعايش

المخاطَبُ بالنَّهي في قول اللّه تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ يحتَمِلُ وجهين:

أحدهما: أنَّه النَّبيُّ ﷺ.

والآخرُ: أنَّه كُلُّ من يتأتَّى خطابُه.

أمَّا الأوَّلُ ففيه مَسلكان:

الأوَّلُ: أنَّ الخطابَ للنَّبيِّ ﷺ، والمُرادُ غيرُه[3]؛ لِمَا عُلِمَ مِن أنَّ النَّبيّ ﷺ لا يُمكِنُه الاغترارُ بتنعُّم الكفَّار وتقلُّبِهم في المعايش؛ لأنَّ ذلك الاغترارَ مُنافٍ للعِصمَة.

وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّ العصمةَ لا تُزيل النَّهي؛ إذ لو زال النَّهيُ لما كانت ثَمَّ عِصمةٌ؛ لأنَّ العصمةَ الحفظُ مِن مخالفة الأمر والنَّهي، وإذا زال النَّهيُ لم تكن ثَمَّ مخالفةٌ، فلا تكون عِصمةٌ[4].

والآخر: أنَّ الخطاب للنَّبيِّ ﷺ ولأمّتِه، ولكن وقعَ بأسلوب التَّغليب؛ تطييبًا لقلوب المُخاطَبين[5].

وخطاب الأُمَّةِ بمثل هذا النَّهي يُرادُ به حقيقةُ الإلزام بالتَّرك أو الدَّوامُ عليه لمن كان مُمتَثِلًا النَّهي.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/493 - 494، وابن أبي زَمَنِين، تفسير القرآن: 1/342، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 162، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 76.

(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، ص: 260.

(3) مكيٌّ القَيسّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 2/1206، الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/471.

(4) البروسوي، روح البيان: 2/153.

(5) الآلوسّي، روح المعاني: 2/381.

وأمَّا خطاب النَّبيِّ ﷺ فالمرادُ به: الإلهابُ والتَّهييجُ؛ والمُرادُ بهما: كلُّ كلامٍ دالٍّ على الحثِّ على الفعل لِمَن لا يُتصوَّر منه تركُهُ، وعلى ترك الفعل لِمَن لا يُتصوَّر منه فعلهُ، ولكن يَكونُ صُدورُ الأمر والنَّهي على جهة الإلهاب والتَّهييج له على الفعل والتَّرك فحسب[1].

وأمَّا الوجهُ الآخر، وهو أن يكون المُرادُ به كلَّ مَن يتأتَّى خطابُهُ؛ فالمعنى: لا يغرنَّك أيُّها السَّامعُ[2]، وهو خارجٌ عَنِ الأصل من جهة أنَّ الأصلَ في الخطاب أن يكون لمعيَّن، إلَّا أنَّ العدولَ عن إرادة المعيَّن بالخطاب قصدًا للعموم كثيرٌ في القرآن الكريم، وفي كلام العرب[3]، وهذا الوجهُ أبلَغُ؛ مِن حيث إنَّ هذا النَّهي يكون لكُلِّ مُتَلَقٍّ للخطاب كأنَّه وُجِّهَ له على سبيل الانفراد والخصوص، وهذا أدخَلُ في إبراز العناية بامتثاله.

بلاغةُ المجاز العقليّ في ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ﴾:

مِـــن أقـــوى طُـرُق المَنع مِنَ الأشـياء: مَنعُ أسبابها المُنتِجَة لها

إسنادُ فعلِ الغُرور إلى التَّقلُّب في قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ التَّقَلُّبَ سبَبٌ فيه، فالنَّهيُ في المعنى موجَّهٌ للمُخاطَب، وجعلُهُ للتَّقلُّب هو من باب تنزيل السَّبب - وهو التَّقلُّب - منزلةَ المُسبَّب - وهو اغترارُ المُخاطَب - ؛ لقصد المبالغة[4]، ووجه المبالغة: منعُ السَّبَب بإيراد النَّهي عليه؛ ليَمتَنِعَ المُسبَّبُ ضرورةً بالطَّريق البُرهانيّ[5]، والمعنى: لا ينبغي أن يَغُرَّكَ[6].

نُكتة التَّعبير بالاسم الموصول:

في الموصـليّـة حـثٌّ عـلى عدم الاغـــترار بـما يَصدُرُ مِنَ الكفَّار

إضافةُ التَّقلُّبِ إلى الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من قول الله

(1) العلويُّ، الطِّراز: 3/93.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/471.
(3) السَّكَّاكي، مفتاح العلوم، ص: 180.
(4) البروسوي، روح البيان: 2/153.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 2/381.
(6) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/206.

تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تنفيرٌ مِن تقلُّبِهم قبل ذكر عاقبتِهِ ومآلِه، فالتَّقلُّبُ في البلاد سببٌ للاغترار، ولكنَّ تقلُّبَ الموصوفينَ بالكُفر لا ينبغي الاغترارُ به، كيف وقَدِ انضمَّ إلى ذلك سوءُ عاقبة أمرهم.

بلاغة الفَصْل في قوله ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾:

في الفصل تنبيهٌ على وجوبِ التَّأمُّل في مآلَاتِ الأُمور

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ عمَّا قبلُ؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا[1]؛ وذلك أنَّ قوله سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ يُورِثُ في النَّفس سؤالًا؛ وما لنا لا نغترُّ بتقلُّبِهم وهو سببٌ في الاغترار؟ وكيف تَرَكَهُم اللّه تعالى على تلك الحال؟ فجاء الجواب: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾؛ تَنبيهًا إلى أنَّه لا ينبغي قَصرُ النَّظَر على الأحوال الظَّاهرة، بل يجبُ التأمُّلُ في مآلاتها.

دلالةُ تنكيرِ ﴿مَتَٰعٌ﴾:

ما يتمتَّعُ به الكفَّارُ، مهما عَظُمَ في الظَّاهر، فإنّهُ قليلٌ حقيرٌ

تنكيرُ ﴿مَتَٰعٌ﴾ مِن قول اللّه تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ يُرادُ به التَّحقيرُ؛ فهو متاع لا يَعبأ به ذو همَّةٍ عليَّةٍ[2]، وازدادَ حقارةً بوجهين:

أحدهما: إفرادُهُ، وهو دالٌّ على القلَّة.

والآخر: وصفُه بالقلَّة؛ فيكون تمتُّعهم حقيرًا في قدرِه، وقليلًا في وصفه.

دلالةُ حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾:

تَمَتُّعُ الكفَّار بزخارف الدُّنيا، وإن طال، فإنَّهُ زائلٌ، سيِّئةٌ عاقبتُهُ

﴿ثُمَّ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ حرفُ عطفٍ دالٌّ على التَّرتيب معَ التَّراخي؛ وفي التَّعبير به نُكتَتان[3]:

الأولى: إشارةٌ إلى أنَّ تمتُّعَهم بزخارف الحياة الدُّنيا، وإن

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/206.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/164.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/164، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1558.

فُرِضَ أنَّه قد طالَ في نظر المؤمنينَ؛ فإنَّهُ تمتُّعٌ لا قيمةَ له؛ لزواله وسوءِ ما بعدَهُ.

والأخرى: الإيماءُ إلى هول تلكَ العاقبَةِ وتناهِي عظَمَتِها؛ بالدِّلالة على التَّفاوت ما بين حالِهم في الدُّنيا، وما يكونون عليه في الآخرة.

توجيه المتشابه اللَّفظيِّ بين ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ و﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾:

دقَّةُ النَّظم القرآنيِّ في اختيار حروف المعاني بما يُناسبُ السِّياق

جاء التَّعبير في هذا المَوضِع مِن (آل عمران) بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قول اللّه سبحانه: ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، وورد هذا النَّظمُ بالواو أيضًا في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ في أربعة مَواضِع:

أوَّلُها: قولُ اللّه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التّوبة: 73].

ثانيها: قولُ اللّه سبحانه: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [التّوبة: 95].

ثالثُها: قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرّعد: 18].

رابعُها: قولُ اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التّحريم: 9].

وجاءت بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنَّ هذه الآية سُبقَت بقول اللّه تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾، وتصرُّفُهم في التِّجارة وإصابتُهم الأموالَ قد يطولُ زَمَنُهُ، ولذا ذُكر حرفُ العطف ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالّ على التَّراخي.

أمَّا الآياتُ الأربعُ الأخرى فوردَ العطفُ فيها بالواو؛ لعدم تضمُّنِهَا ما يقتضي التَّراخي، فكان الأنسبُ العطفَ بالواو المفيدة الاشتراكَ

في الحكم، كالّذي ورد في سورة الرَّعد: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [الرّعد: 18]؛ فإنَّ سوءَ الحساب من أحوال الآخرة، فعُطِفَ عليه ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ بالواو؛ لأنَّه من أحوال الآخرة كذلك؛ لإفادة وقوع الحُكمَين عليهم[1].

بلاغةُ الاستعارة التَّهكُّميَّة في قوله ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾:

التَّهكُّمُ مِن أَشدِّ أَنــواعِ العـذاب النَّفسيِّ

أصلُ المأوى: المكانُ الّذي يُنصَرَفُ إليه ويُقامُ فيه[2]، وإنَّما يُؤوَى إلى مكانٍ فيه استقرارٌ واطمئنانٌ، فمجيءُ التَّعبير القرآنيِّ عن جهنَّم بالمأوى في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ من باب الاستعارة التَّهكُّميَّة، ويُؤيِّده قولُه عَن جهنَّم بعدُ: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾، وأصلُ المِهاد: المكانُ المُمَهَّدُ، والفراش اللَّيِّنُ الموطَّأُ، فذلك يقوِّي دلالة التَّهكُّم[3]، وهذا أشدُّ وقعًا على النُّفوس؛ لما فيها مِنَ الإنزال لِقَدر المُخاطَب، والحطِّ منه[4].

توجيه المتشابه اللَّفظيِّ بين ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ و﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾:

دقَّـــةُ اخـتـيـار اللَّفظة المُلائمة لسياقها

قال اللّه تعالى: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾، وجاء في سورة النّحل: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النّحل: 117]، ووجه المغايرة بينَهما: أنَّ آية آل عمران سُبِقت بقول اللّه سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، فلمَّا كان لهؤلاء قُوَّةٌ وسَعَةُ تُمَكِّنُهم مِنَ التَّقلُّب في البلاد؛ كان لا بُدَّ لهم من مكانٍ يأوونَ إليه؛ ذكَرَ اللّه تعالى مأواهم، فقال ﷻ: ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾.

أمَّا آية النَّحل فسُبِقَت بقول اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ

(1) داود، معجم الفروق الدّلاليَّة، ص: 592.

(2) الحُمَيديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1558.

(4) العلويّ، الطِّراز: 1/127.

أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [النّحل: 116]، فلمَّا بلغَ هؤلاءِ المُنتهَى في الكذب، وذلك بكذبهم على اللّه تعالى كَذِبًا يُؤلِمُ أولياءَهُ، وهم يَجِدون في كذبهم ذلك لذَّةً؛ كان الأنسبُ تخصيصَهم بما يُبطِلُ تلك اللَّذّة، ويُزيل كُلَّ عُذوبةٍ، ويُورِثُهم ضدَّ ذلك من الألم فقال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(غَرَّ) و(خَدَعَ):

يشتركان في مُطلَقِ وقوعِ الضَّرر، وهذا الّذي سبَّبَ التَّقارُبَ بين اللَّفظتين[2]، ويفترِقان مِن وجهين[3]: أوَّلُهُما: أنَّ أصلَ الغررِ الأثرُ الظَّاهرُ في الشَّيء، ومنه النُّقصانُ، وأمَّا الخداعُ فأصلهُ: الخَفَاءُ، ثانيهما: أنَّ الخِداع فعل يَظهرُ فيه قُدرَةُ الخادِعِ على إخفاء الشَّيء وإظهَارِ غَيرِه، وهو دالٌّ على الفِطنَة، أمَّا الغرورُ فهو فعلٌ يُنبئُ عن غفلة المغرور، ونقص فِطنته. ومِن هُنا ورد الخِداعُ في القرآن الكريم وَصفًا لأفعال الكافرين والمُنافقِين، ومُجازاةَ اللّه تعالى لهم على خِداعِهم، وتَحذيرًا للنَّبيِّ ﷺ والمؤمنين، من الوقوع في حبائِلهم، فهم يظنُّون أنَّهم أهل فطنةٍ وذكاء، بخلاف الغرور؛ فقد ورد في سياق التَّحذير مِنَ الغفلة، والانسياق وراءَ زينَةِ الحياة الدُّنيا، ومِن الوقوع في حبائل الشَّيطان، ودرَك الشَّهوات.

المأْوى والمثْوَى:

ذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ المأوَى والمَثوَى بمعنًى واحد[4]، وفرَّق بينهما جماعةٌ، وحاصلُ الفرق بينهما مِن وَجهَين: أحدهما: أنَّ المأوى أعمُّ من المثوى؛ لأنَّ المثوَى تتضمَّنُ معنى الإقامةِ، بخلاف المأْوَى[5]؛ فقد يدلُّ على معنى الإقامة، وقد لا يدلُّ عليها؛ ولذا قد يأوي الإنسانُ إلى مكانٍ عارضٍ، ولذا جاء في الحديث قول النَّبيِّ ﷺ: «انطَلَقَ ثَلاَثَةُ رَهطٍ مِمَّن كَانَ قَبلَكُم حَتَّى أَوَوا المَبِيتَ إِلى غَارٍ»[6] - في القصَّة المشهورة - ، فعبَّر عن

(1) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 351.

(2) الجرجانّي، درج الدّرر: 2/555.

(3) داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 234 - 236.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/77، والواحديّ، التّفسير البسيط: 20/232، والدَّقيقيّ، اتّفاق المباني وافتراق المعاني، ص: 255.

(5) الآلوسّي، روح المعاني: 2/301، والهرَريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 5/222.

(6) البخاريّ، الحديث رقم: (2272)، ومسلم، الحديث رقم: (2743).

مَبيتِهم العارِضِ في غارٍ بالإيواءِ، ثانيهما: أنَّ الإقامةَ إن دلَّ عليه لفظ (المأوى) يُفارق الإقامةَ الّتي يدلُّ عليه لفظُ (المثوى)؛ لأنَّ الإقامةَ في المثوَى إقامةٌ مع دوام، بخلافها في المأوى[1]، فالمأوى قد يُقيم فيه المرءُ إقامةً طويلةً، ولكنَّ المثوَى يقتضي الإقامة الدَّائمةَ[2].

وقد جُمِعَ بين المَأْوَى والمَثوَى في آيةٍ واحدةٍ، وهي قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: 151]، وهو يؤيِّدُ أنَّ في المثوى أمرًا زائدًا على المأوَى، ففي ذِكر المَثوَى بعد المأوى إشارةٌ إلى خُلودِهِم، ولذا قُدِّم المأوى؛ بالنَّظر إلى التَّرتيب الوجوديِّ؛ فإنَّ الكافرَ يأوي ثُمَّ يَثوِي[3].

(1) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 167 - 168.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1450.

(3) القنَّوجيّ، فتح البيان: 2/352.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾

[آل عمران: 198]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّقابل بين مآل الكافرين في النّار، وبين مآل المؤمنين في جنّات النّعيم

لَمَّا بيَّنَ اللّه تعالى مآل الكافرين وجزاءَهم، وأنَّ لهم نارَ جهنَّمَ، وذلك في ذكره سبحانه بأنّ تَقَلُّبهم في البلاد، مجرّد متاع قَلِيل، ثُمَّ يؤولون إلى جَهَنَّم، وبئس المهاد، أعقبَهُ بذكر مآل المؤمنين أهلِ التَّقوى، الّذين يجازيهم اللّه بتقواهم للّه، والتزامهم بهداه، جنّات تجري من تحتها الأنهار؛ اتّباعًا للوعيد بالوعد، على طريقة القرآن الكريم في ذِكر المتقابلَين[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾: من اتّقى يتّقي، أصله اوْتقى على افتعل، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، وأبدلت منها التّاء وأدغمت، فقالوا: تقى يتقي مثل قضى يقضي[2]، والواو والقاف والياء، تدور تصاريفُها على دفع شيءٍ عن شيءٍ بغيرِه[3]، و(اتَّقَوا): فعلٌ ماضٍ مُسندٌ إلى واو الجماعة، وهو بصيغة الافتعال من (وَقَى)، والتَّقوى: الحِفظُ[4] أو: جَعلُ النَّفس في وِقاية ممَّا يُخافُ[5]، والاتِّقاءُ: اتِّخاذُ الوقاية[6]. والتَّقوى في الشَّرع: اتِّخاذُ الوقاية مِن عذاب اللّه تعالى، وذلك بفعل أوامِره واجتناب نَوَاهيه[7].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/472، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/164.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (وقى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقي).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (وقى).
(5) الرّاغب، المفردات: (وقى).
(6) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 65.
(7) ابن عثيمين، القول المفيد: 2/478.

2) ﴿نُزُلًا﴾: النُّون والزَّاي واللَّام، تدلُّ اشتقاقاتها على هبوطِ شَيء ووقوعه[1]، والمَنزِلُ: مَوضِعُ النُّزول، ويُقال: أنزلتُ الضَّيفَ فهو نزيلٌ، والنُّزُلُ: طعام النَّزيل الّذي يُهيَّأُ له[2]، وتقول العربُ: أقمتُ لهم نُزُلَهُم، أي: غذاءَهم وما يصلُحُ معه أَن يَنزِلواْ عليه[3]، والنُّزلُ في قول اللّه تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾ ما يُعَدُّ للنَّزيل والضَّيف مِنَ الكرامة والقِرى[4]، والمعنى: أنَّ تلك الجنَّات الّتي وُعدواْ بها، هم خالِدُون فيها حالَ كونِ تلك الجنَّاتِ مَنزِلًا مهيَّأً لهم من عند اللّه تعالى على سبيل الإكرام والتَّشريف[5].

3) ﴿لِّلۡأَبۡرَارِ﴾: البرّ: "خلاف العقوق، والمبرّة مثله، تقول: بررت والدي بالكسر، أبرّه برّا، فأنا برٌّ به وبارٌّ"[6]، و(الأبرار) مفردُها: (البَارُّ)، و(البرَرة) مفردُها: (البَرُّ)، وكذا قد يكون مفرَدها: (البارُّ) أيضًا[7]، وعكس الجوهريُّ وغيرُه؛ فجعل (الأبرار) جمعًا لـ (البِرِّ)، و(البررةَ) جمعًا لـ (البَارِّ)[8]، والاستعمال القرآنيُّ يُؤيِّدُهُ؛ لأنَّ وزن (فَعَلَة) ورد في القرآن الكريم جمعًا لـ (فَاعِلٍ)، مثل: (وَرَثَة) جمع (وارث)، و(حَفَظَة) جمع (حافظ)، و(سَفَرَة) جمع (سافر)، و(فَجَرَة) جمع (فاجر)[9]، والباء والرَّاء تدُور تصريفاتُها على انبساطٍ عظيم مع تجرُّدٍ أو انكشاف وجفاف ما[10]، ومنه البَرُّ المقابلُ للبَحرِ؛ لما فيه من السَّعة والانبساط، والبِرُّ: التَّوسُّع في فعل الخير، ويأتي بمعنى الصِّدقِ؛ لأنَّ الصِّدقَ بعضُ الخير المُتوسَّعِ فيه[11]، تقول: برَّت يَمينُهُ؛ إذا صدقَت، وأبرَّها؛ إذا أمضاها على الصِّدقِ[12]، والأبرارُ جمع (بَرٍّ)؛ "وهُمُ الّذين بَرُّواْ اللّه تبارك تعالى بطاعتهم إيَّاه، وخدمتهم له، حتَّى أرضَوه فرضي عنهم"[13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزل).
(2) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (نزل).
(3) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابُهُ: 4/306.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/206.
(5) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 2/380 - 381.
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (برر).
(7) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 2/213.
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (برر)، والفيُّوميّ، المصباح المنير: (برر).
(9) الدّوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 305.
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (برر).
(11) الرّاغب، المفردات: (برّ).
(12) الخليل، العين: (بر).
(13) ابن جرير، جامع البيان: 7/482.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وصـــف جـــزاء الأتـقـيـاء وما أعـدّه الله لهم من جزاء عظيم، ونعيم مقيم

لكنَّ الّذين اتَّخذواْ الوقايةَ مِن عذاب اللّه سُبحانه - بفعلهم الأوامرَ واجتنابهم النَّواهِيَ - لهم في الآخرة جنّاتٌ تجري مِن تَحت قصورها وأشجارها الأنهارُ، وهذه الجنَّاتُ هي مَنزِلُهم الدَّائم، كرامةً مِن اللّه ﷻ لهم، والّذي عند اللّه ﷻ من كرامته لأهل طاعتِه وعطاياهُ لهم خيرٌ وأفضلُ ممَّا يتقلَّبُ فيه الّذين كفروا مِن نَعيم الدُّنيا؛ فإنَّ نعيمَ الدُّنيا حقيرٌ قليلٌ زائلٌ، وما عند اللّه تعالى مِنَ الكرامة لأهل طاعتِه عظيمٌ كثيرٌ باقٍ(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ ﴿لَٰكِنِ﴾ بين القَصر والاستدراك:

تـعـدُّد دلالات الـــحـــروف؛ سعةٌ في المعاني القرآنيَّة

العطفُ بـ (لكن) عند البلاغيِّين مِن طُرق القصر، وهي لقصر القَلب، وردٌّ اعتقادِ المُخاطَب؛ ففي قول اللّه ﷻ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٌ﴾ ردٌّ لاعتقاد الكفَرةِ أنَّهم مُتمتِّعون بالحياة، وأنَّ المؤمنين في خسرانٍ مُبينٍ.

و(لَكِنْ) عند النُّحاة حرفٌ دالٌّ على الاستدراك؛ وهو رفعُ توهُّمٍ ناشئٍ ممَّا سبق، وفي وجه الاستدراك ههنا مَسلَكانِ اثنان(2):

أحدهما: أنَّ اللّه تعالى لَمَّا وصف الكفّار بقلَّة نفع تَقَلُّبهم في التِّجارة وتَصَرُّفِهم في البلاد مِن أجلها؛ قد يُتَوَهَّمُ أنَّ التِّجارة مقتضيةٌ لذلك مِن حيثُ هي؛ فاستُدرِكَ بأَنَّ الّذين اتَّقوا، وإن تعاطَوا التِّجارةَ لا يضُرُّهُم ذلك، وأَنَّ لهم ما وُعِدوا به في الآخرة.

الآخر: أنَّ اللّه سبحانه لَمَّا جعل تمتُّعَهم في تقلُّبهم قليلًا مع أنَّهم في سَعَةِ حالٍ، قد يُوهِمُ ذلك أنَّ المُتَّقينَ الّذينَ في الفقر والجوع في

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/494 - 495، والنَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 1/324، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 76.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 2/382.

تمتُّع بالغِ الكمالَ في القِلَّةِ؛ فاستُدرِكَ ذلك؛ بأنَّ تمتُّعَهُم حاصلٌ في تقواهُم ربَّهُم، ولا تمتُّعَ أعظمُ من طاعة اللّه سبحانه؛ لكونه المُوصِلَ إلى النِّعمة العظيمة الأبديَّة في الآخرة.

أعظمُ المُتع مُتعةُ أهل الإيمان بطاعة ربِّهم

وهذه المعاني كلُّها صحيحةٌ، ولا تعارُضَ بينها.

دلالةُ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

التَّعريفُ بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾؛ للإيماء إلى وجه بناء الخبر، وأنَّهُ سيكونُ مِن جنس الكرامَة، ولبيان العلِّيَّة؛ وأنَّ إكرامَ اللّه سبحانه لهم بالجنَّات وما فيها سببُه تَقواهم له.

تقوى الله تعالى مِن أسباب نيل كرامته سبحانه

نُكتةُ التعبير بلفظ الرّبوبيّة:

إيقاعُ التَّقوى مُعبَّرًا عنها باسم اللّه (الرَّبّ) دون غيره مِنَ الأسماء في قول اللّه سبحانه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ لِمَا في اسم (الرَّبّ) من الدِّلالة على الإنعام والإحسان؛ إذ هما مِن مُقتَضَيات التَّربية، وفي ذلك إشارة إلى عَظَمَةِ تقواهُم؛ لأنَّهم إذا اتَّقوه مع استحضار الإحسان والإنعام، فاتِّقاؤُهم له مع استحضار عقابِهِ وعذابِهِ من بابٍ أَوْلَى وأحرى[1]، ولعِظَم تقواهم؛ استحقّوا أنْ يَشْرفُوا بالنِّسبة إلى ﴿رَبَّهُمۡ﴾؛ وهو ماتحقّق بالإضافة.

دوامُ تقوى أهل الإيـمـان رغَبًا ورهَبًا

بلاغةُ المُقابلة:

افتُتِحَتِ الآيةُ بحرف الاستدراك ﴿لَٰكِنِ﴾؛ لأنَّ مضمونَها ضدُّ الكلامِ الّذي قبلُ، ولأجل أنْ تكونَ ثَمَّ مقابلَةٌ جليَّةٌ بين العاقبة السُّوأى للكفَّار، والعاقبة الحُسنى للأبرار[2].

في مقابلة سوء عاقبة الكفّار، كمالُ حُسن مآل المؤمنين

ففي هذه الآيةِ ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/459.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/206، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 2/380.

مع ما قبلها ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾: مقابلَةٌ بديعة، قُوبلَت فيها أربعَةُ معانٍ بأربعةٍ؛ فجاءت مقابلة الكفّار بالمتَّقين، وجهنَّم بالجنَّات، وقلَّة متاعهم بعظيم النَّعيم في الجنَّات، وقِصَر مدَّة استمتاعهم بالخلُودِ الّذي هو داومُ التَّنعُّمِ.

ونُكتَةُ إيراد هذا التَّقابُل: بيانُ كمال حسن حال المؤمنينَ أتمَّ بيانٍ؛ ليَتِمَّ سرورُهم، ويزدادَ ابتهاجهم، ويتكاملَ به بيانُ سوء عاقبة الكُفَّار[1].

سرُّ جمع الجنَّات وتنكيرها:

جمع الجنَّة وتنكيرها أمارةٌ تعددها، وتفاوتِ الجزاء بحسب الأعمال

جمع الجنَّات في قول اللّه تعالى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ إشعارٌ بتكثرتِها وتعدُّدِها؛ فإنَّ في الآخرة جنَّاتٍ متنوِّعةً - كما يدُلُّ عليه تنكيرُها - بحسب أعمال العاملينَ ودرجاتِهم.

سرُّ وصف الجنَّات بجري الأَنهار من تحتها:

وُصِفَت الجنَّاتُ بجري الأنهار مِن تحتها في قوله سبحانه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ تعريفًا بدوام تنوُّعها وزهرتها وعظيم بهجتها[2]؛ ولأنَّ أَحسنَ الماءِ ما كان جاريًا؛ لأنَّ ذلك دالٌّ على تجدُّدِهِ كلَّما أُخِذَ منه شُربًا أو اغتسالًا أو نحو ذلك.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿نُزُلٗا﴾:

في التعبير عن الجنّة بالنُّزل بيانٌ لسعَة النَّعيم المُعَدِّ لأهل التَّقوى

وقع التَّعبير عن الجنَّات بكونها ﴿نُزُلٗا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾ مع أنَّ أصلَ النُّزُلِ هو ما يُقدَّم للضَّيف وقتَ نُزوله، وهو شيءٌ يسيرٌ؛ تمهيدًا لما أُعِدَّ له من الكرامة والقِرَى؛

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/483، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/135.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/165.

والنُّكتَةُ في ذلك: الإشارةُ إلى سَعَة كَرَم الله تعالى؛ حيث جَعَلَ الجنَّاتِ وأنهارَها نُزُلًا فقط، فما وراء ذلك مِنَ الإحسان والنَّعيم والخير الّذي لهم عند الله سبحانه أكثرُ مِن ذلك وأعظمُ[1].

دلالة تنكير ﴿نُزُلًا﴾:

في التَّنكير تعظيمٌ وتشريفٌ للنُّزل:

نُكِّرتْ كلمةُ ﴿نُزُلًا﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾ تعظيمًا وتشريفًا له.

نكتة إضافة النُّزل إلى الله تعالى:

يَعظُمُ الشَّيءُ بعِظَمِ مَصدَرِه

وأضافَ النُّزلَ إلى الاسم الأحسن (الله) لبيان قدر تلكَ العظَمَة؛ إذِ الشَّيءُ يعظُمُ بعظمَةِ مَنْ هو مِنْ عِندِه[2]، فما الظّنُّ بالشَّيء من الله تعالى المُكرِم به أولياءَهُ؟

توجيه المتشابه اللّفظيّ بين ﴿نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾ و﴿نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾:

نُكتَةُ المغايرة دقَّةُ انتقاء المُفردات المناسبة لسياقاتِها

وَرَدَت هذه الآية: ﴿نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾، وفي فُصِّلت: ﴿نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ [فُصِّلت: 32]، ونُكتَةُ المغايرة بينهما: مراعاةُ مناسبة كلِّ مَوضِعٍ لسياقِهِ الواردِ فيه.

فآية (آل عمران) صُدِّرت بقوله سبحانه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ فالسِّياقُ مُتعلِّقٌ ببيان عِظَم جزائهم الحَسَنِ في مقابلة جزاء الكافرين، فكان الأنسبُ وصفَهُ بكونه ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾؛ لأنَّ ذلك أدخَلُ في التَّعظيم.

أمَّا آية (فُصِّلَت) فتقدَّمها قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فُصِّلت: 30]، فلمَّا كان هذا عند الموت، وكان سبَبُ الخوفِ والحُزنِ ما كان من الذُّنوب في الدُّنيا؛ ناسبَه ذِكرُ ما

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/460، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/165.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/165.

يدلُّ على قطعِ سببهما، ويُشعِرُ بسَترِ الذُّنُوب والتَّجاوز عنها، فقال تعالى: ﴿نُزُلَا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾[1].

دلالة الاسم الموصول (ما) في قوله ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾:

الإبهام في الوَعد مُشعِرٌ بعظمته

التَّعبير بالاسم الموصول (مَا) في قول الله ﷻ: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾؛ لإفادة التَّهويل تعظيمًا؛ وذلك لمَا في الاسم الموصول (مَا) مِنَ الإبهام المُشعِرِ بأنَّه أمرٌ مهُولٌ، والتَّهويلُ قد يقع تعظيمًا، وقد يأتي تَحقيرًا، ولا ريبَ في إرادة التَّعظيم ههنا.

علّةُ حَذف مُتعلَّق ﴿خَيۡرٞ﴾:

الّذي عند الله تعالى مِنَ الثَّواب للأبرار خيرٌ مِن كلِّ شَيءٍ فيه خيرٌ

﴿خَيۡرٞ﴾ اسمُ تفضيلٍ حُذِفَ مُتعلَّقه، والتَّقدير: وما عند الله خيرٌ للأبرار ممَّا في الدُّنيا، أو خيرٌ لهم ممَّا يتقلَّب فيه الكفرةُ مِنَ المتاع القليل الفاني[2].

ولا تعارُضَ بين التَّقديرَين؛ إذِ الثَّاني مندرجٌ تَحتَ الأوَّل، وهما فَردانِ مِن أفراد العموم؛ لأنَّ حذف المُتعلَّق مُؤذِنٌ بالعموم؛ فالّذي عند الله سبحانه خيرٌ للأبرار مِن كلِّ شيءٍ قد يُظنُّ أنَّ فيه خيرًا.

نُكتةُ وَضع المُظهَر مَوضِع المُضمَر:

في الإظهار إشعارٌ بتداخل أَعمال البِرِّ وأَعمال التَّقوى

في التَّعبير عَنِ المُتَّقين بـ (الأبرار) في قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ وضعٌ للمُظهَر مَوضِعَ المُضمَر؛ إذ مُقتضى الظَّاهر أن يُقال: وما عند الله خيرٌ لهم، إلَّا أنَّه عُدِلَ عن هذا إلى التَّعبير بالظَّاهر؛ للإشعار بأنَّ الصِّفاتِ المعدودةَ هي مِن أعمال البرِّ كما هي من أوصاف التَّقوى[3].

بلاغة التَّذييل في جملة الفاصلة:

جملة ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ إطنابٌ بالتَّذييل[4]، وهو تذييلٌ

---

(1) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 352.

(2) ابن عادل، اللُّباب: 6/133.

(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/135، والآلوسّي، روح المعاني: 2/382.

(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/135.

في التذييل بيانٌ لعَظَمَة ما أعدَّ اللـه للأبـرار مـنَ الـثَّـواب، وما للكفَّار منَ العذاب

جارٍ مَجرَى المثلِ؛ لاستقلالِهِ عمَّا قبلَهُ، وفائدَتُهُ: تأكيدُ عِظَمِ ثواب أهل التَّقوى، وبيانُ شريفِ جزائِهم.

ومِن نُكَتِ هذا التَّذييل: التَّعريضُ بأهل الكفر؛ فإنَّ الآية قابلَت أربعة معانٍ بأربعةِ معانٍ ذُكرتَ من قبل، وزادَت هذه الآيةُ ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾، فالمقابلَةُ تقتضي أنَّ الآية تعريضٌ بالكفَّار، وأنَّ ما عند اللّه لهم مِنَ العذاب لا يُقادَرُ قدرُهُ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأَبرار والبَرَرَة:

الفرق بينَ المفردين: أنَّ (البَرّ) أبلغُ من (البارِّ)، كما أنَّ (العدلَ) أبلغُ من (عادِل)[(1)]؛ لأنَّ (البرّ) صفةٌ مشبَّهَةٌ دالَّةٌ على الثّبوت. وفي النَّظم القرآنيّ اختصَّ (الأبرارُ) بأهل الطَّاعة من النَّاس، كما قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [المطفّفين: 22]، واختصَّ (البَررة) بالملائكة، كما قال اللّه سبحانه: ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: 16]، وفرَّع جماعةٌ على هذا التَّفريق الاستعماليّ أنَّ تخصيص الملائكة بـ (البَرَرة)؛ لفضلِهم على النَّاس[(2)]. والأظهر أنَّ الفرقَ بينَهُما في القرآن الكريم هو بالنَّظر إلى دلالة كلٍّ منهما على القلَّة والكثرة، فـ (أبرار) على زِنَة (أفعال) وهو من جموع القلَّة، بخلاف (بَرَرَة) على وزن (فَعَلَة) وهو من جموع الكثرة. فاستُعمِلَ جمع القلَّة للنَّاس؛ لأنَّ الأبرار فيهم قليلٌ بالنِّسبة إلى غيرهم، ولذا ذَكَرَ اللّه تعالى الأبرارَ وما يُقابلُهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ [الانفطار: 13 - 14]، فورد (الأبرار) بزِنَةِ جمع القِلَّة، و(الفُجَّار) بزِنَةِ جمع الكثرة؛ إشارةً إلى قلَّة الأبرار في غيرهم. أمَّا الملائكَةُ فلا مُقتضَى للتَّعبير عنهم بـ (الأبرار)؛ لأنَّه لا معنى للقلَّةِ فيهم؛ إذ هم جنسٌ مِنَ الخلق مُطيعون للّه تعالى، ولا يَعصونَه ما أَمَرَهم[(3)].

(1) الرّاغب، المفردات: (برّ)، والفيروزآباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 2/213.

(2) الزَّركشّي، البرهان: 4/18.

(3) الدّوريّ، دقائق الفروق اللغوية، ص: 305 - 306.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ١٩٩﴾ [آل عمران: 199]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المشابهة بين مصير المؤمنين من المسلمين، والمؤمنين من أهل الكتاب

لَمَّا ذكر اللّه ﷻ حالَ المُؤمنِينَ المتّقين، في مقامات النّعيم، وذكر حالَ الكفّار مِن قبلُ بأَنَّ مصيرَهم إلى النَّار، بيَّن في هذه الآية أَنَّ مَن آمنَ مِن أهل الكتاب

بوحدانيّة اللّه وعبده واتّقاه، وبالقرآن المنزل وصدّق مؤدّاه، وبالكتب السّابقة، في ذلّة وخشوع للّه، من غير أن يشتري بها ثمنا قليلا، من حطام الدّنيا الحقير، أولئك لهم ثواب عظيم عنده ربّهم، يوم يلقونه، فيوفّيهم إيّاه كاملا غير منقوص، لأنَّ اللّه سريع الحساب، لا يعجزه إحصاء أعمالهم، ومحاسبتهم عليها"[1]، وقد جاء هذا السّياق لتأكيد أنّ وصف مؤمني أهل الكتاب الصّادقين، داخل في صفة الّذين اتَّقواْ، لا صفة الّذين كفرواْ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَٰشِعِينَ﴾: الخشوع: رميُك ببصرك إلى الأرض، والخشوع والتّخشّع والتّضرّع واحد، قال الشّاعر:

وَمُدَجَّجٍ يَحْمِي الْكَتِيبَةَ لَا يُرَى *** عِنْدَ الْكَرِيهَةِ ضَارِعًا مُتَخَشِّعًا[3]

والخاء والشِّين والعين يدلّ على التَّطامُن والانخفاض، ومنه قولُهم: خشَعَ فلانٌ؛ إذا تطامَنَ وطأطأَ رأسَه[4]، ومنه خُشوعُ

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 76.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/472.
(3) الخليل، العين: (خشع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خشع).

الصَّوت؛ وهو انخِفاضُه، كما في قول اللّه تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ [طه: 108]، أي: انخَفَضَت لِمَهابَتِه سبحانه[1]، والخُشوع في الشَّرع: قيامُ القلب بين يدي اللّه تعالى بالخضوع والذُّلِّ والافتقار إليه وبالجوارح[2]. وقولُ اللّه ﷻ: ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ أي: خاضعين له سبحانه[3].

2) ﴿يَشۡتَرُونَ﴾: من شَرَى الشَّيءَ يَشْرِيه، بمعنى باعَه، والشِّين والرَّاء والحرف المُعتلُّ، تدلُّ تَصريفاتُها على معانٍ، منها: التَّعارُض مِن اثنَين في أَمرَين أَخذًا وإعطاءً مُمَاثلةً[4]. ومنه قولهم: شَرَى الشَّيءَ واشتراهُ؛ إذا أخذه من مالِكه بالثَّمَن، وهذا الفعلُ مِنَ الأَضداد؛ يُطلَق على الشِّراء والبيع[5]، فالاشتراء: أخذُ الشَّيء بثمنٍ، أو إعطاؤُهُ بثمنٍ[6]، ومِنَ الثَّاني قول اللّه تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: 20]، أي: باعوه[7]، وَالشُّرَاةُ الْخَوارِجُ سُمُّوا بذلك لأنَّهم غَضِبُوا وَلَجُّوا، وأمَّا هُمْ فقالُوا نحن الشُّراةُ، لَقْوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة 207]، وقوله تعالى ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التّوبة: 111]، ولذلك قال قَطرِيُّ بنُ الفُجاءَةِ وهو خارجيّ المذهب:

رَأَتْ فِئَةً باعُواْ الإلَهَ نُفُوسَهُمْ *** بِجَنَّاتِ عَدْنٍ عِنْدَهُ وَنَعِيم[8].

3) ﴿ثَمَنٗا﴾: (الثّمن) أي ثمن المبيع، وهو ما يعاوضه، يقال: (أثمنت) الرّجل متاعه، وأثمنت له، وشيء (ثمين) أي مرتفع الثّمن[9]، والثَّاء والميم والنُّون تدلُّ أكثرُ اشتقاقاتها على معنى: عِوَض ما يُباعُ[10]، وثمَنُ كُلِّ شيءٍ: قِيمَتُه[11]. والثَّمنُ القليلُ في قول اللّه تعالى:

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/39.
(2) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 1/516.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 2/383.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شري).
(5) أبو بكر الأنباريّ، الأضداد، ص: 72.
(6) الفيّوميّ، المصباح المنير: (شري).
(7) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 7/2115.
(8) ابن سيده، المحكم: (شري).
(9) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (ثمن).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثمن).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة: (ثمن).

﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ الدُّنيا بحذافيرها[1]؛ وجُعِلَ الثَّمنُ مُشتَرًى كسائر السِّلَع؛ لأنَّ كُلًّا من الثَّمن والمُثمَن مَبيعٌ[2].

4) ﴿أَجۡرُهُمۡ﴾: أجَر اللهُ عبدَه: أثابه[3]، وفي الحديث: «وَإِنَّ الْمُسْلِمَ يُؤْجَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يُنْفِقُهُ»[4]، والهمزةُ والجيم والرَّاءُ، تدورُ تَصاريفُها على معنى: الكِراء على العمل، وجَبرِ العظم الكسيرِ، وبين هذين المَعنَيَينِ نِظامٌ يجمعُهما؛ وذلك أنَّ الأجرة بمنزلة الشَّيءِ الّذي تُجبَرُ بها حالُ العاملِ مقابِلَ ما أصابَهُ من كَدٍّ وجُهدٍ في عمله[5]. والأجرُ: ما يعود مِن ثواب العمل دنيويًّا كان أو أخرويًّا، ولا يُستعمَلُ إلَّا في النَّفع دُون الضّرِّ[6]، والأجر في قول اللّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ هو ثوابُ العمل الأخرَويُّ.

5) ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾: الحاء والسِّين والباء تدُلُّ اشتقاقاتُها على معانٍ، منها: العَدُّ[7]، ومنه: الحِسابُ؛ وهو استعمالُ العَدَدِ[8]، ومنه أيضًا: الحَسَبُ؛ وهو الفَعال الحَسَنُ له ولآبائه، مأْخوذ من الحِساب؛ وذلك لأنَّهم يَعُدُّون ذلك في مناقبهم[9]، والحِسابُ مصدرٌ بمعنى المحاسبة، والمُرادُ به عَرضُ كلِّ أعمال الشَّخص وتقويمُها[10]. والحسابُ شرعًا نوعان: حسابٌ يَسير، وحساب عَسير. أمَّا اليَسير فهو أن يَخلوَ اللّهُ ﷻ بعبده المؤمن، ويُقرِّرَهُ بذنوبه. وأمَّا العسيرُ فهو أن تُعَدَّ أعمالُهم وتُحصى، فيُوقَفون عليها، ويُقَرَّرون بها[11].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

إنّ بعضًا من أهل الكتاب لَيُصَدِّق ويُقِرُّ - إقرارًا يستلزِمُ القبولَ والإذعانَ - باللّه تعالى ربًّا واحدًا، وإلهًا معبودًا بحقٍّ، وبما أُنزِل مِن القرآن، وبما أُنزل مِنَ التَّوراة والإنجيل،

(1) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 3/847.
(2) الهرويّ، الغريبين: (ثمن).
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (أجر).
(4) البغويّ، شرح السّنة: 14/280.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).
(6) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(8) الرّاغب، المفردات: (حسب).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة: (حسب).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حسب).
(11) ابن تيميَّة، العقيدة الواسطيَّة، ص: 98.

الـتّـنـويـه بـمؤمنـي أهـل الـكـتـاب، ممّن آمـن وخـشـع، ومـالـهـم من الثّواب عند الله

حالَ كونِهم خاضعين لله سبحانه، مُستكينينَ له، مُتَذلِّلينَ لعظمته، لا يستبدلون بآيات الله شيئًا مِن حُطام الدُّنيا الفانية، ولا يكتمون ما أنزلَ الله تعالى على أنبيائهم، ولا يُحَرِّفونَه كما هي عادة أَهل الكتاب، أولئك لهم ثوابٌ عظيم عنده يومَ يلقَونَه، وهو سريعُ المحاسبة لخلقِهِ؛ فلا يعجزه إحصاءُ أعمالهم، ولاتقرير مصائرهم(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سبب وَصلِ ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بما قبلها:

في الوصل بيانٌ لأحـوالِ النَّاس في تَلَقِّي الإسلام

قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ معطوفٌ على قوله قبلُ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾؛ لاتِّفاقِهما في الخبرية واشتراكِهما في الاسميَّة، ولِمَا بينهما من التَّناسُب؛ فجملةُ ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ استكمالٌ لذِكر الفَرقِ في تلقِّي الإسلام؛ إذِ المَذكورون فيها فريقُ المؤمنينَ مِن أَهل الكتاب(2).

فائدة وَصفِهِم بـ ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

الإنصافُ واجبٌ ولو مَعَ الكفَّار

التَّعبير عن هذا الفريقِ بأنَّهم مِن أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ...﴾ إشعارٌ بأنَّهم لم يكونوا مَعروفين بتلك الأوصاف المَذكورَة؛ لأنَّهم لو عُرفوا بالإيمان؛ لَمَا كان في وصفِهم بأنَّهم من أهل الكتاب فائدةٌ(3).

وفي التَّنصيص على هذا الوصف أيضًا بيانٌ؛ لأنَّ أهل الكتاب ليسوا كُلُّهم على الحال الّتي حُكِيَت عن جماعةٍ منهم؛ من نَبذِ الميثاق، وتحريف الكتاب، وكَتم الحقِّ(4)، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/499 - 501، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/166، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 76.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/207.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/207.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/136.

تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ [آل عمران: 187].

نُكتة العُدول عَنِ الفعل الماضي ﴿ءَامَنَ﴾ إلى المضارع ﴿يُؤۡمِنُ﴾:

مازال الإيمان في أفـرادٍ مـن أهل الكتاب زَمنًا بعد زمنٍ

عُدِلَ عن التَّعبير بالفعل الماضي (آمَنَ) إلى التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يُؤۡمِنُ﴾ مِن قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾، وإن كان إيمانُ مَن نَزَلَت فيهم الآيةُ واقعًا بالفعل؛ وذلك للإشارة إلى دوام إيمانِهم واستمرارِهِ، وأنَّه ليس بإيمانٍ عارضٍ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ هذا الوصفَ غيرُ منقطِعٍ عن أفراد أهل الكتاب، بل لا يزال يُوجدُ هذا الوصفُ فيهم زَمنًا بعد زمنٍ[1].

نكاتُ تقديم الإيمان بالقرآن على الإيمان بما أُنزِل إليهم:

القــرآنُ هو الكتابُ المُهيمنُ على ما سواهُ مِنَ الكُتُب

قُدِّمَ إيمانُهم بالقرآن الكريم على إيمانِهم بما أُنزِلَ إليهم مِنَ التَّوراة والإنجيل في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ مع أنَّ الأمرَ في الواقع بعكس ذلك؛ لِنِكاتٍ خمسٍ[2]:

إحداهما: لبيان أنَّ الإيمانَ بالقرآن الكريم هو المعيارُ الّذي يُعتدُّ به.

ثانيها: للإيماء إلى أنَّه لا عِبرةَ بإيمانهم إن لم يُوافِقوا ما في القرآن الكريم.

ثالثها: أنَّ ما أُنزِلَ إليهم قد حرَّفوا كثيرًا منه، فلا يُعتَدُّ بما في كُتبهم إلَّا ما صحَّحه القرآن الكريم.

رابعها: لتعجيل مَسَرَّة المؤمنين بذكر ما أُنزل إليهم أوَّلًا.

خامسها: أنَّه قُدِّمَ ما هو مُستبعَدٌ حصولُهُ فيهم؛ فكان تصويرُ الإخبار بإيمانِهم به أهَمَّ.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/484.
(2) البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 622، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/136، والآلوسّي، روح المعاني: 2/383.

بلاغة المجاز في قوله ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ﴾:

وجـــه المـجــاز حقارةُ الدُّنيا بما فيها مقابل آيات الله تعالى

في التَّعبير عَنِ الاستبدال بالاشتِراء في قوله سبحانه: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ﴾ مجازٌ؛ وفي تخريجه وجهان:

أحدهما: أن يكون ذلك مِن باب المجازِ المُرسَلِ، بعلاقة الملزوميَّة؛ حيث أُطلِقَ المَلزومُ وهو الاشتِراءُ، وأُرِيدَ لازِمُهُ، واللَّازم ههنا له وجهان؛ الاستِبدالُ، والحرصُ على شيءٍ، والزُّهدُ في ضدِّه.

فعلى اللَّازم الأوَّل - وهو الاستِبدالُ - ؛ يكون المعنى: أنَّهم لا يستبدلونَ آيات الله تعالى بالثَّمن القليل.

وعلى الآخر؛ يكونُ المعنى: أنَّهم لا يَحرِصون على الثَّمن القليل، ويزهدونَ في آيات الله تعالى.

والآخَرُ: أن يكون ذلك مِن باب المجاز بالاستعارة؛ حيثُ استُعير الاشتِراءُ للإعراض عمَّا في حيازة المرء طالبًا تحصيلَ غيره - وهذا في الأصل: يكونُ في المعاني، ويكون في الأعيان.

ويَحتَمِلُ أن تكون الاستعارةُ في كلمة (آيات)؛ بأَن يُقالَ: شُبِّهت الآياتُ بالمال، بجامع وقُوع المُعاوضة في كلٍّ، فحُذِف المشبَّه به ورُمز له بشيءٍ مِن لوازمه، وهو ﴿لَا يَشْتَرُونَ﴾ على طريق الاستعارة المكنيَّة الأصليَّة.

وجَعلُ الثَّمَنِ مُشترًى لا مشترى به للإيماء إلى كونه بمنزلة الثَّمَن في الاستِرذال والامتهان، ففيه حطٌّ من شأن الدُّنيا وما فيها مقابل آيات الله تعالى.

سرُّ إفراد الثَّمن وتنكيره:

الدُّنيا بحذافيرها ثـمـنٌ قـلـيـلٌ، حقيرٌ

أُفرِدَ ﴿ثَمَنًا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ﴾؛ لإرادة تحقيرِه، ويُقوِّي هذه الدِّلالَةَ وجهان:

أوَّلُهما: إيرادُهُ مُنَكّرًا؛ فإنَّ التَّنكيرَ ههنا مُفيدٌ معنى حقارة الشَّيء المُنَكَّر.

والآخر: وَصفُهُ بالقِلَّةِ في قوله: ﴿قَلِيلًاۚ﴾، وهو وصفٌ لا يُرادُ به الاحترازُ، بل هو لبيان الواقع[1]؛ وأنَّ الثَّمنَ في مقابلة آيات اللّه تعالى لا يكون إلَّا قليلًا ولو كان ذلك الثَّمَنُ هو الدُّنيا بحذافيرِها[2]، فدلَّ مجموعُ ما تقدَّمَ على حقارة الثَّمن قدْرًا ووصفًا.

بلاغة التَّعريض في قوله: ﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾:

ذمُّ أحبار اليهود مَــعَ إقــامــة الــبرهــان على وجه الذَّمِّ

ذِكْرُ عدم اشترائهم بآيات اللّه تعالى ثمنًا قليلًا في سياق المدح والثَّناء عليهم في قوله سبحانه: ﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ يُرادُ به الثَّناء عليهم بلازم ذلك، لا بمجرَّد عدم الاشتراء؛ لأنَّ العدمَ المحضَ لا يكون مدحًا، واللَّازمُ المرادُ الثَّناء عليهم به هو إظهار ما في كُتُبِهم مِن شَواهِدِ نُبوَّة النَّبيِّ محمَّد ﷺ[3].

وتضمَّنتِ الجملةُ تعريضًا[4] بأحبار اليهود؛ إذ كانوا يقبلون الرِّشوَةَ، ويأخذونها عوضًا عن تحريفهم لآيات اللّه تعالى في كُتبهم المُنزَلَة[5]، والغرضُ مِن هذا التَّعريض المبالغةُ في الذَّمِّ مع إقامة الدَّليل على وجهه.

دلالة اسم الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾:

شـرفُ مُـؤمِـنـي أَهـلِ الـكـتـاب، وتـمـيّـزهـم، وعُـلُـوُّ رُتبَتِهم؛ بتحصيل كمال الأجرِ

أُشِيرَ إلى هذا الفريق مِن أهل الكتاب باسم الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾؛ إشعارًا بأنَّهُم متميِّزُونَ بتحصيل كمال الأجرِ أكملَ تمييزٍ، وهذا أَبلَغُ في مدحِهم والثَّناءِ عليهم، وزادَهُم مدحًا وشرفًا ما في ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مِنَ الدّلالة على البُعدِ المُقتضِي عُلوّ رُتبتهم، وبُعد منزلتِهم في الشَّرف والفضيلة، واستحقاقهم تفضُّلَ اللّه تعالى

(1) البسيلّي، التَّقييد الكبير، ص: 623.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/460.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/136.
(4) التَّعريض: اللَّفظ الدّالُّ على الشيّء مِن طريقِ المفهوم، لا بالوضع الحقيقيِّ ولا المجازيِّ، يُنظر: ابن الأثير، المثل السَّائر: 2/186.
(5) البسيلّي، التَّقييد الكبير، ص: 623، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/460، والآلوسّي، روح المعاني: 2/384.

عليهم بالأجر، وأنَّهم مُتوغِّلون في أسباب ذلك للغاية[1]، وأنَّهُم أَحرياء بما سيَرِدُ من الإخبار عنهم[2].

فائدة تقديم الخبر في قوله ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾:

قُدِّمَ الخبَرُ ﴿لَهُمۡ﴾ على المبتدأ ﴿أَجۡرُهُمۡ﴾ في قوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾؛ لإفادة القصر والاختصاص، فذلك الأجرُ الّذي وُعِدُوهُ خاصٌّ بهم دُونَ سائر أهل الكتاب مِمَّن لم يُؤمِن بالقرآن الكريم، فهو قصرٌ إضافيٌّ[3].

تَحصيلُ الأجر والثّواب خاصٌّ بِمَن آمَنَ بالقرآن الكريم

فائدة الإضافة في قوله ﴿أَجۡرُهُمۡ﴾:

إضافةُ الأجرِ إلى ضمير مُؤمِني أهل الكتاب ﴿أَجۡرُهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ يُرادُ به: العَهدُ؛ أي: الأجرُ المختصُّ بهم، المَوعودُ لهم في قول اللّه سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ [القَصص: 54][4].

في الإضافة تخصيصُ مُؤمني أهل الكتاب بالأجر

سرُّ اختيار التَّعبير باسم الله (الرَّبّ):

جاء التَّعبير باسم اللّه (الرَّبِّ) في قول اللّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ الأجرَ الّذي وُعِدوا به عظيمٌ جزيلٌ؛ لكونه مِن عند الرَّبِّ العظيم، ويُقوِّيه قوله: ﴿عِندَ﴾؛ فإنَّ فيه تَشريفًا[5]؛ إذِ العنديَّةُ مُشعِرَةٌ به.

وفيه إشارةٌ أيضًا إلى أنَّ الّذي خلقَهُم ورَزَقَهُم وربَّاهم بنِعَمِه؛ لم يقطَع إحسانَهُ عنهم لحظةً[6]، وفيه مِن معاني اللُّطف ما لا يخفى[7].

من لطف الله تعالى دوام إحسانه لأهل الإيمان

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/136، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/167، والآلوسّي، روح المعاني: 2/384.
(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/207.
(3) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/459، والقِنّوجيّ، فتح البيان: 2/408.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 2/384.
(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/136.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/167، ومحمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 4/260.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 2/384.

دقَّـــة تـرتـيـب الألفاظ في البيان القرآنيّ

بلاغة الاستتباع في الآية:

في قول الله سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ استتباعٌ بديعٌ[1]؛ وذلك أنَّ الله تعالى ذكر أنَّ هذا الفريقَ من أهل الكتاب قد تحلَّى بخمسِ خصال:

أوَّلُها: إيمانُهم بالله تعالى.

ثانيها: إيمانُهم بما أُنزل على النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ.

ثالثُها: إيمانُهم بحقيقة ما أُنزل عليهم.

رابعُها: الخوفُ مِنَ الله تعالى مع الضَّراعة إليه، وطلبِ رِضاه.

خامسُها: عدمُ إيثارهم شيئًا على آيات الله سبحانه.

وهذه الخصالُ الخمس يَستَتبِعُ بعضُها بعضًا، ويأخذُ بعضُها بحُجَزِ بعضٍ؛ وذلك أنَّه "يتَرَتَّب على الإيمان الصَّادق بالله: الإيمانُ بمُحَمّد ﷺ، والإيمانُ بما نُزِّل على النَّبيِّين الصَّادقينَ، ويتَرَتَّب على هذا كلِّه: الخشوعُ، وأولى ثمرات الخشوعِ ألَّا يَترُكُوا آيات الله تعالى لأيِّ عرَضٍ مِن أعراض الدُّنيا"[2].

مِـن إكـرام الله تـعـالى لـعـبـاده تَعجيلُ إيصال الأجر لهم

نُكتة الإتيان بجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ بعد ذكر الأجر:

ذِكرُ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ بعد قوله: ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾؛ لبيانِ أنَّ الأجر الّذي وُعِدُوا به لا يتأخَّر عنهم؛ إذِ النَّفسُ مُولَعَةٌ بحُبِّ الخَيرِ العاجِلِ[3]، وفي هذا زيادةُ إكرام الله سبحانه لهم.

وسُرعَةُ وصول الأجر لهم مستفادٌ بطريق الكناية؛ لأنَّ سرعة الحساب تستلزِمُ سرعةَ الجزاءِ[4].

(1) الاستتباع: هو المدح بِشيءٍ على وجه يَستَتبِعُ المدحَ بشيءٍ آخرَ، يُنظر: عبد المتعال الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/625.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1559 - 1560.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1066.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/56.

توجيه الفاصلة بين دلالة الاحتراس ودلالة التَّذييل:

سُرعَة حساب اللـه تعالى للخلق مع كَثرتهم

جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ تحتمِلُ وجهين:

الأوَّلُ: أن تكون إطنابًا بالاحتراس؛ وذلك أنَّ اللّه تعالى لمَّا وعدَ مؤمني أهل الكتابِ إنجازَ الأجرِ، وإتمامَهُ، وإحسانَهُ، وكان قد تقدَّم قبلُ أنَّه سبحانه لا يُضيع عمل عاملٍ، ذكرًا كان العاملُ أم أنثى، وكانتِ العادةُ تقضي بأنَّ كثرة الخلقِ سببٌ لطول وقت الحساب وطولِ وقت الانتظار، وذلك يُورِثُ توهُّمَ ما لا ينبغي؛ - لمَّا كان الأمرُ كذلك - قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ قصدًا لإزالة هذا التَّوهُّم، وأنَّ اللّه سبحانه بما له مِنَ الجلال والعظمَة والكمال سريعُ الحسابِ[1]، ولذا أُكِّدَت الجملةُ بـ (إِنَّ)، والإتيان بالجملة اسميَّةً.

الثَّاني: أنَّ الآيةَ سيقَت مساقَ التَّعليل على سبيل التَّذييل الجاري مَجرَى المَثَل؛ لاستقلالِه بمعناه، والمعنى: أنَّ اللّه ﷻ "يَجزيهم بما عَمِلوا؛ لأنَّه تعالى سريع الحساب، ولم يكن سريعًا للحساب إلَّا وهو عالمٌ بالمَحسوب الّذي هو أعمالُ العباد، وإذا عَلِمَ ذلك يُوَفِّي ما يَستأهِلُهُ العامِلُ مِنَ الأجر؛ لأنَّه عادل مُتَفَضِّلٌ كريم، لا يَضيعُ عنده عملُ عاملٍ مِن ذكر أو أنثى"[2]، وهو بهذا الوجهِ كناية تَلويحيَّةٌ؛ لكثرة وسائطِها.

وعلى الوجه الأوَّل؛ يكونُ فَصلُ قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ عمَّا قبلَه من قَبيل الاستئناف البيانيِّ؛ إذِ الجملةُ المذكورة واقعةٌ جوابًا عن سؤالٍ بعثَ عليه ما تقدَّم؛ وهو: إذا كان اللّه تعالى يُجازي كُلًّا من أهل الطَّاعة وأهل المعصية وهم خلائقُ كثيرون؛ فهل يقتضي ذلك تأخُّرُ أجر أهل الطَّاعة؟ فجاء الجوابُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/167.

(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 4/397.

بلاغة الكناية في قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾:

في الكناية بيانٌ لكمالُ علم الله تعالى وعظيمُ إحسانه، أو قُربِ إنجازِ ما وَعَدَ به مِنَ الأجر

الإخبار عَنِ اللّه سبحانه بأنَّه سريعُ الحساب فيه كنايةٌ عن كمال عِلمِهِ بمقادير الأجور ومراتب استحقاقِها، وأنَّه يوَفِّيها أهلَها على ما ينبغي وبمقدار ما ينبغي.

ويحتمل أن يكون كنايةً عَن قُربِ إنجازِ ما وَعَدَ به مِنَ الأجر؛ لأنَّ ذلك مِن لوازمها[1]. وكلا الوَجهَينِ في الكنايةِ صحيحٌ لا تعارُض بينهما؛ فيُحمَلُ عليهما معًا، وقد جاءت هذه الجملة مؤكّدة بـ ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميّة؛ لِمَا فيها من التّهديد والوعيد لأهل الكتاب.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخشوع والخضوع:

الفرقُ بينهما مِن أَوجهٍ ثلاثةٍ: الأوَّلُ: أنَّ أثرَ الخشوعِ يظهرُ في الصَّوتِ والبصرِ، وَأثر الخضوعِ يظهرُ في البدَن[2]. الثَّاني: أنَّ الخشوعَ انقيادُ الباطن للحقِّ، والخُضوعَ انقيادُ الظَّاهر له[3]، الثَّالثُ: أنَّ الخشوعَ لا يكون إلَّا عَنِ انفعالٍ صادقٍ بجلال مَن يُخشَعُ له، بخلاف الخُضوع؛ فقد يكون تكلُّفًا، إمَّا نفاقًا، وإمّا خوفًا، وإمّا تقيَّةً أو نحوَ ذلك، ولذا تقولُ العربُ: خشعَ قلبُهُ، ولا تَقولُ: خضعَ قلبُهُ، إلَّا مِن باب التَّجوُّزِ والتَّوسُّعِ في العبارة[4].

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/93، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 2/381.
(2) الخليل، العين: (خشع).
(3) البروسوي، روح البيان: 9/452.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 216، وبنت الشّاطئ، الإعجاز البيانّي، ص: 226.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران: 200]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين مضامين العقائد والأحكام، ومتطلّبات الثّبات والالتزام

لَمَّا ذكَر اللّه تعالى في هذه السُّورة أنواعًا كثيرةً مِنَ العقائد والأحكام العمليَّة، ختَمَها بالأمر بمقتضيات الصّبر والمصابرة، ودواعي الرّباط والتّقوى، في بيان موجز بليغ، يتضمّنه سيّاق هذه الآية، وهي مشتملةٌ على جميع الآداب؛ ووجهُ ذلك: أنَّ أحوالَ الإنسان قسمان: ما يتعلَّق به وحده، وما يكون مُشتركًا بينَه وبينَ غيره؛ فالأوَّلُ يحتاج إلى صبرٍ، والثَّاني يفتَقِرُ إلى مصابرةٍ، ثُمَّ إنَّ العبدَ إذا حافظَ على شرائع الدِّين أصولًا وأحكامًا، احتاجَ إلى مدافعةِ ما يُضادُّها، وذلك يكون بجهاد الأعداءِ، والرِّباطِ في الثُّغور، من أجل ردِّ عدوانِ الأعداء، ثمّ أمَرَ اللّه تعالى عبادَهُ، أن يكون الاتّصاف بالتّقوى، داعيًا للصّبرِ، وحافزًا للمصابرَة، وسبيلا للمرابطَة في سبيل اللّه، لنيل الحسنيين، وتحصيل الفلاح في الدّارين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾: الصّبر: نقيض الجزع، وقد صبر فلان عند المصيبة، يصبر صبرا، وصبرته أنا: حبسته، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ [الكهف: 28][2]، والصَّاد والباء والرَّاء، تدلُّ اشتقاقاتُها على تَراكُم شيءٍ أو تَكَدُّسِه، مع تزايدِه أو دَوامِه على حاله[3]، ومنه قولُهم: صَبَرتُ نَفسي على

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/473 - 474، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/167 - 168.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (صبر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (صبر).

كذا؛ أَي: حَبَستُها عليه[1]، بأَن دامَت حالُهُ على ملازمته. والصَّبرُ في الشَّرع: حبسُ النَّفس عَنِ الجَزَع، واللِّسان عَنِ التَّشكّي، والجوارح عَن لَطم الخدود، وشَقِّ الثِّياب ونحوِهما[2]، وهو المأمورُ به بأسلوب النّداء في صدر الآية، وأمَّا المُصابرَةُ فهي مفاعَلَةٌ من الصَّبر، والمُرادُ بها المغالبةُ بالصَّبر، ومعنى ﴿وَصَابِرُواْ﴾: غالِبوهم في الصَّبر على شدائد الحرب، ولا تكونواْ أضعفَ، فيَكونواْ أشَدَّ منكم صَبرًا[3].

2) ﴿وَرَابِطُواْ﴾: من الرّبط، وقد روي عن الأخفش: ربطت الشّيء أربطه، أي شددته، ويقال: فلان رابط الجأش، وربيط الجأش، أي شديد القلب، كأنّه يربط نفسه عن الفرار[4]، والرّاء والباء والطّاء، تدلُّ اشتقاقاتُها على الشَّدِّ والثَّبات، ومنه: الرِّباطُ؛ وهو الّذي يُشَدُّ به[5]. ويُطلَق الرِّباط على المُقام في الثُّغور[6]، وأصلهُ: من مُرابطة الخيل؛ أَي: ارتباطها بإِزَاء العدوّ في بعض الثّغور[7]، ثُمَّ أُطلِقَ على المُكث في الثُّغور لِلذّبِّ عنِ الدِّين، ولو لم تَكُن خيولٌ[8].

3) ﴿تُفۡلِحُونَ﴾: من الفلح، وهو لغة، البقاء في الخير، وفلاح الدّهر: بقاؤه، و(حيّ على الفلاح)، أي: هلمّ على بقاء الخير[9]، والفاء واللّام والحاء، تدور كثيرٌ من تصريفاتِها على معنى الفَوز والبقاء[10]، ومنه: الفلاحُ؛ وهو الفَوزُ بما يُغتبَطُ به، وفيه صلاحُ الحالِ[11]، ويُقال: أفلح؛ إذا أدرك مطلوبَهُ[12]. ويأتي الفلاح بمعنى البقاء في الخَير[13]، ومنه سُمِّيَ السَّحورُ فلاحًا؛ لأَنَّ به بقاء البدن والحِفظ مِنَ الضَّعف[14]، وبضمِّ المعنَيَين، وهما الفَوزُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبر).
(2) ابن القيّم، عِدّة الصَّابرين، ص: 15.
(3) القِنّوجيُّ، فتح البيان: 3/1561.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (ربط).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ربط).
(6) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (ربط).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (ربط).
(8) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/168.
(9) الخليل، العين: 3/233.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فلح).
(11) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فلح).
(12) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (فلح).
(13) الخليل، العين: (فلح)، وأبو بكر الأنباريّ، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 1/38.
(14) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: 3/250.

والبقاء، يَتَحَصَّلُ لنا المعنى الكُلِّيُّ للفلاح، وهو الفوزُ وإدراكُ الخير، ثُمَّ البقاءُ فيه، ولذا قيل عَنِ الفلاح: ليس في كلام العرب كلمةٌ أجمَعُ لِخير الدُّنيا والآخرة منها[1]، فالفلاحُ جامعٌ لخَيرَيِ الدُّنيا والآخرة، ولذا جعَلَ الرَّاغبُ الفلاحَ ضربين: دنيويًّا وأُخرَوِيًّا، وذكَرَ حدًّا جامعًا لكلٍّ منهما[2].

۞ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

دعــوة المؤمنين للفلاح بالجمع بــين الــصّـبر والمصابرة، وربط التّقوى بالمرابطة

يا أيُّها الّذين صدَّقوا اللّهَ ورسولَه، وأقرُّوا بهما إقرارًا يستلزمُ القبولَ والإذعان: اصبِروا على طاعة ربِّكُم، وعن مَعصِيَتِه، وعلى ما يَنزل بكم مِن مُرِّ القضاء، وما ينزل بكم من ضرّ وبلاء، وصابِرُوا أعداءَكم، بأقصى قوّتكم، ولا تهونواْ فيكونوا أشدَّ صبرًا منكم، وأقيموا على جهاد عَدُوِّي وعدُوِّكم، حفاظًا على الدّين، ودفعًا للعدوان، واحذَروا أن تُخالِفوا أمرَه بتركه، ونَهيَه بفعلِه؛ لتنالواْ خَيرَ الدُّنيا، وتحوزواْ فوز الآخرة[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة النِّداء في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

عَظَمَةُ الله ﷻ وعَظَمَةُ خِطابِه

جاء التَّعبيرُ في النِّداء بـ (يا) في قول اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهي في الأصل لِنِداء البعيد، ونداءُ اللّه سبحانه لعبادِهِ نِدَاءٌ مِنَ الخالِقِ إلى المخلوقين، فَجديرٌ أن يكونَ بأداة النِّداء للبعيد، وفي التَّعبير به نكاتٌ:

أُولاها: بُعدُ ما بين الخالقِ والمَخلوقِ مِنَ المكانة.

ثانيها: أنَّه نداء مِنَ الخالق، وهو مُقتَضٍ أعلى العلُوِّ وأبعدَه.

---

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغَيب: 6/430.

(2) الرّاغب، المفردات: (فلح).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 7/509، والزُّحيلّي، التَّفسير الوسيط: 1/277، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 76.

ثالثها: عِظَمُ شأن موضوع النِّداء؛ وهو الأمر بجوامع الآداب مِنَ الصَّبر، والمصابرة، والمرابطة، وتقوى الله تعالى؛ فإنَّ هذه المذكوراتِ لها شأنٌ خطيرٌ وجليلٌ.

والنِّداءُ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ فيه ضربٌ من تقوية النِّداء، وَوَجهُ ذلك: أنَّ (أيّ) لا يُفهَمُ المرادُ به إلَّا باسمٍ بعدَهُ يُزيلُ غُموضَه، وفي هذا انتقالٌ مِنَ الإبهام إلى الإيضاح والبيان، وفي هذا نوعُ توكيد، وفي اقترانه بـ (ها) التَّنبيه زيادةٌ في التَّوكيد؛ إذِ النِّداءُ في الأصل يُرادُ به التَّنبيه.

فائدة حذف مُتعلَّق الإيمان من قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

حقيقة الإيمان مُستقِرَّةٌ في نفوس المؤمنِينَ، وهم مُقِرُّون بجميع ما يجب الإيمانُ به

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾ من قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهو المُؤمَنُ به، وفي ذلك مَسلكانِ:

أحدهما: ظهورُ أفراد المؤمَنِ به؛ وذلك لأنَّ للإيمان حقيقةً شرعيَّةً معروفةً، فإذا أُطلِقَ لفظُهُ انصرَفَ الذِّهنُ إلى تلك الحقيقة، من غير حاجةٍ إلى التَّنصيص على مُتعلَّقِه.

والآخر: إرادةُ العموم؛ وذلك لأنَّ حَذفَ المعمول مُشعِرٌ بالعموم، والمعنى: آمَنوا بجميع ما يجبُ الإيمانُ به شرعًا، أو آمَنوا بكل ما ذُكِرَ في هذه السُّورة[1]، وهما متآيِلَانِ؛ لأنَّ المذكورَ في سورة (آل عمرانَ) أصولُ الإيمانِ الّتي تَرجِعُ إليها جميعُ أفرادِهِ.

ويصحُّ إرادةُ الوجهين معًا؛ لعدم التَّنافي بينَهُما؛ فمعنى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الّذين جاؤوا بالإيمان المشهورة دلالتُهُ، المعروفة أفرادُهُ؛ وهي كلُّ ما يجب الإيمان به شرعًا، المذكورةُ أصولُهُ في هذه السُّورة.

بلاغة عَطفِ الخاصِّ على العامِّ:

في العطف ترقٍّ في تَعدادِ الأعمال الصَّالحات

في عطف المُصابرة على الصَّبر من قول الله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ إطنابٌ بعطف الخاصّ على

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/168.

العامّ؛ لأنّ المُصابرةَ أشدُّ فتَكون أفضلَ[1]، ومِن شأن عطف الخاصِّ على العامِّ بيانُ الاهتمامِ بشأن الفرد الخاصِّ بذِكرِه مرَّتين؛ أُولاهُمَا بذِكره مندرجًا تحت لفظ العامِّ، والأخرى: بذِكرِه على سبيل الاستقلال والانفراد.

ومثله: عطفُ المُرابطة على المُصابرة؛ إذِ المرابطَةُ ضربٌ من ضروبِ الصَّبر.

وفي هذا العطفِ أيضًا تَرَقٍّ في تَعداد المأموراتِ؛ فإنّ الصَّبرَ دون المُصابرة، والمُصابرةَ دون المُرابطةِ[2].

تشابه مقاطع السُّورة لمطالعها:

سُورُ القرآن الكريم وِحدَةٌ مُتكاملةٌ في تناسُب آياتها

بينَ أواخر السُّورة وأوائلِهَا تناسبٌ - وهو ضربٌ بديعٌ من تشابه الأطراف - من وجوهٍ عديدةٍ، منها[3]:

أوَّلًا: أنَّ الله ﷻ ذكَرَ في أول السُّورة تنزيلَ الكتاب على النَّبيِّ ﷺ، وإنزالَ التَّوراة والإنجيل مِن قَبلِ ذلك؛ هُدًى للنَّاس، فقال سبحانه: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 2 - 3]، وذكر في أواخر السُّورة أنَّ من أهل الكتاب من يُؤمنُ بذلك كلِّه، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾.

ثانيًا: أنَّ الله ﷻ ذكَرَ عاقبةَ الكُفَّار في طالعة السُّورة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤﴾ [آل عمران: 4]، ثُمَّ أعادَ ذِكرَ عاقبتِهم في آخرها، فقال سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾.

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 2/384.
(2) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 3/379.
(3) فاضل السَّامرَّائي، التَّناسب بين السُّوَر في المفتتح والخواتيم، ص: 13 - 14.

ثالثا: أنَّ اللّه سبحانه ذَكَرَ أُولي الألباب في أوائل السُّورة وذكر دُعاءَهم، فقال ﷻ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨﴾، ثُمَّ ذكر ذلكَ أيضًا في أواخرِها، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ۝١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: 190 - 193].

رابعًا: أنَّ اللّه تعالى ذَكَرَ الآخرة في أوائل السُّورة وفي أواخرها، وأمَّا أوائِلُها فقد قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾، وقال في أواخرها: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران: 9].

براعة الختام في السورة:

خــواتــمُ ســور الــقــرآن الكريم واردةٌ عـلـــى أَحــســن وجــوه البلاغةِ وأكملِها

مِن محالِّ التّأنُّقِ في الكلام: خاتمَتُه، ويُسمَّى: حُسنَ الانتهاء؛ وحقيقتُه: أن يَجعَلَ المتكلِّمُ آخرَ كلامِه عذبَ اللَّفظِ، حسَنَ السَّبكِ، صحيحَ المعنى، وأخصُّ منه وأجودُ: براعةُ المَقطَع؛ وهو ما آذَنَ بانتهاء الكلام[1]، وقد خُتمت هذه السُّورَةُ الكريمةُ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ "بوِصاية جامعةٍ للمؤمنين؛ تُجدِّد عزيمتهم، وتبعث الهمم إلى دوام الاستعداد للعدُوِّ"[2]، وهذا مُؤذِنٌ بالختم ومُشعِرٌ به؛ لأنَّ العادةَ جاريةٌ بأنَّ محلَّ الوصيَّة يكون آخرًا، ففيه براعةُ مقطعٍ.

(1) عبد المتعالِ الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/714.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/208.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفوز والفلاح:

الفَوزُ: ضدُّ الهلاك[1]؛ وهو الظَّفر بدلًا مِنَ الوقوع في الشَّرِّ[2]، ولذا قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ﴾ [آل عمران: 185]، فجُعِلَ فَوزُهم بدلًا مِن دخولِهمُ النَّارَ، ومنه جَعَلَ الحِميريُّ النَّجاةَ مِن معاني الفوز[3]. وقال الخليل: "الفَوزُ: الظَّفَرُ بالخَير، والنَّجاة مِنَ الشَّرِّ"[4]؛ يُقال: فازَ بالخَير، وفاز مِنَ العذاب[5]. ولذا فإِنَّ الفوزَ ليس مجرَّدَ الخلاص مِمَّا يُكرَهُ، وإنَّما هو الخلاصُ منه مع الوصول إلى المحبوب؛ "ولهذا سمَّى اللّٰه تعالى المؤمنين فائزين لنجاتهم مِنَ النَّار ونَيلِهمُ الجنَّةَ"[6]، وأَمَّا الفلاحُ فهو إدراكُ الخير والبقاءُ فيه، فهو "يَجمَعُ بين الدُّنيا والآخرة، فهو ثمرةٌ لنجاحات متعدِّدة، وفيه جَنيٌّ لثمار النَّجاح، وفيه إدراك كلِّ مأمولٍ، وفيه معنى السَّعَة، ومعنى التَّيسير، ومعنى البقاء والخَيرِ"[7]. والبَقاءُ في الخير يَلزَمُ منه النَّجاةُ مِنَ المكاره؛ فالفلاحُ أَجمعُ وأَوعبُ.

---

(1) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (فوز).

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 211.

(3) نشوان الحِميَرَيّ، شمس العلوم: (فوز).

(4) الخليل، العين: (فوز).

(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (فوز).

(6) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 210.

(7) محمّد داود، معجم الفروق اللغوية والدّلاليّة، ص: 43.

سُورَةُ النِّسَاءِ

سُورَةُ النِّسَاءِ

التعريف العام بالسورة:

سورة النّساء مدنيّة بإجماع المفسّرين، نزلت جميع آياتها بعد الهجرة؛ فقد أخرج البخاري بسنده عن عائشة أمّ المؤمنين ﵂ قولها: «مَا نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَه»[1] وتقصد بذلك أنّها كانت عند النبيّ ﷺ زوجة له، ومن المعلوم أنّ النبيّ ﷺ إنّما تزوجها بعد الهجرة في المدينة المنورة.

وَهِي مئة وَخمس وسَبْعُونَ آيَة عند الْمَدَنيين والمكيّين والبصريّين، ومئة وَستّ وسَبْعُونَ آية عند الْكُوفِيّين، ومئة وَسبع وسَبْعُونَ آية عند الشَّاميّين[2]، وذلك بحسب اختلافهم في الوقوف على فواصل آياتها.

وسورة النّساء هي الرابعة في ترتيب المصحف الشريف بعد سور: الفاتحة والبقرة وآل عمران، وأمّا في ترتيبها النّزوليّ فقد قيل إنّها السادسة نزولًا في العهد المدنيّ بعد البقرة والأنفال وآل عمران والأحزاب والممتحنة[3]، والثالثة والتسعون في التّرتيب النزوليّ الكليّ للقرآن الكريم، وسورة النّساء من السبع الطوال تأتي في الطول مباشرة بعد سورة البقرة، حيث تبتدئ من الجزء الرابع وتنتهي في الجزء السادس من أجزاء القرآن الكريم.

أسماء السورة الكريمة:

سورة النّساء توقيفيّة الاسم، ولا يُعرف لها اسم آخر تعرف به، فقد جاء في صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب ﵁ أنّه قال: «مَا رَاجَعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ في شَيْءٍ مَا رَاجَعْتُهُ في الْكَلَالَةِ، وَمَا أَغْلَظَ لي في شَيْءٍ مَا أَغْلَظَ لي فِيهِ حَتَّى طَعَنَ بِإِصْبَعِهِ في صَدْرِي فَقَالَ: يَا عُمَرُ، أَلَا تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي في آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ؟!، وَإِنِّي إِنْ أَعِشْ أَقْضِ فِيهَا بِقَضِيَّةٍ يَقْضِي بِهَا مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَمَنْ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ»[4]، ووردت أيضًا في حديث عبد

(1) البخاري، الحديث رقم: (4993).
(2) الداني، البيان، ص: 146.
(3) الزركشي، البرهان: 1/194.
(4) مسلم، الحديث رقم: (567).

اللّه بن مسعود الذي أخرجه البخاريّ بسنده عنه أنّه قال: «قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: (اقرأ عليّ)، قلت: يا رسول اللّه، آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (نعم)، فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [النساء: 41]، قال: (حسبك الآن)، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان»[1].

و تُعرف سورة الطلاق بأنّها سورة النّساء الصُغرى أو القُصرى إزاء سورة النّساء الطّولى وهي البقرة لما أخرجه البخاريّ عن ابن مسعود رضي الله عنه قولَه: " أتجعلون عليها (المرأة الحامل المُتوفّى عنها زوجها) التّغليظ ولا تجعلون لها الرّخصة؟ لنزلت سورة النّساء القصرى بعد الطولى[2]"ويقصد بالطولى سورة البقرة لأنّ الحديث عن عدّة المُتوفّى عنها زوجها إنّما ورد فيها، وقد تفرّد الفيروزأبادي بتسمية سورة النساء بأنّها سورة النساء الكبرى[3]، وينبغي أنّه وهم، حيث قال ابن عاشور عن رأيه هذا: "لم أره لغيره[4]".

وأمّا عن سبب تسميتها بالنّساء فلأنّها تكرّرت فيها لفظة النّساء نحو (11) مرّة، فتكون التّسميّة لها من باب إكرام النّساء والعناية بهنّ، لأنّ ما نزل منها في أحكامهنّ أكثر ممّا نزل في غيرها[5]، ولكنّ اسم السورة قد يرتبط أحيانًا بمحور السورة بشكل مباشر أو غير مباشر، فعند من يرى أنّ محور سورة النّساء يقوم على خطّين متوازيَين وهما: الإنصاف والإصلاح[6]؛ فإنّ النّساء هنّ مظنّة الجور وترك الإنصاف عبر العصور، وقد يكون لهنّ دورٌ في كثير من الخصومات التي تستوجب الإصلاح، لذا بيّنت الآية الأولى من السورة بعض الحقائق المتعلّقة بطبيعة المرأة بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: 1].

فهي مخلوقة من عين عنصر الرجل، وهي مكمّلة له، وهي أصلٌ في تكوين المجتمع البشريّ، وأنّه لا أفضليّة مطلقة لأحد النوعيَن على الآخر، لذا أنصفتها السورة في

(1) البخاري، الحديث رقم: (4763).
(2) البخاري، الحديث رقم: (5050).
(3) الفيروزأبادي، بصائر ذوي التمييز: 1/169.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/211.
(5) القاسمي، محاسن التأويل: 5/4.
(6) خليفة، التفسير التحليلي لسورة النّساء: 1/22.

قضايا أخرى كثيرة كالحقوق الماليّة، فأعطتها حقّها وحرّمت أكل مالها، وأمرت بعشرتها بالمعروف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النساء: 19]

وحرّم على الزوج أن يستولي على شيء من مالها بغير حقّ: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾ النساء: 21

وأمر بالعدل معها في المعاملة: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٢٩﴾ النساء: 129

وأمّا في محور الإصلاح فتظهر عناية السورة بالنّساء في هذا الجانب بوضوح أيضًا في حالة اقترافهنّ للفاحشة لا سمح اللّه: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾ [النساء: 15].

وكذلك في حالة نشوز المرأة: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ [النساء: 34].

ويظهر هذا الإصلاح جليًّا في محاولة التوفيق بين الزوجين عند حدوث شقاق: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ٣٥﴾ [النساء: 35].

ويظهر هذا الإصلاح أيضًا في ضرورة قناعة كلّ من الزوجين بما قسمه اللّه له: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٣٢﴾ [النساء: 32].

المناسبات بين سورة النّساء والسور المجاورة والمشابهة لها:

جاءت سورة النساء بعد سورة آل عمران في ترتيب المصحف الشريف وهناك سلسلة من العلاقات الموضوعيّة والأسلوبيّة المشتركة بين السورتيّن، فإذا كانت سورة آل عمران

في شطرها الأول قد صوّرت ضلالات أهل الكتاب من يهود ونصارى في شأن آل عمران ومريم عليها السلام، وفي ادّعاءاتهم الباطلة في الدين، حيث طالبتهم السورة الإنصاف في ذلك، فسورة النّساء أكملت ردّ أباطيلهم ونفت عن المسيح عليه السلام قتله وصلبه، فالسورتان تشتركان في حقيقة هذا الإنصاف وإن كان ظهوره في سورة النّساء آكد وأبلغ[1]. فضلًا عن اشتراك السورتيّن في تناول قضايا الجهاد والقتال كلّ سورة بحسب مقتضاها، وإذا كانت سورة آل عمران قد اختتمت بالحديث عن جزاء المتّقين ثمّ الأمر بالتّقوى فقد ابتدأت النّساء بالأمر بالتّقوى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران 198 - 200].

وكان من أواخر سورة آل عمران عدم التّفريق بين الذكر والأنثى في الحساب في قوله: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ [آل عمران: 195] وجاءت التّسوية بينهما في الجزاء في النّساء: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾ [النساء: 124]

وذكرت آل عمران الراسخين في العلم إجمالًا على أنّهم يؤمنون بالكتاب محكمه ومتشابهه، ثمّ جاءت سورة النّساء لتبيّن لنا صفاتهم: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران: 7] وقال في النّساء: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ [النساء: 162].

وأمّا الترابط بين سورة النّساء وبين سورة المائدة فيقول عنه السيوطيّ: "وأمّا اعتلاقها (المائدة) بسورة النساء، فقد ظهر لي فيه وجه بديع جدًّا؛ وذلك أن سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحًا وضمنًا فالصريح: عقود الأنكحة، وعقد الصداق، وعقد الحلف،

(1) خليفة، ابراهيم، التفسير التحليلي لسورة النّساء: 1/93.

في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ [النساء: 33]، وعقد الأيمان في هذه الآية، وبعد ذلك عقد المعاهدة والأمان في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [النساء: 90]، وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ﴾ [النساء: 92].

والضمني: عقد الوصية، والوديعة، والوكالة، والعارية، والإجارة، وغير ذلك من الداخل في عموم قوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: 58]، فناسب أن يعقب بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود، فكأنه قيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1] التي فرغ من ذكرها في السورة التي تمت، فكان ذلك غاية في التلاحم والتناسب والارتباط، وقد ختمت المائدة بصفة القدرة، كما افتتحت النساء بذلك.

وافتتحت النساء ببدء الخلق، وختمت المائدة بالمنتهى من البعث والجزاء، فكأنهما سورة واحدة، اشتملت على الأحكام من المبتدأ إلى المنتهى.

ولمّا وقع في سورة النساء: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: 105] الآيات، وكانت نازلة في قصة سارق سرق درعًا، فصّل في سورة المائدة أحكام السرّاق والخائنين.

ولمّا ذكر في سورة النساء أنّه أنزل إليك الكتاب لتحكم بين الناس، ذكر في سورة المائدة آيات في الحكم بما أنزل الله حتى بين الكفار، وكرّر قوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: 44، 45، 47].

فانظر إلى هذه السور الأربع المدنيات، وحسن ترتيبها، وتلاحمها، وتناسقها، وتلازمها"[1].

وأمّا ارتباط سورة النّساء بالسور المشابهة لها موضوعًا وأسلوبًا، فيشبهها في المطلع سورة الحج التي بدأت بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وقد تنبّه لها الإمام الرازي فقال: " وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ سُورَتَانِ أولهما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أَحَدُهُمَا: فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ: وَهِيَ السُّورَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ سُورَةِ النِّصْفِ الْأَوَّلِ، فَإِنَّ أُولَاهَا الْفَاتِحَةُ وثانيتها البقرة وثالثها آلُ عِمْرَانَ وَرَابِعَتُهَا النِّسَاءُ.

(1) السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، ص: 78.

وَثانيَتُهُمَا: في النِّصْفِ الثَّاني مِنَ الْقُرْآنِ وَهِيَ أَيْضًا السُّورَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ سُوَرِ النِّصْفِ الثَّاني أُولَاهَا مَرْيَمُ، وَثَانِيَتُهَا طه، وَثَالِثَتُهَا الْأَنْبِيَاءُ، وَرَابِعَتُهَا الْحَجُّ.

ثُمَّ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الَّتِي في النِّصْفِ الْأَوَّلِ تَشْتَمِلُ على شرح المبدأ فقال يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ [النساء: 1] ويا أَيُّهَا النَّاسُ الَّتِي في النِّصْفِ الثَّاني تَشْتَمِلُ على شرح المعاد فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ①﴾ [الحج: 1] فَسُبْحَانَ مَنْ لَهُ في هَذَا الْقُرْآنِ أَسْرَارٌ خَفِيَّةٌ، وَحِكَمٌ مَطْوِيَّةٌ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا الْخَوَاصُّ مِنْ عَبِيدِهِ"(1)، وقد تحدّثت الآية الثانية من سورة الحج عن أحوال النّساء عند رؤية أهوال الساعة بقوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ②﴾ [الحج: 2].

فضلًا عن اشتراك السورتيْن في الحديث عن النّاس وأقسامهم وحالاتهم.

وتشبهها أيضًا سورة الأحزاب في مجيء ﴿كَانَ﴾ في فواصلها مع أسماء اللّه الحسنى، حيث وردت في النّساء نحو (42) مرّة في فواصل الآيات المذيّلة بأسماء اللّه الحسنى، وفي الأحزاب نحو (18) مرّة، وكلا السورتيْن مدنيّتان تعالجان تنظيم المجتمع المسلم وترتيب أوراقه.

۞ الخصائص الموضوعيّة والأسلوبيّة للسورة:

امتازت سورة النّساء بمجموعة من الخصائص التي انفردت بها عن غيرها من السور موضوعًا أو أسلوبًا، حتى لو شاركتها في قضايا وأساليب، فقد تحدّثت مطولاً عن العدل والقسط، وعن اليتامى وأحكامهم، حيث وردت كلمة (اليتامى) فيها نحو (8) مرّات من أصل (14) مرّة في القرآن، وتحدّثت عن أحكام النّساء: زوجة وأمًّا وجدّة وأختًا وابنة ويتيمة ومستضعفة وقويّة وغير ذلك، وتحدّثت عن أحكام التوارث وعن أحكام الضّعف والاستضعاف والكلالة وهي تمثل حالة ضعف، حيث تكرّرت كلمة الضعف ومشتقّاتها في السورة نحو (7) مرّات، وقد فرّقت السورة بين الضّعف الجِبِلّيّ الذي يُعذر أصحابه فيه، وبين الاستضعاف الاختياريّ الذي يمثّل حالة من الرضا فيه، وأصحابه لا عُذر لهم فيه،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 5/281.

فحالهم حال المستكبرين في ذلك، وتحدّثت كذلك عن أحكام تعدّد الزوجات، والقوامة، ونشوز كلّ من الزوجين، وعن صلاة الخوف، وعن أحكام السفهاء، وتحدّثت عن المنافقين وأهل الكتاب حديثًا يتّفق وشخصيّتها ومحورها الذي قامت عليه.

وانفردت السورة ببعض أساليبها الخاصّة من مثل مجيء بعض الألفاظ الفريدة من أسماء وأفعال ليس لها من مادّتها وجود آخر في القرآن مثل: ﴿حُوبًا﴾ [النساء: 2]، ﴿أَفْضَىٰ﴾ [النساء: 21]، ﴿بِٱلْجِبْتِ﴾ [النساء: 51]، ﴿نَضِجَتْ﴾ [النساء: 56]، ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: 72]، ﴿أَذَاعُواْ﴾ [النساء: 83]، ﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ [النساء: 83]، ﴿مُرَٰغَمًا﴾ [النساء: 100]، ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ [النساء: 119]، ﴿كَلَٰلَةً﴾ [النساء: 12]، وهي مرتبطة بسلسلة علاقات خاصّة مع محور السورة العام.

وانفردت ببعض الأبنية والصيغ الفريدة التي لم تتكرّر من مادّتها في موضع آخر من القرآن مثل: ﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ﴾ [النساء: 129]، ﴿تَعُولُواْ﴾ [النساء: 3]، ﴿نُشُوزَهُنَّ﴾ [النساء: 34]، ﴿ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: 34]، ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾ [النساء: 23]، ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ﴾ [النساء: 34]، ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ [النساء: 34]، ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ [النساء: 34]، ﴿ٱلْعَنَتَ﴾ [النساء: 25]، ﴿طَابَ﴾ [النساء: 3] و﴿طِبْنَ﴾ [النساء: 4]، ﴿مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: 4]، ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ [النساء: 4]، ﴿نِحْلَةًۚ﴾ [النساء: 4]، ﴿ضِعَٰفًا﴾ [النساء: 9]، ﴿طَوْلًا﴾ [النساء: 25]، ﴿شَجَرَ﴾ [النساء: 65]، ﴿أَرْكَسَهُم﴾ [النساء: 88] و﴿أُرْكِسُواْ﴾ [النساء: 91]، ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ [النساء: 108]، ﴿تَلْوُۥٓاْ﴾ [النساء: 135] ﴿وَلِيًّا﴾ [النساء: 45]، ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ [النساء: 143]، ﴿ٱلدَّرْكِ﴾ [النساء: 145]، ﴿بَيَّتَ﴾ [النساء: 81]، ﴿ثُبَاتٍ﴾ [النساء: 71]، ﴿تَقْصُرُواْ﴾ [النساء: 101]، ﴿يَسْتَنكِفَ﴾ [النساء: 172]، ﴿صَلَبُوهُ﴾ [النساء: 157].

وامتازت السورة بذكر أسماء الله الحسنى في فواصل نحو (56) فاصلة من فواصلها، حوت (25) اسمًا من أسماء الله الحسنى دون تكرار، سواء أكانت أسماء مفردة أم مركّبة، وأكثرها ورودًا كان: عليم، حكيم، غفور، رحيم، وهذا يتّسق مع أحكامها وتشريعاتها الصادرة عن عليم حكيم وغفور رحيم لمن خالفها دون تعمّد، وأكثر هذه الأسماء في فواصلها اقترنت بـ (كان) المجرّدة عن الزمان والمكان، ممّا أعطى السورة مزايا فريدة لم تأت لغيرها وإن شاركتها بعضها.

وكذلك كثر في السورة أسلوب ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ بنحو ثمان مرّات، وهي نصف عددها في القرآن كلّه، ودلّ هذا الأسلوب على ضرورة الامتثال لأحكام الله تعالى في السورة الكريمة والاكتفاء بها دون التحاكم إلى غيره كما هو شأن المنافقين.

فضلًا عن بروز ظاهرة الشرط فيها بما يزيد عن أكثر من (120) جملة شرطيّة تنوعّت أساليبها وطرائقها، وذكر أو حذف أجوبتها، وهذا متلائم تمامًا مع طبيعة تشريعاتها وأحكامها.

وامتازت أيضًا بأنّها نفت الظّلم عن الله تعالى قليله وكثيره ولو بمقدار (فتيل)[1] أو (نقير)[2] أو (ذرّة)[3].

إنّ من شأن هذه الخصائص الموضوعيّة والأسلوبيّة أن ترسم لنا ملامح هوية السورة ومحورها العام الذي تنتظم آياتها حوله، سواء أكان متعلّقًا بالإنصاف والعدل أو بالإصلاح أو بعلاج الضعف وغيره.

المحور الذي تدور حوله موضوعات السورة:

يرى الشيخ محمود شلتوت أنّ سورة النّساء تعالج الاستقرار الداخليّ والاستقرار الخارجيّ للمجتمع المسلم، فالاستقرار الداخليّ أساسه صلاح الأسرة، وصلاح المال في ظلّ تشريع قويّ عادل مبنيّ على مراعاة مقتضيات الطبيعة الإنسانيّة، والاستقرار الخارجيّ أساسه احتفاظ الأمّة بشخصيّتها، والاستعداد لمقاومة الشرّ الذي يطرأ عليها، والعدوّ الذي يطمع فيها[4]، وتقدّم رأي من يقول إنّها تعالج محوريّ الإنصاف والإصلاح، ولا يبعد عن هذا وذاك من يرى أنّ محور السورة الكريمة هو إحقاق العدل وإقامته، أو تحقيق التكافل الاجتماعيّ في المجتمع المسلم، وكلّ ذلك صحيحٌ ومعقولٌ، ويمكن الجمع بين ذلك كلّه في قولنا: إنّ سورة النّساء تتناول مقوّمات التّشريع الإسلاميّ الصالح لتدبير شؤون الإنسانيّة جمعاء، من خلال عناصره الثلاثة: المُشرّع، والتشريع، والمكلّفين، فأكثرت السورة من ذكر صفات هذا المُشرّع القائمة على العلم والحكمة، والمغفرة والرحمة وغيرها من الصفات الجليلة التي ذكرتها السورة، فهو الأعلم بما يُصلح العباد في شؤون دنياهم وأخراهم.

---

(1) الآيتان (49، 77).

(2) الآية: 124.

(3) الآية: 40.

(4) شلتوت، محمود، تفسير القرآن الكريم، الأجزاء العشرة الأولى، ص: 137.

وأكثرت السورة من أسلوب المبالغة في نفي الظّلم عن الله ﷻ ولو كان بمقدار ذرّة أو فتيل أو نقير، وتناولت السورة كذلك هذه الشريعة الغرّاء، فبيّنت مقاصدها الخمسة، التي تكفل تحقيق مطالب الإنسان في كلّ زمان ومكان، من تحقيق الحرّية والإخاء والعدل، فتحدّثت عن حفظ الدين والنّفس والنّسل والعقل والمال، فبيّنت أهميّة الحفاظ على الدين حتى لو اقتضى الأمر الهجرة وترك البلدان، أو القتال لأجل إحقاق كلمة الدين، وتحدّثت عن حفظ النّفس فحرّمت قتلها بغير حقّ، وتناولت المال وبيّنت مصادر كسبه وإنفاقه وما يتعلّق به حتّى عدّها بعضهم سورة المال، وكذا تناولت حفظ العرض والنّسل من خلال تحريم الزنا والأخدان والأنكحة المحرّمة، وبيّنت أحكام الحياة الزوجيّة، وحكم من لم يستطع نكاح المحصنات، وبيان أحكام الأسرة بالتّفصيل، وكذا تناولت حفظ العقل بترك ما يعطّله من خمر أو غيره، وتناولت كذلك المكلّفين المخاطبين في هذه الشريعة، وبيّنت أنّهم سواء في الجزاء والعمل؛ فلا فرق بين قويّ وضعيف ورجل وامرأة، وبيّنت السورة مواقف النّاس أمام هذه الشريعة بين إيمان خالص ونفاق زائف وكفر بواح، وبين قادر كامل الأهليّة، ومعذور ناقص الأهليّة، فشرعت الرّخص عند نقصان الأهليّة لأصحاب الأعذار فشرعت الهجرة للضعفاء، وصلاة الخوف في الحرب، وتناولت وسائل الإصلاح بين الزوجين، وتناولت أحكام اليتامى والسفهاء، وهم أكثر النّاس ضعفًا، وشرعت التوبة للمذنبين، وبيّنت كثرة مغفرة الله ورحمته بهم، وبيّنت آثار إقامة هذه الشريعة ومآلات الخروج عليها في الدنيا والآخرة، وهناك أكثر من آية في السورة الكريمة لامست هذا المحور الرئيس في بيان مقاصد الشريعة التي تلبّي حاجات الإنسان عبر تنوّع الأزمنة والأمكنة من مثل قوله تعالى في السورة الكريمة: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النساء: 36].

وقوله عن التوبة عند الخروج عن تطبيق بعض شريعته: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾ [النساء: 18].

وقوله عن سبل تحقيق شريعته: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾

[النساء: 58 - 59].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾

[النِّسَاء: 1]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّقوى عِمادُ الدِّين وطَريقُ النَّجاةِ والصَّلَاحِ

جَاءَت هَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ فَاتِحَةً لِسُورَةِ النِّسَاءِ ببراعة افتتاح، وحسن ابتداءٍ لما احتوته من الأحكام والتَّشريعَات المُتَعدِّدة، في حُقوقِ النِّسَاءِ وذوي الأَرحَام واليَتَامَى وغيرهم، ولِكُلِّ هَؤلاءِ حُقُوقٌ يَجبُ عَلى النَّاسِ تَقوى اللّهِ تَعَالى ومراقبته فيها وأداؤها إلى أهلها، وعلى ذلك يَقُومُ المُجتَمَعُ البَشَريّ قَوياً مُطْمَئِنّاً، ويَتوطَّدُ التَّعاطُفُ والتَّعَاوُنُ بَين أَفرَادِه الّذِينَ هُم أخوةٌ مِن أبٍ وَاحِدٍ وأُمٍ وَاحِدَةٍ، ومَع أنَّ المُتبادَرَ مِن روح الآيةِ، أنَّ الخطَابَ مُوجَّهٌ في الدَّرجَةِ الأولى إلى المُسلِمِينَ الّذِينَ يُؤمِنُونَ بالقُرآن، ويَتَلَقَّونَ مَا جَاءَ فِيهِ نِبرَاسًا وهُدًى لَهُم - وهُم أَهلُ الدَّعوةِ إلى تَقوى اللّهِ تعالى - فإنَّ استِعمَالَ لَفظِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾، لا يَخلُو مِن مَعْنًى جَلِيلٍ في صَدَدِ الدَّعوَةِ إلى تَقوى اللّهِ تَعَالى، في الحُقُوقِ الّتي هِي قَدْرٌ مُشتَرَكٌ بَينَ جَميعِ النَّاسِ الّذِينَ يَتَألَّفُ مِنهُم المُجتَمَعُ البَشَريّ؛ وبهذا كلّه تَبدُو الآيَةُ بَلِيغَةً رَائِعَةً في أُسلُوبِهَا ومَدَاهَا، فَهي مِفتَاحُ السُّورَةِ، وموضُوعُها الّذي جَاءَ في مَطلَعِهَا[1].

شَرحُ المُفرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلنَّاسُ﴾: اسمُ جَمعٍ لِلبَشَرِ خَاصَّةً، وهُم الجنسُ المُنحَدِرُ من آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إلى أنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، والنَّاسُ جَمَاعَةٌ لا وَاحِدَ لَها من

(1) دروزة، التَّفسير الحديث: 8/9.

لَفظِها[1]، والنَّاسُ مِنَ النَّوسِ وهُوَ الحَرَكَةُ يُقَالُ: نَاسَ يَنُوسُ نَوسَاً إِذَا تَحرَّكَ، قال ابن فارس: "النُّونُ وَالوَاوُ وَالسِّينُ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى اضطِرَابٍ وَتَذَبْذُبٍ، وَنَاسَ الشَّيْءُ: تَذَبْذَبَ، يَنُوسُ، وَسُمِّيَ أَبُو نُوَاسٍ لِذُؤَابَتَيْنِ لَهُ كَانَتَا تَنُوسَانِ[2]، وَيَقُولُونَ: نُسْتُ الإِبِلَ: سُقْتُهَا"[3]، وقيل: أَصلُهُ أُنَاس، فحذف فاؤه لمّا أُدخِلَ عَليهِ الأَلِفُ واللَّامُ، وقِيلَ: قُلِبَ مِن نَسِيَ، وَأَصلُهُ إِنْسِيانٌ على وَزنِ إِفْعِلانٌ مِنَ النِّسْيان[4]، والأولُ أَصَحُّ؛ لأنَّ لَو كَانَ أَصلُ النَّاسِ أُنَاسًا لَقيل في التَّصغِيرِ أنيس، وَإِنَّمَا يُقَال (نُويس)، فَاشتِقَاقُ أنَاس مِن الأُنْسِ خِلَافُ الوَحشَةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ بَعضَهُم يَأنَسُ بِبَعضٍ[5]، وفي الصّحاح: "والنّاس قد يكون من الإنس ومن الجنّ، وأصله أناس فخفّف، ولم يجعلوا الألف واللّام فيه عوضًا من الهمزة المحذوفة"[6].

2) ﴿ٱتَّقُواْ﴾: فعل أمرٍ من (اتَّقى) على وزن افْتَعَلَ، وهو افتعالٌ من (وقى)، بمعنى حَفِظَ وحَرَس؛ فأصل التّاءِ من (اتَّقى) واوٌ: (اوْتَقَى) فَقُلِبَتِ الوَاوُ يَاءً لانكِسَارِ مَا قَبلَهَا، وأُبدلت مِنهَا التَّاءُ وأُدغمت؛ لِسُكون الأولى، وتحرّك الثّانية[7]، "والاسم (التّقوى)، و(أصله تقيا)، التّاء بدل من الواو، والواو بدل من الياء؛ وفي الصّحاح: (التّقوى) والتّقى واحد، والواو مبدلة من الياء على ما ذكرناه في ريّا"[8]، ومصدرُ (اتَّقَى): الاتِّقاءُ وهو افتعالٌ من التَّقوَى، يرادُ به اتِّخاذ الوقاية، فالافتعالُ هنا بمعنى الاتِّخاذ، ويدلُّ على اختيار التَّقوى والعمل بمقتضاه[9]، والتَّقوى: الصِّيانةُ والحِفظُ، وجعلُ النّفس في وِقَايَةٍ مما يُخَاف[10]، ومعنى ﴿ٱتَّقُواْ﴾ في الآية على ما سبق من معانٍ: اجعَلوا لَكُم وِقايَةً مِنْ عَذابِ اللهِ بامتِثالِ أوامِرِهِ، واجتِنابِ نواهيه.

3) ﴿رَبَّكُمُ﴾: ربّ كلّ شيء: مالكه، ومعلوم أنّ لفظ الرّبّ: اسمٌ من أسماء الله

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 274.

(2) وفي تهذيب اللّغة: "وقيل لبعض ملوك حمير: ذو نواس، لضفيرتين كانتا تنوسان على عاتقيه" ينظر: الأزهري، تهذيب اللغة، وكذلك: الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (نَوَسَ).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نَوَسَ).

(4) الراغب، المفردات، ص: 828.

(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 274.

(6) الجوهريّ، الصّحاح: (نَوَسَ)

(7) ابن منظور، لسان العرب: (وقى).

(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (وقى).

(9) الجوهريّ، الصّحاح: (وقى).

(10) الجرجاني، التّعريفات، ص: 65.

ﷻ، وهو مخصوصٌ به، فلا يقال في غيره إلّا بالإضافة، وقد قالوه في الجاهليّة للملك، وشاهده قول الحارث بن حِلِّزَة:

وَهُوَ الْرَّبُّ وَالْشَّهِيدُ عَلَى يَوْ *** م الْحَيَارَيْنِ وَالْبَلَاءُ بَلَاءُ[1]

والرّبُّ المَالِكُ والخالِقُ والرزَّاق والمُصلِحُ والمُدبِّر[2]، ويطلقُ على الله تعالى معرّفًا باللّام ومضافًا، وفي الأصل مأخوذٌ من التَّربية، وهو إنشاءُ الشَّيء حَالًا فَحَالًا إلى حدِّ التَّمام، يُقال: رَبَّهُ، وربّاه ورَبَّبَهُ، فالرّبُّ مصدرٌ مستعارٌ للفاعل، ولا يُطلَقُ غيرَ مُضافٍ إلا على اللّهِ تعالى المُتكفِّل بمصلحةِ الموجوداتِ، وإذا أُطلقَ على غيرِه أُضيفَ، كربِّ الإبل ورَبِّ الدّارِ؛ أي: مالكها[3]، قال ابن تيميَّة: "الرَّبُّ: هُوَ الَّذِي يُرَبِّي عَبدَهُ فَيُعطِيهِ خَلقَهُ ثُمَّ يَهدِيهِ إلى جَمِيعِ أَحوَالِهِ مِن العِبَادَةِ وَغَيرِهَا"[4].

4) ﴿نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: آدمُ[5] ﵇، وقد يُرادُ بها جنسٌ واحدٌ؛ أي خلقكم من طينةٍ واحدةٍ، والنَّفْسُ: الرَّوحُ والجَسَدُ والدَّمُ، وما يكون به التَّمييز، وتُطلَقُ على ذَاتِ الشَّيْءِ وَحَقِيقَته، وهي جملةُ الإنسان وذاتُه، روحًا وجسدًا، تقول: قَتل فلانٌ نفسَه، أوقعَ الهلاكَ بذاته، وتُطلقُ - أيضاً - على الرُّوح فقط، نحو: خرجت نَفسُ فلانٍ؛ أي روحَه، وسُمِّيَ الدَّمُ نفساً؛ لأَنَّ النَّفسَ تَخرُجُ بِخُرُوجِه[6]، وهي من (نَفَسَ)، وتُجمعُ على أَنْفُس ونُفُوس، وجذرها (النُّونُ وَالفَاءُ وَالسِّينُ)، يَدُلُّ في أصله على خُرُوجِ النَّسِيمِ كَيفَ كَانَ، مِن رِيحٍ أَوْ غَيرِهَا، وَإِلَيهِ يَرجِعُ فُرُوعُهُ، ومِنهُ التَّنَفُّسُ: خُرُوجُ النَّسِيمِ مِنَ الجَوفِ وغيرِها[7]، وقد شاعَ استعمالُ النّفس في الإنسان خاصةً؛ إذ تُطلقُ ويرادُ منها المركَّبُ والجملةُ المشتملةُ على الرّوح والجسدِ[8].

5) ﴿زَوْجَهَا﴾: الزَّوج: الصِّنفُ والنَّوعُ من كُلّ شيءٍ، والفَردُ الّذي له قَرين، وكلُّ شَيئَين مُقتَرنَين - شَكْلَين مُماثلين كَانَا أَو نَقيضَين - فهما زَوجانِ، وكلّ واحدٍ مِنهُمَا: زَوجٌ، تقول:

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (رَبَبَ).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 15، وابن فارس، مجمل اللّغة، ص: 370.
(3) الراغب، المفردات ص: 336.
(4) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 1/22.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 7/514.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (نفس)، والسمين، عمدة الحفَّاظ: 4/204.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نَفَسَ).
(8) زقزوق، الموسوعة الإسلامية العامة، ص: 1409.

عِنْدِي زوجان من الحَمام، تَعنِي ذكرًا وَأُنْثَى، وزَوْجُ المرأة: بَعْلُها، وزَوْجُ الرجل: امرأتُهُ، يُقال: هو زَوجُها وهي زَوجُه وهما زَوجَان، وهو الفصيحُ، وَجَاء بهَا القُرآن، قَالَ تعالى: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، ويجمع على أَزْوَاج[1]، وقد استعملواْ اللّفظ بإضافته إلى ضمير المتكلّم، دالًّا على الزّوج نحو ما قال الفرزدق:

وَإِنَّ الَّذِي يَسْعَى لِيُفْسِدَ زَوْجَتِي *** كَسَاعٍ إِلَى أُسْدِ الشَّرَى يَسْتَبِيلُهَا[2]

والتَّزاوجُ تداخُلٌ بين شيءٍ وآخر حتّى يشتَبِكَا ويختلطَا ويرتبطَا معًا – كالذَّكر بالأنثى، والنَّوم بالنَّائم، ولا يُقال للشَّيء زَوْجٌ إلّا وهو مرتبطٌ بآخرَ ارتباطًا مادِّيًا أو معنويًّا، فهي تُطلقُ على الفردِ بهذا القيد، قال تعالى ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ [الأنعام: 143]؛ فهذا يقطعُ بإطلاق الزَّوج على الفرد؛ لأنَّها مقترناتٌ عُدَّت ثمانية أزواج – لكن مع القيدِ السّابق، ومن هنا أُطْلق الزَّوجُ على امرأة الرَّجل – كما يقال: قرينتُهُ[3].

7) ﴿وَبَثَّ﴾: فَرَّقَ وَنَشَرَ، يُقال: بَثَّ الشَّيْءَ والخَبَر، يَبُثُّه ويَبِثُّه بَثًّا فانْبَثَّ: فَرَّقه فتَفَرَّقَ، ونَشَره، والبثُّ: إثارةُ الشّيء وتفريقه، كبثِّ الرِّيح للتُّراب، وتَمْرٌ بثٌّ: منثورٌ مُتفرِّقٌ ليس في جرابٍ ولا وعاء، وبَثَّ الصَّيادُ كلابَه: نَشَرَها، ومنه بثُّ الدَّواب في قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ [البقرة: 164]؛ أي: نشر فيها وفرَّق أنواع الدَّواب، وفيه إشارةٌ إلى إيجادِ ما لم يكن موجودًا[4]، والبَثُّ مَا يَرِدُ على الإنسَانِ مِنَ الأَشيَاءِ المُهلِكَةِ الَّتِي لَا يَتَهَيَّأُ لَهُ أَن يُخفِيَهَا كالحُزن والغمِّ في النّفس الّذي يضطّر صاحبُهُ من شدَّته أن يُظهرَه، وَهُو من بَثَثْتُهُ؛ أَي فَرَّقْتُهُ، فَسُمِّيَتِ المُصِيبَةُ بَثًّا مَجَازًا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86][5]، قال الأصمعيّ: (تَمْرٌ بَثٌّ)، إذا كان منثورًا متفرّقًا بعضه من بعض، والبثّ: الحال والحزن، يقال: أبثثتك، أي أظهرت لك بثّي الّذي يجيش به صدري[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (زوج).

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (زوج). ومعنى يستبيلها: أي يأخذ بولها في يده، وأنشد ابن بري لمالك بن نويرة اليربوعي وقال أنشده ثعلب:

إِذَا مَا اسْتَبَالُواْ الْخَيْلَ كَانَتْ أَكُفُّهُمْ *** وَقَائِعَ لِلْأَبْوَالِ وَالْمَاءُ أَبْرَدُ.

يقول: كانوا في فلاة، فاستبالوا الخيل في أكفّهم، فشربوا أبوالها من العطش، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: (وقع).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: 2/878.

(4) ابن منظور، لسان العرب: (بثث)، والسمين، عمدة الحفَّاظ: 1/159.

(5) النَّحاس، إعراب القرآن: 2/213.

(6) الجوهريّ، الصّحاح: (بثث).

8) ﴿رِجَالًا﴾: جمع رَجُلٍ، وهو الذَّكر من بني آدمَ، بخلاف المرأة، وتصغيره رُجَيلٌ ورُوَيجِلٌ، والرَّجْلَة: المرأة المتشبِّهةُ بالرَّجل في بعض أحوالِها، والرَّجُلُ مأخوذٌ من الرِّجْلِ: وهو العضوُ المخصوصُ بأكثر الحيوانات الّذي يُمشَى به، واشتقّ من الرِّجْلِ رَجِلٌ وراجِلٌ، ومنه رَجُلٌ رَاجِلٌ أي: قويٌّ على المَشي، وجمعه رِجَالٌ قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: 239][1]، ومن هذا الأصل (الرِّجْل) اشتُقت كلماتٌ انتزاعيّةٌ، فيقال: رجَلَ يَرجُل رَجْلاً، فهو راجل: إذا مشى برجلِهِ وقوي عليه، وارتجلَ الكلامَ: قَويَ عليه من غير حاجة فيه إلى فكرةٍ ورويَّة، وترجَّل في البئر: إذا نزلَ في البئر من غير أَنْ يُدَلّى؛ فكأنَّه استندَ على رجله، ومنه الرّجولةُ صِفَةٌ بمعنى الشِّدّة والقوّة، والكرم ومكارم الأخلاق، والرّجوليّةُ: كمالُ الرّجل، يُقال: أرجلُ الرَّجُلين: أقواهُما[2]. فأصل كلمة (الرَّجل) مأخوذٌ من القوَّة؛ لأنَّه الأشدُّ والقائمُ الجادّ في الأمور المنتصبُ لها وفيها، وهو من يستبدّ برأيه ويقومُ بقدمه، ويستندُ إلى رجلِهِ، ويمشي لتأمين معاشِهِ ومعاش عائلته، وهو قويٌّ على العملِ والحركة والسّير[3].

9) ﴿وَنِسَآءً﴾: اسم جَمْعٍ لِلمَرأَةِ مِنْ غَيرِ لَفظِه، أو جمع (نسوة) الّذي هو جمعُ (امرأة)، فهو جمعُ الجمع، وعلى كلا الجمعين النِّساءُ هنّ الإناثُ من بني آدمَ بخلافِ الرِّجال[4]، وَنِسَاءُ على وزن (فِعَال)، والهمزةُ فيها إمّا أصليَّةٌ، أو منقلبةٌ عن أصل، فإن كانت أصليّةً دلَّ على تأخير الشَّيء؛ فالنَّسءُ من نُسِئَت المرأةُ تُنْسَأُ نَسأً: تأَخَّر حَيْضُها عَنْ وقتِه، وبَدَأَ حَملُها، ونَسَأَ الشّيءَ يَنْسَؤُه نَسأً وأَنْسَأَه: أَخَّره، ومنه النَّسيئةُ والنَّسِيءُ[5]، أمّا إن كانت منقلبةً، فهي مُبدلةٌ عن (واو) على النَّحو الّذي أشار إليه العكبريُّ بقوله: "وَالهَمزَةُ في نِسَاءِ مُبدَلَةٌ مِنْ (وَاوٍ)؛ لِقَولِكَ في مَعنَاهُ نِسْوَةٌ، وَهُوَ جَمعٌ لا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفظِهِ بَل وَاحِدَتُهُ امْرَأَةٌ، وَأَمَّا نِسَاءٌ فَجَمعُ نِسْوَةٍ، وَقِيلَ: لَا وَاحِدَ لَهُ"[6]، وذهب السَّمين الحلبيُّ إلى احتمال أن

(1) الراغب، المفردات، ص: 344.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيدي، تاج العروس: (رجل).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن الكريم: 4/70.
(4) الحريريّ، دُرَّةُ الغَوَّاص، ص: 263.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نَسَأَ).
(6) العكبري، التبيان: 1/154.

تكونَ الهمزةُ مبدلةً عن (ياء) اشتقاقاً من النِّسيان[1]، فالنِّسَاءُ - إذاً - هو جمعُ امرأة، وهو - أيضاً - جمع نَسْءٍ؛ لأنَّها اشتقَّت من هذا الأصل؛ وعلى ما سبق يتبيَّن سببُ تمسية النِّسَاء بهذا الاسم مُقابل الرِّجال، فالرِّجالُ سُمّوا بذلك لأنَّهم برَجْلِهم - سعيهم وحركتهم - يقومون بالبحثِ عن الرّزقِ والعملِ والحراسةِ، وتوفير الحمايةِ، بينما تكونُ النِّسَاءُ متأخراتٍ عن ذلك بقعودهن في البيوتِ، وأنّهن ملحقاتٌ برجالهنَّ تابعاتٌ لهم، ولأنَّهنّ تأخَّرنَ في الخلْقِ، فحوّاءُ خُلقت بعد آدمَ عليه السلام.

10) ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾: فعلٌ مضارعٌ بمعنى: يسألُ بعضُكم بعضًا باللّه تعالى، فيقولُ على سبيل الاستعطاف: أسألُك باللّه، وأنشدُك باللّه، وأصلُه تَتَساءلون حُذفت إحدى التّاءَين تخفيفًا[2]، وهو من الفعل (سَأَلَ) يَسْأَلُ سُؤَالًا وسَآلَةً ومَسْأَلةً وتَسْآلًا وسَأَلَةً، وتَسَاءَلُواْ: سَأَل بعضُهم بَعضًا، وتَسَاءلُونَ بِهِ: تَطلُبون حقوقَكم بِهِ، ومنه السّؤال[3]، "فمن قرأ ﴿تَّسَآءَلُونَ﴾، فالأصل: تتسَاءلُون، قلبت التّاء سينًا، لقرب هذه من هذه، ثمّ أدغمت فيها، ومن قرأ ﴿تَسَآءَلُونَ﴾، فأصله أيضا: تتسَاءَلُون، حذفت التّاء الثّانية، كراهيّة للإعادة، ومعناه: تطلبون حقوقكم به"[4].

11) ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾: جمع الرَّحِم وهي القرابة، وهو بكسر الحاء (رَحِمٌ)، والرّحم بالضّمّة: الرّحمة، قال تعالى: ﴿وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١﴾ [الكهف: 81]، وقد حرّكه زهير بن أبي سلمى، فقال:

وَمِنْ ضَرِيبَتِهِ التَّقْوَى وَيَعْصِمُهُ *** مِنْ سَيِّئِ الْعَثَرَاتِ اللهُ وَالرَّحُمُ[5]

والآيةُ على تقدير مضافٍ؛ أي: واتّقوا اللّه وقطعَ الأرحام[6]، والرَّحِمُ في الأصل رَحِمُ المرأة، وهو مَنْبِتُ الوَلَد ووِعَاؤه في البَطْنِ، ومن هذا المعنى استعير الرَّحِمُ للقرابة؛ لكونهم خارجين من رحمٍ واحدة؛ ولأَنَّ مِنهَا مَا يَكُونُ مَا يُرحَمُ وَيُرَقُّ له مِنْ وَلَدٍ[7]، والرَّحمُ من

(1) السمين، عمدة الحفّاظ: 4/233.
(2) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/462.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (سأل).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (سأل).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (رحم).
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 3/361.
(7) الراغب، المفردات، ص: 347.

الفعل (رَحِمَ) ويَدُلُّ عَلَى الرِّقَّةِ وَالعَطفِ وَالرَّأْفَةِ، يُقَالُ: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إِذَا رَقَّ لَهُ وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِ[1]، ومنه الرَّحْمَةُ: رِقَّةُ القَلبِ وَعَطفُهُ، مأخوذةٌ من الرَّحمِ؛ وذلك لأنَّ الرَّحمَ منعطفةٌ على ما فيها[2].

12) ﴿رَقِيبًا﴾: الرَّقيبُ من أسماء الله تعالى ومعناه: العالِمُ الحافظُ الَّذِي لَا يَغِيبُ عَنهُ شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء[3]، والرَّقيبُ: على وزن فَعِيلٌ صيغةُ مبالغةٍ بمعنى فَاعِل؛ أي: (راقِبٌ)، من الفعل (رَقَبَ يَرقُبُ) تقول: "رَقَبَه يَرْقُبُه رِقْبةً ورِقْباناً، بِالكَسرِ فِيهِمَا، ورُقُوباً، وترَقَّبَه، وارْتَقَبَه: انتَظَرَه ورَصَدَه، والتَّرَقُّبُ: الانْتِظَارُ، وَكَذَلِكَ الارْتِقابُ، وارْتَقَبَ المكانُ: عَلَا وأَشْرَفَ"[4]. ومنه الرَّقَبَةُ: العُنُقُ أعلى جسم الإنسان تحتَ الرّأس، ورَقَبْتُهُ: أصبتُ رقبتَه، ورَقَبْتُهُ: حفظتُه، والمَرْقَبُ: المكانُ العالي الّذي يشرفُ عليه الرَّقيبُ، وفي الحديث عن أبي بكر رضي الله عنه: «ارقُبُوا مُحَمَّدًا ﷺ في أَهلِ بَيْتِهِ»[5]؛ أَي احفَظُوه فيهم، ومن هنا جاءت تسميّةُ الرَّقِيب بمعنى الحافظِ المُحصي الرَّاصدِ؛ لرفعته وعلوّه، فهو المطَّلع على ما دونه، ولمراعاته رقبةَ المحفوظ[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وحدةُ الأصل الإنسانيّ، والعلاقاتُ الاجتماعيَّة وأمانةُ صلة الأرحام.

تأتي هذه الآية الكريمة في أوّل سورة النِّسَاء لتُرشد إلى وحدةِ الأصل الإنسانيّ والعلاقات الاجتماعيَّة، فافتتحت بنداءِ اللّه تعالى لعبادِه بلفظٍ عامّ يشملُ مؤمنَهم وكافرَهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ويأمرُهم بتقواه، لأنَّه خلقَهُم من نفسٍ واحدةٍ هي آدم - عليه السلام - ، وخلقَ منها زوجَه حواءَ؛ ليناسبَها فيسكن إليها، وتتمُّ بذلك النّعمةُ، ويحصلُ به السُّرورُ، ونشر منهما في أنحاء الأرض رجالًا كثيرًا ونساءً كثيرات، ثمّ كرَّر الأمرَ بالتَّقوى؛ إذ هي مِلاك الأمر، فلا كمالَ ولا سعادة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).
(2) السمين، عمدة الحفّاظ: 2/79.
(3) الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 65.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (رقب).
(5) البخاريّ، الحديث رقم: (3751)
(6) الراغب، المفردات، ص: 362.

بدون الالتزام بها، وفي الإخبار بأنَّه خلقَهُم من نفسٍ واحدةٍ، وأنَّه بثَّهم في أقطار الأرض، مع رجوعِهم إلى أصل واحد - ليعطفَ بعضُهم على بعض، ويرقّقَ بعضَهم على بعض، وليدلَّ على أهميّة هذه الرّابطةِ الإنسانيَّة، ليعيش النَّاسُ في سعادةٍ وأمانٍ، ثمّ قرنَ الأمرَ بتقواه بالأمر ببرِّ الأرحام، والنَّهي عن قطيعَتِها، ليؤكِّد بأنّه كما يلزمُ القيام بحقِّ اللّه، كذلك يجبُ القيام بحقوقِ الخلق، خصوصًا الأقربين منهم، ثمّ ختم الآية بأنَّه - تعالى - مراقبٌ لأحوالهم جميعها مطّلع عليها، لا يخفى عنه خافية[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

حُسْنُ الافتِتَاحِ وَبَرَاعَتُهُ بالنِّداء والأمرِ بالتَّقوى:

النّـداءُ للنَّاس لتنبيه النّفوس واستِـضْـعـاء قـلـوبـهـم للخِطابِ

إنَّ أولَ ما يلفتُ الذِّهن في سورة النِّسَاء ويشدُّه افتتاحُها بِفَنٍّ بديعيٍّ بليغٍ هو حسنُ الابتداء وبراعته، فأولُ آية منها كانت في منتهى البراعةِ والإحكام؛ إذ بيَّنت غرضَ السّورة وموضوعَها، فقد افتتحت السّورة بنداءٍ عام مؤكدٍ بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، وأمَرَتْهُم بتقوى اللّه تعالى، وأشارتْ إلى بدءِ الخلق والتَّكوين، مع التّنبيهِ الى مكانة المرأة، والتّوصية بصلة الرَّحم؛ لتكونَ دالّةً على ما في هذه السّورة من الأحكام والتَّشريعَات المُتعدِّدةِ الّتي تنظّمُ حياةَ النَّاس ومُجتمعاتهم على أساس التَّقوى والعدل والمُساواة، وتحثُّ على الرَّحمةِ بالضّعفاء من النِّسَاء والأَرحَامِ واليَتَامَى، بنظامٍ يكفلُ العدلَ للأفرادِ والصَّلاحِ للمجتمعات[2].

فــي المطـلـع تــشــويــقٌ لما بعده، وتحقيقٌ لتناسق المفتتح بالختام

ومثلُ هذا الافتتاح الذي يُوقظُ النَّفسَ البشريَّةَ ويدلُّها على ما ينفعُها، ويحرِّك بواعثَ العمل فيها، ويجعلها تنصتُ وتستجيبُ لما يُلقى بعدها من أحكام وتشريعات تخصّها، وهذا من مقاصدِ

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 163.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 9/476، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/214.

الخِطابِ القرآنيّ في التَّشويق لما بعد هذا الافتتاح، وهو يحقِّقُ مع نهاية السُّورة تناسبًا يتمثَّل في حسن الابتداءِ والختام؛ إذ بُدِئتِ السُّورة "بذكر بدءِ الخلق والولادة وخُتمت بأحكام الوفاة، وفُتحت بآيات المواريثِ والكلالةِ وخُتمت بمثل ذلك"(1)، ليتناسق المُفتتحُ مع الختام في أبدع صورةٍ، وأجمل بيانٍ.

بلاغة المتشابه اللفظي:

الخطاب بـ (يا أيها) ترقٍّ بحسب منزلة المنادى:

جملة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب عام ولذلك ذكر معه لفظ (الربِّ)، و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 104]، أخصّ منه، و﴿يَـٰعِبَادِيَ﴾ [العنكبوت: 56] أخصُّ منهما، وحيث يقصد خاصَّ الخاصِّ قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: 64]، و﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: 41] وإنْ كان الخطاب له، ولغيره نحو ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: 1](2).

نوع التّعريف في لفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

في الاستغراق تنبيهٌ وتوجيه إلى الاهتمام بالمحكيِّ فيما بعدُ

الألفُ واللّام في ﴿ٱلنَّاسُ﴾ يُفِيدُ الِاستِغرَاقَ، وهو يشملُ المخاطَبين كلّهم مؤمنهم وكافرهم، لتحريكهم وتنبيههم تنبيهاً يُشعر بالاهتمام بالكلام بعده(3)، وهو يناسب عموم الخطاب في جملة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

التَّشابهُ اللّفظي في المُفتتح بين سورتي: النِّسَاء والحجِّ:

سورة النِّسَاء تُبيّن بداية الخلق، وسورة الحجّ تُبيّن نهايتَه

تشابهت سورة النِّسَاء مع سورة الحجّ في مطلعها بنداء النَّاس وأمرهم بالتَّقوى بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾.

إذ افتتحت سورةُ النِّسَاء بهذا النِّداء مع بيان بدء الخلق والحياة للإنسان، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ

(1) السيوطي، مراصد المطالع، ص: 48.
(2) السيوطي، مراصد المطالع، ص: 48.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 9/476، وابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/214.

مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النِّسَاء: 1].

أما سورة الحجّ فقد افتتحت بهذا النِّداء أيضًا مع ذكر نهايةِ هذه الحياة الدّنيا وبداية الحياة الأخرى بعدها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحج: 1]، وهذا من وجوهِ إعجاز القرآن الكريم فسورة النِّسَاء تتحدَّث عن النشأة الأولى للخلق في الدُّنيا، وسورة الحجِّ تتحدَّث عن نهاية هذه الحياة وبداية النشأة الثّانية في الآخرة، وبما أنَّ سورة الحجِّ نزلت قبل سورة النِّسَاء، فهي عندما أسَّست لِبناء الإيمان الرَّاسخ في القلب بتذكُّر الآخرة، عادت في النِّسَاء لتتحدَّث عن البدءِ؛ فإنَّ العبرةَ بالخواتيم.

وقد أشار الرَّازي إلى هذا التَّشابه مُبينًا سرَّه بقوله: "جَعَلَ تعالى هَذَا المَطلعَ مَطلعًا لِسُورَتَينِ في القُرآنِ: إِحداهُمَا: هَذِهِ السُّورَةُ - وهِيَ السُّورَةُ الرَّابِعَةُ مِنَ النِّصفِ الأَوَّلِ مِنَ القُرآنِ - ، والثَّانِيَةُ: سُورَةُ الحَجِّ - وَهِيَ أيضًا السُّورَةُ الرَّابِعَةُ مِنَ النِّصفِ الثَّاني مِنَ القُرآنِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى عَلَّلَ الأَمرَ بِالتَّقوَى في هَذِهِ السُّورَةِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى مَعرِفَةِ المُبتدأ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الخَلقَ مِنْ نَفسٍ وَاحِدَةٍ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ قُدرَةِ الخَالِقِ، وَكَمَالِ عِلمِهِ، وَكَمَالِ حِكْمَتِهِ وَجَلَالِهِ، وَعَلَّلَ الأَمرَ بِالتَّقوَى في سُورَةِ الحَجِّ بِمَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ مَعرِفَةِ المَعَادِ، وَهُوَ قَولُهُ: إِنَّ زَلزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ [الحج: 1] فَجَعَلَ صَدرَ هَاتَينِ السُّورَتَينِ دَلَالَةً عَلَى مَعرِفَةِ المُبتدأ وَمَعرِفَةِ المَعَادِ، ثُمَّ قَدَّمَ السُّورَةَ الدَّالَّةَ عَلَى المُبتدأ عَلَى السُّورَةِ الدَّالَّةِ عَلَى المَعَادِ، وَتَحتَ هَذَا البَحثِ أَسرَارٌ كَثِيرَةٌ"(1).

إيثارُ التَّعريف بالإضَافةِ والاسم الموصول:

التَّعريفُ بالإضافة في (ربكم) إشعارٌ بالفضل، وبيانٌ لعلّةِ الاتِّقاء

من دقائق التَّعبير القرآنيّ التَّعريف بالإضافة في ﴿رَبَّكُمُ﴾، والتَّعريفُ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم﴾ في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾، دون التَّعريفِ بالاسم الكريمِ العلمِ (اللّه)؛ لأنَّ في إسناد (ربّ) إلى ضمير المخاطَبين،

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 9/476.

والمجيء بالموصول وصلتِهِ إرشادًا للعباد لحقيقة لا يُنكرونَها، بأنَّه تعالى الربُّ والخالقُ، فضلاً عمّا فيهما من بيان لعلّة الاتِّقاءِ[1].

وفي هذا بيانٌ لاستحقاقِه - تعالى - للعبادة وحدَه دون غيره، وإشعارٌ بفضله ونعمته عليهم؛ فهو الّذي خلق النَّاسَ وهيَّأ لهم ما به قِوامُ حياتهم، فهو صاحبُ نعمةِ الخلق والإيجاد وغيرهما، وفيها أيضًا تعريضٌ بالمشركين إذ تقلَّبوا في نعم اللّه تعالى وعبدُوا غيرَه.

دلالة حرف الجرّ ﴿مِّن﴾ وتكراره:

وجه التّكرار بيانُ اتِّصَالِ النَّاسِ، وأنَّ أصـلَ الـنَّـاس واحـدٌ وإن تـبـاعـدَت أنسابُهم

جاء استعمالُ حرف الجرّ ﴿مِّن﴾ لابتداء الغاية في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ وتكرارُه بعدها في موضعين للمعنى نفسه: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾[2]، للدَّلالة على اتِّصَالِ النَّاسِ بَعضِهِم بِبَعضٍ، وبيان أنَّ أصلَهم واحدٌ وإنْ تباعدَت بهم الأنسابُ في هذا الزَّمان، فـ ﴿مِّن﴾ هنا لابتداء الغاية وهذا يدلُّ على المساواة في الأصل الإنسانيّ عند النَّاس كلِّهم؛ فالنَّاس كلُّهم من آدم - عليه السلام - وهذا ما أقرَّه تنكير لفظ ﴿نَّفۡسٖ﴾ ووصفها بـ ﴿وَٰحِدَةٖ﴾.

في تـكـرار (مـن) الابتدائيّة تقرير لـوحـدة الأصـل الإنسانيّ

وعطفَ على الخلق الأوّلِ خلقَ حواء: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ ليُقرِّر وحدة الأصل الإنسانيّ ثانية بـ (مِن) للابتداء؛ أي: أَخرَج خلق حَوَّاء من ضِلعِ آدَمَ - عليه السلام - وهي مساواةٌ أخرى للنَّاس، لتأتي (من) الثالثة في: ﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ لتذكِّرنا بهذا الأصل عن طريق الأرحام مرّة ثالثة، وهو استئنافٌ مَسوقٌ لتقرير وَحدةِ المبدأ وبيانِ كيفيةِ خلقِهم منه؛ لأَنَّ "في مَعَاني هَذِهِ الصِّلَاتِ زِيَادَةَ تَحقِيقِ اتِّصَالِ النَّاسِ بَعضِهِم بِبَعضٍ؛ إِذِ كلّهُم مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ، وَإِن كَانَ خَلقُهُمْ مَا حَصَلَ إِلّا مِنْ زَوجَينِ فَكُلُّ أَصلٍ مِنْ أُصُولِهِم يَنتَمِي إِلَى

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/391.

(2) السمين، الدرُّ المصون: 3/551.

أَصلٍ فَوقَهُ"[1]، وهذا التَّذكيرُ بالأصل الإنسانيّ، وتأكيدُه بالتَّكرار كافٍ لتراحم النَّاس وتآلفهم، والتّنبيه على وجوب مواصلة بعضهم بعضًا، لكونهم من ذات واحدة، فهم كبنيان يشدُّ بعضه بعضًا[2].

تقديمُ شبهِ الجملة ﴿مِنۡهَا﴾ ودلالتُه على مكانةِ المرأةِ ومنزلتِها:

التَّقديمُ للتَّشويق للمُتأخّر، وإظهارٌ لمكانة المرأة

من بلاغة الآية الكريمة تقديم متعلّقات الفعل شبه الجملة ﴿مِنۡهَا﴾ على المفعول به في قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾، والضمير في ﴿مِنۡهَا﴾ يعود على آدم - عليه السلام -، وفي تقديم هذا الضمير تشويقٌ لما بعده، وإبراز لقضية مهمّة وهي مكانةُ المرأة، ورعايةُ حقوقها؛ فقد أوردتها الآيةُ بعنوان الزَّوجيةِ الدَّاعي إلى الرِّفق والحبِّ والحنان، فهي خُلقت من ضلع آدم - عليه السلام - لتكون له سكناً، وراحةً، وبينهما أشدُّ اتصالٍ، وأقربُ علاقة[3].

إيجَازُ الحَذفِ على طريقةِ الاكتِفاء:

في الاستغناء بالمذكور تهذيبٌ للكلام، وصيانتُه من الثّقل

في النَّظم الكريم إيجازُ حذفٍ بالاكتِفَاء[4]؛ فقد ذكرَ الوصف ﴿كَثِيرٗا﴾ مع الرِّجال دليلاً على أنَّ المحذوفَ نفسَهُ مع النِّسَاء في قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ أي: وَنِسَاءً كثيراتٍ أو "كثيرة، فاكتَفَى بأحدهما عن الآخر"[5]، ويقرِّرُ هذا المعنى تنكيرُ ﴿رِجَالٗا﴾ ﴿وَنِسَآءٗۚ﴾ الدَّال على التَّكثير، ولا يخفَى ما لهذا الحذف من تهذيبٍ للعبارة، وصيانةِ الكلام من الثّقل والترهّل اللّذين يحدُثان من ذكر ما تدلُّ عليه القرينة[6]، فضلاً عن أنَّه ينبّه المتلقّي إلى البحث عن المحذوف، فيجعله يتجاوبُ مع ما يقرأ، فترسخُ المعلومةُ

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/216.

(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/1078.

(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/138، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: 163.

(4) الاكتفاء: هو أن يقتضي المقام ذِكرَ شيئَيْنِ بَيْنَهُمَا مناسبة، فيحذف أحدهما بدلالة الآخر لنكتةٍ، ينظر: محمد النواجي، الشفاء في بديع الاكتفاء، ص: 26.

(5) الكرماني، غرائب التَّفسير: 1/279.

(6) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 118.

في نفسه ويقلُّ نسيانُه، وهذا مطلبٌ من مطالب الحذف في القرآن الكريم، وهذه هي غاية البلاغةِ المُتمثِّلة في استثمار أقلِّ ما يمكنُ من الألفاظ في أكثر ما يُمكنُ من المعاني هذا من جهة اللّفظ.

سرُّ تخصيص الرِّجال بالكثرة دون النِّساء:

المشهور من حال الرّجال الظهور والخروج، والمشهور من حال النساء السّتر، والاختفاء

بيّن الرَّازي علَّة وصف الرِّجال بالكثرة دون النِّسَاء بقوله: "فَإِن قِيلَ: لِمَ لَمْ يَقُل: وَبَثَّ مِنهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً كَثِيرًا؟ وَلِمَ خَصَّصَ وَصفَ الكَثرَةِ بِالرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ؟ قُلنَا: السَّبَبُ فِيهِ - واللهُ أَعلَمُ - أَنَّ شُهرَةَ الرِّجَالِ أَتَمُّ، فَكَانَت كَثرَتُهُم أَظهَرَ، فَلَا جَرَمَ خُصُّوا بِوَصفِ الكَثرَةِ، وَهَذَا كَالتَّنبِيهِ عَلَى أَنَّ اللَّائِقَ بِحَالِ الرِّجَالِ الاشتِهَارُ وَالخُرُوجُ وَالبُرُوزُ، وَاللَّائِقُ بِحَالِ النِّسَاءِ الاختِفَاءُ وَالخُمُولُ"[1]، وللإشارة إلى أنَّ للرِّجال على النِّسَاء درجةً؛ فهم أقوى وأظهر في رأي العين لما لهم من الانتشار وللنِّساء من الاستِتار[2].

دلالةُ الطِّباق الضدّيّة على كمالِ قدرة الله تعالى:

تنوّعُ الخلق من نسل واحدٍ من براهين ربوبيّته تعالى

من بديع نسيج الآية الكريمة الطِّباق[3]؛ إذ جمع بين (الرِّجال) وما يقابلهم (النِّسَاء)، في قوله تعالى: ﴿رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾، ولا يخفى ما للطِّباق من بيانٍ لكمال قدرتِه سبحانه في الخلق، وبرهان من براهين ربوبيَّته، ودلالات حكمته؛ إذ "خلقَ جميعَ هذا الخلق من نسلِ شخصٍ واحدٍ، على اختلاف هيئتهم، وتفاوتِ صورهم، وتباين أخلاقهم، وأنَّ اثنين منهم لا يتشابهان، فلكلٍّ وجهٌ في الصُّورة والخلق، والهمّة والحالة، فسبحانَ من لا حدَّ لمقدوراته ولا غاية لمعلوماته"[4].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 9/479.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/175.
(3) الطِّباق: ويُسمى أيضاً التَّضاد والمطابقة، هو الجمع بين الشيء وضدّه، ينظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 2/41.
(4) القشيري، لطائف الإشارات: 1/312.

نكتةُ تكرارِ صيغةِ الأمر بالتقوى:

في تكـرار الأمر بالتّقوى تأكيدٌ لأمْرِ التّقوى في النّفوس وتقريرُها

في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ تكرارُ الأمر بالاتِّقاء؛ فقد أعاد الأمر بعد أنْ ذكره قبلها في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾، وفي هذا التَّكرار تأكيدٌ لأمر التَّقوى في النُّفوس وتقريرٌ لها، وتربية للمهابة في النفس، وتنبيهٌ للمخاطَبين بأهمّيتها، وبيانٌ لعظمها، فضلاً عن إفادته التَّذكير لبعض آخَرَ من موجبات الامتثالِ به؛ فإنَّ سؤالَ بعضِهم بعضاً باللّه تعالى بأنْ يقولوا: أسألُك باللّه، وأنشُدك اللّه على سبيل الاستعطافِ يقتضي الاتِّقاءَ من مخالفة أوامرِه ونواهيه(1).

افتراق الصّفات المتعلّقة بالتقوى سرُّ تكرارها:

أعاد الأمر بالتقوى؛ "لاقتران ذكرها بصفة تحثُّ سامعها على استعمال التقوى، كقولك: اتقِ اللّه الذي تخافه، واتقِ اللّه الذي بيده الخير، فهذه الصفات هي التي تُحَسِّنُ التكرير"(2).

بلاغةُ أسلوبِ التّرقي في إقرار الألوهيّة:

الاستدلالُ بالرّبوبية إلى استحقاقه للألوهية وانفراده بها

جاء الأمرُ بالاتِّقاء بذكر الاسم الكريم العَلَم ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ عقبَ وصفِه تعالى بالربّ قبلها في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾، على سبيل التَّرقي(3)، من الاستدلال بالرّبوبيَّة إلى استحقاقه للألوهيَّة وانفراده بها؛ لأنَّ تفرّده بالألوهيَّة بمنزلة النّتيجة لربوبيَّة الخلق، فلمّا كانت ربوبيتُه لهم لا ينازِعُ فيها المخاطَبُون من المشركين به أعقبت بما يقتضي استحقاقه للتَّقوى؛ لأنَّه الإلهَ الحقَّ بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ تعريضاً بهم في أثناء الكلام، فضلاً عن ذلك فقد "عبَّر أوّلًا بلفظ (الربّ) الّذي يدلّ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/138، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1577.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/1080.
(3) التّرَقّي: أنْ يُذكر الأدنى ثم الأعلى لنكتة، ينظر: السيوطي، الإتقان: 3/46.

على التّربية والإحسان، ثم بلفظ (اللّه) الّذي يدلُّ على الهيبةِ والقهر للتَّرغيب أولًا والتَّرهيب ثانيًا"[1].

صلة الرّبوبيّة توجب أن يشعر الجميع بأنه لَا فضل لجنس على جنس

وفي قوله ﷻ: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ إشعارٌ بأنّه " ربُّ الجميع، ربّ الأبيض والأسود والعربي والأعجمي، والعالم والجاهل، فَصِلَةُ الجميع به واحدة، وهي صلة الربوبية، وإن هذه الصلة توجب أن يشعر الجميع بأنه لَا فضل لجنس على جنس، ولا للون على لون إلا بمقدار الاتصال الروحي بخالق الخلق، وذلك بالتقوى، فهذه الصلة مقوية للأمر بالتقوى، وأنها مناط التفضيل، وهي سبيل قوة الصلة الرابطة"[2].

في التَّعبير بلفظ الربوبية في المفتتح تنبيهٌ على أفضاله، وفي التَّعبير بالاسم الأعظم تنبيهٌ على القدرة التّامّة

أمرَ اللّه تعالى بالتقوى في المطلع أمرًا عامًا؛ " ولهذا قال: ﴿رَبَّكُمُ﴾ تنبيهًا على أفضاله، وإحالتهم على ما لا يمكن لأحد إنكاره، ولما قصدَ الحثَّ على المحافظة على الرَّحِم قدّم ذكر المُوجِد باللفظ الذي فيه التنبيه على القدرة التامة"[3]، فـ" مقام التقوى في الثاني غير مقام التقوى في الأول، فمقام التقوى في الأول هو مقام التقوى التي تتجلى في شكر الرّب على ما أنعم، وبقيام الواجب نحو الخلق للصلة الجامعة الوثيقة، فهي تقوى الربوبية والإنعام، ومقام التقوى في الثاني تقوى الألوهية، ولذلك ذكر لفظ الجلالة الدّالة على كل معاني الألوهية، فهي تقوى العابد الخائف الراجي رحمته، والأولى تقوى الشاكر المحس بجلائل الإنعام"[4].

سرُّ التَّعبير بالفعل (تساءَل):

عبّر عن سؤال اللّه تعالى، ودعائه بصيغة (التفاعل) مضارعًا؛ "زيادةً في التَّرغيب في تقواه، وتنبيهًا على كون تعظيمه منغرسًا

(1) المراغي، تفسير المراغي: 4/177.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1574.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 3/1077.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1577.

ما تقرب عبدٌ إلى الله بالسؤال إلا تقرّب إليه تعالى أضعافًا

في قلوبنا، حتى إنا إليه نفزع إذا سألنا"[1]؛ ففي طول اللفظة، والتعبير عنها بصيغة المضارع مجموعةً؛ حثٌّ على دوام سؤاله، والتضّرع اليه، واللجوء اليه، والتوكل عليه؛ فبالإلحاح تُفتحُ أبواب الرّحمات، ويرسّخ ذلك دلالة الفعل على المطاوعة بما تحمله من دلالة التأثّر وقبول أثر الفعل استجابةً، ومبادلة قرب، وذلكم مدعاةٌ لتقواه، وخشيته.

قراءةُ الأرحام بالضّمّ والفتح:

اقترانُ تقوى الله تعالى بصلةِ الأرحامِ لبيان عظمِ الرَّحِمِ وأهميتِها

قرأ الجُمهورُ ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ بالنَّصب على أنْ تكون الأرحامُ معطوفةً في إعرابها بالنَّصب على الاسم الكريم اللّه - تعالى ذكره - ؛ أي: اتَّقوا اللّه، واتَّقوا الأرحامَ فصِلُوها، ولا تقطَعُوها، أو معطوفًا على محل الجارّ والمجرور كقولك: مررتُ بزيدٍ وعمرٍو، وقرأ حمزة منفردًا ﴿وَٱلۡأَرۡحَامِۚ﴾ بالجرّ، عطفًا على الضَّمير المُتَّصل الواقع في محلّ جرّ بالباء في قوله: ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: اتَّقوا اللّه الّذي تساءلُون به وتسألون بالأرحام[2]؛ لأنَّ العربَ جرت بهم العادةُ بأنَّ أحدَهم قد يستعطفُ غيرَه بالرَّحِم، فيقول: أسألك باللّهِ، والرَّحم، وربَّما أفرد ذلك فقال: أسألك بالرَّحم، وهو معنى لا يستقيمُ عقديًا لعدم جواز القسم أو السؤال بغير اللّه تعالى شرعًا، ولا يستقيمُ نحويًا عند البصريين؛ فهو ضعيفٌ عندهم - مع أنَّ الكوفيين أجازوه - ؛ لأنَّه كالعطف على بعض الكلمة؛ لأنَّ العطف على الضَّمير المخفوض من غير إعادة خافض، وإن كان لغةً فصيحةً فهو خلاف الكثير[3].

كما أشار إلى ذلك ابن مالك بقوله[4]:

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1078.

(2) الفراء، معاني القرآن: 1/282، وابن مجاهد، السبعة، ص: 226، وابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 2/592، والأزهري، معاني القراءات: 1/290، وابن الجزري، النشر: 2/247.

(3) ابن خالويه، الحجة، ص: 118، وابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 190.

(4) ابن مالك، متن ألفية ابن مالك، البيتان رقم (559) و(560)، ص: 36.

وَعَودُ خَافِضٍ لَدَى عَطْفٍ علَى *** ضَمِيرِ خَفضٍ لاَزِمًا قَدْ جُعِلاَ

وَلَيسَ عِندِي لاَزِمًا إِذْ قَدْ أَتَى *** فِيْ النَّظْمِ وَالنثْرِ الصَّحِيحِ مُثبَتًا

وفي قراءة الجمهور بالنَّصب خروجٌ من الخلاف بين البصريين والكوفيين حول جواز إجراءِ الظَّاهر المجرور على المضمر المجرور[1]، وخروجٌ من إشكالية الحلف بغير اللّه تعالى[2].

ومع أنَّ قراءة الجمهور هي الأشهرُ والأصحُّ، نجد أنَّ في كلا القراءتين تنبيهًا على قيمة الرَّحم وأهمّية صِلَتِها لتقوية بناءِ الأسرة، والمحبَّة والتَّواصل فيما بينهم سواء بقراءة الجمهور أم بقراءة حمزة، فكلُّ قراءةٍ أظهرت لنا معنًى خاصًّا وقيمة إضافية للرّحِم "فقراءة النَّصب تحثُّ على صلة الأرحام وتحذِّر من قطعها؛ إذ أكثرُ اللّغويين على أنَّ التَّقدير: واتَّقوا الأرحامَ، وليس معنى اتقائها إلّا صلتها وعدم قطعها والإحسان إليها، وأمّا قراءة الجرّ ففيها رفعٌ من شأن الرَّحم وتذكيرٌ لهم بصنيعتهم؛ إذ كانوا في عظائم أمورهم يتساءلُون بالأرحام"[3]، فالقراءتان في كلمة ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ مع اختلافهما جاءتا للدَّلالة على هذه المعاني كلِّها مجتمعة.

دلالةُ الإظهارِ في موضع الإضمَار:

تـربيـةُ المهـابـةِ وإدخالِ الرّوعة فِي ضَـمَـائِـرِ المُخاطَبين

من بلاغة الآية الكريمة الإظهارُ في موضع الإضمَار[4]، وهو من أنواع الإطناب؛ إذ أظهر الاسم الكريم العَلَم ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ دون ضَمِيرٍ يَعُودُ إِلَى ﴿رَبَّكُمُ﴾ المذكور قبلها، فيقول: (واتقوا الّذي...، إنّه كان عليكم رقيبًا)؛ لأنَّ في استحضار الاسم الكريم على طريقة الإظهار تأكيدًا ومبالغةً في الحمل على الامتثال بتربية المهابةِ وإدخالِ الروعة فِي ضَمَائِرِ المُخاطَبين؛

(1) الأخفش، معاني القرآن، ص: 151.
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/6.
(3) فضل عباس، القراءات القرآنية وما يتعلق بها، ص: 312.
(4) الإظهار في موضع الإضمار: التصريح باللفظ وإبرازه في الموضع الذي يُغني عنه الضمير لنكتة يقتضيها المقام، ينظر: قواعد التَّفسير، خالد عثمان السبت: 1/338 - 339.

لوقوع التساؤل به لا بغيره من أسمائه تعالى وصفاته[1]، و"لأَنَّ المَقَامَ مَقامُ تَشرِيعٍ يُنَاسِبُهُ إيثَارُ المَهَابَةِ بِخِلَافِ مَقَامِ قَولِهِ: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ فَهُو مَقَامُ ترغيب"[2].

فاصِلةُ الآيَة الكريمَة بَينَ التَّذييلِ والاحتِرَاسِ:

في التذييل تأكيدٌ لما قبل الآية، وتقريرٌ لمضمونه

جاءت فاصلةُ الآية الكريمة بالأسلوب الخبري المؤكَّد في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾، وختم الآية بهذه الفاصلة فيه من المناسبة لموضوع الآية ما لا يخفى، فهي تذييلٌ[3] للآية، واحتراسٌ لها[4] في الوقتِ نفسِه، تذييل؛ لأنَّها تأكيدٌ لمضمون ما قبلها، فـ (رقيب) بمعنى حفيظٍ، وهو فعيلٌ بمعنى فاعل للمبالغة في الحفظ، فهو تعالى المطَّلع على ما يصدرُ عن العباد من الأفعالِ والأقوالِ كلِّها، وختمُ الآيةِ بتأكيد رقابته عليهم تعليلٌ للأمر بالتَّقوى ووجوبِ الامتثالِ به؛ لأنَّ فيها معنى رصدِ الألفاظ والحركات من العباد، وفي هذا التذييل تلويحٌ بالعقوبة لهم[5].

و"حثٌّ على المبالغة في التقوى ورعاية الرّحم، والصلات الإنسانية التي تربط بين الناس بعضهم للوحدة الإنسانية الشاملة، وكان الحثُّ على التَّقوى لإشعارهم جميعًا بقوة رقابة اللّٰه ﷻ"[6].

في الاحتراس دفعُ توهّم أنّ النّجاة من رقابة الله بكثرة العباد وانتشارهم

أما الاحتراسُ؛ فلأنَّ فيها دفعَ توهّم قد يحصلُ ممن يظنُّ أنَّ كثرةَ العباد وانتشارَهم في الأرض، يمكنُ أن تُنجيه من رقابة اللّٰه تعالى له الّتي تحصي كلَّ شيء، فجاء بالفاصلة المتضمّنة لرقابة اللّٰه تعالى بالأسلوب الخبري المؤكد للدلالةِ على أنّه - تعالى - لا تعجزُه

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/138.
(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/217.
(3) التّذييل: "تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد"، ينظر: القزويني، الإيضاح، ص: 179.
(4) الاحتراس: "أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه"، ينظر: القزويني، الإيضاح، ص: 180.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/5.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1578.

كثرةُ العباد؛ لأنّه تعالى الرَّقيب عليهم، ومن كانت هذه صفته؛ فإنّه يجب أن يُخاف منه ويُتّقى[1].

دلالة ﴿كَانَ﴾ في الفاصلة:

في استحضار ﴿كَانَ﴾ في الفاصلة نفيٌ لتَقييدِ الخَبَرِ بالمُخبَرِ عَنهُ في الزَّمَانِ المَاضِي

وممّا يُقرّر معنى التّذييل والاحتراس مجيء ﴿كَانَ﴾ في الفاصلة، للدلالةِ على الاستمرارية؛ لأنّه "لَا يُرَادُ بـ ﴿كَانَ﴾ تَقييدُ الخَبَرِ بِالمُخبَرِ عَنهُ فِي الزَّمَانِ المَاضِي المُنقَطِعِ فِي حَقِّ اللّه تَعَالَى، وَإِن كَانَ مَوضُوعُ ﴿كَانَ﴾ ذَلِكَ، بَلِ المَعنَى عَلَى الدَّيمُومَةِ فَهُوَ تَعَالَى رَقِيبٌ فِي المَاضِي وَغَيرِهِ عَلَينَا"[2].

براعةُ توكيد الرَّقابة الإلهيّة:

في رقابته تحقيقٌ لفعل التقوى، وتأكيد لصلة الأرحام

ذكر العليُّ القديرُ رقابتَه في الفاصلة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ "مؤكَّدة بأوثق توكيد، فأكدها بـ ﴿إِنَّ﴾، وبتكرار لفظ الجلالة الذي يربّي في نفس المؤمن كلّ معاني العبودية، وبالتَّعبير بـ ﴿كَانَ﴾ الدّالّة على الدوام والاستمرار، وبذكر الفوقية في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ وهي دالة على معنى الاطلاع الدائم مع السيطرة والقهر، وأخيرا بصفة المبالغة؛ إذ قال: ﴿رَقِيبٗا﴾ وإن اللّه يؤكد صلة الأرحام بهذا وباقترانها به في الذكر وباقترانها به عند السؤال باسم اللّه تعالى"[3].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّقيب والحفيظ:

الرَّقيبُ: "الحَافِظ الَّذِي لَا يغيب عَمَّا يحفظُه"[4]، والرَّقيب في نعوت الإنس الموكَّل بحفظ الشَّيء المُترصِّد له، المُتحرِّز عن الغفلة،

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/482.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/500.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1578.
(4) الزَّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 51.

أمَّا الرَّقيبُ في صفات اللّه تعالى فيتضمَّن التَّفتيش[1]، والرَّقيبُ يرجعُ في معناه إلى صفةِ العلم، فالرَّقيبُ يجمعُ العليمَ والحفيظَ؛ فهو الّذي يرقبُ كلَّ شيء ويحفظُه، ويعلمُ كلَّ شيء ويخبُرُه، قال الإمام الغزالي: "الرَّقيبُ: هُوَ العَلِيم الحفيظُ، فَمن رَاعى الشَّيء حَتَّى لم يغْفل عَنهُ، ولاحظه مُلَاحظَة دائمة لَازِمَة لُزُومًا لَو عرفه المَمْنُوع عَنهُ، لما أقدم عَلَيْهِ سُمّي رقيبًا، فَكَأَنَّهُ يرجعُ إِلَى العلم وَالحِفظ، ولَكِن بِاعتِبَار كَونه لَازِمًا دَائِمًا بِالإِضَافَة إِلَى مَمنُوع عَنهُ محروس عَن المتناول"[2]؛ فالرَّقيب في أسمائه تعالى يجمعُ من الأسماء الحُسنى العليمَ والحفيظَ والشّهيدَ[3]، أمّا الحفيظُ في أسماء اللّه تعالى فهو الّذي لا يعزب عن حفظه الأشياء كلّها مثقال ذرّة في السَّموات والأرض، وقد حفظ السَّموات والأرض بقدرته[4]، واسم الحفيظ يتضمَّن معنى العليم والشّهيد، وتأويل ذلك أنَّ الحافظ للشَّيء علم به في أكثر الأحوال؛ إذ مَن خفيت عليه أحواله لا يتأتّى له حفظه، ويفترق من الرَّقيب في أنَّه لا يتضمَّن مراقبة الأمور والتَّفتيش عنها[5]، والحفيظ في صفات المخلوقين هو الموكَّل بحفظ الشَّيء، يُقال: فلان حفيظنا عليكم وحافظنا؛ لذا قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يوسف: 55][6]، من هنا تظهر دقَّة التَّعبير القرآنيّ بالرَّقيب دون الحفيظ في سورة النِّسَاء، لما في الرَّقيب من دلالة الشُّمول على المراقبة والتَّفتيش والعلم مع الحفظ، قال أبو هلال العسكريّ: "الْفرق بَين الحفيظ والرَّقيب، أَنَّ الرَّقيب هُوَ الَّذِي يرقبك لِئَلَّا يخفى عَلَيْهِ فعلك، وَأَنت تَقول لصاحبك إِذا فتّش عَن أمورك: أرقيب عَليّ أَنْت؟ وَتقول راقب اللّه، أَي اعْلَم أَنَّه يراك فَلَا يخفى عَلَيْهِ فعلك، والحفيظ لَا يتَضَمَّن معنى التَّفتيش عَن الْأُمُور والبحث عَنْهَا"[7].

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/367.

(2) أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى، ص: 117 - 118.

(3) ابن عيسى، توضيح المقاصد: 2/228، والدوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 134.

(4) ابن منظور، لسان العرب: (حفظ).

(5) العسكري، الفروق اللغوية: 169 - 170، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/451.

(6) ابن منظور، لسان العرب: (حفظ).

(7) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 206.

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ
أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا
تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ
وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ
ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ
لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ
ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا
وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا
بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا
تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ
وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ
فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾ [النِّسَاء: 2 - 6]

مُناسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَها:

أداء حُـقـوق الضُّعفاء بأمانة ووفـــاء، من مـوارد التَّقوى الـواقـيّـة من الجفاء:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى التّقوى ومُوجِباتها، ومنها صلةُ الأرحام، وحرّم قطعَها في الآية الأولى من سورة النّساء، شرعَ بعدها في بيان موارد التَّقوى، ومنها الحفاظُ على حقوق الضُّعفاء، ورعاية المُستضعفين وأداءِ حقوقهم، كتطبيقٍ عمليٍّ للتَّقوى واختبارٍ لها، فابتدأ باليتامى؛ لانقطاع صلتِهم بأقرب الأرحام إليهم، وهم والديهم، "لإظهار كمال العناية بشأنهم ولملابستِهم بالأرحام؛ إذ الخطابُ للأوصياء والأولياء"[1]، ثمّ ثنّى بذكر النِّسَاء وحماية حُقوقِهنَّ، واليَتِيم والمَرأة مُسْتَضعَفَانِ في المجتمع، وبخاصّة في عصر الجَاهِلِيَّةِ، فلذلِك عمل

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/396.

القُرآن على حراسة حقوق اليتيم والمرأة أَشَدَّ الحِرَاسَة، وأورد حُكم النِّكَاحِ بين الوِصيّتين، ليكون مناسبا للتَّهْيِيءِ لِعَطفِ هذا الكلام، بعضه على بعض، ومن أوجه التّناسب في ذلك أيضًا، أَنَّهُ جعل حفاظ الأوصياء على حُقوق الأَرحام من تَقوَى اللّٰه في التّواصي بالأرحام؛ لأَنَّ المُتَصَرِّفِينَ في أَمْوَالِ اليَتَامَى والنِّسَاء في غالِبِ الأَحوَال هم قرَابتُهم، أَو يَجعَلُونَ للأَرحام من الحَظِّ ما جَعَلَهُم يُقسِمُونَ بها، كما يُقسِمون باللّٰه، وَشَيءٌ هذا شَأْنُه، حَقِيقٌ بِأَن تُرَاعَى أَوَاصِرُهُ وَوَشَائِجُه[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَءَاتُواْ﴾: أعطُوا، وهو فعلُ أمر للجماعة من آتَى يُؤتِي إيتَاءً، وآتاهُ إيتاءً أي أَعطاه، والإيتاءُ: الإعْطاء، وآتى إليه الشّيءَ: ساقَه، والأَتِيُّ: النَّهَرُ يَسوقه الرَّجُلُ إلى أَرْضه، وكلُّ مَسيل سَهَّلته لماءٍ أَتِيٌّ، وَهُوَ الأُتِيُّ؛ وآتَاهُ عَلَى الأَمرِ: طاوَعَه، والمُؤَاتَاةُ: حُسنُ المُطاوَعةِ والمُوافقةِ، وآتَيْتُه عَلَى ذَلِكَ الأَمْرِ مُؤَاتَاةً إذا وافَقْتَه وطاوَعته[2]، فـ (آتى) بالمدِّ فعل يُستعمل للإعطاء بسلاسةٍ ومطاوعةٍ، مع الرِّضا والقبول والرِّفق بالعطاء، ولهذا خُصَّ دفع الصَّدقة وغيرها، من حقوق الأموال في القرآن بـ (الإيتاء) دون (الإعطاء) أو غيره[3]، والإيتاءُ حقيقتُه الدَّفعُ والإعطاءُ الحِسّيُّ، يُرادُ به في هذه الآية لازم الإيتاء، وهو فرز أموالهم عن أموال الوليِّ والوصيِّ، وتعيينها وحفظها، وكفُّ الأيدي الظّالمة عنها وتهيئتها بالعفَّة وحسن التَّصرف فيها وتسليمها لهم حال البلوغ والرّشد.

2) ﴿ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ﴾: جمعُ يتيم ويتيمة، من مات أبوه دون سنِّ البلوغ، وأصل اليُتم في اللُّغة: الانفراد والغفلة والإبطاء، فاليَتِيم: الفَرْدُ؛ لأَنَّ اليتيم ينفرد بعد موت والده، ويتغافل النَّاس عن الإحسان إليه، ويبطئون عن برِّه، وهو من يَتِمَ الصّبيُّ بالكسر يَيْتَمُ يُتْماً ويَتْماً، أي: مات أبوه، فهو يَتِيمٌ حتّى يبلغَ الحُلُم، فإنْ ماتت أمُّه فهو العَجِيّ، وإنْ فقد أبويه، فهو اللَّطيم؛ ولم يعتدّ العرب ولا الشَّرع بفقد الأمّ في إطلاق وصف اليتيم إذ لا يعدم الصبيُّ كافله، ولكنَّه يعدم بفقد أبيه من يدافعُ عنه ويحمي ظهره، ويُنفق عليه ويقومُ بتأديبه

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 9/382، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/218 و229.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (أتى).

(3) مثل قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: 177].

وتعليمه، ويجمعُ اليتيم على (اليتامى)، و(الأيتام)، و(اليَتَمَة)[1]، ومنه دُرَّةٌ يَتيمَةٌ؛ أي: لا نظيرَ لها لانفرادها عن غيرها بحُسنها، وبَيْتٌ يَتِيمٌ تشبيهًا بالدّرّة اليَتِيمَةِ[2]، واليتيمُ اصطلاحًا: الصَّغير الّذي فقد أباه وهو دون سنِّ البلوغ حقيقةً، وهذا الاسمُ يزولُ عن اليتيم بمجردِ البلوغ، ولا يطلقُ عليه بعد البلوغ إلا باعتبار ما كان، على سبيل المجاز[3].

3) ﴿أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾: أي أموال اليتامى، والأموالُ جمعُ مالٍ وهو ما يُملك من نقدٍ وذهبٍ ومواشٍ، وغيرها من العروض المُعدّة للتّجارة[4]، قَالَ ابنُ الأَثير: "المَالُ في الأَصل مَا يُملك مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّة، ثُمَّ أُطلِق عَلَى كُلِّ مَا يُقْتَنَى ويملَك مِنَ الأَعيان، وأَكثر مَا يُطلق المَالُ عِندَ العَرَبِ عَلَى الإبل؛ لأَنَّهَا كَانَت أَكْثَرَ أَموَالِهِمْ"[5]، يُقال: مالَ الرَّجُلُ يَمُولُ ويَمَالُ مَوْلًا ومُؤولًا، إذا صَارَ ذَا مالٍ، وتصغيره مُوَيْل، ومِلْتَ بَعْدَنا تَمالُ، ومُلْت وتَمَوَّلْت، كُلُّه: كثُر مالُك، وَهُوَ رجلٌ مالٌ، وتَمَوَّلَ مِثْلُهُ ومَوَّلَه غَيْرُهُ، وفي الحَديث: «خُذْهُ، فَتَمَوَّلْهُ، وَتَصَدَّقْ بِهِ»[6]، وتَمَوَّلَه أَي اجْعَلْهُ لَكَ مَالًا، والمال يُذكّر ويؤنَّث، يُقال: هو المالُ وهي المالُ[7].

4) ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾: الرَّديءُ والخسيسُ والفاسدُ، وهو ضِدُّ الطَّيِّبِ مِنَ الرِّزْقِ والولدِ والنّاسِ، يُقال: خَبُثَ الرّجلُ خُبْثاً، وَأَخْبَث، فَهُوَ خَبيثٌ أي خبٌّ رَدِيءٌ، وخَبُثَ الشّيءُ يَخْبُثُ خَباثَةً وخُبْثاً، فَهُوَ خَبيثٌ: رديءٌ وخسيسٌ، وهو الحرام، والجمعُ: خُبَثاء، وخِبَاثٌ، وخَبَثَة، وأصله الرّديء، الجاري مجرى خبثِ الحَديدِ، ما نَفاه الكِيرُ إذا أُذيب، وهو ما لا خيرَ فيه[8]، والأخبثان: البولُ والغائطُ، كما جاء في حديث رَسُول اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلَا وهُوَ يُدَافِعُهُ الْأَخْبَثَانِ»[9]. فالخبيثُ: "نعتُ كلِّ شيءٍ فاسدٍ، خَبيثِ الطَّعم، وخبيثِ اللَّون"[10]، وهو ما يُكره رداءةً وخساسةً، محسوسًا كان أو معقولًا.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (يَتَمَ).
(2) الراغب، المفردات، ص: 889.
(3) الجصّاص، أحكام القرآن: 2/339.
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: 4/126.
(5) ابن الأثير، النّهاية: 4/373.
(6) البخاريّ، الحديث رقم: (7163).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (مول).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (خبث).
(9) مسلم، الحديث رقم: (560).
(10) الخليل، العين: (خبث).

وبذلك يتناولُ الباطلَ في الاعتقاد، والقبيحَ في الفِعال[1]. ومن هذا يُطلق الخبيثُ على ما استقبحه الشَّرعُ، كالحرام من المالِ، والقبيحِ من الأفعال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾ [النِّساء: 2]؛ أي: الحرام بالحلال، وكانوا يأخذون الأجودَ من مالِ اليتيم، ويجعلون مكانَه الأردأ كتبديل السّمين بالهزيل[2].

5) ﴿بِٱلطَّيِّبِۖ﴾: خلافُ الخَبيث[3]، مِن طَابَ الشّيءُ يَطِيبُ طَيْباً، فهو طَيِّبٌ، وأصل الطَّيِّبِ: ما تستلذّه الحواسُّ، وما تستلذّه النَّفسُ، قال علقمة الفَحْل الشّاعر:

يَحْمِلْنَ أُتْرُجَّةً نَضخَ العَبِيرُ بِهَا *** كَأَنَّ تِطْيَابَهَا فِي الْأَنْفِ مَشْمُومُ[4]

والطّعامُ الطَّيِّبُ في الشّرع: ما كان متناولًا من حيثُ ما يجوز، ومن المكان الّذي يجوز؛ فإنّه متى كان كذلك كان طَيِّباً عاجلًا وآجلًا لا يستوخمُ، وإلّا فإنّه - وإن كان طَيِّباً عاجلًا - لم يَطِبْ آجلًا[5].

6) ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ﴾: نهيٌ عن الأكل، و﴿تَأۡكُلُوٓاْ﴾ مضارعٌ من أَكَلَ الطَّعَامَ يأْكُلُه أَكْلًا، فَهُوَ آكِل والجمع أَكَلَة، تَنَاوَلَهُ بَعْدَ مَضْغِهِ والأُكُل: اسمُ المأكول، والأُكُل: الثَمَر[6]، واسْتَأكلهُ الشَّيْءَ: أَي طَلَبَ إِلَيهِ أَن يَجعَلَه لَهُ أُكْلَةً[7]، هذا المعنى الحسيُّ للأكل، ثُمَّ تطوَّر دلاليًّا، فقيل أكلَ ضربًا: ضُرب، ويأْكُل الصَّدَأُ الحَدِيدَ: يَقْرِضُهُ، ويَأْكُلُ أَمْوَالَ النَّاسِ كَذِباً وَبُهتَاناً: يَأْتِي عَلَيهَا، ويَأْخُذُهَا وَيَصرِفُهَا، أَكل مالَ أخيه: استباحَه، واغتصبَه، وأخذه لنفسه دون وجهِ حقّ، وأَكَلَتِ النَّارُ الحَطَبَ: أَي أَتَتْ عَلَيهِ وَأَفْنَتهُ، ودَمَّرَتْهُ[8]. فالأصلُ الواحدُ في هذه المادَّة: هو التَّناولُ الملازمُ إزالة الصُّورة والتَّشخُّص من الطَّرف المأكول، ففي أكل الطَّعام: يتناولُ الآكل من الطَّعام بحيث يزيلُ صورتَه، وفي أكل الأموال بالباطل، تناولُها والتّصرُّفُ فيها، حتّى تزولَ صورةُ المملوكيّة لصاحبِها[9]، والمرادُ من الأكل في ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾، معناه

(1) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 270 - 271.
(2) الراغب، المفردات: (طَيَبَ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (طَيَبَ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (طَيَبَ).
(5) الراغب، المفردات: (طَيَبَ).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (أكل).
(7) الزَّبيدي، تاج العروس: (أكل).
(8) د، أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (أكل).
(9) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن الكريم: 1/91.

المجازيُّ وهو مطلقُ الانتفاع، وغالبًا ما يكونُ بخلط مال اليتيم بمال الوصيِّ، وعدم التَّمييز بينهما، أو التَّحرّج من استهلاكهما معا، فقوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ﴾، بمعنى: لا تأخذواْ، فعبَّر بالأكل؛ لأنَّه مسبَّبٌ عن الأخذ مجازاً[1].

7) ﴿حُوبًا﴾: الحُوبُ: الإِثمُ، من حَابَ حُوباً وحَوْباً وحِيَابَةً، والأصل فيه حوب لزجر الإبل، وَفُلَانٌ يَتَحَوَّبُ مِنْ كَذَا؛ أَي يَتَأَثَّمُ، وحابَ فلانٌ: ارتكبَ إثمًا، وسُمّي الإثم حوباً لكونه مزجوراً عنه[2]، ومنه الحَوْبَةُ: كُلُّ حُرمَةٍ تَضِيعُ إِنْ تَرَكَهَا مِنْ أُمٍّ أَوْ أُخْتٍ أو ابنَةٍ أَوْ غَيرِها، والحَوْبَةُ أيضاً: الرَّجُلُ الضِّعِيفُ، وَالمَرْأَةُ الضَعِيفَةُ، وهي أيضًا المسكنةُ والحاجةُ والفقرُ[3]، فالحَاءُ وَالوَاوُ وَالبَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَتَشَعَّبُ إِلَى إِثم، أو حَاجَةٍ أَوْ مَسْكَنَةٍ، وَكُلُّهَا مُتَقَارِبَةٌ[4]؛ لدلالتها على العجز أو الثّقل من ضعف، من هنا يتبيَّن لنا أنَّ المعنى الحسّيّ للفظة الحوب، هو زجر الإبل، ثُمَّ أطلق على من يُرتكب الإثمَ؛ لأنَّ الّذي يرتكب الإثم يُزجر كذلك، ووُصِفَ الحوبُ في الآية بالكبير؛ لأنَّه اعتداءٌ على ضعيف، والاعتداءُ على الضَّعيف أكبرُ الإثم؛ ولأنَّه خيانةٌ للأمانة، ولأنَّه تضييعٌ لنفس بشريّة، وهي نفس اليتيم؛ لأنَّه إذا كان يُؤكل مالُه فممَّ يأكلُ؛ ولأنَّ ذلك يُنشئ اليتيمَ على النّفرة من المجتمع وسخطه على أفراده[5].

8) ﴿خِفۡتُمۡ﴾: الخَوفُ: ضدّ الأمن، وتدور مادّتُه حول الذُّعْرِ وَالفَزَعِ، يُقَالُ: خافَ يَخافُ الشَّيْءَ خَوْفًا وَخِيفَةً، أصلُها خِوْفَةٌ، أُبدلت اليَاءُ وَاوًا لِمَكَانِ الكَسرَةِ[6]، وخاف الشَّخصُ: شعرَ بنوعٍ من الاضطراب بسببِ اقتراب مكروه أو توقّعه، تهيَّب، ارتعبَ، فَزِع وقفَ خائفًا أمام تهديداته[7]، والمعنى المحوريُّ للخوف: فراغٌ كبير في جَوف الشّيء لذَهابِ ما كان يشغلُه أو انتقاصه، وهو يتخوّفُ المالَ: يتنقَّصه ويأخذ من أطرافه، ومن الأصل: الخَوف:

(1) صافي، الجدول: 4/308.
(2) الراغب، المفردات، ص: 261.
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حَوَبَ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَوَبَ).
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1580.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خَوَفَ).
(7) العسكريّ، الفروق اللغوية: 217.

الفزَع، فكأنّ الّذي يخاف منخوبُ الفؤاد[1]، والخَوْف اصطلاحًا: "توقّعُ حلولِ مكروه، أو فواتِ محبوب"[2]، ويستعملُ ذلك في الأمور الدّنيوية والأخروية.

9) ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا۟﴾: القَافُ وَالسِّينُ وَالطَّاءُ، أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَعنَيَينِ مُتَضَادَّينِ والبِنَاءُ وَاحِدٌ، فَالقِسْطُ: العَدْلُ، وَالقَسْطُ - بِفَتْحِ القَافِ - : الجَوْرُ لأخذه حقَّ غيره[3]، ويُقَالُ: أَقْسَطَ يُقْسِطُ، فَهُوَ مُقْسِطٌ إذا عدَل، وقَسَطَ يَقْسِطُ، فَهُوَ قاسِطٌ إذا جارَ، فكأن الهَمْزَةَ في أَقْسَطَ للسَّلْب، كَمَا يُقَالُ شَكا إليه فأَشْكاه، والقِسْطُ: الكُوزُ عِنْدَ أَهل الأَمصار، والقِسْطُ: مِكْيالٌ[4]. والقِسْطُ: الحصّةُ والنّصيبُ بالعدل كالنّصف والنّصفة، قال تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ [يونس: 4]، والقَسْطُ: هو أن يأخذَ قسطَ غيره، وذلك جورٌ، والإِقْسَاطُ: أن يعطي قسطَ غيره، وذلك إنصافٌ، ولذلك قيل: قَسَطَ الرّجل: إذا جارَ، وأَقْسَطَ: إذا عدلَ، وتَقَسَّطْنَا بيننا، أي: اقتسمنا، والقَسْطُ: اعوجاجٌ في الرّجلين بخلاف الفَحَجِ،، وَالقِسطَاسُ: الميزانُ[5]. وممّا سبق يتبيّنُ أنَّ الأصلَ الواحدَ في المادّة: هو إيصالُ شيءٍ إلى مورده، وإيفاءُ الحقّ إلى محلّه، وهذا المعنى إنّما يتحقّقُ في مقام إجراءِ العدل وإعماله في الخارج.

10) ﴿فَٱنكِحُوا۟﴾: من النِّكاح: وهو الوطءُ، وقد يكون العقدَ، تقول: نَكَحتُها، ونَكَحَتْ هي، أي تزوَّجت، وهي ناكِحٌ في بني فلان، أي هي ذات زوج منهم، واسْتَنْكَحَها بمعنى نَكَحَها، وأَنْكَحَها، أي زوَّجها[6]، والنّكاحُ في الأصلِ عند العرب: لزومُ الشّيءِ والإكبابُ عليه، وقيل: أصلُه المداخَلَةُ ومنه: تناكَحَت الشّجرُ: أي تداخلت أغصانُها، فَيَكُونُ النِّكَاحُ مَجَازًا في العَقْدِ وَالوَطْءِ جَميعًا، لأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ غَيرِهِ فَلَا يَستَقِيمُ القَولُ بِأَنَّهُ حَقِيقَةٌ، لَا فِيهِمَا وَلَا في أَحَدِهِمَا، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّهُ لَا يُفهَمُ العَقدُ إِلَّا بِقَرِينَةٍ نَحْوُ: نَكَحَ فِي بَنِي فُلَانٍ، وَلَا يُفْهَمُ الوَطْءُ إِلَّا بِقَرِينَةٍ، نَحْوُ: نَكَحَ زَوْجَتَهُ؛ وَذَلِكَ مِنْ عَلَامَاتِ المَجَازِ، وَإِنْ قِيلَ غَيرُ مَأْخُوذٍ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: 1/584 - 585.
(2) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 101.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قَسَطَ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (قسط).
(5) الراغب، المفردات، ص: 670.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نَكَحَ).

مِنْ شَيءٍ، فَيَتَرَجَّحُ الاشْتِرَاكُ؛ لأَنَّهُ لا يُفْهَمُ وَاحِدٌ مِنْ قِسْمَيهِ إلّا بِقَرِينَةٍ[1]. ويُطْلَقُ النّكاحُ على العَقْد، ثم استُعِيرَ للجماع، ومُحالٌ أن يكونَ في الأصلِ للجِماع، ثمّ استعير للعَقْد؛ لأَنَّ أسماءَ الجِمَاعِ كلَّهَا كِنَايَاتٌ لاسْتِقبَاحِهِمْ ذِكرَهُ كاسْتِقبَاحِ تَعَاطِيه، ومحالٌ أن يَسْتَعِيرَ مَن لا يَقْصِدُ فحْشاً اسمَ ما يَسْتَفْظِعُونَهُ لما يَسْتَحْسِنُونَهُ[2]، وقد فَرَّقَتِ العربُ بين العَقْد والوطء بفرق لطيفٍ، فإذا قالوا: نكح فلانٌ فلانةً أو ابنةَ فلان أرادوا عقدَ عليها، وإذا قالوا: نَكَحَ امرأتَه أو زوجته فلا يريدُون غير المجامعَةِ[3]، واستعمل (نكَحَ)؛ لأنّه أخفُّ من (تزوّج) في اللّفظ؛ فَكلُّ مَا كَانَ أخفَّ كَانَ ذكرُه أَكثر، يُقال: نكحتها، إذا وطئتها أو تزوجتها[4].

11) ﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾: صيغةٌ من مَفْعَل وفُعَال، أعدادٌ معدولةٌ عن أعداد مكرَّرة، منعت الصَّرف، معدولة عن اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، تدلُّ كلُّها على معنى تكرير اسم، لقصد التَّوزيع بين المُخاطَبين، ولمَّا كان الخطابُ للجَّماعة ﴿فَٱنكِحُواْ﴾، جاء بالعدد المعدول مثنى وثلاث ورباع، ليُصيب كلّ ناكح يُريد الجَّمع ما أراد من العدد الّذى أُطلق له، كما تقول للجماعة: اقتسمُوا هذا المالَ وهو ألف درهم: درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، ولو أفردت لم يكن له معنى، أي: لو قلت للجَّمع اقتسمُوا المالَ الكثير درهمين لم يتَّضح الكلام، فإذا قلت: درهمين درهمين، كان المعنى أنَّ كلَّ واحدٍ يأخذُ درهمين فقطْ، لا أربعة دراهم[5]، فالتَّوْزِيعُ هنا باعتبار اختلاف المُخَاطَبِينَ في السَّعَةِ والطَّول، فمنهم فَرِيقٌ يستطيعون أن يتزوّجُواْ اثنتين، فهؤلاء تكون أزواجُهم اثنتين اثنتين، ومنهم يستطيعون أن يتزوَّجواْ ثلاثة وهلمّ جرّا، وقد دلَّ على ذلك قولُه بعد: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ [فاطر: 1]، يعني قسم له جناحان، ولقسم ثَلَاثَةٌ، ولقسم أَرْبَعَةٌ، لا يعني أنّ كلّهم يشتركون في جناحين أو ثلاثة أو أربعة[6]، ولهذا آثر التَّعبيرُ العطفَ بـ (الواو) بين مثنى وثلاث ورباع، دون (أو)؛ لأنَّ الواو يرادُ به التّقسيم، أو الجمع على سبيل البدل، وليس لمطلق الجمع، لأنَّه لوكان

(1) الفيّومي، المصباح المنير: (نَكَحَ).
(2) الأصفهانّي، المفردات، ص: 823.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 2/414.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نَكَحَ).
(5) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/467 - 468.
(6) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/225.

لمطلق الجمع، لقال: (فانكحوا تسعا)، والمرادُ أن ينكح المرءُ إمّا مثنى لمن أراد ثنتين، أو ثُلاث لمن أراد ثلاثًا، أو رُباع لمن أراد أربعًا، ولا يجوز لهم الزّيادة عليها[1].

12) ﴿أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾: "أقربُ إلى ألَّا تجورُواْ وتميلواْ"[2]، وتَعُولُواْ: مضارعٌ من الفعل عَوَلَ، والعَوْل: المَيْل في الحُكم إلى الجَوْر والشّطط، يُقال: عالَ في الحكم يَعُول عَوْلًا: جَارَ ومالَ عَنِ الْحَقِّ، والعَوْل: النُّقْصان، وَعَالَ المِيزانَ عَوْلًا، فَهُوَ عَائِل: مالَ[3]، والعَوْلُ: ما يهلك ويثقل من المصائب، يقال: ويله وعَوْلَهُ، وما عَالَكَ فهو عَائِلٌ لي، ومنه: العِيَالُ، الواحد عَيِّلٌ لما فيه من الثّقل، وعَالَهُ: تحمّل ثقل مؤنته، وأَعَالَ: إذا كثر عِيَالُهُ، والتَّعْوِيلُ: الاعتمادُ على الغير فيما يثقل[4]، والعولُ أيضًا: الزّيادةُ، ومنه: العَوْلُ في الفَرائض؛ لأنّها زيادةٌ في أنصباء المفروض لهم[5].

13) ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾: مُهُورُهُنَّ، جمع صَدُقَةٌ: وهي المهر[6]، والصَدُقَةُ: وزنه فَعُلة، والصّداقُ من الصّدْق: أَصلٌ يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وَغيرَهُ، مِنْ ذَلِكَ الصِّدقُ: خِلَافُ الكَذِبِ، سُمِّيَ لِقُوَّتِهِ في نَفْسِهِ، وَأَصلُه مِنْ قَولِهِمْ شَيْءٌ صَدْقٌ، أَيْ صُلْبٌ، وَالصِّدِّيقُ: المُلَازِمُ لِلصِّدقِ، وَالصَّدَاقُ: صَدَاقُ المَرْأَةِ، سُمِّيَ بِذَلِك لِقُوَّتِهِ وَأَنَّهُ حَقٌّ يَلْزَمُ، وَيُقَالُ: صَدَاقٌ وَصُدْقَةٌ وَصَدُقَةٌ[7]، وصَداقُ المرأة وصِداقُهَا وصُدْقَتُهَا: ما تُعطى من مهرها، سُمِّي بذلك لِقُوَّتِهِ وَأَنَّهُ حَقٌّ يَلْزَمُ[8].

14) ﴿نِحۡلَةٗ﴾: عطيّةٌ حسنةٌ عن طيب نفس[9]، و﴿نِحۡلَةٗ﴾: على وزن فِعلَة، مصدر نَحَلَ، النُّونُ وَالْحَاءُ وَاللَّامُ كَلِمَاتٌ ثَلَاثٌ: الْأُولَى تَدُلُّ عَلَى دِقَّةٍ وَهُزَالٍ، وَالْأُخْرَى عَلَى عَطَاءٍ، وَالثَّالِثَةُ عَلَى ادِّعَاءٍ، والمعنى الّذي استعمل في الآية الكريمة من هذه المعاني الثّلاثة، الثّاني وهو العطاء، وهو من نَحَلْتُهُ كذا، أَيْ أَعْطَيتُهُ، وَالاسْمُ النُّحْلُ، وسُمِّيَ الشَّيْءُ المُعْطى

(1) الحمداويّ، تفسير سورة النّساء، ص: 26.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 119.
(3) ابن فارس، مجمل اللّغة: (عول)، وابن منظور، لسان العرب: (عول).
(4) الراغب، المفردات، ص: 597.
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: 3/142.
(6) السّجستانّي، غريب القرآن، ص: 298.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صَدَقَ).
(8) الراغب، المفردات، ص: 481.
(9) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 120.

النُّحلَانَ، وَيَقُولُونَ: النُّحْلُ: أَنْ تُعطِيَ شَيْئًا بِلَا اسْتِعْوَاضٍ، وَنَحَلْتُ المَرْأَةَ مَهْرَهَا نِحْلَةً؛ أَي عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْ غيرِ مُطَالَبَةٍ[1]، وسُمِّيت الصَّدُقات ﴿نِحْلَةً﴾، إبعادًا للصَّدُقات عن أنواع الأعواض، وتقريبًا بها إلى الهديّة عن طيبِ نفسٍ[2]؛ فالنِّحْلَةَ الإعطاءُ عن طيب نفس بلا اسْتِعاضةٍ، بخلاف الصّداق، وهو واجب، وقد راعى الخطابُ في الآية مصدرَ الأمر بالمهر، وهو اللّه تعالى، ومصدرَ العمل به، وهو الزَّوج؛ فاللّه تعالى هو الّذي فرضه على الأزواج للزَّوجات، حتمًا واجبًا عليهم، لا هبةً منهم ولا تفضُّلاً، وتفضَّل به عليهنَّ نِحْلَةً وعطاءً، وهبةً وكرمًا[3].

15) ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾: دواءً شافيًا، مأخوذٌ في الأصل من: هنأْتُ البعيرَ بالقَطِران، إذا مرض فعُولج به[4]، وطيّبًا سائغاً لا تنغيصَ فيه[5]، و﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾: صفتان لمصدر محذوف، أي: أكلاً هنيئًا مَّرِئًا، وهو من هَنُؤَ الطّعامُ ومَرُؤ، إذا كان سائغًا لا تنغيصَ فيه، وقيل الهنيءُ: ما يلذّه الإنسانُ، والمريءُ: ما تُحمدُ عاقبتُه[6]، ويُقال: هَنُؤَ الطعامُ يَهْنُؤُ هَناءةً، أي صار هنيئًا لا يلحقُ فيه مشقّة[7]، وهنئت الإبلُ من نبت الأرض، أي شَبعَت، وأكلنا من هذا الطَّعام حتَّى هنئنا منه، أي شَبِعنا، ويقال: هَنَأني خيرُ فلان؛ أي كان هنيئًا بغير تبعةٍ ولا مشقَّة[8]، وكلُّ "أَمْرٍ يأْتيكَ مِنْ غيرِ تَعَبٍ، فَهُوَ هَنِيءٌ"[9].

المريءُ من (مَرَأ)، يقال: مَرَأَني الطَّعامُ وأَمْرأني إذا لم يثْقُل على المَعِدة وانْحدَر عَنْهَا طَيِّباً[10]، والمريءُ: المَحمُودُ العَاقِبَةِ، التَّامُّ الهَضمِ الَّذِي لَا يَضُرُّ وَلَا يُؤْذِي[11]. وذكر سِيبَوَيْه أَنَّ ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾، من الصِّفَات الَّتِي أُجريت مجْرى المصادر المَدْعُو بهَا فِي نصبها على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نحل).
(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/230.
(3) الحمداويّ، تفسير سورة النِّساء: 29.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 7/559.
(5) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/471.
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (مرأ).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (هنأ).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: 6/228.
(9) ابن منظور، لسان العرب: (هنأ).
(10) الزَّبيديّ، تاج العروس: (مرأ).
(11) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/27.

الفِعْل غير المُسْتَعْمل إِظْهَاره واختزاله لدلالته عَلَيْهِ، وانتصابه على فعل من غير لَفظه[1]، فهو دعاءٌ للآكل والشّارب بالاستمتاع والصِّحة.

16) ﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾: جمع سفيه: الطّائشُ الّذي لا يُحسن التّصرّف في ماله، لقلّة عقله أو تبذيره، صبيًّا صغيرًا كان أو رجلًا كبيرًا، ذكرًا كان أو أنثى، والسَّفَهُ: ضِدُّ الحِلم مَعرُوفٌ، وَأصله الخِفّة والنّزَق، تسفّهت الرِّيحُ الغصونَ إذا حرّكتها وتسفّهتِ، الرِّماحُ في الحَرب، إذا اضطَرَبَتْ[2]. والسَّفِيهُ: الجَاهِل الَّذِي قلَّ عقلُه، وَجمعه سُفَهَاء، وقد سَفِه بِكَسْر الفَاء، يسفَه بِفَتْحِهَا، والمصدر السَّفهُ والسّفاهة، وَسُمّي هَذَا سفيهًا لخفّة عقله، وسُمِّيَتْ المرأةَ سَفِيهةً؛ لِضَعفِ عَقلِها، وَلِأَنَّهَا لَا تُحسِنُ سياسة مَالِهَا، وَكَذَلِكَ الأَولَاد مَا لم يُؤنَسْ رُشدُهُم، لجهلهم وخفّة عُقُولهِمْ[3]، فنلحظُ أنَّ هناك اتّحاداً بين المعنى الحسيِّ والمعنويِّ، وهو الخفَّة، فالسَّفيه: الّذي ليس لديه عقلٌ راجح، يُميِّز الأشياء، ويأخذُ من هذا وذاك، فلا يستقرُّ على رأي، كما أنَّ الرِّيحَ تُحرِّك الغصونَ، ولا تجعلها مُستقرَّة.

17) ﴿قِيَٰمًا﴾: أي ما يقومُ به أمركُم، ويردُّ قواكُم؛ لأنّه سببُ رزقكم[4]، والقِيامُ والقِوام: جمع (قَائِم)، من قَامَ بِالأَمرِ يَقُومُ بِهِ قِيَامًا، فَهُوَ قَوَّامٌ وَقَائِمٌ، وَاسْتَقَامَ الأَمرُ وَهَذَا قِوَامُهُ: عِمَادُهُ الَّذِي يَقُومُ بِهِ وَيَنتَظِمُ، وَمِنهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمًا﴾، والقِوَامُ: مَا يُقِيمُ الإِنسَانَ مِنَ القُوتِ، وَالقَوَامُ - بِالفتح - العَدْلُ وَالاعْتِدَالُ[5].

18) ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ﴾: من (رَزَقَ)، الرَّاءُ وَالزَّاءُ وَالقَافُ أَصلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى عَطَاءٍ لِوَقتٍ، ثُمَّ يُحمَلُ عَلَيهِ غَيرُ المَوقُوتِ، فَالرِّزْقُ: عَطَاءُ اللّه - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - ما يُنْتَفَعُ به والجمع: أرزاق، وَيُقَالُ: رَزَقَهُ اللّه رِزْقًا، والاسمُ الرِّزْقُ[6]، والرِّزقُ: يطلقُ تارَةً على العطاءِ الجاري، نحو: رزقَ السّلطانُ جندَه، ويكون دنيويًّا وأخرويًّا، وتارَةً على النّصيب، وعلى ما يصلُ إلى الجوف ويُتغذَّى به، ويُطلق على كلِّ خيرٍ وصل صاحبه نحو: رُزق فلانٌ علمًا، والرَّازِقُ:

(1) سيبويه، الكتاب: 1/317.
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 2/849.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (سَفَه).
(4) السّمين، عمدة الحفَّاظ: 3/353.
(5) الفيّومي، المصباح المنير: (قوم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).

يقال لخالق الرّزق، ومعطيه، والمسبّبِ له، وهو اللّه تعالى[1]. وسُمِّي العطاءُ رزقاً؛ لأنَّه لا يؤخذُ مرَّةً ثانيةً، فضلاً عمَّا فيه من تخفيف على المُعطَى له؛ لكي لا يشعرَ بالمِنَّة، وكأنَّه رزقٌ ساقه اللّه إليه.

19) ﴿وَٱكۡسُوهُمۡ﴾: الكِسْوَةُ والكُسْوَةُ: اللِّبَاسُ، وَاحِدَةُ الكُسا، وتُجْمَعُ على كِسَاءٍ كبُرْقَةٍ وبِرَاقٍ، وَلَهَا معانٍ مُختَلِفَةٌ، يُقَالُ: كَسَوْت فُلَانًا أَكْسُوه كِسْوَةً إذا أَلبسته ثَوْبًا فاكْتَسَى، أو أعطيته إيّاه، واكتَسَى فُلَانٌ: إِذا لَبِس الكِسْوَة[2]، واكْتَسَتِ الأرضُ بالنَّبات: تمَّ نَباتُها والتَفَّ حَتَّى كأنَّها لَبِسَتْه، والكَساءُ - بالفَتْح - مَمْدوداً: المَجدُ والشَّرَفُ والرِّفْعَةُ[3].

20) ﴿وَٱبۡتَلُواْ﴾: "الباءُ واللّامُ والواوُ والياءُ، أصلان: أحدهما: إخلاقُ الشّيءِ، والثّاني: نوعٌ من الاختبار، ويُحمل عليه الإخبار أيضًا"[4]، يُقال: بلوتُ الرّجلَ بلوًا وبلاءً، وابتليتُه: اختبرتُه، وبلاه يبلوه بلوًا، إذا جرّبه واختبرَه، وابتلاه اللّه: امتحنه، وبَلِيَ بالشّيء بلاءً وابتلي، والبلاءُ يكون في الخير والشَّر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾، والإبلاءُ: الإنعامُ والإحسانُ، يُقَالُ: بَلَوْتُ الرّجلَ وأَبْلَيْت عندَه بَلاءً حَسَنًا[5]، والابتلاءُ في الأَصْل: التَّكْلِيف بالأَمر الشّاقِ من البلَاء، لكنّه لما استلزمَ الاختبارَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى من يجهلُ العواقبَ ظنّ ترادفهما[6]، وقوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ﴾ في الآية: اختبرُواْ عقولَ اليتامى في أفهامِهم، وصلاحِهم في أديانهم، وإصلاحِهم أموالهم[7].

21) ﴿ءَانَسۡتُم﴾: من الفعل (أَنَسَ)، وأصل الإيناس: الرُّؤية والعِلمُ، والإحساسُ بالشَّيء، فالهَمزَةُ والنُّونُ وَالسِّينُ أَصلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ ظُهُورُ الشَّيءِ، وَكُلُّ شَيءٍ، خَالَفَ طَرِيقَةَ التَّوَحُّشِ، قَالُوا: الإِنْسُ خِلَافُ الجِنِّ، وَسُمُّوا لِظُهُورِهِمْ، يُقَالُ: آنَسْتُ الشَّيءَ: إِذَا رَأَيْتَهُ[8]، وتتغيّرُ دلالةُ هذا الفعل بتغيّر تعديتِه، فتارةً يتعدَّى بنفسه، وتارةً أخرى بحرف الجرِّ، يقال: آنس

(1) الراغب، المفردات، ص: 351.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (كسا).

(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (كسو).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بَلَوِيٌّ).

(5) ابن منظور، لسان العرب: (بلا).

(6) الكفويّ، الكليّات، ص: 34.

(7) ابن جرير، جامع البيان: 7/574.

(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أَنَسَ).

الشَّخصَ: لاطفَه، أي طمأنَه وأزالَ وحشتَه أو خوفَه، وآنسَ فلانًا: أبصرَه، رآه وشاهدَه ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [طه: 10]، وآنسَ منه الأمرَ: عَلِمَه، وجده، ولاحظَه، ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾: لَمستُم فيهم عقلاً وحكمةً، آنسَ في عمله إخلاصًا: أحسّ به، آنستُ فيه الكفاءةَ(1).

22) ﴿رُشۡدٗا﴾: الرُّشْد والرَّشَدُ والرَّشادُ: الهدايةُ والصّلاحُ، نَقِيضُ الغَيِّ، يُقال: رَشَد الإِنسانُ - بِالفَتْحِ - يَرْشُد رُشْداً - بِالضَّمِّ - ورَشِد - بِالكَسْرِ - يَرْشَد رَشَداً ورَشاداً، فَهُوَ راشِد ورَشيد، وَهُوَ نَقِيضُ الضَّلَالِ، إِذا أَصاب وَجهَ الأَمر وَالطَّرِيقِ(2)، والرُّشْدُ: الاستِقامَةُ على طَريق الحَقِّ مع تَصَلُّبٍ فيه(3)، والرُّشْد والرَّشَد: لغتان مثل السُّخْط والسَّخَط(4)، والرَّشَدُ: عنايةٌ إلهيةٌ تعين الإِنسَان في البَاطِن عِندَ توجّهه فِي أُمُوره، فتقوّيه على مَا فِيهِ صَلَاحه، وتعيدُه عَمَّا فِيهِ فَسَاده(5).

23) ﴿إِسۡرَافٗا﴾: يدورُ معنى الإسراف في اللُّغة، على تجاوز الحدِّ والقصدِّ في كلِّ فعلٍ يفعلُه الإنسانُ، ووضع الشَّيء في غير موضعه(6)، قال ابن فارس: "السِّينُ وَالرَّاءُ وَالفَاءُ: أَصلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى تَعَدِّي الحَدِّ، وَالإِغفَالِ أَيضًا لِلشَّيءِ، تَقُولُ: فِي الأَمرِ سَرَفٌ؛ أَي مُجَاوَزَةُ القَدْرِ"(7). والسَّرَف والإِسْرَافُ: مُجاوزةُ القَصْدِ، وأَسْرَفَ في مَالِه: عَجِلَ مِنْ غيرِ قَصْدٍ، والإِسْرافُ فِي النَّفَقَةِ: التّبذيرُ، وأَسْرَفَ فِي الكَلَامِ وَفِي القَتلِ: أَفْرَط، والسَّرِفُ: الجاهلُ، وَرَجُلٌ سَرِفُ الفُؤاد: مُخْطِئُ الفُؤادِ غافِلُه، وسَرِفَ الشّيءَ - بِالكَسْرِ - سَرَفاً: أَغْفَلَه وأَخطأَه وجَهِلَه، وَذَلِكَ سَرْفَتُه وسِرْفَتُه(8)، وقد أجمل ابنُ عاشور أغلبَ هذه المعاني بقوله: "والإِسرَافُ: الإِفرَاطُ وَالإِكثَارُ فِي شَيْءٍ غَيرِ مَحمُودٍ"(9)، وجاء في التّعريفات أنّ الإسرافَ: "إنفاقُ المالِ الكثير في الغَرَضِ الخَسِيس"(10).

(1) د أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 1/128.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (رشد).
(3) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (رشد).
(4) نشوان الحِميري، شمس العلوم: 4/2504.
(5) السّيوطي، معجم مقاليد العلوم، ص: 199.
(6) الراغب، المفردات: (سَرَفَ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سَرَفَ).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (سَرَفَ).
(9) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 11/112.
(10) الجرجاني، التعريفات، ص: 23.

24) ﴿وَبِدَارًا﴾: تأكلُوها مسارعةً، خشيةَ أن يكبرُوا فيأخذوها منكم[1]، والمبادرةُ: المسارعةُ، من بَدَرْتُ إلى الشَّيءِ أَبْدُرُ بُدُوراً: أَسْرَعْتُ، وَكَذَلِكَ بادَرْتُ إليه، وتَبادَرَ القومُ: أَسرعوا، وابْتَدَروا السّلاحَ: تَبادَرُوا إلى أخذه، وبادَرَ الشّيءَ مبادَرَةً وبِداراً، وابْتَدَرَهُ وبَدَرَ غيرَه إليه يَبْدُرُه: عاجَلَهُ[2]، قال ابن فارس: "البَاءُ والدَّالُ وَالرَّاءُ، أَصلَانِ: أَحَدُهُمَا: كَمَالُ الشَّيءِ وامتِلَاؤُهُ، والآخَرُ: الإِسرَاعُ إِلَى الشَّيءِ"[3]، وقوله ﴿وَبِدَارًا﴾: مصدرُ بادرَ، والمفاعلةُ هنا يجوزُ أن تكونَ من اثنَين على بابها؛ بمعنى أنّ الوليَّ يبادرُ اليتيم إلى أخذِ مالهِ، واليتيمُ يُبَادِرُ إلى الكِبَر، والوليُّ يبادرُ إلى أخذ ماله، فكأنّهما يستبِقان، ويجوزُ أن يكونَ من واحدٍ بمعنى: أنَّ فاعلَ بمعنى فعلَ نحو: سافرَ وطارق[4].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيانُ مقتضياتِ التَّقوى، وكيفيّة إدارة أموال اليتامى، وحقوق النّساء

جاءت هذه الآياتُ الكريماتُ، بيانًا وتفصيلًا لمقتضياتِ التَّقوى، وتأكيدًا على أداءِ حقوق اليتيم والمرأة، والحفاظِ على أموالهم، فافتتحَتْ بأمرٍ من اللّه تعالى موجّه للأوصياءِ على اليتامى، بأداءِ الحقوقِ كاملةً، وإرشاد الأوصياء إلى عدم الزَّواجِ من اليتيمات بقصد الإضرار بهنّ، ولامنعهنّ من الزّواج إنْ خافواْ عدم العدلِ معهنَّ في مهورهنَّ وأموالهنَّ بعد الزّواج؛ لأنَّ اللّه (تعالى) شرع لهم الزّواج بمن يحبّون من غيرهنَّ، من النِّسَاء الرّاشداتِ من واحدةٍ إلى أربع[5]، مع أداء حقوقِهنّ، وإعطائهنّ المهورَ المستحقّة، فإن تنازلْنَ عنها بطيبِ نفس، فهو سائغٌ حلالٌ، ثمّ يحذّر أوصياء اليتامى من إعطاءِ السُّفهاءِ من اليتامى أموالهم، وأنّها لا تسلّم لهم إلّا بعد بلوغهم الحُلمَ، ووصولهم مرحلة الرّشد، حينها تدفع إليهم بحضور الشُّهود، إبراءً للذّمّة، وإراحةً للضّمير، مع النّهي الصّارم

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 107.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (بَدَرَ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بَدَرَ).
(4) ابن عادل، اللّباب: 6/190.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 7/531.

عن أكل أموال اليتامى، والبدار إلى إتلافها، قبل بلوغهم الرّشد، فإنْ كان هناك عوزٌ ملحٌّ، وفاقةٌ شديدة، فلْينفقْ منها الكفيل، بقدر أجرتِهِ إذا عمل بالمعروف، في إطار لا ضرر ولا ضرار[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الإنشاءِ الطّلبي بالأمر:

وجوبُ إعطاءِ أموالِ اليتامى بطيبِ نفسٍ ورضًا

افتتحت الآياتُ الكريماتُ بالإنشاءِ الطلبي بفعل الأمر الصَّريحِ للجماعة ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾، الدالِّ على الوجوبِ؛ أي: وجوبُ دفع أموال البالغين من اليتامى سالمةً من غير نقصٍ ولا أخذٍ.

سرُّ تقديم المتعلّق باليتامى:

وجهُ بليغ العناية بشأن اليتامى؛ كونهم أحقّ النّاس بالرحمة العاطفة

قدّم ما يتعلق باليتامى؛ "لإظهار كمال العناية بأمرهم؛ ولملابستهم بالأرحام؛ إذ الخطاب للأولياء والأوصياء وقلما تفوض الوصاية إلى الأجانب"[2]، فابتدأ باليتامى الذين هم أحقّ الناس بالرحمة العاطفة، والمودة الواصلة، وهم الذين نزلوا إلى هذا الوجود من غير حامٍ غير اللّه تعالى، ولا قلب يحنو عليهم حنو الوالد الشفيق[3].

سرُّ إيثارِ فعل الإيتاءِ على غيره:

وجه إيثار لفظ الإيتاء استعماله للإعطاء الحسي

وخُصَّ دفعُ حقوق اليتامى من الأموالِ بفعل الأمر ﴿وَءَاتُواْ﴾ دون (ادفَعُوا) أو (اعْطُوا)؛ لأنَّ فعل الإيتاءِ يستعملُ في الدَّفع والإعطاءِ الحِسّيِّ، فضلاً عن دلالته على الإعطاء بسلاسةٍ ومطاوعةٍ مع الرضا والقبول والرفقِ بالعطاء، وهذا ما لا تحقّقه بقيةُ الأفعالِ القريبةِ من معناه[4]، ويلاحظ في دلالة الإتّيان أيضًا إيصالُ الشَّيءِ الى المنتهى[5]، وذلك في إيفاء اليتيم حقّه من ماله مطلبٌ واجبٌ مرغوبٌ، ومسعىً لازمٌ محمود.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/580، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/40 (بتصرّف).
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 3/9.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1578.
(4) الراغب، المفردات: 61.
(5) الخلوتي، روح البيان: 3/211.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ في التّنبيه على أداءِ حقوق الضّعفاء:

التعبيرُ المجازيُّ يَحملُ المُخاطَبين علـى الـعـطـفِ على هذه الفِئةِ وتأديةِ حقوقها حباً ورعايةً

في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَـٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ مجازٌ مرسلٌ باعتبار ما كان[1]، فقد أطلق لفظ ﴿ٱلۡيَتَـٰمَىٰ﴾ على الرَّاشدين منهم، ومن المعلوم أنّه لمَّا يتمّ بعدُ البلوغ، والمعنى: الّذين كانوا يتامى[2]، فعبّر بلفظِ اليُتم بوصفِ ما كانوا عليه قبل البلوغ مجازاً؛ لقربِ العهد بالصِغَر وللمبالغة في المعنى المراد.

ففيه أمرٌ متضمِّنٌ معنى الإرشادِ للأَولِيَاء والأَوصِياء بضرورةِ دفع أموالهم، وعدم تأخيرها عن حَدِّ البُلُوغِ، وألّا يُمطَلُوا إنْ أُونِسَ منهم الرُّشدُ طمعًا فيها[3].

في المجاز توجيه للمخاطبين على مراعاة الأيتام والعطف عليهم

فضلاً عن ذلك فإنَّ التَّعبيرَ المجازيَّ فيه يحملُ المُخاطَبين على العطفِ على هذه الفئةِ وتأدية حقوقها حبًّا ورعايةً، فتسميَتُهم باليتامى لتحريكِ القلوبِ تجاهَهُم، وتنبيهِ الأوصياء بضرورة إعطاءِ حقوق اليتامى الضُّعفاء؛ "حتَّى كأنَّ اسمَ اليتيم باقٍ بعدُ غير زائلٍ، وهذا المعنى يُسمّى في الأصول بإشارة النَّصِّ، وهو أن يُساقَ الكلامُ لمعنى ويُضَمّنَ معنى آخرَ، وهذا في الكون نظيرُ المشارفة في الأوّل"[4].

في المجاز إيجازٌ في العبارة، واقتصادٌ في الكلام

وفيه إيجازٌ أيضًا؛ فالمجازُ يحقّق الإيجازَ؛ لأنَّه يغنِي عن ألفاظٍ كثيرةٍ، فلو جاء التَّعبيرُ من غير مجازٍ لكان: (وآتوا الّذين كانوا يَتَامَى فبلغُوا رُشْدَهُمْ أَمْوَالهم)، فضلاً عن ذلك أنَّ في لفظ ﴿ٱلۡيَتَـٰمَىٰ﴾ اختزالاً، فهو يطلقُ على المذّكر منهم والمؤنّث.

---

(1) المجاز المُرسل: هو استعمال اللفظ في غير ما وُضِع له لعلاقة غير المشابهة بين المعنى الأصلي والمجازي، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، ينظر: القزويني، الإيضاح، ص: 233.

(2) البغوي، تفسير البغوي: 1/562، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/9، والبقاعي، نظم الدرر: 5/177.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/501.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/397.

الــحـــثُّ عـلـى عـزوفِ الإنسان وتــنــفــيره مـن مواقعَةِ الحرامِ

نكتةُ الإنشاءِ الطّلبي بالنّهي:

من دلالاتِ التَّراكيب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾ النَّهيُ الصّريحُ الدّالُ على تحريمِ استبدالِ أموال اليتامى ومنعها، أي: الحرام بالحلال، فقد كانوا يأخذون الأجودَ من مالِ اليتيم، ويجعلون مكانَه الأرْدَأ[1].

في الاسـتـعـارة حثٌّ على عزوفِ الإنسان وتنفيره مـن مـواقـعـةِ الحَرام

بلاغة الاستعارة التَّصريحيَّة في كلمتي ﴿ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾:

في النَّظم استعارتان تصريحيَّتان[2] في ﴿ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾، تأتيان للتَّعبير عن (الحرام والحلال)[3]، فقد استعملَ أولاً ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ بدلاً من (الحَرام) بجامع الكراهيّةِ في كلٍّ منهما، واستعمل ثانيًا ﴿بِٱلطَّيِّبِۖ﴾ بدلًا من (الحَلال) بجامع الحَلاوةِ في كل منهما على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة[4].

ولا تخفَى بلاغةُ الاستعارة في اللَّفظتين وجماليتها؛ إذ توافرت على دلالةٍ معنويَّة ونفسيَّة لا نجدُها في الاستعمال الحقيقيِّ؛ إذ إنَّ سياقَ الآية يحثُّ على عزوفِ الإنسان وتنفيره من مواقعةِ الحَرام، فالاستعارةُ بـ ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ أشدُّ وقعًا على النَّفس وأعمقُ غورًا لتحقيق الاستجابةِ الّتي يتوخاها القرآن من السّامع، ومثلها استعارةُ ﴿بِٱلطَّيِّبِۖ﴾، فهي أشدُّ وقعًا في السَّمع في حثِّه على تقبِّل الحَلال والتَّرغيب فيه من اللّفظ الحقيقيِّ (الحلال)[5]، وعمّقَ معنى الاستعارةِ الطِّباقُ الحاصلُ بينهما.

فالاستعارةُ تُعطينا من الإيحاءِ في المعنى ما لا نجدُه في اللَّفظتين الحقيقيتين، وهذا من سماتِ الاستعارة في التَّعبير عن المعنى

(1) الراغب، المفردات، ص: 272 - 273.

(2) الاستعارة التَّصريحيَّة: هي الاستعارة التي يُصرَّح فيها بلفظ المشبه به، ويُحذَف فيها المشبّه، ينظر: الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 67.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 7/525.

(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/220.

(5) رمضان، الاستعارة في القرآن الكريم: 68 - 69.

الّتي أشار إليها البلاغيون في حديثهم عن الاستعارة الأصليَّة، فالرُّمّاني يُصرِّح بأنَّ الاستعارةَ الحسنةَ: "تُوجبُ بيانًا لا تنوبُ منابَه الحقيقةُ"[1].

براعة التَّرقي بتكرارِ أسلوبِ النّهي:

في الترقّي بالتّأكيد والاحتراس تجريمٌ لأخذِ مال اليتيم، وتربيةٌ للنفوس كي تتمثّلها سلوكًا

لَمَّا كان المرادُ تأكيدَ دفعِ مال اليتيم وتحريم أكله، كرَّر النَّهي مرّةً أخرى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾؛ فهذا نهيٌ عن أخذ مالِ اليتيمِ على الوجهِ المخصوصِ بعد النَّهي الضِّمنيّ عن أخذه على الإطلاق، ليُؤَكّدَ به تجريمَ أخذِ مال اليتيم ويقرِّره، وفيه تربيةٌ للنُّفوس التَّواقة لِتَمَثُّلِ الخير، فمن رسختِ التَّقوى في قلبِه، وامتثلَ أوامرَ ربِّه يتَّرفعُ تلقائياً عن الظُّلم والتَّقصيرِ في حقوق العباد[2].

وفي مجيء هذا النَّهي بعد النَّهي الأوّل ما يُسمَّى في علم البديع بالتّرقي، فلَمَّا نُهُوا عَنِ استبدَالِ الخَبيث مِنْ أَموَالِهم بالطَّيِّب مِنْ أَموَالِ اليَتَامَى، ارتَقَى في النَّهي إِلَى مَا هُوَ أَفظَعُ مِنَ الاستِبدَالِ وهُوَ: أَكلُ أَموَالِ اليَتَامَى فَنُهُوا عَنهُ، وَمَعنَى إِلَى أَموَالِكم: مَعَ أَموَالِكُمْ[3].

بلاغةُ الاستِعارةِ المكنيّةِ والتَّضمِين:

في النَّهي عن الأدنى تنبيهٌ على الأعلى إذا كان المنهيُّ عنه درجاتٍ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ شبّهَ أموالَ اليتامى بطَّعام يُؤكلُ، ثمّ حذفه، وأبقى شيئًا من لوازمِه ممّا هو من أبرز خصائص الطَّعام وهو الأكل[4] على طريقة الاستعارة المكنيّة[5]، وقد أجراهَا ابنُ عاشور على التَّصريحيّة بقوله: "والأَكلُ استِعَارَةٌ للانتِفَاعِ المَانِعِ من انتِفَاعِ الغَيرِ وهُو المِلكُ التَّامُّ، لأَنَّ الأَكلَ هُو أَقوَى أَحوَالِ الاختِصَاصِ

(1) الرّمّاني، النُّكت في اعجاز القرآن، ص: 86.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/140.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/502.
(4) صافي، الجدول: 4/432.
(5) الاستعارة المَكْنيَّة: هي الاستعارة التي لا يُصرّح فيها بلفظ المُشبّه به، بل يُطوى ويُرمز له بلازمٍ من لَوازمه كدليلٍ عليه، مع إسناد هذا اللازم إلى لفظ المشبه، ينظر: السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 378 - 379.

بِالشَّيءِ؛ لأَنَّهُ يُحرِزُهُ في دَاخِلِ جَسَدِهِ، وَلَا مَطمَعَ في إرجَاعِه، وَضَمَّنَ تَأْكُلُوا مَعْنَى تَضُمُّوا؛ فَلذَلِك عدّي بإلى؛ أَيْ: لَا تَأْكُلُوهَا بِأَن تَضُمُّوهَا إِلَى أَموَالِكُمْ"[1].

وفي هذه الاستعارةِ سِرَّان من أدقِّ الأسرار: أولهما: إنَّ طريقَ البلاغةِ النَّهيُ عن الأدنى تنبيهًا على الأعلى إذا كان المنهيُّ عنه درجاتٍ، فكان مقتضى القانونِ المذكور أن يُنهى عن أكل مال اليتيم من هو فقير إليه، حتّى يلزمَ نهيُ الغنيِّ عنه عن طريق الأولى، فلا بدَّ من سرٍّ يوضّحُ فائدةَ تخصيص الأعلى بالنَّهي في هذه الآية؛ وذلك ما يُفهم من كلمةِ ﴿إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾؛ والسرُّ في ذلك: أنَّ أكلَ مال اليتيم مع الغِنَى عنه أقبحُ صور الأكل، فخُصِّصَ بالنَّهي تشنيعًا على من يقعُ فيه.

النفس تنفرُ عن المنهيّ عنه الموغل في القبح والدّمامة

والسرُّ الثَّاني: في تخصيصِ الأكل؛ لأنَّ العربَ كانت تتذمَّمُ بالإكثار من الأكل، وتعدُّ من البطنة المساوية للبهيميَّة، فكأنَّ آكلَ مالِ اليتيم - في حال استغنائه عنه وكثرة المال لديه - شرٌّ من أكله وهو مملّقٌ شديدُ الحاجة إليه، وإن اشتركا في أكلِ ما هو محرّم، وكانا منتظمين في قرنٍ واحدٍ، ومعلوم أنَّ المنهيَّ عنه كلّما كان أوغلَ في القبح وأفرطَ في الدَّمامةِ، كانت النّفسُ بطبيعةِ الحال أنفرَ عنه[2].

علّةُ إيثارِ لفظ (الحُوب) منكَّرًا:

إيثار لفظ الحُوبِ تخويفٌ وتشنيعٌ لآكل مالِ اليتيم ظُلمًا بوصفه إثمًا عظيمًا

جاء لفظ ﴿حُوبٗا﴾ نكرةً مع وصفها بـ ﴿كَبِيرٗا﴾، لبيانِ عظم هذا الإثم من الأوصياء، والحُوبُ: "الإثم"[3]، وجاء التَّعبيرُ بالحوبِ دون الإثم أو الذَّنب؛ لأنَّ فيه تخويفًا وتهويلًا وتشنيعًا لأكلِ مال اليتيم، فـ"الحُوب يُفِيد أَنّه مزجورٌ عَنهُ؛ وذَلِكَ أَن أَصله فِي العَرَبيَّة الزّجرُ

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/221.

(2) ينظر: الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/151.

(3) الراغب، المفردات، ص: 261.

وَمِنه يُقَال في زجر الإبل: (حُوب حُوب)، وقد سُمّي الجملُ بِهِ؛ لأَنَّهُ يزْجر"[1]، ولتأكيدِ هذا الإثم العظيم جاءت فاصلةُ الآيةِ بالأسلوب الخبري المُؤكّد: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾.

بلاغة التعبير بـ ﴿وَإِنۡ﴾ الشَّرطِيّة:

الحثُّ على الوَرعِ بـتركِ اليتيمةِ والـزَّواجِ بغيرِها من النِّسَاءِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ [النِّساء: 3] شرطٌ وجوابُه، فأداةُ الشرط: ﴿وَإِنۡ﴾ وتدلَّ على الأمر غير المقطوع بحُصُوله، وفعلُ الشّرطِ: ﴿خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾، وجوابُ الشّرط: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، وجاء الشَّرطُ مقترنًا بالأداة ﴿وَإِنۡ﴾ الّتي عبَّر بها عن الشَّكِّ في العدل مع اليتيمة عندَ الزَّواج منها، حثًّا على الورعِ بتركها والزَّواجِ بغيرها من النِّسَاء[2]؛ فالارتباطُ سببيٌّ بين الشَّرطِ وجوابه، فبهذا الشَّرطِ أرشدَ - ﷻ - الوصيَّ عدم الزَّواج من اليتيمةِ، ولا منعها من الزَّواج إنْ خافَ عدم العدل معها في مُهُورها ومالِها بعد الزَّواج؛ لأنَّ اللّٰه تعالى جعلَ له مندوحةً، وشرعَ له الزَّواج بمن يحبُّ من غيرها من النِّسَاء الرّشيداتِ من واحدةٍ إلى أربع[3].

دلالة الفاء في جواب الشّرط:

إنّ الخوفَ من الظلم مانعٌ من نكاح يتامى نساء

الفاءُ في جوابِ الشَّرط: ﴿فَٱنكِحُواْ﴾ هي الرَّابطةُ للجواب بالشَّرط؛ لأنَّ الجوابَ جملةٌ طلبيَّةٌ بفعل الأمر، وهذه الفاءُ أفادت السببيَّةَ كما مرَّ، والمعنى: وإنْ خفتم عدمَ العدل في يتامى النِّسَاء فانكحوا ما طابَ لكم من النِّسَاء من سواهنَّ؛ أي من سوى اليتيماتِ مثنَى وثلاثَ ورباعَ.

(1) العسكري، الفروق في اللغة، ص: 261.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/179.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 7/531.

بلاغة الإيجاز في جملة الشّرط:

و"في الآيَةِ إِيجَازٌ بَدِيعٌ إِذْ أَطلَقَ فِيهَا لَفظَ اليَتَامَى في الشَّرطِ، وقُوبِلَ بِلَفظِ النِّسَاءِ في الجزَاءِ، فَعَلِمَ السَّامِعُ أَنَّ اليَتَامَى هُنَا جَمعُ يَتِيمَة، وَهِيَ صِنفٌ مِنَ اليَتَامَى في قَولِهِ السَّابِقِ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾، وعُلِم أَنَّ بَينَ عَدمِ القسطِ في يَتَامَى النِّسَاءِ، وَبَينَ الأَمرِ بِنِكَاحِ النِّسَاءِ ارْتِبَاطًا لا مَحَالَة وإِلَّا لَكانَ الشَّرطُ عَبَثًا"[1]، وَبَيَانُهُ حديثُ عروةَ بن الزّبير الّذي رواه البخاريُّ، وقد مرَّ ذكرُه كاملاً عندَ بيان المعنى الإجماليّ لهذه الآيات.

في الإيجاز بيانٌ للعلاقة بينَ عَدَمِ القِسطِ في يَتَامَى النِّسَاءِ، وَبَينَ الأَمرِ بِنِكَاحِ النِّسَاءِ

دلالةُ الإنشاءِ الطّلبي بفعلِ الأمر ﴿فَٱنكِحُواْ﴾:

خرجَ فعلُ الأمر ﴿فَٱنكِحُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ من معنى الوجوبِ والإلزام إلى الإباحةِ والتَّخيير، وفيه توجيهٌ وإرشادٌ لما في مصلحةِ النَّاس والمُجتمع[2]، ولو كان على حقيقَته بدلالته على الوجوبِ للَزِمَ كلَّ واحدٍ التَّعددُ وهذا مُحالٌ، وممَّا يُقرِّر هذا المعنى إيثارُ العطف بـ (الواو) دون (أو) في قوله: ﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ الدَّالُ على التَّخيير في العدد، فبعضُ النّاسِ سيختار الاثنين، وبعضُهم سيختار الثلاث، وبعضُهم سيختارُ الأربعَ، ومنهُم من يكتفي بالواحدة.

إباحةُ التَّعددِ، وإرشادُ العبادِ لما فيه مصلحتُهُم

سرُّ المقابلة بين الأمر بالنّكاح، والنّهي عنه:

في إيثار الأمرِ بنكاح النّساء في قوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ "على النهي عن نكاح اليتامى - مع أنه المقصودُ بالذات - مزيدُ لطفٍ في استنزالهم عن ذلك؛ فإن النفسَ مجبولةٌ على الحِرص على ما مُنِعت منه"[3].

جُبِّلتِ الأنفسُ على الرَّغبة في ما مُنعتْ منه

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/222.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 9/486، وابن عادل، اللباب: 6/160.

(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/141.

في ذكر العددِ كبحٌ لجماح المتطلّع إلى نكاح العديد من النساء

علّةُ تقييدِ عدد المنكوحات:

ذكر العدد المباح في النّكاح ولم يقل مثلا: (فانكحوا ما طاب لكم من النساء سواهن)، لحاجة السائل المتطلّع إلى ذلك؛ فإنّ النفس متشوّقةٌ في إشباع رغباتها إلى التّكرار، والكثرة، وإنّ في النّاس من لا يُبالي أن يتزوّج بالعدد الكثير من النساء؛ لذلك بيّنَ العدد الذي لا يجوز أن يتعدّاه الإنسان في وقت واحد[1].

جيءَ بـ (ما) على أنها بمنزلة الصِّفَةِ وهُو الطَّيِّبُ بِلَا تَعيينِ ذَاتٍ

إيثارُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول ﴿مَا﴾ دون (مَنْ):

أوثر التّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم﴾ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ لغيرِ العَاقِل غالبًا، دون (من) المُستعملة للعاقل، فلم يقل: (من طاب)، وفي هذا العدولِ نكتةٌ سياقيةٌ ذكرها ابنُ عاشور بقوله: "ومَعنَى مَا طابَ مَا حَسُنَ بدَلِيل قَولِه: ﴿لَكُم﴾، ويُفهَمُ منهُ أَنَّهُ مِمَّا حَلَّ لَكُم؛ لأَنَّ الكَلَامَ فِي سِيَاقِ التّشريع، وَمَا صدق مَا طابَ النِّسَاءُ، فَكَانَ الشَّأْنُ أَنْ يُؤتَى بـ (مَنْ) المَوصُولَة، لَكِن جيءَ بـ ﴿مَا﴾ الغَالِبَة فِي غَيرِ العُقَلَاءِ؛ لأَنَّهَا نُحِيَ بِهَا مَنحَى الصِّفَة، وهُوَ الطَّيِّبُ بِلَا تَعيينِ ذَات، ولَوْ قَالَ (مَنْ) لَتَبَادَرَ إِلَى إِرَادَةِ نِسْوَةٍ طَيِّبَات مَعْرُوفَاتٍ بَينَهُم، وكَذَلِك حَالُ (مَا) في الاستِفهَام، كَمَا قَالَ صَاحِبُ الكَشَّاف، وَصَاحِبُ المِفتَاح، فَإِذَا قُلتَ: مَا تَزَوَّجتَ؟ فَأَنْتَ تُرِيدُ مَا صِفَتُهَا أَبِكرًا أَمْ ثَيِّبًا مَثَلًا، وَإِذَا قلتَ: مَنْ تَزَوَّجتَ؟ فَأَنْتَ تُرِيدُ تعيين اسمِهَا وَنَسَبِهَا"[2].

وذكر بعضُ المفسّرين - مع ما ذكره ابنُ عاشور - وجوهًا أخرى لاستعمال (ما)، أوّلها: أنَّ (مَا) بِمعنَى (مَنْ)، وَهَذَا مَذهَبُ مَن يُجَوِّزُ وُقوعَ (مَا) عَلَى آحَادِ العُقَلَاء، وثانيها: إرادةُ الجنسِ، تَقُولُ: مَا عِندَكَ؟ فَيَقُولُ رَجُلٌ أَو امرَأَةٌ، وثالثها: أَنَّ (مَا) و(مَنْ) رُبَّمَا

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1087 - 1088.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/224.

يَتَعَاقَبَانِ، فيستعملُ أحدُهما مكانَ الآخر للذّات[1]، ورابعها: أنَّه آثَرَ (ما) تَنزِيلًا لِلإِنَاثِ مَنزِلَةَ غَيرِ العُقَلَاءِ لِنُقصَانِ عُقُولِهنَّ[2]، والعلَّةُ الأخيرةُ وما قبلها نراها بعيدةً عن المعنى، فالسِّياقُ لا يدلُّ عليهما، والعلَّةُ الأولى والثَّانيةُ وما ذهب إليه ابنُ عاشور أدلُّ على المعنى المراد وأقرب، واللهُ تعالى أعلم.

نكتةُ التَّعبير بلفظِ (الطيب):

في الترغيب بالنساء صرفٌ عن نكاح اليتامى

في وصف النساءِ بالطيب في قوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ "مبالغةٌ في الاستمالة إليهن والترغيبِ فيهن؛ وكلُّ ذلك للاعتناء بصَرْفهم عن نكاح اليتامى وهو السرُّ في توجيه النهي الضمنيِّ إلى النكاح المُتَرقَّبِ مع أن سببَ النزولِ هو النكاحُ المحققُ لما فيه من المسارعة إلى دفع الشرِّ قبل وقوعِه"[3].

سرُّ العطفِ بالواو في ﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾:

دلَّتِ الواوُ على إطلاقِ أن يأخذَ النـاكِحُون من أرادوا نكاحَها من النِّسَاء على طريق الجَمعِ

في الآيةِ الكريمةِ أُوثرَ التَّعبيرُ بحرفِ العطف (الواو) في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ دون غيره مثل (أو)، وقد بيَّن الزَّمخشريُّ سرَّ إيثار العطفِ بالواو بقوله: "فإن قلت: فلِمَ جاءَ العطفُ بالواو دون أو؟ قلت: كما جاء بالواو في المثال الّذي حذوته لك، ولو ذهبت تقول: اقتسمُوا هذا المالَ درهمين درهمين، أو ثلاثةً ثلاثةً، أو أربعةً أربعةً: أُعلمت أنّه لا يسوغُ لهم أن يقتسمُوه إلّا على أحدِ أنواع هذه القسمة، وليس لهم أنْ يجمعُوا بينها فيجعلُوا بعضَ القسم على تثنيةٍ، وبعضَه على تثليثٍ، وبعضَه على تربيع، وذهبَ معنى تجويز الجمع بين أنواع القسمةِ الّذي دلَّت عليه الواو، وتحريرُه: أنّ الواو دلّت على إطلاق أن يأخذَ النَّاكحون منْ أرادوا نكاحَها من النِّسَاء على

(1) وهذا ما يعرف بعلم البديع بفن التغليب: وهو إِعطَاءُ الشَّيءِ حُكْمَ غَيرِه، وَقِيلَ تَرْجِيحُ أَحَدِ المَغْلُوبَيْنِ عَلَى الآخَرِ أَو إِطلَاقُ لَفظَةٍ عَلَيهِمَا إِجرَاءً لِلمُختَلِفَيْنِ مَجرَى المُتَّفِقَيْنِ، الزّركشي، البرهان: 3/302.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 9/486، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/504.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/141.

طريق الجمع، إنْ شاؤوا مُختلفين في تلك الأعداد، وإنْ شاؤوا مُتَّفقين فيها، محظوراً عليهم ما وراء ذلك"[1].

دلالة الفاء على السببيّة:

الحلّ في الخوف من عدم العدل التّزوج بواحدة

وفي قوله: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ الجملةُ شرطيّةٌ، والفاءُ في جواب الشَّرط: ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ هي الرَّابطةُ للجوابِ بالشَّرط، وهذه الفاءُ أفادت السَّببيَّةَ كما مرَّ، والمعنى: وإنْ خفتُم عدمَ العدل في حال التعدّد، فهناك حلٌّ لهذا من خلال الاقتصار على واحدةٍ.

بلاغةُ التَّعبير عن العَولِ بالكناية:

وجه الكناية التعبيرُ عن كثرة العيال بكثرة المؤنة

العَولُ في قوله تعالى: ﴿أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾: الميلُ من قولهم عال الميزانُ عَوْلاً إذا مال، وعال في الحكم أي جار، والمرادُ هنا الميلُ المحظورُ المقابلُ للعدل، وعبر عن كثرة العيال بكثرة المؤنة على طريقة الكناية ويؤيده قراءة: (أن لا تعيلوا) من أعال الرجلُ؛ إذا كثُر عيالُه، والجملةُ مستأنفةٌ جارية مما قبلها مجرى التعليل[2].

نكتة التَّعبير بصيغةِ الأمرِ:

التعبير بالأمر حمايةٌ لحقوق النِّسَاء، بوجوبِ دفع المهرِ لهنَّ

يتّجهُ التَّعبير القرآني عن طريق فعلِ الأمر للوجوبِ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾، إلى حمايةِ حقٍّ آخر للنِّسَاء، يتمثّلُ بوجوب دفع المهرِ لها، فهو على أزواجهنَّ واجبٌ، ولهنَّ من ربهنَّ هبةً وعطاءً؛ فالمعنى "وأعطُوا النِّسَاء مهورَهنَّ عطيّةً واجبةً، وفريضةً لازمةً"[3]، وفي تنفيذِ هذا الأمر صلاحٌ وخيرٌ للمجتمع.

والخطابُ هنا للأزواج وأولياءِ المرأة؛ فقد كانُوا في الجاهليّة لا يعطُونها من صداقها إلاّ بعيرًا يحملُونها عليه، ويُرسلُونها إلى بيتِ الزّوج، ويحبِسون باقي الصّداق لأنفسهم[4].

(1) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/467 - 468.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/142، ووهي قراءة شاذة.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 4/552.
(4) الجرجاني، دَرْجُ الدُّرر: 1/464.

سرُّ إيثار فعل الإيتاء على غيره:

وأُوثر التَّعبيرُ بـ ﴿وَءَاتُواْ﴾ على (أعطوا) لما في فعل الإيتاءِ من قوّةٍ وخصوصيّةٍ أقوى من الإعطاء؛ لأنَّ الإيتاءَ يدلُّ على يُسرِ الإعطاءِ وسماحةِ البذل، فضلاً عن القبول[1]، فأوحى استعمال فعل الأمر ﴿وَءَاتُواْ﴾ بوجوبِ دفع المهر للزّوجة مع القَبولِ والرِضَا من الزّوج والوليِّ، مع ملاحظة إيفائه على وجهه الأتمّ لما في لفظ الإتيان من دلالة إيصال الشَّيء إلى المنتهى[2].

في إيفاء الزّوجة حقّها من المَهْر مع القبول والرضا تطبيقٌ لشرع الله

علّة التّعريف بالإضافةِ في ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾:

جاءت الآيةُ الكريمةُ بتعريف الصّدُقاتِ - جمع صَدُقَة - وهي المَهْرُ - بالإضافة، مع تأكيدِ فعل الأمر بالمصدر ﴿نِحۡلَةٗۚ﴾ الهديّة، في قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ﴾، فالتَّعريفُ بإضافة الصَّدُقات لضمير النِّسَاء فيه دلالةٌ على مُلكها لهذا المهر وأحقّيتها به، وفيه تحذيرٌ للأزواج والأولياء من التَّعرّض له وأخذِه منها إلّا عن طيبِ نفسٍ كما سيأتي بيانُه.

في الإضافة تنبيهٌ على ملك الزّوجة لمهرها، وتحذيرُ الأزواج والأولياء من التّعرّضِ له

نكتة اصطفاء لفظِ الصَّدُقَةِ:

في إيثار هذا الاسم ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ دون غيره إعجازٌ لا يخفَى، فالصَّدُقةُ - بضمّ الدَّال - والصَّدَقة - بفتحها - استعمالُ الأولى في المهرِ، والثّانية في التَّصدّق من بلاغة هذا القرآن العظيم؛ فالصَّدُقةُ - بالضمِّ - أثقلُ نطقًا من الصَّدَقة - بالفتح - ، وكذلك هما على هذا الشّأن، في مجال التَّطبيق العمليِّ لهما؛ فالمهرُ ثقيلٌ في قدره ومادته، قد يتكلَّفُ له المرءُ كثيراً من الجهد حتّى يحصلَ عليه، وقد يقتطِعُ له قدرًا كبيرًا من ماله، الّذي هو بعض نفسه؛ ومن هنا كان ثقلُهُ على النَّفس، ثمّ كان ثقلُه على اللِّسان، وليس كذلك

يناسبُ لفظُ الصَّدُقَةِ ثقل المهر، وتكلّف تحمّله

---

(1) الراغب، المفردات: 61.

(2) البروسوي، روح البيان: 3/211.

الصَّدقة، فإنَّ محملَها خفيفٌ، يؤديها الإنسانُ بطيب نفس عن سَعَةٍ، ويجودُ بها من فضل ماله كرمًا، فلا يكاد يحسُّ بها؛ فالجامع بين الصَّدُقة (المهر) والصَّدَقة (الإحسان) أنَّ كلًّا منهما من باب البرِّ والخير، وأنَّهما من موارد مرضاةِ اللّه ورضَا النّاس(1).

تنوّعُ دلالة النِّحلة بين الزّوج والزّوجة:

النّحلة أخصُّ من الهِبَة، وهي إعطاءٌ عن طيب نفس بلا اسْتِعاضةٍ

من دقائق القرآن الكريم التَّعبيرُ بالمصدر ﴿نِحْلَةً﴾: "العَطِيَّة على سبيل التّبرُّع، وهو أخصُّ من الهِبَة"(2)؛ إذ كل هِبة نِحلة، وليس كل نِحلة هِبة، وسُمّي الصداق بها من حيث لا يجب في مقابلته أكثر من تمتُّعٍ دون عوض مالي(3)، فالنِّحْلَةُ الإعطاءُ عن طيب نفس بلا اسْتِعاضةٍ، بخلاف الصّداق وهو واجبٌ، وقد راعى الخطابُ في الآية مصدرَ الأمر بالمهر وهو اللّه تعالى، ومصدرَ العمل به وهو الزّوج، فاللّه تعالى هو الّذي فرضَهُ على الأزواج للزَّوجات حتمًا واجبًا عليهم لا هبةً منهم ولا تفضُّلاً، وتفضَّلَ به عليهنَّ نحلة وعطاءً وهبةً وكرمًا(4).

العمدةُ في أمر المهور طيب النّفس

"عَدَلَ عن لفظ الهبةِ والسماحةِ إلى مَا عليهِ النظمُ الكريمُ إيذاناً بأن العُمدة في الأمر إنما هو طيبُ النفسِ وتجافيها عن الموهوب بالمرة"(5).

إبعَادُ المُهورِ عن أنواعِ الأعوَاضِ، وتَقريبٌ بها إلى الهَدِيَّةِ

ولابن عاشور إشارةٌ جميلةٌ في هذا؛ إذ يقولُ: "وسُمِّيَت الصَّدُقَاتُ نِحلَةً إبعَادًا للمهورِ عن أَنواع الأَعوَاض، وتَقريبًا بها إلى الهَدِيَّة؛ إذ لَيسَ الصَّدَاقُ عِوَضًا عَن مَنَافِع المَرأةِ عِندَ التَّحقيق؛ فَإنَّ النِّكَاحَ عَقدٌ بَينَ الرَّجُلِ وَالمَرأةِ قُصِدَ مِنهُ المُعَاشَرَةُ، وإِيجَادُ آصِرَةٍ

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 2/697.
(2) الراغب، المفردات: (نحل).
(3) الراغب، تفسير الراغب: 3/1096.
(4) الحمداوي، تفسير سورة النِّساء، ص: 29.
(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/144.

عَظِيمَةٍ، وَتَبَادُلُ حُقُوقٍ بَينَ الزَّوجَين، وَتِلكَ أَغلَى مِن أَن يَكُونَ لَهَا عِوَضٌ مَاليٌّ، وَلَو جُعِلَ لَكَانَ عِوَضُهَا جَزِيلًا وَمُتَجَدِّدًا بِتَجَدُّدِ المَنَافِعِ، وَامتِدَادِ أَزمَانِهَا، شَأْنُ الأَعوَاضِ كُلِّهَا، ولَكِنَّ اللهَ جَعَلَهُ هَدِيَّةً وَاجِبَةً عَلَى الأَزوَاجِ إِكرَامًا لِزَوجَاتِهِم"[1].

براعةُ تأكيدِ الشَّرطِ على حقِّ المرأةِ بالمهر:

إعطاءُ الحقِّ للزّوجة في المَهرِ تكريمٌ لها، ومراعاةٌ لنفسيَّتها

أكَّدت جملة الشَّرط: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾، حقَّ المرأة ومُلكَها في المهر؛ فهي منْ لها حقُّ التَّصرّف به إنْ أرادت أنْ تعطي الرَّجل منه شيئًا عن طيبِ نفس، وله أخذه آنذاك[2]، ولهذا جاء جوابُ الشَّرط فعل أمر خرج إلى معنى الإباحة في قوله: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾، وليس بعدَ هذا التَّكريم من تكريم؛ إذ أعطى الحقَّ لأهله، وراعَى الجانبَ النَّفسيَّ للمرأة.

بنى الشّرط على طيب النّفس؛ للمبالغة في القبول والرضا من الزَّوجة:

ولمَّا كانت المرأةُ تغلبُ عليها العاطفةُ للحدِّ الّذي قد يلحقُ بها الأذى والضَّرر والخِداع، نبَّه على وجوب الاحتياطِ لهذا الأمر وبنَى الشَّرطَ على طيب النّفس فقيل: فإنْ طبن، ولم يقل: (فإنْ وهبن أو سمحن).

بلاغة التَّضمين في لفظ ﴿طِبۡنَ﴾:

التعدية بـ (عن) تضمينٌ لمعنى التّجافي عن الموهوب له بالرّضا لا بالإكراه

وعُدِّيَ لفظ ﴿طِبۡنَ﴾ بـ (عن)؛ ليتضمَّن معنى التَّجافي والتَّجاوز منها عن الموهوبِ له بالرِّضا والطّيب لا بالقهر والإكراه، وبيانًا بأنَّ العلّة بجواز قبول جزءٍ من المهر أن يكون عن طيب نفسٍ من مالكة المال وهي الزّوجة؛ فالمعنى: إنْ وهبن شيئًا؛ فعبَّر بالطّيب للمبالغة في القبول والرضَا منها، وقال: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ﴾، ولم يقل: (فإن طِبن لكم عنها)، بعثًا لَهنَّ على تقليلِ الموهوب[3].

---

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/230 - 231.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/555.

(3) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/471، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/60.

في لـفـظ الأكـل تــعـبــيرٌ عـن معـظـم وجـوه التّصرفات المالية

نكتةُ تخصيص لفظ (الأكل) بالذكر:

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوهُ﴾، أي: فخذوا ذلك الشيء الذي طابت به نفوسُهن، وتصرفوا فيه تملُّكاً، وتخصيصُ الأكلِ بالذكر؛ لأنه معظمُ وجوهِ التصرفاتِ المالية[1].

في الـوصـفـين ترسيخٌ لتحليل الأكل، ومبالغةِ في الإباحة وإزالة التبعية

سرُّ تذييل الفاصلة بالوصفين ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾:

قوله: ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ صفتان من هنُؤَ الطعامُ ومرُؤَ إذا كان سائغاً لا تنغيصَ فيه، ونصبُهما على أنهما صفتانِ للمصدر أي أكلاً هنيئاً مريئاً أو على أنهما حالانِ من الضمير المنصوب أي: كُلُوهُ وهو هنيء مريء وفي التعبير بهما ترسيخٌ لتحليل الأكل، ومبالغةٌ في الإباحة وإزالة التبعية[2].

إرشـادُ الأولـيـاءِ وتـوجـيـهُـهُـم بـضـرورة حفظِ مالِ اليَتيمِ غير المؤهّل للتصرّف به

بَلاغَةُ الاحتراس في الجملَةِ الإنشَائيَّة:

راعى الخطابُ القرآنيُّ حقوقَ الأيتام، ودلَّ على حمايتها من الهدر والضَّياع في الصِّغر والكبر، ولمَّا جاءت الأوامرُ أولَ سورة النِّسَاء بدفع أموال اليتامى كاملةً، والنَّهي عن أكلها ظلمًا وبهتانًا، جاءت بعدها الجملةُ الإنشائيةُ بالنَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾، احتراسًا "لِدَفعِ تَوَهُّمِ إيجَابِ أَن يُؤتَى كُلُّ مَالٍ لِمَالِكِهِ مِن أَجلِ تَقَدُّمِ الأَمرِ بإتيَانِ الأَموَالِ مَالِكِيهَا مَرَّتَينِ قبلها"[3]؛ فاليتيمُ إذا كان صغيرًا غير بالغٍ، أو كبيرًا غير عاقل، أو طائشًا لا يقدرُ على حفظِ ماله لقلّة عقلٍ، أو تبذيرٍ وسوء تدبير لا يُدفع له المالُ، بل يُحفظُ عند الوليِّ، إلى أن يزولَ عنه السّفهُ، وهذا ما دلَّ عليه النَّهي: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ﴾ بتحريم إعطاءِ الوليّ المالَ لليتيم السَّفيه، بل الحَجْر عليه لتضييعِه مالَه، وفسادِه وإفسادِه وسوء تدبيره[4].

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/144.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/144.
(3) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/233.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/495.

بلاغة التَّعريف بالإضافة:

في التّعريف بالإضافة مبالغةٌ في إرشاد الأولياء وتوجيههم بضرورة حفظِ مال اليتيمِ

ولتأكيد معنى النّهي جاء التَّعريفُ بالإضافة لإفادة العموم في: ﴿أَمۡوَٰلَكُمُ﴾؛ فقد أضاف الأموال إلى الأولياء ونسبَها لهم، ولم يقل: (أموالهم)، مع أنَّ المالَ مالُ السّفهاءِ، مبالغةً في إرشاد الأولياء وتوجيههم بضرورة حفظِ مال اليتيم وكأنّه ماله، ولينبّههُم أنَّه "إذا ضاعَ هذا المالُ وجبَ على الوليِّ أَنْ يُنفقَ عليه من مال نفسه، فإضاعتُه مُفضِيةٌ إلى إضاعة شيء من مال الوليِّ، فكأنَّ مالَه عين ماله، وإلى أنَّ الأمَّة مُتكافلةٌ في المصالح، فمصلحةُ كلِّ فردٍ فيها كأنَّها مصلحةٌ للآخرين"[(1)].

فائدة الوصف بالاسم الموصول:

الموصول يزيد الصّفة وضوحًا، وفيه إيماءٌ إلى تعليل النّهي

وأُجرِيَ على الأَموالِ صِفَةٌ تَزِيدُ إِضَافَتَهَا إِلَى المُخَاطَبِينَ وُضُوحًا وَهِي قَوْلُهُ: ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ فَجَاءَ فِي الصِّفَةِ بِالاسم المَوْصُولِ إِيمَاءً إِلَى تَعلِيلِ النَّهي، وَإِيضَاحًا لِمَعنَى الإِضَافَةِ[(2)]، فهو مالُ اللّه تعالى الّذي جعله عندهُم ليختبرَهم فيه ويبتليَهم به؛ لأنَّه في تصرُّفِ الأولياء وتحتَ ولايتهم[(3)].

توجيه القراءات في لفظ ﴿قِيَٰمٗا﴾:

إنَّ للقيم أثرًا في إصلاحِ النُّفوسِ، وإنّ بالمال يحصلُ قيام الأيتام

وقُرِئت ﴿قِيَمًا﴾ جمع قيمة، فيكونُ المعنى على أنّ حاجةَ النّاس للمال لصلاحِ أحوالهم كحاجتِهم للقيَم لصلاح أنفسهم، وعلى قراءة ﴿قِيَٰمٗا﴾ بالألف بمعنى الّذي يقيمُ شأنَهم، فبهذا المال يحصلُ قيامُهم[(4)].

بلاغة الأمرِ في الدّلالة على الاحتراس:

لَمَّا نُهِيَ الأولياءُ عن دفع الأموال للسّفهاء، احترسَ بعدها بصيغ الأمر للإرشادِ والتّوجيه فقال: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ

(1) المراغي، تفسير المراغي: 4/186.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/235.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/60.
(4) قرأ نافع في هذا الموضع وابن عامر ﴿قِيَمًا﴾، وقرأ الباقون: ﴿قِيَٰمٗا﴾، ابن الجزري، النشر: 2/247.

في الاحتراس دفعُ توهُّمِ من يظنُّ أنَّ منعَ الأموال عن اليتامى السُّفهاءِ عامٌّ مطلقٌ

﴿قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾، وهذا الاحتراسُ دفعَ توهّم من يظنُّ أنَّ منعَ الأموال عنهم عامٌّ مطلقٌ، بل على الوليِّ الانفاقُ على اليتيم السَّفيه بِمقدَارِ انتِفَاعِهِمْ مِنْ نَفَقَةٍ وَكُسوَةٍ؛ ولذَلِكَ قَالَ فُقَهَاؤُنَا: تُسَلَّمُ لِلمَحجُورِ نَفَقَتُهُ وَكِسوَتُهُ إِذَا أُمِنَ عَلَيهَا بِحَسَبِ حَالِهِ وَمَالِهِ[1].

الكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ، وجبرٌ للخواطر، ومراعاةٌ للجانب النّفسيّ

فضلاً عن ذلك راعَت صيغُ الأمر الجانبَ النّفسيَّ والعاطفيَّ لليتيم السَّفيه الّذي لم يُدفع له المالُ، بقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾، فالآيةُ ترشدُ الأولياءَ وتعلمهم أنْ يقولوا للسُّفهاء ما تألفه نفوسُهم، وتُجبرُ به خواطرُهم، ووعدهم بالكلمة الطَّيبة الحسنة، تخفيفًا عليهم من حالتهم بحَجْر أموالهم عنهُم، ونصحهم والعمل على إخراجهم باللّين والكلم الطَّيب غير المُنفِّر من حالة السَّفهِ المُتلبِّسَة بهم[2].

سرُّ إيثارِ حرفِ الجرِّ (فِي):

تنبيهُ الأولياءِ إلى استثمارِ أموال اليتامى حتّى تبقى موضِعًا للفَضلِ

يلحظُ القارئَ إيثارَ القرآن الكريم استعمالَ حرف الجرّ (في)، بدلاً من (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾، لتنبيهِ الأوصياء إلى أنَّ النَّفقةَ على السُّفهاءِ مطعمًا وملبسًا وتعليمًا، وما سوى ذلك لا بدَّ أنْ تكونَ في أرباح أموالهم من الاتِّجارِ فيها قصدًا إلى إنمائِها؛ كي لا تنفدَ، وليس من رؤوس أموالهم نفسِها، فالمعنى: اجعَلُوا لَهُم فِيهَا رِزْقًا، فعبَّر بـ (في) الدَّالَّة على الظَّرفِيَّةِ المَجَازِيَّةِ إشارة إلى الاقتصاد واستثمار الأموال حتّى تبقى موضعًا للفضل، وتكون النَّفقةُ والكسوةُ من الربحِ لا من صلبِ المال، حتَّى يبقى المال ويستمرَّ النَّفعُ[3]، قال الرّاغب: " إن قيل: لِمَ قال: ﴿فِيهَا﴾ في قوله: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ ولم يقل: منها، مع كون ذلك أظهر؟

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/236.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/518.

(3) البغوي، تفسير البغوي: 2/164، والبقاعي، نظم الدرر: 5/196.

قيل: قد ذكر بعضهم أن فيه تنبيهًا على ما قاله ﷺ : "ابتغوا في أموال اليتامى، لا تأكلها الزكاة"، وأن المستحب أن يكون الإنفاق عليها من فضلاتها المكتسبة(1).

نكتةُ تكرار صيغ الأمر:

إرشادُ الأولياءِ وتوجيهُهم للطّريقة المُثلى في التّعاملِ مع اليتامى وأموالِهم

إنَّ النّاظر في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾، يلحظُ تكرارَ صيغ الأمر خمسَ مرّاتٍ في هذه الآية: ﴿وَٱبۡتَلُواْ﴾ ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ﴾ ﴿فَأَشۡهِدُواْ﴾ ﴿فَلۡيَأۡكُلۡ﴾ ﴿فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ﴾، وقد خرجت أغلبُها إلى إرشادِ الأولياء وتوجيههم للطّريقة المُثلى في التّعامل مع اليتامى وأموالِهم، وإن دلَّ بعضُها في أصلها على الوجوبِ، فبدأ بالفعلِ ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، وهو مع دلالته على وجوبِ اختبار اليتامى عند بلوغ الحُلم، فيه معنى توجيهِ الأولياء وإرشادِهم للاختبار وطريقته الّتي تمنع الأولياءَ من استمرار حَجرِهم على أموال اليتامى؛ ففيه شروعٌ في تعيين وقت تسليم أموال اليتامى إليهم، وبيان شرط الدَّفع بعد النَّهي عنه عند كونهم سفهاءَ.

بلاغة الإظهارُ في موضِع الإضمارِ:

في الإظهار زِيادَةٌ في الإيضاحِ والاهتِمَامِ بالحُكمِ

في الآيةِ الكريمةِ أظهر ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ فقال: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، ولم يضمرْهم فيقول: وابتلوهم، مع أنّه ورد ذكرُهم صريحًا وضمنًا فيما سبق، وقد أشار ابنُ عاشور إلى بلاغةِ هذا العدول بقوله: "عُدِلَ عَنِ الضَّمِيرِ إِلَى الاسمِ الظَّاهِرِ وعَنِ الاسمِ الظَّاهِرِ المُسَاوِي لِلأَوَّلِ إِلَى التَّعبِيرِ بِآخَرَ أَخَصَّ وهُوَ اليَتَامَى؛ لِزِيَادَةِ الإِيضَاحِ والاهتِمَامِ بِالحُكمِ، وأَنَّ العُدُولَ عَنْ إِعَادَةِ لَفظِ السُّفَهَاءِ إِيذَانٌ بِأَنَّهُمْ فِي حَالَةِ

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1102، والحديث في السنن الصغرى للبيهقي، برقم: (1221).

الابتِلَاءِ مَرجُوٌّ كَمَالُ عُقُولِهِم، وَمُتَفَاءَلٌ بِزَوَالِ السَّفَاهَةِ عَنهُمْ، لِئَلَّا يَلُوحَ شِبهُ تَنَاقُضٍ بَينَ وَصفِهِم بِالسَّفَهِ وَإِينَاسِ الرُّشدِ مِنهُمْ"[1].

توجيهُ بيان الجملَةِ الشَّرطيَّةِ لأركانِ الاختِبَارِ:

الإرشـــادُ إلى مـسارعـةِ دفـعِ مـالِ اليـتامى عند أوّل علاماتِ الـرُّشـدِ مهما صغُرت

وردت في أوّل الآية الكريمة جملتان شرطيّتان: إحداهُما مُتضمِّنَةٌ للأُخرى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾؛ فالجملةُ الواقعةُ بعد ﴿حَتَّىٰٓ﴾ جملةٌ شرطيةٌ أولى؛ لأنَّ ﴿إِذَا﴾ مُتضمِّنَةٌ معنى الشَّرط، وفعل الشَّرط، وقوله: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ جملةٌ من شرطٍ وجزاءٍ واقعةٌ جوابًا للشَّرط الأوّل ﴿إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾، فكأنّه قيل: اختبروا اليتامى إلى وقتِ بلوغهم؛ فاستحقاقُهم دفعَ أموالهم إليهم بشرطِ إيناس الرُّشد منهم[2]، والآيَةُ ظَاهِرَةٌ في تَقَدُّمِ الابتِلَاءِ والاستِينَاسِ عَلَى البُلُوغِ لِمَكَانِ حَتَّى المُؤذِنَة بالانتِهَاءِ، وهي صَرِيحَةٌ في أنّه إذا لَم يَحصُلِ الشَّرطَانِ مَعًا: البُلُوغُ والرُّشدُ، لَا يُدفَعُ المَالُ لِلمَحجُورِ، فَمَن لَمْ يَكُنْ رَشِيدًا بَعدَ بُلُوغِهِ يَستَمِرُّ عَلَيهِ الحَجْرُ[3].

ولمَّا كان البُلُوغُ وَالرُّشدُ وتَحرِّيهما أَمْرَيْنِ أَسَاسِيَّيْنِ لدفع مالِ اليتيم، ممّا يدفعُ ببعض الأولياء إلى التّلاعب بأموال اليتامى وتضييعها بحجّة عدم توفّر أحد هذين الأمرين، فيضيعَ حقُّ اليتامى ويُظلمون بذلك، جاءت الآيةُ الكريمةُ لتعاضد فيها الشَّرطان بالأداتين (إذا) و(إنْ)، والأساليبُ البلاغيَّة من تنكير وغيرها لحماية اليتيم من الظُّلم، ولبيان هذا الاختبارِ وإيضاحه للأولياء المخاطَبين وتنبيههم على شروطه من دون أي لبسٍ.

فجاء جوابُ الشَّرطِ الأوّل شرطًا ثانيًا مُنبِّهًا إلى المسارعةِ إليه بـ

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/237.

(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/474.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 9/497 - 499.

(إن) الدالّة على مجرّد احتماليةِ وجودِ الرُّشد؛ لدلالتها على مجرّد الظنِّ والشّكِّ بوجوده، بدفع مال اليتيم عند أوّل علاماتِ الرُّشدِ مهما صَغُرت؛ لذا اشترطت هذه الأداةُ إيناسَ الرُّشد مُنَكَّرًا لتقليله؛ فأيُّ نوع من درجات الرُّشد، ومخيلةٌ من مخايله مقبولةٌ لا ينتظرُ به تمامَ الرُّشد الّذي يعزُّ وقوعُه بين البشر[1].

علّة إيثار لفظ الإيناس على غيره:

حـصـولُ أوّل العـلـم بِـرُشـد اليتامى كفيلٌ بأن تُدْفَعَ لهم أموالُهم

أُوثر استعمالُ الفعل ﴿ءَانَسْتُم﴾ الّذي يدلُّ على الرُّؤية والعلم والإحساس بالشَّيء لأوّل بوادره، وإينَاسُ الرُّشدِ هُنَا عِلمُهُ، وأَصل الإينَاسِ رُؤيَةُ الإنسَانِ، ثُمَّ أُطلِقَ على أَوَّل مَا يُتَبَادَرُ من العِلم، فكَأَنَّ في اختيار ﴿ءَانَسْتُم﴾ هُنَا دُونَ (عَلِمْتُم)؛ للإِشَارَةِ إِلى أَنَّه إِنْ حَصَل أَوَّلُ العِلمِ بِرُشدِهِم يُدفَعُ إِليهم مَالُهُم دون تَرَاخٍ وَلَا مَطْلٍ[2]؛ وبهذا حصّنت الآيةُ الكريمةُ أموالَ اليتامى، بتعليم الأولياء آلية دفع أموال اليتامى، ووجوب المسارعة بتسليم الأموال كاملةً سالمةً لهم، بمجرّد تَبيُّن الرُّشد - بعد البلوغ - على أتمِّ وجه، وأفصح بيان.

نكتة تقديم شبه الجملة على المفعول:

وجـه الـتـقـديم العناية بالمقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المؤخَّر

قدّم الجارّ والمجرور في قوله: ﴿مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ على المفعول؛ "للاهتمام بالمقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المؤخَّر أو للاعتداد بمَبدئيَّته له، والتنوينُ للدلالة على كفاية رُشدٍ في الجملة"[3]، أي: رشدًا صالحًا لتحمّل المسؤوليّة، وأعباء الحياة.

قوّة اللَّفظ في صيغة الأمر ﴿فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ﴾:

وَرَدَ في هذه الآية الكريمة نوعٌ طريفٌ من أنواعِ التَّناسب اللّغويّ والبيانيّ يُطلَقُ عليه مصطلح (قوَّة اللَّفظ لقوَّة المعنى) في قوله

---

(1) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/473، والبقاعي، نظم الدرر: 5/197.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/161 - 162.

(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/145.

المبــالـغــةُ في العِفَّة من الوليِّ نفسِه؛ هضمًا لها، وحملًا على النَّزاهة

تعالى: ﴿فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ﴾؛ فإنَّ (استعفَّ) أبلغُ من (عفَّ)، كأنَّه يَطلُب زيادةَ العِفَّة من الوليِّ نفسِه؛ هضمًا لها، وحَمْلًا على النَّزاهة الّتي يجب أن تكون رائدَ أبناءِ المجتمع، ومن المعلوم أنّ اللّفظَ إذا كان على وزن من الأوزان، ثمّ نُقل إلى وزنٍ آخرَ أكثر منه، فلا بدَّ من أن يتضمّن من المعنى أكثر مما تضمّنه أولًا؛ لأنّ الألفاظ دالَّةٌ على المعاني، فإذا زِيدَ في الألفاظِ أوجبتِ الزِّيادةُ زيادةً في المعاني، وهذا النوعُ لا يُستعمل إلّا في المبالغة[1].

تعانقُ التَّعريفِ بالإضافة مع النَّهي في بيان حُرمةِ مالِ اليتيم:

المال حقُّ اليتامى وليس للولي التّصرف به بعد البلوغ

لمَّا بيّن القرآنُ شروطَ دفع أموال اليتامى لهم في أول الآية، بيّن بعدها أنّه يجب على الوليِّ المسارعةُ في إعطاء المال لصاحبه في قوله: ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾، ومن دقائقِ التَّعبير القرآني هنا التَّعريفُ في الأموال بإضافتها إلى ضمير الغائبِ العائد على اليتامى: ﴿أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾، هذا التَّعريفُ الّذي جاء بعد فعل الأمر ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ﴾.

مع تقديم شبه الجُّملة ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول به لبيان أنَّ هذا المالَ مالُ هؤلاء اليتامى وقد خرجَ حقُّ التّصرّفِ للأولياء به؛ فإنّه لمَّا كان اليتيمُ يتيمًا أضافَ القرآنُ هذه الأموالَ إلى ضمير الأولياء لحملِهم على المحافظَةِ عليها، أما هنا وقد بلغُوا الرُّشدَ والحُلمَ، أصبح المالُ مالَهم.

في النّهي تقريرٌ لأمــر الـدّفــع لـلـيــتــامــى، وتـجـريـمٌ لأكل مالهم إسرافًا

ولتأكيد أمر الدَّفع وتقريره، جاء النَّهيُ الحقيقيُّ الدّالُّ على المنع بعدها مباشرة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ﴾؛ أي: لا تَأكُلوها في حالِ صِغرِهم - قبلَ بُلوغِهم وإيناسِ الرُّشدِ منهم - الّتي لا يُمكنُهم فيها أخذُها منكم، ولا مَنعُكم من أكْلِها، لا تأكلوها استعجالًا منكم بذلِك قبل أن يَكبَروا، فيأخذوها

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 2/241 - 242.

منكم ويمنعوكم منها[1]؛ فهو نهيٌ للأولياء بتجريمِ أكل مال اليتامى إسرافًا له، خوفًا من أن يكبروا فيأخذُوها، نهيٌ جاء لحمايةِ مال اليتيم وصيانتِه، بأروع تركيبٍ وأجملِ بيانٍ.

براعة المقابلة البديعية في بيانِ حالِ الفَقيرِ والغَنيِّ مع مالِ اليتيمِ:

في المقابلة بيانٌ لجواز التصرّف بمالِ اليتيمِ بالمعروف عند الفقرِ والحاجَةِ

من بديعِ نسيجِ الآية الكريمة مجيءُ المقابلةِ بين قوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ﴾ وقوله: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾، لتُشعرَ بأنَّ الوليَّ له حقٌّ في مال اليتيم بالمعروفِ من غير إسرافٍ ولا تبذيرٍ ولا جشعٍ[2]. ولِتُبيِّنَ ما الأجدرُ بفعل الوليّ تجاه هذا المالِ الّذي جعلَه اللّٰه تعالى أمانةً عنده، فإنْ كان غنيًا عليه الاستعفافُ عن أكل شيءٍ منه مقابلَ القيام عليه، وإن كان فقيرًا أخذَ منه القليلَ قدرَ ما يسدُّ جوعَه وحاجتَه، وهذا ما يدلُّ عليه الاحتراسُ بكلمة ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾، وتعني أكلَ مال اليتيمِ عند الضرورة والحاجةِ إليه، على وجه الاستقراضِ منه، فدفعت هذه اللّفظةُ الأكلَ من غير هذا الوجهِ تحذيرًا[3].

علّة تقديم الجارِّ والمجرور:

وجه التّقديم العناية باليتامى، والحرص على أموالهم

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ في قوله: ﴿فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ على المفعول: ﴿أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ بعد مراعاة الشرائطَ المذكورةَ عن المفعول الصريح للاهتمام به[4].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَوف والخَشْيَة:

الخوفُ: هو توقُّعُ مكروهٍ أو فوتُ محبوبٍ[5]، وهو ظنٌّ لا يقينَ معه، وضدُّه الأمنُ، وتدورُ مادّته حول الذُّعْرِ وَالفَزَعِ[6].

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 164.
(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 2/61.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 7/5.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 2/146.
(5) الجرجاني، التّعريفات، ص: 101.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (خَافَ).

أمّا الخشيةُ، فهي خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأكثرُ ما يكونُ ذلك عن علمٍ بما يُخشَى منه(1)، وحقيقتُها طمأنينةٌ في القلبِ تبعثُ على التّوقّي(2).

و"تفترقُ الخشيةُ عن الخوفِ، بأنّها تكونُ عن يقينٍ صادقٍ بعظمةِ مَنْ نخشاه، كما يفترقُ الخشوعُ بأنّنا لا نخشعُ إلاَّ عن انفعالٍ صادقٍ بجلالِ من نخشعُ له، أمّا الخوفُ، فيجوز أن يحدُثَ عن تسلُّط بالقهر والإرهابِ، كما أنَّ الخضوعَ قد يكونُ تكلُّفاً عن نفاقٍ وخوفٍ وتقيَّةٍ ومداراةٍ"(3)، والخشيةُ خلاصةُ الإيمانِ والعلم، ولا تكونُ إلاَّ لمؤمنٍ مُصدِّق؛ لأنَّها يقينٌ راسخٌ؛ لذا غلبت على الخوفِ الّذي يكونُ من العبد تجاهَ خالقِه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28](4)، والخشيةُ محمودةٌ في كلِّ مواضعِها، أمّا الخوفُ فمذمومٌ لما يلحقُه من أمارة الظّنِّ، وعدمِ الأمن، والخشيةُ تكونُ من عِظَم المَخشِيّ منه وإن كان الخاشي قويّا، والخوفُ يكون من ضعفِ الخائفِ، وإن كان المَخوفُ أمرًا يسيرًا(5)؛ لذا كانت الخشيةُ في الرّسل زينةً لهم، فامتدَحَها الخالقُ سبحانه بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39]، أمّا الخوفُ فلا يليقُ بالرّسلِ؛ لأنّه ضعفٌ، قال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النّمل: 10]، وقد جمعَ القرآنُ الكريم بينهما في سياقٍ واحد، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرّعد: 21]، وقد نُسّقت الخشيةُ مع الخوف في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقًا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾ [طه: 77]، ومعنى الآية: أنَّك لا تخافُ لحاقًا من فرعون وجنوده، ولا تخشَى غرقًا في البحر(6)؛ قال الآلوسي: "والخشيةُ أعظمُ الخوفِ، وكأنَّه إنَّما اختيرت هنا؛ لأنَّ الغرقَ أعظمُ من ادّراكِ فرعونَ وجنودِه؛ لما أنَّ ذاك مظنّةُ السّلامةِ، ولا يُنافي ذلك أنَّهم إنَّما ذكرُوا أوّلًا ما يدلُّ على خوفهم منه، حيثُ قالواْ: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١﴾ [الشعراء: 61]؛ ولذا سُورع في

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن، ص: 283.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/170.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/332، وابن كثير، تفسير ابن كثير: 1/42.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/165.
(5) الزّركشي، البرهان: 4/78.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/343.

إزاحتِه بتقديم نفيه كما يظهرُ"[1]. وذكر أبو هلالٍ العسكريُّ فروقًا بينهما منها: أنَّ الخَوفَ يتَعَلَّقُ بالمكروه وَبتَركِ المَكرُوه، تَقول خِفتُ زيدًا، وخِفتُ المرضَ، والخشيةُ تتعلَّقُ بمنزلِ المَكرُوه ولَا يُسمَّى الخَوفُ من نفس المَكرُوه خشيةً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد: 21]، والخوفُ تألُّمُ النَّفس من العقابِ المتوقَّع بسببِ ارتكاب المنهيات، والتَّقصير في الطَّاعات، وهو يحصلُ لأكثر الخلقِ، وإن كانت مراتبُه متفاوتةً جدًّا، والمرتبةُ العليا منه لا تحصلُ إلّا للقليلِ[2].

القسط والعدل:

بَينَ (القِسْط) و(العَدل) في الآية، فروقٌ من جهةِ المبنَى والمعنَى، نُجملها فيما يأتي: القِسْطُ هو النَّصيبُ بالعدل كالنِّصفِ، وفعلُهُ (أَقْسَطَ)، وإذا قيل أقسَطَهُ، فكأنَّهم قالُواْ أعطاه النِّصفَ الّذي له[3]، ولأنَّ القسطَ هو النَّصيبُ في الموازين تجدُه يقتضي القِسمةَ العادلةَ، والعربُ تقول: تقسَّطْنا الشّيءَ بيننا، إذا تقاسَمُوه بالقسطِ[4]، والميزانُ لا يُوصفُ بالعدل؛ وإنَّما يُوصفُ بالقِسطِ، تقول: ميزانٌ قِسْطٌ، وميزانانِ قِسْطٌ، وموازِينُ قِسْطٌ، فتصفُه بالمصدر، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: 47][5]، والقِسطُ يقترنُ بالأمور الحسّيَّةِ لكي ينشأ العدلُ بينها، فكما يقترنُ بالكيل والميزان، تجدُه في سياقِ البحثِ في حقوق اليتامى، لئلا يُهضَم حقُّهم، قال تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّساء: 3] وغيرها، ومن القِسط في المحسوسات عروضُ التّجارة، وما يجري فيها من عقود، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 282]. وممّا يدلُّ على مغايرة القِسطِ للعدل اجتماعُهما في سياق النَّص القرآنيِّ في آية النِّسَاء، وفي قوله - تعالى - أيضًا: ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: 9].

فالعدلُ يتضمَّن الإنصافَ، وهو المساواةُ في المكافأة[6]، وتقييدُ الإصلاحِ بالعدل؛ لأنَّه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/547.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 217.
(3) الراغب، المفردات، ص: 670.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 234.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (قسط).
(6) الراغب، المفردات: (عدل).

يفصلُ فيما بينهما على ما حكم الله، أمّا الإقساطُ فيُوجبُ الضّمانَ بعد أنْ تضعَ الحربُ أوزارها، والضَّماناتُ تكونُ في الأمور الحسيَّة: كالأموالِ والدِّماءِ، وما تركَته الحربُ من آثارٍ يجبُ مراعاةُ القسطِ فيها[1]، والعدلُ ما قام في النُّفوس أنّه مستقيمٌ، وهو ضدُّ الجَورِ[2]، وأصلُه من قولهم: عدلتُ عن الطَّريق، أعدلُ عنها عدلًا؛ وإنّما سُمِّي العدلُ كذلك؛ لأنَّه عَدَلَ عن الجَور إلى القصدِ[3]، والعَدْلُ يغلُبُ عليه الحكمُ في الأشياء بالحقّ، والقضاءُ بشرع الله تعالى، ومنه سُمِّي الحقُّ سبحانه بـ (العدل)، وهو بالمعاني ألصقُ من المحسوساتِ، من ذلك مثلا، اقتران العدلِ بالتَّقوى والشّهادةِ في الحكم[4].

(1) الزّمَخْشري، الكشّاف: 4/365، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/216.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (عدل).

(3) الزَّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 44.

(4) الدوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 152 - 153.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ
مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا ﴿٧﴾
وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم
مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلًا مَّعۡرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [النّساء: 7 - 8]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

العلاقة بين أحكام الوصاية على أموال اليتامى، وتفصيل حقوق الضّعفاء عمومًا

جاءَت هاتان الآيتان الكريمتان لِتِبْيَانِ حقُوق الضُّعفاء من اليتامى وغيرهم، وتأكيد الحفاظ على الأموال المستحقّة لهم، على نحو ما ورد في الآية السّابقة، وقد جاء السّياق ليؤكّد الأنصبة المفروضة ممّا ترك الأقارب الهالكون، توطئة لتفصيل أحكام الميراث المدرجة في سورة النّساء بعد ذلك، وتفاديًا لأعراف الجاهليّة في توريث الكبار الأقوياء دون الصّغار الضّعفاء، وتوريث الذّكور دون الإناث، ليعيش هؤلاء المستضعفون في ذلّة وهوان وفاقة، فجاءت الآيات ترفع الغبن، وتزيل الضّرر، وتضمن الحقوق، تلافيًا للصّدام والخصام والعقوق.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَصِيبٌ﴾: النّصيب: الحظّ من كلّ شيء، والجمع: أنصباء، وأنصبة، ومن المجاز: لي نصيب منه: أي قسم[1]، وهو لفظ إمّا يعني جزءًا من شيء، كما في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾، أو يعني حظًّا من كلّ شيء، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: 77][2]، وقد استعمل لفظ ﴿نَصِيبٌ﴾ ليدلّ على أنّه حقّ مشروع، لا ينازعه فيه أحد، وأنّ التّركة ليست له وحده، وإنّما له نصيب كما لغيره من الورثة

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نصب).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (نصب).

أنصبة، فضلًا عن كون التّوزيع هو أمر اللّه الّذي عنده كلّ شيء بمقدار، وذلك ما يدلّ على دقّة اللّفظ في سياقه البليغ.

2) ﴿تَرَكَ﴾: التّرْك: وَدْعُك الشَّيء تتركه تَركًا، والاتّراك: الافتعال[1]، ويظهر أنَّ المعاني الّتي يدور حولها التَّرك: هي مفارقة الشَّيء ما كان يعلَق به، ورفضُه قصدًا واختيارًا، أو قهرًا واضطرارًا، فمنَ الأوّل: قوله تعالى: ﴿۞وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ [الكهف: 99]، ومنَ الثّاني قوله تعالى: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ﴾ [الدّخان: 25]، ومنه تَرِكَةُ فلان، لما يخلّفه بعد موته[2]، والّذي في القرآن من التَّركيب كلّه بمعنى التَّخلّي عن الشَّيء أو تخليته، لكن قد يكون تفسير التَّرك بإبقاء الشَّيء دون غيره ذاتًا، أو بإبقائه على حالٍ ما، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧﴾ [البقرة: 17][3].

3) ﴿ٱلۡوَٰلِدَانِ﴾: يُقال للأب: والدٌ، وللأمّ: والدةٌ، ويُقال لهما: والدان على التَّغليب، قال تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [نوح: 28][4]، والوالد لا يُطلَق إلّا على من ولدك من غير واسطة، والأب: قد يُطلَق على الجَدِّ البعيد، ومن هذا المُنطلَق ورد لفظ الوالِدان في الآية الكريمة، فأحقيَّة الميراث تجب لمن كان من نسلِهما من غير واسطة، وتتحقَّق فيه شرعيّة الوريث[5]، والمعنى أنّه: اذا ترك الوالدان مالاً، فإنّه ينقسم، للرّجال نصيب منه، وللنّساء نصيب، سواء أكان الوارث صغيرًا أو كبيرًا، ذكرًا أو أنثى، ومهما كان المال الموروث قليلًا أو كثيرًا[6]، وما ينطبق على ما تركه الوالدان، ينطبق على ما تركه الأقربون، والميراث فيه أولويّات على قدر درجة القرابة..

4) ﴿مَّفۡرُوضٗا﴾: الفَرضُ: الحزُّ في الشَّيء، يُقالُ: فَرَضتُ الخَشَبَةَ، والحزُّ في سِيَةِ القَوسِ فَرضٌ، حيثُ يقعُ الوتَرُ، والفَرضُ: الثُّقبُ في الزَّندِ في المَوضِع الَّذي يُقدَحُ منه، والمِفرَضُ: الحَديدةُ الَّتي يُحزُّ بها"[7]، وَمِنه اشْتِقَاقُ الْفَرْضِ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللّه تَعَالَى، وَسُمِّيَ

(1) الخليل، العين: (ترك).
(2) الراغب، المفردات: (ترك).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ترك)
(4) الراغب، المفردات: (ولد).
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 566.
(6) القطّان، تيسير التّفسير، ص: 268.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرض).

بِذَلِكَ لِأَنَّ لَهُ مَعَالِمَ وَحُدُودًا[1]، وفرضْتُ الشّيء أفرِضهُ فَرْضاً وفَرَّضْتُه للتّكْثِيرِ أوْجَبْتُه، وقوله تعالى ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا﴾ [النّور: 01]، معناه ألزمناكُم العَملَ بما فُرِضَ فيها ا[2]، وفي قوله تعالى: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ اسم مفعولٍ، والمفروض الّذي فرضه اللّه تعالى، وهو آكدُ من الواجب[3]، والمفروض المقطوع، أو المعلوم أو يقصد به التَّعيين، "فمعنى كَونِهِ مَفروضًا أَنَّه مُعَيَّنُ المقدار لكلِّ صنف مِنَ الرِّجال والنِّساء"[4]، وقد عبّر اللّفظ عن دقّة الحسبة، للأنصبة الّتي فرضها في التّركات، لتحقيق العدل، وإيتاء كلّ ذي حقّ حقّه.

5) ﴿ٱلْقِسْمَةَ﴾: الاسم من الاقتسام قال اللّه تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النّجم: 22][5]، والقسمة من قَسَمَ، ومصدره القَسمُ: من قَسَمَ الشّيءَ يَقسِمُه قَسماً فانقَسَمَ، والمَوضعُ مَقسِم مِثالُ مَجلِسٍ، وقَسَّمَه: جزَّأَه، وهي القِسمَةُ، والقِسم، بالكسر: النَّصيبُ والحَظُّ، والجَمعُ أَقسام[6]، والقسيم: شطر الشّيء، يقال: هذا قسيم هذا أي: شطره، تقاسما المال اقتسماه بينهما، فالاقتسام والتّقاسم بمعنًى واحدٍ، والاسم منهما القسمة[7]، والمقصود أنّ الفقراء من الأقارب الّذين لا نصيب لهم في الميراث، إذا حضروا قسمة المال الوافر الغزير، تاقت نفوسهم إلى حيازة شيء منه، فكان الأمر أن يعطوا شيئًا من ذلك المال، كيما يكون برًّا بهم، وجبرًا لخواطرهم، ومنعًا من سريان الحسد إلى نفوسهم[8]، وذلك من حكمة اللّه في الأحكام، وبلاغة القرآن في تنسيق الكلام.

6) ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينُ﴾: جمع مِسكين على وزن مِفْعِيل، وهو من السّكُون، مِثل المِنْطِيق من المنطق، والمَسكَنَة: مصدر فعل المِسكين، وإذا اشتَقُّواْ منه فعلًا قالوا: تَمَسكَنَ الرّجل، أي: صار مِسكينًا، وتَمَسْكَنَ إذا خَضَعَ للّه، وهي المَسْكنةُ للذّلَّة[9]، والملحظ في المسكين هو شدَّة القرار للتَّسليم، أو لقلَّة الحيلة والعجز ونحوهما، والمساكين هم الفقراء الّذين

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرض).
(2) ابن سيده، المحكم: 8/184.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/374.
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: 3/217.
(5) نشوان الحميري، شمس العلوم: 8/5481.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (قسم).
(7) الزَّبيدي، تاج العروس: (قسم).
(8) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 501.
(9) الأزهري، تهذيب اللغة: (سكن).

أسكنتهم الحاجة، بمعنى أذلّتهم، وأحوجتهم للتطلّع إلى ما يقسم، عسى أن يكون لهم منه نصيب، وليس معنى حضورالقسمة المشاهدة، وإنّما المراد العلم بهم، من مُقَسِّمي التّركة، عِلْمَ حضورٍ ومعاينة، فيعطوا ما يسدّون منه حاجاتهم، لا ما يغني، فإنّ ذلك مستبعد في المعتاد[1].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

إزجاءُ حقوق الضّعفاء، ضمانٌ لاستيفاء كلّ ذي حقّ حقّه

جاءتِ الآية الأولى لبيان أنّ للرِّجالِ والنِّساءِ نصيبًا من التَّرِكة الّتي يتركها المورِّثُ، من الوالدين أو الأقربينَ، سواء كان الإرثُ قليلًا أم كثيرًا، نَصيبًا واجبًا معيَّنَ المقدار، تصحيحًا لما كان واقعًا من مظاهر الظّلم المسلّط على الضّعفاء في الجاهليّة، بمنعهم من الميراث، والاستحواذ على أنصبتهم بالباطل، بينما ترشد الآية الّتي بعدها إلى أنَّه إنْ حضَرَ الأقاربُ من غير الوارثين، وقتَ تقسيم التَّركة، أن يُعطَوا منها، مع إرفاق ذلك، بالقول الطّيب، والمعاملة بالمعروف، قال ابن عبَّاس: "أَمَرَ اللّه تعالى المُؤمنينَ عند قِسمَة مَواريثِهِم أن يَصِلواْ أَرحامَهُم وأيتامهم ومساكينهم مِنَ الوَصيَّة، إن كان أَوصى لهم، فإن لم يَكنْ لهم وَصِيَّةٌ، وصل إليهم مِنَ الميراث"[2]، وفي هاتين الآيتين إرشاد إلى التّكافل الاجتماعيّ، وفعل الخيرات من صَدقة، وصلة رحم، وجَبرِ خاطر ليتيمٍ أو مسكينٍ أو فقيرٍ.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

في القَصْر استحقاقُ كلٍّ من الرِّجال والنِّسَاء نصيبًا مخصوصًا من الميراث

بلاغة تقديم الخبر على المبتدأ:

من بلاغة الآية الكريمة القصر بتقديم ما حقّه التّأخير، إذ قُدِّم الخبر - شبه الجُملة من الجارّ والمجرور - ﴿لِّلرِّجَالِ﴾ على المُبتدأ ﴿نَصِيبٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ

(1) أبوزهرة، زهرة التّفاسير: 3/1596.
(2) السِّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 3/874.

وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾؛ لإثبات هذا النَّصيب للرِّجال خاصَّةً، ثمّ للنِّساء نصيبٌ فيما بعد.

فائدة (اللّام) في لفظَي الرّجال والنّساء:

أكّـدتِ الـلّامُ الاسـتـحـقـاقَ، ورسّـخـتِ الأحـقّـيّـةَ في الميراث:

فاللَّام في شبه الجُّملة ﴿لِّلرِّجَالِ﴾ تُفيد الاستحقاق، وهو نظير الاختصاص وفرعٌ عنه، فكلُّ واحد منهما له نصيبٌ محدّدٌ من هذا الميراث، والمعنى كما ذكره الطَّبريّ في تفسيره "يعني بذلك - تعالى ذِكْره - للذُّكور من أولاد الرَّجل الميِّت حصَّة من ميراثه، وللإناث منهم حصَّة منه، من قليل ما خلَّف بعده وكثيره، حصَّة مفروضة واجبة معلومة مؤقّتة"[1].

في دخول اللّام على (للنساء) تقريرٌ لاستحقاق كلّ طرفٍ في الإرث

ويُقرّر هذا الاستحقاق لكلِّ طرفٍ منهما إعادة اللَّام فيما بعد مع النِّساء في قوله تعالى: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ﴾ ليكون تقريرًا بحقِّ كلٍّ من الرِّجال والنِّساء في ما يتركه والِدُوهم وأقاربهم من إرث كنصيبٍ مفروضٍ من اللّه تعالى.

سرُّ تقديم الرّجال على النساء:

للقوامة فضلٌ، وخصيصة تميّز، ومسؤوليّة كبرى

وقَدَّم تعالى ذِكر الرِّجال على النِّسَاء في أمر الميراث الّذي يَشترِكون في الاستحقاق فيه، فقال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ﴾ ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ﴾، وهذا هو المشروعُ والمعقولُ والفِطريّ لأنَّه الأصل، وقد عَكَس ذلك مَن عكس اللّه قلوبَهم مِن الضّآلين؛ إذ قدَّموا النِّساءَ على الرِّجال، وهذا خطأ عظيم؛ لأنَّ الرِّجالَ مُقدَّمون على النِّساء، وهم قوَّامونَ عليهنَّ[2].

نكتةُ تنكيرِ لفظة ﴿نَصِيبٞ﴾:

النـصـيـب في المـيراث أمـرٌ مـسـتـجـدٌّ في حياة العرب لم يعهدوه

من البلاغة في الآية الكريمة إيثار تنكير لفظة ﴿نَصِيبٞ﴾ دون تعريفها في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ﴾ ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ﴾؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/597.

(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة النِّساء: 1/51.

للتَّنبيه على أنَّها شروع في حدثٍ جديدٍ مهمٍّ لم تعهده العرب من قبل الإسلام.

فائدة تكرار لفظ النّصيب:

إعـــادة لـفـظ النصيب لتحقيق فرض النّصيب

أُعيدَ لفظ الموصوف ﴿نَصِيبٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾؛ لتبيين كون أنّ المفروض هو النصيب لا غير[1].

بلاغة الفصل في الآية:

في الاستئناف إجمالٌ للنَّصيب مـن المـيراث مـسـتـتـبـعٌ لتفصيلٍ قادمٍ

فهو استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو جارٍ مَجرَى النَّتيجة لِحُكم إيتاء أَموال اليتامى، ومَجرَى المُقَدِّمَة لأَحكام المواريث الَّتي في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾، وفيه أيضًا تهيئة النُّفُوس لهذه الأحكام الجديدة بالتَّدريج، فهي كالمُقَدِّمة جَاءَت بإِجمال الحقِّ والنَّصيبِ في الميراثِ وتلاهُ تفصيلُهُ[2].

وجهُ المجازِ المُرسَل بعلاقة الكُلِّيَّة:

أداءُ الميراث إلى مستحقّيه حكمٌ ربّـانيٌّ واجـبُ الأداء

في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾، مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقة الكُلِّيَّةِ إذ أُطلق الكلّ ﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ وهو لفظٌ عامٌّ يشمُل كلّ الأقارب، وأراد جزءًا منهم وليس جميعهم؛ إذِ المُراد بـ ﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ في الآية الكريمة أربابُ الفرائض، وليس كلَّ الأقارب[3]، ولا يخفى ما في هذا المجاز من إفادة التّأكيد والمبالغة على هذا الحكم الرّبّانيّ في أداء الميراث لمستحقّيه.

الإطناب البلاغيّ بذِكر العَامِّ بعدَ الخَاصِّ:

للوالدين عظيمُ المـنـزلـة بين الأقـارب، وهما الأصل في باب الميراث

من بلاغة الآية الكريمة أيضًا الإطناب بذكر العامِّ بعد الخاصِّ في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾، فقد ذكر الخاصّ ﴿ٱلۡوَٰلِدَانِ﴾ أوّلاً، ثمّ ذكر العامَّ ﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾، ولم يكتفِ بذكر

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1111.

(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/247 - 248.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/532.

الأقربين فقط، مع أنَّ الوالدَين يدخلان ضمنًا فيهما، بل ذكرهما على وجه الخصوص أوّلًا؛ لبيان شدَّة قرابتهما لمن يرث أوّلًا، وعظم منزلتهما بين الأقارب[1]، فضلًا عن ذلك فقد خصَّهما بالذِّكر؛ لأنَّهما من أوّل أصناف من يُورَثُون وأكثرها، فهم الأصل في الباب، فجاءتِ الآية الكريمة بذكرهم مرّتين أوّلًا: بإفرادهم ﴿ٱلۡوَٰلِدَانِ﴾ على وجه الخصوص، وأخرى: على وجه العُموم في لفظ ﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾؛ لإظهار العناية بشأن الخاصّ بذكره مرَّتين كما بيَّنّاه.

بلاغة إيراد حُكم النّساء على وجه الاستقلال:

في الإسلام عناية خاصّة بشأن النساء، وأنّ لهنَّ حقًّا أصيلًا في الميراث

إنَّ النّاظر في الآية الكريمة يرى تَكرارًا للقالب الجملي المكوّن من المسند والمسند إليه مع تغيير لفظ النساء مُقترنًا بلام الاختصاص في قوله تعالى: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾، وأورد حُكم النّساء على وجه الاستقلال دون الدرّجِ في تضاعيف أحكامِهم مع الاكتفاء بالعطف بأن يُقال: (للرِّجال والنِّساء نصيبٌ)؛ للدّلالة على أنَّ لكلِّ فئةٍ من الطّرفين الرِّجال والنِّسَاء مُستحقِّين لأصل النَّصيب من الميراث كما مرَّ بيانه[2]، وللاعتناء بأمر النِّساء، والإيذان بأصالتهنَّ في استحقاق الإرث، والإشارة من أوَّل الأمر إلى تفاوت ما بين نصِيبَي الفريقينِ، والمبالغة في إبطال حُكم الجاهليَّة في عدم توريثهنَّ[3].

استقلال حكم النساء تعريضٌ بصنيع المشركين في منعهم النساء من الإرث

فهذه الآية الكريمة جاءت ردًّا على المشركين بعدم توريثهم للنِّسَاء وتعريضًا بهم وبفعلهم، بإثبات هذا الإرث لهنَّ كما للرِّجال، هذا الإرث الّذي لم يكن مُعتَرَفًا به من قبل، وبهذا تتبيّن العناية الرّبَّانيّة بالنِّساء على اختلاف أحوالهنَّ في هذه الآية الّتي تُعدُّ " أوَّل إِعطاءٍ لِحقِّ الإرثِ للنِّساء في العرب "[4].

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 2/240.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/597.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/146.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/249.

بلاغة التَّكرار والإظهار في مَوضِع الإضمار:

الرِّجال والنِّساء متساوون في القرب من سبب الإرث

من بلاغة التَّراكيب في الآية الكريمة تَكرار الاسم الموصول وصلته مع النِّساء في قوله تعالى: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ على طريقة الإظهار في مَوضِع الإضمار، إذ عدل عن الإضمار ولم يقُل: (ممَّا تركوا) لذكر الصِّلة قبلها، بل أظهر وأعاد الموصول مع صلته بالاسم الظّاهر ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾، وجاء هذا التَّكرار ليُقرِّر أنّه لا فرق بين النَّسَاء والرِّجال في القُرْبِ من المورِّث الّذي هو سبب الإرث، وفيه تأكيدٌ لِحقِّهنَّ بعموم الإرث أسوة بالرِّجال، فضلًا عن أنَّ فيه تعريضًا بالمشركين وردًّا عليهم بإبطال حُكمهم في الجاهليّة بعدم توريث النِّسَاء[1].

بلاغة الطِّباق بين القلَّة الكثرة وإفادته للاحتراس:

في الطباقِ تأكيدٌ لاستيفاء كامل الحقِّ في الإرث قلَّ أو كَثُرَ

من بديع نسيج الآية الكريمة طباقُ الإيجاب بين الفعلين: ﴿قَلَّ﴾ و﴿كَثُرَۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾، وهذا الطِّباق دلَّ على التَّسوية في الموروث سواء أكان قليلًا أم كثيرًا، فهذان المعنيان المُتضادَّان أعطيا بالجَّمع بينهما بالطِّباق معنى تأكيد كلِّ الحقوق في الإرث لكلا الطّرفين الرِّجال والنِّساء، مع التركيز على حقّ النساء في كل تركة قليلة أو كثيرة فليس حقها تسامحًا يُعطى، ولكنّه حقٌّ ثابت، لَا يُقَدّم عليه حقّ الرجل، بل يثبتان معا في القليل والكثير، ولا تسامح في القليل[2].

وفي هذا الطِّباق احتراسٌ يدفع "توهّم اختصاص بعض الأموال ببعض الورثة كالخيل وآلات الحرب للرِّجال"[3]، فضلاً عن ذلك فإنَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/200.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1595.

(3) الآلوسّي، روح المعاني: 2/421.

في الطباقِ دفعُ توهُّمِ اختصاص بعض الأموال ببعض الورثة

هذا الطِّباق مع ما سبقه من بيانٍ لحقوق النِّساء في الإرث، يُقرر "المبدأ العامّ، الّذي أعطى الإسلامُ به النِّسَاء منذ أربعة عشَر قرناً، حقَّ الإرث كالرِّجال - من ناحية المبدأ - كما حفظ به حقوق الصِّغار الّذين كانتِ الجاهليّة تظلمهم وتأكل حقوقهم؛ لأنَّ الجاهليّة كانت تنظر إلى الأفراد بحسب قيمتهم العمليّة في الحرب والإنتاج، أمَّا الإسلام فجاء بمنهجه الرَّبَّانيّ، ينظر إلى الإنسان أوّلاً بحسب قيمته الإنسانيَّة؛ وهي القيمة الأساسيَّة الّتي لا تُفارقه في حالٍ من الأحوال، ثمّ يَنظر إليه بعد ذلك حسب بحسب تكاليفه الواقعيَّة في محيط الأسرة والجماعة.

لفظا القلّة والكثرة بين الترقّي، والتّدلّي:

الأحـــرى بمن يـؤمـرُ بإعطاء القـلـيـل، أن يـجـزل العطاء الكثير

قال ابن عرفة: " قوله تعالى: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ﴾ إمّا ترقٍّ فيكونَ تأكيدًا، أو تدلٍّ فيكون تأسيسًا؛ لأنهم إذا أمروا بالإعطاء من القليل فأحرى الكثير، ومنهم من قال: إن القليل ربما تسمح النفس به وبالإعطاء منه بخلاف الكثير"(1).

علّة التّعريف بأل الاستغراقيّة:

التّعريف بـ (أل) يفيد العموم القطعيّ والعموم المخصوص

جاءتِ الألفاظ ﴿لِّلرِّجَالِ﴾ و﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ و﴿وَلِلنِّسَآءِ﴾ في الآية الكريمة بصيغة الجمع المعرَّف بـ (أل) الاستغراقيَّة لإفادة العموم، وهو عمومٌ قطعيٌّ في لفظ ﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ يُراد به جميع أفراده من حيث التَّناول، وعمومٌ مخصوصٌ في لفظتي ﴿لِّلرِّجَالِ﴾، و﴿وَلِلنِّسَآءِ﴾؛ لأنَّ اللَّفظين يُراد بهما جميع أفرادهما من حيث التَّناول، ويخرج البعض من الحكم، إذ يَخرج الذُّكور والإناث من أقارب الميت غير الوارثِين، ويؤكّد ذلك قوله تعالى بعدها: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/8.

فبعد أن بيَّن تعالى أنَّ الميراث للأقربين من الرِّجال والنِّساء أمر في هذه الآية بإعطاء من حضر القسمة من القرابة من غير الوارثِين على سبيل النَّدب(1).

والمُراد بلفظي: ﴿لِّلرِّجَالِ﴾، و﴿وَلِلنِّسَآءِ﴾ في الآية الذُّكور، والإناث كلُّهم - صغيرهم وكبيرهم - من أولاد الميت وأقاربه الوارثِين، فلكلٍّ منهم نصيبٌ من الميراث الّذي خلَّفه الوالدان والأقربون عمومًا(2)، ودخول الصِّغار من باب التَّغليب؛ إذ إنَّ أصل لفظ (الرِّجال) يُطلَق على الذُّكور البالغين، وكذا لفظ (النِّسَاء) يُطلَق على الإناث البالغات(3).

بلاغة الإيجاز بالحذف، ودلالة الاختزال بـ ﴿مَّفْرُوضًا﴾:

في الاستغناء بالمذكور تنبيهٌ على أنَّ التّلاعبَ في الميراث عدوانٌ على شِرْعَةِ الإسلام

في قوله تعالى: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ إيجازٌ بالحذف، فالفارض هو اللّه تعالى، لكن حُذِف وبُني الوصفُ للمفعول للعِلم به، فهو كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ٢٨﴾ [النّساء: 28]، والّذي خلَقَه هو اللّه تعالى(4).

والتَّعبير بالنَّصيب المفروض يقتضي معرفة الفارض والمفروض له والمفروض عليه والأمر المفروض، أمّا الفارض فهو اللّه تعالى لم يُذكَر للعلم به إيجازًا، فإن عُلم هذا عُلم أنَّه لا يجوز مُطلَقًا تغيير ما فرضه اللّه تعالى في المواريث، وكلُّ إنكار لذلك أو محاولة في تغييره عدوانٌ على منهج الإسلام، وخللٌ في العقيدة الّتي بُني عليها؛ لأنَّه معروفٌ من الدِّين بالضَّرورة، وأمّا المفروض له فصاحب الحقِّ الّذي يدخل ميراثه شرعًا في مُلكه من دون إذنه، وإنْ انتفى منه، ولو أعرض عنه قبل استحقاقه لم يسقط عنه، والمفروض عليه

(1) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 1/428.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/597، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/47.
(3) اللّاحم، تفسير آيات الأحكام في سورة النِّساء: 1/549.
(4) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة النّساء: 1/52.

هم الورثة كافّة بصفتهم المُباشرين للقسمة، والقضاء الإسلاميّ بصفته راعي الشَّريعة والمسؤول عن تطبيقها، أمّا المفروض فهو الحقوق والأنصبة المُقدَّرة للورثة في تركة المُتوفَّى[1].

بلاغة تنكير الفاصلة ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾:

في التَّنكير إشعارٌ بوجوب الامتثال للمفروض من الإرث دون ريبٍ أو تردد

من بلاغة التّراكيب في الآية أيضًا تنكير ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ في خاتمة الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾، وجاء هذا التَّنكير إشعارًا بتعلُّق الحُكم بالوصف، أي: نصيبًا مقطوعًا مفروضًا واجباً لهم يجب الامتثال به دون تردُّد وهوادة، وفيه دليلٌ على أنَّ الوارثَ لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقُّه[2].

و يقرِّر ما سبق نصب ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ على الاختصاص، أي: نصيبًا مفروضًا مقطوعًا واجبًا لا بُدَّ لهم من أن يحوزوه ولا يستأثر به، أو منصوبًا على أنَّه مصدرٌ مؤكّدٌ كأنَّه قال: قسمةً مفروضةً كقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾، أو على الحاليّة، أي: ثبَت لهم نصيبٌ كائنٌ ممّا ترك الوالدان والأقربون حالَ كونِه مفروضاً[3].

في الاختصاص إيجابٌ لأداء الحق كاملا غير منقوص

يفيد الاختصاص العناية أي قدرًا عناه الله تعالى وقصده ﴿مَّفْرُوضًا﴾ أي مقطوعًا لَا سبيل إلى الهوادة فيه، والاكتفاء ببعضه نزرًا يسيرًا، أو مقدارًا كبيرًا، فلا بد من إعطائه كاملًا غير منقوص[4].

سرُّ تأكيد أحقيَّة النِّسَاء بالميراث أسوة بالرِّجال:

الميراث حقٌّ ثابتٌ للرِّجال والنِّساء في تركة المُتوفَّى

مع أنَّ هذه الآية الكريمة: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ قد جاءَت كالمُقدِّمة المُختَزلة بإجمال الحَقِّ

---

(1) الحمداويّ، تفسير سورة النّساء، ص: 38.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/147.

(3) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/476.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1595.

والنَّصيبِ في الميراث، فإنَّها في الوقت نفسه جاءت مُؤكِّدة أصالة المرأة في الميراث بجانب الرّجل، ومُوَطّئة لتفصيل أكثرَ فيما يأتي بعده، وإشارة إلى كونه يختلف باختلاف وضع المرأة والرَّجل، ومستوى قرابتهما من المُتوفَّى، ومقدار مسؤوليّة كلّ منهما وواجباته داخل الأسرة الإسلاميَّة؛ وبذلك كانتِ الآية تمهيدًا لما بعدها من أحكام المواريث الجديدة الّتي شقَّت على بعض الجِبِلَّات الجاهليَّة، ثمّ ركنت إليها النُّفوس وسكنت لها الأفئدة بالتَّدريج، وأكَّد اللّه تعالى هذا النَّصيب ثانية بقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَۚ﴾، أي: أنَّه ثابتٌ للنِّسَاء والرِّجال على السَّواء في تركة المُتوفَّى، ومُتعلِّقٌ بكلِّ جزءٍ منها قليلًا كان أم كثيرًا، ثم أكَّده مرّة ثالثة بقوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[1].

الميراث حقٌّ مستقلٌّ للنِّساء في تركة المُتوفَّى وليس تابعًا لحقّ الرّجل

وفي حشد هذه المؤكّدات ترسيخٌ لحقهنَّ، وبيانٌ بأنّه حقٌّ مستقلٌّ عن حقّ الرَّجل، ثبت لهنَّ استقلالًا بالقرابة، كما ثبت له استقلالًا بالقرابة، حتى لَا يتوهم أحد أن حقهنَّ تابع لحقه بأي نوع من أنواع التبعية[2].

نكتة التعبير بـ ﴿وَإِذَا﴾ دون (إن):

إرزاقُ مَنْ يحْضَرِ القِسْمَة أمرٌ واجبٌ

عُبِّر بـ ﴿وَإِذَا﴾ دون (إن) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ "إمّا إشارة إلى ترجيح الأمر بإرزاقهم منه وتأكيده، وإمَّا لأن حضورهم أمر غالب أكثري"[3].

علّةُ تقديمِ المفعول به ﴿ٱلْقِسْمَةَ﴾ على الفاعل ﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾:

في تقديم القسمة بيان شدَّة العناية بها؛ لأنَّها المبحوث عنها

من البلاغة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، تقديم المفعول به ﴿ٱلْقِسْمَةَ﴾ على الفاعل وما عُطف عليه ﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ

(1) الحمداويّ، تفسير سورة النّساء، ص: 37 - 38.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1595.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/8.

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾، وأصل التَّركيب (وإذا حضر أولوا القربى واليتامى والمساكين القسمةَ)[1]، ولكنَّه قدَّم المفعول به لأغراضٍ يستدعيها السِّياق والجوّ العامّ للسُّورة الكريمة؛ وهي شدَّة العناية بهذه القسمة؛ لأنَّها المبحوث عنها، ومُتعلِّق الحُكم بها، ولأنَّ في الفاعل تعدادًا ﴿أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾، فلو رُوعي التَّرتيب يفوت تجاوب أطراف الكلام[2].

في التقديم مطابقة إيقاعٍ للَّفظ على الواقع

ومن بلاغة التَّقديم أيضًا أنَّه قدَّم ﴿ٱلۡقِسۡمَةَ﴾ لتكون أمام الحاضرين في اللَّفظ كما أنَّها أمامهم في الواقع[3]، وهذا كلُّه يغيب لو جاء التَّعبير بالتَّأخير (وإذا حضر أولوا القربى واليتامى والمساكين القسمة).

منهجُ الاسلام تحقيق التَّكافل الاجتماعيّ: بتراتبِ العناية على الأَوْلى، والأهمِّ

بلاغةُ طريقة التَّدلّي في ترتيب الألفاظ:

من بلاغة التّراكيب أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ التَّقديم والتَّأخير اللّفظيّ، أي: ترتيب الألفاظ تقديمًا، وتأخيرًا وفاقَ طريقة التَّدلِّي[4] بذكر الأهمّ ثمّ الّذي يليه، فقد ذكر أوّلًا ﴿أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، ثمَّ ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، ثمَّ ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾ على التَّوالي، وهذا التَّرتيب مقصودٌ في هذا السِّياق، إذ جاء ليُعزِّز معنى التَّقديم التَّركيبيّ بتقديم القِسْمة على الفاعل قبلها، ويُقرِّر معناه، ويناسب المعنى العامّ للسّورة الكريمة.

ونكتة تقديم ﴿أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ على ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾؛ للاهتمام وبيان شدَّة العناية بالمُقدَّم على سنن العرب في تقديم الأهمِّ بحسب الموقف، وتبرز أهميّته من أنْ قدَّم ذوي القربى على

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/283.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/147.

(3) الآلوسّي، روح المعاني: 2/422.

(4) التَّدلّي: هو أن يُذكر الأعلى ثمّ الأدنى لنُكتة، يُنظر: السُّيوطيّ، الإتقان: 3/46.

اليتامى والمساكين؛ لأنَّهم أولى بالصَّدقة لقرابتهم، ولأنَّ إعطاءهم بجانب أنَّه صدقة، فهو صلة للرَّحم الّتي أمر الله تعالى بصلتها، وفي هذا الإعطاء كسبُ مَحَبَّتِهِم والتِئامُ الصّفّ بين الأقرباء[1].

أمّا تقديم ﴿وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ﴾ على ﴿وَٱلۡمَسَـٰكِينُ﴾ فتكمن بلاغته في أنَّ "ضَعفَ اليتامى أكثر، وحاجتهُم أَشدُّ، فكان وَضعُ الصَّدقات فيهم أَفضل وأَعظم في الأَجر"[2].

في تأكيدِ السُّنّة المطهَّرة هذا التَّرتيب في استحقاق الإعطاء؛ تربيةٌ للنّفوس

وهذا التَّرتيب في الآية الكريمة بين الفئات الثّلاث وفي الآيات الأخرى المشابهة، والّذي تزيده بعض الأحاديث النّبويَّة تحديداً ووضوحاً كالَّذي جاء في صحيح مُسلم عن جابر أنَّ رسول الله ﷺ قال لرجلٍ: «ابدأ بنفسِكَ فَتَصَدَّقْ عليها، فإن فَضَلَ شَيءٌ فلأهلِكَ، فإن فَضَلَ عَن أَهلِكَ شَيءٌ فلذي قرابتِكَ، فإن فَضَلَ عن ذي قرابتِكَ شَيءٌ فهكذا وهكذا»[3].

هذا التَّرتيب الّذي هو طريقةٌ من طرائق القرآن الكريم في تربية النّفوس، وإعداد القلوب، إذ فيه قيمةٌ إنسانيَّةٌ في محيط الجماعة، فهذه الصّلة لذوي القربى فيها تحقيقٌ لمروءة النَّفس، وكرامة الأسرة، ووشائج القربى، وهي لليتامى تكافلٌ بين الكبار والصِّغار في الجماعة، وبين الأقوياء فيها والضُّعفاء، وتعويضٌ لهؤلاء الصِّغار عن فقدان الحماية والرِّعاية الأبويَّة، وحماية للأمة من تشرُّدِ صغارها، وتعرُّضهم للفساد، وهي للمساكين الّذين لا يجدون ما ينفقون - وهم مع ذلك ساكنون لا يسألون ضنًّا بماء وجوههم - احتفاظٌ لهم بكرامة نفوسهم، وصيانةٌ لهم من البوار، وإشعارٌ لهم بالتَّضامن والتَّكافل في محيط المجتمع المسلم.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/52.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/504.
(3) مسلم، الحديث رقم: (997).

تعريف الألفاظ بالإضافة وبـ (أل) الاستغراقيّة:

في التعريف حثٌّ على الإنفاق المُطلَق لكلِّ من يحضر القسمة

جاءتِ الألفاظ ﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾، ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾، ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينُ﴾ في الآية الكريمة معرَّفة بصيغة الجمع، فقد عرّف ﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بالإضافة؛ وهو يدُلُّ على العموم المخصوص، أي: قرابة الميّت من غير الوارثين، وهو مخصوص لأنَّه أخرج البعض من الحُكم، وهم قرابة الميّت من الوارثين[1]، أمَّا ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ و﴿وَٱلْمَسَـٰكِينُ﴾ فقد عُرِّفا بـ (أل) الاستغراقيَّة؛ لإفادة العموم القطعيّ المُطلَق، إذ يُراد به جميع أفرادِهما من حيث التَّناول، فبعد أن بيَّن تعالى أنَّ الميراث للأقربين من الرِّجال والنِّسَاء أَمَرَ في هذه الآية بإعطاء من حضر القسمة من القرابة غير الوارثِين على سبيل النّدب[2].

وفي تعريف هذه الألفاظ جميعها ودلالتها على العموم ترغيبٌ في فعل الخيرات، وحثٌّ على التَّكافل الاجتماعيّ بالإنفاق على هذه الفئات كلّها من غير استثناء، فهو لم يحدّد درجة القرابة، ولا نوع اليتيم، ولا نوع المسكين، بل أطلقها لإفادة العموم، ليعمَّ العطاء كلّ من يدخل تحت هذه الألفاظ إن حضروا القسمة بمعزل عن العواطف والمشاعر والأهواء.

إيثارُ التَّعبير بحرف الجرّ (من) دون غيره:

إعـــطـــاءُ الحاضرينَ وقتَ القِسْمةِ يكونُ مـن أصـل المال الموروث

أوْثَرَ التَّعبير بحرف الجرِّ (من) الدّالِّ على التَّبعيض في قوله تعالى: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ دون غيره من حروف الجرِّ مثل (في) كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النّساء: 5].

وإيثار التّعبير بـ (من) التّبعيضيَّة عند توزيع الميراث له دلالاته،

(1) ابن كثير، تفسير ابن كثير: 2/219.
(2) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 1/428.

إذ إنَّ الإعطاء هنا يكون من رأس المال الموروث، ومِن أصله، والمعنى: فارزُقوهُم مِن هذا المال الّذي يُقسَم أمامَهم، وهذا الإعطاء وقت توزيع الميراث أمرٌ عارضٌ ويسيرٌ مقارنة بما قبله، وغالبًا ما يكون يسيرًا لا يضرُّ بالمال المقسوم، وهو أيضًا عملٌ لا يتكرَّر دومًا، لذا جاء بحرف الجرّ الدّالِّ على التّبعيض لتقليله[1].

دلالةُ الإنشاءِ الطّلبيّ بفعل الأمر على النَّدب والاستحباب:

توجيهُ مَن يرِثُ بالعَطاءِ وقْتَ القِسْمةِ على وجْهِ الاستحبابِ

من بلاغة الآية الكريمة الإنشاءُ الطّلبيّ بفعل الأمر المجازيّ في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾، والأَمرُ هنا محمولٌ عند جمهور أَهل العلم على النَّدب والاستحباب من أَوَّل الأَمر، إِذ ليس في الصَّدقات الواجبة غيرُ الزَّكاة، وذهب فريقٌ من أَهل العلم إِلى حَمل الأَمر بقوله: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم﴾ على الوجوب[2]، والرّاجح أنَّه للنَّدب والاستحباب، وقد فصَّل الرَّازيّ في بيان ذلك، وردَّ على من قال بالوجوب بكلام طويل منه: "إِنَّه ثبتَ على سبيل النَّدب والاستحباب، لا على سبيل الفرض والإِيجاب.. وهذا المَذهَبُ هو الَّذي عليه فُقهاءُ الأَمصار، واحتَجُّوا بأَنَّه لو كان لهؤُلاء حقٌّ مُعَيَّنٌ لبيَّنَ اللّه تعالى قدرَ ذلك الحَقِّ كما في سائر الحقوق، وحيثُ لم يُبَيِّن عَلِمنَا أَنَّه غيرُ واجب، ولأَنَّ ذلك لو كان واجبًا لتوَفَّرتِ الدَّواعي على نَقلِهِ لشدَّة حِرص الفقراء والمساكين على تقديره، ولو كان ذلك لنُقِلَ على سبيل التَّوَاتُر، ولمَّا لم يكنِ الأَمرُ كذلك عَلِمنَا أَنَّه غيرُ واجب"[3].

في الأمر بالإعطاءِ مراعاةٌ لما يُثيرُه مشْهدُ قسمةِ الأموال أمام أعينهم من حسرة الشّعور بالحرمان والحاجة

وعلى كلا الغرضين يُرشد الأمر إلى النَّفقة من مال الإرث بإعطاء من يحضر وقت القسمة من الأقرباء، واليتامى، والمساكين، بعض المال تطييبًا لنفوسهم، وتصدُّقًا لسدِّ حاجتهم، وبهذا التّوجيه

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة النّساء: 1/54.
(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/251.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/504.

راعى الإسلام حالة الإنسانيّة الّتي يرى فيها الأقارب المحجوبون والمساكين والأيتام قسمة الأموال أمام أعينهم فتستثير في نفوسهم حسرة الشّعور بالحرمان والحاجة، وقرَّر لهم على سبيل الاستحباب عطاء في التَّركة يحدّده الورثة عن طيب نفس وكرم سجيّة، حفاظًا على المودّة بين المؤمنين وتوثيقًا للرَّوابط القلبيَّة بينهم، وتعميقًا لروح التَّكافل والتَّراحم في المجتمع.

إعـطـاءُ الـرِّزق يكونُ مرّةً واحدةً مـن غـير مـنّـةٍ، وتفضُّل

علّةُ تسميةِ العطاءِ رزقاً:

سُمِّي العطاء رزقاً في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾؛ لأنَّه لا يؤخذ مرَّة ثانية فضلًا عمَّا فيه من تخفيفٍ على المُعطَى له كي لا يشعر بالمِنَّة، فكأنَّه رزقٌ قادَهُ اللّه تعالى إليه.

فـي الـتـعـبـير بـالـرزق دون العطاء حثٌّ على كمال الإعطاء

ولم يقل: فأعطوهم منه تهييجًا على كمال الإعطاء، وإشعارًا بأن ذلك من الرزق الذي به قوام الأنفس، وفيه إشارة إلى قلّته، ويسره[1].

بلاغة الاحتراس في الفاصلة:

مراعاة الجانب الـنَّـفـسيّ للحاضرين وقت توزيع الميراث

جاءت فاصلة الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾، وهي مُشتمِلة على فعل الأمر ﴿وَقُولُواْ﴾ ومصدره ﴿قَوۡلٗا﴾ مع وصفه بـ ﴿مَّعۡرُوفٗا﴾، وقد راعَى اللّه تعالى بهذا النَّظم البليغ الجانب النَّفسيّ والعاطفيّ للحاضرين وقت توزيع الميراث، فالفاصلة تُرشِد بفعل الأمر أوّلًا أصحابَ الإرث، وتُعلِّمهم أن يقولوا للحاضرين وقت القسمة بالكلمة الطَّيبة الحسنة ما تألفه نفوسهم، وتُجبَرُ به خواطرهم، سواء أعطوا فيكون حفظًا لماء وجوههم عنِ السّؤال وغيره أم لم يُعطوا فيكون تخفيفًا عليهم من حالتهم وتَسليةً لهم على ما حُرِموا منه من مال الميِّت كما كانوا في الجاهليَّة، فأمروا

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/9.

بالكلام الطَّيِّب الجَّميل غير المُنفِّر، وفي وصف القول بالمعروف احتراسٌ يدفع تَوهّم القول الخبيث والجارح وغيرهما، وهذا الاحتراس يُقرِّر المعنى ويؤكِّده.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المسكين والفقير:

أَصل المسكين في اللُّغة الخاضِعُ، وأَصل الفقيرِ المُحتاجُ، وعليه يكون المسكين أَصلح حالًا مِنَ الفقير، وممّا يدُلُّ على ذلك أَنَّ العربَ قد تَسَمَّت به، ولم تَتَسَمَّ بفقيرٍ، لتناهي الفَقر في سوء الحال، يقولون: تَمَسكَن الرَّجلُ، فَبَنَواْ منه فعلًا على معنى التَّشبيه بالمِسكين في زيِّه، ولم يَفعَلواْ ذلك في الفقير إِذ كانَت حالُهُ لا يَتَزَيّا بها أَحدٌ"[1]، وَفرق مَا بَين الْفَقِير والمسكين، أنّ الْمِسْكِين هُوَ الَّذِي لَا شَيْء لَهُ، وَالْفَقِير هُوَ الَّذِي لَهُ الْبلْغَة من الْعَيْش، قَالَ الرَّاعِي:

أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حَلُوبَتُهُ *** وِفْقَ الْعِيَالِ فَلَمْ يُتْرك لَهُ سَبَدُ

فَجعل للْفَقِير حلوبة وَجعلهَا وفقا لِعِيَالِهِ أي قدر قوتهم[2]، وقيل: "إِنّ المسكين الّذي ليس له ما يكفيه، ولكن له شيء يسكن إِليه، وهو أحسن حالًا من الفقير، والفقير: الّذي لا شيء له لقول اللّه تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: 79]، والسّفينة بمال كثير، ومع ذلك سمّاهم مساكين"[3]، وقيل: الفقير الَّذي لا يسأَل، والمسكين الَّذي يسأَل، وهذا يدُلُّ على أَنَّ المِسكين أضعف حالًا، وأبلغ في جهة الفقر، ويدُلُّ عليه أيضًا قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: 273]، فوصفهم بالفقر، وأخبر مع ذلك عنهم بالتّعفّف، حتَّى يَحسبهُم الجاهل بحالهم أَغنياء، ولا يَحسبهُم أَغنياء، إِلَّا ولهم ظاهر جميل، وعليهم بزّة حَسَنَة[4]، واستعمال سياق الآية للفظ المساكين، جاء اعتبارًا لمعنى المسكنة، وإشارة إلى شدّة الحاجة، مع الحفاظ على ماء الوجه، والفقهاء يرون أنّ المسكين أشدّ فقرًا، لأنّه لا يملك قوت يومه، بينما

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سكن).
(2) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (المِسْكين).
(3) ابن قتيبة: غريب الحديث: 1/191.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 177.

الفقير من لا يملك قوت عامه، ويظهر الفرقُ بينهما في قوله تعالى في مصارف الزّكاة: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التّوبة: 60]، فجعل كلّا منهما مصرفًا على حدة، علمًا بأنّ كلا اللّفظين من مفردات القرآن المستعملة، ولكن لكلّ ورود منهما معناه المختلف عن الآخر، وذلك بمقتضى القرائن الّتي توجّه المعنى في سياق الآية قيد التّفسير.

النَّصيب والحظّ:

النَّصيب هو الحظُّ المنصوب، أي: المعيَّن[1]، وممّا يدُلُّ على تعيينه اقترانه بلفظ ﴿مَّفۡرُوضٗا﴾ في القرآن الكريم غالبًا، وهو يأتي عامّاً في الحظِّ من كلِّ شيء، أو للقسمة بين جماعة[2]، أمَّا الحظُّ فهو مخصوصٌ بقدرٍ معلوم، وبالخير دون الشّرّ، وقد جاء الحظّ في الميراث المقسوم، وذلك بتقدير حصّة الفرد، قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾، فدلَّتِ الآية على أنَّ "الحظَّ النَّصيبُ المُقدَّر"[3]، والنَّصيب يكون عامًّا في المحبوب والمكروه، فهو يأتي في الجزاء بالأجر والثّواب، كقوله سبحانه: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ﴾ [النّساء: 85]، أو في الجزاء بالعذاب، كقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧﴾ [غافر: 47]، أمَّا الحظُّ فلا يُقال في المكروه والشّرّ أو العذاب؛ لأنَّ أصلَ الحظّ، هو ما يحظُّه اللّه تعالى للعبد من الخير، قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ [فُصِّلت: 35][4]، وقد استعمل السياق لفظ ﴿نَصِيبٗا﴾ دون لفظ حظّ، لتلاؤم الأوّل مع وصفه بقوله: ﴿مَّفۡرُوضٗا﴾، والحظ لا يوصف بذلك، فضلًا عن كون النّصيب يحدّد ماديًّا، بينما الحظّ شيء يتعلّق بالمعنويّات ولا قياس له ولا تحديد لمنتهاه، فكان الاستعمال بليغًا ومواتيًا للدّلالة السّياقيّة المطلوبة.

---

(1) الراغب، المفردات: (نصب).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (نصب)، والمناويّ، التّوقيف، ص: 700.

(3) النَّحاس، معاني القرآن: 6/270، والراغب، المفردات: (حظ).

(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 541.

﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [النّساء: 9 - 10]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

الـــرّبـــط بين الـــتّـــقـــوى في الـحـفـاظ على حقوق اليتامى، وجـزائـه بحفظ أبنائه من بعده

بين هاتين الآيتين وما سبقهما تناسبٌ جليٌّ، وترابطٌ لطيفٌ، جاء موعظةً لكلِّ من حُذِّر أو رُغِّب في الآيات السّابقة، في شأن أموال اليتامى، وأموال الضُّعفاء من النِّسَاء والصِّبيان، فمن يخش اللّه في حقوق يتامى الآخرين، فسوف يجازيه اللّه بحفظ أبنائه من بعد وفاته، وفيها ترهيبٌ من أكل أموال اليتامى، بذكر العقاب الشّنيع لمن يظلم اليتيم في ماله، بنار مستعرة شديدة الإحراق، يصطلي بدنه بحرقها، ويلتهب بطنه بجمرها، كناية عن شدّة العذاب، وتصويرًا لسوء المصير، وتأكيدًا على رحمة اللّه تعالى باليتامى؛ لأنَّهم لّما بلغوا في الضّعف إلى الغاية القصوى، بلغت عناية اللّه تعالى بهم إلى مثل ذلك[(1)].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلۡيَخۡشَ﴾: من خَشِيَ الرَّجُلُ يَخشَى خَشية، أَي: خافَ، والخشية: خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشى منه[(2)]، و"الخشية تألّم القلب، بسبب توقُّع مكروه في المستقبل، يكون تارةً بكثرة الجناية من العبد، وتارةً بمعرفة جلال اللّه وهيبته، وخشية الأنبياء من هذا القبيل"[(3)]، وكذلك خشية

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/506، و(بتصرّف).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (خشي)، والراغب، المفردات: (خشي).
(3) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 98.

العلماء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28]، والخشية محمودة في كلِّ مواضعها، وتكون من عظم المخشِيّ منه، وإن كان الخاشي قويّاً؛ لذا كانتِ الخشية في الرّسل زينة لهم، فامتدحها الخالق سبحانه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 39][1].

2) ﴿ذُرِّيَّةً﴾: الذُّرِّيَّةُ نَسلُ الرَّجُل وما توالدَ منه ومِن أبنائِهِ وبناتِهِ، قال اللّه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾ [الصّافات: 77]، قال بعضهم: ذريّة هي فُعلية من ذررت، لأنّ اللّه تعالى ذَرَّهم في الأرض: أي نشرهم فيها[2]، وأصل الذّريّة (ذرأ) بالهمز، لكنّهم حذفوه فلم يستعملوها إلّا غير مهموزة، وتجمع على ذريّات، وذراريّ مشدّدًا[3]، وقال بعض النّحويين: " أصلها ذرُورة على فعلولة، ولكنّ التّضعيف لمّا كثر، أبدل من الرّاء الأخيرة ياء، فصارت ذروية، ثمّ أدغمت الواو في الياء فصارت (ذريّة)، قال الأزهريّ: وقول من قال إنّه فعليّة أقيس وأجود عند النّحويين"[4]، والمقصود في الآية الكريمة، هو إظهار اللّه تعالى ما أبداه، يُقال: ذَرَأَ اللّه الخلق، أي: أوجد أشخاصهم، والذُّرِّيَّة أصلها: الصّغار من الأولاد، وإن كان قد يقع على الصّغار والكبار معًا في التّعارف، ويُستعمل للواحد والجمع، وجَمعُها ذَراريُّ[5]، ولفظ الذّريّة أجمع في المعنى، من ذكر الذّكر وحده والأنثى وحدها، وتنكيرها أبلغ في الدّلالة على الذّرية المتروكة ذكرانًا وإناثًا، بعد رحيل الأب عن الدّنيا.

3) ﴿ضِعَٰفًا﴾: من ضعُف، والضُّعف: خلاف القوّة، ويُقال: الضَّعفُ في العقل والرّأي، والضُّعفُ في الجسد، ويُقال: رجالٌ ضِعافٌ، كما يُقال خِفافٌ[6]، وفي الآية الكريمة قصد بالضِّعاف الأولاد الصّغار[7]، وهو على وزن (فِعَال)، "وكلّ ما في القرآن من الفعل (ضَعُف) و(اسْتَضْعَفَ) ومضارعه للفاعل والمفعول، وكلمة (ضَعْف) بالفتح، والصّفة (ضعيف)، وجمعها (ضِعاف) و(ضُعفاء) وكذلك صفة التّفضيل (أضعف)، واسم

(1) الزّركشي، البرهان: 4/78.
(2) نشوان الحِميريّ: شمس العلوم: (ذُرِّيّة).
(3) ابن الأثير: النّهاية: (ذرر).
(4) الزَّبيديّ: تاج العروس: (ذرر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرأ).
(6) الخليل، العين: (ضعف).
(7) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/376.

المفعول (مُستضعَف) وجمعها كلّ ذلك من الضّعف: عدم القوّة"[1]، والضِّعْفُ من الألفاظ المُتضايفة الّتي يقتضي وجود أحدهما وجود الآخر، كالنّصف والزّوج، وهو تركّب قدْرين مُتَساويين، ويختصّ بالعدد، فإذا قيل ضَعَّفتُ الشّيء، وضَاعَفتُه: ضمَمتُ إليه مثلَه فصاعدًا[2].

4) ﴿سَدِيدًا﴾: جذرها سدد، يُقال: سَدَّدهُ تَسديداً: قَوَّمه، ووفَّقَهُ للسَّداد، أي: الصَّواب من القَولِ والعملِ، وسَدَّ يَسِدُّ: صار سديداً، والسِّدَادُ: ما يُسَدُّ به الثّغر، واستُعير لما يُسَدُّ به الفقرُ، واستَدَّ: استقامَ، والسَّدَدُ: الاستِقامَةُ[3]، والسَّدَادُ بالفتح: الاستقامة والصّواب، وكذلك السَّدَدُ مقصور منه، قال الأعشى:

مَاذَا عَلَيْهَا وَمَاذَا كَانَ يَنْقُصُهَا *** يَوْمَ التَّرَحُّلِ لَوْ قَالَتْ لَنَا سَدَدَا[4]

وقوله تعالى: ﴿وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾، أي: مستقيمًا من السّداد، وهو ما يُسدُّ به من الخلل، وكلّ ما سددته من ثلمةٍ ونحوها، فهو مسدودٌ، وما كان من المعاني والأقوال، فهو مفتوح السّين، وتأتي لفظة ﴿سَدِيدًا﴾ بمعنى صواباً، يُقالُ: قُلْ قولًا سَدَداً وسَداداً وسَديداً، أَي: صَوَابًا[5]، والسّدادُ مِنَ القول، والتَّسديدُ: التّوفيقُ للسَّداد، وهو الصَّواب والقَصد مِنَ القول والعمل، ورجُلٌ سديدٌ وأَسَدُّ: مِنَ السَّداد وقَصد الطَّريق، وسدَّده اللّه: وفَّقَهُ، وأَمر سديدٌ وأَسَدُّ، أَي: قاصدٌ[6]، وقوله ﴿سَدِيدًا﴾ صفة للفظ ﴿قَوۡلٗا﴾، وهو الأجلى والأبلغ في الدّلالة على حسن القول، وجميل الملفوظ، ممّا يؤكّد أدب الإسلام في قول الحسن من الكلام، مهما كان الظّرف والمقام.

5) ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ﴾: من صلا، وأصل الصَّليُ الإيقادُ بالنّار، ويُقال: صَلِيَ بالنّار، أي: بلي بها، واصطَلى بها، ويأتي الصَّلا بمعنى الحَطَب، وبمعنى النّار، وهو اسمٌ للوَقود إذا اصطَلى به القوم، "يقال: صليت الرّجل نارًا إذا أدخلته النّار، وجعلته يصلاها، فإن

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (ضعف).
(2) الراغب، المفردات: (ضعف).
(3) الراغب، المفردات: (سد)، الفيروزابادي، القاموس المحيط: (سدَّ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (سدد)، والزّمَخْشري، أساس البلاغة: (سدد).
(5) السّمين، عُمدة الحفّاظ: 2/183.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (سدد).

ألقيته فيها إلقاء كأنّك تريد الإحراق قلت أصليته، بالألف، وصليته تصلية"[1]. والمِصلاةُ أن تنصِبَ شَرَكاً ونحوه ليَقَعَ فيه شيءٌ فيُصطاد، وتقول: صَلَيتُ، أي: نَصَبتُ المِصلاةَ، وتجمع مَصالي، والصّاليات: الأَثافيُّ، لأنَّهنَّ قد صَلِينَ النّارَ، وصَلِيَ فلانٌ بشَرِّ فلانٍ وبرَجُل سُوءٍ، وفلانٌ لا يُصطَلَى بناره، أي: لا يُتَعَرَّض لحَدِّه، وصَلَّى عَصاه إذا أدارَها على النّار يُثقّفُها[2]، فالمعنى المحوريّ للّفظة هو التّليين بمعنى اللّين الّذي ينتج عن صَلْيِ الشّيء في النّار، ليُحدِث ليناً أو رخاوة من الدّاخل مع تماسك ما، فيمكن التّصرف فيه: مثل تليين اللّحم والعصا، بتعريضها للنّار، فيمكن بذلك تقويمها إن كانت معوجّة، ويمكن أيضًا ثَني طرفها، ليكون مَقْبِضًا لها[3].

6) ﴿سَعِيرًا﴾: من سعر، السِّين والعين والرَّاء، أَصلٌ واحدٌ يدُلُّ على اشتعال الشَّيءِ واتِّقاده وارتفاعه، من ذلك السَّعيرُ: وهو سعيرُ النَّار، واستعارها: توقُّدُها، والمِسعَرُ: الخشبُ الَّذي يُسعَرُ به، والسُّعارُ: حرُّ النَّار[4]، وسَعَرتُ النَّار وأَسعَرتُها، فهي مُسعَرَةٌ ومَسعورَةٌ[5]، والسَّعيرُ: النَّارُ المُسَعَّرَةُ، أَي: المُلتهبةُ، على وزن فعيلٌ بمعنى مَفعولٌ، بُنِي بصيغة المُجرَّد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، ومن المجاز: " ضربه السُّعار، وهو حرّ اللّيل وبه سُعار، وهو توهّج العطش، وسُعِر الرّجل: ضربَته السَّموم فهو مسعور، وسعَروا نار الحرب، وسعَر على قومه وسعَرَهم شرّاً"[6]، والسّعر في البياعات: الثّمن، وهو مأخوذٌ من استعار النّار على التّشبيه[7]، واستعمال لفظ ﴿سَعِيرًا﴾، تهويل لجريمة أكل أموال اليتامى، وتخويف من مغبّة الاعتداء على ما يحوزه اليتيم، حماية له من غوائل الزّمان، وعدوان الإنسان.

7) ﴿يُوصِيكُمُ﴾: جذرها (وصي)، " الواو والصَّاد والحرف المعتلُّ: أَصلٌ يدُلُّ على وَصلِ شيءٍ بشيءٍ، ووصَيتُ الشَّيءَ: وصَلتُهُ، ويُقالُ: وَطِئنَا أَرضًا واصيةً، أَي: إنَّ نَبتَها

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صلا).
(2) الخليل، العين: (صلو)، والراغب: المفردات: (صلا).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (صلو)، (صلى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سعر).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رسع).
(6) الزّمَخْشري، أساس البلاغة: (سعر).
(7) السّمين، عمدة الحفَّاظ: 2/200.

مُتَّصِلٌ قدِ امتلأَت منه"[1]، والوَصِيَّةُ ": التّقدّمُ إلى الغير بما يعملُ به مُقترنًا بوعظٍ من قولهم: أرض وَاصِيَةٌ: متّصلةُ النّبات، ويقال: أَوصاهُ ووصَّاهُ"[2]، و"المعنى المحوريّ التزام الأشياء بعضها بعضًا، كالمحزوم بالجريد والنّبات الملتفّ، وكالمتّصل بعضه ببعض منه إذ هو متضامّ، ومن هذا الالتزام جاء معنى الإيجاب في الوصيّة، فهي عهد وتكليف وإلزام"[3]، من هنا وردت لفظة يُوصِيكم، في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ أي: "يفرض عليكم، لأنّ الوصيّة من اللّه ﷻ فرضٌ، والدّليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ [الأنعام: 151]، وهذا من المحكم علينا[4]، وتوجيه الخطاب إلى الوالدين بالوصيّة بالأولاد، تأكيد لما تفرضه الغريزة الأبويّة من حبّ للأولاد أصيل، يراد له أن يتجلّى في الوصيّة، بصورة تضمن العدل بين الأبناء، وتعطي لكلّ ذي حقّ حقّه.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

من خاف ضياع أبنائه بعده، فليتّق الله، فكما يدين الفتى يدان

جاءت هاتان الآيتان الكريمتان: ترهيبًا من أكل أموال اليتامى بالعقوبة بالمثل،

فجاءتِ الأولى، لتأمر كلَّ من يطاله الخطاب من الأوصياء وغيرهم[5]، بأنْ يخشَواْ اللّه تعالى ويتّقوه، في أمر اليتامى وأموالهم، فيفعلواْ بهم، مِثل ما يحبُّون أن يُفعَل بذرّيّتهم الضِّعافِ بعدَ موتهم، ثم تأتي الآية الثّانية لتتوعَّد المخالفين الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا، " سواء أكان الآكل من الورثة، أم من أولياء السّوء من غيرهم، واللّفظ لكمال التّشنيع على الآكلين، لأنّهم يظلمون اليتامى الضّعفاء الّذين ليس في قدرتهم الدّفاع عن أنفسهم"، وهم لا يعلمون أنّهم

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وصى).

(2) الراغب، المفردات: (وصى).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (وصى).

(4) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/18.

(5) اختُلف في بيان المُراد من الخطاب في هذه الآية على ثلاثة أقوال، الأوّل: أنّها خطاب للحاضرين عند المُوصي، والثّاني: أنّها خطابٌ لأولياء اليتامى، والثّالث: أنّها خطاب للأوصياء أمروا بأداء الوصيّة، يُنظر: الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/505، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/376، والظّاهر أنّها خطاب عامٌّ يشمُل كلّ من يدخل تحته من هذه الأصناف وغيرهم.

يأكلونَ في بطونهم نارًا تصطلي، ويبلعون جمرًا يتلظّى، يقطّع الأمعاء، ويضاعف الألم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الإنشاء الطّلبيّ بصيغة المضارع المَسبوق بلام الأمر:

تحذير الأوصياء من أكل أموال اليتامى ظلمًا

افتُتِح الخطاب في هاتين الآيتين الكريمتين بالأسلوب الإنشائي الطّلبيّ الأمر بالفعل المضارع المسبوق بلام الأمر في الفعل ﴿وَلۡيَخۡشَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾، وجاءت هذه الصّيغة لتنبيه المُتلقّي لما سيأتي بعدها، وشدِّ انتباهه له، فيجعله مُتيقّظًا لذلك مُنتظِرًا ما أُمر بالخشية منه على طريقة القرآن الكريم في التّنبيه ترغيبًا وترهيبًا.

وتكمن بلاغة هذا الخطاب بالأمر في رعاية حقوق اليتامى والضُّعفاء، وحماية حقوقهم بتخويف أولياء اليتامى وتحذيرهم من الحال نفسها لأبنائهم وذريّاتهم، وهم على فراش الموت يستحضرون هذه الصّورة، وهم يمنعون اليتامى حقوقهم، فصيغة الأمر نقلتِ الأولياء والأوصياء على اليتامى الَّذين بين أيديهم إلى حال ذرّيّتهم بعد موتهم، قال الرَّازيّ: "هذا أَمرٌ لأَولياء اليتيم، فكأَنَّه تعالى قال: ولْيَخشَ مَن يخافُ على ولده بعد مَوته أَن يُضيّع مال اليتيم الضَّعيف الَّذي هو ذُرِّيَّةُ غيره إذا كان في حجره، والمقصود من الآية على هذا الوجه أَن يَبعثَهُ ﷺ على حِفظ ماله، وأَن يُترَكَ نَفسه في حفظه والاحتياطُ في ذلك بمنزلة ما يُحِبُّهُ مِن غيره في ذُرِّيَّته لو خَلَفَهم وخَلَفَ لهم مالًا... فجعل تعالى آخِر ما دعاهُم إلى حفظ مال اليتيم أَن يُنَبِّهَهُم على حال أَنفُسهم وذُرِّيَّتِهم إذا تَصَوَّرُوها، ولا شكَّ أَنَّه

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/58.

من أقوى الدَّواعي والبواعث في هذا المقصود"[1]، حتَّى يخافوا على ذرّيّتهم، ويقدِّروا ذلك في أنفسهم، ويصوّروه حتّى لا يجسروا على خلاف الشّفقة والرّحمة[2].

فائدة الإيجاز بحذف المفعول به:

في الإيجـــازِ بالحذفِ ترسيخٌ لمخافة الله تعالى، وعقابه في الدّنيا

من بلاغة الآية الكريمة الإيجاز بحذف المفعول به للفعل ﴿وَلۡيَخۡشَ﴾، وهو الاسم الكريم (اللّه)، في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا﴾ [النّساء: 9]، والتَّقدير: وَلْيَخْشَ اللهَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ، ويحتمل التَّقدير غير الاسم الكريم أيضًا لتذهبَ النَّفسُ في تقديره كلّ مَذهَب مُحتَمل، قال ابن عطيَّة: "مفعول (يخشى) محذوفٌ لدلالة الكلام عليه، وحسن حذفه من حيث يتقدَّر فيه التّخويف باللّه تعالى، والتّخويف بالعاقبة في الدّنيا، فينظر كلّ متأوِّل بحسب الأهمّ في نفسه"[3] ممَّا يخشى أَنْ يُصيب ذُرِّيَّته من بعده، وبهذا الحذف تحقّقَت فضيلة الإيجاز، فضلًا عن تنبيه المُتلقِّي إلى البحث عن المحذوف، فيجعله يتجاوب مع ما يقرأ، فترسخ المعلومة في نفسه، وهذا مَطلَب من مطالب الحذف في القرآن الكريم.

إيثار التَّعريف بالاسم الموصول وصلته:

الـتّـعـريـف بالاسم الموصول أفـاد العموم، وصــوَّر حـال الذّرّيّة

لَمَّا كان المُراد من الآية الكريمة تحذير الأوصياء على اليتامى من ظلمهم، وأكل أموالهم بتصوير حالهم بعد موتهم، كان المناسب لهذا التّحذير إيثار التَّعريف بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون غيره في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾، لِمَا في التّعريف بالاسم الموصول من إفادة العموم؛ لأنَّه أريد به

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/505.
(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/478.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/13.

أفراده جميعًا تناولًا وحكمًا، فضلًا عن ذلك أوثر التّعبير بالاسم الموصول لما في صلته من بيان حال ذرّيّتهم من بعدهم، وهو بذلك جدير بإيقاع الخشية في قلوبهم، فجيءَ بالموصول؛ "لأنَّ الصِّلة لَمَّا كانت وصفًا مفروضًا حَسُنَ التَّعريفُ بها إذ المقصودُ تَعريفُ مَن هذه حالُهُ، وذلك كافٍ في التَّعريف للمُخاطَبِينَ بالخشيةِ إذ كُلُّ سامعٍ يعرِفُ مضمونَ هذه الصِّلةِ لو فرضَ حصولها لهُ، إذ هي أمرٌ يتصوَّره كُلُّ النَّاس"[1].

إيثارُ التَّعبير بأداة الشَّرط ﴿لَوۡ﴾:

التعبير بـ (لو) توسيع لدائرة الداخلين في فرض الشّرط

في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾ [النّساء: 9]، شرطٌ وجوابُه، فأداة الشّرط: ﴿لَوۡ﴾، وفعل الشّرط: ﴿تَرَكُواْ﴾، وجواب الشّرط: ﴿خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾، وجاء الشّرط مُقترنًا بالأداة (لو) مع الفعل ﴿تَرَكُواْ﴾ الدّالّ على المشارفة مَجازًا، فالمعنى "وليخش الّذين صفتهم وحالهم أنّهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرّيّة ضعافًا، وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضَّياع بعدهم لذهاب كافلهم وكاسبهم"[2].

وأوثِرَ التَّعبيرُ بأداة الشَّرط ﴿لَوۡ﴾ دون غيرها من أَدوات الشَّرط؛ لأَنَّها الأَداة الصَّالحةُ لِفَرض الشَّرط من غير تَعَرُّض لإِمكانه، فَيَصدُقُ معها الشَّرط المُتَعَذِّرُ الوقوعِ والمُستَبعَدُهُ والمُمكِنُهُ، فحتَّى الَّذين بلغوا اليأس من الولادة، ولهم أَولادٌ كبارٌ أَو لا أَولاد لهم، يدخلونَ في فَرض هذا الشَّرط؛ لأَنَّهم لو كان لهم أَولادٌ صغارٌ لخافوا عليهم، والَّذين لهم أَولادٌ صغارٌ أَمرُهُم أَظهرُ[3].

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/252.
(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/478.
(3) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/252 - 253.

علّة اقتران ﴿لَوۡ﴾ بفعل الترك:

التّـخـويـف بالحالة الّتي لا يبقى معها مَطمَعٌ في الحياة، ولا في الذّبّ عن الذّرّيّة الضِّعاف

وفي التَّعبير بأداة الشّرط ﴿لَوۡ﴾ مع فعل التّرك الدَّالِّ على المشارفة بلاغة لا تخفى، وسرٌّ بديعٌ لطيفٌ يتمثّل بالتّخويف بالحالة الصَّعبة للوصيّ عند الاحتضار على فراش الموت، والّتي لا يبقى معها مَطمَعٌ في الحياة ولا في الذّبِّ عنِ الذّرّيَّة الضِّعاف، وهي الحالة الّتي وإن كانت من الدّنيا إلّا أنّها لقربها من الآخرة ولصوقها بالمفارقة صارت من حيّزها ومُعبِّرةً عنها بما يُعبَّر به عن الحالة الكائنة بعد المفارقة من التّرك[1].

نكتةُ التَّفريعِ بالفاء في فعل الاتّقاء:

تقوى الله سبيلُ الخيراتِ، وحبْلُ النجاةِ، وطريقُ حفْظِ الذُّرّيات

من بديع نسيج الآية الكريمة التَّفريع[2]، إذ فرَّع الأمر بالتَّقوى والقول السّديد في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾ على الأمر بالخشية في أول الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ﴾، وفرَّع الأمر الثّاني على الأوّل مع أنّهما أمران متقاربان؛ لأَنَّ الأَمر الأَوّل لَمّا عُضِّد بالحُجَّة عُدّ كالحاصل فصحَّ التَّفريعُ عليه، والمعنى: فليتَّقوا اللّٰه تعالى في أَموال النَّاس وليُحسنوا إِليهم القول، وفي هذا التَّفريع إشارةٌ إلى إرشاد الآباء الّذين يخشون ترك ذرّيّة ضعيفة بالتَّقوى في سائر شؤونهم حتَّى تُحفظ ذرّيّتهم، وتُغاث بعناية اللّٰه تعالى، ويكون في إشعارها تهديدٌ بضياع ذرّيّتهم إنْ فقدوا تقوى اللّٰه تعالى، وإشارةٌ إلى أنَّ تقوى الأصول تحفظ الفروع، وأنَّ الرِّجال الصَّالحين يحفظون في ذرّيّتهم الضِّعاف، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف: 82]، فإنَّ الغُلامين حُفِظا ببركة صلاح أبيهما في أنفسهما ومالهما[3].

---

(1) ابن المُنيِّر، الانتصاف: 1/478.

(2) التَّفريع: هو "أن يرى المتكلّم أنّ المعنى الّذي يُعبرّ عنه بعبارةٍ ما يتفرَّعُ عنه معنًى آخر، ويرى فَنِّيًّا أَنَّ من البديع في القول أن يُعبرّ عمّا لاحظهُ على سبيل التّخيُّل أو الادّعاء".

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 3/36.

بلاغة الإيجاز بحذف المفعول به:

في الاستغناء بالمذكور تفنُّنٌ في تصوير الخوْف من ضياع الذّرّيَّة في مساربِ الحياة

من بلاغة التَّراكيب في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ الإيجاز بالحذف، إذ حُذِفَ المفعول به للفعل ﴿خَافُواْ﴾ إيجازًا واختصارًا،؛ لِتذهبَ النَّفسُ في تقديره كلَّ مذهب، ولِتَفَنَّنَّ في تصوير الخوف من المصير المحتوم الّذي يَؤُول إليه أمرُ الضِّعاف في هذه الحياة، فيمكن أن يُقدَّر بـالفقر، والضَّياع، والهيام، والتَّشرُّد في مسارب الحياة ومسالكها المُتشعِّبة من دون كافلٍ يَكفُلهم، أو مُدبِّر يُدبِّر شؤونَهم[1].

التّناسب السِّياقيّ لكلمة ﴿ضِعَٰفًا﴾:

في اصطفاء لفظ (ضعافا) إظهارٌ لشِدَّةِ الضَّعْفِ والحاجة

من جماليات التَّعبير القرآنيّ التَّناسب الدَّقيق للألفاظ مع السِّياق، من ذلك مُناسبة كلمة ﴿ضِعَٰفًا﴾ للسِّياق العامِّ ومحور السُّورة الكريمة، فهذه اللَّفظة لم تَرد بهذه الصِّيغة إلَّا في هذه السُّورة في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾، وقد جاءت على وزن (فِعال) الَّذي يعني الاشتمال والاحتواء[2].

وهذا يدُلُّ على تناسبها مع محور السّورة، بمعنى أنَّ الضِّعاف بحاجة ماسَّة إلى من يرعاهم ويحتويهم ويشمُلهم برعايته، فإنَّ اللَّفظة مع حركة الكسر الواقعة على الحرف الأوّل أظهرت شدَّة الضَّعف والحاجة، وكأنَّ الضَّعف يلفّهم ويشملهم من الجوانب والاتِّجاهات جميعها كالغطاء واللِّحاف، وقد جاءت في سياق الدَّلالة على الوصف لا على الكَمِّ كونها من صيغ الجموع[3].

فضلًا عن ذلك فهذه اللَّفظة تجعل الوصيَّ يتصوَّر ذرّيّته وهي

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/166.
(2) السّامرائّي، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 110.
(3) غازي، التّناسب في سورة النّساء، ص: 208.

ضعيفة لا حيلة لها ولا نصير، وهذا يقرِّر معنى الخوف في الآية الكريمة، ويرسم مع الضَّمير (الهاء) في ﴿خَلْفِهِمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾ صورة مُستقبليَّة كاملة أمام أعينهم لما سيحصل لذرّيّتهم، فهي تبعث في نفوسهم الشّفقة والتَّرحم على اليتامى، وتهيّج المشاعر الإنسانيّة في قلوبهم ممَّا يجعلهم يتحذَّرون من ظلم اليتامى والضُّعفاء في المجتمع، وأكل حقوقهم.

بلاغة الإطناب بطريق الاعتراض[1]:

من عناية الشارع بأمر اليتامى كرَّرَ تحذيرَ الأوصياء من أكل مالِ اليتامى

جاءت هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ "جُملةً مُعترِضةً تفيدُ تَكرار التَّحذير من أَكل مال اليتامى، جَرَّتهُ مناسبةُ التَّعرُّضِ لقسمة أَموال الأَموات؛ لأَنَّ الورثة يَكثُرُ أَن يكون فيهم يتامى لكثرة تزوُّج الرِّجال في مُدَّة أَعمارهم، فقلَّما يخلو مَيِّتٌ عن ورثةٍ صغارٍ، وهو مُؤذِنٌ بشدَّة عناية الشَّارع بهذا الغرض، فلذلك عاد إِليه بهذه المناسبة"[2].

فائدة التوكيد في الجملة الاعتراضية:

في التَّوكيد تحذيرٌ من التَّعرّض لأموال اليتامى؛ وتشديدٌ في النَّهي من الوقوع فيه

ولتأكيد مضمون هذه الجملة الاعتراضيّة وتقريرها جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ بالأسلوب الخبريّ المُؤكّد بـ ﴿إِنَّ﴾، والتَّعريف بالموصول فضلًا عن أسلوب القصر بـ (إنَّما)، والعطف بعذابٍ عامٍّ شاملٍ.

علّة التَّعريف بالاسم الموصول وصلته:

من البلاغة في الآية الكريمة إيثار التَّعريف بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون غيره من المعارف، مع تقديمه على المسند في قوله

(1) الاعتراض: هو " أن يُؤتى في أثناء الكلام، أو بين كلامين مُتّصلين معنى بجُملة أو أكثر لا محلّ لها من الإعراب، لنكتةٍ سوى رفع الإبهام" الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 24.

(2) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 4/254.

في التعريف بـ (الذين) دلالةُ العموم، والتسجيلُ بالفعل القبيح المُتمثِّل بأكل أموال اليتامى

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، لِمَا في التّعريف بالاسم الموصول من إفادة العموم، وإن كان مخصوصًا بالّذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا؛ ويخرج منه بذلك من يأكل بعضه للحاجة أو غيرها، فضلًا عن ذلك أوثر التّعبير بالاسم الموصول وتقديمه على المسند لما في صلته ﴿يَأۡكُلُونَ﴾ من استحضارٍ لصورة أكلهم لأموال اليتامى وتجدُّدها، ليتمَّ التَّسجيل عليهم بفعلهم القبيح هذا، ممَّا يجعل المتلقّي يتشوَّف للمُسند الّذي يصوّر الحكم عليهم ويسجِّله بأبلغ صورة.

بلاغة الاستعارة المكنيّة في الفعل ﴿يَأۡكُلُونَ﴾:

أكلُ مال اليتيم من أقبح صور الأكل الحرام

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ شبَّه أموال اليتامى بطعام يُؤكل، ثمّ حذفه، وأبقى شيئًا من لوازمه ممّا هو من أبرز خصائص الطّعام وهو الأكل[1] على طريقة الاستعارة المكنيّة، وقد حملها ابن عاشور على التّصريحيّة بقوله: "والأَكلُ استعارةٌ للانتفاع المانع مِن انتفاع الغير وهو الملكُ التَّامُّ، لأَنّ الأَكلَ هو أَقوى أَحوال الاختصاص بالشَّيء؛ لأَنَّه يُحرِزُه في داخل جسدِه، ولا مَطْمَعَ في إِرجاعه"[2].

وفي هذه الاستعارة مبالغة في تشنيع فعلهم بأخذ أموال اليتامى ظلمًا وبهتانًا بطريق الأكل؛ لأنَّ العرب كانت تتذمّم بالإكثار من الأكل، وتعدّ من البطنة المساويّة للبهيميّة، فكأنّ أكل مال اليتيم من أقبح الأفعال وأشدّها تحريمًا[3].

بلاغة إيثار فعل الأكل:

كسوة الباطن أهمُّ أسباب جمع المال

وخصَّ التّعبير بفعل الأكل؛ لأَنَّه أعمُّ وجوه الانتفاع بالمال وأهمّها،

(1) صافي، الجدول: 4/432.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/221.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/151.

وهو كسوة الباطن، وأهمُّ ما يجمع المال من أجله، وإلَّا فسائر الانتفاعات مثله، كأن يأخذ مال اليتيم ليشتري به دارًا أو حاجة أخرى، بل وأشدُّ منه وأعظم لو أتلف مال اليتيم بصورة أخرى كالإحراق والإغراق وغيرهما[1].

إيثار التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَأۡكُلُونَ﴾:

من قبيح صور الظّلم، وعجيبها تجدّدُ أكل أموال اليتامى، والإصرار عليها

من أسرار البيان القرآنيّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ إيثار التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَأۡكُلُونَ﴾؛ لإفادة تجدّد أكلهم لأموال اليتامى واستمرارهم ممَّا يزيد من تقبيح فعلهم وتشنيعه، فالفعل المضارع ﴿يَأۡكُلُونَ﴾ يقتضي الأكل المرّة بعد المرّة، وهذا ما يدعو إلى الاستنكار والتّعجب من فعلهم بأكل أموال اليتامى الضُّعفاء.

في التَّعبير بالفعل المضارع؛ استحضارٌ لصورة الأكل ظُلمًا والتّعجيب منها

فضلًا عن ذلك فقد أوثر التَّعبير بالفعل المضارع؛ لاستحضار صورة الأكل والظّلم والتّعجيب منها، وذلك بإظهار صورتهم الشّنيعة للمتلقّي، فهذا الفعل "صوَّر الأكل وحقّقه"[2].

بلاغة الإطناب بالاحتراس التَّكميليّ:

عند الحاجة الملحّة يحقّ للوليّ الأخذ من مال اليتيم استحقاقًا؛ وذلك أكلٌ في غير ظُلمٍ

من البلاغة في الآية الكريمة الإطناب بالاحتراس بكلمة ﴿ظُلۡمًا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾، فهذه الكلمة جاءت لتدُلَّ على أنَّ مال اليتيم قد يُؤكَل في غير ظُلم، من ذلك ما تَقَدَّمَ ذكره في هذه السُّورة الكريمة من أَنَّ للوليِّ المُحتَاجِ أَن يأكُل من ماله بالمعروف عند الحاجة الشَّديدة إليه ممّا يسدُّ به رمقه وحاجته وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [النِّساء: 6]، فجاء هذا الاحتراس تكميلًا للمعنى ودفعًا لتوهّم قد يرد بأنَّ الوعيد والتّحذير يشمل كلَّ من يأكل من أموال اليتامى، بل أخرج من يأكل بالحقِّ كالأكل بالمعروف لحاجة أو غيرها من الأسباب[3].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/14.

(2) البقاعيّ: نظم الدُّرر: 5/202.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/506.

فكلمة ﴿ظُلۡمًا﴾ حدّدت طبيعة التّجاوز على مال اليتيم، وهذا مُرتَبطٌ بالمآل الحقيقيّ بما عقَّب به في نهاية الآية ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾، وهذا هو المُرتكز التّتميميّ لختام بنية الآية الكريمة، قال الآلوسيّ مُبيّنًا علّة الاحتراس: "وعلّق الوعيد على الأكل بذلك؛ لأنّه قد يأكل مال اليتيم على وجه الاستحقاق، كالأجرة والقرض مثلًا فلا يكون ظُلمًا، ولا الآكل ظالمًا"[1].

بلاغة أسلوب القصر بـ (إنّما):

في الـقـصـر بـ (إنَّـمـا) تخويفٌ لـلأوصـيـاء على أمـوال اليتامى وتـرهـيـبٌ من أكلها ظلمًا

من بلاغة التّراكيب في الآية الكريمة القصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾، فالمقصورُ في الآية (المأكول)، والمقصور عليه (النَّار)، فقصر الله تعالى صفة الأكل على الموصوف بها وهي النَّار، فهم لا يأكلون في بطونهم شيئًا آخر غير النّار.

وفي هذا القصر بلاغة لا تخفى تتمثَّل في المبالغة في التّرهيب من أكل مال اليتيم، والتّأكيد أنّ هذا الأكل مصيره النَّار، فهذا الأسلوب البلاغيّ جاء تخويفًا للأوصياء على أموال اليتامى وتنفيرًا لهم من هذا الفعل الشّنيع ببيان أنَّ أكل أموال اليتامى ظلمًا في الدُّنيا سينتهي بنارٍ تتأجّج في بطونهم وتمزّقهم يوم القيامة[2].

التّصريحُ بعاقبة أكــل أمــوال اليـتـامـى ظلـمًا من تمام العناية الرّبَّانيَّة باليتامى

وفيه عناية ربَّانيَّة باليتامى، ودفاعٌ إلهيٌّ عنه ببيان نتيجة أكل أموالهم ظُلمًا، لذا جاءت ﴿إِنَّمَا﴾ لتُظهر لنا العذاب الإلهيَّ لمرتكب هذا الذّنب ظهورًا تشمئزّ منه النّفس، وترتعدُ له الفرائص، بنفي الأكل عن الأشياء جميعها، وإثباته للنّار على وجه المبالغة والتّأكيد، فهم يأكلون النّار فقط ولا شيء غير النّار، وهذا مُستفاد من كون القصر أحد مُكوّنات المغايرة؛ لأنَّ فيه إثباتاً لما يُذكَر بعد ﴿إِنَّمَا﴾

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/424.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/26.

ونفيًا لما سواه، أي: لا يأكلون إلا ناراً ولا يأكلون غيرها[1]، وبهذا تتوضّح وظيفة القصر الّذي يُعدُّ مرجعيَّةً دلاليَّةً للنّصِّ، لما يُحقّقه من لزوم التَّرابط، وما يُقدّمه من دلالة تنشأ من خلال وجوب الارتباط بين طرفيه، على النّحو الّذي بيّناه.

علّة التعبير بـ ﴿إِنَّمَا﴾ دون (إنّ):

المجيء بـ (إنّما) لتقييد حصر أكلهم في النار

لما كانت العقوبة محقَّقة، والتّشكيك في كون هذه العقوبة هي: (أكْل النّار) كان الأصل أن يؤتى فيه بـ (إنَّ)، فيقال: إنَّهم يأكلونَ في بطونهم نارًا، لكن جيء بـ ﴿إِنَّمَا﴾ المخصّصة بنفي الشكّ في اختصاص المخبر عنه، المقتضية للحصر؛ لأنه روعي فيه كون أكلهم من حيث هو معلوم لعلمنا أنهم يأكلون شيئًا بالإطلاق وجيءَ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ لتقييد حصر أكلهم في النار.

ادخال (إنما) للإخبار عن أنَّ العذاب بأكل النار نزل منزلة المعلوم تحقيقًا له

وذُكِرَ أنه إنْ لم يُرد بأكلهم النَّار حقيقة بل مُطلق تذميمهم على ذلك، وأنَّهم مُجازَون عليه فهو معلوم؛ لأنّا نعلم نصًّا أنَّ أكْلَ المال ظلمًا مُوْجِبٌ العقوبة مطلقًا وإنْ أريد أنّهم يعذبون بأكل النار حقيقة فهو غير معلوم لنا لكنه نزل منزلة المعلوم تحقيقًا له حتى صار كالمشاهد الذي لَا يخالف أحد فيه فيكفي في الإخبار عن وقوعه أو في شيء من غير تأكيد فلم يبق إلا الحصر فأدخلت (إنّما) دليلًا عليه[2].

بلاغة المجاز المُرْسَل في التّنبيه على أداء حقوق الضّعفاء:

مبالغةٌ في التّرهيب من أكل مال اليتيم ببيان عاقبته

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًاۖ﴾ مجازٌ مُرسَلٌ في كلمة ﴿نَارًاۖ﴾ علاقته المُسَبَّبِيَّة، فقد أُطلق المُسَبَّب ﴿نَارًاۖ﴾، وأراد به السَّبب (مال اليتامى)؛ لأنَّ النَّار لا تُؤكل وإنَّما يُؤكل مُسَبِّبها، والآيل إليها، وهو مال اليتيم الّذي يأخذونه ظُلمًا من اليتامى، وبهذا أوقع المُسَبِّب (النَّار) نيابةً عن السَّبب (المال الحرام) الّذي يُوصِل إلى

---

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/328.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/9.

النّار باعتباره النّتيجة الّتي سيؤول إليها مَن يأكل مال اليتامى ظُلمًا، ويجوز أن تكون العلاقة باعتبار ما سيكون في المستقبل بتسمية الشَّيء بما سيؤول إليه في المُستقبل[1].

فعبَّر بلفظ النَّار مَجازًا لأنَّهم سيؤولون إليها، ويأكلون منها يوم القيامة؛ للمبالغة في المعنى المُراد وهو التَّهديد، والوعيد، والتَّخويف، والتّرهيب، قال النَّحاس: "هذا مَجازٌ في اللَّفظ، وحقيقتُه في اللُّغة أنَّه لَمَّا كان ما يأكلون يؤدّيهم إلى النَّار كانوا بمَنزِلة من يأكل النَّار، وإن كانوا يأكلون الطَّيّبات"[2]، وممَّا يُقرِّر هذا المعنى التَّنكير في لفظ ﴿نَارًاۖ﴾ الَّتي دلَّت على فظاعتها.

براعة الإطناب بالتّتميم بذكر البطون:

في التتميم مبالغةٌ في وصْفِ إجرامهم، وبشاعة ذنبهم

من بلاغة الآية الكريمة الإطناب بالتَّتميم[3] بذكر البطون في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾، مع أنَّ الأكل لا يكون إلّا في البطون؛ فهي محلُّ الأكل ومستقرُّه؛ للتَّأكيد والمبالغة في وصف إجرامهم بأكل أموال اليتامى وجشعهم نحوها، ولتَجسيدِ بشاعة الذَّنب المُقترَف بأكل هذه الأموال؛ حتَّى تتأكَّدَ عِند السَّامع بشاعةُ هذا الجُرم بمزيدِ تصويرٍ، ولأجل تأكيد التَّشنيع عليهم، خَصَّ الأكل لأنَّه أبشع الأحوال الّتي يُتناول مالُ اليتيم فيها[4].

التَّعريض بذِكر البُطون لبيان دناءتهم وسُقوط هِمَمِهم

وأفاد هذا التَّتميم بذكر البطون التَّعريض بهم، إذ "نَبَّه على الحامل على أَخْذ المال؛ وهو البطنُ الَّذي هو أَخَسُّ الأَشياء الَّتي يُنتَفَعُ بالمال لأَجلها؛ إذ مآلُ ما يُوضعُ فيه إلى الاضمِحلال والذَّهاب

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/531، والآلوسّي، روح المعاني: 2/425.

(2) معاني القرآن، النّحاس: 2/37.

(3) التَّتميم: وهو "أن يُؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نُكتة كالمبالغة" القزوينيّ، الإيضاح، ص: 212.

(4) ابن المُنيّر، الانتصاف: 1/479.

في أَقرب زمانٍ"[1]، وبهذا عرَّض بذِكر البُطون؛ لخِسَّتهم، واتّضاع أمرهم، وسُقوطِ هِمَمِهم، والعربُ تُذَمُّ بذلك[2].

وجْهُ فَهْمِ غير المنطوق به من المنطوق:

يُلمحُ السياقُ إلى تحريمِ مال اليتيم وإحراقه وإهلاكه

من دقائق التَّعبير القرآنيّ أنَّه يُفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ بدلالة سِياق الكلام ومقصُوده، تحريم مال اليتيم وإحراقه وإهلاكه، ووجوب المحافظة عليه وحسن معاملة اليتيم ورعايته؛ لأنَّ النَّار لا تُؤكل إنَّما إحراقها حتميّ[3].

وتتضمّن الآية وعيدًا لمن خالف أمر اللّه في اليتامى ممَّا يوحي بمنزلة اليتيم وقدره عند اللّه تعالى ذلك القدر الّذي توحي به الآيات الّتي تَذكرُ اليتيم ووجوب حسن معاملته.

وقُرئت ﴿وَسَيُصۡلَوۡنَ﴾؛ بالبناء للمجهول أيضًا: ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ﴾[4]؛ لأنّ الفاعلَ معروفٌ، والأهمُّ الانشغال بالفعل، وفي هذا البناء مزيدٌ من التّهديد والوعيد.

سرُّ دخول السّين في فعل الصَّلي دون الأكل:

أكلُ ما لا خير فيه من الأموال التي هي بمثابة النّار آنيٌّ، وثَمَّ جزاءٌ في المستقبل

ذُكِرَ لفظ ﴿يَأۡكُلُونَ﴾ غفلًا من علامة الاستقبال، وعطف عليه ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ﴾ مقرونًا بالسّين التي هي علامة الاستقبال؛ ليدلَّ على أنّهم إنّما يأكلون الآن ما لا خير لهم في أكله؛ لأنّه في قبحه، وما يترتَّب عليه من العقاب كالنار، أو لأنه سببٌ لدخول النار، ثم بيَّن ما يُجزَون به في المستقبل الذي يشير إليه المجاز في أكل النار فقال: ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/531.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/506.
(3) الغزالّي، المُستصفى، ص: 264.
(4) وهي قراءة ابن عامر وشعبة من العشرة، ينظر: ابن الجزري، النشر: 2/247.
(5) رضا، تفسير المنار: 4/329.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخشية والخوف، والتقوى:

الخشية خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشَى منه[1]، وحقيقتُها طمأنينةٌ في القلب تبعث على التّوقّي[2]، أمّا الخوف فهو توقُّع مكروه أو فوت محبوب[3]، وهو ظنٌّ لا يقين معه، وضدّه الأمن، وتدور مادّته حول الذُّعر والفَزع[4]. و"تفترق الخشية عنِ الخوف، بأنَّها تكون عن يقينٍ صادقٍ بعظمة من نخشاه، كما يفترق الخشوع، بأنَّنا لا نخشع إلّا عن انفعالٍ صادقٍ بجلال من نخشع له، أمّا الخوف فيجوز أن يحدُثَ عن تسلّط بالقهر والإرهاب، كما أنَّ الخضوع قد يكون تكلُّفاً عن نفاقٍ وخوف تقيَّةٍ ومداراة"[5]، قال الرّاغب: إن قيل: لمَ قال: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ﴾، ثمّ قال: ﴿فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؟ وهل بين الخشية والتّقوى فرق؟قيل: الخشية الاحتراز من الشّيء بمقتضى العلم، ولذلك وُصف به العلماء، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، والتّقوى جعل العبد نفسه في وقاية ممّا يخشاه، ولذلك قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: 21]، فالخشية مبدأ التّقوى، والتّقوى غاية الخشية، فأمر الله تعالى بمراعاة المبدأ والنّهاية، إذ لا ينفع الأوّل دون الثّاني. ولا يحصل الثّاني من دون الأوّل"[6]، وقال محمّد رشيد رضا: "فإن كان بين الخوف والخشية فرق، فالأقرب عندي أن تكون الخشية هي الخوف، في محلّ الأمل، ومن دقّق النّظر في الآيات الّتي ورد فيها حرف الخشية، يجد هذا المعنى فيها، ولعل أصل الخشية من مادّة خشت النّخلة تخشو، إذا جاء تمرها دقلًا (رديئًا)، وهي ممّا يرجى منها الجيّد"[7].

والخشية محمودةٌ في كلِّ مَواضِعها، أمّا الخوف فمذمومٌ لما يلحقه من أمارة الظّنّ وعدم الأمن، والخشية تكون من عِظَم المَخْشِيّ منه، وإن كان الخاشِي قويّاً، والخوف يكون

---

(1) الراغب، المفردات: (خشي).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/170.
(3) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 101.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (خَافَ).
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/332، وابن كَثير، تفسير ابن كَثير: 1/42.
(6) الراغب، تفسير الرّاغب: 3/1116، وما بعدها.
(7) رضا، المنار: 4/322.

من ضعف الخائف، وإن كان المَخوف أمراً يسيراً[1]؛ والخوف تألّم النّفس من العقاب المُتوقّع، بسبب ارتكاب المَنهيّات، والتّقصير في الطّاعات، وهو يحصل لأكثر الخلق، وإن كانت مراتبه متفاوتة جدًّا، والمرتبة العليا منه لا تحصل إلّا للقليل[2].

ضِعاف وضُعَفاء:

ضِعاف جمعٌ على وزن فِعال، وضُعَفاء جمعٌ على وزن فُعلاء، وكلتا الصّيغتين جمع لضعيف على وزن فعيل، والأخير وصفُ ذَكَر عاقل بمعنى فاعل[3].

قال الأستراباذيّ: وأكثر ما يجيء (فُعَلاء) في هذا الباب - يعني فاعلاً كجاهل - وغيره، إذا دلَّ على سجيَّة مدح أو ذمّ كجهلاء وجُبناء وشُجعاء[4]، ويقع (فُعَلاء) في الأمور المعنويّة، ومنه لفظ (ضُعفاء)، فهو لا يُراد به الضّعف البدنيّ؛ وإنّما يُراد به الضَّعف الّذي ضدّ القوّة، وهو الضّعف المعنويّ، وثمَّة آية جاء وصف الذّرِّية فيها بالضُّعفاء، في قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ﴾ [البقرة: 66]، إذ قُصد بـ ﴿ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ﴾ الضّعف المعنويّ، أي: عدم القيام بالأمر[5]، أمّا (الضِعَاف) فيُراد منهم الضُّعف البدنيّ، وفسَّره فاضل السَّامرائيّ بالضَّعف المادّيّ، أي: محتاجين إلى المال فقراء، كقوله تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾ [النّساء: 9]، والمقصود بـ ﴿ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا﴾: الأولاد الصّغار[6].

---

(1) الزّركشّي، البرهان: 4/78.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 217.
(3) السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 165.
(4) الأستراباذيّ، شرح الرّضي: 2/157 - 158.
(5) مصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن، ص: 369.
(6) السّامرائّي، معاني الأبنية، ص: 168.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾ [النّساء: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين حقوق اليتامى والضّعفاء، وبين بيان حقوق الورثة الشّرعيين

بين هذه الآية وما سبقها، مناسبةٌ ظاهرةٌ، فقد جاءت بمَنزِلة البيان والتَّفصيل لما أُجمل من حقوق الميراث، فقد فصَّلَت أحكام الميراث، وما يتعلّق به، لإبطال ما كان عليه العربُ من نظام التّوارث في الجاهليّة من منع الضّعاف من النّساء والأطفال من الميراث، فبَيَّن كيف يحصّل هذا اليتيمُ المال بالإرث، وذلك ببيان مجمل أحكام الميراث[1]، "والوصيّة الّتي تضمّنتها الآية، هي على سبيل الوجوب والإلزام، وإنّما جاءت بلفظ (الإيصاء)، لأنّها متعلّقة بأمر يقع بعد الموت، وهو الميراث، فهي وصية من اللّه، ينبغي نفاذها فى تركة المتوفّى، كما يجب نفاذ وصية الموصي بعد موته! "[2] ويؤكّد وجوبها على من أُمِرَ بها، لأنّها جاءت ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾، كما نصّت الآية..

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَظِّ﴾: الحظُّ: النَّصيبُ والجدّ من الفَضل والخير،

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/509، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 6/206.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 2/709.

والجمع: الحُظُوظ وفلان حَظيظ، ولم نَسمَع فيه فعلاً[1]، وقد يقال في جمعه أحاظٌّ، قال الشّاعر:

وَلَيْسَ الْغِنَى وَالْفَقْرُ مِنْ حِيلَةِ الْفَتَى *** وَلَكِنْ أَحَاظٍ قُسِّمَتْ وَجُدُودُ[2]

والحظُّ: النَّصيب المُقدَّر، وقد حَظِظتُ وحُظِظتُ، فأنا محظوظٌ، وقيل في جمعه: أَحاظٍ وأُحُظٌّ، قال اللّه تعالى: ﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: 14]، وقال تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾[3]، وقوله تعالى: " ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٣٥﴾ [فُصِّلت: 35] الحظُّ هاهنا الجنَّةُ، أَي: ما يُلَقّاها إِلَّا مَن وَجَبَت له الجنَّةُ، ومَن وَجَبَت له الجنَّةُ، فهو ذو حظٍّ عظيمٍ مِنَ الخير"[4]، واستعمال الحظّ دالًّا على القسم أو على النّصيب أو على الجنّة، أو غير ذلك، ممّا يتّسع له البيان القرآنيّ بجدارة، وهو عطاء اللّه في الميراث المقسوم، وفي الرّزق المعلوم.

2) ﴿ثُلُثَا﴾: الثُّلث بضمَّتَين سهم من ثلاثة، وهو المُراد من قوله تعالى: ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾،، وثلاث إِن أفرد، كما في قولك: (بِعت من النّوق ثلاثًا)، يكتب بالألف لاتّقاء اللّبس بثلث؛ وإِن أُضيف أَو وصف كما في قولك: (حلبتُ ثلث نُوق)، و(ما حلبت النّوق الثُّلث)، يُكتب بحذف الألف لارتفاع اللّبس[5]، وثَلَثْتُ القوم أَثْلِثُهم ثَلْثاً، إِذا أخذتُ ثُلُثَ أموالهم، وقد يُقال: ثَلَثْتُ الرّجلَين، أي: كانا اثنَين فصرتُ لهما ثالثا، وثُلاثُ ومَثْلَثُ لا تدخل عليهما اللّام ولا يُصرَفان، والمُثَلَّثُ من الأشياء: ما كان على ثلاثة أَثناء، والمثلُوثُ من الحبل: ما كان على ثلاث قُوَى، وكذلك ما يُنسَجُ ويُضفَر، والمضفور والمفتول، والمَثْلُوث: ما أخذ ثُلُثُه[6].

3) ﴿ٱلسُّدُسُ﴾: من (سَدَسَ)، والسِّين والدَّال والسِّين أَصلٌ في العدد، وهو قولهم السُّدُسُ: جزءٌ من ستَّة أَجزاءٍ، وهو المعنى المقصود في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا

(1) الخليل، العين: (حظظ)، وفي تاج العروس: "وقال الأزهري: للحظ فعل عن العرب، وإن لم يعرفه اللّيث ولم يسمعه، ج في القلة: أحظ، كأشد"، ينظر: الزبيدي، تاج العروس: (حظظ).

(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (حظظ).

(3) الراغب، المفردات: (حظ).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (حظظ).

(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 327.

(6) الخليل، العين: (ثلث).

ٱلسُّدُسُ﴾ [النّساء: 11]، والسِّدسُ مِنَ الوِرد في أَظماء الإبل: أَن تَنقَطِعَ الإبلُ عَنِ الوِرد خمسةَ أَيَّام، وتَرِدَ السَّادسَ، وأَسدَسَ البعيرُ، إذا أَلقى السِّنَّ بعد الرُّباعية، وذلك في السَّنة الثَّامنة، فأَمَّا السِّتَّةُ فمِن هذا أَيضًا غيرُ أَنَّها مُدغمةٌ، كأَنَّها سِدْسَةٌ[1]. قال الخليل في باب السّين والتّاء: "ستّ: سِتَّةٌ وسِتٌّ في الأصل سِدسَةٌ وسِدسٌ، فأدغموا الدّالَ في السِّين، فالتقى عندها مخرَج التّاء فغَلَبَت عليها كما غَلَبَت الحاءُ على العين والهاء في سَعدٍ، يقولون: كنتُ مَحهُم، أي: معهم، وبَيانه أنَّ تصغير سِتّةٍ سُدَيسَة"[2].

4) ﴿وَوَرِثَهُۥٓ﴾: من (وَرِثَ)، الوِراثةُ والإرثُ: انتقال قِنْيَةٍ إليك عن غيرك من غير عَقد، ولا ما يجري مَجرَى العَقد، وسُمّي بذلك المُنتقِل عن الميّت، فيقال للقِنيةِ المَوروثة: مِيراثٌ وإرثٌ، وتُراثٌ أصله وُراثٌ، فقُلبَت الواو ألفًا وتاء، قال تعالى: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ [الفجر: 19][3]، والمعنى في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾ [النّساء: 11] هو حوزُ الإنسان ما كان يملكه آخر بعد موت هذا الآخر استحقاقًا بالشَّرع، وهذا المعنى المشهور للميراث في القرآن، والوارث صفة من صفات الله تعالى، وهو الباقي الدّائم الَّذي يرث الخلائق، ويبقى بعد فنائهم، يقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾ [مريم 40]، ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾ [الأنبياء: 89]، أي: يبقى بعد فناء الكلّ، ويفنى ما سواه، فيرجع ما كان ملك العباد إليه وحده لا شريك له، ومجيء الفعل بالصّيغة المضعّفة ورّث فلان فلانًا، أي: أدخله في ماله مع ورثته، في حين أنَّه ليس له نصيب في المال بحسب الشّرع[4]، واللّفظ مصطلح للدّلالة على انتقال ملكيّة المال والعقّار والأعيان، من ذمّة المتوفّى إلى ذمّة ورثته، كلٌّ بحسب نصيبه بالفرض أو التّعصيب، وهو ملائم للمراد، معبّر بدقّة عن المقصود، ولا يقوم لفظ آخر مقامه.

5) ﴿فَلِأُمِّهِ﴾: من (أَمَّ)، الهمزَة والميم أَصلٌ واحدٌ، يتفرَّعُ منه أربعة أَبوابٍ؛ وهي الأصل والمَرجع والجماعة والدّين، وهذه الأَربعةُ مُتقاربةٌ[5]، وجمع الأمّ أمّهات، وهي الوالدة،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سدس)، وابن منظور، لسان العرب: (سدس).
(2) الخليل، العين: (ست).
(3) الراغب، المفردات: (ورث).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ورث).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أَمَّ).

ومكَّة: أمّ القرى، لأَنّ الأَرض دحيت من تحتها، والأُمُّ بإزاء الأب، وهي الوالدة القريبة الّتي ولدَته، والبعيدة الّتي ولدَت من ولدَته، ولهذا قيل لحوّاء: هي أمّنا، وإن كان بيننا وبينها وسائط، ويُقال لكلّ ما كان أصلًا لوجود شيء، أو تربيته، أو إصلاحه، أو مبدئه: أمّ[1]، وذكر الفراهيديّ: أنَّ كلّ شيء ضُمّ إليه سائر ما يليه يُسمّى أمًّا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الزّخرف: 4] أي: اللّوح المحفوظ؛ وذلك لكون العلوم كلّها منسوبة إليه ومُتولّدة منه[2]. والأُمّ في القُرآن على خمسة أوجه: أَحدها: الأَصل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزّخرف: 4]، والثَّاني: الوالدة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾، والثَّالث: المُرضعَة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النّساء: 23]، أَراد: حُرِّمت عليكم المُرضعات، لِأَن المُرضعَة تسمّى بالرّضاع أُمّاً، والرَّابع: مشابهة الأُم في الحُرمَة والتّعظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: 6]، والخامس: المَرجع والمَصير، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩﴾ [القارعة: 9][3]، قال ابن قتيبة: " لمّا كانتِ الأمّ كافلة الولد وغاذيته، ومأواه ومربّيته، وكانتِ النّار للكافر كذلك جعلها أمّه"[4].

6) ﴿لَا تَدۡرُونَ﴾: من دَرى الشّيءَ دَرْياً، ويقال: دريت الشّيء أدريه عرفته، وأدريته غيري إذا أعلمته، الجوهري: دريته ودريت به دريا ودرية ودراية أي علمت به[5]، ويقال: قد دريت الشّيء أدريه: إذا عرفته، وأدريته غيري: إذا أعلمته، قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥﴾ [الهمزة: 05]، فتأويله: أيّ شيء أعلمك ما الحطمة؟[6]، والدِّرايَة: وهي المعرفة الحاصلة بعد تردّد مُقدّمَات[7]، وهي أخصّ من العلم، كما في التّوشيح وغيره، وقيل: إنّ (درى) يكون فيما سبقه شكّ؛ قاله أبو عليّ، (أو) علمته (بضرب من الحيلة)، ولذا لا يطلق على اللّه تعالى[8].

7) ﴿نَفۡعٗاۚ﴾: من نَفَعَ يَنفَعُ نَفعاً فهو نافع، والنّفع ضدّ الضَّرّ، وفلان ينتفع بكذا وكذا،

(1) الراغب، المفردات: (أمّ).
(2) الخليل، العين: (أمم).
(3) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 140 - 141.
(4) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 70.
(5) ابن منظور، لسان العرب: 14/254.
(6) الأنباريّ، الزاهر: 2/195.
(7) الكفويّ، الكليّات، ص: 67.
(8) الزَّبيدي، تاج العروس: (دري).

قالَ: والنِّفعُ في المزادة في جانبيها، يُشَقُّ الأَديم، فيُجعَلُ في جانبيها، في كلّ جانب نِفعَةٌ[1]. والنَّفع ما يُستعان به في الوصول إلى الخيرات، وما يُتوصَّل به إلى الخير فهو خير، ويقال: نَفَعَ يَنْفَعُ نَفْعاً، وانتفع ينتفع انتفاعًا فهو مُنتفع[2]، جاء النَفعُ ضدّ الضّرّ في القرآن كلّه، وذلك في كلّ شيء بحسب سياقاته اللّغويّة[3]، وهي من الألفاظ المأنوسة، الخفيفة على اللّسان، والكثيرة الدّوران في الاستعمال الوظيفي.

8) ﴿عَلِيمًا﴾: من عَلِمَ، والعِلمُ: إدراك الشّيء بحقيقته؛ وذلك ضربان: أحدهما: إدراك ذاتِ الشّيء، والثّاني: الحكم على الشّيء بوجود شيء، هو موجود له، أو نفي شيء هو مَنفيٌّ عنه[4]، ومن هذا المعنى المحوريّ، أخذ معنى العِلم، وهو الاعتقاد الجازم الثّابت المُطابق للواقع[5]، ومن صفات الله تعالى العَلِيم والعالِمُ والعَلَّامُ[6]، وهو "العالم بالسَّرائر والخَفيّات لا يُدركها علم الخلق، وجاء على فعيل للمبالغة في وصفه بالعلم"[7]، والعليم يدُلُّ على كَثرَة المعلومات، الّتي لا نهاية لها، ثمَّ يكون العلم في ذاته من حيثُ الوضوح والكشف، على أتمّ ما يُمكن فيه، بحيثُ لا يُتصوَّر مُشاهدة وكشف أظهر منه، وللعبد حظٌّ من وصف العليم لا يكاد يخفى، ولكن يُفارق علمه علم الله تعالى، لأنّ معلومات العبد محصورة في قلبه، ومعلومات الله لا حصر لها، وأنّ علم الله ﷻ بالأشياء غير مُستَفاد من الأَشياء، بل الأَشياء مستفادة منه، وعلم العبد بها تابع للأشياء وحاصل بها[8].

9) ﴿حَكِيمَا﴾: من حكم، والحكمة: خروج نفس الإنسان إلى كمالها المُمكن لها، في حدّي العلم، والعمل، فحينئذٍ تنال الخلق الَّذي يُسمّى العدالة، وسمّيت حِكمَة الدَّابَّة بذلك؛ لأَنَّها تمنعها من التَّصرُّف بما لا يُريد راكبها، كما أَنّ الحِكمَة تمنع صاحبها من ركوب ما

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (نفع).
(2) السّمين، عمدة الحفَّاظ: 4/207.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (نفع).
(4) الراغب، المفردات: (علم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (علم).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (علم).
(7) البيهقيّ، الأسماء والصّفات: 1/71.
(8) الغزاليّ، المَقصد الأسنى، ص: 87.

لا يصلح[1]، ومنه: الحكيم؛ لأَنَّهُ يمنَع نَفسه ويصرفها عن هواها[2]. والحَكَمُ والحكيمُ من أسماء اللّه الحسنى، وهما بمعنى الحاكِم، وهو القاضي، فهو فعيلٌ بمعنى فاعِل، أَو هو الَّذي يُحكِمُ الأَشياءَ ويُتْقِنُها، فهو فَعيلٌ بمعنى مُفعِل، والحكيمُ ذُو الحكمة، والحكمةُ عبارةٌ عَن معرفة أَفضل الأَشياء بأَفضل العلوم، ويُقالُ لِمَن يُحسِنُ دقائقَ الصِّناعات ويُتقنُها: حكيمٌ[3]، واللّه هو الحكيم؛ "لأَنَّه يعلم أجلّ الأَشياء، بأَجلّ العلوم؛ إِذ أجلّ العلوم هو العلم الأزليّ الدَّائم الَّذي لا يتَصَوَّر زواله المطابق للمعلوم، مُطابقة لا يتَطَرَّق إِليه خَفاء ولا شُبهَة ولا يتَّصف بذلك إِلَّا علم اللّه ﷻ"[4].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه، ولو كان ضعيفًا لا يقدر على شيء

جاءت هذه الآية الكريمة[5]، وما بعدها من الآيات لتفصِّل في أحكام الميراث، وتبيّنها على وجه الاستقصاء، وأوجبت للمرأة نصيبا في الميراث، بعد أن كانت مهضومة الحقوق، وتُعدُّ "هذه الآيةُ ركنًا من أَركان الدِّين، وعُمدَةً من عُمَدِ الأَحكام، وأمًّا من أُمَّهات الآيات؛ لاشتمالها على ما يُهِمُّ من علم الفرائض، وقد كان هذا العلم من أَجَلِّ علوم الصَّحابة، وأَكثَرُ مُناظراتهم فيه"[6]، وخلاصة معنى الآية: أنَّ اللّه يأمركم بأن تدقّقوا في قسمة المواريث، وهي تخصّ الأبناء والبنات، والأبوين، والإخوة الأشقّاء أو لأب أو لأمّ، وتكون القسمة بلاجور ولا حرمان لأصحاب الحقوق، بعيدا عن الأهواء، فلا يدرى من هو أقرب للموصي نفعا.

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 261.
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 380.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(4) الغزالّي، المقصد الأسنى، ص: 120.
(5) وقد رُويَت في سبب نزول هذه الآية أَحاديثُ كثيرةٌ، منها ما رواه البخاريُّ عن جابر بن عبد الله ﵄، قال: «مرِضتُ فعادَني رسولُ الله ﷺ وأَبو بكرٍ، وهما ماشيان، فأَتاني وقد أُغمِيَ عليَّ، فتوضَّأَ رسولُ الله ﷺ فصبَّ عليَّ وَضوءَهُ فأَفَقتُ، فقُلتُ: يا رسولَ الله، كيف أَصنعُ في مالي؟ كيف أَقضي في مالي؟ فلم يُجبنِي بشيءٍ حتَّى نزلَت آيةُ المواريثِ» البخاريّ، صحيح البخاري، الحديث رقم: (6723).
(6) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/496.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الإطناب بطريق التَّفصيل بعد الإجمال:

تفصيل أحكام الميراث وموارده المُجملة؛ بيانٌ مُفسِّرٌ لإبهامه

من بلاغة التَّراكيب في الآية الكريمة: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ أنَّها جاءت على طريقة الإطناب بتفصيل أحكام الميراث وموارده بعد إجمالها في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ [النّساء: 7][1].

فاللّه تعالى قد أثبت حكم الميراث بالإجمال في الآية السّابعة، وجاء بلفظة ﴿نَصِيبٞ﴾ نكرة مبهمة تدُلُّ على الحظِّ أو المقدار عمومًا، فأُبهم المُراد التّفصيليّ لكلّ واحد من الرِّجال والنِّساء، ممَّا أدخلها في اللّفظ المجمل المُبهم الّذي لا يدُلُّ على قدرٍ معينٍ محدودٍ لعدم وجود ما يوضّحها في سياقها، فكانتِ الآيةُ مُجمَلةً لا يُعلَمُ منها مَن يَرِثُ من الرِّجال والنِّساءِ بالفَرض والتَّعصيب، ومن يَرِثُ ومن لا يَرِثُ[2]، حتَّى جاء قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ شروعًا في تفصيل أحكام المواريث في هذا النَّصيب المجمل، وتفسير إبهامه، فهي جاءت بمَنزِلة البيان والتَّفصيل له[3].

حسن افتتاح آية الميراث بـ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾:

الاهـتـمـام بأحكام الميراث، وتأكيدها

من بلاغة الآية الكريمة افتتاحها بالأسلوب الخبريّ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾، وهو "خبرٌ فيه معنى الإلزام"[4]، يتضمّن وصيّة

---

(1) الزّمَخشري، الكشّاف: 1/480.

(2) الزّركشّي، البرهان: 2/192.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/509.

(4) النّحاس، إعراب القرآن: 1/202.

اللّه تعالى بتوزيع الميراث على الأولاد بالفعل المضارع مع ذكر الفاعل الاسم الكريم (اللّه) في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ دون الفعل الماضي (أوصَاكُم)، أو فعل الأمر (أوصِيكُم)، أو (يأمركم)، أو (نوصيكم) بإضمار الفاعل وغير ذلك من الصّيغ والألفاظ؛ لأنَّ التَّعبير بلفظ الإيصاء بالفعل المضارع ﴿يُوصِيكُمُ﴾ المسند إلى الاسم الكريم الفاعل الصّريح ﴿ٱللَّهُ﴾ أَبلغُ وأَدلُّ سُرعَةً على الاهتمام وطلبِ حُصولِهِ من فعل الأمر أو الماضي؛ لأنَّ الفعل المضارع يدُلُّ على التَّجدد والاستمرار.

فـــي حسـن الافتتاح عنايةٌ بأحكام الميراث

وفي افتتاحها بهذا الأسلوب أيضًا اهتمامٌ بأحكام الميراث وما يتعلَّق بها؛ لذا صدَّر تشريعها بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ﴾؛ لأَنَّ الوِصاية هي الأَمرُ بما فيه نفعُ المَأمور، وفيه اهتمام الآمِرِ لشدَّة صلاحه، ولذلك سُمِّي ما يَعهَدُ به الإِنسان، فيما يصنع بأَبنائه وماله وذاته بعد الموت، وصِيَّةً[1].

براعة إظهار فاعل الإيصاء:

إسناد الوصيّة إلى اسم الله الأعظم؛ إعلاءٌ لشأنها، وتربية للمهابة عند السّامعين

قوله: ﴿يُوصِيكُمُ﴾ فعل دائم جيء به مع الفاعل الاسم الكريم الصّريح فقال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ دون (نوصيكم)؛ لأنَّه أراد تعظيم الوصيّة وتأكيد أمرها فأسندها إلى الاسم الكريم الصّريح الّذي هو أعظم الأسماء (اللّه)، فهو يربِّي المهابة عند السّامعين، فاللّه تعالى هو المُوصي، وبذكره لا يسع أحدًا من السّامعين التَّقديمُ بين يديه ولا ردّ هذه القسمة[2].

ومن هذا الافتتاح استنبط علماؤنا الكرام مِن قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ أنَّ اللّه تعالى أَرحَمُ بالعباد من الوالدِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/551، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/256.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/471.

بولدِه، فقد أَوصَى الوالدَين بأَولادهم، فَعُلِم أَنَّه أَرحَمُ بهم منهم؛ لأَنَّ الَّذي يوصيكَ بالشّيءِ هو أرحمُ به منك، وأشدُّ عنايةً به منك[1]، كما جاء في الحديث الصّحيح عن عُمرَ بن الخطَّاب ﵁: «قَدِمَ على النَّبيِّ ﷺ سَبيٌ، فإذا امرأةٌ مِنَ السَّبيِّ قد تَحلُبُ ثَديَها تَسقي، إذا وَجَدَت صبيًّا في السَّبيِّ أَخَذَته، فأَلصَقَته ببطنِها وأَرضَعَته، فقال لنا النَّبيُّ ﷺ: أتَرَونَ هذه طارحةً ولدها في النَّار، قُلنَا: لا، وهي تَقدرُ على أَن لا تَطرَحَه، فقال: لَلَّهُ أَرحَمُ بعباده مِن هذه بولدها»[2].

رحمة الله بعباده تفوق رحمة الوالد بولده

بلاغة تقديم الأولاد في الميراث:

من البلاغة في الآية الكريمة تقديم الأولاد على باقي الصّنوف الّتي ترث مثل: الأب والأمّ والأخ وغيرهم في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾، وجاء تقديمهم في الميراث؛ لأنَّهم أحقُّ بالعطف والعون لضعفهم، أمّا الأصول فقد يكون لهم حقٌّ واجبٌ على غير المُتوفَّى، أو لهم قدرةٌ على الكسب[3]؛ ولأنَّهم أقرب الورثة إلى الميّت، وأكثر بقاءً بعد المورِّث؛ ولأنَّ تعلُّق قلب الإنسان بولده أشدُّ من تعلّقه بغيره[4].

الأولاد أقرب الورثة للميّت، وأحقُّ النّاس بالعطف لضعفهم

إيثار التَّعبير بـ (الأولاد) دون (الأبناء) وغيره:

من دقائق التَّعبير القرآنيّ إيثار لفظ (الأولاد) دون غيره كالأبناء أو الذُّرّيّة وغيرهما في قوله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾؛ لأنَّ هذا اللّفظ يُبيّن علّة الميراث؛ وهي أنَّه من ولده وصلبه، فأوثر التَّعبير به دون الأبناء؛ لأنَّ "الابن يقعُ على الابن من الرَّضاعة، وعلى ابن البنت، وعلى الابن المُتبنَّى، وليسوا من الورثة"[5].

بيان علّة الميراث مع الأولاد: هي أنَّهم من ولده وصلبه

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/225.
(2) البخاريّ، صحيح البخاري، الحديث رقم: (5999).
(3) الزّحيلّي، التَّفسير المُنير: 4/273.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/509.
(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/471.

دلالة حرف الجرّ ﴿فِيٓ﴾:

التعبير بـ (في) دون غيرها من الحروف؛ تمثيلٌ لشدّة تعلّق الوصية بالأولاد

وممَّا يُقرِّر هذا المعنى ويؤكّده استعمال الحرف ﴿فِيٓ﴾ دون غيره مثل (الباء) فلم يقُل: يوصيكم الله بأولادكم، بل قال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾؛ فحرف الجرِّ (في) معناه الوعاء[1]، ويدُلُّ على الظّرفيّة المجازيّة الّتي "جعلتِ الوصيَّة كأنَّها مظروفةٌ في شأن الأَولاد لشدَّة تعلُّقها به كاتِّصال المَظروف بالظَّرف"[2].

بلاغة تقديمُ الخبر على المبتدأ:

في التقديم بيانٌ لمنزلة الذَّكر، وأفضليّته على الأنثى في الميراث

من بلاغة الآية الكريمة تقديم ما حقّه التَّأخير، إذ قدَّم الخبر ﴿لِلذَّكَرِ﴾ على المبتدأ ﴿مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ مع جعل نصيبه ضعف نصيب الأنثى، فلم يقُل: (للأُنثَيَين مثل حَظِّ الذَّكر)، بل عكسه.

وفي هذا التَّقديم بيان لمنزلة الذّكر، وأَدلّ على فضله مِن ذِكرِ بيان نَقص الأُنثى عنه، ولأَنَّهم كانوا يُوَرِّثُون الذُّكُورَ دُونَ الإِناث، فكفاهُم إن ضُوعِفَ لهم نصيبُ الإِناث فلا يُحرَمنَ إذ هُنَّ يُدلين بما يُدلُون به مِنَ الوَلَدِيَّة[3]، وبهذا كان في تقديمه "تَنبيهٌ مِن أَوَّل الأَمر على أَنَّ الذَّكر صار له شريكٌ في الإرث وهو الأُنثى؛ لأَنَّه لم يكن لهم به عَهدٌ مِن قَبلُ إِذ كان الذُّكورُ يأخذونَ المال المَوروثَ كُلَّه ولا حَظَّ للإِناث فيه"[4].

وجه التعبير بـ (الذَّكر) و(الأُنثى) دون (الرِّجال) و(النِّساء):

في الميراث يستوي الكبير والصغير في الاستحقاق

أوثر التَّعبير بـ (الذَّكر) و(الأُنثى) دون (الرِّجال)و(النِّساء) كما في الآية السّابعة من هذه السّورة الكريمة؛ للتَّنصيص على استواء الكبار والصِّغار من الفريقين في الاستحقاق من غَير دخلٍ

---

(1) الرّمانّي، معاني الحروف، ص: 81.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/257.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/533.

(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/257.

للبلوغ والكِبَر في ذلك أصلًا، كما هو زَعمُ أهل الجاهليَّة؛ حيث كانوا لا يُورِّثون الأطفالَ كالنِّساء[1].

إيثار التَّعبير بمقدار إرث الذّكر ﴿مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾:

جـعَـلَ حـظَّ الأنـثـيـين هـو المقدار الّذي يُقدَّر به حَظُّ الذَّكر

من أسرار التَّعبير القرآنيّ إيثار استعمال ﴿حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ لبيان مقدار الذَّكر من الميراث في قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾، ولم يقُل مثلًا: (للأُنثى نِصفُ حَظِّ الذَّكر)، بل جعلَ حظَّ الأنثيين هو المقدار الّذي يُقدَّر به حَظُّ الذَّكر، ولم يكُن قد تقدَّمَ تعيينُ حظٍّ للأنثيين حتّى يُقدَّر به، فعُلِمَ أنَّ المُرادَ تضعيفُ حظِّ الذَّكر من الأولاد على حظِّ الأنثى منهم.

في اصطفاء هذا التّعبير إيماءٌ أنَّ حظَّ الأُنثى في اعتبارِ الشَّرع أهمُّ من حظِّ الذَّكر

وأوثِرَ هذا التّعبيرُ لنُكتةٍ لطيفةٍ؛ وهي الإيماءُ إلى أنَّ حظَّ الأُنثى في اعتبارِ الشَّرع أهمُّ من حظِّ الذَّكر؛ إذ كانت مهضومةَ الجانب عند أهل الجاهليَّة، فصار الإسلامُ يُنادي بحظِّها في أوَّل ما يَقرَع الأسماعَ[2].

إيثار اللفظ الأمثل على ما فيه نقصٌ من أدب الخطاب القرآنيّ

فضلًا عن أنَّ التَّعبير بـ ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ دون: (للأُنثى نِصفُ حظِّ الذَّكر)؛ أنَّ في الحظِّ والنَّصيبِ فضلًا وزيادة، والنِّصف نقصٌ؛ فلهذا قال: للذَّكرِ مِثلُ حَظِّ الأُنثَيَين، ولم يقُل: للأنثى نِصفُ ما للذَّكر؛ لِمَا في كلمة (نِصف) من النَّقص، بخلاف حظِّ الأنثيين؛ فإنَّ فيه زيادةً، فهو أحسنُ تعبيرًا ممَّا لو قال: للأُنثى نِصفُ ما للذَّكر[3].

قال الرَّازيّ: "لِمَ لَم يقُل: للأُنثَيَينِ مثلُ حظِّ الذَّكرِ، أَو للأُنثى مثلًا نصفُ حظِّ الذَّكر، والجواب من وجوه: الأَوَّل: جعل نَصيبَهُ ضِعفَ نَصيب الأُنثى، الثَّاني: أَنَّ قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ يدُلُّ على

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/149.

(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/257.

(3) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة النِّساء: 1/64.

فضلِ الذَّكر بالمُطابقة، ونقص الأُنثى بالالتزام، ولو قال كما ذكرتم؛ لَدلَّ ذلك على نقص الأُنثى بالمُطابقة وفضل الذَّكر بالالتزام، فرُجِّح الطّريقُ الأَوَّلُ تَنبيهًا على أَنَّ السَّعي في تشهير الفضائل يجبُ أَن يكون راجحًا على السَّعي في تشهير الرَّذائل..، الثَّالثُ: أَنَّهم كانوا يُوَرِّثون الذُّكور دون الإِناث وهو السَّبَبُ لورود هذه الآية، فقيل: كفى للذَّكر أَن جعل نصيبَه ضِعفَ نصيب الأُنثى، فلا ينبغي له أَن يَطمَعَ في جعل الأُنثى مَحرومةً عنِ الميراث بالكُلِّيَّة"[1].

علّة تفضيل الذّكر في الميراث بضعف حظّ الأنثى:

في التّفضيل توازنٌ وعدلٌ في التّكوين العائليّ، والنّظام الاجتماعيّ الإسلاميّ

جاءتِ الآية الكريمة بتفضيل حظِّ الذّكر من الميراث، وجعله ضعفَ حظّ الأنثى في قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾، وقد بيَّن علماؤنا سرَّ هذا التّفضيل لا لجنس الذَّكر بل لما له من أعباءٍ ووظائفَ أكثر من الأنثى نفسها، فالرَّجل مُطالبٌ بالنَّفقة، والعمل، والتَّكسُّب وتحمُّل المشاقّ ودفع مهر زوجته، ولا تُطالب المرأة بالإنفاق على أحدٍ، سواء أكانت بنتًا، أم أختًا، أم أمًّا، أم زوجة، وإنَّما بَعد الكبر أو البلوغ تُنفق على نفسها إنْ لم تكن زوجةً.

وفُضِّل الذّكرُ على الأنثى في الميراث أيضًا؛ لأنّ الذَّكرَ في مَظِنَّةِ الحاجة أكثرُ من الأنثى، فإنّ كلَّ واحدٍ منهما في العادة يتزوَّجُ، ويكون له الولدُ، فالذّكرُ يجبُ عليه نفقةُ امرأتِه وأولاده، والمرأةُ يُنفِقُ عليها زوجُها، ولا يلزمها نفقةُ أولادِها، وقد فضّل اللّه الذّكرَ على الأنثى في الميراث على وَفْقِ ذلك[2].

فالمسألة في هذا التَّفضيل ليست محاباةً لجنس الذَّكر على حساب جنس الأنثى، إنَّما الأمرُ أمرُ توازنٍ وعدلٍ بين أعباء الرَّجل وأعباء المرأة في التَّكوين العائليّ، وفي النّظام الاجتماعيّ الإسلاميّ،

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/512.
(2) المَقدسّي، فتح الرّحمن: 2/92.

فالرَّجل يتزوَّج امرأة، ويكلّف إعالتها، وإعالة أبنائها منه في كلِّ حالةٍ، وهي معه، وهي مُطلّقة منه، أمّا هي فإمّا أن تقوم بنفسها فقط، وإمّا أن يقوم بها رجلٌ قبل الزَّواج وبعده سواء، وليست مُكلّفةً نفقة للزّوج ولا للأبناء في أيّ حال، فالرَّجل مُكلّفٌ على الأقلّ بضعف أعباء المرأة في التَّكوين العائليّ، وفي النِّظام الاجتماعيّ الإسلاميّ.

بلاغة الإيجاز بإضمار فاعل التَّركِ، ومتعلّقه:

إضمارُ فاعلِ الفعل (تَـرَكَ) للعلم به، وإضمارُ مُتعلّقاتِه للشّمول

من البلاغة في الآية الكريمة الإيجاز بالحذف في قوله تعالى: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ﴾، فقد أُضمر فاعل الفعل ﴿تَرَكَۖ﴾ للعلم به، وإن لم يُذكر من قبل بلفظٍ صريحٍ فقد تضافر السِّياق على ذكره معنى، ممَّا جعله كالمذكور صراحة، وهو الميِّتُ الموروثُ؛ لأنَّ الآيةَ لمَّا كانت في الميراثِ عُلِم أنَّ التاركَ هو الميِّتُ الموروثُ[1].

وفي الوقت نفسه، فقد حُذفَت مُتعلّقات الفعل ﴿تَرَكَۖ﴾، ولم يذكر نوع التّركة الّتي تورث من مال، أو ذهب، أو غيرها، بل حذفها وأجملها في الاسم الموصول ﴿مَا﴾ الدّالّة على العموم، لتدخل التّركة كلُّها في التَّوزيع، فدلَّ الحذف على العموم في الإرث، وأنَّه يشمُل التّركة جميعها من مالٍ، وعَقارٍ، ومنقول، وحيوان، ومنافع، وحقوق؛ فكلُّ ما ترك داخلٌ في الإرث؛ ولهذا يجب التَّنبُّهُ لِمَن كان له وَرَثةٌ في غير البيت الّذي هو فيه، فإنَّ من النَّاس مَن إذا مات ميِّتُهم وورِثَه آخرونَ خارجَ البيت يتمتَّع بما في البيت مِن طعام وغيره، ويَسكُن أيضًا، وهذا لا يجوزُ إلَّا بعد إذن بقيَّة الورثة، وإلَّا فإنَّه يُخصَم مِن ميراثِه، وكذلك تُضرَبُ أُجرةٌ على هؤلاء الّذين في البيت مِن حينِ موت الرَّجل[2].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/548.

(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة النِّساء: 1/85.

سرُّ ذِكْر فرض البنت المنفردة دون الابن:

تغـيير أعــراف الـتـعـامـل مع النساء يتطلّبُ بيانًا، وتأكيدًا

ذكرَ فرض البنت إذا انفردت في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾، ولم يذكر فرض الابن على الانفراد؛ لأن العرب كانوا يورّثون البنين دون البنات، فاحتيج إلى تبيين ذلك[1]، وتأكيده بفصله؛ للحثّ على دفع الإبقاء على ما كانوا عليه من عادات الجاهليّة.

سرُّ تقديم الوصيَّة على الدَّين:

فـي تـقـديـم الـوصـيّـة حـثٌّ على القيام بها، والـتـحـذيـر من التّهاون بشأنها

من دقائق التَّعبير القرآنيّ تقديم اللَّفظ على غير العامل في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾، فقد قدَّم الوصيَّة لفظًا على الدَّين، مع أنَّ إيفاء الدُّيون المُتعلّقة بالتّركة مُقدَّمٌ شرعًا على الوصيَّة، وهو الواجب؛ لأنَّ ذمّة الميّت مرتهنة به، وأداء الدَّين أولى من فعل الخير الّذي يتقرّب به بالوصيَّة، ودليل تقديم الدَّين على الوصيَّة شرعًا ما رواه الإمام أحمد عن عليٍّ رضي الله عنه، أنَّه قال: «إنَّكم تَقرؤون مِن بعدِ وصيَّةٍ يُوصَى بها أو دينٍ، وإنَّ رسولَ اللّه ﷺ قضى بالدَّين قبل الوصيَّة»[2].

وقُدِّمت الوصيَّة على الدَّين لفظًا في الآية الكريمة ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ لأسباب عدّة منها: الحثّ على تنفيذها، والاهتمام بشأنها، ومنع جحودها، أمّا الدَّين فمعلوم قوّته، قُدِّم أو لم يُقدَّم، وقد فصَّل علماؤنا من أهل التَّفسير في أسباب هذا التَّقديم اللّفظيّ للوصيَّة على الدَّين في الآية الكريمة منها:

الـوصـيّـة ممّا يــشــقُّ عـلـى الورثة ولا تطيب أنفسهم بها

قدَّم الوصيَّة على الدَّين مع أنَّها متأخِّرَة في الحُكم؛ "لأنَّه لمَّا كانتِ الوصيَّةُ مُشبِهَةً للميراث في كونها مأخوذةً من غير عِوَض، كان إخراجها ممّا يشقُّ على الورثة ويتعاظَمُهم ولا تطيبُ أنفُسُهم بها، فكان أداؤها مَظِنَّةً للتّفريط، بخلاف الدَّين فإنَّ نفوسَهم مطمئنَّةٌ

---

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1125.

(2) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (1222).

إلى أدائه؛ فلذلك قُدِّمَت على الدَّين بعثًا على وجوبها، والمسارعة إلى إخراجِها مع الدَّين؛ ولذلك جِيءَ بكلمة (أو) للتَّسوية بينهما في وُجوب الإخراج على السَّويَّة"[1].

يُنْدبُ إلى الوصيّة لكونها حظُّ المساكين والضِعاف

ومنها أنّه قدَّمها على الدَّين، اهتمامًا بها، وندبًا إليها، إذ هي أقلُّ لزومًا من الدَّين، وقدَّمها أيضاً؛ لأنَّها حظُّ المساكين والضِعاف، وأخَّر الدَّين لأنّه حقُّ غريمٍ يَطلُبه بقوَّة، وهو صاحبُ حقٍّ له فيه مقال[2].

الوصيَّةُ تُشبه الإرثَ مِن وجهٍ، والدَّينَ مِن وجهٍ آخرَ

ومن علل تقديمها أيضًا أَنَّ سهام المواريث كما أَنَّها تُؤَخَّرُ عنِ الدَّين فكذا تُؤَخَّرُ عنِ الوصيَّة، أَلَا ترى أَنَّه إِذا أَوصى بثلث ماله كانت سهامُ الورثة مُعتَبَرَةً بعد تسليم الثُّلث إلى المُوصَّى له، فجمع اللّه تعالى بين ذِكر الدَّين وذِكر الوصيَّة، ليُعلّمنا أَنَّ سِهامَ الميراث مُعتَبَرَةٌ بعد الوصيَّة كما هي مُعتَبَرَةٌ بعد الدَّين، بل فَرَّقَ بين الدَّين والوصيَّة من جهةٍ أُخرى، وهي أَنَّه لو هلك مِن المال شيءٌ دخل النُّقصانُ في أَنصِباء أَصحاب الوصايا وفي أَنصِباء أَصحاب الإرث، وليس كذلك الدَّينُ، فإِنَّه لو هلك مِنَ المال شيءٌ استُوفيَ الدَّينُ كلُّه مِنَ الباقي، وإِن استغرَقَه بَطَلَ حقُّ المُوصَى له وحقُّ الورثة جميعًا، فالوصيَّةُ تُشبه الإرثَ مِن وجهٍ، والدَّينَ مِن وجهٍ آخرَ، أَمَّا مُشَابهتُها بالإرث فما ذكرنا أَنَّه متى هلك مِن المال شيءٌ دخل النُّقصانُ في أَنصِباء أَصحاب الوصيَّة والإرث، وأَمَّا مُشابهتُها بالدَّين فلأَنَّ سهامَ أَهل المواريث مُعتبَرَةٌ بعد الوصيَّة كما أَنَّها مُعتبَرَةٌ بعد الدَّين[3].

نكتة الإطناب بالجملة الاعتراضيّة:

في الفصل بجملة الاعتراض تنبيهٌ على جهل المرء بعواقب الأمور

من البلاغة في الآية الكريمة الإطناب بالاعتراض في قوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾، فقد جاءت هذه

(1) الزَّمَخْشري، الكشّاف: 1/482 - 483.
(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/179.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/207، والزُّحيلّي، التَّفسير المنير: 4/277.

الجملة مُعترِضةً بين (الإيصاء) بقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾، و﴿فَرِيضَةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾، فهذه الجملة المُعترِضة جاءت للتّأكيد والتّنبيه على جهل المرء بعواقب الأمور، فبيّن تعالى أنّ هؤلاء الّذين أوصاكم اللّه تعالى بهم، وقدَّر أنصباءهم، هم آباؤكم وأبناؤكم، فلا تجوروا في القسمة، ولا تحرموا البعض، كما كان يفعل العرب في الجاهليّة، إذ لا تدرون بمن هو أقرب لكم نفعًا[1].

وقُرِئت ﴿يُوصِي﴾ بالبناء للمجهول ﴿يُوصَىٰ﴾[2]؛ لدعوتهم للانشغال بفعل الوصيّة بغضّ النّظر عن المُوصّي.

قال الزَّمخشريّ: "ثمّ أُكّد ذلك ورُغّب فيه بقوله ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾، أي: لا تدرون من أنفع لكم من آبائكم وأبنائكم الّذين يموتون، أمّن أوصى منهم أمّن لم يُوصِ؟ يعني أنّ من أوصى ببعض ماله فعرّضكم لثواب الآخرة بإمضاء وصيّته فهو أقرب لكم نفعًا وأحضر جدوى ممّن ترك الوصيّة، فوفّر عليكم عرض الدّنيا وجعل ثواب الآخرة أقرب وأحضر من عرض الدّنيا، ذهابًا إلى حقيقة الأمر، لأنّ عرض الدّنيا وإن كان عاجلًا قريبًا في الصّورة إلّا أنّه فانٍ فهو في الحقيقة الأبعد الأقصى، وثواب الآخرة وإن كان آجلًا إلّا أنّه باقٍ فهو في الحقيقة الأقرب الأدنى"[3].

من رحمة الله تعالى إكسابُ القلوب كلِّها راحة الرِّضى والتَّسليم لأمر الله تعالى

وفي هذا الاعتراض أيضًا لفتةٌ قرآنيةٌ لتطييب النُّفوس تجاه هذه الفرائض والأحكام، فهنالك من النَّاس مَن تدفعهم عاطفتهم الأبويَّة إلى إيثار الأبناء على الآباء؛ لأنَّ الضّعف الفطريّ تجاه الأبناء أكبر، وفيهم من يُغالب هذا الضّعف بالمشاعر الأدبيَّة والأخلاقيَّة فيميل إلى إيثار الآباء، وفيهم من يحتار ويتأرجح بين الضّعف الفطريّ والشعور الأدبيّ، وقد تفرض البيئة بمنطقها العُرفيّ اتّجاهات معيّنة، فأراد اللّه تعالى أن يسكب في القلوب كلِّها راحة الرَّضى والتَّسليم لأمر اللّه تعالى.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/518.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/248.
(3) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/484.

دلالة ﴿كَانَ﴾ على الزّمان كلّه ماضيه وحاضره ومستقبله:

في إطلاق زمن (كان) مناسبة لحتميّة الوقوع، والتحقّق

جاءت خاتمة الآية الكريمة بالإخبار عن اللّه تعالى بـ ﴿كَانَ﴾ الدّالّة على الاستمراريّة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، فـ ﴿كَانَ﴾ هنا لا تدُلُّ على الماضي المنقطع بل على الاستمراريّة، وهي بمعنى (لم يزل) "والخبر عن اللّه تعالى بمثل هذه الألفاظ كالخبر بالحال والاستقبال؛ لأنَّه تعالى مُنزَّه عن الدّخول تحت الزَّمان، وقال سيبويه: القوم لمّا شاهدوا علمًا وحكمةً وفضلًا وإحسانًا تعجَّبوا فقيل لهم: إنَّ اللّه تعالى كان كذلك، أي: لم يزل موصوفًا بهذه الصّفات فلا حاجة إلى القول بزيادة ﴿كَانَ﴾ كما ذهب إليه البعض"[1].

بلاغة التَّذييل وتشابه الأطراف في فاصلة الآية الكريمة:

مَن حكَمَ هو العليم الحكيم الّذي يضع الأشياء في مكانها المناسب

من بديع نسيج الآية الكريمة ختمها بما يناسبها على طريقة تشابه الأطراف، فجاءتِ الفاصلة بـ (العليم الحكيم) تذييلًا لَمَا سبقها وتأكيدًا عليه وتقريره، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وفي ختم الآية الكريمة بالاسمين الكريمين (العليم) و(الحكيم) تناسبٌ بليغٌ مع مضمون الآية يُسمَّى في علم البديع بتشابه الأطراف[2]؛ لأنّه لمّا كانتِ الآية تتحدّث عن أحكام الميراث وتفريعاته، وبيان مَن يرِث ومَن لا يرِث، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض وغيرها ممّا يقتضي سؤالًا عن سبب هذه القسمة ناسب أن يختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ ليُبيِّن أنَّه تعالى حكم بذلك فهو العليم الحكيم الّذي يضع الأشياء في مكانها المناسب، ويعطي من المواريث كلّاً ما يستحقّه.

---

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 2/437 - 438.

(2) تشابه الأطراف: هو " أن يُختَم الكلام بما يناسب أوّله في المعنى"، ينظر: القزوينيّ، الإيضاح، ص: 295.

قال البقاعيّ في بيان ختم الآية الكريمة بالعليم الحكيم: "﴿عَلِيمًا﴾، أي: بالعواقب، ﴿حَكِيمًا﴾، أي: فوضع لكم هذه الأحكام على غاية الإحكام في جلب المنافع لكم ودفع الضّرّ عنكم، ورتّبها ﷻ أحسن ترتيب"[1]، ولتأكيد هذا المعنى وتقريره جاءتِ الفاصلة بالأسلوب الخبريّ المُؤكّد بـ ﴿إِنَّ﴾، واسميّة الجملة، وغيرها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

يقول ابن القيّم: "إنَّ مُشاهدةَ حِكمة الله في أقضيته وأقداره الَّتي يُجْرِيها على عباده باختياراتهم وإراداتهم هي من ألطف ما تكلَّم فيه النَّاس وأدقِّه وأغمضه، وفي ذلك حِكَمٌ لا يعلمها إِلَّا الحكيم العليم سبحانه"[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/208.

(2) ابن القيّم، مفتاح دار السّعادة: 1/286.

﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ١٢﴾ [النِّسَاء: 12]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ارتباط الآية بسابقتها في بيان أحكام المواريث المنصفة للضّعفاء

هذه الآيةُ الكريمةُ متعلّقةٌ بما سبقَها تعلُّقًا تامًّا، فهي تَتِمَّةٌ لها في بيان أحكام الميراثِ وتفصيلِها، فلَمَّا ذكرَ تعالى في الآيةِ السّابقةِ بياناً لميراثِ الفُروعِ منَ الأصولِ، وميراثِ الأصولِ منَ الفروعِ، أخذَ يفصّل في ذِكرِ ميراثِ المتَّصلين بالسَّببِ لا بالنَّسَب، وهو ميراث الزّوجين، بعضهما من بعض، ليُتابعَ الحديثَ عنِ الأحكامِ التَّفصيليَّةِ للميراثِ[1]، بقصد تحقيق العدالة بين القرابات، ومراعاة حكمة التّقسيم بدقّة وعناية.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نِصۡفُ﴾: من (نصف) و"النُّون والصَّاد والفاء أَصلان صحيحان: أحدُهما يدلُّ على شَطْرِ الشَّيءِ، والأُخرى على جنسٍ منَ الخِدمةِ والاستعمالِ"[2]، والنِّصفُ من كلِّ شيءٍ شطْرُه مُساويًا

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/544.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصف).

له في القَدْر، ونَصَفَ النّهارُ وانْتَصَفَ: بلغ نصْفَهُ[1]، ونَصَّفْتُ الشيءَ: إذا أَخذتُ نِصفَه، وتَنْصِيفُ الشَّيءِ: جعْلُه نصفين، وناصَفتُه المالَ: قاسَمتُه على النِّصف، والنَّصَفُ: الكهلُ كأنّه بلغ نصفَ عمره، وقومٌ أَنصاف ونصفون، والأُنثى نَصَفٌ ونصَفةٌ كذلك: كأَنَّ نِصفَ عمرها ذهب[2]، والإنصافُ في المعاملةِ: العدلُ، وهو أن لا تأخذَ من صاحبِك منَ المنافعِ إلّا مثَل ما تُعطيه، ولا تُنيلَه منَ المضارِّ إلا مثلَ ما ينالُه، والإنصاف والانتصاف: طلبُ النَّصفَة[3]، ممَّا سبق، يتبيّن أنَّ النّصفَ يدلُّ على أَحَدِ شِقَّي الشَّيءِ المُساوِي للشّقِّ الثّاني قدْرًا، والنّصف يعطي للمتناصفين مقاسمة متساويّة لا يزيد أحدهما على الآخر فيما يأخذ.

2) ﴿أَزۡوَٰجُكُمۡ﴾: الزَّوْجُ: الصِّنْفُ والنَّوْعُ من كُلّ شيْءٍ، والفَرْدُ الّذي له قَرينٌ، وكلُّ شَيْئَيْنِ مُقْتَرِنَيْن: شَكْلَيْنِ مُماثِلَين كَانَا أَو نَقيضَيْن: فهما زَوجانِ، وكلُّ واحدٍ مِنْهُمَا: زَوْجٌ، تقول: عِنْدِي زوجان منَ الحَمام تَعْنِي ذكرًا وَأُنْثَى، وزَوْجُ المرأة: بَعْلُها، وزَوْجُ الرّجل: امرأتُه، يُقال: هو زَوجُها وهي زَوجُه وهما زَوجَان، وهو الفصيحُ وَجَاء به القُرْآن، قَالَ تعالى: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، ويُجمعُ على أَزْوَاجٍ[4]، ويقال: " تزوّجت امرأة، وليس من كلام العرب تزوّجت بامرأة، قال: وقول اللّه تعالى: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ٥٤﴾ [الدخان: 54]، أي قرنّاهم بهن، من قوله ﷻ: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصّافات: 22]، أي وقرناءهم، وقال الفراء: تزوجت بامرأة، لغة في أزد شنوءة[5]، والتَّزاوجُ تداخُلٌ بين شيءٍ وآخرَ، حتّى يشتبكَا ويختلطَا ويرتبطَا معًا، كالذَّكر بالأنثى، والنَّوم بالنَّائم، ولا يُقال للشَّيء: زَوْجٌ إلّا وهو مرتبطٌ بآخرَ ارتباطًا مادِّيًّا أو معنويًّا، فهي تُطلَقُ على الفرد بهذا القيدِ، قال تعالى ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ [الأنعام: 143]، فهذا يقطعُ بإطلاق الزَّوج على الفرد؛ لأَنَّها مُقترناتٌ عُدَّتْ ثمانيةَ أزواج، لكنْ مع القيد السَّابق، ومن هنا أُطْلقَ الزَّوجُ على امرأةِ الرَّجل، كما يقال قَرِينَتُه[6].

---

(1) الراغب، المفردات: (نصف).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نصف).
(3) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (نصف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زَوَجَ)، والزَّبيدي، تاج العروس: (زوج).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، تاج العروس: (زوج).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (زوج).

3) ﴿وَلَدٌ﴾: مِنْ ولَدَ يَلِد لِدَ، وِلادَةً ووِلادًا، فهو والدٌ، وهي والدٌ، ووالدةٌ، والمفعولُ مولودٌ[1]، والوَلَدُ اسمٌ يَجمعُ الصَّغيرَ والكبيرَ، والذَّكرَ والأنثى على حدٍّ سواء[2]؛ لأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ التَّولُّدِ، وكذا يتناولُ الواحدَ والمتعدّدَ؛ لأنَّه اسمُ جنسٍ لمولودٍ غيرِ صفةٍ، والولدُ دليلُ النَّجلِ والنَّسلِ، ثمّ يُقاس عليه غيرُه[3]، وجمعُ الولدِ أولادٌ، والأبُ يُقال له والدٌ، والأمُّ والدةٌ، ويقال لهما والدان[4]، والوليدُ المولودُ والصَّبيُّ والعبدُ، والوليدةُ: الأمةُ، والجمعُ الولدان والولائدُ، ووَلَدتْ تَلِد وِلاداً ووِلادة[5]، واستعمال لفظ الولد مرتبطًا بأصل الاشتقاق من الولادة، ينبي عن قرب الرّابطة، والتصاق العلاقة، ولذا أبرز نصيب الأولاد، باعتبارهم امتدادًا للوالد الّذي ورثوه.

4) ﴿ٱلرُّبُعُ﴾: من (رَبَعَ)، والرَّاءُ وَالبَاءُ وَالعَيْنُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ، أَحَدُهَا: جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةِ أجزاء، وَالآخَرُ: الإِقَامَةُ، وَالثَّالِثُ: الإِشَالَةُ وَالرَّفْعُ[6]، ورَبَعْتُ القَوْمَ أَرْبَعُهُمْ، أخذتُ رُبعَ أموالِهم، ورَبَعْتُ الحبلَ: جعلتُه على أربعِ قوى، وأَرْبَعَ إبلَهُ: أوردها رِبعاً، والمِرْبَاع: الرُّبُعُ الّذي يأخذه الرّئيسُ منَ الغنم، من قولهم: رَبَعْتُ القومَ،، والرَّبْعَةُ: الجُونةُ، لكونها في الأصل ذاتَ أربعِ طبقاتٍ، أو لكونها ذاتَ أربعِ أرجلٍ، والرَّبَاعيتان قيل: سُمّيتا لكون أربع أسنان بينهما، واليربوع: فأرة؛ لجُحرها أربعةُ أبواب، وأرضٌ مَرْبَعَةٌ: فيها يرابيعُ، كما تقول: مضبّةٌ في موضعِ الضّبّ[7]، رَبَعَ الرّئيسُ الغنيمةَ: إذا أخذ رُبْعها، قال عدي بن حاتم: ربعت في الجاهلية، وخمست في الإسلام[8]، ممّا سبق تتبيّنُ دلالةُ الرُّبع: بأنّه جُزْءٌ مِنْ أربعة أَجْزَاءٍ، وهو المعنى المقصودُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَۚ﴾ [النّساء: 12].

5) ﴿وَصِيَّةٍ﴾: جذرُها (وصي) الوَاوُ وَالصَّادُ وَالحَرْفُ المُعْتَلُّ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى وَصْلِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، وَوَصَيْتُ الشَّيْءَ: وَصَلْتُهُ[9]، والوَصِيَّةُ ": التّقدّمُ إلى الغَير بما يعملُ به مُقترنًا

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ولد).
(2) الخليل، العين: (ولد).
(3) الكفوي، الكليات، ص: 945.
(4) الراغب، المفردات: (ولد).
(5) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (ولد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ربع).
(7) الراغب، المفردات: (ربع).
(8) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (ربع).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وصي).

بوعظٍ، من قولهم: أرضٌ وَاصِيَةٌ: متّصلةُ النّبات، ويقال: أَوْصَاهُ ووَصَّاهُ"[1]، و"المعنى المحوريُّ التزامُ الأشياء بعضِها بعضًا كالمحزومِ بالجريدِ، والنّباتِ الملتفِّ، وكالمتّصلِ بعضُه ببعضٍ منه، إذ هو متضامٌّ، ومن هذا الالتزامِ جاء معنى الإيجابِ في الوصيّة، فهي عهدٌ وتكليفٌ وإلزامٌ"[2]، ومن المجاز: أوصيك بتقوى الله ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ [البقرة: 132]، ووصيتك بفلان أن تبرّه، وبأرضي أن تعمرها، واستوص بفلان خيراً[3]، و"لفظ الوصيّة مشترك بين التّذكير والاستعطاف، وبين الأمر، فيتعيّن حمله على الأمر، ويقوم مقامه كلّ لفظ فيه معنى الأمر "[4]، و"أجمعوا على أنّ الوصيّة غير واجبة، لمن ليست له أمانة، يجب عليه الخروج منها، ولا عليه دين لا يعلم به من هو له، وليست عنده وديعة بغير إشهاد، ومن كانت ذمّته متعلّقة بهذه الأشياء فإنّ الوصيّة بها واجبة عليه"[5].

6) ﴿دَيْنٍ﴾: أصلُ مادّةِ الدَّينِ تدلُّ على الانقياد، والذُلِّ، والدَّينُ فيه كلّ الذلِّ للعبد، قال ابنُ فارس: "الدَّالُ وَاليَاءُ وَالنُّونُ أَصْلٌ وَاحِدٌ إِلَيْهِ يَرْجِعُ فُرُوعُهُ كُلُّهَا، وهو جِنْسٌ مِنَ الِانْقِيَادِ، وَالذُّلِّ، فَالدِّينُ: الطَّاعَةُ، يُقَالُ دَانَ لَهُ يَدِينُ دِينًا، إِذَا أَصْحَبَ وَانْقَادَ وَطَاعَ، وَمِنْ هَذَا البَابِ الدَّيْنُ، يُقَالُ دَايَنْتُ فُلَانًا، إِذَا عَامَلْتَهُ دَيْنًا، إِمَّا أَخْذًا وَإِمَّا إِعْطَاءً"[6]. فالدَّينُ هو القرضُ الّذي يكون بين المخلوقين، واسْتَدانَه: طَلَبَ منه الدَّيْنَ، واسْتَدَانَه: اسْتَقْرَضَ منه، ودِنْتُه: أَعْطَيْتُه الدَّيْنَ، وتَدايَنَ القَوْمُ وادّايَنُوا: أَخَذُوا بالدَّيْن، والاسمُ الدِّيَنةُ، وأَدانَ فلانٌ النّاسَ: أَعْطاهُمُ الدَّيْنَ وأَقْرَضَهُم، ورَجُلٌ مِديانٌ: يُقْرِضُ النّاسَ، ودايَنْتُ فُلانًا: إذا أَقْرضتَه وأَقْرَضَكَ[7]، وقيل لِيَوْمِ القِيَامَة: يَوْمِ الدّين، أي هُوَ يَوْم الْحساب وَأما قَول الْقطامي:

رمتِ المَقاتلَ من فُؤادك بَعْدَمَا *** كَانَت نوارُ تدينُكَ الأَدْيَانَا[8]

(1) الراغب، المفردات: (وصي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (وصي).
(3) الزّمَخْشري، أساس البلاغة: (وصي).
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (وصي).
(5) القونويّ، أنيس الفقهاء: 1/111.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دين).
(7) ابن سيده، المحكم: (دين)، وابن منظور، لسان العرب: (دين).
(8) ديوان القطامي، ص: 58، وابن الأنباري، الزاهر: 1/335.

فَهَذَا من الإذلال، وَالدّين أَيْضًا: الْجَزَاء من ذَلِك قَوْلهم: (كَمَا تَدين تُدان)[1]، والدَّين اصطلاحًا: "ما ثبتَ في الذّمّة من مالِ الآخَر، سواءً كان مؤجّلًا أم لم يكن"[2]، و"هو الحقُّ الّذي لا يسقطُ إلا بالأداءِ أوِ الإبراءِ"[3]، والأمر بأدائه من التّركة، لإلزام النّاس بأداء الحقوق وضمانها.

7) ﴿ٱلثُّمُنُ﴾: من (ثَمَنَ)، الثَّاءُ وَالْمِيمُ وَالنُّونُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا عِوَضُ مَا يُبَاعُ، وَالْآخَرُ جُزْءٌ مِنْ ثَمَانِيَةٍ، فَالْأَوَّلُ قَوْلُهُمْ بِعْتُ كَذَا وَأَخَذْتُ ثَمَنَهُ، وَأَمَّا الثُّمُنُ فَوَاحِدٌ مِنْ ثَمَانِيَةٍ، يُقَالُ ثَمَنْتُ القَوْمَ أَثْمُنُهُمْ إِذَا أَخَذْتَ ثُمُنَ أَمْوَالِهِمْ[4]، وثَمَنَهُم يَثْمِنُهم ثَمْنًا كانَ لَهُم ثامِنًا، والْمُثَمَّنُ منَ العَرُوضِ ما بُنِي عَلَى ثَمانِيَةِ أَجْزاءٍ، والثَّمْنُ الليلةُ الثامِنَةُ من أَظْماءِ الإِبِلِ، والثَّمانِيَةُ منَ العَدَد مَعْرُوفٌ[5]، والثّمين: الثّمن، وهو جزء من الثّمانية، وقال:

فَأَلْقَيْتُ سَهْمِي بَيْنَهُمْ حِينَ أَوْخَشُوا *** فَمَا صَارَ لِي فِي القَسْمِ إِلَّا ثَمِينُهَا.

ممّا سبق تتبيّنُ دَلالةُ الثُّمن: بأنّه جُزْءٌ مِنْ ثمانيةِ أَجْزَاءٍ، وهو المعنى المقصودُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْۚ﴾ [النِّساء: 12].

8) ﴿كَلَٰلَةً﴾: من (كلل)، والكلالةُ في الأصل مصدرٌ بمعنى الكَلال وهو: ذهابُ القوّة منَ الإعياءِ، وكللتُ منَ المشي وكَلَّ كلالةً أي أعيى[6]، واختُلف في المُرادِ منَ الكلالةِ في أقسام المواريثِ، واحتملتْ عدّةَ معانٍ منها: أنَّ الكلالةَ: الذي لم يُخلِّفْ والداً ولا ولداً يرثُه، بل يرثُه ذَوُو قرابته، والعربُ تقول: لم يرثْه كلالةً، أي لم يرثْهُ عن عرضٍ بل عن قُربٍ واستحقاقٍ[7]، ومن معاني الكلالةِ بنُو العمِّ الأباعدُ[8]، "والكلالة هُوَ أَن يَمُوت الرّجل وَلَا يتْرك ولدًا وَلَا والدًا، قَالَ أَبُو عُبَيْدَة هُوَ مصدر تكلله النّسَب أَي أَحَاط بِهِ، فالأمّ وَالِابْن طرفان للرّجل، فَإِذا مَاتَ وَلم يخلفهما، فقد مَاتَ عَن ذهَاب طَرفَيْهِ، فَسُمّي ذهَاب

(1) الهرويّ، غريب الحديث: (دين).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 436.
(3) الجُرجاني، التَّعريفات، ص: 141.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثمن).
(5) ابن سيده، المحكم: (ثمن).
(6) الجَّوهري، الصّحاح: (كلل).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (كلل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كلل)، وابن سيده، المحكم: (كلل)، والكفوي، الكليات، ص: 769.

الطَّرفَيْنِ كَلَالَة، وَكَأَنَّهَا اسْم للمصيبة من تكلّل النّسَب مَأْخُوذ مِنْهُ"[1]، قال الأَصْفَهَانيُّ: "والكلالَةُ: اسمٌ لِما عدا الولدِ والوالدِ منَ الورثةِ، وقال ابنُ عبّاسٍ: هو اسمٌ لمَن عدا الولدِ، وكلَا القولين صحيحٌ؛ فإنّ الكَلَالَةَ مصدرٌ يجمعُ الوارثَ والموروثَ جميعًا، وتسميتُها بذلك، إمّا لأنّ النّسبَ كلَّ عنِ اللُّحوق به، أو لأنّه قد لحقَ به بالعَرضِ من أحدِ طَرفيْه"[2]، وحكمة الكلالة، نقل الإرث من عمود النّسب أصلًا وفرعًا، إلى الحواشي وهم الإخوة والأخوات.

9) ﴿مُضَآرٍّ﴾: منَ (الضّر)، و"الضّاد والرّاء ثلاثةُ أصولٍ: الأوّلُ خلافُ النّفع، والثّاني اجتماعُ الشّيء، والثّالثُ: القوّةُ"[3]، والضَّرّ المصدر، والضُّرّ الاسمُ ضدُّ النَّفْعِ، وقيل هما لغتان كالشَّهد والشُّهد، فإذا جمعت بين الضَّرّ والنّفعِ فتحتَ الضّادَ، وإذا أفردتَ الضُّرّ ضممتَ الضّادَ، إذا لم تجعلْه مصدراً[4]، يقال: ضَرَّه يَضُرُّه ضرًّا وضَرَّ به وأضَرَّ به وضارّه مُضارَّةً وضِراراً، ثم يُحملُ على هذا كلُّ ما جانسَه أو قاربَه[5]، ومعنى قوله ﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖ﴾لورثته في الوصيّة، "وذلك بأن يوصي بزيادة على الثّلث، أو يوصي بالثلث فما دونه، ونيّته مضارّة ورثته ومغاضبتهم لا وجه اللّه تعالى"[6].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

التَّفصيلُ في بيانِ أقسامِ الميراثِ المنصفة لكلّ مستحقّ

جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ، تتمّةً لما قبْلَها في تفصيلِ أحكامِ الميراثِ وتفريعاتِه، مبيِّنةً ميراثَ الزّوجين فيها؛ فأخبرَ اللّه تعالى أنَّ للأزواج النِّصفَ ممّا تركتْهُ زوجاتُهم، إن لم يكُن لهنَّ ولدٌ، وفي

(1) ابن قتيبة، غريب الحديث، ص: 769.
(2) الراغب، المفردات: (كلل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرَّ).
(4) الخليل، العين: (ضرر)، وابن منظور، لسان العرب: (ضرر).
(5) ابن سيده، المحكم: (ضرر).
(6) الأبياري، الموسوعة القرآنيّة: 9/293.

حالة وجودِ الولد، فإنَّ الأزواجَ يستحقُّون الرُّبُعَ مما تركتْهُ الزّوجاتُ مِنَ الميراث، وللزَّوجاتِ الرُّبُعُ من تركةِ أزواجهنَّ إنْ لم يكُن لأزواجهِنَّ ولدٌ، فإنْ كان هناك ولدٌ، فلهنَّ الثُّمُنُ منَ التّركةِ، وفي الحالتين، من بعدِ الوصيَّة وقضاءِ الدَّين، ثمَّ أوضحَ اللّه تعالى حُكمَ الكلالة، فأعطى للأخ أو الأخت من الأُمِّ السُّدُسَ، فإنْ كانوا أكثرَ فالثُّلُثُ مقاسمة، وذلك بعدَ إخراجِ الوصيَّة وقضاءِ دُيونِ المتوفَّى، والنّهي عن الإضرار بالوَرَثَةِ في الوصيّة، باعتبارها عهدًا يجبُ التزامُه، فاللّه تعالى عليمٌ بما يُصلح عبادَه في الدّارين، حليمٌ لا يُعاجلُ العاصيَ بالعقوبةِ(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ التَّعْرِيفِ بِالْإِضَافَةِ فِي ﴿أَزۡوَٰجُكُمۡ﴾:

عُمُومُ الْحُكْمِ فِي مِيرَاثِ الزَّوْجَاتِ

من دقائقِ التَّعبيرِ القُرآنيِّ تعريفُ (الأزواج) بالإضافةِ في قولِه تعالى: ﴿۞وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ﴾، فقد جاء اللَّفظُ جمعًا مُعرَّفًا بالإضافة إلى كافِ المخاطَب ﴿أَزۡوَٰجُكُمۡ﴾، وقد أفادَ ذلكَ العمومَ والشّمولَ، أي: كلُّ زوجةٍ عُقد عليها بعقدٍ شرعيٍّ صحيح، وعليه فإنَّ الرَّجلَ يرثُ نصفَ ما تركتْه أزواجُه سواء أكانت واحدةً أم أكثر، إن لم يكن لهنَّ ولدٌ، وإن كان لهنَّ ولدٌ فله الرُّبع(2).

بَلَاغَةُ تَقْدِيمِ مُتَعَلّقِ الْخَبَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ﴾:

وُجُوبُ إِيصَالِ الْحُقُوقِ إِلَى أَصْحَابِهَا

قُدِّم متعلّق الخبر ﴿وَلَكُمۡ﴾ لإفادَةِ معنى التَّشويق وتَعجيلِ المنفعةِ؛ لِتَسْرِيع إيصَالِ الحُقُوقِ إلى أَصْحَابِها، وقد يُفيدُ معنى التَّخصيصِ، على معنى أنّ هذا الحكمَ خاصٌّ بِكُم لا بزوجاتِكم؛ إذْ إنَّ نصيبَهنّ هُو نِصْفُ ما كانَ لَكُمْ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 8/51 - 53.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/75 - 76.

سَبَبُ ذِكْرِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ (الْفَاعِلِ) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾:

بَيَانُ اللهِ تَعَالَى لِلْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بَيَانٌ لَا غُمُوضَ فِيهِ وَلَا لَبْسَ

منَ اللَّطائفِ التَّعبيريةِ في الآيةِ الكريمةِ أيضًا ذكرُ المُسنَدِ إليه الفاعلِ ﴿أَزْوَاجُكُمْ﴾ للفعل ﴿تَرَكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾، وقد ذُكرَ؛ لأنَّه الأصلُ في الكلامِ ولا مُقتضى للعُدولِ عنه وحذفِه، فإنَّ ذكرَه في هذا السياقِ ضرورةٌ؛ لأنَّه يحملُ حُكمًا شرعيًا لا يمكنُ تحديدُه لولا ذكرُهُ صراحةً، وبدونِه لا يستقيمُ المعنى ولا يتَّضحُ، ويكون مُعمًّى مُبهمًا، لا يستبينُ المرادُ منه[1].

نُكْتَةُ إِيجَازِ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾:

الْمَالُ الْمَوْرُوثُ يَعُمُّ جَمِيعَ مَا تَرَكَهُ الْمَيِّتُ

من أسرارِ التَّراكيبِ في الآيةِ الكريمةِ الإيجازُ بالحذفِ في قولِه تعالى: ﴿*وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾، فقد حذفَ مُتعلّقاتِ الفعل ﴿تَرَكَ﴾، ولم يذكرْ نوعَ التَّركة التي تُورَّث من مالٍ، أو ذهبٍ، أو غيرِهما، بل حذفَها وأجْملَها في الاسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾ الدالّةِ على العُموم، لتدخلَ التَّركةُ كلُّها في التَّوزيع، فدلَّ الحذفُ على العُموم في الإرث، وأنَّه يشملُ التَّركةَ جميعَها من مالٍ، وعَقارٍ، ومنقولٍ، وحيوانٍ، ومنافعَ، وحقوقٍ؛ فكلُّ ما تُرِكَ داخلٌ في الإرث؛ ولهذا يجبُ التَّنبُّهُ لِمَن كان له وَرَثَةٌ في غير البيتِ الذي هو فيه، فإنَّ منَ النَّاس مَن إذا مات ميِّتُهم وورِثَه آخرونَ خارجَ البيت، يتمتَّعُ بما في البيتِ من طعام وغيرِه، ويَسكُنُ أيضًا، وهذا لا يجوزُ إلَّا بعدَ إذْن بقيَّةِ الورثة، وإلَّا فإنَّه يُخصَمُ من ميراثِه، وكذلك تُضرَبُ أُجرةٌ على هؤلاء الذين في البيت من حينِ موتِ الرَّجُلِ[2].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ مُتَعَلّقِ الْخَبَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾:

إِرْثُ الزَّوْجِ الرُّبُعَ مِنْ زَوْجَتِهِ مَنُوطٌ بِوُجُودِ الْفَرْعِ الْوَارِثِ مِنْهَا مُطْلَقًا

مَجيءُ الجُملِ الشّرطيّةِ في سياقِ بيانِ الأحكامِ الشّرعيّةِ يَكثُرُ في هذه السُّورةِ؛ لأنّها تُرتِّبُ أحكامًا على حالاتٍ محدّدةٍ.

(1) القزويني، الإيضاح، ص: 40 - 41، والهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 110.
(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة النِّساء: 1/85.

وتقديمُ متعلّقِ الخبرِ ﴿وَلَهُنَّ﴾ على اسم كان ﴿وَلَدٌۚ﴾؛ لكون المبتدأ نكرةً ليس له مسوِّغٌ، فلَزِمَ تقديمُهُ اتِّباعًا للصِّناعة النَّحويَّة، وفيه دِلالة على أنَّ إرثَ الزَّوجِ الرُّبعَ منْ زوجتِهِ يتعلّقُ بوجود الفرعِ الوارثِ مِنها مطلقًا، ولا مانِعَ من إيرادِ نكتةٍ بلاغيَّةٍ لما لَزِمَ سُلوكُهُ عربيَّةً؛ إذْ قد تقرَّر في القواعِدِ: أنَّ كونَ أمرٍ مَا لازمًا بحسب القاعدة النَّحويَّةِ لا ينافي قصدَ إفادةِ ما يَقْتَضِيهِ المقامُ[1].

دِلَالَةُ تَنْكِيرِ لَفْظِ ﴿وَلَدٌ﴾ فِي مَوَاضِعِهِ الْأَرْبَعَةِ:

أَثَرُ وَلَدِ الرَّجُلِ أَوِ الْمَرْأَةِ فِي مِيرَاثِ أَحَدِ الزَّوْجَيْنِ

مِنَ البلاغةِ في الآيةِ الكريمةِ أيضًا تنكيرُ لفظِ ﴿وَلَدٌۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٌ﴾، فقد ورد لفظُ ﴿وَلَدٌۚ﴾ نكرةً في مواضعِهِ الأربعة، وقد أفادَ هذا التّنكيرُ العُمومَ؛ لوقوعِ كلِّ واحدٍ منها في سياق الشَّرْطِ، والنَّكرةُ في سياق الشَّرط تَعُمُّ، فقولُه تعالى: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ﴾ يشملُ الذَّكرَ والأنثى، واحدًا كان الولدُ أو جمعًا، من أولادِ الزَّوجةِ وأولادِ بَنيها وإن نزلوا، وسواءً كانوا من هذا الزَّوج، أو من زوجٍ سابقٍ، وقولُه تعالى: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٌ﴾ يشملُ الذَّكرَ والأنثى، واحدًا كان الولدُ أو جمعًا من أولادِ الميّتِ وأولادِ بَنيه وإن نزلوا، وسواءٌ أكانوا مِن أولاد هذه الزَّوجة، أم من زوجةٍ غيرِها[2].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْوَصِيَّةِ عَلَى الدَّيْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ﴾:

الْحَثُّ عَلَى الْقِيَامِ بِالْوَصِيَّةِ وَالتَّحْذِيرُ مِنْ تَضْيِيعِهَا أَوْ كَتْمِهَا

من دقائقِ التَّعبيرِ القُرآنيِّ تَقديمُ اللَّفظ على غيرِ العاملِ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ﴾، فقد قدَّم الوصيَّةَ لفظًا

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 6/229.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/521.

على الدَّين، مع أنَّ إيفاءَ الدَّيونِ مقدَّمٌ شَرعًا على الوصيَّة، وهو الواجبُ؛ لأنَّ ذمّةَ الميت مرتهَنةٌ به، وأداءُ الدَّين أولى من فعلِ الخيرِ الذي يُتقرّبُ به بالوصيَّة، ودليلُ تقديم الدَّين على الوصيَّة شرعًا ما جاءَ عن عَليٍّ رضي الله عنه أنَّه قَالَ: إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ، وَإِنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَضَى بِالدَّيْنِ قَبْلَ الوَصِيَّةِ [1].

وقُدِّمتِ الوصيَّةُ على الدَّين لفظًا في الآية الكريمة ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ﴾ لأسبابٍ عدّةٍ؛ منها: الحثُّ على تنفيذِها، والاهتمامُ بشأنها، ومنعُ جُحودِها، أمَّا الدَّينُ فمعلومٌ قوّتُه، قُدّمَ أو لم يُقدَّم؛ لأنَّ وراءَهُ طالبًا، وقد فصَّل علماؤنا من أهل التَّفسيرِ في أسباب هذا التَّقديمِ اللّفظي للوصيَّة على الدَّين في الآية الكريمة منها:

أنَّه قدَّمَ الوصيَّةَ على الدَّين مع أنَّها متأخِّرَةٌ في الحُكم؛ "لأنَّه لَمَّا كانتِ الوصيَّةُ مُشْبِهَةً للميراثِ في كونِها مأخوذةً من غيرِ عِوَضٍ، كان إخراجُها ممّا يشقُّ على الوَرَثة ويتعاظَمُهم ولا تطيبُ أنفُسُهم بها، فكان أداؤها مَظِنَّةً للتّفريطِ، بخلاف الدَّيْنِ؛ فإنَّ نفوسَهم مطمئنَّةٌ إلى أدائه، فلذلك قُدِّمَتْ على الدَّيْن بَعْثًا على وُجوبِها، والمسارعةِ إلى إخراجِها مع الدَّيْن؛ ولذلك جِيءَ بكلمة ﴿أَوۡ﴾ للتَّسويةِ بينهما في وُجُوبِ الإِخْرَاجِ عَلَى السَّوِيَّةِ"[2].

ومنها: أنَّه قدَّمها على الدَّين، اهتمامًا بها، وندباً إليها؛ إذْ هي أقلُّ لزومًا منَ الدَّيْن، وقدَّمها أيضًا؛ لأنَّها حظُّ المساكينَ والضِّعَافِ، وأخَّر الدَّيْنَ؛ لأنَّه حقُّ غريمٍ يَطلُبُه بقوَّة، وهو صاحبُ حقٍّ له فيه[3].

ومن عِللِ تقديمها أيضًا: أنَّ سِهامَ المواريثِ كما أنَّها تُؤَخَّرُ عنِ الدَّينِ فكذا تُؤَخَّرُ عن الوصِيَّة، أَلَا ترى أنَّه إذَا أوصى بثُلث ماله؛ كانَتْ سهامُ الورثة مُعتَبَرَةً بعد تسليم الثُّلُث إلى المُوصَى له، فجمع اللّه تعالى بينَ ذِكْرِ الدَّين وذِكْرِ الوصيَّة، ليُعلِّمنا أنَّ سهامَ الميراث مُعتَبَرَةٌ بعد الوصيَّة كما هي مُعتَبَرَةٌ بعدَ الدَّين، بَلْ فَرَّقَ بين الدَّين والوصيَّة من جهةٍ أُخرَى، وهي أنَّه لو هَلَك منَ المال شَيءٌ دخلَ النُّقصانُ في أَنْصِباءِ أصحابِ الوصايَا وفي أنصباءِ أصحابِ الإرثِ، ولَيس كذلك الدَّينُ، فإنَّه لو هلك منَ المالِ شَيءٌ استُوفيَ الدَّينُ كُلُّه منَ الباقي، وإن اسْتَغرَقَهُ؛ بَطَلَ حَقُّ المُوصَى له وحقُّ

(1) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (1222).

(2) الزَّمَخْشري، الكشَّاف: 1/482 - 483.

(3) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 2/179.

الورثة جميعًا، فالوصيَّةُ تُشبهُ الإرثَ من وجهٍ، والدَّينَ من وجهٍ آخرَ، أَمَّا مُشَابهتُها لِلْإِرْثِ فما تقدَّمَ مِنْ أَنَّه متى هلك من المالِ شَيءٌ دخل النُّقصانُ في أَنصِبَاءِ أَصحَابِ الوصيَّةِ والإرثِ، وأَمَّا مُشَابهتُهَا بالدَّينِ؛ فلِأَنَّ سِهَامَ أَهلِ المواريثِ مُعتبَرَةٌ بعد الوَصيَّةِ كما أَنَّهَا مُعتبَرَةٌ بعد الدَّيْنِ[1].

نُكْتَةُ الْإِطْنَابِ بِالِاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ﴾:

إِثْــبَــاتُ حَــقِّ الْمَــرْأَةِ بِـالْإِيـصَـاءِ وَالِاسْتِدَانَةِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ﴾ إطنابٌ بالِاحْتِرَاس في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ﴾ بعد ذِكْرِ فَرِيضَةِ الأَزْوَاجِ؛ لِئَلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أَنَّهُنَّ مَمنُوعَاتٌ مِنَ الإِيصاءِ ومنَ الِاسْتِدَانَةِ، كما كان الحالُ في زمانِ الجَّاهليَّة من حرمانِ المرأة من حقوقِها بذلك، وأَمَّا ذِكْرُ تلك الجملةِ عَقِبَ ذِكرِ ميراثِ النِّساءِ من رجالهِنَّ؛ فهوَ جريٌ على الأسلوبِ المتَّبَعِ في هذه الآيات، وهو أَنْ يعقبَ كلّ صِنفٍ مِنَ الفرائضِ بالتّنبيهِ على أنَّه لا يُستَحَقُّ إلَّا بعد إخراجِ الوصيَّةِ وقضاءِ الدَّيْنِ[2].

دِلَالَةُ وَصْفِ الْوَصِيَّةِ بِـ﴿يُوصِينَ بِهَآ﴾:

تَـأْكِـيـدُ أَمْـرِ الْـوَصِـيَّـةِ، وَالـتَّـحـقُّـقُ مِـنْ نِسْبَتِهَا إِلَى الْمَيِّتِ

وُصِفَتِ الوصيّةُ بِفِعْلِ الْإِيصَاءِ في قولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ﴾، وقولِه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ﴾، وقولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ﴾، وذلكَ لتأكيدِ أمرِها، والتَّحقُّق من نِسبتِها إلى الميِّت؛ لأَنَّ الحقوقَ يجبُ التثبُّتُ فيها[3]؛ ولئلَّا يُتَوهَّمَ أَنَّ المرادَ الوصيَّةُ التي كانت مفروضةً قبل تشريعِ الفرائض، وهي التي في قولِه: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [البقرة: 180][4].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/207، والزُّحيلي، التَّفسير المُنير: 4/277.

(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/263.

(3) رضا، تفسير المنار: 4/343.

(4) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/261.

سِرُّ تَنْكِيرِ ﴿وَصِيَّةٍ﴾ و﴿دَيۡنٍۚ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ﴾:

وُجُوبُ قَضَاءِ الدُّيُونِ وَأَدَاءِ الْوَصَايَا

أفادَ تنكيرُ ﴿وَصِيَّةٍ﴾ و﴿دَيۡنٍۚ﴾ تعظيمَ شأنِهما وشأنِ العنايةِ بهما، ودلَّ أيضًا على معنى العُمومِ؛ ليشملَ كلَّ وصيّةٍ ودَينٍ مهما كانَا، إلَّا ما قيَّدَتْهُ السُّنَّةُ النَّبويَّةُ مِن أمرِ الوصيَّةِ؛ بكونِهَا لا تجاوزُ الثُّلُثَ ولا تكون لوارثٍ من الورثةِ.

ويصدُقُ ما تقدّمَ من وجوهٍ بلاغيّةٍ على قولِه تعالى: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ﴾.

دِلَالَةُ الْكِنَايَةِ فِي لَفْظِ ﴿كَلَٰلَةً﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾:

حَقِيقَةُ الْكَلَالَةِ: مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ كنايةٌ؛ فقد كنَّى بالْكَلالةِ عمَّن ماتَ وليس له ولدٌ أو والدٌ يشدُّ بهمَا عضُدَه؛ لأنَّ الكلالَةَ اسمٌ لِلْكَلالِ؛ وهو في أصلِ الوضعِ اللُّغَوِيِّ: التَّعبُ والإعياءُ[1].

والتَّعبيرُ بالجملةِ الشَّرطيّةِ لِمَا تقدّمَ مِنْ أنّهَا آياتٌ مُتعلّقةٌ بأحكامٍ لها تفصيلاتٌ وحالاتٌ مُحدّدةٌ.

واختيارُ حرف الشَّرطِ ﴿وَإِن﴾ دون (إذا)؛ جريًا على الأصلِ في دلالة ﴿وَإِن﴾، فإنّها موضوعةٌ لما لا يُقْطَعُ بوقوعِه، وكونُ الميِّتِ يُورَثُ كلالةً ليس مقطوعًا به، فقد يموتُ الميِّتُ وله ولدٌ أو والدٌ أو هما معًا، بل إنَّ هذا هو الغالبُ.

والتَّعبيرُ بالفعلِ المَبني لِلْمَفْعول في ﴿يُورَثُ﴾ دُونَ ذكرِ الفاعلِ؛ لِعَدَمِ تعلُّقِ الفائدةِ بالتَّنصيصِ عليه، إذْ لا يتعلّقُ الحكمُ بِمَنْ يرثُ بل بالمِيرَاثِ نَفْسِه، وما يترتَّبُ عليه مِنْ أحكامٍ.

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/151.

دِلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿رَجُلٌ﴾ و﴿ٱمۡرَأَةٌ﴾ و﴿أَخٌ﴾ و﴿أُخۡتٌ﴾:

الْأَصْـــلُ فِي الْأَحْـــكَـــامِ الشَّرْعِيَّةِ أَنْ تَعُمَّ جَمِيعَ الْعِبَادِ

جاء تَنْكِيرُ ﴿رَجُلٌ﴾ و﴿ٱمۡرَأَةٌ﴾ و﴿أَخٌ﴾ و﴿أُخۡتٌ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ﴾ للدّلالَةِ على العموم؛ إذ هذه الألفَاظُ جاءت منكَّرةً في سياق الشَّرطِ ﴿وَإِن﴾، وذلك مؤذِنٌ بالعموم، فهي شاملةٌ لكلِّ من يُورَثُ كلالَةً من رجُلٍ أو امرأةٍ، ويشمَلُ كلَّ أخٍ أو أختٍ تَرِثُ الميِّتَ الذي لا ولدَ له ولا والدَ.

إلَّا أنَّ الإجماعَ خصَّ الأخ والأختَ في هذه الآيةِ بكونِهمَا لأُمٍّ، أمَّا الإخوة الأشقَّاء ولأبٍ، والأخواتُ الشَّقيقاتُ ولأبٍ؛ فجاءَ ذِكْرُ ميراثِهِمَا في آية الكلالَةِ في آخرِ سورة النِّساء.

بَلَاغَةُ الْإِطْنَابِ بِالاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾:

مِـــنْ شُـــرُوطِ صِحَّةِ الْوَصِيَّةِ أَنْ لَا تَتَضَمَّنَ ضَـــرَرًا يَـلْـحَـقُ الْوَرَثَةَ

لَمَّا كان الميّتُ قد يُضارُّ ورثَتَه أو بعضَهم بشيءٍ يُخْرِجُه عنهم ظاهرًا أو باطنًا[1]؛ نبَّهتِ الآيةُ الكريمةُ إلى ذلك بطريق الاحْتِرَاس، فذكَرَ: ﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾، بعد قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾؛ احتراسًا يمنعُ أن يَكونَ في الوصيةِ قصدُ الْإِضْرَارِ بالمَالِ لِلْوَارِثِينَ، والإضرَارُ منه ما حدَّده الشَّرعُ، كأنْ يُوصِيَ بأكثرَ من ثُلث مالِه، أو أنْ يُقرَّ بكلِّ مالِه أو ببعضِه لأجنبيٍّ، أو أن يُقرَّ على نفسِه بدَينٍ لا حقيقةَ له، أو أَنْ يُقرَّ بأَنَّ الدَّينَ الَّذي كان له على غيرِه قد استوفاه ووصلَ إليه دفعًا لِلْميراثِ عنِ الورثة، وغيرِها منَ الوصيّةِ التي تُوقِعُ ضررًا بالمال وتُنقِصُ حقوقَ الورثةِ على غيرِ وجهِ حقٍّ[2]، فكان في الاحتراس تنبيهٌ على هذه المسألةِ بأنَّ شَرْطَ الوصيّةِ أن لا تُلحِقَ ضررًا بحقِّ الورثةِ؛ فإنّ ذلك مَنهيٌّ عنْهُ.

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/212.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 9/524.

وقرأ أكثرُ القُرّاء[1] ﴿يُوصِي بِهَآ﴾ بالبناءِ للمعلوم، والفاعلُ مستترٌ تقديره هو، وقد دلَّ عل تعيينِه ما قبلَه، وهو: الرَّجلُ، وعلى قراءة الفعل ﴿يُوصَىٰ بِهَآ﴾ بالبناءِ للمجهولِ؛ يكونُ الفاعل محذوفًا، وقد أقيمَ المفعول به مقامَهُ؛ لأنَّ الشَّأْنَ بيانُ الوصيَّةِ بقطعِ النَّظَرِ عن الموصِي.

بَلَاغَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾:

الاسْمُ الْأَحْسَنُ (اللـــه) دَالٌّ عَلَى صِفَاتِ الْجَلَالِ وَالْكَمَالِ وَالْجَمَالِ

جاءَ الاسمانِ الجليلانِ في فاصلةِ الآيةِ بجُملةٍ استِئْنَافيَّةٍ، فالواو: استئنافيَّةٌ، لا حاليَّةٌ؛ لئلَّا يلزمَ مِنْهُ مخالفةُ الأصلِ في الحالِ أن تكونَ مُنتَقِلَةً، ومِنَ المتقرِّر في أسماء اللّٰه تعالى المتضمِّنة صفاتِه سبحانه أنَّها لازمةٌ له سبحانَهُ.

وفي قَوْلِه سُبْحَانَه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ إظهارٌ في موضع الإضمار؛ وذلك أنَّ الاسم الأحسن (اللّٰه) تقدَّم ذكره في قوله تعالَى: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾، فكان مقتضى الظَّاهر أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (وصية من اللّٰه، وهو عليمٌ حليمٌ).

ونكتةُ هذَا الإظهارِ إدخالُ الرّوعةِ، وتربيةُ المهابةِ في النّفوس[2]، وزيادةُ التَّعظيمِ والتَّفخيمِ، فالاسمُ الكريمُ أكبرُ أثرًا ووقْعاً في النُّفوسِ منَ الضَّميرِ العائدِ إليهِ؛ لإشعارِه بما اشتمَلَ عليه من صفاتِ الجلالِ والكمالِ.

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ وَتَشَابُهِ الْأَطْرَافِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْجَمْعُ بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ فِي سَوْقِ الْأَحْكَامِ؛ حَثًّا لِلْعِبَادِ عَلَى الِامْتِثَالِ، وَتَخْوِيفًا لَهُمْ مِنَ الْمُخَالَفَةِ

قولُ اللّٰه سبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ تذييلٌ مؤكِّدٌ لِمضمون مَا سبَقَهُ ومقرِّرٌ لَهُ، وهو تذييلٌ جارٍ مجرَى المثَلِ؛ لاستقلالِه بالإفادة، وعدمِ افتقارِه إلى ما قبلَهُ في الكشفِ عن أصلِ معناهُ، ولذا صُرِّح بالاسمِ الأحسن (اللّٰه) في صدرِ الجملةِ دونَ الاكتفاءِ بالضَّميرِ الرَّاجعِ إليهِ.

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/248.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/153.

وفي ختْم الآيةِ الكريمةِ بالاسْمَين الكريمَيْن (العليم) و(الحليم) تناسبٌ بديعٌ مع مضمون الآية؛ فهو ضربٌ مِن تشابُهِ الأطرافِ[1]؛ لأنّه لمّا كانتِ الآيةُ في سياق الكلامِ عن أحكامِ الميراثِ وتفريعاته، ناسبَ أن تُختمَ الآيةُ بقولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾، ترغيبًا وترهيبًا، لبيَانِ أنَّه تعالى حكَمَ بذلك، فهو العليمُ الذي لا يَخْفَى عليه أمرُ مَنْ جارَ أو عدَلَ بقولٍ أو فعلٍ في وصيّتِه، نيّةً أو غيرَها، وهو الحليمُ الذي مِن شأنِه أن لا يُعاجلَ الجائرَ بالعقوبةِ، فلا يَغتَرّ بإمهالِه، فإنه إذا أَخَذَهُ بعد طُولِ الأناةِ؛ لم يُفلتْ، فاحذرُوا غضبَ الحليمِ.

وفي الوصْفَيْن مع التَّهديد استجلابٌ للتَّوبةِ[2].

بَرَاعَةُ التَّرْتِيبِ فِي أَقْسَامِ الْوَرَثَةِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّدَلِّي:

أَصْنَافُ الْوَرَثَةِ مُرَتَّبَةٌ بِحَسَبِ الْقُرْبِ وَقُوَّةِ الْمُخَالَطَةِ

منَ البلاغةِ في الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ﴾ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾، ترتيبُ أقسامِ الورثةِ على طريقةِ التَّدلِّي منَ الأعلَى إلى الأدْنَى.

فقد أَوْردَ اللهُ تعالى أقسامَ الوَرَثَةِ في هذه الآياتِ على أحسنِ التَّرتيباتِ؛ وذلك لأنَّ الوارثَ إمَّا أنْ يكونَ متَّصِلًا بالميِّت بغيرِ واسطةٍ أو بواسطةٍ، فإنِ اتَّصلَ به بغيرِ واسطةٍ فسببُ الاتِّصالِ إمَّا أن يكونَ هو النَّسبَ أو الزوجيَّةَ، فحصَل هاهنا أقسامٌ ثلاثةٌ:

أشرفُها وأعلاها الاتِّصالُ الحاصلُ ابتداءً من جِهة النَّسبِ، وذلك هو قرابةُ الْوِلَادَةِ، ويَدخُل فيها الأولادُ والآباءُ؛ فاللهُ تعالى قدَّم حُكْمَ هذا القسم.

وثَانِيها: الاتِّصالُ الحاصلُ ابتداءً من جِهة الزَّوجيَّةِ، وهذا

(1) تشابُهُ الأطراف: هو "أنْ يُختم الكلامُ بما يناسب أوَّلَه في المعنى"، ينظر: القزويني، الإيضاح، ص: 295.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/213.

القسمُ متأخِّرٌ في الشَّرفِ عنِ القِسم الأوَّلِ؛ لأنَّ الأوَّلَ ذاتيٌّ، وهذا الثَّاني عَرَضيٌّ، والذاتيُّ أشرفُ منَ العَرَضيِّ.

وثالثُها: الاتِّصالُ الحاصلُ بواسطةٍ، وهو المسمَّى بالكَلالةِ، وهذا القسمُ مُتأخِّرٌ عنِ القِسمينِ الأوَّلَينِ لوجوه:

أحدُها: أنَّ الأولادَ والآباءَ والأزواجَ والزَّوجاتِ لا يَعْرِض لهم السُّقوطُ بالكليَّة، وأمَّا الكَلالةُ فقد يَعرِض لهُم السُّقوطُ بالكليَّة.

وثانيها: أنَّ القِسمَينِ الأوَّلينِ يُنسَبُ كلُّ واحدٍ منهما إلى الميِّت بغير واسطةٍ، والكلالةُ تُنسَب إلى الميِّت بواسطةٍ، والثَّابتُ ابتداءً أشرفُ مِنَ الثَّابتِ بواسطةٍ.

وثالثُها: أنَّ مخالطةَ الإنسانِ للوالِدَين والأولادِ والزَّوجِ والزَّوجة أكثرُ وأتمُّ من مخالطتِه لِلْكَلالة، وكثرةُ المخالطةِ مَظِنَّةُ الأُلفةِ والشَّفقةِ، وذلك يُوجِبُ شدَّةَ الاهتمامِ بأحوالِهم.

فلهذه الأسبابِ الثَّلاثةِ وأشباهِها أخَّرَ اللَّه تعالى ذِكْرَ مواريثِ الكَلالةِ عن ميراث القِسمَينِ الأوَّلين؛ فما أحسنَ هذا التَّرتيبَ! وما أشدَّ صِدْقَهُ على قوانينِ المَعْقُولَاتِ[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الزَّوج والمرأة:

ثمَّةَ فروقٌ كثيرةٌ بين لفظي (الزَّوج) و(المرأة) في الاستعمالِ القُرآنيِّ، والَّذي يَعنِينَا في الآيةِ وسياقِها، هو مجيءُ لفظِ (الزّوج) للدّلالةِ على امرأةِ الرَّجلِ الّتي تخصُّه بعَقدِ النّكاح، وهي مأخوذةٌ مِنَ التَّزاوُج، وهو تداخُلٌ بين شيءٍ وآخرَ، حتّى يشتبكَا ويختلطَا ويرتبطَا معًا، ولا يُقالُ للشَّيءِ زَوْجٌ إلّا وهو مرتبطٌ بآخَرَ ارتباطًا ماديًّا أو معنويًّا، ومن هنا أُطْلِقَ الزَّوجُ على امرأةِ الرَّجل[2]، أمّا لفظُ (امرأة) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ﴾، فقد جاءت عامّةً تشملُ كلَّ أنثى تخصُّ الرَّجلَ، سواء كانت أمَّهُ أو أختَه أو زوجتَه أو بنتَه، أو غيرَ ذلك[3]، ولمّا كان المقصودُ أوّلًا منَ الآيةِ التَّفصيلَ في أحكامِ الميراث، جاء التَّعبيرُ في أوّلِ الآيةِ عن سببِ ميراثِ الرَّجل لامرأته، وهو قوامة الزَّوجيَّةِ ومتطلّباتها

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 9/520.

(2) الراغب، المفردات: (زوج).

(3) الخليل، العين: (أمر).

بالنّسبة للزّوج، أو رباط الزّوجيّة المقدّس بالنّسبة للزّوجة، وما يقتضيه العقد، وتتطلّبه العشرة من وفاء، فقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾، ثمّ جاء بعدَها بسببٍ آخرَ للميراث غيرِ الزَّوجيّة، وهو عامٌّ فعبَّر بلفظِ ﴿ٱمْرَأَةٌ﴾، فقال: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾.

القَرض والدَّين:

القرضُ في اللُّغة القطعُ، ومنه المِقراضُ، وسُمِّي ما يقطعُ الإنسانُ من مالِه ليُجازَى عليه قرضاً[1]، أمَّا الدَّينُ فهو القرضُ الّذي يكون بين المخلوقين، يقال: أدنتُ الرّجلَ إذا بعتُه بدَيْن، ودان هو أخذ الدَّينَ[2]، وقيل: دِنته أقرضتُه، وأدَنتُه استقرضتُ منه[3]، والفرق بين الدَّين والقرض، أنَّ الدَّين: ما له أجلٌ، والقرض ما لا أجلَ له، وقال أبو هلال: "القَرْضُ أكثرُ ما يُستعملُ في العين والوَرِقِ، وهو أَن تأخُذ من مال الرَّجل درهمًا لِتردَّ عليه بدلَه درهمًا، فيبقى دَيْنًا عليك إلى أن تردَّه، فكلّ قرضٍ دينٌ، وليس كلُّ دَيْنٍ قرضًا، وذلك أنَّ أثمانَ ما يُشترَى بالنَّسإ دُيُون وليستْ بقُروضٍ، فالقرضُ يكونُ من جنسِ ما اقْتُرِضَ، وليس كذلك الدَّينُ، ويجوزُ أن يُفرّقَ بينهما فنقول: قولُنا يُداينُهُ يُفيدُ أنّه يُعطيه ذلك، ليَأخُذ منه بدلَه، ولهذا يقال قضيتُ قرضَه، وأدَّيتُ دَينَه وواجبَه، ومن أجل ذلك أَيضًا يقال: أدّيت صلاةَ الوقتِ وقضيتُ ما نسيتُ منَ الصَّلاة، بمنزلة القَرْضِ"[4].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (قرض).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (دَيَنَ).
(3) الراغب، المفردات: (قرض).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 313.

﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤﴾ [النساء: 13 - 14]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

دعوة للحفاظ على حدود المواريث، تثمينًا للطّاعة، وتشنيعًا بالمعصية

لَمَّا بيَّن اللّه تعالى أقسامَ المواريثِ في الآياتِ السَّابقةِ، ذَكَر الوعدَ والوعيدَ ترغيبًا في الطَّاعةِ وترهيبًا عنِ المعصيةِ[1]؛ بالتزام تِلك الفرائض والمقادير التّي جعَلها اللّه تعالى للوَرَثةِ، هي حدودُ اللّهِ تعالى التي شرَعَها لعبادِه؛ ومن راعى تلك الحدودَ فهو في طاعة اللّه، ومن يعْصِه فهو خالدٌ في النّار[2]، وفي ختم آياتِ المواريثِ بهاتين الآيتين إشارةٌ إلى عِظَم أمرِ الميراثِ، ولزومِ الاحتياطِ والتَّحرِّي، وعدمِ الظُّلمِ فيه[3].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿حُدُودُ﴾: جمعُ الحدِّ منَ الفعل حَدَّ، والحاء والدَّال أصلان: الأوَّلُ المنعُ، فالحدُّ: الحاجزُ بين الشَّيئَين الّذي يمنعُ اختلاطَ أحدِهما بالآخرِ، وَفُلَانٌ مَحْدُودٌ، إِذَا كَانَ مَمْنُوعًا[4]، والثّاني: فهو طرفُ الشَّيء ومنتهاه؛ لأنَّه يردُّه ويمنعُه عنِ التَّمادي، وَمِنْه حُدُود الأَرَضين، وحدود الحرم[5].

وحدودُ اللّه: هي الأَشْيَاءُ الَّتِي بَيّن تَحْرِيمهَا وتحليلَها، وَأمرَ أَلّا

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 9/525.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/213.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/443.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حدَّ)، وابن منظور، لسان العرب: (حدَّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حدَّ).

يُتعدّى شَيْءٌ مِنْهَا، فيُجاوَزَ إلَى غير مَا أَمرَ فِيهَا أَو نهى عَنهُ مِنْهَا، وسُمّيت حدوداً؛ لأنَّها موانعُ منَ ارتكاب أسبابها، فهي تَحُدُّ أَي: تمنعُ مِن إتْيَان مَا جُعلتْ عقوباتٍ فِيهَا[1]، فالمعنى المِحوريُّ للحدِّ إيقافُ الامتدادِ والتَّخطّي للشّيءِ، أي إنهاؤُه أو منعُه: كحدِّ السّكّينِ والسَّيفِ في ذاتِهما برقّتِهما إلى الانقطاعِ أو بعملِهما، وهو قطعُ الامتداد، وكحدودِ الأرضين وحدودِ الحرم، ومنه حدودُ اللّه؛ لأنَّها نهاياتٌ نهى اللّه تعالى عن تعدِّيها[2].

2) ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: من (رَسَلَ)، والرَّسُول: بِمَعْنَى الرِّسالة[3]، ومنه قول كثيّر:

لَقَدْ كَذَبَ الوَاشُونَ مَا بُحْتُ عِنْدَهُمْ *** بِسِرٍّ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشّعراء: 16]، ولم يقل: (رُسُلُ ربّ العَالَمِينَ)، لأنّ فَعُولًا وفَعِيلًا، يستوي فيها المذكّر والمؤنّث[4]، والإرْسَال: البعثُ والتَّسليطُ والتَّوجيهُ، جاء في القاموس: "الإرسالُ: التَّسْليطُ، والإطْلاقُ، والإهْمالُ، والتَّوْجِيهُ، والاسمُ: الرِّسالَةُ، والرَّسولُ أيضًا: المُرْسَلُ"[5]، وكأنَّ الرّسول يُسلَّط ويوجَّه إلى من أُرْسلَ إليه لأداء مهمّتِه وعملِه، والرّسولُ بمعنى الرِّسالةِ، وهو الّذي يتابِعُ أخبارَ الّذي بعثَه، وعلى ذلك فالرُّسُلُ إنّما سُمُّوا بذلك؛ لأنّ اللّه أرسلَهم وبعَثَهم بالرِّسالاتِ إلى أُمَمِهم، وكلّفَهم بحمْلِها وتبليغِها، وَالرَّسُولُ الَّذِي يُتَابع أَخْبَار الَّذِي بَعثَه؛ أُخِذ من قَوْلهم: جَاءَتِ الإبلُ رسلًا، أَي: مُتتابعةً، وسُمِّي الرَّسولُ رَسُولًا؛ لأَنه ذُو رَسُولٍ أَي ذُو رِسالةٍ، والرَّسولُ: اسْمٌ مِنْ أَرْسَلْتُ وَكَذَلِك الرِّسَالة، وَيُقَالُ: جَاءَتِ الإبل أَرْسَالًا إِذا جَاءَ مِنْهَا رَسَلٌ بَعْدَ رَسَل، وَجمعُ الرَّسول الرُّسُلُ[6].

3) ﴿جَنَّٰتٍ﴾: جمعُ جنَّة منَ الفعل جَنَّ يَجُنُّ، وتدلُّ مادّتُه على الخفاءِ والتَّستُّرِ، قال ابنُ فارسٍ: "الجيمُ والنّونُ أصلٌ واحدٌ، وهو السَّتْر والتَستُّر"[7]، فالاجتِنانُ في اللُّغة عموماً بمعنى الاسْتِتار؛ لتكاثُفِ الأشجارِ وتَظليلِها بالتفافِ أغصانِها، إذ يقال: جَنَّ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (حدَّ).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حدد).
(3) الخليل، العين: (رسل).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (رسل).
(5) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (الرَّسَلُ).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (رسل)، وابن منظور، لسان العرب: (رسل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنّ).

النَّبتُ جُنُوناً، أي طالَ والتفَّ، وقد تأزَّرَ بعضُه فوقَ بعضٍ، ومنه تسميةُ العربِ للنَّخيل المُرتفعِ طُولاً: جَنَّةٌ ومَجنُونٌ[1]، و(الجَنَّةُ) بفتح الجيم، تدلُّ على البستانِ أو الحديقةِ المحفوفةِ بالأشجارِ والمياهِ الجاريةِ بشرطِ أن يَستُرَ بأوراق أشجارِه الأرضَ، وتُجمعُ على (جَنَّات)[2]، والجَنّة في الآخرة تدلُّ على دارِ النَّعيمِ الأبديِّ يومَ القيامة، وهي ما وعدَ اللّه تعالى به عبادَه المؤمنين المُتّقين، وفي سبب تَسميتِها بذلك قولان ذكرهما الرَّاغب مُعلِّلاً التَّسمية بأنَّها: "إمّا تشبيهًا بالجنّةِ في الأرض، وإن كان بينهما بَوْنٌ، وإمّا لستْرِه نِعمَها عنّا المُشارَ إليها بقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السَّجدة: 17]"[3].

4) ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: جمعُ نهَر، منَ الفعل نَهَرَ، والنُّونُ وَالهَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَفَتُّحِ شَيْءٍ أَوْ فَتْحِهِ، وَأَنْهَرْتُ الدَّمَ: فَتَحْتُهُ وَأَرْسَلْتُهُ، وَسُمِّيَ النَّهَرَ لِأَنَّهُ يَنْهَرُ الْأَرْضَ أيْ يَشُقُّهَا، وَجَمْعُ النَّهْرِ أَنْهَارٌ وَنُهُرٌ ونُهورٌ، ومجرَى الماء، وَأَنْهَرَ الْمَاءُ: جَرَى، وَنَهَرٌ نَهِرٌ: كَثِيرُ المَاءِ[4]. قال أبو ذُؤَيبِ الهُذَلي[5]:

أَقَامَتْ بِهِ فَابْتَنَتْ خَيْمَةً *** عَلَى قَصَبٍ وَفُرَاتٍ نَهِرْ

والمَنهرُ: موضعُ النَّهر يحتفرُه الماءُ ليجريَ فيه[6]، وَاسْتَنْهَرَ النَّهرُ: أَخذ لمَجراهُ مَوضعًا مَكينًا[7]، والمعنى المحوريُّ يدلُّ على جَريانِ مائعٍ أو رقيقٍ نحوَه، باتِّساعٍ واسْترسالٍ من شَقٍّ يشقُّه ويَحتفِرُه، كماءِ النَّهرِ في مَجراه[8]، والمعنى أنّ الجزاء: "جنّات تجري من تحتها الأنهار، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"[9].

5) ﴿وَيَتَعَدَّ﴾: فعلٌ مضارعٌ يدلُّ على التَّجاوُزِ والتَّعدِّي، فـ"العَيْنُ وَالدَّالُ وَالحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ، يَرْجِعُ إِلَيْهِ الفُرُوعُ كُلُّهَا، وهو يَدُلُّ على تَجَاوُزٍ فِي الشَّيْءِ وَتَقَدُّمٍ لِمَا

(1) ابن منظور، لسان العرب: (جنن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جنن).
(3) الراغب، المفردات: (جنن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهر).
(5) مجموعة من المؤلفين، ديوان الهذليين: 1/146.
(6) الخليل، العين: (نهر).
(7) الخليل، العين: (نهر)، وابن منظور، لسان العرب: (نهر).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نهر).
(9) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 2/715.

يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ"[1]، واستُعملتِ المادّةُ بدَلالةِ الظُّلم والتَّعدّي والتَّجاوُزِ على حقوقِ الآخَرين[2]، و"العَدَاء بِالفتْحِ والمَدِّ: الظُّلْمُ وتجَاوُزُ الحَدِّ"[3]، واعتدى فلان عنِ الحقّ واعتدى فوقَ الحقّ، كأنّ معناه جازَ عنِ الحقّ إلى الظُّلْم[4]، وأرجع الرّاغبُ أصلَ المادّة إلى (التَّجاوُزِ) مُستجمِعاً فيه كلَّ دلالاتِها، فيقولُ: "العَدْوُّ: التّجاوُز ومنافاةُ الالتئام، فتارةً يُعتبرُ بالقلب، فيقال له: العَدَاوَةُ والمُعَادَاةُ، وتارةً بالمَشي، فيقال له: العَدْوُ، وتارةً في الإخلال بالعدالةِ في المعاملة، فيقال له: العُدْوَانُ والعَدْوُ"[5]، ومعنى لفظ ﴿وَيَتَعَدَّ﴾ في السّياق، أنّ من يخالف حكم اللّه في الميراث، فقد تعدّى ما رسمه اللّه من حدود في ماله الّذي آتاه لعباده، ولا ريب أنّ جزاءه النّار، وبئس القرار.

6) ﴿عَذَابٌ﴾: من عذب: وهو أصلٌ صحيحٌ، "العين والذال والباء أصلٌ صحيحٌ، لكنَّ كلماتِه لا تكادُ تُقاسُ، ولا يمكنُ جمعُها إلى شيءٍ واحدٍ"[6]، لذا اختلفَ أهلُ اللّغةِ في أصلِ معناهُ[7]، قال المُناوي: "العذابُ: كلُّ مُؤلم للنَّفسِ إذا كان جزاءً على سُوءٍ، واشتقاقُه من عذبَ الشّيءُ إذا استمرَّ وجرَى، فالألمُ يَستمرُّ في النَّفس، ويَتغلغلُ فيها، وقيل: العذابُ إيلامٌ لا إخبارَ فيه، وقيل: أصلُه عندَ العربِ الضَّربُ ثمّ استُعملَ في عقوبةٍ مُؤلمةٍ، واستُعيرَ للأمورِ الشّاقّةِ فقيل: السَّفرُ قطعةٌ منَ العذاب"[8]، والعذابُ "كلُّ ما شقَّ على النَّفسِ احتمالُه وآلَمها"[9]، وسُمِّي العذابُ عذاباً؛ لأنّ صاحبَه يُحبسُ ويُمنعُ عنه جميعُ ما يلائمُ الجسدَ منَ الخير، وتُزال عنه حلاوةُ العَيْشِ وتَنهالُ عليه أضدادُها، ثمّ أُطلقَ اللّفظُ بعدَ هذا على كلِّ شيءٍ يُؤلمُ الإنسانَ مثلَ الضَّربِ بالسَّوْطِ والحَرقِ بالنّارِ والقطعِ بالحديدِ[10]، وهو لفظ فصيح مألوف في الاستعمال، ويدلّ على المشهد بقوّة وجلاء.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدو).
(2) الجَّوهريّ، الصّحاح: (عدا).
(3) ابن الأثير، النّهاية: 3/193.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عدا).
(5) الراغب، المفردات: (عدا).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عذب).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (عذب)، وابن سيده، المحكم: (عذب)، والرّاغب، المفردات: (عذب)، وابن منظور، لسان العرب: (عذب)، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (عذب).
(8) المُناوي، التوقيف، ص: 239.
(9) قلعجي، معجم لغة الفقهاء: 1/307.
(10) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/192.

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

بيانُ مصيرِ الطّائعين لله تعالى ورسولِه، ومصيرِ العاصِين لهما

جاءتْ هاتانِ الآيتَانِ الكريمتانِ، ترغّبان في الطَّاعةِ، وترهّبان عنِ المعصيةِ؛ لئلَّا يُغترَّ بحلم اللّه المذكور في الآية الّتي قبْلَهما، فجاءتِ الآيةُ الأولى لتُبيِّن أنَّ ما شرَعه اللّه تعالى منَ الفرائضِ والمقاديرِ في المواريثِ، هي حدودُه تعالى، الّتي يجبُ ألَّا يتجاوزَها العبادُ، مع بيانِ جزاءِ مَن يطيعُ اللّه ورسولَه فيكون له جنّاتٍ تجرِي من تحتها الأنهارُ، ثمّ جاءت الآيةُ الثّانيةُ لتتوعَّدَ العاصِين الّذين يتجاوَزُون حدودَ اللّه تعالى، بالمصيرِ المشؤوم، والعذاب المعلوم[1]، إذ إنَّ مَن يُخالفُ أمْرَ اللّه ورسوله، ويَتجاوزُ حدودَ ما شرَعه تعالى لعباده، فإنَّ اللّه تعالى سيُصليه نارًا خالدًا فيها[2]، وذلك جزاء الظّالمين.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلَاغَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾:

عَظَمَةُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَجَمِيلُ أَثَرِهَا عَلَى الْعِبَادِ

التَّعبيرُ باسم الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾ وهو دالٌّ على البُعْدِ في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾؛ وذلكَ لإنزالِ البُعدِ المعنويّ منزلةَ البُعدِ الحِسّي، لعُلُوِّ درجةِ هذه الأحكامِ وعظيمِ منزلَتِهَا، وفيه إيماءٌ إلى تعظيمِ مُنزلِها وفارِضِها ﷻ.

دِلَالَةُ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾:

وُجُوبُ لُزُومِ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى

أُضيفَت الحدودُ إلى الاسم الأحسنِ (اللّه) في قولِه سبحانَهُ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾، وفي ذلك تعظيمُ هذه الحدودِ وتفخيمُها، إذ هي

---

(1) "يَدخُل في اسم المعصية الكُفرُ فما دونه من المعاصي، فلا يكون فيها شُبهةٌ للخوارج القائلين بكُفر أهل المعاصي، فإنَّ الله تعالى رتَّب دخولَ الجنّة على طاعتِه وطاعةِ رسوله، ورتَّب دخولَ النّار على معصيتِه ومعصيةِ رسوله، فمَن أطاعه طاعةً تامَّةً، دخل الجنّةَ بلا عذاب، ومَن عصى الله ورسولَه معصيةً تامَّةً - يَدخُل فيها الشّرك فما دونه - دخل النّار وخُلِّد فيها، ومَن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه مِن مُوجب الثّواب والعقاب بحسَب ما فيه منَ الطّاعة والمعصية، وقد دلَّتِ النُّصوصُ المتواترةُ على أنَّ الموحِّدين الّذين معهم طاعةُ التّوحيد، غيرُ مخلَّدِين في النّار، فما معهم منَ التّوحيد مانعٌ لهم منَ الخلود فيها"، ينظر: السَّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 134.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/490، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/232 - 234.

حدودُ الله تعالى ممَّا يُوجبُ على العبادِ أن يلتزمُوها ولا يتجاوَزُوها طاعةً لله تعالى.

وفيه ذلك أيضًا: إيجازٌ وتكثيفٌ في المعنى المُرادِ، فقد شَمِلَ الحدودَ والأحكامَ الواردةَ في السُّورة كلِّها، التي ذُكرتْ في باب اليتامَى والوصايَا والمواريثِ وغيرِها[1].

وفي إضافة الحدود إلى الاسم الأحسن (الله) أيضًا: إدخال المهابَةِ على قلوب العبادِ بِذِكْرِ الاسمِ الْأَحْسَنِ، فيكون ذلك أدعَى لامتثالِهَا وعدمِ تجاوُزِهَا.

بَلَاغَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾:

التَّرْهِيبُ مِنَ الْعُدُولِ عَنْ أَحْكَامٍ غَيْرِ أَحْكَامِ اللهِ سُبْحَانَهُ

في قَوْلِه سُبحَانَه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ قَصْرٌ، وذلك لتعريفِ جُزأي الإسنادِ؛ فالمبتدأ ﴿تِلْكَ﴾ معرَّفٌ بالإشارَةِ، و﴿حُدُودُ﴾ معرَّفةٌ بإضافتِهَا إلى الاسم الأحسن (الله)، والمقصورُ بهذا الطَّريقِ هو المعرَّفُ باللَّامِ وما هو بمنزِلَتِه، ففيه قصرُ حدودِ الله تعالى على تلك الأحكامِ المذكورةِ، وليس هو قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، بل هو قصرٌ إضافيٌّ؛ لأنَّ أحكامَ الله تعالى أعمُّ من المذكوراتِ في آيات المواريثِ، وإنَّما سيقَ ذلك مساقَ القصرِ الإضافيِّ تفخيمًا لشأنِ هذه الأحكامِ، وترهيبًا من العدولِ عنْهَا إلى أحكامٍ مخالفةٍ لما قضَى الله تعالى بِهِ.

دِلَالَةُ الِاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾:

تَحْذِيرُ الْعِبَادِ مِنْ تَجَاوُزِ أَوَامِرِ اللهِ تَعَالَى وَنَوَاهِيهِ

في قولِه تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾: استعارةٌ تصريحيَّةٌ؛ إذِ استُعيرَت الحدودُ للشّرائعِ والأحكام بجامعِ معنى الفَصْلِ، فشرائعُ الله فاصلةٌ بين الحقّ والباطلِ وبين الكُفرِ والإيمانِ، والحدُّ: "الحاجزُ بين الشَّيئَين الذي يمنع اختلاطَ أحدِهما بالآخَرِ"[2].

(1) الزّمَخشري، الكشَّاف: 1/487.
(2) الراغب، المفردات: (حدّ).

قال ابنُ عاشور: "حُدُودُ اللهِ اسْتِعَارَةٌ لِلْأَوامر والنَّواهي الشَّرعِيَّةِ بقرينةِ الإشارةِ، شُبِّهَتْ بالحدود الَّتي هي الفواصلُ المجعولةُ بين أَملاكِ النَّاسِ؛ لأَنَّ الأَحكامَ الشَّرعيَّةَ، تَفصِلُ بين الحلالِ والحرام، والحقِّ والباطلِ، وتَفصلُ بين ما كان عليه النَّاسُ قبل الإسلام، وما هُم عليه بعدَه"[1]، وفي هذه الاستعارةِ مبالغةٌ في التَّحذير من تجاوُزِ هذه الشّرائعِ التي جعلَها اللّه تعالى حدًّا فاصلًا لا يجوزُ على المرءِ تعَدِّيه.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْأَفْعَالِ الْمُضَارِعَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾:

إِنَّـمَـا تُـمْـدَحُ الطَّاعَةُ كَمَالَ الْمَـــدْحِ إِذَا كَــانَــتْ عَـلَى سَبِيلِ الـدَّوَامِ وَالِاسْـتِـمْـرَارِ عَلَيْهَا

جاء التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يُطِعِ﴾ في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ الطَّاعةَ التي يَترَتَّبُ عليهَا الجزاءُ الحسنُ في الآخرةِ هو الاستمرارُ والمداومةُ عليهَا، لا ما كان منها عرضِيًّا ثمَّ استمرَّ صاحبُهَا على العِصيانِ.

وفي التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يُدْخِلْهُ﴾ مِن قَوْلِه سُبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾؛ لاستحضارِ صورَةِ الجزاءِ في الآخرةِ، فيكون ذلك أَحْرى للامتثالِ؛ فإنَّ استحضارِ الثَّوابِ على العملِ باعثٌ عليه.

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾:

تَضَمُّنُ الِاسْمِ الْأَحْسَنِ (اللهِ) لِصِفَاتِ الْجَلَالِ وَالْـكَـمَـالِ وَالْجَمَالِ

في قولِه تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إظهارٌ في موضعِ الإضمار، فقد أُظْهِرَ الاسمُ الأحسنُ ﴿ٱللَّهَ﴾ في قولِه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾، مع أنَّ مقتضى الظّاهرِ أن يُكتفَى بالإضمارِ (ومن يطعه)؛ لتقدُّم ذكرِه في قوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾.

وفي هذا الإظهارِ: إدخالُ الرَّوعةِ، وتربيةُ المهابةِ في النّفوس،

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 2/413.

وزيادةُ التَّعظيمِ والتَّفخيمِ، فالاسمُ الأحسنُ أكبرُ أثرًا ووقْعًا في النّفوسِ منَ الضّميرِ العائدِ إليه، فضلًا عمَّا فيه منَ المبالغةِ في التَّهديدِ والتَّشديدِ في الوعيدِ على المُخالِفِ[1]؛ لما اشتمَلَ عليه الاسم الأحسن (اللّه) من صفاتِ الجلالِ والكمالِ.

دِلَالَةُ جَمْعِ الْجَنَّاتِ وَتَنْكِيرِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٍ﴾

كَثْرَةُ الْجَنَّاتِ وَتَنَوُّعُهَا فِي الْآخِرَةِ؛ لِاخْتِلَافِ دَرَجَاتِ الْمُتَّقِينَ

جُمِعَتِ الجَنَّاتُ في قولِهِ سُبحانه: ﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٍ﴾ إعلامًا بكثرَتِهَا وَتعدُّدِهَا؛ وذلك أنَّ الجنَّةَ في الآخرةِ مشتملةٌ على جِنَانٍ كثيرةٍ.

وتنكيرُ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ فيه إيماءٌ إلى تنوُّعِهَا واختلافِهَا.

وكثرة الجنَّاتِ وتنوُّعُها هُوَ بِحَسَبِ دَرجاتِ أهلِهَا في طاعةِ اللّه تعالى؛ فإنَّهم في رُتَبٍ متباينَةٍ حسَبَ تحقُّقِهم مِنْ طاعةِ اللّه سبحانه.

دِلَالَةُ وَصْفِ الْجَنَّاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

جَمَالُ الْجَنَّةِ وَجَمَالُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ، كَشِدَّةِ جَرَيَانِ أَنْهَارِهَا وَوَفْرَةِ مِيَاهِهَا

وُصِفَتِ الجنَّاتُ بكونِهَا ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ مدحًا لها، وتزيينًا لها في قلوبِ العبادِ؛ ليكونَ ذلك أدعَى للتَّزَيِّي بِزِيِّ الطَّاعة.

ووجهُ المدحِ بالوصفِ: أنَّ أَحْسَنَ المياهِ هُوَ ما كَانَ جَارِيًا؛ لأنَّ ذلك يَقْتَضِي كونَه جَدِيدًا كلَّما اغْتُرِفَ أوِ اغتُسِلَ منهُ.

وَأَصْلُ الْجَرْيِ في كلامِ العربِ: شِدَّةُ سُرعةِ الْمَشْيِ، وإطلاقُهُ على سَيَلانِ الماءِ سَيْلًا متكرِّرًا مُتَعَاقِبًا: مَجازٌ[2]، وفي تخريجِهِ مَسْلَكَانِ:

أحدهما: أنَّه مجازٌ بِالِاسْتِعَارَةِ؛ ووجهُهُ: أنَّه شُبِّهَ سيَلَانُ الماءِ سَيْلًا مُتَكرِّرًا متعاقِبًا بشِدَّةِ سُرعةِ المشيِ؛ لجَامِعِ سُرعةِ الِانْتِقَالِ والحركةِ في كلٍّ مِنْهُمَا، فيكونُ مِنَ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة.

والآخَرُ: أنَّه مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقةِ الإطلاقِ والتَّقْييدِ، فأصلُ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/154.

(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 1/354.

الجري: شدَّةُ سُرعة المشيِ، ثُمَّ أُطلِقَ عَنْ قَيْدِ المشيِ، واستعمِلَ في شِدَّة السُّرعةِ مطلقًا.

وهو على كِلَا الوَجْهَيْنِ أدخَلُ في مَدْحِ الماءِ الجاري؛ لِاقْتِضَائه المُبَالغةَ في جِدَّتِه بشدَّةِ جَرْيِه.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

أَنْـهَـارُ الْـجَـنَّـةِ نِعْمَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ لِأَهْلِهَا

اللَّامُ في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ لِتَعْرِيفِ الجِنْسِ، فتَكُونُ في قوَّة النَّكرةِ.

ويَحْتَمِلُ أن تكون اللَّامُ لِلْعَهْدِ التَّقديريِّ؛ وذلك أنَّه لَمَّا ذُكرت الجنَّاتُ؛ اسْتَحْضَرَ السَّامعُ لوازمَها ومقارنَاتِها؛ "فساغَ لِلْمُتَكَلِّم أن يُشير إلى ذلك المعهُودِ، فَجِيء باللَّام"، ويَحْتَمِل أَن تكون لِلْعَهْدِ الخارجيِّ، والإشارةُ فيه إلى قَولِ اللّه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ [محمد: 15].

ولَم تُضَفِ الأنهارُ إلى ضمير الجنَّاتِ بأَنْ يقال: (تَجْرِي من تحتِها أنهارُهَا)؛ لِمَا في الإضافة مِن كُلْفَةٍ في الكلامِ، ولِلتَّنْبِيه على أَنَّ نعمةَ الأنهارِ مُسْتقِلَّةٌ، فيكون التَّمَتُّع بها تنعُّما مستقِلًّا لا تبعًا لِلْجَنَّات.

ومالَ ابنُ عَاشُور إلى أنَّ تعريفَ الأنهار في مثلِ هذا التَّركيبِ إنَّما هو لِلتَّفنُّنِ؛ لئلَّا يُعادَ التَّنكيرُ مرَّةً أخرَى بعد تنكيرِ ﴿جَنَّٰتٖ﴾.

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

فَـخَـامَـةُ نَعِيم الْجَنَّةِ

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: مجازٌ عقليٌّ بعلاقة المكانيَّة، فقد أُسنِدَ الجريُ إلى الأنهارِ وهو مكانُ الماءِ الجاري في الأصلِ إسنادًا مجازيًا، فالأنهارُ لا تجرِي، إنَّما الذي يجري ماؤُها.

ونكتةُ المَجازِ: الإيجازُ والمبالغةُ في المعنى المُرادِ؛ إذْ ذلكَ يُوحِي

بكثرةِ ما في الجنّة منَ النَّعيمِ الدَّائمِ ووفْرَته، فإنَّهُ يدلُّ على كثرةِ الماء وغزارَته وعُمومِه لجميعِ مَجرى النَّهر، حتَّى يُصوّرَ لِلْمتلقّي أنَّ النَّهرَ لِعِظَمِ ما فيه يجري برُمّته لا الماءُ الذي فيه فحسب[1].

بَلَاغَةُ الِاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾

نَعِيمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دَائِمٌ، لَا يَتَنَغَّصُ بِاحْتِمَالِ انْقِطَاعِهِ

قولُ اللّه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ حالٌ منصوبَةٌ، جيءَ بها لِلِاحتراسِ؛ دَفْعًا لِتوهُّمِ انقطاعِ النَّعِيمِ المَذْكُورِ قبلُ، وسبَبُ هذا التَّوهُّم: ما جرت به العادةُ مِن انقطاعِ اللَّذَّات في الحياةِ الدُّنيا؛ فإنَّ العبدَ في الحياة الدُّنيا مهما كثرَتِ اللَّذَّاتُ عندهُ وعَظُمَتْ؛ فإنَّ استحضارَهُ زوالَهَا يُنغِّصُ عليه كمالَ الاستمتاعِ بها، فبيَّن اللّه سبحانه أنَّ ذلك مُنْتَفٍ في نعيم الجنَّةِ، وأنَّه نعيمٌ دائمٌ.

تَوَاشُجُ التَّذْيِيلِ مَعَ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾:

تَفْخِيمُ ثَوَابِ الطَّائِعِ لِأَوَامِرِ اللهِ تَعَالَى

يتواشجُ التّذييلُ مع القَصْر في بيان هذه الخاتمةِ والمآلِ للطّائعِ لأوامرِ اللّه تعالى، وتفخيمِ الثَّوابِ وتعظيمِه له بقولِه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وفيه معنى الكمالِ، إذْ قُصِرَ الفوزُ العظيمُ على ما يُجازَى به المؤمنون، وخصّصَه بهم، وطريقُ القصرِ: تعريفُ طَرَفَي الإسنادِ، والقصدُ من ذلك: المبالغَةُ.

وأُوثرَ التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ المُذكَّرِ ﴿وَذَٰلِكَ﴾ دون (تِلْكَ)؛ لأنَّ المرادَ في الآيةِ إخبارُ اللّه تعالى بحصولِ هذه الجنّاتِ، وهذا يدلُّ على كونِه تعالى راضيًا، والفوزُ الكبيرُ هو رضا اللّه تعالى لا حصولُ الجنَّاتِ، وهذا الإخبارُ يعودُ عليه ﴿وَذَٰلِكَ﴾ وليس (تِلْكَ) الذي فيه إشارةٌ إلى الجنّاتِ وحدهَا[2].

(1) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/107.

(2) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 31/113.

دِلَالَةُ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الطَّائِعِينَ وَالْعَاصِينَ:

التَّرْغِيبُ فِي الطَّاعَةِ وَالإِيمَانِ، وَالتَّرْهِيبُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ

من بديعِ نسيجِ الآيتَيْن الكريمتَيْن المقابلةُ بين الفريقَيْن الطّائعِ والعاصِي، فقد ذكرتِ الآيةُ الأولى منهما الطّائعَ في الدّنيا وما له منَ النَّعيم في الجِنان في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، لتأتيَ الآيةُ التي بعدَها مبيِّنةً حالَ العاصِي في الدّنيا ومصيرَه إلى النّيران في الآخرة في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾، على سبيل المقابلة بين حال الفَريقَيْن في الدّنيا وجزائِهما في الآخرة، لتصوِّرَ ما للطائعين من نعيمٍ في الجِنانِ، وما للمُجرمين من عذابٍ في النِّيران، وقد جاءت هذه المَشاهدُ ترغيبًا وترهيبًا؛ ترغيبًا في الطّاعة والإيمان والعملِ الصّالح المُوصلةِ إلى الجِنان، وترهيبًا منَ الكُفْرِ والمعاصِي الموصلةِ إلى النّيران، وهذا التّقابلُ مقصودٌ إذْ "بضدّها تتميّزُ الأشياءُ"[(1)].

نُكْتَةُ التَّغايُرِ بَيْنَ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ - جَمْعًا - و﴿خَٰلِدٗا﴾ - مُفْرَدًا - :

صِيغَةُ الْجَمْعِ مُشْعِرَةٌ بِالاجْتِمَاعِ وَالأُلْفَةِ، وَصِيغَةُ الإِفْرَادِ مُؤْذِنَةٌ بِالْوَحْشَةِ وَالرَّهْبَةِ

أُوثِرَ التَّعبير بصيغة الجمع ﴿خَٰلِدِينَ﴾ مع الطّائعين من أهلِ الجَنّة في قوله تعالى: ﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾، وأُوثِرَت صيغةِ المُفرد ﴿خَٰلِدٗا﴾ مع العاصِين من أهل النَّارِ في قولِه تعالى: ﴿يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا﴾، وفي هذه المغايرةِ بين الصِّيغتَيْن دِلالةٌ لطيفةٌ تتمثّل في أنَّ صيغةَ الجمعِ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ تبشيرٌ بكثرةِ الواقفِ عند هذه الحدودِ، ولأنَّ منادمةَ الإخوانِ من أعلى نعيم الجِنان، والجمعُ لأهل الجَّنة يقتضي الأُنسَ بالاجتماع والسّعادةَ بالتَّعارف واللّقاء، في حين جاءتْ صيغةُ الإفراد مع أهل النَّار للدَّلالةِ على الوَحْشةِ والرَّهبة؛ لأنَّ الإفراد ﴿خَٰلِدٗا﴾ يقتضي الوَحْشَةَ منَ العذاب والهَوان[(2)].

(1) الراغب، محاضرات الأدباء: 2/409.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/214.

وذهب أبو حيّانَ إلى أنَّه غايرَ بين الصِّيغتَيْن للدّلالةِ على أنَّ أهلَ الطاعة أهلُ شفاعةٍ، وإذا شفَع في غيره دخلَها، والعاصِي لا يَدْخُل النَّارَ به غيرُهُ، فبقي وحيدًا[1].

وفي هذه المُغايَرةِ مناسبةٌ دقيقةٌ لطيفةٌ تتمثَّلُ في جمْعِه لضمير الخالدينَ في الجنة؛ لأنَّ كلَّ مَن دخل الجنَّة كان خالدًا فيها أبدًا، أمَّا أهلُ النار فعبَّر بالمفرَد ﴿خَٰلِدٗا﴾؛ إذ بينهم الخالِدون وغيرُ الخالِدين من عُصاةِ المؤمنين؛ فساغَ الجمعُ هناك ولم يَسُغْ هنا[2].

مُنَاسَبَةُ خَتْمِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾

بَـيَـانُ مَـصِـيرِ الْـعَـاصِي الْمُتَكَبِّرِ عَـلَى أَوَامِـرِ اللهِ تَعَالَى

ختمُ الآيةِ الكريمةِ بالعذابِ المهينِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ مناسبٌ لمضمونِ الآيةِ؛ لأنَّ العاصيَ المُتعدِّيَ الحدودَ بَرَزَ في صورةِ مَنِ اغترَّ وتجاسرَ على معصيةِ اللّه تعالَى، وقد تقلُّ المُبالاةُ بالشَّدائدِ ما لم يَنضمَّ إليها الهوانُ؛ ولهذا قالوا: المنيَّةَ ولا الدَّنيَّة[3].

وفي ذكْرِ ﴿وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾، بعد قوله: ﴿يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا﴾، إيغالٌ في بيانِ شدّةِ الألمِ والعذابِ الذي سيُلاقِيه هذا العاصِي لأوامرِ اللّه تعالى ونَواهِيه.

وتنكيرُ ﴿عَذَابٞ﴾ يُرَادُ به التّفخيمُ والتَّعظيمُ، ومُشعِرٌ بالنَّوعيَّة؛ أي: أنَّه نوعٌ خاصٌّ من العذاب غير ما اعتادُوه وعرَفُوه أو سمِعُوا به.

ووصْفُ العذاب بالهَوانِ في قوله: ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ يَتَلاَءمُ مع إعلانِه المعصيّةَ والمجاهرةَ فيها.

وقرأ جماعةٌ مِنَ القُرّاء ﴿نُدْخِلْهُ﴾ - بالنُّون - مع الجنّات ومع

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/551.

(2) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 2/179.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/551.

النّار[1]، فيكون ذلك مِنَ الالتِفَات؛ إذ وقع الالتفاتُ منَ الغَيْبَةِ في قولِه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّـهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إلى التَّكلُّم في: ﴿نُدْخِلْهُ﴾، وذلك لقصدِ العناية بالجَزَاءيْن، وإسنادِ ذلك إلى مَنْ بيده ناصيةُ الأمر كلِّه.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّسول والنَّبي

إذا أُطلق لفظُ الرَّسُولِ أُريد به "إِنْسانٌ بَعَثَه اللّه إلى الخَلْق لِتَبْلِيغ الأَحْكَام"[2]، أمّا النَّبيُّ فهو "مَن أوحِي إليه بِمَلَك، أو أُلهِم في قَلْبِه، أَوْ نُبِّه بالرُّؤيا الصَّالِحَة، فَالرَّسُولُ أَفْضَلُ بِالوَحي الخَاصّ الذِّي فَوقَ وَحي النُّبُوة؛ لأَنَّ الرَّسولَ هُو مَن أَوحَى إليه جِبْرَائيلُ خَاصّة، بِتَنْزيل الكِتاب مِن اللّه"[3]، أَمَّا النَّبيُّ: فهو المُخْبِر عَنِ اللّه، ﷻ، [4]. والنُّبُوَّةُ: سِفَارَةٌ بين اللّه وبين ذوي العقولِ من عبادِه، لإزاحةِ عِللِهم في أمرِ مَعادِهم ومَعاشِهم، والنَّبِيُّ لكونه منبِّئًا بما تسكنُ إليه العقولُ الذَّكيَّةُ، وهو يصحُّ أن يكون فعيلًا بمعنى فاعلٍ، لقولِه تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ [الحِجر: 49][5]، والرِّسالةُ تُضافُ إلى اللّه، لأنَّه المُرْسِلُ بِهَا، ولهذا قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: 144] ولَمْ يَقُلْ بِنُبوَتي والرِّسَالَةُ جُمْلَةٌ مِنَ البَيَان يَحمِلُهَا القَائِمُ بِهَا ليُؤَدّيهَا إلى غَيْرِه، والنُّبُوَة تَكْلِيفُ القِيام بِالرِّسَالَة فَيَجُوزُ إبْلاغُ الرِّسَالات ولا يَجُوزُ إبْلاغُ النُّبوَات، والرَّسولُ أَخصُّ مِنَ النَّبِيِّ، لأَنَّ كُلَّ رَسُولٍ نَبِيٌّ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيّ رَسُولًا، والرَّسول الذِّي معه كتابٌ، أمَّا النّبيُّ فالذِّي يُنْبِئُ عَنِ اللّه، وإنْ لَمْ يَكُنْ مَعَه كِتَاب[6]، ونلاحظُ في الاستعمالِ القُرآنيِّ أنّ النّداءَ لنبيّنا بوصْفِ النّبوّةِ، يأتي في مواضعَ وصفه بأنّه القائدُ والقدوةُ من نبا إذا ارتفع، وأنّ نداءَه بالرّسالة يأتي بوصفِه الوظيفيّ.

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/248.
(2) الجُرْجَانيُّ، التَّعريفات، ص: 110.
(3) الجُرْجَانيُّ، التَّعريفات، ص: 239.
(4) ابن مَنْظور، لسانُ العَرب: (نبأ).
(5) الراغب، المفردات: (نبأ).
(6) العَسْكَريُّ، الفروق اللغوية: 1/162.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ
مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ
أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ
فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾

[النّساء: 15 - 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

المناسبة بين معاشرة النّساء بالحسنى، وتغليظ العقوبة على المنحرفات منهنّ

لَمَّا ذَكَرَ في الآيات المُتَقَدِّمَة الأَمرَ بالإِحسان إِلى النِّساء، ومعاشرتهنَّ بالجميل، وكان الإحسانُ في الدُّنيا تارةً يكونُ بالثَّواب، وتارةً يكونُ بالزَّجر والعتاب، ضَمَّ إِلى ذلك التَّغليظَ عليهنَّ فيما يأْتينَه مِن أفحش العصيان، وهو الفاحشة، فإِنَّ في الكفِّ عن الفساد لئلّا يلقيهنَّ ذلك في الهلاك إِحسانًا إِليهنَّ، ونظرًا لهنَّ في أَمر آخِرَتِهنَّ، وكما يشرّع اللّه تعالى لخلقِه، فكذلك يوفيهم أجورهم إذا تابوا إليه، لأنّه الموصوف، بأنّه توّاب رحيم، ومدارُ الشَّرع على العدل والإِنصاف والاحتِرازِ في كلِّ بابٍ، عن طَرَفي الإِفراط والتَّفريط، ثمَّ جمع ذكْر أمرِ النِّساءِ، مع حُكْمِ الرِّجالِ، على وجهٍ يعمُّ النِّساءَ أَيضاً[1]، في الخطاب بالمثنّى في الصّفح عنهما حالة التّوبة والإصلاح، وهو منهج في العدل والتّسامح مكين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾: أَصلُ الكلمةِ يدلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعَةٍ فيه، لمجاوزتِه الحدَّ مع تَكرُّهٍ له وذمٍّ شديدٍ، فالفُحشُ والفَحشاءُ والفاحِشَةُ، ما عظُمَ قُبحُهُ، وفشا استقباحُه لدى النَّاس من الأَفعال

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/527.

والأقوال والأحوال، والفاحشةُ في الآية بمعنى الزِّنا؛ لأنَّه من أقبح الفواحش[1]، "وكلّ شَيْء جَاوز حدّه وقدرَه فَهُوَ فَاحش. "وأَفْحشَ الرّجلُ إذا قَالَ قولا فاحِشًا، وَقد فَحُش علينا فلَان، وَإنَّهُ لفَحَّاش، وكلّ أَمر لَا يكون مُوافِقا للحقّ فَهُوَ فاحِشَة، وَقَالَ اللّه جلّ وعزّ: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾، قيل: الفاحِشَة المُبَيِّنَةُ: أَن تَزْني فَتُخرَجَ للحَدِّ، وَقيل: الفاحِشَةُ: خُرُوجهَا من بَيتهَا من غير إذْن"[2]، " قَالَ ابْن عَرَفَة: كلّ مَا نهى اللّه عَنهُ، فَهُوَ فَاحِشَة، وَقيل الْفَاحِشَة مَا يشْتَدّ قبحه من الذُّنُوب، وَالْفُحْش زِيَادَة الشَّيْء، على مَا عهد من مِقْدَاره"[3].

2) ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾: أصل الكلمة شَهِدَ، وتدلُّ على حُضور وعِلم وإعلام، من ذلك الشَّهَادَةُ، وشَهِد الشّاهد عند الحاكِم، أَي: بَيَّن ما يَعلَمه وأَظهَره، واستَشهَدتُ فلانًا: إذا سألتَه إقامة شَهادَة احتَملها، و﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾ في الآية بمعنى اطلبوا الشَّهادةَ عليهنَّ[4]، و"الشَّهَادَة: أَن يخبر بِمَا رأى، وَأَن يقرّ بِمَا علم، ومجموع مَا يدْرك بالحسّ وَالشَّهَادَة الْبَيِّنَة (فِي الْقَضَاء)، هِيَ أَقْوَال الشُّهُود أَمَام جِهَة قضائيّة "[5]، " وأصل الشّهادة الإخبار بما شاهده وشهده ... ومنه الحديث (يَأْتِي قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ)، هذا عامّ في الّذي يؤدّي الشّهادة، قبل أن يطلبها صاحب الحقّ منه، فلا تقبل شهادته ولا يعمل بها"[6].

3) ﴿يَتَوَفَّىٰهُنَّ﴾: أصل الكلمة وَفَى يتوفّى[7]، وتدُلُّ الكلمةُ على نموٍّ أو زيادةٍ يبلغُ بها الشَّيءَ - أَو يتأكّدُ - تمامَ قوامِه، والتَّوفيةُ: التَّتميم، ومنه قوله تعالى ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ﴾ [الإسراء: 35]، وتَوَفَّى فُلانٌ حَقَّهُ من فلانٍ، أَي: أَخذه تامًّا، وتوفيةُ الشَّيءِ: بذلُهُ وافيًا تامًّا، واستيفاؤُه: تناولُه وافيًا تامًّا، وسمِّيَ الموتُ والنَّومُ توفّيًا؛ لأنَّهما استيفاءُ مدَّة الحياة، وقال الزّجاج في قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [السّجدة: 11]، قال: هو من توفية العدد، تأويله أي يقبض أرواحكم أجمعين فلا ينقص واحد منكم"[8]، و﴿يَتَوَفَّىٰهُنَّ﴾ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فحش)، يُنظر: البغويّ، معالم التّنزيل: 1/582.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (فحش).
(3) عياض: مشارق الأنوار: 2/148.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(6) ابن الأثير، النّهاية: (شهد).
(7) ابن الأثير، النّهاية: (شهد).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (وفي).

الآية بمعنى يتقاضاهنّ الموتُ، أَي: يَستوفي الموتُ آجالهنَّ[1]، و"الأفصح أن يقال: تُوُفِّي فلانٌ بالبناء للمجهول؛ لأنّ الّذي يتوفّى الأنفس هو اللّه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ [الحجّ: 5]"[2].

4) ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾: أصل الكلمة مَسَك، والمَسَك: المَوضِعُ الّذي يُمسِك الماءَ، ومنهُ قولُهم: سقاءٌ مَسِيكٌ، أي: يحفظُ الماءَ ويَحبِسُه فلا يَنضحُ، فمعنى الكلمة يدُلُّ على ضبط الشَّيء وحفظه أَو حبسه حَبسًا قويًّا في حَيّزٍ، فلا يتسيّبُ، ومنَ الاستعمال المشهور أمسكَ الشّيءَ: قبضَه باليد، وباختلاف تعلّق الحرف بالكلمة يتغيّرُ المعنى، فيقالُ: تمسَّكَ بالشَّيء، واستمسَكَ به بمعنى اعتصَمَ به، وأَمسكَ عنهُ: كفَّ عنه وامتنعَ، وأمسكَ الشّيءَ على نفسه: حَبَسه، أي: استبقاهُ في حَوزته[3]، كقوله تعالى ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: 37].

5) ﴿ٱلْبُيُوتِ﴾: جمع بيتٍ، هو المأْوى والمآبُ، ومَجمَعُ الشَّمل الّذي يلزمُ منه السَّكن والاستقرار، ومنه يُقالُ لبيت الشِّعر: بَيتٌ على التَّشبيه، لأَنَّهُ مَجمَعُ الأَلفاظ والحروف والمعاني، ومنه قِيل: باتَ، أي: في اللَّيل؛ لأَنَّهُ زمنُ المآب والسُّكون، والبيتُ هو الدَّارُ والمسكنُ الّذي يستقرُّ فيه النَّاسُ، فهو مَوضِعُ مآبِهم[4]، وفي معنى قول اللّه تعالى: ﴿وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: 189]، قيل: إنّه يعني النّساء لا يؤتين من أدبارهن، وقيل: هو مثلٌ مضروبٌ: أي ائتوا البرّ من وجهه، وفيه أقوال أخرى[5].

6) ﴿سَبِيلًا﴾: السَّبيلُ: هو الطَّريقُ المُوصِلُ، سواء أكان سهلًا أم صعبًا، ويذكَّرُ ويؤنَّثُ، وهو بهذا المعنى في كلِّ القرآن، وإنَّما يختلفُ المُرادُ به بحسب السِّياق، فيأتي بمعنى الطَّريق المادّيّ، وبمعنى الطَّريق المعنويِّ مجازًا، كما في الآية، وابنُ السَّبيل هو المسافرُ، جُعِلَ ابنَ الطَّريق لِملازمتِه إيَّاه[6]، والسّبيل: يذكّر ويؤنّث، قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ [يوسف:

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وفى)، يُنظر: الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/530.
(2) "قرئت الآية بالبناء للمعلوم، على توجيه أن: (توفّى) بمعنى استوفى أجله، ومجيء: (تفعَّل) بمعنى: (استفعل)، منصوص عليه في كتب النّحاة، وهو ما دعا مجمع اللّغة المصريّ إلى قبول هذا التّعبير"، ينظر: أحمد مختار عمر، معجم الصّواب اللّغويّ: (وفي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مسك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بيت).
(5) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (البَيْت).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبل).

108] فأنّث، وقال: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146] فذُكّر[1]، قال ابن السّكّيت: "والجمع على التّأنيث سُبُولٌ، كما قالوا: عُنُوقٌ، وعلى التّذكير سُبُلٌ وسُبْلٌ"[2].

7) ﴿فَأَعْرِضُواْ﴾: أَصل الكلمة من العَرضِ، وتَرجِعُ معانيه المُتَنوّعة إلى أَصلٍ واحدٍ، وهو العَرضُ الَّذي يُخالِفُ الطُّولَ، وإذا عُدِّيَ الفعلُ بـ (عن) أَفادَ الانصرافَ عن الشَّيء بالقلب، وتَخَطّيه بالبَدن عَرْضًا، فإذا قِيل: أَعرَضَ عنّي، فمعناه: ولّى مُبديًا عَرضَهُ، ومنه الإعراضُ في الآية بمعنى تولّي الشّيء عرضك، أي جانبك، ولا تقبل عليه[3]، وأعرض عنه: أي أضرب، قال الله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ﴾ [يوسف: 29]، وأعرض بوجهه: أي مال، قال الله تعالى: ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ ٢٣﴾ [آل عمران: 23][4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عقوبة أصحاب الفواحش الزّناة، وحكمة الله في التّدرّج في تشريع العقوبات

جاءَت هاتان الآيتان لبيان ما على النّساء من واجبِ العفَّةِ وصون العِرضِ عن الفحشاء، وأنّه لا بدّ من التّثبت بشهادة أربعة عدول من المؤمنين، فإذا ثبت عليهنّ ذلك بيقين، حبسن في البيوت عقوبة لهنّ، ومحافظة عليهنّ من الانزلاق في مهاوي الخزي والرّذيلة، حتّى يتوفاهنّ الموت، أو يجعل الله لهنّ مسلكا آخرللحياة الطّاهرة المستقيمة، بالتّوبة النّصوح، والزّواج الشّرعيّ المحصّن، وأتبع السّياق ذلك بإيضاح العقوبة الّتي تسلّط على الزّاني والزّانية غير المحصنين، بالتّأديب والتّوبيخ والضّرب، إلّا أن يتوبا عن غيّهما، ويقلعا عن الموبقات، فلا يعيّران، ولا يذكّران بما فات، لأنّ الله توّابٌ رحيمٌ، يعفو للعاصين عن السّيّئات، وقد كان ذلك موجودا

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (سبل).
(2) الفيوميّ، المصباح: (سبل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عرض)، وابن الهائم، التّبيان، ص: 291.
(4) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (الإعراض).

في الحالتين في بداية الإسلام، ثمّ نسخه الله بالجلد للأبكار، والرّجم للمحصنين والمحصنات[1]، على الرّأي القائل بأنّ الفاحشة المقصودة في الآيتين هي الزّنا[2]، وهو الأظهر والأشهر.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ النِّسَاءِ عَلَى الرِّجَالِ:

الْفَاحِشَةُ فِي الرِّجَالِ عَظِيمَةٌ مِنَ الْعَظَائِمِ، وَهِيَ فِي النِّسَاءِ أَعْظَمُ

قُدِّمَ ذكرُ من يأتِي الفاحشة من النِّساءَ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ على من يأتيهَا من الرِّجالِ في قوله تعالى بعدُ: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَآۖ﴾، لنُكتَتَيْن:

أُولاهُمَا: أنَّ الفسادَ في النِّساءِ أعظَمُ والفِتْنَةَ بهنَّ أكبَرُ، ولذا قُدِّمَ الزَّانيةُ على الزَّاني في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾ [النّور: 2].

والأخرَى: أنَّ في إتيانِ النِّساء الفاحشةَ إدخالًا على الرِّجالِ مَنْ يرثُهم مِنْ غيرِ أن يكونوا مستحقِّين، ولذا جاءت هذه الآياتُ بعد آياتِ الميراث.

ولهذا قُدِّمَ ذِكْرُهُنَّ اهتمامًا بزَجْرِهِنَّ[3].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْجَمْعِ ﴿وَٱلَّٰتِي﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾:

كَثْرَةُ الْفَسَادِ الصَّادِرِ مِنَ النِّسَاءِ

﴿وَٱلَّٰتِي﴾ من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ جمعٌ لـ (التِي)، وهو اسمٌ موصولٌ، وأُوثِرَ لفظُ الجمع ﴿وَٱلَّٰتِي﴾ دون المفرد بأن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (والتي تأتي الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليها)؛ للإيماءِ إلى كثرتِهنَّ، وكثرة الفسادِ الصَّادِرِ منْهُنَّ[4].

(1) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 4/289.
(2) في الآيتين رأيان: أحدهما للجمهور، يقول بأنّ الفاحشة هي الزّنا، في المحصنات المتزوّجات من النّساء، ثمّ في الأبكار، والآيتان منسوختان بما ورد في سورة النّور من الرّجم للفئة الأولى، والجلد للفئة الثّانية، ورد عن مجاهد: أنّ الآية الأولى في السّحاق بين النّساء، والثّانية في اللّواط بين الرّجال، وعلى الرّأي الثّاني، فلا نسخ "، ينظر: الحجازيّ، التّفسير الواضح: 3/348.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 5/216.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 5/216.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِفِعْلِ الْإِتْيَانِ ﴿يَأۡتِينَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾:

الْمُقْدِمُ عَلَى الْمُحَرَّمَاتِ مُقْدِمٌ عَلَى الْعُقُوبَاتِ نَفْسِهَا

جاء التَّعبير بفعل الإتيان في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾، لأنَّ الإقدام على الفاحشةِ - وهي الزِّنا - لمَّا كان لا يقعُ إلَّا بِمقدّماتٍ مُمَهِّداتٍ له، فكأنَّ فاعلَ الفاحشةِ هُوَ الّذي يذهبُ إليهَا بِنَفْسِه، ويختارُها بطبعِهِ[1]، وليست هي الّتي تأتيه وتتعرَّضُ لَهُ.

كما أنَّ التَّعبيرَ بالإتيان يُفيدُ أنَّهُ هو الّذي اختارَ العقوبةَ لاختياره الفاحشةَ، لأنَّ الْمُقْدِمَ على جريمةٍ تترَتَّب عليها عقوبةٌ، هو في الحقيقة مُقْدِمٌ على العقوبةِ نفسِهَا.

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾:

السَّيْرُ عَلَى طَرِيقِ الْفَاحِشَةِ مُوصِلٌ إِلَيْهَا

في قَوْلِ اللّهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ مجازٌ مرسَلٌ بعلاقةِ السَّبَبِيَّةِ؛ إذْ أُطلِقَ السَّبَبُ وهو الإتيانُ، وأُريد المسبَّب وهو الفعلُ، ونُكتَتُهُ: للتَّنبيه إلى أنَّ السَّيرَ على طريق الفاحِشَةِ مُوصلٌ إليها.

نُكْتَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾:

إِبْرَازُ الْمَعَانِي الْعَقْلِيَّةِ فِي قَالَبِ الصُّوَرِ الْمَحْسُوسَةِ أَدْعَى لِإِدْرَاكِ حَقَائِقِهَا

يحتَمِلُ أن يكون قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ من بابِ الاستعارةِ؛ وذلك أنَّ أصلَ الإتيانِ: المَجيءُ إلى شيءٍ، يُقال: أتيتُ فلانًا، أي: جئتُهُ، فإذا تعلّق الإتيانُ بالْحَدَث؛ دلَّ على فِعْلِ الشَّيء وتَحْصيله، كقولهم: أتيتُ العمرةَ، أي: فعلتُها، فاستُعير هنا الإتيانُ لفعل شَيءٍ؛ إشعارًا بأنَّ الأَمرَ مقصودٌ وقد سبقَهُ عَزمٌ على الفِعْلِ؛ لأَنَّ فاعلَ شَيءٍ عن قَصدٍ يُشبه السَّائرَ إلى مكانٍ حتَّى يَصِلَه[2]، ففي قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، وفي ذلك تصويرٌ للمعاني العقليَّةِ وإبرازٌ لها في صورة المحسوسِ، وذلك أدعَى لإدراكِ حقيقتِهَا، والتَّنفيرِ مِنْهَا.

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 4/205.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/270.

تَـأْدِيـبُ اللـهِ تَـعَـالَى عِـبَـادَهُ لِانْتِقَاءِ الْأَلْفَاظِ الـتِي يُـعَـبِّرُ بِهَا عَنِ المَعَانِي

دِلَالَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾:

يعبِّر اللّه ﷻ عنِ المعاني الّتي لا تألفها النّفس الكريمَةُ بعباراتٍ تَسْتُرُها، فتكون الكناية بدلًا مِنَ التّصريح، وهذا مِن تأديب اللّه تعالَى لعبادِهِ في التَّعبير[1].

واللَّامُ في ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ لِلْعَهْد العلميِّ[2]، وهو الواردُ في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾ [الإسراء: 32]، فتكونُ الفاحشةُ كنايةً عن الزِّنا، وهو إجماعُ المفسّرين[3]، والكنايةُ هنا أبلغُ مِن التَّصريح؛ لِمَا في التَّصريح مِنَ السُّوء، والمقامُ مقامُ سَتْرٍ، كما أنّ لفظَ ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ يوحي بالقبح والشَّناعة، فتأثيرُه النَّفسيُّ في الاجتناب أكثرُ من لفظ الزِّنا.

ارْتِكَابُ الْكَبَائِرِ غَـيْرُ مُـوجِـبٍ لِـلْـخُـرُوجِ مِـنَ الْإِسْلَامِ

دِلَالَةُ الْإِضَافَةِ فِي ﴿نِّسَآئِكُمۡ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾:

جاءتِ الإضافةُ في قوله: ﴿نِّسَآئِكُمۡ﴾ لِمعنى التَّخصيص، بمعنى إضافةِ نسبةِ الّذين فعلوا الفاحشةَ إلى خصوصِ المسلمينَ؛ للإعلام بأنّ الحكمَ يتعلّقُ بالنِّساء المُسلمات دونَ غيرِهم؛ لأنَّ الكافرةَ قد تكون من نساء المسلمين بنسَبٍ، ولا يلحقُها هذا الحكمُ، ولمّا كان ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ متعلّقا بمحذوفٍ هُوَ حالٌ مِنَ الفاعل في ﴿يَأۡتِينَ﴾، والمعنى: "يَفعَلنَها حالَ كَونِهنَّ من نسائِكُم"[4]؛ أشعرَ أنَّهم لم يَخرُجُوا من دائرة الإسلام بهذا الفعلِ، كما أشارَ إلى وجوب المحافظةِ عَلَيْهِم، وإنِ ارْتَكَبُوا هذا الفعلَ، فهُم نساؤُكُم.

خُرُوجُ ضَمَائِرِ الْخِطَابِ عَنْ أَصْلِهَا فِي إِرَادَةِ الْمُعَيَّنِ:

جاءَ الخطابُ على خِلَاف مُقتضى الظَّاهر، فإنَّ ضميرَ الخطاب

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1609.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/21.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/528.
(4) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 2/21، ورضا، تفسير المنار: 4/356.

خِطَابُ الشَّرْعِ يَعُمُّ جَمِيعَ الْعِبَادِ لَا خُصُوصَ الْحَاضِرِينَ وَقْتَ النُّزُولِ

يكونُ في الأصلِ لِمُعيَّن، وقد تُرِكَ هُنا إرادةُ المعيَّنِ - في قوله: ﴿نِّسَآئِكُمْ﴾ و﴿مِّنكُمْۖ﴾، قصدًا لمَعنى الحَمْلِ على عمُوم المسلمينَ[1]، ولتعميمِ المخاطَبينَ في كلِّ الأَزمان، ونُكْتَةُ التَّعبير بالخطاب: مَا في الخطاب من إقبالٍ لِلْمَدْعوِّ قصدًا إلى المبادرة لامتثال الأوامر والانتهاء عنِ الزَّواجر.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ﴾:

الْمُبَادَرَةُ إِلَى الشَّهَادَةِ حَسْمًا لِلَّغَطِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ

جاءتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْۖ﴾ للدَّلالة على سَبَبيَّةِ ما في حَيِّز الصِّلة لِلحُكم[2]، فيكونُ سببُ طلبِ الاستشهادِ هو إتيانُ الفاحشة، ولمّا كانتِ الفاءُ للتَّرتيب والتَّعقيب في الأصل؛ دلّت ههنا على طلب المبادرة من غيرِ تراخٍ إلى طلب شهادة أربعةِ رجالٍ عدولٍ من المسلمينَ؛ كي لا يَكثُرَ اللَّغطُ والكلامُ السَّيِّءُ بينَ المسلمينَ، وحَسمًا للموضُوع.

سَبَبُ حَذْفِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَرْبَعَةً مِّنكُمْۖ﴾:

مُنَافَاةُ الرُّجُولَةِ لِذِكْرِ الْفَاحِشَةِ مَعَهَا

قول اللّه تعالى: ﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْۖ﴾ فيه حذْفٌ للمعدودِ - وهو مضافٌ إليه - ، والتَّقديرُ: أربعة رجالٍ مِنْكُم؛ لأنّ العددَ مؤنَّثٌ، فتجبُ المخالفةُ، وفي هذا الحذفِ إشارةٌ إلى منافاة ذِكْرِ الرُّجولة في سِيَاقِ فعل الفاحشة؛ تكريمًا للرُّجولة، كما أنَّ مجيءَ ضمير المُخاطَب لجماعة الذّكور في ﴿مِّنكُمْۖ﴾ إشارة إلى أنَّهم يكونونَ من الرِّجال.

دِلَالَةُ التَّقْدِيمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ﴾:

ورد الأسلوبُ الشّرطيُّ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/270.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/154.

أَهَمِّيَّةُ الشَّهَادَةِ فِي صِيَانَةِ الْأَعْرَاضِ مِنَ الطَّعْنِ بِغَيْرِ مُوجِبٍ

﴿فِى ٱلْبُيُوتِ﴾، وهو مِن روائع أساليب نَظْم الشَّرط في القرآن الكريم؛ فالفاء في قولِه: ﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ﴾ هِيَ الفاءُ المُشْبِهَةُ فاءَ الجوابِ الدّالّةَ على أنّ الكلامَ على تقدير وجودِ شرطٍ وجوابٍ، والتَّقديرُ: (إن يأتينَ الفاحشَةَ؛ فَاسْتَشْهِدُوا).

ودلّتِ المبالغة في ﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ﴾ دُونَ (فأشهدوا) على التّقصّي والتّثبّت من وقوع الفاحشة.

والفَاءُ في قولِه: ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ تَفريعيَّةٌ فهي مُضَمَّنَةٌ معنى الشَّرط؛ لأَنَّ الاستشهادَ المُتقدّمَ سببٌ للشَّهادة، والفاءُ في قولِه: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ جَزائيَّةٌ[1]، فلمّا كان الجزاءُ مبنيًّا على الشَّرط المُقدَّر وما تفرَّعَ منه أَخَّرهُ، فصارَ في الصُّورة جزاءً ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾، وهوفي الحقيقة جزاءٌ مبنيٌّ على مجموع الجملتين قبلَه، والمعنى (إن يأتينَ بفاحشةٍ وشهدوا عليهنَّ بعدَ طلبِ الشَّهادةِ؛ فأَمسكوهنَّ في البيوت)، ولولا قَصدُ الاهتمام بإِعداد الشَّهادة قبل الحُكم بالحَبسِ في البُيوت لقيلَ: واللّاتي يأْتِينَ الفاحشةَ مِن نسائِكم فأَمسكوهُنَّ في البيوت إِن شَهِدَ عليهنَّ أَربَعَة منكم؛ فقدّمَ وأَخَّرَ لإفادة أهمّيَّة الشَّهادة قبلَ الحكم عليهنَّ صيانةً للطَّعْنِ بغير موجِبٍ، وحِفظًا لِأَعْرَاض النِّساءِ المُسْلِمَات.

دِلَالَةُ تَعْلِيقِ الْإِمْسَاكِ فِي الْبُيُوتِ بِوُقُوعِ الشَّرْطِ:

النَّهْيُ عَنْ إِمْسَاكِ النِّسَاءِ فِي الْبُيُوتِ لِمَحْضِ التَّحَكُّمِ

جاء وجوبُ الإمساك في البيوت بما ذُكِرَ في حَيّز الشَّرط في قولِه سبحانه: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾؛ لأنّ إتيانَ النِّساءِ الفاحشةَ هو الَّذي سَبَّبَ إِمساكَهُنَّ في البيوت، وإن كان قد بُنِيَ نَظمُ الكلامِ على جَعلِ ﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ هو الخبَر، لكنَّهُ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/277.

خَبَرٌ صُوريٌّ، وإلَّا فإنَّ الخَبَرَ هو ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾، لكنَّه جيءَ به جوابًا لشرطٍ هُوَ مُتَفَرِّعٌ على ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾[1]، فالشَّرْطُ هُوَ مجموع إتيان الفاحشة والشّهادة عليهنَّ، وجزَاؤُهُ: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾، وتعليقُ الجوابِ بوجود الشَّرط قَيدٌ له، "وفي هذا دليلٌ على تَحريم إمساكِهنَّ في البيوت، ومَنعِهنَّ الخروجَ عند الحاجة إليه في غير هذه الحالة لمُجَرَّد الغيرَة، أو مَحضِ التَّحَكُّمِ مِنَ الرِّجال، واتّباعهم لأَهوائِهم في ذلك كما يَفعَلُهُ بَعضُهم"[2].

نُكْتَةُ إِيثَارِ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾ دُونَ (فَاحْبِسُوهُنَّ):

الإِمْسَاكُ فِي الْبُيُوتِ يُرَادُ بِهِ الحِفْظُ وَالرِّعَايَةُ وَالتَّهْذِيبُ

جاء التَّعبيرُ بالإمساك دون الحَبس الّذي عبّرَ به المفَسِّرونَ[3]؛ للإشارة إلى أنّ بقاءَهنّ في البيوت على معنى الحفظ لَهُنَّ والرّعاية بالتَّهذيبِ والعطفِ، فالإمساكُ هو الحفظُ في موضعٍ مُحرزٍ، وتقييدُ الإمساكِ بأن يكونَ في البيوت؛ لِمَا في دِلَالَة البَيْتِ مِن معنى السَّكن والاستقرار النَّفسيِّ، وفي ذلك صيانةٌ لهنَّ عَن مِثْلِ مَا جرى عليهنَّ بسبب الخروج مِنَ البيوت والتَّعرُّض للرِّجال[4]، كما أنّ البيوتَ ليسَت مكانًا للحَبس، فلو عبّرَ بالحبسِ لَفاتَ معنى الحفظِ والرِّعايةِ المَقصودَين مِنَ الإمساك في البيوت، وتعبيرُ من عبَّرَ بِالْحَبْسِ تفسيرًا لِلَفْظِ (الإمساكِ) إنَّما هو باعْتِبَارِ أنَّ الإمسَاكَ في البيوت سِجنٌ لهنّ، فأُخِذَ الحبسُ مِنْ هذَا المَعْنَى.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿حَتَّىٰ﴾ دُونَ (إِلَى) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾:

أُوثِرَ التَّعبيرُ بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ الّتي لانتهاء الغاية وإفادة التَّدريج في قوله تعالى: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾؛ لأنَّ الفعلَ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/277.
(2) رضا، تفسير المنار: 4/357، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 4/206.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 8/73، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/528.
(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/487، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1610.

التَّـدْرِيـجُ فِي اسْتِيفَاءِ المَوْتِ: عُـقُـوبَـةٌ فَـوْقَ عُقُوبَةِ الإِمْسَاكِ فِي البُيُوتِ

المُتَعدّيَ بِها الغرضُ فيه أن ينقضيَ شيئًا فَشَيْئًا، حتَّى يأتيَ عليه إلى غايتِه[1]، و(إلى) ليست كذلك؛ فأفادَ التَّعبيرُ بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ أنَّ انقضاءَ الإمساك في البيوت يكونُ شيئًا فشيئًا تدريجًا حتَّى يتوفَّاهُنَّ الموتُ أو يجعلَ اللّه تعالى لهنّ سبيلًا؛ للإشعار بصُعُوبَةِ انقضاء مدَّة الحياة واستيفائها شيئًا فشيئًا بانتظار الموتِ أو الحُكْم مِنَ اللّه سبحانه، "والعربُ تَتَخَيَّلُ العُمرَ مُجَزَّءًا، فالأَيَّامُ والزَّمانُ والموتُ يَستَخلِصُهُ مِن صاحِبِهِ مُنَجَّمًا إلى أَن تَتَوَفَّاه"[2]؛ لِيكونَ هذا التَّدريجُ في استيفاء الموت عقوبةً أخرى تُضافُ إلى عقوبة الإمساك في البيوت حتَّى يتوفّاهُنّ الموتُ، أو يجعلَ اللّه تعالى لهنَّ طريقًا واضحًا لِلْخُرُوجِ مِن ذلك الإمساك بما يحكمُ اللّه به مِنَ العقوبة لهنَّ.

دِلَالَةُ المَجَازِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾:

مِـنْ طَـرَائِـقِ الـتَّـخْـوِيـفِ وَالـتَّرْهِـيـبِ: التَّذْكِيرُ بِالمَوْتِ

يَصِحُّ أن يُحملَ معنى: ﴿يَتَوَفَّىٰهُنَّ﴾ على المعنى اللّغويِّ بمعنى الاستيفاء، والمعنى (حتَّى يَستوفيَ أرواحَهُنّ الموتُ أو يَستوفيَ آجالَهُنّ الموتُ)، ويكون استعارةً مكنيَّةً تبعيَّةً؛ إذ شُبِّهَ الموتُ بالشَّخص الّذي يأخذُ حقّهُ كاملًا[3]، ثُمَّ اشتُقَّ مِنْهُ الفعلُ (يَتَوفَّى)؛ لإفادة استيفاء مدّةِ حياتِهنَّ بالموتِ.

ويَصِحُّ أن يكون بمعناه المعهودِ، وهو الموتُ، ولابدَّ حينئذٍ من تقدير؛ إذْ لا يَصِحُّ أن يكون المعنى (حتَّى يُميتَهُنَّ الموتُ)، ويكون التَّقديرُ: (حتَّى تتوفّاهنّ ملائكةُ الموتِ)؛ لِيكونَ مَجازًا من إسناد ما للفاعل الحقيقيِّ وهو الملائكةُ إلى أثرِ فعلِه وهو الموتُ[4]، فأسندَ التَّوفي إلى الموت، وإنَّما هو إلى ملائكة الموت، وجاء على طريقة المجاز؛ لقصدِ التّخويفِ والتَّرهيبِ باستشعار أنّ الموتَ هو الّذي يَتوفّاهُم.

(1) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 544.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/271.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/477.

(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/488، والآلوسي، روح المعاني: 2/444.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ عَلَى الْمَفْعُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾:

تَشْرِيعُ الْأَحْكَامِ إِنَّمَا هُوَ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِ الْعِبَادِ

قُدِّمَ ﴿لَهُنَّ﴾ على المفعولِ بِهِ ﴿سَبِيلًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾؛ اهتمامًا بأمرِ أولئك النِّساءِ، وفي هذا التَّقديم مراعاةٌ للتَّناسُبِ الصَّوتيِّ الذي عليه أواخرُ الآياتِ في هذه السُّورة؛ إذ لو وردَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (أو يجعل الله سبيلًا لهنَّ)؛ لفاتَ هذا التَّناسُبُ.

دِلَالَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾:

بَيَانُ اللهِ تَعَالَى لِلْأَحْكَامِ: بَيَانٌ لَا لَبْسَ فِيهِ

جاء التَّعبير عن الحُكْمِ المشتَمِلِ على العقوبةِ بالسَّبيلِ في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، والسَّبيلُ في الأصلِ: الطَّريقُ الجادَّة السَّالكةُ الواضحَةُ، فإطلاقُهُ على الحكم استعارةٌ تصريحيَّةٌ؛ حيثُ شُبِّهَ الحكمُ بالسَّبيلِ بجامع الوضوحِ والبيانِ في كُلٍّ، فَحُذف المشبَّهُ وصُرِّحَ بالمشبَّهِ به[1]، وفي هذا إشعَارٌ بأنَّ الحُكْمَ المُرْتَقَبَ ظاهرٌ بيِّنٌ لا لَبْسَ فيه.

وهذا السَّبيلُ غيرُ الإمساكِ في البيوت؛ لِدلالة ﴿أَوْ﴾ الّتي تقتضي المغايرةَ بين المعطوفَين، ويَحْتَمل أن تكون ﴿أَوْ﴾ بِمَعْنَى: إلى أَنْ، والمعنى: فأمسكوهُنَّ في البيوت حتَّى يتوفَّاهُنَّ الموتُ إلى أن يجعلَ اللّٰه لهنَّ سبيلًا[2]، وعلى كلا الوجهينِ فإنَّ الكلامَ مُقْتَضٍ للمغايرَةِ بين الحُكمَين.

وليسَ في كلمة ﴿سَبِيلًا﴾ دلالةٌ على كونِه أخفَّ من الإمساك في البيوت، كما أنَّ تنكيرَ ﴿سَبِيلًا﴾ دالٌّ على الإبهام المُقتضِي للْإِجْمَال[3]؛ إمعانًا في التَّخويف والتَّرهيب، لئلّا يعُودُوا إلى الفاحشة، ولا سيّما مع تعليق جَعْلِ السَّبيل على وصف الألوهيّة الّتي تدلُّ على علوِّه سبحانَه وتفرُّدِه بالتَّشريعِ.

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/155، وابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/271.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/15.

(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 4/206.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالتَّثْنِيَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ بَعْدَ التَّعْبِيرِ بِالْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ﴾:

مِنْ أَسَالِيبِ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ: التَّفَنُّنُ فِي التَّعْبِيرِ وَالتَّصَرُّفُ فِيهِ مَعَ أَمْنِ اللَّبْسِ

وردَ التَّعبير بالمثنَّى في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ بعدَ ورود التَّعبير بالجَمع في قولِه: ﴿وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾؛ تفنُّنًا في الأسلوبِ وتنويعًا له؛ فإنَّ ذلك مَعهودٌ في الكلام البليغ معَ الأَمن مِنَ الاشتباه[1].

والتَّعميم حاصلٌ بالأسلوبَيْن معًا؛ فأمَّا عمومُهُ بضمير الجمع فظاهرٌ في قوله: ﴿وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾، وأمَّا عمومُهُ في ضمير التَّثنية ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾؛ فلأنَّ المرادَ صنفانِ من الرِّجالِ، وهم المُحصَنُونَ وغيرُ المُحصَنِينَ، وإنَّما أُشْعِرَ بالصِّنْفَيْنِ؛ تحرُّزًا من التماسِ العذرِ لغيرِ المُحصَنِينَ.

ويجوزُ أن يكونَ قولِه: ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ مرادًا به: صنفُ الرِّجالِ وصنفُ النِّساء، وعُبِّر بالاسم الموصول الدَّال على المثنَّى المذكَّر مِنْ باب التَّغليب، "فعلَى الوَجْهِ الأوَّل تكونُ الآيةُ قد جَعَلت للنِّساء عقوبةً واحدةً على الزِّنا، وهي عقوبةُ الحَبْسِ في البيوت، وللرِّجال عقوبةٌ على الزِّنا، هي الأذى، سواء أكانوا محصَنِين بزوجَاتٍ أم غيرَ مُحْصَنِين، وهم الْأَعْزَبُونَ، وعلى الوجه الثَّاني تكونُ قد جَعَلَت للنِّساء عقُوبَتَيْن: عقوبةً خاصَّة بهنَّ وهي الحبس، وعقوبةً لهُنَّ كعقوبة الرِّجال وهي الأذى، فيكون الحبسُ لهُنَّ مع عقوبة الأذى، وعلى كِلا الوَجْهَيْن يُسْتَفَادُ استواءُ المُحْصَن وغيرِ المُحْصَن مِنَ الصِّنْفَيْن في كِلْتَا العقوبتين، فأمَّا الرجال فبِدلَالَة تَثْنِيَة اسم الموصول المرادِ بها صِنْفَان اثنان، وأمَّا النِّساء فبِدلَالَة عمُوم صِيغَةِ ﴿نِّسَآئِكُمۡ﴾"[2].

---

(1) رضا، تفسير المنار: 4/360.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/272.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ عَنِ الْفَاحِشَةِ بِالِاسْمِ الْمُضْمَرِ دُونَ الِاسْمِ الظَّاهِرِ:

تَعْلِيمُ اللهِ تَعَالَى عِبَادَهُ الْأَدَبَ فِي الْكَلَامِ؛ وَذَلِكَ بِسُلُوكِ مَسْلَكِ الْكِنَايَةِ عَمَّا يُسْتَقْبَحُ ذِكْرُهُ

جاء التَّعبيرُ عن الفاحشةِ بالاسم المُضمرِ في قولِه: ﴿يَأۡتِيَٰنِهَا﴾، دون الاسم الظَّاهرِ؛ إذْ لم يَرِدْ: واللَّذانِ يأتيانِ الفاحشةَ، وكان التَّصريحُ باسم الفاحشةِ أقربَ لمقتضى الظَّاهرِ؛ لطول الفصلِ بكلامٍ كثيرٍ، إلَّا أنَّ التَّعبير بالضَّمير أنسبُ؛ لمَا في ذِكْرِ الفاحشَةِ مِنَ القُبحِ، فلا تُذكَرُ إلَّا في مَوضِع الحاجة، ولمّا كان المقامُ مقامَ سَتْرٍ، وهُو ما يُنافي الظُّهورَ؛ اكتُفِيَ بالضَّميرِ، وكُنِّيَ به عنِ الاسم الظَّاهر.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾:

تَعْجِيلُ الْعُقُوبَةِ عَلَى الْجَرَائِمِ أَقْوَى فِي الزَّجْرِ عَنْهَا

أفادتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ وجوبَ إيقاعِ الأذيَّةِ عليهِمَا على التَّعقيب مِن غَيْرِ مُهلَة؛ تَعجيلًا للزَّجر، ولئلَّا لا يضْعُفَ الرَّدْعُ عند التَّراخِي في العقوبة، وأفادتِ الفاء تضمّن الجملةِ معنى الشّرط، فالإذايةُ مفرَّعةٌ على إتيانِهما الفاحشةَ.

سِرُّ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ فِعْلِ الْإِيذَاءِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾:

الزِّنَا مِنْ أَقْبَحِ الْجَرَائِمِ شُؤْمًا عَلَى الْمُجْتَمَعَاتِ

لَم تُقيَّدِ الأذِيَّةُ بنوعٍ مُعيَّنٍ؛ إذْ لم يَرِد النَّظْمُ القرآنيُّ: فآذوهما بالضّربِ، أو بالقولِ، أو بأيِّ نوعٍ مخصوصٍ مِن أنواع الأذيَّة؛ وذلك لقصدِ إفادةِ الإطلاقِ المُقتضِي عُمُومَ أنواعِ الأذيَّة؛ لاستحقاقهما ذلكَ بسببِ إتيانِهِمَا جُرْمًا مِن أقبحِ الجرائمِ شُؤمًا على المجتمعاتِ.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَابَا﴾:

عُقُوبَةُ آتِي الْفَاحِشَةِ قَدْ يَكُونُ سَبَبًا لِتَوْبَتِهِ

أفادتِ الفاءُ العاطفةُ بينَ الجملِ ترتّبَ المسبَّبِ على ما تقدَّمَها مِنَ السَّببِ، فقد رتّبَ توقُّعَ توبتِهما عمّا فَعلا من الفاحشة وإصلاحِهما لِمَا وقعا فيه من الفساد على ما لَقِيَا مِن زواجر الأذيّة وقوارع التّوبيخ، فكان الإيذاءُ سببًا للتَّوبة[1]، وفي هذا إعلامٌ بأنَّ تشريعَ العقوباتِ لا يُرادُ به مجرَّدُ الإيذاءِ العارِي عمَّا يُرجَى من ورائِهَا.

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/155، والقونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاويّ: 7/74.

سِرُّ حَذْفِ الْمُتَعَلَّقِ مِنْ ﴿فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا﴾:

إِذَا كَانَ ضَرَرُ الْمَعْصِيَةِ مُتَعَدِّيًا؛ وَجَبَ عَلَى الْعَاصِي إِصْلَاحُ مَا أَفْسَدَهُ بِمَعْصِيَتِهِ

حُذِفَ مِنَ الفعلِ ﴿تَابَا﴾ متعلّقاهُ، أحدهما: (إلَى اللّهِ)، والتَّقدير: فإن تابَا إلى اللّهِ؛ وحُذِفَ ذلك لِلْعِلْمِ به، فإنَّ التَّوبةَ من جملة الأعمالِ الصَّالحةِ التي لا يتوجَّهُ العبدُ بها إلى أحدٍ إلَّا إلى اللّهِ تعالَى، والآخرُ: الأمر الذي تِيبَ مِنْهُ، والتَّقدير: فإن تابَا ممَّا فعلاهُ من الفاحشَةِ، وحُذِفَ ذلك للعِلْم به أيضًا، ولئلَّا يُصرَّحَ بذِكْرِ لَفْظِ الفاحشَةِ؛ لشناعَةِ حقيقَتِهَا.

وحُذِفَ متعلّقُ الفعلِ ﴿وَأَصۡلَحَا﴾ لإرادةِ التَّعميم؛ فإنَّ حذف المتعلّق مؤذِنٌ بذلك، فأفادَ هذا الحذفُ عمومَ الإصلاح؛ لِيشملَ إصلاحَ نفسِهما وإصلاحَ ما أفسداه في المجتمع، وقد أشار إلى هذه قصْدَ العموم ابنُ عطيَّةَ؛ إذْ قال: "فأمرَ اللّه تعالى المُؤمنينَ، إذا تابَ الزَّانيان وأَصلحَا في سائر أَعمالهما أن يُكفَّ عَنْهُمَا الأَذى"[1].

بلاغةُ تعليق جواب الشَّرط على مجموع الشَّرط:

الإِعْـــرَاضُ عَنْ أَصْحَابِ الْفَوَاحِشِ بَعْدَ التَّوْبَةِ وَالْإِصْلَاحِ

جاء الجزاءُ (فَأَعرِضُوا عنهما) مُتعلّقًا بجملتي الشَّرط (تَابا وَأَصلَحَا)، فالجزاءُ الّذي هو وجوبُ الإعراضِ عنهما أَمرٌ يَتعلّق إيجابُه بمجموعِ ما حَصلَ منَ الجملتَين، فليسَ هو للتَّوبة على الانفراد ولا للإصلاح على الإطلاق، بل هو لحصول التَّوبة والإصلاح كليهما.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ﴾ دُونَ (فَتَوَلَّوا عَنْهُمَا):

وُجُوبُ الْإِعْرَاضِ عَنِ التَّائِبِ وَتَرْكِ تَعْنِيفِهِ عَمَّا تَابَ مِنْهُ

جاءَ التَّعبير بالإعراضِ في قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ﴾ دُونَ (تَوَلَّوْا عَنْهُمَا)؛ لِلْإِشْعَارِ بوجُوبِ الانصرافِ عَنْهُما بالكلّيّة؛ لأنّ المُتَوَلِّي هو الّذي يُطْمَعُ في رجوعِه؛ لأَنَّ تولّيَه قد يكونُ لحاجةٍ تدعُو إلى الانصراف مع إمكانيَّةِ الرَّجعةِ، والمُعرِضُ لا يُطمعُ في رجوعِه بوجهٍ؛ لأَنَّ معنى الإعراض هو الانصرافُ عنِ الشَّيءِ بالقَلْبِ، وتخطّي

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/23.

البدَنِ له[1]، إذِ الإعراض بالبدن ليس بمُفيدٍ في تركِ الإيذاء؛ فآثرَ لفظَ الإعراضِ عِنْدَ الكفِّ؛ لِمَا في قوَّة الكلمة من الغضِّ مِنَ الزُّناة، وإن تابوا؛ فالإعراضُ هنا ليسَ أمرًا بهجرةٍ، بل هو مُتاركةُ معرِضٍ احتِقارًا لِلمَعصية المُتَقدِّمَة[2].

نِكَاتُ تَصْدِيرِ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ بِـ ﴿إِنَّ﴾:

سَعَةُ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ: مُطِيعِهِمْ وَعَاصِيهِمْ

أفادت ﴿إِنَّ﴾ في صدر آية التَّذييل في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ نكاتٍ:

أوَّلُهَا: إفادةُ ربط مضْمُون جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ بما قبلَها؛ لِتكونَ متآلفةً معها، متّحدةً بها، حتّى كأَنَّ ما قبلَها وما بعدَها قد أُفرغَا إفراغًا واحدًا، وقد سُبِكَ أحدُهما بالآخر، ولو أُسقطت ﴿إِنَّ﴾ انقطعَ الكلامُ ونبا عنِ الّذي سبقَه، وهذا الأسلوبُ كثيرٌ في القرآن[3].

ثَانِيهَا: الإشعارُ بأنَّ ما بعدَها جوابٌ عن سؤالٍ، فكأنَّ سائلًا سألَ: هل من توبةٍ للَّذين يفعلونَ هذا الفعلَ الشَّنيعَ؟ فكأنَّ المخاطَبَ ظنَّ أَن لا توبةَ لِمَن يفعلُ هذا الفعلَ الشَّنيعَ، فكانَ المَوضِعُ مَوضِعَ افتقارٍ إلى ﴿إِنَّ﴾[4]؛ لِتكونَ جوابًا عن هذا السُّؤال المُقدَّر من مخاطَبٍ غيرِ مُعيَّنٍ؛ لِيفيدَ أنَّ مِن حقِّ أيِّ مخاطَبٍ أن يسألَ هذا السُّؤالَ، وتقديرُ الجواب: نعم لَهُمْ توبةٌ؛ لأنَّ اللّه موصوفٌ بكونه تَوَّابًا رحيمًا، وعلى هذا يكون بين هذه الجملةِ وما قبلَهَا شبهُ كمالِ الاتِّصالِ، ولذا فُصِلَت بِتَرْكِ الواوِ في صدرِهَا.

ثالثُها: إفادةُ تأكيدِ وصفِ اللّه تعالى بالتَّوبة والرَّحمة، بعدَ تأكيدِ هذا الوصفِ بمجيئِهِ في جملة اسميَّةٍ دالّةٍ على الثُّبوت والاستمرار،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/358، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/248، والكفويّ، الكليّات، ص: 28.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/23، والقونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاويّ: 7/74.
(3) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 316.
(4) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 325.

فاجتمعَ تأكيدان لِمناسبة المقام، فإنَّ العقوباتِ المذكورةَ على فعل الفاحشة قد تُوهِمُ أن لا توبةَ لِفَاعِلِهَا، فناسبَ تأكيدَ الوصفِ للتَّحريضِ على الْإِقْبَالِ عَلَى اللّه تعالى والتَّوبةِ مِنْ ذلكَ الفِعْلِ.

رابعُهَا: إفادةُ تعليلِ الأمرِ بالإعراضِ عَمَّن يفعلُ الفاحشةَ[1]، وقد أفادَ التَّعليلُ بـ ﴿إِنَّ﴾ التَّرغيبَ في ترك الفِعْلِ المذكورِ، والتَّوبة إلى اللّه تعالى مِنْهُ.

دِلَالَةُ صِيغَةِ الْمُبَالَغَةِ فِي اسْمَي اللهِ تَعَالَى الْوَارِدَيْنِ فِي قَوْلِه: ﴿تَوَّابَا رَّحِيمًا﴾:

اللهُ تَعَالَى وَاسِعُ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ، كَثِيرُهُمَا

وردَ اسمَا اللّهِ تعالى: التَّوَّابُ والرَّحيم في قولِهِ سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابَا رَّحِيمًا﴾ بصيغةِ المبالغة؛ لإفادة أمرين:

أحدهما سعةُ توبتِه سبحانه ورحمتِه، وشمولُهما كُلَّ التّائبينَ.

والآخر: كثرةُ توبتِه ورحمتِه على عباده المؤمنين، وفي ذلكَ تَرْغيبٌ في توبةِ الْعَاصِينَ، وحثًّا على المبادرةِ إلَيها.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ اسْمِ اللهِ تَعَالَى (التَّوَّاب) عَلَى اسْمِهِ تَعَالَى (الرَّحِيم) فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابَا رَّحِيمًا﴾:

تَوْبَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادِ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ

لمّا كانَت توبةُ اللّهِ تعالَى على عبادِه الّذين يفعلونَ الفواحشَ الّتي أَمرَ باجتنابِها أمرًا عظيمًا؛ اقتضى أن يُعَقِّب التّوبة بالرّحمة؛ بيانًا لِسَعةِ رحمتِه بعبادِه المؤمنين، ولولا رحمةُ اللّهِ بهم لَمَا تابَ عليهم، كما أفاد التّعقيبُ أنَّ اللّه سيرحمُهُم بعدَ توبتِه عليهم، فتقديم اسم اللّه تعالى التَّواب على اسمه الرَّحيم هو من باب التَّخلية قبل التَّحلية.

---

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 2/155.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن
قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧
وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ
ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ
أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾ [النّساء: 17 - 18]

مُناسَبَةُ الآيَتيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

علاقة معاقبة أصحاب الفواحش، بالتّذكير بالتوبة وشروطها ومآلاتها

لَمَّا ذكر تعالى عقوبة الفحشاء للمحصنين بالزّواج، وغير المحصنين من العزّاب، وختمها بالتّقرير بأَنَّ التَّوبة مع الإِصلاح، تحمي صاحبها من العُقوبة في الدُّنيا، لأنّه تعالى توَّاب رحيم، وهو ما كان منصوصًا عليه في بداية التّشريع الّذي انتهى بتقنين الحدّ الشّرعيّ لكلّ حالة، عَقَّبَ ذلك ببيان شروطِ قَبول التَّوبة من العاصين الّذين يبادرون إلى المتاب، ويسارعون إلى الإياب، فيتوب الله عليهم بفضله، ويمحو سيّئاتهم بعفوه، وليست التّوبة للمتواكلين الّذين يخوضون في المعاصي، حتّى يداهمهم الموت، فيعلنون التّوبة عند الخوف من الممات، واليقين بالوفاة، فأولئك لهم سوء العقاب، وأليم العذاب.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾: هو عيبٌ أو نقصٌ من قُبحٍ أو فسادٍ أو مرضٍ يخالطُ ظاهرَ الشَّيء أو باطنَه، فهو اسمٌ جامعٌ للآفات والدَّاء، وكلُّ كلام أَو فعلٍ قبيح وشائن، هو سُوء، يُقال: رَجُلٌ أَسوَأُ، أَي: قَبيحٌ، وامرأَةٌ سَوآءُ، أَي: قَبيحةٌ، ولذلك سُمِّيَت السَّيِّئَةُ سَيِّئَةً، وسمِّيَت النَّارُ سُوأَى؛ لِقُبحِ مَنظرِها، والسَّيء نَعتٌ للذَّكَر من الأَعمال، والسَّيئة للأُنثى،

وكلُّ (سُوء) في القرآن هو الفعلُ القبيحُ[1]، والاسم السّوء، بالضّم، وقُرئ ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسُّوۡءِ﴾ [التّوبة: 98]، يعني الهزيمة والشّر، ومن فتح، فهو من المساءة، وتقول هذا رجل سوء بالإضافة، ثمّ تدخل عليه الألف واللّام، فتقول: هذا رجل السّوء، قال الفرزدق:

وَكُنْتَ كَذِئْبِ السُّوءِ لَمَّا رَأَى دَمًا *** بِصَاحِبِهِ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى الدَّمِ[2]

وفي تفسير الغريب لابن قتيبة قوله تعالى: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ٣٢﴾ [الإسراء: 32]، أي قبح هذا الفعل فعلا وطريقا، كما تقول: ساء هذا مذهبا، وهو منصوب على التّمييز، كما قال ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ٦٩﴾ [النّساء: 69][3]، والسُّوء في هذه الآية يعمُّ الكفرَ والمعاصي[4]، وقوله تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾، أي يقع منهم ما يسيء، من غير أن تُرَكس نفسه في السّيئات وتحيط بها[5].

2) ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: أصل الكلمة جَهِلَ، وتدلُّ الكلمةُ على معنى خلوِّ الباطن (ممَّا يفيدُ أو يُطلب) مع جفافٍ، ومنه ناقةٌ مجهولةٌ: لم تُحلَب قطّ، وأرضٌ مجهولةٌ: لا أعلامَ بها ولا جبالَ، ومنه الجهلُ الّذي هو نقيضُ العِلم؛ لأنَّ الجاهلَ خالي الذِّهن من المعلومات، وكلُّ شيءٍ جهلتَهُ بمعنى لم تعرفْهُ، والجَهالة: أن يَفعلَ فعلًا بغير علم[6]، والجَهالَةُ في الآية بمعنى فعلَ فِعلَ الجُهَّالِ أو جَهِلَ العقوبةَ[7]، "والجاهل يذكر تارة على سبيل الذّمّ، وهو الأكثر، وتارة لا على سبيله، نحو: ﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ﴾ [البقرة: 273]، أي من لا يعرف حالهم... قلت: والجهل على قسمين: بسيط ومركّب، فالبسيط: عدم العلم عمّا من شأنه أن يعلم، والمركّب: اعتقاد جازم غير مطابق للواقع، قاله ابن الكمال"[8].

3) ﴿حَضَرَ﴾: الكلمةُ تدلُّ على إيراد الشَّيءِ ووُرُودِه، ومُشاهَدَتِه، ومُعاينتِه، والإحضارُ بمعنى إيرادِه ومشاهدتِه عيانًا، والحَضَرُ خلافُ البدوِ؛ لورودهم حول المناهلِ فيجتمعونَ،

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوأ).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (سوء).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (سوأ).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/24.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1613.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهل).
(7) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/586.
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (جهل).

ويقيمونَ، والحضورُ اسمٌ لشهادةِ مكانٍ أو إنسانٍ أو غيرِه معَ معاينةٍ له[1]، ومعنى حضرَ الموتَ، هو وقتُ النَّزعِ ومُعاينة مَلَكِ الموت[2]، وفي استعمال لفظ ﴿حَضَرَ﴾ للدّلالة على وقوع الأجل بالقدر، إيحاءٌ بسلطان الموت الّذي يحضر في كلّ حين، ويباغت البشر أجمعين، وأنّه حاضرٌ باطّراد، حضورا مفروضا لا فكاك منه، ولا منأى عنه.

4) ﴿أَعْتَدْنَا﴾: أصل الكلمة عَتَدَ، بمعنى هَيّأَ وأَعَدَّ، والعَتَادُ: الشَّيءُ الَّذي تُعِدّه لأمرٍ ما وتهيِّئُهُ له بحيث يكونُ حاضرًا وقت الحاجة إليه، وعليه يدورُ معنى (عَتَدَ) ومشتقّاتها، وَحكى يَعْقُوب أَن تَاء أَعْتَدْتُهُ بدل من دَال أَعْدَدْتُه، وَفِي التَّنْزِيل: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف: 29]، قَالَ الشَّاعِر:

أَعْتَدْتُ للْغُرَماءِ كَلْبا ضَارِيًا *** عِنْدِي وفَضْلَ هِرَاوَةٍ من أَرْزَنِ[3]

و﴿أَعْتَدْنَا﴾ بمعنى هيّأنا وأعددنا، فالعذابُ الأليمُ حاضرٌ للكافرينَ، والمعنى في السّياق: " أولئك الّذين تابواْ في غير وقت قبول التّوبة، هيأنا لهم عذابا مؤلما موجعا بسبب ارتكاسهم في المعاصي وابتعادهم عن الصراط المستقيم الذي يرضاه سبحانه لعباده"[4].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التّوبة للمسارع إلى النّدم قبل الفوت، لا للمصرّ على الكفر حتّى يدهمه الموت

إنّما يقبلُ اللّهُ التَّوبةَ مِنَ الَّذينَ يَرتكبونَ المعاصيَ، لجهلٍ منهم بسوء عاقبَتِها، ومغبّة ارتكابها، ثُمَّ لا يلبثون أن يرعووا عن فعلتهم، ويسارعوا إلى التّوبة النّصوح، في ندم وإخبات، فيجدون اللّه العليم بطواياهم، والمطّلع على نيَّاتِهم، حكيما في معاملتهم، قابلًا لتوبتهم، وليست التَّوبة مقبولة من المصرّين في عناد وغرور، على ارتكاب المعاصي، والمجاهرة بالفجور، حتّى تدهمهم سكراتُ الموت، وينزع عن أعينهم الغطاء، ويكون البصر - آنئذٍ - في غرغرة الموت

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حضر).

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/93.

(3) ابن سيده، المحكم: (عَتُدَ)، ورد الشّطر الثّاني برواية أخرى:

أَعْتَدْتُ لِلْغُرَماءِ كَلْبا ضَارِيًا *** عِنْدِي وفَضْلَ هِرَاوَةٍ من أَزْرَقِ

ينظر: ابن منظور، لسان العرب: 3/278.

(4) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 3/88.

حديدًا، فيندم أحدُهم، ويقول: إنّي تُبتُ الآنَ، ولات حين مندم، إذْ لا مجال للتّوبة حيث يُغلقُ بابُ التّوبة على العصاة، ويُسدُّ المجالُ على الكفرة العتاة، لأنّ اللّه أمهلهم في الدّنيا، فكفروا به، وأصرّوا على عصيانه، فأعتد لهم عذابًا أليمًا، سوف يصطلون بناره، ويتألّمون من آثاره.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلَاغَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾:

الْبِشَارَةُ بِقَبُولِ تَوْبَةِ التَّائِبِينَ إِذَا صَـدَرَتْ مِنْـهُمْ قَبْلَ الْمَوْتِ

في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وقد جاء طريقُهُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾، وهذا الأسلوب أفاد نكاتٍ:

أوَّلُهَا: أنَّ قبولَ التّوبة مِن اللّه تعالى ليس على إطلاقه كما يُنبِئُ عنه وصفُه تعالى بكونه تَوَّابًا رحيمًا، بل هو مقيّدٌ بِمَن يَعملُ السُّوءَ بجهالةٍ ثمَّ يَتوبُ مِن قريبٍ قبلَ الموت.

ثانيها: لمّا كانَ القصرُ هنا مفيدًا تخصيصَ التّوبة بالّذين يعملونَ السُّوءَ بجهالةٍ، ثمَّ يتوبونَ من قريبٍ؛ دلّ على أنّ توبةَ مَن عدا هؤلاء بمنزلة العدَم، فهو قصر إفرادٍ؛ جيءَ به لِدفعِ توهّمِ أنَّ غيرَ هؤلاءِ قد تشملُهم التّوبةُ.

ثالثُها: أشعرَ القصرُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ أنَّ قبولَ اللّه تعالى التَّوبة مِنَ الّذينَ يعملون السُّوء ثمّ يتُوبون مِن قريبٍ أمرٌ واضحٌ جليٌّ[1]، لاشكَّ فيه؛ لأنَّ ﴿إِنَّمَا﴾ موضوعةٌ في الأصلِ للأمر الذي لا يجهلهُ المخاطَبُ ولا يُنكِرُهُ، وكأنَّه أمرٌ معلوم لكلِّ سامع، أو هو ممّا يَنْبَغِي أن لا يكونَ مَجْهُولًا، فينبغي لكلّ سامعٍ أن يتلقّاه بالقبول، وفي هذا بِشارةٌ بِقَبُول توبةِ مَن يعملُ السُّوءَ، ثُمَّ يتوبُ مِن قريبٍ.

(1) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 330، والسّكّاكّي، مفتاح العلوم، ص: 295.

رابِعُهَا: فيه تعريضٌ[1] بذمِّ الّذين لا يتوبونَ من قريبٍ لِغَلَبَةِ الهوى عليهم، فهم لا يَستحقّونَ التَّوبة، ولا يقبلُها اللّه تعالَى مِنْهُم.

دِلَالَةُ ﴿عَلَى﴾ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾:

إيجابُ اللهِ تعالَى علَى نفْسِهِ قَبُولَ تَوْبَةِ التَّائِبِينَ هُوَ تَكَرُّمٌ وَتَفَضُّلٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ

حرفُ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ دالٌّ في الأصلِ على مَعْنَى الاسْتِعْلاءِ، وأفادَت ﴿عَلَى﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ على تحقُّق وقوع وعدِ اللّه سبحانه بقبول توبة التَّائبينَ، وذلك لأنَّ (على) تُستعمَلُ في معنى الإيجاب، فتوبةُ اللّهِ تَعَالَى علَى من تابَ قبلَ موتِه توبةً مستوفيةً الشُّروطَ أمرٌ واجبٌ أوجبَهُ اللّه تعالى على نفسِه تكرُّمًا وتفضُّلًا، لا لاستحقاقِ العبادِ ذلكَ، كما قال ابن القيِّم:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ *** هُوَ أَوْجَبَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ الشَّانِ[2]

وفي سلوكِ مسلَكِ الإيجابِ دفعٌ لِمَا قَد يُتَوَهَّمُ أنَّ اللّه تعالى لا يقبلُ توبةَ مَن يفعلونَ الفاحشةَ، ومَن يكفرونَ به سبحانَهُ؛ لشناعة أفعالِهم وقُبحِها، فأفادت ﴿عَلَى﴾ تحقيقَ الوعدِ بقبول التَّوبة لِمَن يتوبُ مِن قريبٍ قبل نزول الموت به.

نُكْتَةُ التَّقْيِيدِ بِالْحَالِ ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾:

كُلُّ مَنْ عَصَى اللهَ تَعَالَى؛ فَهُوَ جَاهِلٌ

﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلّقان بمحذوفٍ حالٌ مِنَ فاعل ﴿يَعْمَلُونَ﴾، وقد أفادَ الحالُ تقييدَ قبولِ توبةِ اللّه تعالى على العباد، وأنَّ الّذين يتوبُ اللّه عليهم هُمُ الّذين يعملونَ السُّوءَ مُتلبِّسين بِجهالَتِهم بِعاقبةِ عملِهم؛ لِسفَهِهِم وتغلّبِ شهوتِهم، وفي هذا إشارةٌ

(1) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 354، والسّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 296.
(2) ابن القيِّم، الكافية الشَّافية، ص: 208.

إلى أنَّ ارتكابَ القبيح ممَّا يدعو إليه السَّفَهُ والشَّهوةُ حالَ ارتكاب الفاحشة، لا ممَّا تدعو إليه الحِكمةُ والعقلُ[1].

ولمّا كانَ عملُ السُّوء لا ينفكُّ عن تلبّسِه بالجَهالَةِ لِعَدَمِ جَرْيِهِ وفقَ العلمِ وَالحكمةِ والعقلِ؛ كان مجيءُ الحال كالوَصْفِ الكَاشِفِ لِعَمَلِ السُّوء[2]، وَوُصِفَ ارتكابُ الذَّنب بالجهالة؛ لِتَنْزِيل عِلْمِه منزلةَ الجهلِ لعدم جريِهِ على مُقتضى العلم[3].

دِلَالَةُ ﴿ثُمَّ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾:

سَعَةُ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى فِي إِمْهَالِ الْعَاصِينَ

أفادَ حرفُ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ الدّالُّ على التَّرتيب والتَّراخي في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ أنَّ التَّوبةَ قد يكونُ فيها تراخٍ عن فعل المعصية؛ لبيان رحمة اللّه بالعبادِ وفَضْلِهِ عليهم، معَ طلبِ المبادَرةِ إلى التَّوبة الّذي أشعرَ به قولُه تعالى: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾.

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ ﴿مِن﴾ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾:

كُلَّمَا بَادَرَ الْعَبْدُ إِلَى التَّوْبَةِ؛ كَانَتْ بِالْقَبُولِ أَحْرَى

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ تحتملُ وجهين:

أحدُهما: أن تكون لابتداء الغاية الزَّمانيَّة، أَي: يجعلونَ مبتدأَ توبَتِهم زَمانًا قَريبًا مِنَ المَعصيَة؛ لِئَلَّا يندَرِجُوا في زُمرَة المُصرِّينَ على الذّنب[4].

وفي هذا إشعارٌ بأنَّ وقتَ التَّوبةِ كلَّما قَرُبَ مِن وَقتِ اقترافِ الذَّنب؛ كان الرَّجاءُ بالقبول أَقوى، وهم بقبولِ التّوبةِ أولى ممَّن تابَ بعدَهم، وفي هذا: إرشادٌ إلى المبادرةِ إلى التَّوبةِ، لِئلّا يُشرَبَ في قلوبهم حُبُّ السَّيّئة فيتعذَّرَ عليهم الرُّجوعُ.

(1) الزَّمَخْشري، الكشّاف: 1/488، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/561.

(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/278.

(3) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 7/76.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/7، ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/278.

وفيه إشارةٌ إلى تفاوت درجَاتِ التَّائبينَ على وَفْقِ أقربيَّتِهم بالتَّوبة إلى الانتهاءِ مِن فِعْلِ السَّيِّئة، ويمتدُّ القُربُ إلى زمَنِ حضُورِ المَوْتِ؛ فكُلٌّ قريبٌ ما دامَتِ التَّوبةُ قبل المَوْت.

والآخَرُ: أن تكون ﴿مِن﴾ لِلتَّبعِيضِ، والمعنى: يتوبونَ في أيِّ جُزءٍ من الزَّمان القريب الّذي هو قبلَ أن ينزلَ بهم سلطانُ الموت، كأنَّهُ سُمِّيَ ما بينَ وجودِ المعصيةِ وحضورِ الموتِ زمانًا قريبًا، ففي أيِّ جزءٍ تابَ مِن أجزاءِ هذا الزَّمانِ فهو تائِبٌ مِن قريبٍ، وإلَّا فهو تائِبٌ من بعيدٍ[1].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْقُرْبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾:

كُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ

أَجمعَ المُفسِّرونَ على أنَّ المرادَ من القُربِ حُضورُ زَمانِ المَوتِ، وقد وصفَ اللّه تعالى هذا الوقتَ بأنّه ﴿قَرِيبٍ﴾ لأوجُهٍ[2]:

أَحَدُها: أنَّ أجلَ العبادِ لمَّا كان إتيانُهُ متحقِّقًا؛ جُعِلَ ذلك قريبًا؛ لأنَّ كُلَّ ما هو آتٍ قريبٌ.

ثانيها: التَّنبيهُ على أنَّ مُدَّةَ عُمرِ الإنسان - وإن طالَت - قليلةٌ قريبةٌ، فإنَّها مَحفوفَةٌ بطرفي الأزَلِ والأبدِ، فإذا قَسَّمتَ مُدَّةَ عُمرِكَ إلى ما على طَرَفَيها؛ صار كالعَدَم.

ثالثُها: أنَّ الإنسان يَتَوَقَّعُ في كلِّ لحظةٍ نُزولَ المَوتِ به، وما هذا حالُهُ؛ فإنَّه يُوصَفُ بالقُرب.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿قَرِيبٍ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾:

كُلُّ وَقْتٍ قَبْلَ المَوْتِ قَرِيبٌ بِالنِّسْبَةِ إلى إِيقَاعِ التَّوْبَةِ فِيهِ

وردَت كلمةُ ﴿قَرِيبٍ﴾ من قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ نكرةً؛ لإطلاقِ وصفِ كلِّ الأوقاتِ الّتي قبلَ الموتِ بأنّها قريبةٌ، ويصحُّ وقوعُ التَّوبة فيها؛ رحمةً منَ اللّهِ وفضلًا منه ﷻ.

(1) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/489، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/65، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/562.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/7.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾:

عَظِيمُ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى بِقَبُولِهِ تَوْبَةَ التَّائِبِينَ

دلَّتِ الفاءُ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِن قَوْلِه تعَالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ على التَّرتيب والتَّعقيب والسَّببيَّة؛ لِيكونَ عملُ السُّوءِ بجهالةٍ والتَّوبة مِن قريبٍ سَبَبًا لِقبول اللّه تعالى توبتَهم مِن غير تَرَاخٍ، بل يقبلُ اللّهُ توبتَهم عَقِبَ إقلاعِهم عنِ الذَّنبِ -مع باقِي شروطِ التَّوبةِ- مِن غيرِ مُهلةٍ، فَضلًا مِنْهُ ﷻ ورحمةً.

نِكَاتُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ (أُوْلَئِكَ) فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾:

عُلُوُّ مَنْزِلَةِ التَّائِبِينَ

في التَّعبير باسم الإشارة (أُولَئِكَ) في قوله سبحانه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ نِكاتٌ:

أوَّلُهَا: استِحضارُهُم في الذِّهنِ عند الحُكمِ؛ لئلَّا يَخطُرَ في بالِ القارِئِ والسَّامِعِ إشراكُ غيرِهم معهم فيه(1).

ثانيهَا: تنبيهُ المُخاطَبينَ على أنّ المشارَ إليهم هُم باعتبار مجموعِ الأَوصافِ المُتَقَدِّمَةِ البالِغَةِ غايَةَ الخَوفِ مِنَ اللّهِ تعالى والمُبادِرَة إلى طَلَب مَرضاتِه؛ لِيُعرَفَ أَنَّهُم أَحرياءُ بمدلول المُسندِ الوارِدِ بعد اسم الإشارة، أي: أَحرِيَاءُ بتَوْبَةِ اللّهِ تعالَى عليهم، فهو نَظيرُ بناءِ المُسْنَدِ على اسمِ الإشارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5]، والمعنى: هؤلاء هُمُ الَّذين جعلَهُمُ اللّهُ مُستَحِقِّينَ قَبولَ التَّوبةِ منهم(2).

ثالثُها: الإشعارُ بِرِفْعَةِ رُتبة مَن يتوبُ اللّهُ تعالَى عليه، بما أَفادَهُ اسمُ الإشارة مِنَ البُعْدِ في المكانة والمنزلة.

---

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/156، ورضا، تفسير المنار: 4/366.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/280.

دِلَالَةُ التَّأْكِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾:

مَنْ تَابَ؛ تَابَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ

أُكِّدَ قولُ اللّه تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾؛ تقريرًا لِتَوْبَةِ اللّهِ على المذكورةِ أوصافُهم، وتثبيتًا لِلْمَعْنَى في النُّفوسِ، وتكريمًا لَهُمْ، وجاءَ هذا التَّوكيدُ في صُوَرٍ:

أوَّلها: مجيءُ الجملةِ اسميَّةً ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾، وذلك دالٌّ على ثبوتِ مضمونِها ودوامِه واستمرارِه.

ثَانِيهَا: التَّعبير عن فِعْلِ التَّوبةِ بصيغة المُضَارِعِ؛ لإفادة تجدّد قبول اللّهِ تعالى توبةَ التَّائبينَ؛ تأكيدًا وتقريرًا لَمَا دلّت عليه الجملة الاسميّة.

ثالثُها: مجيءُ خبرِ (أُولَئِكَ) جملةً فعليَّةً؛ لإفادة تقوية الحُكم، فإنَّ عَوْدَ الضَّميرِ في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على (أُولَئِكَ) في حكم تكرارِ الإسناد[1]، والتَّقديرُ: يتوبُ اللّهُ على أولئك، يتوب اللّه عَلَيْهِم.

وجاء إسنادُ الجملة الفعليَّة على أصلِ ترتيبِهَا، فقال سبحانه: ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ مِن غير تقديم ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ عَلَى الْفَاعِلِ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لأنّ مدارَ السِّياق على قَبولِ اللّه تعالَى التّوبةَ، وبيانِ سعةِ رحمتِهِ بذلكَ، فناسبَ أن يبقَى تقديمُ الفاعلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ لما تضمَّنه من صفات الجلال والجمال والكمال.

سِرُّ تَقْيِيدِ التَّوْبَةِ بِـ ﴿عَلَى﴾ أَوَّلًا، وَبِـ (اللام) آخِرًا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾:

شُمُولُ تَوْبَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ المُحَقِّقِينَ شُرُوطَ التَّوْبَةِ

في قول اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾، تقييدٌ لفعلِ التَّوبة بحَرْفَيْ جَرٍّ؛ إذْ قُيِّد أوَّلًا بحرف الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ثُمَّ قُيِّد بعدُ بحرف الجرِّ اللَّام في قوله سُبحانه: ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾، ففي تقييدهِ بـ ﴿عَلَى﴾ دِلالةٌ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/156، والسّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 211.

على الوفاءِ بالوعد والقبول بالفِعْلِ؛ والإشعار باستيعاب التَّوبة لهم وشمولِهم بِهَا؛ لأنّ المقامَ مقامُ استيعابٍ وشمولٍ، ويجوزُ أن يكون في العبارةِ تضمينٌ؛ وذلك بتضمين التّوبة معنى العَطفِ، والمعنى: يَعطِفُ عليهم بقَبول تَوبَتِهم ويَعودُ برحمتِهِ عليهم[1]، وفي تقييدِهِ التَّوبةَ بـ ﴿عَلَى﴾ إعلامٌ بأنَّ ذلك شيءٌ أوجَبَهُ اللّه تعالى على نفسِهِ تفضُّلًا وتكرُّمًا منه.

ثُمّ قُيِّد فعلُ التَّوبةِ باللَّام المفيدةِ للاختصاصِ في قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾، وذلك أنَّ صدرَ الآية لَمَّا كان مشعرًا بعموم توبة اللّه تعالى على العبادِ، أعقبَهُ ببيانِ أنَّ ذلك خاصٌّ لمن يعمل السُّوءَ بجهالةٍ ثمَّ يتوبُ قبل الموتِ، فكان هذا كالاحْتِرَاسِ.

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

أُلُوهِيَّةُ اللهِ تَعَالَى مَنْشَأٌ لِاتِّصَافِهِ سُبْحَانَهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ

جاء الاسمُ الأحسنُ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ظاهرًا، مع قُرب ذِكْرِه في قولِهِ قبلُ: ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾، فأظهرَ الاسم الأحسنَ (اللّه) في مَوضِعِ الإضمار؛ للإشعار بعلَّة الحُكم؛ لأنّ الألوهيَّةَ مَنشأٌ لاتِّصافِه تعالى بصفات الكمال[2]، كما أنَّ في تكرُّرِ ذكره تلذّذًا للتَّائب المقبلِ على اللّه ﷻ.

وأشعرَ مجيءُ الوصفين بصيغة المُشتَقّ لِلْمُبَالغة ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ - مع تقدُّم قوله: ﴿وَكَانَ﴾ - دوامَ اتِّصاف اللّهِ تعالَى بالعلم والحكمة وملازمتِهما لَهُ ﷻ؛ فهو المُتّصِفُ بصفات الجَمال والجَلال والكمَال.

مُنَاسَبَةُ خَتْمِ الْآيَةِ بِاسْمَيِ اللهِ تَعَالَى: الْعَلِيمِ وَالْحَكِيمِ:

الْحَكِيمُ لَا يُعَاقِبُ مَنْ تَابَ تَوْبَةً صَحِيحَةً

لمّا كانَ وقوعُ المعصيةِ النَّاشئُ عن استيلاء الشَّهوة والغضَب والجهالة علَى صاحبِها حاصِلًا بعِلْم اللّهِ تعالَى، وهو سبحانَه عالمٌ بإخلاصِهم في التَّوبة؛ ناسَبَ أن يَرِدَ في ختامِ الآية اسمُهُ العليم،

---

(1) رضا، تفسير المنار: 4/366.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/156.

ثُمَّ لمّا كانَ قبولُ التَّوبةِ ممّا أوجبَه اللّٰه تعالى على نفسِهِ فَضلًا منه ورحمةً بالعباد لِحكمةٍ منه في هذا الإيجاب؛ ناسَبَ أن يُتبِعَ اسمَهُ العليم باسمه الحكيم، فقال سبحانه: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، والحكيمُ لا يُعاقِبُ التَّائبَ[1].

سِرُّ تَوَجُّهِ النَّفْيِ إِلَى التَّوْبَةِ فِي قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

لَا قِيمَةَ لِلتَّوْبَةِ إِنْ لَمْ يَقْبَلْهَا اللهُ تَعَالَى

قال تعالَى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، ولم يَقُل هنا: (وليستِ التّوبةُ على اللّه) كما جاء في الآية السّابقة، وذلك أَنَّه ليس المُرادُ نَفيَ القَطعِ بقَبولِ تَوبَتِهم، وإنَّما المُرادُ نَفيُ وُقوعِ التَّوبةِ الصَّحيحةِ منهم، وأنَّه ليسَ من شأْنِها أن تكونَ لهم، ولو نَفَى كونها ممَّا أَوجَبَه تعالى على نفسِه لكان المعنى أنَّها غيرُ واجبةٍ لهم، ولا مَقطوعٍ بقَبولِها منهم، ولكنَّهم قد يَنالونَها[2]، فيكونُ ظاهرُ النَّفي مُتوجّهًا إلى حصولِ التَّوبة مع أنّها قد توجدُ عندَ الموت، فنَفَى وجودَ التَّوبة؛ للإشعار بأنّ التَّوبةَ وإن وُجِدَت فلا فائدةَ منها إنْ لَم يَقْبَلْهَا اللّٰه تعالى.

دِلَالَةُ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

لَا تُقْبَلُ التَّوْبَةُ مِمَّنْ أَصَرَّ عَلَى الْمَعْصِيَةِ حَتَّى حَضرَةِ الْمَوْتِ

جاء التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَعْمَلُونَ﴾ دون الماضي (للذينَ عَمِلُوا) إشعارًا بتجدّد عَمَلِهم للسّيّئات حالًا فحالًا، وأنَّهُم مُصِرُّونَ على عَمَلِها إلى أَن يَحضُرَهُمُ الموتُ[3]، فحقيقٌ بِهَؤُلَاءِ أن لا يَقْبَلَ اللّٰه تَعَالَى مِنْهُم.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ فِي الْآيَةِ بِـ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ دُونَ (السُّوءِ):

عُبّرَ في هذه الآية بـ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بصيغَةِ الْجَمْعِ فقال سبحانه: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ باعتبار تكرّر وقوعها في

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/8، البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/65.
(2) رضا، تفسير المنار: 4/367.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/565.

الزَّمان المَديد[1]؛ لأَنَّهم مدّوا عملَ السّيّئات إلى الموت، فأفادَ الجمعُ التَّكثيرَ؛ ترهيبًا مِن الإغراقِ في السَّيِّاتِ الذي قد يُؤدِّي بالعبدِ إلى أن لا يتوبَ أصلًا، أو يتوبَ توبةً غير مقبولةٍ عند اللّه تعالى، بخلاف الآية السَّابقة، فقد جاء التَّعبير بـ (السُّوءِ)؛ للإشارة إلى نوعٍ منها؛ لِمناسبة مقام التَّوبة الّذي تقِلُّ فيه السّيّئات، كما أنَّ في التَّقليل ترغيبًا في التَّوبة وتعجيلًا لها.

الإِغْـــرَاقُ فِي السَّيِّئَاتِ مَظِنَّةٌ لِخَاتِمَةِ السُّوءِ

سِرُّ إِيثَارِ التَّعْبِيرِ بِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ دُونَ (إِلَى) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾:

آثر التّعبير بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قولِه تَعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ الّتي تفيد انتهاءَ الغاية مع التّدريج في هذَا الانتهَاء؛ لأنّ الفعلَ المُتعدّيَ بها الغرضُ فيهِ أَن يَنْقَضِيَ شيئًا فَشَيْئًا حتّى يأتي عليه إِلَى غايته[2]، و(إلى) ليسَت كذلك؛ لدِلَالَتِها على انتِهَاءِ الغَايَةِ مُطلَقًا؛ فأفاد التّعبيرُ بِـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ مُدَاوَمَتَهُم على فعل السّيّئاتِ شَيْئًا فَشَيْئًا تَدْرِيجًا مِن غيرِ انقطاعٍ حتّى حَضَرَهُمُ الموتُ، وهذا إِصْرَارٌ مِنْهُمْ عَلَى عَمَلِ السُّوءِ وتَمَادٍ فِيهِ، فأدّتهم هذه الحالُ إلى أن فاجأهم الموتُ وهُم مُتَلَبِّسُون بالسَّيِّئاتِ.

التَّرْهِيـبُ مِـنَ الإِصْـرَارِ عَلَى السَّـيِّـئَـاتِ وَالتَّرْغِيـبُ فِي المُـبَـادَرَةِ إِلَى التَّوْبَةِ

وفي هَذَا تَرْهِيبٌ مِنَ الْإِصْرَارِ علَى السَّيئاتِ، وترغِيبٌ في المُبَادَرةِ إلى التَّوبَةِ؛ إِذِ المَرْءُ لا يَدْرِي مَتَى يَفْجَؤُهُ أَجَلُهُ.

سَبَبُ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بِأَدَاةِ الشَّرْطِ ﴿إِذَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾:

عُلِّقَ الشَّرطُ بأداة الشَّرط ﴿إِذَا﴾ دُون (إن) في قوله سُبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾؛ لأنَّ الأصل في وضع ﴿إِذَا﴾ أن تدلَّ على القطْعِ والجزْمِ بوقوعِ مدخُولِهَا، ولمَّا كان حضورُ الموت واقعًا

المَـوْتُ مَكْتُوبٌ عَـلَى جَمِيعِ العِبَادِ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/157.

(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 544.

لا محالةَ؛ عُبّر بـ ﴿إِذَا﴾ جريًا على أَصلِ دلالَتِهَا؛ ولذا جاءَ الفعلُ ﴿حَضَرَ﴾ بصيغة الماضي؛ لأنَّه أقربُ إلى القَطْعِ نظرًا إلى اللَّفظ.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾:

التَّذْكِيرُ بِالْمَوْتِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَوَاعِظِ الزَّاجِرَةِ عَنِ الْقَبَائِحِ

في قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ ذِكْرٌ لِلْمَوْتِ على طريقةِ الاستعارة؛ إذْ شُبِّهَ الموتُ بشخصٍ يأتي مكانًا أو شخصًا آخرَ، فيُعاينُه ويشاهدُهُ؛ بجامع المُلابَسَةِ والاجتمَاع، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ بِهِ؛ ليكونَ مَجازًا بطريق الاستعارة المكنيّةِ المُضمّنةِ قوَّةَ الدَّعوى؛ لإفادة التَّرهيب من مُفَاجَأة الموتِ بحضورِه دونَ استعدادٍ ممّا يقعُ فيه المُذْنِبُونَ مِنْ غُرُور التَّسويف.

وللإمعان في التَّخويف والتَّرهيب استُعمِلَ الفعلُ ﴿حَضَرَ﴾ الدّالُّ على وُرُودِ المَوْتِ إِلَيْه، ومعاينَتِه له، ومشاهدتِه إيّاه.

ويَحْتَمِلُ أن يكون الكلامُ على الْحَقِيقَة؛ بتقديرِ الفاعِلِ محذوفًا، وإقامةِ المُضَافِ إِلَيْه مُقَامَه، والتَّقديرُ: إذا حضرَت أحدَهم ملائكةُ الموتِ، وحُذِفَ الفاعلُ؛ لإفادة التَّرهيب كذلك.

وفي كِلَا الوجهين خروجٌ عن الأصلِ؛ فالأوَّلُ فيه خروجٌ عن الحقيقة - وهي الأصل - ، وفي الآخَرِ خروجٌ عنه من جهةِ دَعوَى الحذفِ.

وهما وجهانِ متآيلان، لا تعارُضَ بينَهُما في المعنَى.

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنْ (إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ؛ تَابَ) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ﴾:

مِنْ شَرْطِ صِحَّةِ التَّوْبَةِ شَرْعًا وُقُوعُهَا قَبْلَ حُضُورِ الْمَوْتِ

قال اللّه تَعَالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ بنسبةِ التَّوبةِ إلى قولِ مُدَّعيها، ولم يَرِد النَّظمُ القرآنيُّ: (حتّى إذا حَضَرَ أحدهُم الموتُ؛ تَابَ)؛ لإسقاط قوله وتلفّظه بالتَّوبة عن درجة الاعتبار، فلِتَجَنُّبِ تسميتِه توبةً؛ نَسَبَ التَّوبةَ إلى القول[1]، وفي ذلك

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/157.

إشعارٌ بأنَّها توبةٌ بحسب زَعْم مُدَّعيها لا في حقيقة الأمْرِ؛ إذْ مِن شروطِ التَّوبةِ شرعًا أن تقعَ قبلَ حضورِ الموتِ العبدَ، فإنْ أوقعَهَا عِنْدَ معايَنتِه الموتَ لم تُقبَل توبَتُه.

سِرُّ الِاخْتِلَافِ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾:

النَّــــاسُ فِي تحقيقهم التَّوْبَةَ أَصْنَافٌ

لمّا كان وقوعُ توبة المذكورين في الآيَةِ السّابقةِ حقيقةً؛ أُسنِدَتِ التَّوبةُ إليهم، فقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ﴾، ولمّا كان الأمرُ في هذه الآيةِ متضمِّنًا دَعْوَى التَّوبةِ عندَ العِلم بالعَجز عَنِ الذّنب؛ حُكِيَت دعواهُم في حصولِهَا، فقال تعالى" ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾، أَي: إنَّ قَلبَهُ لم يَنخَلِع مِنَ الذَّنب، ونَفسَهُ لم تَرغَب عنه فيكونُ تائبًا، ولو خلّي الموت عنه لرجع إلى عمل السّيّئات[1].

فَائِدَةُ عَطْفِ قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

المَعْدُومُ شَرْعًا كَالمَعْدُومِ حِسًّا

لَمَّا كان قد يُتَوَهَّم أنّه لا معنى لنَفْيِ قَبُول التّوبة بالنّسبة إلى مَن لَم يَتُب، ولم يَطْلُبْها أصلًا ومات على الكفر؛ عُطِفَ هذا الصّنف على من سوَّفَ التَّوبةَ إلى حضور الموتِ مِنَ الفَسَقَةِ والكفَرَةِ؛ ليفيد التَّسويةَ بين حال توبتِهم في هذا الوقتِ وعدمِها؛ مُبَالَغةً في عدَمِ الاعْتِدَادِ بِهَا في حالِ التّوبة زمنَ حضُورِ المَوْت، وكأنّه قال: توبةُ هَؤُلاءِ وعَدَمُ توبَتِهِم سواءٌ[2]؛ لأنَّ للتَّوبةِ شروطًا، من أخلَّ بها لم يُعتَدَّ بتوبتِهِ شرعًا، وإذا كان كذلك كانت في حكمِ العدَمِ، فإنَّ المعدومَ شرعًا كالمعدوم حسًّا.

دِلَالَةُ تَكْرَارِ النَّفْيِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾:

مِــنْ مَـقَـاصِـدِ زِيَــادَةِ الْـحَـرْفِ: دَفْعُ تَوَهُّمِ غَيْرِ المَعْنَى المُرَادِ

لِتَكرار النَّفي في قوله سبحانه: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ نُكتَتانِ:

---

(1) رضا، تفسير المنار: 4/367.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/65.

إحدَاهُمَا: أفادت (لا) تأكيدَ انتِفاءِ الحُكم عن كُلِّ واحدٍ بعدَ نفيه بـ (ليس)، أَي: ليستِ التَّوبةُ لِمَن يتوبُ وقتَ الموت، ولا لِمَن يموتُ وهو كافرٌ، ولو لم يأتِ بـ (لا) لاحتملَ أن يكون المعنى: إنَّ التَّوبةَ ليست لكليهما حالَ كونِهما مَجْمُوعَيْنِ بل التوبةُ لأَحدهما، فلمّا دخلت (لا) تقرّرَ تأكيدُ النَّفي عن كلِّ واحدٍ منهما تَفْصيلًا للأمر وبيانًا له، بأنّه لا تَوْبَةَ لكلِّ واحدٍ منهما.

والأخرَى: أنَّهُ لمّا كانَ تَكرار حرفِ النَّفي في المعطوف يدلُّ على أنَّ ما بعدَ حرف النَّفي المُكرّر أدنى رتبةً ممّا قبلَه، أفادَ الكلامُ بإشعارٍ خفيٍّ أنَّ حالَ المسوِّفين في عدم استتباع الجدوى أقوى من حال الّذين يموتون على الكفر[1]، ويَحْتَمل أن يكون تكرارُ حرفِ النَّفي؛ لأَنّه لمّا كان أمرُ الكافرينَ مفروغًا مِنْهُ في أَنْ لا توبةَ لَهُمْ؛ قُدِّمَ ما يقعُ الشَّكُّ في قبول توبتِهِ ممّن يتوبُ وقتَ حضُور الموت؛ لكونِهِ أولَى بالإعلام مِمَّن حُسِمَ أمرُه أن لا توبَةَ له، وهم مَن يموتون وهم كفّار.

دِلَالَةُ اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾:

فَظَاعَةُ حَالِ مَنْ مَـاتَ عَـلَى غَـيْرِ تَوْبَةٍ مَقْبُولَةٍ

عُبّر باسم الإشارة (أُولَئِكَ) من قول اللّه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ - وهو إشارةٌ إلى الفريقين - ، للإيماءِ إلى البُعْدِ المعنويّ، ولمّا كان السّياق في بيان أَنْ لَا توبَةَ لِلْمَذْكُورينَ دلَّ معنى البُعدِ في اسم الإشارةِ على تَرَامِي حالِهم في الفَظاعة وبُعدِ منزلتِهم في السّوء[2].

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ عَمَّا قَبْلُ:

بَيَانُ الْعَاقِبَةِ الْقَبِيحَةِ لِمَنْ لَمْ يَتُبْ تَوْبَةً صَحِيحَةً

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لأحدِ وجهين:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/564، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/157.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/157.

أحدُهُمَا: أنّ اللّه تعالى لمَّا نفى قبولَ توبةِ الصِّنفين: الّذين يعملونَ السّيّئات ويتوبونَ وقتَ الموتِ، والّذين يموتونَ وهم كفّارٌ؛ أعقبَهُ بتأكيد عدم قبول توبتهم[1]، فذكرَ أنّه تعالى أعدَّ لهم عذابًا أليمًا، فلمّا كانت هذه الجملةُ تأكيدًا لِمَا قبلَها جاءت مفصولةً، فالمؤكِّد عينُ المؤكَّدِ في المعنى، فيكون بين الجملتين كمال الاتِّصالِ.

والآخرُ: أن يكونَ الكلامُ استئنافًا بيانيًّا؛ فيكون قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا﴾ واقعًا في جوابِ سؤالٍ مقدَّر، وذلك أنَّ اللّه تعالى لمَّا قال: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾، أورثَ ذلك في نفس المتلقّي سؤالًا، وهو: ماذا سيكونُ حالُ أولئك يومَ القيامةِ؟ فأجاب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، فيكون بين الجملتين شبه كمال الاتِّصالِ.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿لَهُمۡ﴾ عَلَى ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

الْحَثُّ عَلَى التَّوْبَةِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهَا

قُدِّمَ ﴿لَهُمۡ﴾ على المفعول الصّريح ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ من قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ لإظهارِ الاعتناء بكون العذاب الأليم مُعَدًّا لهم، ولبيان أنّه مخصّص لهم؛ زيادةً في تقريعهم.

وفي تَخْصيصِ العذابِ الأليم بأولئك الصِّنْفَيْنِ دلالةٌ على أنَّ مَن يقبلُ اللّهُ تعالى توبتَه؛ فلَه النَّعيمُ المُقيمُ، وفي ضمن هذا حثٌّ وتحضيضٌ على الإقبال على التَّوبة والإسراع إليها.

سِرُّ تَنْكِيرِ (العذاب) وَتَقْيِيدِهِ بِالْوَصْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

شِدَّةُ عَذَابِ الْآخِرَةِ وَعَظِيمُ إِيلَامِهِ

نُكِّرَ العذاب من قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ تفخيمًا له وتعظيمًا، وَوَصْفُه بالأليم تفخيمٌ آخَرُ له؛ والفرق بين

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/65.

التَّفْخِيمَيْن: أنَّ التَّفخيمَ الأوّل ذاتيٌّ والآخر: وصفيٌّ عرضِيٌّ[1]، فجاء التَّفخيمُ في المَوضِعين نظرًا إلى لفظ ﴿أَعْتَدْنَا﴾ الّذي لا يَرِدُ إلّا في مقام التَّعظيم والتَّفخيم، فكان الكلامُ مُطابقًا لمقتضى الحالِ، في شدَّةِ التَّرهيب والتَّخويف بذِكْرِ الإيلامِ للعذاب.

فكأَنَّ الإيلامَ تكرّرَ في الكلام؛ بذِكْرِ العذاب، وتنكيره، ووصفه بالأليم[2]، والغرضُ من المبالغة في بيان شدَّةِ عقوبة الآخرةِ، وأنّ العذابَ فيهَا يبلغُ إيجاعُه غايةَ البُلوغ[3].

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّـــةُ اخْـتِـيَـارِ الأَلْفَاظِ الْمُنَاسِبَةِ لِسِيَاقَاتِهَا

في هَاتين الآيتينِ الكريمَتَين متشابه لفظيٌّ مِن وَجْهَيْن:

أوَّلهما: بين قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، وقولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾، والفرقُ بينَهما: أنَّ الأوّلَ إعلامٌ بأنَّ اللّه تعالى أوجبَ على نفسِه تكرُّمًا وتفضُّلًا قبولَ التَّوبة، بقرينة القَصْرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ وحرف الجرّ ﴿عَلَى﴾، ووجوبُ قبولِ التّوبةِ دالٌّ على فضلِه وكرمِه وإحسانه ﷻ، والموضع الآخَرُ: فيه إخبارٌ بأنَّ اللّه سبحانه سيتُوب عليهم؛ لِمجيءِ صيغةِ المضارع ﴿يَتُوبُ﴾ الدّالِّ على التَّجدّد والحدوثِ حالًا فحالًا في الحال والاستقبال[4].

والآخَرُ: بين قوله تعالى: ﴿حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ [الأنعام: 61]، وقوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠﴾ [المنافقون: 10].

فالآية الأولى فيها دِلالة على أنّ الموت أقربُ ما يكون إلى صاحبه؛ لِدلالَةِ (حَضَرَ) على الشّهود والمعاينة، فيكون مشاهدًا لملائكة الموت الّتي تتوفّاه.

---

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/157.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/29.

(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/29.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/6.

وأمّا الآية الثّانية والثّالثة الّتي ورد فيها ﴿جَآءَ﴾ و﴿يَأۡتِيَ﴾ فيدلّان على قُرب الموت كذلك، ولكن ليس قربه فيهما كقرب الحضُور والمشاهدة، فقد يكون مَجيئًا أو إتيانًا مِن غير مشاهدة ولا معاينة، فالتّعبير بالحضور أوثق لِلْوَفَاة مِن غيره وأقربُ، ولهذا قال اللّه تعالى في آية الأنعام: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: 61] بعد قولِه: ﴿جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [الأنعام: 61] بمعنى أنّ الحضور يكون بعد المجيء.

وذهب فاضلٌ السّامرائيّ إلى أنّ الآيات الّتي فيها حضور الموت تتكلّم في الوصايا والأحكام الّتي تكون بِحُضُور الموت، وكأنّ الموتَ هو من جملة الشّهود، فالقرآن هنا لا يتحدّث عن الموتِ نَفْسِه أو أحوال النّاس في الموت، و(جاء) و(أتى) تتكلّم في أحوال الشّخص عند الموت.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَعْمَلُونَ) و(يَفْعَلُونَ):

جاء في الآية قولُه تعالى ﴿يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾، ولم يقُل (يفعلونَ السّيّئات)؛ لمناسبة (يعملونَ) لنظم الآية؛ فإنّ (العملَ) يشملُ الأعمالَ الحسّيّةَ من القول باللّسان والفعل بالجوارح، والأعمال المعنويَّة الّتي تكونُ بالقلب، ولو قال (يفعلونَ) لَمَا دلَّ على هذا العموم؛ لأنّ (الفعلَ) يقتصرُ على ما يصدرُ من جوارح الإنسان، من مثلِ: الفمِ واليدِ والعينِ، ولا يشملُ القولَ باللّسان، ولا عمل القلب، كما أنَّ (العملَ) يكونُ بعلمٍ وإجادةٍ وقصدٍ؛ ولهذا قال اللّه تعالى ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [البقرة: 96]؛ لِيشملَ قولَ اللّسان وفعلَ الجوارح وعملَ القلب، وأمّا (الفعلُ) فيكونُ بإجادةٍ أو غيرِ إجادةٍ، وبعلمٍ أو غيرِ علمٍ، وقصدٍ أو غيرِ قصدٍ، ويكونُ من الإنسان والحيوان والجمادات[1]، وقد تناسق البيان في السّياق، للإفادة بأنَّ السّيّئات تكونُ في أقوالِهم، وأفعالِهم، وقلوبِهم، وللإشعارِ بأنّهم كانوا يعملونَ السّيّئات عن علمٍ وقصدٍ وإصرار، آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ (يفعلونَ)، لأنّ العمل ممارسة حسيّة مربوطة بمقصديّة معنويّة، وذلك مناط كلّ الأعمال الشّرعيّة، الّتي فيها حركيّة ظاهرة، ولكنّها مربوطة بالنّية، متّصلة بنقاء الطّويّة، فيقال عمل الصّالحات،

(1) الرّاغب، المفردات: (فعل)، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1849، 8/4908.

كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ [الأنبياء: 94]، بينما الأفعال المجرّدة، وخصوصًا أفعال المعصية والهلاك تسمّى أفعالا، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣﴾ [الأعراف: 173]، وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾ [الأعراف: 173]، وأحيانا يستعمل لفظ (يعمل)، في الضّدين معا، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: 07 - 08].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النّساء: 19]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

الرّبط بين صنائع الجاهليين في الأموال واليتامى، وبين حقوق النّساء في الإسلام

لَمَّا نهى سبحانه فيما تَقَدَّمَ عَن عادات الجاهليَّة المتعسّفة، في قضايا حقوق اليتامى، وتوزيع الأَموال الموروثة عن الهالكين بالموت، عَقَّبَ عليه بالنَّهي عَن نوعٍ مِنَ الاستِنانِ بِسُنَنِهم في النِّساء وأَموالِهِنَّ، وإنَّما جاءَ ذِكرُ التَّوبةِ استِطرادًا، فجاءتِ الآية استِئنافًا لتَشريع أَحكام النِّساء الَّتي ورد سياقُ السُّورَةِ لِبيانها[1]، فلا يورثن كالمتاع وهنّ كارهات، ولا يُعْضلن في حال ولا مال، وأن تكون عشرتهنّ بالمعروف، فعسى أن يكون في ذلك خير.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تَرِثُواْ﴾: أصل الكلمة وَرِثَ، وتدلّ على أَن يكون الشَّيءُ لِقَومٍ، ثُمَّ يَصيرَ إِلى آخرينَ بنسبٍ أَو سَبَبٍ، من غير عقد، ولا ما يجري مَجرَى العقدِ، وسُمّي بذلك المُنتقلُ عن الميّت، ويُقالُ لكلّ مَن حصلَ له شيءٌ من غير تعبٍ: قد وَرِثَ كذا، والتُّراثُ بالضَّمِّ والإِرثُ بالمعنى نفسه، و﴿تَرِثُواْ﴾ في الآية بمعنى الانتقال إلى الوريث[2]، ووراثة نساء الآباء كانت سيرة في الأنصار لازمة، وكانت في قريش مباحة مع

(1) رضا، تفسير المنار: 4/356.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ورث)، وقال الشَّافِعِي: (رحمه الله) في هذه الآية: "نزلت في الرّجل يمنع المرأة حقّ الله تعالى عليه، في عشرتها بالمعروف، عن غير طيب نفسها، ويحبسها لتموت فيرثها، أو يذهب ببعض ما آتاها" ينظر: الشّافعيّ، تفسير الإمام الشّافعيّ: 2/660.

التّراضي، من ذلك أنّ أبا عمرو بن أميّة، خلف على امرأة أبيه بعد موته، فولدت من أبي عمرو مسافرا وأبا معيط، وكان لها من أميّة أبو العيص وغيره، فكان بنو أميّة إخوة مسافر وأبي معيط وأعمامهما في نفس الوقت، وهو ما منعه الإسلام[1].

2) ﴿كَرْهًا﴾: يدُلُّ الكُرهُ على خلاف الرِّضا والمحبَّة، والكُره والكَره لغتان كالضَّعف والضُّعف، وذهب بعضُ اللّغويّين إلى أنَّ الكَرْهَ: المشقّة الّتي تنالُ الإنسانَ من خارج فيما يُحمَلُ عليه، فيعملُه كارِهًا بإكراهٍ، والكُرهُ: ما ينالُه من ذاته، وهو يعافُه، وكلُّ ما في القرآن من (كَره)، فهو من معنى كراهةِ الشَّيءِ، أي: عدم قبول النَّفس إيَّاهُ، و﴿كَرْهًا﴾ في الآية بمعنى كارهات أو مُكرَهات[2]، ومعنى اللّفظ ﴿كَرْهًا﴾ في السّياق: " أي حال كونهن كارهات لذلك! أو مكرهات عليه، والتّقييد (بالكره) لا يدلّ على الجواز عند عدمه، لأنّ تخصيص الشّيء بالذّكر، لا يدلّ على نفي ما عداه"[3]، ولابن طباطبا في لفظ (كرها) قوله:

أَعَادَ الثُّرَيَّا وَالْهِلَالُ كِلَاهُمَا *** لِيَ الشَّمْسَ إِذْ وَدَّعْتُ كَرْهًا نَهَارَهَا

كَأَسْمَاءَ إِذْ زَارَتْ عِشَاءً وَغَادَرَتْ *** لَدَيْنَا دَلَالاً قُرْطَهَا وَسِوَارَهَا[4]

3) ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾: أصل الكلمة عَضَلَ، ويدلُّ على التَّضييق، يُقالُ: أعضلَ في الأمرِ، أي: ضاقَ، وأصل العضَل من قولهم: عضلتِ المرأةُ: إذا نَشِبَ ولدُها فلم يسهل خروجُه، ومنه مسألةٌ مُعضِلَةٌ: إذا كانت صعبَةً لا يُهتدَى لوجه الصَّواب فيها لِضيقها، وأعضلَ الأمرُ: اشتدَّ لضيقه، وداءٌ عُضالٌ: إذا عسُرت مداواتُه، يُقَالُ: عَضَلَ فُلَانٌ ابْنَتَهُ، إِذَا مَنَعَهَا مِنَ التَّزَوُّجِ، فَهُوَ يَعْضُلُهَا وَيَعْضِلُهَا، بِضَمِّ الضَّادِ وَبِكَسْرِهَا، وَأَنْشَدَ الْأَخْفَش:

وَإِنَّ قَصَائِدِي لَكَ فَاصْطَنِعْنِي *** كَرَائِمَ قَدْ عُضِلْنَ عَنِ النِّكَاحِ[5]

وقوله ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ في الآية، بمعنى لا تضرّوا النّساء بمنعهنّ رزقهنَّ، وكسوتهنَّ بالمعروف، والتَّضييق عليهنَّ[6].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/26.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كره).

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 3/52.

(4) التّيفاشّي، سرور النّفس، ص: 135.

(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/454.

(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عضل).

4) ﴿بِفَٰحِشَةٍ﴾: يدلُّ الفحشُ على قُبحٍ في شَيءٍ وشناعةٍ فيه، لمجاوزته الحدّ مع تكرّه له وذمٍّ شديدٍ، فالفُحشُ والفَحشَاءُ والفاحِشَةُ ما عظُمَ قُبحُهُ وفَشا استقباحُه لدى النَّاس، من الأَفعال والأقوال والأحوال، و(الفاحشةُ) هنا بمعنى الفعلةِ الشَّنيعةِ الشَّديدةِ القُبحِ، من زِنا أو نشوزٍ وسوءِ خُلُقٍ[1]، "والفَوَاحِشُ في اللّغة ما فَحُشَ وشنع، وأصله من القُبْح في النّظر، وهي هنا إنّما هي إشارة إلى ما نصّ الشّرع على تحريمه، فكلّ ما حرّمه الشَّرْعُ، فهو فاحش"[2]، أو هي "ما فحش من الكبائر خصوصا، وهو الذّنب الّذي عاقب اللّه عليه بالحدّ، كالقتل العمد، والزّنا والقذف، وشرب الخمر، وسائر المسكرات"[3]، "وقال قوم: (الفاحشة) إذا وردت معرفة، فهي الزّنا واللّواط، وإذا وردت منكّرة، فهي سائر المعاصي، كلّ ما يستفحش، وإذا وردت موصوفة بالبيان، فهي عقوق الزّوج وفساد عشرته"[4].

5) ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾: الأصل بَيَنَ، وبانَ الشَّيءُ وأَبانَ إذا اتَّضَحَ وانكشف، وفلانٌ أَبيَنُ مِن فلانٍ، أَي: أَوضَحُ كلامًا منه، فالبيّنة بمعنى الأمر الواضح الّذي لا ينازع فيها منازع لوضوحها[5]، و﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ في الآية بمعنى الفاحشة الظّاهرة الفاضحة، و﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ في الآية إمّا بصيغة اسم مفعول، فتكون بمعنى؛ بَيَّنَ الفاحشةَ مَن يَدَّعيها وأوضحها، وإمّا بصيغة اسم فاعل فتكون بمعنى؛ الفاحشة مُبيِّنةً حالَ مرتكبها[6]، قال ابن كثير: " الفاحشة المبيّنة، تشمل الزّنا، كما قاله ابن مسعود وابن عبّاس، وسعيد بن المسيّب، والشّعبيّ، والحسن، وابن سيرين، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم، قال:

وتشمل ما إذا نشزت المرأة، أو بذت على أهل الرّجل، وآذتهم في الكلام والفعال، كما قاله أبيّ بن كعب، وابن عبّاس، وَعِكْرِمَةُ، وغيرهم"[7].

6) ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾: أصل الكلمة عِشْرٌ، والعِشْرَةُ تدلُّ على المخالطة والتَّداخل والتَّرابط، ومعشرُ الرَّجلِ أهلُه وقومُه ورهطُه، والمُعاشِر هو المخالِطُ من قريبٍ أو صديقٍ، أو زوجِ المرأةِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (فحش).
(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/26.
(3) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 27/118.
(4) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/381.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (بين).
(6) السّمين، الدّرّ المصون: 8/144.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/631.

وهي عشيرتُه، وهو يعاشِرُها؛ لِمخالطتِه لها معايشةً أو نكاحًا، و﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ بمعنى الأمرِ بالعِشرةِ مع الأزواج بالمعروف، في القول والفعل، ومنه الإجمالُ في القَولِ والمَبيتِ والنَّفَقَة(1)، قال ابن عاشور: "قال ابن عطية: وأرى اللّفظة من أعشار الجزور، لأنّها مقاسمة ومخالطة، أي فأصل الاشتقاق من الاسم الجامد، وهو عدد العشرة، وأنا أراها مشتقّة من العشيرة، أي الأهل، فعاشره جعله من عشيرته، كما يقال: آخاه، إذا جعله أخا، أمّا العشيرة، فلا يعرف أصل اشتقاقها، وقد قيل: إنّها من العشرة، أي اسم العدد وفيه نظر"(2).

7) ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾: أصل الكلمة عَرَف، يدُلُّ اللّفظُ على السُّكون والطُّمأنينة، ومنه المَعرِفَةُ والعِرفانُ، وقولهم هذا أمرٌ معروفٌ؛ لأَنَّ مَن أنكر شيئًا تَوَحَّشَ منه، ونَبَا عنه، ومنه العَرفُ: وهي الرَّائحةُ الطَّيِّبةُ؛ لأَنَّ النَّفسَ تَسكُنُ، والعُرفُ: المَعروفُ، وسُمِّيَ بذلك، لأنَّ النُّفُوس تَسكُن إليه، والمعروفُ: اسم لكلِّ فعلٍ يُعرَفُ حُسنُه بالعقلِ أَو الشَّرع، أو هو ما تألفه الطّباع، ولا يستنكره الشّرعُ ولا العرفُ ولا المروءةُ، وهو خلافُ المُنكر(3)، قال الشّاعر:

قَدْ كَانَ عِنْدَكَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرِفَةٌ *** وَكَانَ عِنْدَكَ لِلنَّكْرَاءِ تَنْكِيرُ(4)

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

معنى الآيةِ أنّه يَحرمُ عليكم أيُّها المؤمنون، " أن تجعلوا نساءَ آبائِكم مِن جملةِ تَرِكتِهم، تتصرَّفونَ فيهنَّ بالزَّواج منهنَّ، أو عضلهنّ، أو تزويجهنَّ للآخرين، وهنَّ كارهاتٌ لذلك غير راضيات، وعليه فلا يجوز لكم أيضا أن تضارُّوا أزواجَكم، لِيتنازلنَ عن بعض ما آتيتموهنَّ من مهرٍ ونحوه، إلَّا في الحالِ الّتي يأتينَ فيها بالفاحشة المُبيّنة الواضحة الفاضحة، مِن زنا معيب، أو نشوزٍ مريب، أو سوءِ عشرةٍ وتصرّف في الحضور والمغيب، ولم ينفع معهنّ التَّأديبُ، فلكم حينئذٍ استرجاع ما أَعطيتموهنَّ؛ لارتكابهنّ الفُحشَ المقيت،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عشر)، يُنظر: البغويّ، معالم التّنزيل، تح: مهدي: 1/588.
(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/286.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومَجمَع اللّغة العربيّة، المعجم الوسيط: (عرف)، يُنظر: المراغيّ، تفسير المراغيّ: 4/211.
(4) البصريّ، الحماسة البصريّة، ص: 258.

ولتكن مصاحبتُكُم لِنسائِكم مَبنيَّةً على التَّكريم والمحبَّة والإنصاف، وأداء ما لهنَّ من حقوقٍ، فإن كَرهتموهُنَّ لسببٍ من الأسباب الدُّنيويَّة، فلا تُفارقوهُنَّ على الإطلاق، بالبدار إلى الطّلاق[1]، بل " اصبروا ولا تعجلوا بمضارتهنّ ولا بمفارقتهنّ، فربّما كرهت النّفس ما هو أصلح فى الدّين، وأوفى إلى الخير "[2]، واللّه أعلم بالغيب، فلا مندوحة عن تصديق أحكامه بلا ريب.

دعـــوة إلى نـبـذ مـيراث الـجـاهـلـيّـة، والـحـثّ على المـصـابـرة في الـعـلاقـات الزّوجيّة

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ المَوْصُولِ مَعَ صِلَتِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ﴾:

في قول اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ﴾ جاءَ الاسمُ المَوْصُولُ تَوطِئَةً للأمر المُهِمّ؛ ليناسبَ بناءَ الحكم على صلتِه المعلومة الانتسابِ عندَ المخاطَبينَ، فبُنِيَ الأمرُ بالتَّحريم على اتِّصافهم بالإيمانِ منذُ الزَّمن الماضي تعظيمًا لشأن الإيمان وتمهيدًا لِمَا بعدَه؛ لِيتوجّهَ ذهنُ السَّامع إلى ماسَيُخبَرُ به عنه[3]؛ فإنّ مُقتضَى الاتِّصاف بالإيمان يستلزمُ التّشوّقَ لأمر الشَّارع مُنتظِرًا ورودَه عليه؛ لِيسارعَ في الامتثالِ فعلًا للمأمورِ وتركًا للمنهيِّ عَنْهُ.

الإيمَانُ الصَّادِقُ بَـاعِـثٌ عَـلَى امْتِثَالِ خِطَابِ الشَّرْعِ

نُكْتَةُ العُدُولِ عَنْ إِرَادَةِ المُعَيَّنِ فِي أُسْلُوبِ الخِطَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمۡ﴾:

جاء الكلامُ في قوله سُبحانه: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمۡ﴾ بِأُسْلُوب الخِطاب؛ إذْ ذُكِر ضميرُ الخِطَاب (كُمْ)، والأصلُ في الخطابِ أَن يَكُونَ لِمُعَيّنٍ[4]، وهمُ الموجودُونَ زمنَ نزولِ القُرآن، إلَّا أنَّ المعنى ههنَا على قصدِ العمومِ لكلِّ المؤمنينَ، وفي جميع الأحوالِ والأزمنةِ والأمكنة، وإنّما

انْتِقَاءُ الْقُرْآنِ الْـكَـرِيـمِ الأَسَالِيبَ الْـبَـاعِـثَـةَ عَـلَى الِامْتِثَالِ

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 80، (بتصرّف).
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 4/214.
(3) التّفتازانّي، شرح مفتاح العلوم: 1/340 - 341.
(4) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 180.

جاءَ بأسلوب المخاطبة لِيكونَ أبلغَ أثرًا في نفس المتلقّي؛ فَيَحْمِلُهُ ذلك على الِامْتِثَالِ بتَرْك المنهيّات وفعلِ المَأْمُورَات، لاستحضارِ القارئِ خطابَ اللّهِ تعالَى لَهُ.

دِلَالَةُ الحَرْفِ المَصْدَرِيِّ ﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ﴾:

رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ فِي تَرْكِ مُؤَاخَذَتِهِمْ بِمَا قَبْلَ نُزُولِ التَّشْرِيعِ

أفاد الحرفُ المصدريُّ ﴿أَن﴾ من قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ﴾ أنَّ تحريمَ إرثِ النّساء يتعلّقُ بما بعدَ نزولِ الأمرِ، وقد عفا اللّهُ تعالَى عمّا مَضى؛ لأنَّ (أَنْ) تدُلّ على أنّ حصولَ الفِعْلِ يَكُونُ في المُسْتَقْبَلِ مع مُنَاسَبَتِهِ الزَّمنيّة لـ ﴿لَا﴾ النّافيةِ في قَوْلِهِ: ﴿لَا يَحِلُّ﴾.

بَلَاغَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ﴾ بَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالْإِيجَازِ:

كَرَامَةُ النِّسَاءِ فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

يَحْتَمِلُ أن يكونَ الفعلُ ﴿تَرِثُوا۟﴾ مُتوجِّهًا إلى عَيْنِ النِّساء على أنّ ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ مفعولٌ به لـ ﴿تَرِثُوا۟﴾، فيكونُ في هذا توبيخٌ وتقريعٌ؛ لأنَّهم جعلوا النِّساءَ سلعةً كالمال، يُورَثْنَ عَن الرِّجال المَوْتَى، كما يُورَثُ المالُ، وتقدير المعنى: (لا تَجعلوا النِّساءَ كالمال ترثونَهُنَّ كَرهًا)، فإنَّهُنَّ لا يُورَثْنَ مِنَ المَيِّت، ونكتةُ تعلُّقِ النِّساءِ بالفِعْلِ ﴿تَرِثُوا۟﴾ على أنه مفعولُه: بيانُ كرامتهنَّ عندَ اللّهِ تعالَى.

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ إيجازًا بِحذفِ مضافٍ، والتَّقديرُ: (لا يَحِلُّ لَكم أن تَرِثُوا أموالَ النِّساءِ كَرهًا)، والوراثة هنا تَعودُ إلى المال، وذلك أَنَّ وارثَ المَيِّتِ كان له أن يَمنَعَها مِنَ الأزواج حتّى تموتَ، فيرث مالَهَا[1].

ولا تعارُض بين المعنَيَيْن، ولا مانعَ من حملِ اللَّفْظِ عليهِمَا معًا؛ إذْ كلاهُما تشهدُ أدلَّةُ الشَّرعِ بالنَّهْيِ عنهُ.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/26، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/11.

دِلَالَةُ ﴿كَرۡهٗاۖ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ﴾:

الْأَوْصَافُ الْكَاشِفَةُ أَوِ الْخَارِجَةُ مَخْرَجَ الْغَالِبِ لَا مَفْهُومَ مُخَالَفَةٍ لَهَا

المصدرُ المُنكَّرُ ﴿كَرۡهٗاۖ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكونَ حالًا، وهذا الوجهُ فيه مَسْلَكَانِ:

أحدهما: أن يكونَ المصدَرُ بمعنى اسمِ الفاعلِ، والمعنى: (لا يحلُّ لكم أن ترثوا النِّساءَ وهنَّ كارهاتٌ).

والآخَرُ: أن يَكُونَ بمعنى اسمِ المفعولِ، والمعنى: (لا يحلُّ لكم أن ترثُوا النِّساءَ وهنَّ مُكرَهاتٌ على الأمر)[1].

وَيَحْتَمِلُ أن يكونَ ﴿كَرۡهٗاۖ﴾ مصدرًا لفعلٍ محذوفٍ، تقديرُه: (يَكرَهنَ كُرهًا)؛ لإفادة توكيد كُرهِهنَّ وإقرارِه، ويكونُ الفعلُ مع فاعله (يَكرَهنَ) في موضع نصبٍ حالًا.

والحالُ في جميع الأوجهِ المتقدِّمَةِ وصفٌ كاشفٌ لبيانِ الواقع، وهُوَ إظهارٌ لِمَا يَكْتُمْنَهُ من كُرهِ وِراثةِ الرِّجالِ لهنَّ، أو أنَّهُ وصفٌ خرجَ مَخرجَ الغالب[2]، وما كان الوصفُ كذلكَ؛ فإنَّه لا مفهومَ مخالفةٍ لَهُ؛ فقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ﴾ يُفيدُ أنّ كرهَ النِّساءِ لوراثتهنَّ سببٌ في التَّحريم؛ وَليس الحالُ قيدًا لتحريم الوراثة، فَسَوَاء كَرِهنَهُ أم لَمْ يَكْرَهْنَهُ؛ فوراثةُ النِّساءِ حرامٌ.

سَبَبُ وَصْلِ الْجُمْلَةِ الطَّلَبِيَّةِ: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ بِالْجُمْلَةِ الْخَبَرِيَّةِ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمۡ﴾:

اسْتِحْكَامُ الْمُخَالَفَةِ يَقْتَضِي تَشْدِيدَ النَّهْيِ عَنْهَا وَتَقْوِيَتَهُ

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، والمقامُ مُشتملٌ على تضمينِها معنى الطَّلب؛ لِتكونَ على طريقة النَّهي، والتَّقدير: (لا ترثُوا النِّساءَ كَرهًا؛ فإنّه غيرُ حلالٍ لكم)، ومناسبة مجيءِ الكلامِ على طريقة الخبر هو تأكيدُ نفي

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/567.

(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: 3/628.

الحِلِّ، ووجهُ تأكيد نفي الحلِّ هو استحكامُ هذه العادَةِ عند القوم رغبةً في متاع الدُّنْيَا، فناسبَهُ تقويةُ النَّهي، وفي هذا التَّأكيد أيضًا: إظهارُ كرامةِ النِّساء، ولو وردَ النَّظمُ القرآنيُّ: (لا تَرِثُوا النّساءَ كرهًا)؛ لفاتَ هذا المقصدُ الدّلاليُّ الاجتماعيُّ.

والحاصلُ أنَّ قولَه تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ﴾ خبرٌ في معنى الطَّلب، وأمَّا قولُه سُبحانه: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فجملة إنشائيَّةٌ؛ لكونِهَا أسلوبَ نَهْيٍ؛ إذ (لَا) ناهيةٌ والفعلُ مجزومٌ بها، والواو: عاطفةٌ بين الجملتين؛ جملَةً طلبيَّةً على جملةٍ خبريَّةٍ بمعنى الطّلب، والعبرةُ في باب الوصلِ والفصلِ بمعاني الجُمَلِ لا بمجرَّدِ ألفاظِهَا، فناسبَ المقامُ الوصلَ، لاشتراكِ الجملتَيْنِ في الإنشاء، مع وجودِ مناسبةٍ بينهما؛ وهو التَّماثُلُ في الإكراه، وفي أَنَّ مُتعلَّقَهُ سوءُ معاملةِ المرأَة، وفي أَنَّ العَضلَ لأَجل أَخذ مالٍ منهُنَّ[1]، فيكون سببُ الوصلِ التوسُّطَ بين الكمالَيْنِ.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾:

لَا يَجُوزُ تَحْصِيلُ النَّفْعِ بِالْوُجُوهِ المُحَرَّمَةِ

عُبِّر عن أخذ المالِ بالذَّهاب به، لا بالأخذِ ولا الإذهاب؛ لِيكونَ ذلك على طريقة المجازِ بالاستعارةِ في الأخذ؛ فقد شُبِّهَ أخذُ الشَّيءِ بالذَّهابِ بهِ بجامعِ النَّقلِ من حيِّزِهِ إلى حيِّزِ الآخذِ، فحذِفَ المشبَّه وصُرِّحَ بالمشبَّه به، على طريقةِ الاستعارة التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، والنُّكْتَةُ في ذلك: المبالغةُ في تَقْبِيحِه بِبَيَانِ تضمُّنِه لأمرين؛ كلٌّ منْهُما محظورٌ شنيعٌ: أخذُ مالِهنّ والإذهابُ منهنّ - لأنَّه الذهابُ مُسْتَصْحَبًا به -؛ لِيفيدَ أنَّ فعلَهُم هو رغبةٌ في تحصيل النَّفع منهنّ، وإنْ كان فيه مسُّ كَرامتهنَّ، ودلّ عليه مجيءُ الباء في ﴿بِبَعْضِ﴾ وهِيَ للمصاحبة، والمعنى: لتَذهَبوا مَصْحُوبِينَ بِبَعْضِ مَا آتيتُموهنَّ[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/569، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/284.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/568، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/158، وابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/285.

دِلَالَةُ الِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾:

تحريمُ عضلِ النِّساءِ تحريمًا مُطْلقًا

جاء الاستِثْنَاءُ في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ ليدلّ على العُمُوم؛ إذِ الاستثناءُ معيارُ العموم، وهو استِثناءٌ مُتَّصلٌ، من أعمِّ الأحوال أو أعمِّ الأوقات أو أعمِّ العِلَلِ، وليس في الكلام أعمّ مِنْ هذا الاستثناء، والمعنَى: لا يحلّ لكم عضلُهنّ في حالٍ من الأحوال أو في وقتٍ من الأوقات أو لعلّةٍ مِنَ العِللِ إلّا في حال إتيانِهنّ بفاحشة مُبيّنة أو إلّا في وقْتِ إتيانِهنّ أو إلّا لإتيانهنّ بها[1].

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مُّبَيِّنَةٖۚ﴾:

التّكامُلُ الدّلاليُّ في تنوّعِ القِراءَاتِ

قرأَ نافعٌ وأبو عَمرو وابنُ عامر وحفصٌ عن عاصم وحمزةُ والكِسَائيُّ قولَهُ تعالى: ﴿بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ بكسر الياء مشدَّدَةً: ﴿مُّبَيِّنَةٖۚ﴾، وقرأَ ابنُ كَثيرٍ وشعبةُ عن عاصم بالفتح والتّشديد (مُبَيَّنَة)، فعلى قراءةِ الكَسْرِ تكون هي الفاعِلَةَ؛ أي: الفاحشة هي الّتي تُبيِّنُ حالَ مُرتكِبها، وعلى قراءة الفتح؛ يكون المعنى: أَظهَرَهَا صاحِبُها[2]، وهما قِرَاءَتَانِ مُتَكَامِلَتَانِ، فالفَاحِشَة يُظهِرُهَا صَاحِبُها بفعلِهِ لهَا، ولِعَظِيم قُبْحِهَا صَارَتْ كأنَّها هِيَ فَاعِلُ التَّبيين.

دِلَالَةُ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾:

دفْعُ الإسلامِ المَضارَّ عنِ النِّساءِ وجَلْبُهُ المَصالِحَ إليهنَّ

الأمرُ في قوله سبحانه: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ يُرادُ به الإلزامُ على أصلِ دِلالَتِه، وفيه معنَى الإرشادِ؛ لما فيه من تحقيق المصالِح.

ومجيءُ الأمرِ بالمعاشرة بالمعروف بعدَ النَّهي عن العَضْلِ يفيدُ تأكيدَ الاعتناءِ بشأن النِّساءِ وإكرامهنَّ؛ إذْ لم يُكْتَفَ بالنَّهْي عن الإضرارِ بهنَّ، بل زِيدَ على ذلك الأمرُ بإكرامهنَّ وعشرتِهنَّ بالمعروف.

وجملة ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ اعتراضٌ، فيه معنى التَّذييل لما

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/568، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/158.

(2) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/298، والعكبريّ، التّبيان: 1/341، وابن الجزري، النشر: 2/248.

تَقدَّمَ مِنَ النَّهي؛ لأَنَّ حُسنَ المُعاشرةِ جامِعٌ لِنَفي الإضرار والإكراه، وزائدٌ بمعاني إحسان الصُّحبة(1).

وتقديمُ النَّهيِ عَنِ العَضْلِ عَلَى الأمر بالمُعَاشَرَة بالمَعْرُوف هُو من بَابِ التَّخلِيَة قبلَ التَّحلية.

الأَمْرُ بِمُعَاشَرَةِ النِّسَاءِ بِأَنْوَاعِ المَعْرُوفِ: القَلْبِيَّةِ وَالقَوْلِيَّةِ وَالفِعْلِيَّةِ

دِلَالَةُ البَاءِ وَالتَّعْرِيفِ بِاللَّامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾:

أفادتِ الباءُ في قوله: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ معنى المُلَابَسَةِ، والمعنى: وعاشروهنّ مُتَلبّسِين بالمعروفِ غيرَ مُنْفَكّينَ عنهُ.

واللّامُ للجنسِ، وهي مفيدةٌ استغراقَ أنواعِ المَعْرُوف، والمعنى: عاشروهنّ بكلِّ نوعٍ من أنواع المعروف قلبيًّا كان أو قوليًّا أو فعليًّا، كما أنَّ استغراقَ أنواعِ المعرُوفِ يُوحي بأنَّ لكلّ امرأةٍ معروفًا يليقُ بها.

والأَمْرُ في قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ يستلْزِمُ النّهيَ عن الإساءة إليهنّ، إذِ الأمرُ بالشّيءِ يسْتَلْزِمُ النَّهْيَ عن ضدِّه.

المَعْرُوفُ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِمَعَانِي الخَيْرِ

بَلَاغَةُ إِيجَازِ القِصَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾:

قول اللّه تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ مِن جوامع الكَلِم، فهي قليلةُ اللَّفْظِ عظيمةُ المعاني غَزيرَتُهَا.

والعشرةُ: هي المخالطةُ والملابسةُ، وقد أُكِّدَتْ هذه الملابسَة بِمَجِيءِ الباءِ الّتي لِلْمُلَابَسة - كما تقدّم - ؛ والمعروفُ كلمةٌ جامعةٌ لكلِّ معاني الخَيْرِ.

تَشَوُّفُ شريعَةِ الإِسْلَامِ إِلَى الاجْتِمَاعِ وَتَنْفِيرُهَا مِنَ الافْتِرَاقِ

دِلَالَةُ الفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ﴾:

الفاءُ في قوله: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ﴾ تفريعيَّةٌ، وقد فَرَّعت ما بعدَها على لازم الأَمْرِ في قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾، ولازِمُ حُسْنِ المُعَاشَرَةِ هو النَّهيُ عَن سُوئِهَا، والمعنى: فإن وُجِدَ سببُ سُوءِ المُعاشرة وهو الكراهيةُ؛ فلا تُفَارِقُوهنَّ؛ إِذْ قَد يَجْعَلُ اللّه تعالى في بَقَائِهِنَّ في عِصْمَتِكُم خَيْرًا كَثِيرًا.

---

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/286.

فسياقُ الآية فيهِ الحثُّ على إمساكِهنَّ وصُحبَتِهنَّ، وإن كَرِهَ الإنسانُ منهنَّ شيئًا مِن أَخلاقِهنَّ[1].

دِلَالَةُ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بِ (إِنْ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾:

الْتِزَامُ الْوَصَايَا الشَّرْعِيَّةِ يُحَافِظُ عَلَى تَمَاسُكِ الْأُسَرِ الْمُسْلِمَةِ

عُلِّقَ الشّرطُ في الاستقبال بِـ (إنْ) دون (إذَا) في قوله سُبحانه: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾؛ لأنَّ (إنْ) في أصلِ دِلالَتِهَا تدلُّ على الشَّكِّ بوقوع الشَّرطِ، وهَذا هُوَ المناسبُ للمقام؛ لأنَّ وقوعَ كراهةِ المرأةِ في قلبِ زوجِهَا ليس مقطوعًا بِهِ، بل إنَّ التَّعليق بـ (إنْ) مشعِرٌ بقلَّة وقوع هذه الكراهَةِ؛ إذِ المسلِمُ إذا امتثَلَ خطابَ الشَّرعِ في عِشْرَةِ امرأَتِه بالمعرُوفِ؛ بادَلَتْهُ العِشْرةَ كذلكَ؛ فيبعُدُ حينئذٍ وقوعُ الكراهةِ بينَهُمَا.

تَعْيِينُ مُتَعَلَّقِ (عَسَى) من قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾:

كَرَاهَةُ الْأَنفُسِ الشَّيءَ لَا تَقْتَضِي انْتِفَاءَ الْخَيْرِ مِنْهُ

(عسى) تدلُّ على الطَّمعِ والتَّرجِّي في أصلِ وضعِهَا[2]، وتَرِدُ (عسَى) مِنَ اللّه تعالى؛ فتكون واجبةً -كما قاله ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما[3]-، وقد تدلُّ على إدخالِ الرَّجاءِ في قلوبِ المتلقِّين للخِطَاب.

و(عسَى) في قولِه: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ تُفِيدُ الحصولَ في المستقبل القريب؛ وفي ذلك حثٌّ للأزواج على إِمْسَاكِ نسائهم وعدَم مفارقتهنَّ، ومَنَاطُ المُقاربةِ والرَّجاءِ هو مَجموعُ المَعطوفِ والمَعطوفِ عليه، بدلالة القرينة على ذلك[4]، فيكون ﴿وَيَجۡعَلَ﴾ معطوفًا على ﴿تَكۡرَهُواْ﴾، و(عَسَى) داخلةٌ على الجُمْلَتَيْن، ولذَا لَم تكرَّر (عسى)؛ إذِ المَقْصُودُ هُوَ الحاصِلُ مِن مَجْمُوعِ الجُمْلَتَيْن، فدلّت (عَسَى) على الإِطْمَاعِ في حُصُول الخَيْر، وأَنْ لا تَحْمِلَهُمُ الكراهةُ على سُوءِ المُعاشرة.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/568، وابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/286.

(2) الرّاغب، المفردات: (عسى).

(3) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 3/905.

(4) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/286.

نُكْتَةُ إِقَامَةِ الْعِلَّةِ مُقَامَ جَزَاءِ الشَّرْطِ فِي قوله: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾:

حِفْظُ الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ لِلْبُيُوتِ وَصِيَانَتُهَا لِلأُسَرِ وَتَكْرِيمُهَا لِلنِّسَاءِ

مُقتضَى ظاهِرِ الشَّرْطِ أن يكُونَ جَزاؤُه: (فلا تُفَارِقُوهُنّ لِكَراهَةِ الأَنْفُسِ)، إلَّا أنَّهُ حُذِف، وأُقِيمَتْ عِلَّتُهُ - وهو قولُه: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا﴾ - مُقَامَهُ في التّنزيل[1]؛ إيذانًا بقوّة اسْتِلْزَامِ العلّة لِلْجَزاءِ المَحْذُوفِ، وفي هَذا نِكَاتٌ:

أُولَاها: إقامَةُ الحُجَّة عَلَيْهِم، وإِقْنَاعُهُم بإِمْسَاكِهِنّ؛ لِظُهور العلّة وقُوّتها.

ثانِيها: تجنُّبُ لَفْظِ المُفَارَقَةِ أو ما يدلُّ على مَعْنَاهَا؛ تكريمًا للنّساء، وحِفْظًا للبيوت، وصيانَةً لها عَنِ التّفكّك.

ثالثُهَا: التَّوسّلُ إلى تَعْمِيم المَفْعُول ﴿شَيۡـٔٗا﴾؛ لِبيان أنّ تَرْتِيبَ الخيرِ الكثيرِ مِنَ اللّهِ تعالى ليسَ مَخْصُوصًا بمكروهٍ دُون آخَرَ، بل هو سنةٌ إلهيّة جاريةٌ على الإطلاق حَسَبَ اقْتِضَاء الحكمة، وأنّ ما نحن فيه مادّةٌ مِن موادّها[2].

دِلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ وَنُكْتَةُ إِقَامَةِ الظَّاهِرِ مَوْقِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾:

قَدْ تُوجَدُ الْخَيْرَاتُ فِي بَوَاطِنِ الْمَكْرُوهَاتِ

تنكيرُ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ من قوله تعالى: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا﴾ أفادَ الإطلاقَ، وهو عُمومٌ على جهةِ البدَلِ لا على جهةِ التَّناوُلِ دَفعةً واحدةً، فهي شاملةٌ كلَّ ما يكرهُهُ المرءُ ممَّا يتطلَّبُ منه الصَّبْرَ عليهِ، ويدخُلُ فيه كلُّ ما يمكن أن يَكْرَهَهُ الرّجلُ مِنَ المرأة ممَّا يُطلَق عَلَيْهِ أنَّه شَيْءٌ، حسِّيًّا كانَ أو معنويًّا.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/66، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/483.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/158.

ولم تُعلَّقِ الكراهَةُ بِضَميرِ النِّساءِ، بأن يكون النَّظمُ القرآنيُّ: (فعَسَى أَن تَكرَهُوهُنَّ)، بل عُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظْهَارِ؛ لإفادةِ العموم، وليكون اللَّفْظُ جاريًا مجرَى الأمثالِ، وهذا مِن عجيب فصَاحَةِ القُرآن[1].

دِلَالَةُ الْفِعْلِ ﴿وَيَجْعَلَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾:

الفعلُ ﴿وَيَجْعَلَ﴾ من أفعال التَّحويل والتَّصيير، فمعنَى قولِهِ تعالَى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: يُحَوّلُ اللّهُ تعالَى ذلك الشَّيءَ الّذي تكرهونَه خَيرًا، والتَّحويل تغييرٌ للشَّيءِ من حالةٍ إلى أخرى، وفي ذلك إيذانٌ بأنّ اللّه تعالى يجعل مآلَ المكروهاتِ إلى خيرٍ كثيرٍ بإذنه سُبحانه، وذلك للإرشاد إلى التمسّك بالأزواج اللَّاتي يقعُ كُرهُهُنَّ لأمرٍ مِن أمور الدُّنيا، طمعًا في الخير الكثيرِ مآلًا.

الْعِبْرَةُ بِالْخَيْرِ فِي الْمَآلِ

تَعْيِينُ مَرْجِعِ الضَّمِيرِ (فِيهِ) وَدِلَالَـةُ حَرْفِ الْجَرِّ (فِي) مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾:

يَعُودُ الضّميرُ ﴿فِيهِ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ إلى ﴿شَيْـًٔا﴾[2]، ولفظُ ﴿شَيْـًٔا﴾ هُو أعمُّ النَّكراتِ؛ لِيشملَ كلَّ ما يُطلَقُ عليه شيءٌ مادّيًّا كان ذلك أو معنويًّا.

المِحَنُ فِي طَيَّاتِهَا مِنَحٌ

وجِيءَ بِحَرْف الجرِّ (في) الدّالِّ على الظّرفيّة القارّة؛ لإفادةِ رجاءِ تضمّنِه في حقيقته الخيرَ الكثيرَ.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿فِيهِ﴾ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ وَصِفَتِهِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهِ﴾ على المفعول به وصفتِهِ ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ مِن قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾؛ لإفادة العنايَةِ والاهتمامِ بالشَّيء الّذي يكون فيه الخيرُ الكثيرُ، وهو في ظنِّ

عِنَايَةُ الشَّرِيعَةِ بِالْفَأْلِ الْحَسَنِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/28، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/570.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/123.

صاحبِه مكروهٌ يَنْبَغِي مفارقتُه، وفيه إدْخَالُ الفألِ على قلوب العبادِ ولو كَانُوا فِي أَضْيَقِ الأَحْوَالِ وأَشَدِّها.

وليس في هذا التَّقديمِ دِلالَةٌ على الاختصاصِ؛ إذْ لو كان كذلك لدلَّ على أنَّ الخيرَ الكثيرَ لا يُوجَدُ إلَّا فيما هو مكروهٌ للعَبْدِ، وليس الأمرُ كذلك.

نُكْتَةُ التَّنْكِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾:

رَغْبَةُ الشَّرْعِ فِي الاجْتِمَاعِ وَالائْتِلَافِ

نُكّرَ ﴿خَيۡرٗا﴾ وصفته ﴿كَثِيرٗا﴾ من قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾؛ لقصدِ المُبَالَغة في الحَمْلِ على تَرْكِ المُفَارَقَة، وتعميمًا في الإرْشَاد[1]، وفيه تفخيمٌ ذاتيٌّ للخيرِ وتَعْظِيمٌ لَهُ، ووصفُه بـ ﴿كَثِيرٗا﴾ لبيان فَخَامتِه العرضيَّةِ الوَصْفيَّة[2].

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾:

تَضَمُّنُ الأَلْفَاظِ القَلِيلَةِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ مَعَانِيَ غَزِيرَةً

قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ من جوامع الكلِم في القرآنِ الكَريم، وهوَ تذييلٌ جارٍ مَجرَى المثَلِ؛ لاستقلالِه بالإفادةِ وعدم افتقارِه إلى ما قبلَهُ في الوقوفِ على أصلِ معناهُ، وقد تضمَّنتْ هذه الجملةُ معانيَ متنوّعةً متكاثرةً، وممَّا تُوُسِّلَ به إلى هذه الوفرةِ في المعاني العدُولُ عنِ الإضْمَارِ إلى الإظهَارِ؛ إذْ لم يَرِدْ نظمُ القرآنِ: (فَعَسى أنْ تكرهوهنَّ)؛ ليُعْدَلَ عن التَّخصيصِ بشأنِ النِّساءِ إلى التَّعميم الذي تُشعِرُ به كلمةُ ﴿شَيۡـٔٗا﴾.

بَلَاغَةُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾:

دِقَّةُ اخْتِيَارِ الأَلْفَاظِ المُلَائِمَةِ لِسِيَاقَاتِهَا

وردَ هنا قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾، وجاءَ في سورةِ البقرةِ قولُ اللّه سُبحانه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/452.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/158.

تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: 216]، فذُكِرَ الطّرفَان في سورة البقرةِ، بخلاف آيةِ النِّساء فقد اقْتُصِرَ على حالِ حصولِ الكراهية لِشَيءٍ فيهِ خَيرٌ كثيرٌ، دونَ التَّنصيصِ على مُقابِله،، وذلك أنَّ سياق قولِه تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 216]؛ سياقُ بيَانِ طَرَفَي الحقيقةِ: الخيرِ والشّرِّ؛ إذِ المُخاطَبونَ فيها كَرِهوا القتالَ، وأَحبُّوا السِّلمَ، والواقع أنَّ الخير قد يوجَدُ فيما كرِهُوهُ منَ القِتَال، وأنَّ الشَّرَّ قد يكونُ فيمَا أحبُّوه مِنَ السّلمِ، فذِكْرُ الطّرفين كانَ لِمُنَاسَبَةِ القِتَالِ والسّلم.

أَمَّا المقامُ في سورةِ النِّساء؛ فهو لِبيانِ حُكمِ مَن وقعَ بَينَه وبينَ زَوجِهِ ما كَرِهَهُ فيها، ورَامَ فِرَاقَها، وليس له معَ ذلك ميلٌ إلى غيرِها، فناسب ذلك بيانَ ما في كثيرٍ مِنَ المَكروهاتِ مِنَ الخَيراتِ، ولا يُناسِبُ أن يذكرَ ما في كثيرٍ مِنَ المَحْبُوبَاتِ مِنَ الشُّرور؛ كي لا يفتحَ لهم بابًا إلى الفِراقِ مَيْلًا إلى هواهُم(1).

مَــنْ يَـمْـتَـثِـلْ خِطَابَ الشَّرْعِ يَـجْـعَـلِ الـلـهُ تَـعَـالَى عَـاقِـبَـةَ أَمْرِهِ كُلِّهِ خَيْرًا

وقدِ اختلفَ الإسنادُ في آيةِ النِّساءِ عن آيةِ سُورَةِ البقرة؛ إذْ أُسْنِدَ جَعْلُ الخَيرِ في المَكروهِ هنا للهِ سُبحانه، فقال تعالى: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾، وذلك يقتضي أَنَّهُ يكون خيرًا بتَصْيِيرِ اللّٰه له، فهو جَعلٌ عارِضٌ لِمَكروهٍ خاصٍّ، وقال في سورة البقرة: ﴿وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾؛ لإفادة أنّه حقيقة ثَابِتَةٌ، ولكنّها خفيّة، فيظْهِرُها اللّٰه تعالَى، فيُعلَم كونُها خيرًا أو شرًّا؛ لِيكونَ رجاءُ الخيرِ مِنَ القتالِ مُطَّرِدًا في جميع الأَحوال غيرَ حاصلٍ بجَعلٍ عارضٍ، بخلاف هذه الآية، فإنَّ الصَّبرَ على الزَّوجة المُؤذيةِ أَوِ المَكروهة إذا كان لأَجل امتثال أَمر اللّٰه تعالى بِحُسْنِ مُعاشرتها، يكونُ جَعلُ الخيرِ في ذلك جَزاءً مِنَ اللّٰهِ على الامتثال(2).

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/288.

(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/288.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ٢٠﴾ [النّساء: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكر اللّه تعالى في الآية الأُولى مُضارّة الزَّوجات - إذا أَتَين بفاحشةٍ - بَيَّنَ في هذه الآية تَحريمَ المُضارَّة في غير حال الفاحشة، ونهى عن بَخسِ المرأةِ حقِّها مِنَ المَهرِ إذا أرادَ الرَّجلُ طلاقَها، وتزوُّجَ غيرِها، فليس المَهر للمرأةِ مَوقوفًا على التَّمَسُّك بها، حتَّى إذا أرادَ الاستبدال جازَ له أخذُه، بل هو تَمليكٌ صحيحٌ لها لا يجوزُ الرُّجوع فيه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾: الرَّوْدُ: التّردُّد في طلب الشَّيء برفق، يُقال: رَادَ وارتَادَ، والإرادَةُ مأخوذةٌ من رادَ يَرودُ: إذا سعى في طلب شيءٍ، أو من الرَّيْد: الحَيد في الجبل كالحائط، وهو الحرف النّاتئ منه، وأراد الشّيءَ: أحبَّه وعُنِيَ به، والإرادَةُ في الأصل: قوَّة مُركَّبة من شهوةٍ وحاجةٍ وأَملٍ، وجعل اسمًا لنُزوع النَّفس إلى الشَّيءِ، وهو: ذَهاب النَّفس إلى الشّيء طلبًا ورغبةً قويَّةً في تحصيله، وكلُّ ما جاء في القرآن من هذا التركيب فهو من الإرادة بهذا المعنى عدا (المراودة)، و(رُوَيدا)[2].

2) ﴿ٱسْتِبْدَالَ﴾: الإبدال والتَّبديل والتَّبَدُّل والاستبدال: جَعلُ شيءٍ مكان آخر، يُقالُ: هذا بَدَلُ الشَّيء وبَديلُه، وبَدَّلتُ الشَّيءَ: إذا غَيَّرتُهُ، وإن لم تَأْتِ له ببَدَلٍ، قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ﴾ [يونس: 15]، وأَبدَلتُهُ: إذا أَتَيتُ له ببَدَلٍ[3].

3) ﴿زَوْجٍ﴾: الزَّاءُ والواو والجيم أَصلٌ يدُلُّ على مُقارَنَةِ شيءٍ لِشيءٍ، من ذلك الزَّوجُ زَوجُ المرأَة، والمرأَةُ زَوجُ بَعلِها، وهو الفصيحُ فيها دون تاء، قال اللّه تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، يُقالُ: لفلانٍ زَوجانِ مِنَ الحَمَام، يعني: ذكرًا وأُنثى[4].

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 6/400، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/29.

(2) الخليل، العين، الرّاغب، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رود، ريد).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بدل).

(4) الخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللغة: (زوج).

4) ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ﴾: الإيتاءُ: الإعطاءُ، تقولُ: آتَى يُؤتي إيتاءً، وَلَا يُقَالُ: واتَيْتُ - بإبدال الهمزة واوًا - إلَّا في لُغَةٍ قَبِيحَةٍ في الْيَمَنِ، فآتى بالمدِّ تُستعمل في الإعطاء، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم: 12].

وخُصَّ دَفعُ الصَّدقة في القرآن بالإيتاء، نحو: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: 277][1].

5) ﴿إِحۡدَىٰهُنَّ﴾: من وَحَدَ، فالْوَاوُ وَالْحَاءُ وَالدَّالُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الِانْفِرَادِ، والهمزُ فرعٌ، أُبدلت فيه الهمزة من الواو، يقال: مَا اسْتَأْحَدْتُ بِهَذَا الْأَمْرِ، أَيْ: مَا انْفَرَدْتُ بِهِ، والأَحَد: هو بمعنى الواحِد، وهو اسمٌ لمن يصلح أن يُخَاطَب، يَستوي فيه الواحد والمثنَّى والمجموع، والمذكَّر والمؤنَّث، يُراد به جمعٌ منَ الجنس الَّذي يدلُّ الكلام عليه[2].

6) ﴿قِنطَارٗا﴾: هو عربيٌّ، مشتقٌّ من (قَنْطَر)، ويدور معناه حول تخطٍّ بتوالٍ: مرَّة بعد أخرى: كما يُعبَر بالقنطرة النَّهرُ ونحوُه، ومنه: قنطرَ الرّجلُ: ترك البدوَ، وأقام بالأمصار والقُرى، أي: تخطَّى حياةَ البادية هَجْرًا لها، ويُجمَعُ القنطار على القناطير، ويذكر أنَّه مُعَرَّبٌ، وهو - على هذا - من جهة التَّصريف مُخَرَّجٌ على قولِ العرب: قَنطَرَ الرَّجُلُ يُقَنطِرُ قِنطارًا: إذا مَلَكَ مالًا كثيرًا، كأَنَّه يُوزَنُ بالقِنطار، فأَصلُ القِنطارِ في كلام العرب: الجملةُ الكثيرةُ مِنَ المال، واختُلِفَ في قَدرِهِ وتفسيرِهِ على أَقاويلَ كثيرةٍ كُلُّها تَؤُولُ إلى معنى الشيء الكثير، وهو وجمعه ما ورد في القرآن منَ التّركيب[3].

7) ﴿تَأۡخُذُواْ﴾: الأَخذُ: تَناولُ الشّيء والحُصولُ عليه، وأَصلُه: حيازَةُ الشّيء وجَمعُهُ، وضِدُّه: العَطاءُ والتّسليمُ[4].

8) ﴿بُهۡتَٰنٗا﴾: أَصلُ كلمة البُهتان والبَهْتِ: التّحَيُّرُ والدّهشَةُ، يُقالُ: بُهتَ الرَّجُلُ، أَي: دَهِشَ وتَحيَّرَ، وهو: الكَذِبُ والافتراءُ، وسُمِّيَ الافتراءُ بُهتانًا؛ لأَنَّه يُدهِشُ الشَّخصَ ويُحَيِّرُهُ لفظاعة ما سَمِعَ، فالبُهتانُ كَذِبٌ يُحَيِّرُ الإنسانَ، ومن معانيه أَيضًا: العَجزُ والضَّعفُ[5].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أتي)، والرّاغب، المفردات: (أتى)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أتو، أتى).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وحد)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 53، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أحد).

(3) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (قنطر).

(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (أخذ).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بهت).

9) ﴿وَإِثْمًا﴾: أصل الكلمةِ يدلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، ومنه اشتُقَّ الإثمُ؛ لأنَّ صاحبَ الإثم بَطيءٌ عن الخير مُتأخِّرٌ عنه، يُقال: أَثِمَ فُلانٌ، يَأثَمُ، إثمًا ومأْثَمًا: إذا أذنَبَ وارتَكَبَ إساءَةً أو خَطيئَةً، فهو آثِمٌ وأَثيمٌ، والإثمُ: الذَّنبُ، أو: الذَّنبُ الّذي يَستَحِقُّ فاعِلُه العُقوبَةَ عليه، وهو أعمُّ مِنَ العُدوان، وكلُّ ما في القرآن من تركيب (الإثم) فهو بمعنى الوِزْر والذَّنْب، ومِن معانيه أيضًا: الخَمرُ، والقِمارُ، والجمعُ: آثامٌ[1].

10) ﴿مُّبِينًا﴾: أصلُ البَيْنِ بُعْدُ الشَّيْءِ وَانْكِشَافُهُ، وبانَ الشَّيء وأبانَ: إذا اتَّضح وانكشَفَ، والبَيِّنُ: الواضِحُ، والبَيْنُ: البُعدُ والفِراقُ، يُقال: بانَ، يَبين، بينًا وبَينُونةً، أي: فَارقَ وبَعُدَ.

ومِن معاني البَيان أيضًا: التَّفسير، والتَّفصيل، والبَسط، والفَصَاحة، والإثبات[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

إن أَردتُّم - أيّها الأَزواج - تطليقَ امرأةٍ، واستبدالَ غيرها بها؛ فلا حَرجَ عليكم في ذلك، وإن كنتم أعطيتُم الَّتي عَزمتم على فِراقها مالًا كثيرًا مهرًا لها؛ فلا يَجوزُ لكم أَخذ شيءٍ منه، فإنَّ أَخذ ما أعطيتموهنَّ - التي فارقَها أو التي تزوَّجها - يُعدُّ افتراءً مُبينًا وإثمًا واضحًا![3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ وَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾ بِمَا قَبْلَهُ:

تَـوْسِـيـعُ الـلـهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ فِيمَا لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِتَحَمُّلِهِ مِنَ المَكْرُوهَاتِ

لَمَّا ذكر اللّه تعالى كراهيةَ الزَّوجِ لزوجه في قوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ [النّساء: 19]، ولا جَرَمَ أنَّ الكَراهيةَ تَعقُبها إرادةُ استبدالِ المَكرُوه بضدّه؛ عطفَ الشَّرطَ في ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾ على الَّذي قبلَه استِطرادًا واستيفاءً للأَحكام[4]؛ والجامعُ بين الجملتين وَهْميٌّ؛ إذْ بينَهما تضادٌّ، فقوله سبحانه: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ [النّساء: 19]،

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أثم).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (بين).
(3) جماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 81.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/288.

يُشعِرُ بالإبقاءِ على الزَّوجيَّةِ، وقولُهُ: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾ مؤذِنٌ بالانْفصالِ، وحسَّنَ العطفَ بينهما ما فيهما من التَّناسُبِ؛ إذْ قدِ اشترَكَتا في كون كلٍّ منهما جملةً شرطيَّةً، والاتِّفاقِ في المسندِ إليهِ.

نُكْتَةُ التَّصْرِيحِ بِفِعْلِ الْإِرَادَةِ بَعْدَ أَدَاةِ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾:

اسْـتِـبْـدَالُ الْأَزْوَاجِ لَيْسَ مِنَ الْمَطْلُوبَاتِ الشَّرْعِيَّةِ

الفعل الواقع شرطًا تارةً يأتي غير مصرّح فيه بالإرادة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾ [النّحل: 98]، وقوله سُبحانه: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: 6] مع أنَّ المُراد: إذا أردتَ أن تقرأَ القرآن، وإذا أردتُم القيامَ إلَى الصَّلاة، وتارةً يأتي مُصرَّحًا فيه بالإرادة، كما في آية النِّساء هذه ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾.

وأُقيمَتِ الإرَادَةُ في قَوْلِه: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾ مُقامَ الفِعْلِ، والمعنَى: (وإنِ اسْتَبْدَلْتُم)، أَوْ أنَّ المعطوفَ محذوفٌ، والمعنى: (وإنْ أَرَدْتُم استبدَالَ زَوْجٍ، واسْتَبْدَلْتُموهَا)[1].

والنُّكْتةُ في ذلك: أنَّ فعل الشَّرط إذا كان مرادًا وقوعُهُ شرعًا؛ أُمِرَ به في صورةِ الواقع، حتَّى كأنَّه أرادَهُ وفعلَهُ، كالواردِ في آية الوضوءِ، بخلاف ما إذا لم يكن فعلُ الشَّرطِ مرادًا وقوعُهُ شرعًا؛ فإنَّه يُسنَدُ إلى إرادةِ العَبْدِ، كالوارد في هذه الآية وهي قولُهُ: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾، فإنَّ استبدالَ الزَّوْجِ ليس مِنَ المطلوباتِ الشَّرعية[2].

والشَّرط المذكور في قوله سبحانَهُ: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ جارٍ على الغالبِ، فلا مفهومَ مخالفةٍ له، فلو أنَّ الرَّجُلَ طلَّقَ المرأةَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/571.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/17.

وهو لا يُريد أن يتزوَّج غيرهَا، وإنَّما أرادَ الوحدَة وعدمَ التَّقيُّدِ بامرأةٍ ومؤنَتِهَا؛ فإنَّه لا يجوزُ له أن يأخذَ شيئًا من مالِهَا.

سِرُّ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بِـ(إِنْ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾:

لُـــزُومُ التَّثَبُّتِ وَحُسْنِ النَّظَرِ فِي مَآلَاتِ الْأُمُورِ

في تعليقِ الشَّرط بـ ﴿وَإِنْ﴾ في قولِه تعالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾، وهي في الأصلِ دالَّةٌ على عدم الجزْم بمدخُولِهَا؛ وذلك للإيماءِ إلى أنّ الإرادَةَ قَد لَا تَكُون سَليمَةً، وَلَا مَبْنِيّة علَى أَسْبَابٍ قويّة[1]، فعلى الزّوج أن يتريّث ويتَثَبَّت، ويحسن التّدبّر في عواقِبِ الأمُور[2].

وفي تعليقِ الشَّرط بـ ﴿وَإِنْ﴾ أيضًا إيماءٌ إلى عدمَ تطلُّعِ الشَّرعِ وتشوُّفِهِ إلى وقوعِه، ويُقَوِّيه ما تقدَّم من نكتةِ التَّصريح بفعلِ الإرادَةِ، بخلاف آية الوضوءِ فقد عُلِّقَ الشَّرطُ فيها بـ (إذَا) فقال سُبحانه: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: 6]، وكذا في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾ [النّحل: 98]؛ لما تُفيده (إذا) من الجَزْم بوقوعِ مدخُولِهَا، ففيه تفاؤلٌ بامتثالِ العبدِ وإخراجٌ لعمله في صورة الواقع[3].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ ﴿ٱسْتِبْدَالَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾:

الـسَّـتْرُ عَـلَى الـنِّـسَـاءِ مِـمَّا يُحْمَدُ شَرْعًا

السّين والتّاء في ﴿ٱسْتِبْدَالَ﴾ يُرادُ بهَا تأكيدُ الحَدَثِ وبيانُ قُوَّته، فهِيَ كقولِه تعالَى: ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ [التّغابن: 6]، وكَقَوْلِهِم: اسْتَجَابَ، بمعنَى: أجَابَ، واسْتَكْبَرَ، بمعنى: قويَ كِبْرُهُ، والمرادُ بالِاسْتِبْدَالِ في الآية: طلاقُ امرأةٍ سَابقَةٍ، وتزوّجُ أخرَى[4].

ويجوزُ أن تكون السِّين والتَّاءُ مرادًا بها الطَّلَبُ - علَى ما هُوَ الغالِبُ فيهَا - ، فمعنى الاستبدَالِ: طَلَبُ البدَلِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1623.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/94.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/17.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/288.

وفي اخْتِيَار لَفْظِ الاسْتِبْدَالِ إشعارٌ بأنَّ هذا رغبةٌ في نفسِ الزَّوْجِ لفراقِ زوجةٍ ونكاحِ أُخرى، من غيرِ تعرُّضٍ لذِكْرِ سببٍ في المرأةِ يَقْتَضِي فراقَهَا؛ وذلك سَتْرًا لَهَا، وحَسْمًا لمادَّةِ الطَّعْنِ فِيهَا الذي يلحَقُ المُفارقَاتِ عادةً.

وفيهِ دِلالةٌ على أنَّ الطَّلاقَ قَدْ لا يكُونُ له سَبَبٌ إلَّا إرادةُ التّزوّجِ منِ امرأة أُخرى، فَتَنَاسَب هذَا التّعبير بالاِسْتِبْدَال، ونهَى الأزواجَ عن إلجَاءِ الزّوجة إلى الافْتِدَاءِ بِمَا أُعطِيَت مِنْ صداقٍ[1]؛ لأنّكم إنّما تَسْتَبْدِلُون غيرَها بِهَا لأجل هَوَاكم، وتمتُّعِكم بغَيْرِ ذنْبٍ شرعِيٍّ مِنْهَا يُبيحُ لكم أخذَ شَيْءٍ مِنْهُ؛ كأن تكُونَ هي المُطالِبةَ بالفراقِ المسيئةَ إليكم لأَجْلِ إلجائِكُمْ إلى طلاقِهَا[2].

نُكْتَةُ التَّصْرِيحِ بِـ ﴿مَّكَانَ زَوۡجٖ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ﴾:

شِـــدَّةُ الـكُـرْهِ مَظِنَّةٌ لِلْفِرَاقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ

قال اللّه تَعَالَى: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ﴾ وكان يَتَأَتَّى أن يرِدَ النَّظْمُ القرآني: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ﴾ من دُونِ ﴿مَّكَانَ زَوۡجٖ﴾؛ لكونِهِ مفهومًا من الكلام، وإنَّما نُصَّ عليه ليُعَادَ عليه الضَّميرُ في قوله تعَالى: ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا﴾[3]، وفيه إشعارٌ بِأنّ الزَّوْجَ الأُولَى مرغُوب عنهَا، والأخْرَى مرغُوبٌ فِيها، وليسَ ثَمَّ سَبِيلٌ إلى الجَمْعِ بَيْنَهُمَا؛ لبُلُوغِ الكُرْهِ للأُولَى مَبْلغًا لَم يُمَكِّنْهُ معَهُ الإبْقَاءُ عَلَيْهَا.

بَلَاغَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا﴾:

المَهْرُ حقٌّ خَالِصٌ لِلْمَرْأَةِ؛ يَحرُمُ الاعْتِدَاءُ عَلَيْهِ

عُبِّر بلَفْظِ (القِنْطَارِ) في قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا﴾ إيمَاءً إلى الكثرةِ؛ إذِ القِنْطَارُ يُستعملُ كنايةً عَنِ المالِ الكثيرِ؛ لأنَّ

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1155.

(2) رضا، تفسير المنار: 4/375.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/17.

مفهومَ الوَزْنِ غيرُ مقصُودٍ، والقناطِيرُ مِمَّا يُضرب بِهِ المَثَلُ في الكَثْرَةِ[1]، ونكتَةُ التَّعبير بالكِنَايةِ: المُبالغَةُ في تَفْخِيم النَّهْي الوارِدِ بعدُ في قولِه: ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ﴾ وتأكيدُهُ، وأنَّ المَهْرَ حقٌّ خالِصٌ لِلْمَرْأَةِ لا يجُوزُ الاعتداءُ عليه بحالٍ مِنَ الأحوالِ، وفيه إشارةٌ إلى أنْ لا حدَّ لأَكْثَرِ المَهْرِ.

دِلَالَةُ الْإِفْرَادِ فِي لَفْظِ ﴿زَوْجٍ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾:

مُقَابَلَةُ الْجَمْعِ بِالْجَمْعِ تَقْتَضِي الْقِسْمَةَ آحَادًا

لَمَّا كان قولُه: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ خطابًا لجماعَةٍ؛ كان مُتعلّقُ الاستبدال أزواجًا مكانَ أزواجٍ، إلَّا أنَّهُ اكْتُفِيَ بالْمُفْرَدِ عَنِ الجمع؛ لِدِلَالَة جَمْعِ الْمُستَبْدِلِين؛ إذ لا يتوهَّمُ أحدٌ أنَّ المرادَ استبدالُ الجميع زوجًا واحدةً مكانَ زوجٍ واحدةٍ، فلفظ ﴿زَوْجٍ﴾ مفردٌ في اللَّفْظِ وهو في المعنَى جمعٌ، وقد قُوبلَ بخطاب الجمْعِ في ﴿أَرَدتُّمُ﴾، فاقْتَضَى ذَلِك القِسْمَةَ آحَادًا، والمعنَى: إنْ أرَاد وَاحِدٌ مِنْكُم استبدَالَ زَوْجٍ مكانَ زوجٍ.

دِلَالَةُ النَّهْيِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ﴾:

رِعَايَةُ الْإِسْلَامِ حَقَّ الْمَرْأَةِ وَسَدُّهُ الطُّرُقَ الْمُفْضِيَةَ إِلَى انْتِقَاصِهِ

نهى اللهُ سُبحانَهُ عن أَخذِ ما قدَّمه الزَّوج مَهرًا للمرأةِ بَعدَ فراقِهَا، وحذَّرهم مِنْهُ، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ﴾؛ والنَّهيُ دالٌّ على الإلزامِ بالتَّركِ كما هو الأصلُ فيه.

و(مِنْ): تبعيضيَّةٌ، والنَّهْيِ عن أخذِ بعضِهِ أبلغُ مِنَ النَّهي عن أَخذِهِ كُلِّهِ؛ لأنَّ النَّهيَ عَن أخذِ بَعضِهِ يستلزم النَّهيَ عن أَخذِهِ كُلِّهِ من غير عكسٍ.

ويُقوِّيه تَنْكِيرُ كلمةِ ﴿شَيْـًٔاۚ﴾؛ فإنَّه دالٌّ على العُمُوم، لكَوْنِها نكرةً في سِيَاقِ النَّهي، ويجوزُ أن يكونَ المُرَادُ بالتَّنْكِير التَّحقيرَ؛ أي: لا

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/201.

يَجُوزُ أَخْذُ الشَّيءِ الحَقِير مِنْهُ، فأَخْذُ الجَلِيلِ مُحَرَّمٌ مِن باب أَوْلَى؛ وهذا يَؤُولُ إلى سَابقِه في إفَادَةِ النَّهْيِ عَن عُمُومِ الأَخْذِ.

وفي هذا رعايةٌ فائقةٌ لحقِّ المرأة، وسدّ للطُّرُقِ المُفضيَةِ إلى انتقاصِهِ ولو في حَالِ الخصام والتَّفريق[1].

دِلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾:

من بَـديـعِ التَّـشْـريـعِ الإِسْـلَامِـيِّ: قَـرْنُ الأَحْـكَـامِ بِمَا يَحُثُّ عَلَى امْتِثَالِهَا

الهمزةُ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ لِلاستفهام، وهذا الاستفهامُ خارجٌ عَن أصلِ دلالَتِه من طَلَبِ العِلْمِ بشَيءٍ لَم يَكُنْ معلومًا من قبلُ إلى مَعْنَى التَّعجُّبِ والإِنْكَارِ، والمعنَى: أتفعلونَه مَعَ ظُهور قُبْحِه؟![2]

ومِنَ السِّماتِ البيانيَّة والتَّشريعيَّةِ في القرآنِ الكريم، أَنَّهُ إذا وَرَدَ فيهِ أَمْرٌ أَوْ نهيٌ أُتبِعَ ذلكَ بِمَا يُرَغِّبُ في المأمور به، ويُنَفِّرُ من المَنهيّ عَنْهُ[3].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمَصْدَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا﴾:

شَنَاعَةُ الْمُعْتَدِي عَلَى حَقِّ الْمَرْأَةِ وَاسْتِحْقَاقُهُ أَشَدَّ التَّوْبِيخِ

﴿بُهۡتَٰنٗا﴾ في قولِ اللّهِ تَعَالَى: ﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ حالٌ من الفَاعِلِ في ﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ﴾، وهو مصدَرٌ قُصِدَ به الوصفُ، أي: أتَأْخُذُونَهُ بَاهِتِينَ فَاعلِينَ فِعلًا تَتَحَيَّرُ العقولُ في سَببِه، آثمينَ بفِعْلِه إثمًا واضحا مُعلَنَ الوضوح، مُستَنكرَ الوقُوعِ.

ويصحُّ أن يكُونَ المَصدَرَان مفعُولَيْن لأَجله، ويكون المعنى: أَتأخذُونه لأَجلِ البُهتَانِ والإثْمِ المُبين؛ ويكون في التَّعليل توبيخٌ أَشَدُّ[4].

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/201.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 3/75.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/201.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1624.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرادة والمشيئة:

كلاهما قد ورد في القرآن الكريم منسوبًا إلى الإنسان، فالإرادة كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ﴾، والمشيئة في نحو قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ [البقرة: 223]، ويبدو الفرق بينهما في أنَّ "الإرادة قد تكون بحسب القوّة التّسخيريّة، والفكريّة، والحسّيّة، ولذلك تُستعمل في الجماد، نحو: ﴿جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: 77]، وفي الحيوان، وفي العقلاء، والمشيئة لا تكون إلّا مع اختيار، ولذلك لا يُقال إلّا للعالم والمُتفكّر".(1)

"أنّ الإرادة تكون لمَا يتراخى وقته ولمَا [لا]يتراخى، والمشيئة لمَا لم يتراخ، والشَّاهد أنَّك تقول: فعلت كذا شاء زيدٌ أو أَبى؛ فيقابل بها إباءه، وذلك إنما يكون عند محاولة الفعل، وكذلك مَشيئَته إنَّما تكون بدلًا من ذلك في حاله"(2).

ومعنى أراد الشّيءَ: أحبّه وعُنِيَ به، فالإرادةُ ملحوظ بها ذَهابُ النّفس إلى الشّيء طلبًا ورغبة قويّة في تحصيله، ومعنى شاء يشاء، أي: اجتمعَت نفسُه على الأمر، أو تجمَّعَت الرّغبة في نفسه، فالمشيئة في اجتماع النَّفس على الشّيء ورغبتها أقوى دون الذَّهاب والمضيِّ.

ولأنّ المشيئة في صفات المخلوقين ألزم منَ الإرادة والهوى لغةً، ألَا ترى أنَّ المشيئة لا تُذكر مُضافةً إلى غير العقلاء(3).

وقد استُعمل في السياق القرآني من الآية الكريمة الإرادة؛ لتضمن استبدال الزوجة معنى التّردُّد في طلب الشّيء برفق، وهذا الاستبدال هو نُزوع النَّفس إلى التغيير، وهو: ذَهاب النَّفس إلى الشّيء طلبًا ورغبةً قويَّةً في تحصيل هذه الزوجة الجديدة.

البَدَل والعِوَض:

الإبدالُ والتَّبديلُ والتَّبَدُّلُ والاستبدالُ: جَعلُ شيءٍ مكانَ آخر، وهو الوارد في القرآن الكريم، وهو أعمُّ منَ العِوَض، ومعنى العوض قد ورد في القرآن دون لفظه، وقد أشير

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/152.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية: 1/124، وبزيادة ما بين المعقوفين لاقتضاء السّياق.
(3) العينيّ، البناية شرح الهداية: 5/400.

إليه بباء المقابلة أو العِوَض، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [البقرة: 178]، فإنَّ العِوَضَ هو أن يصير لك الثَّاني بإعطاء الأوَّل، والتَّبديل قد يُقال للتَّغيير مُطلقًا، وإن لم يأتِ ببدله، قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: 59]، وقال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: 70](1).

فعبَّرت الآية باستبدال زوجة مكان أخرى، وهو أعمُّ في التغيير من العِوَض، فقد تكون الجديدة مساوية للأولى في صفاتها الذاتية والمكتسبة، وقد تكون أعلى، وقد تكون أدنى منها، فجاء التعبير بالبدل؛ للإشارة إلى مطلق هذه المعاوضة، ووقوع شتى الاحتمالات.

الإيتاء والإعطاء:

الإيتاء: أقوى من الإعطاء، إذ لا مُطاوع له، يُقال: آتاني فأَخَذته، وفي الإعطاء يُقال: أَعطاني فعطوت؛ وما له مُطاوع أَضعَف في إثبات مَفعوله ممَّا لا مُطاوع له، ولأَنَّ الإيتاء في أَكثر مَواضِع القرآن فيما له ثباتٌ وقرارٌ، كالحكمة والسَّبع المثاني، والمُلك الَّذي لا يُؤتَى إلَّا لذي قُوَّة.

والإعطاءُ: فيما ينتقل منه بعد قضاء الحاجة منه، كإعطاء اللّهِ كلَّ شَيء خَلْقه اللائق به الدَّال على حسن صُنعه؛ لتكرّر حدوث ذلك باعتبار الموجودات، وإعطائه تعالى الكوثرَ للنبيِّ ﷺ؛ للانتقال منه إلى ما هو أعظم منه، وكذا ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضّحى: 5]، للتَّكرّر إلى أن يرضى كلّ الرِّضا(2).

وَاحِد وأَحَد:

(وَاحِد): اسم لمُفتتح العدد، ويأتي بعده اثنان وثلاثة؛ أمَّا (أَحد) فينقطع معه العَدَد فلا يأتي بعده عدد، إذًا هو نفي لمَا يُذكر معه مِنَ العدد، ولذلك لا يُوصف بالأحديّة مطلقًا إلَّا اللّه، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: 1](3).

والتعبير في الآية جاء بـ (أحد)؛ ليناسب بيان حالة استبدال مخصوصة لزوجة مكان أخرى.

(1) الرّاغب، المفردات: (بدل).
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن الأثير، النّهاية: (وحد).

الأَخذ والاتِّخاذ:

الأَخْذُ مصدر أخذتُ بيَدي، ويُستعار فيُقال: أَخذه بلِسَانه إذا تكلَّم فيه بمكروه، وجاء بمعنى العذاب في قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ [هود: 102]، وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [الحِجر: 73]، وأَصله في العربيَّة الجمع، والاتّخاذ: أخصُّ الشَّيء لأمر يستمر فيه، مثل: الدَّار يتَّخذها مسكنًا، والدَّابَّة يتّخذها قَعْدَةً، ويكون الاتّخاذ التَّسمية والحكم، ومنه قوله تعالى ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: 3]، أَي: سَمَّوْها بذلك، وحكموا لها به(1).

ولفظ الأخذ هو المناسب لمعنى سياق الآية الكريمة.

البُهتان والاغتياب والافتراء والإفك:

تتقاربُ معاني هذه الألفاظ، بَيدَ أنَّها عند التَّدقيق ممَّا تختلف دلالته وتتفاوت، فالاغتياب هو أن يتكلَّم شخصٌ خلفَ إنسان مَستورٍ بكلام هو فيه، وإن لم يكن ذلك الكلام فيه فهو بهتان، والكذب الفاحش الَّذي يدهش له سامعه هو بهتان، إن لم يكن بحضرة المقول فيه، فإن كان بحضرته كان افتراءً، سواء أكان ذلك عن قَصد أم عن غير قصدٍ، فإذا كان ذلك عن قَصدٍ كان إفكًا(2)، والبهتان الباطل في الآية بمعنى: الظُّلم والإثم والفعل الباطل، لا قذف البريء.

الإثم والذَّنب:

الإِثم: الذَّنب الَّذي يستحقّ العقوبة عليه، ولا يَصحُّ أَن يُوصف به إلَّا المحرَّم، سواء أُريد به العقاب أَو ما يستَحقّ به منَ الذُّنوب، وبين الذَّنب والإثم فرقٌ من حيثُ إنَّ الذَّنب مُطلق الجُرم عَمدًا كان أم سهوًا، بخلاف الإِثم، فإِنَّه ما يستحقّ فاعله العقاب، فيختَصّ بما يكون عمدًا، ويسمّى الذَّنب تبعة اعتبارًا بذنب الشَّيء، كما أَنّ العقوبَة باعتبار ما يحصل من عاقبته، والهمزة فيه منَ الواو، كأَنَّه يثم الأعمال، أَي: يكسرها، وهو أَيضًا عبارة عن الانسلاخ عن صفاء العقل، ومنه سُمِّي الخَمر إثمًا؛ لأَنَّها سبب الانسلاخ عنِ العقل ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ [البقرة: 219]، أَي: في تناولهما إبطاء عَنِ الخيرات(3).

فناسب استخدام الإثم في سياق الآية الكريمة.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 138.

(2) عدد من المختصين، نضرة النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم ﷺ، ط: 4، 9/4108.

(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 40.

﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾ [النّساء: 21]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أنكر على الأزواج أخذ شيء من مهور النِّساء في الآية السّابقة شدَّد الاستنكار هنا، لِما اشتمل عليه الأخذ من أحوال خاصّة بين الزّوجين تستدعي الفضل في المعاملة فضلًا عنِ العدل عند الفراق.

فكان التَّأكيد في الآية الّتي قبلها استنكارًا لذات الأَخذ، وهنا الاستنكار لَمَا أحاط بالأَخذ مِن أحوالٍ وملابساتٍ، والمُؤدَّى أنَّ الأخذ عند إرادة الاستبدال أمرٌ مُستنكر في ذاته، ثمَّ هو مُستنكرٌ لأجل الأحوال والمقتضيات التي تدعو إلى حفظ الحق وعدم نسيان الفضل فيما كان بين الزَّوجين[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفۡضَىٰ﴾: فَضا يَفضو، فُضُوًّا وفَضاءً، أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى انْفِسَاحٍ فِي شَيْءٍ وَاتِّسَاعٍ، مِنْ ذَلِكَ الْفَضَاءُ: الْمَكَانُ الْوَاسِعُ، وَيَقُولُونَ: أَفْضَى الرَّجُلُ إِلَى امْرَأَتِهِ: بَاشَرَهَا، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ شُبِّهَ مُقَدَّمُ جِسْمِهِ بِفَضَاءٍ، وَمُقَدَّمُ جِسْمِهَا بِفَضَاءٍ، فَكَأَنَّهُ لَاقَى فَضَاءَهَا بِفَضَائِهِ، والإفضاء: الوصول، يُقال: أَفضى إليه، أي: وصل إليه بالملابسة معه، وأصلُه مِنَ الفَضاء الَّذي هو السّعَة، والفاضي: المكان الواسع، والإفضاء ههنا كناية عَنِ الجماع، أو أَن يَخلُوَ بها وإن لم يُجامعها[2].

2) ﴿مِّيثَٰقًا﴾: وَثِقتُ به أَثِقُ ثِقَةً: سَكَنتُ إليه، واعتَمَدتُ عليه، وأَوثَقتُهُ: شددته، والوَثاقُ والوِثاقُ: اسمان لَمَا يُوثَقُ به الشّيء، والميثاقُ: عقد مؤكّد بيمين وعهد، قال: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 81]، ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾ [النّساء: 154] والمَوثِقُ الاسم منه، قال اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 66][3].

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (بين).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فضى/فضا)، والواحديّ، التّفسير البسيط: 6/402 - 403.

(3) الرّاغب، المفردات: (وثق).

والمعنى في الآية: عهدًا موثقًا بالنكاح، أو بإمساك الزوجة بالمعروف أو تسريحها بإحسان.

3) ﴿غَلِيظًا﴾: يُقال: غَلُظَ، يَغلُظُ، غِلَظًا: إذا صار غليظًا، وعذابٌ غَليظٌ، أي: شَديدُ الألم، وبَينَهما غِلظَةٌ ومُغالَظَةٌ، أي: عَداوَةٌ، والتّغليظُ: التّكبيرُ والتّعظيمُ، يُقال: غَلُظ الشّيءُ، أي: عَظُمَ وكَبُرَ، ويأتي بمعنى التَّشديدِ والتَّوكيدِ، ومنه: عَهدٌ غَليظٌ، أي: مُؤَكَّدٌ مُشَدَّدٌ[1]، وهو هنا: ما أمَرَ اللّه بِهِ من حقِّ الزوجة.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

كيف تأخذون ما أعطيتُم زوجاتكم من المهر بعد الّذي حصل بينكم من علاقة ومودّة واستمتاع واطّلاع على الأسرار، فإنّ الطّمع بما في أيديهنّ من مال بعد هذا أمر مُنكَر ومستقبَح، وقد أخذن منكم عهدًا موثّقًا شديدًا، وهو استحلال الاستمتاعِ بهنَّ بكلمة اللّه تعالى وشرعه، أو من إمساكهن بمعروف أو تسريحهن بإحسان؟![2]

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلَاغَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾:

تَهْيِيجُ الْوَازِعِ الدِّينِيِّ فِي قَلْبِ أَهْلِ الْإِيمَانِ مِنْ أَقْوَى الدَّوَاعِي عَلَى اجْتِنَابِ الْمُنْكَرَاتِ

في قولِ اللّهِ تَعالَى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ إنْكارُ أَخْذِ الزّوجِ شيئًا من مَهْرِ المرأةِ بِغَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ، وقد ورَدَ هذا الاستفهامُ الإنكاريُّ عقِبَ الاستفهامِ الإنكاريِّ السَّابقِ في قولهِ سُبحانه: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، والقصدُ: تَهْييجُ الْوَازِعِ الدّينيِّ في قَلْبِ المؤمِنِ؛ لئلَّا يُقْدِمَ على هذا المُنْكَرِ والظُّلْمِ أو ليرجِعَ ويَرْعَوِيَ إذا كان قدْ باشَرَهُ.

وهذا الاِسْتِفْهَامُ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ استفْهَامٌ تَعْجِيبِيٌّ بعدَ الْإِنْكَارِ، أُريدَ به تَعْظِيمُ أَخْذ

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، الزّبيديّ، تاج العروس: (غلظ).
(2) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 81.

المَهْرِ بِغَيْرِ حقِّه وتوبيخُ الآخذِ، فقد أُنْكِرَ أوَّلًا الأخْذُ، ونُبِّهَ على امْتِنَاعِ الأَخْذِ بكونِهِ بُهتانًا وإثمًا، وأُنْكِرَ ثانيًا حالَ الأَخذِ، وأنَّها ليست ممَّا يُمكن أن يُجامع حالَ الإفضاء؛ لأنَّ الإفضاءَ - وهُو المُبَاشَرَةُ والدُّنوُّ الَّذي ما بعدَه دُنوّ - يَقْتَضِي أَنْ لا يُؤخَذَ معَهُ شَيْءٌ ممَّا أعطاهُ الزَّوجُ[1].

وهذا الاسْتِفْهَامُ الإنكاريُّ في قوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ سِيقَ مَسَاقَ المبالغة؛ حيثُ وُجِّه الإنكارُ إلى كيفيَّة الأخذ؛ إيذانًا بأنَّه ممَّا يَنْبَغِي أَن لا يَتَحقَّق ولا يُوجَد في الوَاقِعِ أَصْلًا؛ لأنَّ ما يَدْخُلُ تحتَ الوُجُودِ لا بدَّ أن يكونَ على حالٍ مِنَ الأحوال، فإذا لَم يَكُنْ لشيءٍ حالٌ أَصلًا؛ لَم يَكُنْ لَهُ حظٌّ منَ الوجُودِ قَطعًا[2].

بَرَاعَةُ عَرْضِ الدَّلِيلِ:

لَا يَتِمُّ الْحُكْمُ حَتَّى تَجْتَمِعَ الشُّرُوطُ وَتَنْتَفِيَ الْمَوَانِعُ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ ترتيبٌ بديعٌ لعرضِ الدَّليلِ، يُشبهُ أساليبَ الفقهاءِ التي عُرِفَتْ بعدُ؛ وذلك أنَّ المجتهدَ إذا حَكَمَ في مسألَةٍ مَا، لا يَتِمّ لَهُ ذلكَ إلَّا بِأَمْرَيْنِ:

أحدُهُمَا: أن يَأْتِيَ بالدَّليل المُقْتَضِي ثبوتَ الحكم.

والآخَرُ: انتفاءُ المانِعِ مِنْهُ.

ومثلُ هذا وردَ في الآيةِ الكريمة؛ فإنَّ اللّه تعالى لَمَّا حَكَمَ بعَدَمِ جوازِ الأَخذ ممَّا أُوتِيَتْهُ النِّساء في قولِه: ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ﴾؛ أعقبَهُ بِبَيَانِ أنَّ مُريدَ الأخذِ ليسَ لَهُ دليلٌ يُبيحُ أَخذ ذلكَ، بل هو مُجرَّد بُهتانٍ، فقال سُبحانه: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، وإن سُلِّمَ أنَّ لهُ في أَخْذِ شيءٍ مِنْ ذلك مُستندًا أو دليلًا؛ فَهُنَاكَ مانعٌ يمنَعُ الأَخذَ؛ وهو إفضاءُ بَعْضِكُم إِلَى بَعْضٍ، وتقرّر العهدِ بينَكُم بالمَوَاثِيقِ[3].

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/96.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/159.

(3) ابن عرفة: تفسير ابن عرفة: 2/18.

دِلَالَةُ الْحَالِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾:

مِنْ مَحَاسِنِ التَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ قَرْنُهُ الْأَحْكَامَ بِعِلَلِهَا

الوَاوُ في قَوْلِه تعالَى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ﴾ لِلْحَالِ، والجملةُ بعدَها في محلِّ نصبٍ: حالٌ من فاعِلِ ﴿تَأْخُذُونَهُۥ﴾ مفيدةٌ لتأكيد النَّكير وتقريرِ الاسْتِبْعَادِ، أي: على أيِّ حالٍ، أو في أيِّ حالٍ تأخُذونهُ، والحالُ أنَّه قد جَرَى بينَكُمْ وبينهنَّ أحوالٌ منافيةٌ لهذا الأَخْذِ؛ منَ الخَلوةِ، وتقرُّرِ المَهرِ، وثبوتِ حقِّ خِدمتهنَّ لَكُم، وغير ذلك[1].

دِلَالَةُ (قَدْ) الْحَرْفِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ﴾:

التَّذْكِيرُ بِالْعِشْرَةِ السَّابِقَةِ مَظِنَّةٌ لِحِفْظِ الْحُقُوقِ الْحَاضِرَةِ

نصَّ المُحقّقونَ من أهل العربيَّة[2] على أنَّ (قَد) تُقَرِّبُ المَاضِيَ منَ الحال، فأفادَنَا هذا المعْنَى لـ (قَدْ) أنَّ قولَهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ دالٌّ على أنَّ الإفضَاء قد حصَلَ، ولَا يَزَالُ أثرُه في الحالِ، وهذا أبلَغُ في الصِّفةِ من تجريدِ ذِكْرِ الفِعْلِ، وأَدْعَى لترْكِ التَّعرُّضِ لمالِهِنَّ بالأخذِ، وكذا قولُهُ تعالَى: ﴿وَأَخَذْنَ﴾، فإنَّ (قَد) مُقدَّرةٌ مَعَهُ، وإنَّما حُذِفَت اكتفاءً بِذِكْرِهَا مع الفعل ﴿أَفْضَىٰ﴾[3].

وَذِكْرُ (قَدْ) في مَقام تَوْبيخِ الزَّوْجِ إنْ أرَادَ أَخْذَ شَيْءٍ مِن مَهْرِ الزّوجةِ: تَذْكِيرٌ لَهُ بحَالٍ ماضيَةٍ، وكأنّها حاصلَةٌ الآن؛ لقُرْبِهَا زَمَانًا، وبقاءِ أثرِهَا حَالًا.

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ لَفْظِ الْإِفْضَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾:

شِدَّةُ الْخُلْطَةِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ تُصَيِّرُهُمَا بِمَنْزِلَةِ النَّفْسِ الْوَاحِدَةِ

الإفضَاءُ الوَارِدُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ مأخوذةٌ مِنَ (الفضَاءِ)، والفضاءُ: المكَانُ الواسِعُ، فقولُهُ تعالَى: ﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني: دَخلتُم مع بعضٍ دُخولًا غيرَ مُضيّقٍ.

---

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/159.

(2) الهرويّ، الأزهية، ص: 211، والزّجاجي، حروف المعاني، ص: 13، والمراديّ، الجنى الدّاني، ص: 256، والمالقيّ، رصف المباني، ص: 392، والدَّقر، معجم القواعد العربيّة، ص: 354، وشراب، معجم الشّواهد النّحويّة، ص: 433.

(3) السّمين، الدّرّ المصون: 2/635.

فَمَعْنَى الْإِفْضَاءِ: أنَّكم دَخلتُم معًا أوسعَ مُدَاخلةٍ، وحَسبُك مِن قِمَّة المُداخلة أنَّ عَورتَها الَّتي تَسترها عن أَبيهَا وعن أَخيها، بل وَعَن أُمِّها وأُختها؛ تُظْهِرُهَا لزوجِها، ولا يوجدُ إِفضاءٌ أَكثرُ مِن هذا، ودَخل الزَّوْجُ معهَا في الاتِّصال الواسعِ؛ بأَنفاسِه، ومُلامَستِه، ومُباشَرتِه، ومُعاشرتِه، وَمَدْخَلِهِ وَمَخْرَجِهِ، فحدثَت الإفضاءَاتُ في كلِّ شيءٍ، والزَّوْجُ ما دامَ قد أَفضى إِلَيْها، وهي قد أَفضَت إليه؛ كما قال اللّه سُبحانَهُ في شأنِ المُدَاخَلَةِ الشَّاملة: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: 187]، أيّ شيءٍ تُريدُ أكثرَ من هذا؟![1]

بَلَاغَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾:

الْحَيَاءُ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ مَنْبَعُ كُلِّ فَضِيلَةٍ

في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ كنايةٌ مِن أَلطَف الكِنايات عمَّا يُستقبَح التَّصريحُ بِه من أعمَالِ الرَّفث وألفاظِه، فالبيان القرآنيّ يَهْدي دائمًا للَّتي هي أَقوَم في الأَلفَاظِ والمعَاني والأَخْلَاقِ والسُّلوكِ، فقد كنَّى اللّه تعالى عَنِ الجماع بلَفْظِ الْإِفْضَاء تعليمًا لِلْمُؤْمِنِين الأدبَ الرَّفيع، قال ابنُ عبَّاس: الإِفضاءُ في هذه الآية الجماعُ، ولكنَّ اللّه كريمٌ يُكنِّي[2].

دِلَالَـةُ تَعْدِيَةِ فِعْلِ الْإِفْضَاءِ بِـ ﴿إِلَىٰ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾:

لِحُرُوفِ الْجَرِّ أَثَرٌ فِي تَرْجِيحِ الْمَعَانِي الْمُحْتَمِلَةِ

في تَعْدِيَةِ الْإِفْضَاءِ بِحرف الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِه تَعَالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ مَا يدلُّ علَى معنَى الْوُصُولِ والاتِّصال، وذلك أَنسَبُ بِالْمَعْنَى الْمُكَنَّى عَنْهُ وَهُوَ الْجِمَاعِ[3]، ولذا عُدِّيَ فعل الرَّفثِ أيضًا بحرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة 187]، وإنّما دخلت (إلى)؛ لأنّ

(1) الشّعراويّ: تفسير الشّعراويّ: 4/2086 - 2087.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/201 - 202.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/452.

معنى (الرَّفث) و(الإفضاء) واحد، فكأنّه قال: أُحِلَّ لَكُمُ الإفضاءُ إلى نسائِكُمْ[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾:

عَظَمَةُ الرَّابِطَةِ فِي الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ

في قولِهِ سُبحانه: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ نُكْتَةٌ لَطِيفَةٌ، وذلك لأنَّهُ عُدِلَ عن التَّعبيرِ بنحْوِ: (وقد أَفضَيتُم إليهنَّ)، أو (أَفضَى أحدُكم إلى الآخَر)، إلى التَّعبير بقَوْلِه: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ بقصدِ الإشَارَةِ إلَى كَوْنِ كُلّ واحدٍ مِنَ الزَّوجين بمَنْزِلَةِ الجُزْء مِنَ الآخَرِ وبَعْضِهِ المُتمِّم لوجُودِه، فكأنّ بعضَ الحَقيقَةِ كانَ مُنْفَصِلًا عَن بَعْضِهَا الآخَرِ، فوَصَلَ إليَه بِهَذَا الإِفْضَاء، واتَّحد به[2].

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾:

حِرْصُ الشَّرْعِ عَلَى حِفْظِ حُقُوقِ النِّسَاءِ وَالْمُبَالَغَةُ فِي ذَلِكَ

الضّمير في ﴿وَأَخَذْنَ﴾ من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ راجعٌ إلَى النّسَاء، والآخِذُ لِلْميثاقِ في الحقيقة إنّما هو اللّه تعالى؛ فهو الذي أخذ الْمِيثَاقَ الغَلِيظَ على الرِّجالِ أَنْ يُعَامِلُوا نساءَهُمْ معامَلَةً كريمَةً، إلّا أنّهُ سُبحانه نسَبَ أخذَ الميثاقِ إلى النِّساءِ؛ مُبَالغَةً في الْمُحَافَظَةِ علَى حُقُوقِهِنّ، حتّى جَعَلَهُنّ كأنّهنَّ الآخذاتُ لَهُ، ففِي هذا الْإِسْنَادِ مَجَازٌ عَقْلِيٌّ؛ من إسنادِ الفعل إلى سَبَبِهِ؛ لأنَّ اللّه تعالَى أخذَ الْعَهْدَ على الرِّجالِ لأجلهنّ وبسببهنّ[3].

نُكْتَةُ الْمُشَاكَلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾:

جَلَالَةُ عَقْدِ الزَّوْجِيَّةِ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا﴾ مشاكَلَةٌ[4]، حيثُ سُمِّيَتِ المواثَقَةُ بالعَقْدِ أو العِشْرةِ أو الوَلَدِ بالأَخذِ مُشاكلةً لِقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾، والنُّكْتَةُ: تَصْوِيرُ هذا الميثاق في صورةِ

(1) الأخفش، معاني القرآن: 1/139.

(2) رضا، تفسير المنار: 4/376.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/95.

(4) المشاكلة: أن يُذكرَ الشيَّء بلفظ غيره لوقوعه في صُحبته، يُنظر: الحمويّ، خزانة الأدب: 2/252.

الشَّيء الثَّمين الغالي الَّذي تقبِضُه الزَّوجة مُقابل عِشْرَتِهَا مع زَوْجِها، فيُسْبِغُ على الحياة الزَّوجيّة الرَّاحةَ والأَمَان[1].

والّذي يَنْبَغِي بينَ الأزوَاجِ أن يشيعَ فِيهِم قولُ النَّبيِّ ﷺ: «أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللّهِ»[2]؛ فالعَجَبُ مِمَّنْ يُريدُ أخذَ شيءٍ مِن مهُورِ أزوَاجِهِم، وقد أعطَوْهَا أمانَ اللّهِ تعالَى عندَ عَقْدِ النّكاح!

دِلَالَةُ لَفْظِ (المِيثَاقِ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾:

الـزَّوَاجُ أَسَـاسُ بِنَاءِ المُجْتَمَعَاتِ

سُمّي عَقْدُ الزّواج ميثاقًا؛ لَمِا بين الزّوجين من علاقة وثيقَةٍ قد أحلَّها اللّه تعالى، وجعلها أساسًا في بناء المجتمع المسلم، وهذا المَعْنَى مأخُوذٌ منَ المعنى المِحْوَرِيِّ لِلْجِذْرِ اللّغويّ (وثق) الدّالِّ على بقاء الشّيءِ إلى الأمَدِ المَرْجُوِّ؛ لكثافَتِه واشْتِدَاد بعضِه إلى بعضٍ، ويُستعمَلُ التّركيبُ في الرّبط والارتباط، وما هو من باب الشّدّ والإمساك، ومِنْهُ: الوِثاق - بكَسْرِ الوَاوِ وفتحِهَا - ، وهوَ حبلٌ أو قَيْدٌ يُشدّ ويُربَطُ به الأَسِيرُ أَوِ الدّابَّةُ، ومنه قول اللّهِ تعالَى: ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمّد: 4]، والمُوَاثَقَةُ: المُعَاهَدَةُ، ومنه قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ [المائدة: 7]، وأَخذ الميثاق، أي: شدُّه بعقد وعهد[3].

والميثَاقُ في قولِ اللّهِ تعالَى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ هُوَ الصُّحبةُ والمضاجعَةُ، ويَحْتَمِلُ أن يُرادَ بِه: قولُ الوليِّ عندَ العَقد: أَنكحتُكَ على ما في كتاب اللّه من إمساكٍ بمعروفٍ أو تسريحٍ بإحسانٍ[4]، أَوْ هُوَ ما أوثقَ اللّه تعالى عَلَيْهِمْ في شَأْنِهم بقَوْلِه تعالى: ﴿فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾ [البقرة: 229]، ولا تعارُضَ بينَ هذه المعانِي، ويجوزُ حَمْلُ اللَّفْظِ عليهَا جميعًا.

---

(1) البنّاني، سورة النّساء دراسة بلاغيّة تحليليّة، ص: 504.

(2) مسلم، الحديث رقم: (1218).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وثق).

(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/492.

وُجُوبُ تَعْظِيمِ الْمِيثَاقِ الَّذِي عَظَّمَهُ اللهُ تَعَالَى

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾:

في قولِه سُبحانَهُ: ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ مجازٌ بالِاسْتِعَارةِ؛ حيثُ شُبِّهَتِ العلاقَةُ القويَّة بينَ الزَّوجين بالحبل المُوثق، على طريقة الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ، وفي هذا تحذيرٌ وإنذارٌ مِنَ الإخلال بمقتضيات ذلكَ الميثاق المُبْرَم بين الزَّوجين، وهذا أسلوبٌ بيانيٌّ حامِلٌ على الوفاءِ والالتزام بالعَدْلِ المُؤلِّف بينَ القُلُوب[1].

وَ﴿غَلِيظًا﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ صفةٌ مُشبَّهةٌ من غَلُظَ - بضمِّ اللَّام - إذا صَلُبَ، وأصلُ الغِلظَةِ في الحقيقة: صلابةُ الذَّوات، واستعمالُهَا وصفًا للميثاقِ استعارَةٌ؛ فقد استُعيرَت الصَّلابةُ في الذَّواتِ إلى صُعوبَةِ المَعاني وشدَّتها في أنواعها، ومِنْهُ قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التَّوبة: 123][2]، واستعارةُ الغِلظ ههنا ترشيحٌ وتقويةٌ للاستعارةِ الأولَى في قولِهِ: ﴿مِّيثَٰقًا﴾؛ لكونِهِ ملائمًا للمشبَّهِ بهِ.

وإيثارُ الوَصْفِ بالغِلَظِ إشعارٌ بقوَّةِ الميثاقِ وعَظَمَتِه؛ فقد قالوا: صُحْبَةُ عِشْرِينَ يومًا قرابَةٌ، فكيفَ بِمَا جَرَى بينَ الزّوجَيْنِ مِنَ الاتّحاد والِامْتِزَاجِ؟![3]، بَل قالُوا:

صُحْبَةُ يَوْمٍ نَسَبٌ قَرِيبُ *** وَذِمَّةٌ يَعْرِفُهَا اللَّبِيبُ[4]

الْفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الإفضاء والخُلُوّ:

الإفضاءُ: أَصله: الوصول إلى الشَّيء بسعة، من الفضاء، فالخُلُوُّ: الفراغُ، يُقال: خَلا المكانُ، يَخلو خُلُوًّا وخَلاءً: إذا لم يَكُن فيه أَحدٌ ولا

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/201 - 202.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/290.
(3) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/523.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/118.

شيءَ فيه، ويُقال: مكانٌ خالٍ، أي: فارغٌ، ويأْتي الخُلُوُّ بمعنى الانفراد، تقول: خلا الرَّجلُ بنفسه، أي: انفرد بها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ [البقرة: 76]، ومن معانيه أيضًا: البَراءَةُ، فيُقال: خلا فلانٌ مِنَ العيب: إذا بَرِئَ منه[1]، وأفضى إِلى امرأَة - في باب الكناية - أبلغُ وأقرب إِلى التَّصريح من قولهم: خَلَا بها[2]؛ إذ ليس من معاني الخلوّ الوصول؛ لذا جاء التعبير القرآني بالإفضاء.

العهد، والعقد، والميثاق:

العَهدُ: ما أخذه اللّه على بني آدم من الإقرار بربوبيَّته ووحدانيَّته، ويشمل أيضًا ما أخذه على هذه الأُمَّة أن يوفُّوا به ممَّا أحلَّ وحرَّم وفوَّض، ويتضمَّن العَهد أيضًا ما يكون مِن اتِّفاقٍ بين المسلمين والمشركين، ومنه قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ [التّوبة: 1].

والعَقد هو ما عَقَدَهُ الإنسان على نفسه للآخرين من بيعٍ وشراءٍ ونحوهما، أو ما عقدَه للّه تعالى منَ الطَّاعات كالحجِّ والصَّوم وغيرهما من العبادات

أمَّا الميثاق فهو العَهدُ المُؤكَّد باليمين، وناسب استعماله في الآية الكريمة في وصفِ العلاقة الزوجية ومقامِ مكانها[3].

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/201 - 202.

(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 154، والزّبيديّ، تاج العروس: (خلو).

(3) عدد من المختصين، نضرة النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم: 11/5633.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقۡتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢﴾ [النّساء: 22]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان الكلامُ متَّصلًا بعضه ببعضٍ في الأَحكام المُتَعلِّقة بالنِّساء، وذكر الله منها في أوائل السُّورة حُكم نِكاح اليتامى، وعدد ما يحلُّ مِنَ النِّساء بشرطه، وذكر في الآية الَّتي قبل هاتين الآيتين استبدال زوجٍ مكانَ زوجٍ بأن يُطَلِّقَ هذه ويَنكحَ تلك، فناسب ذلك بيانُ ما يُحرَّم نكاحه منهنَّ.

ولَمَّا كرَّر الإذن في نكاحهنَّ، وما تضمَّنه مَنطوقًا، ومفهومًا، وكان قد تقدَّم الإذن في نكاح ما طاب مِنَ النِّساء، وكان الطَّيب شرعًا يحمل على الحلّ مسَّتِ الحاجة إلى تفصيل ما يحلُّ منهنَّ لذلك وما يحرَّم فقال: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[1].

وإفراد هذا النوع من النِّكاح وتقديمه على غيره، وجعله في آيةٍ خاصَّة، ولم يسرده تعالى مع سائر المحرَّمات في الآية الأُخرى؛ لأنَّه على قُبحه كان فاشيًا في الجاهليَّة، ولذلك ذمَّه بمثل ما ذَمَّ به الزِّنا للتَّنفير عنه كما ترى في آخر الآية[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَنكِحُواْ﴾: أصلُ النِّكاحِ: غَلَبَةُ الشّيء، يُقالُ: نَكَحَ النُّعاسُ عَينَه يَنكِحُها نِكاحًا، أَي: غَلَبَها، والنِّكاحُ: الزّواج، تقولُ: نُكِحَتِ المرأةُ إذا تَزَوَّجَت، والتزوج: أخذُ الرجلِ المرأةَ للمخالطة التَّامة؛ لأنَّها مخالطة يعرفها النَّاس ويشهدون بها، ويُطلَقُ النِّكاحُ بمعنى: الجماعِ والوَطءِ، وناكَحَها، أَي: جامَعَها، ومن أسمائه البِضاعُ، ويُطلَقُ أَيضًا على العَقدِ دُونَ الجِماعِ، ومن معاني النِّكاحِ أَيضًا: الجِماعُ والعَقدُ والضّمُّ[3].

والمعنى في الآية: ولا تتزوَّجوا.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/227.
(2) رضا، المنار: 4/379.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نكح).

2) ﴿سَلَفَۚ﴾: السَّلفُ: من سَلَفَ، يَسلُفُ، سُلوفًا: إذا مضى وانقضى، وتقدَّم وسَبَقَ، فهو سالِفٌ، وسَلفُ الرَّجُلِ: آباؤُه المتقدِّمون والرَّاحلون، والأوَّلُون السَّابقون، وذوو قرابةِ الرَّجل الَّذين هم فوقه في السِّنِّ والفَضل، ومن معانيه: كلُّ شيءٍ قدَّمه العبد مِن عَمل صالحٍ، والجَمعُ: أَسلاف[1].

والمعنى في الآية: مضى منكم في الجاهلية.

3) ﴿فَٰحِشَةً﴾: الفاحشةُ: القَبيحُ والسَّيّئُ مِنَ القَول أو الفِعل، يُقال: فَحَشَ، وفَحُشَ، وأَفحَشَ علينا، أي: سَبَّنا، وقال قَولًا فاحشًا، والفاحِشُ أيضًا: مَن يَسُبُّ غيرَه ويَشتِمُه، وأَصلُ الفُحشِ: القُبحُ والشَّناعةُ.

ويأْتي الفُحشُ بمعنى الزِّيادةِ ومُجاوَزَةِ الحدِّ، ومنه قيل للطَّويل طولًا زائدًا: إنّه لَفاحِشُ الطُّول، وكُلُّ شَيءٍ جاوَزَ قَدرَهُ فهو فاحِشٌ، ومن معاني الفاحشة: التَّعَدِّي، والذَّنبُ، والزِّنا، وجَمعُها: فَواحِش[2].

4) ﴿وَمَقْتًا﴾: المَقتُ: البُغضُ الشَّديدُ لمن تراه تَعاطى القَبيحَ، يُقال: مَقَتَ مَقاتَةً فهو مَقيتٌ، ومقَّتَهُ فهو مَقيتٌ ومَمقُوتٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النِّساء: 22]، وكان يُسمَّى تزوُّج الرَّجل امرأةَ أَبيه نكاحَ المَقت[3].

5) ﴿وَسَآءَ﴾: أَصلُ السُّوء: القُبحُ، وضدُّه: الحُسنُ، والسُّوءُ: الشَّرُّ والفسادُ، يُقال: عَمِلَ سُوءًا، أي: شرًّا وفسادًا، والسُّوءُ أيضًا: الحُزنُ والغَمُّ، ويأْتي بمعنى الضَّرَر والأَذى، كقولهم: بَلَغَهُ السُّوءُ، أي: الضُّرُّ، وكُلُّ ما يُكرَهُ فهو سوءٌ، والإِساءَةُ: فِعلُ الشَّرِّ وما يُكرَهُ، ومن معانيه أيضًا: المُنكَرُ والفُجورُ والبلاءُ والعذابُ والشَّتمُ والشِّدَّةُ والقَتلُ[4]، والمعنى هنا: قَبُحَ.

6) ﴿سَبِيلًا﴾: (سَبَلَ) السِّين والباء واللَّام أَصلٌ واحدٌ يدُلُّ على إِرسال شيءٍ مِن عُلُوٍّ إِلى سُفلٍ، وعلى امتداد شيءٍ، ووردَت كلمة (سبيل) في القرآن الكريم مفردًا ومجموعًا،

(1) الخليل، العين، وابن عبَّاد، المحيط في اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (سلف).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فحش).
(3) الرّاغب، المفردات: (مقت).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (سوء).

معرّفًا ومنكّرًا، مضافًا وغير مضافٍ (176)[1] مرّة، ومعناه الطّريق، وهو بهذا في كلّ القرآن، وإنّما يختلف المُراد بحسب السِّياق، وهو المُمتَدُّ طُولًا، سُمِّيَ السَّبيلُ بذلك لامتداده.[2]

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

لا تتزوَّجوا ما تزوَّجه آباؤكم مِنَ النِّساء؛ فإنَّ ذلك مُحرَّمٌ، إلَّا ما سَبقَ مِن ذلك قَبلَ الإسلام - في الجاهلية - فلا مُؤاخذة عليه؛ لأنَّ تزوُّج الأبناء مِن زوجات آبائهم أمرٌ يعظُم قُبحُه، وسبب غَضب اللّه على فاعله، وساءَ طريقًا لمن سَلَكها[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ النَّهْيِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾:

قُبحُ نِكَاحِ أَزْوَاجِ الْآبَاءِ

النَّهي في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ جارٍ على أصلِهِ في الدِّلالَةِ على الإلزام بالتَّرك، والفعلُ ﴿تَنكِحُواْ﴾ مُضَارِعٌ قُرِنَ بـ (لَا) النَّاهيةِ، وما كان هذا سبيله؛ فإنَّ مدلُولَهُ إيجَادُ الحَدَث في المُستَقْبَل، وهذا يُفيدُ النَّهي عنِ الاستمرَارِ على نكاحهنَّ إذا كانَ قد حَصَلَ قَبْلَ ورود النَّهي[4]، والاستمرارَ على التَّرْكِ لِمَنْ لم يحصُلْ ذلكَ مِنْهُ.

ولم يُنْظَم تحريمُ نكاحِ زوجاتِ الآباءِ في سِلْكِ نكاحِ المُحرَّماتِ الآتي بيانُهَا؛ مبالغةً في الزّجر عَنْهُ؛ حيث إنَّهُم كانوا مُصِرِّين على تَعَاطِيه مع الاستِهَانَةِ بذلك، فأُفرِدَ وقُدِّمَ؛ تعظيمًا لحُرْمَةِ أزْوَاجِ الآباء[5].

---

(1) عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص: 341 - 344.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (سبل).
(3) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 81.
(4) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 4/291.
(5) أبو السّعود، نظم الدّرر: 2/159.

وفي قولِه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ جناسُ اشْتِقَاقٍ، وطباقُ سَلْبٍ، وفي ذلك زيادةٌ في رَدْعِ نكاحِ زوجاتِ الآباءِ؛ من جهةِ التَّنصيص على فعل النِّكاحِ مكرَّرًا والمنكُوحَةُ واحدةٌ بين أبٍ وابنٍ، وهذا في غايةِ القُبْحِ.

دِلَالَةُ ﴿مَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

إِبْطَالُ نِكَاحِ أَزْوَاجِ الْآبَاءِ، وَإِبْطَالُ الْعَادَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِلشَّرْعِ فِي شَأْنِ النِّكَاحِ

يَحْتَمِل أن تكونَ ﴿مَا﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بمعنى: مَن، فيكون المعنى: ولا تَنكحوا مَن نكحَ.

ويَحْتَمِلُ أن تكون ﴿مَا﴾ مَصْدَرِيَّةً، فيكون المعنى: ولا تَنكِحوا نِكاحَ آبائِكُم، أي: كنِكاحِهم، وذلك أنَّ آباءهم كانُوا يَنْكِحُون أزواجَ آبائهم، فنَهاهم اللّه تعالَى أن يكون نكاحُهم كنكاح آبائهم.

فعلى الأوَّل يكونُ النَّهيُ عنِ التَّزوّج بمَنكوحات الآباء، وعلى الثَّاني يكُونُ النَّهيُ عن أن يكون نِكَاحُهُم كَنِكَاح آبائِهم في البُطلان والفساد[1].

والوَجْهَان متآيِلَانِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

لَفْظُ النِّكَاحِ: حَقِيقَةٌ فِي الْوَطْءِ مَجَازٌ فِي الْعَقْدِ

ذهب جماعةٌ من أهل العلم إلى أنَّ لفظ النِّكاح حقيقةٌ في الوَطْءِ مَجَازٌ في العَقدِ؛ وذلك لِأنَّ لفظ النِّكاح في أَصل اللُّغةِ عبارة عن الضَّمّ، ومعنى الضَّمّ حاصلٌ في الوَطءِ لا في العَقدِ، فكانَ لفظُ النِّكاح حقيقةً في الوَطء، وإنَّما سُمِّيَ العقدُ نكاحًا؛ لكونِه سببًا فيه، فإطلاق النِّكاح على العقد مجازٌ مرسَلٌ، علاقتُهُ: المسبَّبِيَّةُ[2].

ونُكتةُ التَّعبير بالنِّكاحِ مجازًا دون العقْدِ بأن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ:

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 6/407، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1161.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/17.

(وَلَا تَعْقِدُوا)؛ لأنَّ لفظ النِّكاحِ مذكِّرٌ بالمعنَى الحقيقيِّ وهُوَ الوطءُ، فيكون ذلك أشدَّ تنفيرًا لهم من الإقدامِ على نكاحِ موطوءَةِ الأبِ.

دِلَالَةُ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَابَآؤُكُم﴾:

الْمُبَالَغَةُ فِي التَّنْفِيرِ مِنْ مَنْكُوحَاتِ الْآبَاءِ

الْإِضَافَةُ في ﴿ءَابَآؤُكُم﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ تُومِئُ إلى شدَّة القُرب والوصلَة بين الأبناء وآبائِهم؛ ممَّا يُنَفِّر مِن هذا النِّكاح، ويُهيِّئ للتَّذليل الحاكمِ بفُحشِه ومَقتِه وسُوءِ سبيل مَن يَسْلُكه.

مَعْنَى اللَّامِ فِي ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

تَعْمِيمُ التَّحْرِيمِ لِجَمِيعِ مَنْكُوحَاتِ الْآبَاءِ

اللَّامُ في ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ سُبحانه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ لِلْجِنْسِ المفيدةِ استغراقَ جميعِ الأفرادِ المندرجَةِ تحتهَا، فيدلُّ ذلك على أنَّ مَنْكُوحَاتِ الآبَاءِ حَرَامٌ كلُّهنَّ، سواءٌ أكُنَّ إماءً أم لا، بنكاحٍ أو مُلكِ يَمين[1]، وهذا المعنَى ظاهِرٌ إذَا أُريدَ بالنِّكاحِ الوطءُ، أمَّا إذا أُريدَ به العقدُ؛ فإنَّ ظاهرَهُ يختصُّ بزَوْجَاتِ الآباءِ، ويُلْحَقُ بِهِنَّ إماؤُهنَّ اللَّائي وَطِئَهُنَّ.

وفي هذا التَّعميمِ زيادةٌ في التَّأكيد على قُبْحِ هذا النّكاحِ وفُحْشِه.

دِلَالَةُ الِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾:

تَعْلِيقُ الْأَحْكَامِ بِالْمُحَالِ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ تَوْكِيدِهَا

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾ استثناءٌ منقَطِعٌ، والغرضُ مِنْهُ - كما أفادَهُ الزَّمخشريُّ - المبالغةُ في تحريم نكاحِ منكوحات الآباء، وسدِّ الطَّريق إلى إباحة ذلك؛ إذ قال: "فإن قُلْتَ: كيف استثنى ﴿مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾، ممّا نكح آباؤكم؟ قلتُ: كما استثني (غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ) مِن قوله: (وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ)، يعني: إن أمكنَكُم أن تَنكِحوا ما سَلَف فانكِحوهُ،

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/67، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/159، وليد إبراهيم، الاستثناء المنقطع في القرآن الكريم، ص: 1455.

فلا يحلُّ لكُمْ غَيْرُه، وذلك غير مُمكنٍ، والغَرضُ المبالغة في تحريمه وسَدّ الطَّريق إلى إباحته، كما يعلّق بالـمُحال في التَّأبيد، نحو قولهم: حتَّى يَبْيَضَّ القارُ[1]، و﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: 40]"[2].

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾:

تَأْكِيدُ قُبْحِ هَذَا النِّكَاحِ وَشَنَاعَتِهِ

قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ تذييلٌ غيرُ جارٍ مجرَى المثَل، وهو مُشتملٌ على تعليل للنَّهي عَنْ هذا النِّكاح، ولذا فُصِلَت الجملةُ عمَّا قبلَهَا لوقوعِهَا استئنافًا بيانيًّا.

والضَّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعودُ على النِّكاح المَنهيِّ عنه المفهوم مِنْ قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ﴾، فهو نظيرُ قول اللّه تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: 8]، و﴿كَانَ﴾ بمعنى: لم يَزل[3]، أي: الآن وما بعده كونًا راسخًا، فهو فاحشةٌ لَمْ يُرخِّصِ اللّه تعالَى فيه لأُمَّة مِنَ الأُمم قطُّ.

وقدِ اجتمع في التَّذييل ثلاثُ صفات تؤكِّد قبحَ هذا النِّكاحِ وشناعَتَه، وهي صفاتٌ تعودُ إلى مَراتب القُبح الثَّلاثِ: العقليّ، والشَّرعي، والعاديّ؛ فَقَدْ جَعَلَه اللّه تعالى ﴿فَٰحِشَةٗ﴾، وهو بيانٌ لمرتبة قُبْحِهِ العقليّ؛ إذِ الفاحشَةُ لا يُقدِمُ عليها تامُّ العَقل؛ وذلك أنَّ زوجة الأَب كالأُمِّ، فنِكاحُها يُشبه نكاحَ الأُمِّ الَّذي هو من أَفْحَشِ الفوَاحِشِ، وجَعَلَهُ ﴿وَمَقۡتٗا﴾، وهو بيانٌ لمرتبةِ قُبحِهِ الشَّرعي، أي: ممقوتٌ عند اللّهِ تعالَى وعندَ النَّاس، وكانتِ العرب تُسمِّي الولدَ الَّذي يجيء من زَوج الوالِد: المقتيَّ، وأمَّا القبحُ العاديّ فَوَارِدٌ في قوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، أي: سبيل مَن يراهُ ويَفْعَلُه، فهو بِئْسَ الطَّريقُ والمَنْهَجُ، وَمَتَى اجتمَعَت هذهِ الوجوهُ؛ فقدْ بلغَ الغايَةَ في القُبْحِ[4].

---

(1) القار: هو شيءٌ أَسود تُطلَى به الإبل والسُّفُنُ يَمنَعُ الماءَ أن يَدخُلَ، ومنه ضَربٌ تُحشى به الخلاخيل والأسوِرَةُ، وقَيَّرْتُ السّفينةَ: طَلَيتُها بالقار، وقيل: هوَ الزِّفت، يُنظر: لسان العرب، ابن منظور: (قير).

(2) الزَّمَخْشري، الكشّاف: 1/493، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 4/490، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/159، والإسفراييني، الأطول: 2/435.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/67، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/160.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/291، ووليد إبراهيم، الاستثناء المنقطع في القرآن الكريم، ص: 1455.

دِلَالَةُ الْإِنْشَاءِ غَيْرِ الطَّلَبِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾:

بِئْسَ سَبِيلُ مَنْ تَجَرَّأَ عَلَى حُدُودِ اللهِ تَعَالَى

في كَلِمَةِ ﴿وَسَآءَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ قَوْلَانِ:

أحدُهما: أنَّها جاريةٌ مَجرى (بئسَ) في الذَّمّ والعَملِ؛ فَفِيها ضميرٌ مُبهمٌ يفسِّره ما بعدَهُ، والمخصوصُ بالذَّمّ محذوفٌ، تقديرُه: وساء سبيلًا سبيلُ ذلكَ النِّكاح، كقوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: 29]، أي: ذلك الماءُ، وأسلوبُ الذَّمّ بـ (سَاءَ) إنشاءٌ غيرُ طلبيّ، ويَحْمِلُ في طيَّاتِهِ مبالغةً عظيمةً في وَصْفِ هذا النِّكاحِ بالسُّوءِ.

والآخَرُ: أنَّها كسائر الأفعال، وفيها ضميرٌ يعُودُ إلى ما عادَ إِلَيْهِ ضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ﴾، و﴿سَبِيلًا﴾ تمييزٌ، والجملةُ إمَّا مُستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، وإمّا معطوفةٌ على خبرِ كان محكيّة بقولٍ مُضمرٍ هو المعطوفُ في الحقيقة، تقديرُه: ومقولًا في حقِّهِ: ساءَ سبيلًا[1]، وفي هذا الوجهِ زيادةُ ذمِّ هذا السَّبيلِ بوُرُودِهِ تمييزًا؛ لأنَّهُ قد ذُمَّ مرّتين؛ إحداهُمَا بالفعل ﴿وَسَآءَ﴾، والأُخْرَى: في المَخْصُوصِ بالذّمّ المحذوفِ، أي: ساءَ سبيلُ ذلك النّكاح المقوت سبيلًا.

الدّلَالَةُ الصَّوْتِيَّةُ لِكَلِمَةِ ﴿سَبِيلًا﴾:

امْتِدَادُ السَّبِيلِ وَسُهُولَتُهُ يَكُونُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ

جَميعُ حروفِ كَلِمَةِ ﴿سَبِيلًا﴾ مُستفلة، وهذا مُنَاسِبٌ لدِلَالَتِهِ علَى السُّهُولة، سواءٌ أكانَ خيرًا أم شرًّا؛ إذْ سُهُولَةُ السّبيلِ لا تقتضي خيريَّتَهُ، لِاحْتِمَالِ كَوْنِهِ اسْتِدْرَاجًا، أو انجرافًا إلى مَهْلَكَةٍ.

كما أنَّ حركَةَ الفَتْحَةِ في السِّين من ﴿سَبِيلًا﴾، ثمّ الكسرَةَ الطّويلة (بِي) يُنَاسِب ما جاءَ في معناه المحوريِّ؛ وهُو الامتِدَادُ إلى أسفل، كما أنّ اللّامَ - بِمَا في مخرجِها مِن امْتِدَادِ طَرَفِ اللّسانِ والتقائِهِ بأعلى اللّثَة، وامتدادِ الصّوت بِها) تُشِيرُ إلى امتداد السّبِيلِ كما جاءَ في تركيبه اللّغويّ.

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 2/160، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/32.

نِكَاحُ زَوْجَاتِ الْآبَاءِ أَشَدُّ جُرْمًا مِنَ الزِّنَا

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيّ:

قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، وقال في سُورةِ الإسرَاء: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: 32].

فاختصَّت آية النِّساءِ بزيادةِ ﴿وَمَقْتًا﴾، ووجهُ ذلك أنَّ "مُتزَوِّجَ امرأةِ أَبيه فاعِلٌ رَذِيلَةً يُمْقَتُ فاعِلُها، ويُشْنَأُ، وتَستَخِسُّه الطِّباعُ السَّليمة، فوصفت فِعلَتُه بالمَقتِ، وساوتِ الزِّنا فيما وراءَ ذَلِكَ"[1].

دِقَّةُ مُنَاسَبَةِ خَوَاتِيمِ الْآيِ لِسِيَاقَاتِهَا

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِي:

قال تَعالى في هذه الآية: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، وقال سُبحانه بعدهَا بآياتٍ: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، واختصَّت كل آية بما بعدَ قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ﴾ لنكتةٍ اقتضت ذلك؛ وذلك أنَّ الآية الأولى صُدِّرت بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، فلمَّا نُهُوا عن ذلك؛ ناسب أن يُتبعَ النَّهيُ بما يُنفِّرُ منه أشد النُّفور، فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

وأما الآية الأخرى؛ فقد تقدَّمها قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾، فلمَّا كان تحريم ما يقطع الأواصر بين الأرحام ويُثير الشِّقاق، وكان التَّجاوز عمَّا سلف منه دالّا على أنَّ اللّه غفور رحيم، يشرع لهم ما فيه صلاحهم، ناسب أن يُعقَبَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2].

---

(1) ابن الزبير، ملاك التّأويل: 1/103.

(2) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 365.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفاحشة والإثم:

الفَواحش: الكبائر؛ لأنَّه قد تَفاحَشَ قُبحها وتزايد، والإثمُ: الصَّغائر مِنَ الذُّنوب، والفاحشة كذلك اسم لَمَا يجب فيه الحدّ مِنَ الذُّنوب، والإثم اسم لَمَا لا يَجب فيه الحَدُّ، وقيل: إنَّ الفاحشة، وإن كانت بحسب اللُّغة اسمًا لكلِّ ما تفاحش مِن قولٍ أو فِعلٍ، لكنَّه قد صار في العُرف مخصوصًا بالزِّنا؛ لأنَّه إذا أطلق لفظ الفاحشة لم يُفهم منه إلَّا ذاك[1]، وحسن التعبير بالفاحشة في سياق الآية؛ لما تضمَّنه هذا الصنيع - نكاح زوجات الآباء - من القباحة والسوء الشنيع.

المقت، والبغض، والبغضاء، والشّنآن، والقِلى، والكره:

المقتُ هو البُغض المقرون بالاستِحقارِ فهو أخصُّ مِنَ البغض، والبغضاء شدَّة البُغض، خلافُ الحُبِّ، والشَّنآن: البغضُ، مع التَّجنُّب والتَّقزّز والقبح، والقِلَى: التَّجافي عنِ الشَّيء وتركه؛ لشدّة الكُره له، والكُره والكراهة والكراهية: خلاف الحبِّ[2].

فالمقتُ أشدُّ هذه الكلمات وأخَصُّها؛ لأنَّه يتضمَّن الكراهية، معَ الشِّدة، والقُبح، ومنافاة المروءة؛ وهذا مناسب للسِّياق الّذي جاءَت به الآية الكريمة.

وحسبُ المُخاطَب تنفيرًا من هذا النّكاح أنّ وصف (المقت) في غير هذا المَوضِع[3] لم يرد في القرآن الكريم إلّا في سياق جزاء الكافرين، أو المنافقين.

السُّوء، والسَّوء، والسَّيّئة:

السُّوء: بضمِّ السِّين، الاسم مِنَ السَّوء، جرى مَجرَى الشَّرّ، كلُّ ما يغمُّ الإنسان مِنَ الأمور الدُّنيويَّة، والأُخرويَّة، ومِنَ الأحوال النَّفسيَّة، والبدنيَّة، والخارجة، من فَوات مالٍ، وجاهٍ، وفَقدِ حميمٍ، وقوله: ﴿بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: 22]، أي: من غير آفةٍ بها، وفُسِّر بالبَرَص؛ وذلك بعض الآفات الّتي تعرض لليد.

وأمَّا السَّوء بفتح السِّين فمصدر ساءَه يسوءه سَوءًا، فعل به ما يكره، وهو نقيض سرَّه،

---

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/196.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بغض)، (شنأ)، (قلو)، (كره)، (مقت).

(3) ورد لفظ: (مقتًا) في أربعة مَواضِع: في سور [النّساء: 22]، [فاطر: 39]، [غافر: 35]، [الصّف: 3].

فهو مصدر، وغلب عليه أن يُضاف إليه ما يُراد ذمُّه، تقول: هذا رجل سَوء، وهذه امرأة سَوء، ونحو هذا؛ ويُقال: ساءَ ما فعَل فلانٌ صنيعًا، يسوء: أي: قبح صنيعه صنعًا، وفي التّنزيل: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ [الأعراف: 177].

والسَّيِّئَةُ: الفعلَة القبيحة، وهي ضدُّ الحسنة، قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ [النّساء: 79]، فالتّعبير بالسُّوء في الآية أبلغُ في التَّصوير؛ لأنَّه طريق أهل المعصية، والمخالفين أمر الله تعالى، فأَسوِئ به طريقًا يُوردُ صاحبَهُ نارَ جهنَّم[1].

السّبيل، والطَّريق، والصِّراط[2]:

من خلال ما سبق نلحظ في معنى السّبيل أنّه ممتدٌّ، فما سمِّي السّبيل سبيلًا إلّا لامتداده، كما نلحظ في معنى السّبيل أنه الطّريق السّهل، للسّير فيها، وقد تكون سهولته من كون السّائر فيه نازلًا من علوٍّ إلى سُفل، أو من سيره في اتِّجاه الرّيح، أو غير ذينك، حقيقةً أم مجازًا، كأن يكون في الشّرّ استدراجًا، أو انجرافًا إلى الضّعة والدّناءة والتَّهلكة، أو يكون في الخير امتدادًا لسير الصّالحين السّابقين، أو تيسيرًا وتوفيقًا.

وأما الطّريق فقد ورد لفظه ومشتقاته في القرآن إحدى عشْرة مرّة، وهو يدلُّ على الوضوحِ، وقد يكون ذلك الوضوح من كونه مَطروقًا قبل ذلك أو غيرَ مطروق، ويدلُّ على الارتفاع عن سائر الأرض، وعلى التّتابع، أي: مواصلة السّائر السّير فيه، وقد يكون في الخير أو الشّرّ، ويقال للنّخل الّذي على صفٍّ واحدٍ، طريقٌ، وهذا تشبيهٌ، كأَنَّه شُبِّهَ بالطَّريق في تَتَابُعِهِ وعُلُوِّهِ الأَرض[3].

وذكر الرّاغب: أنَّ الطّريق هو "كلّ مسلك يسلكه الإنسان في فعلٍ، محمودًا كان أو مذمومًا "[4]، والطّريق: هو السّبيل المطروق[5] بالأرجل، أي: يُضرب كما جاء على لسان مؤمني الجنّ قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى

(1) الرّاغب، المفردات: (سوأ)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 503.
(2) نصر سعيد، التّمييز في فواصل القرآن الكريم، ص: 46.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طرق).
(4) الرّاغب، المفردات: (طرق).
(5) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/504.

ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٠﴾ [الأحقاف: 30]، "أي: إلى سبيل مطروق، قد مرَّت عليه الرّسل قبله، وإنّه ليس بِدعًا، فاقتضتِ البلاغة والإعجاز لفظ الطّريق؛ لأنّه (فعيل) بمعنى (مفعول)، أي: مطروق مشت عليه الرّسل والأنبياء من قبل، فحقيق على من صدَّق رسل اللّه، وآمن بهم أن يؤمن به، ويصدّقه، فذكرُ الطّريق - في آية الأحقاف - أولى؛ لأنّه أدخل في باب الدّعوة، والتّنبيه على تعيّن اتّباعه"[1].

وأما الصّراط فإنّه يدلُّ على أنّه واسع، وسهل، ومستقيم، ومسلوك، وموصّل إلى الغاية، ويقع في الخير غالبًا، ولم يرد في القرآن إلّا مفردًا، والصّراط: الطّريق، وأصله بالسّين منَ السّرط، وهو اللّقم، ولذلك يسمّى لقمًا كأنّ سالكه يبتلعه، أو يبتلع سالكَه، يقال[2]: أكلته المفازة إذا نهكته لسيره فيها، وأكل المفازة إذا قطعها بسهولة، والطّريق لا يقتضي السّهولة، والسّبيل اسم يقع على ما يقع عليه الطّريق، وعلى ما لا يقع عليه الطّريق، تقول: سبيل اللّه وطريق اللّه، وتقول: سبيلك أن تفعل كذا، ولا تقول: طريقك أن تفعل به[3].

وقد يفرَّق بين السّبيل والطَّريق؛ بأنَّ السّبيل أغلب وقوعًا في الخير، ولا يكاد اسم الطّريق يُراد به الخير إلّا مُقترِنًا بوصف أو إضافة تخلّصه لذلك[4].

فالطّريق: هو كلُّ ما يطرقه طارقٌ، معتادًا كان أم غير معتادٍ، والسّبيل منَ الطُّرق: ما هو مُعتادُ السّلوكِ، والصّراط منَ السّبيل: ما لا التِواء فيه ولا اعوِجاج، بل يكون على سبيل القَصد، فهو أخصُّ منها.[5]

فبان ممَّا سبق أنَّ لفظ السّبيل أنسب لمقام النّهي عن نكاح نساء الآباء؛ إذ إنَّ هذا العمل ممتدٌّ في أيام الجاهلية، وقد دأب عليه آباؤهم من قبل، وسهُل عليهم فعلُه لكثرة اعتيادهم عليه، وشيوعه عندهم.

(1) ابن القيِّم، بدائع التّفسير: 1/69.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/71، والأزهري، تهذيب اللغة: (سرط).
(3) الرّاغب، المفردات: (سبل).
(4) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 145، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 581.
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 513.

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣﴾ [النّساء: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ أن بَيَّنتِ الآية الَّتي قَبلَها حُرمَة التَّزوّج ممَّن تَزوَّج بهنَّ الآباءُ، ناسب أن يشرع في هذه الآيةِ ببيانِ أصناف النساءِ المُحرَّماتِ على الرِّجال التَّزوُّج بهنَّ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾: الحَرام: الممنوع، يُقالُ: حَرُمَ عليه الشَّيءُ حُرمَةً وحَرامًا، أَي: امتَنَعَ، وشيءٌ مُحَرَّمٌ، أي: ممنوعٌ، وأَصل التّحريم: المَنعُ، يُقالُ: مَكانٌ حَرامٌ، أي: يُمنَعُ دُخولُهُ، ومنه سُمِّيَ الشّهرُ الحرامُ بذلك؛ لأنّ العربَ تَمتَنِعُ فيه عنِ القتال، وضِدُّ الحَرام: الحلالُ والمُباحُ والجائِزُ[2].

2) ﴿أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾: الأمُّ: الوالدةُ الَّتي ولَدَتِ الإنسان، والآية تشمل الجدَّات كذلك.

3) ﴿وَبَنَاتُكُمۡ﴾: البِنتُ: مُؤَنَّثُ الابن، وهو الوَلَدُ الذَّكَرُ، سُمِّيَ به؛ لكَونه بناءً للأب ومُتَوَلِّدًا عنه، والأُنثى مِنَ الأَولاد تُسمَّى ابنةً وبِنتًا، وعند الإطلاق يَنصَرِفُ إلى البنت مِنَ النَّسب، والجمعُ: بناتٌ[3]، ويدخل فيهنَّ البنتُ من الرَّضاعِ، وبناتُ الأولاد وإن سَفَلنَ.

(1) الخطيب، تفسير القرآني للقرآن: 2/734.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (حرم).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بنو).

4) ﴿وَأَخَوَٰتُكُمۡ﴾: الأُختُ: أُنثى الأَخ، ولَيسَتِ التَّاءُ فيها بعلامة تَأنيثٍ؛ لسكون مَا قبلهَا، وهي صِيغَة على غَير بِنَاء المُذكر، وتاؤُها بدل من الوَاو، أصلها "أَخَوَة" على وزن " فَعَلَة"، فنقلوها إِلَى "فُعْل"، وألحقتها التَّاءُ المُبدلة من لامها بوَزْن "فُعْل"، فَقَالُوا: أُخت، وهي مَن وَلَدها أَبُوك وأُمُّك، أو أَحَدُهما، وقد تُطلَقُ أيضًا على الأُخت من الرَّضاع، والجمعُ: أَخَواتٌ[1].

5) ﴿وَعَمَّٰتُكُمۡ﴾: العَمَّةُ: أُختُ الأب، واسْتَعَمَّ عَمًّا، وتَعَمَّمَهُ، أي: اتّخذه عَمًّا، وأصل ذلك من العُمُوم، وهو الشُّمول وذلك باعتبار الكثرة، ويقال: عَمَّهُمْ كذا، وعَمَّهُمْ بكذا، عَمًّا وعُمُومًا، والعَامَّةُ سمُّوا بذلك لكثرتهم وعُمُومِهِمْ في البلد، ويدخل في العمَّاتِ أخواتُ الآباء والأجداد، وإن علونَ، والجمعُ: عَمّاتٌ[2].

6) ﴿وَخَٰلَٰتُكُمۡ﴾: الخالة: أُختُ الأُمِّ، وإن عَلَت، فيدخل فيهنَّ جميعُ أخواتِ الأمّهاتِ والجدَّاتِ.

7) ﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ﴾: الإناثُ من أولاد الأَخ الشَّقيق، والإناثُ من بنات الأُخت الشَّقيقة، ويدخلُ فيهنَّ بناتُ أولاد الأخِ والأخت، وإن سفلنَ، فهؤلاء المذكوراتُ محرَّماتٌ بالنَّسب اتّفاقًا، وما بقيَ محرَّماتٌ بالسَّبَب، وهنَّ:

8) ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾: أي: المُحرَّمات بالرّضاعة، والرَّضعات المحَرِّمات خمسُ رضعات، أو أقلُّ من ذلك، ويَكُنَّ في سِنِّ الحَولين، ويُلحق بالتَّحريم بأمَّهات الرّضاعة بناتها وأخواتها.

9) ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾: مِنَ المُصاهرة، فأمُّ زوجة الرَّجلِ محرَّمة عليه بمجرَّد أن يَعقد على بنتها؛ أي: لا يحلُّ له أن يتزوَّج بأُمِّ الزوجة تحريمًا مؤبَّدًا.

10) ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾: الرَّبيبةُ: ابنةُ امرأَة الرَّجُل مِن زَوج سابِقٍ، والابنُ: رَبِيبٌ، وأَصلُها مِنَ الرَّبِّ، وهو الإصلاحُ والتَّأديبُ، يُقال: رَبَّ الوَلَدَ يَرُبُّهُ رَبًّا وتَربيةً، أي: أَصلَحَهُ وأَدَّبَهُ، ورَبَبتُ الأَمرَ، أي: أَصلَحتهُ، وسُمِّيَت رَبيبةً؛ لأَنّ زَوجَ أُمِّها يقومُ بأُمورها ويُصلحُ أحوالَها غالبًا، والجمعُ: رَبائِب[3].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عبّاد، المحيط، وابن سيده، المحكم: (أخو).
(2) الرّاغب، المفردات: (عم).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ربب).

11) ﴿حُجُورِكُم﴾: جمعُ حِجْرٍ، والمُرادُ: البيوتُ؛ أو في ضمانكم وتربيتكم، ويُقال: فلان في حِجر فلانٍ، إذا كان يلي تربيته، وذلك أنّ كلَّ من ربَّى صبيًّا أجلَسَه في حِجره، فصار الحِجر عبارةً عنِ التَّربية، كما يُقال: فلان في حضانة فلان، وأصلُه منَ الحِضن الَّذي هو الإبط[1].

12) ﴿ٱلَّتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾، أي: جامعتموهنَّ.

13) ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ الْجِيمُ وَالنُّونُ وَالْحَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْمَيْلِ وَالْعُدْوَانِ، وَالْجُنَاحُ: الْإِثْمُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَيْلِهِ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ[2].

14) ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾: جمعُ حليلةٍ، والذَّكَرُ حليلٌ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ حلالٌ لصاحبه، إمَّا بحَلِّ كلٍّ منهما إزارَه لصاحبه، وإمَّا بكونه حلالًا له غيرَ حرامٍ عليه، وإمَّا لنزوله معه[3]، والمعنى: وحُرِّمت زوجاتُ أبنائكم.

15) ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾، من: الصُّلْب: وهو عَظمٌ من لَدُن الكاهِل إلى العَجْب: (العَظمةُ التي عند رأس العُصْعُص أسفل الظَّهر)، أي: ظهوركم، وسُمِّيَ الظَّهْرُ صُلْبًا؛ لِقُوَّتِه، وهو تنبيه على أنَّ الولدَ جزءٌ من الأب[4]، والمعنى: وحُرِّمت زوجةُ الابنِ على أبيه بمجرَّد العقد اتّفاقًا.

16) ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ﴾، أي: وحُرِّم عليكم الجمعُ.

17) ﴿بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾، فلا يجوزُ للرّجل الجمعُ بينَ الأُختينِ من نسبٍ أو رَضاعٍ.

18) ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، أي: إلَّا ما مضى في الجاهليَّة، فإنَّه معفوٌّ عنه؛ لأنَّهم كانوا يفعلونه.

19) ﴿غَفُورًا﴾: أَصلُ الغُفرانِ منَ الغَفر، وهو: التّغطيةُ والسَّترُ والإدخالُ، ومنه سُمِّيَ العَفوُ غُفرانًا؛ لأنّهُ سترٌ للذّنب، وإدخالٌ للعبد في العفو، وغَفرَ له: إذا سامَحَهُ وعفا عنه[5]،

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 6/422.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (جنح).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (حلل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صلب).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، الزّبيديّ، تاج العروس: (غفر).

والغفور من أسماء اللّه الحسنى، ومعناه: الذي يسترُ ذنوبَ عبادِه، ويتجاوزُ عنها، ويقيهم آثامَها، بالعفو عنها، وهو بمعنى الغفَّار، لكنَّه ينبئُ عن نوع مبالغةٍ لا ينبئُ عنها الغفَّار؛ فالفَعُول ينبئ عن جَوْدة الفعل، وكمالِه، وشمولِه، فهو بمعنى تامُّ المغفرة[1].

20) ﴿رَّحِيمًا﴾: ذو الرَّحمة الواسِعَة للمؤمنين يوم القيامة، والرَّحيمُ من أسماء اللّه تعالى، أي: لا يعاقبكم على سَيِّئاتكم إِذا تُبتم، وأَصلحتُم، ويعني: كثير المَغفرة والرَّحمة لعباده[2].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

حَرَّم اللّه عليكم نكاحَ أمَّهاتِكم وإن عَلَون؛ أي: أمُّ الأمِّ وجدُّتها من جهة الأب أو الأمِّ، وبناتِكم، وإن نزَلْن، أي بنتُها وبنتُ بنتِها، وكذلك بناتُ الابن وبناتُ البنت وإن نزَلْن، وأخواتِكم من أبويكم أو من أحدهما، وعمَّاتِكم، وكذلك عمَّاتُ آبائكم وأمَّهاتِكم وإن عَلَون، وخالاتِكم، وكذلك خالاتُ أمَّهاتكم وآبائكم وإن عَلَون، وبناتِ الأخِ وبناتِ الأخت، وأولادهنَّ وإن نزلوا، وأمَّهاتِكم اللَّاتي أرضعنَكم، وأخواتِكم منَ الرَّضاعة، وأمَّهاتِ زوجاتكم سواء دخلتم بهنَّ أم لم تدخلوا بهنَّ، وبناتِ زوجاتِكم من غيركم اللَّاتي ينشأنَ ويتربَّينَ في بيوتكم غالبًا، وكذلك إذا لم يتربَّينَ فيها، إن كنتم دخلتم بأمَّهاتهنَّ، وأمَّا إذا لم تدخلوا بأمَّهاتهنَّ وطلقتموهنَّ، أو متْنَ قبلَ الدُّخول بهنَّ فلا حَرج عليكم في نكاح بناتهنَّ، وحُرِّمَ عليكم نكاحُ زوجاتِ أبنائكم الّذين من أصلابكم ولو لم يدخلوا بهنَّ، ويدخل في هذا الحكمِ زوجاتُ أبنائكم منَ الرَّضاعة، وحُرِّمَ عليكم الجمعُ بين الأختين منَ النّسب أو الرّضاعة - وثبت في السُّنَّة تحريمُ الجمعِ كذلك بين المرأةِ وعمَّتها أو خالتِها - إلّا ما مضى من ذلك في الجاهليّة فقد عفا اللّه عنه، إنَّ اللّه تامُّ المغفرة لعباده التّائبين إليه، ذو رحمةٍ واسِعَةٍ للمؤمنين يوم القيامة[3].

(1) الخطابي، شأن الدعاء ص: 65، وابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية ص: 253.
(2) ابن القيم، مدارج السالكين: 1/34، والعليميُّ، فتح الرّحمن: 2/109.
(3) نخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 81، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 81.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿حُرِّمَتْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾:

تَخْتَلِفُ صِيَغُ التَّحْرِيمِ بِحَسَبِ حَالِ الْمُخَاطَبِينَ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ

تَغيَّر أسلوب النَّهي في هذه الآية عن سابِقَتِهَا؛ فالآية السَّابقة وردَ النَّهيُ فيها بصيغةِ المضارعِ المقرونِ بلَا النَّاهية ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾، وهذه الآية وردَ التَّحريمُ فيها بصريح مادَّتِه ﴿حُرِّمَتْ﴾، والفرقُ بين التَّعبيرَيْنِ؛ أنَّ صيغة (لَا تَفْعَل) نهيٌ بصيغةِ المضارع الدَّالّ على زمنِ الحالِ، فيُؤْذِنُ بالتَّلبّس بالـمَنهيّ، أو إمكان التَّلبّس به، بِخِلَافِ ﴿حُرِّمَتْ﴾؛ فإنَّه دالٌّ على أنَّ تحريمَه أمرٌ مُقرَّر؛ ولذلك قال ابنُ عبَّاس: (كان أهلُ الجاهليَّة يُحرِّمون ما يُحرِّم الإسلام إلَّا امرأةَ الأبِ، والجمعَ بينَ الأُختَيْن)، ولهذا وردَ التَّعبير عن حُكم الجمعِ بين الأُختين بلفظ الفعل المُضارِع: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾[1].

سِرُّ بِنَاءِ الْفِعْلِ ﴿حُرِّمَتْ﴾ لِلْمَفْعُولِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾:

مَالِكُ حَقِّ التَّحْرِيمِ هُوَ اللهُ تَعَالَى

بُنِيَ الفعلُ ﴿حُرِّمَتْ﴾ للمفعولِ؛ لكونِ الفَاعِلِ معلومًا لِلْمُخاطَب؛ إذِ الْمُخاطَبون بهذا التَّحريم هُمُ الْمُؤْمِنُون، وهُم يَعْلَمُونَ عِلَم اليَقينِ المحرِّمَ وهو اللّٰه تعالَى، فكانَ الأَولى هنا لَفتَ الانْتِبَاه إلى الْمُحرَّم نفسِه؛ ليكون أدْعَى لِلامْتِثَالِ، ومثلُه قولُه تَعَالَى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النّساء: 24][2].

تَعْيِينُ الْمَحْذُوفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾:

التَّحْرِيمُ الْمُوَجَّهُ لِلْأَعْيَانِ يُرَادُ بِهِ تَحْرِيمُ الْفِعْلِ الْمُتَوَجِّهِ إِلَيْهَا

في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ حذفٌ، دلَّ عليهِ قولُه قبلُ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾؛ فإنَّ النَّهي عن النِّكاح ههنا مُفيدٌ أنَّ الْمُرادَ مِن قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾

---

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/294.

(2) البنَّاني، سورة النّساء: دراسة بلاغيّة تحليليّة: 1/225.

تحريمُ نكاحِهنّ، ثُمَّ إنَّ الأصلَ في الحُرمَة والإباحَة إذَا أُضيفتا إلى الأَعْيَانِ؛ فالمُرادُ تَحْرِيمُ الفعل المطلُوبِ مِنْهَا في العُرف، ففي قولِه سُبحانَهُ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة: 3] يُرادُ: تحريمُ أكلِهِمَا، وكذا في قولِه ﷻ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ﴾؛ فإنَّ المُرادَ: تحريمُ نِكَاحِهِنَّ[1].

سِرُّ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾:

الاِهْــتِـمَــامُ بِالْمُخَاطَبِ يَحْمِلُهُ عَلَى الامْتِثَالِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾ والأصلُ تأخيرُهُ؛ لِنُكْتتَيْنِ:

إحدَاهُمَا: الاهتِمَام بشأنِ المُخَاطَبِينَ؛ لِيَجِدُّوا في الاِمْتِثَالِ.

والأُخْرَى: الحفاظُ على سلَامةِ النَّظْمِ من الخلل؛ وذلك لأنَّه لو أُخِّرَ الجارُّ والمجرورُ مع كثرةِ المرفوعَاتِ ﴿أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ﴾؛ لبَعُدَ عن العاملِ ﴿حُرِّمَتۡ﴾، واختلَّ نظمُ الكلام.

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ لَفْظِ الْأُمَّهَاتِ دُونَ الْوَالِدَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾:

دِقَّــةُ اخْـتِـيَـارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلْأَلْفَاظِ الْمُنَاسِبَةِ لِسِيَاقَاتِهَا

لَمّا ابتدأ اللّه تعالى بتعظيم الآباءِ وذلك بتحريمِ أن يَنْكِحَ الأبناءُ أزواجَ آبائِهم على العُمومِ؛ ثنَّى بذِكْرِ الأُمّ، فقال تعالَى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾، واختيرَ في عَدِّ المُحرَّمات كلمةُ (أُمَّهاتُ)، وأُوثِرَت كلمة ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ﴾ في قوله سُبْحَانه: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾ [البقرة: 233]؛ لأنّ كلمةَ (الأُمّ) تُشْعِرُ بالتَّقدير والتَّوقيرِ، والإعزازِ والإجلال، حتَّى إنَّ النَّفسَ لتَشمَئِزُّ وتَنفرُ مِنْ أن تُمَسَّ بِمَا يَشِينُ، فكانَتْ أَنْسَبَ كلمةٍ تُذْكَرُ في سياقِ إيرَادِ المُحرَّماتِ، بخلافِ كلمة (الوَالِدَات)؛

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/23 - 6/283.

فإنَّها تُوحِي إلَى النَّفس بأنَّ مِنَ الظُّلم أن يُنزع مِنَ الوالدةِ مَا وَلَدَتْهُ، وأن يُصبح فؤادُها فارغًا، ومِن هُنا كانت كلُّ كلمةٍ مِنْهُما مُوحيَةً في مَوضِعها، آخذة خيرَ مكانٍ تَسْتَطِيعُ أن تتبوَّأَه[1].

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلۡأَخِ﴾ و﴿ٱلۡأُخۡتِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ﴾:

حِرْصُ الْإِسْلَامِ عَلَى حِفْظِ نَسْلِ الْأُسَرِ وَتَمَاسُكِهَا

اللَّامُ في ﴿ٱلۡأَخِ﴾ و﴿ٱلۡأُخۡتِ﴾ جِيءَ بهَا عِوَضًا عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، فمعنَى ﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ﴾: بَناتُ أَخِيكُم، وبناتُ أُخْتِكُم[2]، ودخولُها على الِاسْمَيْنِ أَضْفَى خُصوصيَّةً لَهُمَا ومكانَةً؛ إذ كلُّ المذكورَاتِ أُضِيفَت أسماؤُهنَّ إلَى ضمير الخِطَاب، إلَّا هذين الاسمين.

عِلَّةُ تَسْمِيَةِ الْمُرْضِعِ أُمًّا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾:

تَكْرِيمُ الْمُرْضِعِ بِتَسْمِيَتِهَا أُمًّا

سمَّى اللّٰه تعالى المراضِع أُمَّهات جَريًا على لغة العرب، وما هنَّ بأُمَّهاتٍ حقيقةً، ولكنَّهنَّ تَنَزَّلنَ مَنزلةَ الأُمَّهات؛ لأنَّه بلبنهنَّ تَغَذَّتِ الأَطفالُ، ولمَا في فِطرة الأطفال من محبَّة لمُرضعاتهم محبَّة أُمَّهاتهم الوالدات، ولزِيَادَةِ تَقْرِير هذا الإطلاقِ الَّذي اعتبرَهُ العَربُ.

وقد قُرِنَ ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ﴾ بالوصف: ﴿ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾؛ دَفعًا لتوهُّم أنَّ الـمُرادَ الأُمَّهاتُ فيكونُ تكرارًا للواردِ في صدرِ الآيةِ.

وإطلاقُ اسم الأُخْتِ على الَّتي رضَعَت مِن ثَدْيِ مُرضعة مَن أُضِيفَتِ الْأُخْتُ إِلَيْهِ؛ جَرَى على لُغَةِ العرَبِ، كما تقدَّم في إِطْلَاقِ اسمِ الأُمِّ على الْمُرْضِع.

وقولُه: ﴿مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ حالٌ من ﴿وَأَخَوَٰتُكُم﴾، و﴿مِّنَ﴾ فيه للتَّعليل والسَّببيّة، فلا تُعْتَبَرُ أُخوَّة الرَّضاعة إلَّا برضاعةِ الْبِنْتِ مِنَ المرأة الَّتي أَرضعَتِ الْوَلَدَ[3].

(1) البدويّ، من بلاغة القرآن، ص: 59.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/296.

(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/296.

وبينَ ﴿أَرْضَعْنَكُمْ﴾ و﴿ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ جناسُ الاشتقَاقِ؛ تأكيدًا على المرادِ بالأُمُومةِ والأُخُوَّة.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالرَّبَائِبِ دُونَ بَنَاتِ النِّسَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾:

إِجْـرَاءُ الرَّبَائِبِ مُـجْـرَى الْبَنَـاتِ لِاشْـتِرَاكِـهِـنَّ فِي بَعْضِ الْأَوْصَافِ

الرّبائبُ: جمعُ ربيبة، وهي فَعِيلَةٌ بِمَعْنَى: مَفْعُولَةٍ، والتَّاءُ فيهَا للنّقل إلَى الاسْمِيَّة، والرَّبيبُ: ولدُ المرأة من رجلٍ آخَرَ، سُمِّي به؛ لأنَّه يرُبُّه غالبًا كما يرُبُّ ولدَه، وإن لم يكن ذلك أمرًا مُطَّرِدًا، وهو المعنيُّ بكونهنَّ في الحُجور، فإنَّ شأنهنَّ الغالبَ المعتادَ أن يكنَّ في حضانة أُمَّهاتِهن تحت حماية أزواجهنَّ، لا كونهنَّ كذلك بالفعل.

وفائدةُ التَّعبير عنهنَّ بذلك تقويةُ عِلَّةِ الحُرمة وتَكْميلُها، فإنَّ كونَهنَّ بصَدَدِ احْتِضَانِهم لهنَّ، وعلَى مقرُبَةِ التَّقلُّب في حُجورهم وتحتَ حِمَايَتِهم وتَرْبِيَتِهم ممَّا يقوِّي الملابسةَ والشَّبَهَ بينهنَّ وبينَ أولادِهم، ويَسْتَدْعِي إجراءَهنَّ مُجْرَى بناتِهم، لا تَقْيِيدُ الْحُرْمةِ بِكَوْنِهنَّ في حُجُورِهِمْ بِالْفِعْلِ[1].

دِلَالَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾:

التَّـنْبِـيـهُ عَـلَى حِـكْـمَةِ تَـحْرِيـمِ الرَّبِيبَةِ

قولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ خرجَ مخرجَ الغالبِ؛ إذ هِيَ حالَةُ الرّبيبةِ في الأَكْثَر، وهي مُحرّمَةٌ وإن كانَت في غَيْرِ الحِجر[2]؛ لأنَّ اللَّفظَ الخارجَ مخرجَ الغالبِ لا مفهومَ مخالفةٍ له.

وقولُه تعالى: ﴿فِي حُجُورِكُم﴾ كنايةٌ عَنِ الرِّعاية والحيَاطَة والعَطف، وغيرها من أنواعِ البِّر الَّتي يَحُوطُ بها أَولادَ زوجتِهِ، وهذا الوَصف جارٍ مَجرَى العادة، والتَّعبيرُ به بيانٌ لِقُبح تزوُّجِ الرَّجُلِ بنتَ امْرَأَتِهِ[3].

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/161.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/32.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1633.

دِلَالَةُ التَّضْمِينِ وَالْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾:

الـــدُّخُـــولُ بِالْأُمَّهَاتِ يُحَرِّمُ الْبَنَاتِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ تضمينٌ، فقد ضُمِّنَ الفعلُ ﴿دَخَلۡتُم﴾ معنَى الفعلِ (خَلَوْتُمْ)، فيكون معنى قوله: ﴿دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ أي: دخلتُمْ وخلوتُمْ بِهِنَّ.

ثُمَّ إنَّ هذا الدُّخولَ والخلْوَةَ كنايةٌ عن الوَطْءِ، ولكِنْ عُدِلَ عن التَّصريحِ بالوطْءِ إلى التَّعبير بالدُّخولِ صراحةً وبالخَلْوَة إيماءً بالتَّضمين؛ لما عُهِدَ في خطاب الشَّرْعِ منْ سَتْرِ المَعَاني التي قَدْ يُسْتَحْيَى من ذِكْرِهَا، وهذا القيدُ المذكور في قولِه: ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ يدلُّ بمفهومِهِ على أنَّهُ إن لم تكونوا دخلتم بهنَّ فلا جناح عليكم في نكاح الرَّبائب، كما إذا فارقتموهنَّ قبل الدُّخولِ أو متْنَ قبلَهُ[1].

تَعْيِينُ الْمَحْذُوفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾:

حِلُّ نِكَاحِ الرَّبِيبَةِ إِذَا لَـمْ يُـدْخَـلْ بِأُمِّهَا

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: في نكاح الرَّبائب، وحُذِفَ لدلالة ما قبلَهُ عليه، وهو قوله سُبحانه: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾.

وقولُهُ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ تصريحٌ بما أَشْعَرَ بِهِ ما قَبْلَهُ، والفاء الأُولى ﴿فَإِن﴾ جيءَ بها لِتَرْتيب ما بَعْدَهَا عَلَى مَا قَبْلَهَا، فإنَّ بيانَ حُكم الدُّخول مُستتبعٌ لبيان حكم عَدمِه[2].

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنْ (لَيْسَ) إِلَى (لَا) النَّافِيَةِ لِلْجِنْسِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾:

جاءَ التَّعبير في قولِه سُبحانَهُ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ بـ (لَا) النّافيةِ لِلْجِنْسِ، وهي دالَّةٌ على نفيِ جِنْسِ

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/73، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/34.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/162.

الجُناح نَصًّا، والمُرادُ: نفيُ أَدْنَى حَرَجٍ أو إثمٍ إذا تَزَوَّجَ الرَّجلُ بنتَ امرأتِه التي فارقَها ولم يدخُلْ بهَا، "وصِيغَةُ نفيِ الجِنْسِ على سَبيلِ التّنصيصِ: صِيغَةُ تأكيدٍ؛ لأنَّ (لَا) النّافيَةَ لِلْجِنسِ في مقامِ النّفي بمنزلة (إنّ) في مَقامِ الإثبَاتِ، ولذلك حُمِلَتْ عليهَا في العَمَلِ"[1]، وعُدِلَ عنِ النّفي بـ (لَيْسَ)؛ لكونِهَا تَنْفِي الجملةَ الاِسْميّةَ علَى الحَالِ غالبًا.

فـ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ جملةٌ اسميَّة، بخلاف: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ﴾: جملةٌ فعليَّة، والجُملةُ الاسميَّة أقوى وآكَدُ منَ الجملة الفعليَّة؛ حيث إنَّ الجملة الاسميَّة تدلُّ على الثُّبوت، والجملة الفعليَّة تدلُّ على التَّجدد والحدوثِ، فكانتْ جملةُ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أقوى في النَّفي من ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ﴾؛ إذِ النَّفي درجاتٌ، ولذا تُستعمل (لَا جُنَاحَ) في مُهِمَّاتِ القضايا، مثل العبادات، والحقوق الزَّوجيَّة، والعقيدة، وتُستعمل (ليس) في القضايا الأقل أهميَّة، وربَّمَا كانت نادرةً، كالأكلِ والشُّرب في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ﴾ [النّور: 61]، ودخولِ البيُوتِ في قوله سُبحانه: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ﴾ [النّور: 29][2].

دِلَالَةُ الْوَصْفِ ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾:

تَبْيِينُ اللهِ تَعَالَى الْأَحْكَامَ وَدَفْعُهُ كُلَّ مَا يُتَوَهَّمُ مِنْهُ خِلَافُ الْمُرَادِ

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ أي: من ظُهورِكم، ووُصِفَ الأبناءُ الذين حُرِّمَ نكاحُ حلائلِهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ لِقَصْدِ رفعِ المَجَازِ الذي يَحْتَمِلُهُ لَفْظُ ﴿أَبۡنَآئِكُمُ﴾؛ وذلك أنَّ العربَ كانت تُطْلِقُ اسمَ الابْنِ على المُتبَنَّى، كمَا كانوا يقولُونَ: زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، إلى أن أَنْزَلَ اللّه تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 17/206.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثريّ، ص: 101.

﴿أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب: 40][1]، فكان تحليلُ نكاحِ زوجاتِ المُتبَنَّين إمعانًا في إبطالِ التَّبنِّي وإلغائِه.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾:

تَحْرِيمُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ فِي الْوَطْءِ مُطْلَقًا

اللَّامُ في ﴿ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ استغراقيَّة، فقد دخلت على اسم الْجِنْسِ المُثنَّى، وهي تعمُّ عند علماء الأصُول، فكانت بظاهرهَا مفيدةً لعموم تحريم الجمع بين كلِّ أختين، سواء أكان ذلك الجمعُ بعَقدٍ أم بمِلْكِ يَمين، وهَذه حجَّة الجمهُور[2].

وعُدِلَ ههنا عن التَّعبير بـ (والجمع بين الأختين) إلى ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾؛ ليُفِيدَ ذلكَ مُواجَهَتَهُم بِالْخِطَاب، فيكونُ أبلغَ في التَّعبير عمَّا نهُوا عَنْهُ[3].

دِلَالَةُ الِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾:

مِنْ حِكَمِ النَّهْيِ عَنِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ: حِفْظُ الْأَرْحَامِ مِنَ التَّقْطِيعِ

الاستثناءُ في قَوْلِهِ ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾ استثناء منقطعٌ، والمَعْنَى: لا تجمعُوا أيّها المؤمنون بين الأختَيْن؛ لأنّه من أفعَالِ الجاهليّة القبيحة، أمّا ما قد سلف ومضَى مِنْهُ قبلَ نزُولِ هذه الآية، فلا تُؤَاخَذُونَ عَلَيْه، فمَن كانَ متزوّجًا مِن أُخْتَيْن؛ فإنّها تَصِيرُ حَرامًا عليه مِن وقْتِ نزُولِ هذه الآيَةِ الكَرِيمَة، ويَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُفَارِقَ إحادهُما، أمّا مَا مضَى مِن هذا النّكاحِ القَبيحِ فلَا تَثْرِيبَ علَيْكُم فيه، وتَثْبُتُ بِهِ أحكَامُ النّكاح مِنَ النّسب وغَيْرِهِ مِنَ الأحْكَام.

دِلَالَةُ ﴿مَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾:

رَفْعُ الْمُؤَاخَذَةِ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ قَبْلَ وُرُودِ الشَّرْعِ

﴿مَا﴾ في قولِهِ تعَالى: ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾ اسمُ موصولٌ، وهُوَ دالٌّ على العُمُوم، والمعنى: قَدْ حرَّم علَيْكُم الجمعَ بَيْنَ الأُخْتَيْن؛ لكن ما

---

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1169، أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/582، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1633.

(2) الشّنقيطيّ، الرّحلة إلى إفريقيا، ص: 155.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/20.

مضى قبلَ نُزُولِ الآيَةِ وقبلَ التَّحريم مَعفوٌّ عنهُ، فهو عموم قطعيٌّ، حيث يُراد به جميع أفراده تناولًا وحُكمًا[1].

مُنَاسَبَةُ خَتْمِ الْآيَةِ بِاسْمَي اللهِ تَعَالَى: الْغَفُورِ وَالرَّحِيمِ:

الْمَغْفِرَةُ سَبَبٌ لِحُلُولِ الرَّحْمَةِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ تُناسِبُ أن يكون مَعْنَى ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ﴾ تقريرَ ما عقدُوهُ من ذلك في الجاهليَّة، فالمَغْفِرةُ للتَّجاوز عنِ الاستمرارِ عَلَيْه، وأمَّا الرَّحمة؛ فَلِبَيَانِ سببِ ذلك التَّجاوز[2]، أو لبيانِ أثرِ المغفرةِ على القول بأن المغفرةَ هي سببُ الرَّحمةِ، كما قال اللّه تعالى: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦﴾ [النمل: 46]، مع ما تَضمَّنَتْهُ الجملةُ مِنْ تأكيدِ الخَبَرِ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّةُ مُلَاءَمَةِ خِتَامِ الْآيَاتِ لِسِيَاقَاتِهَا

قال اللّه تعالى هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾، وقال في آيةٍ أخرى منَ السُّورة نفسِها: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٩٦﴾ [النّساء: 96]، ووجه التَّفريق بينهمَا: أنَّ الآية الأولى ساقَتِ المحرَّماتِ بدءًا بالأُمِّ وانتهاءً بالنّهي عن الجمع بين الأختين، فقال سُبحانه: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾، فلمَّا أُريدَ تعليلُ هذا الحكمِ وتقويةُ مضمونِه لدَى المخاطَبين؛ ناسبه فصلُ الجملةِ وتأكيدُها بـ ﴿إِنَّ﴾ فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

بخلاف الآيةِ الأخرى؛ فقد جاء قبلَها قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٩٥﴾ [النّساء: 95]، فلمَّا كان المتحدَّثُ عنه هو اللّه تعالى، وأُريدَ الجمعُ بين الأخبار، وكان السِّياقُ خاصًّا بالمؤمنينَ؛ ناسبَه الوصلُ بالواو، وتَركُ تأكيدِه، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٩٦﴾ [النّساء: 96][3].

(1) الزّايديّ، صيغ العموم وأنواعه، ص: 220.

(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 3/401، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1636.

(3) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 365.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّحريم والنَّهي:

التحريمُ: هو الحَظْرُ، وَشَيْءٌ مُحَرَّمٌ أَيْ مَحْظُورٌ، وَأَصْلُ التَّحْرِيم: المَنْعُ، يُقَالُ: حَرَّمَ الشَّيْءَ أَيْ مَنَعَ مِنْهُ وَلَمْ يُجِزْهُ، وَضِدُّهُ الإِبَاحَةُ وَالإِذْنُ وَالجَوَازُ، ويكون التَّحريمُ إمَّا بتسخير إلهيٍّ، وإمَّا بشريٍّ، وإمَّا بمنع قهريٍّ، وإمَّا بمنعٍ من جهة العقل، أو من جهة الشَّرع، أو من جهة من يُرْتَسم أمره، وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النّساء: 23]، هذا مُحرَّمٌ على المسلمين بحُكم شرعيٍّ مقتضٍ طلبَ تركِ الفعلِ جزماً[1].

وأمَّا النَّهي فهو الكَفُّ وَالزَّجْرُ وَالمَنْعُ، وَمِنْهُ النُّهْيَةُ وَهِيَ العَقْلُ؛ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ صَاحِبَهُ مِنَ القَبِيحِ، وَأَصْلُ النَّهْيِ مِنَ الانْتِهَاءِ وَهُوَ التَّوَقُّفُ عِنْدَ حَدٍّ مَعْلُومٍ، وَضِدُّهُ: الأَمْرُ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾، والنهيُ من حيث المعنى لا فرقَ بين أن يكونَ بالقول أو بغيره، وما كان بالقول فلا فرق بين أن يكون بلفظة (افعل)، نحو: اجتنب كذا، أو بلفظة (لا تفعل)، وكذلك النهيُ لا فرق بكونه بالقول ممَّن هو دونه، ويطلق على طلب ترك الفعل مطلقاً سواء كان من الأعلى للأدنى، أم بالعكس[2].

لذا ناسب التعبيرُ في سياق الآية الكريمة بلفظ"التحريم"؛ لما يتضمَّنه من ترك العلاقة بين الرجل والمرأة - في المحرَّمات من النِّساء - على وجه الجَزْم والقطع.

(سَلَفَ) و(مَضَى):

السَّلَفُ: المُتقدِّم، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزّخرف: 56]، أي: مُعتبرًا مُتقدَّمًا، وكذا قوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، أي: ما تقدّم من فعلكم؛ فذلك مُتجافَى عنه.

المُضِيُّ والمَضاءُ: النَّفاذ، ويُقال ذلك في الأعيان والأحداث، قال تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾ [الزّخرف: 8]، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال: 38][3].

وناسب التعبيرُ في السياق المبارك بـ (سَلَفَ) لمقام النَّهي عن عادةِ نكاح هؤلاء

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات: (حرم)، والطوفي، شرح مختصر الروضة: 1/262.

(2) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، الرّاغب، المفردات: (نهي)، والسمعاني، قواطع الأدلة: 1/251.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مضي)، (سلف)، والرّاغب، المفردات: (سلف)، (مضي).

المحرَّمات من النساء؛ إذ كان هذا العمل ممتدًّا في أيام الجاهلية وفاشياً فيها، وقد دأب عليه الماضون منهم الآباءُ، ومن كان قبلهم.

الغفور والغفَّار:

الغَفور من أسماء الله الحسنى، وهو: الَّذي يستر ذنوب عباده، ويتجاوز عنها، ويَقِيهم آثامَها بالعفو عنها، وهو بمعنى اسمه (الغَفَّار)، لكنَّه يُنبئ عن نوعٍ مبالغة لا يُنبئ عنها (الغَفَّار)؛ فالفعولُ يُنبئ عن جَودَة الفعل، وكماله، وشموله، فهو بمعنى تامِّ المغفرة.

فالفرق بينه وبينَ (الغَفَّار) أنَّ المبالغة فيه من جهة الكيفيَّة، وفي الغَفَّار باعتبار الكميَّة[1].

الرَّحمن والرَّحيم:

لا يُطلق الرَّحمَنُ إلَّا على الله تعالى من حيثُ إنَّ معناه لا يَصِحُّ إلَّا له؛ إذ هو الَّذي وسع كلَّ شيءٍ رَحمَةً، والرَّحيمُ يُستعمل فيه سبحانه وفي غيره؛ وهو الَّذي كثرت رحمته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٨٢﴾ [البقرة: 182]، وقال في صفة النَّبيِّ ﷺ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨﴾ [التَّوبة: 128]، وقيل: إنَّ الله تعالى هو رحمنُ الدُّنيا، ورحيمُ الآخرة، وذلك أنَّ إحسانه في الدُّنيا يعمُّ المؤمنين والكافرين، وفي الآخرة يختصُّ بالمؤمنين، وعلى هذا قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 156]؛ تنبيهًا أنَّها في الدُّنيا عامَّة للمُؤمنين والكافرين، وفي الآخرة مختصَّة بالمؤمنين[2].

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 5/411.
(2) الراغب، المفردات: (رحم)، وتفسير الرّاغب: 1/51.

المحتويات